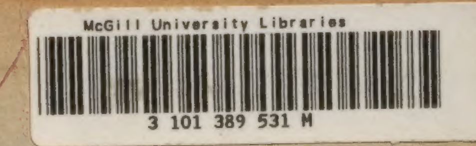
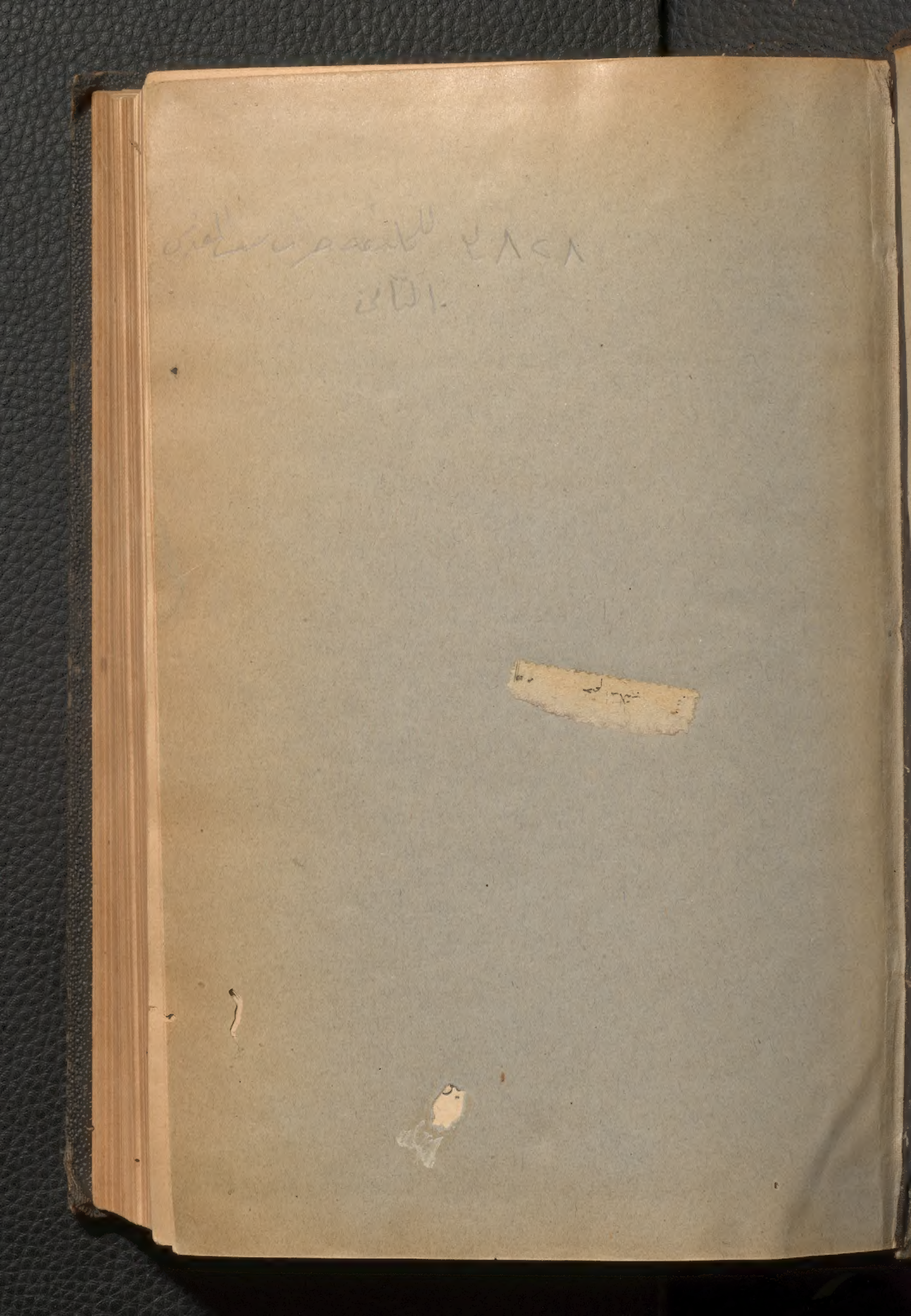
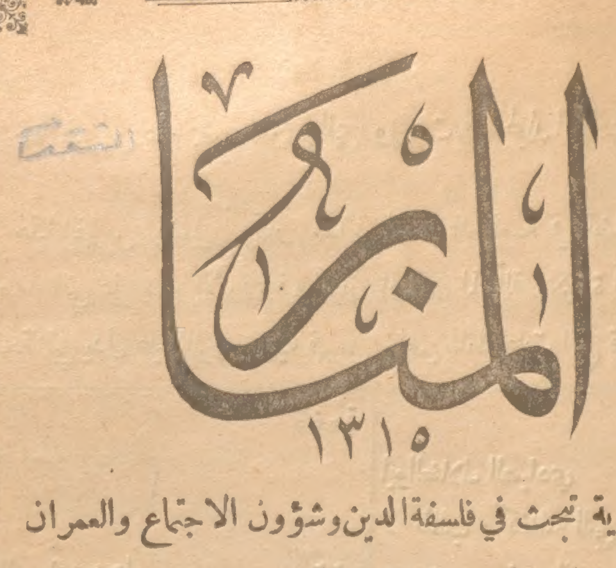

McGill University Libraries
3101389531M



eh68





١٣١٥

مجلة شهرية تبحث في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والعمران

« تصدر في كل شهر عربي مرة »

لمنشئها

السيد محمد رشيد رضا

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي « المنار بمصر »

المجلد الحادي عشر

سنة ١٣٢٦

قيمة الاشتراك عن سنة ستون قرشاً صاغاً في مصر والسودان وفي الخارج ١٨ فرنكاً و١٥ شلناً في الهند و٧ روابل في روسيا والدفع سلفا

(طبع بمطبعة المنار بشارع درب الجماميز بمصر)

فهرس عام لجميع المواد التي وردت في المجلد الحادي عشر

هذا الفهرس يشمل أكثر المسائل المهمة الواقعة في تضاعيف الكلام . والاصفار التي على يسار الأرقام فيه تشير إلى ان المسألة مكررة أولها تتمة فيما بعد الصفحة التي يدل عليها الرقم . ويليه فهرس خاص بالمطبوعات التي قرظت في هذا العام

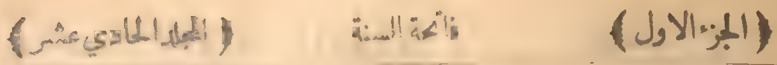
ع

فهرس المطبوعات الجديدة

« التي قرظت في هذا المجلد »

الكتب والدواوين والرسائل والقصص

﴿ المجلات والجرائد ﴾





قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

(مصر — الثلاثاء — سلخ المحرم ١٣٢٦ — ٣ مارس (آدار) سنة ١٩٠٨)

فاتحة السنة الحادية عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل الكتاب ، تبصرة وذكرى لأولي الالباب ، والصلاة والسلام على نبي الرحمة ، الذي بعث في الاميين ليعلمهم الكتاب والحكمة ، محمد النبي الامي ، العربي الحجازي ، وعلى آله وأصحابه خير الآل والاصحاب ، ومن تبعهم واهتدى بهديهم الى يوم المآب ، ١٣ : ٢٩ الذين آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طوبى لهُمْ وَحُسْنُ مآبٍ *

أما بعد فان المنار بحمد الله وعنايته ، وتوفيقه وهدايته ، قد أتم عشر

سنين كاملة ، وتجاوز الاعداد المفردة الى الاعداد المركبة ، وهو في نمو طبيعي ، وارتقاء تدريجي ، لم تظفر به مساعدة الكبراء ، كما ظفرت بكثير من العاملين ، ولم تظفر به مكايدة الرؤساء ، كما ظفرت ببعض المصلحين ، بل سار لطيته على استقلاله ، في جميع أعوامه وأحواله ، سلاحه تحرّي الحق ، وعدته التزام الصدق ، وجُنته الاخلاص لله ، وحصنه تقوى الله باتباع سنن الله ، ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ، جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾

جاهد في سبيل الاصلاح بقدر الامكان ، وما تقتضيه حال الزمان والمكان ، فهاجمته السياسة بدسائسها فنالت من قريبه وصديقه ، ولكنها لم تزحزحه عن طريقه ، وواثبته الخرافات بوساوسها فحالت دون سرعة انتشاره ، ولكنها لم تقو على صد تياره ، وصادمته التقاليد بهواجسها ، فصدت الكثيرين من متقلديها عنه ، ولكنها لم تنل منه ، بل عزّ هؤلاء وأولئك في الخطاب ، ٣٨ : ١١ ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾

نعم قد انهزم من أمامه الدجالون فلا يجدون قوة ولا حولا ، وانهزم كذلك المقلدون فلا يرجعون اليه قولا ، وأنى للمتوكىء على عكاز القال والقيل ، ان ينافح منتضي سيف الدليل ، تحت لواء السنة والتنزيل ؟! الا انهم لا يصدونه بل يصدون عنه ، ولا يقولون له ولكن يقولون فيه ، وكذلك كان يقول المقلدون ، اذ دعوا الى غير ما كانوا يعتقدون ، ٣٨ : ٥ ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ — ٧ ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ *

الحق أبلج، لا يخيل سبيله، ولا تخفى على الناظر البصير غرته وحجوله، فلا يضره ضعف الداعي وغربته، اذا قويت عارضته وعرفت حقيقته، والباطل لجلج، وان كثر قبيله، ودعمت فروعه واصوله، فلا تنفعه قوة الداعي وعصبته، اذا ضعفت مريرته ودحضت حجته، وانما يثبت المقلدون، حيث لا يوجد المستدلون، ويسود المتواكلون، ما سكت عن معارضتهم المستقلون ٣٩: ٩ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذينَ يعلمون والذين لا يعلمون إنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُو الألْبَابِ *

لا خوف على الحق الا من الاستبداد، بمنع حرية العلم والارشاد، فالحق لا يوجد الا حيث توجد الحرية والاستقلال، وتظهر آثار مواهب الناس في الاقوال والاعمال، لهذا لا نخاف على دعوة الاصلاح في هذه البلاد، أو تعود اليها سلطة الاستبداد، نعم ان سيره قد يسرع وقد يبطئ، وان الداعي اليه يصيب في رميه ويخطئ، ولكنه يستفيد من الخطإ كما يستفيد من الاصابة، وقد يزداد مضاء في الرفض والاجابة، حتى يعمل الاستعداد للاصلاح عمله، ويبلغ الكتاب أجله (١٣ : ٢٨ لِكُلِّ اجلٍ كِتابٌ ٣٩ يَمْحُو اللهُ مَا يَشاء ويُثْبِتُ وعنده أمُّ الكتاب ٤٠ وإمَّا نُرِيَنَّكَ بعضَ الذي نَعِدُهُمْ أوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فإنَّما عليكَ البَلاغُ وعلينا الحِسابُ *

ان للاسلام ثلاث مظاهر أو مراتب — التقليد وعليه أكثر المسلمين المتقدمين، والبصيرة وعليها نفر من العلماء المحققين، والجنسية وهي تشمل حتى المارقين من المتفرنجين، وقد هوجم أولا في تقاليده لتحويل العامة عنه، وهوجم في كتابه وسنته لزلزال الخاصة فيه، وهوجم في جنسيته لحل رابطة المعتصمين به،

على انه لا يخشى عليه من مهاجمة الاجانب عنه ، وانما يخشى عليه من مهاجمة الذين يعدون منه ، فالمتفرنجون منهم يفتنون العامة عن تقاليدهم باسم المدنية ، وشُبَه العلوم والفنون العصرية ، ويحلون جنسيتهم الاسلامية ، بدعوتهم الى الجنسية الوطنية ، وهم لا يتهمون في ذلك بالايقاع بالدين ، لأنهم يأتون العامة عن اليمين ، ويدعون الي مايدعون ، معتقدين انهم مصلحون ، فتعيَّن على أهل البصيرة والعرفان ، ان ينافحوا عن هذا الدين بالبرهان ، واقفين عند حدود السنة والقرآن ، فان كلا من مسلمي التقليد والجنسية ، يعترفون بأن مرتبة البصيرة هي المرتبة العلية ١٣ : ١٨ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هو أَعْمَى ؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ *

ألا وان من المحال حفظ تقاليد المقلدين ، من غارة اخوانهم المتفرنجين ، فانها من قبيل العادات ، التي يعروها (كما نشاهد) المحو والاثبات ، ألا وان مصارعة الجنسية الوطنية ، للجنسية الاسلامية ، مجهولة العواقب ، الا حيث يساعدها الحكام مع الاجانب ، فهنالك يرجح ان تكون آية الوطنية هي المرفوعة ، والراية الاسلامية هي الموضوعة ، ويتبع ذلك سرعة تسلل العوام ، من هذه التقاليد المعزوة الى الاسلام ، ويعود الاسلام في مثل هذه البلاد غريبا كما بدا ، لان أهل البصيرة هم الاقلون عددا ، والاضعفون ساعدا وعضدا ، اذا غلبوا بالبرهان ، يُغلبون بالسلطان ، فهم إما مضطهدون جهرا ، وإما مهددون سرا ، على انهم لا يقنطون من رحمة الله ، ولا ييأسون من روح الله ٣٩ : ١٠ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ ، إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ *

ها انا ذا أقول على رءوس الاشهاد، ان طالب الاصلاح الديني مهدد حتى في هذه البلاد ، ورب مقاومة خفية، شر من صدمة علنية ، ورب اصطدام أحدث ظهورا ، خير من اهمال أوجب فتورا ، (٢:٢١٦ وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم ،) فما ظهر حق الا بعد اضطهاد، ولا خذل باطل الا بعد عناد ، فلا يغررك تقلب الظالمين في البلاد ، ٣٩ : ٢١ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرّاً ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الأَلْبابِ *

فيا أيها الكائدون الظالمون، انما كيدكم على ملتكم ان كنتم تعقلون ، ويا أيها المقلدون الجامدون ، ان تقاليدكم تحول عنكم تحول الظل وأنتم لا تشعرون ، ويا أيها العابثون بالجنسية انكم لبنائكم تهدمون ، وتبنون لغيركم من حيث لا تعلمون ، ويا أيها المصلحون المستبصرون، اصبروا وصابروا واتقوا الله لعلكم تفلحون ، ٣ : ١٠٢ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون ١٠٣ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كُنْتُمْ أعداءً فألّفَ بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ١٠٤ ولتكُنْ منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون * لا تفرقنكم عوامل المدنية فان دينكم عون لكم عليها ان كنتم تفقهون ، ولا تفتننكم سلطة الامم الاوربية فتقلدوها فيما لا تعلمون ، فان روح المدنية والسلطة هو الدين والآداب ،

وقد انم الله عليكم من ذلك باكمل مما انعم به على أهل الـكتاب ، ٢ : ٢٠٠ فَمِنَ الناس مَن يقول ربّنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خَلاَق ٢٠١ ومنهم مَنْ يقولُ رَبّنا آتنا في الدنيا حسَنَةً وفي الآخرة حسنةً وَقِنا عذاب النار ٢٠٢ اولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريعُ الحساب *

ان الفساد قد طرأ على جسم هذه الامة من زمن بعيد ، فهو يحتاج الى تكوين جديد، ومن المبشرات ان نرى المسلمين، قد تنبهوا الى الحاجة الى هذا التكوين ، ولكن اختلفت فيه الآراء ، وعبثت به الاهواء ، ولا زعيم يرجع اليه، ولا امام يقتدى به ، وما على طلاب الاصلاح الآن ، الا اقامة الحجة والبرهان ، وتربية استعداد الامة ، الى ان ينهض زعيم من الأئمة ، ولا بد من مسالمة الفرق والاحزاب ، واحاطة استقلال الرأي بسياج الآداب ، ٣٩ : ٨ فَبَشِّرْ عِبَادِي الذينَ يستَمِعُون القَولَ فيَتّبعُونَ أحْسنَهُ اولئك الذين هداهمُ اللهُ واولئك هم أُولو الالبابِ *

منشيء المنار ومحرره
محمد رشيد رضا الحسيني

الدعوة الى انتقاد المنار

انا نكرر الدعوة الى انتقاد المنار في كل عام ونعد بنشر ما ينتقد به على ما ننشر من المسائل الدينية والعلمية لعدة أمور

(١) اننا نتحرى في كل ما نكتب الحق والارشاد الى الخير ونعتقد اننا عرضة للخطأ مهما بذلنا من الجهد في تحري الاصابة فغرضنا الاول من دعوة العلماء الى انتقاد ما نكتبه هو تكميل نفسنا ومساعدتنا على ما نتوخاه من الارشاد

(٢) حرصنا على تكميل غيرنا من قراء المنار بما نحب ان نكمل به نفسنا من معرفة الحق والخير والمصلحة وكراهة ان يعلق ما عسى ان نقع فيه من الخطأ بنفس بعض القراء فلا يجدوا عنه مصرفا

(٣) اقامة فريضتي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فان كثيراً من أهل العلم يعتذرون عن تركهم لذلك بأن الناس لا يقبلون أمراً ولا نهياً بل يعادون من ينصح لهم ويرشدهم الى الحق وربما آذوه بالقول او الفعل فها نحن أولاء نؤمنهم من العداء والايذاء ونعدهم بقبول النصح والارشاد

(٤) فتح باب المناظرة التي تعلم كل واحد من المتناظرين ما لم يكن يعلم وتدفعه الى بذل الجهد والعناية في استكناه الحقائق والاحاطة بأطراف المسائل وترك الحكم للقراء

(٥) قطع ألسنة أهل الدعوى ، والمتبعين للهوى ، الذين يقولون هذا حق وهذا باطل ، وهذا حلال وهذا حرام ، وفلان مخطئ او ضال ، أو نافع او ضار ، وهم على غير بينة فيما يقولون ، أو على غير اخلاص فيما به يحكمون ، فالمنار يقول لمن يخوض فيه منهم ان كنتم تقولون الحق فأبرزوه للقارئين ، وهاتوا برهانكم ان صادقين ، والا فانتم بأكل لحم أخيكم بالغيبة ، وبحسدكم الذي زين لكم هذه الوقعة ، تقولون ما لا تعملون ، أو تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وانتم تعلمون ،

هذا واننا نشترط على المنتقد الذي نعد بنشر انتقاده أن يوجه انتقاده الى ما كتبنا من المسائل العلمية دينية أو غير دينية مبينا موضع المسألة من المنار بأن يقول ذكرتم في صفحة كذا من مجلد كذا ما هو كيت وكيت

وهو خطأ: ويبين ذلك بالدليل. ولا نعد بنشر الانتقاد المبهم «نحوانتم تقولون كذا» مما لعلنا لم نقله ولم يخطر ببالنا وانما جاءه من وقيعة بعض الكاذبين او من سوء الفهم - ولا الانتقاد الغفل من الدليل - ولا ما كان موجها الى الاعمال الادارية أو الشخصية أو اختيار المباحث والمسائل أو أسلوب الكتابة. فكل هذا مما نترك لنفسنا الخيار فيه، مع الشكر عليه، لان فائدته في الغالب خاصة بنا وعدم العلم بها لا يضر القراء شيئاً

شرط الاشتراك

(١) كل من قبل الجزء الأول من مشتركي المنار السابقين يعد مشتركا فيه الى آخر السنة ويجب عليه دفع ستين قرشاً ان كان من مصر أو السودان وثمانية عشر فرنكا ان كان من سائر الاقطار وان ردّ المجلة في أثناء السنة لان ضياع بعض أجزاء السنة علينا كضياع جميعها .

(٢) يجب على من يطلب الاشتراك ان يرسل القيمة سلفاً وان يكون اشتراكه من أول السنة (المحرم) أو من منتصفها (رجب)

(٣) اذا لم يصل الى المشترك أحد الاجزاء فان الادارة ترسله اليه بغير ثمن اذا هو طلبه في مدة لا تتجاوز شهراً واحداً من موعد وصوله اليه في بلده . واذا طلبه بعد ذلك كان عليه ان يرسل ثمنه كمن فقد الجزء وطلب بدله وثمن الجزء الواحد ستة قروش مصرية

﴿ تنبيه ﴾

لم ننشر في هذا الجزء شيئاً من التفسير لسبب عارض

القرآن ونجاح دعوة النبي

عليه الصلاة والسلام

وآراء علماء أوربا في ذلك

ألف القسيسون وأعوانهم من المتعصبين للنصرانية كتبا كثيرة في القرون المتوسطة يمثلون بها الاسلام في أقبح صورة ينتزعها خيال الكاتب منهم على حسب تمكنه في الكذب والبهتان ولما ارتقت العلوم والفنون في اوربا وضعف التعصب الأعمى على المخالف بقدر ذلك كثر الباحثون من علماء الافرنج في شؤون الشرق بالانصاف فتغير لذلك اعتقادهم في الاسلام والمسلمين وألفوا في بيان مزايا هذا الدين التي كانت مجهولة وفضائل أهله التي كانت مهضومه كتبا كثيرة . ومن هؤلاء المؤلفين البرنس كايتاني الإيطالي فإنه ألف كتاباً في تاريخ الاسلام يقال انه كتبه بحرية وانصاف بحسب ما وصل اليه علمه . وقد زار مصر في هذا الشتاء فاحتفى به نادي المدارس العليا واكرم مثواه واثنت عليه جرائد المسلمين ثناء حسناً . وقد ترجم المؤيد في أوائل هذا الشهر تقريظ جريدة التيمس لتاريخ البرنس كايتاني ومنه هذه العبارة :

« ومن رأي المؤلف على إعجابه الفائق بصاحب الشريعة الاسلامية ان مزية النبي هي كفاءته العجيبة كسياسي محنك اكثر منه كنبي موحى اليه . ويؤيد قوله بدليل سبق إهماله حتى الآن وهو ان حنكته وحسن

سياسته افادا في تأييد سلطته اكثر من إفادة القرآن او أي حمية دينية» اه نص ترجمة المؤيد لعبارة التيمس

وهذا الذي قاله كايتاني هو اعتقاد الافرنج العارفين بنشأة الاسلام، وسيرة النبي عليه الصلاة والسلام، أي انهم يعتقدون ان النبي (ص) قام بما قام به بحنكته وسياسته، لا بتاييد الله تعالى له بوحيه وعنايته، ولو لا هذا لما كان لهم مندوحة عن الدخول في الاسلام، ومثل الافرنج في هذا الرأي كل من لا يدين بالاسلام من علماء الشرق. فدعوى ان نجاح النبي (ص) كان بسياسته وحنكته أي تجاربه هي أكبر شبههم على الاسلام

ومن الشواهد على ذلك من كلام علماء بلادنا غير المسلمين الاسطر والابيات الآتية التي كتبها الي الدكتور شبلي شميل الفيلسوف المشهور بعدم التدين. حمله عليها قراءة المنار وهي:

« الى غزالي عصره السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار

« انت تنظر الى محمد كنبي وتجعله عظيما وانا أنظر اليه كرجل واجعله أعظم، ونحن وان كنا في الاعتقاد (الدين او المبدأ الديني) على طرفي نقيض فالجامع بيننا العقل الواسع والاخلاص في القول وذلك أوثق بيننا لعرى المودة   من صديقك الدكتور شميل

(الحق اولى أن يقال)

دع من محمد في سدى قرآنه   ما قد نحاه للحمة الغايات (١)

«١» يريد بالغايات معناها اللغوي وهي المقاصد يعني الدينية ويعني بالامر بتركها تركه البحث فيها أي انه يبحث في القرآن من حيث هو كتاب اجتماعي لا من حيث هو كتاب ديني كما قال لنا مشافهة

اني وان اك قد كفرت بدينه هل اكفرنّ بمحكم الآيات
اوما حوت في اصح الالفاظ من حكم روادع للهوى وعظات
وشرائع لو أنهم عقلوا بها ما قيدوا العمران بالعادات
نعم المدبر والحكيم وانه رب الفصاحة مصطفى الكلمات
رجل الحجا رجل السياسة والدها بطل (٢) حليف النصر في الغارات
ببلاغة القرآن قد خلب النهى وبسيفه أنحى على الهامات
من دونه الابطال في كل الورى من سابق او لاحق او آت

* * *

(المنار) كتب الدكتور الي بهذا لا لينشر بل ليقرأ على انه خواطر جاشت في صدره ثم بعد ان نشر المؤيد مانشره عن التيمس ورددت عليه في الجريدة استأذنت الدكتور بنشر ما كتبه فاذن وهو كما يرى القارئ اكثر من البرنس كايتاني تعظيما للنبي صلى الله عليه وسلم وكذا للقرآن الحكيم الذي لم يدرك البرنس كايتاني تأثيره لانه لا يفهمه كالدكتور شميل. ونحن - على كوننا نشكر لشميل ما اعترف به من مزايا نبينا وكتابنا ونسأل الله ان يهديه للباقي منها وهو المهم الاعظم - لا نقول انه اعترف بنبوته ولا بحقية كون كتابه الهيا. وننكر عليه اشد الانكار قوله ان النبي صلى الله عليه وسلم من حيث كونه رجلا أعظم منه من حيث كونه نبيا على انهم لا يعنون بمثل هذا التعبير الذي قاله شميل وكايتاني انه نبي وسياسي وان نبوته اقوى من سياسته بل يعنون انه نجح بسياسته لا بنبوته التي ادعاها ولكن المؤيد غفل عن هذا وادعى ان ماقاله كايتاني حق ولو كان حقا لكان هو وجميع علماء أوروبا وعلماء اهل الكتاب والوثنيين العارفين

بتاريخ الاسلام كلهم على الحق واستلزم ذلك كون المسلمين على غير الحق فيما يتعلق بأصل دينهم لانهم يقولون بخلاف هذا القول ! !

نبهت « الجريدة » المؤيد الى هـذه الهفوة وقالت ان ماترجمه عن التيمس من قول كايتاني كفر ما كان لصاحب جريدة تفتخر بأنها اسلامية ان ينقله ويقره . فرد عليها صاحب المؤيد بقوله الآتي نقلا عن عدده الذي صدر في ٣ المحرم والعنوان منا فقط :

رأي المؤيد في القرآن

«أما نحن فنقول للجريدة . اننا نقلنا عبارة البرنس كايتاني عن التيمس ونحن نعتقد انها ليست كفرا فلا نلام اذا لم نرد عليها وأما الجريدة فقد نقلتها وهي تعتقدها كفرا ولم ترد عليها فهي المقصرة والملومة

«ان غرض البرنس كايتاني من عبارته ظاهر وهو الاعجاب باخلاق النبي صلى الله عليه وسلم واعتبارها فوق كل قوة دينية أخرى كانت له . والله تعالى يقول في كتابه الكريم «وانك لعلى خلق عظيم» فلم يرد البرنس كايتاني بقوله هذا حطا من شرف الدين الاسلامي ولا تحقيرا للقرآن الكريم وماذا يفعل القرآن وحده اذا كان الداعي به على اخلاق غير الاخلاق العالية التي اشتهرت عن النبي صلى الله عليه وسلم : بل القرآن نفسه يقول « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » فجعل مناط قوة ارتباط المؤمنين به والتفافهم حوله وانتصارهم له وفدائهم اياه بالنفس والمال سلامة أخلاقه من العيوب المنفرة . فلو كان فظا غليظ القلب ما نفعه قرآن ولا حمية دينية . وهذا كلام يقوله كل مسلم يعقل ويعرف . اهو الاسلام الذي

جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وروحه الاخلاق الشريفه التي أعجب بها البرنس كايتاني

«وليس المقام مقام مقارنة بين القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم وأيهما أفضل لان هذا لا يؤخذ من عبارة البرنس كايتاني ولا هو غرض مؤرخ كبير كهذا بل هذه المباحث العقيمة الآن تليق بجريدة مثل «الجريدة» لا يذوق محررها طعما لكلام مؤلف ولا يعرف وزناً لقيمة رأي مؤرخ

«أليس القرآن بيننا الآن كما هو بين المسلمين منذ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم حتى الآن ؟ فهل يستطيع مسلم ان يقول ان قوة الاسلام الحقيقية كانت في عهد مثلها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم . وهل لذلك سبب سوى الاخلاق العالية التي وهبها الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم وهل اخلاقه الفائقة الا موهوبة من عند الله وهي معجزة من معجزاته فهل يكون كافراً بالله من قال ان قوة هذه المعجزة بخصوصها كان لها دخل في فتوحات الاسلام على عهد النبي صلى الله عليه وسلم اكثر من كل معجزة دينية أخرى

ان للقرآن الكريم وظيفة أخرى لا يشاركه فيها مشارك وهي كونه شريعة الهية جمعت بين مصالح الدين والدنيا ففاق بهذه المزية كل الكتب الالهية الاخرى كما فاقها في الاسلوب والبيان فهل ينقص من فضل القرآن ومزيته ان يقال ان أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم كانت فوقه تأثيرا في فتوحاته وبسطة سلطانه

« هذا ما أردنا بيانه و نترك للجريدة المشاغبة واللغط والوثوب من خطأ الى غلط » اه كلام المؤيد

(المنار) ان المؤيد جرى في الرد على الجريدة في هذه المسألة على طريقة المراء المعتاد في المناقشات السياسية فحرف كلام كايتاني عن موضعه وجعله من باب الاعجاب بالاخلاق التى أكرم الله بها نبيه وتفضيل تأثيرها على تأثير القرآن وانما كلام كايتاني في غير ذلك اذ زعم ان جل نجاح النبي (ص) أوكله بسياسته وحنكته أي تجاربه - لا اخلاقه الموهوبة من الله - كما قال فيه الدكتور شميل انه رب السياسة والدهاء . وكان للمؤيد مندوحة عن تأييد شبهة كايتاني وتقويتها بأن يقول للجريدة انه سكت عليها لانه لا يطالب غير المسلم بأن يقول في الاسلام أكثر من ذلك مع العلم بأن المسلمين لا يأخذون عقيدتهم عن مؤرخ نصراني . ولكنه لم يوفق لذلك فاضطررنا الى كشف الشبهة بالمقالة الآتية في الجريدة

رد شبهة المؤيد على القرآن (*

يقول المنكرون لنبوة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام سواء كانوا من الأوربيين أو غيرهم انما تم على يديه من جمع كلمة العرب وكذا وكذا مما هو ثابت في التاريخ انما كان بالدهاء والسياسة وسمو الافكار وعلو الاخلاق الذي يكون عادة لكثير من الرجال كالبرنس بسمارك ونابليون الاول . وان ما ادعاه من النبوة وما جاء به من القرآن لا تأثير لها في نفسهما وانما التأثير له هو بنفسه وبهما لانه استخدمها في تنفيذ

*) كتبنا هذه المقالة في ادارة الجريدة على عجل ولم يكن في يدنا مصحف نراجع فيه عدد السور والآيات للشواهد التي أوردناها فيها فوضعنا الاعداد الآن ولم نزد في المقالة شيئاً سواها بل نقلت عن الجريدة بحروفها

سياسته (١٨ : ٥ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا)

ويعتقد المسلمون ان النبي (صلى الله عليه وسلم) بشر كسائر البشر لا يمتاز على غيره الا بالنبوة وما تستلزمه كما هو نص قوله تعالى (١٨ : ١١٠ قل انما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ) الآية . وقوله تعالى (١٢ : ١٠٩ و١٦ : ٤٣ و٢١ : ٧ وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم)

ويعتقدون ان النبي صلى الله عليه وسلم قضى سن الشباب وبلغ الأربعين ولم يعمل عملا اجتماعياً ولا سياسياً وان ماتم على يديه بعد ذلك انما كان بالنبوة التي اختصه الله بها وبالقرآن الذي أوحاه اليه فكان روحا أحياه به حياة جديدة وأحيا به من اتبعه فكان اهتداء الجميع بالقرآن لا بتأثير صفات النبي الشخصية كما قال تعالى (٤٢ : ٥٢ وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا) فالله تعالى هو الذي هدى المؤمنين بكتابه ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي هداهم بصفاته البشرية وكفاءته الشخصية ولذلك أنزل الله عليه قوله (٢٨ : ٥٦ انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) وقوله (٨ : ٦٣ لو أنفقت مافي الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم)

بل يعتقد المسلمون ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يرتقي في أفكاره وأخلاقه بالقرآن نفسه فكلما أنزل الله عليه شيئاً منه ازداد كمالا به ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها لمن سألها عن أخلاقه كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن رواه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده وغيرهما ومما هداه الله تعالى اليه بكتابه مشاورة أصحابه في الامر فكان

يستشيرهم ويعمل برأي الجمهور وان خالف رأيه كما فعل في غزوة أحـد وكانوا يسألونه اذا أشار بأمر هل هو وحي فيطاع بلا بحث ولا تردد أم هو الرأي ليذكروا ما عندهم فاذا قال هو الرأي ذكروا ماعندهم كما كان يوم بدر وقد ترك صلى الله عليه وسلم رأيه الى رأيهم

فمن هذه العجالة يعلم ان القرآن هو الاصل في هداية الرسول صلى الله عليه وسلم وهداية أصحابه عليهم الرضوان الى كل ماتم على يديه وأيديهم معه وبعده مما أدهش التاريخ اذلم يجد له نظيراً. ولوشئنا لأتينا بأكثر مما أتينا به من الشواهد على ذلك من الآيات والأحاديث ووقائع السيرة النبوية وتاريخ الراشدين ولكن ماجئنا به كاف في التذكير بما يؤمن به كل مسلم

هذا هو اعتقادنا نحن المسلمين وذلك الذي ذكرنا في أول المقال هو اعتقاد من ينكر صحة ديننا ونبوة نبينا (صلى الله عليه وسلم) ويزعمون ان الاسلام وما فيه من المزايا وما تم له من النجاح كان منشؤه سياسة النبي صلى الله عليه وسلم وحنكته كما يعهد من الرجال العظام عادة ؟

وقد نقل المؤيد في يوم الاحد الماضي عن جريدة التيمس عبارة للبرنس كايتاني الايطالي مؤلف تاريخ الاسلام في ذلك الاعتقاد الذي يراد به هدم الاسلام وهي « ومن رأي المؤلف على اعجابه الفائق بصاحب الشريعة الاسلامية ان مزية النبي هي في كفاءته العجيبة كسياسي محنك اكثر منه كنبي موحى اليه . ويؤيد قوله بدليل سبق اهماله حتى الآن وهوان حنكته وحسن سياسته أفادا في تأييد سلطته أكثر من افادة القرآن وأي حمية دينية »؟

نقل المؤيد هذه العبارة وأقرها فانكرت عليه (الجريدة) ان ينقل الكفر ويقره على نحره بكون جريدته اسلامية وكونه من أبناء الازهر . فبماذا أجاب صاحب المؤيد على هذا الانكار ؟ أجاب بأنه يعتقد ان تلك العبارة (التي تنيط نجاح عمل النبي صلى الله عليه وسلم بالحنكة والسياسة لا بالنبوة) ليست كفراً وبين ذلك بما هو العجب العجاب . قال في العدد الذي صدر أمس (يوم الاربعاء ثالث المحرم) مانصه :

« ان غرض البرنس كايتاني من عبارته ظاهر وهو الاعجاب باخلاق النبي صلى الله عليه وسلم واعتبارها فوق كل قوة دينية أخرى كانت له والله تعالى يقول في كتابه الكريم « وانك لعلى خلق عظيم » فلم يرد البرنس كايتاني بقوله هذا حطا من شرف الدين الاسلامي ولا تحقيراً للقرآن الكريم . وماذا يفعل القرآن وحده اذا كان الداعي به على أخلاق غير الاخلاق العالية التي اشتهرت عن النبي صلى الله عليه وسلم . بل القرآن نفسه يقول « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » فجعل مناط قوة ارتباط المؤمنين به والتفافهم حوله وانتصارهم له وفدائهم اياه بالنفس والمال سلامة أخلاقه من العيوب المنفرة فلو كان فظاً غليظ القلب ما نفعه قرآن ولا حمية دينية . وهذا كلام يقوله كل مسلم يعقل يعرف ما هو الاسلام الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وروحه الاخلاق الشريفة التي أعجب بها البرنس كايتاني »

ونحن نقول له انه لا يوجد مسلم يعقل ويعرف ماهو الاسلام يقول مازعم صاحب المؤيد ان كل مسلم يقوله . وانما يقول كل مسلم ان روح

الاسلام هو القرآن الذي به بلغت أخلاق من أنزل عليه تلك الدرجة العالية كما قالت عائشة وهذه هي العقيدة التي صرح بها القرآن في الآية التي أوردناها آنفا وهي «وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا» ولولا القرآن لما اجتمع حوله صلى الله عليه وسلم أحد ولما فعل شيئا ولما فداه المؤمنون بالنفس المال فقد صرح الله تعالى بأن كل عمل له كان بالقرآن فهل نتبعه أم نتبع كايتاني واضرابه الذي يقولون ان كل ذلك كان بمزاياه الشخصية البشرية

كاد يقع بين الاوس والخزرج العدوان وتصلى نار الحرب لمناظرة وقعت فنزل قوله تعالى (٣ : ١٠٣ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً) الآيات فرجعوا وتابوا وأنابوا . وحبل الله هو القرآن ولم يقل ان سياسة النبي وحنكته وأخلاقه هي التي الفت بين قلوبهم . على ان اخلاقه هي القرآن فهو أصل كل شيء

قال صاحب المؤيد بعد ذلك في الاستدلال على عدم كون القرآن هو منبع قوة المسلمين «أليس القرآن بيننا الآن كما هو بين المسلمين منذ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم حتى الآن ؟ فهل يستطيع مسلم ان يقول ان قوة الاسلام كانت في عهد مثلها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وهل لذلك سبب سوى الاخلاق العالية التي وهبها الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم»

ونقول في دفع هذه الشبهة ان المسلمين كانوا في قوة وعزة ما كانوا عاملين بالقرآن ففي عهده صلى الله عليه وسلم كانوا اشد استمساكا بحبله المتين وعروته الوثقى لا لصفات النبي الشخصية البشرية بل لنبوته وما لها من المزايا وللقدوة به في تمسكه بالقران التي عاتبه الله تعالى على مبالغته فيها بمثل

قوله (٢٠: ١ طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى) ثم كانوا في زمن أبي بكر وعمر مقربة من ذلك ثم صاروا يتدلون بترك القرآن ، ويعتقد كل مسلم عاقل عارف بحقيقة الاسلام انهم اذا عادوا الى الاعتصام به تعود اليهم قوتهم وعزتهم فهم ليسوا حجة على الاسلام (يا صاحب السعادة) بل القرآن حجة عليك وعليهم

فأدعوك الى التوبة والرجوع عما كتبت في تأييد أقوى الشبهات على الاسلام والقرآن والنبوة وأن تعلن توبتك في جريدتك وتصرح بأنك تؤمن بأن القرآن هو روح الاسلام وبوحيه الى النبي صلى الله عليه وسلم وأهتدائه به عمل بعناية الله ما عمل، وبرد قول كايتاني ان حنكته وسياسته أكثر فائدة من القرآن ومن كل حمية دينية حباه الله هو ومن اتبعه اياها» فان ذلك كفر وهدم للاسلام

محمد رشيد رضا
صاحب المنار

وقد أجاب المؤيد عن هذه المقالة بما يأتي بنصه نقلا عن عدد المؤيد الذي صدر في سادس المحرم وهو :

ما عدا مما بدا

قال اللورد كرومر أمس « ان الجامعة الاسلامية تستلزم السعي في القرن العشرين في اعادة مبادئ وضعت منذ ألف سنة هدى لهيئة اجتماعية في حالة الفطرة والسذاجة وهذه المبادئ منها ما يجيز الرق ومنها ما يتضمن سننا وشرائع عن علاقات الرجال والنساء مناقضة لآداب أهل هذا العصر ومنها ما يتضمن أمرا أهم من ذلك كله وهو افراغ

القوانين المدنية والجنائية والملية في قالب واحد لا يقبل تغييرا ولا تحويرا وهذا ما وقف تقدم البلدان التي دان أهلها بدين الاسلام »

وقال البرنس كايتاني اليوم « ان مزية النبي هي في كفاءته العجيبة كسياسي محنك أكثر منه كنبي موحى اليه — ان حنكته وحسن سياسته أفادا في تأييد سلطته أكثر من افادة القرآن أو أية حمية دينية »

فلماذا اتسع صدرنا لعبارة اللورد ورأينا من اللياقة وحسن الادب تأويلها مع انها كادت تكون صريحة في ان الدين الاسلامي دين وضعي- ولم يتسع صدرنا لما قاله البرنس مع ان عبارته تشعر بانه معترف للنبي صلى الله عليه وسلم بانه نبي موحى اليه وان قرآنه مفيد ؟

اذا كانت هناك بواعث حملت الشيخ رشيد؟ على التفرقة بين الاثنين وتشنيع احدى العبارتين - فان الحق الذي لا تتلاعب به البواعث يشهد بان عبارة البرنس لا توجب الاثم ولا التعيير بله التضليل والتكفير !!

بل الانصاف يتقاضانا الثناء على جناب البرنس والاعجاب بحرية ضميره لاعترافه بصدق النبوة كما أشرنا اليه آنفا .

أما كون البرنس جعل التأثير في تأييد سلطة النبي صلى الله عليه وسلم للمزايا التي انطوت عليها نفسه الشريفة أولا ثم للقرآن ثانيا كما هو نص عبارته — فهذا لا يقدح في قوله ولا يجعله من باب الكفر . ثم اذا كان للبرنس رأي خاص في النبي صلى الله عليه وسلم كآراء بعض رجال أوروبا فيه على ما أشار اليه الشيخ رشيد في مقدمة كلامه فهذا لا يلزمنا مناقشته فيه ما دام انه مستور في نفسه بل نراه قد صرح بضده في عبارته حيث قال انه « نبي موحى اليه » فهل لا تكون تلك العبارة قرينة

على ان البرنس ليس على رأي أولئك المنكرين لنبوته صلى الله عليه وسلم

واذا راجعنا ما قاله المفسرون في تفسير آية «ولو كنت فظاغليظ القلب لا نفضوا من حولك» رأيناهم يفسرونها بكلام يأتلف مع ما قاله البرنس كايتاني . فلم تكن عبارة البرنس اذن كفراً بل هي الحقيقة الدينية التي علم بها القرآن الكريم .

«قال الطبري في تفسير هذه الآية احتملت (يا محمد) اذى من نالك منهم اذاه وعفوت عن ذى الجرم منهم جرمه واغضيت عن كثير ممن لو جفوته واغلظت عليه لتركك فيفارقك ولم يتبعك .ولا (أي ولم يتبع) ما بعثت به من الرحمة » فقوله الاخير نص في أن مزايا النبي الذاتية كانت السبب في أن يتبعه العرب ويصدقوا بالقرآن الذي أتى به .وقال الالوسي « لا نفضوا من حولك أي لتفرقوا عنك ونفروا منك ولم يسكنوا اليك وترددوا في مهاوي الردى ولم ينتظم أمر ما بعث به من هدايتهم وارشادهم الى الصراط » فعدم فظاظته وغلاظته اللتين لو كانتا فيه لذهبتا بكفاءته وحنكته وسياسته هو السبب الاول في انتظام أمر بعثته . وقال بعض المفسرين ما هو أصرح من كل ذلك كله قال « وكل واحد من الامرين (أي الفظاظة والغلاظة) لا يليق بمنصب النبوة :لان المقصود من البعثة ان يبلغ الرسول تكاليف الله الى الخلق وذلك لا يتم الا بميل قلوبهم اليه وسكون نفوسهم لديه وهذا لا يتم الا اذا كان رحيما بهم كريما يتجاوز عن ذنوبهم ويعاملهم بالبر والشفقة » فلولا كفاءته الذاتية التي هي عبارة عن مجموع مواهبه ومزاياه وخصاله الكريمة لما تم أمر البعثة فلم يلتفوا حواليه صلى الله عليه وسلم ولم يعوا القرآن الكريم الذي أنزل عليه فالكفاءة اذن

هي العامل الاول في تأييده أو تأييد سلطته الذي أراده البرنس

فهل تكون بعد هذا كله عبارة البرنس كفرا وطعنا في الدين الى حد لا تسعه صدورنا كما وسعت كلام اللورد ويكون المصريون مخطئين في اقامة الاحتفال له واعلان الثناء عليه - أم لا يكون شيء من ذلك وانما للشيخ رشيد حكمة من وراء صنيعه هذا يعلمها هو والواقفون على أطواره. وخفي أسراره اهـ كلام المؤيد

وقد رددناهذا التموية والمغالطة بمقالة أخرى نشرناها في عدد الجريدة الذي صدر في اليوم السابع من المحرم وهي :

جواب المؤيد عن شبهته

﴿ على القرآن ﴾

لا يترك المؤيد شنشنته في الجدال فهو يشاغب ويكابر في أصول الدين وعقائده كما يفعل في المناقشات السياسية والشخصية فقد انكرنا عليه ما كتبه في قيام الاسلام وثبات سلطته وعزوه اياه الى المسلمين وقوله انه اعتقادهم وهو ان السبب الاول والعمدة فيه هو كما يقول البرنس كايتاني سياسة النبي صلى الله عليه وسلم وحنكته أي ما أفادته اياه التجارب. انكرنا عليه هذه الدعوى وبينا له بالآيات البينات أن ذلك كان بما آتاه الله من النبوة وانزل عليه من القرآن

فرد علينا أمس بانا أولنا طعن لورد كرومر في الاسلام فلماذا ننكر على البرنس كايتاني ونشنع عليه ونخطئ المصريين الذين قاموا له بالاحتفال فحاصل جواب الشيخ علي يوسف عما انكرناه عليه هو اننا

فعلنا فيما مضى فعلاً كان يجب علينا ان نعيده الآن واننا شنعنا على البرنس كايتاني وذلك يتضمن تخطئة المصريين الذين احتفلوا به .

ولقد رأى القراء انه ليس في عبارتنا تشنيع على كايتاني واكثر مايفهم من ردنا على صاحب المؤيد ان ماقرره عن البرنس كايتاني مخالف لعقيدة المسلمين في القرآن والنبي عليه الصلاة والسلام وليس هذا بتشنيع عليه لانه ليس بمسلم فيطالب بأن يكون كلامه مطابقاً لاعتقاد المسلمين . واما احتفال المصريين به فلم يأت له ذكر في كلامنا لاتصريحاً ولا تلويحاً وهم لم يحتفلوا به لانه مسلم بل لانه كتب تاريخا صرح فيه باعتقاده من غير تحامل ولا تعصب . وقد صرح لورد كرومر بانتقاده فرأيت كما رأى المؤيد ان كلامه كاد يكون طعنا في أصل الاسلام فكتبت اليه كتابة كان أثرها انه كتب يبرئ القرآن والسنة من الطعن . وقد صرح صاحب المؤيد يومئذ بان ما كتبه لي اللورد هو رجوع عما كتب في تقريره . فانا الآن اطلب من صاحب المؤيد كما طلبت من اللورد تبرئة القرآن مما كتبه فعسى ان لايكون لورد كرومر خيراً منه في الرجوع الى الحق بعد ماتبين له

وغرض صاحب المؤيد مما كتبه ظاهر وسببه بين وهو انه عجز عن رد الحجج التي دمغنا به دعواه في القرآن وصعب عليه الاعتراف بالحق الذي طلبناه به فانتقم منا بتحريض من احتفلوا بالبرنس علينا وهم أعلى فهما وآدابا من ان ينخدعوا بمثل ما كتب . ولم يذكر انكارنا عليه حتى لايدري به من يقرأ المؤيد ولم يكن اطلع على الجريدة يوم الخميس الماضي تلك شنشنته وذلك مبلغه من العلم ولولا انه عاد الى تأييد قوله

الاول - بأن اخلاق النبي صلى الله عليه وسلم فوق كل قوة دينية كانت له أي فوق اصطفاء الله له بالنبوة وتأييده بالقرآن وان العمدة في نفوذه هي السياسة والحنكة - واحتج بقوله تعالى «ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك» لما كتبنا اليوم شيئاً في اعادة دعوته الى التوبة مما كتب والرجوع عنه كتابة في المؤيد

أقمنا الدليل في المقالة الاولى على ماقلنا انه اعتقاد المسلمين وأيدناه بالآيات والاحاديث ومنه ان اخلاق النبي (صلى الله عليه وسلم) العليا وسياسته المثلى مستمدة من القرآن فصرف الشيخ علي نظره عن ذلك وعاد ينقل لنا ماقاله بعض المفسرين في قوله تعالى «ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك» ولم يذكر الآية بتمامها لانها حجة لنا عليه فكان مثله كمثل من استدل على تحريم الصلاة بقوله تعالى «يا أيها الذين امنوا لا تقربوا الصلاة» وسكت عن قوله «وانتم سكارى» الخ

هذا نص الآية (٣: ١٥٩ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين) فهل تدل هذه الآية على ان تلك الاخلاق العالية والمعاملة الحسنة كانت بتأييد الله اياه وتأديبه له بالقرآن كما نعتقد نحن المسلمين أم كانت بسياسته وحنكته أي تجاربه صلى الله عليه وسلم كما يقول الشيخ علي يوسف تأييداً لكلام البرنس كايتاني ؟؟

ألم يصرح جهابذة المفسرين بان قوله تعالى «فبما رحمة» يفيد ان هذا كان برحمة الله وتوفيقه اياه وان تأكيد السببية هنا بلفظ «ما»

يدل على الحصر كما في الكشاف ومعنى هذا انه لم يكن ذلك بكسبه واجتهاده ولا سياسته وتجاربه وانما هو بتأييد الله وتوفيقه ٠ وذلك من آثار النبوة التي هي غير مكتسبة بالتجارب والسياسة ؟ ؟ ويؤيد ذلك بقية الآية وبامتثالها هي وامثالها بمعونة تلك الرحمة كان رؤوفاً رحيما لا فظا ولا غليظا. ويدعم ذلك قوله في اخرها « فاذا عزمت فتوكل على الله» ولم يقل توكل على سياستك وتجاربك

ومن أمثلة هذا في القرآن قول تعالى (٨٠: ١عبس وتولى ٢ ان جاءه الاعمى) الآيات وسببها معروف ملخصه ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو عظماء قريش الى الاسلام في أول الاسلام فجاءه عبد الله بن أم مكتوم الاعمى وهو من السابقين الاولين يسأله ان يعلمه فعبس (ص) وأعرض عنه لئلا ينفر من اقباله عليه أولئك الكبراء وكان من اجتهاده (ص) يومئذ از الكبراء اذ دخلوا في الاسلام أولاً لا يلبث ان يتبعهم الناس فعاتبه الله على ذلك عتابا شديداً ونهاه عن مثل مافعل فقال (٨٠: ١عبس وتولى ٢ أن جاءه الاعمى ٣ ومايدريك لعله يزكى ٤ او يذكر فتنفعه الذكرى ؟ ٥ اما من استغنى ٦ فانت له تصدى ؟ ٧ وما عليك الا يزكى ؟ ٨ واما من جاءك يسعى ٩ وهو يخشى ١٠ فانت عنه تلهى ؟ ١١ كلا» فعمل صلى الله عليه وسلم بهذا التأديب والتعليم الالهي من أول الاسلام فكان ذلك عوناً على استمرار دعوته التى كان روحها والمؤثر الاكبر فيها هو القرآن لا السياسة والحنكة كما يدعي الشيخ علي يوسف

اما الدلائل النقلية على تأثير القرآن في جذب العرب الى الاسلام

فهي كثيرة وأذكر لسعادة صاحب المؤيد منها اسلام عمر رضي الله عنه وهو الذي أعز الله به الاسلام كما ورد . كان عمر في الجاهلية فظاً غليظاً ولما سمع باسلام اخته وختنه (زوجها) عظم عليه الامر فجاءهما وضربها حتى أدماها وكانت تقرأ هي وزوجها صحفاً من القرآن الكريم فأخفتها عنه فما زال حتى أخذها وقرأها فجذبته الى الاسلام جذباً وكان بعد ذلك من رحمته أن كان يطوف بالليل يتفقد المحتاجين وقصته في حمل الدقيق ليلا الى موضع تلك المرأة البائسة وطبخه مشهورة

وحسبك من تأثير القرآن ان كان الغالون في العناد والجحود من كفار قريش يهربون من سماعه لئلا يجذبهم الى الاسلام بقوة تأثيره (٤١:٢٦ وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)

فأدعو سعادة الشيخ علي يوسف بعد هذا البيان الى الرجوع عما كتبه من قبل والتصريح بان قوة النبي الدينية ، كانت فوق كل قوة له بشرية ، وكل سياسة وحنكة عادية ، وان القرآن الحكيم هو منشأ آدابه واخلاقه وسياسته عليه الصلاة والسلام وان سيادته ونجاحه كانا بذلك قبل كل شيء وفوق كل شيء والسلام على من اتبع الهدى

محمد رشيد رضا

منشئ المنار

وبعد ان نشرنا في الجريدة ما تقدم رأينا كثيرا من اهل العلم والغيرة مرتاحين مسرورين مما كتبناه وقالوا ان هذا الرد من فروض الكفاية قمت به فسقط الحرج عن كل عالم قادر عليه . وكتب الينا عبدالله افندي الانصاري مدرس العلوم العربية في المدرسة التوفيقية ما يأتي :

حضرة العلامة المفضال صديقنا الصادق في الله تعالى السيد محمد رشيد رضا

السلام عليكم ورحمة الله . اما بعد فلقد اطلعت في صحيفة المؤيد على ما نشرته من رأي البرنس كايتاني في محمد صلى الله عليه وسلم ومجادلتها عنه وعلى ماجاء في الجريدة عن ذلك وردكم هو الحق الصراح ، والنور الوضاح ، والبيان الفضاح لدسائس الملحدين ، لنور رب العالمين ، فجزاكم الله خيرا عن الاسلام واهليه ، والشرع وحامليه ، ولما رأيت مجادلة صاحب المؤيد عن ذلك الرأي ، واصراره على عدم رتق هذا الفتق ، والانصياع الى سلطان الحق ، محاباة في الرد ، ومداراة للقصد ، اختلست ساعة من أوقاتي المملوءة بالاشغال المدرسية ، كما لا يخفى لتحرير هذه المقالة تأييدا لرأيكم الاصيل ، وتسديدا لقولكم النبيل ، فأرجو نشرها ان استحسنتم في ناركم الرفيع والسلام عليكم اولا وآخرا وباطنا وظاهرا

من أخيكم عبد الله الانصاري

وهذه هي مقالة الاستاذ الانصاري المفيدة بنصها

لا هوادة في الدين

لقد جاء انتقاد الجريدة وردودها على مانشرته صحيفة المؤيد من رأي البرنس كايتاني في مبلغ الرسالة الاسلامية واعجابها به مطفئا لما اتقد في صدور ذوي الغيرة على الدين بنفثات الذين يريدون المحاباة في الاسلام والتساهل الذي قد اتخذه كثير من دعاة المدنية العصرية من المسلمين وسيلة الى احداث شأن جديد في الدين عند من اكبرتهم نفوسهم ممن

ممن لا تروج لديهم بضائع اهل الملل والاديان ولا يروق في نظرهم ان ينسبوا ماجاء في الشرائع الالهية، وعلم من آداب الاديان السماوية، الا الى مجرد فطنة ودهاء واضعها بصفة كونهم ساسة عقلاء لا رسلا وأنبياء

ذلك ما قرع الاسماع كثيرا من بعض المخالفين في كنه العقيدة الاسلامية وما القصد من ذلك الا ان يغيض اعتقاد المسلمين في قرآنهم القائم بين أيديهم الى الآن وتنفصم عراه من قلوبهم فلا يتمسكون به حتى يضعوا ايديهم في يد اهل المدنية الغربية ، ولو آل الامر الى المجازاة في مثل ذلك الرأي ونبذ عقيدة ان الدين وضع الهي وان الكتاب وحي سماوي لم يكن للرسل فيه ولا للالتفاف الناس حولهم الا التبليغ والتبيين « وكذلك أنزلناه قرآنا عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون او يحدث لهم ذكرا » هوّن ذلك التساهل على سعادة صاحب المؤيد أن ينشر على ملأ المسلمين ذلك الرأي بصورة رائقة ويجادل عنه وكله كما لايخفى على بصير مغامز مخالفة لصريح القرآن، هادمة لمبنى الايمان، اذ يجعل نجاح الدعوة المحمدية ، بما كان له صلى الله عليه وسلم من كمال الاخلاق البشرية والحنكة ـ التي ربما يقولون بعد «إنها كما تكون له تكون لغيره من البشر قبله وبعده من العقلاء المجربين، والساسة المحنكين» ـ اكثر من كونه نبيا مرسلا ، وصاحب كتاب منزل

هكذا قال أباة الحق من العرب ومكابروهم فيه وقد خصمهم الله وألزمهم الحجة وانتهى الامر باعتراف المؤمن وغير المؤمن بسمو مكانة القرآن الكريم عند من يدرك معناه ويتصور مبناه من حين نزوله الى اليوم . أما الآن وقد مضى على التنزيل اكثر من ثلاثة عشر قرنا فقد

اصبحنا نروج هذه الدعوى ونرضاها على لسان السيو كايتاني ليقال انا متساهلون متسامحون ، او متنورون متمدنون

لست اقصد رمي سعادة صاحب المؤيد بما رمته به الجريدة من المروق لنشر هذا المعتقد وترويجه بين المسلمين وانما اقول أولا لا نصدق ان سعادته لا يصل ذهنه الى اعماق هذا الرأي وما وراءه ولا نسيء الظن فيه بكونه يرضاه عقيدة له فلم يكن هناك الا ذلك التساهل الذي ما ساق كثيرا من الناس اليه الآن إلا اعظام كل ماجاء على ألسنة متنقصينا من موافق ومخالف ، والزهد فيما لدينا من تالد وطارف ، وإلا فليس ما رضيه الشيخ اليوم عن كايتاني بأهون مسا ولا اخف وخزا في احشاء الاسلام من ذلك الرأي الغابر الذي ارهف له قلمه وجرده يقطر غيرة وحمية ، ام هي الاهواء ، تقبح وتحسن ما تشاء ،

ما أخسرنا واضيعنا في كل حال لو بذلنا في اغراضنا ومقاصدنا الدنيوية إسلامنا وطوحنا بقرآننا في مهاوي التساهل الماحي والتسامح الماحق لدرك كلمه تقال فينا أو جذب عاطفة تشهد لنا بأنا رقينا وادركنا من شأو المتقدمين ما تشرئب اليه الأعناق وما نحن ببالغي ذلك منهم ولو صرنا لعبادتهم خاضعين

نشأ محمد صلى الله عليه وسلم أميا بين اميين ليسوا اهل ملك وسياسة حتى بلغ الاربعين ولم يكن له من شؤون دنياه في اكثر حالاته الا الاشتغال بعبادة ربه والانقطاع عما فيه الناس حينئذ فهو الى ذلك الحين أبعد عن مجاري السياسة ، وموالج حيل الرئاسة ، حتى صدع بالدعوة بلا هوادة فيها وسار بها من أول امرها وفي جميع اطوارها برعاية ربه وعناية مرسله

سيراً حثيثاً كان له فيه الغلب من أوله الى آخره بين جدال وجلاد، وبلاء واجتهاد ، والقران لا غير مصدره ومورده ، ومرشده ومعتمده، في كل شيء . ولقد كان يجيء الامر حتى يتلقى فيه قرآنا ونحن نخاطب بذلك من يتصورون أطوار الرسالة المحمدية ويتخيلون حالة الامة العربية حينئذ ويمضون في فهم كتاب الله ويقدرونه قدره وما كان عليه العرب من النزول على حكم البيان الذي بلغ في القرآن مبلغ الاعجاز فكان عليه وحده في الهداية ونجاح الدعوة المعول اكثر من كونه صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم او ذا سياسة وحنكة

(وكذلك اوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم * صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض الا الى الله تصير الأمور)

لم يذق أحد من نبغاء المسلمين اليوم ولا قبل اليوم بقرون فضلا عن المسيو كايتاني حتى سعادة الشيخ علي يوسف ما ذاق أصحاب النبي في عهده من القرآن وهم في حجور الوثنية، واحضان الهمجية، فانتشلهم وطهرهم فكان موقع القرآن منهم موقع الزلال من ذي الغلة ، والدواء من ذي العلة ، والا فما كان يفعل محمد صلى الله عليه وسلم بدون تأييد الوحي المنزل الذي هو حجته الكبرى وآيته العظمى القائمة عند من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فلا يقال حينئذ « والا فالقرآن بين أيدينا ولم يعمل عمله فينا » (أولم يكفهم أنا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)

لم يرتض اصحاب رسول الله ما قاله أبو سفيان وقد أقبلت جموع الفتح قبيلة قبيلة وهو قائم بين جمع من الصحابة وفيهم (العباس) أحد أعمام النبي صلى الله عليه وسلم حتى اقبل مع ابي بكر وعمر في كتيبته الخضراء يقولون الحمد لله وحده، صدق وعده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فقال ابو سفيان (لعثمان) صار لابن اخيك ملك عظيم . فقال مَهْ يا ابا سفيان انما ذلك الوحي والرسالة. فكيف نرضي او نقبل ان يكون ما وصل اليه نبينا من الظفر والغلب في أمر دعوته الى الله بسياسته وحنكته ، اكثر من نبوته ورسالته؟ اللهم انا نبرأ اليك من هذا براءة الحق من الباطل. فليصن سعادة صاحب المؤيد غيرته على الاسلام من ان يغمض طرفه على اذى فيه فرب تلميح انكأ من تصريح ، ومدح آلم من تجريح ، وليحفظ مكانته في قلوب أهل ملته ، من ان يحابي في دينهم ، على مرأى ومسمع منهم ، فانه لا هوادة في الدين

عبد الله الانصاري

(المنار) هذا وان الموضوع يتسع لإطالة القول وايراد الشواهد الكثيرة من الآيات الكريمة والسيرة النبوية وانما اكتفينا بما كتبناه على عجل في ادارة « الجريدة » لاننا نقصد به تذكير المسلمين ، لا إقامة الحجة على المخالفين ، وقد سكت صاحب المؤيد بعد نشرنا المقالة الثانية ويغلب على ظننا انه ندم على ما فرط منه ولكن كان يجب عليه ان ينشر حقيقة العقيدة الاسلامية في ذلك بالمؤيد ليطلع عليها من قرأوا كتابته الأولى اذ ما كل من يقرأ المؤيد يقرأ الجريدة (وبالعكس) ولو فعل لما نشرنا شيئاً من هذا البحث في المنار .

ما هي اللغة

خطبة احمد فتحي باشا زغلول وكيل نظارة الحقانية في نادي دار العلوم

الفكر حركة نفسية يحتاج في ظهوره الى معونة الجهاز المخصوص الذي يكون به الكلام . وعليه فالكلام هو حركة ذلك الجهاز المنبعثة عن مجرد الطبع او المدفوعة بالارادة للتعبير عن حركة من حركات النفس . ينتج من هذا ان الكلام يتنوع باختلاف الشارات التي تدل على الافكار وان تلك الشارات تنقسم الى قسمين طبيعية وصناعية

فالاولى هي التي تصدر عن الذات من حيث هي اي بمقتضى وجودها المادي وكل شارات هذا القسم عرضية مثل شارات اليد والرأس والعين وبقية الاعضاء ومثل الاصوات التي ليست الفاظاً والكلام اي النطق

والثانية خارجة عن الذات وهي تحدث من تأثير الانسان في المباديات الخارجة عنه وكل شارات هذا القسم جوهرية بمعنى ان لها دواماً طويلا كان او قصيراً كالاعلام والنقش او الرسم والحفر والكتابة

ومما تقدم يتبين ان الكلام الطبيعي عام لكونه مفهوماً بذاته مع جميع الناس ومن الحيوان احياناً كما هو الحال بالنظر لشارات الاعضاء واصوات الغضب او الاستحسان من غير ان يكون هناك اتفاق سابق على مفهوم تلك الشارات

وعلى خلاف ذلك الكلام الصناعي او الاتفاقي لانه عبارة عن مجموع

الالفاظ المخصوصة الموضوعة للمعاني المخصوصة وعن التراكيب او الصيغ الناتجة من تأليف هذه الالفاظ لتوصل الى الذهن بواسطة الاذن او العين معاني مخصوصة متفق عليها

وقد يتأتى ان يكون الكلام الصناعي عاما اي ان كل الناس يدركون المراد منه كالرسم مثلا وعلى هذا يتضح خطأ تعريفهم اللغة بانها اصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم

والصحيح ان اللغة هي مجموعة العادات المخصوصة التى تجري عليها كل امة في التعبير عن اغراضها بواسطة الكلام او الكتابة وتقدم بيان معنى الكلام

ولا يصح اطلاق اسم اللغة على ذلك المجموع الا اذا كانت النسبة تامة بين اللفظ ومدلوله لان قوة اللغة متوقفة على شدة المطابقة بحيث ان الاذن او العين ترسم في ذهن السامع او القارئ صورة المدلول كما هي ولا يتم ذلك الا باجتماع شروط ثلاثة

الشرط الاول ان يكون لكل مدلول علامة خاصة به تدل عليه دائماً ولا تدل على غيره ابداً

الشرط الثاني ان تكون هذه العلامة قابلة للتعبير بتغير المدلول وتبعاً له

الشرط الثالث ان تكون قابلة للاشتقاق لمدلولها فاذا اشتق منه مدلول اشتق منها علامة دالة عليه بالشروط عينها

وبناء على ما تقدم تكون شروط اللغة الحقيقة بهذا الاسم ثلاثة ايضاً

الاول . ان يكون تعبيرها محكما وذلك عبارة عن تمام المطابقة بين

الدال والمدلول ولا سبيل الى هذا الا اذا سهل استعمال اللفظ قدر المعنى ولم يزد المعنى عن اللفظ المستعمل لاجله وهذا الشرط صعب التوفر فما وفقت لغة حتى الآن لنيل هذه المزية اللهم الا لغة علماء الرياضة بل ان اللغات الاخرى لن تنالها ابداً

الثاني الملابسه وهي الخاصة الموجودة في الالفاظ او التراكيب اي الصيغ . تلك الخاصة التي يدرك بها الفاهم نظائر المدلول ونقائضهُ والملابسة تقتضي تحليل الفكر الانساني وذلك غير ميسور عادة في اللغات الاصلية الا نادراً

الثالث الوضوح التام وهو يرجع للشرطين السابقين ولصناعة ترتيب الالفاظ وتركيب الجمل ترتيبا وتركيبا ينتفي معهما الابهام ويرتفع الشك والالتباس ومن اللغات ما تميل باهلها الى الاغراب في التعبير وهذا هو السبب في ظلمتها وتعسر فهمها وكلما كان القول طبيعيا اي بسيطا ازداد وضوحاً فالبساطة هي امثل طرق الكلام على انها طريقة العلم والواقع وهي التي يسهل بها التعبير عن الافكار وحركات النفس كما ينبغي

وكأني بحضراتكم وقد استنتجتم مما ذكرته الى الآن خطر مذهب التجوز او الاشتراك في اللغة وذكرتم انه يذهب بجمالها ويخفي من وضوح دلالتها ويجعلها ثقيلة على اهلها بعيدة المنال على طلابها من الامم الاخرى

سمعت في الاجتماعين الماضيين كلاماً كثيراً في اللغات الاجنبية وان لها اصلا او اصولا ترجع اليها وتستمد روح التجدد منها فاهلها في حل مما يفعلون واما نحن فلا اصل للغتنا ويبنون على هذه المقدمة نتيجة هي انهُ يجب علينا ان لا نعرف كلمة اعجمية لنضيفها الى لغتنا العربية

الحق اني ما فهمت النسبة بين تلك المقدمة وهذه النتيجة فاني انظر الى اللغة اللاتينية التي هي اصل لغات امم اوروبا المعروفة بهذا الاسم من فرنساوية وتليانية واندلسية وغيرها فاجدها لغات ممتازة تماماً عن ذلك الاصل بل اجد الفرنساوي من حيث هو لا يعرف كلمة واحدة من اصل لغته وكذلك بقية من ذكرنا وأرى ان كل لغة حية هي لغة مستقلة قائمة بنفسها لها قواعد خاصة بها وتراكيب وصيغ تميزها عن اصلها تماماً فاذا استعاروا لمحدث جديد اسماً من ذلك الاصل فانما هم يستعيرونه من لغة اعجمية بالنظر الى لغتهم . الا ترون انهم لا يقصرون الاستعارة على اللغة اللاتينية ويتعدونها الى اليونانية القديمة وأحياناً يستعيرون كلمتين من كل لغة كلمة وينحتونهما ويدمجون هذا المزيج في لغتهم فيصير جزءاً منها ويفسحون لهُ في كتب اللغة محلا بين كلمتين اصليتين بحسب ترتيب حروفه الابجدية

انهم يعملون اكثر من هذا : ان لكل بلد عادات في اكلها وسكناها ولباسها واطوارها ويتبع ذلك وجود اسماء عند قوم لمسميات لا يعرفها قوم آخرون الا ان التجارة وطرق المواصلات تنقل هذه المسميات او تجعلها تشاهد في اماكنها من النازحين اليها فيرى اهل البلد ما يروق لهم من بعض تلك الخصوصيات لاهل البلد الآخر ولا يجدون من لغتهم نصيراً على التعبير عنه تماما لكنهم لا يختارون ولا يقصدون الاجتماع تلو الاجتماع ولا يفترقون شيعا واحزابا بل يقدمون على تناول المسمى واسمه ويدرجون عليه من ساعتهم فيمتزج بلغتهم ويعرفه الكل ويتحرون في حديثهم ان يلفظوه كانهم في نطقهم به من اهله والامثلة

على ذلك لا تحصى يعرفها كل من تعلم لغة واحدة اجنبية . هم يعملون ذلك حتى في العلوم فترى الحكيم الفرنساوي وهو يقرر مذهبه عند ما يأتي على ما يخالفه من مذاهب الالمان اذا وصل الى معنى خاص باحدهم لم يفكر ان يعبر عنه بغير لفظه الالماني وهكذ ثم يذكر بهامش كتابه معناه

ما كان هـذا ليفسد لغة من تلك اللغات ولا يثير عاطفة الحنان والاشفاق عليها بل ماازدادت لغاتهم بهذا الا طلاوة ويسراً بل تكاد هذه الطريقة تجري عند الامم الغربية عامة لتكون الالفاظ الغريبة عن لغتهم برهانا عن سعة مداركهم ورحب صدورهم لكل نافع وكل مفيد ولتكون دليلا على مصدر المسمى ومذكرة بجزء من ترجمته

قالوا ان ذلك جائز عندهم لتماثل احرف هجائهم واتحاد صورها واشكالها واما نحن فلا قبل لنا على عمل ما يعملون لاختلاف احرف هجائنا وصورها واشكالها ولست أرى في هذا الاعتراض الا انه دليل أحد امرين فاما شعور يعجزنا عن المجاراة لفتور في همتنا او قصور في معارفنا واما ان احرف هجائنا واشكالها وصورها محتاجة هي أيضاً الى الاصلاح لنتمكن من تناول كلمات الغير باشكال وصور تجعلنا ننطق كلماتهم كما ينطقون وننقل عنهم كما هم عن بعضهم ينقلون

نحن اما عرب اومستعربون واما اجانب عن لغة العرب اومولدون فان كنا الاولين فلنا حقنا في التصرف بلغتنا كما تقتضيه مصلحتنا وان كنا مستعربين فبحكم قيامنا مقام اصحاب هذه اللغة وبكوننا ورثناها عنهم بعد ان بادوا ليس لاحد ان ينازعنا في استعمال ما كان مباحاً لآبائنا من قبلنا وان كنا اجانب او مولدين فمن له يسيطر علينا ويحرمنا ثمرة الكد

في حفظ هذه اللغة وتفضيلها على غيرها من سائر اللغات فيلزمنا بالبقاء على القديم ويحكم علينا بالجمود واعتقال اللسان

اخذ العرب العلوم عن اهلها ونقلوها الى لغتهم فلما وجدوا منها استعصاء في بعض المواضع ذللوها واخضعوا الغريب عنها لاحكامها فأيسرت ودرجت بعد الجمود فكانت لهم نعم النصير على ادراك ماطلبوا من نور وعرفان

نسينا نحن ان زماننا غير زمانهم فكانوا اصحاب حول وطول وذوي مجد وسلطان ونحن على مانعلم من الضعف والانزواء على انهم في عزهم وبعد فخارهم وتمكنهم من انفسهم لم يعتزوا بلغتهم فينفروا من العجمة لانها عجمة بل استخدموها حيث وجب الاخذ بها تمكيناً للغتهم وحذراً من ان يصيبها الوهن اذا قعدوا بها عن مجاراة تيار التقدم وهم اولو الرأي فيه وخوفاً من ان يعيقهم الجمود فيها عن حفظ مركزهم العظيم بين الامم التي كانت تعاصرهم . أيجوز لنا أن نتخلف عن السير في طريقهم والاسترشاد بهديهم والعمل بطريقتهم بحجة انهم انقرضوا وبادوا فلا حق لنا في متابعة الرقي ولا يجوز ان نخطوا بعدهم خطوة الى الامام؟ لكن من الذي استأجرنا حراسا من الحرس على هذه الوديعة؟ وباي قوة اخضعنا على الوقوف هذا الموقف موقف الاستكانة وقطع الرجاء وفقدان الهمة وانحلال العزائم أنقص في الافهام ، ام قصر في الاجسام، ام جهل باننا من البشر لنا كل حقوق الانسان ؟ ؟

ليس لنا ان نتمسك بالقديم لقدمه وان اصبح عديم الجدوى ، والا فاولى بنا ان نكف عن الدرس والمطالعة وان نكتفي من كل شيء بما ورثنا

عن الاباء لنعيش كما عاش الاولون . غير اني ارجوكم ان تتعلموا الصبر فلا تجزعوا اذا اصابتكم مصائب التقدم فتركتم آخر القوم، ولا تحزنوا اذا هصرتكم عوامل الرقي فمنيتم بمن يقف متفرجا عليكم وانتم كالصور المتحركة الناطقة لكنها تحرك بحركة هي عبارة عن اهتزاز الشيء مكانه وتنطق بلغة دائرة قد خلت من العلم الذي اصبح دارجاً على ألسنة المتفرجين

جزع خصوم مذهبنا على اللغة العربية وحسبوها طعاماً سهل التناول والهضم في معد اللغات الاعجمية فاستجاروا من التعريب وصاحوا اننا لا نطيق اسما عجمياً يدخل عليها

أليست هي تلك اللغة الحافلة بالالفاظ والتراكيب العالية والقول الفصيح المصونة بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهي لن تتأثر ببعض كلمات تدخل عليها في كل عام بل ان هذا العمل مما يؤيدها ويشد أزرها ويرفع مقامها بين اللغات فلا يطمع الاعاجم في اعتبارها من اللغات الميتة

قالوا ذلك يفسد علينا لغة القرآن وما أسد ما اجاب به عن هذا الاعتراض حضرة الفاضل السيد رشيد افندي فلا خوف على القرآن مادام في الوجود مسلم . الا ترون أن القرآن محفوظ مصون عند من لم يعرف العربية من المسلمين؟ أليكم الترك والهند والصين والقوقاز والروسيا تلك امم تعد خلقاً كثيراً من المسلمين لا يعرف الواحد منهم غير لغة امته وهو مع ذلك يحرص على القرآن أشد من حرص الجبان على دمه

أيعجزكم ان تحافظوا على القرآن بيمينكم وتفسحوا المجال في لغتكم للتقدم باليسار لتنالوا السعادتين وتكونوا من الناجحين في الدارين؟

قالوا العلم نافع قالوا كثير منهُ مخالف للدين قالوا الحضارة تهددنا فلنتقها بها قالوا هي تخالف الدين قالوا حدثت مستحدثات فسموها قالوا حرام عليكم ان كنتم فاعلين . من جراء هذا قال الفرنج عنا انا قوم جامدون وما جمودنا الا من الدين فصحنا مع هذا وقلنا لهم بل انتم قوم ظالمون . مالنا وللدين نجره في كل امر ونقيمهُ حاجزا في وجه كل باحث حتى في الامور التي يأمر هو بتناولها . يأمرنا الدين بتعلم ماخلق الله وان نسير على سنة التقدم التي سنها للبشر ونحن كل يوم في احجام بدعوى يعلم الله مقدار بعدها عن الحق والصواب

عليكم بالتقدم فادخلوا ابوابه المفتحة امامكم ولا تتأخروا فلستم وحدكم في هذا الوجود ولا تقدم لكم الا بلغتكم فاعتنوا بها وأصلحوها وهيئوها لتكون آلة صالحة فيما تبتغون لكن لا تكثروا من الاشتقاق الخارج عن حد القياس المعقول ولا تشوهوا صورتها الجميلة بتعدد الاشتراك او التجوز ثم لا تقفوا بها موقف الجمود والعجمة تهددها على ألسنة العامة وهي لا تلبث ان تدخل على لغة الخاصة . اقيموا في وجه هذا السيل الجارف سدا من الاشتقاق المعقول والترجمة الصحيحة والتعريب عند الضرورة لتكونوا من الناجحين اه

(المنار) ألقى أحمد فتحي باشا هذه الخطبة في الاجتماع الثالث لنادي دار العلوم وزاد عليها ما جادت به البديهة ارتجالا من الفوائد والنصائح . وخطب بعده حفني بك ناصف رئيس النادي خطبة مطولة في اللغة وفنونها . واتفق الجمهور بعد ذلك على وجوب التماس الالفاظ العربية للمستحدثات بالترجمة والتجوز والاشتقاق ثم يلجأ الى التعريب ان لم يتيسر ذلك

وقد كتب الينا النادي صورة هذا الاتفاق بالعبارة الآتيـة وأرسلها الى جميع الصحف المشهورة :

﴿ قرار نادي دار العلوم في الترجمة والتعريب ﴾

« هذه صورة القرار الذي صدر بنادي دار العلوم في الساعة العاشرة من مساء يوم الخميس ٢٠ فبراير سنة ١٩٠٨ بعد سماع ما قاله جميع الخطباء في موضوع تسمية المسميات الحديثة فقرر ان يكون العمل على النحو الآتي: يبحث في اللغة العربية عن أسماء للمسميات الحديثة بأي طريق من الطرق الجائزة لغة فاذا لم يتيسر ذلك بعد البحث الشديد يستعار اللفظ الاعجمي بعد صقله ووضعه على مناهج اللغة العربية ويستعمل في اللغة الفصحى بعد ان يعتمده المجمع اللغوي الذي سيؤلف لهذا الغرض رئيس النادي

حفني ناصف

(المنار) قد تحامى رئيس النادي في عبارته اللفظ الذي اتفق عليه جمهور من حضروا الاجتماع الاخير من اعضاء النادي وغـيرهم وهو لفظ (التعريب) فقال «يستعار اللفظ الاعجمي» وهو يرمي بذلك الى عدم تسمية مايؤخذ من الكلم الاعجمي معرّباً محافظة على اصطلاح المتقدمين. ولكنه عبر بلفظ اصطلاحي آخر من الاستعارة وهو لايقصد به معنى الاستعارة في فن البيان وانما يقصد معناه اللغوي المرافق للاصطلاح الشرعي والمتبادر انه يرمي بذلك الى ان هذا الاخذ يجب ان يكون من قبيل العارية التي تستعمل زمنا ثم ترد ولكن هذا خلاف ماوافق عليه الجمهور كما تقدم ولعله قرار خاص لمجلس ادارة النادي . وعلي هذا يكون الخلاف في المسألة على حاله

الدين الاسلامي والمدنية

وسالة لصاحب التوقيع اقتبس بها بعض شهادات علماء الأ فرنج للاسلام والعرب

نشرناها ترغيبا لمثله في هذا الموضوع وان سبق لنا نشر هذه الافكار في المنار

(فهرس) حالة العالم قبل وجود الديانة الاسلامية - حقيقة الديانة الاسلامية - أخلاق محمد صلى الله عليه وسلم وصفاته - الدين الاسلامي دين الفطرة - الدين الاسلامي دين المدنية والترقي - سديو ودروي - اثبات نبوته صلى الله عليه وسلم - قول العمرانيين فيه - حكم المؤرخين عليه - الاسلام ليس بدين جديد - الدين الاسلامي ليس بالدين الضيق - كل رقي في العلوم الطبيعية يدعو الى التقرب من الديانة الاسلامية - الدين الاسلامي هو أنشودة الفلاسفة في المستقبل

***

اني أكتب ما أكتب عالمًا علم اليقين ان الديانة الاسلامية ليست بالشيء العويص الذي لا يمكن للانسان استكناه مجاهيله، أو استشفاف مساتيره، بل هي مما يمكن تحققها بالاختبار والتجربة اذا صعد الانسان بمنطاد بحثه الى سماء الحقيقة غير متعصب لفريق دون آخر فبهذا يطل الانسان على كبد حقيقتها ويعرف كنهها من سمو ترتيبها ومتانة قواعدها وإحكام نظامها فيحكم بأنها ليست بالديانة التي أوجدتها قريحة آدمي مهما حاز الصفات والكمالات ولكنها هي هداية آلهية، يخالف جوهرها جوهر الافكار البشرية —

ظهر النبي صلى الله عليه وسلم في بلاد العرب وقد كان قومه في هوة الانحطاط بعيدين عن التمدن والرقي الفكري يدلك على ذلك وأدهم لبناتهم وهن على قيد الحياة وعبادة الاوثان وغير ذلك من الاخلاق الذميمة التي تفضي بمتبعها الى الخسران والهلاك المبين وليست بلاد العرب فقط هي التي كانت في تلك الحالة بل ما جاورها ايضا من بلاد الرومان في الغرب وبلاد العجم في الشرق فان هاتين الدولتين كانتا يتنازعان الحياة وناهيك بما حصل في شأن ذلك من الفتن والقلاقل التي لم تدع قلباً سليما في البشرية يتمتع بالراحة الا واسقته مما هو أمرّ من الصاب والعلقم — كل هذه القلاقل المزعجة والكوارث المدلهمة جاء الاسلام ليمحوها من على ظهر الوجود وليؤيد السلام العام والوئام التام وليكون واسطة بين التمدن الحديث وبين التمدن القديم فلم يمض غير قليل بعد وفاته صلى الله عليه وسلم الا ورأينا بلاد العرب في وقت واحد ترسل جيشين أحدهما لمحاربة القياصرة والثاني لمحاربة الاكاسرة ففتحوهما وانهالت عليهم خيراتهما وظلوا ناهجين في التقدم الى ان بلغوا في ظرف ثمانين سنة مالم يبلغه الرومان في ظرف ثمانية قرون واستخرجوا كنوز اليونان والاعاجم والهنود في العلوم والمعارف وبلغوا الطبقة الثالثة من الرقي في العلوم الطبيعية وهي طبقة الامتحان والتجربة واليك شهادة عالم من كبار علماء الطبيعة

قال: « يجب علينا معاشر البحاثين ان نهتم بالكنوز التي تركها العرب فان فيها حقائق وأفكاراً سامية تدعو الى الاكتشاف والاختراع لان العرب تقدموا في العلوم الطبيعية تقدماً مدهشاً للغاية حتى بلغوا الطبقة الثالثة من الرقي فيها الا وهي طبقة الامتحان والتجربة وناهيك ان نظرية الانحراف فى

الضوء لم يكن ترقيها الا بواسطة ما عثرنا عليه في مؤلفات الخازن »

وقال العلامة سديو في البحث السادس عشر من تاريخه في اشتغال العرب بالعلوم الرياضية « لما اشتغل العرب بالفلك التفتوا الى العلوم الرياضية فأتوا بالعجب العجاب في الهندسة والحساب والجبر وعلم الضوء والميكانيكا وترجموا من ابتداء خلافة المأمون هندسة أقليدس وتيودوس وأبولونيوس وو ٠٠٠٠٠ وشرحوا مؤلفات ارشيمیدس في الكرة والاسطوانة وغيرها واشتغلوا قروناً بدقائق الهندسة وظهرت حميتهم في المناظرات العلمية خصوصاً في المراسلات الرياضية وطبقوا الجبر على الهندسة وترجموا كتب هيرون الصغير في الآلات الحربية وقطيزيبوس وهيرون الاسكندري في الآلات المفرغة للهواء والرافعة للمياه وألف حسن بن هيثم في استقامة النظر وانعكاسه في المرايا التي تحدث النار وألف الخازن في علم الضوء والنظر كتاباً في انكسار الضوء وفي المحل الظاهر للصورة من المرايا المنحنية ومقدار الاشياء الظاهرة وكبر صورتي الشمس والقمر اذ رئيا على الافق عند الشروق أو الغروب »

وقال أيضاً دروى في تاريخه « بينما أهل أوربا تائهون في دجى الجهالة لا يرون الضوء الا من سم الخياط اذ سطع نور قوي من جانب الملة الاسلامية من علوم ادب وفلسفة وصناعات واعمال يد وغير ذلك حيث كانت بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف ومنها انتشرت في الامم واغتنم منها اهل أوروبا في القرون المتوسطة مكتشفات وصناعات وفنونا عظيمة

وهذه هي اقوال الفلاسفة وكبار المؤرخين في الديانة الاسلامية شهادة

دلنية على ان الدين الاسلامي دين الترقي والمدنية . هذه هي آثار الدين وآثار اهله الذين تمسكوا به واما حقيقة الدين فهي كما قال مسيو مسمير رئيس الارسالية المصرية ردا على الفيلسوف ارنست رينان في خطبة له في جمعية العلماء « نحن معاشر المحققين من الفلاسفة نقول ان من تأمل كلام القرآن رأى ان محور الاسلام الوحدانية وقطبيه المؤاخاة وتحسين شؤون العالم بالتدريج بواسطة العلم وهذه هي حقيقة اسباب نصرة الاسلام » وقال كاتب آخر من مشاهير كتاب الغرب في مجلة (الكوارترلى رفيو) في مقالة عنوانها (الاسباب الحقيقية في ارتفاع وانحطاط الامم الاسلامية) « لما كان الدين الاسلامي جامعا بين الدين والدنيا كان ذلك من اهم اسباب كثرة الواردين اليه فان الرجل عند ما يسلم يصبح اخا لثلاث مئة مليون من النفوس له مالهم وعليه ما عليهم ولعمري ان ذلك مما يزيد علائق المحبة ويربط الهيئة الاجتماعية ثم استدل على ذلك بكلام كتبه بوسويرث سميث في كتابه المسمي (محمد والديانة المحمدية) لا حاجة لنا بسرده في هذا المقام

يرى القارئ الكريم من خلال هذه السطور التى كتبناها عن الديانة الاسلامية مستندين على أقوال الفلاسفة والحكماء وكبار المؤرخين والكتاب ان الديانة الاسلامية تزداد كل يوم في الحجج ويشهد العلماء المحققون بروحانيتها حتى أن المسيو ارنست رنان الذي حمل حملته على الديانة الاسلامية والعلوم العربية كتب بعدان زمجر واوعد، وابرق وارعد، «ان في دين الاسلام احكاما رفيعة المقام وما دخلت جامعا الا وحصل لي انجذاب لدين الاسلام وتأسفت على عدم كوني مسلما لولا ان هذا الدين أخر العقل البشري وحجبه عن التأمل في حقائق الاشياء » ولكن

عبارة مسيو رنان الاخيرة ليس لها ادنى نصيب من الصحة وقد علم من كلامنا الذي اسلفناه الجواب الشافي من علة المسيو رنان. والى هنا نمسك عنان اليراع عن الخوض فى هذا الموضوع فان في ذلك القدر الكفاية ، لارباب العقول والهداية ،　　　علي سيد يوسف

(المنار) ان حكيمي الاسلام السيد جمال الدين والاستاذ الامام قد ردا في اوربا على رينان ، وقطعا ماجاء به من الزور والبهتان ، بسيف الحجة والبرهان ، حتى اضطر الى الاذعان ، فرحمها الله وحباهما الروح والريحان

كلمات عن العراق واهله

﴿ لعالم غيور على الدولة . ومذهب أهل السنة ﴾

العراق ولا ازيدك به علما من افضل الاقطار تربة وطيب هواء وعذوبة ماء وبه أنهار عظيمة كدجلة والفرات وريالة وقارون تنساب فيه انسياب الافعوان ، وتخترق منه كل مكان ، غيران اكثره خراب ، ينعق فيه البوم والغراب ، لعسر المواصلات وفقد الامن وحرمانه من نور المعارف والمدنية . والحكومة فيه كما هي في غيره : عبارة عن شركة سلب ونهب وفساد ، تعمل في خراب البلاد وهلاك العباد ، وهم في غمرتهم ساهون ، وعن الدسائس الاجنبية عمون ، حتى أصبح بر العراق كله

متسلحا بالسلاح المارتين ، مما ترسل به انكلترا كل حين ، بوسائل متوفرة لديها ووسائط سهلة عليها

ومن البلاء العظيم انتشار مذهب الشيعة في العراق كله حتى أصبح ثلاثة ارباع أهله شيعيين وذلك بفضل جد مجتهدي الشيعة وطلبة العلوم منهم ، وموازرة الحكومة لهم ، بأخذها على يد أهل السنة عن مقاومة سعيهم ، وخفض كلمتهم ، وفي النجف مجتمع مجتهدي الشيعة وفيه من طلبة العلوم ستة عشر ألفاً . وذابهم انهم ينتشرون في البلاد ، ويجدون في إضلال العباد ، ولذلك يحسب عقلاء العراق أن القطر قد انسلخ من الدولة ولم يبق لها فيه من الرسم الا الاسم . ولقد استحكمت النفرة منها في قلوب الجميع فلا يذكرونها بلسانهم ، وقلما يراجعونها في شؤونهم ، ولقد استطلعت وانا اتملب في البلاد طوايا النفوس من أمير ومأمور ، وعالم وجاهل ، فوجدت الكل في ضجر وسخط ، وملل وهم من صلاحها يائسون ، وبسوء ادارتها ساخرون ، وذوو العقول والفضل منهم في كمد ، قد ارهق منهم الجسد ، وهم شاعرون بضرورة الاصلاح ، وان لا حياة للإسلام بدونه ولا نجاح ، وقد اعدتهم الحوادث والعبر لتحسس هذه الروح وتلمس المخرج مما هم فيه ، وتراهم مع غلبة اليأس منه لا تزال تتناجى به نفوسهم ، وتحنّ اليه أرواحهم ، وتلهج به ألسنتهم . ولكنهم في محيط مظلم وضغط مؤلم ، لا يهتدون الطريق ، ولا يجدون الرفيق ، ولا يصل اليهم من آثار دعاة الاصلاح الا النزر القليل ، لشدة المراقبة على هذا الأمر الجليل ، ولقد تطلبت المنار ، فلم أجد له أثرا في تلك الديار

ولقد اجتمعت بكثير من علماء بغداد وعقلائها واشرافها ولم أر فيهم

أجمع لفنون الفضل وصفات الكمال كشكري افندى الآلوسي وابن عمه الحاج علي افندى فلقد رأيت من سعة اطلاعهما وقوة دينهما وسلامة عقيدتهما السلفية واستنارة عقولهما ووقوفهما على حكمة الدين واسراره، واطلاعهما على أمراض الاسلام، والتهابهما غيرة وحمية على الدين ومجاهدتهما في سبيله فريقا من الجامدين من المقلدة وعبادالقبور مابهرني وعشقني فيهما. ولقداوذوا في هذا السبيل وامتحنوا فما ضعفوا وما استكانوا ولا يزالان يصدعان بالحق ويهتفان بضرورة الاصلاح مع منازعة اليأس لهما . واعداؤهما من عبدة القبور والأوهام وانصار التقليد والخرافات ينبذونهم باسم الوهابية لينفروا منهم، ويحرضوا الحكومة على اضطهادهم غير أن حزبهم من ذوي العقول النيرة وطلاب الاصلاح أخذ ينمو عدده ويكثر عضده، وكلهم أو جلهم من الاعيان، وذوي المكانة ورفعة الشان، ولم أر احدا يقدر مؤلفات ابن تيمية وابن القيم قدرها مثلهما ولهما تعشق غريب فيها وقد سعيا في طبع الكثير منها وهمتهما مصروفة وراء تتبعها والسعي فى طبعها لا طمع لهما في ذلك سوى خدمة العلم والدين فلله درهما وعلى الله أجرهما .....

ولشكري افندي قوة على التأليف عجيبة وقد ألف في رمضان ردا على الشيخ يوسف النبهاني في سبعين كراسًا بياضا من دون تسويد وقد تكفل بطبعه أحد تجار جده فارسله اليه وهو كتاب نفيس يقضي على النبهاني قضاء لا يسمع له صوت من بعده . والسبب في ذلك انه ألف رسالة في تضليل ابن تيمية وابن القيم وانتقصهما ما شاء ثم عد من مصائب الدين انتداب بعض الزائغين في زعمه لنشر مؤلفاتهما وتمثيلها للطبع وندد

بالشيخ نعمان افندي الآلوسي رحمه الله لتأليفه كتاب (جلاء العينين في محاكمة الاحمدين) وذمه وذم عائلته وذكر انهم أصيبوا بالمحن فلم يعتبروا ولا اتعظوا. ويزعم انه من مجددي الدين في هذا العصر. وهكذا بلغ به الغرور الى هذا المبلغ والجنون فنون» اه ما أردنا نشره من هذه الرسالة ويليه كلام حسن في الاستاذ الامام والمنار وصاحبه يتعلق بالاصلاح أضربنا عن ذكره مع حمد كاتبه وشكره

ونقول قد ذكرتنا هذه الرسالة بما كنا كتبناه في المجلد الثاني من المنار (في رمضان سنة ١٣١٧) من نشر مذهب الشيعة في العراق وهذا نصه:

قرأنا في بعض الجرائد ان الدولة العلية قد عزمت على ارسال بعض العلماء الى سناجق البصرة والمنتفك وكربلا لارشاد القبائل الرحالة هناك وقرأنا في بعضها انه قد صدرت الارادة السنية بذلك فعلا ونحمد الله تعالى ان الدولة العلية قد تنبهت لهذا الامر قبل ان يخرج من يدها بالمرة فقد سبقها الشيعة وبثوا الوعاظ والمرشدين في هذه القبائل وغيرها من العربان الضاربين على ضفاف الدجلة والفرات فادخلوا معظمهم في مذهب الشيعة. يذهب الملاّ الشيعي الى القبيلة فيمتزج بشيخها امتزاج الماء بالراح بما يسهل عليه من أمر التكاليف الشرعية ويحمله على هواه فيها كاباحة التمتع بالعدد الكثير من النساء الذي له الشأن الاكبر عند أولئك الشيوخ وغير ذلك حتى يكون وليجته وعيبة سره ومستشاره في أمره فيتمكن الملاّ بذلك من بث مذهبه في القبيلة بأقرب وقت ويكتفي من السياسة غالبا بافهام القوم ان رئيس طائفة الشيعة المحقة شاه العجم ورئيس الطائفة الاخرى المسماة بالسنية السلطان عبد الحميد ولا شك ان هؤلاء

يكونون عونا لرئيس مذهبهم اذا وقع نزاع (لا قدر الله) بينه وبين رئيس المذهب الآخر وان كانوا في بلاد الآخر ويمكن للدولة العلية ان تتدارك الامر بعض التدارك اذا كان الذين تختارهم للارشاد والتعليم أهل حكمة وغيرة حقيقية يهمهم الاصلاح والارشاد بحيث يقدمونه على منافعهم الشخصية على ان الذي يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة لا يحرم من أجر الدنيا بل ربما كان نجاحه أتم وقد استغنى جميع دعاة الشيعة فى تلك القبائل مع حصولهم على غرضهم في نشر المذهب. وليبدأ دعاة الدولة العلية بمن على الفرات فان فيهم عدداً كبيراً لم يزل على مذهب أهل السنة، والله الموفق اه (من ص ٦٨٧ م ٢)

هذا ما كتبناه من نحو تسع سنين. ونقول الآن أن اكثر من اجابوا دعوة علماء الشيعة هناك لم يكونوا على شيء من مذهب أهل السنة فاذا كان اولئك الدعاة يمشون فيهم الوعاظ يعلمونهم الفرائض واحكام الحلال والحرام فان ذلك يكون خيرا لهم في دينهم من الحالة التي كانوا عليها. فنحن لا نعد الامر من الجهة الدينية بلاء نازلا كما عده الاستاذ كاتب الرسالة ولكن الامر مهم من الجهة السياسية فان السياسة هي التي كانت ولا تزال مثار الخلاف بين أهل السنة والشيعة ولولاها لما كان خلاف وما أضاع الدين والدنيا علينا الا الخلاف. وقد كان طلاب الاصلاح بالوحدة الاسلامية مغتبطين بما حصل في هذه السنين الاخيرة من التآلف والتعارف بين الفريقين حتى وقع أخيرا ما وقع من التعدي على الحدود فباتوا يخشون ان تهدم السياسة السوءى في سنة واحدة ما بناه دعاة الاصلاح في عشرات من السنين. فنسأل الله ان يقي الاسلام شرها ويكفي المسلمين فتنتها وضرها

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا . ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

أسئلة من الحجاز

﴿ القطب والابدال والانجاب والخضر وسند أهل الطريق ﴾

(س ١ — ٧)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

حضرة الاستاذ الحكيم والمصلح العظيم علامة الزمان سيدي العزيز السيد محمد رشيد رضا منشئ المنار حفظه الرب المنان

أحييكم تحية تليق بمقامكم الكريم واسأل الله تعالى ان يحفظكم بحفظه السرمدي وان يهدي الله بكم الضالين . وها أنا ذا مقدم لمقامكم الكريم أسئلة ذات بال نرجوكم الجواب عنها على صفحات ناركم المنير

ذكر الشيخ يوسف النبهاني في كتابه شواهد الحق (ص ١٠١) أحاديث استدل بها على وجود الاقطاب والابدال والانجاب والاوتاد والنقباء ووجود الخضر عليه السلام وهذا لفظها :

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله تعالى في الارض ثلاثمائة قلبهم على قلب آدم وله أربعين قلوبهم

على قلب موسى وله سبعة قلوبهم على قلب ابراهيم وله خمسة قلوبهم على قلب جبرائيل وله ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل وله واحد قلبه على قلب اسرافيل فاذا مات الواحد أبدل الله سبحانه وتعالى مكانه من الثلاثة . الخ

عن علي رضي الله عنه انه قال البدلاء بالشام والنجباء بمصر والعصائب بالعراق والنقباء بخراسان والاوتاد بسائر الارض والخضر عليه السلام سيد القوم الخ

ولم يذكر النبهاني سنداً ولا من أي كتاب من كتب الحديث أخرجها فأرجوكم أن تفيدوني هل تصح هذه الاحاديث وهل الخضر عليه السلام حي الى هذا الزمان وما قولكم فيمن يكذب بوجود الخضر وغيره من الاقطاب نرجوكم الجواب الكافي الشافي

وفي كتاب النبهاني شواهد الحق ص ١٣٢ يقول ان الشيخ الامير أجازه بثبته وما اشتمل عليه من علوم الشريعة والطريقة ومن معقول ومنقول وذكر سنده من الامير الى الحسن البصري عن سيدنا علي عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن ميكائيل عن اسرافيل عن عزرائيل عن اللوح عن القلم عن الرب الجليل جل جلاله وتقدست صفاته واسماؤه

ارجوكم ان تفيدوني عن هذه الاجازة بهذه الصيغة المذكورة هل هي معتبرة عند المحدثين ويعمل بها ام هي ضرب من الخرافات وما على من من انكرها وهل يصح اجتماع الحسن البصري بسيدنا علي ام لا أفيدوني ولكم الاجر سيدي

في كتاب النبهاني صحيفه ١٣٠ قال ومن كتب الامام ابن تيمية

كتاب العرش قال في كشف الظنون ذكر فيه ان الله سبحانه وتعالى يجلس على العرش وقد اخلى مكانا يقعد معه فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ذكر ذلك ابو حيان في النهر في قوله سبحانه وتعالى « وسع كرسيه السموات والارض » وقال يعني أبا حيان قرأت في كتاب العرش لاحمد بن تيمية ماصورته بخطه: انتهت عبارة كشف الظنون ثم نقلهامن طريق آخر عن السبكي وحط على الشيخ ابن تيمية ونسبه الى القول بالتجسيم وهو براء من ذلك. فلما رأيت هذه العبارة بحثت عن كتاب العرش ووجدته عند بعض الاصدقاء فقرأته مرارا ونسخته بيدي من النسخة وماوجدت لهذه العبارة رائحة والنسخة التي قرأتهاونسختها هي بخط يماني بدون نقط الظاهر انها كتبت من عهد قديم وكادت ان تمزق من قدمها ولحقتها الارضة. فما قولكم في هذه العبارة ايجوز نسبتها الى هذا الامام بعد ان بحثنا عنها فما وجدناها في كتابه؟ افيدوني ولكم الاجر سيدي

محبكم بالحجاز

م ح ن

﴿ أجوبة المنار ﴾

نقول قبل كل شيء ان الشيخ يوسف النبهاني لا يوثق بعلمه ولا بنقله، ولا ينبغي لكم ان تحفلوا بكتبه، وقد سئلنا غير مرة عن بعض الخرافات التي يبثها في كتبه الملفقة فلم نجب السائلين بشيء، اذ كان يتوقف ذلك على مراجعة الكتب التي يسألون عما ورد فيها وأي عاقل يسمح باضاعة وقته في مراجعة تلك الكتب. اما وقد ذكرتم في هذا الرقيم ماسألتم عنه فاليكم الجواب والله الهادي الى الصواب

أما الجواب عن السؤال الاول فاعلم أنه قد ورد في الابدال عدة روايات لا يصح منها شيء وان اشار في كنز العمال الى تصحيح حديث علي عند احمد «الابدال يكونون بالشام وهم أربعون رجلا كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا يسقى بهم الغيث وينتصر بهم على الاعداء ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب» وفي رواية عنه انهم ستون . وفي رواية عن عبادة عند أحمد وأخرى عن ابي هريرة انهم ثلاثون أخرجها عنه ابن حبان في تاريخه .

ولم أر أحدا من المحدثين الحفاظ خرج ماذكره النبهاني عن علي ولكن ذكره ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية على انه من كلام علي كرم الله وجهه لا من روايته المرفوعة الى النبي صلى الله عليه وسلم . وكذلك حديث ابن مسعود لم أر من أخرجه عنه باللفظ الذي ذكره . ولكن ابن حجر اورده في فتاواه بعد أثر علي عازيا اياه الى اليافعي (وذكر في نسخة الفتاوى المطبوعة بمصر الرافعي وهو غلط مطبعي) ولم ينقل عن ابن مسعود ولا غيره من الصحابة رضي الله عنهم . وكان أبي ابن حجر نقل عن اليافعي ان الابدال سبعة على الاصح ولذلك قال بعد ان أورد حديثه «والحديث الذي ذكره ان صح فيه فوائد خفية (منها) انه مخالف للعدد السابق قبله . (ومنها) انه يقضي ان الملائكة أفضل من الانبياء ?? يعني خلافا لجمهور أهل السنة» الى آخر ماقاله على تقدير صحة الحديث وماهو بصحيح فلا حاجة الى التعب في استنباط الفوائد والمباحث فيه . ثم قال ابن حجر بعد بحثه فيه «واعلم ان هذا الحديث لم أر من خرجه من حفاظ المحدثين الذين يعتمد عليهم ولكن وردت أحاديث تؤيد كثيرا مما ورد فيه

وذكر ماورد وحاول تقويته بالحديث الصحيح الذي رواه الشيخان

وغيرهما من طرق كثيرة وهو « لا تزال طائفة من امتي قائمة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي امر الله وهم ظاهرون على الناس » ثم نقل عن الامام احمد ان الابدال هم اهل الحديث وعبارته « ان لم يكونوا اهل الحديث فمن هم » واعتمد ابن حجر ان الخلاف في العدد من قبيل الاصطلاح

ثم ذكر واقعة له مع مشايخه في ذلك نذكرها هنا لما فيها من الدلالة على انهم كانوا يقلدون المتصوفة في هذه المسائل من غير ان يقوم عليها دليل من النقل قال

«ولقد وقع لي في هذا المبحث غريبة مع بعض مشايخي هي اني انما ربيت في حجور بعض اهل هذه الطائفة أعنى القوم السالمين من المحذور واللوم فوقر عندي كلامهم لانه صادف قلبا خالياً فتمكن . فلما قرأت في العلوم الظاهرة وسني نحو اربعة عشر سنة (كذا) فقرأت مختصر ابي شجاع على شيخنا ابي عبد الله الامام المجمع على بركته وتنسكه وعلمه الشيخ محمد الجويني بالجامع الازهر بمصر المحروسة فلازمته مدة وكان عنده حدة فانجرّ الكلام في مجلسه يوما الى ذكر القطب والنجباء والنقباء والابدال وغيرهم ممن مر فبادر الشيخ الى انكار ذلك بغلظة وقال « هذا كله لا حقيقة له وليس فيه شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم » فقلت له وكنت اصغر الحاضرين معاذ الله بل هذا صدق وحق لا مرية فيه لان اولياء الله اخبروا به وحاشاهم من الكذب وممن نقل ذلك الامام اليافعي وهو رجل جمع بين العلوم الظاهرة والباطنة . فزاد انكار الشيخ واغلاظه عليّ فلم يسعني الا السكوت فسكت واضمرت انه لا ينصرني عليه الا شيخنا

شيخ الاسلام والمسلين وامام الفقهاء والعارفين ابو يحيى زكريا الانصاري وكان من عادتي اني اقود الشيخ محمد الجويني لانه كان ضريرا واذهب انا وهو الى شيخنا المذكور اعني شيخ الاسلام زكريا يسلم عليه . فذهبت أنا والشيخ محمد الجويني الى شيخ الاسلام فلما قربنا من محله قلت للشيخ الجويني لا بأس ان اذكر لشيخ الاسلام مسألة القطب ومن دونه وننظر ماعنده فيها . فلما وصلنا اليه اقبل على الشيخ الجويني وبالغ في اكرامه وسؤال الدعاء منه ثم دعا لي بدعوات منها « اللهم فقهه فى الدين » وكان كثيرا مايدعو لي بذلك . فلما تم كلام الشيخ واراد الجوينى الانصراف قلت لشيخ الاسلام يا سيدي القطب والاوتاد والنجباء والابدال وغيرهم ممن يذكره الصوفية هل هم موجودون حقيقة ؟ فقال نعم والله ياولدي . فقلت له ياسيدي ان الشيخ – واشرت الى الشيخ الجويني – ينكر ذلك ويبالغ في الرد على من ذكره . فقال شيخ الاسلام هكذا تفعل ياشيخ محمد؟ وكرر ذلك عليه حتى قال له الشيخ محمد يا مولانا شيخ الاسلام آمنت بذلك وصدقت به وقد تبت . فقال هذا هو الظن بك يا شيخ محمد . ثم قمنا ولم يعاتبني الشيخ الجويني على ما صدر مني » اه

فيؤخذ من هذه الواقعة أمور (منها) ان ابن حجر الهيتمي تربى في حجر بعض أهل الطريق وصار تقليدهم وجدانا له لا يقبل فيه قول مشايخه وان كانوا عنده من أئمة العلم والعمل والتنسك كالشيخ الجويني وهذا هو السبب في انكاره الشديد على شيخ الاسلام ابن تيمية الذي كان لا يقبل في الدين شيئاً الا اذا ثبت في الكتاب او السنة نصا أو دلالة . ومن اتبع وجدانه وشعوره النفسي في الأمر لا يقبل فيه دليلا وقد قال الاستاذ

الامام « ان غاية التصوف جعل الدين وجدانا للانسان الذي يتربى عليه لا يقبل فيه مناقشة ولا جدالا » وهذا حسن اذا لم يدس في الدين ما ليس منه. (ومنها) بيان انه كان يوجد في علماء الازهر الاعلام الصالحين الى ذلك العصر من ينكر جهرا على من يقول بوجود القطب والابدال واضرابهم (ومنها) ان سؤال شيخ الاسلام زكريا عن المسألة كان مبنيا على ان ما يقوله الصوفية في القطب والابدال صحيح ام لا لا على ان ذلك هل صح في الاحاديث ام لا . وكذلك كان جواب ابن حجر لشيخه الجويني فقد قال له ان الاولياء اخبروا بذلك وحاشاهم من الكذب ولم يقل ان ذلك قد صح في الحديث . وهذا يوافق قوله الذى أشرنا اليه آنفا في الاختلاف في عدد الأبدال انه من الاصطلاحات ولا مشاحة في الاصطلاح (ومنها) ان شيخ الاسلام لم يحتج على الشيخ الجويني بحديث في ذلك . ونحن نقول أيضاً ان الصوفية اصطلحوا على وضع هذه الاسماء لمسميات اعتبروا فيها صفات خاصة ولا مشاحة في الاصطلاح كما قال ابن حجر

وجملة القول ان حديث ابن مسعود الذي أورده النبهاني لم يروه الحفاظ عنه فهو مختلق عليه وان حديث عليّ لم يرد ايضا باللفظ الذي اورده النبهاني بل ورد بألفاظ أخرى أقواها ما اخرجه الامام أحمد وقد تقدم . ومن هنا تعلم ان النبهاني لا علم له بالحديث وانما هو حاطب ليل لا يوثق بنقله كما لا يوثق برأيه ولا يعتد باختياره فانه مقلد للمقلدين الذين يروجون الخرافات وكل ما يحظى صاحبه عند العامة . فهذا هو الجواب عن السؤال الاول

وأما الجواب عن الثاني وهو هل الخضر في الاحياء الى اليوم ؟ فاعلم

ان العلماء قد اختلفوا فيه فنفاه بعضهم وأثبته آخرون ولكن لم يقل أحد إنه يجب على الناس الايمان به والنفي هو الأصل وليس عند المثبتين دليل من كتاب الله ولا من الاحاديث التي يحتج بها ولا من الاجماع الاصولي (كيف والمسألة خلافية) والقياس لا مدخل له في المسألة فدعوى وجود الخضر في الاحياء لا تقوم لها حجة شرعية وانما تبع القائلون بها الصوفية لثقتهم بهم في كل شيء حتى انهم لا ينكرون عليهم ما يخالف الشرع مخالفة صريحة بل يؤولونه ان لم يؤولوا النص الشرعي . على أن بعض الصوفية يقولون ان الخضرية مقام أو مرتبة لبعض الصالحين يطلق لفظ (الخضر) على كل من يصل اليها . فما ذكر من اجتماع بعض الصوفية بالخضر يفسر بذلك . ومنهم الشيخ الاكبر صاحب الفتوحات المكية فانه يذكر انه اجتمع بالخضر كثيراً ويذهب بعضهم الى ان مراده بذلك الاجتماع الروحاني كما يقول انه اجتمع بفلان وفلان من الانبياء وغيرهم ممن علم موتهم باليقين كالسبتي ابن هارون الرشيد فانني قرأت له في الفتوحات انه رأى انسانا يطوف بالبيت مع الطائفين فينفذ من بين الرجلين المتلاصقين من غير ان يفصل بينهما او يشعرا به فعلم انه روحاني فتبعه حتى كلمه وعلم انه السبتي ابن هارون الرشيد . وقد أطال السيد الآلوسي الكلام في هذه المسألة في تفسيره روح المعاني فكتب فيها عدة أوراق لعله أودعها كل ما قيل فيها وخرج منها على انه لا دليل على وجود الخضر حيا لا من الشرع ولا من العقل

وأما الجواب عن الثالث، وهو ما حكم من يكذب بوجود الخضر وغيره من الاقطاب؟ فقد علم مما مر أنه لا يطالب مسلم بأن يؤمن بذلك ولم يقل أحد من أئمة الاصول والكلام إن ذلك من عقائد المسلمين فلا شيء على

من كذب ذلك وقد رأيت ان الشيخ الجويني كان ينكر ذلك وهو معدود من أئمة العلماء الصالحين بالازهر ولولا واقعة ابن حجر معه التي استتبعت معاتبة شيخ الازهر أو شيخ الاسلام زكريا لبقي على انكاره ككثير من العلماء

وأما الجواب عن الرابع وهو هل إجازة اهل الطريق التي ذكرها النبهاني معتبرة عند المحدثين وعن الخامس وهو هل أخذ الحسن البصري عن علي كرم الله وجهه فجوابهما «لالا» قال الشوكاني في الفوائد المجموعة في الاحاديث الموضوعة: «حديث ان النبي صلى الله عليه وسلم ألبس الخرقة على الصورة المتعارفة عند الصوفية باطل لا أصل له • قال ابن حجر «لم يرد في خبر صحيح ولا حسن ولا ضعيف أن النبي صلى الله عليه وسلم ألبس الخرقة على الصورة المتعارفة بين الصوفية أحدا من أصحابه ولا أمر أحدا من أصحابه بفعل ذلك • وكل ما يروى في ذلك صريحا فهو باطل » وقال «من المفترى ان عليا ألبس الخرقة الحسن البصري فان أئمة الحديث لم يثبتوا للحسن من علي سماعا فضلا عن ان يلبسه الخرقة » وقد صرح بمثل ماذكره ابن حجر جماعة من الحفاظ كالدمياطي والذهبي وابن حبان والعلائي والعراقي وابن ناصر »اه

واما الجواب عن السادس – وهو « ما على من انكرها » اي اجازة الصوفيه بخرقتهم عن الحسن عن علي –فقد علم جوابه مما قبله وهو انه ليس على المنكر لذلك الاما على كل من ينكر الاحاديث الموضوعة المعزوة الى الرسول صلى الله عليه وسلم كذبا وافتراء عليه وهل عليهم الا الثناء الحسن؟

واما الجواب عن السابع وهو أيجوز نسبة تلك العبارة في التجسيم الى شيخ الاسلام ابن تيمية بعد ماوجد كتاب العرش التي قيل انها فيه فتبين انها ليست

فيه؟ فجوابه ان ذلك لا يجوز بل كان من الادب مع هذا الامام الجليل أن يبرأ من مثل هذه العبارة وان وجدت في كتاب معزو اليه، ويحكم بأنها مدسوسة في ذلك الكتاب عليه، فقد عهد من المضلين، ان يدسوا في كتب المشهورين، كما وقع للشعراني في حياته وأثبت هو وغيره وقوع ذلك لغيره . كيف لا وان بين ايدينا كتبا كثيرة في التوحيد من مصنفات ابن تيمية وكلها مؤيدة لمذهب أهل السنة الصحيح وسلف الامة الصالحين لا تعدوه قط

باب الاخبار والآراء

الى الاحرار في روسيا وفي البلاد العثمانية وفي سائر البلاد (*)

أيها الاخوان : نخبركم بمزيد الاسف ان الدستور الايراني الجديد صار على شفا السقوط بسعي الحكومة المستبدة . نعم ان حكومتنا الايرانية المستبدة ضعيفة امام حزب المجاهدين الايرانيين . ولكن ما الحيلة والحكومات المستبدة تتعاون وتتحد على اضطهاد الفقراء واستئصال المطالبين بالحرية والعدل . كانت الحكومات المستبدة المجاورة لفرنسا تساعد امبراطور فرنسا على محاربة طلاب الحرية كذلك تساعد الحكومة الروسية والحكومة العثمانيه حكومة ايران المستبدة على اسقاط الدستور الايراني وتبديد شمل احزاب الاشتراكيين الديموقراطين في ايران

ايها الاخوان : اذا كانت الحكومة المستبدة تتعاون على محافظة استبدادها ومصالحها فماذا يكون اذا نحن معاشر الاحرار اتحدنا على محاربة الاستبداد والمستبدين فنحن معاشر حزب الاشتراكيين

(*) جاءتنا هذه الرسالة باللغة التركية فترجمناها ونشرناها

الديموقراطين الايرانيين نرجو من اخواننا الاحرار في روسيا والبلاد العثمانية وغيرها من البلاد باسم الانسانية والحرية والنصيحة للنوع البشري ان يساعدونا في هذا السبيل ويظهروا امتعاضهم واستياءهم من الحكومتين الروسية والعثمانية اللتين لا تألوان جهداً في السعي لاسقاط الدستور الايراني بالتداخل فى امور ايران الداخلية نحن معاشر المجاهدين نرفع اصواتنا على عتبة مجلس الشورى الايراني قائلين :

ليحي جميع الاحرار والناصحين لوجه الانسانية على وجه البسيطة، لتحي الجمهورية الديموقراطية ولتسقط الحكومة المقلقة وليسقط الاغبياء الظالمون

حزب الديموقراطيين الاشتراكيين الايراني ٢٨ ذي الحجة سنة ١٣٢٥

فقيد الصحافة والوطنية

﴿ مصطفى باشا كامل ﴾

مالنا لا ننتهي من نعي" الا الى نعي" ، ولا نفرغ من ترجمة مبكي الا وتفجأ بتأبين مبكي ، وما بال أم لهيم تلتهم من المسلمين، أشهر الكتاب والسياسيين، فهاهي ذي قد اغتضرت اليوم أندى الصحافيين المصريين صوتا ، وأبعدهم في عالم السياسية صيتا ، وأشدهم في دهماء بلده تأثيرا ، وأكثرهم وليا ونصيرا ، مصطفى باشا كامل صاحب جريدة اللواء العربية ، ومدير جريدتي اللواء الفرنسية والانكليزية ، ورئيس الحزب الوطني الذي تأسس في مرض مماته ، واختاره رئيسا له مدة حياته ،

قضى رحمه الله تعالى عن أربع وثلاثين ربيعا قضى نصفها في السياسة ، ونصف هذا النصف في الصحافة ، باذلا فيما أخذ فيه جميع أوقاته ، مفرغا

فيه منتهى وجدانه وشعوره ، وما زال الشعور والوجدان أقوى المؤثرات في الانسان ،وقد أعجب بخطته في اللواء جمهور القارئين ، ثم تحزبت له نابتة كبيرة من المتعلمين ،بل عشقه بعض طلاب الحقوق عشقا، وملك قلوبهم ملكا، فظهر أثر تحزبها في تشييع جنازته بمظهر غريب،ما رؤي مثله من نسيب ولا قريب، حتى أثرت حالهم في جميع المشيعين، وجذبت قلوب الناظرين ، بل استعبرت المقل الجامدة ،وسحرت الافئدة الخامدة ،بل كان لهم بعد ذلك سلطان على اكثر الجرائد المصرية، حتى المخالفة للفقيد في آرائه السياسية، ومن كان بينه وبين اصحابها مناصبة شخصية،بل صار لهم ظهور سياسي يرجو الجذع نائله ، ويخشى القارح عقابله ، ومشى في جنازته خلق كثير ، في مشهد لم يعهد له نظير ، حمل فيه تلاميذ المدارس رايات للحداد ، يعلوها السواد ،وقدر عدد من شهد الجنازة بخمسة عشر ألفا ،ورأي بعضهم انهم يناهزون ثلاثين ألفا ،

كان رحمه الله تعالى مصداقا بينا لقوله صلى الله عليه وسلم « كل ميسر لما خلق له » فقد كان في سن الدراسة ، يحدث نفسه بالسياسة ، ويمنيها بالرياسة، فيحدو به ذلك الى مثاقفة الكبراء ، ويزجيه الى مناقشة الرؤساء والوزراء ،حتى فتحت له السياسة وهو في مدرسة الحقوق أبوابها ، وزينت له بأن يكون طلابها، فآثر لحبها التناوة، على المذاكرة بجد وعناية، حتى ظهر أثر ذلك في الامتحان ،على ما كان عليه من اللوذعة وجرأة الجنان ، على انه نال بعد ذلك شهادة الحقوق في مدرسة طولوز الفرنسية

وكان كبير النفس، طموحا الى المعالي ،جرئ الجنان ،طلق اللسان، قوي الشعور والوجدان ، متلافا للمال، اذا اقتضت الحال،فهذه هي الصفات

الفطرية ، التي أهلته لتلك الغاية الكسبية ، بافتراص الحوادث ، ومواتاة الوقائع ، ومساعدة الزمان ، واستعداد البيئة والمكان ،

أما استعداد البيئة فمنشؤه انه كان قد سبق لهذا الشعب حركة حيوية ، ونهضة اجتماعية ادبيه ، تلتها يقظة وطنية ، أنتجت ثورة شعبية عسكرية ، وعقب ذلك احتلال الانكليز للبلاد ، وايقاف حركة ذلك الاستعداد ، فسكتت الالسنة وسكنت الاقلام ، وغلت الايدي وقيدت الاقدام ، ولكن هذا الوقوف كان في الظاهر ، دون ماتنطوي عليه السرائر ، من ضغائن مضطربة ، وحفائظ مضطرمة ، وأوهام مفزعة ، وأحلام مزعجة ، مع مجاراة الامير توفيق للاحتلال ، ومواتاته له في كل حال ،

فبعد ان قضى الامير توفيق وولي الامير عباس دخلت البلاد في عهد جديد من الحركة الوطنيه ، تجلت فيه كتجليات الحقيقة الكلية ، فكان تجليها الاول هو التجلي العام ، الذى ظهر في الخواص والعوام ، وكان لسانه الناطق جريدتا المؤيد والاهرام ، ثم فتر التجلي في جميع الطبقات ، ثم ظهر في طبقة الضباط وقتا من الاوقات ، ثم فتر طائفة من الزمان ، ثم ظهر في مظهره الذي هو عليه الآن ، بأن نفخت روحه في الناشئين ، فقعلت فعلها في غير أصحاب العمائم من المتعلمين ، لان هؤلاء لا يعرفون لهم جنسية الا في الدين ، وقد كان مصطفى كامل (رحمه الله) هو المجلي ، في ميدان هذا الطور من اطوار التجلي ، ثم صار داعية النابتة الى هذه الوطنية وهاديها ، أو سائقها وحاديها ، وهي هي فوق المدعو والهادي ، وامام المسوق والحادي ،

وقد كنت اعجبت بما رأيت من تجلي الوطنية اول مقدمي لهذه البلاد فكتبت فيها مقالة في المؤيد عنوانها (الحياة الوطنية) اعجب بها كثيرون حتى

استظهرها بعض أساتذة المدارس الاميرية . ثم رأيت الدعوة موجهة الى جعل الوطنية جنسية للمسلمين، فانكرتها في المنار بالبرهان المبين، واكثرت من الكتابة فيها حتى في تفسير القرآن، ولا ينبغي لي الخوض في ذلك الا ن ،

عرفت مصطفى كامل في السنة الاولى من هجرتي لهذه البلاد وكنت أراه كثيراً في ادارة المؤيد اذ كنت اطبع المنار في مطبعة الآداب وكان معجبا بالمنار حتى كان يهنئني احيانا ببعض المقالات ويقول لي انك قادر على خدمة الاسلام انفع خدمة واجلها ولكن الكتابة لا تكفي وحدها فاطلب من الشيخ محمد عبده ان يجعلك خطيبا في أحد المساجد الكبيرة فان له نفوذا يمكنه من ذلك وهو صاحبك فيما أرى ولو كان لي به صحبة لطلبت لك منه ذلك ، ومن هذه العبارة يعلم رأيه في تأثير الخطابة

ثم اصدر جريدة اللواء — والمنار يومئذ في اصيل سنته الثانية — فنصحت له في تقريظها بان يتتبع مايكتب في الجرائد الاوربية عن الاسلام ويترجمه لجريدته ليكون لها امتياز عن غيرها من الجرائد الاسلامية وان يترك ما اشترطه من عدم ارسالها الا لمن يدفع قيمة الاشتراك سلفا فساءه ذلك ولكنه علم بعد التجربة انه لباب النصيحة . وانتقدت عليه الارجاف بمسألة الخلافة العربية اذ كان كتب ان في مصر من يسعى لها سعيها وبينت له وجه الضرر في ذلك الارجاف . فكبر عليه ذلك وقطع المبادلة الصحافية بيننا وبينه وانحى علينا بعد ذلك كثيراً لما كان عليه عفا الله عنه من الشدة على من خالفه ولو مهضوما، ونصر من وافقه ظالما كان او مظلوما، وكان الاول من اسباب بطء انتشار اللواء، على ماكان فيه من مواضع اعجاب الدهماء، كالمبالغة فى ذم المحتلين، وانتقاد الحكومة، ومدح الامة، وتحامي الانتقاد عليها، والتنويه

بالاستقلال ، والتعجل بطلب محو الاحتلال ، ولكن اللواء صار في هذه المدة الاخيرة من اهم الجرائد المصرية واكثرها انتشارا . فرحم الله مؤسسه وعفا عنه ولعلنا نوفق بعد الى كتابة شيء عن العبرة بسيرته في حياته وموته ،

تاريخ العرب والاسلام

(في سلك القصص والروايات)

لاسلوب القصص المعروفة بالروايات تشويق للمطالعة لا ينال منه الملل ، وجذب الى القراءة لا يخشى معه السأم . فاذا هي أودعت من الفوائد النافعة في التاريخ والآداب والاخلاق والسياسة وشؤون الاجتماع ما يتفق مع اللذة كانت من أقوى ذرائع تهذيب الجمهور ورفع طبقات العامة الى مستوى يتصلون به مع طبقات الخاصة حتى تكون الامة كسلسلة اذا تحرك أحد طرفيها انتقلت الحركة الى الطرف الآخر . وانه ليحزننا ان نرى اكثر القصص او الروايات كما يقال خالية من هذه الفوائد ، مشتملة على كثير من المفاسد ، تغري الفتيان والفتيات بالغرام ، وتجرئ الحيي على ارتكاب الحرام ، وتعلم الاغرار ، حيل الشطار ،

هذا وانا نحن المسلمين قد أصبحنا وامسينا أجهل الامم بتاريخنا ، وكيفية تلك النشأة الصالحة لملتنا ، وينابيع تلك الآداب ، التي أخضعت أمم المدنية لشراذم من الاعراب ، ذلك بأن تاريخ تلك النشأة لم ينظم في السلك العلمي الحديث ، وانما بقي روايات متفرقة كروايات الحديث ، لم يرزق من فلاسفة التاريخ من يستنبط حكمه ، كما رزق الحديث من الفقهاء من استنبط احكامه ،

فنحن الان في حاجة الى وضع تاريخ الاسلام في اسلوب علمي لاجل الخواص ، والى إيداعه في اسلوب قصصي يسهل تناوله حتى على العوام . وقد كان الوضع الاول آخر عمل توجهت اليه همة الاستاذ الامام ، وفي عزمنا ان نخلفه فيه ان شاء الله وامهلتنا الايام ، وأما الثاني فقد شرع فيه صديقنا السيد عبد الحميد الزهراوي ، العالم الاسلامي والكاتب الاجتماعي . وقد سمى الرواية الاولى (خديجة ام المؤمنين) وسننشرها في المنار بالتدريج ، وهاك مقدمتها في هذا الجزء

خديجة ام المؤمنين

(مقدمة)

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل ثلاثة عشر قرناً على الحساب القمري حدث في الكون حادث عظيم جداً لم يحدث بعده مثله الى الآن، وقد كان له دويّ قويّ وأثر كبير في آسيا وأوربا وأفريقيا وخلفه انقلاب عظيم في ممالك الارض وتغير جسيم في أحوال الأمم والشعوب، ذلك الحادث هو قيام العرب بعقيدة جديدة وانضمامهم جميعاً الى كلمة النبي الذى قام فيهم منهم وهو محمد عليه الصلاة والسلام وشروعهم جميعاً بالهجوم على الممالك وفوزهم بهذا الهجوم وانتصارهم وغلبتهم على الامم وانضمام أمم كثيرة الى عقيدتهم وتكوّن ملكهم العظيم من حدود الهند الى البحر الاطلانتيكي شرقاً وغرباً ومن سواحل البحر الاحمر الى سواحل بحر قزوين شمالا وجنوباً في أسرع ماعرف في التاريخ كله من الفتوحات الكبيرة السريعة

هذا الحادث العظيم يتلقاه بعض الناس بغير تفكر كأنه معتاد الحدوث كثيراً فلا يبحث هؤلاء عن سر حدوثه ولا يريدون أن يستفيدوا من التدبر والتفكر بسر ذلك النجاح العظيم الذي أوتيه أولئك القوم بسرعة

جديرة أن نشبهها بلمح البصر . وبعضهم يتلقاه كما هو أي يفهم انه حادث من أكبر الاحداث التي حدثت في الدنيا ويراه جديرا بالبحث والتأمل وامعان النظر ولدى التأمل نجد هناك جزئين تمّ بهما هذا الحادث العظيم الاول النبي محمدعليه الصلاة والسلام والثاني الذين آمنوا به ونصروه من العرب . وبديهي ان أول مؤمن به هو صاحب الفضل الاول بعدالنبي في إقامة هـذا الصرح العظيم

ومن الامور التي يحق أن يفخر بها جنس النساء ان هـذا الفضـل الاول أي السبق بالايمان به والموافقة له كان نصيب سيدة من أشراف قومه هي زوجته السيدة خديجة بنت خويلدمن قريش . ولما كانت سيرة هذه السيدة الشريفة المساعدة في وضع الاحجار الاولى من هذا الحادث العظيم لاتخلو بالبداهة من فوائد جسيمة أزمعت ان أقدم في هذه الاوراق لمحبي الفوائد الادبية والاجتماعية والسياسية والتاريخية أعظم هدية مقتطفاً هذه الثمرات من دوحة حياة هذه السيدة الجليلة ولكن رأيت من اللازم جدا قبل دخولي بالقارئ على سيرتها ان أمرّ به مرة على قومها العرب عامة ثم قريش خاصة فان تعرفه بهم يساعده على معرفة هذه السيدة الجليلة

*
* *

العرب

العرب كسائر الامم أوائلهم مجهولة ، وأحوالهم منذ عرفوا معروفة ، نقف الآن عند هاتين الكلمتين ونلتفت قليلا الى مبحث لطيف نختصر فيه الكلام ثم نعود الى سياق حديثنا

يزعم كثير من الاقوام انهم يعرفون أصول أمتهم الى أبي البشر الاول ومن الاقوام من يزعمون انهم يعرفون سلاسل أصول الامم كلها حتى يصلوا بها الى ذلك الاصل الاول

ومن التزم التحقيق لايستطيع أن يجزم بشيء مما يذكر عن تلك الاصول والاوائل . ومن تسامح بتصديق مايروى يتشابه عليه الامر فيحار في تصديق المتناقضات ، والترجيح بين المختلفات ، ومهما جنح الحريص على المعرفة الى الاستئناس بما يمكن قبوله من الحكايات في هذا الباب لايستغني عن طرح كثير منها مما تقوم الادلة على بطلانه

لماذا حرص كل الشعوب على معرفة أسلافهم الى أول أصل ؟ لاندري ولكن يلوح لنا انه لذت للا كثرين دعوى هذه المعرفة فابتدع كل قوم اسطورة في بيان أصلهم ينقلها الآباء للابناء ويسطرونها في كتبهم تسطيراً

اما الباحثون عن انساب الشعوب فلما يئسوا من هذه المعرفة قنعوا بأن تكون لهم معرفة ما بأصول الشعوب التي وجدوها متقاربة في اللغات وغيرها من المميزات وقد آنسوا من كثرة البحث والاستئناس بالمنقول ان البشر المعروفين اليوم هم من ثلاث سلالات (١) الساميةو (٢) الاريانية و(٣) التورانية

وظاهر من هذا انهم لما أرادوا وضع اسماء للاصول القليلة التى تفرعت منها هذه الشعوب المعروفة تساهلوا بقبول بعض ما لفق في حكاية البشر مما قبل التاريخ ولكن هذا لا يروي في الحقيقة غليل المحققين ولا غليل الخياليين فسيظل المحققون صابرين على جهل مثل هذا، ويبقى

الخياليون مستمسكين بما قد حكي لهم من قبل وربما تسلى محب الحقيقة عن احتجابها برؤية تماثيلها وما تماثيلها الا أساطير الاولين

اما نحن فنرى انه لا حاجة للتسلي بتلك الاساطير لاننا اذا اشتهينا المعرفة فأمامنا مما قد نستطيع معرفته ما تنفد مراحل أعمارنا من غير ان نقطع في ميدانه شوطاً بعيداً ، وما الوصول الى غاية في هذا الميدان مما يجوز ان نطمع فيه

فاذا أردنا الآن ان نعرف العرب فعلينا قبل كل شيء ان نريح أنفسنا من الطمع بمعرفة سلسلتهم الآدمية الى آدم أو الى نوح بالتفصيل كما قطعنا طمعنا من معرفة ذلك في سائر الامم فلهذا لا حاجة الى ما يذكره علماء الانساب من كون هذا الجيل من الاجيال السامية اذ يقال أنى لهم العلم بسام ابي الشعوب السامية وكيف يبني أهل الفن مبادىء على شيء غير معروف بالطرق التي تفيد العلم اليقيني ؟ وما أغنى من يريد ان يعرف جيلاً كالعرب عن الاستعانة بأساطير الاولين

* * *

يقول المؤرخون ان العرب ثلاثة أقسام (١) بائدة و(٢) عاربة و(٣) مستعربة اما البائدة فهم العرب الاول الذين ذهبت عنا تفاصيل اخبارهم لتقادم عهدهم وهم عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس ، وجرهم الاولى ، واما العرب العاربة فهم عرب اليمن من ولد قحطان ، والعرب المستعربة هم ولد اسماعيل بن ابراهيم

هذا قولهم وهو لا يعجبني لان البائدة ليست موجودة حتى تعدّ وان كانوا يعدونها لان منها اشتق غيرها فهذه شهادة بأنها لم تبد . وقد

ذكروا في هذا التقسيم عرب اليمن من ولد قحطان قسماً مستقلا ولم يذكروا لنا ممن هو قحطان هذا • وذكروا أولاد اسماعيل بن ابراهيم قسما مستقلا ولم يأتوا بدليل قويم على انه تفرع من اسماعيل ذرية مستقلة هم العرب المستعربة . وجل ما ذكروه ان اسماعيل الذي كان غريباً في جوار مكة المكرمة تزوج بامرأة عربية من تلك القبائل التي كانت حولها، فهل انقطع نسل تلك القبائل حتى أصبح لا يذكر اذا ذكر العرب ثم تبارك نسل اسماعيل الغريب وحده حتى صار قسما مستقلاً هو ثالث ثلثة أو ثاني اثنين اذا ذكر العرب ؟ لسنا ندري ولكننا نعرف ان هذا من جملة الاقوال التي تكتسب بكثرة الموافقة في مرور القرون صبغة لا تزول فتغر الاكثرين وهي في الحقيقة لا تصبر على النقد والحك فليت أولي الالباب يكثرون من حك هذه المشهورات

وانما يعجبني جداً في هذا الباب ما روي من ان النبي العربي عليه السلام كان اذا انتسب يقف عند عدنان ولا يتجاوزه ويقول «كذب النسابون»(١) ويعني بذلك الذين يزعمون معرفة الانساب الى آدم أو الى نوح

اما الذي لا يغير النقد من سطوع جوهره شيئاً فهو ان العرب يوم ظهر فيهم النبي الذي أعلى شأنهم كانوا متفرقين في أقطار جزيرة العرب ومنقسمين قبائل كل قبيلة تذكر لنفسها نسباً تقف فيه عند رجل معروف لديها وتمسك عما وراءه. والمشهور ان لقبائل الحجاز أصلا ، ولقبائل اليمن أصلا آخر ، وللقبائل بعد ذلك أصول متفرعة من أحد الاصلين •

(١) رواه ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس وتتمته : قال الله تعالى «وقروناً بين ذلك كثيراً»

وعرب العراق والشام ترجع الى أحد هذين الاصلين أيضا ، فعدنان هوأبو عرب الحجاز غالبا، وقحطان هوأبو عرب اليمن والعراق والشام غالبا

وان قال قائل كيف عرف هذا عن العرب وهم أهل بادية متشتتون متفرقون، متقاتلون متذابحون، لا ملك لهم جامع ، ولا شرع فيهم وازع، ولا يد لهم في الاعمال الاجتماعية ، ولا نصيب لهم في الشؤون السياسية، وليس لهم قبل الاسلام كتاب معروف تدون فيه أخبارهم، وتذكر فيه مآثرهم وآثارهم ، فمن أجل ذلك لا تجوز الثقة بما ينقل ويحكى عنهم ولسنا نعرفهم الا بالاسلام ، فالاسلام قد جمع الاوزاع من أهل هذه اللغة الواحدة على كلمة الغزو ، وهذا لا يثبت ان العرب كانوا يعرفون لقبائلهم أصولا وانهم كانوا يتعارفون بأنسابهم ؟ ؟

نقول لصاحب هذا القول ان العرب لم يكونوا مجهولين ولا مجهولة أخبارهم فاذا قلنا انهم لم يكونوا أهل كتابة وتاريخ فأشعارهم المحفوظة المنقولة هي ديوان سيرهم ، واذا لم نثق بنقل أشعارهم استطعنا ان نعرف العرب من تاريخ الامم المجاورة لهم . فالفرس قد سبروهم لان من العرب ملوكا كانوا لهم خاضعين ، وقواداً كانوا بأمرهم عاملين . والروم قد خبروهم لان في مملكتهم ملوكا وقواداً وولاة من العرب، والديانة المجوسية تعرفهم لان منهم من كان على دين ملوك فارس ، والكنائس تعرفت بهم لان منهم نصارى بل قسيسين ورهبانا، وبيع اليهود ماجهلتهم، والفلسفة ما أنكرتهم، والحضارة قد ألمت بمساكنهم (في اليمن والعراق والشام) ومخالطة الامم أخذوا بقسط منها وأخذت بقسط منهم، فكيف يكون هذا الجيل مجهولا بعد كل هذا ؟

ان العرب كانوا معروفين . ومما عرفوا واشتهروا به الحرص على وحدتهم القومية فكانوا أمام الغريب أمة واحدة لها وحدة باللغة والنسب واتصال الديار والعصبية عند التناصر فاذا رجعوا الى ما بينهم كانوا قبائل شتى تنتمي كل قبيلة الى أب لها ثم يجمع قبائل كثيرة منهم أب واحد وهكذا. ولا يستبعد من أمة محتاجة الى التناصر وليس لها كسائر الامم كتاب يجمع أخبارها وسير ابطالها أن يعني كثير من أفرادها بحفظ ذلك في أذهانهم وأية أمة ممن نرى يتناسى أفرادها سيرة أبطالهم . وقد كان الرجل من العرب اذا عظم أمره أو كثر ماله انفرد بأهله وانتمت اليه الذرية ووضعوا لانفسهم نسبة جديدة من غير أن يضيعوا حظهم من الارتباط بالنسبة الاولى لان لهم عند التناصر حظا منها عظيما

يذكر أحد علماء هذا الشان ان العرب كانت قبائلهم ارحاء وجماجم فالارحاء هي القبائل التي أحرزت دورا ومياها لم يكن للعرب مثلها ولم تبرح من أوطانها ودارت في دورها كالارحاء على أقطابها الا أن ينتجع بعضها في البرحاء وعام الجدب. والجماجم هي القبائل التي يتفرع من كل واحدة منها قبائل اكتفت باسمائها دون الانتساب اليها فصارت كانها جسد قائم وكل عضو منها مكتف باسم معروف بموضعه

وكان علم النسب من جملة علوم العرب قد أثره عنهم أهل الرواية أول كل شيء . ونقلوا فيه حكايات كثيرة (منها) ماذكروه عن يزيد بن شيبان بن علقمة بن زرارة بن عدس وذلك انه رأى في منى رجلا على راحلة ومعه عشرة شباب بأيديهم المحاجن ينحون الناس عنه ويوسعون له

فدنا منه وقال له: ممن الرجل؟ فقال «اني رجل من مهرة ممن يسكن الشجر» قال يزيد فكرهته ووليت عنه فناداني من ورائي: مالك؟ قلت «لست من قومي ولست تعرفني ولا أعرفك» قال «ان كنت من كرام العرب فسأعرفك» قال يزيد فكررت عليه راحلتي وقلت «اني من كرام العرب» قال فمن أنت؟ قلت «من مضر» قال «فمن الفرسان أنت أم من الارحاء؟» فعلمت انه أراد بالفرسان قيساً وبالارحاء خندفا. فقلت «بل من الارحاء» قال «أنت امرؤ من خندف» قلت «نعم» قال «من الارومة أنت أم من الجماجم؟» فعلمت انه أراد بالارومة خزيمة وبالجماجم بني ادّ بن طابخة. قلت «بل من الجماجم» قال «فانت امرؤ من بني ادّ بن طابخة» قلت «أجل» قال «فمن الدواني أنت أم من الصميم؟» فعلمت انه أراد بالدواني الرباب ومزينة وبالصميم بني تميم. قلت «من الصميم» قال «فأنت اذاً من بني تميم» قلت «أجل» قال «فمن الاكثرين أنت أم من الاقلين أو من اخوانهم الآخرين؟» فعلمت انه أراد بالاكثرين ولد زيد وبالاقلين ولد الحارث وباخوانهم الآخرين بني عمرو وبني تميم. قلت «من الاكثرين» قال «فأنت اذا من ولد زيد» قلت «أجل» قال «فمن البحور أنت أم الذرا أم من الثماد؟» فعلمت انه أراد بالبحور بني سعد وبالذرا بني مالك بن حنظلة وبالثماد امرأ القيس ابن زيد. قلت «بل من الذرا» قال «فأنت رجل من بني مالك بن حنظلة» قلت «أجل» قال «فمن السحاب أنت أم من الشهاب أم من اللباب؟» فعلمت انه أراد بالسحاب طهية وبالشهاب نهشلا وباللباب بني عبد الله بن دارم. فقلت له «من اللباب» قال «فأنت من بني عبدالله بن دارم» قلت «أجل» قال «فمن البيوت أنت أم من الدوائر؟» فعلمت انه أراد بالبيوت ولد زرارة وبالدوائر

الاحلاف . قلت « من البيوت » قال « فأنت يزيد بن شيبان بن علقمة ابن زرارة بن عدس وقد كان لابيك امرأتان فأيهما أمك ؟

***

ولقد غلط من ظنوا ان العرب لم يكن لهم من حضارة ولم يكونوا على شيء مما عليه الامم من الروابط كلا بل كان لهم حضارات وملوكهم التبابعة في اليمن معروف أمرهم عند المشتغلين بالتاريخ . وملوك الحيرة (في العراق) مشهورون من عرف تاريخ الفرس عرفهم وان جهل تاريخ العرب أولهم مالك بن فهم بن غنم بن دوس من سلالة الازد من ولد كهلان بن سبا بن يشحب بن يعرب بن قحطان وكان ملكه في أيام ملوك الطوائف الفارسيين وملك بعده أخوه عمرو بن فهم ثم ملك بعد عمرو ابن أخيه جذيمة الابرش بن مالك بن فهم وجذيمة هذا هو صاحب الحديث المشهور مع الزباء (زنوبيا) صاحبة تدمر وخلاصة الحديث فيما يروي مؤرخو العرب ان جذيمة قتل أباها فاحتالت عليه الزباء وأطمعته في نفسها حتى اغتر وقدم اليها فقتلته وأخذت بثار ابيها . وبعد قتله انتقل الملك الى يد ابن اخته عمرو اللخمي جد الملوك المناذرة اللخميين .

والملوك الغسانيون في الشام مشهورون أيضا لا يجهلهم من عرف تاريخ الرومان اذا جهل تاريخ العرب . وأصل غسان من اليمن من بني الازد ابن الغوث ، تفرقوا من اليمن بسيل العرم ، ونزلوا على ماء بالشام يقال له غسان فنسبوا اليه وكان قبلهم بالشام عرب يقال لهم الضجاعمة من سليح فأخرجتهم غسان من ديارهم وقتلوا ملوكهم وصاروا موضعهم .

وأول من ملك من غسان جفنة بن عمرو بن ثعلبة، وكان ابتداء ملكهم قبل الاسلام باربع مئة سنة وقيل أكثر من ذلك، ولما ملك جفنة وقتل ملوك سليح دانت له قضاعة ومن بالشام من الروم، وبنى بالشام عدة مصانع ولما مات ملك بعده ابنه عمرو بن جفنة، وبنى بالشام عدة ديور منها دير حالي ودير أيوب ودير هند، ثم ملك بعده ابنه ثعلبة بن عمرو وبنى صرح الغرير في أطراف حوران مما يلي البلقاء. ثم ملك الحارث بن ثعلبة، ثم ملك بعده ابنه جبلة بن الحارث وبنى القناطر وأدرح والقسطل، ثم ملك بعده ابنه الحارث بن جبلة وكان مسكنه بالبلقاء فبنى بها الحفير ومصنعه، ثم ملك بعده المنذر الاكبر بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة الاول، ثم ملك بعده أخوه النعمان بن الحارث ثم ملك بعده أخوه جبلة بن الحارث ثم ملك بعدهم أخوهم الايهم بن الحارث وبنى دير ضخم ودير النبوة . ثم ملك أخوهم عمرو بن الحارث ثم ملك جفنة الاصغر ابن المنذر الاكبر، وهو الذي أحرق الحيرة، وبذلك سموا ولده آل محرق. ثم ملك بعده أخوه النعمان الاصغر بن المنذر الاكبر ثم ملك النعمان بن عمرو بن المنذر، وبنى قصر السويدا ولم يكن عمرو أبو النعمان المذكور ملكا وفي عمرو المذكور يقول النابغة الذبياني

علي لعمرو نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات عقارب

ثم ملك بعد النعمان المذكور ابنه جبلة بن النعمان، وهو الذي قابل المنذر اللخمي بن ماء السماء . ثم ملك بعده النعمان بن الايهم بن الحارث بن ثعلبة، ثم ملك أخوه الحارث بن الايهم، ثم ملك بعده ابنه النعمان بن الحارث، وهو الذي أصلح صهاريج الرصافة وكان قد خربها بعض

ملوك الحيرة اللخميين ، ثم ملك بعده المنذر بن النعمان ، ثم ملك بعده أخوه عمرو بن النعمان ، ثم ملك أخوهما حجر بن النعمان ، ثم ملك ابنه الحارث بن حجر ، ثم ملك ابنه جبلة بن الحارث ، ثم ملك ابنه الحارث ابن جبلة ، ثم ملك ابنه النعمان بن الحارث ، ثم ملك بعده الايهم بن جبلة ابن الحارث وهو صاحب تدمر وكان عامله يقال له القين بن خسر وبنى له قصراً بالبرية عظيما ومصانع . ثم ملك بعده اخوه المنذر بن جبلة ثم ملك بعده اخوهما شراحيل بن جبلة ثم ملك اخوهم عمرو بن جبلة ثم ملك بعده ابن اخيه جبلة بن الحارث بن جبلة ، ثم ملك بعدهم جبلة بن الايهم بن جبلة ، وهو آخر ملوك بني غسان ، وهو الذي اسلم في خلافة عمر ثم عاد الى الروم

***

ومن ملوك العرب ملوك كندة الذين من سلالتهم امرؤ القيس الشاعر المشهور أولهم حجر آكل المرار بن عمرو وخلف على الملك ابنه عمرو المقصور سمي بالمقصور لانه اقتصر على ملك أبيه ثم ملك بعده ابنه الحارث بن عمرو وقوي ملك الحارث المذكور لانه وافق كسرى قباذ بن فيروز على الزندقة والدخول في مذهب مزدك فطرد قباذ المنذر ابن ماء السماء اللخمي عن ملك الحيرة وملك الحارث المذكور موضعه فعظم شان الحارث المذكور فلما ملك انوشروان أعاد المنذر وطرد الحارث المذكور فهرب وتبعته تغلب وعدة قبائل فظفروا بأمواله وبأربعين نفساً من ذوي قرباه فقتلهم المنذر في ديار بني مرين وهرب الحارث الى ديار كلب وبقي بها حتى مات . ومن أولاد الحرث هذا حجر أبو امرؤ

القيس الشاعر وكان حجر قد ملكه ابوه على بني أسد بن خزيمة فبقي أمره متماسكا فيهم مدة بعد ذلك ثم تنكروا عليه فقاتلهم وقهرهم ودخلوا في طاعته ثم هجموا عليه بغتة وقتلوه غيلةً وفي ذلك يقول ابنه امرؤ القيس أبياتاً منها

بنو أسد قتلوا ربهم ألا كل شيء سواه خلل

وطالب امرؤ القيس بهذا الملك بعد ابيه فاستنجد ببكر وتغلب على بني أسد فأنجدوه وهربت منهم بنو أسد وتبعهم فلم يظفر بهم ثم تخاذلت عنه بكر وتغلب وتطلبه المنذر بن السماء فتفرقت جموع امرئ القيس خوفاً من المنذر ، وخاف امرؤ القيس منه أيضاً فصار يدخل على قبائل العرب ، وينتقل من أناس الى أناس حتى قصد السموأل بن عاديا اليهودي فأكرمه وأنزله وأقام عنده ثم سار الى ملك الروم مستنجدا به وأودع أدراعه عند السموأل وكانت مئة وفي مسيره الى ملك الروم قال قصيدة تشعر بلسان حاله ومنها قوله

تقطع أسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيزرا
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

وقد مات في هذا السفر بعد عودته من عند قيصر

فبالله كيف تكون مجهولة الامة التي فيها الملوك والاقيال، وقد وقفت أمام الامم والاجيال، سنين من الدهر، لا يعرف لها حصر، لعمرك ان القول بأن هؤلاء القوم كانوا مجهولين وانهم كانوا متشتتين من غير ملك جامع ، ولا شرع وازع ، هو قول يرسله صاحبه من غير ان يكلف نفسه بحثا وهو لما يحط بذلك خبرا

ومتى كان العرب معروفين عند غيرهم كما أوضحنا – ولدينا مزيد – كانوا هم أحق بمعرفة انفسهم وحفظ مفاخرهم وعصبياتهم . وما نقل الينا عنهم من ذلك ليس منه شيء فوق العقل ولا وراء الحس بل القرائن له شاهدة، وأمثاله امام أعيننا مشاهدة ، واذا لم تجز الثقة بما ينقل من هذه الاخبار لم يكن غيرها أحق بالثقة لعمر الحق فان تزوير الاساطير لا يستبعد وقوعه في كل أمة من الامم ذوات الزبر والاسفار وليست الكتب أحق بالصدق من القرائن الشاهدة والنظائر الناطقة

فمن شاء ان لا يثق بمنقول البتة لا يضرني رأيه ولا يضر التاريخ والمنقول ولا يضر العلماء الذين يحترمون التاريخ كثيرا وانما يضره وحده . يقلل استفادته من المنقول ، ويكثر وساوسه وغروره ، ثم يصل الى درجة لا يثق معها أحد بمعقوله . ومن شاء ان يثق بالمنقول عن الامم دون العرب لا أناقشه لانه شهد لي على نفسه شهادة كافية

ولا أزيده شيئاً على ما أوضحت به ان العرب تجوز الثقة ببعض ما ينقل عنهم كما تجوز الثقة ببعض ما ينقل عن غيرهم

* * *

من أجل هذا نؤمن بما نقل الينا من نسب سيدتنا التي نروي هنا سيرتها وهي خديجة القرشية فان هذا النقل من النقول التي لا تجد النفس حاجةً للتردد في قبولها

وقد قلنا آنفاً ان لهؤلاء العرب المعروفين أصلين معروفين عندهم ومجهول ما وراءهما وهما عدنان وقحطان ، فاما قحطان فقد أخذت ذريته

بحظها من الملك لأن كل ملوك العرب المشهورين كانوا من ذريته واما عدنان فان حظ ذريته تأخر قليلا ولكنه كان لعظمه متجاوز النسبة أي انه لا نسبة بين حظ القحطانيين الذين كان يقوم منهم ملوك ثم ينطفىء مجدهم وحظ اخوانهم العدنانيين الذين أشرق منهم نور مبين بهر العالمين أجمعين

فلذلك نلم هنا بذكر الذرية العدنانية دون الذرية القحطانية لاننا نريد ان يتعرف القارىء بقوم خديجة الخصوصيين . ﴿ فعدنان ﴾ ولد له ﴿ معد ﴾ ومعد ولد له ﴿ نزار ﴾ وأولاد نزار أربعة ﴿ مضر ﴾ وإياد وربيعة وأنمار وقد فارق إياد الحجاز وسار بأهله الى أطراف العراق . ومن ذريته كعب بن مامة الايادي المشهور بالجود وقس بن ساعدة الايادي المشهور بالفصاحة . ومن ذرية ربيعة بن نزار قبائل عنزة وبكر ووائل وتغلب ومن تغلب كليب ملك بني وائل الذي قتله جساس فهاجت لقتله الحرب بين بني وائل وبين بني بكر وبين بني تغلب . ومن بني بكر ابن وائل بنو شيبان ومن مشهوريهم مرة وابنه جساس قاتل كليب وطرفة ابن العبد الشاعر ومن بني بكر بنو حنيفة ومن مشهوريهم مسيلمة الكذاب

وولد لمضر بن نزار ﴿ إلياس ﴾ وقيس عيلان وكثرت ذرية قيس هذا فمن ذريته قبائل هوازن . ومن هوازن بنو سعد بن بكر الذين منهم مرضعة النبي (ص) ومن ذريته بنو كلاب وقبائل عقيل وبنو عامر وصعصعة وخفاجة وبنو هلال وثقيف وبنو نمير وباهلة ومازن وغطفان وبنو عبس الذين منهم عنترة المشهور وقبائل سليم وبنو ذبيان وبنو فزارة وكان بين بني عبس وبني ذبيان حرب داحس التي ظلت أربعين عاماً . ومن بني ذبيان النابغة الذبياني الشاعر المشهور

وولد لالياس بن مضر « مدركة » وطابخة ومن ذرية طابخة بنو تميم والرباب وبنو ضبة وبنو مزينة

وولد لمدركة بن الياس « خزيمة » وهذيل والى هذيل هذا تنتسب جميع قبائل الهذليين ومنهم أبو ذؤيب الهذلي الشاعر المشهور

وولد لخزيمة بن مدركة « كنانة » وأسد والهون وولد لكنانة ابن خزيمة « النضر » وملكان وعبد مناة وعمرو وعامر ومالك فمن ملكان بنو ملكان ومن بني عبدمناة بنو غفار ومن مشهوريهم أبو ذر ، وبنو بكر. ومن بني بكر هؤلاء الدئل ومن مشهوريهم أبو الاسود الدئلي وبنو ليث وبنو الحارثة وبنو مدلج وبنو ضمرة

وولد للنضر بن كنانة « مالك » ولم يعرف له ولد سواه وولد لمالك هذا « فهر » وفهر هذا هو الذي سمي قريشاً ولم يولد لمالك غير فهر وولد لفهر « غالب » ومحارب والحارث فمن محارب بنو محارب ومن الحارث بنو الخلج ومن مشهوريهم أبو عبيدة بن الجراح وجميع ذراري فهر يقال لهم قرشيون

وولد لغالب بن فهر « لؤي » وتيم الادرم ومن تيم المذكور بنو الادرم ومعنى الادرم ناقص الذقن

وولد للؤي بن غالب « كعب » وسعد وخزيمة والحارث وعامر وأسامة . ومن ذرية عامر بن كعب عمرو بن ود فارس العرب الذي قتله عليّ بن أبي طالب

وولد لكعب بن لؤي « مرة » وهصيص وعدي فمن هصيص

بنو جمح ومن مشهوريهم أمية بن خلف وأخوه أبي بن خلف وكلاهما كانا عدوين عظيمين للنبي (ص) ومن هصيص أيضاً بنو سهم ومن عدي بنو عدي ومن مشهوريهم عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد

وولد لمرة بن كعب ﴿ كلاب ﴾ وتيم ويقظة فمن تيم بنو تيم ومن مشهوريهم أبو بكر الصديق وطلحة ومن يقظة بنو مخزوم ومن مشهوريهم خالد بن الوليد وأبو جهل عمرو بن هشام

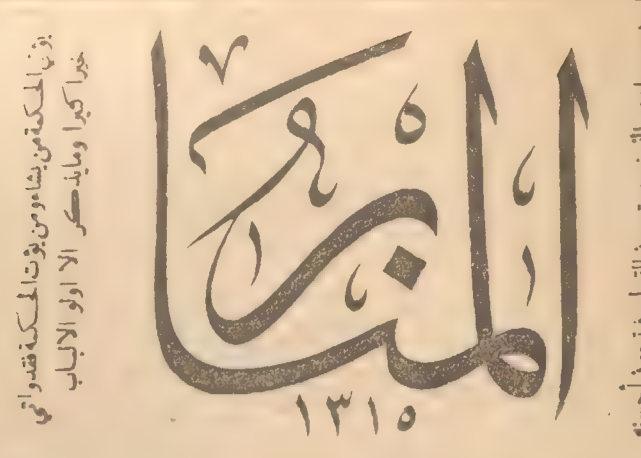
وولد لكلاب بن مرة ﴿ قصي ﴾ وزهرة ومن ذرية زهرة سعد ابن أبي وقاص وآمنة أم النبي (ص) وعبد الرحمن بن عوف وقد كان قصي هذا عظيماً في قريش وهو الذي ارتجع مفاتيح الكعبة من بني خزاعة وهو الذي أثل مجدهم

وولد لقصي بن كلاب ﴿ عبد مناف ﴾ وعبد الدار وعبد العزى فمن بني عبد الدار بنو شيبة حجاب الكعبة ومن مشهوريهم النضر ابن الحارث كان من اشداء اعداء النبي ، ومن عبد العزى ايضا سيدتنا خديجة بنت خويلد التي نروي سيرتها

وولد لعبد مناف بن قصي ﴿ هاشم ﴾ وعبد شمس والمطلب ونوفل فمن عبد شمس امية ومنه بنو امية ومنهم عثمان بن عفان ومعاوية بن ابي سفيان مؤسس الملك الاموي . ومن المطلب ابن عبد مناف المطلبيون ومن ذريتهم الامام الشافعي ومن نوفل النوفليون

وولد لهاشم ﴿ عبد المطلب ﴾ ولم يعلم له ولد سواه . وولد لعبد المطلب ﴿ عبد الله ﴾ وحمزة والعباس جد الملوك العباسيين

وولد لعبد الله بن عبد المطلب ﴿ محمد ﴾ النبي عليه الصلاة والسلام



قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

(مصر الاربعاء — ٢٩ صفر ١٣٢٦ — أول إبريل (نيسان) سنة ١٩٠٨)

كتاب مصر الحديثة للورد كرومر

نظرة إجمالية في الكتاب

أقام لورد كرومر في مصر نحو ربع قرن متصرفا بنفوذ الحاكم المطلق فعرف من أحوال حكومتها وسيرها الاجتماعي ما يعز على غيره من حكام البلاد أو نزلائها من الاوربيين ان يعرفوه ثم أودع زبدة ما عرفه في كتاب يدخل في ثلاثة مجلدات طُبع اثنان منها وأوصى هو بطبع الثالث عقب موته لانه خاص بحال مصر في عهد الامير الحالي عباس باشا الثاني والظاهر أنه أشد الاجزاء وَطأً وأثقل قيلا على مصر والمصريين على ان الجزء الثاني لا تستخف وطأته ، بل لا تطاق كلمته ، فهو قد حكم

لكل الشعوب التى تتبوأ ارض مصر وعليها ولكنه حكم على المصريين لا لهم ولم يحكم عليهم بالمساواة بل فضل القبط على المسلمين تفضيلا من حيث دينهم وما فيه من المرونة التي تساعدهم على مجاراة المدينة مالا يساعد الاسلام أهله على زعمه

ولم يكتف بالحكم في قضايا الشعوب من حيث هو حاكم سياسي اجتماعي بل حكم ايضاً في قضايا الرجال المشهورين الذين عرفهم من بعض الوجوه وكان حكمه عليهم من غير الوجه الذي عرفهم به اذ حكم على مطويات العقائد ومكنونات الضمائر وخطرات القلوب

ولم يرضه هذا حتى رفع نفسه الى مستوى الحكم على الاسلام من حيث هو دين ومن حيث هو شريعة ونظام اجتماعي فحكم من الحيثية الاولى له وعليه ومن الحيثية الثانية عليه لا له وانتقل من الحكم عليه الى الحكم على أهله عامة حتى في مستقبل أمرهم فكان حكمه هذا صاخة تصخ المسامع وقارعة تصدع القلوب بل هو عبرة للمعتبرين وموعظة للمصريين وسائر المسلمين

رأيت حديث الناس في هذا الكتاب يدور على قطبين (أحدهما) الحكم على شعور الكاتب حينما دون حكمه على المصريين وعلى الاسلام والمسلمين فمارأيت بينهم خلافافي كونه كتب بمداد الحقد والحنق وقلم الحفيظة والانتقام من المصريين بما فوقوا اليه من سهامهم ، وصوبوا اليه من اسنة اقلامهم، في وقت مفارقته لديارهم ، وهو وقت ضاق فيه ذلك الصدر الواسع عن احتمال الانتقاد ، بله الشماتة والازراء ، على انه قد ظهر ضيق صدر اللورد قبل ذلك في تقريره الاخير، ثم في خطبته التي خطبها قبيل الرحيل،

هذا وأما القطب الثاني لحديث الناس في الكتاب فهو غرضه منه وقد رأيت أهل الفهم والذكاء يقولون من غير مواطأة ولا تقليد ان غاية اللورد من هذا الكتاب هي ان يستل من نفوس أحرار قومه فكرة توقيت الاحتلال ، والخروج من مصر في يوم من الايام ، ويقنعهم ويقنع أوربا معهم بأن لا ضمان لحفظ مصالح الاوربيين في مصر بل ولا مصالح المصريين الا ببقاء الانكليز في مصر لان المصري شديد التمسك بدينه الذي لا يتفق مع المدنية فان هو تركه واتبع هذه المدنية كما يحب الاوربيون ويبغون كانت مدنيته تقليدية لا حقيقية وكان بذلك شرا من المسلم المتدين وأشد عداوة للاوربي وللمسيحي ولو غير أوربي

ويرون ان تصريحه بعدم استحسان ضم مصر الى املاك انكلترا وما أظهره من الميل الى اعدادهم للاستقلال هو من التمويه وذر الرماد في العيون وإلهاء المصريين بالاماني والاحلام. وأصحاب هذا القول غافلون عن طرق الاستعمار الجديدة ومنها حكم البلاد باسم أهلها والرضى بالسلطة الفعلية بديلا من السلطة القولية وقد سبق لنا بيان لهذه الطرق في السنة الاولى من المنار وفي غيرها أيضاً

هذه صفوة الآراء التى دارت بين الناس في شعور مؤلف كتاب مصر الحديثة وفكره المستولي عليه عند الكتابة وفي غايته منه وذلك ضرب من ضروب انتقاد المصنفات مطروق الابواب ، معهود عند الكتاب ،

ومما ينتقد على هذا الكتاب وهو من أصول الانتقاد استنباط القواعد الكلية ، من شواذ الحوادث الجزئية ، ولم يسلم اللورد من ذلك فانه في المقابلة بين عقل الغربي والشرقي اورد الامثلة لعقل الشرقي الضعيف

التنظيم والادراك « لاعتقاده بالقضاء والقدر ورضوخه لكل سلطة تتولى أموره » فانه بعد ان دعم الحكم على عقل الشرقي بهاتين العلتين مثل للحكم الكلي العام بما نص ترجمته

(قال اللورد) « حدث أكثر من مرة ان المفتحجي في مصلحة الحديد المصرية حول الخط والقطار عليه لم يمر الانصفه الى الخط الآخر فادي ذلك الى انقلاب القطار وحدث ايضا ان سائق قطار نسي احيانا اي مفتاح يجب ان يحرك لكي يوقف القطار وحدث مرة ان عمال السكة الحديدية قتلوا لانهم ناموا بعد ان وضعوا رءوسهم على الخط الحديدي وانما فعلوا ذلك ليثقوا بأنهم يستيقظون على صوت القطار الآتي »

ونقول انأمثال هذه الجزئيات تقع في أوربا وفي جميع البلاد من جميع الشعوب وناهيك بالطبقة الدنيا من العمال فان ذكي الفطرة عالي النفس لا يرضى لنفسه بأن يكون من أحقر عمال سكة الحديد، وناهيك بالمبتدئين من أهل هذه المهنة بها والغالب ان يكون أصحاب ذلك الشذوذ الذي ذكره منهم . فأمثال هؤلاء لا يصح ان يكون مناط المقابلة بين الشعوب في ارتقاء العقل وملكة النظام فيه . وانما ينظر في حالهم من جهة النشاط في العمل والصبر عليه ولعله لو قابل بين فعلة الاوربيين وفعلة المصريين في هذه المزايا لما قدر ان يبخس المصريين حقهم، وان ظن ان القضاء والقدر قد فتك باستعدادهم لكل عمل ! ! ونسي ان أكثر المستخدمين في سكة الحديد من القبط الذين هم على شاكلته في عدم الايمان بالقضاء والقدر

واني أذكر له شيئاً من بلادة بعض الاوربيين وغفلتهم هو أبعد عن العقل والنظام مما صدر عن صغار فعلة السكة الحديدية في مصر ناقلا إياه عن

كتاب صفوة الاعتبار لصديقه الشيخ محمد بيرم الثقة العدل رحمه الله تعالى فانه كتب في الفصل الذي عقده لبيان عادات أهل فرنسا وصفاتهم مانصه:

« ومع ذلك (أي انتشار المعارف) فلا يزال في فرنسا خلق كثير على السذاجة والجهل . ودونك حكاية ظريفة تقيس عليها مايقرب منها . ففي سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م كان أحد أصحاب العمل باليد مشتغلا جهة « باريس » وكان له ابن مشتغل جهة « بردو » فلم يوفر الابن من كسبه مايشتري به حذاء فأرسل الى أبيه يشتكي له القل ويطلب منه شراء حذاء له فاشتراه له وحمله في الطريق وهو مفكر في كيفية إيصاله اليه فبينما هو ماش اذ مر محاذياً للسلك الكهربائي فقال هذا أيسر طريق ! ! إني أحمله الحذاء وهو يوصله لابني . فجاء الى عود السلك وعلق فيه الحذاء وأسرّ الى العود بقوله « أوصل هذا لابني فلان في المكان الفلاني » وذهب مسروراً باطلاعه على مسلك سهل بلا مصروف . ثم مر من غد متفقداً ما فعل السلك بالحذاء فوجد في ذلك المكان حذاء عتيقا أفناه اللبس ففرح وقال « ان ابني لعاقل حيث أرسل لي القديم لاستعين به على ثمن الجديد » فانظر الى هذه البلاهة التي لو صدرت من أحد المشرقيين لشنعوا بجميع الجنس بأنه وحشي بعيد عن المعارف وتهذيب الاخلاق »

(وقد صدّق ظنّه صديقه لورد كرومر فانه شنع على الشرقيين كافة بما وقع من بعض فعلة سكة الحديد بمصر)

(ثم قال بيرم) «واعلم ان مثل هذا الرجل كثير سيما في القرى الصغيرة والجبال بل وفي أهل المدن كثير ممن يعتقد بالخرافات الباطلة ويعتقد التأثير لاحجار وجمادات، ويتشاءم بالاوقات، فقد رأيت في كثير من بلدانهم

وبلدان الطليان وكذا الانكليز طاقات في حيطان فيها منارات توقد ليلا بالزيت أو بالشمع العسلي تقربا الى بعض أوليائهم أو الجن معتقدين حلول المتقرب اليه بتلك الطاقة . ولا ينورونها بغيرماذ كر من الانواع لان القسوس يقولون لهم ان شمع الشحم أو الغازمن البدع التي لايتقرب بهاه وكذلك يطلبون البخت وقضاء الحاجات من جمادات أو أماكن اعتقاد حلول ارواح فيها . وقد ذكر من هذا النوع في كشف المخباعن فنون أوربا مايتعجب منه السامع مما ترى الاوربا ويين ومن تشكل بشكلهم وتباهى بتقليدهم يحملون عبئه على البلاد الاسلامية وحدها ويجعلونها سخرية وينزهون أوربا عن مثلها مع أنها حاوية لشبهها ولاشد منها بل ربما أسند ذلك الجاهل او المتجاهل الى ديانتنا الشريفة وحاشا لله ان تؤدي أو ترشد لمثل ذلك بل انها هي المهذبة والمنقذة من غياهب الجهل الى نور المعارف الحاثة على العلم وفتح البصائر » اه بحروفه

هذا ما قاله عن اهل فرنسا وهم أسبق الاوربيين الى العلم والمدنية واذ كاهم أذهانا . على أنه قال ان الانكليز كذلك بل قال في كلامه من عادات الانكليز وصفاتهم مانصه :

« وأما أطوار الطبقة السفلى فهي أشنع مما مر ذكره في همج الفرانسيس سواء كان من جهة الاعتقاد أو من جهة السيرة والحركات فيتطيرون من أشياء كادت ان لاتحصى وينقادون الى السحرة والدجالين بما يخرج عن حد المعقول وكاد التعلم ان يكون عندهم مجهول الاسم فضلا عن المسمى سوى مايرطن لهم القسوس في الكنائس » الخ

أقول اما خرافات القبورو الاولياء التي قال انهم يعيبون الاسلام

بمثلها وهو منها بريء فقد أخذها المسلمون عنهم وهم أخذوها عن اجدادهم أو مجاوريهم من الوثنيين فالاسلام والنصرانية الحقيقية بريئان منها وقد قال صلى الله عليه وسلم « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع » قالوا يارسول الله اليهود والنصارى ؟ - قال « فمن ؟ » رواه الشيخان وغيرهما

وان تعجب فعجب مقارنته في هذا المقام بين الاوربي مطلقا والعامي المصري في الحساب فقد قال بعد ماتقدم ماترجمته كما في المؤيد :

« وقارن أيضا بين تقدير الاوربي للحساب وبين المصري العامي الذي يشكل عليه إشكالا كاملا كل أمر يتعلق بالارقام أو الكمية فان عددا قليلا من عامة المصريين يعرفون عمرهم . فاذا سألت المصري عن عمر رجل متقدم في السن يكون جوابه غالباً « ان عمر الرجل مئة سنة » ويقول في نفسه ماذا يهم التدقيق في هذا الامر أو أي أمر آخر علمي »

قلت ان هذا من مواطن العجب لان المقارنة فيه بين الاوربي المتعلم والمصري العامي ولماذا لم يقارن في الحساب والارقام بين المتعلم من الفريقين ؟ لعله لانه يعلم ان المصريين من اقوى الشعوب استعداداً للبراعة في الحساب وسائر العلوم الرياضية وقد أراد الانكليز منذ بضع سنين ان يجعلوا ترقية المهندسين منهم على المهندسين من المصريين مبنيا على قاعدة عادلة لظنهم أن الانكليز اعلم وأبرع فامتحنوا الفريقين فاسفر الامتحان عن فوز المصريين وتخلف الانكليز عنهم وسكت الفريقان على ذلك الامتحان فلم يعلموا به الجرائد . اما الانكليز فلما هو ظاهر واما المصريون فلخوفهم ان يحنق عليهم رؤساؤهم وينتقموا منهم

ومما ينتقد عليه في كتابه تقليده لغير واحد من كتاب الاوربيين في

آرائهم في الاسلام وكان أجدر من كثير من أولئك الكاتبين بمعرفة حقيقة الاسلام لو أراد أن يعرفه وينصفه فانه عاش في مصر عمراً طويلا وعرف أشهر علمائها بل أشهر علماء الاسلام المعروفين في العالم كله الآن وناهيك بالاستاذ الامام وطول باعه في علوم الدين ورسوخه في فهم القرآن وهو الذي لم يكن يحتاج في مخاطبته إياه وفهمه عنه الى ترجمان كما كان يحتاج في مخاطبة غيره من شيوخ الازهر . ولكنه لم يكن يسأله عن أصول الاسلام وحكمه وأحكامه ولا الاستاذ الامام كان يبتدئه بشيء من ذلك وانما كان يقصد اليه لاجل الكلام في المسائل المصرية لاسيما المحاكم الشرعية . ومما ذكر لي عنه انه كان يذاكره مرة في اصلاح هذه المحاكم ومعارضة قاضي مصر وبعض المشايخ ومقلديهم في ذلك كما حصل في مجلس شورى القوانين وذكر اللورد كثرة شكوى الاهالى من الظلم وضياع الحقوق في هذه المحاكم ولما بين له الاستاذ الامام انه ليس في اصل الشرع شيء ينافي الاصلاح العدل قال له اللورد هل تصدق يأستاذ انه يخطر فى بالي ان شريعة قامت على أساسها مدنية عظيمة تكون غير عادلة ؟ كلا انني أعلم ان كل هذه المفاسد مسائل « اكليركية » اي من تقاليد المشايخ التي تشبه تقاليد رجال « الاكليروس » عند النصارى

أنقل هذا بالمعنى كما احفظه عن الاستاذ الامام واستطرد من ذلك الى انتقاد ما كتبه اللورد عنه ثم ألخص كلامه في الاسلام من حيث هو دين ومن حيث هو شريعة وأبين خطأه وخطله فيه وانتقل من ثم الى المقصد الاعظم وهو مستقبل الاسلام والمسلمين ومراد اللورد وامثاله من أساطين السياسة وامانيهم في ذلك وما يجب علينا من العبرة

والعمل في هذا المقام، مع تعدد السبل واشتباه الاعلام،

قول اللورد في الشيخ محمد عبده

لم يسلك اللورد مسلك اصحاب التراجم من المؤرخين فيذكر ما للرجال الذين ترجمهم من الصفات والمزايا وما عليهم من التقصير وانما ألم بذكر بعض كبار الرجال المشهورين إلماما ولم ينظر الى أحد من المسلمين بعين الرضى كما نظر الى الشيخ محمد بيرم التونسي على أنه مدحه بشيء يراه هو مدحا ويراه جميع المسلمين ذما اذ قال فيه «علمه ذكاؤه الفطري ان النظامات التي تعلق بها أسلافه (يعني الشريعة التي جرى عليها المسلمون السابقون) لا بد أن تتلاشى اذا قابلتها المبادئ السامية المرقومة على راية الانكليزي !! رأى كل هذه الامور بعين الناقد البصير » وقال بعد ذلك ان مثله اذا ناقش المسيحي في الامور العامة يكون من النتيجة المحزنة أنه « يكتفي بندب مصير ذلك الدين الذي يحبه وذلك النظام المؤذي الذي اوجده دينه» ثم ذكر انه لا يوجد عند أمثال بيرم من خيار المسلمين طريقة قادرة على احياء الاسلام الذى هو في حالة الموت السياسي والاجتماعي ! ! ونحن نعلم فيما رأينا من مؤلفات الشيخ محمد بيرم وما سمعنا عنه ممن لقيه أنه كان متمسكا بهذا الفقه ويراه أحسن نظام ويعتقد انه مستمد من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فاذا كان مع ذلك يفضل عليه المبادئ والقوانين الانكليزية او يرى انه نظام مؤذ فكيف يكون راسخا ذلك الرسوخ في الاسلام ؟ أرى انه على إطرائه لبيرم في الدين قد ذمه من

حيث اراد مدحه ولم يعرف حقيقته الدينية كما هي ولا يرضي مريدي الشيخ محمد عبده ان يكون مثله مرضيا للورد في ذلك وان كانوا يعلمون انه لا يعد جميع هذا الفقه ولا اكثره من الدين . واننا نذكر الآن رأي اللورد في الاستاذ الامام في تقريره لسنة ١٩٠٥ ثم نشفعه برأيه في مصر الحديثة ونبين سبب الاختلاف بينهما

قوله فيه بتقرير سنة ١٩٠٥

اختطفت المنية في السنة الماضية رجلا مشهورا في الهيئة السياسية والاجتماعية بمصر أريد به الشيخ محمد عبده فأحببت أن أسطر هنا رأيي الراسخ في ذهني وهو ان مصر خسرت بموته قبل وقته خسارة عظيمة

لما أتيت مصر القاهرة سنة ١٨٨٣ كان الشيخ محمد عبده من المغضوب عليهم لانه كان من كبار الزعماء في الحركة العرابية . غير أن المغفور له الخديوي السابق صفح عنه طبقا لما اتصف به من الحلم وكرم الخلق فعين الشيخ بعد ذلك قاضياً في المحاكم الاهلية حيث قام بحق وظيفة القضاء مع الصدق والاستقامة وفي سنة ١٨٩٩ رقي الى منصب الافتاء الخطير الشأن فأصبحت مشورته ومعاونته في هذا المنصب ذات قيمة عظيمة ثمينة لتضلعه من علوم الشرع الاسلامي مع ما به من سعة العقل واستنارة الذهن واذكر مثالا على نفع عمله الفتوى التي أفتاها في ما اذا كان يحل للمسلمين تثمير أموالهم فى صناديق التوفير فقد وجد لهم باباً به يحل لهم تثمير أموالهم فيها من غير أن يخالفوا الشرع الاسلامي في شيء

أما الفئة التى ينتمي الشيخ محمد عبده اليها من رجال الاصلاح في الاسلام فمعروفة في الهند أكثر مما هي معروفة في مصر ومنها قام الشيخ

الجليل السيد أحمد الشهير الذي أنشأ مدرسة كلية في عليكده بالهند منذ ثلاثين عاماً • والغاية العظمى التي يقصدها رجال هذه الفئة هي اصلاح عادات المسلمين القديمة من غير أن يزعزعوا أركان الدين الاسلامي أو يتركوا الشعائر التي لا تخلو من أساس ديني • فعملهم شاق وقضاؤه عسير لانهم يستهدفون دائما لسهام نقد الناقدين وطعن الطاعنين من الذين يخلص بعضهم النية في النقد ويقصد آخرون قضاء اغراضهم وحك حزازات في صدورهم فيتهمونهم بمخالفة الشرع وانتهاك حرمة الدين

أما مريدو الشيخ محمد عبده وأتباعه الصادقون فموصوفون بالذكاء والنجابة ولكنهم قليلون وهم بالنظر الى النهضة الملية بمنزلة الجيروندست في الثورة الفرنسوية فالمسلمون المتنطعون المحافظون على كل أمر قديم يرمونهم بالضلال والخروج عن الصراط المستقيم فلا يكاد يؤمل أنهم يستميلون هؤلاء المحافظين اليهم ويسيرون بهم في سبيلهم • والمسلمون الذين تفرنجوا ولم يبق فيهم من الاسلام غير الاسم مفصولون عنهم بهوة عظيمة • فهم وسط بين طرفين، وغرض انتقاد الفريقين عن الجانبين، كما هي حال كل حزب سياسي متوسط بين حزبين آخرين، غير ان معارضة المحافظين لهم أشد وأهم من معارضة المصريين المتفرنجين اذ هؤلاء لا يكاد يسمع لهم صوت

ولا يدري الا الله مايكون من أمر هذه الفئة التي كان الشيخ محمد عبده شيخها وكبيرها فالزمان هو الذي يظهر ما اذا كانت آراؤها تتخلل الهيئة الاجتماعية المصرية أولا . وعسى الهيئة الاجتماعية أن تقبل آراءها على توالي الايام اذ لا ريب عندي في أن السبيل القويم الذي أرشد اليه المرحوم الشيخ

محمد عبده هو السبيل . الذي يؤمل رجال الاصلاح من المسلمين الخير منه لبني ملتهم اذا ساروا فيه . فأتباع الشيخ حقيقون بكل ميل وعطف وتنشيط من الاوربيين . ولعلهم يجدون بعض التنشيط من نقلي قولا لرجل من اهل دينهم وصف فيه المعارضة التي لقيتها مدرسة عليكده الكلية المذكورة آنفاً والطريقة التي تغلبوا بها على تلك المعارضة » وههنا ذكر عبارة عن كاتب هندي اسمه السيد محمود تضاهي عبارته في المقدار

ومما كتب في اواخر الفصل الذي يتكلم فيه عن المحاكم الشرعية ما ترجمته

« هذا واني أوافق السر ملكولم مكاريث على ما قال عن الضربة الثقيلة التي أصابت الاصلاح من هذا القبيل بموت المرحوم الشيخ محمد عبده فقد أشرت الى خدمات ذلك الرجل الجليل في فصل آخر من هذا التقرير وأعود فابسط الرجاء أيضا ان الذين كانوا يشاركونه في آرائه لا تخور عزائمهم بفقده بل يظهرون احترامهم لذكراه أحسن اظهار بترقية المقاصد التي كان يرمي اليها في حياته » اه

اما ما قاله السر ملكولم مكاريث وصرح به اللورد بموافقته عليه فهذا نص ترجمته

قول المستشار القضائي في الشيخ محمد عبده

« ولا يسعني ختم ملاحظاتي على سير المحاكم الشرعية في العام الماضي بغير أن أتكلم عن وفاة مفتي الديار المصرية الجليل المرحوم الشيخ محمد عبده في شهر يوليه الفائت وان أبدي شديد أسفي على الخسارة العظيمة التي أصابت هذه النظارة بفقده فقد كان خير مرشد لنا في كل ما يتعلق

بالشريعة الاسلامية والمحاكم الشرعية وكنا نرجع اليه كثيراً للتزود من صائب آرائه والاستعانة بمساعدته الثمينة وكانت آراؤه على الدوام في المسائل الدينية أو الشبيهة بالدينية سديدة صادرة عن سعة في الفكر كثيراً ما كانت خير معوان لهذه النظارة في عملها . وفوق ذلك فقد قام لنا بخدم جزيلة لا تقدر في مجلس شورى القوانين في معظم ما أحدثناه أخيراً من الاصلاحات المتعلقة بالمواد الجنائية وغيرها من الاصلاحات القضائية اذ كان يشرح للمجلس آراء النظارة ونياتها ويناضل عنها ويبحث عن حل يرضي الفريقين كلما اقتضى الحال ذلك وانه ليصعب تعويض ما خسرناه بموته نظراً اسمو مداركه وسعة اطلاعه وميله لكل ضروب الاصلاح والخبرة الخصوصية التي اكتسبها أثناء توظفه في محكمة الاستئناف وسياحاته الى مدن أوربا ومعاهد العلم . وكانت النظارة تريد ان تكل اليه امر تنظيم مدرسة القضاة الشرعيين المزمع انشاؤها ومراقبتها مراقبة فعلية . اما الآن فانه يتعذر وجود احد غيره حائز للصفات اللازمة للقيام بهذه المهمة ولو بدرجة تقرب من درجته فلكل هذه الاسباب اخشى ان نظارة الحقانية ستظل زمناً طويلا تشعر بخسارتها بفقده » اه كلام المستشار

قول اللورد فيه بكتاب مصر الحديثة

أما الشيخ محمد عبده فكان عالما من طراز يفضل كثيراً طراز اخوانه الذين أشرت اليهم (كالسادات والبكري) وكان أحد زعماء الفتنة العرابية فلما جئت مصر سنة ١٨٨٣ كان مغضوبا عليه ولكن الخديوي توفيق عفا عنه بما فطر عليه من مكارم الاخلاق وانقياداً لتشديد الانكليز عليه في ذلك وعينه قاضياً فأحسن العمل وأدى الامانة حقها . وكان متوسعاً في آرائه وعلى علم ونباهة فلم

ينكر المساوئ الناشئة في الحكومات الشرقية وعرف انه لابد من الاستعانة بالاوربيين للاصلاح الا انه لم يكن من عداد المصريين المتفرنجين وكان يقول انهم لم يحسنوا تقليد ماحاولوا تقليده من الاخلاق الاوربية وكان عدوا للخديويين والباشاوات وأريد بذلك انه لو عثر على باشاوات صالحين لما أعرض عنهم ولا عارضهم ولكنه لم يوفق الا الى عدد قليل من خيارهم مع اختباره الطويل . وحقيقة الامر ان الرجل كان مفطورا على الخيال ويرى آراء لا يمكن الجري عليها الا انه كان مع ذلك مصريا وطنيا حقيقيا ومن مصلحة الوطنية المصرية ان يكون أمثاله كثاراً ولكن اذا نظرنا الى نسيج محمد عبده والذين يعلمون تعاليمه من جهة امكان اتخاذهم ساسة للمستقبل نجد ان هناك بعض اوجه الضعف وقد قال المستر ستانلي لاين بول ان المسلم من الطبقة العليا لابد ان يكون أحد اثنين « اما متعصب او ملحد في سره » فمثل هذه الحيرة على شكل مختلف قد أوجدت عقبات في سبيل المسيحيين الذين يؤمنون بحرفية تعاليم المسيح دون معناها أنها عقبات أعظم للمسلم الاصيل الذي يبذل عناية كلية بحرفية تعليم دينه دون معناها وأخشى ان يكون صديقي محمد عبده في حقيقة امره « لا أدريا » ولو انه يستاء من هذه النسبة لو نسبت اليه . وكان معاشروه ومخالطوه يسلمون بمقدرته ولكنهم كانوا يرمقونه شزرا ويقولون انه « فيلسوف » وكل من يدرس الفلسفة اي كل من يدرك الفرق بين القرن السابع والقرن العشرين هو في أعين المتمسكين بالقديم سائر الى الهلاك لامحالة . هذا وان أهمية محمد عبده السياسية هي في أنه اسس مدرسة فكرية في مصر على مثال ما أسس في الهند سيد احمد

منشئ كاية عليكرة وغاية الذين ينتمون الى تلك المدرسة هي تزكية طرق الاسلام في عين الانسان اوبالحري في عين الرجل المسلم ولكن شدة اشتباه المسلم المحافظ فيهم واتهامه اياهم بالمروق من الدين يمنعانه من المسير معهم طويلا ونراهم من الجهة الاخرى غالبا غير متفرنجين الى حد ان يجذبوا اليهم المصري المقلد للطرق الاوربية فهم أدنى من المسلم المحافظ في اسلامهم وادنى من المصرى المغالي في تفرنجه ولذلك ترى مهمتهم عسيرة جدا ولكنهم جديرون بكل تشجيع ومساعدة يمكن امدادهم بهما لانهم حلفاء المصلح الاوربي الطبيعيون وسيري كل مصري محب لوطنه ان في تقدم اتباع محمد عبده خير رجاء له في انفاذ برجرامه الا وهو جعل مصر مستقلة استقلالا ذاتيا حقيقيا »

وقد علق اللورد في ذيل هذه الصحيفة قوله — انني قدمت لمحمد عبده كل تنشيط استطعته مدة سنين كثيرة ولكنه عمل شاق ففضلا عن العداء الشديد الذي كان يلاقيه من المسلمين المحافظين كان لسوء الحظ على خلاف كبير مع الخديو ولم يتمكن من البقاء في منصب الافتاء لولا ان الانكليز أيدوه بقوة . وقد اثنيت عليه في تقاريري السنوية ثناء عظيما وأنا أعظم الناس أسفاً حقيقياً على وفاته على انني في الوقت نفسه لا أرى بدا من الاعتراف بما عراني من الدهشة عند ماطالعت بعض الانباء الجديدة في كتاب المستر ولفرد بلنت فيظهر ان المستر ولفرد بني آراءه في المسائل المصرية على ماسمعه من محمد عبده فقال عنه في كتابه التاريخ السري انه فيلسوف كبير ووطني عظيم . وقد قرأت بدهشة وأسف معا ما يأتي بلسان محمد عبده .

« عرض على الشيخ جمال الدين الفتك باسماعيل يوما عند مروره عربته يوميا على كوبري قصر النيل فاستحسنت رأيه ووافقته ولكن الامر اقتصر على الكلام بيننا ولم نوفق الى شخص يتولى تنفيذ هذا العمل » فكفاني أن أقول بعد هذا ان العالم المتمدن عموما ينظر شزرا الى الوطنيين ويحتقر بالاكثر اولئك الفلاسفة الذين لا يتأخرون عن تعزيز مقاصدهم السياسية بمثل ارتكاب القتل » اهـ من ترجمة المؤيد

المقابلة بين القولين

من قابل بين ما قاله اللورد في تقريره وما كتبه في كتابة مصر الحديثة» يرى فرقاً عظيما بين القولين فان عبارة التقرير لاذم فيها ولا تعريض وعبارة التاريخ فيها ذم صريح ، وتعريض ظاهر بل المدح الذي فيها بمعنى ما في التقرير ضئيل مبهم يحتمل صرفه الى الذم في بعض المواضع فانه لما وصفه بالعلم فضله على السادات والبكري وهما ليسا من العلماء ولما ذكر انه متهم بالفلسفة فسر ذلك بالتفرقة بين القرن السابع والقرن العشرين . وقد قال المؤيد فى هذا التفاوت ما يأتي

« قضى المرحوم الشيخ محمد عبده من عمره بضع عشرة سنة وهو صديق مخلص للورد كرومر وقضى هذا اللورد زمنه الذي صادق فيه هذا الشيخ وهو يساعده فى الوظائف ويدافع عنه فيها . ويقول الآن بصريح العبارة انه لولاه ما بقي في منصب الافتاء طويلا . كان اللورد يطريه مدحاً في حياته كلما ذكر اسمه في مجلسه وكلما جاءت مناسبة لذكره

في تقاريره ويخيل لقارئ كتاب مصر الحديثة الآن ان اللورد يحاول ان يطمن عليه أكثر من كل انسان في مصر لولا ماسبق له من المدح فيه . فلم هذا ؟؟

رأي المؤيد في صداقة اللورد للشيخ

« ان جواب هذا السؤال موجود بين سطور اللورد كرومر فيما كتب عن هذا الرجل في كتابه الاخير » .

ثم ذكر المؤيد في بيان ذلك انه كان من زعماء الثورة العرابية وأوضح ذلك وأكده وذكر قول اللورد ان الخديوي السابق عفا عنه بتشديد الانكليز عليه في ذلك ، وانه كان على خلاف كبير مع الخديوي ثم بين صاحب المؤيد رأيه وأضاف اليه كلمة طالما حاكت في صدره ونوه بها حتى لفظها اليوم فأراحنا واراح الناس قال مانصه:

« من خلال هذا الكلام يظهر الجواب الحقيقي وهو أن اللورد كرومر لم يكن صديقا للمرحوم الشيخ محمد عبده كما كان هذا صديقا مخلصا له ولكنه كان متمسكا بصداقته الظاهرية لانه كان يريد أن يضع في يده رجلا قوي المارضة لدود الخصام عدواً لتوفيق باشا أولا ولخلفه ثانيا ولاسماعيل باشا قبل ذلك . ولا مراء في أن المرحوم الشيخ محمد عبده كان يكره طائفة الباشوات كما يقول عنه اللورد من جهة وكان وطنيا صادقا من جهة أخرى . فكان اللورد يحبه من الجهة الاولى ولا يستطيع أن يخلص له الحب من الجهة الثانية . لذلك كان يطريه وهو ينتفع باطرائه . أما الآن وقد مات الشيخ محمد عبده وفارق اللورد كرومر

مصر فلم تكن ثمت حاجة لان يداري اللورد فيه كل المداراة وانما لاحظ أن يداري نفسه لما كتب عنه أولا فيما كتب عنه ثانيا فجاءت كتابته هكذا خليطا من المدح والقدح وثوب الرياء يشف عما تحته

قول المؤيد في الشيخ نفسه

«وعندنا ان المرحوم الشيخ محمد عبده كان رجلا عالما فاضلا ذا خلال محمودة كثيرة من صفات النجدة والوفاء والمروءة ولا نقول كما قال اللورد عنه انه كان ملحداً أو لا أدريا أو ضعيف الايمان لان الايمان من أعمال القلوب التي يستأثر الله بعلمها وأما ظواهره فكانت مجال مقال كثير لاصدقائه من جهة ولاعدائه من جهة أخرى ولكنه كان على كل حال عالما مصلحا يحاول ما استطاع اصلاح الفاسد من الشؤون التي طرأت على الدين ويعمل لذلك بغيرة لا تفتر وفي آخر عهده من الدنيا كان يعتقد في نفسه اعتقادا ملأ جوانحه أنه رسول اصلاح من عند الله فكان يجاهد في سبيل ذلك جهادا حقيقيا وان لم ينل حظ الثقة العامة بذلك. وأضعف الجوانب في أعمال وآراء الشيخ محمد عبده كان الجانب السياسي منه فكان فكره السياسي خياليا غالبا كما قال اللورد لانه كان في كثير من الظروف يخيل له أن يقبض بكلتا يديه على اللورد كرومر من جهة وعلى الجناب الخديوي من جهة فيفشل في الامرين معا حتى يقول الجناب الخديوي من جهته مايقول فيه وحتى يضحك اللورد من هذا الضعف السياسي فيه

« هذه كلمتنا في المرحوم الشيخ محمد عبده قلناها بحرية تامة في هذه المناسبة لنقول : ان كان اللورد أصاب في بعض ما قاله عن المرحوم الشيخ

محمد عبده فقد أخطأ في حقه مرتين الاولى في حياته لانه لم يكن يعضده ويساعده الا لغرض واحد وهو أن يكون عدواً حقيقياً دائما للخديو فكان يدفعه دائما الى الامام في ذلك والثاني أنه تعرض الآن للطعن على عقيدته والعقيدة مسكنها القلب خصوصا وان الطاعن مسيحي على عالم مسلم فيما هو مسلم به

ولكن اللورد أراد من هذا الطعن شيئاً آخر وهو ان المسلم ان صار مصلحا يوما مالم يستطع أن يكون كذلك الا وهو مارق من الدين. حتى انه لما مدح الشيخ بيرم وذكر من صفاته انه كان يحاول أن يطبق أحكام الاسلام على المعلومات العصرية قال عنه انه كان كمن يحاول أن يربع الدائرة»

قولنا فيما كتب المؤيد

اذا تنازع الكاتب فكران أو شعوران عند الكتابة في موضوع هو أصل في أحدهما والآخر فرع له فيوشك ان يذهله الفرع عن اهم أركان الاصل كما وقع للمؤيد فوجب ان نبين ما غلط به المؤيد هنا حتى خفي عليه به خطأ اللورد الحقيقي لنفي الموضوع حقه فنقول

(١) ان الاساس الذي بنى عليه المؤيد تفرقته بين كلامي اللورد في هذا المقام غير صحيح وهو ان اللورد كان يطري الشيخ في حياته اذ كان ينتفع باطرائه في دفعه لعداء الخديو، ثم ذمه بعد موته وخروجه هو من مصر لزوال هذه الحاجة . فان هذا الثناء العظيم في تقريره الذي ليس عندنا مدح منه سواه قد كتبه بعد موته واذا كان عند صاحب المؤيد رواية لسانية عن اللورد فهي لا تقوم حجة عليه ولا يصح مقابلتها بما كتبه اليوم الا ان يكون على سبيل التبع

(٢) ان كون الاستاذ الامام كان من زعماء الثورة العرابية لا يصلح سببا ولا جزء سبب لمساعدة اللورد إياه والا لساعد سائر زعمائها

(٣) ان اللورد فسر بغض الشيخ محمد عبده للباشوات بأنه قلما وجد فيهم صالحا وانه متى وجد الصالح لا يعرض عنه ولا يعارضه لصدق وطنيته فوافقه صاحب المؤيد على كونه كان يكره الباشوات وعلى كونه كان صادق الوطنية . ثم مثل بغضه للباشوات بعداوة الخديو الحالي وابيه وجده ونحن لا نوافقه على هذا التمثيل الذي يوهم الحصر. أما كرهه لاسماعيل فهو معقول مهما كانت سنه ومعارفه السياسية في ذلك العهد وسنبين ذلك . واما توفيق فقد كان هو وأستاذه جمال الدين من حزبه وشيعته على أبيه وقد نقم منه اخراج استاذه من البلاد ونفيه هو الى بلده وكان راضيا منه أتم الرضى عند ماساعد الوزارة الرياضية على الاصلاح في البلاد .ولما حدثت مبادي الثورة العرابية كان الشيخ مقاوما للعرابيين ولما استفحل الامر كان مرشداً معتدلا بحسب علمه وقد ظهر له في اثناء ذلك استعانة توفيق باشا بالانكليز على العرابيين فكرهه في أثناء ذلك كراهة شديدة كما يعلم من مذكراته في شأن تلك الحوادث ومنها ان مذبحة الاسكندرية كانت بايعاز من الخديو ليثبت لانكلترا وسائر الاوربيين عجز عرابي عن حمايتهم وقد كتب برودلي المحامي عن العرابيين شيئاً من هذا في كتابه نقلا عنه . وأما العباس أيده الله بتوفيقه وعنايته فقد كان في اكثر مدة ولايته على مودة مع المرحوم وهو الذي اقترح من نفسه جعله مستشاراً في الاستئناف وهو هو الذي اختاره بنفسه مفتيا للديار المصرية ولم يكن للورد دخل في ترقي الشيخ محمد عبده في الوظائف الا بعدم المعارضة والفضل الايجابي في ذلك

للامير وحده كما كان يصرح به الشيخ مراراً ولكن حدث في السنين الاخيرة بينهما شيء من سوء التفاهم بسعاية بعض المفسدين الذين يعرفهم صاحب المؤيد أكثر من غيره اذا كان يقاوم سعايتهم ومفاسدهم الى ان غضب هو أيضاً . وزاد سوء التفاهم تلك المسألة التي أشار اليها المؤيد في ترجمة حسن باشا عاصم فقال ما معناه انها مسألة كان يرى نفسه فيها قائماً بواجب تفرضه عليه الذمة وكان يراه مولاه فيها متعنتاً . — وله ان يقول مثل ذلك في صديقه وشريكه فيها الشيخ محمد عبده —

فمن هذه الخلاصة الوجيزة يعلم ان إظهار اللورد الصداقة للشيخ بضع عشرة سنة لا يتأتى ان يكون المراد به دفعه في عداوة الخديو كما قال المؤيد. على انه كان أثبت من ان يندفع بيد اللورد أو غيره فقد كان في الذروة العليا من الاستقلال في فكره وارادته وناهيك أيضاً بوطنيته وديانته . حقا أقول انني كنت أراه حتى في المدة الاخيرة التي توسع فيها سوء التفاهم بينه وبين الامير يتمنى لو يكون الامير موفقاً مؤيداً في كل شيء يرفع شأن البلاد ويفيدها مصوناً من كل شيء ضار وانني سمعته غير مرة يقول إننا كنا معلقون برجليه فاذا اهبطه الانكليز درجة هبطنا تحته لا معه ، واننا كنا مرة نتحدث في استرضائه فأقسم بأنه لو أمره ان يخرج من البلد لامتثل . ولكنه كان ينكر على المعية امورا كثيرة ويتمنى الوفاق الممكن الذي لا يصحبه ضرر من جهة أخرى . على ان المؤيد استنبط من عبارة اللورد انه يحاول ان يطعن على الشيخ أكثر من كل انسان في مصر لولا ماسبق له من المدح فيه فهل يكفي ان يكون سبب هذا هو الاستغناء عنه بموته وخروجه هو من مصر ؟؟

(٤) توجيه المؤيد قول اللورد في الاستاذ الامام انه كان خيالياً غير وجيه فانه جعل تأويل ذلك بعد التسليم به ان الاستاذ كان يخيل له ان يقبض بكلتا يديه على اللورد من جهة وعلى الخديو من جهة فيفشل في الامرين . وهذا الاستنباط من خيال المؤيد ما أظن انه طاف بخيال اللورد اذا البعد بين الخيالين شاسع جداً . ولخيال المؤيد وجه ودليل من الخارج فان الشيخ رحمه الله كان يتقرب من الامير للاستعانة به قبل كل شيء على خدمة دينه في نحو اصلاح الازهر ثم إبداء النصيحة الواجبة اذا عرض موجبها وكثيراً ما كان يعرض ذلك وقد سمعت من فم الامير في قصره بالقبة انه يستشير الشيخ ويعجبه رأيه ويثق به. وكان أيضاً يختلف الى اللورد للاستعانة به على خدمة وطنه وما كان يطلب منهما شيئاً لنفسه . ومن مصلحة البلاد ان يكون فيها رجال يثق أمير البلاد وعميد الاحتلال معا بكفاءتهم وصدقهم وذلك من الحقيقة لا من الخيال

(٥) ذكر المؤيد في مواضع ان اللورد طعن في دين الشيخ محمد عبده وجعله لا أدريا أو ملحداً حتى ان من قرأ عباراته ولم يكن عارفاً بكلمة اللورد يظن انه جزم بهذا الطعن واللورد لم يجزم بذلك وإنما قال « أخشى » كما في ترجمة المؤيد نفسه ، أو « أظن» كما في ترجمة بعض الجرائد فوجب علينا ان نبين ذلك

(٦) قال المؤيد انه لا يطعن في ايمان الشيخ لان الايمان محله القلب وان ظواهره كانت مجال مقال كثير لاصدقائه ولاعدائه !! فنقول اننا نحن نوافق المؤيد على قوله ان الايمان من أعمال القلوب التي يستأثر الله بعلمها ويؤيد هذا القول الحديث الصحيح « هل شققت عن قلبه » لمن

قال يارسول الله اعط فلانا فانه مؤمن . ولكن المؤيد وقع في الحكم على القلب الذي انكره على اللورد اذ قال « قضى المرحوم الشيخ محمد عبده من عمره بضع عشرة سنة وهو صديق مخلص للورد كرومر » فالاخلاص كالايمان محله القلب ولا يمكن ان يطلع عليه الا الله تعالى فكيف أجاز المؤيد الحكم على القلب مرة ومنعه اخرى ؟

أما الظواهر التى تدل على قوة ايمانه فهي اقوى من الظواهر التى تدل على اخلاصه فى صداقة اللورد مع العلم بانه كان ابعد الناس عن النفاق والرياء فانه لم يعمل للورد عملا خاصا به أو بدولته ولكنه وقف حياته على خدمة مصر والاسلام ابتغاء مرضاة الله . والمؤيد وان كان قد ادخل فى مسألة الظواهر كلمة محتملة ككلمة ابي سفيان لهرقل فقال انها كانت مجال مقال كثير – قد قال من نفسه مقالا جازما هذا نصه :

« ولكنه كان على كل حال عالما يحاول ما استطاع اصلاح الفاسد من الشؤون التي طرأت على الدين ويعمل لذلك بغيرة لاتفتر . وفي آخر عهده من الدنيا كان يعتقد في نفسه اعتقادا ملأ جوانحه أنه رسول اصلاح من عند الله فكان يجاهد في سبيل ذلك جهادا حقيقيا وان لم ينل حظ الثقة العامة بذلك » فالذى يعتقد هذا الاعتقاد لا يمكن ان يكون ملحدا او لا ادريا اي شاكا فى وجود الله يقول لا أدري أهو موجود ام لا ؟

صدق المؤيد وان كان في تعبيره بلفظ « رسول اصلاح » غرابة لما لها من المعنى الشرعي الذي ليس بمراد هنا . فان الاستاذ الامام كان يعتقد ان دين الاسلام لابد ان يعود اليه مجده ونوره الذى حال دونه

ظلام البدع والخرافات والتقاليد والعادات وانه هو عالم بحقيقته وبكيفية تسرب البدع اليه وقادر على بيان ذلك وازالته بالحجة وان هذا العمل فرض محتم عليه • وقد غمر هـذا الاعتقاد عقله وقلبه وملك جنانه ووجدانه فبذلك كان يرى انه كان ملهم ومسخر من الله تعالى لهذا العمل ليس فى استطاعته ان يتوانى فيه • وقد ذكر قاسم بك امين في تأبينه ان بعض اصدقائه كانوا يلومونه على تفريطه في صحته وتعبه في بعض الاعمال التي قلما تأتي بما يتوخاه من الفائدة فيها فيمدهم بالتخفيف ولكنه يصبح في الغد اشد اهتماما وعناية مما كان عليه بالامس . وصدق المؤيد في قوله انه لم ينل حظ الثقة العامة باصلاحه اذ لو نال هذا الحظ لما قال لورد كرومر في الاسلام ما قاله اليوم لأن الاصلاح العملي كان يمنعه من ذلك

رأينا في سبب اختلاف قولي اللورد

قال المؤيد ان الجواب عن التفاوت بين كلامي اللورد مذكور في كتابه وقد صدق في هذه ولكن اخطأ اجتهاده فيما يبنه به اذ لا اجتهاد فى مورد النص • اما هـذا النص فهو فى موضعين ذكر أحدهما المؤيد فيما ترجمه من كلام اللورد فى الشيخ وأهله في الرد وأغفل أحدهما فى الموضعين . اما الذي ذكره وأهمله فهو هامش اللورد[1] الذي يذكر فيه دهشته من استمداد مستر بلنت اخبار تاريخه السري للاحتلال من محمد عبده وفى هذا الكتاب من التشنيع على اللورد وسياسته ما فيه . واما الذي اغفله المؤيد فدونك ترجمته نقلا عن حاشية ص ٥٢٤ من المجلد الثاني في سياق الكلام عن المعارف : « لقد دهشت بل اعترتني خيبة أمل عند ما قرأت فى كتاب ألفه

(١) راجع الاسطر الاخيرة من ص ٩٥ من المنار

مسيو جورفيل رسالة للشيخ محمد عبده أعطى فيها ذلك الرجل الشهير رجاحة اسمه «أو قوة اسمه» لتهم أو تعريضات من هذا النوع ولا بد انه كان على يقين من انها لا أساس لها . وكنت أرجو منه افضل من هذا » اه علق هذا على هامش معناه هل نظر الانكليز الى انحطاط المصريين السياسي أو الاجتماعي نظر المغتبط فلم يحاولوا ترقيتهم كما يزعم بعض سفلة الناقدين ؟

ونحن نقول ان الرجل لم يعط اسمه لترويج التهم أو التعريضات كما ظن اللورد وانما أراد الموعظة والتنبيه الى الصواب الذي يعتقده ولكن صاحب الكتاب استخدم اسمه لترويج كتابه وهو ما كان يقول الامام يعلم تمام العلم ان أنه صحيح كل الصحة . واذا كان اللورد يرجو منه يوم كتب تلك الرسالة الى جورفيل أمرا أفضل من هذا فهو أيضا ربما كان يرجو من اللورد قبيل ذلك أمرا أفضل مما رأى منه عند الحاجة الى مساعدته في أهم وافضل غرض له من حياته . واننا نورد الآن ما جاء في رسالة الاستاذ الامام عن المعارف وهو:

ما كتبه الاستاذ الامام لجرفيل عن المعارف

(التعليم العام) لا تنفق الحكومة المصرية على التعليم العام الا مبلغ مئتي ألف جنيه مع ان في وسعها انفاق اكثر منه لان دخلها قد بلغ في الميزانية اثني عشر مليونا من الجنيهات وهي لا تنفك عن زيادة اجور التعليم التي تتقاضاها من الناس على تعليم اولادهم من حين الى حين وقد بلغت من ذلك الى حد ان صارت تربية الاولاد عبأ ثقيلا حتى على أوساط الناس واذا استمر هذا التزايد أمسى التعليم زخرفا لا يتسنى التحلي به الا في بيوت

الاغنياء فقط ومن المبادئ التي يجري عليها القابضون على ازمة امورنا ان لاحق لاولاد الفقراء في نوع ما من التعليم فهم يجاهرون به كل المجاهرة ويبدو منهم على الدوام في حديثهم وتقاريرهم وكتبهم .

نعم انه من المسلم الى حد محدود أن الوالد الذي يخصص جزأ من دخله لتربية أولاده يهمه ان يحصل من التربية على مقابل هذا الجزء وانه يراقب ولده في التعلم مراقبة فعلية ليحمله على الاستفادة من تعليم يكلفه كثيراً من النفقات ولكن الذي لا يسلم به أحد ولا دليل عليه من التجربة هو ان يستنتج من هذا ان كل تعليم مجاني يكون عقيما فانه مما تنبغي ملاحظته ان التعليم في المدارس المصرية من عهد محمد علي (باشا) الى سنة ١٨٨٢ كان مجانيا في كل هذه المدة ولم يمنع هذا ان تنتج تلك المدارس عدداً من الرجال المتعلمين تعلما حقيقيا ومعظمهم من الفقراء ولم يضر اوربا ان التعليم مجاني في كثير من البلدان ولكن أي فائدة لنا من الاستشهاد بما غبر من الاختبار في مصر وما حضر من الاعتبار باوربا مادام الذين بيدهم مقاليد حكومتنا مصممين على ان لا يقبلوا الا ما يهديهم اليه فكرهم

يشق على الانسان ان يرى كل سنة مشهد توارد الآباء والامهات على نظارة المعارف يقودون صغارهم اليها سائلين التصدق عليهم بقبولهم مجانا في مدارسها معتذرين بفقرهم ومدلين بما يكون بعض أفراد أهلهم قد أدوه الى الحكومة من الخدم مؤملين على الدوام ان العناية الالهية والمرحمة القلبية تلين صلابة ذلك المبدإ ولو مرة واحدة ولكنهم يضطرون في آخر الامر الى الرجوع الى بيوتهم أو الى قراهم خائبين خائري العزائم غير راضين لا يدرون ماذا يفعلون بهؤلاء الابناء الاعزاء الذين تمنوا لهم اماني كثيرة

ما حيلتنا؟ يقولون لنا «ان بين ظهرانيكم من أبناء وطنكم اغنياء في وسعهم إنشاء مدارس مجانية للفقراء»

آه واأسفاه ! نعم ان أبناء وطننا في وسعهم القيام بهذا العمل وبأحسن منه ولكن مصر لما يوجد فيها محبون للانسانية وأخص من بينهم محبي الانسانية المستنيرين ، قد يوجد احيانا بعض منهم يشيدون مساجد لا حاجة اليها لكثرتها عندنا وبعض آخر يقف جزءا من عقاره على ولي ولكن همة الناس وانبعاثها الى العمل لم توجه نحو التعليم فأمتنا أقامت زمنا طويلا تعتمد على الجماعة في كل شيء ومن أجل كل شيء

أما اذا نحن نظرنا الى هذا التعليم الذي تقوم به الحكومة المصرية من جهة قيمته فاننا نضطر الى القول بأنه قلما يكون رجلا في قدرته ان يمارس حرفة تقوم بمعيشته ويستحيل ان ينشيء عالما أو كاتبا أو فيلسوفا فكيف بالنوابغ في شيء من هذا

وليس للتعليم العالي بمصر سوى مدرسة الحقوق ومدرسة الطب ومدرسة المهندسخانة . اما جميع العلوم الاخرى التي تتألف منها معارف الانسان فالمصري قد يأخذ منها بعض معلومات سطيحة في المدارس التجهيزية ولكن يكاد يكون من المتعذر عليه ان يدرسها دراسة وافية بل يقضى عليه غالبا ان يجهلها - فعلم الاجتماع بفروعه التاريخية والاخلاقية والاقتصادية وعلم الفلسفة القديمة والحديثة وعلم آداب اللغة العربية واللغات الاوربية وكذلك الفنون الجميلة لا تعلم بالكلية في مدرسة ما من المدارس المصرية

فكان فينا القضاة والمحامون ، والاطباء والمهندسون ، ممن تختلف درجاتهم في العلم ولكنا لا نجد في طبقة منهم ذلك الباحث ولا ذلك المفكر

ولا ذلك الفيلسوف ولا ذلك العالم ولا ذلك الانسان الذي يمتاز ببعد الفكر والنظر وبشهامة الفؤاد وكرم السجايا الذي أوقف حياته كلها على السعي وراء مطلب من مطالب الكمال

وصفوة القول ان خطة الحكومة التي رسمتها لنفسها ويظهر انها مصممة على ان لاتحيد عنها تتلخص في أمور ثلاثة (أولها) مساعدة التعليم الابتدائي فى المدارس الصغيرة المسماة بالكتاتيب حيث تعلم الكتابة والقراءة وقواعد الحساب الاربع (ثانيها) التقليل من نشر التعليم في الامة ما أمكن (ثالثها) حصر التعليم الثانوي والتعليم العالي في اضيق الدوائر

المصريون موقنون بأن من بيدهم مقاليد أمورهم العمومية لايعملون كل مافي وسعهم لترقية الناشئين اخلاقا وعقولا وهذا الرأي مما يدعو الى الاسف والاسى من جميع الوجوه فانه سيحدث في الرأي العام تياراً من الاستياء ان لم يكن عاجلا فآجلا وليت شعري ماذا يربح الانكليز من التمادي في ترك هذا الاعتقاد راسخا في النفوس! واذا كان ثمة أمر يصح ان يتلاقى فيه الطرفان ويكون قاعدة للاتحاد فانما هو التعليم العام اذ لا يمكن ان يوجد تناقض بين مصلحة الانكليز ومصلحة المصريين في هذا المقصد

فمن أراد استدرار ما في مصر من المنافع والخيرات فسبيله في ذلك ان يعنى بتعهد كل مافيها من موارد الثروة وان يبدأ بالانسان بكل مافيه من معاني الانسان فلا بد من امتزاج العنصرين الاوروبي والوطني واخذهما على التكاتف في السير نحو هذه الغاية يداً بيد

ولعمري ان الانكليز ليسيئون الى أنفسهم اذا اوهنوا الاهلين وارخصوا من قيمتهم وصغروا من شأنهم فانما مصلحتهم في ان يكون ابناء هذا الوطن

اعزاء اغنياء احراراً فان موارد الثروة والخير للانكليز منوطة بما يصيبنا من ثراء ورخاء »

هذا ماجاء في رسالة الشيخ محمد عبده لجورفيل عن المعارف ويليه كلام عن الحقانية ومعاملة للانكليز للموظفين المصريين ملخصه انهم يلتمسون ضعيف الارادة الذي يخضع لهم في كل شيء ولا يناقشهم في عمل ما ويقصون المستقلين في الفكر والارادة . وان كل رئيس منهم يعد نفسه مشترعا فكلما خطر له استبدال قانون بقانون وضع قانونا جديدا وأنفذه لان مجلس النظار لا استقلال له فيناقش أو يعارض ومجلس شورى القوانين ليس له الا حق بيان الرأي والحكومة غير مكلفة الاخذ بقوله على ان فيه من الضعف مافيه لان الافراد الذين يصلحون فيه للبحث قليلون

فأيّ شيء من هذه الرسالة ينكر اللورد لنثبته له ؟ اما انه لا ينكر منها شيئاً ولكنه عز عليه ان يرى في كتاب أوربي كلاما في عيوب ادارة مصر لرجل معروف بالصدق وعلو المكانة عند الاوربيين ولذلك قال انه أعطى رجاحة اسمه لجورفيل الخ

ان اللورد نفسه قد اعترف كتابة بأن المعتدلين الذين سماهم حزب أو أتباع محمد عبده لم يشجعوا كما ينبغي وقال في تقرير سنة ١٩٠٥ ان تعيين سعد باشا زغلول في الوزارة وهو أشهرهم انما هو تجربة . فهل له ان يقول مع ذلك ان ما كتبه الشيخ لموسيو جورفيل لا أساس له في اعتقاده ؟

لقد كان هو وجميع أهل الرأي في مصر يعتقدون حقية ما كتبه وهذا الاعتقاد لا يزول الا بعمل ينقضه فاذا كانت الحكومة الاحتلالية مخلصة فيما فعلت وتفعل لمصر وكان ما ذكره الشيخ من عيوب ادارتها غير متعمد

منها فلتتداركه بمساعدة المستقلين من المصريين ولا يعسر عليها الاهتداء اليهم

أما ماقاله الشيخ في رسالة عن المعارف فمنه ماهو حكاية عن اعتقاد المصريين واستيائهم وهو مؤيد بما تذكره جميع الجرائد آنا بعد آن وبما ظهر فى مجلس الشورى والجمعية العمومية فكيف يقول اللورد انه لاأساس له؟ ألم ينبأ بما جرى في هذا العام — حتى بعد ان قام ناظر المعارف بهذه النهضة الجديدة في ترقية التعليم من جهات متعددة — من قيام قيامة التلاميذ والجرائد والناس على مستر دنلوب بما كان قد ازدحم في مراكز الفكر والشعور من سوء حال الماضي . ان لم يكن قد ظهر به مصداق قول الشيخ انه سيحدث في الرأي العام تيار استياء عام من حال التعليم عاجلا أو آجلا فان ما ظهر قريب منه ولولا هذا الاصلاح الجديد لظهر اتم الظهور

اما باقي كلام الشيخ فهو حكاية عن سياسة المحتلين في التعليم وهو مؤيد بما كتبه اللورد في تقرير تلك السنة فانه قال (كما في ص ١٣٣ ومابعدها من النسخة العربية لتقريره عن سنة ١٩٠٥)

«يراد بهذه السياسة ابطال التعليم المجاني تدريجا من المدارس الاميرية التي هي فوق الكتاتيب وزيادة الاجور فيها .» ثم احتج على ذلك بكون الغرض منها تعليم التلاميذ تعليما أوربيا لكي تعد جمهورا من الشبان المصريين لخدمة الحكومة ولتعاطي بعض الفنون » ثم ذكر ان محمد علي انشأ هذه المدارس لفرنجة البلاد وان عباسا الاول ألغاها بعد ان خرج منها مايزيد على عدد الوظائف وأعادها اسماعيل لفرنجة البلاد كما كانت وانها كانت مجانا بل كان التلاميذ فيها يأكلون ويأخذون مرتبات واظهر استحسان ذلك من قبل والاستغناء عنه الآن ثم قال « ويجب على الحكومة

ان تتوخى جعل اجرة التعليم في كل مدارسها المتفرنجة مقاربة للنفقات التي تنفقها عليه والاموال التي تنفقها على هذه المدارس تصير تنفقها على التعليم الاهلي الالزم لحاجة الامة ، ويعني بالالزم لحاجات الامة تعليم الكتاتيب والصنائع فقط وهذا مالا يسلم به مصري قط

ثم ذكر ان الانكليز لما احتلوا البلاد وجدوا ان كل ما تنفقه المعارف العمومية « انما تنفقه على تعليم أولاد فئة صغيرة أكثرها من اغنى أغنياء السكان ولا تعلمهم الا تعليما أوربيا فأخذوا في تغيير تلك الحال وبذلت الهمة منذ سنة ١٨٨٤ لاخذ الاجور من التلامذة ولا بطال التعليم المجاني تدريجا ولكن بقي النجاح في هذا السبيل بطيئاً جداً الى عهد قريب » ثم استدل بذلك على « ان ابطال التعليم المجاني وازدياد أجرة التعليم ليسا من دلائل التأخر ولا هما مضران بمصلحة البلاد الحقيقية بل هما بمثابة ابطال امتياز » الخ

فكيف يقول اللورد مع هذا ان الشيخ كتب ما يعلم انه لا أساس له ؟

سبحان الله كأن الشيخ كان يكتب سنة ١٩٠٥ لجورفيل في الوقت الذي كان اللورد يكتب فيه لناظر خارجيتهم ما يؤيد قوله ! ألم تر ان الشيخ قد كتب انهم يعني ولاة الامور يقولون لنا ان فيكم أغنيا يجب أن ينشئوا المدارس المجانية للفقراء ، وان اللورد كتب في تقريره (ص ١٣٥ و ١٣٦) « واذا أريد تمهيد السبل للتلامذة الذين تبدو عليهم مخايل النجابة الفائقة لكي يدخلوا المدارس العليا ووسائطهم المالية لا تكفي لذلك وجب ان يقف المحسنون اموالا لتلك المدارس التي يعلم بها من كان مثل أولئك التلامذة ووقف هذه الاموال لتعليم التلامذة الفقراء الذين يستحقون ان يساعدوا انفع جداً من تكثير المدارس الابتدائية المتفرنجة » (للكلام بقية)

دعا سليم افندي سركيس السوريين بمصر وغيرها الى الاكتتاب للاحتفال بحافظ افندي ابراهيم الذي ينوه بفضلهم ليكون هذا الاحتفال تودداً من شعب الى شعب هما بمنزلة الشقيقين. فلبى الدعوة كثيرون وبعد انتهاء مدة الاكتتاب اقيمت الحفلة بفندق شبرد وحضرها مع جمهور المكتتبين كثيرون من وجهاء وادباء المصريين واصحاب الجرائد وكان ترتيبها هكذا

افتتح الاحتفال سليم افندي سركيس ببيان الغرض منه ' خطب سليمان افندي البستاني في الشعر والشعراء ، أنشد نقولا افندي رزق الله قصيدة «مصر وسوريا» ' خطب سليم بك باخوس في إكرام الرجال للرجال . تليت قصيدة للأمير شكيب ارسلان ' خطب اسماعيل بك عاصم ' أنشد امين افندي البستاني قصيدة له خطب رفيق بك العظم تليت قصيدة لاسعد افندي رستم قرىء كتاب في تحية الصحافة للشعراء المرسل من ادارة جريدة مرآة الغرب بنيويورك أنشد الدكتور ابراهيم افندي شدودي قصيدة له وقدم سليم افندي سركيس لحافظ افندي هدية رواق المصري في البرازيل وهي قلم من الذهب بشكل الريشة ثم الهدية الاكرامية من مجموع السوريين وهي دواة ومقلمة من الفضة . وختمت الحفلة بقصيدة الشكر من حافظ وهي

لمصر ام لربوع الشام تنتسبُ ... هنا العلى وهناك المجد والحسبُ
ركنان للشرق لا زالت ربوعهما ... قلبُ الهلال عليها خافقٌ يجب
خدران (للضاد) لم تهتك ستورهما ... ولا تحوّل عن مغناهما الادب
أمُّ اللغات غداةَ الفخر أمهما ... وان سألت عن الآباء فالعرب
ايرغبان عن الحسنى وبينهما ... في رائعات المعالي ذلك النسب
ولا يمتّان بالقربى وبينهما ... تلك القرابة لم يقطع لها سبب
إذا ألمت بوادي النيل نازلةٌ ... باتت له راسيات الشام تضطرب
وان دعا في ثرى الاهرام ذو ألمٍ ... اجابه في ذرى لبنان منتحب
لو أخلص النيل والأُردنُّ ودّهما ... تصافحت منهما الأمواه والعُشب
بالواديين تمشى الفخر مشيته ... يحفُّ ناحيتيه الجود والدأب
فسال هذا سخاء دونه ديمٌ ... وسال ذاك مضاء دونه القضب
نسيمَ لبنان كم جادتك عاطرةٌ ... من الرياض وكم حياكَ منسكب

في الشرق والغرب انفاس مسعّرة تهفو اليك واكباذ بها لهب
لولا طلاب العلا لم يبتغو بدلاً من طيب رياك لكنّ العلا تعب
كم غادةٍ بربوع الشام باكية على أليفٍ لها يرمي به الطلب
يمضي ولا حيلة الا عزيمته وينثني وحلاه المجد والذهب
يكرُّ صرف الليالي عنه منقلباً وعزمه ليس يدري كيف ينقلب
بارض (كولمبَ) ابطالٌ غطارفة اسدٌ جياعٌ اذا ما وثبوا وثبوا
لم يحمهم عَلَمٌ فيها ولا عددٌ سوى مضاء تحامى ورده النوب
اسطولهم املٌ في البحر مرتحلٌ وجيشهم عملٌ في البرّ مغترب
لهم بكلّ خضمّ مسربٌ نهجٌ وفي ذرى كل طودٍ مسلك عجب
لم تبدُ بارقةٌ في أفقِ منتجعٍ الا وكان لها بالشام مرتقب
ما عيبهم انهم في الارض قد نُثروا فالشهب منثورة مذ كانت الشهب
ولم يَضِرْهمْ سراءٌ في مناكبها فكل حيّ له في الكون مضطرب
رادوا المناهل في الدنيا ولو وجدوا الى المجرّة ركبا صاعداً ركبوا
أو قيل في الشمس للراجين منتجع مدوا لها سببا في الجو وانتدبوا
سعوا الى الكسب محموداً وما فتئت أمُّ اللغات بذاك السعي تكتسبُ
فأين كان الشآميُّون كان لها عيشٌ جديد وفضل ليس يحتجب
هذي يدي عن بني مصر تصافحكم فصافحوها تصافح نفسها العربُ
فما الكنانةُ الاّ الشام عاج على ربوعها من بنيها سادةٌ نجب
لولا رجال تغالوا في سياستهم منا ومنهم لما لمنا ولا عتبوا
ان يكتبوا لي ذنباً في مودتهم فانما الفخر في الذنب الذي كتبوا

انجيل برنابا ـ مقدمتنا له

قد تم طبع إنجيل برنابا كما قلنا في الجزء الثاني عشر من السنة الماضية وقد كتب له مترجمه الدكتور خليل سعادة مقدمة ذكر فيها ملخص ما قاله علماء الافرنج فيه ورأيه في ذلك فنشرناها وقفينا عليها بمقدمة منا هذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على محمد رسول الله ، وعلى عيسى المؤيد بروح الله ، وعلى جميع الانبياء والمرسلين ، ومن اهتدى بهديهم الى يوم الدين

أما بعد فاننا نرى مؤرخي النصرانية قد أجمعوا على انه كان في القرون الأولى للمسيح عليه السلام أناجيل كثيرة وان رجال الكنيسة قد اختاروا منها أربعة أناجيل ورفضوا الباقي. فالمقلدون لهم من أهل ملتهم قبلوا اختيارهم بغير بحث وسيكون ذلك شأن أمثالهم الى ما شاء الله

وأما من يحب العلم ويجتنب التقليد من كل أمة فهو يود اذا اراد الوقوف على أصل هذا الدين وتاريخه لو يطلع على جميع تلك الاناجيل المرفوضة ويقف على كل ما يمكن الوقوف عليه من أمرها ويبني ترجيح بعضها على بعض بعد المقابلة والتنظير على الدلائل المرجحة التي تظهر له هو وان لم تظهر لرجال الكنيسة

لو بقيت تلك الاناجيل كلها لكانت اغزر ينابيع التاريخ في بابها ما قبل منها أصلا للدين وما لم يقبل ولرأيت لعلماء هذا العصر من الحكم عليها والاستنباط منها بطرق العلم الحديثة المصونة بسياج الحرية والاستقلال في الرأي والارادة ما لا يأتي مثله من رجال الكنيسة الذين اختاروا تلك الأربعة ورفضوا ما سواها

أنجيل المسيح عيسى بن مريم عليه السلام واحد هو عبارة عن هديه وبشارته بمن يجيء بعده ليتم دين الله الذي شرعه على لسانه وألسنة الانبياء من قبله فكان كل منهم يبين للناس منه ما يقتضيه استعدادهم وإنما كثرت الاناجيل

لان كل من كتب سيرته عليه السلام سماها إنجيلا لاشتمالها على ما بشر وهدى به الناس

من تلك الاناجيل (إنجيل برنابا) وبرنابا حواري من أنصار المسيح الذين يلقبهم رجال الكنيسة بالرسل صحبه بولص زمنا بل كان « هو الذي عرف التلاميذ ببولص بعد ما اهتدى (بولص) ورجع الى اورشليم »(١) فلعل تلاميذ المسيح ما كانوا ليثقوا بإيمان بولص بعد ما كان من شدة عداوته لدينهم لولا برنابا الذي عرفه أولا وعرفهم به بعد ان وثق به . ومقدمة هذا الانجيل الذي نقدم ترجمته لقراء العربية اليوم ناطقة بأن بولص انفرد بتعليم جديد مخالف لما تلقاه الحواريون عن المسيح . ولكن تعاليمه هي التي غلبت وانتشرت واشتهرت وصارت عماد النصرانية . ويذهب بعض علماء الافرنج الى أن انجيل مرقس وانجيل يوحنا من وضعه كما في دائرة المعارف الفرنسية . فلا غرو اذا عدت الكنيسة إنجيل برنابا إنجيلا غير قانوني أو غير صحيح

لم نقف على ذكر لانجيل برنابا في أسفار التاريخ أقدم من المنشور الذي أصدره البابا جلاسيوس الأول في بيان الكتب التي يحرم قراءتها فقد جاء في ضمنها إنجيل برنابا . وقد تولى جلاسيوس البابوية في أواخر القرن الخامس للميلاد أي قبل بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم على ان بعض علماء أوربا يرتابون اليوم في ذلك المنشور كما ذكر الدكتور سعادة في مقدمته والمثبت مقدم على النافي

مرت القرون وتعاقبت الاجيال ولم يسمع أحد ذكراً لهذا الانجيل حتى عثروا في أوربا على نسخة منه منذ مئتي سنة فعدوها كنزاً ثميناً ولو وجدها أحد في القرون الوسطى قرون ظلمات التعصب والجهل لما ظهرت وانى يظهر الشيء في الظلمة والنور شرط الظهور ؟

ظهرت هذه النسخة في نور الحرية المتألق في تلك البلاد وكانت موضع اهتمام العلماء وعنايتهم وموضوع بحثهم واجتهادهم وانبرى بعض فضلاء الانكليز في العام الماضي لترجمتها بالانكليزية وتعميم نشرها وقد أهدت الينا نسخة منها

(١) اع ٩: ٢٧ كما في ص ٢٢٣ من الجزء الاول من قاموس الكتاب المقدس

عند نشرها فرأينا انه يجب ان لا يكون حظ قراء العربية منها أقل من حظ قراء الانكليزية فكاشفنا بذلك صديقنا الدكتور خليل سعادة فوافقت رغبته رغبتنا وترجم النسخة بالعربية ترجمة حرفية و باشرنا طبعها بعد معارضتها معه على الاصل لاجل الدقة في تصحيحها

بحث علماء أوربا في هذه النسخة وكتبوا في شأنها فصولاً طويلة لخصها الدكتور سعادة في مقدمته فمن مباحثهم ماهو علمي دقيق كـكلامهم في نوع ورقها وتجليدها ولغتها ومنها ماهو من قبيل الخرص والتخمين كأقوالهم في الكاتب الأول لها والزمن الذي كتبت فيه وتبعهم في مثل هذا البحث أصحاب مجلتي المقتطف والهلال

ويجب ان ننبه في هذا المقام على قاعدة من قواعد البحث الفلسفية، وأصل من أصوله العقلية، وهي قاعدة إطلاق البحث أو بنائه على أسه ولو مفروضاً . فان كثيراً من الباحثين يبنون أبحاثهم على فرض يتخذونه قاعدة مسلمة وربما كان فاسداً فيجيء كل ما بني عليه مثله لأن مابني على الفاسد فاسد حتما . مثال هذا ما امتحن به بعض الفلاسفة تلاميذه وهو انه عمد الى جرة كانت في الشمس فقلبها من غير ان يروه ودعاهم فقال اني أرى وجه هذه الجرة المقابل للشمس باردا ثم قلبها ولمس الجانب الآخر معهم فاذا هو سخن فطالبهم بعلة ذلك فطفقوا ينتحلون العلل وهو يردها ولما سألوه عن رأيه في ذلك قال انه يجب أن يتثبت من صحة الشيء أولا ثم يبحث عن علته . وكون الجانب المقابل للشمس من هذه الجرة باردا والجانب المقابل للارض سخنا غير صحيح بل قلبتها انا لاختبر فطنتكم

وكذلك فعل بعض الباحثين في إنجيل برنابا فرضوا أنه من وضع بعض المسلمين ثم حاروا في حزر تعيين واضعه هل هو غربي أم شرقي عربي أم عجمي قديم ام حادث . وما قال أحد فيه قولا الا وجد من الباحثين من يفنده حتى رأى الدكتور سعادة بعد الاطلاع على تلك الأقوال ان الاقرب الى التصور أن يكون كاتبه يهوديا أندلسيا من أهل القرون الوسطى تنصر ثم دخل في الاسلام وأتقن

اللغة العربية وعرف القرآن والسنة حق المعرفة بعد الاحاطة بكتب العهد العتيق والجديد. واستدل على هذا الفرض بعلمه الواسع بأسفار العهد القديم وموافقته للمعهود واحاطته بالعهد الجديد وغفل عن عزوه الى كتب العهدين ما لا يوجد في نسخها التي عرفت في القرون الوسطى وهي التي بين أيدينا الآن كعزو قصة هوشع وحجي الى كتاب دانيال، وعن مخالفته لها احيانا في مسائل أخرى ولو كان من أهل القرون الوسطى وما بعدها لما وقع في هذا الغلط الظاهر مع علمه الواسع

واستدل أيضاً بموافقة بعض مباحثه للقرآن والاحاديث وما كل ما وافق شيئاً في بعض مباحثه يكون مأخوذا منه والا لزم ان تكون التوراة مأخوذة من شريعة حمورابي لا وحيا من الله لموسى عليه السلام. على أن معظم مباحث هذا الانجيل لم تكن معروفة عند أحد من المسلمين وأسلوبه في التعبير بعيد جداً من أساليب المسلمين عامة والعرب منهم خاصة كما بين ذلك بعض القسيسين في مجلة دينية وأي مسلم يذكر الله ولا يثني عليه والانبياء ولا يصلي عليهم ويسمي الملائكة بغير الاسماء الواردة في الكتاب والسنة

وقد كانت مسألة اليوبيل أقوى الشبهات عندي على كون كاتبه من أهل القرون المتوسطة لا من قرن المسيح حتى بين الدكتور سعادة ضعفها بدقة نظره فلم يبق للباحثين دليل يعوّل عليه في هذا المقام فان موافقة بعض ما فيه لبعض ما ورد في شعر دانتي يمكن ان يعلل بأن دانتي اطلع عليه وأخذ منه ان لم يكن ذلك من قبيل توارد الخواطر

أما الهوامش العربية التي وجدت على النسخة فيحتمل ان تكون للراهب فرمرينو الذي اكتشف هذا الانجيل في مكتبة البابا بأن يكون دخوله في الاسلام حمله على تعلم العربية حتى كان مبلغ علمه فيها ان يترجم بعض الجمل بعبارة سقيمة تغلب عليها العجمة وما فيه من العبارات الصحيحة على قلتها لا ينافي ذلك فان كل من يتعلم لغة اجنبية في سن الكبر تكون كتابته فيها لاول العهد من هذا القبيل: صواب قليل، وخطأ كثير، على ان اكثر العبارات الصحيحة في هذه الهوامش منقول من القرآن أو بعض الكتب العربية التي يمكن ان يكون قد اطلع عليها الكاتب. ويحتمل

أن يكون بعض القسوس أو من هم على شاكلتهم قد تعلم العربية ليتبين هل فيها مصادر لهذا الانجيل يمكن ارجاعه اليها . و يرجح هذا الاحتمال تسميته الفصول سورا تشبيها له بالقرآن أما عزو هذه الهوامش الى مسلم عريق في لاسلام فخطأ لا يحتمل الصواب اذ لا يوجد مسلم عربي ولا عجمي يطلق لفظ السور على غير سور القرآن أو يقول « الله سبحان » كما جاء في مواضع منها هامش ص ١٤١ و ١٦ لان كلمة « سبحان الله » مما يحفظه كل مسلم من اذكار دينه ، أو يقول ميخائيل بدل ميكائيل و يجهل اسم اسرافيل فيسميه اوريل أو رفائيل ، او يقول ان السموات اكثر من سبع وان العدد لا مفهوم له كما قال علماء الاصول . ولذلك أمثلة أخرى أضف اليها عدم اطلاع علماء المسلمين في الاندلس وغيرها على هذا الانجيل كما حققه الدكتور مرجليوث مؤيداً تحقيقه بخلو كتب المسلمين الذين ردوا على النصارى من ذكره ، وناهيك بابن حزم الاندلسي وابن تيمية المشرقي فقد كانا أوسع علماء المسلمين في الغرب والشرق اطلاعا كما يعلم من كتبهما ولم يذكرا في ردهما على النصارى هذا الانجيل

بقي أمر يستنكره الباحثون في هذا الانجيل بحثاً علمياً لا دينياً أشد الاستنكار وهو تصريحه باسم « النبي محمد » عليه الصلاة والسلام قائلين لا يعقل ان يكون ذلك كتب قبل ظهور الاسلام اذ المعهود في البشارات ان تكون بالكنايات والاشارات والعريقون في الدين لا يرون مثل ذلك مستنكراً في خبر الوحي وقد نقل الشيخ محمد بيرم عن رحالة انكليزي أنه رأى في دار الكتب البابوية في الفاتيكان نسخة من الانجيل مكتوبة بالقلم الحميري قبل بعثة النبي (ص) وفيها يقول المسيح « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » وذلك موافق لنص القرآن بالحرف ولكن لم ينقل عن أحد من المسلمين أنه رأى شيئاً من هذه الاناجيل التي فيها البشارات الصريحة فيظهر ان في مكتبة الفاتيكان من بقايا تلك الاناجيل والكتب التي كانت ممنوعة في القرون الأولى مالو ظهر لأزال كل شبهة عن انجيل برنابا وغيره .

على انه لا يبعد ان يكون مترجم برنابا باللغة الايطالية قد ذكر اسم « محمد » ترجمة وانه في الاصل الذي ترجم هو عنه قد ذكر بلفظ يفيد معناه كلفظ البارقليط

ومثل هذا التساهل معهود عند المسيحيين في الترجمة كما بينه الشيخ رحمة الله بالشواهد الكثيرة من كتبهم في الامر السابع من المسلك السادس من الباب السادس من كتابه اظهار الحق وزاده بعد ذلك بيانا في البشارة الثامنة عشرة

ولا يحسبن القارئ المسلم ان علماء أوربا وبعض علماء بلادنا كالدكتور سعادة وأصحاب المقتطف والهلال يظهرون الريب في هذا الانجيل الموافق في أصول تعاليمه للاسلام تعصباً للنصرانية فان الزمن الذي كان التعصب فيه يحمل العلماء على طمس الحقائق التاريخية وغيرها قد مضى . وقد بحث علماء أوربا بامثل هذه المباحث في الاناجيل الاربعة فبينوا انه لا يعرف متى كتبت ولا بأي لغة ألفت وقال بعضهم ان مؤلفيها غير معروفين واتهم بعضهم بولس بوضع أكثرها كما ترى في دائرة المعارف الفرنسية وغيرها بل منهم من جعل أصول تعاليمها مأخوذة من الاديان الوثنية

أكثر العلماء في هذا العصر أحرار مستقلون في مباحثهم الا من غلب عليه التقليد الديني أو مصانعة المتدينين ألا ترى ان الدكتور مرجليوث الانكليزي هو الذي دحض شبهة من قال ان لهذا الانجيل أصلاً عربياً وانه من وضع المسلمين ، وان الدكتور سعادة هو الذي فند رأي المستدل على كونه من وضع القرون الوسطى بما فيه من ذكر يوبيل كل مئة سنة ، وان أصحاب المقتطف يجوزون أن يكون له أصل ترجمت عنه النسخة الايطالية ويحثون على البحث عنها . فأمثال أولئك العلماء يجب احترام رأيهم وان لم يكن دليله واضحاً وتعليله ظاهراً

ومن لاحظ ان بعض القسيسين يجعلون العمدة في اثبات الاناجيل الاربعة ما فيها من التعاليم الادبية العالية ثم قرأ تعاليم انجيل برنابا يظهر له مكانه العالي في تعاليمه الالهية والأدبية . فاذا صرفنا النظر عن فائدته التاريخية وعن حكمه لنا في المسائل الثلاث الخلافية - التوحيد وعدم صلب المسيح ونبوة محمد (ص) - فحسبنا باعثاً على طبعه وراء قيمته التاريخية ما فيه من المواعظ والحكم والآداب وأحاسن التعاليم ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ،

القاهرة في ٢١ صفر سنة ١٣٢٦　　محمد رشيد رضا الحسيني
منشئ المنار

الله عظيم

Vero evangelio di iesu chiamato christo nouo profeta mandato da dio al mondo secondo la descritione di barna

Barnaba apostolo di iesu nazareno chiamato christo a tutti quelli che habitano sopra la terra pace he consolatione desidera ● charissimi il grande he admirabile dio questi giorni passati cia uisitati per il suo proffeta iesu christo in grande misericordia di dotrina he miracoli per la qualle chossa molti ingannati da satana sotto pretesto di pieta predichano empiissima dotrina ● chiamando iesu figlio di dio repudiando la circoncisione pato di dio in sempiterno he concedendo ogni cibo inmondo fra quali he paulo he ingannato del quale non senza dolore io parlo ● per la qual chosa io scriuo quella uerita la quale ho ueduta he sentita nella conuersatione chio ho conuersato con iesu azio che ● siate salui he non siate ingannati da

اذا اعطيتم الله تعالى من الخبائث ما قلتم عند الله [illegible]

١٣٢

date ha dio quanto per con more di dio ● credere siate pigri nel dare he date quello che auete del migliore per ammore di dio ● Ditemi uolle (?) te uoi ricevere chossa ueruna da dio chattiua no certo ho poluere he cenere ● adonque chome hauete fede in uoi se dorete chossa ueruna chattiua per ammore da dio ● Melgio saria non dare niente che dare chossa chattiua perche non dando hauerete qualche scusa sechondo il mondo ● ma dando chossa trista he seruando per uoi il migliore quelle sera la scusa he questo he quanto modo dire circha la penitenzia ● Rispose barto lameo quanto tempo deue durare la penitenza ● Rispose iesu mentre che lo homo he in stato di pechato debe sempre pentirsi he farne penitenza onde sichome la uitta humana sempre pecha chosi sempre deue fare penitenzia ● se uoi non uollete fare piu chonto delle scarpe uostre che della anima uostra posscia che ogni uolta che rotono quelle uoi le rachonciate ●

chonucho

خطبة حفني بك ناصف

﴿ رئيس نادي دار العلوم في مسألة التعريب ﴾

أكثر القائلون بتطبيق «سياسة الباب المفتوح» على اللغة العربية من ذكر جمود أمتنا واشتغالها عن الجواهر بالاعراض ووقوفها موقف المستضعفين أمام الامم الغربية ونعوا علينا تحرجنا قبول الدخيل في لغتنا ورمونا « بالرجوع الى الوراء والنفور من كل جديد والوقوف عند حد ما أماته الزمان ومخالفة سنة اللغات الحية صاحبة الحركة الدائمة التي قدر أهلها أن ينتفعوا بكل ماخلقه الله » الى آخر ما أتوا به من القضايا الخطابية بقصد التأثير في أفكار السامعين حتى تخيلوا ان الكلم الاعجمية واجبة الاستعمال في اللغة العربية حرصا على الزمن أن يضيع في انتقاء ألفاظ عربية تسد مسدها وان قواعد الاقتصاد السياسي تقضي بصرفه في اختراع آلة حربية أو معمل صناعي أو مصرف مالي ولقد كدت من شدة التأثير أمسك عن الكلام خيفة ان أضيع عليكم ساعة يمكنكم فيها اختراع بندقية جديدة أو آلة للطيران أو علاج للسرطان

مسكينة الامة المستضعفة لا تدري من أين تؤتى ولا تعرف لتأخرها علة فتذهب مع كل ذاهب وتمشي وراء كل حاطب

ظننا النيل سبب رخاوتنا فعدلنا عنه الى الآبار فانشطنا، و خلنا الازياء

الواسعة مانعتنا عن الحركة فاستبد لنابها أزياء ضيقة فما عدونا. وحسبنا اقتعاد السيارات والدراجات يوصلنا الى المدنية فاقتعدنا وما استفدنا، وزعمنا ملاهي التمثيل، أقرب سبيل، فأبعدتنا، وعددنا النفازج (البالو) معارج فما عرجنا، وغيرنا العمائم بالقلانس والدور بالقصور وظهور الصافنات ببطون العربات فما أخرجنا كل ذلك عما نحن فيه من الاستضعاف ولا سما بنا الى راقي الالمان، والانكليز واليابان

ان لارتفاع الامم وانحطاطها أسبابا خاض فيها الحكماء وأفاض في بيانها العلماء وليس المقام الآن مقام ذكرها وان المسألة التي نحن بصددها مسألة نقلية يرجع فيها الى كتب اللغة والادب وليس لاحد ان يأخذ فيها بالهوى أو يسترسل مع الوجدان أو يقتصر فيها على مجرد الاستقباح والاستحسان فكما لايجوز في التاريخ ان تنكروا غلبة اليابان للروس محتجين بان الصغير لايغلب الكبير لايجوز في العربية أن تنصبوا الفاعل وتقدموا خبر ان على اسمها احتجاجا بأن المعنى لا يتغير ولا ان تقولوا «ماالفرق بيننا وبين العرب الاولى حتى جاز لهم وضع ألفاظ مقتضبة وتعريب كلمات أعجمية والشذوذ عن القياس وامتنع علينا أليسوا رجالا ونحن رجال؟»

ليس لاحد ان يقول ذلك الا اذا خرج من الربقة وخلع العذار ورضي بان يكون طليقا لايتقيد بشيء . المسألة منصوصة في الاسفار فمن شاء ان يخرق الاجماع ولا يقصر شيئاً على السماع ويستريح من عناء الدروس فليصنع ماشا فليس عندنا مايرغمه على اتباع الجماعة ولا فائدة في الجدال معه واذا شاء ان يتبع المنصوص فها هو بيانه.

انفق العلماء على أن اللغة العربية كانت لسان عاد وثمود وأميم وعبيل

وطسم وجديس وعمليق وجرهم ووبار من أولاد إرم بن سام

وأول تنقيح دخلها كان بعمل يعرب بن قحطان رأس العرب العاربة وجرى اولاده على لغته في أنحاء اليمن كلها ثم تفرق جماعة منهم في نجد والحجاز وتهامة والشام والحيرة

ولما اصهر اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام الى قبيلة جرهم أدخل تنقيحا ثانيا في اللغة وجرى على أثره القبائل من أولاده كربيعة ومضر وكنانة ونزار وخزاعة وقيس وضبة

والتنقيح الثالث أدخلته قريش بالتدريج انتخابا من لغات قبائل العرب التي كانت تفد عليهم في كل عام وتمكث بين ظهرانيهم نحو خمسين يوما منها ثلاثة ايام بسوق ذي المجاز وسبعة بسوق مجنة وثلاثون بسوق عكاظ وعشرة في مناسك الحج

والتنقيح الرابع هو اختيار علماء المصرين البصرة والكوفة (نقلة اللغة في عصر الامويين والعباسيين) فقد قصروا اختيارهم على ست قبائل من صميم العرب لم تختلط بغيرها وهم قيس عيلان واسد وهذيل وبعض تميم وبعض كنانة وبعض طي ولم يأخذوا عن لخم وجذام لمخالطتهم القبط اهل مصر، ولا عن قضاعة وغسان واياد لمخالطتهم اهل الشام والروم وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية . ولا عن تغلب لانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ولا عن بكر لمجاورتهم النبط والفرس ولا عن عبد القيس وازد عمان لانهم كانوا بالبحرين مخالطين الهنديين والفرس، ولا عن اهل اليمن (حمير وهمدان وخولان والازد) لمخالطتهم الحبشة والزنج والهنديين ولا عن بني حنيفة وسكان اليمامة وثقيف والطائف لمخالطتهم تجار اليمن عندهم

ولا عن حاضرة الحجاز وقت نقل اللغة لفساد لغتها بالاختلاط

وعدوا لغة قريش أفصح اللغات العربية لانها خالية عن عنعنة تميم وهي ابدال الهمزة عينا نحو عَنتَ وعِنّك أي أنت وانك ، وعن تلتلة بهراء وهي كسر أول المضارع نحو تِلعب وتِلهو ، وعن كسكسة ربيعة ومضر وهي إلحاق سين بعد كاف المخاطب رأيتكَسْ ، وعن كشكشة هوازن وهي إلحاق شين بعد كاف المخاطبة نحو رأيتكِشْ وعن فحفحة هذيل وهي قلب الحاء عينا نحو عَتّى أي حتى ،وعن وكْم ربيعة وهي كسر كاف الخطاب بعد الياء الساكنة أو الكسرة نحو عليكِمْ وبِكِم ، وعن وَهْم بني كلب وهي كسر هاء الغيبة اذا لم يكن قبلها ياء ساكنة ولا كسرة نحو عنهِمْ وبينهِم وعن جعجعة قضاعة وهي قلب الياء الاخيرة جيما نحو الساعج يدّعج أي الساعي يدعي وعن وَتْم أهل اليمن وهو قلب السين المتطرفة تاء نحو النات أي الناس ، وعن الاستنطاء في لغة سعد والازد وقيس وهو قلب العين الساكنة نونا قبل الطاء نحو أنطى أى أعطى ، وعن شنشنة اليمن وهي قلب الكاف شينا نحو لبيش اللهم لبيش ، وعن لخلخانية الشحر وعمان وهي حذف الالف في نحو مشاءالله أي ماشاء ،وعن طُمْطمانية حمير وهي جعل أل « ام » نحو ، وعن طاب امهواء أي الهواء ، وغمغمة قضاعة وهي اخفاء الحروف عند الكلام فلا تكاد تظهر

ولم ينظر نقله اللغة الى لغة كل قبيلة على حدتها بل جمعوا الالفاظ التي يتكلم بها كل القبائل التي عولوا على الاخذ عنها وجعلوها لغة واحدة مقابل اللغة الاعجمية لا يخطئ المتكلم الا اذا خرج عنها كلها فلفظ المدية لغة دوس (بطن من الازد) ولفظ السكين لغة قريش فنقل الائمة اللفظين

وأباحوا لكل انسان أن يتكلم بأيهما شاء ولو لم يوجد في العرب من تكلم بهما معا ومن هنا جاء الترادف في اللغة والاشتراك اللفظي ولو جمعوا لغة كل حي من العرب على حدتها لتكرر العمل وطال الزمن

ثم نظروا بعد ذلك الى المفردات فما كان منها كثير الدوران على ألسنة العرب عدوه غريباً ووحشيا يعدّ استعماله مخلا بالفصاحة ولو كان معروفاً عند المخاطبين

واستخرجوا من استعمالات العرب قواعد تتعلق بأحوال أواخر الكلم وقواعد تتعلق بباقي أحوالها وسموها علم النحو والصرف وجعلوا لبعض تلك القواعد قيوداً واستثناآت حتى يكون الاستعمال الكثير مضبوطاً بقوانين تحتذى عند القياس وما شذ عن ذلك جعلوه سماعيا يقبل من العربي ولا يقبل من المولد

وكانوا شديدي الحرص على بيان السماعي والقياسي فاذا لم يكن اللفظ (مادة أو هيئه) قد سمع من العرب منعوه بتاتا وشنعوا على مستعمله

ولاجل أن يعرف السامع مقدار عنايتهم بالمسموع من العرب ومقدار الانحطاط الذي كان يلحق بمن يخطئ منهم أروي لك قصة وفود سيبويه على يحيي بن خالد البرمكي ببغداد فقد عقد يحيي مجلسا جمع فيه بين سيبويه رئيس نحاة البصرة وبين علي الكسائي رئيس نحاة الكوفة فقال له الكسائي: تسألني أو أسألك؟ فقال سيبويه سل أنت فسأله الكسائي عن قول العرب « قد كنت أظن ان العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا هو هي» أيجوز « فاذا هو اياها» فقال سيبويه لايجوز النصب فقال الكسائي العرب ترفع ذلك وتنصبه فقال يحيي لقد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما فمن يحكم بينكما فقال

له الكسائي هذه العرب ببابك قد سمع منهم أهل البلدين فيُحضَرون ويُسألون فقال يحيي وجعفر أنصفت وامرا باحضار أعرابي من أهل البادية وسألوه فقال «القول قول الكسائي» فقال سيبويه ليحيي «مره أن ينطق بذلك فان لسانه لا يطاوعه» فاكتفى المجلس بحكم الاعرابي وخجل سيبويه وسافر بعد ذلك الى فارس فأقام بها حتى مات وكانت هذه المسألة سبب علته وكانت وفاته في سنة ١٨٠ وعمره ٣٢ وهكذا كانت عادة علماء البلدين متى اختلفوا في أمر تلمَّسوه عند البدو وتسمّعوه منهم

وعرفوا المعرّب بأنه الاسم الاعجمي الذي فاهت به العرب الموثوق بعربيتهم فاذا فاه به غير العربي سمي مولداً وقد تبعهم في ذلك كل من كتب في اللغة كاصحاب الصحاح والقاموس والمحكم والعباب وأجمع العلماء على أن لا يستشهد في اللغة والصرف والنحو الا بكلام العرب ولا يجوز الاستشهاد بكلام المولدين الا في علوم البلاغة

واجازوا استعمال الكلم في غير ماوضعت له متى وجدت مناسبة بين المعنى الاصلي والمعنى المراد وقامت قرينة تمنع ارادة المعنى الاصلي وحصروا تلك المناسبات بالاستقراء وسموها علاقات وهي

المشابهة نحو فاه الخطيب بالدرر أي الكلمات الحسان

والسببية — نحو رعينا الغيث أي الكلاء

والمسببية — نحو أمطرت السماء نباتا أي ماء

والكلية — نحو «يجعلون أصابعهم في آذانهم

والجزئية — نحو بث الامير العيون أي الجواسيس

والحالية — نحو «ففي رحمة الله هم فيها خالدون» أي الجنة

والمحلية - نحو سال الوادي وجرى الميزاب أي ماؤه
واللازمية - كاطلاق الحرارة على النار
والملزومية نحو دخلت الشمس من الكوة أي ضوءها
والاطلاق - نحو « لا صلاة لجار المسجد الا في المسجد » أي لاصلاة كاملة
والتقييد كاطلاق المشفر على شفة الانسان والمشفر للبعير كالشفة للانسان
والعموم - كاطلاق الابيض والاسمر على السيف والرمح والدابة على ذات الاربع
والخصوص - كاطلاق اسم الشخص على القبيلة نحو تميم وقريش وربيعة
والبدلية - نحو في ملك فلان الف دينار أي متاع يساوي الفا
والمبدلية - نحو * أكلت دما ان لم أرعك بضرة * أي أكلت دية
واعتبار ما كان - نحو « وآتوا اليتامى أموالهم » أي الذين كانوا يتامى
واعتبار ما يكون - نحو « أراني أعصر خمرا » أي عنبا
الدالية - نحو فهمت الكتاب أي معناه
والمدلولية - نحو * قرأت معناه مشفوعا بتقبيل * أي قرأت لفظه
والمجاورة - نحو شربت من الراوية أي المزادة المجاورة للجمل وقد تكون المجاورة في الذكر فقط كما في المشاكلة نحو: اطبخوا لي جبة وقميصا
والآلية - نحو « واجعل لي لسان صدق » أي ذكراً حسنا صادقاً
والتعلق - كاطلاق لفظ المصدر على الفاعل أو المفعول كشاهد عدل «وهذا خلق الله»
والشرطية - نحو « وما كان الله ليضيع إيمانكم» أي صلاتكم

والمصدرية — نحو «فرجعوا الى أنفسهم» أي آرائهم

والمظهرية — نحو «يد الله فوق أيديهم» أي قدرته

والتضاد — كاطلاق البصير على الاعمى

ومتى اشتهر اللفظ في معناه المجازي صار حقيقة عرفية له حكم الحقيقة الوضعية

وقد صارت اللغة بهذا التنقيح الاخير لغة العرب عامة لا لغة قبيلة بعينها فأي لفظ نطقت به فانت مصيب وأي استعمال جريت عليه فلست بمخطئ ما دمت لم تخرج عن المنقول وأية علاقة صادفتك من العلاقات السالفة الذكر توصلك الى تسمية مالم تسمه العرب فلست مقيداً بلفظ أعجمي ولا بلهجة حي معين وصرت بذلك بعيداً عن الخطأ واسع المجال في النثر والنظم والتقلب في الاساليب الانشائية تصول وتجول وتتهم وتنجد حسبما يسمو اليه استعدادك وتصل اليه درجتك من الاطلاع وتمكنك منه بضاعتك فلك ان تقول المدية كما تقول دوس وان تقول السكين كما تقول قريش وان تنطق كلمة «حيث» بتسع لغات ولفظ «ياربي» بست لغات وتركيب (بادئ بدء) بثمانية عشر وجهاً وان ترفع الخبر وتنصبه في نحو ما هذا بشراً وان تطلق الاسد على السبع والشجاع والعين على الباصرة والذهب والجاسوس وتصرّح وتعمّي حيث تحتاج لذلك وتنقل الى العربية كل ما فهمته من اللغات الاخرى

وقد وقع جاسوس عربي في يد العدوّ فحبسوه وألزموه أن يكتب كتاباً الى ملكه يحمله فيه على مداهمتهم ويوهمه بقلة عددهم وعُددهم غشا وتغريراً فكتب الى الملك كتاباً قال فيه:

« أما بعد فقد أحطت علما بالقوم ، وأصبحت مستريحا من السعي في تعرف احوالهم ، واني قد استضعفتهم بالنسبة اليكم وقد كنت أعهد في أخلاق الملك المهلة بالامور والنظر في العاقبة فقد تحققت انكم الفئة الغالبة باذن الله ، ولقد رأيت من أحوال القوم ما يطيب به قلب الملك نصحت فدع ريبك ودع مهلك والسلام »

وسلم الكتاب الى العدو فأرسلوه الى الملك بعدما اطلعوا عليه فتفطن الملك لما أراد الكاتب وقال لحاشيته ان الجاسوس وقع في الاسر فأصبح مستريحا من السعي وانه رآهم أضعافنا وانا قليل بالنسبة لهم اذ لمح بآية « كم من فئة قليلة » ولفتني الى الاناة اذ جعلها عادة لي وأراد قلب حروف الجملة الاخيرة فتكون « كلهم عدوٌّ كبيرُ عددٍ فتحصن »

على هذا استقرت اللغة العربية وتم إحكامها وحصرت مفرداتها الاصلية وقوانينها وأبيح استعمال مفرداتها في غير ما وضعت له عند الاحتياج، بشرط العلاقة والقرينة وانتهت أدوار التنقيح فيها فلم يبق الا استظهارها والعمل بها. وقد اغتبطت الامة العربية بذلك وعكفت على العمل بها قرونا قضت فيها لبانة للعلم والسياسة وتفرغت للفتوح والاستعمار وملأت طباق الارض بالتصانيف في الشرائع والحكمة وكل ما كان على وجه الارض من العلوم فأنارت الخافقين ونشرت المدنية في الدنيا. ولما ضعف أمرهم ورثهم الغربيون في حكمتهم وأخذوها عنهم وأضافوا اليها ما تجدد من الصناعات والفنون ولا يزال الافرنج يدأبون في اقتناء الكتب العربية ويستخرجون منها من الفوائد مالم يكن في حسباننا ولكل مجتهد نصيب

هذا ما حضرني من النصوص المحتوية عليها كتب العرب، المتضافر عليها من أئمة الأدب ، فمن شاء فليؤمن بها ومن شاء فليكفر بها فقد تبين الرشد من الغي

ولما قعدت همم الخالفين وانتشر فساد اللغة مادة وقوانين رأى فريق من الناس أن يكفونا مؤنة التحصيل فهبوا الى فتح ثغور اللغة العربية للدخيل من الالفاظ وطفقوا يحسنون صنيعهم بأقيسة خطابية وجدلية لا تغني من الحق شيئاً

فقالوا. أولا : ان العرب أخذوا ألفاظا من الاعاجم في أطوار تنقيح العربية واستعملها الفصحاء وورد منها كثير في القران والأحاديث فما لنا لا ننشئ مذهبا خامسا في التنقيح وفاتهم أن ما أخذه العرب قليل جداً بالنسبة الى ما نبذوه ونادر بالاضافة الى مادة لغتهم الاصلية والقليل النادر لا يقاس عليه فاذا فتحنا اليوم باب القياس في مادة اللغة نفتحه غداً بالاولى في هيئتها أي في الصرف والنحو فنقيس على ما ورد شذوذاً عن العرب اذ ليست المادة بأقل خطورة من الهيئة ولا الجوهر بأدنى احتراما من العرض فننصب خبر المبتدا وخبر انّ ونشتق من الجوامد كلها ونميل الالف حيثما وجدت ونستخرج من كل فعل ثلاثي مزيدات ونستعمل الزيادة لكل المعاني وبالجملة نجعل عالي اللغة العربية سافلها ونحدث فيها الاحداث الهائلة فتتبلبل فيها الالسنة وتفقد بعد قليل من الزمن مع أن « أصحاب اللغات الحية » الذين يريدون أن يتشبهوا بهم لم يرضوا أن يتركوا عاداتهم من الكلام والكتابة ولو كانت خطأ فلا يزالون يقولون في ٧٥ ستون وخمسة عشر وفي ٩٨ أربع عشرينات وثمانية عشر ولا يزالون

يكتبون جملة حروف في الكلمة لا ينطق بشيء منها ويفوهون بحروف لا يكتب منها شيء

وقالوا ثانيا: انه يجب ان يكون لكل مدلول دال خاص به لا يدل على غيره أبدا وتكون دلالته بنفسه لا بعلاقة أخرى وان تسمية المحدثات بلفظ عربي مهما كانت علاقته يوقع في الاشتراك ويزيدنا آلاما الى آلامنا: وغرضهم بذلك منع الاشتراك اللفظي بالمرة أوعدم زيادته وفاتهم ان الاشتراك اللفظي واقع لا محالة في جميع اللغات لان ألفاظ كل لغة محصورة والمعاني غير محصورة فلو وزعت الالفاظ على المعاني وجب المصير الى الاشتراك حتما وانه لا ضرر من استعماله مع القرينة، ففي الهندسة مثلا تستعمل الزاوية والعمود والسطح والهرم والكرة والضلع ولا يخطر في البال شيء من معانيها القديمة، وفي الطبيعة والكيميا تستعمل العدسة والملح والبلورات ولا تحس بأصل معناها، وفي القوانين تستعمل وضع اليد وسحب الورقة وحبس العين والقذف والضبط والربط ولا يجيء في الخاطر معناه الاصلي والذي يسمع جملة «سيارة الامير سبقت القطار» لا يتوهم القافلة ولا الجمال فأين هي الآلام التي تخشون من زيادتها؟ ومن منكم يمكنه ان يتكلم كلاما خاليا من المشترك والمجاز؟ أنا أراهنكم على كتابة عشرة أسطر بأي لغة شئتم في وصف حادثة من الحوادث ذات البال فمن قدر على اخلائها من المجاز والمشترك فله مني عشرة دنانير وأمهلتكم شهرا. والحقيقة ان هذه الآلام آلام وهمية توجد عند ما يريد أن يتألم منها

وقالوا ثالثا: ان دلالة الكلم الاعجمية أصرح لانها تدل على صنف مخصوص بخلاف الكلم العربية فانها في الغالب تكون عامة: وفاتهم ان

الاصطلاح يجعل العام خاصا والمطلق مقيدا فالنسافة والبارجة والدارعة والمنطاد لاعموم فيها بعد الاصطلاح عليها وغلبة الاسمية على الوصفية معروفة في اللغات قديما وحديثا فيقولون في السيف أبيض ومرهف وهندي ويماني وفي الرمح أسمر ولدن وسمهري ورديني وكلها أوصاف غلبت عليها الاسمية

وقالوا رابعا : ان التعريب أسهل من انتقاء اللفظ العربي واستعمال الاعجمي أخف على السمع فاذا قلت للبدال « أعطني قدحا من الجعة » اشمأز منك وسخر السامعون بخلاف « البيرا » : وفاتهم أن هذه الصعوبة تزول بعد الاهتداء الى الكلمة العربية والاصطلاح عليها والالحاح في استعمالها لفظا وكتابة على أن هذه الصعوبة انما تكون على الاشخاص المكلفين باستخراج الكلم بخلاف الذين يتعلمونها جديدا فانهم يجدونها بدون عناء كالذي يلبس الثوب لايحس بعناء حائكه وخائطه وقارىء الصحيفة لايحس بعناء محررها وجامع حروفها وطابعها . ولا بد من قوم يعانون الاعمال وآخرون ينتفعون بها ونحن لانكلف أفراد الامة بالاشتغال معنا في انتقاء الالفاظ بل يكفي ان يتعب منا فريق في هذا الامر مقابل تعب الآخرين في أعمال اخرى على قاعدة التبادل المدني أما استهزاء العامة فلا يعوقنا عن العمل لانا لانعمل لهم بل للخاصة والنشء الجديد الذين يتعلمون في المدارس ، وخالي الذهن يحفظ مايلقى اليه سواء كان اللفظ الذي يحفظه عربيا أو أعجميا ، واني أذكركم أننا كنا نستعمل كلمة قومسيون وقوميتيه وجرنال وغازيته وأفوكاتو وكوليرا وواپور وقنصل جنرال ولما ابتدأ الصحافيون يغيرونها بلجنة وصحيفة ومحام

ووباء وقطار ومعتمد كنا نتقززها فلما ألحوا في استعمالها زال التقزز شيئاً فشيئاً حتى عفنا الكلمات الاولى فجازاهم الله عن العربية خيرا . فلم لا يعمل المحدثون من الصحافيين مثل ماعمل الاقدمون ؟ ولماذا لا يحذو مترجمو اليوم حذو مترجمي أمس ؟ ولم لا نساعد هؤلاء وهؤلاء على اداء ذلك الواجب ؟

وقالوا خامسا : ليس لنا أن نتمسك بالقديم لمجرد قدمه: فنقول لهم وليس لنا أن ننبذ القديم لمجرد قدمه فما كل قديم ينبذ ولا كل جديد يؤخذ والواجب على من رأى المصلحة في القديم أن لا يتركه مالم تقم الادلة على أصلحية الجديد وقد جربنا القديم مئات من السنين فقام بالكفاية ولم نر للآن منفعة في الالفاظ الجديدة بل الضرر محقق لانا لو فتحنا الباب لدخول الجديد لاستعجم على الخالفين فيهم كل المؤلفات منذ الف سنة الى الآن وانقطع الاتصال بين السابق واللاحق وضاع على المتأخرين تراث اسلافهم المتقدمين

وبعد فاني لم أفهم للآن وجها للتشبث بحب الاعجمي فاما أن نكون مصابين بمرض الشعوبية وهو تفضيل العجم على العرب واما أن نكون لاستضعافنا مقلدين الغالب كما قال ابن خلدون ، واما ان يكون في طباعنا اخلاد الى الراحة والسكون فلا نريد أن نعاني أعمالا جديدة لم نتعودها فتخدعنا هذه الطباع الى تحسين مانحن عليه ونقول بالتعريب لانا نا يمكننا أن نعرب كل يوم الف كلمة ولا نجد في الشهر عشرين كلمة عربية فيقرر كل منا أن ماوصل اليه هو منتهى الكمال وأن مايزيد عن ذلك يحسب من التقعر والتفيهق ولا يريد ان يعترف بكمال بعد الحد الذي وقف عنده فيسجل

على نفسه النقص ، ان لم يكن هذا ولا ذاك فما سبب هذا التشبث يا ترى؟ لقد وعيت كل ماسبق من الادلة فلم أجد فيها برهانا فلعل جمود قريحتي ضرب بني وبين الحقيقة حجابا مستورا .

وقد نشأ من التساهل في حياطة اللسان العربي أن تطرق الفساد الى مادته وهيئته وتولد عنه لسان آخر لاهو بالعربي ولا هو بالاعجمي وسماه الناس باللغة العامية أو الدارجة وهو المستعمل لهذا العهد في مصر والشام والعراق وجزيرة العرب والمغرب والسودان لا يتكلمون بغيره وان كانوا لايزالون يكتبون بالعربية الفصحى او مايقرب منها

ونرى الطفل يتعلم العامية في أقل من خمس سنين ولا يتعلم الفصحى في أقل من عشر والسبب في ذلك ظاهر وهو انه في أول أمره لا يسمع غير العامية ولا يتكلم بغيرها فهو أينما سار وحيثما ذهب مشتغل بها فترسخ في ذهنه رسوخ الفرنسية في أذهان أطفال الفرنسيس والانكليزية في أذهان أطفال الانكليز وليس الحال كذلك في ابان تعلمه لغة الكتابة ولو فرضنا صبيا نشأ في بلد يتكلم أهله بالعربية الفصحى بالسليقة وبعد سن مخصوص يتعلمون العامية ويستعملونها في الكتابة فقط لانعكس معه الحال وتعلم العامية في أقل من عشر ، فليس من طبيعة اللسان العربي الصحيح شيء من الصعوبة وانما هي طريقة التلقين وبيئة التعليم

وعلى كل حال فالجمع بين العامية والفصحى يستنفد خمس عشرة سنة كان يغني عنها خمس لو اقتصر المعلم على احداها ويضيع على كل متعلم عشر سنين من عمره فاذا تحققت الآمال وصار التعليم اجباريا فكم تخسر الامة كل سنة من أعمار افرادها؟ فاذا أخذنا المعدل السنوي للمواليد وهو

٤٧٠٠٠٠ وطرحنا منه معدل وفيات الاطفال الى سن العشرة (ونفرض أنه النصف) ٢٣٥٠٠٠ يكون عدد الباقين ٢٣٥٠٠٠ نضربه في عشرة أعوام وهي مقدار مايخسره كل واحد فتكون النتيجة ان الامة تخسر في كل عام عمل شخص واحد في ٢٫٣٥٠٫٠٠٠ سنة وبعبارة أخرى يفوتها ربح زراعة ١٫٢٧٥٫٠٠٠ فدان على فرض ان الفدان يزرعه اثنان وهي خسارة لا يحسن السكوت عليها * فياضيعة الاعمار تمشي سبهللا *

وقد استنكر الصبر على هذه الخسارة جماعة من الاقتصاديين فاتفقوا على وجوب الاقتصار على تعلم احدى اللغتين واختلفوا في تعيينها فقال فريق منهم يقتصر على العامية ومنهم المهندس الشهير ويلككس والقاضي الكبير ويلمور . وقال الفريق الآخر ومنهم العالم الشهير والمربي الكبير يعقوب أرتين (باشا) بالاقتصار على الفصحى

واورد على الاول (١) ان لكل قطر عامية مخصوصة بل لكل مديرية لهجة معينة فاذا رجحنا لغة اقليم تحكما منا نكون قد ألزمنا سكان الاقاليم الاخرى بتعليم لغة ذلك الاقليم وعناؤهم في ذلك لا ينقص عن عناء تعلم العربية الفصحى بل الفصحى أسهل لان كل شيء فيها قد ضبط ونقح ووضعت له كتب متعددة (٢) وان العامية في البلد الواحد تتبدل بتبدل العصور فلكل زمان ألفاظ تدخل مع أصحاب القوة ولذلك نرى في لغة مصر مفردات من الرومية والكردية والتركية والشركسية والفرنسية والانكليزية (٣) وان التزام العامية يحدث حجابا كثيفا دون الاستنباط من القرآن والحديث والمأثور من كلام السلف فتذهب أعمال الاولين هباء وتقع الخسارة على المسلمين وغيرهم ممن يستخرجون كنوز العلوم من

بطون الكتب العربية القديمة ولولا كتب العرب ما أشرق على أوربا ذلك النور الساطع وبالجملة تنقطع الصلة بين الازمنة والامكنة العربية ويحرم ابن هذا الزمان من ثمار أفكار السابقين وقاطن هذا المكان من تبادل آراء المعاصرين من أبناء اللغة الواحدة فلا جرم كان من المتعين نبذ الرأي الويلككسي والاخذ بالمذهب الارتيني

وخلاصة هذا المذهب أن تترك العامة يتكلمون بما يريدون وتدرب التلاميذ في المدارس على التكلم بالفصحى ويحبب اليهم التحاور بها كلما اجتمع لفيف منهم حتى ترسخ فيهم ملكتها وتملك ألسنتهم دربتها ويكون أخذهم بالتمرين تدريجيا يطبقون على ما عرفوه ويكملون محاورتهم بالعامية فيما لم يعرفوه وكلما زادت درجتهم في التعليم زادت قوتهم في التطبيق الى أن تهجر العامية وتحل الفصحى محلها

فاذا ضُم الى ذلك مطالعة الصحف والمجلات العربية وسماع الخطب العلمية في النوادي العربية والتردد على معاهد العظات ومشاهد التمثيلات ومواقف المرافعات وتعليم الفتيات واحتذاء أساليب المنشئين وطبع كتب المبرزين فان اللغة العامية تنقرض في أقل من عشرين عاما وتخلفها اللغة الصحيحة ويرجع اللسان العربي الى عصر مجده وأيام سعده

ولقد هم ذلك المربي الكبير منذ عشرين سنة بالزام تلاميذ المدارس بالتكلم بالعربية الفصحى ما داموا تحت نظر معلميهم وأخذ يعد لهذا الامر عدته وعتاده وسألني رأيي في ذلك وكنت معلما في مدرسة الحقوق فقلت له ان الامر ميسور والخطب سهل فطلب الي تجربة ذلك قبل أن يصدر الاوامر فقلت نعم وكرامة ولم يمض شهر حتى دعوته لشهود التجربة مع

من شاء من المفتشين فأسفرت التجربة عن نجاح باهر وارتقاء ظاهر فصمم على امضاء عزيمته لولا احتجاج فريق من المعلمين، بل نفر من العاجزين، بان التطبيق متعذر قبل حفظ اللغة واتمام القواعد ولولا التوكؤ على هذه المغالطة لكانت العامية الآن، في خبر كاد ان لم تكن في خبر كان،

والذي يسمع كلام الباحثين الاصليين والمنتصرين لهما يخال ان بين الفريقين حربا عوانا وخلافا ما بعده اتفاق . ومنشأ هذا الافتراق الذي حمي وطيسه واحتدم أوراه ان أدلة الفريق الاول تنتج أكثر من المدعى ويجر التسليم بها الى اذهاب اللغة العربية والاتيان بخلق جديد ولو لا ذلك لكان الخلاف نظريا لا يترتب عليه أثر ويتضح ذلك اذا حددنا موضع النزاع وحصرناه في الدائرة التي يجب حصره فيها، واحسن طريق للتحديد سرد مواطن الوفاق حتى نتحاماها اذا التقى الجمعان واليكم البيان

(١) تقسم أولا اللغة العربية الى لغتين لغة عامية ولغة فصحى فالعامية لا يمكن أن تكون محل نزاع لان الباحث الاول يقول بصقل اللفظ الاعجمي ووضعه في القوالب العربية والثاني يقول بعدم الخروج عما ورد فمحل النزاع اذاً اللغة الفصحى

(٢) ثم نقسم اللغة الفصحى الى أجزائها حرف وفعل واسم فالحرف لا يمكن أن يكون محل النزاع لان ما وجد منه كاف واف بحاجة اللغة فلا ضرورة لزيادة نحو «يس» و«نو» و«آند» لوجود نعم ولا وحرف العطف والفعل كذلك غير محتاج للمزيد فلا باعث لزيادة نحو «جون» و«كم» لوجود ما يماثلها في العربية وقد وقع في كلام الباحث الاول [1] ما يفهم منه

(١) هو الشيخ محمد الخضري

رغبته في زيادة أفعال تشتق من الاسماء الاعجمية كأترم وتمبل وأمبس ولعل ذلك فرط منه أثناء احتدام الجدال والا فما وجه تفضيل الاعجمي على العربي ولم يقل أحد بجواز أبغل وأحمر وأفرس والبغل والحمار والفرس أعرق في العربية من الترام اللهم الا أن يكون وجه التفضيل شدة السرعة وعندنا قاعدة مذهبة نبني عليها وهي أنه لا يصار الى التعريب الا اذا ألجأت الحاجة اليه ولا حاجة الى اترم كما لا حاجة الى أبغل لامكان التعبير بركب الترام لو سلمنا بقبول كلمة ترام فمحل النزاع اذاً الاسم

(٣) ثم نقسم الاسم الى ما ينوب عن الفعل كشتان ووي وصه والى مالا ينوب عن الفعل والاول كالفعل لا حاجة الى الزيادة فيه فمحل النزاع اذا الثاني

(٤) ثم نقسم مالا ينوب عن الفعل الى مشتق وجامد فالمشتقات في العربية كافية وهي أصرح من نظائرها في اللغات الاخرى فالنزاع في الجامد

(٥) ثم نقسم الجامد الى اسم معنى واسم ذات فاسماء المعاني كثيرة جداً في العربية حتى عدها الباحث الاول ثروة واسعة فالنزاع في اسم الذات

(٦) ثم نقسم اسم الذات الى ما وضع لمعين بلا واسطة وهو العلم والى ما وضع لمعين بواسطة ملازمة وهو الضمير واسم الاشارة والاسم الموصول والى ما وضع لغير معين وهو اسم الجنس

فالعلم يشمل أسامي الاناسي والبلاد والجبال والانهار والبحار والامم والاقاليم وماله شأن خاص من غيرها، والاتفاق على انها لا تخص لغة معينة الا باعتبار معناها الاصلي قبل العلمية وانها تبقى على ما وضعه لها واضعها الا لضرورة والضرورة اما أن تكون بوجود حروف أعجمية

لا نظير لها في العربية كالحرف الذي بين الباء والفاء والحرف الذي بين الفاء والواو والحرف الذي بين الجيم والقاف والكاف والغين وبعبارة أخرى كجيم القاهرة أوقاف الصعيد وهي قاف تميم والحرف الذي بين الجيم العربية والياء وبعبارة أخرى كجيم المغاربة والحرف الالماني الذي بين الخاء والشين فيبدل الحرف الاعجمي بحرف يقاربه

واما أن تكون بوجود حركات أعجمية لا نظير لها في العربية كالحركة التي بين الفتحة والضمة كما تقول أهل القاهرة خوخ والحركة التي بين الضمة والكسرة عند الفرنسيس فتبدل بحركة عربية تقاربها أما الحركة التي بين الفتحة والكسرة فلها نظير في العربية في لغة نجد وقيس وأسد كما تسمع من القراء فتبقى كما هي أو تبدل بفتحة خالصة والمد بعدها بألف خالصة

وإما باشتمال العلم على ما لا تجيزه أصول العربية كالابتداء بساكن وكالانتهاء بواو ساكنة قبلها ضمة وكالانتهاء بواو أو ياء بعد حرف مد فيحرك الساكن أو يتوصل اليه بهمزة وصل ويحرك احد الساكنين وتقلب الواو الساكنة ياء والضمة قبلها كسرة أو تحذف وتقلب الواو أو الياء المتطرفة بعد مدة همزة وهذا التغيير هو الذي يسمى صقلا أو وضعا في القوالب العربية فالعلم موضع اتفاق بين الباحثين أيضاً

والضمائر واسماء الاشارات والاسماء الموصولة كافية بل فيها زيادة عن نظائرها في اللغات الاخرى فلا حاجة للزيادة فيها وانما النزاع في اسم الجنس كما صرح الباحث الاول مرارا

(٧) ثم نقسم اسم الجنس الى ما استعملت له العرب لفظا سواء

وضعته له من عندها أو عربته من لغة غيرها والى ما لم تستعمل له لفظا والاول يقبل ولا ينظر الى أصل اللفظ قبل التعريب لان التعريب جعله في حكم العربي فليس موضع نزاع والنزاع فيما لم تستعمل له العرب لفظا

(٨) ثم نقسم ما لم تستعمل له العرب لفظا الى ما اصطلح المولدون على اطلاق لفظ عربي عليه بأي مناسبة كانت كنسافة وغواصة ودارعة وقطار ولا خلاف بين الباحثين في قبوله ، والى مالم يصطلحوا على اطلاق لفظ عليه للآن ولا خلاف بين الباحثين في انه يجب البحث والتنقيب في كتب اللغة عن لفظ عربي يمكن اطلاقه عليه بأي مناسبة من المناسبات الجائزة في اللغة العربية ويصطلح على دلالته عليه كما اصطلح من قبلنا على لفظ نسافة وغواصة

ولم يقل أحد منهما بتعطيل حركات الخطابة والكتابة ودواوين الانشاء وصحف الاخبار في مدة البحث والتنقيب بل لا بد من ملء الفراغ بلفظ أعجمي واستعماله موقتا للضرورة كما يفعل الطالب الذي ينتقل بالتعليم تدريجا من لغة العامة الى اللغة الفصحى

فاذا انقضى دور البحث ولم يعثر على كلمة عربية يمكن الاصطلاح عليها وهو مالا يكون الا نادرا تصقل الكلمة وتستعمل وحينئذ يراها الباحث الاول بالمنظار الذي يرى به المعربات التي صقلتها العرب ويقول قد احتطت وما فرطت فرحباً بالدخيل العتيد ، وبعدا للاصيل الشريد ، ومالي أشغل آمالي بنشد ضالة ان جاءت فلا كرامة ، وان ذهبت فلا شيعتها غمامة ، ويراها الباحث الثاني بمنظار آخر غير ما يرى به المعربات فيحسبها كالرقعة

في الثوب والحصاة بين الدر ويقول للضرورة أحكام ، وحبذا لو صحت الاحلام ، ووجدت طلبتي في يوم من الايام ،

هذا هو الخلاف الطويل العريض ضيق البحث حلقاته رويداً حتى تضاءل وانتهى الى تقدير النظر الى الكلمة المجتلبة واستقبالها اما بالترحيب ، واما بالتقطيب ، وهو خلاف غريب ،   حفني ناصف

باب المناظرة والمراسلة

﴿ السنن والاحاديث النبوية ﴾

جاءتنا هذه الرسالة من الشيخ صالح بن علي اليافعي أحد العلماء الغيورين في حيدراباد الدكن يرد فيها على الدكتور محمد توفيق افندي صدقي فيما كتبه في النسخ وكون الاحاديث ليست من أصول الدين ولطولها ننشرها بالتدريج مبتدئين بمقدمتها التمهيدية وهي :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمدلله الذي أرسل محمداً بالهدى ودين الحق، وجعل له لسان الصدق، صلى الله عليه وعلى آله واصحابه ، ومتبعيه وأنصاره واحزابه ،

أما بعد فاني قد وقفت على رسائل لحضرة العالم الباحث الدكتور محمد توفيق افندي صدقي كان يرمي فيها أولا الى أن الاسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القرآن مجرداً عن بيان الرسول (ص) وتعاليمه غير معتبر لما زاده الله على مافي القرآن من أحكامه ولازم قوله بل صراحته دالة على محو صورة الاسلام الموجودة وجواز تشكيله لمن

شاء بأي صورة شاء وكأنه استشعر شناعة ذلك فأعلن رجوعه عن اطلاق القول في رد جميع السنن وخص منها قبول السنن الفعلية التي نقلتها الامة بالاجماع او بالتواتر . وردّ جميع السنة القولية زاعما أنها آحاد وما تواتر منها ليس فيه شيء من الاحكام

وقوله هذا ـ وان كان أهون من قوله السابق ظاهرا ـ مآله وحقيقته بعد التزامه ثم تطبيقه على مافي نفس الامر الواقع هو حقيقة قوله الاول من رد اكثر السنن الفعلية بل لا يبعد اذا قلنا كلها لانه مامن فعل نقل الينا من تلك الافعال الا وقد اختلف في هيآته وأحكامه المقومة لحقيقته . والمسلمون الناقلون لتلك الاعمال انما كان مستند اختلافهم في ذلك اما السنن القولية واما اجتهاد من يتأتى له الاجتهاد منهم فاذا لم يجب أن تكون سنن الرسول (ص) القولية من الدين فلأن لاتكون مجهودات غيره من الدين أولى وأحرى

واذا كان كل فعل من السنن الفعلية قد اختلفت في صفاته وهيآته الطوائف والمذاهب بحيث يكون حقيقة هذا الفعل عند هؤلاء غير حقيقته عند أولئك ـ واذا كان المستند السنن القولية أو الاجتهاد وسلمنا أن كلا منهما ليس من الدين ـ لزم أن لايعلم المتعين أخذه وأن لايجب عمل مخصوص للزوم انتفاء المدلول بانتفاء دليله والمسبب بانتفاء سببه اذ لا دليل ولا سبب لوجوب أو حرمة أو ندب أو كراهة الا السنن القولية المفسرة للقرآن والناصة على أحكام الاعمال فاذا انتفت انتفى كل ذلك وجاز لمن شاء أن يقول ان الواجب من الاعمال كذا وكذا وان معنى القرآن ومراده ذا اوذا كيف شاء فعاد الامر في جميع أمور الدين

الى الاجمال والابهام ولزم الانسلاخ عن دين الاسلام وهذا هو ما يتحاشا عنه كل من يؤمن بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم

والحقير قد نبه حضرة الدكتور في رسالة ارسلتها الى حضرة سيدنا منشئ المنار الأغر ولكنه أرسل الي مكتوبا يذكر فيه ان بعض تلك الرسالة ضاع عنه ويطلب ارسال ذلك اليه ليطبع الرسالة ولكني اعتذرت حيث لم يبق لدي منها شيء لاني ارسلت الى حضرته المسودة. ولما كتب حضرة الدكتور رسالته الاخرى التي طبعت في المنار (الجزء التاسع من المجلد العاشر) بعنوان (النسخ في الشرائع الالهية) رأيته صدر رسالته بالكلام على حقيقة النسخ واختار القول بجوازه عقلا وشرعا ووقوعه في الشرائع الالهية والقوانين الوضيعة البشرية وهذا شيء لا ننازعه فيه لكنه انكر وقوعه في القرآن فعلا وخص ذلك بالسنة النبوية ثم تدرج من مسئلة النسخ الى تقسيم السنة الى قسميها فعلية وقولية وكل منهما الى متواتر وآحاد تمهيدا لما خلاصته ان القولية لا سيما الآحاد منها لا يجب العمل به بعد زمن رسول الله (ص) وزعم ان السنن القولية مطلقا انما هي شريعة وقتية تمهيدية لشريعة القرآن الثابتة الباقية وعلل ذلك بالنهي عن كتابتها وزعم ان النبي (ص) واصحابه لم يعاملوها بالعناية التي عومل بها القرآن قصدا منهم لان تندثر وتزول من بين المسلمين فلا يعملون بها

هذه خلاصة قوله لكنه يظهر من تناقض كلامه وجوب العمل وقبول ما كان متواترا من ذلك لا ما نقل آحادا سواء كان حسناً أو صحيحا أو مشهوراً أو مستفيضا

وحيث كان ذلك مخالفا لدين الاسلام فيما أعتقد بل إلغاء خبر

الآحاد الصحيح بجميع اقسامه مستلزم للطعن في القرآن وتكذيبه ومخالف لجماهير المسلمين بل لجميعهم بل لجميع الاديان والملل وسائر متبعيها بل مخالف لما عليه مدار الاجتماع البشري كل ذلك على ما أعتقد ولا احسب ان احدا ممن عرف بالعلم والعقل لحضرة الدكتور يخالفني وينازعني في ذلك بعد التفكر وبشرط الانصاف - حيث كان الامر كذلك فيما أعتقد بعثني حب اظهار الحق والتعاون على البر والنصيحة الى مناقشة حضرة الاخ الدكتور فيما كتبه في رسالته مما رأيته خلاف الصواب لما عرفت من حسن نيته ورجوعه الى الحق كما هي عادته

وألتمس من مولانا المرشد وسيدنا العلامة القدوة داعي الانام ، لاتباع حقيقة الاسلام ، منشي المنار مولانا حضرة السيد محمد رشيد رضا وأرجوه أن يدرج هذه البضاعة المزجاة في مناره، وان يسقط ما فيها من الغلط بصائب أفكاره ، وان يشركنا في صالح دعواته، ولنعد لما كنا بصدده من الشروع في المقصود فنقول : (سيأتي المقصد)

﴿ تنبيه للمستفتين ﴾

اذا أراد المستفتي ان لا يتأخر نشر سؤاله والاجابة عنه فليكتبه على ورقة مستقلة ولا يجعله في غمرة كتاب آخر فيكلفنا استخراجه منه اذ ربما تمر الشهور ولا نجد وقتاً لنسخه . ومن سأل في ورقة واحدة عدة أسئلة فليفصل بينها في الكتابة فيبتدئ كل سؤال بسطر جديد . وليكن الخط واضحا . ومن علم ان في عبارته غلطا فليأذن لنا بتصحيحها ان شاء والا نشرناها على علاتها اوأهملناها

الفصل الأول (*)

(مكة وحالة قريش الاجتماعية عند البعثة)

نشأت خديجة في بلد شأنه عجيب ، قصي عن العمران ، في واد غير زرع ، لا تنساب فيه الأمواه ، ولا تكتنفه الحدائق، ولا تقوم الصناعات فيه دولة ، ولا يجد مبتغي الزخارف لديه مجالا ، ولكن أبدله الله جمالا معنويا، وكساه جلالا روحانياً ، فالافئدة تهوى اليه، والمطايا تزجى له من كل فج عميق ،

هذه البلدة المقصودة هي « مكة » المكرمة الشهيرة التي لا يجهل اسمها وشهرتها أحد ، هي أم البلاد العربية واقعة في القطعة المسماة الحجاز من شبه جزيرة العرب ، قائمة بيوتها في سفوح جبال محيطة بها

لم نقف على مقدار عدد نفوسها في تلك الايام التي نشأت فيها خديجة ولكن عدد مقاتلتها لم يكن يتجاوز الالفين في الغالب فيمكننا ان نحزر أهليها اذ ذاك بنحو خمسة عشر ألفا كلهم أولاد أب واحد قد ورثوا باستعدادهم لا بنسبهم هذا المقام الكريم والبلد الشريف ممن كان قبلهم من القبائل .وذلك أن قصي بن كلاب استطاع ان يجمع جميع ذراري فهر بن مالك الى مكة ويزاحم بهم من كان فيها من القبائل فلم تلبث ان صارت لهم خاصة

*) من رواية خديجه أم المؤمنين

وفي مكة هــذه بيت مقدس قديم العهــد يكاد يكون أول أمره مجهولا عند المشتغلين بالتاريخ اسـمه بيت الله أو الكعبة . وكان جميع عرب الحجاز يعظمون هذا البيت أكثر من كل البيوت التي شرّفوها ويحجون اليه ، ويتعارفون ويتعاطفون لديه

كانت هذه البلدة المشرفة تضم بين تلك الجبال المهيبة أمة صالحة الاستعداد للرقي متى أريت طريقه كما تضم الصدفة جوهرة لا يظهر بهاؤها ورواؤها حتى تعالج بعض المعالجة وتزال عنها القشور أمّا من حيث الحضارة فلم تـكن كما ينتظر ابن حضارة هـذا العصر من البلدان وانما هي بيوت ساذجة مبنية بالحجارة واللبن ومسقوفة بجذوع النخل خالية من الزخرف

وهذا البلد الامين باق الى يومنا هـذا لم يزدد على طول القرون الا تشريفاً وتكريماً ولم يتغير فيـه الا أشكال الابنيـة وازدياد التجارة والبيت المشرف لم يتغـير وضعه ولا وضع الشعائر التي حوله وانما بني هناك زيادات وتحسينات اقتضتها الدواعي

ومكة معدودة اليوم من جملة بلاد الدولة العلية العثمانية بيد انها لم تحرم حتى الآن من أمير عربي يتصل نسبه بسيدتنا خديجة هذه ، ونفوذه فيها وفيما حولها نفوذ تام يستمده من السلطان العثماني ومن احترام العرب لهذه السلالة

ومن الآثار المشهورة الباقية في مكة بئر زمزم ويقولون ان قبيلة جرهم كانت دفنتها ثم احتفرها عبد المطلب بن هاشم جـد النبي (ص) وكان ذلك من مفاخر عبد المطلب لأنه لم يكن بمكة من ماء الاّ في آبار

بعيدة عن البيت المشرف فلما أخرج عبد المطلب زمزم في جوار البيت انصرف الحاج اليها . ولحفر زمزم حديث طويل خلاصته تدل على شغف عبد المطلب بتسهيل الماء على الحجاج فاذا تأملنا في حرص القوم على مثل هذه العناية بالغرباء وابناء السبيل نعلم شيئاً من روح تربية الهمم وترقية العواطف في ذلك المجتمع الذي نشأت فيه «خديجة»

وكان من جيد أمر أهلها في مجتمعهم ذلك أنهم اقتسموا النظر في الامور العمومية فيما بينهم فكأنهم كوّنوا حكومة جمهورية من غير رئيس عام وكان أمر هذه الجمهورية الغريبة الوضع سائراً على منتهى النظام ولكن لم يكن هذا النظام لسرّ في ترتيب هذه الجمهورية فانها لا يؤمل منها فى حدذاتها ان تثمر نظاماً بالغاً منتهى الجودة والقوة وانما ذلك أثر من آثار تربيتهم العمومية فالاخبار كلها دالة على ان القوم بالجملة كانوا كانهم مفطورون على التضامن التام فلذلك كان من مزايا ذلك الاجتماع الذي لا نعهد له نظيراً ان كلّ فرد من أفراده تام الحرية لا يشعر بقهر حاكم ولا يخشى سطوة جبار وكل منهم في أمن من فوات الحقوق واعتداء الحدود . الجنايات قليلة ، وكرامة الناس محفوظة ، والآداب سليمة ، والحدود غير متجاوزة ، والحقوق مصونة ، وذرائع الفساد مسدودة ، وسلامة الفطر غالبة، والمزايا التي بها كمال الانسانية راجحة .

فاذا أضفنا الى كل ذلك احترام الغريب وتوقيره ايام وتوقيه أذاهم نجد ان ذلك المجتمع لا يكاد يوجد نظيره ولكن مع كل هذا الجمال والحسن والصلاح في هذا المجتمع كان فيه عيوب فاذا أزيلت يصبح اول مجتمع

راق في الدنيا وخليق أن يفيض على جيرانه من بركات العقول التي أشربت بديع جماله، وأشرأبت الى عظيم كماله، ثم تاقت الى تعريف العالم بما أكنته تلك البقعة التي لم تكن شيئاً مذكوراً من العقول المنيرة والارواح العالية

وقد وقع ذلك فإن الذي منه تنشأ الاسباب واليه ترجع الامور قد أتاح لهذا البلد الجمهوري من ينظفه من تلك العيوب التي اشرنا اليها فكان بعد ذلك كما هو المنتظر منه أي تم ظهوره فصار مشرقاً لنور عظيم بلغ مشارق الارض ومغاربها فأخذ كل قوم منه بقدر استعدادهم

اما الجمهورية التي أشرنا الى انها كانت في هذا البلد فقد أقاموها على على أساس يأمنون معه من الزلزال وذلك انهم رأوا الشرف انتهى الى عشرة رهط من عشرة بطون لاشتهارهم بأعمال مجيدة، ثم اجمعوا امرهم على ان يكون النظر في الامور العمومية من خصائص هذه البيوت العشرة وتراضوا على ان يكون لكل بيت من هذه العشرة وظيفة تختص بها تعد من مفاخره فهم بهذا الصنيع قد أخذوا بشيء من أصول حكم الاشراف وبذلك أعطوا الاعمال التي يجدبها الفرد أو الاسرة حقها من التكريم والتشريف ليزداد نشاط أربابها وحرص غيرهم على التشبه بهم وأخذوا أيضاً بشيء من أصول الحكم النيابي وهو أعظم الآيات على وجود التضامن الذي هو أحد الاركان التي تحفظ بها سعادة الامم .

أما الشورى فقد وفروا منهم حظها، وعظموا في أنفسهم حقها، وبها كانوا يشرعون ما يشرعون من الاحكام والحدود، ويفصلون ما يفصلون في بعض القضايا والحقوق

وقد ألغوا الرئاسة العامة من بينهم كأنهم عدّوها لغواً اذا صدقوا

في تضامنهم وصلحوا في تشاورهم وارادتهم الحق وقليلة الجدوى اذا مرض تضامنهم ووهي نظامهم . أو أنهم خشوا أن يكون حب الرئاسة اذا وجدت مدعاة لكثرة تنازعهم وتنافسهم فلا يأمنون بعد ذلك كثرة الفشل والشقاق وسقوط الهيبة من نفوس الغرباء ووقوع الفتور في نفوس الأقربين . أو أنهم أنفوا أن يملكوا عليهم أحداً لانهم كلهم يحملون بين أضالعهم نفوس الملوك وجمهوريتهم هذه لم يكن لها رئيس عام ولكن كانوا يقيمون واحداً في وظيفة رئيس عام موقتاً

أهل هذا المجتمع اللطيف لم يكونوا أولي شغف بالمحاربات فعلاقاتهم الخارجية مع جيرانهم من القبائل وأهل القرى والبلاد كانت حسنة ولكن هذا لم يقعدهم عن أن يكون استعدادهم تاماً لما ينزل بهم فان نزل بهم مايطيقونه كشفوا اللثم عن قوتهم وبرزوا من غير تريث وان نزل بهم مالا قبل لهم به تريثوا وعمدوا الى الاناة وفتقوا من الحيلة أبوابا يخرجون منها الى السعة من الضيق ومن فلّ الجيوش بالحسام الى فلها بالبيان وقد أعطوا من هذا حظاً عظيماً . ومن أشهر حوادثهم الخارجية التي ضاقوا بها ذرعا هجوم القائد الحبشي أبرهة الذي كان غلب على بعض بلاد اليمن فقدهمهم بجيش عظيم لم يروا لانفسهم طاقة به فقابله عبد المطلب جد النبي (ص) وكان يومئذ رئيس قريش فأحسن مقابلته ولطف بعض الشئ من حدته التي كان بها مسوقا لهدم « بيت الله » على زعمه لاسباب فصلها رواة الاخبار ثم أصابته داهية سماوية فقفل بجيشه ثانياً عزمه لانه رأى في اهل هذا البلد مالم يكن يخطر له في بال

نعم رأى في مقدمه هذا على هؤلاء القوم عجباً من الأمر وذلك

انه لما أتاهم أرسل اليهم رجلا حميرياً كان معه اسمه حناطة وأوصاه ان يسأل عن سيد أهل هـذا البلد وشريفها فيبلغه ان الملك لا يريد الحرب وانما جاء لهدم هذا البيت فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فدلوه على عبد المطلب بن هاشم فجاءه وبلغه ما أمره به أبرهة فكان جواب عبد المطلب اننا لا نريد حربه قال حناطة انه أوصاني ان يريد مواجهتك ان لم تريدوا الحرب فانطلق عبد المطلب مع حناطة اليه فلما رآه أبرهة رأى الوسامة والجلال فأعظمه واكرمه وأخذه الى جانبه وقال للترجمان سله أن يقول مايبدو له فلم يكن من عبد المطلب الا أنه صرف لسانه عن الخوض في عزم القائد على هدم البيت وجداله فيه بل أظهر الاقتناع بضرورة المسالمة وعدم معارضة القائد في أمر هذا المعبد وقال له اذا لم يكن لك غير هـذا الأرب فردّ علينا أبلنا قال أبرهة للترجمان قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني أتكلمني في الاموال وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك فأجابه عبد المطلب إننا نحن أرباب المال وأما البيت فله رب هو سيمنعه فقال له انه ماكان ليمتنع مني فأجابه أنت وذاك ورد ابرهة الابل على عبد المطلب وبقي مصراً على عزمه ورجع عبد المطلب على قريش فأمرهم ان يعتصموا بالجبال ، ولا يأتوا أمراً حتى يروا ماذا يكون وقد أتى من لدن العناية الغيبية ما لم يكن في الحساب فان أبرهة لما أصبح وتهيأ لدخول مكة برك الفيل الذي كان يركبه وحرن واتوا كل باب من أبواب الحيل ليقوم ويمشي تلقاء مكة فلم يقم ثم رأوا حجارة تسقط عليهم من أرجل صنف من الطير فتشاءم ابرهة وتذكر ما انذره به ذلك الرجل الجليـل السني

الطامة عبد المطلب من حماية هذا البيت بطريقة لا يبلغها عقله فخمدت في صدره جذوة الحدة والتهور وخذل أمام هؤلاء القوم الذين حاربوه بالسلم ورموا عقله بسهم نافذ من بيان عبد المطلب مع رمي الطير جيشه بحجارة من سجيل

وهذه أكبر حوادثهم الخارجية واشهرها . وفي عام هذه الحادثة ولد النبي (ص) وقد سموه عام الفيل لما ذكرنا من قصته ورجال هذه الحملة قد عرفوا بعدها باسم أصحاب الفيل وقد أشير الى مجمل هذه الحادثة في القرآن المجيد

الفصل الثاني

﴿ بيوتات قريش وخصائصها ﴾

أما بيوت شرفهم العشرة فهي :

هاشم ، وامية ، ونوفل ، وعبد الدار ، واسد ، وتيم ، ومخزوم ، وعدي ، وجمح ، وسهم ،

واما الامور التي كان توليها من خصائص هؤلاء فهي : السقاية ، والعمارة ، والعقاب ، والرفادة ، والحجابة ، والسدانة ، والندوة ، والمشورة ، والاشناق ، والقبة ، والاعنة ، والسفارة ، والايسار ، والاموال المحجرة ،

هذه الاسماء أكثرها اصطلاحي يحتاج الى تفسير يوافق العصر الذي نحن فيه حتى نفهم شكل ذلك المجتمع الذي سميناه جمهورياً على حسب اصطلاح عصرنا

فأما السقاية فقد تفهم من اللفظ نفسه أي سقاية الحجاج الذين كانوا يأتون « بيت الله » من كل جانب ولا يخفى على أحد ان العناية بهؤلاء الغرباء وتوزيع المياه عليهم من أهم الامور العمومية في ذلك الظرف وكان بنو هاشم هم أهل هذه الوظيفة

وأما العمارة فهي منع من يتكلم في « بيت الله » بكلام سفيه قبيح أو يرفع فيه صوته وكانت هذه الوظيفة أيضاً في بني هاشم الذين منهم العباس صاحبها

وأما العقاب فهي راية قريش كان من شأنهم فيها انهم يحفظونها في بيت من البيوت العشرة فاذا وقعت حرب أخرجوها فان اتفقوا على أحد منهم اعطوه راية العقاب وان لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه وقد كانت هذه الوظيفة أي حفظ هذه الراية من خصائص بني أمية الذين منهم أبو سفيان صاحبها

واما الرفادة فمعناها الاسعاف وكانوا يجمعون من أنفسهم أموالا لرفد المنقطعين من الحجاج وكانت الرفادة في بني نوفل الذين منهم الحارث بن عامر صاحبها

واما السدانة والحجابة فمعناها خدمة « بيت الله » وحفظ مفتاحه والظاهر من هذه الوظيفة انها دينية ولكن متولي هذه الوظيفة الدينية مشترك مع عشيرته بتدبير الشؤون الاجتماعية وهذا العمل الديني نفسه قد كان عند القوم من أهم الامور العمومية في مدنيتهم وجمهوريتهم

وقد نستطيع ان نشبهها من بعض الوجوه بوظائف كبار رؤساء الدين في الامم المتمدنة اليوم ولا يخفى ان وظائفهم من متممات مدنيتهم، ولمن

يتولونها شأن يذكر عندهم . وقد كانت الحجابة والسدانة في بني عبد الدار الذين منهم عثمان بن طلحة صاحبها

واما الندوة فمعناها ظاهر من اللفظ نفسه وكانت دار الندوة في بني عبد الدار ايضاً

واما المشورة فيريدون بها رئاسة الشورى وليس ببعيد عن الصواب اذا شبهناها من بعض الوجوه برآسة الوزراء أو رآسة مجلس الاعيان وكانت هذه الوظيفة من خصائص بني أسد وكان يتولاها منهم يزيد بن زمعة ابن الاسود وكان من شأنهم في هذه الوظيفة ان رؤساء قريش كانوا لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على صاحب هذه الوظيفة فان أعجبه وافقهم عليه والا تخير وكانوا له أعواناً

واما الاشناق فهي الديات والمغارم فقد كانوا يساعدون من يستحق المساعدة ممن حمل مغرماً اودية وكان النهوض مع صاحب المغرم لجمع المطلوب من خصائص بني تيم الذين منهم أبو بكر الصديق فكان أبو بكر اذا نهض مع أحد صدقه قريش واعانوا من نهض معه وان نهض غيره خذلوه

واما القبة فأشبه شيء بنظارة الحربية ولكن كانوا يعمدون اليها وقت الحرب فقط ولعل ذلك لسذاجة الحرب اذ ذاك أو لاستعدادهم لها كل وقت اذا تأججت نيرانها وقد كانوا يضربون قبة فيجمعون اليها ما يجهزون به الجيش وكان ذلك من خصائص بني مخزوم الذين منهم خالد بن الوليد صاحبها

واما الاعنة فمعناها رئاسة الخيالة وكانت هذه الوظيفة للمخزومي أيضاً وخالد صاحب هذه الوظيفة هو ذلك الفاتح العظيم القائد العام في

الاسلام لجيوش أبي بكر خليفة النبي عليه الصلاة والسلام وما أظن تاريخ فن التعبئة اليوم يخلو من الاستئناس بذكر تلك التدابير المخزومية التي كان لها شأن عظيم في الاسلام كما هو شأنها في الجاهلية (أوالجمهورية)

وأما السفارة فالمراد بها ظاهر وقد كانوا يحتاجون الى السفارة في الحروب أي في أوائلها أو بعد شبوب نارها وتعاظم أوزارها ويحتاجون اليها اذا نافرهم حي للمفاخرة . وقد كانت هذه الوظيفة من خصائص بني عدي الذين منهم عمر بن الخطاب صاحبها وناهيك بذلك الخليفة الثاني الشهير بكل منقبة صالحة اذا كان سفير قوم

وأما الايسار فهي الأزلام والقداح كانوا يضربون بها اذا أرادوا أمراً وكان هذا من خرافاتهم وعيوبهم ويحق لنا أن نبالغ في استهجان هذه الخرافة التي كانوا عليها الا أن يكون لهم شيء من النظر من وراء الخرافة كما هو الحال في كثير من الامور الباطلة التي تروج في الامم بسماح من العقلاء أو بترويج منهم لها وقد كانت هذه الوظيفة لبني جمح الذين منهم صفوان بن أمية صاحبها

واما الاموال المحجرة فهي الاموال التي سموها لآلهتهم ويصح أن تسمى هذه الاموال أم الاوقاف الخيرية اي ان بينهما تشابهاً . وقد كانت هذه الوظيفة أي تولي النظر في الاموال المحجرة من خصائص بني سهم الذين منهم الحارث بن قيس صاحبها

هذا ماكان من حيث ترتيب التضامن واقتسام الاعمال المهمة . واما الامور الجزئية التي كان الافراد يختلفون فيها فتفصل فيها كبار أسرهم وعشائرهم في الغالب على طريقة التحكيم ولم يكن للقوم من شريعة مكتوبة

وانما كانوا يقضون في الامر كما يبدو لهم الصواب فيه ويقيسون الامور باشباهها

وهنا يخطر في بال القارئ أن يسأل عن الضعيف الذي لا يأوي الى ركن شديد من رهطه كيف كان حاله اذا أهين أو ظلم في ذلك المجتمع الذي لا شريعة فيه مكتوبة ولا قوة عمومية من شأنها وخصائصها دفع القوي عن الضعيف . وقد بحثنا في هذه المسألة المهمة فوجدنا القوم لم ينسوها ولم يهملوا شأنها وذلك انهم قرروا في مؤتمر لهم حماية الضعيف والذود عنه وكان من حديث ذلك المؤتمر ان قبائل من قريش اجتمعت في دار عبد الله بن جدعان الشهير وتعاهدوا وتعاقدوا على أن لا يجدوا في مكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته فسمت قريش ذلك حلف الفضول وكانت الارهاط المتعاقدة بني هاشم وبني المطلب وبني أسد بن عبد العزي وبني زهرة بن كلاب وبني تيم بن مرة

نعم كان من النقص في نظامهم ذلك أن لا تكون حماية الضعيف من خصائص الجمهور ولكن يظهر انهم كانوا يكتفون في الضعيف بأن يجيره واحد من بيوت العزة والقوة فانه يصير مثل مجيره في نظر الجمهور فلا يجسر أحد أن يبغي عليه

ويمكننا ان نستخلص من كل ما تقدم ان القوم كان لهم شبه قانون أساسي الا انه غير مكتوب ولم يكن لهم قوانين مدنية أو جنائية قط . والأمر في الامور المدنية سهل في المجتمعات البسيطة الصغيرة فكل انسان يستطيع فيها ان يحتفظ بحقوقه أو يستعين عليها بالتحكيم وما أشبهه . واما الحوادث

الجنائية فلا يجوز اهمالها وتركها من غير ان يتولى الفصل فيها أناس مقيدون بقوة تنفيذية مخافة ان تكثر الجنايات ولكن تكافؤ القوى في العشائر والبطون المتساكنين في بلد واحد قد يكون مانعاً من كثرة الجنايات واذا اضيف الى ذلك صلاح الاخلاق والتربية العمومية كان هـذا نعم الظهير على تقليل العدوان وقد كان القوم يتواصون باجتناب الظلم ولا سيما في البلد الامين ومن وصاياهم في ذلك قول إحدى نسائهم توصي ابنالها:

أبنيّ لا تظلم بمكـــة لا الصغير ولا الكبير
واحفظ محارمها بنيّ ولا يغرنك الغرور
أبنيّ من يظلم بمكـــة يلق أطراف الشرور
أبنيّ يضرب وجهه ويلح بخديه السعير
أبنيّ قد جربتها فوجدت ظالمها يبور
الله آمنها وما بنيت بعرصتها قصور
والله آمن طيرها والعصم تأمن في ثبير

وتواصيهم بالنهي عن الظلم يغرينا بتعرف فلسفـة القوم التي كانت تحثهم على مثل هذا

الفصل الثالث

ديانة أهل مكة عند البعثة

ويظهر لنا انهم طرقوا كسائر الامم باب الضالة المنشودة وهي معرفة ما هي نفوسنا ومن أين مبدأها والى اين منتهاها وماذا يزكيها وماذا يدسّيها نعم طرقوا هـذا الباب ولكن يفتح لهم عن الطريق الموصل الى

هذه الحقائق المكنونة بل كان نصيبهم كنصيب الاكثرين ظنوناً ورجماً بالغيب

أدرك القوم ان للعالم خالقاً ومدبراً هو الذي خلق السموات والارض وما فيهن ، وهو الذي خلق السمع والابصار والافئدة ، وقالوا كما يقول سواهم انه تستحب الرغبة اليه والرهبة منه ولكن في هذا السبيل تاهوا فتركوا ههنا العقل والتفكر وقلدوا الامم واتخذوا من الحجارة أوثاناً وقالوا ان تعظيم هذه الاوثان يقرب الى الله لان هذه الاوثان تماثيل أو كتماثيل لأناس صالحين محبوبين عند الله فتعظيمهم الى درجة العبادة يقرب الى الله

لقد غلطوا في ظنهم ان الله يحب هذه الحجارة . وأخطأوا بزعمهم ان تنزيل العقول الى تعظيم هذا الجماد (بهذه الصورة) تعظيماً قلبياً يرضي الله تعالى . وحادوا عن الحق بتخيلهم ان هؤلاء يشفعون لهم عند الله تعالى

وقد كان الواجب ان لا يكون في قلوبهم حب وعبودة الا للحي القيوم ولم يكن جائزاً ان يشركوا به الجماد ،

وكان لهم أغلاط أخرى كثيرة في ذات الله سبحانه وصفاته وأفعاله فقد زعم بعضهم ان الملائكة بناته ، وزعم بعضهم ان الجن شركاؤه في الملك وظنوا جميعهم ان لن يبعث الله بشراً يعلمهم ويزكيهم ،

غلطوا في كل هذا وتسفلت فيه عقولهم ولكن اعتقادهم بأن للعالم صانعاً مدبراً عظيماً هو رب الكل وانه يجب ان يتقرب اليه العبيد قد رقق على ما فيه من النقص والبعد عن الطريق القويم قلوب كثير منهم وكأنه أعدها لقبول حق سيظهر نوره فيمحق خطيئاتهم الاعتقادية

والمشهور ان القوم لم يكونوا يقولون بالمعاد والجزاء الاخروي ولكن الحقيقة أنهم كانوا في ريب وشك أي لم يكونوا جازمين بشيء في هذا الباب وكان أناس منهم تذهب بهم عقولهم الى وجوب المعاد والجزاء الاخروي ولكن عدم اعتقادهم بالجزاء الاخروي لم يكن مانعاً من ان تكون قلوبهم منجذبة الى الاخلاق والاعمال الطيبة التي تحث على مثلها الديانات من البر والإحسان والعدل والصدق والكرم وحماية الضعيف وترك العدوان والابتعاد عن الخيانة والبغي وما أشبه هذه المناقب وعقولهم انما طرأ عليها التسفل الى تعظيم الجماد لان الوثنية هي الغالبة في عصرهم ولا يبعد عن الصواب من يقول ان الوثنية هي الغالبة على طباع البشر كلهم الا قليلاً

فاذا صرفنا نظراً عن تلوّث عقولهم بنزغات الوثنية لا نجد من بعدها هذه العقول مظلمةً وهي التي اضاءت لهم فعرفوا بها الاخلاق الصالحة والفاسدة ولم يكن يعوزهم الا ان يقوم فيهم مرشد يهديهم للتي هي أقوم من طرائق الاعتقاد بالله وصفاته والتقرب اليه بتوجيه الوجه واسلام القلب اليه ولولا ان للقوم عقولا صافية لما رجي لمجيء المرشد من فائدة لانه لا يظهر نور الارشاد الا في اللوح النقي ولكن الرجاء بالقوم في محله فانه لما جاء المرشد لقي أراضي في منتهى الاستعداد لما أراد أن يلقي البذار والى جانبها أراض أخرى فيها من أعشاب التمسك بالقديم ما يحتاج الى زمن في معالجة ازالته وقليل من الاراضي كانت سبخة ليس في الامكان أن ينتج فيها البذار

لا يهولنك من القوم سقم عقولهم فيما كانوا يعتقدون فان البشر

كلهم الا قليلاً كانوا ولا يزالون يعتقدون أمثال معتقدات القوم فوا أسفاه ان هذا العيب عام وراسخ في البشر، من أصعب الاشياء استئصال جذوره ولا ندري السر في هذا . ولكن انظر الى هذه الجماعة القليلة كيف أقامت لها شأناً رفيعاً في العرب كلهم اذ غلبتهم على التوطن في جوار البيت المشرّف وأحسنت المقام في هذا الجوار الشريف فقامت بحقوق حجاجه من سقايتهم ورفادتهم ، وقامت بحقوق المستضعفين فيه من حمايتهم وتأمينهم ، وقامت بسنن التضامن والتعاون والتواصي بالعدل والاحسان حتى رضي العرب بتقديمهم عليهم اذا تقدموا واياهم لأمر عظيم وشرف جسيم على انهم ليسوا في العرب أكثر عدداً ، ولا أقوى ناصراً . لا جرم قد خصهم الله بأفراد كانوا في نقاء القلوب آية ، وبلغوا في صفاء العقول الغاية ، والأمم والشعوب تحيي بافراد وتموت بأفراد

واذا سخر الاله سعيداً   لاناس فانهم سعداء

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد حريتهم التي كانوا عليها فانهم لما خلصوا من تمليك أحد عليهم خلصوا من شرور كثيرة تتبع التمليك فكانت معاشراتهم ساذجة خالية من عبارات الملق والخنوع وكانت مكاسبهم لانفسهم لايشاركهم فيها مشارك ولا يعرفون المغارم المرتبة والاتاوات المضروبة

وهم في أمن من حيف القضاة لانهم انهم يتحاكمون يوم يشاءون الى من يرضونه من كبرائهم ولا قانون لهم في المسائل الجزئية ترتعد من أحكامه فرائضهم وانما يخشون بأس بعضهم فيرتدعون عن الشر الذي يثأر له العموم أو يثأر له من أصابهم خاصة

وكان جائزاً لأحدهم ان يتدين كما يريد بشرط ان لا يعيب دينهم الذي كانوا عليه ولا يدعو الى ابطاله وقد كان لبعضهم فلسفة فى النشور والجزاء الأخروي ولبعضهم انصراف عن عبادة الاوثان ولبعضهم ميل الى تقليد أهل الكتاب فلم يكونوا يحاسبون أحداً على مثل هذا

ولم يكن لديهم نوع من المبايعات حراماً بل يبيعون ويشترون كما يشاءون وكل منهم عارف بمصلحته ولهم همة فى التجارة والرحلة فيها الى الشأم وغيرها فى الصيف والشتاء

أما أهل الصنعة فيهم فلم يكن لهم من قيمة والغالب ان يكون الصناع غرباء

ولهم ازاء حسنة الحرية سيئة كبيرة وهي امتهان الرقيق واحتقاره وتكليفه الشاق من الامور ولم يكن بعضهم يأنف من إكراه امائه على البغاء ليأخذ ما يعطَين في سبيله

أما نساؤهم الحرائر فلم يكن جائزاً لهن الزنا ولا سيما اذا كان لهن بعولة بيدانه لم ينقل لنا انهم رتبوا على الزواني عقاباً بل كان عقابهن الى رأي أهليهن اذا شاءوا

وكان لنسائهم كثير من الحقوق ولهنّ ان يواجهن الرجال ويبرزن أمامهم حاسرات ويمكن ان يقال بالاجمال ان حرية الرجال والنساء كانت تامة ولذلك نعجب من قوم هذا شأنهم اذا رأيناهم لم يرثوا لحال الرقيق ولم يذكروا انه يستحق الرحمة لانه مسلوب أفضل كساء كساهموه ربهم الأعلى، الذي خلق فسوّى،

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

المنار
١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿ مصر الجمعة ٣٠ ربيع الاول ١٣٢٦ — أول مايو (أيار) سنة ١٩٠٨ ﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(١١٨ : ١١٤) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٩ : ١١٥) هَاأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ، وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٢٠ : ١١٦) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ *

قال الاستاذ الامام ان الآيات السابقة من اول السورة كانت في الحجاج مع أهل الكتاب وكذا مع المشركين بالتبع والمناسبة وان هذه الآيات وما بعدها الى آخر السورة في بيان احوال المؤمنين ومعاملة بعضهم لبعض وارشادهم في أمرهم يعني ان أكثر الآيات السابقة واللاحقة في ذلك

ثم ذكر لبيان اتصال هذه الآيات بما قبلها ثلاث مقدمات (١) انه كان بين المؤمنين وغيرهم صلات كانت مدعاة الى الثقة بهم والإفضاء اليهم بالسر واطلاعهم على كل امر منها المحالفة والعهد ومنها النسب والمصاهرة ومنها الرضاعة (٢) أن الغرة من طباع المؤمن فانه يبني أمره على اليسر والامانة والصدق ولا يبحث عن العيوب ولذلك يظهر لغيره من العيوب وان كان بليدا مالا يظهر له هو وان كان ذكيا (٣) ان المناصبين للمؤمنين من اهل الكتاب والمشركين كان همهم الاكبر اطفاء نور الدعوة وابطال ماجاء به الاسلام وكان همّ المؤمنين الاكبر نشر الدعوة وتأييد الحق . فكان الهمان متباينين ، والقصدان متناقضين ، (ثم قال) فاذا كانت حالة الفريقين على ماذكر فهي لاشك مقتضية لان يفضي النسيب من المؤمنين الى نسيبه من اهل الكتاب والمشركين وكذا المحالف منهم لمحالفه من غيرهم بشيء مما في نفسه وان كان من أسرار الملة التي هي موضوع التباين والخلاف بينهم وفي ذلك تعريض مصلحة الملة للخبال . لذلك جعل الله تعالى للصلات بين المؤمنين وغيرهم حدا لايتعدونه فقال

﴿ ياايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم اكبر ﴾ الى آخر الآيات

« بطانة » الرجل وليجته وخاصته الذين يستنبطون أمره ويتولون سره مأخوذ من بطانة الثوب وهو الوجه الباطن منه كما يسمى الوجه الظاهر ظهارة . و « من دونكم » معناه من غيركم و « يألونكم » من الإلو وهو التقصير والضعف و « الخبال » في الاصل الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه اضطراباً كالأمراض التي تؤثر في المخ فيختل ادراك المصاب بها أي لا يقصرون ولا ينون في إفساد أمركم . والأصل في استعمال فعل « ألا » ان يقال فيه نحو « لا آلو في نصحك » وسمع مثل « لا آلوك نصحاً »

على معنى لا أمنعك نصحاً وهو ما يسمونه التضمين . و« عنتم » من العنت وهو المشقة الشديدة و « البغضاء» شدة البغض

اما سبب النزول فقد أخرج ابن اسحاق وغيره عن ابن عباس قال « كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من يهود لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية فأنزل الله فيهم ينهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة عليهم هذه الآية » وأخرج عبد بن حميد انها نزلت في المنافقين . وروى ابن جرير القولين عن ابن عباس . وذكر الرازي وجهاً ثالثاً انها في الكافرين والمنافقين عامة قال « واما ما تمسكوا به من أن ما بعد الآية مختص بالمنافقين فهذا لا يمنع عموم أول الآية فانه ثبت في أصول الفقه ان أول الآية اذا كان عاماً وآخرها اذا كان خاصاً لم يكن خصوص آخر الآية مانعاً من عموم أولها » وسيأتي عن ابن جرير ترجيح الأول

واما المعنى فهو نهي المؤمنين ان يتخذوا لأنفسهم بطانة من الكافرين الموصوفين بتلك الأوصاف على القول بأن قوله « لا يألونكم » الخ نعوت للبطانة هي قيود للنهي كذا على القول بأنه كلام مستأنف مسوق للتعليل فالمراد واحد وهو ان النهي خاص بمن كانوا في عداوة المؤمنين على ما ذكر وهو انهم لا يألونهم خبالاً وإفساداً لأمرهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً فهذا هو القيد الأول . والثاني قوله عز وجل « ودوا ما عنتم » أي تمنوا عنتكم أي وقوعكم في الضرر الشديد والمشقة . والثالث والرابع قوله « قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر » أي قد ظهرت علامات بغضائهم لكم من كلامهم . فهي لشدتها مما يعوزهم كتمانها ويعز عليهم اخفاؤها على أن ما تخفي صدورهم منها أكبر مما يفيض على ألسنتهم من الدلائل عليها . وهذا النوع من البغضاء والعداوة مما يلقاه القائمون بكل دعوة جديدة في الاصلاح ممن يدعونهم اليه وما كان المسلمون الأولون يعرفون سنة البشر في ذلك اذ لم يكونوا على علم بطبائع الملل وقوانين الاجتماع وحوادث التاريخ حتى أعلمهم الله بذلك ولذلك قال

﴿ قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون ﴾ يعني بالآيات هنا العلامات الفارقة بين من يصح ان يتخذ بطانة ومن لا يصح ان يتخذ لخيانته وسوء عاقبة مباطنته . أي

ان كنتم تدركون حقائق هذه الآيات والفصول الفارقة بين الاعداء والاولياء فاعتبروا بها ولا تتخذوا أولئك بطانة

وانت ترى ان هـذه الصفات التي وصف بها من نهى عن اتخاذهم بطانة لو فرض ان اتصف بها من هو موافق لك في الدين والجنس والنسب لما جاز لك ان تتخذه بطانة لك ان كنت تعقل فما أعدل هـذا القرآن الحكيم وما أعلى هـديه وأسمى إرشاده ؛ لقد خفي على بعض الناس هـذه التعليلات والقيود فظنوا أن النهي عن المخالف في الدين مطلقاً ولو جاء هذا النهي مطلقاً لما كان أمراً غريبا ونحن نعلم ان الكافرين كانوا إلباً على المؤمنين في أول ظهور الاسلام إذ نزلت هـذه الآيات لاسيما اليهود الذين نزلت فيهـم على رأي المحققين . ولكن الآيات جاءت مقيدة بتلك القيود لان الله تعالى — وهو منزلها — يعلم ما يعتري الأمم وأهل الملل من التغير في الموالاة والمعاداة كما وقع من هؤلاء اليهود فانهـم بعد ان كانوا أشـد الناس عداوة للذين آمنوا في أول ظهور الاسـلام قد انقلبوا فصاروا عوناً للمسلمين في بعض فتوحاتهم (كفتح الاندلس) وكذلك كان القبط عوناً للمسلمين على الروم في مصر فكيف يجعل عالم الغيب والشهادة الحكم على هؤلاء واحداً في كل زمان ومكان أبد الابيد ؟ ألا إن هذا مما تنبذه الدراية ، ولا تروي غلته الرواية. فأن أرجح التفسير المأثور يؤيد ماقلنا .

قال ابن جرير يرد على قتادة القائل بأن الآية في المنافقين و يؤيد رأيه الموافق لما اخترناه مانصه: «ان الله تعالى ذكره إنما نهى المؤمنين ان يتخذوا بطانة ممن قد عرفوه بالغش للاسلام وأهله والبغضاء إما بأدلة ظاهرة دالة على ان ذلك من صفتهم . وإما باظهار الموصوفين بتلك العداوة والشنآن والمناصبة لهم فأما من لم يتأسوه معرفة انه الذي نهاهم الله عز وجل عن مخالته ومباطنته فغير جائز ان يكونوا نهوا عن مخالته ومصادقته الا بعد تعريفهم إياهم إما باعيانهم وأسمائهم وإما بصفات قد عرفوهم بها. واذا كان ذلك كذلك وكان إبدا المنافقين بألسنتهم مافي قلوبهم من بغضاء المؤمنين الى إخوانهم الكفار (أي كما قال قتادة) غير مدرك به المؤمنون معرفة ماهم عليه لهم مع إظهارهم الايمان بألسنتهم لهم والتودد اليهم كان بينا ان الذين نهى الله عن

اتخاذهم لأنفسهم بطانة دونهم هم الذين قد ظهرت لهم بغضاؤهم بألسنتهم على ما وصفهم الله عز وجل به فعرفهم المؤمنون بالصفة التي نعتهم الله بها وأنهم هم الذين وصفهم الله تعالى ذكره بأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون ممن كان له ذمة وعهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أهل الكتاب لانهم لو كانوا المنافقين لكان الأمر منهم على ما بينا ولو كانوا الكفار ممن ناصب المسلمين الحرب لم يكن المؤمنون متخذيهم لانفسهم بطانة من دون المؤمنين مع اختلاف بلادهم وافتراق أمصارهم ولكنهم الذين كانوا بين أظهر المؤمنين من أهل الكتاب ايام رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن كان له من رسول الله (ص) عهد وعقد من يهود بني إسرائيل » اه

فهذا شيخ المفسرين وأشهرهم يجعل هذا النهي فيمن ظهرت عداوتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين معه ممن كان لهم عهد فخانوا فيه كبني النضير الذين حاولوا قتل النبي (ص) في اثناء ائتمانه لهم لمكان العهد والمحالفة ويمنع ان يكون مراداً به جميع الكافرين أو المنافقين؟

فهذا حكم من احكام الاسلام في المخالفين أيام كان جميع الناس حرباً للمسلمين فهل ينكر أحد له مسكة من الانصاف انه في هذه القيود التي قيد بها يعد منتهى التساهل والتسامح مع المخالفين، إذ لم يمنع اتخاذ البطانة الا ممن ظهرت عداوتهم و بغضاؤهم للمسلمين، فهم لا يقصرون في إفساد أمرهم و يتمنون لهم من الشر فوق ذلك . لو كانت هذه القيود للنهي عن استعمال المخالفين في كل شيء ومشاركتهم في كل عمل لكان وجه العدل فيها ازهر، وطريق العذر فيها أظهر، فكيف وهي قيود لاتخاذهم بطانة يستودعون الاسرار و يستعان برأيهم وعملهم على شؤون الدفاع عن الملة وصون حقوقها ومقاومة أعدائها ؟ ؟

ما أشبه هذا النهي في قيوده بالنهي عن اتخاذ الكفار انصاراً وأولياء إذ قيد بقوله عز وجل (٦٠ : ٨ لا ينها كم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من ديارهم ان تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ٩ إنما ينها كم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم

ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) وقد شرحنا هـذا البحث في تفسير قوله تعـالى (٣ : ٢٨ لا يتخذ المؤمنون الـكافرين أولياء من دون الله) (١)

هذا التساهل الذي جاء به القرآن هو الذي أرشد عمر بن الخطاب الى جعل رجال دواوينه من الروم وجرى الخليفتان الآخران وملوك بني أمية من بعده على ذلك الى ان نقل الدواوين عبد الملك بن مروان من الرومية الى العربية • وبهذه السيرة وذلك الارشاد عمل العباسيون وغيرهم من ملوك المسلمين في إناطة أعمـال الدولة باليهود والنصارى والصابئين ومن ذلك جعل الدولة العثمانية أكثر سفرائها ووكلائها في بلاد الاجانب من النصارى . ومع هذا كله يقول متعصبو أوربا ان الاسلام لا تساهل فيه !! « رمتني بدائها وانسلت » ألا ان التساهل قد خرج عند المسلمين عن حده حتى كتب الاستاذ الامام في ذلك مقالة في العروة الوثقى صـدرها بالآية التي نفسرها نوردها هنا برمتها لانها تدخل في باب تفسير الآية والاعتبار بها على أكمل وجه وهذا نصها (نقلا من الجزء الثاني من تاريخه) :

* * *

« قالوا تصان البلاد ويحرس الملك بالبروج المشيدة والقلاع المنيعة والجيوش العاملة والاهب الوافرة والاسلحة الجيدة . قلنا نعم هي أحراز وآلات لابد منهـا للعمل فيما يقي البلاد ولكنها لا تعـمل بنفسها ولا تحرس بذاتها فلا صيانة بها ولا حراسة الا أن يتناول أعمالها رجال ذوو خبرة وأولو رأي وحكمة يتعهدونها بالاصلاح زمن السلم و يستعملونها فيما قصدت له زمن الحرب وليس بكاف حتى يكون رجال من ذوي التدبير والحزم وأصحاب الحذق والدراية يقومون على سائر شؤون المملكة يوطئون طرق الامن ويبسطون بساط الراحة ويرفعون بناء الملك على قواعد العدل ويوقفون الرعية عند حدود الشريعة ثم يراقبون روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية ليحفظوا لها المنزلة التي تليق بها بينها بل يحملوها على أجنحة السياسة القويمة الى أسمى مكانة تمكن لها . ولن يكونوا أهلاً للقيام على هـذه الشؤون الرفيعة حتى تكون قلوبهم فائضة بمحبة البلاد طافحة بالمرحمة والشفقة على سكانها وحتى تكون

(١) راجع ص ٢٧٦ وما بعدها من الجزء الثالث من التفسير

الحمية ضاربة في نفوسهم آخذة بطباعهم يجدون في أنفسهم منبها على ما يجب عليهم وزاجرا عمالا يليق بهم وغضاضة وألما موجعاً عند ما يمس مصلحة المملكة ضرر ويوجس عليها من خطر ليتيسر لهم بهذا الاحساس وتلك الصفات أن يؤدوا أعمال وظائفهم كما ينبغي ويصونوها من الخلل الذي ربما يفضي قليله الى فساد كبير في الملك . فهؤلاء الرجال بهذه الخلال هم المنعة الواقية والقوة الغالبة.

«يسهل على أي حاكم في أي قبيل أن يكتب الكتائب ويجمع الجنود ويوفر العدد من كل نوع بنقد النقود وبذل النفقات ولكن من أين يصيب بطانة من أولئك الذين أشرنا اليهم : عقلاء رحماء أباة أصفياء تهمهم حاجات الملك كما تهمهم ضرورات حياتهم. لا بدان يتبع في هذا الأمر الخطير قانون الفطرة ويراعى ناموس الطبيعة فان متابعة هذا الناموس تحفظ الفكر من الخطأ وتكشف له خفيات الدقائق وقلما يخطىء في رأيه أو تيأود في عمله من أخذ به دليلاً وجعل له من هديه مرشداً . واذا نظر العاقل في أنواع الخطأ التي وقعت في العالم الانساني من كلية وجزئية وطلب أسبابها لا يجدلها من علة سوى الميل عن قانون الفطرة والانحراف عن سنة الله في خلقه .

«من أحكام هذا الناموس الثابت ان الشفقة والمرحمة والحمية والنعرة على الملك والرعية انما تكون لمن له في الأمة أصل راسخ ووشيج يشد صلته بها. هذه فطرة فطر الله الناس عليها . ان الملتحم مع الأمة بعلاقة الجنس والمشرب يراعي نسبته اليها ونسبتها اليه ويراها لا تخرج عن سائر نسبه الخاصة به فيدافع الضيم عن الداخلين معه في تلك النسبة دفاعه عن حوزته وحريمه (راجع رأيك فيما تشهده كثيراً حتى بين العامة عند مايرمي أحدهم أهل البلد الآخر أو دينه بسوء على وجه عام كسوري ينتقد المصريين أو مصري ينتقد السوريين) هذا الى ما يعلمه كل واحد من الأمة أن ما تناله أمة من الفوائد يلحقه حظ منها وما يصيبها من الارزاء يصيبه سهم منه خصوصاً ان كان بيده هامات أمورها وفي قبضته زمام التصرف فيها فان حظه (حينئذ) من المنفعة أوفر ومصيبته بالمضرة أعظم وسهمه من العار الذي يلحق الأمة أكبر فيكون اهتمامه بشؤون الأمة التي هو منها وحرصه على سلامتها بمقدار مايؤمله من المنفعة أو يخشاه من المضرة

فعلى ولي الأمر في مملكة أن لا يكل شيئاً من عمله الا الى أحد رجلين إما رجل يتصل به في جنسية سالمة من الضعف والتمزيق موقرة في نفوس المنتظمين فيها محترمة في قلوبهم يحملهم توقيرها واحترامها على التغالي في وقايتها من كل شين يدنو منها ولم توهن روابطها اختلافات المشارب والاديان و إما رجل يجتمع معه في دين قامت جامعته مقام الجنسية بل فاقت منزلته من القلوب منزلتها كالدين الاسلامي الذي حل عند المسلمين وان اختلفت شعوبهم محل كل رابطة نسبية فان كلاً من الجامعتين (الجنسية على النحو السابق والدينية) مبدآن للحمية على الملك ومنشآن للغيرة عليه ٠

أما الأجانب الذين لا يتصلون بصاحب الملك في جنس ولا في دين تقوم رابطته مقام الجنس فمثلهم في المملكة كمثل الأجير في بناء بيت لا يهمه الا استيفاء أجرته ثم لا يبالي أسلم البيت أو جرفه السيل أو دكته الزلازل. هذا اذا صدقوا في أعمالهم يؤدون منها بمقدار ما يأخذون من الأجر واقفين فيها عند الرسم الظاهر فان الواحد منهم لا يشرف بشرف الأمة الذي هو خادم فيها ولا يمسه شيء مما يمسها من الضعة لانه منفصل عنها اذا فقد العيش فيها فارقها وارتد الى منبته الذي ينتسب اليه بل هو في حال عمله وخدمته لغير جنسه لاصق بمنبته في جميع شؤونه ماعدا الأجر الذي يأخذه وهذا معلوم ببداهة العقل فلا يجد في طبيعته ولا في خواطر قلبه ما يبعثه على الحذر الشديد مما يفسد الملك أو الحرص الزائد على ما يعلي شأنه بل لا يجد باعثاً على الفكر فيما يقوم مصلحته من أي وجه ٠ هذه حالهم هي لهم بمقتضى الطبيعة لو فرضنا صدقهم و براءتهم من أغراض أخر فما ظنك بالاجانب لو كانوا نازحين من بلادهم فراراً من الفقر والفاقة وضربوا في أرض غيرهم طلباً للعيش من أي طريق وسواء عليهم في تحصيله صدقوا أو كذبوا وسواء وفوا أو قصروا وسواء راعوا الذمة أو خانوا أو لو كانوا مع هذا كله يخدمون مقاصد لأممهم يمهدون لها طرق الولاية والسيادة على الاقطار التي يتولون الوظائف فيها (كما هو حال الأجانب في الممالك الاسلامية لا يجدون في أنفسهم حاملاً على الصدق والأمانة ولكن يجدون منها الباعث على الغش والخيانة) ومن تتبع التواريخ التي

تمثل لنا أحوال الأمم الماضية وتحكي لنا عن سنة الله في خليقته وتصريفه لشؤون عباده رأي أن الدول في نموها و بسطتها ما كانت مصونة إلا برجال منها يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم وما كان شيء من أعمالها بيد أجنبي عنها وان تلك الدول ما انخفض مكانها ولا سقطت في هوة الانحطاط إلا عند دخول العنصر الأجنبي فيها، وارتقاء الغرباء الى الوظائف السامية في أعمالها، فان ذلك كان في كل دولة آية الخراب والدمار خصوصاً اذا كان بين الغرباء و بين الدولة التي يتناولون أعمالها منافسات وأحقاد مزجت بها دماؤهم وعجنت بها طينتهم من أزمان طويلة

« نعم كما يحصل الفساد في بعض الاخلاق والسجايا الطبيعية بسبب العوارض الخارجية كذلك يحصل الضعف والفتور في حمية أبناء الدين أو الأمة ويطرأ النقص على شفقتهم ومرحمتهم فينقص بذلك اهتمام العظماء منهم بمصالح الملك اذا كان ولي الأمر لا يقدر أعمالهم حق قدرها وفي هذه الحالة يقدمون منافعهم الخاصة على فرائضهم العامة فيقع الخلل في نظام الأمة ويضرب فيها الفساد ولكن ما يكون من ضرره أخف وأقرب الى التلافي من الضرر الذي يكون سببه استلام الأجانب لهامات الأمور في البلاد لان صاحب اللحمة في الأمة وان مرضت أخلاقه واعتلت صفاته الا ان ما أودعته الفطرة وثبت في الجبلة لا يمكن محوه بالكلية فاذا أساء في عمله مرة أزعجه من نفسه صائح الوشيجة الدينية أو الجنسية فيرجع الى الاحسان مرة أخرى وان ماشد بالقلب من علائق الدين أو الجنس لا يزال يجذبه آونة بعد آونة لمراعاتها والالتفات اليها ويميله الى المتصلين معه بتلك العلائق وان بعدوا .

« لهذا يحق لنا أن نأسف غاية الاسف على أمراء الشرق وأخص من يهمهم أمر المسلمين حيث سلموا أمورهم ووكلوا أعمالهم من كتابة وادارة وحماية للاجانب عنهم بل زادوا في موالاة الغرباء والثقة بهم حتى ولوهم خدمتهم الخاصة بهم في بطون بيوتهم بل كادوا يتنازلون لهم عن ملكتهم في ممالكهم بعد ما رأوا كثرة المطامع فيها لهذا الزمان وأحسوا بالضغائن والاحقاد الموروثة من اجيال بعيدة بعد ما علمتهم التجارب انهم اذا ائتمنوا خانوا ، واذا عززوا أهانوا ، يقابلون الاحسان بالاساءة ، والتوقير

بالتحقير، والنعمة بالكفران، ويجازون على اللقمة باللطمة، والركون اليهم بالجفوة، والصلة بالقطيعة، والثقة فيهم بالخدعة،

« اما آن لامراء الشرق ان يدينوا لاحكام الله التي لاتنقض؟ ألم يأن لهم ان يرجعوا الى حسهم ووجدانهم؟ ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدتهم الحوادث ودلتهم عليه الرزايا والمصائب؟ ألم يحن لهم ان يكفوا عن تخريب بيوتهم بايديهم وايدي اعدائهم، ألا أيها الامراء العظام مالكم وللأجانب عنكم؟ «هاأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم» قد علمتم شأنهم، ولم تبق ريبة في أمرهم، «ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها» سارعوا الى ابناء أوطانكم واخوان دينكم وملتكم وأقبلوا عليهم ببعض ماتقبلون به على غيرهم تجدوا فيهم خير عون وأفضل نصير، اتبعوا سنة الله فيما ألهمكم وفطركم عليه كما فطر الناس اجمعين، وراعوا حكمته البالغة فيما أمركم وما نهاكم كيلا تضلوا ويهوي بكم الخطل الى أسفل سافلين، ألم تروا ألم تعلموا ألم تحسوا ألم تجربوا؟؟ الى متى الى متى؟ إنا لله وإنا اليه راجعون» اه

***

هذا بيان يريك بالحجج الاجتماعية الناهضة ان الغريب عن الملة لايتخذ بطانة للقائمين بأمر الملة، والغريب عن الدولة لايتخذ بطانة لرجال الدولة، وان لم يكن هؤلاء الغرباء متصفين بما ذكر في الآية من العدوان والبغضاء فكيف اذا كانوا كذلك

بينت لنا الآية التي فسرناها بعض حال اولئك الذين نهي المؤمنون عن اتخاذ البطانة منهم مع المؤمنين فدونك هذه الآية التي تبين حال المؤمنين معهم:

﴿ ها انتم اولاء تحبونهم ولايحبونكم ﴾ فالقرآن ينطق بأفصح عبارة وأصرحها واصفا المسلمين بهذا الوصف الذي هو من أثر الاسلام وهو انهم يحبون اشد الناس عداوة لهم الذين لايقصرون في افساد أمرهم وتمني عنتهم على ان بغضاءهم لهم ظاهرة وما خفي منها اكبر مماظهر. اولئك المبغضون هم الذين قال الله فيهم اوفي طائفة منهم (٥ : ٨٢ لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود) الخ يعني اولئك اليهود المجاورين لهم في الحجاز. أليس حب المؤمنين لاولئك اليهود الغادرين الكائدين واقرار القرآن اياهم على ذلك لانه اثر من آثار الاسلام في نفوسهم هو أقوى البراهين على ان هذا

الدين دين حب ورحمة وتساهل وتسامح لا يمكن ان يصوب العقل نظره الى اعلى منه في ذلك؟ بلى ولكن وجد في الناس من ينكر عليه ذلك و يصفه بضده زورا و بهتانا، بل تعصبا خروا عليه صما وعميانا ،

من هم الذين يرمون الاسلام بانه دين بغض وعدوان ؟ لا اقول انهم النصارى الذين كانوا أجدر بحبنا وودنا من اليهود لقوله تعالى في تتمة الآية التي استشهدنا بها آنفا (ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى) بل هم قسوس اوروبا المتعصبون على الاسلام من حيث هو دين، وساستها المتعصبون على الاسلام من حيث هو شرع ونظام قامت به دول وممالك . فاوروبا التي تتهم الاسلام — والشرق الأدنى كله لاجل الاسلام — بالتعصب والبغضاء للمخالف هي التي ابادت من بلادها كل مخالف لدينها الا الترك فانها لم تقو على ابادتهم حتى الآن ولولا ما بين دولها من التنازع السياسي لقضت عليهم. فنصارى الشرق ومسلموه وكذا وثنيوه إنما اغترفوا غرفة من بحر تعصب أوروبا ولكنهم لا قوة لهم على الدفاع عن انفسهم أمام اولئك المعتدين

أما قوله تعالى ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ فمعناه أنكم تؤمنون بجميع ما انزل الله من كتاب سواء منه ما نزل عليكم وما نزل عليهم فليس في نفوسكم من الكفر ببعض الكتب الالهية او النبيين الذين جاؤا بها ما يحملكم على بغض اهل الكتاب فانتم تحبونهم بمقتضى ايمانكم هذا . وذكر بعضهم ان جملة « وتؤمنون » حالية من قوله « ولا يحبونكم » والمعنى انهم لا يحبونكم مع انكم تؤمنون بكتابهم وكتابكم فكيف لو كنتم لا تؤمنون بكتابهم كما أنهم لا يؤمنون بكتابكم ؟ فأنتم أحق ببغضهم أي ومع ذلك تحبونهم ولا يحبونكم

قال ابن جرير : «في هذه الآية إبانة من الله عز وجل عن حال الفريقين أعني المؤمنين والكافرين ورحمة أهل الايمان ورأفتهم بأهل الخلاف لهم، وقساوة قلوب أولئك وغلظتهم على أهل الايمان، كما حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة : قوله « ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله » فوالله ان المؤمن ليحب المنافق ويأوي اليه ويرحمه ولو أن المنافق يقدر على ما يقدر عليه المنافق منه لأباد خضراءه » . حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثني

حجاج عن ابن جريج قال « المؤمن خير للمنافق من المنافق للمؤمن يرحمه ولو يقدر المنافق من المؤمن على مثل ما يقدر عليه المؤمن منه لأباد خضراءه » اه

فهؤلاء أئمة التفسير من سلف الأمة يقولون إن المسلم خير للكافر وللمنافق منهما له حباً ورحمة ومعاملة . وكذلك قالوا في السني مع المبتدع كما بين ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية قالوا ان من علامة أهل السنة ان يرحموا المخالف لهم ولا يقطعوا أخوته في الدين . ولذلك يذكرون في كتب العقائد « لا نكفر أحداً من أهل القبلة » بل كان رواة الحديث من أئمة أهل السنة كالإمام أحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن يروون عن الشيعة والمعتزلة لا يلتفتون الى مذهب الراوي بل الى عدالته في نفسه .

ونتيجة هذا كله ان الانسان يكون في التساهل والمحبة والرحمة لإخوانه البشر على قدر تمسكه بالايمان الصحيح وقربه من الحق والصواب فيه . وكيف لايكون كذلك والله يقول لخيار المؤمنين « ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم » فبهذا نحتج على من يزعم أن ديننا يغرينا ببغض المخالف لنا كما نحتج على بعض الجاهلين منا بدينهم الذين يطعنون ببعض علمائهم وفضلائهم ، لمخالفتهم إياهم في مذاهبهم وآرائهم ، أو في ظنونهم وأهوائهم ، والذين سرت اليهم عدوى المتعصبين ، فاستحلوا هضم حقوق المخالفين لهم في الدين ،

ثم قال تعالى شأنه مبيناً لشأن طائفة منهم اسندها اليهم في الجملة على قاعدة تكافل الامة وكونها كشخص واحد ﴿وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ﴾ كان بعض اليهود يظهرون الايمان للنبي (ص) والمؤمنين نفاقا وخداعا ومنهم من كان يظهره ثم يرجع عنه ليشكك المسلمين كما تقدم في آية (٧٢) من هذه السورة(*) واذا خلا بعضهم الى بعض اظهروا مافي نفوسهم من الغيظ والحقد الذي لايستطيعون معه الى التشفي سبيلا. وعض الانامل كناية عن شدة الغيظ ويكنى به ايضا عن الندم ﴿قل موتوا بغيظكم﴾ فان الاسلام الذي هو سبب غيظكم لا يزداد باعتصام أهله به الا عزة وقوة وانتشارا وقال ابن جرير « موتوا بغيظكم الذى على المؤمنين لاجتماع كلمتهم وائتلاف

*) راجع ص ٣٣٣ من الجزء الثالث من التفسير

جماعتهم » فليعتبر المسلمون اليوم بهذا لعلهم يتذكرون انه ما حل بهم ماحل من الأرزاء الابزوال هذا الاجتماع والائتلاف و بالتفرق بعد الاعتصام ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ فهو يعلم ماتضم صدوركم من شعور الغيظ والبغضاء وموجدة الحقد والحسد فكيف يخفى عليه ماتقولون في خلواتكم وما يبديه بعضكم لبعض من ذلك. و يعلم كذلك ماتنطوي عليه صدورنا معشر المؤمنين من حب الخير والنصح لكم

ثم قال مبينا حسدهم وسوء طويتهم ﴿ ان تمسسكم حسنة تسوءهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها ﴾ المس في الاصل كاللمس والمراد بتمسسكم هنا تصبكم ولعل اختيار لفظ المس في جانب الحسنة والاصابة في جانب السيئة للاشعار بان اولئك الكافرين يسوءهم مايصيب المسلمين من خير وان قل بان كان لا يزيد على مايمس باليد وانما يفرحون بالسيئة اذا اصابت المسلمين اصابة يشق احتمالها . هذا ما كان يتبادر الى فهمي ولكن رأيت صاحب الكشاف يجعلهما هنا بمعنى واحد و يستدل باستعمال القرآن لكل منها في موضع الآخر ويقول ان المس مستعار للاصابة . ثم خطر لي ان اراجع تفسير أبي السعود فاذا هو يقول « وذكر المس مع الحسنة والاصابة مع السيئة للايذان بان مدار مساءتهم ادنى مراتب اصابة الحسنة ومناط فرحهم تمام اصابة السيئة .وإما لأن اليأس مستعار لمعنى الاصابة » والاول هو الوجه وهو من دقائق البلاغة العليا . والحسنة المنفعة سواء كانت حسية او معنوية وأعظمها انتشار الاسلام ودخول الناس فيه وانتصار المسلمين على المعتدين عليهم المقاومين لدعوتهم . قال قتادة في بيان ذلك كما رواه عنه ابن جرير « فاذا رأوا من اهل الاسلام الفة وحماية وظهورا على عدوهم غاظهم ذلك وساءهم واذا رأوا من اهل الاسلام فرقة واختلافا واصيب طرف من اطراف المسلمين سرهم ذلك وأعجبوا به وابتهجوا به ' فهم كلما خرج منهم قرن أكذب الله أحدوثته وأوطأ محلته' وأبطل حجته وأظهر عورته' فذلك قضاء الله فيمن مضى منهم وفيمن بقي إلى يوم القيامة »

ثم أرشد الله المسلمين الى ما إن تمسكوا به سلموا من كيدهم الذي يدفعهم اليه الحسد والبغضاء فقال ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ﴾

ذهب بعضهم الى ان المراد وان تصبروا على عداوتهم وتتقوا اتخاذهم بطانة وموالاتهم من دون المؤمنين لا يضركم كيدهم لكم وهم بمعزل عنكم . وذهب آخرون الى أن المراد وان تصبروا على مشاق التكاليف وامتثال الأوامر عامة وتتقوا مانهيتم عنه وحظر عليكم — ومنه اتخاذ البطانة منهم — لا يضركم كيدهم . و « يضرّكم » بتشديد الراء من الضرر وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب « يضركم » بكسر الضاد وسكون الراء المخففة من ضاره يضيره والضير بمعني المضرة . وقال الأستاذ الإمام ان الصبر يذكر في القرآن في مقام مايشق على النفس، وحبس الإنسان سره عن وديده وعشيره ومعامله وقريبه مما يشق عليه فان من لذات النفوس ان تفضي بما في الضمير الى من تسكن اليه وتأنس به فلما نهوا عن اتخاذ بطانة ممن دونهم من خلطائهم وعشرائهم وحلفائهم وعلل بما علل به من بيان بغضائهم وكيدهم حسن ان يذكروا بالصبر على هذا التكليف الشاق عليهم وباتقاء ما يجب اتقاؤه لأجل السلامة من عاقبة كيدهم . ويصح ان يراد بالتقوى الأخذ بوصاياه وامتثال أمره تعالى في البطانة وغيرها .

أقول ومن الاعتبار في الآية انه تعالى أمر المؤمنين بالصبر على عداوة أولئك المبغضين الكائدين وباتقاء شرهم ولم يأمرهم بمقابلة كيدهم وشرهم بمثله وهكذا شأن القرآن لا يأمر إلا بالمحبة والخير والإحسان ودفع السيئة بالحسنة ان أمكن كما قال (٤١ : ٣٤ ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) فان لم يمكن تحويل العدو إلى محب بدفع سيئاته بما هو أحسن منها فانه يجيز دفع السيئة بمثلها من غير بغي ولا اعتداء كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في معاملة بني النضير الذين نزلت الآية فيهم أولا بالذات فإنه حالفهم ووادهم فنكثوا وخانوا غير مرة أعانوا عليه قريشاً يوم بدر وادعوا انهم نسوا العهد ثم اعانوا الاحزاب الذين تحزبوا لإبادة المسلمين ثم حاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم فتعذرت موادتهم واستمالتهم بالمحبة وحسن المعاملة فكان اللجأ الى قتالهم وإجلائهم ضربة لازب

ثم قال ﴿ ان الله بما يعملون محيط ﴾ قال الاستاذ الامام مامثاله: المحيط بالعمل هو الواقف على دقائقه فهو اذا دال على طريق النجاة لعامل من كيد الكائدين والوسيلة

للخلاص من ضررهم فانما يدل على الطريق الموصل للنجاة حتما ، والوسيلة المؤدية الى النجاح قطعا، فالكلام كالتعليل لكون الاستعانة بالصبر والتمسك بالتقوى شرطين للنجاح . وهناك وجه آخر وهو أن الخطاب بتعلمون عام المؤمنين والكافرين جميعا — يعني على قراءة الحسن وابي حاتم « تعملون » بالمثناة الفوقية او على الالتفات — ومن كان عالما بعمل فريقين متحادين محيطاً باسباب مايصدر عن كل منهما ومقدماته ، ونتائجه وغاياته ، فهو الذي يعتمد على ارشاده في معاملة احدهما للآخر ولا يمكن أن يعرف أحدهما من نفسه في حاضرها وآتيها ما يعرفه ذلك المحيط بعمله وعمل من يناهضه ويناصبه فهداية الله تعالى للمؤمنين خير ما يبلغون به المآرب ، وينتهون به إلى أحسن العواقب،

وأقول ان الإحاطة إحاطتان إحاطة علم وإحاطة قدرة ومنع وهذا التفسير مبني على ان الإحاطة هنا إحاطة علم لتعلقها بالعمل وذلك من المجاز الذي ورد في التنزيل كقوله تعالى (٦٥:١٢ احاط بكل شيء علماً) وقوله (١٠: ٣٩ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) واما الإحاطة بالشخص أو بالشيء قدرة فهي تأتي بمعنى منعه مما يراد به وهذا ليس بمراد هنا وبمعنى منعه مما يريده وبمعنى التمكن منه ومنه الإحاطة بالعدو اي اخذه من جميع جوانبه بالفعل او التمكن من ذلك ومنه قوله تعالى (٢: ٨١ واحاطت به خطيئته) وقوله (١١ : ٩٢ إنَّ ربي بما تعملون محيط) وقوله (١٠ : ٢٢ وظنوا انهم احيط بهم) كل هذا من باب واحد وان فسر كل قول بما يليق به . فيصح ان يكون منه ما نحن فيه والمعنى حينئذ ان الله قد دلكم يامعشر المؤمنين على ما ينجيكم من كيد عدوكم فعليكم بعد الامتثال ان تعلموا انه محيط بأعمالهم إحاطة قدرة تمنعهم مما يريدون منكم معونة منه لكم كقوله (٤٨ : ٢١ واخرى لم تقدروا عليها قد احاط الله بها) فعليكم بعد القيام بما يجب عليكم ان تثقوا به وتتوكلوا عليه ،

ومن مباحث اللفظ في الآيات قوله «ها أنتم أولاء» أصله انتم هؤلاء فقدمت أداة التنبيه التي تلحق اسم الاشارة «أولاء» على الضمير. ويقال في المفرد «ها أناذا» وعلى ذلك فقس. واعرابه: ها للتنبيه وأنتم مبتدأ وأولاء خبره وتحبونهم في موضع النصب على الحال أو خبر بعد خبر . وجوز بعضهم ان تكون أولاء اسم موصول وتحبونهم صلته

اليمن

سبب فتنتها وامام الزيدية فيها

إن العرب في اليمن وحضرموت ونجد وسائر جزيرة العرب يحبون الدولة العثمانية محبة صادقة وزادهم حباً فيها وحرصاً على بقائها في هذا الزمن اعتقادهم أن دول اوربا تتربص بها الدوائر وتحاول إزالة سلطتها لإزالة سلطة الإسلام من الوجود وهم على بقاء مميزاتهم الجنسية والوطنية على نحو ما كانوا في القرون الماضية والأجيال الغابرة لم يطرأ عليهم من التغير ما طرأ على أهل الاستانة ومصر والشام والاناطول وغيرها من الاقطار الإسلامية : لاتزال الرابطة الدينية عندهم فوق رابطة الجنس واللغة والوطن لم تعلمهم المدنية الأوربية التعصب للجنس كما علمت الأتراك ولا للبقعة كما علمت المصريين فهم يتمنون لو يجدون من الترك حكاماً يقيمون العدل ويحكمون بالشرع لا يجدون في صدورهم حرجاً من ذلك

ولكن الذي لا يطيقون احتماله ولا يصبرون عليه هو الظلم والجور والخيانة والغدر لأنهم ورثوا الاستقلال الشخصي والقومي وعزة النفس وإباء الضيم منذ آلاف من السنين

وقد بينت في المنار من قبل ان فئة قليلة من العمال (الحكام) المسلمين العدول العارفين بالشرع المهتدين به يكفون الدولة في اليمن امر هذه الحروب التي طالت عليها السنين فخربت البلاد واضاعت على الدولة من الأموال والرجال ماهي في أشد الحاجة اليه لصيانة استقلالها من عبث أوربا التي تواثبها المرة بعد المرة ، وأضرت بها انواعاً أخرى من المضرات لا حاجة إلى شرحها الآن

الزيدية طائفة من عرب اليمن تدين بوجوب إقامة إمام لها من العترة النبوية فهم بذلك أجدر العرب بعدم الخضوع للدولة العثمانية ولكنهم مع ذلك يتمنون لو تقيم الدولة في بلادهم العدل وتحكم بالشرع ويكون لها منهم ما يريدون فما بالك بغيرهم حاولت الدولة غير مرة ان تقيم الحجة الشرعية على هؤلاء بوجوب طاعة

السلطان ، وتحريم الخروج والعصيان ، فأرسلت من خاطب إمامهم بذلك غير مرة فكانت حجة الإمام أنهض ، وحجة رسول السلطان أدحض ، لأن الظلم والبغي بغير الحق حجج عملية ، لا تبطلها الحجج القولية ، ولا تفيد معها شيئاً

وقد عثرنا في هذه الأيام على نص ما أجاب به إمام الزيدية عما وجهه اليه الشيخ محمد الحريري مفتي حماه المندوب الذي أرسله اليه السلطان منذ سنين ومنه يعلم صحة رأينا في هؤلاء القوم وهذا نصه :

المنصور بالله محمد بن يحيي حميد الدين

﴿ عصمتي بالله وما توفيقي إلا بالله ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم أيد دينك القويم بالعلماء العاملين ، واكشف ببركتهم جهل الجاهلين ، وارفع بحميد سعيهم غفلة الغافلين ، فهم بحور العلم الزاخرة ، ونجوم الهدى الزاهرة ، وزينة الدنيا والدين والآخرة ، وأهل الفضائل المتكاثرة ، منهم ذو المجد الشامخ المنيف ، والحسب الباذخ الشريف ، والأدب المثمر روضه الوريف ، السيد محمد الحريري الرفاعي الحسني الحموي ، ألبسه الله جلباب التقوى ، وقاده إلى التمسك بالحبل الأقوى ، واعاد على محياه السلام الأسنى ، والإكرام الأهنى ، وصلى الله على محمد خاتم أنبياه ، وعلى آله سفينة النجاة ، وتراجمة الكتاب وقرناه ، وعلى صحابته الذين اتبعوه بعد مماته وفي محياه ،

أما بعد فانا نحمد الله الذي لا يرجى ويخشى سواه ، ولا نعبد إلا إياه ، وانه وافانا منك أيها السيد كتاب كريم ، ومسطور رائق فخيم ، افاد معرفة بحقوق العترة النبوية ، والسلالة العلوية ، بما ورد فيهم من الآيات القرآنية ، والاحاديث الصحيحة المروية «وان دواعي المحبة اقتضت المراسلة ، و بواعث المودة جذبت الى المكاتبة والمواصلة » وان من لوازم المحبة والايمان ، بذل النصيحة للإخوان ، لا سيما ولاة الأمور ، الذين ناط الله

بهم صلاح الجمهور ، وافاد اسعده الله انه مستنكر لما جرى بيننا و بين الولاة المرسلين من حضرة الدولة العثمانية ، والسدة الخاقانية ، من الحرب والاختلاف ، وعدم التوافق والائتلاف ، وانه يرى الخير في إصلاح ذات البين ، ورفع الفتنة التي تؤدي إلى التهلكة والحين ، وانه ورد الحث عليه في السنة والكتاب ، وانه مناط الرضا لرب الأرباب ، وان السلطان الاعظم ممن أقام الله به الدين ، وانتظمت به أحوال المسلمين ، وتشرف بخدمة الحرمين الشريفين ، وأقام بجهاد الكفار ، ومنابذة الاشرار ، وان رغبته في صلاح الدنيا والدين ، وقمع الفجار المعتدين ، وان القطر اليماني المحروس بالله محل الايمان ، كما ورد عن سيد ولد عدنان ، وان سعيه في ذلك نصيحة دينية ، ومحبة ايمانية

فنقول نعم الامر كما ذكرتم مما وقع بيننا و بين من تعلق بالسلطة القاهرة اعز الله بها الاسلام ، وقمع بها ذوي الالحاد الطغام ، ولم يكن لنا من الرياسة الدنيوية طلب ، ولا في الراحة البدنية أرب ، ولا نعول على جمع المال ووفرة المكسب ، ولا مزيد على مانحن فيه من الحسب والنسب ، لكنا رأينا المأمورين لم يؤدوا حقوق الله ، ولا رعوا حرمة ماحرمه الله ، ولا غضبوا يوما على معاصي الله ، ولم يعملوا بشيء من كتاب الله ، ولا سنة رسول الله ، و « شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله » ، وارتكبوا المعاصي ، ورموا اليها الناس باطراف النواصي ، وجاهروا الله بشرب الخمور ، وارتكاب الفجور ، وظلموا كل ضعيف ، واهانوا كل شريف ، حتى فسدت الذرية ، وارتفعت كلمة اليهودية والنصرانية ، وصارت الاكراد والمجوس تحكم في البرية . « لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة » . ولا تأخذهم في المسلمين رأفة ولا رحمة ، ولما لم نجد عن أمر الله بدا ، استعنا وتوكلنا عليه و بذلنا في الجهاد جهدا ، امتثالا لقول الله عز وجل « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله » وقوله عز وجل « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون » وقوله « كنتم خير امة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وخوفا مما خوفنا الله به من نحو قوله تعالى « لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بماعصوا وكانوا يعتدون »

كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » ونحو قوله صلى الله عليه وسلم « لتأمرنّ بالمعروف ولتنهن عن المنكر او ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » حتى اذا بلغ الكتاب أجله كان هو الله المنتصر لنفسه

ولم نزل نتوخى ان السلطة القاهرة أعز الله بها الاسلام، اذا رفعت اليها تلك القبائح التي لا يختلف في وقوعها اثنان، أن تأخذها حمية الدين والايمان، على تلافي مافرط من الاضاعة، وتستدرك مافات من حق عترة رسول الله الذين لا تستحق بدون اتباعهم الشفاعة، فلم يزدادوا مع طول المدة الا انسلاخا من الدين، وتوسعا من تأمر الفجرة المعتدين،

فان قلت ايها السيد ان تلك القبائح مباحة في الاسلام، وان فعلها مستحل من أتباع شريعة سيد الانام، فهات الدليل، ولا يقول بذلك الا ضليل، وان انكرت ايها السيد أن ذرية الرسول، هم الحجة في الفروع والاصول، صاح بك قوله تعالى « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن ذلك هو الفضل الكبير » وقوله تعالى « قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى » ونحو قوله صلى الله عليه وسلم « اني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي ابدا كتاب الله وعترتي اهل بيتي ان اللطيف الخبير نبأني انهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض » وقوله صلى الله عليه وسلم «إن عند كل بدعة تكون من بعدي وليا من ذريتي » وقوله صلى الله عليه وسلم « اهل بيتي امان لاهل الارض » وقوله صلى الله عليه وسلم « اهل بيتي كسفينة نوح » وغير ذلك مما لا يتحمله المقام فالظهور أبين للحجة، واوضح للمحجة، لاما خوفتنا به من القتل والنكال، فانا اهل بيت لا تزعزعنا كواذب الآمال، ولا نعد بذل نفوسنا في سبيل الله إلا من اشرف الخصال، ولا نفزع الى غير ذي الجلال، ولا ندعو سواه في البكور والآصال

على ان قومي تحسب الموت مغنما ... وان فرار الزحف عار ومغرم

« امّن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون الا في غرور » ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم

من بعده «ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم * ونريد ان نمنّ على الذين استُضعِفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين * الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور» فنحن من وعد ربنا على يقين، «والعاقبة للمتقين» وانك لاتجد في خطتنا المنصورة إلا قائما لعبادة ربه اذا اسدل الليل جناحه، او تاليا كتاب الله وذاكرا اذا أطلع الفجر صباحه، ومساجدنا معمورة بالعلم والعمل، وقلوبنا ضالة عن الجبن والفشل، ولا نفتخر كغيرنا بآلات الحرب الفاخرة، ولا بالسيوف المتكاثرة، التي تحت امرنا عاثرة، بل نتبرأ من الحول والقوة، وتمسك باذيال سيرة الامامة والنبوة

مغارس طابت في ربا الفضل فالتقت على انبياء الله والخلفاء
اذا حمل الناس اللواء علامة كفاهم مشار النقع كل لواء

فقد اوضحنا لك ايها السيد طريقتنا، وأبلغنا اليك أفعال أعادينا «فاي الفريقين أحق بالامن ان كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون» ولو يعلم السلطان الاعظم حقيقة الحال، لسارع الى اعانتنا في الحال والمآل، ورفع جميع المأمورين من الخطة اليمانية، وأمرهم بحرب الفرقة الكفرية، ولمنعهم عن محاربة العترة النبوية، التي هي بضعة من الذات الشريفة المحمدية، ولأوفى جدنا الاعظم اجر تبليغ الانباء المشار اليه «بقل لااسألكم عليه» الآية. ولتباعد عن مشابهة من قال فيهم خاتم النبيين «من قاتلنا آخر الزمان فكأنما قاتل مع الدجال» وعن الدعوة النبوية في قوله لأهل بيته «انا حرب لمن حاربتم سلم لمن سالمتم» وقد امر الله تعالى بالكون مع الصادقين بقوله تعالى «ياايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين» وثبتهم بقوله «انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله واولئك هم الصادقون * قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين* ياقومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم* ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الارض وليس له من دونه اولياء * ويا قوم مالي ادعوكم الى النجاة وتدعونني إلى النار) فاذا وجدت ايها السيد خلاصا من اوامر

الله افدنا من كتاب الله ومن سنة رسول الله ودع عنك التخويف بالمخلوقين كما قد قيل

جاء شقيق عارضا رمحه ان بني عمك فيهم رماح

واما اجتماع الكلمة على الحق فمن أين لنا ذلك ، والا فهو عندنا من اعظم المسالك ، حقنا للدماء ، ورفعا للدهماء ، ونسأل الله ان يرفع عن الامة المحمدية السوء والمحن ، ويجعلها على اتباع الكتاب وقرنائه اهل بيت النبي المؤتمن ، وان يعيذنا من نزغات الشيطان الرجيم ، ومضلات الفتن وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وكان اللائق بحال اركان السلطان الاعظم ان يجعل القطعة اليمانية من جملة الممالك التي بأيدي الكفار وقد اضربوا عنها صفحاً ، وطووا عنها كشحا ، وما سارعوا لغير مملكة اليمن التي بايدي أولاد رسول الله ، يحكمون فيها بما انزل الله ، ويمنعون محارم الله ، فهلا جعلوا آل الرسول كالكفار الذين تركوا لهم ممالكهم ؟ اللهم اشهد وكفى بك شهيدا » اه

(المنار) تسمع الدولة هذه الاخبار وتقرأ مثل هذا الجواب ثم هي توالي ارسال الجيوش الى اليمن فاذا توالى انكسارهم ارسلت من الرسل المسلمين من يقيم الحجة على امام الزيدية !! لم نعتبر باخفاق محمد الحريري وحسن خالد الصيادي فارسلت في العام الماضي وفدا من علماء مكة فكانت حجتهم كحجة من سبقهم . ولو سمعت كلامنا نحن الناصحين المخلصين لأرسلت واليا عادلا حكيما وعمالا من اهل الدين والاستقامة فبذلك لا بسواه تنطفئ نار الفتنة ، وتخضع اليمن للدولة ، فاذا اعوز الدولة هذا العلاج ، فلتعلم ان جميع بلاد العرب ستتبع اليمن في الخروج عليها ، او الخروج من سلطتها ،

المؤتمر الاسلامي

سبق لنا قول في المؤتمر الإسلامي الذي اقترحه اسماعيل بك غصبرنسكي القريمي ونقول الآن ان اللجنة التي تألفت للبحث في ذلك وسمت نفسها اللجنة التأسيسية قد وضعت لهذا المؤتمر قانوناً طبعته وأرسلته مع دعوة عامة مطبوعة بالعربية

والتركية والفارسية الى الجرائد الإسلامية في القطر المصري وغيره من الأقطار الإسلامية والى من عرفت من أهل الفضل والرأي من المسلمين. وقد جعلت الباب الثاني من القانون خاصاً ببيان موضوع المؤتمر وفيه ثلاث «مواد» نذكرها بنصها وهي:

﴿ المادة الرابعة عشرة ﴾ وظيفة المؤتمر هي البحث في الاسباب التي أوجبت تأخر المسلمين من الوجهة الاجتماعية ومما داخل الدين من البدع والنظر في إزالة تلك الأسباب وفيما يؤدي الى رقيهم

﴿ المادة الخامسة عشرة ﴾ لا تقبل الآراء التي تعرض من الوجهة الدينية إلاَّ اذا كان لها سند من الكتاب أو السنة أو الاجماع أو القياس

﴿ المادة السادسة عشرة ﴾ لا يجوز التعرض في مناقشات المؤتمر وأبحاثه للمسائل السياسية أيا كان نوعها اه

وقد سرنا موافقة الشيخ سليم البشري رئيس اللجنة على المادة الخامسة عشرة سروراً عظيماً وعددناها من بشائر الإصلاح، وأمارات النجاح، ذلك بأن الإصلاح الإسلامي مع التزام المذاهب المعروفة والجمود على كتب متبعيها محال ولذلك جرينا في المنار على اتباع الدليل في المسائل الدينية وترك التقليد وإقامة الحجج على المقلدين، لان المنار كالمؤتمر علم لجميع المسلمين .

وقد قلنا في مقالة طويلة عنوانها (بحث في المؤتمر الإسلامي) نشرناها في الجزء التاسع من السنة الماضية ما نصه (ص ٦٨٠ م ١٠)

« ثم انه ينبغي ان تكون القاعدة الاساسية الاولى للإصلاح الديني في المؤتمر هي المحافظة على المجمع عليه عند المسلمين لا سيما ما كان منه معلوماً من الدين بالضرورة وذلك هو القرآن المجيد وما استفيد منه بالنص القطعي وبعض السنن المتبعة — ونعني بالسنة معناها اللغوي الذي كان يفهمه الصحابة ومنه ماهو فرض أو واجب ككون الصلوات المفروضة خمساً، ركعات كل صلاة منها كذا يقرأ فيها كذا ويركع في ركعة مرة ويسجد مرتين ومنها ماهو مندوب في اصطلاح الفقهاء كما هو معروف —

« ذلك ان المؤتمر الإسلامي عام لجميع المسلمين وفيهم السني السلفي وغير

السلفي والشيعي والأباضي · ومن السنية الحنفي والمالكي الخ ومن الشيعة الجعفري والزيدي ، فالذي يجمع بين هؤلاء ويوحد كلمتهم هو كتاب الله والسنن العملية المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم بالتلقي عن آله وأصحابه رضي الله عنهم · وبذلك يكون المؤتمر غير مقيد بالتقاليد الاجتهادية التي تثير النزاع وتفرق الكلمة فلا يمنع أعضاءه مانع من الاعتصام بحبل الله ودعوة سائر المسلمين الى الاعتصام به »

كتبنا هذا لتنبيه لجنة المؤتمر قبل الابتداء بعملها إلى هذا الاساس الذي لا يفيد المؤتمر بدونه شيئاً وكنا نخاف أن يحاول من دخل في اللجنة من علماء الأزهر تقييد المباحث الدينية في المؤتمر بنصوص كتب المذاهب وكان أخوف من نخاف في ذلك رئيس اللجنة الشيخ سليم البشري لانه كان يبلغنا عنه انه ممن ينكرون على المنار الإنحاء على التقليد والاعتماد في مباحثه على الأدلة الشرعية فلما رأيناه الآن ، وافق على قانون المؤتمر الذي جعل أساس مباحثه الدينية الاجتهاد دون التقليد حل الرجاء محل الخوف ووجب علينا ان نثني على الأستاذ الكبير الشيخ سليم البشري أجمل الثناء فحياه الله تحية مباركة طيبة ،

انما قصرنا الثناء على الشيخ سليم من دون سائر اعضاء اللجنة الواضعة لهذا القانون لان معارضة مثل الشيخ سليم من كبار العلماء أصحاب الشهرة والصفة الرسمية في مسألة اجازة الاجتهاد ومنع التقليد تعد عقبة في سبيل الاصلاح وموافقته عليها تعد تمهيدا عظيما لهذه السبيل التي هي سبيل الله وعونا كبيرا للسالكين فيها، ولا نبخس احدا من اعضاء اللجنة حقه ، ولا نظلمه شيئا من فضله ، بل نرجو ان يكثر فينا من أمثالهم الجاهرون بهذه الدعوة كما كثر المعتقدون لها وان لم يصرحوا بها

ان في علماء الازهر كثيرين يعتقدون بطلان التقليد ووجوب اتباع الدليل ولكن يقل فيهم من يجهر بذلك قولا ويندر من يتجرأ منهم على كتابة ذلك في الصحف المنتشرة والدعوة اليه على رءوس الاشهاد · ذلك بان كبراء الشيوخ ذوي المكانة عند الامراء والشهرة عند العامة ينكرون ذلك على قائله ويضطهدونه ان استطاعوا ويبالغون في ذلك مبالغة هي عندي من مثارات العجب · افلا يحق لنا اذاً أن نكبر إجازة الشيخ سليم البشري جعل قبول ما يقدم للمؤتمر من الآراء والمباحث

الدينية مشروطا بأن تكون مؤيدة بدليل من الكتاب او السنة او الاجماع او القياس ونحن نعلم أنه من أولئك الشيوخ الكبراء بل هو في ناصيتهم وذروتهم اذ هو شيخ المالكية وكبيرهم الآن وكان بالامس شيخ الازهر ؟ وقد اشتهر بانه اعلم اهل الازهر الآن بالحديث ولعل الخير جاء من هذه الناحية فأهل الحديث مازالوا أبعد الناس عن التقليد.

ونعود الى مباحث المؤتمر فنقول ان المباحث الدينية قد اشترط فيها هذا الشرط الذي سررنا به على اجماله واما المباحث الاجتماعية فلم يشترط فيها شيء واذا يسر الله واجتمع المؤتمر فاننا سنحتاج الى تحديد ماهو اجتماعي غير ديني وفي ذلك من العسر مافيه لا سيما في المسائل العائلية والمالية بل أقول ان المسألة الجنسية لها علاقة عند المسلمين بالدين وقد كان السيد جمال والشيخ محمد عبده يقولان ان المسلمين لاجنسية لهم في غير دينهم ولكن كثيراً من الاتراك والمصريين يقولون اليوم بجنسية النسب وجنسية الوطن ولا يعدون هذا مما يتعلق بالدين وهذه المسئلة من اكبر المسائل التي ننتظر من المؤتمر — ان اجتمع — حل عقدتها

ذكر اسماعيل بك غصبرنسكي في احد اعداد جريدته « ترجمان احوال زمان» ان أحد اذكياء الترك يريد ان يلقي في المؤتمر خطابا يبين فيه أن ارتقاء امة الترك يتوقف على انفصالها من العربية لغة وديناوسياسة !!! وربما يسمع المصري وغير المصري ممن لا يعرفون الغاية التي وصلت اليها نابتة الترك من التفرنج هذا القول فيرونه عجيبا غريبا ولكن لا يعجب منه من يعلم ان كبار كتاب الترك قد دارت بينهم منافسات طويلة في هذه المباحث استمرت عدة سنين وكان فيهم من كتب مثل هذا الرأي حتى غلا بعضهم فقال انه يجب تطهير التركية ممافيها من مفردات اللغة العربية

نحن نعد هذا شذوذا وغلوا ويوافقنا على رأينا كثير من فضلاء الترك لاسيما المتدينين منهم . واذا انعقد المؤتمر فان جمهور المسلمين من جميع الشعوب سيسمعون من اخبار امراض المسلمين الاجتماعية والدينية مالا يخطر لهم الآن في بال ، ونسأل الله ان يحسن العاقبة والمآل

الرد على اللورد كرومر

(تتمة الكلام في مسألة المعارف)

ان اللورد يعلم انه استعمل المغالطة فى هـذا الفصل فعمل محمد علي وعباس واسماعيل ليس حجة على ما يجب اتباعه الآن من حصر تعليم الحكومة فى فرنجة عـدد معين للوظائف . والانفاق في وقت كانت الحكومة فيه على شفا الافلاس لا يجعل مقياسا الوقت زيد فيـه دخلها على خرجها زيادة عظيمة . ولو كان عمل محمد علي وعباس واسماعيل مما يصح ان يتبع في هذا العصر لكان الواجب على الناس ان يرجعوا القهقرى دائماً ولما ساغ لانكلترا ان تدعي ان هذه البلاد محتاجة اليها في تقدمها وارتقائها فانها تقدر بنفسها ان تكون على احسن من زمن اسماعيل فما بال اللورد يمثل ظلمات الماضي الحالكة شر تمثيل ثم هو يجعلها أساساً يبني عليه سياسته في التعليم؟

اللورد قد ذم المتفرنجين في كتابه ذما بليغا وبين انهم لا قيمة لهم في نظر الشيخ محمد عبده فكيف لا يعذره اذا طلب لبلاده تعليما أنفع من هذا التعليم الذي لا يقصد منه الا تكوين المتفرنجين ؟

ومن المغالطة في تقرير اللورد قوله ان ابطال التعليم المجاني كان إلغاء لامتياز جائر لان الذين كانوا يعلمون مجاناهم في الغالب اولاد الاغنياء، فإن العدل في ازالة هذا الامتياز عا يوافق المصلحة انما يكون بتحويل الامتياز عن الاغنياء وتخصيصه بالفقراء وما أسهل ذلك على الحكومة لو أراده القابضون على أزمتها

لو كانت الطريقة التي أزيل بها امتياز أولاد الاغنياء على أولاد الفقراء في التعليم المجاني عادلة لكان من العدل ان يمنع الماء عن الاراضي التي كان الاغنياء يميزون فيها على الفقراء في الريّ حتى لا تزرع منها أرض فقير ولا غني فان العلم حياة النفوس كما ان الماء حياة الارض.

لم يكن الشيخ محمد عبده راضيا عن سياسة التعليم بمصر في وقت من الاوقات . ففي زمن توفيق باشا حمل على نظارة المعارف حملة قلمية منكرة في جريدة الحكومة الرسمية ومقالاته في ذلك مثبتة في الجزء الثاني من التاريخ الذي وضعناه له . وقد حمل ذلك الحكومة على الشروع في إصلاح التعليم والتربية ولكن جاءت الثورة العرابية فأوقفت كل عمل وتلاها الاحتلال ونفي الشيخ من البلاد . وبعد عودته رأى سياسة التعليم غير سديدة فقدم لعميد الدولة المحتلة - واياك اعني ايها اللورد - لائحة [1] فيما يجب اتباعه في التربية والتعليم فوضعت في زوايا الاهمال ،

لعل اللورد لم ينس ان الشيخ كتب في هذه اللائحة ما نصه «المدارس الاميرية ليس فيها شيء من المعارف الحقيقية ولا التربية الصحيحة » [2] ثم ذكر غرض محمد علي باشا من انشائه لها وما كان حظها من خلفه الى عهد اسماعيل باشا . ولكن الشيخ ذكر ذلك حجة على فقد التربية والمعارف الحقيقية منها فجاء اللورد يذكره من بعده في تقرير ١٩٠٥ ويجعله حجة على بقاء ما كان على ما كان الا المجانية فانه يري ابطالها بعد انتظام مالية الحكومة وامتلاء خزائنها ! !

مرت الايام على موت هذه اللائحة والشيخ محمد عبده قاض في المحاكم ليس له طريق رسمي الى دعوة الحكومة الى اصلاح التربية والتعليم وقد

«١» ص ٣٦٤ من الجزء الثاني من تاريخ الاستاذ الامام «٢» ص ٣٢٩ منه

جرب طريق النصيحة فلم يجده موصلا الى المطلوب فلما صار مفتيا وعضوا في مجلس الشورى حاول ان يجعل مجلس الشورى وسيلة الى غرضه وبرأيه طلب بعض اعضاء الجمعية العمومية سنة ١٩٠٢ ان تعرض قوانين ولوائح التعليم فى نظارة المعارف (بروجراماتها ومنشوراتها) علي المجلس ولم ينس اللورد تلك المناقشة التي دارت في ذلك بين الشيخ محمد عبده وفخري باشا ناظر المعارف في الجمعية العمومية (وقد بينا ضعف اقوال الناظر يومئذ في المنار ص ١١٠ و ١٤٩ م ٥)

ثم ان الشيخ محمد عبده اقترح باسم المجلس في سنة ١٩٠٤ ان يعلم تاريخ الاسلام باللغة العربية في المدارس التجهيزية . وقد ذكر في آخر تقرير له بشأن امتحان مدرسة دار المعلمين الناصرية (دار العلوم) ضعف تعليم التوحيد والتفسير والحديث فيها فاذا كان تعلم المعلمين للدين ضعيفا فكيف يكون تعليم هؤلاء المعلمين له ؟

نكتفي بهذه المذكرات في بيان غلط اللورد في قوله ان ما كتبه الشيخ محمد عبده لمسيو جرفيل كان يعلم انه لا أصل له فهي تذكره - ان كان ناسيا - ان لها أصلا أصيلا مؤيداً بالبرهان والدليل ، ومن العجائب ان يكابر اللورد في هذا مع ما يعلمه من مؤيداته الرسمية وغير الرسمية: فمن ذا كتب مايعلم انه لا أصل له ؟ ألشيخ ام اللورد؟ اللورد يعرف ذلك اذا لم يكن السخط قد انساه تلك اللائحة التى قدمت اليه وتلك الحجج المدونة في المحاضر والدواوين الرسمية وكلها ناطقة بأن الشيخ محمد عبده لم يكن راضيا من التعليم والتربية في مدارس الحكومة . فهذا ما نقول في السبب الاول لسخط اللورد على الاستاذ الامام وتغيير كلامه فيه

افضاء الاستاذ الامام لمستر بلنت بعيوب الاحتلال

اما السبب الثاني لسخط اللورد على الشيخ وهو ما ظهر له من انه هو الذي لقن مستر بلنت جل ما في كتابه (التاريخ السري للاحتلال) من عيوب ادارة المحتلين بمصر [1] فهو مما يعذر فيه فان هذا مما يغيظ السياسي والحاكم المطلق حقيقة. واي شيء يؤلم الانسان اكثر من بيان عيوبه واظهار سيئاته؟ ولكن يجب على المؤرخ ان يعذر حافظي الوقائع التاريخية ورواتها ومدونيها. واللورد في كتابه «مصر الحديثة» مؤرخ لا حاكم فكان يجب ان يتذكر ذلك . ثم إذا كان هو في تدوينه لتاريخ مصر لم يتحام القدح في امرائها وعلمائها وعمالها وجميع أهلها بنـاء على انه مؤرخ يجب عليه إظهار الحقائق - اذا فرضنا ان كل ما كتبه حقائق - فكيف يسخط على من سلك طريقته ومن أعانه على ذلك؟ اليس من العدل العام ، أن يدين المرء كما يدان؟

هذا ما يقال من الجهة العامة . ويقال من الجهة الخاصه ان مستر بلنت كان صديقا للشيخ محمـد عبـده وكان كل منهما يثق بأمانة الآخر وإخلاصه فبأي حق يحجر اللورد على صديقين متجاورين ان يفضي كل منهما الى الآخر بما في نفسه من المسائل العامة او الخاصة ويكاشفه بشعوره لا سيما اذا كان مؤلما له والشاعر الحكيم يقول

ولا بد من شكوى الى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

ألا إن منتهى الاستبداد ، واحتقار حرية الافراد، أن يؤاخذ الناس بما يتناجون به في زوايا بيوتهم ، وما يسرونه لاصدقائهم ومحبيهم ،

ثم ان اللورد يعلم كما يعلم كل عاقل انه لايخطر في بال الانسان عند

---

(١) راجع ص ٩٥ من الجزء الماضي

مايحدث صديقه ان كل ما يقوله سيحفظ ويدوّن وينشر بين الناس ولذلك ينتقد بعض أهل الرأي على مستر بلنت ذ كر مسائل وخواطر حدثه بها الشيخ محمد عبده فنشرها وهي مما لا ينبغي نشره كتمني جمال الدين لو يقتل اسماعيل باشا واستحسان محمد عبده لرأيه ٠ على ان هذه المسألة اصغر من القالب الذي وضعها لورد كرومر فيه كما سنبينه

بقي علينا وقد بينا اختلاف قولي اللورد في الاستاذ الامام وسبب هـذا الاختلاف ان نبين الحق فيما لمزه به فنقول انه ينحصر بحسب ما اطلعنا عليه من ترجمة الجرائد في ثلاث مسائل

الاولى وصفه أنه خيالي

قول اللورد في الشيخ انه كان مفطورا على الخيال [1] لا يتفق مع قوله فيه من الجهة العملية في الحكومة وغيرها انه كان مصلحا ـ ومن الجهة السياسية والاجتماعية انه أنشأ في مصر مدرسة فكرية وان اتباعه اذا نجحوا وسوعدوا على ما اختطه لهم من المبادىء المعتدلة فيهم تصل البلاد الى الاستقلال وانهم كالجيرونديين في أحزاب الثورة الفرنسية أي في الاعتدال والعقل ، كما لا يتفق مع قول المستشار القضائي الذي وافقه هو عليه ـ ومن الجهة العلمية والشرعية انه كان متضلعا من علوم الشرع مع مابه من سعة العقل واستنارة الذهن

ماهي الآراء الخيالية التي كان يبديها للورد فيتعذر عليها تنفيذها له لانها خيالية لا عملية ؟ لعله يعني بها تلك اللائحة [2] التي اقترح بها عليه جعل التربية الدينية أساس التعليم في المدارس والكتاتيب وبين له فيها انه لا يصلح حال

(١) راجع ص ٩٤ من الجزء الماضي (٢) تقدمت الاشارة الي هذه اللائحة

البلاد المصرية وتكون بمأمن حتى من التعصب وفتنه الا بالتربية الدينية الصحيحة لان الدين الاسلامي رائد الالفة ورسول المحبة . ان كان يعني اللورد باتباع الاستاذ الامام للخيال هذا الرأي الذي أوضحه أتم الايضاح في تلك اللائحة وكان يظهر على لسانه شيء منه في كل فرصة (كاقتراحه في مجلس شورى القوانين تعليم تاريخ الاسلام في المدارس التجهيزية) فلماذا يسيء الظن بدينه وهل تكون هذه الغيرة على الدين لضعاف الايمان أو للاأدريين؟

للورد ان يعد طلب التربية الدينية والتعليم الاسلامي امرا خياليا لان سياسته في ذلك مناقضة لاعتقاد الاستاذ الامام فان أحدهما يرى ان الاسلام الحقيقي هو منتهى الكمال البشري كما عرف ذلك عنه القريب والبعيد وصرحت به المجلة الفرنسية[1] ، والآخر يمثل الاسلام بأنه آفة المدنية ومقيد البشر بالقيود التي لا يرتقون مالم يتركوها ويتركوه معها، ويمكن ان يقال ان تقديمه تلك اللائحة لعميد انكلترا وأمله بأن يقنعه بما فيها هو الامر الخيالي فانه قد بالغ في تحسين الظن بهذا العميد وبدولته حتى أراد ان يستعين بهم على اصلاح شأن الاسلام ، وتخيل انه ربما يصل الى ذلك بالبرهان ، على اننا نحن نعرف السبب في محاولته ذلك وهو انه لما كان منتهى غرضه من حياته الاصلاح الديني بالتربية والتعليم كان يتوسل الى ذلك بكل ما يخطر في البال انه ممكن قائلا « اذا لم ينفع لا يضر »

اذا كانت تلك اللائحة هي دليل اللورد على ان الرجل كان خياليا فلا يبعد ان يكون تقريره في اصلاح المحاكم الشرعية خياليا أيضاً في نظر اللورد

«١» جاء ذلك في بعض اعداد سنة ١٩٠٥ منها – راجع ص ٢٢٨ من مجلد المنار العاشر

فان لم يكن التقرير نفسه خياليا فإلحاح كاتبه على اللورد بالسماح بالمال من خزينة الحكومة لتنفيذه هو الخيالي فانه انما سكت عن هذه المطالبة حين قال له اللورد « لنني لا أعطي قرشا واحداً للمحاكم الآن » كما اخبرني بذلك الاستاذ الامام في وقته وقال « انه هكذا قال لا أعطي بضمير المتكلم وهكذا يقول » فليقل لنا اللورد أي شيء في ذلك التقرير يعد من الخياليات أو من الاماني والاحلام التي هي غير ممكنة في ذاتها ؟ ولكن يمكن لمن أساء الظن باللورد وحكومته ان يقول انهم لا ينفذون تقريراً فيه اصلاح لمحاكم شرعية وراء اصلاحها اصلاح كبير للبيوت الاسلامية لان من سياسة انكلترا موت الشرع في مصر وإبطال ثقة المسلمين به حتى ان لورد كرومر الذي يعد من خيارهم يرى مطالبته باصلاح المحاكم الشرعية من الخيالات والاوهام ، أو من الاماني والاحلام ، ؟ اذا قال من يسيؤن الظن باللورد وحكومته مثل هذا القول أفلا يكون رمي الشيخ محمد عبده بأنه خيالي رميا للورد وحكومته بما هو شر من ذلك ؟

نعم انه كان للاستاذ الامام ، آمال في حسن مستقبل الاسلام ، قد قد يعدها حتى بعض المسلمين من الاماني والاحلام ، فان منها أنه سينتشر في اوروبا نفسها في يوم من الايام ، ولكن هذه الآمال مما لا أظن ان لورد كرومر قد علم بها اذ لو علم بها لما ظن او خشي ان يكون الشيخ « لا أدريا » فانها آمال مبنية على الايمان بصدق وعود القرآن اولا ، وعلى فلسفة دقيقة في طبيعة الاديان وطبائع البشر ثانيا ، فهو قد كان يقول على رءوس الاشهاد فى قوله تعالى « ٢٤ : ٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى

لهم » الآية « ان هذه الآية لم يأت تأويلها بعد ولا بد ان يأتي ولو بعد حين وان كان بعيدا » فهل تكون هذه الثقة بوعد في القرآن كهذا (قيل انه قد حصل) من رجل لا أدري ؟؟

نحن اعرف بالاستاذ الامام من لورد كرومر فاننا نعرف منه كل شيء واللورد لا يعرف منه الا اشياء محدودة منها بعض الآراء في مصلحة مصر وكان صاحب هذه المجلة من بطانته ومواضع سره ولا أعرف عنه شيئا يمكن اللورد ان يستدل به على كونه كان مفطورا على الخيال غير ماذكرت من مطالبة اللورد بالمساعدة على التربية الاسلامية وإصلاح المحاكم الشرعية الا ان يكون ذلك توجه همته الى اصلاح الازهر ولكن كل ماتشبث به من الاصلاح كان عمليا وقد نفذ شيء كثير منه كما هو مدوّن بالتفصيل في كتاب (أعمال مجلس ادارة الازهر في عشر سنين) ومالم يتم منه لم يكن المانع من تمامه كونه خياليا وانما كان له مانع آخر يعرفه اللورد وكثير من الناس وليس هذا المقام بمحل لذكره

نعم انه كان للاستاذ الامام آمال في الازهر هي أعلى وأسمى مما تشبث به من مبادئ الاصلاح التدريجية ـ آمال لها ارتباط قوي بآماله في الاسلام وهي تربية رجال يعرفون حقيقة الاسلام ويقدرون على بيانها والدفاع عنها بالكتابة والخطابة ليكون منهم دعاة يدعون جميع الامم اليه ، وهداة يهدون جميع طبقات أهله الى ما جهلوا منه، ولكن العوائق التي اعترضته في طريق الاصلاح حالت دون الدعوة الى هذا المقصد أو الى مقدماته الاولية ، وما أظن ان اللورد كان مطلعا على هذا وإلا لما خطر في باله ان يكون الرجل « لا أدريا»

أما المسائل المتعلقة بالقضاء أو الادارة فعهدي ان آراء الاستاذ الامام فيها كانت تعجب اللورد سواء عمل بها كعدوله عن إلغاء النيابة العمومية عملا برأيه أو لم يعمل بها كمشروع الجنايات الاخير الذي طالت فيه المناقشة بينهما ولكن بعد ان كان اللورد قد أشرب المشروع في قلبه وان أكثر النابغين من رجال القضاء كانوا على رأي الاستاذ الامام في معارضة المشروع

وما ذهب اليه المؤيد في تأويل كلمة اللورد من أن الشيخ كان يحاول القبض علي السلطتين فيجعل الامير وعميد الاحتلال معاً في يديه فهذا من آراء صاحب المؤيد التى لم تخطر للورد على بال فيما يغلب على ظني

الثانية ظن اللورد انه لاادري

نبز اللورد الاستاذ الامام بلقب « اللاأدري » (*) وهو قد أخذه من ستانلي على أنه لم يجزم به فقد ترجم المؤيد عبارته فيه بكلمة « واخشى » ان يكون كذا وترجمها بعض الجرائد « وأظن » ان يكون كذا . وهذا من الظن الذى قال الله فيه « إن بعض الظن إثم » وقد قال بعض العلماء النابغين من مريدي الاستاذ الامام ان اللورد قال هذه الكلمة لينفرنا من طريقة المرحوم الدينية ولكننا لا نترك ما عندنا من اليقين فيه لاجل ظن لورد كرومر

اما أنا فأقول ان قاعدة ستانلي التى استنبط منها اللورد كلمته هي من المسلمات عندهم فينا وهي « ان المسلم من الطبقة العليا لا بد ان يكون احد

*) راجع صفحة ٩٤ من الجزء الماضي

اثنين متعصبا او ملحدا في سره » وعندنا قاعدة مثلها كنت اسمعها وانا تلميذ مبتدىء وهي « ان النصراني المتعلم ملحد لا دين له فان تعصب لقومه وأهل دينه فانما يتعصب لهم تعصبا جنسيا » ومما كنا نسمعه من آبائنا وبعض مشايخنا : « ان مما يمتاز به الاسلام على النصرانية المعروفة ان المسلم يزداد قوة في الاسلام كلما ازداد سعة في العلم وان النصراني اذا تعلم العلوم مرق من الدين ولذلك كانت مدنية المسلمين وعلومهم في حياة ونمو أيام كان الاسلام حيا في نفوسهم في أول نشأتهم ولم يصر للنصارى علم ولا مدنية الا بعد ضعف الدين وزعزعته عندهم » فالامم والملل تتشابه في حكم بعضها على بعض

قد ذكرنا دليل المسلمين على قاعدتهم من الجهة النظرية ويؤيدونه من الجهة الحسية بحال من يعرفون من النصارى المجاهرين بالالحاد وكثير ما هم . ولما كان النصراني يعتقد بطلان الاسلام اعتقادا تقليديا ان كان متدينا واعتقادا نظريا ان كان ملحدا كان للملحد منهم ان يظن بهذا الدليل النظري ان المسلم العاقل المطلع على العلوم والفلسفة لا بد ان يكون ملحدا ولا يعدمون من المسلمين المتفرنجين من يجاهرون امامهم بالكفر ويسكرون معهم في نهار رمضان فيؤيدون دليلهم بالحس ولا يعلمون ان هؤلاء الذين يظنون انهم قد ألحدوا بعد اسلام لم يعرفوا يوما ما من الاسلام شيئاً

قد عرفت رجلا من فضلاء الانكليز ذوي التربية العالية فيهم وجرى بيني وبينه مناظرات كثيرة في المسائل الدينية فكان كلما سمع مني جوابا عن شبهة من الشبه التي يوردها على الدين مطلقا أو على الاسلام خاصة يقول « ان ما تقوله معقول ولكنه فلسفة لا دين وما أظن ان علماء الازهر

يقولون به لو سئلوا هذا السؤال » . وقال لي مرة « ان كان الاسلام ما تقرره فانا مسلم » . وقال لي مرة بعد كلام قلته في الاسلام « انني أنا اعتقد هذا فاما ان اكون مسلما واما ان تكون كافرا » وقال لي مرة «ما اظن ان احداً يوافقك على هذا الاعتقاد في الدين الا الشيخ محمد عبده» ولا يبعد ان يكون ظنه فينا كظن اللورد في الاستاذ الامام . وقد ذكرت في المنار سؤاله اياي في رمضان : هل تصوم ؟ وعن جوابي له وماذكرته له من حكمة الصيام واعجابه به

وقد دعاني غير واحد من فضلاء النصارى للغداء فى رمضان وعرضوا عليّ القهوة مرارا كثيرة فكنت أقول متعجبا أو نسيتم اننا في رمضان؟ فيقولون او أنت تصوم أيضا ؟ فاقول :أي شيء يبيح لي الفطر ولست مريضا ولا على سفر ؟

ولكن اذا كان الملحد من النصارى هو الذي يظن ان المسلم العاقل لا بد ان يكون اسلامه ظاهريا وهو يسرّ الإلحاد فى قلبه فهل اللورد ملحد ام هو مقلد لستانلي في قاعدته من غير دليل ولا فكر ؟ وكيف يتفق هذا مع شهادته للشيخ محمد بيرم بالايمان والعقل جميعا ؟

قال اللورد بعدماذكر أنه يخشى ان يكون الشيخ محمدعبده لاأدريا«وان كان يستاء من هذه النسبة» فقوله هذا يشعر بأنه ذكر أمامه ما يدل على انه يظن فيه هذا الظن تصريحا او تلويحا فاستاء وامتعض وتبرأ من ذلك وأنكره وكيف لا ينكره على اللورد مستاء وقد كان دينه اعز شيء عليه وهو الذي جعله لا يخاف في الحق لومة لائم وهو الذي جعل السياسة مأيوسا منها عنده فكان جل قصده من معرفة رجالها ومداراتهم الاستعانة بهم على خدمة العلم والدين

من جهة وخدمة مصر من جهة أخرى فكان يتردد على الامير ليستعين به على اصلاح الازهر ويختلف الى اللورد ليستعين به على اصلاح المحاكم والمعارف وغير ذلك من المصالح التى شهد له اللورد بالوطنية الصادقة لسعيه لديه فيها، كان يستجديهما معا لمصر وللاسلام وقد اعطى كل منهما قليلا وأكدى . فلا عجب اذا جاءت كلمة اللورد في دين الاستاذ الامام غثة باردة تتضاءل في طمر بال فانها عبارة عن ظن لم يستيقنه ، فى موضوع لم يعرفه ،

الثالثة استحسان قتل اسماعيل باشا

نقل اللورد عن كتاب التاريخ السري للاحتلال ان السيد جمال الدين كاشف الشيخ محمد عبده بفكرة خطرت له وهي قتل اسماعيل باشا عند مروره على « الكبري » اذا كان يمر كل يوم عليه وان الشيخ محمدا استحسن ذلك ولكن الامر لم يتجاوز الكلام بينهما [1] اي لم يكاشفا به أحدا لاعتقادهما انهما لا يجدان من يتجرأ على ذلك

كبر اللورد هذه المسألة وعظمها ووجه قوة عقله المنطقي الاوربي الانكليزي للاستنتاج منها فكانت نتيجته « ان العالم المتمدن كله ينظر بعد هذا الى الوطنيين شزرا ! ! ويحتقر بالاكثر أولئك الفلاسفة الذين لا يتأخرون عن تعزيز مقاصدهم السياسية بمثل ارتكاب القتل »

ربما يسهل على اضعف الشرقيين الذين يقول اللورد عنهم ان عقولهم غير منطقية فهي ضعيفة الاستنتاج والاستنباط بل على أضعف المصريين الذين يعدهم من اضعف الشرقيين عقولا واستنتاجا ان يفندوا أمثال هذه النتائج التي استخرجها ذلك العقل الغربي المنطقي الكبير . فلو سألنا أحد

« ١ » راجع ٩٦ من الجزء الماضي

لابسي الجلابيب الزرقاء من فلاحي مصر والفيلسوف سبنسر والفيلسوف أرسطو: هل تقولون ان تفكر رجل غريب كالسيد جمال الدين الافغاني في قتل أمير ظالم كاسماعيل باشا واستحسان تلميذله كمحمد عبده المصري لفكرته وهو شاب في سن الطلب والتحصيل ينتج وجوب احتقار العالم المتمدن لهما وللوطنيين المصريين دائما لان تلميذا منهم استحسن من زهاء ثلاثين سنة قتل أمير خرب بلاده ومهد للاجانب احتلالها ؟ ؟ - لو سئل الثلاثة هذا السؤال لاجاب الفلاح المصري واشهر الفلاسفة المتقدمين وهو أرسطو مؤسس علم المنطق واشهر الفلاسفة المتاخرين وهو سبنسر بجواب واحد وهو ان الوطنيين لا يلحقهم ذنب ولالوم من تلك الفكرة ان فرضنا انها فكرة تنافي المدنية ، وان المنطق يتبرأ ممن يقول بمثل هذه النتيجة

وفد السيد جمال الدين على مصر في سنة ١٢٨٦ وكان الشيخ محمد عبده في سن العشرين (لانه ولد سنة ١٢٦٦) وكان همه من حياته ايجاد حكومة اسلامية عزيزة قوية فاستمال الناس اليه بالعلم والفلسفة حتى اذا ما اجتمعوا حوله بث فيهم افكاره السياسية بطريق تعليم الكتابة والخطابة حتى كون لنفسه حزبا له ارتباط بولي عهد الخديوية (توفيق باشا) وكان اسماعيل باشا هو العقبة الكؤد في طريق الاصلاح المطلوب له فهل يعد من الغريب عند الامم المدنة ان يتمنى ازالتها اويفكر فيها فينظر العالم المدن الى جميع الوطنيين المصريين الآن النظر الشزر لان من علمهم السياسة وطلب الاصلاح فكر في ذلك منذ ثلاثين سنة ؟ ؟

يالله من هذا العالم المدني الذى لم يفكر في مثل هذا قط ؟ ما هو واين هو ؟ أليس هو العالم الاوربي الذي قتل من الملوك والرؤساء في بلاده

واحدا وعشرين ملكا ورئيسا في مدة لا تتجاوز قرنا من الزمان (*
ونعني بالرؤساء رؤساء الجمهوريات الذين تبعتهم اقل من تبعة الملوك

ان خطور الذنب بالبال ومكاشفة بعض البطانة به قد يكون تمنيا لا يصل الى درجة العزم، وقد يعزم الانسان على الشيء حتى اذا ام بمباشرته راجع نفسه وثنى عزمه فرجع عنه نادما، فليت شعري ماذا كان يكون حكم لورد كرومر على جمال الدين ومحمد عبده وجميع الوطنيين المصريين الذين يودون استقلال بلادهم لو وفق السيد جمال الدين يومئذ الى تنفيذ ذلك الخاطر؟؟

اما كون السيد جمال الدين كان يعمل في مصر عملا سياسيا فهذا مما لا يجهله لورد كرومر ولا أحد من ساسة انكلترا وفرنسا الواقفين على احوال مصر الاخيرة، وهم يعلمون انه اذا ترك السعي لقتل اسماعيل باشا فانه قد سعى لعزله

قال الاستاذ الامام في كتاب تاريخ الثورة العرابية الذي عهد اليه بتأليفه الامير عباس حلمي الثاني في سياق الكلام على السعي في عزل اسماعيل باشا وذكر إرسال فرنسا موسيو تريكو مأموراً فوق العادة ليتحد مع وكيل انكلترا بمصر على ذلك ما نصه

« ولكن كان الناس كافة في شوق الى رؤيته (اي اسماعيل) بعيداً عن كرسي الخديوية، وطلاب الحرية من الاهالي كانوا يترددون على رئيس الوزارة المصرية يظهرون له الميل الى جناب الخديو السابق توفيق باشا رحمه الله وكانت بينه وبين السيد جمال الدين مكالمات ومخابرات فى هذا الامر فسعى هو والكثير من الاعيان عند شريف باشا حتى يقنع الخديو

---

*) ذكر ذلك في ص ٣٥٥ من جزء المقتطف الرابع الصادر في ابريل الماضي

الاسبق بوجوب التنازل (عن الخديوية) وقد فعل فأشار عليه بأن رفض الطلب لا يفيد وان الدولتين لا بد ان تنالا ما تطلبان عاجلا او آجلا والفكر فى الحرب رأي طائش فان الناس عموما فى انحراف عنه فاذا حصل حرب خذله الجيش فى أول واقعة وكانت عاقبة ذلك أشنع، وان أمس شيء بالصواب أن يحوّل الامر على السلطان

« ثم ذهب وفد من المصريين ومعهم السيد جمال الدين الى وكيل دولة فرنسا وأبانوا له أن في مصر حزبا وطنيا يطلب الاصلاح ويسعى اليه وأن الاصلاح المطلوب لمصر لا يتم الا على يد وليّ العهد توفيق باشا وانتشر ذلك فى القاهرة وغيرها وتناقلته الجرائد وهي أول مرة عرف فيها اسم « الحزب الوطني الحر » اه المراد منه

ان لورد كرومر يعلم هذا ويعلم ان اسماعيل باشا لم يكن امثل من اولئك الملوك الذين قتلهم العالم المتمدن وآخرهم ملك البرتغال بل ولا من اولئك الذين ثاروا عليهم وقتلوهم بمحاكمة او بغير محاكمة ومنهم شارل الاول ملك الانكليز الذي قامت في وجهه الثورة الاهلية المشهورة وانتهت بقتله . وان اغتيال ملك او أمير مخرب للبلاد ، ظالم للعباد ، مضيع للملك ، مهلك للحرث والنسل، أهون في نظر الفيلسوف من القيام بثورة عليه تسفك فيها دماء الالوف الكثيرة من الشعب ، ثم يقتل الملك بعد ذلك بمحاكمة صورية او حقيقية ان لم يقتل اغتيالا

ان ما شرحه لورد كرمر في تاريخ «مصر الحديثة» من فظائع اسماعيل باشا كاف في بيان كونه أسوأ حالا من الملوك الاوربيين الذين ثارت عليهم رعيتهم بتدبير فلاسفتهم وعقلائهم فأين من اسماعيل باشا لويس السادس عشر وشارل الاول

قد مثل الاستاذ الامام في تاريخ الثورة العرابية حالة مصر التي تركها عليها اسماعيل باشا تمثيلا تلطف فيه واستعمل الرأفة التامة في الحكم لانه كتب ذلك لحفيده الامير الحالّ كتابة حاول فيها الاعلام مع توقي الإيلام فقال:

﴿ شؤون البلاد المصرية في شهر رجب سنة ١٢٩٦ ﴾

« تولى الجناب الخديو السابق توفيق باشا بعد ان تداخل دولتا فرنسا وانكلترا في شؤون البلاد المالية وارتبطت الحكومة معهما بعقود ووعود عدت قوانين وأصولا يجب احترامها

– وبعد أن كان قد أفضى الامر الى تعيين وزيرين أحدهما انكليزي للمالية والآخر فرنساوي للاشغال العمومية في أواخر عهد اسماعيل باشا

– وبعد ان كادت أحكام المحاكم المختلطة تؤي بتنفيذها الى اشهار افلاس الحكومة ، وأدت بالفعل الى انتزاع املاك كثير من ذوي الثروة من الاهلين

– وبعد أن كان موظفو الحكومة من أية طبقة كانوا في اضطراب من حالتهم المعاشية لتعوّد الحكومة على تأخير دفع المرتبات لاربابها اشهرا

– وبعد ان صار رجال الحكومة في درجة من الغفلة عن مصالح البلاد الى حد انهم كانوا لا يفهمون للوظائف معنى الا انها وسيلة لتحصيل النقود من الاهالي بأية طريقة ليدَسّ منها شيء في جيوب المباشرين للتحصيل ويرسل الباقي الى خزائن الخديو او الى صناديق بعض المحتفين به والمقربين اليه

وبعد ان صات الجندية في البلاد صورة لا يعقد بها دفاع ولا حماية

وإنما يراد بها الظهور بعظمة الملك فلم يكن فيها تربية عسكرية ولا تدريب حربي وكثيرا ما كانت تستعمل في حفر الترع وإقامة الجسور للمنافع العامة او الخاصة وكان المرجع فى بعض الحروب الى ضباط من الاجانب كانوا أركان حربها ، وعليهم المعوّل في أغلب شؤونها

ـ وبعد ان فتح على الاهالي أنفسهم باب الاسراف والرفه في المعيشة تقليداً للمقربين من مسند الخديوية ومن يليهم وذلك قبل ان يعرفوا لنفقاتهم ميزانا صحيحا يعادلون به بين ما بأيديهم من الاموال وما ينفقون في اللذات

ـ وبعد أن نشأ عن هذا وعن شره الحكام فى التحصيل وعدم رعايتهم لما عليه الاهالي من غنى وفقر واستعمالهم اشد العقوبات فى سلب ما بأيديهم أن اضطر الاهالي الى التداين بالربا الفاحش حتى كان صاحب الارض يأخذ من المرابي المئة بمئة فى ثلاثة أشهر ولم يكن يرى فى ذلك عيبا ولا يخشى عاقبة فان أمامه القدوة العظمى وهى الحكومة تستلف النقود بمبالغ من الفائدة لا يمكن لعقل عاقل تصديقها لو نسبت الى حكومة ما لو لم يرها بعينه

ـ وبعد ان صار للربويين بذلك سلطة على الاهلين وطمع فى اموالهم يفوقان سلطة الحكام وطمعهم

وبعد ان تعود كثير من الذين يسمونهم اكابر البلاد وأعيانها ، أو ذوات الحكومة وأمراءها ، على أن ينالوا من الحكومة ما يشتهون فى الوقت الذي يريدون متي صادفوا مكانا من رضى الخديو او بعض

المقربين اليه فكانوا يسخرون الاهالي في أعمالهم الخاصة ويتصرفون فيهم كما يتصرف الراعي في ما شيته بدون ان يراعي أحد منهم في ذلك نظاما ولا عدلا ولا استبقاء منفعة من يوم الى آخر وتعود الاهالي على الشكوى الى الله وحده من ضيق الحال وخمود العزائم وانطفاء مصابيح الرشد في جميع الطبقات

- وبعد ان صار كل واحد من الناس في خوف دائم واضطراب لا يهدأ على نفسه وما بيده ، اذا تكلم تمتم في كلامه ، واذا قصد امرآ خطا اليه على غير هدى ، يتلفت وراءه خوف مفاجأته بما يكره

- وبعد ان كانت الفاقة قد شملت جميع الطبقات الدنيا والوسطى حتى خيف القحط العام لو استمرت الحكومة على سيرها الماضي سنة أخرى من الزمان

- وبعد أن صارت عيون الناس بأسرهم شاخصة الى ما عساه ينزل من السماء ليمدهم بالمعونة على الخروج مما هم فيه

- هذه كانت حالة البلاد عند ما تولى المرحوم توفيق باشا مسند الخديوية فيها . هذه كانت شدائد مهلكة ، وظلمات حالكة ، يضل فيها الرشيد ، ويتعثر فيها العزم الشديد ،» اه المراد مما كتبه هناك

وقد استطرد منه الى بيان اعتقاد أهل مصر في حكامهم الى ذلك العهد ثم الى بيان ما أحدثه السيد جمال الدين من الانقلاب في الافكار وقد سبقت الاشارة اليه - وكان كل ذلك من مبادي الحوادث العرابية ومقدماتها ، وان شئت قلت من عللها وأسبابها ، فكل ما كتبه عن سوء حال البلاد في حكم اسماعيل لم يكتب على سبيل القصد ولم يرد منه الاستقصاء في بيان الحال، فضلا

عن المبالغة في التقبيح والتنفير، فهل يلام من له عقل يفكر ، وقلب يشعر، اذا مقت ذلك الامير ، وتمنى لو يغتا له احد من اولئك المظلومين المقهورين او استحسن تمني من تمنى ذلك ؟؟

الشيخ محمد عبده وموقف حزبه بمصر

وهناك مسألة أخرى عدها بعض الناس قدحا من اللورد في الشيخ محمد عبده وحزبه وهي قوله فيهم انهم «أدنى من المسلم المحافظ في اسلامهم وأدنى من المصري المغالي في تفرنجه » (١) والحق ان هذه العبارة لا ينتقد منها الا لفظها فهي مدح كتب في حال استياء وامتعاض فجاء شبيها بالذم اذ توهم انهم دون الفريقين في علم او فضل ومعناها الحقيقي ان هؤلاء القوم وسط بين طرفين مذمومين طرف المتشددين في المحافظة على الرسوم والتقاليد القديمة باسم الدين وطرف المتغالين في تقليد الافرنج الذين اضاعوا دينهم وثروتهم في ذلك وقد بالغ اللورد في ذمهم ٠ ولم يرد اللورد بهذه العبارة الا ما اوضحه في تقرير سنة ١٩٠٥ من ان حزب الشيخ محمد عبده هو الحزب المعتدل في مصر الذي يناط بنجاحه استقلال هذه البلاد الاستقلال الحقيقي فلا فرق بين عبارته في التقرير وعبارته في التاريخ في بيان المراد الا ان احداهما كتبت في حال رضى فمثلت المعنى مضيئا واضحا والثانية كتبت في حال السخط فغشي المعنى فيها غاشية من ظلمة الايهام

وقد زل قلم اللورد بسوء تأثير وجدان السخط زلة اشنع من هذه لعله اذا ذكرها يعرق من الخجل وهي انه ذكر في التقرير ان توفيق باشا صفح

(١) راجع ص ٩٥ من الجزء الماضي

عن الشيخ محمد عبده « طبقا لما اتصف به من الحلم وكرم الخلق »[١] وقال في كتاب مصر الحديثة انه عفا عنه « بما فطر عليه من مكارم الاخلاق وانقياداً لتشديد الانكليز عليه في ذلك »[٢] فزيادة انقياده لتشديد الانكليز نقضت ما قبلها الموافق لما ذكر في التقرير فان العفو اذا كان عن انقياد لتشديد الانكليز لا يكون عن حلم وكرم خلق والا فلا أثر لتشديد الانكليز بل لم يكن هناك حاجة اليه

فاللورد جدير بأن يخجل من هذه العبارة اذا قابلها بعبارة تقريره في المسألة لانها جعلت كلامه متناقضا او متعارضا وأبانت انه يحابي في المدح عند الرضى فانه جعل عفو توفيق باشا عن الشيخ محمد عبده عند رضاه عنهما معا كرما وحلما وكرم خلق فلما سخط من الثاني جعل ذلك العفو ناشئا عن تشديد من الانكليز في طلبه لا عن مجرد الطلب فيقال إنه طلب وافق حلم توفيق وكرم خلقه وانما أراد اللورد بذلك أن يظهر فضله عليه ، ليثبت أنه أساء الى من أحسن اليه ، بما أظهر عن عيوب سياسة الاحتلال وادارته لمستر بلنت . والمؤرخ المحابي متهم لا يوثق بمدحه لمن يرضى عنه ، ولا بذمه لمن يسخط عليه ، وبناء على هذه القاعدة نقول ان ثناء اللورد على الشيخ محمد عبده في كتاب مصر الحديثة يعد بما فيه من الشوائب منتهى الفضل وشهادة اللورد به شهادة جديرة بالاعتبار والايثار وهو يلخص فى هذه الكلمات

(١) انه احسن العمل فى القضاء وأدى الامانة حقها

(٢) كان واسع الرأي

«١» راجع ص ٩٠ من الجزء الماضي «٢» ص ٩٥

(٣) كان على علم ونباهة
(٤) كان عدوا للخدويين والباشوات غير الصالحين
(٥) كان وطنيا حقيقيا ومن مصلحة الوطنية المصرية ان يكثر امثاله
(٦) انه أسس فى مصر مدرسة فكرية
(٧) ان له في مصر حزبا معتدلا يجمع بين أصول الاسلام والمدنية
(٨) ان أتباعه هم حلفاء المصلح الاوربي الطبيعيون الجديرون بمساعدته
(٩) إن له برجراما لجعل مصر مستقلة استقلالا ذاتيا حقيقيا
(١٠) ان تقدم اتباعه خير رجاء له في تنفيذ برجرامه هذا

فحسبنا من اللورد الشهادة بهذه العشر ولا يضرنا معها ظنه انه كان لا أدريا ، ولا جزمه بأنه كان خياليا ،ولا إيهام عبارته أن حزبه الوسط دون كل من الطرفين الذي هو وسط بينهما

نعم كان حزب الشيخ محمد عبده معه ولا يزال من بعده وسطا بين المحافظين الجامدين ، والمتفرنجين المقلدين، ومنهم من هو أقرب الى هؤلاء ومن هو اقرب الى أولئك، اما الشيخ نفسه فقد كان من آياته أن أذكياء كل فريق من المتفرنجين والجامدين يجلونه مع احتقار كل منهما للآخر. وقد عرف أصحاب المقطم والمقتطف من كنه هذه المزية ما لم يعرفه اللورد او صرحوا بما لم يصرح هو به اذ قالوا في تأبينه بالمقطم (ع ٤٩٥٢) ما نصه[1] :

« فأول مزية امتاز بها الفقيد انه كان في مقدمة كل فريق من الفريقين اللذين انقسم اليهما المصريون في هذا العصر : فقد كان علما يهتدي بنور علمه فريق المحافظين الذين لا يروقهم غير ما جرى عليه

«١» ص ٤٥ من الجزء الثالث من تاريخ الاستاذ الامام .

المتقدمون كالعلماء والائمة وطلبة العلوم الدينية واللغوية ومن جرى مجراهم . وكان قائدا للآراء ومديراً للافكار عند الفريق الذي جعل شعاره التقدم والارتقاء من أبناء هذا العصر الذين يرون ان القديم لا يغني عن الحديث وان من لا يتقدم يتأخر والسكون المطلق محال . ونقول ولا نخشى في الحق لومة لائم ان الفقيد فاق الاقران كلهم في هذه المزية حتى انفرد فيها او كاد » الخ

وكتبوا في الجزء الثامن من المجلد الثلاثين لمجلة المقتطف ما نصه[1]:

« وكان ذكي الفؤاد بالطبع قوي الحجة حسن المحاضرة لا يخاف في الحق لومة لائم ولا يتهيب الكبراء والعظماء لمجرد ماهم فيه او ما أدركوه من رفعة المقام فاستطاع ان يكون علماً يهتدي بنور علمه المحافظون الذين لا يروقهم الا ما جرى عليه المتقدمون كاكثر العلماء وطلبة العلوم الدينية واللغوية ومن جرى مجراهم لانه كان ثقة فيهم - وعضدا قويا لابناء هذا العصر الذين استناروا بالعلوم الحديثة والآراء الجديدة ، ومرشداً صادقاً للذين يطلبون الاستنارة بها والسير في سبيلها ، » الخ

هذا رأي أصحاب المقطم والمقتطف سقناه الى اللورد لان مثبتيه غير متهمين عند اللورد بقلة المعرفة ولا بالتشيع للشيخ محمد عبده

واذا أراد اللورد ان يعرف مكان الاستاذ الامام من نفوس أرقى الطائفتين (المحافظين والمتفرنجين) فليقرأ ما أبنه به الشيخ احمد ابو خطوة أرقى الازهريين علما وفهما وقاسم بك أمين أرقى المتعلمين في أوربا واللورد يشهد بنبوغه وقد اثنى عليه في خطبته التي ودع بها مصر ذلك الوداع المشهور

(١) ص ٧٠٣ من ج ٣ من التاريخ المذكور

قال القاضي الشرعي الشيخ أبو خطوة في ابتداء كلامه «اجتمعنا اليوم هنا حوالي هذا القبر الجليل الموقر الذي انتهى اليه أمر الامام الكبير الاستاذ الشيخ محمد عبده » الخ ثم فصل اصلاحه للازهر وللمحاكم الشرعية تفصيلا

وقال القاضي الاهلي قاسم بك في ابتداء كلامه «مهما قلبنا النظر ودققنا في البحث والتفتيش فلا نجد في امتنا من يعوض علينا ماخسرناه بفقد استاذنا الشيخ محمد عبده » وقال انه « وصل الى أسمى مقام يمكن ان يناله انسان في هذه الحياة .... مقام الامامة بأوسع معناها تركه الشيخ محمد عبده ولا يوجد في مصر واحد يجرأ على ان يدعي فيه استحقاقا بعده » ثم قال:

« سادتي : ان كل نفس بشرية لها نصيب من الجمال والقبح، والجمال المطلق لا يوجد في هذا العالم ولكن بعض النفوس الممتازة تقرب من الكمال أكثر من غيرها فتنمو زهرة الجمال فيها نموا عجيبا وتتكاثر فروعها وتمتد طولا وعرضا ولا تترك محلا لسواها فيضعف ويذبل كل نبات خبيث بجانبها .ومن هذا القسم الممتاز كانت نفس امامنا العزيز . نفس خلقت على أحسن شكل ،زينها صاحبها بالفضائل حتي صارت مثالا في الجمال يجب ان نضعه دائما أمامنا لنعلم منه » كذا وكذا وذكر بعض مزايا الامام ثم قال « ونتعلم منها أيضا مبلغ ارتقاء الخلق في إنسان اجهد نفسه ورباها حتى أرسلها الى اقصى ماتصل اليه نفس بشرية من الجمال والكمال»

وبهذا نكتني في هذه المسألة التي يعرف منها طريق اللورد في الكلام عن رجالنا وننتقل منها الى المقصد الاهم وهو كلامه في الاسلام والمسلمين فنقول

القرآن والعلم

تفسير من اللغة والتاريخ والجغرافيا والطب

في رد الشبهات التي يوردها الافرنج على بعض آيات الكتاب العزيز (١)

اشتبه بعض علماء الافرنج من المستشرقين وغيرهم الباحثين في الإسلام في آيات كثيرة من القرآن الشريف لم يفهموا معناها الصحيح بسبب ما وجدوه في بعض كتبنا من التفاسير السخيفة والآراء السقيمة • وقد اتبعهم في ذلك دعاة المسيحيين متخذين بعض آراء هؤلاء المستشرقين ذريعة للطعن في الكتاب العزيز ناسبين إليه الجهل والخطأ لتشكيك عوام المسلمين في دينهم القويم • وقد سبق لي ان تكلمت على كثير من هذه الشبهات في (مقالات الدين في نظر العقل الصحيح) بما يشفي العلة ، ويروي الغلة ، ولكن فاتني ان استقصيها جميعاً إذ ذاك • فلذا رأيت الآن أن أستدرك ما فاتني خدمة للإسلام وتذكيراً للعلماء كي ينظروا في هذا الدين ويقدروه قدره. فانه ما نظر فيه عالم محقق من اي وجهة كانت الا وجد الحق والصواب عماداً لجميع مبانيه ، والعلم والعقل أساساً لكافة عقائده وأوامره ونواهيه ، وقد رايت أن أذكر الآية أولاً ، ثم أعلق عليها بما يفتح الله به علي حتى يتضح الدليل ، وتستبين السبيل ، فأقول وبالله أستعين:

المسألة الاولى

﴿ الحجر ﴾

قال الله تعالى (١٥ : ٨٠ ولقد كذّب اصحاب الحجر المرسلين ٨١ وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ٨٢ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين) • اعلم

(١) للدكتور محمد توفيق افندي صدقي

انه يوجد بين العقبة والبحر الميت مدينة شهيرة عند السائحين تدعى باللغة اليونانية (بترَا) أي الصخرة وهي المسماة في العهد القديم بمدينة « سالع » كما في سفر الملوك الثاني (٧:١٤) وفي كتاب اشعيا (١٦ : ١) وكلا الاسمين « بترا » و «سالع » بمعنى واحد لكنهما بلغتين مختلفتين . يحيط بهذه المدينة جبال وعرة أعلاها جبل هور المذكور في سفر العدد (٣٣ : ٣٨) ولذلك كان اليهود يسمون اهلها الأولين بالهوريين ومعناه سكان الكهوف لأن بيوتهم منحوتة في الصخور ومنظر هذه المدينة من اعجب المناظر

فلما رأى بعض سياح الافرنج هذه المدينة وسمع ذكر « الحجر » في القرآن الشريف ظن ان هذه الكلمة ترجمة لفظ « بترا » اليوناني لتوهمه انها بفتح الحاء والجيم « الحجَر » وبنى على ذلك ان « الحجر » في القرآن هو « سالع » في العهد القديم . ولما كانت مدينة سالع هذه معروف عنها ماينافي ان اهلها اهلكهم الله بالصيحة ومايدل على انها كانت عامرة بالسكان الى ما بعد الميلاد بقليل اخذوا يطعنون على القرآن الشريف وينسبون اليه الخطأ والجهل بالتاريخ والله يعلم انهم لكاذبون . اذ لولا تسرع هؤلاء الحمقى وجهلهم لعلموا ان الحجر بكسر الحاء وسكون الجيم غير بترا او سالع وان احداهما تبعد عن الاخرى بعدا عظيما فان الحجر قرية صغيرة على خط سكة الحديد الحجازية الآن الى جنوب دومة الجندل وتنزل بها حجاج الشام وتسمى بمدينة صالح وهو النبي الذي ارسله الله الى اهلها « ثمود » ولا تزال الى الآن آثار مساكنهم التي كانوا ينحتونها في جبالها المسماة «أثالب» كما قال في دائرة المعارف العربية ويمكن لكل احد ان يذهب اليها والى سالع ليرى بعيني راسه أنهما مدينتان متباعدتان في موضعين مختلفين وان المسافة بينهما تقارب مابين الاسكندرية والعقبة وان الحجر في الجنوب الشرقي لسالع . ومعنى الحجر المكان الذي حوله حجارة وهو غير معنى « سالع » أي الصخرة . وما يزعمه بعضهم ان جميع مانراه فيها من البيوت كانت قبوراً لامساكن لم يقم دليل على صحته كذلك لا يبعد ان بعضها كان كذلك والقرآن لم يقل ان جميعها كانت مساكن ولا ان جميع مساكنهم كانت منحوتة

في الجبال بل قال ان بعض المساكن كانت تبنى على الارض والبعض الآخر ينحت في الجبل كما في سورة الاعراف (٧ : ٧٤ و بوّأكم في الارض تتخذون من سهولها قصوراوتنحتون الجبال بيوتا — الى قوله — ٧٨ فاخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) فكانت لهم قبورا بعد اهلاكهم وان لم تكن جميعها كذلك في اول أمرهم. ومن ذلك تعلم خطأ ماقاله المستشرق الشهير مرجليوث في كتابه المسمى (محمد) في هذه المسألة

المسألة الثانية

﴿ الإسراء وتاريخ بيت المقدس ﴾

قال الله تعالى (١٧ : ١ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) المسجد الحرام هو الحرم المكي والمسجد الأقصي هو بيت المقدس • وهذا البيت كان خربه تيطس الروماني سنة سبعين للميلاد وأحرقه بالنار فلم يكن له وجود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلا آثاراً وأطلالاً فكيف يقول القرآن الشريف إن النبي أسرى بهاليه ؟ الجواب (١) المسجد في اللغة مكان السجود والعبادة ولا يشترط فيه ان يكون محاطا بالبناء ولا ان تكون سقفه مرفوعة على أعمدة اونحوذلك مما اعتاده الناس الآن وما كانت مساجد العرب في مبدإ الإسلام إلاَّ أمكنة بسيطة خالية من الأبنية الضخمة والزخرف والزينة وكل مكان يعبدون الله فيه يسمونه مسجداً لهم بل سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع الأرض مسجدا لصحة العبادة في أي جزء منها فقال « وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً » فلا يلزم من قول القرآن إن النبي أسري به إلى المسجد الاقصى انه كان إذ ذاك مبنياً مشيداً كما كان قبل تخريب الرومان له• ولذلك كان العرب يذهبون إلى أورشليم وغيرها من بلاد الشام و يعرفون ما كان عليه المسجد الاقصى من الخراب ومع ذلك لم يسمع من أحد منهم انتقاد على عبارة القرآن الشريف هذه أو تردد في

(١) المنار: راجع ص ٦٩٩ وما بعدها من المجلد السادس

فهما أو تكذيب للنبي صلى الله عليه وسلم فيها وغاية ما سمع منهم تكذيبه في ذهابه إلى هذا المسجد بهذه السرعة العجيبة لا في وجود ما يسمى عندهم بالمسجد الأقصى وإن كان خربا . على ان الظاهر ان القرآن الشريف يريد بالمسجد الأقصى بلدة (أورشليم) وبالمسجد الحرام بلدة (مكة) اي إنَّ النبي سار ليلاً من مكة إلى أورشليم لأن المسجد الحرام ما كان بيتا للنبي صلى الله عليه وسلم ينام فيه بل كان نائماً في بيت أم هانيء أحد بيوت مكة كما جاء في الروايات الواردة في هذه المسألة . فالقرآن أطلق هنا المسجد الحرام على مكة وأطلق المسجد الأقصى على أورشليم من باب تسمية الكل بالجزء الذي هو اعظم وأشهر شيء فيه

ومثل هذا الاطلاق شائع في العربية وغيرها وكثير في القرآن الشريف ولذلك ورد فيه تسمية الحرم كله بالبيت العتيق كما في قوله تعالى في الذبائح (٢٢:٢٢ لكم فيها منافع الى اجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق) مع ان الذبح لا يعمل في نفس البيت وانما يعمل في « منى » بالقرب منه

اما ماورد في بعض الروايات من ان النبي صلى الله عليه وسلم ربط زمام البراق في احدى حلقات بيت المقدس فالاقرب عندي ان هذه الروايات وأمثالها هي مما وضعه الواضعون بعد تعمير بلاد المسلمين لهذا البيت اي بعد فتح عمر لبلاد الشام وإقامة مسجد مكان الهيكل (بيت المقدس) وقد غاب عن هؤلاء الواضعين هذه الحقائق كما هو شأن الكذابين فلم يعرفوا ان مايشاهدونه في زمنهم لم يكن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم (١)

واعلم ان القرآن الشريف قد ذكر تاريخ بيت المقدس وما لحقه من التخريب فلا يقال اننا فيما قلنا ملفقون أو اننا لاجل دفاعنا عن القرآن ننسب اليه مالم يعرفه ولم يخطر على بال مؤلفه كما يقولون . بل ورد فيه في نفس هذه السورة (الاسراء) بعد الآية السابقة قوله تعالى (١٧ : ٤ وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدُنَّ في الارض مرتين ولتعلنّ علوا كبيرا ٥ فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا) هم بختنصر وقومه الكلدانيون (أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار) اليهودية اي

(١) المنار : في ص ٧٠١ م ٦ توجيه لهذه المسألة مبني على صحة الحديث

جالوا وترددوا فيها للنهب والقتل والسلب والسبي والتدمير (وكان وعداً مفعولا ٦ ثم رددنا لكم الكرة عليهم) بأن أرسلنا عليهم كورش ملك فارس فدمر مملكتهم وفتح بابل وانقذ اليهود من أسرهم وا كرم مثواهم وأحسن اليهم وردهم الى بلادهم فصاروا فيها أعزاء وسادوا على اعدائهم الذين تركهم الكلدانيون فيها تحت رعايتهم فعاد الى اليهود شيء كبير من مجدهم السابق ثم عمروا بيت المقدس الذى كان خربه بختنصر وأحرقه وصاروا يقيمون شعائر دينهم فيه كما كانوا يفعلون من قبل (وامددنا كم باموال وبنين وجعلنا كم اكثر نفيرا) فرجعوا من الاسر باشياء كثيرة من الذهب والفضة وبأمتعة وبهائم وتحف وغيرها كما في سفر عزرا (١ : ٤ — ١١) (٧ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة) العقوبة الثانية (بعثنا عليكم عباداً لنا ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد) أي بيت المقدس (كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا) فدخله تيطس الروماني بجيشه ونهبه وأحرق الهيكل ودمره تدميراً كما فعل الكلدانيون من قبل وتشتت اليهود بعد ذلك في العالم ولم تعد إليهم الدولة إلى الآن .

وإنما قال القرآن « كما دخلوه أول مرة » مع ان الداخلين المدمرين للمسجد في المرة الثانية غير الذين دمروه في المرة الأولى لأن الجامع بينهم شيء واحد وهو كونهم جميعاً عباداً لله فانه قال في أول القصة « بعثنا عليكم عباداً لنا » بدون ذكر جنسهم . وهذا على حد قولك « دخل الأوربيون الجامع الأزهر مرة ثم دخلوه مرة أخرى » مع أن الداخلين في المرة الثانية قد يكونون انكليزاً وفي الأولى فرنساويين ولاشتراكهم في الوصف (وهو كونهم أوربيين) كان هذا التعبير صحيحاً ومثل ذلك قوله تعالى مخاطباً ليهود العرب (٢ : ٥٥ وإذ قلتم ياموسي لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) مع أن ذلك لم يحصل لهم وإنما حصل لبني اسرائيل في زمن موسى ولاشتراك يهود العرب معهم في الدين جاز هذا التعبير وهو شائع في جميع اللغات

فمما تقدم تعلم ان القرآن الشريف ذكر أن المسجد الأقصى خرّب مرتين وذكر لليهود عقوبتين الأولى ما أوقعه الكلدانيون بهم والثانية ما فعله الرومانيون

أما الواقعة الأولى فقد تمت في سنة ٥٨٧ قبل الميلاد وبها زال استقلال اليهود

وصاروا خاضعين للكلدانيين ثم الفرس ثم اليونان ثم الرومان

وأما الثانية فقد تمت في سنة سبعين بعد الميلاد وبها تشتت اليهود في أنحاء العالم وقضي عليهم قضاءً أبدياً

ومن ذلك تعلم ان هاتين الواقعتين يدور حولها تاريخ الأمة اليهودية وعليها يقام هيكله فلولا وحي الله لما أمكن لذلك العربي الأمي العامي الناشئ بين الوثنيين أن يستخلصها من تاريخ الامة اليهودية الطويل العريض وليس في بلاده كتب يرجع اليها بل لا يتيسر له اذا أراد ولم يقم على تربيته معلم وليس له مدارس ومع ذلك قد لخص هذا التاريخ الكبير في كلمة صغيرة هي نهاية الاعجاز وعبرة العبر وحكمة الحكم مع مافيها من الاشارات الدقيقة إلى الحقائق التاريخية التي يفهمها الراسخون في العلم

هذا وقد كان أسر اليهود الى بابل من اكبر ماحل بهم من المصائب حتى كانوا كل يوم ينتظرون الفرج والخلوص العاجل وقد كان كورش ملك فارس المخلص الاكبر لهم من ذلك وكانوا يسمونه مسيح الرب (أشعياء ٤٥ : ١) فلذا كثر الثناء عليه في كتب العهد القديم لانقاذه اياهم من المحن والبلايا والرزايا التي حلت بهم في بابل التي اطنبت كتبهم في وصفها وتعديدها وانذرهم الانبياء بها قبل وقوعها ثم صاروا يبشرونهم بالخلاص منها . وهذا هو سبب ورود لفظ الخلاص ونحوه كثيرا في كتب العهد القديم ككتاب أشعياء وغيره مما صار النصارى يزعمون أنه رموز إلى المسيح عيسى عليه السلام والحقيقة أنه لاعلاقة لأكثره به ولكنهم ولعوا وولع مؤلفو العهد الجديد بذلك من قبل حتى انهم كانوا ينسبون للمسيح عليه السلام من الحوادث ماينسبون ثم يستشهدون عليها بعبارات في العهد القديم كاستشهاد متى (٢ : ١٥) بكلام هوشع عن خروج بني اسرائيل من مصر (اصحاح ١١ : ١) وزعمه ان ذلك نبوة عن المسيح عليه السلام وكاستشهاده في الاصحاح ٢٧ : ٩ بكلام يزعم أن ارميا النبي قاله مع أنه لا وجود له في كتابه وإنما يوجد في كتاب زكريا بعض ألفاظ تشبهه (أصحاح ١١ : ١٣) ولا مناسبة بينها و بين ما يقوله متى في انجيله . وإنما ذكرنا ذلك إبطالاً لدعاويهم العريضة ورداً لكيدهم وتحاملهم

على القرآن الشريف مع الجهل والتعصب كما بيناه ونبينه

ولما أصيب اليهود للمرة الثانية بما أصيبوا به من الرومانيين صاروا يترقبون مجيء مخلص لهم ككورش وهم إلى الآن ينتظرون ذلك ! !

هذا شيء من تاريخ اليهود ذكرناه هنا تفصيلاً لتفسير ما جاء في أول سورة الاسراء ومنه تعلم أن القرآن الشريف ذكر تخريب المسجد الأقصى في المرتين فلا يقال إنه أخطأ وجهل التاريخ كما يدعي جهلة المسيحيين افتياتاً عليه ورغبة منهم في تكذيب حادثة الاسراء وهي كما ترى ليس فيها شيء ينافي العلم أو يناقض حكم العقل الصحيح . وما نشاهده من حركات الأجرام الكونية وما اخترعه البشر من آلات البخار والكهرباء يقرب إلى العقل تصور تلك الحركة السريعة التي حصل بها الاسراء إن كان ذلك جسمانياً كما عليه جمهور المسلمين وأما إن كان روحانياً او رؤيا منامية كما عليه بعضهم فلا شبهة عليه والله أعلم (لها بقية)

باب المناظرة والمراسلة

السنن والاحاديث النبوية

٢

بحث النسخ

قال حضرة الدكتور «النسخ هو ابطال حكم لبدل اولغير بدل» واقول ماذكره من تعريف النسخ غير كاف ولا واف فانه غير جامع ولا مانع ولا نطيل بالمناقشة فيما يتعلق بالعبارة اذ مراده بذلك الكلام على النسخ المعروف عند المسلمين وهو صريح في اختياره النسخ بمعناه عند المتأخرين — اما هو في عرف السلف فهو زيادة على ماذكره يعم رفع دلالة العام والمطلق والظاهر إما بتخصيص او تقييد او

حمل على مقيد وتفسيره وتبيينه قال شيخ الاسلام ابن القيم رحمه الله حتى انهم ليسمون الاستثناء والشرط والصفة نسخا لتضمن ذلك رفع دلالة الظاهر وبيان المراد فالنسخ عندهم وفي لسانهم هو بيان المراد بغير ذلك اللفظ بل بأمر خارج عنه وبذلك تزول اشكالات أوجبها حمل كلامهم على الاصطلاح الحادث المتأخر انتهى ملخصا — وهل الإنساء والنسخ شيء واحد أم هما شيئان ؟ ذهب بعض السلف الى الاول والظاهر انه اعم من النسخ اما على قول من قال ان معناه التأخير والإرجاء فهو قبل نزوله واوان ظهوره للتكليف لا يوصف بنسخ ولا عدمه

واعلم ايها القاري انه يتفرع على النسخ بمعناه عند الخلف خلاف بينهم هل يجوز نسخه بالآحاد الصحيحة ام ببعضها دون البعض ؟ اما السلف فلا نعلم عنهم خلافا في جوازه

قال حضرة الدكتور فالنسخ عندنا لا يقع الا في الاحكام (الاوامر والنواهي) ولا يقع في القصص او في القضايا العقلية اذ لا معنى لوقوعه في ذلك

واقول اذا سلمنا ان معنى النسخ هو ماذكره المتأخرون حيث قالوا في تعريفه « هو ان يدل على خلاف حكم شرعي دليل شرعي متراخ » فلاشك ان المنسوخ لايجوز ان يكون من الاخبار عن الامور الماضية او الواقعة في الحال اوالاستقبال مما يؤدي نسخه الى كذب اوجهل — بخلاف الاخبار عن حل الشيء او حرمته ونحوها فانه يجوز النسخ في هذا الاخير وكذلك القضايا العقلية لا يجوز النسخ فيها لإفضاء ذلك الى الجهل وكذلك اذا قيد نصا بتأييد او توقيت فلايجوز نسخه لاستحالة العبث والجهالة

اما اذا فسر النسخ بمعناه عند السلف فلا مانع من وقوعه في كل ما ذكرناه لانهم لم يشترطوا في الناسخ منافاة المنسوخ . ودونك ما ذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره عنهم بعد قوله تعالى « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها او مثلها » الآية قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه ما ننسخ من آية قال ابن جريج عن مجاهد ما نمحو من آية وقال ابن ابي نجيح عن مجاهد « ما ننسخ من آية » قال نثبت خطها ونؤيد حكمها . حدث به عن اصحاب ابن مسعود رضي الله عنه . وقال ابن ابي حاتم وروي عن ابي العالية ومحمد بن كعب القرظي

نحو ذلك وقال الضحاك ما ننسخ من آية ما ننسك وقال عطاء اما ماننسخ فما نترك من القرآن وقال ابن ابي حاتم يعني ترك فلم ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم وقال السدي ماننسخ من آية نسخها قبضها قال ابن ابي حاتم يعني قبضها رفعها مثل قوله « الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة » وقوله « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا » وذكر عن ابن جرير ماموءداه اختيار مذهب المتأخرين في تفسير معني النسخ وانت ترى بعدا بين مافهموه وما فهمه المتأخرون الا ما نقل عن اصحاب عبد الله بن مسعود لكنه محمول على ماهو معروف عن السلف من انهم كثيرا مايفسرون الشي ببعض معانيه نظرا لحال السامع تارة ولما يقتضيه المقام تارة ولظهوره في باقي معانيه الاخرى ولم يكونوا ليحدوا الأشياء بالحدود والتعاريف التي اصطلح عليها المتأخرون فاذا كان النسخ عندهم مفسرا بالرفع والقبض الذي هو أعم منه عند المتأخرين فالله جل شأنه ينزل على رسوله صلى الله عليه وسلم الاحكام في جميع انواع الموضوعات والقصص والاخبار للاذعان والاعتبار وردّا على المعاندين الكفار فاذا قامت الحجة وحصل لرسوله صلى الله عليه وسلم الفلج وعليهم الغلبة فالعقل لا يوجب إبقاء الحجة مسطورة مكتوبة كما انه لا يجب ولا يلزم حبس وابقاء الجيش العظيم على البلد بعد فتحها وكما ان الاحكام تختلف باختلاف حال المكلفين كذلك التعاليم الاخلاقية ونحوها تختلف باختلاف أحوالهم أيضاً — فاذا أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ما شاء من اخبار أو غيرها لمقتض ولمصلحة ثم رفعها على مالها من الاجلال فائزة بالنصر وقهر الاعداء غير منقوضة بريب أو تكذيب لاسيما اذا أحل محلها وأنزل بدلها ماهو أنسب وخير منها لنا فيا ترى أيّ جهل وعبث يلزم فسبحان ربك رب العزّة عما يصفون »

ثم قال حضرة الدكتور : فلسنا ممن يسلم القول بنسخ لفظ بلفظ كما يتوهمون أو بنسخ لفظ وابقاء حكمه كما يزعمون . واستدل على ذلك باستلزامه الجهل أو العبث

وأقول هذا الاستبعاد من حضرة الدكتور منشوءه عدم الامعان في معاني القرآن لأن الله جل شأنه وعظم سلطانه ذو الكمال وخالق الكمال النسبي وكلتا يديه يمين فهو يعبر لرسوله صلى الله عليه وسلم عن شؤونه بما شاء مما هو كاف في اعجاز مخلوقه القاصر والمعاند

الكافر ولا محذور في ان يرفع عبارة قداعتبر وإمدلولها ثم يكررها ثانياً لمقتض في قالب عبارةوألفاظ أكمل من الأولى أو أنسب بالحال منها فانه ما من كمال نراه الا وعند الله أكمل منه والكل بالنسبة الينا معجز وكمال كما قال تعالى « نأت بخير منها »

ومما يوضح ذلك ويقر به ماهو واقع في المحكم بين دفتي المصحف من ذكر القصة الواحدة في مواضع متعددة بألفاظ وعبارات متغايرة لفظاً متحدة معنى وقد تراها بزيادة ونقص وما ذلك الا لاختلاف ما يقتضيه الحال لسوقها في الاستشهاد بها ولاختلاف أحوال المتلقين عن رسوله صلى الله عليه وسلم لان منهم من يميل الى التطويل وحفظه ومنهم من يميل الى الاقتصار على الاختصار اما لعدم الفرص أو غير ذلك — فاذ حسن ذكر القصة الواحدة بعبارات وألفاظ متغايرة لفظاً مع بقاء الكل فجوازه كذلك بعد رفع الاول ونسخه أولى واحرى وهذا ظاهر لا غبار عليه — على انه قد يقال لم لا تسلم وتحمل ذلك على ما نزل قبل التحدي بالإعجاز ؟

واذا رفع بالنسخ أو الإنساء ما هو كذا فقد قدمنا الحكمة فيه وسببه واذا بقي محفوظاً لأفراد لا يصح ان يثبت بروايتهم آيات قرآنية فما ذلك الا ليتحقق صدق قوله تعالى « مانسخ من آية أوننسها » الآية وليعرف ان البدل خير من المبدل فيشكروا الله على ما أعطاهم وانظر الى ما روي في الصحيح « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى لهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب » . فانه كان قرآناً يتلى أي ثم رفع وانسي لفظه وإنما بقي محفوظاً لدى من لا يثبت بروايته آيات قرآنية والعلة التي أدركناها في ذلك ما ذكرناه فاذا تتبعنا المصحف وجدنا ماهو أولى وأظهر مثل قوله تعالى « وتحبون المال حباً جماً » الآية — اما مايذكر في آية « الشيخ والشيخة » الى آخره كما في الصحيح وان ذلك كان قرآنا يتلى ثم نسخ لفظه كذا قالوا فلا يبعد ان يقال ان هذا مما نسخ لفظه وحكمه لان الرجم أول مانزل في أول الإسلام ثم نسخ بنزول حد الزاني وحينئذ قال صلى الله عليه وسلم — في حديث عبادة رضي الله عنه « خذوا عني قدجعل الله لهن سبيلاً الثيب بالثيب جلد مائة والرجم منسوخ — ثم شرع الرجم مرة أخرى لأنه رجم ماعزا والغامدية

بعد ان قال ذلك . انظر ذلك في زاد المعاد لشيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله

ولنعد الى ما كنا بصدده فنقول: اذا لم يشترط في النسخ المنافاة والمناقضة بين الناسخ والمنسوخ وهو ما يدل عليه كلام عامة السلف وهو ظاهر القرآن حيث جعل متعلق النسخ والإنساء — الآية — ولم يخص بذلك حكمها واذا جاز الإنساء فالنسخ كذلك قال تعالى « سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله »

فلا عيب ولا نقص في نسخ ما شاء كيف شاء وسواء في ذلك رفع لفظ بلفظ و رفع لفظ وابقاء حكمه لما تقدم ولانه اذا تفضل بالبدل فهو لا شك يبد له بما هو خير منه لانه اذا وعد بإعطاء احد خيرين فكرمه وكرامته لرسوله صلى الله عليه وسلم تقتضي ان يمتن عليه صلى الله عليه وسلم بأفضلهما واكملهما « ولسوف يعطيك ربك فترضى » او يقال نأت بخير منها او مثلها أي المنسية والله اعلم بمراده

فان قيل ما الحكمة في رفع ألفاظ وابدالها بالفاظ او رفع لفظ بعد نزوله؟ قلت قد بينا ذلك فيما تقدم ولكن نحن مهما جهدنا فلا نستطيع ان نعلل ذلك باصح واحكم مما اجاب الله به منكري النسخ بقوله تعالى «نأت بخير منها او مثلها » اي لما كان المنسوخ قبل نسخه مناسبا للمصلحة ومطابقا للحكمة فاذا نسخناه لمقتض فانما هو لنأتي بخير منه اي اكثر مناسبة واشد مطابقة للحكمة

اما ما استدل به حضرة الدكتور وعلل به جواز وقوع النسخ حيث قال والسبب في وقوعه اختلاف حال المكلفين باختلاف الزمان والمكان فما يلائم البشر في زمن طفوليتهم قد لا يلائمهم في زمن كهولتهم او شيخوختهم ومثل لذلك باختلاف حالة الانسان بالصحة والمرض — فهذا التعليل للنسخ انما اخذه حضرته عن المتكلمين الذين ادعوا لانفسهم الكمال فوق كل احد حتى انهم قد يدعون لانفسهم انهم يعرفون من الدين مالم يعرفه السلف وانهم قد يصلحون منه ما يزعم بعضهم انه ناقص منه ومادرى المساكين ان النقص وصفهم اللازم الذاتي ولله در الشاعر

وكم من عائب قولا صحيحا   وآفته من الفهم السقيم

ولو كان لا يكون النسخ في الشرائع الا اذا صار المنسوخ بمنزلة ما لا يلائم حالة البشر بحيث يكون نسبته اليهم كنسبة ما لا يناسب حالة المريض لكان ذلك اي النسخ

لا يكون الا بعد احراجهم غاية الاحراج بحيث يكونون قد عانوا ماقرب ان يكون خرج عن حد استطاعتهم وهذا لايجوز من واسع الرحمة فكيف يستقيم قول حضرة الدكتور؟ قدمنا ذلك لتعلم ان النسخ لمقتض او لحكمة لاعيب فيه عند العقل الخ لانه يفهم منه ان ابقاء التكليف وعدم النسخ والحالة هذه جائز عقلا وشرعا والذي يقال ان تأخير النسخ الى تلك الحالة ممتنع عقلا وشرعا لقوله تعالى « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » والنسخ شرعا هو الذي دل القرآن دلالة الكريم عليه وهو تبديل ذي الخير مما اوحي الى رسوله صلى الله عليه وسلم بما هو اكثر خيرا منه — وهو من باب التوسيع فيما كثرت فوائده وعمت عوائده وفيه تنبيه هذه الامة لفتح ابواب المعارف والرقي الى مدارج الكمال والاستعداد لكل ماعسى ان ينجم من خير يقدم او بلاء يهجم

فما ذكره حضرة الدكتور من الحكمة في النسخ ليس هو حكمته نعم هو يقرب ويضارع مانصبه الشارع مسوغا للترخص في المحكم لانه ألزم عباده بامتثال ماشرعه محكما بشروط واسباب مالم تعارض ذلك موانع ومرخصات فاذا عرض مانع او مرخص فقد رفع عن العباد الاثم وجاز لهم فعل او ترك مااقتضاه الحال وبذلك قد ينقلب الواجب محرما والمحرم واجبا اوجائزا في حق من قام به مانع والحكم يختلف باختلاف المكلف وتارة يعتبر مع ذلك المكان وتارة الزمان وقد يختلف الحكم بالنسبة الى شخص أو أشخاص باختلاف حال مااحتف به من البشر، وبحاله من صغر وكبر، واقامة وسفر، وضعف وقوة، وامن وخوف، وقد يختلف بالمواسم تبعا للضرورات، اوتوقعها ولو ظنا في بعض الحالات، وللضرورات احكام تخصها ولهذا صح المثل «عند الضرورات تباح المحظورات» قال تعالى « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه » وألحق بذلك ماصح عنه عليه الصلاة والسلام انه قال « رفع عن امتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »

فاختلاف الحكم باختلاف حال المكلف اوالمكلفين — بحيث لا يبقى ملائما لطبائعهم بان تكون نسبته اليهم كنسبة مالا يلائم حالة المريض — لا يصلح ان يكون علة النسخ وحكمته كما عرفت بل هو باق ومعتبر للترخص في التشريعة المحكمة

الثابتة الباقية فكيف يجعل مناطا وسببا للنسخ وقت التشريع لاسيما وقد نص الله في كتابه على سبب النسخ كما قد قدمنا ذلك

ومن تأمل وأمعن النظر فيما ذكرناه اتضح له الحق وعرف منشأ الغلط الذي ارتكبه كثير من جهابذة النقاد والنظار في استبعاد جواز النسخ والتردد فيه وعرف ان منشأه ما أصلوه واصطلحوا عليه مما اوجب لهم الحيرة «وعلى نفسها جنت براقش» وماضيقوه مما وسعه الله فعليهم « لا علينا »

وبما ذكرناه من التيسير والتوسعة في هذا الدين تظهر بعض حكمة بقاء هذا الدين الى آخر الابد ولزوم انه دين عامة البشر وانه وحي يوحى ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه شرع على لسان من لا ينطق عن الهوى. اللهم احينا عليه وبه وامتنا متمسكين به ياارحم الراحمين (للكلام بقية)

الجامعة المصرية

﴿ وهبة حسن بك زايد ﴾

نام مشروع هذه المدرسة زمناً طويلاً وشغل الناس عنها ما أصيبت به البلاد من العسرة المالية . ثم اختير للجنة التأسيس الامير أحمد فؤاد باشا رئيساً عاملاً فجد واجتهد مع اللجنة فهبّ المشروع من نومه حتى تقرر ان تفتح أبواب الجامعة في أواخر هذا العام لتدريس آداب اللغات العربية والانكليزية والفرنسية وتاريخ مدنية الإسلام

وكان احياء هذا العمل بأمرين لولاهما ما تيسر الشروع فيه (أحدهما) أمر الأمير بأن يخصص للجامعة خمسة آلاف جنيه كل سنة من الأوقاف الخيرية (ثانيهما) تبرع حسن بك زايد من أهل الثراء في مديرية المنوفية بوقف خمسين فداناً وكسور من أطيانه الجيدة على الجامعة

وقد احتفل في السادس عشر من هـذا الشهر بتلاوة الوقفية في داره ببلده فأجاب الدعوة إلى هـذا الاحتفال كثير من الوجهاء وأصحاب الصحف العربية والأفرنجية يتقدمهم الأمير أحمد فؤاد وأعضاء لجنة الجامعة

وبعد أن افتتحت الحفلة بتلاوة آيات من القرآن الكريم تلا حسين رشدي باشا مدير الأوقاف خطبة للأمير فؤاد باشا رئيس لجنة الجامعة بالنيابة عنه وهي تتضمن الثناء على حسن بك زايد وبيان ان الجامعة صارت قادرة بعد هبته هذه على الظهور في عالم الوجود ·

ثم تلا حفني بك ناصف ناموس لجنة الجامعة (سكرتيرها) الوقفية · وقام من بعده الدكتور علوي باشا فألقى خطبة في تقدم الأمم بالعلم والحث على التبرع للجامعة· ولا غرو فقد كان الدكتور ممن اكتتب لها بألف جنيه فهو ما قال الا وقد فعل ·

ثم قام من بعده قاسم بك أمين نائب رئيس اللجنة العامل وألقى خطبة نفيسة أودعها من الفوائد الاجتماعية ما يقتضيه المقام ، وما يناسب الحال العامة بمصر في هـذه الأيام ، ولعلها آخر ما دونه بقلمه من المنشآت الجميلة فقد وافته منيته بعـدها بأيام معدودات ، واننا ننشرها لما فيها من الفائدة وهذا نصها :

أيها السادة

في هذه الايام (١) التي كثرت فيها الاكتتابات للجمعيات الخيرية والمكاتب والمستشفيات وغير ذلك ولا يمد يديه لمساعدتها وتحمل جزء من مغارمها الاعدد قليل من سكان العاصمة أرى ان عمد البلاد وأعيان الاقاليم هؤلاء الذين يصح أن أسميهم منكوبي المشروعات الخيرية هم أحسن أبناء وطننا ويستحقون ثناء الامة واعجابها ·

وفي الحقيقة ان كل مشروع قام به الافراد في بلادنا كان الفضل في نجاحه راجعا على الاكثر الى سكان الارياف فانهم وهبوا من الحياء الطبيعي ما يجعلهم يخجلون من رفض أي مساعدة تطلب منهم وعندهم من كرم الاخلاق ما يدفعهم

(١) الظرف متعلق بقوله « أرى ان عمد البلاد » الخ وقوله ولا يمد يديه الخ اعتراض ويوشك ان يكون في الكلام تحريف

الى بذل المال حتى اذا لم يكن في حيازتهم لتعضيد الاعمال النافعة

طبيعة شريفة وكرم جميل وسهولة أخلاق محبوبة ولكن أستسمحكم اذا قلت ان هذه الصفات كانت تفيد اكثر مما أفادت لو كانت الادارة التي تديرها أكثر اعتدالا في حركتها وأكثر تميزاً في تأدية وظيفتها واذا أردت التوسع أقول ان أهل البر في بلادنا على العموم لا يعرفون كيف يصرفون أموالهم

أيها السادة . ان عمل الخير حسن على كل حال ولكن أحسن منه وضع الخير في محله .

لو كان المحسنون يوجهون ارادتهم الى احياء أمتهم وتعظيم وطنهم اكثر من اهتمامهم بشراء الزهور وتشييد القبور واضاءة الاضرحة — لوكانوا يجودون للاعمال بنسبة الخير المنتظر منها لكانت الجامعة المصرية اليوم كأمثالها في البلاد الاخرى أغنى جمعية في هذا القطر . ولكنها أفقرها جميعاً

من التبرعات الجسيمة التي تحصل سنوياً في هذا القطر على شكل هبة أو وقف من كل هذا المال الذي يصرف في وجوه قليلة النفع او غير نافعة كان نصيب الجامعة شيئاً قليلا لا يذكر

ولولا أن عناية الجناب الخديوي أدركتها ومنحتها مرتبا سنويا قدره خمسة آلاف جنيه لرأينا في هذا العصر الذي تعده الجرائد والخطباء والشعراء مبدأ النهضة الوطنية وتتغنى فيه بمدح الشعور الوطني على نغمة تطرب السامعين وتفتح قلوبهم وجيوبهم أيضاً — في هذا العصر الذي نريد ان نجعله حداً فاصلاً بين ماضينا ومستقبلنا ونطلب أن تتحقق فيه أمانينا العزيزة — في هذا العصر لولا ان أدركتها هذه العناية العظيمة لرأينا شيئاً محزنا مخجلا وهو ان أنفع مشروع ظهر في مصر ولد فيها ميتا .

ولكي يكون الاعتراف بالحق تاماً لا استطيع ان امنع نفسي من التصريح بشيء يجتهد دائماً دولة الامير الذي يرأس هذه الحفلة أن يخفيه لشدة تواضعه وهو انه من اليوم الذي قبل فيه أن يشرف لجنة ادارة الجامعة برئاسته لها وصار في مقدمة العاملين فيها تحققنا ان النجاح صار مضموناً .

أيها السادة : إن الوطنية الصحيحة لا تتكلم كثيراً ولا تعلن عن نفسها عاش آباؤنا وعملوا على قدر طاقتهم وخدموا بلادهم وحاربوا الامم وفتحوا البلاد ولم نسمع انهم كانوا يفتخرون بحب وطنهم فيحسن بنا أن نقتدي بهم ونهجر القول ونعتمد على العمل

اذا أردنا ان ننفع بلادنا ينبغي علينا قبل كل شيء ان ننظر الى انفسنا ونعرف قيمتنا ونزن قوتنا وندرس اسباب تأخرنا ثم نسعى ونعمل لتحسين حالنا

يجب علينا ان نفهم ان مسألتنا الاجتماعية ليست شيئاً وجد بالصدفة او يتغير بمعجزة بل انها كسائر القضايا العلمية مسألة تحليل وتركيب وان لتكوين ونمو الجمعيات الانسانية أسباباً عديدة ترتبط بالدين والشرائع والاخلاق والاقليم والجنس واللغة وطرق التربية فتغيير الحال الاجتماعية انما يكون بتغيير الاسباب التي اشتركت في تكوينها

فكل ما يكتب ويعمل ويقال في هذا الموضوع هو خير مبارك منتج وما عداه فهو تعب ضائع

أيها السادة : إن من أهمّ اسباب انحطاط الامم وارتقائها طرق التعليم والتربية وإذا نظرنا الى ما يجري عندنا وجدنا ان التعليم الموجود الآن لا يصلح الا لإعداد موظفين او اصحاب فنّ يحترفون به للقيام بحاجات الحياة التي لا يستغنى عنها كالطب والهندسة والمحاماة وهذا التعليم يوزع في مدارسنا على الطلبة بمقدار معلوم لا يزيد عن الغاية التي وضع لاجلها

تلك هي خطة الحكومة في التعليم وقد حذا حذوها اصحاب المدارس الخصوصية والحكومة تعترف بأن هذا القدر من التعليم غير كاف ولكنها اضطرت الى عدم التوسع فيه للاسباب التي شرحتها في تقاريرها العديدة وأهمها كما تعلمون هي مسألة المال

وفي الحقيقة انه لا توجد حكومة في العالم تستطيع أن تتولى بنفسها أمر التعليم العام بجميع فروعه ودرجاته واذا نظرنا الى ما يجري في البلاد المتمدنة نجد ان القسم الاعظم من التعليم في يد جمعيات علمية هي المؤسسة والمديرة لنظامه وان عمل الحكومة فيها محصور في تعضيدها ومساعدتها على قدر الامكان

هذا هو الذي حمل الحكومة المصرية على استنهاض همة الاهالي لنشر التعليم الابتدائي وهذا ما دعانا أيضا الى ان نطالب من أبناء وطننا ان يفكروا في نشر التعليم العالي وان يبذلوا ما في وسعهم في سبيله ليكمل نظام التعليم في بلادنا و يصبح وافياً بجميع حاجات الامة

ايها السادة : نحن لا يمكننا ان نكتفي الآن بان يكون طلب العلم في مصر وسيلة لمزاولة صناعة أو للالتحاق بوظيفة بل نطمع ان نرى بين ابناء وطننا طائفة تطلب العلم حباً للحقيقة وشوقا الى اكتشاف المجهول. فئة يكون مبدؤها التعلم للتعلم. نود ان نرى من ابناء مصر كما نرى في البلاد الاخرى عالماً يحيط بكل العلم الانساني واختصاصياً أتقن فرعا مخصوصا من العلم و وقف نفسه على الالمام بجميع ما يتعلق به. وفيلسوفا اكتسب شهرة عامة . وكاتباً ذاع صيته في العالم . وعالماً يرجع اليه في حل المشكلات ويحتج برأيه . أمثال هؤلاء هم قادة الرأي العام عند الامم الاخرى والمرشدون الى طرق نجاحها والمديرون لحركة تقدمها فاذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والمرشدون الدجالون

أيها السادة : اذا نظرنا الى طائفة المتعلمين في مصر وهم متخرجو المدارس العالية نجد انهم يعملون على مبدإ « اكسب كثيرا واتعب قليلا » ولا نجد فيهم العامل المحب لعلمه أو فنه والعاشق الذي تحتل شهوة العمل في قلبه وتتمدد فيه وتملؤه برمته ولا تقبل منافساً أو منازعاً أو شريكاً أو ضيفاً بجانبها. وانما نجد افراداً قليلين جداً يصرفون وقتا قصيراً من حين إلى حين لتكميل معارفهم ولكنهم مجردون عن تلك الحمية تلك النار التي تشعل القلب والشعور والتي بدونها لا تبحث النفس عن تجديد العمل ولا تطلب الارتقاء إلى المراتب السامية

ألا يظهر لكم مثلي ان الارتقاء في الانسان تابع على الخصوص لإحساسه وان أكثر الناس استعداداً للكمال هم أصحاب الإحساس الذين تهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث وتبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغاً عظيماً فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة • أولئك هم السعداء الأشقياء الذين يتمتعون ويتألمون • أولئك هم السابقون في ميدان الحياة تراهم في الصف الأول مخاطرين بأنفسهم يتنافسون في

مصادمة كل صعوبة . من بينهم تنتخب القدرة الحكيمة خيرهم وتوحي إليه أسرارها فيصير شاعراً بليغا أو عالماً حكيماً أو ولياً طاهراً أو نبياً كريماً

أيها السادة : ان عدم استعداد طلبة العلم لحب العلم لذاته هو عيب عظيم فينا يجب ان نفكر في إزالته وهو نتيجة من نتائج التربية المنزلية التي غفلت عن تربية إحساسنا وأهملت تربية قلوبنا وشعورنا فأصبحنا ماديين لا نهتم إلا بالنتائج في جميع أمورنا حتى في الأشياء التي بطبيعتها يجب ان تكون بعيدة عن الفوائد كعلاقات الأقارب والأصحاب . وليس من المنتظر أن تتغير أخلاقنا من هذه الجهة تغيراً محسوساً إلا إذا تم اصلاح العائلة المصرية .

هل يجوز أن يؤخذ من اعترافنا هذا اننا نخشى أن الجامعة المصرية إذا فتحت أبوابها لا تجد طلاباً للعلم ؟ سمعت هذا الاعتراض واعتقادي التام انه وهم باطل . نحن اذا كنا نأسف لعدم بلوغ حب التعلم الدرجة التي نتمناها له فليس معنى ذلك أنه مفقود في بلادنا . حب التعليم موجود ووجد في بلادنا من قديم الزمان ولا يزول عن أرضنا أبداً ! وتاريخ مصر الحديث يثبت بأقوى البراهين أن حب التعليم كان ولا يزال ينمو في نفوس أمتنا من عهد المرحوم محمد علي باشا إلى الآن

ولي أمل عظيم أن انشاء الجامعة المصرية يكون سبباً في ظهور شبيبة هذا الجيل وما يليه على أحسن مثال . وما حالة القلق والاضطراب التي نلاحظها فيها الآن الا انذار مطمن يدلنا على أنها مملوءة بقوة عظيمة تطلب ميداناً تتصرف فيه لتتمتع بالتوازن الملازم لصحتها

هذا هو البناء الفخيم الذي نحب أن الأمة المصرية تشيده بيدها ليبقى أثراً خالداً في هذا القطر وشاهداً على حسن استعدادها للنمو العقلي والرقي الأدبي فكل من وضع حجراً في هذا البناء يخدم أمته أجل خدمة . فشكراً للسابقين وشكراً للاّحقين في هذا العمل الصالح . واني أرى في الصف الأول من صفوف المحسنين المتبصرين الذين يعرفون كيف يصرفون أموالهم في سبيل الخير رجلين قاما بما يجب عليهما وهما حضرة أحمد بك الشريف وصاحب هذه الدار الكريمة اه

باب الأخبار والآراء

مصاب مصر بقاسم بك أمين

يموت كل يوم خلق كثير فيخلفهم مثلهم فتمسي الأمة وتصبح وكأنها لم تفقد أحداً . ولكن في الناس أفراداً امتازوا بالمزايا النادرة في قومهم فأولئك اذا مات الواحد منهم يشعر أهل البصيرة من أمتهم بأنهم فقدوا من لا يقوم مقامه غيره ولا يعمل عمله سواه . ومن هؤلاء الأفراد من فقدته مصر اليوم ألا وهو قاسم بك أمين القاضي بمحكمة الاستئناف الأهليـة ونائب رئيس إنشاء الجامعة المصرية ومؤلف كتابي « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » — اغتالته المنية فجأة (في ٢١ من هذا الشهر) فلم تنذره بمرض ولا سقم بل لم تنذر عقلاء البلاد ليعدوا لهذا الخطب عدته ، ويأخذوا للمصاب أهبته ، بتوطين النفس على الصبر ، وتوجيه قواها الى الجلد أو التجلد ،

امتاز قاسم بك أمين بمعظم المزايا التي تعوز المصريين في سبيل الحياة الاستقلالية التي ولوا وجوههم شطرها

امتاز باستقلال الفكر وجودة الرأي وصفاء الذهن وسعة الخيال وقوة الإرادة والعدل في الحكم والوفاء في الصداقة والإخلاص للبلاد وكان مع هـذا من علماء الحقوق والاخلاق والاجتماع والفلسفة العقلية وقد وجه همته في السنين الاخيرة الى فرع من فروع هذه العلوم وهو ترقية البيوت (العائلات) بتعليم النساء وتهذيبهن فلم يكتف بكتابيه فيه بل جعله همه الأكبر الى أن وافته منيته ولسانه رطب بذكر تهذيب النساء وتمدينهن وتمني مشاركة الفتيات المصريات للفتيان في محافل العلم والأدب. قال ذلك في خطبة فرنسية ألقاها في نادي المدارس العليا قبل وفاته بساعة أو ساعتين

كان قاسم بك أمين يعد في استقلاله وفي الحرص على ترقية بلاده من طبقة يعد رجالها على الانامل وهم أصـدقاء بعضهم لبعض ، مات إمامهم وكبيرهم فكر

أكثرهم على أثره : مات الأستاذ الإمام فتلاه صديقه علي بك فخري أحد أركان النهضة الوطنية العاملين في ترقية القضاء والمحاكم الأهلية فحسن باشا عاصم المصلح في القضاء وفي المعية ، وقطب إدارة الجمعية الخيرية الإسلامية ، فحسن باشا عبد الرازق الذي كان في مجلس الشورى هو الثنيان ، بعد البدء الذي هو الاستاذ الإمام ، وهذا قاسم بك أمين خامسهم فلا غرو اذا تفاقم بالرزيئة به الخطب ، وعظم على البلاد به الكرب ، فانه كاد يتحقق به قول الأستاذ الإمام ، ان الأمة مصابة بالعقم وقحط الرجال ، فللأمة ان تتمثل اليوم بقول ابن النبيه :

والموت نقاد على كفه   جواهر يختار منها الجياد

فقد كنا نقول ان هذا البيت من الشعريات ، وصرنا نقول اليوم انه من المشاهدات ، ولا ننسى ان مصر فقدت أيضاً في هذه المدة القليلة الشيخ أحمد أبا خطوة نابغة الأزهر وابراهيم بك اللقاني الذي كاد يكون في آخر عمره منسياً لحيلولة المرض بينه وبين العمل وهو في مقدمة كتاب مصر وخطبائها ومن أركان النهضة الجمالية الأولى فيها وكان كلا الرجلين من أصدقاء الأستاذ الإمام أيضاً فيا لله ما كان أشأم فقده على هذه البلاد فقد ذكرني بما تتابع بعده من فقد خيار الرجال قتل عمر بن الخطاب إذ فتح على المسلمين باب الفتنة في السلطة فقتل بعده عثمان وعلي (رضي الله عنهم أجمعين)

كمل للأستاذ الامام قوة الفكر والنظر ، مع القدرة والمرانة على القول والعمل ، وكان حسن عاصم أقوى في العمل ، منه (اي من نفسه) في القول والنظر ، وأما قاسم أمين فكان نظرياً ، أكثر مما كان عملياً ، فكان يسبح في بحر لجي من الفكر ، ويطير في جو واسع من الخيال ، فيؤلف بين الحكم العقلية ، وبين التخيلات الشعرية ، فلهذا كان لمكتوبه من التأثير وقوة الجاذبية ، ما اجعله في مقدمة كتاب العربية ، على قلة اشتغاله بفنونها ، وتحصيله لها ، وما ذاك إلا ان كلامه يشبهه في كون روحه أكبر من جسمه ، ومعناه يفيض الجمال على صورته ، حتى كاد يكون فكراً مجرداً ، أو خيالا متوهما ،

كان قاسم من الهائمين في رياض الجمال المعنوي فكان ذلك يرفعه أحياناً عن عالم المادة وما فيه النصب واللغوب والمصائب في المال والولد والصديق فيهون عليه

ما أصابه من ذلك ويفيض عليه الجلد والصبر ، ويخيل لي ان لوطال عمره ، وقل عمله ، واستراح باله ، لانتهى أمره بفلسفة عالية تظهر على لسانه ، وتفيض من قلمه ، فتروي أرض مصر بالحكم الجليلة ، في غلائل من الشعريات الجميلة ، وناهيك بما في اجتماع الحكمة والشعر ، من تربية الشعور والفكر ،

على ان مافي هذه الطريقة من الخطإ في الحكم قد يعسر انتزاعه ممن تمكن فيه فإن الفكر يتحد فيه مع الوجدان ، اتحاداً يقل أن يفيد معه البرهان ، لذلك كان لقاسم آراء في فلسفة الأديان ، ومستقبل الانسان ، تعد عند المنطقي من الخياليات ، وهو يراها من الحدسيات أو الوجدانيات ،

كان فقيد مصر اليوم من أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية الأولين ولكن خدمته لها كانت بالرأي لا بالعمل ، أما العمل الذي كان يتوق اليه ، ويتمنى لو يتيسر له ، فهو ان يؤسس ولو بماله — ان وجد المال — مدرسة لتربية البنات المصريات على ما يحب ويرى انه يرقي هذه البلاد ،

كان قاسم كنزا مخفيا لا يعرفه الا اصدقاؤه وكان اول شيء عرف به في عالم الادب رده على الدوق دركور فيما كتبه من الانتقاد على البيوت بمصر لا سيما مسألة الحجاب وسوء حال النساء المسلمات . كتب الدوق في ذلك كتابا باللغة الفرنسية فرد عليه قاسم باللغة الفرنسية وقد ذكر لنا غير واحد ان عبارته في رده كانت كعبارة كتاب فرنسا البلغاء . وكان قلمه في ذلك الرد يتدفق غيرة وحماسة وقد بين فيه ما للحجاب من الفائدة وشنع على ما في اوروبا من التبذل والتهتك وتجارة الاعراض

واخبرني قاسم انه كان يوم اطلع على ما كتبه الدوق دركور غافلا عن حال النساء بمصر قاله ذلك النقد والتشنيع فاندفع الى الرد بوجدان الغيرة و بعد أن شفى غيظه وارضى غيرته بذلك عاد الى نفسه وفكر في الامر فرأى ان كثيراً من العيوب التي عاب الدوق بها البيوت المصرية صحيح في نفسه فبعثه ذلك الى درس هذه المسألة قائلا في نفسه انه لا ينفعنا اذا كان العيب فينا ان نرد على من يعيبنا ونبحث عن عيوب قومه وانما يجب علينا ان نبحث عن عيبنا فنعرفه ونسعى في ازالته . وطفق يبحث و يسأل ويفكر في حال البيوت بمصر ويقرأ ما كتب الافرنج في شأن النساء

وانتهى به البحث والتنقيب الى تصنيف (كتاب تحرير المرأة) الذي هز مصر هزة شديدة وشغل جرائدها في تقريظه ونقده زمنا طويلا وبعث همة غير واحد من حملة العمائم والطرابيش جميعا الى التصنيف في الرد عليه و بذلك طار صيت قاسم بك أمين في الآفاق وعرف اسمه في الشرق والغرب وعد من المصلحين الاجتماعيين

ثم ألف كتابه (المرأة الجديدة) لتعزيز رأيه وتفنيد آراء خصومه فكان دون كتاب تحرير المرأة مادة وفائدة وتحريراً وتأثيراً على انه فوقه صراحة في المقصد وحرية في القول المخالف لرأي الجمهور وميله

وقد تولى في السنتين الأخيرتين من عمره الاشتغال بتأسيس « الجامعة المصرية » فلم يدخر وسعا ، ولم يأل جهداً ، وكان مناط الأمل ، في إنجاح هذا العمل ، وأي مصاب ترزأ به البلاد أشد من فقد رجالها عند ما يتم استعدادهم ، ويكمل رشادهم ، وتعرف الناس قيمتهم ، ويشرعون في الاعمال الكبيرة ، التي يرجى نهوضهم بها ، وينتظر نجاحهم فيها ؟ ؟ فهذا ما ضاعف الحزن على فقيد مصر اليوم

حزن العقلاء على قاسم لذاته وما تحلت به ذاته من المزايا العالية ، وضاعف حزنهم عليه أن كان مصاب البلاد به قريب العهد بمصابها بأصدقائه من رجال الاستقلال ، وما يرقي الامة من الأعمال ، وضاعفه مرة أخرى أن كان في الوقت الذي بدأ فيه بعمل عظيم ، وأنشأت النابتة تعرف من فضله ما يعرف الكهول والشيوخ من أهل المعرفة والفضل

يموت الرجل فيبكيه الاهل ويندبه النساء ولكن قاسماً بكى عظماء الرجال ، وأقدرهم على التجلد والاحتمال ، وندبه مثل سعد باشا زغلول وفتحي باشا زغلول وإنما ارادا ان يؤبناه فكان تأبينهما ندبا وتعدادا ، و بكاء ونشيجا ، أبكى معهما جميع من بلغ القبر من المشيعين ، وذلك مالم يعهد لسواه من الميتين

وجملة القول فيه انه يصدق عليه ما قاله هو في تأبين الأستاذ الامام من أنه لايوجد في الأمة من يملأ الفراغ الذي كان يشغله ، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة وأحسن عزاء أهله وأصدقائه ووطنه فيه ،

مصافحة السوريين للمصريين

يوجد في مصر الأوربي من انكليزي وفرنسي الخ والأمريكي والهندي والفارسي والارمني والمغربي من تونسي وجزائري ومراكشي والعثماني من تركي وكردي وعربي ومن العرب الحضرمي واليمني والحجازي والعراقي والسوري . ولم نر صنفاً ممن ذكرنا وممن لم نذكر من الأصناف أقرب إلى المصري من السوري فهو جار له في بلاده وموافق له في لغته وأكثر عاداته مع كونه عثمانياً مثله ولكننا على هذا كله لم نر المصري في مناظرة أو منافسة مع صنف من أصناف البشر الذين تضمهم بلاد مصر إلا مع السوري فما هو سبب ذلك ؟

يرى من دقق النظر ان السبب في هذا هو ذلك القرب نفسه فان السوري لما كان صنوا للمصري امتزج به امتزاج الماء بالراح وشاركه في عامة شؤونه من مأكله ومشربه ولهوه وجده وهزله فما من سوري في هذا القطر إلا وله من الأصدقاء المصريين مثل ماله من السوريين أو أكثر. ومن طبيعة المنافسة ان تكون بين الخلطاء ما لا تكون بين البعداء فالأفراد ينافسون اخوتهم وأقاربهم وجيرانهم ، وأهل البلد ينافسون أقرب البلاد اليهم وكذلك أهل المديريات فأهل الأقطار فأهل الممالك

قد كانت المنافسة الأولى بين المصريين والسوريين في أعمال الحكومة ثم ضعفت أو تلاشت وخلفتها المنافسة في الصحافة أو السياسة . كانت بين المقطم والمؤيد ثم بين المقطم واللواء. وحقيقة هذه المنافسة انها منافسة أفراد لا أصناف اذ رأي المقطم في السياسة ليس هو رأي السوريين وإنما هو رأي أصحابه وأول من قارعهم فيه صاحب جريدة الاهرام من السوريين . ولكن اللواء كان يرد عليهم من حيث انهم سوريون ودخلاء فكان ذلك من قبيل تعليق الحكم بالمشتق وهو كما قال علماء الاصول يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق . أعني ان رد اللواء على أصحاب المقطم من حيث هم منسوبون إلى سوريا ودخلاء في مصر يفيد أن علة

ما يرميهم به من خيانة مصر هو كونهم سوريين . فلو كان الامر كما يدعي — وهو ليس كذلك — لكان كل سوري خائنا لمصر او لكان مجموع السوريين كذلك . وهذا باطل لانه مبني على اصل باطل ولكنه سرى في اوهام كثير من الناس لا سيما الاغرار . وهذا ماعناه حافظ بقوله

لولا اناس تغالوا في سياستهم منا ومنهم لما لمنا ولا عتبوا

ونحمد الله ان كلا من المقطم واللواء اللذين يعنيهما حافظ قد رجع — مع اصراره على أنه كان حسن النية — عن الخطة التي كانت تعد غلوا وكادت تجعل المنافسة بين جريدتين سببا للتعادي بين شعبين كل منهما صنو للآخر وشريك له في كل مقومات الحياة حتى أوشك ان يصدق في ذلك ما قيل من ان سوء التفاهم كثيراً ما يكون اضر من سوء القصد

لقد حسن في هذه الفرصة ما قام به سليم افندي سركيس من تأليف جمعية من خيار السوريين علما وأدبا وجمع طائفة من النقود منهم ومن غيرهم من السوريين بالاكتتاب لاجل دعوة جماعة من خيار المصريين علما وأدبا الى الاحتفال باسم السوريين لاكرام حافظ افندي ابراهيم الشاعر المصري الشهير

ولما كان الغرض من هذه الحفلة موادة السوريين للمصريين كانت الخطب والقصائد التي اشرنا اليها في الجزء الماضي ممثلة لذلك احسن تمثيل وقد وقع ذلك موقعه الذي يستحقه فأثنت الصحافة المصرية كلها كالصحف السورية على سليم افندي سركيس وأيدت الغرض من الاحتفال بالكلم الطيب في التأليف بين العنصرين اللذين هما بمنزلة الاخوين

(تصحيح غلط) في السطر ١٦ من ص ١٢٤ «، وعن» محله قبل كلمة «غمغمة» بينها وبين الواو فتصير «، وعن غمغمة» قضاعة الخ وفي السطر الخامس من ص ١٢٥ من الجزء الماضي «عدوه غريبا» وقد سقط من قبلها هذه الجملة «عدوه فصيحا وما كان قليل الدوران على ألسنتهم» . وفي هذا الجزء أغلاط مطبعية أخرى مدركة كلمة «محمده» في س ١٧ ص ٩٣ وصوابه «محمد عبده» ومنها كلمة «اذا» في س ٣ ص ١٠١ وصوابها «إذ»

الفصل الرابع (*

(مقام النساء في قوم خديجة)

تلك كانت أحوال قوم خديجة في نظام اجتماعهم ذلك ولم يكن مقام المرأة فيهم مقاما مهينا بل كان لها لديهم مقام كريم وجل ما عرف عنهم من انحطاط مقام المرأة انهم كانوا يكرهون البنات وانهم كانوا يئدونهن أي يدفنونهن في التراب وهن على الحياة (١٦:٥٨ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٩ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ الاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ *)

هذا ما عرف عنهم ومن أخذ هـذا الامر على ظاهره واطلاقه يستخف بهؤلاء القوم لان انحطاط قيمة المرأة ومقامها عنـدهم دليل على انحطاطهم ولـكن أخذ الامر على ظاهره واطلاقه ليس من شأن الذين يحبون معرفة الحقائق

ان كل بلد فيها الفقراء وذوو اليسار ، وفيها الحمقى واولو الألباب ، وفيها القساة وأهل المرحمة. فليس من العقل ولا العدل ان يجعل عمل بعض الحمقى او القساة او الفقراء في بلد مثالا ومرآة لأعمال مجموع أهل البلد كان في مكة فقراء وحمقى وقساة كما هو الحال في سائر البلاد وكان

(* من رواية خديجة ام المؤمنين

أناس قليلون من هذه الاصناف يأتون هذا العمل الفظيع نعني الوأد (دفن البنات في الحياة في سن الطفولية) فلا ينبغي أن يقال بدون تقييد إن القوم الذين نشأت منهم سيدتنا هذه كانوا يئدون البنات . ان قوما نبغت فيهم مثل هذه السيدة لا يعقل ان يكونوا قتلة بنات كلا انهم لم يكونوا يقتلون الاجساد، ولم يكونوا يقتلون منهن العقول والارادات ، واما الذى نقل عنهم فهو عمل نفر يكادون لا يذكرون من فقرائهم او حمقاهم او قساتهم .

ولم يكن الذين يئدون بناتهم يأتون هذا العمل الفظيع تغيظاً من هذه النسمات البريئة او احتقارا لجنس المرأة كما يلوح لاول وهلة بل كان يسوقهم الى ذلك فساد في الخيال وضعف عظيم في الطبيعة . وان الخيال الفاسد ليزين المنكر حتي يظنه صاحبه من المعروف كما يشاهد كل واحد منا كثيرا

كان منهم فقراء يزين لهم خيالهم الفاسد ان فتاتهم اذا ظلت في ميدان الحياة ربما نالها ضيم من فقرهم وربما عجزوا عن ان يكرمنهن بنفقة تساويهن بأترابهن، من ذوي قرباهن اوجوارهن، فيرون مواراتهن فى التراب ، خيرا لهن من بقائهن دون الاتراب ،

لا نكران للحق ان هذا الخيال باطل ولا سيما عند المؤمنين ولكن هذا الخيال الباطل لم يوح الى صاحبه ان الفتاة شجرة خبيثة يجب اجتثاثها قبل النمو ويستحسن حرمان الوجود من ثمراتها وانما زين له سوء عمله هذا من طريق اخرى هى كرامة فتاته

يتخيل ذلك المسكين ان فتاته ان عاشت تعيش مثله في غصص تذيب الفؤاد ولو قدّ من الجلمود ، وكرب تسود الوجوه البيض وتبيض الشعور السود ، فيزين له خياله ان يحمي كريمته فلذة كبده من مثل هـذه الحياة التي بلاها فقلاها وان يتقي بألم ساعة عند توديعها وتسليمها الى الابد آلام سنين يراها فيها كثيرة النصب قليلة النصيب كما يتقي أحدهم بألم الـكي آلام سقم مزمن

وكان منهم حمقى توسوس لهم شياطين الخواطر بأن الفتاة ربما وقعت في يد من لا يرعى له ولها حرمة . ولو تقضي على كل البشر بمثل هذه الوساوس لآذنت الدنيا بالانقضاء ولكن الموجد لم يشأ الا ان تكون الدنيا على هذا النمط من الاستمرار فلذلك لم يوجد لهذه الوساوس سلطانا على قلوب البشر الا قليلا ممن بلغنا شيء عنهم من هذا القبيل

ساء مازيّن لهؤلاء الفقراء والحمقى الذين كبر نصيبهم من القسوة مع نصيبهم من الفقر والحمق فلو علم المعدم ان اليسار ليس محتكراً في بيوت معينة واشخاص مختصة وانما يتاح للعاملين المحسنين مع الظروف المناسبة ، وان قيمة كل امرىء مايحسنه ، وان ليس عليه الا ان يعمل بالمعروف عند قومه ويصبر قليلا حتى يتاح له مايقوم به شأنه ، لما سهل عليه ان يقصف بيديه غصناً منه أنبته الله ولا لذة أكبر من تربيته وتنميته

ولو علم الاحمق ان الفرار من توهم العدوّ نهاية الجبن وغاية الخذلان ويثمر أقصى درجات الخسران لرأي انه جدير بالبكاء على حظه من ضعف النفس

وهيهات ان يكون قوم «خديجة» على هذا النمط من ضعف النفوس

وهم المعروفون بالشجاعة والاقدام . وأي قوم تطيب لهم الحياة اذا كانوا لا يرون سلامة حرمهم الا بافنائها ؟ وانّى يجد الشخص الطمأنينة اذا كان دأبه الحرب، من غير ماطلب ؟

أما انهم كانوا يكرهون البنات اذا بشر أحدهم بها فلا يستطيع أحد انكاره لأن القرآن المجيد هو الذي سجل هذه الحقيقة التاريخية وقد سرى هذا الى نفوسهم من شدة احتياجهم الى البنين الذين سيكونون المدافعين في ذلك المجتمع القائم بنفسه قيام المجتمعات الكبيرة . وليس معناه ان البنت تظل طول دهرها مكروهة وان النساء لا قيمة لهن ولا قدر عند أولئك القوم . ما ذنب القوم اذا كان نفر من فقرائهم وحمقاهم قد ضعفت نفوسهم فاستسلموا الى الاستراحة مما يلذ للكرام التعب فيه ؟ وما اجرامهم الى الانسانية من بعد ان يقوم أمجادهم بافتداء كثير من الفتيات اللاتي تصدى آباؤهن لوأدهن من الفقر ؟

ان العرب كافة وقريشا خاصة كانوا يعزّون المرأة ولا يهينونها وقد أعطوا النساء كل مالهنّ من الحقوق في نظر العدل ولم ينسوا ان المرأة كالرجل هي انسان يحمل دماغا فيه إدراك وأن لهذا الانسان المؤنث نفساً كنفس ذلك الانسان المذكر تغضب وترضى وتنم وتشقى فأعطوا دماغها ونفسها حقيهما

وقد رووا لنا ان هنداً ابنت عتبة وهي من قوم سيدتنا «خديجة» جاءها أبوها يشاورها في رجلين من قومها رغبا الزواج بها فقالت صفهما لي فقال « اما أحدهما ففي ثروة وسعة من العيش ان تابعتيه تابعك، وان ملت عنه حطّ اليك، تحكمين عليه في أهله وماله، واما الآخر فموسع عليه،

منظور اليه، في الحسب الحسيب ، والرأي الاريب ، مدره أرومته ، وعز عشيرته ، شديد الغيرة ، لا ينام على ضمة ، ولا يرفع عصاه عن أهله »(*)
فقالت يا أبت الاول سيّد مضياع للحرة فما عست ان تلين بعد ابائها ، وتضيع تحت جناحه اذا تابعها بعلها فأشرت ، وخافها أهلها فأمنت ، فساء عند ذلك حالها ، وقبح عند ذلك دلالها ، فان جاءت بولد أحمقت ، وان أنجبت فمن خطأ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عني ولا تسمه عليّ بعد . وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة ، الحرة العفيفة ، واني لاخلاق مثل هذا لموافقة ، فزوجنيه » فزوجها الثاني وكان هو أبا سفيان بن حرب فولدت منه معاوية مؤسس دولة بني امية الشهيرة وأحد نجباء العرب ودواهيهم

فهكذا كان مقام المرأة في قوم سيدتنا « خديجة » لا يفتات أهلها عليها في حقها وهكذا كان رأي ذوات الحجى والزكانة منهنّ

ولقد كان كثير من نساء العرب يشاركن في السياسة والأمور العمومية ، وناهيك أن الحرب التي ظلّت مستمرة نحواً من اربعين سنة بين بني ذبيان وبني عبس لم يتفكر في اطفاء نارها الا امرأة ولم تتمكن من اطفائها الا بما لها من المكانة وحسن الرأي وذلك ان بيهسة بنت أوس ابن حارثة بن لام الطائى لما زوجها ابوها من الحارث بن عوف المرّي وأراد ان يدخل عليها قالت اتتفرغ للنساء والعرب يقتل بعضها بعضا تعني بني عبس وبني ذبيان فقال لها ماذا تقولين قالت « اخرج الى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ثم ارجع اليّ » فخرج وعرض الامر لخارجة بن سنان فاستحسن ذلك وقاما كلاهما بهذا الامر فمشيا بالصلح ودفعا الديات من أموالهم

(*) كناية عن اليقظة

وحسبك من اشتهرن من العربيات في السياسية منهن اللاتي كن من شيعة الامام علي ايام مناصبة معاوية له كسودة بنت عمارة بن الاشتر الهمدانية، وبكارة الهلالية ، والزرقاء بنت عدي بن قيس الهمدانية ، وام سنان بنت جشمة بن خرشة المذحجية، وعكرشة بنت الاطرش بن رواحة، ودارمية الحجونية ، وام الخير بنت الحريش بنت سراقة البارقي . وأروى بنت الحارث بن عبد المطلب الهاشمية .

وفدت سودة على معاوية بعد موت علي فاستأذنت عليه فأذن لها فلما دخلت عليه سلمت سودة فقال لها كيف انت يا ابنة الاشتر؟ قالت بخير يا امير المؤمنين . قال لها انت القائلة لاخيك :

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة … يوم الطعان وملتقى الاقران
وانصر علياً والحسين ورهطه … واقصد لهند وابنها بهوان
ان الامام أخا النبي محمد (*) … علم الهدى ومنارة الايمان
فقدِ الجيوش وسر أمام لوائه … قدما بابيض صارم وسنان

قالت يا امير المؤمنين « مات الرأس، وبتر الذنب ،فدع عنك تذكار ما قد نسي » فقال «هيهات ليس مثل مقام أخيك ينسى » قالت «صدقت والله يا امير المؤمنين ما كان أخي خفي المقام ، ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وان صخراً لتأتم الهداة به … كانه علم في رأسه نار

وبالله اسألك يا امير المؤمنين اعفائي مما استعفيته » قال : قد فعلت فقولي حاجتك : فقالت يا امير المؤمنين « انك للناس سيد ، ولا مورهم

(*) اخوة الدين

مقلّد، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك، ويبسط بسلطانك، فيحصدنا حصاد السنبل، ويدوسنا دياس البقر، ويسومنا الخسيسة، ويسألنا الجليلة، هذا ابن ارطاة قدم بلادي، وقتل رجالي، وأخذ مالي، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة، فاما عزلته فشكرناك، واما لا فعرفناك» فقال معاوية «اياي تهددين بقومك والله لقد هممت ان اردك اليه على قتب أشرس فينفذ حكمه فيك» فسكتت ثم قالت :

صلى الاله على روح تضمنه قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغي به ثمنا فصار بالحق والايمان مقرونا

قال : ومن ذلك : قالت : علي بن ابي طالب رحمه الله تعالى : قال ما أرى عليك منه أثراً قالت : بلى أتيته يوما في رجل ولاّه صدقاتنا فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين فوجدته قائماً فانفتل من الصلاة ثم قال برأفة وتعطف ألك حاجة فأخبرته خبر الرجل فبكي ثم رفع يديه الى السماء فقال « اللهم اني لم آمرهم بظلم خلقك، ولا ترك حقك » ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيه « بسم الله الرحمن الرحيم قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ * اذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك حتي يأتي من يقبضه منك والسلام» قال معاوية اكتبوا لها بالانصاف لها والعدل عليها فقالت « ألي خاصة ام لقومي عامة » فقال « ما

انت وغيرك » قالت « هي والله الفحشاء واللؤم ان كان عدلاً شاملاً والا يسعني ما يسع قومي » قال اكتبوا لها بحاجتها

ووفدت بكارة الهلالية ايضا على معاوية بعد موت علي فدخلت عليه وكان بحضرته عمرو بن العاصي ومروان وسعيد بن العاصي فجعلوا يذكرونه بأقوالها التي قالتها في مشايعة علي ومعاداة معاوية فقالت « أنا والله قائلة ماقلوا وما خفي عنك مني أكثر » فضحك وقال ليس يمنعنا ذلك من برك

وكتب معاوية الى عامله بالكوفة ان يوفد اليه الزرقاء ابنة عدي بن قيس الهمدانية مع ثقة من ذوي محارمها وعدة من فرسان قومها وان يوسع لها في النفقة لما وفدت على معاوية قال «مرحباً قدمت خير مقدم قدمه وافد كيف حالك ؟ فقالت بخير ياأمير المؤمنين ثم قال لها « ألست الراكبة الجمل الاحمر والواقفة بين الصفين تحضين على القتال وتوقدين الحرب فما حملك على ذلك ؟قالت ياأمير المؤمنين «مات الرأس وبتر الذنب، ولا يعود ماذهب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والامر يحدث بعده الامر» قال لها اتحفظين كلامك يومئذ؟ قالت «لا والله لا احفظه» قال لكني أحفظه وتلا عليها خطبة من خطبها التي هي في منتهى البلاغة ثم قال لها والله يازرقاء لقد شركت عليا في كل دم سفكه» قالت «احسن الله شارتك وأدام سلامتك، فمثلك يبشر بخير ويسر جليسه» قال« أو يسرك ذلك ؟» قالت« نعم والله » فقال «والله لوفاؤكم له بعد موته،أعجب من حبكم له في حياته ، اذكري حاجتك » فقالت يا امير المؤمنين آليت على نفسي ان لا أسأل أميرا أعنتُ عليه أبدا . ومثلك من أعطى من غير مسألة . وجاد عن غير طلبة » قال صدقت وامر لها وللذين جاؤا معها بجوائز .

ووفدت عليه ايضا ام سنان بنت جشمة، وعكرشة بنت الاطرش، ولما حج سأل عن دارمية الحجونية فجيء بها اليه فقال لها « بعثت اليك لاسألك علام أحببت عليا وابغضتني ، وواليته وعاديتني ؟ » فاستعفته فلم يفعل فقالت له « احببت عليا على عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالامر ، وطلبتك ما ليس لك بالحق ، وواليت عليا على حبه المساكين ، وإعظامه لاهل الدين ، وعاديتك على سفكك الدماء ، وجورك في القضاء ، وحكمك بالهوى » ثم قال لها : ياهذه هل رأيت عليا ؟ قالت « أي والله » قال فكيف رأيته ؟ قالت « رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك ولم تشغله النعمة التي شغلتك » قال فهل سمعت كلامه قالت « نعم والله فكان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت صدأ الطست » قال صدقت فهل لك من حاجة قالت « نعم تعطيني مئة ناقة حمراء » قال ماذا تصنعين بها قالت « أغذو بألبانها الصغار ، وأستحيي بها الكبار ، واكتسب بها المكارم ، وأصلح بها بين العشائر ، » قال « فان أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي بن ابي طالب ؟ قالت « سبحان الله أو دونه » فقال « اما والله لو كان علي حيا ما أعطاك منها شيئاً » قالت « لا والله ولا وبرةً واحدةً من مال المسلمين »

وكذلك وفدت عليه أم الخير بنت حريش من الكوفة ووفدت عليه أروى بنت الحارث وجرى لهما معه حديث من مثل ما تقدم

فهكذا كان مقام المرأة العربية من أخوات سيدتنا القرشية . وهكذا كان حظهن من الفصاحة والحصافة ، ومبلغهن من المشاركة في الامور العمومية والاخذ بالاسباب ، والمشايعة لبعض الاحزاب ، وما أتينا الا باليسير توطئةً لمعرفة مقام السيدة خديجة في قومها

المنار

١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿ مصر السبت ٢٩ ربيع الآخر ١٣٢٦ — ٣٠ مايو (أيار) سنة ١٩٠٨ ﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(١٢١ : ١١٧) وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢٢ : ١١٨) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٣ : ١١٩) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٤ : ١٢٠) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٥ : ١٢١) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ

الْمَلَٰئِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٦ : ١٢٢) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٧.١٢٣) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٨ : ١٢٤) - لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ - أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٩ : ١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

ان هذه الآيات وعشرات بعدها نزلت في شأن غزوة أحد ويتوقف فهمها على الوقوف على قصة تلك الغزوة ولو اجمالا فوجب لذلك أن نأتي قبل تفسيرها بما يعين القارئ على فهمها ويبين له مواقع تلك الاخبار وما فيها من الحكم والاحكام فنقول:

غزوة أحد (*)

لما خذل الله المشركين في غزوة بدر ورجع فلُّهم الى مكة مقهورين موتورين نذر أبو سفيان بن حرب ان لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً (ص) فخرج في مئة رجل من قريش حتى أتى بني النضير ليلا وبات ليلة واحدة عند سلام بن مشكم اليهودي سيد بني النضير وصاحب كنزهم فسقاه الخمر وبطن له من خبر الناس ثم خرج في عقب ليلته وأرسل أصحابه الى ناحية من المدينة يقال لها العريض فقطعوا وحرقوا صورا (١) من النخل ورأوا رجلا من الانصار وحليفا له فقتلوهما ونذر به (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج في طلبه فلم يدركهم لانهم فروا وألقوا سويقا كثيرا من أزوادهم يتخففون به فسميت غزوة السويق وكانت بعد بدر بشهرين وانما ذكرناها قبل ذكر أحد ليعلم القارئ ان العدوان من المشركين على المسلمين كان متصلا متلاحقا.

(*) أحد بضمتين جبل على نحو ميل من المدينة من جهة الشمال (١) الصور بالفتح النخل الصغير والنخل المجتمع (٢) نذر بالعدو علم به فحذره واستعد له

ولما رجع أبو سفيان إلى مكة أخذ يؤلب على رسول الله (ص) والمسلمين وكان بعد قتل صناديد قريش في بدر هو السيد الرئيس فيهم لذلك كلمه في أمر المسلمين الموتورون من عظماء قريش كعبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية ليبذل مال العير التي كان جاء بها من الشام في أخذ الثار فرضي هو واصحاب العير بذلك وكان مال العير كما في السيرة الحلبية خمسين ألف دينار بحت مثلها فبذلوا الربح في هذه الحرب فاجتمعت قريش للحرب حين فعل ذلك أبو سفيان بن حرب وخرجت بحدها وجدها واحابيشها (١) ومن أطاعها من قبائل كنانة واهل تهامة فكانوا نحو ثلاثة آلاف وأخذوا معهم نساءهم التماس الحفيظة وان لا يفروا فان الفرار بالنساء عسر والفرار دونهن عار . وكان مع ابي سفيان وهو القائد زوجه هند ابنة عتبة فكانت تحرض الغلام وحشيا الحبشي الذي أرسله مولاه جبير بن مطعم ليقتل حمزة عم النبي (ص) بعمه طعمة بن عدي الذي قتل ببدر وقد علق عتقه على قتله وكان هذا الحبشي ماهرا في الرمي بالحربة على بعد قلما يخطئ فكانت هند كلما رأته في الجيش تقول له « ويهاً أبا دسمة اشف واشتف » تخاطبه بالكنية تكريما له . وذكر الحلبي انهم سار وا أيضا بالقيان والدفوف والمعازف والخمور

نزل أبو سفيان بجيشه قريبا من أحد في مكان يقال له « عينين » (٢) على شفير الوادي مقابل المدينة وكان ذلك في شوال من السنة الثالثة فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك استشار أصحابه كعادته أيخرج اليهم أم يمكث في المدينة وكان رأيه هو أن يتحصنوا بالمدينة فإن دخلها العدو عليهم قاتلوه على أفواه الأزقة والنساء من فوق البيوت ووافقه على هذا الرأي أكابر المهاجرين والانصار كما في السيرة الحلبية وعبد الله بن ابي وكان هو الرأي واشار عليه جماعة من الصحابة أكثرهم من الاحداث وممن كان فاتهم الخروج يوم بدر بأن يخرج اليهم لشدة رغبتهم في القتال فما زالوا

(١) الحد (بفتح المهملة) هنا البأس والجد بفتح الجيم العظمة أو الغنى والاحابيش حلفاء قريش من اليهود و المشركين سموا بذلك لانهم تحالفوا في الحبشي وهو بضم الحاء جبل بأسفل مكة تحالفوا انهم مع قريش يد واحدة ما سجا ليل ووضح نهار وما رسا حبشي مكانه (٢) عينين بكسر العين وفتحها جبل او هضبة بأحد

يلحون على رسول الله (ص) حتى دخل فلبس لأمته (١) بعد صلاة الجمعة وكان قد اوصاهم في خطبتها وعدهم بأن لهم النصر ما صبروا ثم خرج عليهم وقد ندم الناس وقالوا استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن لنا ذلك وقالوا له قد استكرهناك ولم يكن لنا ذلك فان شئت فاقعد فقال « ما كان لنبي إذا لبس لأمته ان يضعها حتى يحكم الله بينه و بين عدوه » أي لما في فسخ العزيمة بعد إحكامها وتوثيقها من الضعف ومبادي الفشل وسوء الأسوة وفي سحر يوم السبت خرج بألف من أصحابه واستعمل بالمدينة عبد الله ابن أم مكتوم الأعمى على الصلاة بمن بقي فيها

فلما كانوا بالشوط بين المدينة وأحد انعزل عنه عبد الله بن أبي بن سلول (رئيس المنافقين) بنحو ثلث العسكر (وهم ٣٠٠) وقال: أطاعهم وعصاني — وفي رواية أطاع الولدان ومن لا رأي له — فما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس. فرجع بمن اتبعه من قومه أهل النفاق والريب فتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول ياقوم أذكركم الله أن لا تخذلوا قومكم ونبيكم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا • قالوا لو نعلم انكم تقاتلون لم نرجع ولكن نرى انه لا يكون قتال • وقد كان المسلمون نحو ثلث المشركين الذين خرجوا اليهم فأمسوا وقد ذهب من الثلث نحو ثلثه • وهمت بنو سلمة من الأوس و بنو حارثة من الخزرج ان تفشلا فعصمهما الله تعالى

وقد كان خروج المنافقين منهم خيراً لهم كما قال تعالى في مثل ذلك يوم تبوك (٩:٤٧ لوخرجوا فيكم ما زادوكم إلاّ خبالا) الآية وإنما ارتأى عبد الله بن أبي عدم الخروج ليكتفي أمر القتال أو خطره حرصاً على الحياة و إيثارا لها على إعلاء كلمة الله فكان على موافقته للرسول في الرأي مخالفاً له في سببه وعلته فالرسول صلوات الله وسلامه عليه كان يراعي في جميع حروبه التي كانت كلها دفاعاً قاعدة ارتكاب أخف الضررين وأبعد الأمرين عن العدوان رحمة بالناس و إيثارا للسلام • وتعزز رأيه المبني على هذه السنة برؤيا رآها قبل ذلك وكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح • رأى ان في سيفه ثلمة ورأى ان بقرا تذبح وانه أدخل يده في درع حصينة فتأوّل الثلمة في سيفه برجل يصاب من اهل بيته فكان ذلك

(١) اللأمة بالهمز ويترك الدرع وقيل السلاح

الرجل حمزة عمه رضي الله عنه — وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون وتأول الدرع بالمدينة

ولكنه على هذا كله عمل برأي الجمهور من أصحابه إقامة لقاعدة الشورى التي أمره الله بها وهو لم يخالف بذلك قاعدة ارتكاب أخف الضررين بل جرى عليها لان مخالفة رأي الجمهور ولو الى خير الامرين هضم لحق الجماعة واخلال بأمر الشورى التي هي أساس الخير كله . وإنما كان يكون المكث في المدينة خيراً من الخروج الى العدو في أحد لو لم يكن مخلا بقاعدة الشورى كما هو ظاهر فكيف ترك المسلمون هذا الهدي النبوي الاعلى ورضوا بأن يكون ملوكهم وامراؤهم مستبدين بالاحكام والمصالح العامة يديرون دولابها بأهوائهم التي لا تتفق مع الدين ولا مع العقل ؟ ؟

وسأل قوم من الانصار النبي (ص) ان يستعينوا بحلفائهم من اليهود فأبى وكان في الحقيقة ضلع اليهود مع المشركين ، ولم يكونوا في عهودهم بموفين ،

ومضى النبي بأصحابه حتى مر بهم في حرة بني حارثة وقال لهم « من رجل يخرج بنا على القوم من كثب (قرب) لا يمر بنا عليهم ؟ » فقال أبو خيثمة أخو بني حارثة بن الحارث : أنا يارسول الله . فنفذ به في حرة قومه بني حارثة و بين أموالهم حتى سلك في مال لمربع بن قيظي وكان رجلا منافقاً ضرير البصر . فلما سمع حس رسول الله (ص) وأصحابه قام يحثو في وجوههم التراب ويقول ان كنت رسول الله فلا أحل لك ان تدخل حائطي . قال ابن هشام : وقد ذكر لي انه أخذ حفنة من تراب في يده ثم قال : والله لو أني أعلم اني لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك . فابتدره القوم ليقتلوه فقال رسول الله (ص) « لا تقتلوه فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر » . وفي هذه المسألة من علم النبي بفن الحرب الارشاد إلى اختيار أقرب الطرق إلى العدو وأخفاها عنه وذلك يتوقف على العلم بخرت الأرض الذي يعرف اليوم بعلم الجغرافية و إباحة المرور في ملك الناس عند الحاجة إلى ذلك لتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة . وفيها من رحمته (ص) انه لم يأذن بقتل ذلك المنافق المجاهر بعدائه بل رحمه وعذره ولم تكن المصلحة

العامة تتوقف على قتله. ولم تكن العرب تراعي هذه الدقة في حفظ الدماء بل قلما تراعيه امة من الامم في زمن الحرب

ومضى رسول الله (ص) حتى نزل الشعب من جبل أُحد في عدوة الوادي الى الجبل فجعل ظهره وعسكره الى أحد وقال « لا يقاتلن أحد حتى نأمر بالقتال » وفي ذلك من احكام الحرب أن الرئيس هو الذي يفتحها وما كانت العرب تراعي ذلك دائما لاسيما اذا حدث ما يثير حميتهم وقد امتثلوا الامر على استشراف ولذلك قال بعض الانصار وقد رأى قريشا قد سرحت الظهر والكراع في زروع للمسلمين : أترعى زروع بني قيلة ولما نضارب ؟ وفيه من الفوائد ما لا محل لشرحه هنا

فلما أصبح يوم السبت تعبى للقتال وهو في سبع مئة فيهم خمسون فارسا وظاهر بين درعين - اي لبس درعا فوق درع - واستعمل على الرماة وكانوا خمسين عبد الله بن جبير أخا بني عمرو بن عوف وهو معلم يومئذ بثياب بيض وقال « انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا ان كانت لنا او علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك » ودفع اللواء الى مصعب بن عمير أخي بني عبد الدار وجعل على احدى المجنبتين الزبير بن العوام وعلى الأخرى المنذر بن عمرو

ثم استعرض (ص) الشبان يومئذ فرد من استصغره عن القتال وهم ١٧ وأجاز افرادا من أبناء الخامسة عشرة قيل لسنهم وقيل لبنيتهم وطاقتهم ولعله الصواب فانه كان قد ردَّ سَمُرَةَ بن جُندُب ورافع بن خديج ولهما خمس عشرة سنة فقيل له يارسول الله ان رافعاً رامٍ فأجازه فقيل له فان سمرة يصرع رافعاً . فأجازه وروى انهما تصارعا امامه . وَرَدَّ عبد الله بن عمر وزيد بن ثابت وعمرو بن حزم وأسيد بن ظهير والبراء بن عازب ثم أجازهم يوم الخندق وهم ابناء خمس عشرة اذ كانوا يطيقون القتال في هذه السن كما هو الغالب في العرب يومئذ

وتعبت قريش وهم ثلاثة آلاف رجل معهم مئتا فرس قد جنبوها فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل وابتدأت الحرب بالمبارزة

ولما اشتبك القتال والتقى الناس بعضهم ببعض قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها وأخذن الدفوف يضربن خلف الرجال ويحرضنهم فقالت هند فيما تقول:

ويهًا بني عبد الدّارْ * ويهًا حُماةَ الأدبارْ * ضَرباً بكل بتّارْ

ان تقبلوا نعانق * ونفرش النّمارق * أو تدبروا نفارق * فراق غير وامق

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول عند سماع نشيد النساء « اللهمَّ بك احول و بك أصول وفيك أقاتل حسبي الله ونعم الوكيل »

وكان أول من بدر من المشركين أبو عامرعبدبن عمرو بن صيفي وكان رأس الأوس في الجاهلية فلما جاء الإسلام شرق به وجاهر رسول الله (ص) بالعداوة وخرج من المدينة إلى مكة يؤلب قريشاً على قتاله ويزعم ان قومه إذا رأوه أطاعوه ومالوا معه وكان يسمى الراهب فسماه النبي (ص) بالفاسق . ولما برز نادى قومه وتعرف اليهم فقالوا له : لا أنعم الله بك عينا يافسق . فقال لقد أصاب قومي بعدي شر . وقاتل قتالا شديدا وقد كان الظفر للمسلمين في المبارزة ثم في الملاحمة وأبلى يومئذ أبو دجانة الانصاري الذي أعطاه النبي (ص) سيفه وحمزة أسد الله وأسد رسوله وعلي بن أبي طالب والنضر بن أنس وسعد بن الربيع وغيرهم بلاء عظيما حتى انهزم المشركون وولوا مدبرين . وروي أن حمزة قتل ٣١ مشركا

قال ابن هشام حدثني غير واحد من اهل العلم ان الزبير بن العوام قال وجدت نفسي حين سألت رسول الله (ص) السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة وقلت أنا ابن صفية عمته ومن قريش وقد قمت اليه فسألته إياه قبله وأعطاه وتركني والله لانظرنَّ ماذا يصنع فاتبعته فاخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه فقالت الانصار أخرج ابو دجانة عصابة الموت . وهكذا كانت تقول له اذا تعصب بها . فخرج وهو يقول

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل
ان لا أقوم الدهر في الكيول(١) أضرب بسيف الله والرسول

قال ابن اسحاق فجعل لا يلقى أحدا الا قتله . الى آخر ماقال . ومما كان منه انه وصل الى هند امرأة أبي سفيان قائد المشركين فوضع السيف على مفرق رأسها ولم يقتلها . قال رأيت انسانا يحمش حمشا شديدا (٢) فصمدت له فلما حملت

(١) الكيول بتشديد الياء آخر صفوف الحرب (٢) حمشهم هيجهم وساقهم بغضب

عليه ولول فاذا امرأة فاكرمت سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اقتل به امرأة . ومن فوائد مسألة إعطاء السيف أبا دجانة ان من سياسته صلى الله عليه وسلم انه لم يكن يحابي قومه ولاذي القربى على غيرهم من المهاجرين ولا المهاجرين على لانصار ولولا ذلك لما انتزعت من قلوبهم عصبية الجنسية الجاهلية

لما انهزم المشركون وولوا إلى نسائهم مدبرين ورأى الرماة من المسلمين هزيمتهم ترك الرماة مركزهم الذي أمرهم رسول الله (ص) بحفظه وان لا يدعوه سواء كان الظفر للمسلمين أو عليهم « وان رأوا الطير تتخطف العسكر » لئلا يكر عليهم المشركون ويأتوهم من ورائهم وهو ما يعبر عنه في الاصطلاح العسكري بخط الرجعة. وقالوا ياقوم الغنيمة الغنيمة فذكرهم أميرهم عهد رسول الله (ص) فلم يرجعوا وظنوا أن ليس للمشركين رجعة فذهبوا في طلب الغنيمة وأخلوا الثغر

فلما رأى فرسان المشركين الثغر خالياً قد خلا من الرماة كروا حتى أقبل آخرهم فأحاطوا بالمسلمين وأبلوا فيهم حتى خلصوا إلى رسول الله (ص) فجرحوا وجهه الشريف وكسروا رباعيته اليمنى من ثناياه السفلى وهشموا البيضة التي على رأسه ودثوه بالحجارة حتى وقع لشقه وسقط في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيد بها المسلمين فأخذ عليٌّ بيده واحتضنه طلحة بن عبد الله . وكان الذي تولى أذاه عمر بن قمئة وعتبة ابن أبي وقاص . وقتل مصعب بن عمير بين يديه فدفع اللواء إلى علي بن أبي طالب ونشبت حلقتان من حلق المغفر في وجهه فانتزعهما أبو عبيدة ابن الجراح عض عليهما حتى سقطت ثنيتاه من شدة غوصهما في وجهه وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته وطمع فيه المشركون فأدركوه يريدون منه ما الله عاصم إياه منه بقوله (والله يعصمك من الناس) وحال دونه نفر من المسلمين نحو عشرة حتى قتلوا ثم جالدهم طلحة حتى اجهضهم عنه وترس عليه أبو دجانة بنفسه فكان يقع النبل على ظهره وهو لا يتحرك حتى كثر فيه ودافع عنه أيضاً بعض النساء اللواتي شهدن القتال

قال ابن هشام وقاتلت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية يوم أحد فذكر سعيد بن أبي زيد الأنصاري ان أم سعد بنت سعد بن الربيع كانت تقول :

دخلت عليَّ أم عمارة فقلت لها يا خالة اخبريني خبرك . فقالت خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعي سقاء فيه ماء فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقمت أباشر القتال وأذبُّ عنه بالسيف وأرمي عن القوس حتى خاصت الجراح إليَّ . — فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور فقلت من أصابك بهذا — فقالت ابن قمئة أقمأه الله لما ولى الناس عن رسول الله (ص) أقبل يقول : دلوني على محمد فلا نجوت ان نجا . فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله (ص) فضربني هذه الضربة ولكن ضربته على ذلك ضربات ولكن عدوَّ الله كانت عليه درعان • وأعطت امرأة ابنها السيف فلم يطق حمله فشدته على ساعده بنسعة وأتت به فقالت يارسول الله هذا ابني يقاتل عنك • فقال «أي بنيَّ احمل ههنا» فجرح فأتى النبي فقال له « لعلك جزعت » قال لا يارسول الله

قالوا وصرخ صارخ بأعلى صوته : إن محمداً قد قتل . قال الزبير فيما ذكره ابن هشام عن ابن اسحق من وصفه لهزيمة المشركين : والله لقد رأيتني أنظر الى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب مادون أخذهن قليل ولا كثير اذ مالت الرماة الى العسكر حين كشفنا القوم عنه وخلوا ظهورنا للخيل فاتينا من خلفنا وصرخ صارخ « ألا ان محمداً قد قتل » فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد ان أصبنا أصحاب اللواء حتى مايدنو منه أحد من القوم ووقع ذلك في نفوس كثير من المسلمين فانهزموا وكسرت قلوبهم ومرَّ أنس بن النضر بقوم من المسلمين فيهم عمر وطلحة قد ألقوا بأيديهم فقال : ماتنظرون ؟ فقالوا قُتِلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : ما تصنعون بالحياة بعده قوموا فموتوا على ما مات عليه . ثم استقبل الناس ولقي سعد بن معاذ فقال ياسعد إني لأجد ريح الجنة من دون أحد فقاتل حتى قتل ووجد به سبعون ضربة وجرح عبد الرحمن بن عوف نحو عشرين جراحة

وأقبل رسول الله (ص) نحو المسلمين وكان أول من عرفه تحت المغفر كعب بن مالك فصاح بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله

صلى الله عليه وسلم • فأشار بيده أن اسكت • واجتمع اليه المسلمون ونهضوا معه إلى الشعب الذي نزل فيه وفيهم أبو بكر وعمر وعلي والحارث بن الصمة الانصاري وغيرهم. وانزل الله النعاس على المسلمين أمنةً ورحمة فكانوا يقاتلون ولا يشعرون بألم ولا خوف

وفي صحيح مسلم انه (ص) افرد يوم أحد في سبعة من الانصار ورجلين من المهاجرين الحديث وفيه ان السبعة قتلوا دونه اذ كان ينبري للدفاع عنه واحد بعد واحد ولم يخرج القرشيان فقال (ص) « ما انصفنا أصحابنا » وفي صحيح ابن حبان عن عائشة قالت قال ابو بكر لما كان يوم أحد انصرف الناس كلهم عن النبي (ص) فكنت أول من فاء اليه فرأيت بين يديه رجلا يقاتل فقلت: كن طلحة فداك أبي وأمي « مرتين » فلم انشب ان ادركني أبو عبيدة بن الجراح وهو يشتد كأنه طير فدفعنا الى النبي (ص) فاذا طلحة بين يديه صريعا فقال (ص) «دونكم أخاكم فقد أوجب » اي وجبت له الجنة • وقد زلزل كل احد ساعتئذ الا رسول الله (ص) فانه لم يتحرك من مكانه

وادرك رسول الله (ص) ابيُّ بن خلف وهو مقنع بالحديد على جواد له يقال له العود كان يعلفه في مكة ويقول : أقتل عليه محمداً • وكان قد بلغ النبي (ص) خبره فقال « بل انا اقتله إن شاء الله » فلما اقترب منه استقبله مصعب بن عمير فقتل مصعبا وجعل يقول اين هذا الذي يزعم انه نبي فليبرز لي فانه ان كان نبياً قتلني فتناول رسول الله (ص) الحربة من الحارث بن الصمة فطعنه بها فجاءت في ترقوته من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة فكرّ الخبيث منهزماً فقال له المشركون والله ما بك من بأس • فقال : والله لو كان بأبي بأهل ذي المجاز لماتوا اجمعون • ومات من ذلك الجرح في سرف مرجعه الى مكة كذا في سيرة ابن هشام والسيرة الحلبية وذكر الأول ان رسول الله (ص) لما أخذ الحربة منه انتفض انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعراء (١) عن ظهر البعير ثم طعنه طعنة تدأدأ (٢) منها عن فرسه مراراً • وفي زاد المعاد انه مات برابغ • أقول ولم يقتل النبي صلى الله عليه وسلم في حياته أحداً سواه لأنه على كونه كان اشجع الناس واثبتهم في مواقف

(١) الشعراء ذباب له لدغ (٢) تدأدأ تقلب عن فرسه فجعل يتدحرج •

القتال كان أرحمهم وأرأفهم ولذلك كان يكتفي بالتدبير والتثبيت والدفاع عن نفسه ولعله لو رأى مندوحة عن قتل أبيّ لما قتله . وقد كان به ذلك اليوم من ألم الجراح ان عجز عن الصعود الى صخرة اراد أن يعلوها فوضع له طلحة ظهره فقام عليه فنهض به حتى صعدها وحانت الصلاة فصلى بالناس جالساً تحت لواء الانصار

وقتل في ذلك اليوم حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه قتله وحشي الحبشي الراصد له وقد عرفه وهو خائض المعمعة كالجمل الأورق يقط الرقاب ويجندل الابطال لا يقف في وجهه أحد فرماه بحربته عن بعد على طريقة الحبشة وكان قد اتقنها ولو قرب منه لما نال الاحتفه . وقد شق على رسول الله (ص) قتل عمه اذ كان على قربه من السابقين الى الايمان به والمانعين له وكان اشد أهله بأسا واعظمهم شجاعة بل لو قلنا انه كان اشجع المسلمين أو العرب في ذلك العهد لم نكن مبالغين فقد روي ان عمر بن الخطاب لما اقبل على النبي (ص) يوم إسلامه خافه المسلمون الا حمزة فانه وطن نفسه على قتله بلا مبالاة . وخلف حمزة في بأسه وشجاعته علي كرم الله وجهه

وقد انتهت الحرب بصرف الله المشركين عما كانوا يريدون من استئصال المسلمين فان المسلمين كانوا أولاً هم الغالبين بحسن تدبير الرسول (ص) والصبر والثبات وتمحض القصد الى الدفاع عن دين الله وأهله فلما أخرجهم الظفر عن التزام طاعة رسولهم وقائدهم ودب الى قلوب فريق منهم الطمع في الغنيمة فشلوا وتنازعوا في الامر كما سيأتي في تفسير قوله (ولقد صدقكم الله وعده) وزادهم فشلا اشاعة قتل الرسول (ص) حتى فر كثيرون الى المدينة منهم عثمان بن عفان والوليد بن عقبة وخارجة بن زيد ولكنهم استحيوا من دخولها فرجعوا بعد ثلاث . واختلط الامر على كثير ممن ثبت ولما جاءهم خالد بالفرسان من ورائهم صار يضرب بعضهم بعضاً على غير هدى فمنهم الذين استبسلوا وارادوا ان يموتوا على ما مات عليه الرسول (ص) ومنهم الذين كانوا معه صلى الله عليه وسلم يفدونه بأنفسهم ويتلقون السهام والسيوف دونه حتى كان يعز عليهم ان يروه ناظرا الى جهة المشركين لئلا يصيبه سهم فكان أبو طلحة الذي تقدم ذكر نضاله عنه يقول له يانبي الله بأبي انت وامي لا تنظر يصبك سهم من سهام القوم نحري دون نحرك . ولما علم سائر المسلمين بقاء رسول الله (ص)

نفخت فيهم روح جديدة من القوة فاجتمع أمرهم حتى يئس المشركون منهم وصرفهم الله عنهم كما صرح به القرآن العزيز فيما يأتي . فهذا ما كان من حرب الثلاثة الآلاف من المشركين للسبع مئة من المسلمين

ولما انقضت الحرب أشرف أبو سفيان على الجبل فنادى : أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه فقال : أفيكم ابن أبي قحافة ؟ فلم يجيبوه فقال : أفيكم عمر بن الخطاب ؟ فلم يجيبوه . فقال أما هؤلاء فقد كفيتموهم . فلم يملك عمر نفسه ان قال : يا عدوَّ الله إن الذين ذكرتهم أحياء وقد أبقى الله لك ما يسوءك . فقال : قد كان في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسوئني — ثم قال — أُعْلُ هُبَل (١) . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « الا تجيبونه ؟ فقالوا فما نقول ؟ قال قولوا « الله اعلى واجل » ثم قال ابوسفيان: لنا العُزَّى ولاعزى لكم . قال « ألا تجيبونه ؟ قالوا ما نقول ؟ قال « قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » ثم قال ابو سفيان : يوم بيوم بدر والحرب سجال . فأجابه عمر: لاسواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار . وانصرف الفريقان

أقول ان المؤمنين لم ينكسروا في هذه الغزوة ولم ينتصروا بل نال العدو منهم ونالوا منه وانما كبرت عليهم لانهم حرموا النصر وقتل منهم ٧٠ وكانوا يرجون ان يهزموا المشركين ويردوهم مدحورين وسيأتي في الآيات بيان الاسباب والحكم فيما كان . وقال ابن القيم في زاد المعاد : قال ابن عباس « ما نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم في موطن نصره يوم أحد » فانكر عليه ذلك فقال بيني وبين من أنكر كتاب الله ان يقول « ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه » وسيأتي

والتمسوا القتلى فرأوا ان المشركين قد مثلوا بهم وكان التمثيل بحمزة رضي الله عليه شر تمثيل وروي ان النبي (ص) حلف ليمثلن بهم عند ما يظفره الله بهم فنهاه الله عن ذلك فكفر عن يمينه وكان ينهى عن التمثيل بالقتلى فلم يفعله المسلمون .

وخرج نساء من المدينة لمساعدة الجرحى وكانت فاطمة عليها السلام هي التي داوت جرح والدها صلوات الله وسلامه عليه فإنه بعد ان مص الدم منه والد أبي سعيد الخدري حتى أنقاه تولته هي ففي الصحيحين عن أبي حازم انه سئل عن جرح

(١) هبل صنم كان لقريش في الكعبة

رسول الله (ص) فقال : والله اني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله (ص) ومن كان يسكب الماء وبما دووي، كانت فاطمة ابنته تغسله وعلي يسكب الماء بالمجن (الترس) فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم الا كثرة أخذت قطعة من حصير فاحرقتها فألصقتها فاستمسك الدم

ولما انكفأ المشركون راجعين ظن المسلمون انهم يريدون المدينة فقال النبي (ص) لعلي « اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون فان هم جنبوا الخيل وامتطوا الابل فانهم يريدون مكة وان كانوا ركبوا الخيل وساقوا الابل فانهم يريدون المدينة فوالذي نفس محمد بيده لئن ارادوها لأسيرنّ اليهم ثم لأناجزهم فيها » فرآهم علي قد جنبوا الخيل وامتطوا الابل ووجهوا مكة . ولما عزموا على الرجوع اشرف ابوسفيان على المسلمين وناداهم : موعدكم الموسم ببدر . فقال النبي (ص) « قولو نعم قد فعلنا »

ولما كان المشركون في الطريق تلاوموا فيما بينهم وقال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً أصبتم شوكتهم وحدّهم وتركتموهم وقد بقي منهم رءوس يجمعون لكم فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم . فبلغ ذلك النبي (ص) فنادى الناس وندبهم الى المسير الى لقاء عدوهم وقال « لا يخرج معنا الا من شهد القتال » فاستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد والخوف وقالوا « سمعا وطاعـة » وذلك من خوارق قوة الايمان وآياته الكبرى فان هؤلاء المستجيبين كان قد برّح بهم التعب والجراح تبريحا . فسار بهم حتى بلغوا حمراء الاسد (١) وأقبل معبد الخزاعي الى رسول الله (ص) فأسلم فأمره ان يلحق بابي سفيان فيخذله فلحقه بالروحاء (٢) فقال ما وراءك يا معبد ؟ فقال محمد واصحابه قد تحرّقوا عليكم وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله وقد ندم من كان تخلف عنهم من اصحابهم فقال : ما تقول ؟ قال : ما أرى ان ترتحل حتى يطلع اول الجيش من وراء هذه الاكمة . فقال أبو سفيان : والله لقد أجمعنا الكرة عليهم

(١) موضع على ثمانية اميال من المدينة كما في القاموس (٢) الروحاء موضع على طريق مكة يبعد ٤٠ أو ٣٦ ميلا عن المدينة

لنستأصلهم . قال فلا تفعل فاني لك ناصح . فرجعوا على أعقابهم الى مكة . ولقي ابو سفيان بعض المشركين يريد المدينة فقال هل لك ان تبلغ محمدا رسالة وأوقر لك راحلتك زبيبا اذا اتيت الى مكة ؟ قال نعم . قال ابلغ محمدا انا قد أجمعنا الكرة لنستأصله ونستأصل اصحابه . فلما بلغ النبي والمؤمنين قوله قالوا « حسبنا الله ونعم الوكيل »

وقد كان (ص) يدفن الرجلين والثلاثة من شهداء احد في قبر واحد وربما كانوا يلفون بثوب واحد لقلة الثياب ولم يغسلوا ولم يصل عليهم كما في صحيح البخاري وان زعم بعض أهل السير انه صلى عليهم

ولما أراد النبي (ص) الرجوع الى المدينة ركب فرسه وأمر المسلمين ان يصطفوا فاصطفوا خلفه وعامتهم جرحى واصطف خلفهم النساء وهن أربع عشرة امرأة كن بأصل احد فقال « استووا حتى اثني على ربي — فاستووا فقال — اللهم لك الحمد لله لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لمن اضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما اعطيت ، ولا مقرّب لما باعدت ، ولا مباعد لما قربت ، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك ، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ، اللهم اني أسألك النعيم يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف ، اللهم اني عائذ بك من شر ما أعطيتنا ومن شر ما منعت منا ، اللهم حبّب الينا الايمان وزينه في قلوبنا ، وكرّه الينا الكفر والفسوق واجعلنا من الراشدين ، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين والحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين ، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك واجعل عليهم رجزك وعذابك اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب اله الحق » اخرجه احمد والبخاري في الادب المفرد والنسائي وغيرهم ولكن قال الذهبي إنه على نظافة اسناده منكر وأخشى ان يكون موضوعا . ولما رجعوا قال المنافقون فيمن قتل لو كانوا اطاعونا ولم يخرجوا لما قتلوا

***

اذا تمهد هذا فلنشرع في تفسير الآيات . ونقول اولا ان وجه اتصالها بما قبلها هو انه تعالى نهاهم في تلك عن اتخاذ بطانة من الاعداء المعروفين بالعداوة لهم وأعلمهم

بغضهم إياهم وإن خادعهم أفراد منهم بدعوى الايمان وانهم إن يصبروا ويتقوا ما يجب اتقاؤه لا يضرهم كيدهم شيئاً . وبعد هذا البيان ذكرهم في هذه الآيات بوقعة أحد وما كان فيها من كيد المنافقين إذ قالوا ما قالوا أولاً وآخراً واذ خرجوا ثم انشقوا ورجعوا ليخذلوا المؤمنين ويوقعوا الفشل فيهم ، ومن كيد المشركين وتألبهم الذي لم يكن لهم من دافع الا الصبر حتى عن الغنيمة التي طمع فيها الرماة فتركوا موقعهم والا التقوى ومنها بل أهمها طاعة الرسول فيما امر به هؤلاء الرماة ، وذكرهم ايضا بوقعة بدر اذ نصرهم على قلتهم بصبرهم وتقواهم

قال تعالى ﴿ وإذ غدوت من أهلك ﴾ أي واذكر بعد هذا يا محمد اذ خرجت من بيت أهلك غدوة وذلك سحر يوم السبت سابع شوال من سنة ثلاث للهجرة

﴿ تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال ﴾ أي توطنهم وتنزلهم أماكن ومواضع في الشعب من أحد لاجل القتال فيها . فمنها موضع للرماة وموضع للفرسان وموضع لسائر المؤمنين فالمقاعد جمع مقعد وهو في الاصل مكان القعود كالمجلس لمكان الجلوس والمقام لمكان القيام ثم استعملت هذه الالفاظ كلها بمعنى المكان توسعا . وقيل تبوئة المقاعد تسويتها وتهيئتها . ﴿ والله سميع عليم ﴾ لم يخف عنه شيء مما قيل في مشاورتك لمن معك في أمر الخروج الى لقاء المشركين في أحد أو انتظارهم في المدينة فهو قد سمع أقوال المشيرين وعلم نية كل قائل وأن منهم المخلص في قوله وان اخطأ في رأيه كالقائلين بالخروج اليهم ومنهم غير المخلص في قوله وان كان صوابا كعبدالله ابن ابي ومن معه من المنافقين . ويصح أن يكون الوصفان الكريمان متعلقا للظرف في الآية التالية كما نبينه في تفسيرها

وذهب ابن جرير إلى ان الخطاب في هذه الآية للنبي والمراد به أصحابه يضرب لهم مثلاً أو مثلين على صدق وعده في الآية السابقة « وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » بتذكيرهم بما كان يوم أحد من وقوع المصيبة بهم عند ترك الرماة الصبر والتقوى — وذنب الجماعة أو الأمة لا يكون عقابه قاصراً على من اقترفه بل يكون عامًّا — وبما كان يوم بدر إذ نصرهم على قلتهم وذلتهم .

وهذا الرأي يتفق مع ما ذكرناه في وجه الاتصال بين الآيات

﴿ إذهمت طائفتان منكم ان تفشلا ﴾ قال ابن جرير يعني بذلك جلّ ثناؤه والله سميع عليم حين همت طائفتان منكم ان تفشلا . والهمّ حديث النفس وتوجهها إلى الشيء والفشل ضعف مع جبن . وقيل ان هذا بدل من قوله «وإذ غدوت» وقيل متعلق بتبوّئ . أي كان صلى الله عليه وسلم يتخذ المعسكر للمؤمنين وينزل كل طائفة منهم منزلا في وقت همت فيه طائفتان منهم بالفشل افتتاناً بكيد المنافقين الذين رجعوا من العسكر . والطائفتان هما بنو سلمة و بنو حارثة من الانصار كما تقدم في القصة ﴿ والله وليهما ﴾ أي متولي أمورهما لصدق إيمانهما لذلك صرف الفشل عنهما وثبتهما فلم يجيبا داعي الضعف الذي ألمّ بهما عند رجوع نحو ثلث العسكر بل تذكرا ولاية الله للمؤمنين فوثقا به وتوكلا عليه ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أمثالهم لا على حولهم وقوتهم ولا على اعوانهم وانصارهم وانما يبذلون حولهم وقوتهم ، ويأخذون اهبتهم وعدتهم ، إقامة لسنن الله تعالى في خلقه إذ جعل الأسباب مفضية الى المسببات وهو الفاعل المسخر للسبب والمسبب والموفق بينهما فينصر الفئة القليلة على الكثيرة ان شاء كما نصر المؤمنين يوم بدر ولذلك قال

﴿ ولقد نصركم الله ببدر ﴾ وهو ماء أو بئر بين مكة والمدينة كان لرجل اسمه بدر فسمي باسمه ثم أطلق اللفظ على المكان الذي هو فيه . وقد كانت فيه أول غزوة قاتل فيها النبي المشركين في ١٧ رمضان من السنة الثالثة للهجرة فنصره الله عليهم نصراً مؤزرا ﴿ وأنتم أذلة ﴾ أي نصركم في حال ذلة كنتم فيها على قلتكم — كما يفيده لفظ أذلة ، إذ هو جمع قلة — وقد كانوا ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً . والمراد بكونهم أذلة انهم لا منعة لهم اذ كانوا قليلي العدة من السلاح والظهر (اي ما يركب) والزاد . ولا غضاضة في الذل الا اذا كان عن قهر من البغاة والظالمين ولم يكن المؤمنون بمقهورين ومستذلين من الكافرين وانما كانت قوتهم في اوائل تكوّنها ﴿ فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ فان التقوى هي التي تعدّكم للقيام في مقام

الشكر على النعم التي يسديكم إياها فمن لم يَرُضْ نفسه بالتقوى غلب عليه اتباع الهوى فلا يرجى له أن يكون شاكرا يصرف النعمة الى ماوهبت لاجله من الحكم والمنافع ٠

﴿ إذ تقول للمؤمنين ﴾ قيل ان هذا متعلق بقوله « ولقد نصركم الله ببدر » وقيل إنه خاص بوقعة أحد التي ورد فيها هذا السياق كقوله « اذ همت طائفتان منكم ان تفشلا » متعلق بتبوئ أو بسميع او بدل من إذ الاولى. والتقدير تبوّئهم مقاعد للقتال في الوقت الذي همَّ فيه بعضهم بالفشل مع ان الله نصركم ببدر على قلة وذلة — وفي الوقت الذي كنت تقول فيه للمؤمنين ﴿ ألن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ﴾ وهذا هو المختار. والتقدير على الاول إن الله نصركم ببدر في ذلك الوقت الذي كنت تقول فيه لهم « ألن يكفيكم » الخ أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وغيرهما عن الشعبي ان المسلمين بلغهم يوم بدر ان كرز بن جابر المحاربي يريد ان يمد المشركين فشق ذلك عليهم فأنزل الله « ألن يكفيكم » الخ فبلغت كرزا الهزيمة فلم يمد المشركين ٠ ورواه ابن جرير عن الشعبي وعن غيره وذكر الخلاف في حصول هذا الامداد بالفعل وان بعضهم يقول انه لم يحصل وبعضهم قال انه حصل يوم بدر ونقل عن بعضهم ان الوعد بالامداد وان لم يحصل ببدر عام في كل الحروب وانهم امدوا في حرب قريظة والنضير والاحزاب ولم يمدوا يوم أحد لانهم لم يصبروا ولم يتقوا . وروى عن الضحاك ان هذا كان موعدا من الله يوم أحد عرضه على نبيه محمد (ص) أن المؤمنين ان اتقوا وصبروا أمدهم بخمسة آلاف . وروى نحوه عن ابن زيد قال « قالوا لرسول الله (ص) وهم ينظرون المشركين أليس الله يمدنا كما أمدنا يوم بدر ؟ فقال رسول الله (ص) ألن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين وانما أمدكم يوم بدر بألف . قال فجاءت الزيادة ﴿ بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾ الفور في الاصل فوران القدر ونحوها ثم استعير الفور للسرعة ثم سميت به الحالة التي لاريث فيها ولا تعريج من صاحبها على شئ فمعني يأتوكم من فورهم من ساعتهم

هذه بدون ابطاء . ومسومين من التسويم قرأها ابن كثير وابو عمرو وعاصم ويعقوب بكسر الواو المشددة والباقون بفتحها . وقد ورد سوّمه الامر بمعنى كلفه إياه وسوّم فلانا خلاه وسوّمه في ماله حكمه وصرّفه وسوّم الخيل أرسلها وكل هـذه المعاني ظاهرة على قراءة فتح الواو من «مسوَّمين» فيصح أن يكون المعنى ان هؤلاء الملائكة مكلفين من الله بتثبيت قلوب المؤمنين، او محكمين ومصرفين فيما يفعلونه في النفوس من إلهام النصر بتثبيت القلوب والربط عليها، او مرسلين من عنده تعالى. وأما قراءة كسر الواو « مسوِّمين » فهي من قولهم سوّم على القوم اذا أغار عليهم ففتك بهم ولو بالاعانة المعنوية على ذلك. وقال بعض المفسرين انه من التسويم بمعنى إظهار سيما الشيء اي علامته اي معلمين أنفسهم او خيلهم وهو كما ترى لولا الرواية لم يخطر على بال احد منهم ويمكن ان يقال مسومين للمؤمنين بما يظهر عليهم من سيما تثبيتهم اياهم

قال ابن جرير بعد ذكر الخلاف في هذا الامداد مانصه : « وأولى الاقوال في ذلك بالصواب ان يقال ان الله أخبر عن نبيه محمد (ص) انه قال للمؤمنين الن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة ثم وعدهم بعد الثلاثة الآلاف خمسة آلاف ان صبروا لاعدائهم واتقوا ولا دلالة في الآية على انهم امدوا بالثلاثة الآلاف ولا بالخمسة الآلاف ولا على أنهم لم يمدوا بهم وقد يجوز ان يكون الله أمدهم على نحو مارواه الذين اثبتوا ان الله أمدهم وقد يجوز ان يكون الله لم يمدهم على نحو الذي ذكره من انكر ذلك . ولا خبر عندنا صح من الوجه الذي يثبت أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف ولا بالخمسة الآلاف وغير جائز ان يقال في ذلك قول الا بخبر يقوم الحجة به ولا خبر به فنسلمَ لاحد الفريقين قوله . غير ان في القرآن دلالة على انهم قد امدوا يوم بدر بألف من الملائكة وذلك قوله (٨ : ٩ إذْ تَسْتَغيثُونَ رَبَّكُم فاسْتَجابَ لكُمْ أني مُمِدكم بألفٍ مِنَ الملائكةِ مُردِفينَ) اما في احد فالدلالة على انهم لم يمدوا أبين منها في انهم امدو وذلك انهم لو امدوا لم يهزموا وينل منهم مانيل منهم » اه

أقول أما معنى هذا الإمداد بالملائكة فهو من قبيل امداد العسكر بما يزيد عددهم أو عدّتهم وقوتهم ولو النفسية وهذا هو الظاهر وهاك بيانه

الإمداد من المد والمدُّ في الاصل عبارة عن بسط الشيء كمد اليد والحبل أو عن الزيادة في مادته كمد النهر بنهر أو سيل آخر . قال تعالى (٢٣: ٥٥ أيحسبون ان ما نُمِدُّهم به من مال وبنين ٥٦ نسارع لهم في الخيرات ؟) فالإمداد يكون بالمال وهو ما يتموَّل وينتفع به ويكون بالاشخاص . والامداد بالملائكة يصح ان يكون من قبيل الامداد بالمال الذي يزيد في قوة القوم وان يكون من الامداد بالاشخاص الذين ينتفع بهم ولو نفعاً معنوياً وذلك ان الملائكة أرواح تلابس النفوس فتمدُّها بالإلهامات الصالحة التي تثبتها وتقوي عزيمتها ولذلك قال عزَّ وجل ﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ قال ابن جرير : يعني تعالى ذكره وما جعل الله وعده إياكم ما وعدكم به من إمداده إياكم بالملائكة الذين ذكر عددهم إلا بشرى لكم يبشركم بها « ولتطمئن قلوبكم به » يقول وكي تطمئن بوعده الذي وعدكم من ذلك قلوبكم فتسكن اليه ولا تجزع من كثرة عدد عدوّكم وقلة عددكم « وما النصر إلا من عند الله » يعني وما ظفركم ان ظفرتم بعدوكم إلا بعون الله لا من قبل المدد الذي يأتيكم من الملائكة اه

وأقول الظاهر ان يكون التقدير وما جعل الله ذلك القول الذي قاله لكم الرسول وهو « ألن يكفيكم » الخ إلاَّ بشرى يفرح بها روعكم وتنبسط به أسارير وجوهكم وطمأنينةً لقلوبكم التي طرقها الخوف من كثرة عدوكم واستعدادهم . أي إن قول الرسول له هذا التأثير في تقوية القلوب وتثبيت النفوس . وانما أرجعنا ضمير « جعله » إلى قول الرسول (ص) لا إلى وعد اللهِ عز وجل لان الآيتين السابقتين ليستا وعداً من الله بالإمداد بالملائكة وإنما هما إخبار عما قاله الرسول (ص) فقد أخبر تعالى في تينك الآيتين ان رسوله قال لأصحابه ذلك القول وبين في هذه الآية فائدة ذلك القول ومنفعته مع بيان الحقيقة وهي ان النصر بيد الله العزيز اي القوي الذي لا يمتنع عليه شيء الحكيم الذي يدبر الأمر على خير سنن، ويقيمه بأحسن سنن، فيهدي لأسباب النصر الظاهرة والباطنة من يشاء، ويصرف عنهما من يشاء، فان حصل الإمداد بالملائكة فعلاً فما يكون الا جزءاً من أجزاء سبب النصر أو فردا من أفراده، ومنه إلقاء الرعب والخوف في قلوب الاعداء، ومنه سائر الاسباب

المعروفة من الصبر والثبات وحسن التدبير ومعرفة المواقع وغير ذلك فان النبي (ص) سلك الى أحــد أقرب الطرق واخفاها عن العدوّ وعسكر في أحسن موضع وهو الشعب (الوادي) وجعل ظهر عسكره الى الجبل وجعل الرماة من ورائهم فلما اختل بعض هذه التدبيرات لم ينتصروا

وذكر بعض أهل السير ان الملائكة قاتلت يوم أحد وهو ما نفاه ابن جرير وقد ذكرنا عبارته بل روي عن ابن عباس ان الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر وفيما عــداه كانوا عددا ومددا لا يقاتلون . وانكر أبو بكر الأصم قتال الملائكة وقال ان الملك الواحد يكفي في إهلاك أهل الارض كما فعل جبريل بمدائن قوم لوط فاذا حضر هو يوم بدر فأي حاجة إلى مقاتلة الناس مع الكفار و بتقدير حضوره أي فائدة في إرسال سائر الملائكة ، وأيضا فان أكابر الكفار كانوا مشهورين وقاتل كل منهــم من الصحابة معلوم ، وأيضاً لو قاتلوا فإما ان يكونوا بحيث يراهم الناس أولا ، وعلى الأول يكون المشاهد من عسكر الرسول ثلاثة آلاف وأكثر ولم يقل أحد بذلك ولانه خلاف قوله (٨ : ٤٤ ويقللكم في أعينهم) ولو كانوا في غير صورة الناس لزم وقوع الرعب الشديد في قلوب الخلق ولم ينقل ذلك ألبتة ، وعلى الثاني كان يلزم جز الرءوس وتمزق البطون و إسقاط الكفار من غير مشاهدة فاعل ومثل هذا يكون من أعظم المعجزات فكان يجب ان يتواتر ويشتهر بين الكافر والمسلم والموافق والمخالف . وأيضاً إنهــم لو كانوا أجساما كثيفة وجب ان يراهم الكل وان كانوا أجساماً لطيفة هوائية فكيف ثبتوا على الخيول . اه ذكر ذلك الرازي والنيسابوري فالرازي أورد هذا عن الأصم وذكر حججه مفصلة كعادته بقوله الحجة الأولى — الحجة الثانية الخ ولخصه النيسابوري عنه بما ذكرناه . واعترض الرازي عليه بأن مثل هذا انما يصدر من غــير المؤمنين وكان يجب ان يرد عليه بما يدفع هذه الحجج أو يبين لها مخرجاً

ليس في القرآن الكريم نص ناطق بان المـلائكة قاتلت بالفعل فيحتج به الرازي على ابي بكر الاصم وإنما جاء ذكر الملائكة في سياق الكلام عن غزوة بدر في سورة الانفال علي انها وعد من الله تعالى بإمداد المؤمنين بألف من الملائكة

وفسر هذا الامداد بقوله عز وجل (٨ : ١٢ إذ يوحي ربك الى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان) قال ابن جرير في معني التثبيت (ص) ١٢٤ « يقول قوّوا عزمهم وصححوا نياتهم في قتال عدوّهم من المشركين وقيل كان ذلك معونتهم إياهم بقتال اعدائهم » فانت ترى انه جزم بأن عمل الملائكة في ذلك اليوم انما كان موضوعه القلوب بتقوية عزيمتها، وتصحيح نيتها، وذكر قول من قال إن ذلك كان بمعونتهم في القتال بصيغة تدل على ضعفه « قيل » وجعل قوله تعالى « سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب » الخ من تتمة خطاب الله للمؤمنين وهو الظاهر . وبعض المفسرين يجعله بيانا لما تثبت به الملائكة النفوس اي انها تلقي فيها اعتقاد إلقاء الله الرعب في قلوب المشركين الخ

وبهذا يندفع ما قاله الاصم ولا يبقي محل لحججه فانه لا ينكر ان الملائكة ارواح يمكن ان يكون لها اتصال ما بأرواح بعض البشر وتأثير فيها بالإلهام أو تقوية العزائم . ويؤيده قوله تعالى (وما جعله الله الا بشرى) كما قال مثل ذلك في هذه السورة

هذا ما كان يوم بدر وسيأتي بسطه في تفسير سورة الانفال إن احيانا الله تعالى . وأما يوم أحد فالمحققون على أنه لم يحصل إمداد بالملائكة ولا وعد من الله بذلك وانما اخبر الله عن رسوله (ص) انه ذكر ذلك لأصحابه وجعل الوعد به معلقا على ثلاثة أمور الصبر والتقوى وإتيان الاعداء من فورهم ولم تتحقق هذه الشروط فلم يحصل الامداد كما تقدم . ولكن القول أفاد البشارة والطمأنينة

وبقي ان يقال ما الحكمة وما السبب في امداد الله المؤمنين يوم بدر بملائكة يثبتون قلوبهم وحرمانهم من ذلك يوم أحد حتى اصاب العدوّ منهم ما أصاب ؟

والجواب عن ذلك يعلم من اختلاف حال المؤمنين في ذينك اليومين فنذكره هنا مجملا مع بيان فلسفته الروحانية وندع التفصيل فيه الى تفسير الآيات هنا وفي سورة الانفال فان ما هنا تفصيل لما في وقعة أحد من الحكم وما في سورة الانفال تفصيل لما كان في وقعة بدر من ذلك

كان المؤمنون يوم بدر في قلة وذلة من الضعف والحاجة فلم يكن لهم اعتماد الا على الله تعالى وما وهبهم من قوة في أبدانهم ونفوسهم وما أمرهم به من اثبات والذكر اذ قال (٨: ١٥ اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) فبذلوا كل قواهم وامتثلوا أمر ربهم ولم يكن في نفوسهم استشراف الى شيء ما غير نصر الله وإقامة دينه والذود عن نبيه لا في أول القتال ولا في أثنائه فكانت أرواحهم بهذا الإيمان وهذا الصفاء قد علت وارتقت حتى استعدت لقبول الإلهام من أرواح الملائكة والتقوّي بنوع ما من الاتصال بها

واما يوم أحد فقد كان بعضهم في أول الأمر على مقربة من الافتتان بما كان من المنافقين ولذلك همت طائفتان منهم ان تفشلا ثم إنهم لما ثبتوا و باشروا القتال انتصروا وهزموا المشركين الذين هم أكثر من ثلثهم فكان بعد ذلك أن خرج بعضهم عن التقوى وخالفوا أمر الرسول وطمعوا في الغنيمة وفشلوا وتنازعوا في الأمر فضعف استعداد أرواحهم فلم ترتق الى أهلية الاستمداد من أرواح الملائكة فلم يكن لهم منهم مدد لأن الإمداد «لا يكون الا على حسب الاستعداد»

هذا هو السبب لما حصل بحسب ما يظهر لنا واما حكمته فهي تمحيص المؤمنين كما سيأتي في قوله « وليمحص الله » الخ وتربيتهم بالفعل على إقامة سنن الله تعالى في الاسباب والمسببات كما سيأتي في قوله « قد خلت من قبلكم سنن » و بيان ان هذه السنن حاكمة حتى على الرسول وان قتل الرسول او موته لا ينبغي ان يكون مثبطا للهمم ولا داعية الى الانقلاب على الاعقاب وانه ليس له من أمر العباد شيء وان كل ما يصيبهم من المصائب فهو نتيجة عملهم اذ هو عقوبة طبيعية لهم وغير ذلك مما بينه الله تعالى في قوله « أو لما أصابتكم مصيبة » الخ وقوله « وما محمد الا رسول» الخ وغيرهما فلا تعجله قبل الكلام في تفسير الآيات الناطقة به وما هي ببعيد

ومن نكت البلاغة المؤيدة لما ذكرنا من اختلاف الحالين في الوقعتين انه تعالى قال هنا « ولتطمئن قلوبكم به » وقال في سورة الانفال (٨: ١٠ ولتطمئن به قلوبكم) والفرق بينهما أن المؤمنين لم يكن لهم يوم بدر ما تطمئن به قلوبهم غير وعد الله وبشارته لهم على لسان رسوله (ص) ولذلك كان من دعائه يومئذ « اللهمّ

أنجز ما وعدتني اللهمَّ أنجز ما وعدتني ، اللهمَّ ان تهلك هـذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً » قال عمر راوي هذا الحديث : فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردّاه ثم التزمه من ورائه ثم قال : يا نبي الله كفاك مناشدتك لربك فانه سينجز لك ما وعدك . وأنزل الله يومئذ « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لـكم اني ممدُّكم » الآية . رواه أحمد ومسلم وغيرهما. فكان بهذا الوعد اطمئنان قلوبهم لا بسواه فلذلك قدم « به » على « قلوبكم » واما في يوم أحد فلم تكن الحال كذلك كما علم مما تقدم آنفا فلم تعدُ البشارة ان تكون مما يطمئن به القلب فقال « ولتطمئن قلوبكم به » من غير قصر . ثم قال تعالى

﴿ ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ﴾ ذهب بعض المفسرين إلى ان هذا متعلق بقوله « ولقد نصركم الله ببدر » وبعض آخر إلى انه من الـكلام في وقعة أحد المقصودة بالذات فان ذكر النصر ببدر انما جاء استطراداً ولذلك أنكروا ان يكون ذكر الملائكة الثـلاثة الآلاف والخمسة الآلاف متعلقاً به . وهـذا هو المختار عندنا . أي أنه فعل ما فعل ليقطع طرفاً أو وما النصر إلاَّ من عنـده ليقطع طرفا . ومعنى قطع الطرف منهم اهلاك طائفة منهم يقال « قطع دابر القوم » اذا هلـكوا وقد نطق به التنزيل . وعـبر عن الطائفة بالطرف لأنهم الأقرب إلى المسلمين من الوسط أو أراد بهم الاشراف منهم كذا قيل والمتبادر الأول لا لأنه من باب « قاتلوا الذين يلونكم » كما قيل بل لأن الطرف هو أول ما يوصل اليه من الجيش . وقد أهلك الله من المشركين يوم أحد طائفة في أول الحرب . روى ابن جرير عن السدي انه قال : ذكر الله قتلى المشركين يعني بأحد وكانوا ثمانية عشر رجلاً فقال « ليقطع طرفاً من الذين كفروا » الخ ونقول قد ذكر غير واحد من أهل السير ان قتلى المشركين يوم أحـد كانوا ثمانية عشر رجلاً ورد عليهم آخرون بأن حمزة وحـده قتل نحو ثلاثين • وصرح بعضهم بأن سبب غلط من قال ذلك القول هو ما روي ان بعض المسلمين اراد عد قتلى المشركين فعد ثمانية عشر . وصرح بعضهم بان سبب ذلك ان المشركين أخذوا قتلاهم أودفنوهم لئلاَّ يمثل بهم المسلمون المعركة كما مثلوا هم بالمسلمين عندما أصابوا الغرة منهم وهذا هو

المعقول . وانتظر أيها القارئ قوله تعالى « اولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها » الآية

واما قوله « أو يكبتهم » فقد فسروه بأقوال منهـا ان معناه يخزيهم ومنها ان معناه يصرعهم لوجوههم وفي الأساس : كبت الله عدوه أكبه وأهلكه . ولكن صاحب الأساس فسر الكلمة في الكشاف بقوله « ليخزيهم ويغيظهم بالهزيمة » وقال الراغب : الكبت الردّ بعنف وتذليل . وقال البيضاوي « أو يخزيهم والكبت شدة الغيظ أو وهن يقع في القلب » وكل هذه المعاني وردت في كتب اللغة وصرح البيضاوي بأن « أو » هنا للتنويع لا للترديد والمعنى انه يقطع طرفا وطائفة ويكبت طائفة أخرى أي ويتوب على طائفة ويعذب طائفة كما في الآية الآتية

﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون ﴾

جملة « ليس لك من الأمر شيء » معترضة بين هذا التقسيم وما بعدها معطوف على ما قبلها . ولما كانت هذه الآية مما نزل في وقعة أحد كما روي في الصحيح تعين ان تكون التي قبلها كذلك وإلا كانت غير مفهومة إلا بتكلف ينزه القرآن عن مثله على كونه لا حاجة إليه

اما كونها نزلت في شأن واقعه أحد فيدل عليه ماورد في سبب نزولها روى احمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم من حديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد « اللهم العن أبا سفيان اللهم العن الحارث بن هشام اللهم العن سهيل بن عمرو اللهم العن صفوان بن أمية » فنزلت هذه الآية فتيب عليهم كلهم . وروى البخاري عن ابي هريرة نحوه وروى احمد ومسلم من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد وشج في وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال « كيف يفلح قوم فعلوا هـذا بنبيهم وهو يدعوهم الى ربهم » فأنزل الله « ليس لك من الامر شيء » الآية ذكر ذلك كله السيوطي في لباب النقول ولم يعز الاول الى الترمذي والنسائي اكتفاء بمن هو أصح منهما رواية . وقد روى ذلك ابن جرير من عـدة طرق . وما روي غير ذلك لايعتد به . ولا تنافي بين حـديث ابن عمر وحديث انس لان الجمع بينهما ظاهر وهو أنه قال ماقال فيهم حـين أدموه ثم لعن رؤساءهم فنزلت الآية عقب ذلك كله

واما المعنى فقد قال ابن جرير: يعني بذلك تعالى ذكره: ليقطع طرفا من الذين كفروا او يكبتهم او يتوب عليهم او يعذبهم فانهم ظالمون ليس لك من الامر شيء. فقوله «أو يتوب عليهم» منصوب عطفا على قوله او «يكبتهم» وقد يحتمل ان يكون تأويله ليس لك من الامر شيء حتى يتوب عليهم فيكون نصب يتوب بمعنى «أو» التي هي في معنى «حتى» والقول الأول أولى بالصواب لانه لاشيء من أمر الخلق الى أحد سوى خالقهم قبل توبة الكفار وعقابهم وبعد ذلك. وتأويل «ليس لك من الامر شيء» ليس اليك يامحمد من أمر خلقي الا ان تنفذ فيهم أمري وتنتهي فيهم الى طاعتي وانما أمرهم اليَّ والقضاء فيهم بيدي دون غيري أقضي فيهم وأحكم بالذي أشاء من التوبة على من كفر بي وعصاني وخالف امري او العذاب إما في عاجل الدنيا بالقتل والنقم المبيرة وإما في آجل الآخرة بما اعددت لأهل الكفر بي. اه قول ابن جرير وقد اورد بعده ماعنده من الروايات في الآية

وأقول لولم يكن لما جرى في غزوة أحد حكمة الا نزول هذه الآية لكفى فكيف وقد جمع اليها ما سيأتي من الحكم الدينية والاجتماعية والحربية!!

كان المؤمنون السابقون إلى الإسلام على ثقة من وعد الله تعالى بنصر نبيه وإظهار دينه لم يزلزل إيمانهم بذلك ضعفهم وقلتهم، ولا إخراج المشركين للمهاجرين لهم من ديارهم وأموالهم، وكانت وقعة بدر، أول تباشير هذا النصر، فلما رأوا ان الله تعالى نصرهم على قلتهم وضعفهم بعد ما كان من دعاء الرسول وتضرعه واستغاثته ربه زادهم ذلك إيماناً بأنهم هم المنصورون ولكن وقع في نفوس الكثيرين — ان لم نقل في نفوس الجميع — أن نصرهم سيكون بالآيات والعناية الخاصة من غير التزام للسنن الإلهية في الاجتماع البشري وأن وجود الرسول فيهم ودعاءه على أعدائهم هما أفعل في التنكيل بالكفار من التزام الاسباب الظاهرة التي أهمها طاعة القائد والتزام النظام العسكري وغير ذلك، ولكن الاسلام دين الفطرة لا الخوارق كانت عاقبة ذلك ان قصروا في هذه الاسباب يوم أحد حتى ظهر عليهم العدوُّ وجرح الرسول نفسه — وان لم يقصر هو ولم ينهزم (عليه السلام) كما هي السنة الاجتماعية التي

بينها تعالى قبل ذلك في سورة الانفال بقوله (٨ : ٥ واتقوا فتنة لاتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة)ـ وأن تبرّم الرسولُ من الكافرين ودعا على رؤسائهم، فكان ذلك فرصة لإعلام المؤمنين بحقيقة من حقائق دين الفطرة وهي ان الرسول بشر ليس له من أمر العباد ولا من أمر الكون شيء وانما هو معلم وأسوة حسنة فيما يعلّمه والأمر كله لله كما صرح به في الآية ١٥٤ يدبره بمقتضى سننه كما نص على ذلك في الآية ١٣٧ وكلا الآيتين من هذا السياق

هذا البيان الالهي في هذه الواقعة يتمكن في النفوس ما لا يتمكن لولم يكن مقروناً بواقعة مشهودة لا مجال معها لتأويله ولا لتخصيصه أو تقييده فهو من أقوى دعائم التوحيد في القرآن ، ودلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام، اذ لو كان النبي (ص) مؤسس ملك ، وزعيم سياسة يديرها بالرأي ، لما قال مثل هذا القول ، في مثل هذا الموطن ، فأي نصيب من هذا الدين للذين يجعلون أمر العباد وتدبير شؤون الكون لطائفة من أصحاب القبور او الاحياء ، الذين يلقبون بالمشايخ والأولياء ، فيزعمون انهم ينصرون ويخذلون، ويسعدون ويشقون ، ويميتون ويحيون، ويغنون ويفقرون ، ويمرضون ويشفون ، ويفعلون كل ما يشاءون ، ؟؟ هل يعد هولاء من أهل الاسلام ، وأتباع القرآن ، الذي يخاطب خاتم النبيين والمرسلين ، حين لعن رؤساء المشركين ، الذين حاربوه حتى خضبوا بالدم محياه، وكسروا إحدى ثناياه، بقوله « ليس لك من الامر شيء » وقوله « قل ان الأمر كله لله » ؟ هذا تعليم القرآن الحكيم ، وهذا هديه القويم ، فهل كان أهل بخارى مهتدين به عند ما كانوا يقولون وقد علموا بعزم روسيا على الاستيلاء على بلادهم : إن « شاه نقشبد » هو حامي هذه البلاد فلن يستطيعها أحد ؟ هل كان أهل فاس مهتدين به عند ما لجأوا الى قبر وليهم « إدريس » يستغيثون به على الفرنسيس ؟ هل كان المسلمون على شيء من هدي هذا الدين عندما كانوا يستنصرون بقراءة البخاري أو يستغيثون بالأولياء في بلاد كثيرة ؟ أيزعمون ان هذه النزغات الوثنية من الدعاء المشروع ؟ ألم يعتبروا بهذه الآية وما رواه أهل الصحيح في سببها وهو دعاء النبي على رؤساء المشركين حين فعلوا ما فعلوا ؟ ألم يتعلموا من ذلك أن الاستعداد بالفعل ، مقدم

على الدعاء بالقول ،؟ ألم يروا أن سلفهم كانوا ينصرون ، أيام لم يكونوا دائماً يقولون، « اللهمّ نكس اعلامهم ، اللهمّ زلزل أقدامهم ، اللهمّ يتم أطفالهم ، اللهمّ اجعلهم غنيمة للمسلمين » وأنهم بعد اللهج بهذه الكلمات ، غير منصورين في جهة من الجهات،؟. فالعمل العمل، الاستعداد الاستعداد ، الأهبة الاهبة، (٨: ٦٠ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ولا قوة الا بالعلم والمال ، ولا مال الا بالعدل ، ولا عدل مع حكم الاستبداد،ثم بعد كمال الاستعداد ، يكون الذكر والاستمداد ، (٨ : ٤٥ إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا — ٤٦ ولا تنازعوا فتفشلوا) هـذا هدي الإسلام وقد تمثل لهم صدقه في النبي وصالحي المؤمنين ، (٢٣ : ٦٨ أفلم يَدَّبَّرُوا القولَ أم جاءهم مالم يأتِ آباءَهم الأولين) ؟؟

ثم اكد تعالى هذه الحقيقة وأيدها بقوله ﴿ ولله ملك السماوات والارض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم ﴾ فمن كان له ملك السموات والارض كان حقيقا بأن يكون له الامر كله في السموات والارض ولا يمكن ان يكون لاحد من أهلهما شركة معه ولا رأي ولا وساطة تأثير في تدبيرهما وان كان ملكاً مقربا او نبياً مرسلاً إلا من سخره تعالى للقيام بشيء فانه يكون خاضعا لذلك التسخير لا يستطيع الخروج فيه عن السنن العامة التي قام بها نظام الكون ونظام الاجتماع . وفي ذلك تأديب من الله تعالى لرسوله و إعلام بأن ذلك اللعن والدعاء على المشركين مما لم يكن ينبغي له ولذلك قال ابن جرير في تفسير الآية « يعني بذلك ذكره تعالى ليس لك يامحمد من الامر شيء ولله جميع ما بين اقطار السموات والارض من مشرق الشمس الى مغربها دونك ودونهم يحكم فيهم بما شاء ويقضي فيهم ما احب فيتوب على من احب من خلقه العاصين أمره ونهيه ثم يغفر له و يعاقب من شاء منهم على جرمه فينتقم منه « الغفور » الذي يستر ذنوب من احب ان يستر عليه ذنوبه من خلقه بفضله عليهم بالعفو والصفح و « الرحيم » بهم في تركه عقوبتهم عاجلاً على عظيم ما يأتون من المآثم » اهـ ولا تنس ان مشيئته المغفرة او التعذيب جارية على سنن حكيمة مطردة كما تقدم غير مرة (راجع ص ٢٧١ من الجزء الثالث) (*)

(*) راجع ص ٨٨ من المجلد العاشر

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله .

ترجمة القرآن

(س) من الشيخ حسن شاه افندي احمد (بروسيا)

حضرة الأستاذ السيد محمد رشيد رضا

نرجو ان تعيروا جانب الالتفات لهذه المسألة المهمة :

ذكر الفاضل أحمد مدحت افندي من علماء الترك العثمانيين في كتابه « بشائر صدق نبوت » ما ترجمته :

ان ترجمة القرآن مسألة مهمة عند المسلمين وجميع المباحثات التي دارت بشأن ترجمة هذا الكتاب المجيد لم ترس على نتيجة وذلك لوجوه (الاول) ان ترجمته بالتمام غير ممكنة لإعجازه من جهة البلاغة (والوجه الثاني) ان فيه كثيراً من الكلمات لا يوجد لها مقابل في اللغة التي يترجم اليها فيضطر المترجم الى الاتيان بما يدل عليها مع شيء من التغيير ثم اذا نقلت هذه الترجمة الى لغة أخرى يحدث فيها شيء من التغيير أيضاً وهلم جرًّا فيخشى من هذا ان يفتح طريق لتحريف القرآن وتغييره (الوجه الثالث) أن كلمات الكتب السماوية يستخرج منها بعض إشارات وأحكام بطريق الحساب فإبدالها بالترجمة يسد هذا الطريق . مثال ذلك أن سعدي جلبي كتب في حاشيته على البيضاوي عند تفسير سورة الفاتحة انه اذا اخرجت الحروف المكررة من سورة الفاتحة التي هي اول القرآن وسورة الناس التي هي آخر سوره تكون الحروف الباقية ثلاثة وعشرين . قال وفي ذلك اشارة الى مدة سني النبوة

المحمدية » فاذا ترجم القرآن لايبقي في الترجمة مثل هذه الفوائد التى هي من جملة معجزاته انتهى « من بشائر صدق نبوت »

أما أدباؤنا معشر الترك الروسيين فانهم مصرون على ترجمته ويقولون لامعنى للقول بانه لاتجوز ترجمة القرآن الا ايجاب بقائه غير مفهوم فلذا يذهبون الى وجوب ترجمته وهو الآن يترجم في مدينة قزان وتطبع ترجمته تدريجا وكذلك تشبث بترجمته الى اللسان التركي زين العابدين حاجي الباكوي أحد فدائية القفقاز فنرجو من حضرة الاستاذ التدبر في هذه المسألة حرره الامام الحقير أحسن شاه أحمد الكاتب الديني السماري

(ج) ان من تقصير المسلمين في نشر دينهم ان لايبينوا معاني القرآن لاهل كل لغة بلغتهم ولو بترجمة بعضه لهم لاجل دعوة من ليس من اهله اليه وارشاد من يدخل فيه عند الحاجة بقدر الحاجة . وان من زلزال المسلمين في دينهم أن يتفرقوا الى امم تكون رابطة كل امة منها جنسية نسبية او لغوية او قانونية ويهجروا القرآن المنزل من الله تعالى على خاتم رسله المعجز بأسلوبه و بلاغته وهدايته المتعبد بتلاوته اكتفاء بأفراد من كل جنس يترجمونه لهم بلغتهم بحسب مايفهم المترجم

هذا الزلزال أثر من آثار جهاد أوربا السياسي والمدني للمسلمين . زين لنا ان نتفرق وننقسم الى اجناس ظانا كل جنس منا ان في ذلك حياته وما ذلك الا موت للجميع . ولا نطيل في هذه المسألة هنا ولكننا نذكر شيئا مما يخطر في البال من مفاسد هجر المسلمين للقرآن المنزل « بلسان عربي مبين » استغناء عنه بترجمة أعجمية يغنيهم عنها تفسيره بلغتهم مع المحافظة على نصه المتواتر المحفوظ من التحريف والتبديل مع مراعاة الاختصار فنقول

(١) إن ترجمة القرآن ترجمة حرفية تطابق الاصل متعذرة كما يعلم من المسائل الآتية والترجمة المعنوية عبارة عن فهم المترجم للقرآن أو فهم من عساه يعتمد هو على فهمه من المفسرين وحينئذ لا تكون هذه الترجمة هي القرآن وإنما هي فهم رجل للقرآن يخطئ في فهمه ويصيب ولا يحصل بذلك المقصود المراد من الترجمة بالمعنى الذي ننكره

(٢) إن القرآن هو أساس الدين الاسلامي بل هو الدين كله اذ السنة ليست

دينا الا من حيث انها مبينة له . فالذين يأخذون بترجمته يكون دينهم مافهمه مترجم القرآن لهم لانفس القرآن المنزل من الله على رسوله محمد (ص) . والاجتهاد بالقياس إنما هو فرع عن النص والترجمة ليست نصا من الشارع ، والاجماع عند الجمهور لابد أن يكون له مستند والترجمة ليست مستندا . فعلى هذا لا يسلم لمن يجعلون ترجمة القرآن قرآناً شيء من اصول الإسلام

(٣) ان القرآن منع التقليد في الدين وشنع على المقلدين فأخذ الدين من ترجمة القرآن هو تقليد لمترجمه فهو إذاً خروج عن هداية القرآن لااتباع لها

(٤) ويلزم من هذا حرمان المقتصرين على هذه الترجمة مما وصف الله به المؤمنين في قوله (١٢ : ١٠٨ قل هـذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني) وامثالها من الآيات التي تجعل من مزايا المسلم استعمال عقله وفهمه فيما انزل الله

(٥) وكما يلزم حرمانهم من هذه الصفات العالية يلزم منع الاجتهاد والاستنباط من عبارة المترجم لأن الاجتهاد فيها مما لا يقول به مسلم

(٦) ان من يعرف لغة القرآن وما يحتاج اليه في فهمه كالسنة النبوية وتاريخ الجيل الاول الذي ظهر فيه الاسلام يكون مأجورا بالعمل بما يفهمه من القرآن وإن أخطأ في فهمه لأنه بذل جهده في الاهتداء بما أنزله الله هداية له . كما يعلم ذلك من معاملة النبي (ص) لاصحابه فيما فهموه من كيفية التيمم اذ عذر المختلفين في فهمها والعمل بها ومثله معاملته لهم فيما فهموه من نهيه عن صلاة العصر الا في قريظة ولذلك شواهد أخرى . ولاإخال مسلماً يجعل لعبارة مترجم القرآن هذه المزية

(٧) ان القرآن ينبوع للهداية والمعارف الإلهية لا تخلق جدته ، ولا تفتأ تتجدد هدايته ، وتفيض للقارئ على حسب استعداده حكمته ، فربما ظهر للمتأخر من حكمه وأسراره مالم يظهر لمن قبله تصديقا لعموم حديث « فرب مبلَّغ أوعى من سامع » وترجمته تبطل هذه المزية اذ تقيد القارئ بالمعنى الذي صوره المترجم بحسب فهمه . مثال ذلك ان المترجم قد يجعل قوله تعالى (١٥ : ٢٢ وأرسلنا الرياح لواقح) من المجاز بالاستعارة أي ان اتصال الريح بالسحاب وحدوث المطر عقب ذلك يشبه تلقيح الذكر للانثى وحدوث الولد بعـد ذلك كما فهم بعض المفسرين . فاذا هو

جرى على ذلك بان فرضنا أنه لايوجد في اللغة التي يترجم بها لفظ يقوم مقام « لواقح » العربي في احتمال حقيقته ومجازه اذا اطلق فان القارئين يتقيدون بهذا الفهم ويمتنع عليهم ان يفهموا من العبارة ماهي حقيقة فيه وهو كون الرياح لواقح بالفعل اذ هي تحمل مادة اللقاح من ذكور الشجر الى اناثه . فان لم ينطبق هذا المثال على القاعدة لتيسر ترجمة الآية ترجمة حرفية فان هناك أمثلة أخرى وحسبنا أن يكون هذا موضحاً . والترجمة تقف بنا عند حد من الفهم يعوزنا معه الترقي المطلوب

(٨) ذكر الغزالي في كتاب « إلجام العوام عن علم الكلام » ان ترجمة آيات الصفات الإلهية غير جائزة واستدل على ذلك بما هو واضح جداً وقد ذكرنا عبارته في تفسير (٣ : ٦ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) وبين ان الخطأ في ذلك مدرجة للكفر (١)

(٩) ذكر الغزالي في الاستدلال على ما تقدم ان من الالفاظ العربية مالا يوجد لها فارسية تطابقها — أي ومثل الفارسية التركية وغيرها — فما الذي يفعله المترجم في مثل هذه الألفاظ وهو ان شرحها بحسب فهمه ربما يوقع قارئ ترجمته في اعتقاد مالم يرده القرآن

(١٠) وذكر في ذلك أيضا ان من الالفاظ العربية مالها فارسية تطابقها « لكن ماجرت عادة الفرس باستعارتها للمعاني التي جرت عادة العرب باستعارتها منها » فاذا اطلق المترجم اللفظ الفارسي يكون هنا مؤديا المعنى الحقيقي للفظ العربي وربما كان مراد الله هو المعنى المجازي ومثل الفرس غيرهم من الاعاجم . وهذا المقام من مزلات الاقدام اذا كان الكلام عن الله عز وجل وصفاته وأفعاله

(١١) وذكر أيضا في هذا المقام ان من هذه الالفاظ ما يكون مشتركا في العربية ولا يكون في العجمية كذلك . فقد يختار المترجم غير المراد لله من معني المشترك ولا يخفى مافيه وقد مرَّ نظيره آنفا

(١٢) من المقرر عند العلماء انه اذا ظهر دليل قطعي على امتناع ظاهر آية من آيات القرآن فانه يجب تأويلها حتى تتفق مع ذلك الدليل . والفرق بين تأويل

(١) راجع ص ٧٢٨ م ٩ او ٢١٤ من الجزء الثالث من التفسير

ألفاظ القرآن وتأويل ألفاظ ترجمته لا يخفى على عاقل لا سيا في الآيات المتشابهات والألفاظ المشتركة

(١٣) ان لنظم القرآن وأسلوبه تأثيراً خاصاً في نفس السامع لا يمكن أن ينقل بالترجمة واذا فات يفوت بفوته خير كثير فياطالما كان جاذباً إلى الإسلام حتى قال أحد فلاسفة أوربا (وهو فرنسي نسيت اسمه) ان محمداً كان يقرأ القرآن بحال مؤثرة تجذب السامع الى الايمان به فكان تأثيره اشد من تأثير ما ينقل عن غيره من الانبياء من المعجزات . وحضر الدكتور فارس افندي نمر مرة الاحتفال السنوي لمدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية بالقاهرة فافتتح الاحتفال تلميذ بقراءة آيات من القرآن فقال لي الدكتور فارس افندي ان لهذه القراءة تأثيرا عميقا في النفس ثم لما كتب خبر الاحتفال في جريدته (المقطم) كتب ذلك . فاذا كان لتلاوة القرآن هذا التأثير حتى في نفس غير المؤمن به فكيف نحرم منها المسلمين بترجمة القرآن لهم

(١٤) اذا ترجم القرآن التركي والفارسي والهندي والصيني الخ فلا بد ان يكون بين هذه التراجم من الخلاف مثل ما بين تراجم كتب العهد العتيق والعهد الجديد عند النصارى وقد رأينا ما استخرجه لهم صاحب إظهار الحق من الخلافات التي كنا نقرأها ونحمد الله تعالى ان حفظ كتابنا من مثلها فكيف نختارها بعد ذلك لأ نفسنا

(١٥) ان القرآن هو الآية الكبرى على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بل هو الآية الباقية من آيات النبيين وانما يظهر كونه آية باقية محفوظة من التغيير والتبديل والتحريف والتصحيف بالنص الذي نقلناه عمن جاء به من عند الله والترجمة ليست كذلك

هذا ما تراءى لنا من الوجوه المانعة من ترجمته للمسلمين ليكون لهم قرآن أعجمي بدل القرآن العربي واذا كان بعض هذه الوجوه مما يمكن ادخاله في البعض وانما ذكر هكذا لزيادة الايضاح فان هناك وجوها أخرى يمكن استنباطها لمن تأمل وفكر في وقت صفاء الذهن وصحة البدن بل منها ما تركناه مع تذكره كاستعمال المشترك في معنييه واللفظ في حقيقته ومجازه كما حققه بعض أهل الاصول كالشافعية

اما دعوى القائلين بوجوب ترجمته أن عدم جواز الترجمة يستلزم ايجاب بقائه غير مفهوم فهي ممنوعة فاننا نقول ان فهمه سهل ولكن ليس لأحد أن يجعل فهمه

حجة على غيره فكيف يجعله ديناً لشعب برمته . وإن لاهتداء المسلم الأعجمي بالقرآن درجتين — درجة دنيا خاصة بالعوام الذين لا يتيسر لهم طلب العلم فيحفظون الفاتحة و بعض السور القصيرة لأجل قراءتها في الصلاة ويترجم لهم تفسيرها ، وتقرأ امامهم في مجالس الوعظ بعض الآيات ويذكر لهم تفسيرها بلغتهم كما جرى عليه كثير من الاعاجم حتى ببلاد الصين — ودرجة عليا للمشتغلين بالعلم وهؤلاء يجب ان يتقنوا لغته ويستقلوا بفهمه مستعينين بكلام المفسرين غير مقلدين لأحد منهم

ان الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام على أيدي الصحابة الكرام قد فهموا ان للاسلام لغة خاصة به لا بد ان تكون عامة بين أهله ليفهموا كتابه الذي يدينون به ويهتدون بهديه ويعبدون الله بتلاوته ولتحقق بينهم الوحدة المشار اليها بقوله فيه (٢١: ٩٢ ان هذه امتكم امة واحدة) ويكونوا جديرين بأن يعتصموا به وهو حبل الله فلا يتفرقوا ولتكمل فيهم اخوة الاسلام التي حتمها عليهم بقوله (٤٩: ١٠ انما المؤمنون اخوة) ولذلك انتشرت اللغة العربية في البلاد التي فتحها الصحابة بسرعة غريبة مع عدم وجود مدارس ولا كتب ولا اساتذة للتعليم واستمرت الحال على ذلك في زمن الامويين في الشرق والغرب وفي أول مدة العباسيين حتى صارت العربية لغة الملايين من الاوربيين والبربر والقبط والروم والفرس وغيرهم في ممالك تمتد من القاموس المحيط الغربي (الاتلانتيك) الى بلاد الهند فهل كان هذا الإخاء عظيما تآخت فيه شعوب كثيرة وتعاونت على مدنية كانت زينة للأرض وضياء ونورا لاهلها ؟

ثم هفا المأمون في الشرق هفوة سياسية حركت العصبية الجنسية في الفرس فأنشأوا يتراجعون الى لغتهم ويعودون الى جنسيتهم ، وجاء الاتراك ففعلوا بالعصبية الجنسية مافعلوا ، فسقط مقام الخلافة وتمزق شمل الاسلام بقوة ملوك الطوائف . ولكن لم تصل الفتنة بالناس الى ايجاد قرآن أعجمي للأعاجم وابقاء القرآن العربي المنزل خاصا بالعرب بل بقي الدين والعلم عربيين وراء إمامهما الذي هو القرآن

فالواجب على دعاة الاصلاح في الاسلام الآن ان يجتهدوا في اعادة

الوحدة الاسلامية الى ما كانت عليه في الصدر الاول خير قرون الاسلام وان يستعينوا على ذلك بالطرق الصناعية في التعليم فيجعلوا تعلم العربية إجباريا في جميع مدارس لمسلمين ويحيوا العلم بالإسلام بطريقة استقلالية لايتقيدون فيها بآراء المؤلفين في القرون الماضية المخالفة لطبيعة هذا العصر في احوالها المدنية والسياسية. ولكننا نرى بعض المفتونين منا بسياسة أور با يعاونونها على تقطيع بقية ما ترك الزمان من الروابط الاسلامية بتقوية العصبيات الجنسية حتى صار بعضهم يحاول إغناء بعض شعوبهم عن القرآن المنزل ! : ألا إنها فتنة في الأرض وفساد كبير وقى الله المسلمين شره . فهذا ما أقوله الآن في ترجمة القرآن للمسلمين دون تفسيره لهم بلغتهم مع بقائه إماما لهم ودون ترجمته لدعوة غيرهم به الى الاسلام مع بيان ان المترجم يبين المعنى الذي يفهمه هو

سد يأجوج ومأجوج

(س ٢) من أمين افندي الشباسي بهندسة عتبره (السودان)

فضيلة الاستاذ المرشد صاحب مجلة المنار الغراء

كنا في منزل يتلى فيه القرآن الكريم فلما جاء ذكر ذي القرنين ويأجوج ومأجوج والسد قال احد اخواني ان هذه القصة لم يظهر لها أثر تاريخي للآن مع انه صار اكتشاف ما على الارض من قبل ذلك العهد و بعده . قلت له يا اخي لعل هذا الأثر التاريخي يظهر فيما بعد ليكون معجزة للقرآن على مر الايام كما حصل في قصة فرعون فانه وعد بأن ينجيه ليكون لمن بعده آية وقد تحقق ذلك في هذه الايام . فقال يا أخي ان كلامك هذا هو جواب عليك إذ ان فرعون وخلافه آثار صغيرة جداً مدفونة تحت الارض وظهرت والسدُّ ليس كذلك وهذا وجه استغرابي لأن سياق الآية يدلنا على انه بين جبلين كبيرين ومن حديد ونحاس ومن دونه امة كبيرة لو فتح لها ذلك السد لدوخت العالم بأسره ؟ فأين هي تلك الأمة وذلك السد ورسم الكرة الارضية أمام نظري أقلب فيه فلا اجد تلك الأمة ولا ذلك السد . قلت ياأخي اني اظن ان هذه الامة هي أمة التتار والسد هو سد الصين المشهور وقد خرجت واخترقت آسيا والهند ومصر واوربا واخذت الملك من المسلمين وأتذكر

أني رأيت حديثاً في بعض الكتب لا اعرف صحته جاء فيه ما معناه ان النبي صلى الله عليه وسلم كان جالسا مع أصحابه ففزع فلما سألوه عن السبب قال ويل لامتي من السيل المنهمل يشير الى قرب خروج يأجوج ومأجوج فلما خرجوا واخذوا الملك من المسلمين في عهد ملك التتر فسر علماء ذلك الوقت هذا الحديث بذلك . و بعد جدال كبير حصل بيننا وعدته بان أفيده عن يد فضيلتكم بالجواب القطعي فرجائي أن تفيدوا الجواب على صفحات المنار الاغر حتى يقتنع المشاغب كما هو المشهور في فضيلتكم من إيضاح الحقائق ولفضيلتكم الشكر افندم

(ج) سألنا هذا السؤال غير واحد من مصر وروسيا وغيرهما من الاقطار ونقول قبل كل شيء ان دعوى معرفة جميع بقاع الأرض باطلة فان بقعة كل من القطبين لاسيما القطب الجنوبي لا تزال مجهولة . وقد استدل بعض العلماء على ان السد بني في جهة أحد القطبين بذكر بلوغ ذي القرنين الى موضعه بعد بلوغ مغرب الشمس مطلعها وليس ذلك الا جهة الشمال او جهة الجنوب . ولا يعترض على هذا القول بصعوبة الوسائل الموصلة الى أحد القطبين فإن حالة مدنية ذلك العصر وحالة الارض فيها غير معروفة لنا الآن فنبني عليها اعتراضا كهذا فما يدرينا ان الاستطراق الى أحد القطبين او كليهما كان في زمن ذي القرنين سهلا فكم من أرض يابسة فاضت عليها البحار فغمرتها بطول الزمان وكم من أرض انحسر عنها الماء فصارت ارضا عامرة متصلة بغيرها او منفردة (جزيرة) وكم من مدينة طمست حتى لا يعلم عنها شيء ومن المعلوم الآن من شؤون المدنيات القديمة بالمشاهدة او الاستدلال مايجهل بعض اسبابه كالأنوار والنقوش والالوان وجر الاثقال عند المصريين القدماء فالقرآن يقول في ذي القرنين « فاتبع سببا حتى اذا بلغ » كذا من مطلع الشمس ومغربها و بين السدين فما هي تلك الاسباب هل هي هوائية او كهربائية ؟ الله أعلم بذلك

هذا ما يقال بالايجاز في رد دعوى معرفة جميع اجزاء الارض التي بني عليها الاعتراض . ثم ان ما بني على هذه الدعوى باطل وان فرضنا انها هي مسلمة وذلك أنه يوجد في الأرض موضعان معروفان يحتمل ان السدّ كان فيهما أحدهما الموضع الذي يسمى الآن « دربند » بروسيا ومعناه السد وفيه موضع يسمى « دمرقبو » اي باب الحديد

وهو أثر سد قديم بين جبلين يقال انه من صنع بعض ملوك الفرس ويحتمل ان يكون موضع السد • وقد ذكره ملطبرون في جغرافيته بما يدل على ذلك (راجع ص ١٥ و ١٦ ج ٣) واخبرني مختار باشا الغازي أنه رأى خريطة جغرافية قديمة لتلك الجهات وفيها رسم ذلك المكان وبيان أن وراءه قبيلتين اسم إحداها « آقوق » واسم الثانية « ماقوق » . وتعريب هذين اللفظين بيأجوج ومأجوج ظاهر جلي

وأما الموضع الثاني فاننا نترجم ماجاء فيه عن بعض التواريخ الفارسية على غرابته وهو :

« في الشمال الشرقي من مدينة صنعاء التي هي عاصمة اليمن بعشرين مرحلة (مئة و بضعة فراسخ)مدينة قديمة تسمى الطُوَيْلة . وفي شرقي هذه المدينة وادعميق جداً يحيط به من ثلاث جهات جبال شامخة منتصبة ليس فيها مسالك معبّدة فالمتوقل فيها على خطر السقوط والهويّ وفي الجهة الرابعة منه سهوب فيحاء يستطرق منها الى الوادي ومنه اليها وفجوة الوادي من هذه الجهة تبلغ خمسة آلاف ذراع فارسي (الذراع الفارسي متر وار بعة سنتيمات) وفي هذه الفجوة سد صناعي يمتد من أحد صدفي الجبلين الى الآخر وهو من زبر الحديد المتساوية المقدار فطول هذا السد خمسة آلاف ذراع فاما سمكه فخمسة عشر شبراً واما ارتفاعه فيختلف باختلاف انخفاض أساسه وارتفاعه لأن ارضه غير مستوية . في القرن العاشر للهجرة لما فتح سنان باشا القائد العثماني اليمن وصل الى قلعة تسمى تسام واقعة بجوار هذا السد فأمر بعدّ زبر الحديد المبني بها السد فقصارى ما تيسر لهم عده منها تسعة آلاف . في طرفي هذا السد قلعتان عظيمتان محكمتا البناء قديمتان تسمى إحداهما قلعة العرصة والثانية قلعة الباحثة اه

فهذا الوصف ينطبق على ماجاء في القرآن من وصف السد و بلاد اليمن هي فيما يظهر بلاد ذي القرنين لأن هذا اللقب من القاب ملوك العرب الحميريين في حضرموت واليمن المعروفين بالاذواء (كذي يزن وذي الكلاع وذي نواس) ولكن ان صح وجود السد فأين يأجوج ومأجوج منه وهم التتر كما ورد في تاريخ السوريين قبل الإسلام أو السكيثيين الذين وصفهم حزقيال النبي بما ينطبق على وصفهم في تواريخ اليونان . ويعدهم النصارى رمزا لأعداء الكنيسة

ثم ان لم يكن السد المذكور في القرآن هذا ولا ذاك ولم يكن فيما بقي مجهولا من

الارض فلم لا يجوز ان يكون قد اندك وذهب أثره من الوجود ؟ ان قيل يمنع من ذلك ان اندكاكه وخروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة اجبنا بجوابين (أحدهما) ان قرب الساعة يمتد ألوفا من السنين بدليل أن نبينا نبي الساعة وقرب الساعة نسبي اي هو قرب بالنسبة الى مامضى من عمر الارض وما يدرينا انه ملايين من السنين (وثانيهما) ان هناك ساعة عامة وساعة خاصة اي ساعة هلاك امة معينة كما ورد في شرح بعض الاحاديث الواردة في الساعة . وربما عدنا الى التفصيل في هذه المسألة

﴿ حكم صور اليد والصور الشمسية ﴾

(س ٣) من الشيخ محمد بسيوني في (سنبس برنيو)

حضرة علامه الزمان فريد العصر والاوان سيدي المرشد السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الغراء نفعني الله بعلومه آمين

وبعد تقديم واجبات التحيات والاحترام فالمرجو من تفضلات سيدي الجواب عن السؤال الآتي صورته وهذا هو: ماقولكم دام فضلكم في صورة مشتغلة باليد وصورة متخذة بالفوتغراف هل الفرق بينهما متحقق ام لا ؟ وما تقولون فيمن قال ان الصورة التى اتخذت بالفوتغراف لىس فيها فعل صورة بل هي حبس صورة كحبس الصورة التي في المرآة فلايحرم ولكن يحرم وضع هذه الصورة في البيت لمشابهتها الاصنام فهل هذا القول صحيح ام لا أفيدوني سيدي ولكم من الله جزيل الاجر والثواب

(ج) صانع الصور مصوّر سواء صنعها بيده أو بالآلة الشمسية (الفوتغرافية). وصورة الشيء هي صورته سواء صورت باليد او بالآلة لا فرق بينهما شرعا ولا عرفا. واما قول من قال انه يحرم وضع الصور في البيت لمشابهتها الاصنام فهو مبني على أصل صحيح وهو أن سبب النهي عن التصوير وعن اتخاذ الصور هو منع تلك الشعائر الوثنية أي تعظيم الصور او عباداتها ولذلك أمر النبي (ص) عائشة بهتك القرام (الستار) الذي كان معلقا في بيتها لمشابهته الصور التي كانت في الكعبة فلماهتكت واتخذت منه وسادة كان (ص) يستعملها ولا يرى في ذلك بأسا. وحديث القرام أخرجه البخاري في صحيحه وغيره . واذا كان القائل يعترف بأن علة تحريم التصوير واتخاذ الصور هي ماذكر

فاي فرق يبقى عنده بين ماسماه فعل الصورة وحبس الصورة ؟ القصد من الامرين واحد وفي كل منهما عمل اختياري للمصور فاذا فرضنا أن قوما عبدوا شخصا او حيوانا او غيره كما عبد بعض البابية الرجل الملقب ببهاء الله فهل يجوز عند ذلك القائل للمصور المسلم ان يصور لهم معبودهم بالآلة الشمسية ليعظموها و يعبدوها بناء على ان فعله حبس تلك الصورة لافعل لها ؟ ان هذا قول لاوجه له فيما نرى والله أعلم

﴿ الوقف على المساجد والمدارس ﴾

(س ٤) مستفيد من سنغافوره

ما قول المنار المنير في بناء المدارس للتعليم والوقف عليها و بناء المساجد للصلاة ولا يخفي عليكم ما ورد في فضلها فأي الأمرين من البنائين أفضل أفيدونا

(ج) في المسألة تفصيل فإقامة الجمعة والجماعة في المساجد من شعائر الإسلام اذا تركها أهل بلد وجب إلزامهم بها قال الفقهاء ولو بالقتال والعلوم منها ماهو فريضة ومنها ما هو فضيلة ولا بد لأهل كل بلد منها فاذا وجد في بلد مسجد لإقامة الشعائر أو أكثر عند الحاجة فبناء المدارس والوقف عليها في ذلك البلد أفضل لا محالة بل لا فضل في بناء مسجد لا حاجة اليه لأن من أغراض الشريعة جعل المساجد على قدر الحاجة لما في كثرتها من تفرق المسلمين وإذا أمكن اجتماع أهل البلد في مسجد واحد فهو أفضل من تفرقهم في مسجدين او اكثر بل ذهب الامام الشافعي الى وجوب أداء الجمعة في مسجد واحد ان امكن في تفصيل سبق لنا الكلام فيه في أحد مجلدات المنار . واذا وجد في بلد مدارس للتعليم ولم يوجد فيها مسجد لاقامة الجمعة والجماعة فلاشك ان بناء المسجد يكون حينئذ أفضل لتوقف اقامة الشعائر عليه

وإنما تأتي المفاضلة في بلد لا مسجد فيه ولا مدرسة ويحتاج اهله اليهما معا وحينئذ يظهر انه يجب الابتداء بالمسجد ويمكن ان يصلى فيه و يعلم مالا بد منه حتى يتيسر بناء مكان للتعليم خاص به

وقد تبين مما تقدم ان بناء المدارس أفضل في البلاد التي فيها مساجد تقام فيها الشعائر وأكثر أمصار المسلمين كذلك فبناء المساجد فيها مع عدم الحاجة اليها مضاد لمقصد الشريعة وهو لايكون عن رياء او جهل

السياسة الانكليزية الجديدة في مصر

ننشر هذه المقالة بالامضاء الرمزي لكاتبها لما فيها من البشارة بالمجلس النيابي :

كان عميد الدولة الانكليزية في عهد توفيق باشا يدير الأمر معه وما يتفقان عليه ينفذ بهدوء وسكون ولكن توفيق باشا كان لضعف إرادته يواتي العميد فيما يزيد قلما يراجعه في شيء فلما ولي العباس رأى منه ذلك العميد ما لم يكن يرى من والده من المقاومات فكان ينتهز فرصة كل حركة لتقوية نفوذ دولته في البلاد فأكثر من المستشارين والمفتشين والقضاة وكبار العمال من الإنكليز وفعل مافعل. ثم ظهرت المقاومة في الجرائد وعلى ألسنة الناس حتى صارت تشويشاً مزعجاً . وقد كان لورد كرومر يتمنى لو يتفق مع الأمير ولكن كان في طبيعة كل منهما وطبيعة الوقت ما يحول دون ذلك حتى انهما تكلما غير مرة في أمر الوفاق وبعد التواطؤ بزمن قصير أو طويل كان يعود التدابر كما كان أو أشد حتى قيل ان اللورد عزم في آخر مدته على اقناع دولته بوجوب عزل الأمير ولكن جاء هذا الرأي في عهد وزارة الأحرار الحاضرة وهي وزارة تميل الى التساهل في المستعمرات وما في معناها كمصر في عرفهم فلم يتم للورد ما يريد بل خرج هو من مصر وبقي أميرها فيها . ومما كان قد عزم عليه الرجوع الى كبار الامة في معرفة مطالبها الحقيقية لا نالتها اياها يمكن منها مع الاعراض عن الأمير

ولا ننسى ما كان في آخر مدته من حملة الجرائد الانكليزية على الخديو لا سيما بعد أن نشر مكاتب الطان عن الأمير ذلك الحديث الشهير فعالج الأمير تلك الحملة عليه بحديث آخر عهد الى مستر ديسي الانكليزي بنشره في جريدة الديلي تلغراف الانكليزية أهم ما فيه الاشارة الى رغبته في الوفاق فكان ذلك مقدمة للسياسة الجديدة التي سنبينها

وهناك مقدمة ثانية شرع فيها لورد كرومر وتكفل سر ألدن غورست بالمضي فيها وهي اختيار الاكفاء من المصريين للوظائف الكبرى وتحميلهم «مسؤليتها» وأول ما بدأ به الأول من ذلك جعل سعد باشا زغلول وزيرا للمعارف وأخيه أحمد فتحي باشا وكيلاً للحقانية وآخر ما قرره الثاني جعل عبدالخالق ثروت باشا نائبا عموميا

وهناك مقدمة ثالثة جرها العميد الجديد فجاءت كما يراد وهي اعتماد انكترا على الامير في سياسة البلاد العامة وعدم الالتفات الى مطالب الأمة وجرائدها

فالسياسة الجديدة للانكليز في هذه البلاد هي أن يلقوا تبعة سياستها وادارتها على غاربها فلا يحملوا منها شيئاً في مصر بل يحملوها الامير وحكومته ومجلس نواب الامة وما دونه من مجالس المديريات

ماهو مجلس نواب الامة ؟ هل هو مجلس الشورى ام الجمعية العمومية ؟ وما معنى تحميله تبعة وهو لا يتبع رأيه ؟ لا لست أعني بمجلس النواب ماذكر وانما أعني ان الحكومة البريطانية عزمت على ان تمنح مصر ماتطلبه بلسان جرائدها واحزابها من الدستور والمجلس النيابي وأن تجعل الفضل في هذا للامير فهو يكاشفها بذلك وهي تظهر له الموافقة على رغبته بكيفية مخصوصة. والامير ينفذها رغائبها بمصر

انا نعلم من مصدر رفيع ان الانكليز عزموا على ان يمنحوا مصر المجلس النيابي وأنه ليس للانكليز مقاصد في مصر تنافي السماح للمصريين بذلك بل يفتخر احرار انكلترا بذلك لموافقته لسنتهم في تحرير الشعوب وترقية الحكومات ويكتفون في الأمن على مصالحهم بمصر باستمرار الاحتلال والثقة بمودة أمير البلاد ولا يبالون بالجرائد والاحزاب بل يعتقدون أن ستسكن من نفسها وان خير علاج لها إهمالها

هذا ماأرويه للقراء رواية لا يشوبها رأي ولا تخرص فما كان منه عن شئ مضى فهو مما يعرفه العارفون ، وما كان عن شيء يأتي فسيراه الناظرون ، وقد يقال من باب الرأي ان الانكليز مخطئون في ظنهم ان الحركة الوطنية ستسكن من نفسها فإن وراء مجلس النواب الذي سيكون محدود السلطة كلاما كثيرا في سلطته ووراء ذلك مسألة الاحتلال نفسها . نعم ان معظم حماسة الجرائد يمكن ان تتحول الى نقد الوطنيين الذين يحملون تبعة الادارة وتكون الحجة على المحتلين ضعيفة بل ظهرت بوادر هذا في كلام اللواء في أول مصري عريق حمل تبعة العمل في الحكومة وهو سعد باشا زغلول فان اللواء أشد عليه منه على مستشاره مستر دنلوب . فمن مثل هذا قد استنبط الانكليز ان السياسة الجديدة التي شرعوا فيها ستعقبهم راحة من ضوضاء مصر وتشغل المصريين بانفسهم والله أعلم بما تأتي به حوادث الأيام (المكاشف)

القرآن والعلم

٢

تفسير من اللغة والتاريخ والجغرافيا والطب

في رد الشبهات التي يوردها الافرنج على بعض آيات الكتاب العزيز (١)

المسألة الثالثة

﴿ ذو القرنين ومطلع الشمس ومغربها ﴾

قال الله تعالى في قصة ذي القرنين (١٨: ٨٦ حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوماً) إلى قوله (٩٠ حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً)

تقول العرب بلغ فلان مغرب الشمس أو وصل إلى المشرق إذا سار إلى أقصى ما عرف لهم من المسكونة في جهتي الشرق والغرب فكان الكلام على تقدير مضاف أي وصل فلان إلى أرض المغرب أو ارض المشرق ومعنى ذلك انه وصل إلى آخر أرض تغيب عنها الشمس أو إلى أول أرض تشرق عليها بحسب علمهم وإلى الآن تقول جميع الأمم الراقية « بلغ فلان الشرق الاقصى أو المغرب الاقصى » إذا سافر إلى بلاد اليابان أو إلى بلاد مراكش ويسمون هذه البلاد بلاد الشرق أو المشرق وبلاد الغرب أو المغرب ولا يعنون بذلك سوى أنها أول بلاد من الدنيا القديمة تشرق عليها الشمس وآخر بلاد تغرب عنها فمعنى قوله تعالى « حتى إذا بلغ مغرب الشمس » أنه وصل إلى آخر أرض معروفة للعرب تغيب عنها الشمس ويسمونها المغرب . ومهما كان الانسان عالماً فانه لا يتحاشى أمثال هذه التعابير المعهودة للبشر فكذلك القرآن الشريف

(١) للدكتور محمد توفيق افندي صدقي

فانه جري عليها وكذلك كل كتاب ولو كان في الفلك أو الجغرافيا الحديثة « وجدها تغرب في عين حمئة » أي خيل له أنها تغرب في العين كما يخيل ذلك لكل من وقف على ساحل البحر وقت الغروب فانه يرى الشمس كأنها تغيب في البحر ولذلك نسب القرآن الامر إلى وجدان ذي القرنين فقال « وجدها » ولم يقل مثلا « حتى إذا بلغ مغرب الشمس رآها وهي تغرب في العين » أو نحوه مما يفيد أنها تغرب فيها حقيقة

والعين كل ماء جار كما في قوله تعالى (٢٦ : ٥٧ فأخرجناهم من جنات وعيون) أي أنهار جارية وكقوله فى وصف الجنة (٨٨ : ١٢ فيها عين جارية) وقوله « حمئة » معناه ذات طين أسود وفي قراءة (حامية) أي ساخنة ولعل سخونة الماء ناشئة عن وجود ينبوع حار خارج من جوف الأرض بجوارها وإذا كان المراد مياه المحيط فقد تكون سخونتها ناشئة عن التيارات المائية الآتية من خط الاستواء كما هو معروف للمطلعين على علم الجغرافية فإن المحيط الاطلانطيقي ينطبق عليه هذان الوصفان وهو كونه ذا طين أسود وكون بعض مياهه ساخنة فلعل ذا القرنين وصل إليه بسيره إلى نهاية أفريقية من جهة الغرب. فان تيار الخليج (Gulf Stream) الآتي من ساحل أمريكا عند خط الاستواء ينقسم وهو ذاهب إلى الشمال إلى قسمين قسم يصعد إلى أوروبا وقسم ينزل إلى ساحل افريقيا الغربي ولون مائه أسود وهو ساخن (فان درجة حرارته لا تقل عن ٨٥ بمقياس فرنهيت)

ثم قال « حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا » والمعنى أنه سار إلى أرض المشرق حتى وصل الى أول أرض تطلع عليها الشمس أي بحسب ما تعرف العرب من المسكونة ولعل ذا القرنين وصل إلى جبل عال من جبال آسيا ظن أنه نهاية الأرض أو وصل الى ساحل الهند الشرقي فظن أنه نهاية العالم فلما وصل الى تلك الجهة التي تسميها العرب مطلع الشمس أو المشرق وجد الشمس أول ما تطلع تطلع على قوم عراة الأبدان ليس لهم من دون الشمس وقاية وهذا هو حال الامم المتوحشة الساذجة

واعلم أن أمثال هذه السياحات أو الفتوحات الكبيرة معهودة في تواريخ القدماء

كالاسكندر المقدوني وغيره وكان يتيسر لهم ذلك لعظم قوتهم وضعف الامم المجاورة لهم و بساطتهم وقلة عددهم بالنسبة لهم فكان يسير الفاتح العظيم منهم بجيشه الجرار ولا يجد في كثير من الجهات أدنى مقاومة أو إذا وجد تكون في الغالب ضعيفة

والغالب أن ذا القرنين هذا المذكور في القرآن هو أحد ملوك اليمن الحميريين فان العرب لا يعرفون ملوك غيرهم من الامم وما كانوا يسألون النبي عليه السلام عنها و (ذو) لفظة عربية محضة وردت كثيراً في ألقاب العرب أهل اليمن كذي يزن وذي كلاع وذي نواس . ونقل عن ابن عباس أنه سئل عن ذي القرنين المذكور في القرآن فقال هو من حمير . وقال أحد شعراء الحميريين

قد كان ذو القرنين قبلي مسلماً ملكاً علا في الأرض غير مفند
بلغ المشارق والمغارب يبتغي أسباب ملك من كريم سيد

وكل ذلك يؤيد ان العرب ماسألوا النبي إلاّ عن ذي القرنين هذا المعروف عندهم ونظرا لاندراس التاريخ القديم عموماً وخصوصاً تاريخ العرب الاقدمين ولعدم الثقة بأكثر ماجاء فيه من القصص ولعدم اهتمام الأمم المتأخرة بشأن أهل اليمن لم يشتهر أمر هذا الفاتح الكبير بين الأمم الأخرى والمظنون أنه كان على زمن الخليل إبراهيم عليه السلام

قيل إن اسمه الصعب بن الرايش وقيل إنه أبو كرب شمس بن عبير بن أفريقش . وكان ملوك اليمن يلبسون تاجاً له قرنان الغالب انهم اقتبسوه من ملوك مصر . وأول من لبسه اشتهر بينهم بلقب ذي القرنين من أجل ذلك

وفي التاريخ القديم آثار كثيرة يدل على أن أهل اليمن كانوا قد بلغوا شأوا كبيراً من القوة والعظمة وأنهم تغلبوا على أقاصي البلاد وغزوا بابل و بلغوا الهند وفتحوا بلاد الفرس ويسمى غزو العرب لبلاد فارس في أحاديث الفرس « غزو ذو حاق » وكان ذلك قبل الميلاد بأكثر من ٢٠٠٠ سنة وقد أغار أهل اليمن أيضاً على بلاد المغرب وفتحوا مصر واستوطنوها ويسمون فيها بالهكسوس .

فلا يبعد ان يكون ذو القرنين المذكور في القرآن هو أكبر ملوكهم الفاتحين وقد بلغ ملكه أو سيره أقصي ماكان معروفاً إذ ذاك من بلاد المشرق والمغرب

وقد بنى سداً بين جبلين في جهة الشمال لا يعرف الآن موضعه لمنع يأجوج ومأجوج من التعدي على الأمم المجاورة لهم وهما قبيلتان شهيرتان من القبائل القديمة المتوحشة وقد ورد ذكرهما أيضاً في كتب أهل الكتاب (تك١٠ : ٢ وحز ٣٨ : ٢ و٣)

وإذا علم الانسان ان أكثر بقاع الأرض لم تطأها أقدام أحد من السائحين الباحثين أو الجغرافيين وإذا تذكر ما عرض لهذا السد عن التغيرات الطارئة عليه من الصدأ ومن هبوب الرياح ونزول الامطار ورسوب التراب وغيره عليه بل ربما تغطى بأشياء كثيرة مما يحملها سيل المياه على الجبال إذا تذكر كل ذلك أدرك شيئاً من أسباب عدم عثور أحد على مثل هذا السد وربما إذا رآه أحد الآن لايمكنه أن يميزه عن سائر الجبل فقد يكون مغطى بطبقة حجرية مما أذابتها المياه وحملتها إليه فجفت عليه

فاذا جاء يوم القيامة اندك هذا السد كما تدك جميع الجبال كما قال القرآن الشريف (١٨ : ٩٩ فاذا جاء وعد ربي جعله دكا وكان وعد ربي حقًّا)

هذا ومن تذكر إغارة المغول (التتار) وهم نسل يأجوج ومأجوج في القرن السابع الهجري على بلاد المسلمين والنصارى وما أتوه من الافساد في الارض وما أوقعوه بالامم المختلفة من القتل والسبي والنهب أمكنه تصور حصول هذا منهم مرة أخرى قبل مجيء الساعة كما قال القرآن الشريف (٢١ : ٩٦ حتى اذا فُتِحت يأجوجُ ومأجوج وهم من كل حَدَب يَنسِلون ٩٧ واقترب الوعد الحق فاذا هي شاخصة أبصارُ الذين كفروا ياويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين) ولا مانع من ان يكون ماحصل منهم سابقا هو الذي أراده القرآن في هذه الآية ويكون قوله « واقترب الوعد الحق» كقوله (٥٣ : ١ اقتربت الساعة وانشق القمر) على ان الانشقاق حصل في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وهو تعبير معهود في الكتب المقدسة إذا انبأت عن الحوادث المستقبلة

***

﴿ المسألة الرابعة ﴾

﴿ يحيي بن زكريا ﴾

قال الله تعالى (١٩ : ٧ يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيي لم نجعل له من قبل سَمِيًّا) يقولون ان يحيي هو يوحنا عند أهل الكتاب ويوحنا هذا اسم شهير عند اليهود سمي به كثيرون قبل ابن زكريا فكيف يقول القرآن « لم نجعل له من قبل سميا » ؟؟ ونقول لانسلم بان لفظ يحيي في القرآن هو تعريب لفظ يوحنا عندهم لان يحيي من الحياة ويكتب في العبرية هكذا (יְחְיֶה) وينطق يحيِيه وأما (يوحنا) فهو الصيغة اليونانية للفظ (يوحنان) العبري ومعناه « يهوه حنون » أي الله حنون . فهو اذا من الحنان لا من الحياة وعليه يكون لفظ يحيي غير يوحنا ووجود شخص مسمى باسمين كثير جدا وقد يكون الاسم الثاني لقبا له وأمثلة ذلك في كتب العهدين كثيرة جدا منها ان اسم بطرس سمعان واسم تداوس لباوس وهما من تلاميذ المسيح (راجع متى ١٠ : ٢ و ٣) وكان النبي عليه السلام يغير كثيرا من أسماء أصحابه فيشتهرون بما سماهم به رسول الله وعند جميع الامم يوجد اشخاص لهم اكثر من اسم . هذا اذا لم نقل ان تسمية ابن زكريا في العهد الجديد بيوحنا هو من خطإٍ مؤلفي الاناجيل باللغة اليونانيه إذ يجوز انهم لم يحسنوا نقل اسمه الحقيقي « يحييه » الى لغتهم

ويحتمل ان الاسم الذى بشر الله به زكريا هو (يحيي) ولما اشتهر عن يحيي الشفقة والحنان بالناس كما قال القرآن في وصفه (١٩ : ١٣ وحنانا من لدنا) صاروا يلقبونه بيوحنا حتى شاع بينهم ذلك اكثر من اسمه الاصلى الذي سماه الله به

وهناك وجه آخر في تفسير عبارة القرآن الشريف . وهو ان زكريا طلب من الله وارثا له من نسله خوفا من مواليه فبشره الله بان سيكون له ولد وسيكون اسمه يحيي وقال له ان هذا الاسم لم يسم به أحد قبله أي بينهم في أهله وعشيرته كما قال إنجيل لوقا « ١ : ٦١ فقالوا لها ـ أي لامه ـ ليس أحد في عشيرتك تسمى بهذا الاسم » فقوله تعالى « لم نجعل له من قبل سميا » أي في أهل زكريا الذين كان الكلام

معه في شأنهم والخطاب له فيمن يرثه منهم. هذا إذا سلم ان لفظ يحيى هو عين يوحنا وأنه تعريب له

على أنه قد يكون المراد بالسمي السمي الحقيقي أي انه لم يسم أحد قبل يوحنا بهذا الاسم وكان مثله في صفاته العالية واخلاقه الطاهرة فكل من سمي قبله به ما كانوا يستحقونه لأنهم لم يصلوا الى درجته في الشفقة والرحمة والحنان وقد ورد لفظ السمي في القرآن بهذا المعنى ايضا في سورة مريم التي منها هذه الآية التي نحن بصدد الكلام عليها فقال تعالى «٦٥ رب السموات والارض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا» اي سميا حقيقيا وإلا فقد اتخذ آلهة أخرى من دون الله كثيرون

المسئلة الخامسة

﴿ السامري والعجل ﴾

قال الله تعالى (٢٠: ٨٨ فأَخْرَجَ لهم عجلاً جسداً له خوارٌ فقالوا هذا الهكم وإله موسى — الى قوله — ٩٥ قال فما خَطْبُكَ ياسامري ٩٦ قالَ بصُرتُ بِمَا لم يَبصُرُوا بهِ فقبضتُ قبضةً من أثرِ الرسولِ فنبذتُها وكذلكَ سوّلت لي نفسِي»

رجحنا في (مقالات الدين في نظر العقل الصحيح) أن لفظ السامري علم لشخص من بني اسرائيل يسمى بلغتهم شِمري وهو اسم مشهور عند قدمائهم • انظر مثلاً سفر أخبار الأيام الأولى (٤: ٣٧ و١١: ٤٥ و٢٦: ١٠) ولما عرب هذا الاسم أبدلت الشين المعجمة بالسين المهملة كما هي العادة في تعريب العبري وأدخلوا عليه أل كما أدخلوها على غيره من الأعلام المعربة كلفظ (الجودي) وهو اسم جبل ولفظ (السموأل) وهو علم لأحد نابغي شعراء اليهود من العرب • وتسمى زيادة أل في مثله زيادة لازمة كما يقول النحاة • وهو معرب من لفظ (شموئيل) والتغيير الذي حدث فيه كالذي حدث في لفظ (شمري) فأبدلت الشين سيناً وزيدت عليه أل مع تغيير طفيف في الكلمة • وهذه التغييرات شائعة في جميع اللغات في أسماء الأعلام المنقولة إليها فانظر الفرق بين لفظ بختنصر وأصله

(نبوخذناصر) ولفظ عيسي وأصله يشوع • وغير ذلك كثير جداً يعرفه المطلعون على بعض اللغات الأجنبية وما فيها التغيير والتحريف في الأعلام • واعلم أن لفظ السامري الوارد في القرآن كانت تكتبه العرب (السمري) وكذلك كتب في مصاحف عثمان التي أرسلها إلى الآفاق • ولعل في ذلك إشارة إلى أصله العبري الذي ذكرناه هنا وإن كانوا ينطقونه السامري • وليست الياء فيه للنسبة بل هي كالياء في لفظ الجوديّ بالتشديد وأصله جوردي بدون تشديد

قال تعالى (فأخرج لهم) أي صنع لهم السامري (عجلاً جسداً) أي تمثال عجل ولكنه جسد بلا روح فان لفظ الجسد يطلق غالباً على الحي إذا مات أو ما كانت صورته صورة الحي ولكنه جماد كهذا العجل الذي صنعه السامري من الحلي وكتماثيل الحيوانات فانها كأجسادها بعد الممات لا حياة فيها (له خوار) أي صوت يشبه صوت العجل ولعله توصل إلى ذلك بالصناعة مع الحيلة كأن يضع فيه ما يشبه المزمار ويسلط عليه آلة نافخة لا يشعر بها الناظرون

وأمثال هذه الحيل كثيرة يفعلها الدجالون في كل زمان ومكان

ثم قال تعالى (قال فما خطبك يا سامري) أي قال له موسى ما شأنك وما الذي حملك على ما فعلت (قال بصرت بما لم يبصروا به) أي علمت مالم يعلموا وأدركت مالم يدركوا (فقبضت قبضة من أثر الرسول) أي أخذت بشيء من تعاليم هارون الذي استخلفته فيناواقتفيت أثره فيها فلم يرق لي شيء منها. وسمى هارون بالرسول لأنه هو وموسى كانا يسميان كذلك بين بني اسرائيل فان الله قال لهما (٢٠ : ٤٧ فقولا إنا رسولا ربك) وعدم اعتقاد السامري بصحة هذه الرسالة لا ينافي أن يقول ذلك من باب التهكم كما كانت قريش يتهكمون على رسول الله ويقولون له(٢٥ : ٧ مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق) ثم قال السامري (فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي) أي فرفضت ما أخذته من تعاليم هارون بعد تجربتي له وهذا ما مالت إليه نفسي التي علمت مالم يعلم غيري .هذا هو التفسير الصحيح الذي يتبادر من هذه الآيات ولا يمكن لأي عربي أن يفهم منها سواه لولا ماحشاه به أكثر

المفسرين من الخرافات وهو يقارب ما ذهب إليه محقق المفسرين أبو مسلم الاصفهاني وارتضاه منه فخر الدين الرازي وعزره

(٩٧ قال)له موسى (فاذهب فان لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تُخْلَفَهُ وانظر إلى إلهك الذي ظَلْتَ عليه عاكفاً لنُحرّقنّهُ) أي لنبردنه ويؤيده قراءة « لنحرقنه » بفتح النون وكسر الراء وضمها خفيفة (ثم لَننسفنَّهُ في اليم نسفاً)

فان قال قائل ما بال القرآن في الكلام على هذا العجل يأتي بما يحتمل أنه كان حياً وإن كان ذلك بعيداً من عبارته ؟ قلت جرت عادة القرآن في أمثال هذه المسائل العرضية البسيطة أن يأتي بالتعبير الذي لا يصادم اعتقاد الجمهور مصادمة لا تقبل التأويل حتى لا يكون ذلك صادّاً لهم عن النظر فيه أو شاغلاً لهم عن البحث فيما أتى به من جوهر الدين كما هي طريقة الحكماء . فالظاهر أن أهل الكتاب من العرب كانوا يعتقدون أن هذا العجل صار حياً وربما كان عندهم من رواياتهم واحاديثهم ما يحملهم على هذا الاعتقاد فلم يرد القرآن ان يشتغل معهم بأمثال هذه التافهات فاتي لهم بما لو سمعوه لقبلوه وما لو سمعه العلماء المحققون لأدركوه وفهموه ولذلك تراه مثلا ينص على دوران الارض بقوله (سنة ٢٧ : ٨٨ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب صُنعَ الله الذي أتقَن كل شيء) في سياق يحتمل أن يكون ذلك مما يحصل يوم القيامة وإن كان ظاهر الآية يبعد عن هذا الاحتمال الذي لا يزال مقبولاً عند الجهلاء على أن معنى الآية الصحيح لا يخفى على العلماء . فان القرآن قد أتى للعامة والخاصة والمنحطين والمرتقين فلذا تنوعت أساليبه وسحر بيانه عقول الجميع وبذلك لم يخطئ الغرض ، ولم يشتغل عن الجوهر بالعرض ،

المسألة السادسة

﴿ تكوّن الجنين ﴾

قال الله تعالى (٢٣ : ١٢ ولقد خلقنا الانسان من سُلالة من طين ١٣ ثم جعلناه نُطفةً في قرارٍ مكين ١٤ ثم خلقنا النطفة عَلقةً فخلقنا العلَقة مُضْغَةً فخلقنا

المُضْغَةَ عظامًا فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناهُ خَلقا آخرَ فتبارك اللهُ احسن الخالقينَ ١٥ ثم إنكم بعدَ ذلكَ لمَيِّتونَ ١٦ ثم إنكم يومَ القيامةِ تُبعَثُونَ)

اشتملت هذه الآيات على جميع أطوار الانسان في حياته وما يمر به من التغيرات من أولَ وجوده الى يوم بعثه

(الطور الاول) « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين » أول الاحياء في هذا العالم لاشك في انه خلق من مادة الارض مباشرة ثم ارتقت الحال بعد ذلك فصارت الاحياء تتكاثر بانقسام الخلايا ثم بالتلقيح الذي يعقبه الانقسام (ومعنى التلقيح اختلاط عنصر الذكر بعنصر الانثى) فان الانسان في طوره الاول كان طينا واذا نظرنا الى الانسان من جهة اخرى وجدنا أن الحيوانات المنوية والبويضات التي يخلق منها الانسان مخلوقة من الدم والدم من الغذاء والغذاء من الحيوان والنبات وكلاهما من الأرض أي الطين

(الطور الثاني) « ثم جعلناه نطفة في قرار مكين » النطفة الافراز فتطلق على المني ولا مانع من اطلاقها أيضاً على بويضات المرأة التي يفرزها المبيضان (١) ولم يذكر القرآن بويضات المرأة صريحاً لأن ذلك غير معروف لجماهير الناس وهو لم يأت لتعليمهم أمثال هذه الاشياء وإنما هو يؤيد قضاياه بما يعرفونه ولا ينكرونه وا كتفاؤه بذكر المني دون غيره في أكثر المواضع لا يدل على أن الانسان لا يخلق من شيء آخر معه إذ ليس في عباراته ما يدل على الحصر فالطور الثاني طور النطفة وهي من الرجل ما فيه الحيوانات المنوية ومن الأنثى ما فيه البويضات فاذا حصل التلقيح بدخول رأس الحيوان المنوي في البويضة استقرت في الرحم • والمراد بالقرار المكين أعضاء الانثى الداخلة (البوقان والرحم) وهي التي يحصل فيها التلقيح ثم التكوين • ولا شك أن حيوان الذكر و بويضة الانثى يسبحان قبل التلقيح و بعده في قليل

---

(١) المنار : النطفة في الاصل الماء أو كل سائل فيصح اطلاقه على ماء الرجل الذي فيه الحيوانات المنوية وعلى ماء الانثى الذي فيه البويضات اذ كل منهما سائل

من سائل مخصوص ومجموع ذلك هو النطفة وهي التي تستقر في الرحم

(الطور الثالث) « ثم خلقنا النطفة علقة » وذلك بانقسام البويضة بعد التلقيح بالحيوان المنوي إلى أقسام كثيرة تكوّن كتلة صغيرة تشبه العلقة وخلاياها كلها متشابهة

(الطور الرابع) « فخلقنا العلقة مضغة » وهي قطعة أكبر من العلقة قدر مايمضغ في الفم مركبة من عدة خلايا ناشئة من انقسام البويضة الأصلية بعد تغذيتها في جدر الرحم وما أحيطت به من سوائل زلالية

(الطور الخامس) « فخلقنا المضغة عظاماً » أي حولنا بعض خلايا المضغة التي كانت كلها متشابهة إلى خلايا أخرى تصير بالتدريج بعد هذا التنويع عظاماً

(الطور السادس) « فكسونا العظام لحماً » أي حولنا الجزء الباقي من المضغة إلى أنسجة رخوة ذات خلايا مغايرة في شكلها للخلايا الاصلية وهذه الأنسجة تكون كاسية للخلايا الآخذة في التحول إلى عظام فبينما تجد بعض الخلايا يتحول الى عظام تجد البعض الآخر يتحول إلى لحم وشحم وغيره يكسو هذه العظام

(الطور السابع) « ثم أنشأناه خلقاً آخر » اي بعد تمام خلقته وولادته يصير بالتدريج إنساناً عاقلاً مدركاً مفكراً بعد ان كان لا يعلم شيئاً كما قال تعالى (واللهِ أخرَجكم مِن بطونِ أمهاتكم لاَ تعلمونَ شيئاً وَجعلَ لكم السمعَ وَالأبصارِ وَالأفئدَةَ) الآية فالشيء الذي كنت تراه لا يدرك وجود نفسه يصبح محيطا بالكون بعقله ويخترق الحجب بفكره « فتبارك الله أحسن الخالقين » . وعبرهنا بثم لتراخي ذلك عن زمن تمام التكوين

(الطور الثامن والتاسع) « ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » فهذه هي الأطوار الانسانية التي تستفاد من هذه الآيات الشريفة

ويجب الاعتراف هنا بأن هذه الآيات لم تصف هذه الأطوار بالتفصيل كما يصفها الفسيولوجيون وإنما وصفتها باجمال خال من الوهم والخطأ داع الى التفكر في قدرة الله والتدبر في أعماله وهو ما يريده القرآن الشريف ولا يريد تدريس علم تكوّن الجنين للناس ولا غيره من العلوم الدنيوية فلذا لا ينتظر من مثل هذا

الكتاب العزيز ان يدخل فيما ليس من غرضه الاطناب فيه لأن الناس يصلون اليه من غير طريق الوحي

المسألة السابعة

﴿ ميراث بني إسرائيل الأرض من بعد فرعون ﴾

قال الله تعالى (٢٦:٥٧ فأخرجناهم من جنات وعيون ٥٨ وكنوز ومقام كريم ٥٩ كذلك ، وأورثناها بني إسرائيل) ومن المعلوم أن بني اسرائيل من بعد غرق فرعون وقومه لم يرثوا أرض مصر بل خرجوا منها فما معنى هذه الآية اذاً ؟؟

ذهب محققو المؤرخين إلى أن فرعون موسى هو منفتاح بن رمسيس الثاني وقد خضعت بلاد الشام لمصر في عهد رمسيس الثاني وكان من عادته ان يبقي فرقة من العساكر المصرية في البلاد التي يفتحها ليستوطنوها ولينشروا فيها عاداتهم واخلاقهم فكانت بلاد الشام مستعمرة تابعة لمصر ومحتلة بجزء من جيشها وكان المصريون يجنون من خيراتها ويتمتعون بها وبعضهم يذهب اليها ليقيم فيها تحت رعاية دولته كما يفعل الاوربيون الآن في الممالك التي يستعمرونها ودام الحال كذلك الى عهد منفتاح بن رمسيس هذا وفي عهده كان خروج بني اسرائيل من أرض مصر

إذا علمت ذلك فاسمع تفسير ماقال الله في القرآن الشريف (فأرسل فرعون في المدائن) التابعة له كبلاد مصر والشام (حاشرين) يجمعون إليه جيشه وقومه المستوطن في هذه البلاد قائلا لهم (ان هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميع حذرون) ثم قال الله تعالى (فأخرجناهم) أي المصريين (من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم) في مصر والشام (كذلك وأورثناها بني اسرائيل) أي أورثناهم ما كان يتمتع به المصريون من جنات الشام وعيونها وكنوزها ومقامها الكريم فان ذلك قد آل إلى بني إسرائيل ولذلك قال تعالى في آية أخرى في هذا الموضوع (٧ : ١٣٧ وأورثنا القومَ الذين كانوا يُستضعَفونَ مشارقَ

الأرض ِ وَمَغاربها التى بارَ كنا فيها وتمت كلمة رَبكَ الحسني على بني اسرائيل) والأرض التي بارك الله فيها هي أرض الشام كما جاء في آيات أخرى كثيرة في القرآن الشريف كقوله (٢١ : ٧١ وَنجيناه وَلوطاً إلى الأرض ِالتي ِبارَ كنا فيها للعالمينَ) وقوله (١٧ : ١ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) فأنت ترى من هذا أن آيات القرآن في هذا الموضوع يفسر بعضها بعضاً وان المراد من ميراث بني اسرائيل لما تركه المصريون هو ما كان لهم ببلاد الشام (للمسائل بقية)

باب المناظرة والمراسلة

٣

تتمة بحث النسخ

قال حضرة الدكتور : وإذا فتشنا الاحاديث — الى ان قال — فالقرآن لا يجوز ان ينسخ بالسنة ولو كانت متواترة و به قال الامام الشافعي رحمه الله وليس فيه منسوخ مطلقا كما قال أئمة بعض المفسرين كأبي مسلم الاصفهاني وكما دل على ذلك الاستقراء والدليل واتى بكلام ثم قال . « والذي نراه نحن ان العقل لا يستقبح وقوع النسخ في القرآن الشريف اذا كان القرآن يبين لنا نصا جميع ما نسخ وجميع مالم ينسخ او ان الرسول (ص) يبين ذلك بيانا ينقل متواتراً ويتفق عليه عملاً بين المسلمين الخ

والناظر يرى بادىء بدء بعد المقارنة بين كلام حضرة الدكتور ان قوله والذي نراه نحن الخ هو رجوع منه ونسخ لقوله فالقرآن «لا يجوز ان ينسخ بالسنة ولو كانت متواترة» لانه اذا كان النسخ هو كما ذكر ابطال حكم الى بدل او لغير بدل وجاز ان يقبل قول الرسول (ص) هذه الآية منسوخة لا الى بدل مثلا في حق من علم صدور ذلك القول منه (ص) فما ذلك الا قول بجواز نسخ القرآن بالسنة وهو

مناقض لقوله لا يجوز نسخ القرآن بالسنة فقوله الثاني لا محالة رجوع عن قوله الاول واعتراف بان القرآن ينسخ بالسنة المعلوم صدورها عن رسول الله (ص) و بذلك نكتفي عن الرد عليه في قوله بعدم جواز نسخ القرآن بالسنة وسيأتي لنا كلام على الاخبار التى يلزم الأخذ بها ويعلم صدورها عن رسول الله (ص)

اما ماذكر حضرة الدكتور من اشتراط احد الامرين للنسخ إما تبيين القرآن لنا نصا جميع ما نسخ وجميع مالم ينسخ او تبيين الرسول (ص) كذلك وينقل متواترا الخ

فنقول فيه ان حضرته ذكر ان النسخ لمقتض لا يستقبح عقلا يعني انه جائز عقلا فهل ما اشترطه للنسخ واجب على الله وعلى رسوله(ص) عقلا فما هو؟ ام شرعاً - فاين هو ؟ وهل يشترط ذلك فيما نسخ لفظه ومعناه لا الى بدل لان تعريف النسخ الذي ذكره اول الرسالة يشمله وليس هو داخل فيما انكر وقوعه من نسخ لفظ بلفظ او نسخ لفظ و إبقاء حكمه

وما معنى اشتراط التواتر فان النسخ انما كان يقع في زمان الرسول(ص) وقت نزول الوحي وذلك مضى وانقضى والله تعالى ورسوله (ص) لم يلزموا الامة ولم يوجبوا عليهم ان ينقلوا الدين الى من بعدهم بالتواتر ولم نر ذلك ولا في موضع من كلامهما ولم يجعلا ذلك شرطاً لا للتبليغ ولا للقبول وسيأتي مزيد بيان لذلك

ان اشتراط حضرته ذلك مع اشتراطه ان يتفق عليه عملا بين المسلمين مما لا يجوز عقلا لامتناع تأخر ما يلزم في وجود شيء عن وجوده كاسبابه وشروطوجوده والنسخ قدوقع بدليل قوله تعالى « ما ننسخ من آية» الآية والتواتر واتفاق عمل المسلمين انما هو بعد ذلك والله تعالى لم ينصب ذلك شرطا لقبولنا ذلك او ان الحال لا ينكشف لنا الا باحدهما فظهر ان ذلك لا يصلح لان يكون سببا للنسخ ولا لبلوغه الينا -

اما اشتراط حضرته في رسالتيه لبيان النسخ طريقة معينة مخصوصة وهي ان يقول الله تعالى او رسوله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ناسخة وهذه منسوخة فهو التزام لما لا يلزم واكتفاء بما لا يكفي ولا يطرد في جميع المسائل فان النسخ مشترك لفظا يصدق على معاني مختلفة وصدقه عليها مختلف فيه ثم هو في افراد كل واحد

من ماصدقاته قد يكون عاما . ثم معرفة المراد منه قد يكون مجملا فاذا قيل هذه الآية منسوخة او هذه ناسخة فقط ولم يقرن ذلك بما يعين المراد احتمل ذلك نسخ كل هذه الآية او بعضها او زيادة امر في الناسخ مع بقاء المزيد او رفع شرط أو قيد او زيادتهما الى غير ذلك فتبين ان مجرد قوله هذه الآية ناسخة وهذه منسوخة لا يكفي في بيان المراد الا بانضمام مايبين المراد مع ذلك مما يتبين به مورد النسخ المعين واذا كان الله أجاز النسخ في شرعه بجميع معانيه كما دل عليه كلام السلف او بعضها كما هو قول المتأخرين ففي الموارد المخصوصة أي ووقت البيان لا يجوز ان يؤتى بما لا يتبين المراد منه الا مع مبين — والبيان اخراج الشيء من حيّز الإشكال الى حيّز التجلي فظهر بذلك ان معرفة الناسخ والمنسوخ لا يتوقف على خصوص ماذكره حضرة الدكتور بل معرفته في كل محل بما يبين المراد هو الاولى وان لم يكن بلفظ ناسخ او منسوخ ومن ذلك ماذكره العلماء في معرفة الطريق الذي يكون الناسخ بها ناسخا والمنسوخ منسوخا

وليت شعري ألا يكفي في الدلالة على النسخ تأخر التاريخ مع التعارض والتناقض بين الحكمين ككون الشيء في آية حلالا وفي آية بعدها متأخرة نزولا حراما او العكس؟ وقد ذكر علماء الاصول طرق معرفة النسخ والناسخ والمنسوخ وبينوا ذلك فارجع الى كتبهم ان شئت

ثم لا ندري ماالموجب لطعن الطاعنين واستهزاء الهازئين بعد ثبوت جواز النسخ عقلا وشرعا ووضعا ووقوعه في الشرائع فعلا كما اعترف بذلك حضرة الدكتور فليتأمل حضرته في هذا الموضع وليعلم انه بادر الى التهكم والتعريض بمخالفيه الى استحقاقهم أشد العذاب قبل او انه اذ لم يقم حجة على ماقال ولم يحط علما بما لديهم من الحجج لا سيما معاصريه اذ لا يمكننا إنكار اطلاعه على ماهو مسطور في زبر الأولين وان كنا نستبعد امكان اطلاعه على الكل نقول ذلك قياسا على انفسنا وكما قال ذلك الكبار. ونقول أيضا اذا كان النسخ هو ماذكرنا سابقا عن السلف (رض) وما ذكره حضرته وأنه يرى ان العقل لا يستقبحه فلا محل للتشنيع على من قال بوقوعه في القرآن وعليه فالقول بوقوع النسخ في القرآن او عدم وقوعه منحصر في الدليل النقلي

وفي الاستقراء اي تتبع آيات القرآن لحضرة الدكتور استدل على عدم وقوع النسخ في القرآن بقوله تعالى « لامبدل لكلماته » حيث قال فلا يجوز ان يبدله الله بعد وعده بعدم تبديله اذ النكرة (أي لفظ مبدل) في سياق النفي تعم

وأقول قد اختلف في ان المتكلم هل يدخل في عموم خطابه أم لا والحق انه لا يدخل إلا بقرينة وليس هنا قرينة تدل على ذاك بل القرينة تدل على عدم دخوله

فالآية المذكورة ليس هي عندنا مما تدل على منع النسخ بمعناه السابق وانما تدل على صيانة القرآن عن انتحال المبطلين وعبث اعداء الدين وان الله لا يجعل لهم عليه سبيلاً وذلك نظير قوله تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » وقوله « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » . ونقول أيضاً نفي الشيء فرع عن ثبوته ولا شك هنا ان المراد بنفي المبدل نفي جميع التبديل بجميع معانيه وأكثر معاني التبديل لا يجوز ان ينسب إلى الإله وعليه فلا يدخل في عموم المنفي كما خصص عموم قوله تعالى « ان الله على كل شيء قدير » بماسوى الواجب لاستحالة تعلق القدرة به — ويقرب من ذلك قوله تعالى « فلا يظهر على غيبه أحداً » فانه لولا الاستثناء لمن ذكره لوجب ان لا يطلع على غيبه أحد مطلقاً لكنه لايجوز بحال ان يقال انه تعالى داخل في عموم المنفي

فتبين بما ذكرناه ان التبديل المنفي في قوله تعالى لا مبدل لكلماته انما هو التبديل الذي يكون من البشر كما كان يفعله اليهود والنصارى في كتابيهم

اما التبديل بمعنى النسخ بان يبدل الله آية مكان آية أو ينسخ حكمها هو أو رسوله لا من تلقاء نفسه فهذا لاعيب فيه كما ذكر الدكتور والرسول (ص) معصوم عن التبديل من تلقاء نفسه وإذا كان النسخ هو ما ذكرناه عن السلف فإنكار وقوعه مكابرة ومخالفة لما هو ثابت في الواقع كما دل على ذلك الاستقراء إذ ما من عامّ إلاّ وقد خص وما من مطلق إلا وقد قيد الا آيات التوحيد وما ضاهاها

وأيضاً قوله تعالى « واذا بدلنا آية مكان آية » خاصة في معنى من معاني التبديل ومحله المعين والفاعل معلوم فهي بلا ريب نص في جواز النسخ الذي لاعيب فيه عقلا

اما قول حضرة الدكتور فما ذكرناه هنا وهناك يدل على ان تفسير الآية هكذا: واذا اتينا بحكم في الشريعة الاسلامية بدل حكم في الشرائع السابقة ووضعناه مكانه قالوا انما انت مفتر كذاب تختلق الاحكام وتنسبها الى الله الى آخر الآيات - وزعم ان القول بأنه مفتر في قوله تعالى « واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا انما انت مفتر » انما صدر من أهل الكتاب الموجودين بالمدينة الخ واقول ان قوله انما صدر من أهل الكتاب الموجودين بالمدينة هو اعتراف منه بجواز ان تكون هذه الآية مدنية فاحفظه

ثم ان ما ذكرته حضرته وحمل الآية عليه غير صحيح لما قدمناه ولأن سياق الآية لا يدل عليه وانما يدل على خلافه فانه تعالى انما ذكر المشركين ثم حكى هذا القول عنهم ورد عليهم بان اكثرهم لا يعلمون لأنهم ليس معهم كتاب والمشركون هم الذين زعموا ان الغلام النصراني يعلم النبي (ص) افتراء وكذبا كما كذبهم الله في هذه الآية وغيرها ويدل على ذلك ايضا ان الله لما برأ رسوله (ص) من تهمهم الكاذبة ذكر ان سبب تهجمهم واقدامهم على ماهو واضح البطلان انما هو ضلالهم وعدم ايمانهم بآياته فانه تعالى لا يهديهم وأكد في الرد عليهم بان المفتري في تبديل آيات الله انما يكون من لا يؤمن بها وهذا نص ايضا في ارادة المشركين فظهر ان القائل بانه مفتر انما هم المشركون ولأن الآيات قبلها وبعدها انما هي في ذكر مساوي المشركين وتحذير المؤمنين من التخلق باخلاقهم والاقتداء بعاداتهم وعن الاصغاء والالتفات الى شبهاتهم عند نزول ناسخ او تبديل آية مكان آية لانهم لا يؤمنون بآيات الله فلم يهدهم للصواب في الجدل فهم يستدلون على كذب الرسول صلى الله عليه وسلم بما يرون في كتابه من النسخ لاعتقادهم ان ذلك تناقض لعدم علمهم بما في ذلك من الحكم والمصالح

أما اهل الكتاب (اليهود) فلم يأت لهم ذكر حتى يعود الضمير اليهم وايضا فان الله تعالى قد عيّن هؤلاء القائلين بأنهم الذين لا يؤمنون بآياته وهذا لا يصح صدقه على اليهود اذا كان المراد بالآيات الاحكام وبالآية الواحدة الحكم لايمانهم بالتوراة وإن أريد بالآيات الجمل من الكلام المحدودة المخصوصة فان أطلقت

على عبارات التوراة فكذلك وان لم تطابق بطل حمل الآية المبدلة على شيء من عبارات التوراة فثبت بذلك ان المراد واذا بدلنا آية من القرآن مكان آية منه قال المشركون انما انت مفتر وهم لا علم لهم بالتوراة ولا باحكامها

ثم نقول لو كان التبديل اي النسخ ممنوعا في القرآن مطلقا وان الله لا يبدل آية مكان آية لما صح تقييده في جواب الكفار حين قالوا لرسول الله (ص) «ائت بقرآن غير هذا او بدله» حيث امر رسول الله (ص) ان يجيبهم بقوله « قل ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع الا مايوحي اليَّ » فانه لا معنى للتقييد حينئذ و بذاك وهذا تعين عدم دخول المتكلم وهو الله تعالى في عموم لفظ « مبدل » من قوله « لا مبدل لكلماته »

ان من تتبع آيات الكتاب وجد فيه مايلجئه الى القول بوقوع النسخ فيه فعلا كما اخبر الله بوقوعه فيه مستدلا على جواز ذلك وحسنه بارتباط الشرع بالقدر أي تلازمهما — لا ينكر ذلك إلا من كابر وجدانه وخالف ظاهر القرآن وخرج به عن حدود مرامه الذي فهمه رسوله (ص) و بينه لأصحابه (رض) الذين شاهدوا التنزيل وعرفوا التأويل والتفسير والمراد من الخطاب لمعاينتهم الوقائع والأسباب فلا يجوز لمن لم يحضر الوقائع ولم يعرف الأسباب والموانع ولم يمارس محاورات أهل الشرائع ان يهجم على كلامهم (فضلاً عن كلام الله) و يؤوّله بان يحمله على معاني يفترضها مع ترك ما سيق الكلام فيه وله . انما يختار هذه الطريقة المحرفون الخرّاصون كالقرامطة والملحدين من المتصوفة وسائر الطوائف المبتدعة الذين اذا تكلموا في القرآن يتراءى للناظر في كلامهم انهم كأنما يتكلمون في دين جديد نزل عليهم ابتداءً وكأنه لم يكن نزل على رسول قد بين حدوده وأوضح احكامه وفسر مرامه وكأنه لم تتلقه أمة ولم تعمل به الطوائف حتى جاء هؤلاء بآرائهم السخيفة وأقوالهم الساقطة الضعيفة — كل ذلك لم يقع من هؤلاء الا بتركهم السنن النبوية وهجرهم لطريق السلف و بالاخص آثار الصحابة (رض) ولنعد إلى ما كنا بصدده فنقول

قد تقدم لنا ان قوله تعالى « واذا بدلنا آية مكان آية » دليل واضح على جواز النسخ في القرآن كما انه جائز في سائر الأديان وانه لا تعارض بين هذه الآية وقوله تعالى « لا مبدل لكلماته » الآية

ومن الأدلة الناصة على جواز النسخ في القرآن بل على وقوعه قوله تعالى « ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » الآية وقد قدمنا كلام السلف في تفسير هذه الآية نقلاً عن تفسير ابن كثير رحمه الله

ودونك ما ذكر حضرة الدكتور في تفسيرها فانه قال في رسالة له سابقة أدرجت في الجزء الثاني من المجلد التاسع من المنار الأغر بعد ان ذكر قوله تعالى « ما ننسخ من آية أو ننسها » ما نصه « الآية هنا هي ما يؤيد الله تعالى به الانبياء من الدلائل على نبوتهم والمعنى ما ننسخ من آية نقيمها دليلاً على نبوة نبي من الأنبياء أي نزيلها ونترك تأييد نبي آخر بها أو ننسها الناس لطول العهد بمن جاء بها فاننا بمالنا من القدرة الكاملة والتصرف في الملك نأتي بخير منها في قوة الاقناع واثبات النبوة أو مثلها في ذلك » —

ونحن ندعو القراء الكرام إلى المقارنة بين ما نقل عن السلف في تفسير هذه الآية وما قاله حضرة الدكتور فإذا كان لفظ آية يدل بالاشتراك اللفظي على معاني متعددة فهل يجوز لأحد كائناً من كان ترك المأثور عن العارفين بالمراد واختراع معنى آخر من عند نفسه بعد أكثر من ثلاث عشرة مائة سنة ؟ وهل هذا الا تفسير بالرأي في مقابلة المأثور الذي توافرت الأدلة الشرعية على منعه والتحذير منه كما دل العقل على قبح تفسير كلام أحد على غير مراده —

ونقول أيضاً اذا كانت الآية هنا هي (المعجزة) كما يقول حضرة الدكتور فما معنى ازالتها وترك تأييد نبي آخر بها ؟ فان المعجزات انما هي امور خارقة للعادة يظهرها الله على ايدي انبيائه لتدل على صدق دعواهم وقد انقضت بانقضاء الزمن المشترط لوجودها وليست هي جارية على سنن الكون المعتادة حتى تبقى ككل باق يرى تابعا وخاضعاً لاسبابه ونواميس جريه في بقائه وتطوراته وأكثر المعجزات اعراض لا قيام لها بنفسها وانما هي واقعات تنقلها الامم كسائر الاخبار

انه لا يمكن تأييد نبي بمعجزة هي نفس معجزة نبي آخر والممكن انما هو ان يؤيد بمثلها لأنها ان كانت معجزة النبي الاول موجودة بين ايدي الناس فكونها معجزة للثاني ممتنع ولأفضى ذلك الى تحصيل الحاصل وان كانت قد فقدت فالأخرى انما هى مثلها والنسخ او الازالة او الترك لا يكون الا لما يجوز ان يظهر اولما هو موجود فاذا امتنع عقلا ان تكون نفس معجزة نبي متقدم هي نفس معجزة نبي متأخر لم يبق في تفسير الآية الا ان يقال هكذا : ماننسخ من آية اي من مثل آية اوننسها نأت بخير منها او مثلها. ومؤداه ما نترك مثل معجزة الا نأت بمثلها. اليس هذا تناقضا يجب ان ينزه القرآن عنه ؟ ونقول ايضا انه لو سلم جواز وقوع النسخ في المعجزات فانه لا يتصور وقوعه الا في القرآن حين امكان النسخ أي وقت نزول القرآن وقبل وفاة رسول الله (ص) فثبت الاستدلال بهذه الآية على جواز النسخ ووقوعه في القرآن حتى على تفسير حضرة الدكتور للآية بمعنى المعجزة فان القرآن من اعظم معجزات نبينا (ص)

ونقول ايضاً ما ذكرناه عن السلف هو المتعين ويلزم الاخذ به لان هذا الدين انما جاءنا بتوسطهم فلا يجوز لنا ان نخرج عن جميع اقوالهم الا بحجة واضحة ومن المحال ان لا يوجد لاحد منهم قول موافق لها ـ

وايضاً لو كان هذا الكتاب نزل علينا ابتداء ولم يبينه مبين لنا لما جاز لنا ان نستبد بعقولنا في مواطن الاشتباه وعدم وجود مرجح ومن هنا قالوا لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة

وفوق ذلك كله أن هذه الآية ذكرت في ذيل خطاب الله لعباده المؤمنين تسكينا لهم ودفعا للشبه التي يبثها بينهم اهل الكتاب والمشركون من قولهم ان محمدا يأمر بالشيء ويمنعه غداً الى غير ذلك من تشكيكاتهم الكاذبة فرد الله عليهم وأعلم عباده المؤمنين بالحكمة في ذلك ونبهم على ان هذا انما هو حسد من اعدائهم ودونك الآية وما قبلها يتبين لك ان ما ذكرناه عن السلف هو المطابق لظاهر سياق الآية بعد ماعرفناك فساد تفسير حضرة الدكتور قال الله تعالى (٢ : ١٠٤ يأأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب اليم

١٠٥ ما يود الذين كفروا من اهل الكتاب ولا المشركين أن يُنزَّل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ١٠٦ ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) فالآية دلت على ان الذين كفروا يكرهون نزول الخير على الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ولما كان النسخ انما هو زيادة خير وفضل من الله كنسخ بعض الاحكام الشاقة التي كلف بها بني اسرائيل وكنسخ ما فيه خير مما نزل على محمد (ص) الى ما هو أكثر خيرا منه ذكره تبارك وتعالى كالفرع من قوله «والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم» وأتبع الآية بقوله «ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير» استدلالا لصحة النسخ لانه اذا كان من المقرر لديك ومن المسلم لدى اعدائك ان الله تعالى هو خالق الخلق واستعدادهم المختلف باختلاف الزمان والمكان فمن اللازم لذلك اذا وجد المقتضي نسخ بعض الاحكام والتعاليم الأهلية إلى ما هو انسب باحوال المكلفين وأكثر خيراً لهم وهذا ظاهر في تلازم الخلق والأمر — وقوله تعالى عقب ذلك (١٠٧ ألم تعلم ان الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير) هو زيادة لايضاح الحجة معناه انه اذا كان هو الخالق للاشياء فهو يعلم المناسب والاصلح بها واذا كان هو الولي والملك فلا بد لكل ملك من احكام فاذا كان الملك ذا حكمة وعدل مختبرا أحوال الرعية فلا يليق بعدله ترك ما فيه زيادة الخير والأنسب باحوالهم لما هو أحط منه مع علمه بذلك

اما قول حضرة الدكتور في رسالته السابقة بعد قوله تعالى (أو ننسها): ننسها الناس لطول العهد بها (يعني المعجزة) الى آخره —فيقال عليه ان الضمير في ننسها عائد على الآية وقد قدمنا فساد تفسيرها بالمعجزة لأنا نقول ان الله قد وعد في هذه الآية بانه اذا نسخ آية أو انساها فهو لا محالة يأتي بخير منها أو مثلها وعداً لازماً لتلازم الشرط والجزاء — فاذا أبى الدكتور تفسير الآية الا بالمعجزة فهل أتى الله بخير من كل معجزة انسيت أو أتى بمثل كل معجزة انسيت عن كل واحد من انبيائه ؟ وما معنى قوله تعالى (سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله) فهل كان يقرئه عدد معجزات الأنبياء قبله عليه وعليهم الصلاة والسلام

وأيضاً قد قرأ بعض القراء « ما ننسخ من آية أو ننسأها » بفتح النون وهمزة بعد السين ومعناه حينئذ نؤخرها وحضرة الدكتور ذكر ان معنى ما ننسخ ماتترك وعليه يكون المعنى هكذا : ما ننسخ أي ما نترك من آية أي معجزة أو ننسأها أي نؤخرها . وهو على مافيه من الركاكة ومخالفة ما ذكرناه عن السلف لا يعطي ماأراده

ذكر حضرة الدكتور في رسالته السابقة بعض الآيات المنسوخة ورد بزعمه على من قال بنسخها وحيث اني رأيته انما مال الى التأويلات الزائفة ومع ذلك هي لا تنتج مراده فلم أر للتطويل فائدة بالرد عليه لان ماذكره بين البطلان بنفسه .

ويكفي في الجواب عليه عن ذلك كله حتى بعد تسليم تأويلاته ان يقال له بجواب مجمل : ان هذه الآيات التي زعمت انها ليست بمنسوخة كآية تقديم الصدقة قبل مناجاة الرسول (ص) وغير ذلك هل ترى انها محكمة بمعنى ان دلالتها حين نزولها وبعد نزول آيات التخفيف بعدها على السواء من كل وجه ؟ فان قلت نعم فعليك البيان بشرط عدم التأويل والخروج عن الظاهر لانا نرى ان التأويل للمنسوخ على غير ظاهره وإبقاء الناسخ على ظاهره هو القول بالنسخ عندنا لا فرق الا في اللفظ والعبارة

وان قلت بتغير الدلالة ولو من بعض الوجوه فقد قلت بالنسخ صراحة ووافقتنا وهو غاية ماتتمناه

لم يقع خلاف بين المسلمين في جواز النسخ ووقوعه من غير فرق بين كونه في الكتاب او السنة حتى قيل انه مما اتفق عليه اهل الملل - الا اليهود فقد منعوه للتوراة وقالوا انه لا يجوز ان يرسل الله رسولا بنسخ شيء من التوراة قالوا ذلك وجوزوا لأحبارهم نسخ ماشاءوا من التوراة - والا مايحكى عن ابي مسلم الاصفهاني انه قال لم يقع شيء من ذلك في القرآن وهذا مما يعد من اكبر غلطاته حتى قال الحافظ ابن كثير بعد ان حكى قوله وقوله هذا ضعيف مردود ومرذول وقال السيد صديق حسن خان ولعله نقلا عن الامام الشوكاني : واذا صح هذا عنه فهو دليل على انه جاهل لهذه الشريعة المحمدية جهلاً قطعيا واعجب من جهله بها حكاية من حكى عنه الخلاف في كتب الشريعة فانه انما يعتد بخلاف المجتهدين لا بخلاف من بلغ في الجهل الى هذه الغاية انتهى

ولم أر احداً حكى قول الاصفهاني الا وأنحى عليه باللوم . ونحن لانرى في الطعن فائدة (١) لانا نعلم كغيرنا انه مامن أحد غير انبياء الله ورسله الا ويؤخذ من قوله ويترك ومن تتبع الغلطات ولو من كبار الرجال وجدها في كل شيء من الاشياء وامر من الامور ولا يبقى بيديه شيء من الحق وذلك هو الخسران المبين

آثار علمية أدبية

كتاب التربية

ألف علماء اوربا كتبا كثيرة في فن التربية فلما كتب في ذلك الفيلسوف سبنسر كان ما كتبه ناسخا لطريقة من قبله ولكثير مما جاؤا به وقدوة جديدة لمن عاصره ولمن يجيء بعده فهو الذي بنى قوانين التربية على أسس المنفعة وبين خطأ الناس في تقديم الزينة على المنفعة كما جرى عليه المتوحشون من اقدم زمن يعرفه التاريخ . وكتابه في التربية أشهر من أن يذكر فينوه به وقد ترجمه بالعربية محمد

(١) المنار : قد أحسن الكاتب في عدم اقراره لصديق حسن خان على طعنه هذا بأبي مسلم وأين هو من ابي مسلم بل اين منه شيخه الشوكاني في فهم القرآن ؟ انا نجل الشوكاني ونعرف له فضله في علوم الحديث والآثار والفقه ولا نظن انه نبز أبا مسلم بالجهل ونحمد من صديق حسن اهتداءه بكتب الشوكاني ومحاربته للتقليد وان كان في عامة أحواله مقلدا للشوكاني ولكننا لانرى طعنه هذا في أبي مسلم الا هفوة من هفوات الغرور . نعم ان لابي مسلم غلطات ولكن اي عالم كتب او الف أو ابدى علما وفهما فسلم من الغلط والخطأ ؟ ألم ينكر هو والشوكاني على الائمة المجتهدين وعلى من قبلهم من علماء السلف كثيرا من المسائل حتى بعض فروع مسألة النسخ ؟ ألم يحصر الشوكاني المنسوخ في بضع آيات ويخطئ المتقدمين في سائر ماعدوه منسوخا ؟ فكيف يعد أبو مسلم من أجهل الناس بالشريعة ان وجد لهذه البضع الآيات معنى ينافي النسخ بالمعنى الخاص الذي ينفيه ؟

افندي السباعي أحد محرري الجريدة وطبع في مطبعتها طبعا حسنا على ورق جيد فبلغت صفحاته ١٤٣ وجعل ثمنه عشرون قرشا وهو يطلب من ادارة الجريدة

مجموعة الخطب

تمنى كثير من أهل العلم والأدب لو تطبع الخطب التي تلقى في نادي دار العلوم وكاشفوا رئيس النادي (حفني بك ناصف) بأمنيتهم فوافقت رغبته رغبتهم وقرر مجلس ادارة النادي طبع الخطب التي يكتبها اصحابها . وقد طبعت المجموعة الاولى فأوعت ثماني خطب في موضوع اللغة والتعريب والترجمة فبلغت زهاء مئة صفحة وجعل ثمن النسخة منها قرشان ونصف قرش وهي تطلب من النادي بشارع عبد العزيز (نمرة ٥)

بلاغات النساء

كتاب لطيف من تاليف ابي الفضل احمد بن ابي طاهر المحدث المؤرخ (المتوفى سنة ٢٨٠ اودعه ما رواه عن النساء من خطبهن وطرائف كلامهن وملح نوادرهن واخبار ذوات الرأي منهن وأشعارهن في الجاهلية وصدر الاسلام ففيه من الخطب خطب عائشة ام المؤمنين في فضائل ابيها ورثائه وخطبتها السياسية بالبصرة وخطبتها لما بلغها قتل عثمان . وفيه خطبة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام لما منعها أبو بكر ميراثها وغير ذلك من خطب وكلام امهات المؤمنين ونساء الصحابة رضي الله عنهن وعن ازواجهن وكلام غيرهن في السياسة والآداب والمدح والرثاء ومن احسنه كلام كثيرات منهن مع معاوية في تخطئته بما كان منه . وفيه كثير من كلام النساء في الازواج مدحاً وذماً ووصاياهن لبناتهن والتعبير عن سائر أغراضهن نثراً ونظماً ، وليته خلا من اخبار مواجنهن ، واحاديث رفثهن ، اذاً لكان الكتاب ، جديراً بعناية الشبان والشواب ، لما فيه من روائع الآداب ،

طبع الكتاب احمد افندي الالفي طبعا حسن على ورق جيد وشرح في هوامشه

ما رآه خفيا من مفرداته حتى بعض كلم الرفث والمجون الذي كان اجدر بالخفاء منه بالظهور ، وقد بلغت صفحاته زهاء ٢٠٠ من قطع المنار وجعل ثمن النسخة منه عشرة قروش صحيحة ويطلب من المكتبات المشهورة

مطالع البدور في محاسن ربات الخدور

هو كتاب خاص بوصف محاسن النساء نظماً ونثراجمع فيه واضعه محمد سليم بك ابو الخير الانسي ما اختاره ذوقه من كلام المتقدمين وما جادت به قريحته في ذلك ومثل هذا الوضع لا يحتاج الى من ينوه به ولا يرغب فيه . لذلك كتبنا عنه هذه الكلمات قبل مطالعة شيء منه وقد جعله جزئين لطيفين طبع أحدهما وشرع في طبع الآخر وثمنهما عشرة قروش وثمن الذي طبع وحده خمسة قروش ويطلب المكتبات المشهورة

تحفة المجالس ونزهة المجالس

كتاب لطيف في المحاضرات يعزى الى جلال الدين السيوطي جله حكايات وأخبار في فضل العقل والعلم واخبار الأولين من الأنبياء والخلفاء والملوك والقضاة والمتلصصين والنساء والعشاق • طبعه الحاج محمد افندي در بال التونسي التاجر بسوق العطارين بالقاهرة وقد جعل ثمن النسخة منه خمسة قروش صاغ وهو مما يرجى رواجه لتوفر الرغبة في امثاله من كتب الفكاهات والمحاضرات عند جميع طبقات الناس ولرخص ثمنه

الحمامات المعدنية

رسالة موضوعها التداوي بالحمامات المعدنية في القطر التونسي وضعها الطبيب بيورف بلغة أجنبية وتلقاه عنه بالعربية الشيخ محمد بن حسين بيرم في عهد محمد بن حسين باي ونقلها الى اللغة العربية ووضع لها مقدمة من عنده . وقد طبعها في هذه

الايام طابع كتاب تحفة المجالس وقد جعل ثمن هذه الرسالة قرشين ونصف قرش فنحث القراء على مطالعتها لما فيها من الفوائد المتعلقة بالاستحمام بالمياه المعدنية ونخص بالذكر اهل تونس لما فيها من الكلام عن حماماتها بالتفصيل

الاسلام – والرد على لورد كرومر

كتب أحد فضلاء المصريين مقالات دينية في الرد على لورد كرومر نشرها في جريدتي المؤيد واللواء بتوقيع « أبقراط » ثم جمعها وطبعها على حدتها فبلغت ٦٤ صفحة • منها مقالة في المقابلة بين الإسلام والنصرانية ومقالة في (المرأة في الإسلام والنصرانية) وسائر المقالات في الرق وتعدد الزوجات والطلاق والعبادات والجنة والنار والجهاد . ولعل هذه المقالات أحسن ما نشر في الجرائد ردا على كتاب لورد كرومر (مصر الحديثة) وثمن النسخة منها ثلاثة قروش

تقرير السير ألدن غورست

كان الناس ينتظرون هذا التقرير انتظار من يتوقع شيئا جديدا في أمر عظيم لما شاع وذاع ونشرته الجرائد في جميع البقاع من ان الانكليز غيروا سياستهم في ادارة هذه البلاد منذ استقالة لورد كرومر ارضاء للمصريين الذين اظهروا السخط من الادارة السابقة . وكان الكثير يظنون وهم لم يروا من السر ألدن غورست المعتمد الجديد عملا جديدا يخالف طريقة سلفه اللورد أنهم سيقرءون في تقريره عن سنة ١٩٠٧ شيئا جديدا يستنبطون منه كنه السياسة الجديدة . وكانوا يظنون أن من فروع التغيير في سياسة الوكالة البريطانية بمصر حرمان اصحاب المقطم من ترجمة التقرير السنوي بالعربية وطبعه واهدائه الى المشتركين في جريدتهم وبيع طائفة منه فلما جاء الموعد وظهر تقرير العميد الجديد بمصر بالانكليزية والعربية في وقت واحد كالعادة قالوا « ما أشبه الليلة بالبارحة » ورأوا صدق قول لورد كرومر « يذهب انكليزي ويجيء انكليزي » فقد نسج غورست على منوال كرومر ورمى عن قوسه قالوا إلا في مسألة الصلة الشخصية بالامير فان هذا يحاسنه بقدر ما كان ذلك يخاشنه

وصرح بعض الاحزاب بان هذه المحاسنة تخشى ولا ترجى ويقول آخرون غير ذلك وسترينا مصداق أحد القولين حوادث الايام، لاسيما بعد زيارة الامير لملك الانكليز في هذا العام، ومهما قيل في هذا التقرير وما قبله من حيث السياسة فلا خلاف في ان هذه التقارير تواريخ رسمية، لادارة البلاد المصرية والسودانية،

كلمات لقاسم بك امين

كان قاسم بك أمين الذي نعيناه الى القراء في منار الشهر الماضي يكتب بعض ما يسنح له من المعاني التي فيها عظة وحكمة وما يعن له من الآراء والخواطر او يراه من غريب المناظر . وقد ألقي الى ادارة الجريدة ما كتبه من ذلك فطبعته وأطلقت عليه هذا الاسم « كلمات لقاسم بك أمين » فكان زهاء ستين صفحة مثل صفحات كتاب الاسلام والنصرانية وجعلت ثمنه عشرة قروش صحيحة تعظيما لقيمته المعنوية واننا ننقل من فرائد تلك الكلمات أحسن نموذج للقراء وهو :

الحرية الحقيقية تحتمل ابداء كل رأي ونشر كل مذهب وترويج كل فكر

ان الذي يمدحك بما ليس فيك إنما هو مخاطب غيرك

رب كلمة يتجرعها الحليم مخافة ما هو شر منها

اذا استشارك عدوك فأخلص له النصيحة لأنه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل في مودتك

تعصب أهل الدين وغرور أهل العلم هما منشأ الخلاف الظاهر بين الدين والعلم وليس بصحيح ان يوجد بينهما خلاف حقيقي لا في الحال ولا في الاستقبال مادام موضوع العلم هو معرفة الحقائق المؤسسة على الاستقراء فمهما كثرت معارف الانسان لاتملأ كل فكره — بعد كل اكتشاف يتحققه العلم يبحث عن اكتشاف آخر وفي نهاية كل مسألة يحلها تظهر مسألة جديدة تطالبه بحلها . الآن وغدا يشتغل عقل الانسان بالعلم أي بمعرفة الحوادث الثابتة ولا يمنعه ذلك من التفكر في المجهول الذي يحيط بها من كل طرف . هذا المجهول الذي كان ويكون بعد، الذي لاقرار له ولا حد لافي الزمان ولا في المكان هو دائرة اختصاص الدين

المقلد في إيمانه مقصر يحمل عقيدته كما تحمل الوردة في عروة الملابس ، والمنكر مجازف جاوز حد العقل والعلم ، وأبغض منهما من يخادع بدينه فيقول ان كان الله غير موجود ماخسرت اكثر من غيري وان كان موجودا ربحت مع الرابحين لذلك اومن به . هذا هو المحتال الذى لايصان أحد حتى الاله من نصبه

أتعس البرية انسان ضاع إيمانه يدس الموت بسمه في حياته فيفسد عليها لذتها وينغص عليها شهوتها

وسننشر بعض آرائه في أهل عصره

شقاء المحبين

قصة في جزئين من وضع اسكندر دوماس الفرنسي الشهير وترجمها بالعربية حنا افندي العنحوري الشاب الدمشقي الذي نبغ في آداب هذه اللغة في سن الصبا نبوغا قلما قار به في مثله احد من المشهورين بالترجمة والكتابة في هذا العصر ولولا ان فاجأته المنية في نحو الثامنة والعشرين من سنه لرأينا من آثار قلمه مايعد من آيات حياة العربية

قلما رأيت ترجمة لاحد من الكتاب المعروفين كترجمة هذه القصة تكثر فيها فرائد اللغة التي هجرها الكتاب لقلة اطلاعهم وتزين بالامثال والاقتباس والتضمين وحل المنظوم من كلام الشعراء الاولين المجيدين وتقل فيها الاغلاط الشائعة الآن

طبع القصة ابراهيم افندي فارس صاحب المكتبة الشرقية في جزئين واهدى الينا نسخة منها وعهد الينا ان لا نكتب عنها شيئاً الا بعد قراءتها فقلنا لا بد لهذا من سبب فلما قرأنا صفحات منها علمنا انه عهد الينا بذلك لعلمه بأننا نعرف قيمة هذه الترجمة البليغة . وثمن الجزئين معاً عشرون قرشا وهي تطلب من طابعها

﴿ القطر المصري ﴾ مجلة سياسية أسبوعية تؤيد سياسة الحزب الوطني بمصر انشأها أحمد افندي حلمي اشهر محرري جريدة اللواء في عهد مؤسسها واذا كان من مروجي جريدة اللواء بقلمه كما هو معرف فلا غرو أن تروج مجلته وهي كبيرة الحجم قليلة الثمن اذ قيمة الاشتراك فيها ٥٠ قرشاً في السنة

الفصل الخامس (*

« مقام خديجة » عند قومها

ماأكرم هذاالمقام،وأي بليغ لاتأخذه الهيبةاذادعي لتصورهذهالمنزلة ؟

سيدة بطلعتها الفخامة والشرف يتجلّيان ، والجمال والكمال يتألّقان،

ومزايا كالزهر نفحاً وطيباً وكزهر السما بهاءاً ونورا

من شرف حسب ، الى كرم محتد ، الى سؤدد قبيل،الى عز عشيرة ، الى جمال ذات ، الى كمال صفات ، الى فضل حجى،الى طهارة نفس،ذلك ما كانت تتزين به سيدتنا « خديجة » وذلك ما كانت تحل به بين قومها في المكانة العالية والمقام الكريم

هذه المزايا ليست بالبدع من الاشياء ،ولا نبأها بغريب من الانباء ، بل هي معهودة في كثير من النسوة ، ومع ذلك لم يكن لاسمهنّ نصيب بغير الخمول ، قد طويت أعلامهن ، ولم ينشر ذكرهن ، ولم يسمُ في أقوامهن مقامهنّ ، فكيف تسامى اسم « خديجة » وعلت منزلتها ؟

انما كان لخديجة ذلك الشرف بشيء آخر غير مزاياها . ذلك الشيء هو ارتقاء مدارك قومها وسلامة أذواقهم وحسن انتظام مجتمعهم.وليس بكافٍ لتعالى امرىء ان يكون كاملاً بل بد مع ذلك من احاطة قومه علماً بفضائله ووجود ميل فيهم للفضائل والكمال ومن المشهور ان الحجارة

*) من سيرة السيدة خديجة

الكريمة عند من لا يعرف مزيتها لا قيمة لها وهي عند عارفيها فوق القيم فالحق ان ارتفاع من يستحق الرفعة في قوم ليس دليلاً على فضله وسعادة جده وحده بل هو دليل ايضاً على فضل اولئك القوم وسعادة جدهم ، فقد ربح قوم كان للافاضل منزلة كريمة لديهم ، وخسر قوم لا يعلو بينهم الا من استعان بجيش من الحيل والخداع ، وحواشٍ من النقائص المتغلبة على الطباع ،

واذا كنا معجبين بالسيدة « خديجة » لوفرة مزاياها الشريفة فنحن بقومها الذين شرفوا هذه المزايا أشد إعجابا . وليست « خديجة » وحدها هي التي نالت مقاماً كريماً في قريش بل كثير من فضليات نسائهم نلن المقام الكريم فيهم وكان الكثير منهن آثار مشكورة في مساعدة الاسلام الذي نقل العرب وغيرهم الى أعلا مما كانوا فيه ولم يستطعن ذلك الا بما لهن من القدر الذي يليق بانسان ذي رأي ممدود، وعقل مذكور ، ونفس مشابهة وحسبك من هذا ان ذلك الرجل العظيم عمر بن الخطاب ابا العدل وابا الفتوح وابا السياسة والادارة لم يكن اسلامه إلا بمحاورة سيدة من اولئك السيدات القرشيات هي اخته فاطمة زوجة ابن عمه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل

نحن نعلم أن أكثر الناس يمرون بالمزية يعهدون أمثالها فلا يلتفتون اليها مالم تكن رائعة وفوق ما اعتادوا وهذا عندنا ضار لان فيما يعهدونه ايضاً ما يستحق الالتفات اليه ، ويغري بالانتفاع منه ان كان مفيداً ، والتغافل عن الانسان المفيد اذا لم يكن فوق العادة يوصل الى الحرمان البتة من ذلك الرائع المنشود ، والسامي الذي هو فوق المعهود

ولا يشكن القارىء في ان كثيراً من الاشياء التي صرفتنا الألفة عن إجلال شأنها هي في جلالة الشأن عند الإمعان فوق ما تتصور. وفي كثير مما لا نتفكر فيه منها ما تخر الافكار صاغرةً أمام زاخر فوائده وباهر أسراره فلذلك أحببنا ان نمر بقارئنا مرةً في تفصيل جملة تلك المزايا التي شرفها قوم «خديجة» حتى كانت بها كريمة المقام فيهم لانه ربما اختلج في صدره التعجب من إكبارنا شأن مزايا معهودة في كثيرين وقد يكون قارئنا من حزب الاكثرين الذين لا يبالون بالمعهودات، ولا يطربون بغير الغرائب

نعم، نعم نحن لم نطرف بما فوق المعهود، ولم نُهدِ ما وراء المشهود، ولا عذنا بمبتدعات التصور، ولا لذنا بغرائب الحوادث، وشواذ المصادفة وخوارق العادة، ولم نمت الى افئدة القراء الا بمعروف له أمثال، ومألوف لا تضيق بتصديقه الافكار، ولكن الامر عندنا في هذه المعهودات على ما قلنا. واذا ثبنا اليها بنظر الإمعان غير وسنانة عين بصيرتنا ألفينا فيها عند سأم النفس من لذة الحس، أعظم ما تتوق اليه من لذة التصور وفائدة الإدراك

واذا كانت الحياة واحدة كان جديراً بنا ان نقف متذكرين هذه الوحدة ابداً أمام كثرة اختلاف المظاهر وشدة احتجاب الاسرار ولم يكن حسناً بنا ان ننسي أحاسن ما تلده لنا هذه الام من الصور التي لا تحصى انا بتذكرنا من سادوا وشادوا، وبتذكرنا من صلحوا وأصلحوا،

بتذكرنا من أوجدوا وابتدعوا ـ نتذكر تاريخ امنا الحياة وترتاح نفوسنا باستجلاء أحسن صورها ، وتتوارد عليها اللذة باشتياقها الى نصيب من ثروة تلك الام التي جادت بمقادير منها عظيمة على اخوتنا أصحاب تلك المظاهر ولابسي تلك الصور ، ولم لا نتوق الى حديث ذلك التراث وهو يملأ كنوزاً ان عجزت أفكارنا ان تحيط بكنه جواهره خبراً فهي لا تعجز ان تأتينا بلذة من التأمل في بديع كيانها والامل ببلوغ ما تميل اليه النفس منها

الفصل السادس

فضائل « خديجة » والفضائل عند قومها

تبارك واهب الحياة ، فقد أبدع لنا في « خديجة » المثال الاسنى منها ، وأطلع لنا في شخصها زواهر الانسانية الفضلى ، وبنور هذه الزواهر رأينا مدارك قريش في الافق الأعلى ، وتربيتهم الادبية والعقلية في المنزلة العليا

نحن معشر بني الحياة متفاوتون كثيراً في قوى النفوس وأكثرنا في الحقيقة مغبون الحظ ، منقوص النصيب من القوى التي تكون بها الحياة هنيئة شريفة مسعدة لصاحبها وغيره وقليل منا من رزقوا فضلاً من هذه القوى النافعة الآتية بالغبطة والحبور . ولدى التأمل نجد استعداد فطرة الشخص هو الاساس في حسن الحظ من هذه القوى النافعة ثم للتربية دخل كبير فاذا اجتمع في الشخص استعداد حسن وتربية حسنة كان حظه عظيماً من

فضائل النفس وقد اجتمعتا في «خديجة » فرأينافي سيرتهاذلك المثال السني، والكمال السمي

عرفنا حسن استعدادها لان التربية وحدها لا تفعل شيئاً في جوهر النفس اذا كان غير صالح لفعلها كما لا يصلح الماء، لان تطبع فيه ماتشاء، وعرفنا حسن تربيتها لان الاستعداد وحده لا يسير بصاحبه الى المرغوب في المجتمع

ومن حسن استعداد هذه السيدة وحسن تربيتها عرفنا شيئاً آخر جديراً بالتنويه وقلما رأينا من نوّه به او التفت اليه فلذلك عنينا به نحن كثيراً في صدد هذه السيرة وهو ارتقاء قوم «خديجة » ارتقاء عظيما فان التربية الشخصية مقتبسة فى الغالب من التربية العمومية . والمجتمع غالباً اشبه بالمرآة يرينا من الاشياء مقبولا ومردوداً ومسكوتا عنه . وتشتهر المقبولات حتى يطلق عليها اسم المعروف ، والمردودات حتى يطلق عليها اسم المنكر ، ويضطر الناس الى تقرير تربية عمومية هي ان لا يخالف المعروف ولا يوافق المنكر، ويبقى للناس سبح فى المسكوت عنه من الاشياء حتى يرى كل منهم رأيه فيها فهذا يستحسن شيئاً حتى يوجبه على نفسه ، وذاك يستقبح شيئا حتى يحرمه عليها . وأعقل الناس في هذه الاشياء المسكوت عنها من جعل المعروف والمنكر معياراً لها فكل ماقرب من المعروف كان حسناً ويكون وجوبه على حسب درجة قربه من المعروف ، وكل ماقرب من المنكر كان مسترذلاً ويكون حظره على حسب درجة قربه من المنكر . والاصل فى المنكر هو الاذى والعدوان وعليه قيس الاصل في المعروف قياس الضد فالاصل فيه العدل والاحسان

فعلى هذين الاصلين تقوم دعامة النظريات في التربية وعليهما تشاد الاعمال فيها

وأي باحث لا تأخذه هيبة اذا اطلع على ما كان لقوم «خديجة» من التعمق في دقائق هذا الفن من حيث النظر، وعلى بدائع النتائج فيه من حيث العمل، أي والله ان هؤلاء القوم النازلين في ذلك البلد الصغير البعيد، واخوانهم الآخرين الضاربين في تلك الفيافي، يدهش المطالع ما يراه لهم من الباع الطويل فى فن التربية على مقتضى مجتمعهم ذاك. فتراهم مثلا لما كانت السماحة ضرورية ولا سيما لذلك الاجتماع جعلوها في المقام الاول ولم يألوا بطبعها في النفوس حتى نبغ فيهم أجواد بلغوا بهمتهم في الجود الكواكب وازّينت الارض بمناقب هممهم، وايثار اخيهم الانسان على انفسهم، كما فعل كعب بن مامة الذي آثر رفيقه بمائه ومات هو عطشاً

ولما كانت الشجاعة ضربة لازب لكل شخص وكل جماعة في كل زمان وكل مكان تجدهم جعلوها شعار المحامد وتاج المناقب وسيروا فيما ضربوه من الامثال قولهم «الشجاع موقى، والجبان ملقى» وكانوا يتمادحون بالموت قتلا ويتهاجون بالموت على الفراش ولما بلغ عبدالله بن الزبير – وهو ابن أخي خديجة – قتل أخيه مصعب خطب فقال « ان يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه. اننا لا نموت حتفا ولكن قطعاً بأطراف الرماح وموتاً تحت ظلال السيوف، وان يقتل المصعب فان في آل الزبير خلفا منه» ذلك لانهم كانوا يكرهون الحياة اذا لم تشرف ويرون الحياة الرذيلة معرضة للعدم أكثر من الحياة الشريفة ولمثل هذا يقول علي ابن أبي طالب «بقية السيف أنمى

عدداً، وأطيب ولدا » وتقول الخنساء وهي احدى الشهيرات في العرب:

نهين النفوس وبذل النفو س يوم الكريهة أبقى لها

لا يستنكرنّ احد اذا قيل له ان الشجاعة ـ وهي السجية التي لا ترقى الامم اذا خلت منها ـ كانت في العرب من الاخلاق الفاشية التي لا يعتدّون بأحد منهم مالم تكن فيه وقد سهل على نفوسهم انطباع هذا الخلق فيها لان أكثر شيء كانوا يتناقلونه هو حديث الشجعان واقدامهم في الشدائد حتى فضلوا، والجبناء واحجامهم فيها حتى رذلوا، وهنالك من الشعر في الشجاعة والشجعان مايفعل في النفوس فعل السحر فيستنزلها من الخوف على الحياة والهرب بها الى الخوف على الشرف حتى تهون النفوس في سبيله كقول عنترة وهو أحد مشهوري شجعانهم:

بَكَرَتْ تخوفني الحتوف كأنني أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها ان المنية منهل لابد ان أسقى بكاس المنهل
فاقني حياءك لا اباً لك واعلمي أني امرؤ سأموت ان لم أقتل

وقد يظن ظانٌّ ان شجاعة العرب وبأسهم لم يكن الا فيما بينهم ومثل هذا الظن من قلة الاطلاع على جملة أخبارهم فنحن لا نريد ان نأتي بآية على شجاعتهم مما فعل هؤلاء القوم بعد إسلامهم فان ذلك مشهور ولكن حسبنا ان ندل القارئ على ما كان من باس العرب يوم ذي قار اذ أراد كسرى أن يوقع سوءا ببني بكر بن وائل لسبب لا محل لتفصيله فجهز عليهم جيشا كثيفاً ليهلكهم به وبلغهم خبره فتجهزوا له واعانهم قبائل أخرى فتوافوا بواد اسمه ذوقار وكانت الهزيمة على جيش كسرى حتى تبعهم العرب الى داخل البلاد الفارسية وهي واقعة مشهورة كثرت فيها الاشعار،

وظهر فيها ما للشجاعة من الفضل في كسب الفخار، وحمى الذمار، واتقاء العار، وفي هذه الواقعة يقول الاعشى اعشى بني بكر:

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم　　منا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا
لقوا ململمة شهباء يقدمها　　للموت لا عاجز منا ولا خرف
فرع نمته فروع غير ناقصة　　موفق حازم في أمره أنف
فيها فوارس محمود لقاؤهم　　مثل الاسنة لا ميلٌ ولا كُشُف
لما رأونا كشفنا عن جماجمنا　　ليعلموا اننا بكر فينصرفوا
قالوا البقية والهنديّ يحصدهم　　ولا بقية الا السيف فانكشفوا
لو ان كل مَعَدّ كان شاركنا　　في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف
لما أمالوا الى النشاب أيديهم　　ملنا ببيض لمثل الهام تختطف
اذا عطفنا عليهم عطفة صبرت　　حتى تولت وكاد القوم ينتصفوا
بطارق وبني ملك مرازبة　　من الاعاجم في آذانها الشُّنُف
من كل مرجانة في البحر أحرزها　　تيارها ووقاها طينها الصدف
كأنما الآل في حافات جمعهم　　والبيض برق بدا في عارض يكف
مافي الخدود صدود عن سيوفهم　　ولا عن الطعن في اللبات منحرف

وفي هذه الواقعة يقول العديل بن الفرج العجلي:

ما أوقد الناس من نار لمكرمة　　الا اصطلينا وكنا موقدي النار
وما يعدون من يوم سمعت به　　للناس أفضل من يوم بذي قار
جئنا بأسلابهم والخيل عابسة　　لما استلبنا لكسرى كل أسوار

وفيها يقول شاعر آخر من بني عجل

ان كنت ساقيةً يوماً ذوي كرم　　فاسقي الفوارس من ذُهل بن شيبانا

واسقي فوارس حاموا عن ذمارهم واعلي مفارقهم مسكا وريحانا

وهي واقعة شهيرة ظهرت فيها الشجاعة العربية أكمل مظهر وكان المنذر لهم بنية كسرى وعزمه لقيط الايادي اذ كتب الى بني شيبان يخبرهم بذلك في شعر مشهور غاية في البلاغة والتحميس واستثارة العزائم وفيه يقول:

قوموا جميعاً على أمشاط أرجلكم ثم افزعوا قد ينال الامن من فزعا
وقلدوا أمركم لله دركمو رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفاً ان رخاء العيش ساعده ولا اذا عض مكروه به خشعا
مازال يحلب هذا الدهر أشطره يكون متبعا طورا ومتّبعا
حتى استمر على شزر مريرته مستحكم الرأي لا قحما ولا ضرعا (*)
وليس يشغله مال يثمره عنكم ولا ولد يبغي له الرفعا

فعلى مثل ماذكرنا كان نصيب العرب عامة وقبيلة خديجة خاصة من الشجاعة التي لا قوام للامم بدونها وكانوا لا يعتدون بالجبان ولا يعدونه شيئا مذكورا . ينبئك بذلك قول احد شعرائهم

خرجنا نريد مغارا لنا وفينا زياد ابو صعصعة
فستة رهط به خمسة وخمسة رهط به أربعة

ثم لم يكن نصيب قوم «خديجة» في فقه النفس والحكمة والمعارف بأقل من نصيبهم العظيم في الشجاعة فقد كانوا يتناقلون المعارف ويتدارسونها من غير كتب وكان لهم إلمام قليل بحركات الكواكب والانواء التي

(*) المريرة طاقة الحبل والحبل الشديد الفتل · والشزر الفتل عن اليسار والمعنى استحكم امره وقويت شكيمته · والقحم الرجل الهرم والضرع الضعيف

تتبعها . وهو يقتضي شيئاً من معرفة الحساب وكان لهم معرفة غير قليلة بالطب وحفظ الصحة سواء كان طب الانسان اوطب الحيوان . والطب يقتضي ايضاً نصيباً من علم الخواص التي اودعها البارى في المعدن والنبات والحيوان . اما معرفتهم بالاخبار اي التاريخ فحدث عنها ولا حرج وكانوا يعبرون عن هذا العلم بعلم النسب فان علم النسب في الحقيقة ليس عبارةً عن معرفة نسب الاشخاص والقبائل فان هذه معرفة بسيطة لا تستحق ان تسمى علماً وانما كان النسابون يعرفون أخبار أولئك الاشخاص وأخبار تلك القبائل وهذا هو التاريخ وربما كان السبب في اشتهار هذه المعرفة باسم علم الانساب أن عارفي الاخبار كان اليهم المرجع في معرفة الانساب التي من أهم فوائدها معرفة تفريع القبائل وإلحاق الفروع بأصولها على شدة البعد بين الاصول وتلك الفروع أحياناً . وقد كان منهم اختصاصيون بهذا العلم يلقون منه على من يتحلقون حولهم . قال رؤبه بن العجاج قال لي النسابة البكري «يارؤبة لعلك من قوم ان سكت عنهم لم يسألوني وان حدثتهم لم يفهموني » يعيب بذلك على الذين لا يرغبون في تلقي هذا العلم حق الرغبة قال رؤبة فقلت له : اني أرجو ان لا اكون كذلك . قال فما آفة العلم ونكرته وهجنته ؟ قلت : تخبرني : قال « آفة العلم النسيان ، ونكرته الكذب ، وهجنته نشره عند غير أهله »

وأما الحكمة والآداب والبيان فقد بلغ فيها هذا الشعب العربي من الانصباب على حفظها ودراسة الكلم الجوامع فيها مبلغا عظيما ويمكنني ان أقول انها من أشهر ما اشتهر عنهم .

وهل يجد الباحث معنى من المعاني التي يخطر للنفس فيها الاستحسان

أو الاستهجان الا ويجد لهم الشافي الوافي من البيان في تصويره وابرازه بأبدع حلة ولا ينبئك ببعض ذلك شيء كالمأثور من كلمهم الجوامع التي سارت مسير الامثال ، وكانت كالدرر الفرائد بين سائر الاقوال ، ولا نستطيع ان نأتي هنا بقليل من ذلك الكثير لكيلا نبعد بالقارىء عن سياق السيرة ولكنا نذكر خبراً واحداً يدل على مقدار عناية العرب بتذاكر الحكم والآداب ، وصياغتها بابدع البيان ، ومقدار ما وسعت منها تلك الأفكار . ذكروا ان عمرو بن الظرب العدواني وحممة بن رافع الدوسي اجتمعا عند ملك من ملوك حمير فقال: تساءلا حتى اسمع ماتقولان . فقال عمرو لحممة أين تحب ان تكون أياديك ؟ قال « عند ذي الرثة العديم ، وعند ذي الخلة الكريم ، والمعسر الغريم ، والمستضعف الهضيم » قال : من احق الناس بالمقت ؟ قال « الفقير المختال » والضعيف الصوّال ، والغني القوّال » قال فمن أحق الناس بالمنع ؟ قال « الحريص الكاند ، والمستميد[1] الحاسد ، والملحف الواجد » قال من أجدر الناس بالصنيعة ؟ قال من اذا أُعطي شكر ، واذا مُنع عذر ، واذا مُطل صبر ، واذا قدم العهد ذكر » قال من أكرم الناس عشرة ؟ قال « من اذا قرب منح ، واذا ظلم صفح ، وان ضويق سمح » قال من ألأم الناس ؟ قال من اذا سأل خضع ، واذا سئل منع ، واذا ملك كنع[2] ، ظاهره جشع ، وباطنه طبع »[3] قال فمن أجلّ الناس ؟ قال « من عفا اذا قدر ، وأجمل اذا انتصر ، ولم تطغه عزة الظفر » قال فمن أحزم الناس ؟ قال « من أخذ رقاب الأُسود بيديه ، وجعل

---

(١) المستميد هو المستعطي (٢) معنى كنع هنا انكمش (٣) الطبع بفتحتين هو الدنس

العواقب نصب عينيه ، ونبذ التهيب دبر أذنيه » قال فمن أخرق الناس؟ قال من ركب الخطار ، واعتسف العثار ، وأسرع في البدار قبل الاقتدار[1] » قال من أجود الناس ؟ قال « من بذل المجهود ، ولم يأس على المفقود » قال فمن أبلغ الناس ؟ قال « من حلىَّ المعنى العزيز ، باللفظ الوجيز ، وطبق المفصل قبل التحزيز » قال من أنعم الناس عيشاً ؟ قال» من تحلى بالعفاف ، ورضي بالكفاف ، وتجاوز مايخاف ، الى مالا يخاف » قال فمن أشقى الناس ؟ قال « من حسد على النعم ، وسخط على القسم، واستشعر الندم ، على ما انحتم » قال من أغنى الناس ؟ « قال من استشعر الياس ، وأظهر التجمل للناس ، واستكثر قليل النعم ، ولم يسخط على القسم » قال فمن أحكم الناس » قال من صمت فاذكر ، ونظر فاعتبر، ووعظ فازدجر » قال من أجهل الناس ؟ « قال من رأى الخرق مغنما ، والتجاوز مغرما »

وما ذكرناه من جهة معارف القوم الذين نشأت منهم هذه السيدة كاف في الدلالة على انه كان من جملة مايعنون به من التربية تثقيف ناشئهم بما عندهم من المعارف على الطريقه التي ألفوها وتعودوها في التعليم وهي الطريقة الطبيعية الساذجة الخالية من الاصطلاحات والتعاريف والتفاصيل التي يحتاج اليها نفر قليلون ويستغني عليها الآخرون . ولكل فرع أهله الذين بهم استعداد لالتقاطه بسهولة ولا يكلف البليد في شيء ان يكد في تفهمه مدركته ، أو يذني في حفظه ذاكرته ، أو في توسيعه مخيلته

ثم قد كان مما عني به العقلاء من رهط خديجة التربية على العدل ولقد اسلفنا شيئاً عن ولعهم به وحرصهم على حماية المظلوم ووقاية المهضوم

(١) يريد بالبدار معاجلة الخصم

وكذلك ولعوا بتمداح العفاف وتشريف الاعفاء والعفائف، واجلال الطهارة وأهلها وكان من أكرم ألقابهم وأجلها لقب الطاهر والطاهرة وقد حازت السيدة «خديجة» هذا اللقب الشريف باستحقاق اذا كان يقال لها «الطاهرة»

فاذا عرف المطالع الكريم ان لهؤلاء القوم حظاً كبيراً من هذه الاشياء التى هي أصول الفضائل نعني السماحة والشجاعة والحكمة والآداب والبيان والعدل والتعفف كان جديراً به ان لا ينظر الى صغر شأن ذلك المجتمع اذا قورن ببلاد الحضارة فان الفضل الانساني الممنوح من يد الفاطر المبدع لا يتوقف على زخرف البيوت وكثرة الدور في البلد الواحد بل يصل ذلك الفضل بإرسال رباني من يده سبحانه الى الذرات الصغيرة التي في الادمغة ويختص به سبحانه أفراداً ممن عنوا بتوجيه العقول والقلوب الى تصفية النفس وتزكيتها من النقائص وتحليتها بالفضائل ممن لم يجعلوا أكبر همهم تجويد المأكل والملبس والمسكن والفراش . فاذا كثر من هؤلاء الافراد في أمة ظهرت وان حل الخفاء بهم، واستوفت وان بخس الوزن لهم، ولم يكن الافراد الذين تلقوا هدية الفضل الانساني من الاحسان الرباني قليلين في قوم «خديجة» الفاضلة بل كانت كثرتهم خير مقدمة لخير نتيجة هي ظهور ذلك الرسول الكريم الذي كان من أكبر مميزات جماعته الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، اولئك الذين وافاهم الوحي ينعتهم بما هم أهله قائلا «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ»



قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿مصر الاثنين ٣٠ جمادى الاولى ١٣٢٦ — ٢٩ يونيو (حزيران) سنة ١٩٠٨﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(١٣٠ : ١٢٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣١ : ١٢٦) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣٢)(*) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٣ : ١٢٧) وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٤ : ١٢٨) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٥ : ١٢٩) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا

(*) لم تعد هذه آية مستقلة في المصحف الذي طبعه فلوجل بالمانيا

اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ ؟ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٦ : ١٣٠) أُولَـٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَـٰمِلِينَ *

اعلم ان وضع هذه الآيات الواردة في الترهيب والترغيب والانذار والتبشير في سياق الآيات الواردة في قصة أحد هومن سنة القرآن في مزج فنون الكلام وضروب الحكم والاحكام بعضها ببعض (ومحل بيان سر ذلك وحكمته مقدمة التفسير وقد نشير الى بعضها أحيانا في تفسير بعض الآيات) على ان هذه السنة لاتنافي أن يكون لاتصال كل آية او آيات بما قبلها وجه وجيه تتقبله البلاغة بقبول حسن كما علم مماسبق

قال الرازي هنا : اعلم ان من الناس من قال انه تعالى لماشرح عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بارشادهم الى الاصلح لهم في أمر الدين وفي أمر الجهاد أتبع ذلك بما يدخل في الامر والنهي والترغيب والتحذير فقال « ياأيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا » وعلى هذا التقدير تكون هذه الآية ابتداء كلام ولا تعلق لها بما قبلها وقال القفال رحمه الله : يحتمل ان يكون ذلك متصلاً بما تقدم من جهة ان المشركين أنفقوا على تلك العساكر اموالا جمعوها بسبب الربا فلعل ذلك يصير داعيا للمسلمين الى الاقدام على الربا حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر فيتمكنون من الانتقام منهم فلا جرم نهاهم عن ذلك » اه والاول قول بعض المعتزلة ويقال في الثاني ان المروي في السير ان المشركين انفقوا في حرب أحد ماربحوا في تجارة العير التي جاءت من الشام عام بدر كما تقدم فما اورده الرازي غير وجيه

وقال الاستاذ الامام وجه الاتصال بين هذه الآيات وما قبلها أن ماقبلها في بيان ان الله نصر المؤمنين وهم أذلة وأنهم انما نصروا بتقوى الله وامتثال الامر والنهي ولذلك خذلوا في أحد عند المخالفة والطمع في الغنيمة — وقد جاء هذا بعد النهي عن اتخاذ البطانة من اليهود وبيان انه لا يضر المؤمنين كيد هؤلاء اليهود

مااعتصموا بالصبر والتقوى - وقد كان من موادة المؤمنين لليهود واتخاذ البطانة منهم ان منهم من رابى كما كانوا يرابون وكان البعض الآخر مظنة ان يرابي توسلا لجلب المال المحبوب بسهولة . فكان الترتيب في الآيات هكذا : نهاهم عن اتخاذ البطانة من اليهود وامثالهم من المشركين بشروطها التى هي مثار الضرر ثم بين لهم مايتقون به ضررهم وشر كيدهم وهو تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله ثم ذكرهم بما يدل على صدق ذلك طردا و عكسا بذكر وقعة بدر ووقعة أحد ثم نهاهم عن عمل آخر من شر أعمال اولئك اليهود ومن اقتدى بهم من المشركين وأشدها ضررا وهو اكل الربا أضعافا مضاعفة (قال) وقد كان ماتقدم تمهيدا لهذا النهي وحجة على ان الربح المتوقع منه ليس هو سبب السعادة وانما سببها ماذكر من التقوى والامتثال

أقول ويقوي رأي الاستاذ الامام ان السياق كان من أول السورة الى نحو سبعين آية في محاجة النصارى ثم انتقل الى اليهود ووردت قصة احد وما فيها من من العبر في سياق الكلام عن اليهود ثم بعد انتهائها يعود الكلام الى اليهود لا سيما فيما يتعلق بأمر المال والنفقات فلا غرو إذا ذكر في أول الكلام في هذه الغزوة شيء يتعلق بالمال وانفاقه وفي آخرها شيء يتعلق بذلك ولكل منهما مناسبة واشتباك بصلة المسلمين باليهود . والحرب مما يستعان عليه بالمال وحال اليهود فيه معلومة . والغرض من هذه الآية الحث على بذل المال في سبيل الله كالدفاع عن الملة والامة والتنفير عن الطمع فيه وشره أكل الربا أضعافا مضاعفة ولذلك قدم النهي عن هذا الشر على الامر بذلك الخير تقديما للتخلية على التحلية فقال

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافاً مضاعفة ﴾ هذا أول ما نزل في تحريم الربا وآيات البقرة في الربا نزلت بعد هذه بل هي آخر آيات الاحكام نزولا . والمراد بالربا فيها ربا الجاهلية المعهود عند المخاطبين عند نزولها لا مطلق المعنى اللغوي الذي هو الزيادة فما كل ما يسمى زيادة محرم . قال ابن جرير « يعني بذلك جل ثناؤه : يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تأكلوا الربا اضعافاً مضاعفة في إسلامكم بعد إذ هداكم الله كما كنتم تأكلونه في جاهليتكم . وكان أكلهم ذلك في جاهليتهم ان الرجل منهم كان يكون له على الرجل مال الى أجل فاذا حل الاجل

طلبه من صاحبه فيقول له الذي عليه المال : أخرعني دينك وأزيدك على مالك . فيفعلان ذلك فذلك هو الربا أضعافاً مضاعفة فنهاهم الله عز وجل في إسلامهم عنه » ثم ذكر بعض الروايات في ذلك فمنها عن عطاء : كانت ثقيف تداين في بني المغيرة في الجاهلية فاذا حل الاجل قالوا نزيدكم وتؤخرون . وعن مجاهد انه قال في الآية « ربا الجاهلية » وعن ابن زيد قال كان ابي زيد (العالم الصحابي الجليل) يقول « إنما كان الربا فى الجاهلية فى التضعيف وفي السن : يكون للرجل فضل دين فيأتيه اذا حل الاجل فيقول : تقضيني او تزيدني. فاذا كان عنده شيء يقضيه قضى والا حوله الى السن التي فوق ذلك إن كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون في (السنة) الثانية ثم حقة ثم جذعة ثم رباعيا (١) ثم هكذا الى فوق. وفي العين (النقود) يأتيه فان لم يكن عنده أضعفه في العام القابل فان لم يكن عنده أضعفه أيضاً فتكون مئة فيجعلها الى قابل مئتين فان لم يكن عنده جعله اربع مئة يضعفها له كل سنة او يقضيه قال : فهذا قوله « لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة »

فانت ترى ان هذا الذي فسر به زيد (رضي الله عنه) الآية هو من الربا الفاحش المعروف في هذا الزمان بالمركب وترى ان ماقاله ابن جرير ومن روى عنهم من السلف في تصوير الربا كله في اقتضاء الدين بعد حلول الاجل ولا شيء منه في العقد الاول كأن يعطيه المئة بمئة وعشرة او اكثر او اقل وكأنهم كانوا يكتفون في العقد الاول بالقليل فاذا حل الاجل ولم يقض المدين وهو في قبضتهم اضطروه الى قبول التضعيف في مقابلة الإنساء وما قالوه هو المروي عن عامة اهل الاثر ومنه عبارة الامام احمد الشهيرة التي أوردناها في تفسير آية البقرة (ص١١٤ ج ٣) وهي انه لما سئل عن الربا الذي لا يشك فيه قال « هو ان يكون له دين فيقول له اتقضي أم تربي ؟ فان لم يقض زاده في المال وزاده هذا في الاجل » . وهذا هو المعروف في الشرع بربا النسيئة

(١) ابنة المخاض من إناث الابل ما كانت فى السنة الثانية والذكر ابن مخاض وابن الثالثة يسمى ابن لبون وابنة لبون وابن الرابعة حق وحقة (بالكسر) أي استحق أي يحمل عليه وابن الخامسة جذع (بفتحتين كسمك) وابن السادسة اذا ألقى ثنيته ثني وابن السابعة إذا ألقى رباعيته رباع وابن الثامنة سديس وابن التاسعة البازل

وذكر ابن حجر المكي في الزواجر ان ربا الجاهلية كان الإنساء فيه بالشهور فانه قال بعد ذكر انواع الربا « وربا النسيئة هو الذي كان مشهورا في الجاهلية لان الواحد منهم كان يدفع ماله لغيره الى أجل على ان يأخذ منه كل شهر قدرا معينا ورأس المال باق بحاله فاذا حل طالبه برأس ماله فان تعذر عليه الاداء زاده في الحق والأجل . وتسمية هذا نسيئة مع أنه يصدق عليه ربا الفضل أيضا لأن النسيئة هي المقصودة منه بالذات . وهذا النوع مشهور الآن بين الناس وواقع كثيرا . وكان ابن عباس رضي الله عنهما لايحرم الا ربا النسيئة محتجا بانه المتعارف بينهم فينصرف النص اليه » اه المراد من كلام ابن حجر ثم ذكر ان الاحاديث صحت بتحريم سائر انواع الربا . وما قاله ابن عباس من ان نص القرآن الحكيم ينصرف الى ربا النسيئة الذي كان معروفا عندهم متعين وهو ماجرينا عليه هنا وفي سورة البقرة اذ جعلنا حرف التعريف فيه للعهد . وهو المراد ايضا بحديث الصحيحين «انما الربا في النسيئة » وفي لفظ « لاربا الا في النسيئة» وكان غير واحد من الصحابة يبيح ربا الفضل كأسامة وابن عمر ومن حرمه حرمه بالحديث لا بنص القرآن

واما ربا الفضل فانما حرم لسدّ الذريعة كما قال ابن القيم واستدل عليه بحديث ابي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «لاتبيعوا الدرهم بالدرهمين فإني اخاف عليكم الرماء » (١)

(١) قال ابن القيم بعد ان اورده والرماء هو الربا . وقال ابن الاثير في النهاية : وفي حديث ابن عمر « اني اخاف عليكم الرماء » يعني الربا والرماء بالفتح والمد الزيادة على ما يحصل ويروى « الإرماء » يقال أرمى على الشيء إرماء اذا زاد عليه كما يقال أربى . اه فاما حديث ابن عمر الذي اشار اليه في النهاية فقد رواه مالك وعبد الرزاق وابن جرير والبيهقي وأورده في كنز العمال هكذا « لا تبيعوا الذهب بالذهب الا مثلا بمثل ولا تبيعوا الورق بالورق الا مثلا بمثل سواء بسواء ولا تشفوا بعضه على بعض اني أخشى عليكم الرماء . والرماء والربا » . وعزاه بهذا اللفظ الى من ذكرنا . وأورده بلفظ آخر معزوا الى مالك فقط عن نافع عن ابن عمر عن عمر موقوفا عليه ولفظه هكذا « لا تبايعوا الذهب بالذهب ولا الورق بالورق الا =

وقد غفل عن هذا الفقهاء الذين قالوا ان الربا قسمان أحدهما معقول المعنى والآخر تعبدي . اي ان الاول محرم لما فيه من الضرر العظيم وهو ربا النسيئة — وقد بينا وجه ضرر الربا في تفسير سورة البقرة بالتفصيل — والثاني لا يعرف سبب تحريمه لأنه ليس فيه ضرر وهو ما يعبرون عنه بالتعبدي اي انه حرم علينا التركه عبادة لله وامتثالا لامره فقط . وهذا غلط ظاهر والصواب ما قاله ابن القيم في اعلام الموقعين وهو :

« الربا نوعان جلي وخفي . فالجلي حرم لما فيه من الضرر العظيم . والخفي حرم لأنه ذريعة الى الجلي فتحريم الاول قصد وتحريم الثاني وسيلة . فاما الجلي فربا النسيئة وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية مثل ان يؤخر دينه ويزيده في المال وكلما أخره زاد في المال حتى تصير المئة آلافاً مؤلفة . وفي الغالب لا يفعل ذلك الا معدم محتاج فاذا رأى المستحق يؤخر مطالبته ويصبر عليه بزيادة يبذلها له تكلف بذلها ليفتدي من أسر المطالبة والحبس ، ويدافع من وقت الى وقت ، فيشتد ضرره ، وتعظم مصيبته ، ويعلوه الدين حتى يستغرق جميع موجوده فيربو المال على المحتاج من غير نفع يحصل له ويزيد مال المرابي من غير نفع يحصل منه لأخيه فيأكل مال أخيه بالباطل ويحصل اخوه على غاية الضرر . فمن رحمة ارحم الراحمين وحكمته وإحسانه الى خلقه أن حرم الربا ولعن آكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه وآذن من لم يدعه بحربه وحرب رسوله . ولم يجئ مثل هذا الوعيد في كبيرة غيره ولهذا كان من اكبر الكبائر » اه ثم ذكر عقب هذا كلمة الامام احمد في الربا الذي لا شك فيه وقد ذكرناها آنفا ويعني بذكرها هنا ان ذلك هو الربا الذي يعد من اكبر الكبائر لا الربا الذي حرم لسد الذريعة كربا الفضل فان الفرق بينهما كالفرق بين الزنا والنظر الى الاجنبية بشهوة أو لمس يدها كذلك او الخلوة بها ولو مع عدم الشهوة لأن هذه الاشياء ليست محرمة لذاتها بل لسد الذريعة اي لئلا تكون وسيلة الى الزنا المحرم لذاته والوعيد الشديد

= مثلا بمثل سواء بسواء ولا تشفوا بعضه على بعض إني أخاف عليكم الرماء » وفيه ان نافعاً قال كان ابن عمر يحدث عن عمر في الصرف ولم يسمع فيه عن النبي (ص) شيئاً قال قال عمر . وذكره . واما حديث ابي سعيد الذي عزاه ابن القيم اليه فلا أذكر من خرجه من أصحاب الكتب المشهورة وابن القيم حافظ عدل

انما يكون على المحرم الشديد ضرره كالزنا وأكل الربا المضاعف ويدل على ذلك ان رجلا جاء النبي صلى الله عليه وسلم آسفا تائبا من ذنب ارتكبه وهو تقبيل امرأة في الطريق وسأله عن كفارة ذلك فاخبره بأن صلاة الجماعة كفارة له اي مع التوبة قالوا وفي ذلك نزل قوله تعالى « ان الحسنات يذهبن السيئات » ولو كان زنا بها لأقام عليه الحد ولم يرجمه . فقول ابن حجر ان ماورد من الوعيد على الربا شامل لجميع انواعه خطأ فإن منها عنده بيع قطعة من الحلي كسوار بأكثر من وزنها دنانير او بيع كيل من التمر الجيد بكيل وحفنة من التمر الرديء مع تراضي المتبايعين وحاجة كل منهما الى ما أخذه . ومثل هذا لا يدخل في نهي القرآن ولا في وعيده ولا يصح ان يقاس عليه كما لا يصح ان يقال ان خلوة الرجل بامرأة لايشتهيها ولا تشتهيه كالزنا في حرمته ووعيده . وقد صرح النبي صلى الله عليه وسلم بأنه انما نهى عن ربا الفضل لانه يخشى ان يكون ذريعة للربا الذى حرمه الله فى كتابه وتوعد عليه بذلك فى سورة البقرة ولا ينافي ذلك تسميته في بعض الروايات الأخرى ربا فقد اطلق اسم الربا على المعاصي القولية التي لادخل للمعاملات المالية فيها كالغيبة ففي حديث البزار بسند قوي ـ كما صرح في الزواجر ـ « من أربا الربا استطالة المرء في عرض أخيه » اي غيبته . وحديث أبي يعلى بسند صحيح كما صرح به أيضا « أتدرون أربى الربا عند الله ؟ ـ قالوا الله ورسوله أعلم قال ـ فإن اربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣٣ : ٥٨ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا) وفي معناهما احاديث أخرى عند ابي داود وابن ابي الدنيا والطبراني والبيهقي . بل فسر بعضهم الربا في قوله « ٣٠ : ٣٩ وما آتيتم من ربا » بالهدية والعطية التي يتوقع بها مزيد مكافأة

المحرم لذاته لا يباح الا لضرورة كأكل الميتة ولحم الخنزير وشرب الخمر وما كل محرم تلجئ اليه الضرورة . والمحرم لسد الذريعة قد يباح للحاجة . قال ابن القيم في أعلام الموقعين (١) « واما ربا الفضل فأبيح منه ما تدعو اليه الحاجة كالعرايا (٢)

---

(١) أول ص ٢٠٣ من الجزء الأول من طبعة الهند (٢) العرايا جمع عرية (كقضية) وهو ان يشتري رطب نخلة او أكثر بما يخرص به من التمر وهو من بيع المتماثلين في الجنس مع =

فإنه ما حرم تحريم المقاصد » ثم أفاض القول في حل بيع الحليّ المباح بأكثر من وزنه من جنسه وحقق ان للصنعة قيمة في نفسها . ثم قال(١) « يوضحه أن تحريم ربا الفضل إنما كان لسدّ الذريعة كما تقدم بيانه وما حرم سدًّا للذريعة أبيح للمصلحة الراجحة كما أبيحت العرايا من ربا الفضل وكما ابيحت ذوات الاسباب من الصلاة بعد الفجر والعصر وكما ابيح النظر (أي الى المرأة الاجنبية) للخاطب والشاهد والطبيب والعامل من جملة النظر المحرم . وكذلك تحريم الذهب والحرير على الرجال حرم لسدّ ذريعة التشبه بالنساء الملعون فاعله وابيح منه ما تدعو اليه الحاجة وكذلك ينبغي ان يباح بيع الحلية المصوغة صياغة مباحة بأكثر من وزنها لأن الحاجة تدعو الى ذلك وتحريم التفاضل إنما كان لسد الذريعة . فهذا محض القياس ومقتضى أصول الشرع ولا تتم مصلحة الناس الا به أو بالحيل والحيل باطلة في الشرع » الخ ما قاله وقد اوردناه برمته في المنار (ص ٥٤٠ م ٩)

انما تعرضت هنا لربا الفضل وهو ليس مما تتناوله الآية الكريمة للتفرقة ولأن مسألة الربا قد قامت لها البلاد المصرية وقعدت في هذه الايام واقترح كثيرون انشاء بنك اسلامي وألقيت فيها خطب كثيرة في نادي دار العلوم بالقاهرة خالف فيها بعض الخطباء بعضا (٢) فمال بعضهم الى منع كل ما عده الفقهاء من الربا وأنحى بعضهم على الفقهاء ولم يعتد بقولهم ومال آخرون الى عدم منع ربا الفضل اوما دون المضاعف فعلا بعضهم وتوسط بعض ولم يأت احد بتحرير البحث واقناع الناس بشيء يستقر عليه الرأي وفي الليلة التي ختم فيها هذا البحث القى كاتب هذا خطابا وجيزا في المسألة قال رئيس النادي حفني بك ناصف في خطبته الختامية إنه فصل الخطاب ورغب الينا رئيس النادي وغيره ان ندونه وهذا هو بالمعنى :

ان الله تعالى قد حرم ربا النسيئة الذي كانت عليه الجاهلية تحريما صريحا

= عدم القبض والمساواة لأن التمر يدفع مرة واحدة والرطب يجنى بالتدريج وقد رخص النبي في بيعها (١) اواخر تلك الصفحة (٢) منهم المشايخ عبد العزيز شاويش ومحمد سلامه ومحمد الخضري واسماعيل خليل وعبد الوهاب النجار وكل هؤلاء متخرجون في مدرسة دار العلوم

ونهى عنه نهيا مؤكدا وورد في الاحاديث الصحيحة تحريم ربا الفضل والنهي عنه فالبحث في هذه المسألة من وجهين (الوجه الاول) النظر فيها من الجهة النظرية المعقولة فنقول: ان كل ماجاء به الاسلام من الاحكام الثابتة المحكمة فهو خير واصلاح للبشر وموافق لمصالحهم ما تمسكوا به. ولكن من الناس من يظن اليوم أن إباحة الربا ركن من أركان المدنية لا تقوم بدونه فالامة التي لا تتعامل بالربا لاترتقي مدنيتها ولا يحفظ كيانها. وهذا باطل في نفسه اذ لو فرضنا ان تركت جميع الامم أكل الربا فصار الواجدون فيها يقرضون العادمين قرضا حسنا و يتصدقون على البائسين والمعوزين ويكتفون بالكسب من موارده الطبيعية كالزراعة والصناعة والتجارة والشركات ومنها المضاربة لما زادت مدنيتهم الارتقاء بنائها على أساس الفضيلة والرحمة والتعاون الذي يحبب الغني الى الفقير ولما وجد فيها الاشتراكيون الغالون، والفوضويون المغتالون،وقد قامت للعرب مدنية إسلامية لم يكن الربا من أركانها فكانت خير مدنية في زمنها. فما شرعه الاسلام من منع الربا هو عبارة عن الجمع بين المدنية والفضيلة وهو أفضل هداية للبشر في حياتهم الدنيا

(الوجه الثاني) النظر فيها من الجهة العملية بحسب حال المسلمين الآن في مثل هذه البلاد فاننا نرى كثيرين يوافقوننا على انه لو وجد للاسلام دول قوية وأمم عزيزة تقيم الشرع وتهتدي بهدي القرآن لأمكنها الاستغناء عن الربا ولكانت مدنيتها بذلك أفضل فلا اعتراض على الاسلام في تحريم الربا لان شرعه لايمكن أن يبيح الربا وهو دين غرضه تهذيب النفوس وإصلاح حال المجتمع لاتوفير ثروة بعض الافراد من أهل الأثرة. ولكنهم يقولون اننا نعيش في زمن ليس فيه أمم إسلامية ذات دول قوية تقيم الاسلام وتستغني عمن يخالفها في أحكامها وإنما زمام العالم في أيدي أمم مادية قدقبضت على أزمة الثروة في العالم حتى صارت سائر الامم والشعوب عيالا عليها فمن جاراها منهم في طرق كسبها والربا من أركانه فهو الذي يمكن ان يحفظ وجوده معها ومن لم يجارها في ذلك انتهى أمره بأن يكون مستعبدا لها فهل يبيح الاسلام لشعب مسلم هذه حاله مع الاوربيين كالشعب المصري ان

يتعامل بالربا ليحفظ ثروته وينميها فيكون أهلا للاستقلال أم يحرم عليه ذلك ــ والحالة حالة ضرورة ــ ويوجب عليه أن يرضى باستنزاف الاجنبي لثروته وهي مادة حياته؟

هذا ما يقوله كثير من مسلمي مصر الآن والجواب عنه ــ بعد تقرير قاعدة ان الاسلام يوافق مصالح الآخذين به في كل زمان ومكان ــ من وجهين يوجه كل واحد منهما الى فريق من المسلمين

أما الأول فيوجه الى فريق المقلدين وهم أكثر المسلمين في هذا العصر فيقال لهم ان في مذاهبكم التي تتقلدونها مخرجا من هذه الضرورة التي تدعونها، وذلك بالحيلة التي أجازها الامام الشافعي الذي ينتمي الى مذهبه أكثر أهل هذا القطر والامام أبو حنيفة الذي يتحاكمون على مذهبه كافة ومثلهم في ذلك أهل المملكة العثمانية التي أنشئت فيها مصارف (بنوك) الزراعة بأمر السلطان وهي تقرض بالربا المعتدل مع إجراء حيلة المبايعة التي يسمونها المبايعة الشرعية

واما الثاني فيوجه الى أهل البصيرة في الدين الذين يتبعون الدليل ويتحرون مقاصد الشرع فلا يبيحون لانفسهم الخروج عنها بحيلة ولا تأويل فيقال لهم ان الاسلام كله مبني على قاعدة اليسر ورفع الحرج والعسر الثابتة بنص قوله تعالى (٢ : ١٨٥ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقوله (٥:٦ ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج) وإن المحرمات في الاسلام قسمان. الاول ما هو محرم لذاته لما فيه من الضرر وهو لا يباح الا للضرورة ومنه ربا النسيئة المتفق على تحريمه وهو مما لا تظهر الضرورة الى أكله اي الى ان يقرض الانسان غيره فيأكل ماله اضعافا مضاعفة كما تظهر في أكل الميتة وشرب الخمر أحيانا. والثاني ما هو محرم لغيره كربا الفضل المحرم لئلا يكون ذريعة وسبباً لربا النسيئة وهو يباح للضرورة بل وللحاجة كما قاله الامام ابن القيم وأورد له الامثلة من الشرع فقسم الربا الى جلي وخفي وعده من الخفي (وقد ذكرنا عبارته آنفاً)

فأما الافراد من أهل البصيرة فيعرف كل من نفسه هل هو مضطر أو محتاج الى أكل هذا الربا او إيكاله غيره فلا كلام لنا في الافراد وإنما المشكل تحديد ضرورة الأمة أو حاجتها فهو الذي فيه التنازع وعندي انه ليس لفرد من الافراد ان يستقل بذلك وإنما يرد

مثل هذا الأمر الى أولي الامر من الأمة أي أصحاب الرأي والشأن فيها والعلم بمصالحها عملاً بقوله تعالى في مثله من الامور العامة (٤ : ٨٣ ولو ردوه الى الرسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) فالرأي عندي أن يجتمع أولو الأمر من مسلمي هذه البلاد وهم كبار العلماء المدرسين والقضاة ورجال الشورى والمهندسون والأطباء وكبار المزارعين والتجار ويتشاوروا بينهم في المسألة ثم يكون العمل بما يقررون أنه قد مست اليه الضرورة او ألجأت اليه حاجة الأمة .

هذا هو معنى ما قلته في نادي دار العلوم

هذا وان مسلمي الهند قد سبقوا مسلمي مصر الى البحث في هذه المسألة وأكثروا الكتابة فيها في الجرائد ولكنهم طرقوا بابا لم يطرقه المصريون وهو ماجاء في بعض المذاهب من إباحة جميع المعاملات الباطلة والعقود الفاسدة في غير دار الاسلام. والاصل في هذه المسألة ان الاسلام لم يحرم الربا ولا غيره من المعاملات الا بعد ان صار له سلطة وحكم في دار الهجرة وكأنهم يرون المجال واسعا للبحث في بلاد الهند هل هي دار إسلام ام لا دون بلاد مصر التي لا تزال حكومتها الرسمية اسلامية بحسب قوانين الدول وإن كان كل من السلطان صاحب السيادة على هذه البلاد والأمير والقاضي النائبين عنه فيها لا يستطيعون منع الربا منها ولا غير الربا من المحرمات التي أباحها القانون المصري

والاضعاف جمع قلة لضعف (بكسر الضاد) وضعف الشيء مثله الذي يثنيه فضعف الواحد واحد فهو إذا أضيف اليه ثناه . وهو من الألفاظ المتضايفة أي التي يقتضي وجودها وجود آخر من جنسها كالنصف والزوج ويختص بالعدد فاذا ضاعفت الشيء ضممت اليه مثله مرة فأكثر . قال الاستاذ الامام اذا قلنا إن الاضعاف المضاعفة في الزيادة فقط (التي هي الربا) يصح ما قاله المفسر (الجلال) في تصوير المسألة بتأخير أجل الدين والزيادة في المال وهذا هو الذي كان معروفا في الجاهلية ويصح ايضاً ان تكون الاضعاف بالنسبة الى رأس المال وهذا واقع الآن فانني رأيت في مصر من استدان بربا ثلاثة في المئة كل يوم فانظر كم ضعفاً يكون في السنة . وقد قال « مضاعفة » بعد ذكر الاضعاف كأن العقد قد يكون ابتداء على الاضعاف ثم

تأتي المضاعفة بعد ذلك بتأخير الاجل وزيادة المال

وأقول حاصل المعنى لا تأكلوا الربا حال كونه اضعافا تضاعف بتأخير الاجل وزيادة المال ضعف ما كان كما كنتم تفعلون في الجاهلية فان الاسلام لا يبيح لكم ذلك لما فيه من القسوة والبخل واستغلال ضرورة المعوز او حاجته ﴿ واتقوا الله ﴾ في أهل الحاجة والبؤس فلا تحملوهم من الدين هذه الاثقال التي ترزحهم وربما تخرب بيوتهم ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ في دنياكم بالتراحم والتعاون فتتحابون والمحبة اس السعادة ﴿ واتقوا النار التي اعدت للكافرين ﴾ الذين قست قلوبهم واستحوذ عليهم الطمع والبخل فكانوا فتنة للفقراء والمساكين وأعداء البائسين والمعوزين ﴿ واطيعوا الله والرسول ﴾ فيما نهيا عنه من أكل الربا وما امرا به من الصدقة ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ في الدنيا بما تفيدكم الطاعة من صلاح حال مجتمعكم، وفي الآخرة بحسن الجزاء على أعمالكم، فان الراحمين يرحمهم الرحمن كما ورد في الحديث المرفوع عند أحمد وأبي داود والترمذي وقد رويناه مسلسلا

قال الاستاذ الامام قوله « واتقوا النار » الخ وعيد للمرابين بجعلهم مع الكافرين اذا عملوا فيه عملهم وفيه تنبيه الى ان الربا قريب من الكفر. وهذا القول بعد قوله « واتقوا الله لعلكم ترحمون » تأكيد بعد تأكيد ثم أكده أيضا بالامر بطاعته وطاعة الرسول فمؤكدات التنفير من الربا اربعة. وقد قلنا من قبل ان مسألة الربا ليست مدنية محضة بل هي دينيه ايضا والغرض الديني منها التراحم المفضي الى التعاون فالمقرض اليوم قد يكون مقترضا غدا فمن أعان جدير بأن يعان.

ثم ذكر جزاء المتقين بعد الامر المؤكد باتقاء النار إتباعا للوعيد بالوعد وقرنا للترهيب بالترغيب كما هي سنته فقال ﴿ وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين ﴾ المسارعة الى المغفرة والجنة هي المبادرة الى اسبابها وما يعد الانسان لنيلها من التوبة عن الإثم كالربا والاقبال على البر كالصدقة. وقرأ نافع وابن عامر « سارعوا » بغير واو. والمراد بكون عرض الجنة كعرض السموات والأرض المبالغة في وصفها بالسعة والبسطة تشبيها لها باوسع ماعلمه الناس وخص العرض

بالذكر لأنه يكون عادة اقل من الطول . وقال البيضاوي ان هذا الوصف على طريقة التمثيل . وقال في قوله « أعدت للمتقين » : هيئت لهم وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة وانها خارجة عن هذا العالم . اه وهو ما احتج به الأشاعرة على من قال من المعتزلة انها ليست بمخلوقة الآن كما في كتب العقائد . قال الاستاذ الامام وقد اختلفوا في الجنة هل هي موجودة بالفعل ام توجد بعد في الآخرة ولا معنى لهذا الخلاف ولا هو مما يصح التفرق واختلاف المذاهب فيه . ثم وصف المتقين بالصفات الخمس الآتية فقال :

١ - ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء ﴾ أي في حالة الرخاء والسعة كما قال تعالى في بيان حقوق النساء المعتدات (٦٥ : ٧ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها) والسراء من السرور اي الحالة التي تسر والضراء من الضرر اي الحالة الضارة وروي عن ابن عباس تفسيرهما باليسر والعسر

وقد بدأ وصف المتقين بالانفاق لوجهين (أحدهما) مقابلته بالربا الذى نهى عنه في الآية السابقة فان الربا هو استغلال الغني حاجة المعوز وأكل ماله بلا مقابل والصدقة اعانة له واطعامه مالا يستحقه فهي ضد الربا . ولم يرد في القرآن ذكر الربا الا وقبح ومدحت معه الزكاة والصدقة كما قال في سورة الروم (٣٠ : ٣٩ وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) وفي سورة البقرة (٢ : ٢٧٦ يمحق الله الربا ويربي الصدقات)

(ثانيهما) ان الانفاق في السراء والضراء أدل على التقوى وأشق على النفوس وأنفع للبشر من سائر الصفات والاعمال قال الاستاذ الامام ما مثاله : ان المال عزيز على النفس لانه الآلة لجلب المنافع والملذات ، ورفع المضار والمؤلمات ، وبذله في طرق الخير والمنافع العامة التي ترضي الله تعالى يشق على النفس ، أما في السراء فلما يحدثه السرور والغنى من الاشر والبطر والطغيان وشدة الطمع وبعد الأمل ، وأما في الضراء فلأن الانسان يرى نفسه فيها جديرا بأن يأخذ ومعذورا إن لم يعط وان لم يكن معذورا بالفعل اذ مهما كان فقيرا لا يعدم وقتا يجد فيه فضلا ينفقه في سبيل

لله ولو قليلا . وداعية البذل في النفس هي التي تنبه الانسان الى هذا العفو الذي يجده أحيانا ليبذله . فان لم تكن الداعية موجودة في أصل الفطرة فأمر الدين الذي وضعه الله لتعديل الفطرة المائلة وتصحيح مزاج المعتله يوجدها ويكون نعم المنبه لها. وقد فسر بعضهم الضراء بما يخرج الفقراء من هذه الصفة من صفات المتقين وليس بسديد

يقول من لا علم عنده ان تكليف الفقير والمسكين البذل في سبيل الله لا معنى له ولا غناء فيه . وربما يقول أكثر من هذا — يعني انه ينتقد ذلك من الدين — والعلم الصحيح يفيدنا انه يجب ان تكون نفس الفقير كريمة في ذاتها وان يتعود صاحبها الاحسان بقدر الطاقة وبذلك ترتفع نفسه وتطهر من الخسة وهي الرذيلة التي تعرض للفقراء فتجرهم الى رذائل كثيرة ثم ان النظر يهدينا الى ان القليل من الكثير كثير فلو ان كل فقير في القطر المصري مثلا يبذل في السنة قرشا واحدا لاجل التعليم لاجتمع من ذلك الوف الالوف وتيسر به عمل في البلاد كبير فكيف اذا انفق كل أحد على قدره كما قال تعالى « لينفق ذو سعة من سعته » الخ

إذا كان الله تعالى قد جعل الانفاق في سبيله علامة على التقوى أو أثرا من آثارها حتى في حال الضراء وكان انتفاؤه علامة على عدم التقوى التي هي سبب دخول الجنة فكيف يكون حال أهل السراء الذين يقبضون أيديهم ؟ وهل يغني عن هؤلاء من شيء اداء الرسوم الدينية الظاهرة التي يتمرنون عليها عادة مع الناس ؟

٢ — ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ قال الراغب الغيظ اشد الغضب وهو الحرارة التي يجدها الانسان من فوران دم قلبه . وقال الاستاذ الامام الغيظ ألم يعرض للنفس اذا هضم حق من حقوقها المادية كالمال أو المعنوية كالشرف فيزعجها الى التشفي والانتقام ومن اجاب داعي الغيظ الى الانتقام لا يقف عند حد الاعتدال ولا يكتفي بالحق بل يتجاوزه الى البغي فلذلك كان من التقوى كظمه وفي روح المعاني ان الغيظ هيجان الطبع عند رؤية ما ينكر والفرق بينه وبين الغضب على ما قيل ان الغضب يتبعه ارادة الانتقام البتة ولا كذلك الغيظ وقيل الغضب ما يظهر على الجوارح والغيظ ليس كذلك » اه والاقتصار في سبب الغيظ على رؤية ما ينكر غير مسلم . واما الكظم فقد قال في الاساس كظم البعير جرّته ازدردها وكف عن الاجترار ...

وكظم القربة ملأها وسد رأسها وكظم الباب سدّه . وهو كظام الباب لسداده . ومن المجاز كظم الغيظ وعلى الغيظ فهو كاظم . وكظمه الغيظ والغم أخذ بنفسه فهو مكظوم وكظيم (٦٨: ٤٨ اذ نادى وهو مكظوم) (١٦: ٥٨ ظل وجهه مسوداً وهو كظيم) و : ما كظم فلان على جرّته : اذا لم يسكت على ما في جوفه حتى تكلم به . و : غمني وأخذ بكظمي . وهو مخرج النفس و بأكظامي اهـ . وقال الاستاذ الإمام أصل الكظم مخرج النفس . والغيظ وان كان معنى له أثر في الجسم يترتب عليه عمل ظاهر فانه يثور بنفس الانسان حتى يحمله على ما لا يجوز من قول او فعل فلذلك سمي حبسه وإخفاء أثره كظماً . وقال الزمخشري في الكشاف بعد الاشارة الى اصل معنى الكظم : ومنه كظم الغيظ وهو أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثرا . ويروى عن عائشة أن خادما لها غاظها فقالت « لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء »

٣ — ﴿ والعافين عن الناس ﴾ العفو عن الناس هو التجافي عن ذنب المذنب منهم وترك مؤاخذته مع القدرة عليها وتلك مرتبة في ضبط النفس والحكم عليها وكرم المعاملة قلّ من يتبوأها . فالعفو مرتبة فوق مرتبة كظم الغيظ اذ ربما يكظم المرء غيظه على حقد وضغينة

٤ — وهناك مرتبة أعلى منهما وهي ما افاده قوله عز وجل ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ فالاحسان وصف من أوصاف المتقين ولم يعطفه على ما سبقه من الصفات بل صاغه بهذه الصيغة تمييزا له بكونه محبوبا عند الله تعالى — لا لمزيد مدح من ذكر من المتقين المتصفين بالصفات السابقة ولا مجرد مدح المحسنين الذي يدخل في عمومه أولئك المتقون كما قيل — فالذي يظهر لي هو ما اشرت اليه من انه وصف رابع للمتقين كما يتضح من الواقعة الآتية : يروى أن بعض السلف غاظه غلام له فجأة غيظا شديدا فهمّ بالانتقام منه فقال الغلام « والكاظمين الغيظ » فقال كظمت غيظي . قال الغلام « والعافين عن الناس » قال عفوت عنك . قال « والله يحب المحسنين » قال اذهب فأنت حرٌّ لوجه الله . فهذه الواقعة تبين لك ترتب المراتب الثلاث.

٥ — ﴿ والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم

ومن يغفر الذنوب الا الله؟﴾ الفاحشة الفعلة الشديدة القبح ، وظلم النفس يطلق على كل ذنب. قال البيضاوي : « وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة ولعل الفاحشة ما تتعدى وظلم النفس ما ليس كذلك» وذكر الله عند الذنب يكون بتذكر نهيه ووعيده أو عقابه او تذكر عظمته وجلاله وهما مرتبتان مرتبة دنيا لعامة المؤمنين المتقين المستحقين للجنة وهي أن يتذكروا عند الذنب النهي والعقوبة فيبادروا الى التوبة والاستغفار - ومرتبة عليا لخواص المتقين وهي ان يذكروا اذا فرط منهم ذنب ذلك المقام الالهي الاعلى المنزه عن النقص الذي هو مصدر كل كمال، ومايجب من طلب قربه بالمعرفة والتخلق الذي هو منتهى الآمال ، فاذا هم تذكروا انصرف عنهم طائف الشيطان، ووجدوا نفس الرحمن ، فرجعوا اليه طالبين مغفرته ، راجين رحمته ، ملتزمين سنته، واردين شرعته ، عالمين انه لا يغفر الذنوب سواه، وانه يضل من يدعون عند الحاجة الا إياه ، لأن الكل منه واليه ، وهو المتصرف بسننه فيه والحاكم بسلطانه عليه ، ﴿ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ لا يصر المؤمن المتقي من اهل الدرجة الدنيا على ذنبه وهو يعلم ان الله تعالى نهى عنه وتوعد عليه، ولا يصر كذلك بالأولى، صاحب الدرجة العليا ، من أهل الايمان والتقوى ، وهو يعلم أن الذنب فسوق عن نظام الفطرة السليمة ، واعتداء على قانون الشريعة القويمة ، و بعد عن مقام النظام العام، الذي يعرج عليه البشر الى قرب ذي الجلال والاكرام ، ومثال ذلك من يخضع لقوانين الحكام الوضعية خوفاً من العقوبة ، ومن يخضع لها احتراماً للنظام ، وما ابعد الفرق بين الفريقين. قالت رابعة العدوية رحمها الله تعالى

كلهم يعبدون من خوف نار ويرون النجاة حظا جزيلا
اولأن يسكنوا الجنان فيحظوا بقصور ويشربوا سلسبيلا
ليس لي في الجنان والنار حظ أنا لا ابتغي سواك بديلا

فالآية هادية الى ان المتقين الذين أعد الله لهم الجنة لا يصرون على ذنب يرتكبونه صغيرا كان او كبيرا لأن ذكره عز وجل يمنع المؤمن بطبيعته أن يقيم على الذنب . وقد بينا في مواضع كثيرة من التفسير أن الايمان والعمل بمقتضاه متلازمان. وقد قالوا ان الاصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة وهذا اقل ما يقال فيها وورب

كبيرة اصابها المؤمن بجهالة و بادر الى التوبة منها فكانت دائما مذكرة له بضعفه البشري وسلطان الغضب او الشهوة عليه ووجوب مقاومة هذا السلطان ، طلبا للكمال بالقرب من الرحمن ؛ خير من صغيرة يقترفها المرء مستهينا بها فيصر عليها فتأنس نفسه بالمعصية ، وتزول منها هيبة الشريعة ؛ فيتجرأ بعد ذلك على الكبائر فيكون من الهالكين ، ورأيت المفسرين يوردون هنا حديث « ما اصر من استغفر وان عاد في اليوم سبعين مرة » وهو حديث ضعيف رواه ابو داود والترمذي عن ابي بكر رضي الله عنه . ومن الجاهلين من يراه فيغتر به ظانا ان الاستغفار باللسان كاف في التوبة ومنافاة الإصرار وان الحديث كالمفسر للآية فيتجرأ على المعصية وكلما اصاب منها شيئا حرك لسانه بكلمة « استغفر الله » مرة او مرات وربما عدّ مئة او اكثر واعتقد أن ذلك كفارة له . والصواب ان الاستغفار في الحديث عبارة عن التوبة لا عن كون اللفظ كفارة. على انه لا حجة فيه لضعفه . وراجع بحث الاستغفار في تفسير قوله تعالى «٣: ١٧ والمستغفرين بالاسحار » (ص ٢٥٣ ج٣) (*واما الآية فقد فهمت معناها وانها جعلت كلا من الاستغفار وعدم الإصرار اثرا طبيعيا لذكر الله عز وجل بالمعنى الذي بيناه لأهل المرتبتين من المتقين ؛ وحاسب نفسك هل تجدك من الذاكرين ،

﴿ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ يعني بقوله «أولئك» المتقين الموصوفين بما تقدم من الصفات الخمس وفيه تأكيد للوعد وتفصيل مّا للموعود به . وقيل هو خبر لقوله «والذين إذا فعلوا فاحشة» الخ بناء على انهم قسم مستقل وان «الذين» مبتدأ لا معطوف على ما قبله . وقد تقدم تفسير «جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها» (٢: ٢٥) فلا نعيده . وأما قوله عزّ وجل ﴿ ونعم أجر العاملين ﴾ فهو نص في ان هذا الجزاء إنما هو على تلك الاعمال التي منها ما هو إصلاح لحال الأمة كانفاق المال ومنها ما هو إصلاح لنفس العامل وكلها مما يرقي

*) وكذا في ص ٨٨٥ من مجلد المنار العاشر

النفس البشرية ، حتى تكون أهلاً لتلك المراتب العلية ، أي ونعم ذلك الجزاء الذي ذكر من المغفرة والجنات أجراً للعاملين تلك الاعمال البدنيــة كالانفاق والنفسية كعدم الاضرار ، وان كانوا يتفاوتون فيه لتفاوتهم في التقوى والأعمال ،

المسلمون والقبط

سبق لنا قول في هاتين الطائفتين بمصر بينا فيه ان المسلمين من حيث هم افراد أرقى من القبط في كل علم وان القبط من حيث الاجتماع والتعاضد الملي أرقى من المسلمين فلهـم مجلس ملي وجمعيات وجرائد دينيـة تبحث دائما في مصالحهم العامة من حيث هم قبط وهم يتعاونون ويتحدون في المصالح . وهذا ماحمدتهم واحمدهم عليه واتمنى لو يوفق المسلمون لمثله وان كنت أعلم انه لو أنشأ المسلمون جمعية للرابطة الاسلامية كجمعية الرابطة المسيحية لمـا وجدوا في القبط مثل احمد بك زكي يقوم فيها خطيبا ويجعل عنوان خطابته « مصريون قبل كل شيء » بل يخشى ان يقوموا كما تقوم اوروبا ويقول الجميع ان المسلمين في مصر يحيون التعصب الاسلامي والجامعة الاسلامية ويدعون الى ارتباط بعضهم ببعض لمقاومة النصارى في مصر بل في جميع الارض

لم تـكد تقر شقشقة احمد زكي بك من دعوة المسلمين في جمعية الرابطة المسيحية الى توثيق عقد الاخوة بينهم وبين القبط ويقنعهم بالادلة الدينية والتاريخية ان الاسلام في هديه وسيرة سلفه يوجب عليهم المودة للقبط حتى قام بعض الـكتاب من القبط يكتبون في بعض الجرائد القبطية وغيرها ان حقوقهم مهضومة بين المسلمين وانهم يطلبون المساواة بتعيين المديرين ومأموري المراكز منهم فوافقتهم جرائد المسلمين الـكبرى في مطالبهم فلم يقنعهم ذلك بل تمادوا في الـكتابة حتى جعلوا انفسهم اصحاب البلاد وجعلوا المسلمين من قبيل المحتلين بغير حق واغلظوا القول للواء والحزب الوطني فكتب الشيخ عبد العزيز شاويش رئيس تحرير جريدة اللواء قولا ثقيلا في الرد على بعض كتابهم سخر فيه منهم وهزئ بهم

وافتخر عليهم فكان ذلك جل مايبغون من حركتهم الجديدة (١)

قامت قيامتهم ولم يكتفوا بما يكيلون كل يوم للشيخ عبدالعزيز من الصيعان الكثيرة في مقابلة صاعه بل انشأوا يكتبون في جرائدهم إن المسلمين يريدون بتعصبهم الديني استئصال القبط وجميع النصارى من مصر وانه يجب عليهم ان يوفدوا الوفود الى أوربا للاستغاثة بدولها وامها المسيحية قبل ان يبيدهم المسلمون المتعصبون او يضطروهم الى الجلاء عن بلادهم والهجرة الى بلاد أخرى يأمنون فيها على انفسهم من المسلمين ثم هم يطلبون ايضا معاقبة الشيخ عبد العزيز شاويش الذي أهانوه أضعاف ما أهانهم وان يرد عليه ويتبرأ منه كبراء المسلمين ، و يعقدون الاندية والسمار للبحث في هذه النازلة و يكتتبون بالاموال لها

من علم ان القبط في القطر نحو نصف مليون في نحو أحد عشر مليونا من المسلمين — وان العمال والمستخدمين منهم في الحكومة أكثر من المسلمين — وان المسلمين قاموا منذ سنين يدعون الى الرابطة الوطنية فكان لهذه الدعوة من التأثير في

(١) مما كتبوه من التحرش باللواء والحزب الوطني قبل مقالة الشيخ عبد العزيز التي جعلوها تكأتهم في اثبات ذلك الخطر المزعوم من تعصب المسلمين على النصارى ماجاء في العدد ٣٦٩٨ من جريدة مصر الصادر في ٩ يونيو الماضي وهذا نصه :

اللواء والاقباط

« اننا بالنيابة عن جميع الاقباط في كافة انحاء القطر نقابل ماجاء بصحيفة اللواء امس من الوقاحة والسفاهة بالازدراء والاحتقار • فانه اذا بلغ المرء مبلغ اللواء من قلة الادب والحياء نحو شعور امة برمتها لم يجد من الناس من يصغى الى قوله او يلتفت الى وقاحته بل ينبذ نبذ النواة و يترك ينبح نبح الكلاب وليس من يسمع له قولا »

ثم استشهدت جريدة مصر على ان القبط كلهم على هذا الرأي بالتلغرافات الكثيرة لما تكتبه وعبرت عنه بقولها « في خدمة الوطنية والحق اللذين خلق (أي اللواء) لهما عدوا ليخزى هو واتباعه (أي الحزب الوطني وسائر محبي اللواء) اذا كان من القوم المدركين » ولم يكن اللواء كتب شيئا بلسان الحزب الوطني ولا بلسانه

نفوس القارئين والسامعين، والاساتذة والمتعلمين، أن صار يفضل كثير منهم القبطي على المسلم الشامي والحجازي ... بل سمعت غير واحد من المعلمين والمتعلمين يقول لا فرق عندي بين ان يكون أمير البلاد مسلماً أو قبطيا - وان المسلمين جعلوا أحزابهم وأنديتهم شرعا بينهم و بين القبط - وان القبط يتعصب بعضهم لبعض في كل مصلحة وكل عمل حتى في القضاء — وان المسلمين على شدتهم في انتقاد حكامهم قلما ينتقدون القبط فهم ينتقدون وزير المعارف المسلم على إحسانه في عمله بحجة انه لم يكن فيه مرغما للانكليز ولا معاندا لهم أوانه يجب عليه ان يعمل أكثر مما عمل ولا ينتقدون وزير الخارجية القبطي الذي هو ألصق بالمحتلين و بالاتفاق معه سلخ لورد كرومر السودان من ملك الدولة العلية وملكه للانكليز وكان رئيس محكمة دنشواي التي ظلت الجرائد الاسلامية تعير وتسب العضو المسلم فيها ولم تذكر رئيسها بسوء - من علم هذا وأمثاله يتعجب أشد التعجب لهذه الثورة المعنوية التي أثارتها القبط في الوقت الذي يبالغ فيه المسلمون في موادتهم وتوثيق عرى الاخاء بينهم و بينهم . حقا ان في الامر مثارا للعجب ، وقلما رأينا من بحث في حقيقة السبب ،

يقول بعض الناس تبعا لبعض الجرائد أن قطبي الرحا لهذه الحركة اخنوخ افندي فانوس رئيس جمعية الرابطة المسيحية ومجمع الاصلاح القبطي وصاحب جريدة مصر اللذان يسعى كل منهما لجعل والده مديرا فهما اللذان أيقظا هذه الفتنة لحظ شخصي فكانت فتنة جنسية او طائفية باتباع الجمهور لهما . ومن رأيي أنهما بريئان من هذه التهمة ولو كان ذلك هفوة لهما ، لماخفي على جمهور طائفتهما الحازمة اليقظة ، بل يغلب على ظني ان هذه الطائفة تجل عن أن تتوسل الى تقرير جعل المديرين منها بهذه الوسيلة لان ربح مدير لا يوازي خسارة مودة المسلمين لهم ، ودعوتهم الى مساواتهم ومؤاخاتهم - هذه الخسارة التي تعرضوا لها الآن ، بمنتهى ماعندهم من الجرأة والإقدام

والراجح عندي ان القوم شعروا بالتغير الجديد في السياسة وعلم بعض كبرائهم بالنبإ الذي نشرناه في الجزء الماضي قبل ان نعلم به — وهو عزم الانكليز على السماح لأمير البلاد بإنشاء مجلس نيابي — ومن البديهي ان جمهور القبط لا يرغبون في ان يكون في مصر مجلس نيابي ولا أن يقلل المحتلون من سيطرتهم على البلاد . فلما علموا بذلك

رأوا أنه لا سبيل الى تحويل الانكليز عن هذه السياسة الجديدة الا باقناع امتهم بانفجار بركان تعصب المسلمين على القبط وسائر المسيحيين ليقولوا ان هؤلاء اذا جعل لهم رأي نافذ في سلطة بلادهم يهضمون وهم الاكثرون حقوق الاقلين. وانني لمعظم لقدرهم بهذا الظن ومعتقد فيهم الحزم والتكاتف وان ترجح عندي انهم ربما أخطأوا في اجتهادهم، وجاء الأمر على خلاف مرادهم، وحينئذ يكون شر هذه الحركة اكثر من خيرها، وإثمها اكبر من نفعها،

سمعنا غير واحد من أهل الفهم والرأي يقولون إن تعصب القبط بعضهم لبعض وتعاونهم على مصالحهم الملية يعد من الأمور الطبيعية في الاجتماع فان الفئة القليلة إذا لم تعتصم بعروة التعصب فانها تذوب وتفنى في الامة الكبيرة التي تعيش معها فالقبط معذورون في سيرتهم اتي هم عليها لأنها طبيعية لابد منها

ونقول نعم إن ذلك طبيعي و بديهي ولكن ما كان كذلك يجب الاعتراف به و يستنكر جحوده فما بالك بادعاء ضده. ثم انه ليس من الطبيعي البديهي أن تكون الفئة القليلة في الأمة الكبيرة مهاجمة في جهادها الاجتماعي فتطلب ما تبغي بالطريقة التي جرت عليها القبط في هذه الأيام الا إذا كان لها حدث جديد، أو أوت الى ركن شديد،

يعبرون عن أنفسهم في مقام مطالبة المسلمين بما يطلبون بالأمة القبطية ويُدلون بأنهم أصحاب البلاد، لأنهم سلالة فرعون ذي الاوتاد، ويجهرون بأن المسلم فيها أجنبي محتل، وأتاوي معتد، وينكرون على المسلمين أن يكون لهم فيها حق من حيث هم مسلمون فاتحون، ولا ينكرون على أنفسهم أن يدعوا الحقوق فيها من حيث هم نبط مسيحيون، وهم في الحقيقة رعايا ذميون، فما هو الحدث الجديد الذي أنطقهم بهذا اللسان، وما هو الركن الشديد الذي يأوون اليه الآن،

لا يظهر لنا حدث غير ما بيناه من تغير السياسة الانكليزية في البلاد وعزمها على السماح للأمير بتأليف مجلس نيابي فيها يشترك معه فيما يسمونه مسؤلية إدارتها. ولا نعرف لهم ركنا فيما صمدوا اليه الا رغبة السياسة الأوربية عامة والانكليزية خاصة في نبز نهضة المسلمين بالتعصب الديني — فهذا ما رأوه من موقع الضعف في المسلمين والقوة لهم. لهذا جعلوا قول الشيخ عبد العزيز شاويش وهو على رأيهم دخيل في مسلمي

مصر برهاناً على ان في مصر تعصباً إسلامياً لا يلبث ان ينفجر بركانه فيدفن القبط وسائر النصارى معهم تحت مقذوفاته النارية . وقد طلبوا من الحزب الوطني ان يتبرأ من هذا القول ففعل ومن العجب انهم لم يرضوا . ويقال انه قد تجددت لهم صلة ودية برئيس أساقفة الكنيسة الانكليزية ، وأنه رغب اليهم في الرجوع اليه والتعويل في رغائبهم عليه ،

ولكن فاتهم على حذقهم أن السياسة (لا سيما الانكليزية منها) اذا قررت أمراً أنفذته لامحالة لا يصدها عنه مراعاة فئة صغيرة ولا كبيرة ، ولا مسألة اختراعية كمسألة التعصب الاسلامي ، اوحقيقية كإزالة السلطة الشخصية وحماية الحرية القومية ، فنبشرهم بأن السياسة الجديدة التي بينها المنار في الجزء الماضي واقعة مالها من دافع . وأمر مجلس النواب في هذه البلاد صار موكولا الى ارادة أميرها باختيار المحتلين ورضاهم أو كاد . فان نجحت الحركة القبطية فقصارى نجاحها ان تكون سبباً في تأخيره عاما او أكثر وما ذلك بالربح الكثير في جنب ما يخسرون من مودة المسلمين بما اشتملت عليه مقالاتهم من التهكم بمجد الاسلام الاول والشماتة بزواله كالتعبير عنه « بالعظمة البالية » ورمي المسلمين السابقين بظلمهم وظلم غيرهم ، واللاحقين بالتعصب عليهم وعلى أهل دينهم . وبمطالبة جميع كبراء المسلمين وكتابهم بأن يعتذروا لهم عن مقال الشيخ عبد العزيز وان كانوا هم البادئين بالعدوان وقد أصرّوا عليه بجعل ذنب الشيخ عبد العزيز ذنباً لجمهور المسلمين ، وبالسعي في جمع كلمة نصارى السوريين والروم والأرمن اليهم لمقاومة المسلمين كما روي لنا ويؤيده مايكتبون في الجرائد ، وبترجمة الأقوال السيئة التي يكتبونها ويكتبها الآخرون باللغات الأوربية ، لإيهام أوربا ان في البلاد تعصباً ربما يفضي الى ثورة دينية ،

أول خسارة خسروها بهذه المغاضبة هي اعتقاد المسلمين ان دعوة الوطنية التي قاموا بها في هذه السنين قد كانت خسارا عليهم وربحا للقبط وحدهم . فان دعاة هذه الوطنية من المسلمين كانوا يبغون بها ان يتحدوا بالقبط ويتعاونوا معهم على مقاومة السلطة الاجنبية ولذلك رضوا بأن يساووهم ويؤاخوهم مع العلم بأن الحكومة في صفتها الرسمية إسلامية تابعة لخليفة المسلمين باتفاق الدول ، بل غضوا النظر في الغالب عن

رجحانهم عليهم لهذا الغرض . فتبين لهم ان القبط لا يرضون بهذا الاتحاد من كل وجه بل يستفيدون منه ويحولون دون استفادة المسلمين شيئاً منهم ، حتى نفي التعصب عنهم ، ثم يبنون أعمالهم كلها على أنهم أمة ممتازة لا عضو في جسم الأمة المصرية او الشعب المصري ـ وانهم لا يرضون بمقاومة الاجنبي ولا يودون استقلال البلاد دونه ـ وانهم اذا وجدوا فرصة لمواثبة المسلمين واثبوهم من أضعف جانب فيهم كنبزهم بلقب التعصب ومعاداة النصارى في هذه الأيام . فاذا كانت نتيجة دعوة المسلمين الى الوطنية المصرية بلسان جرائدهم وخطبائهم واحزابهم وعد القبطي أخا لهم ، والمسلم غير المصري « دخيلا » فيهم ، ان تقوم عليهم جرائد القبط وجمعياتها الدينية ، وأنديتها القومية ، ترميهم بالغلو في التعصب والتواطؤ على إبادة النصارى فأي فائدة لهم في هذه الوطنية ؟ بل أي غائلة شر عليهم منها ؟؟

أقول إن في هذا خسارا للقبط لأنه ربما يغري المسلمين بمناظرتهم والتشبه بهم في جمعياتهم الدينية وترجيحهم لأبناء ملتهم في جميع الأعمال والمصالح . واذا دب في المسلمين الشعور بوجوب ترجيح المسلم على القبطي كما تفعل القبط فان ذلك يثمر حرمان ألوف من القبط من موارد الرزق السائغة في دوائر المسلمين الخاصة بل ربما يعوزهم معه – اذا تمادى وعظم – القيام باستغلال أرضهم كما يستغلونها الآن بمساعدة المسلمين . دع عنك مصالح الحكومة التي اكثر عمالها من القبط ولولا تساهل المسلمين وعدم عنايتهم بالمسابقة والمناظرة لكان الامر على غير ما هو عليه الآن

وناهيك بالخسارة المعنوية التي هي عند أهل الآداب العالية شر من خسارة المال وهي ما يخشى ان يكون من التقاطع والتدابر بين العشراء والخلطاء والجيران والأصدقاء

فالرأي عندي للقبط أن لا يغتروا بترجيع بعض الجرائد الافرنجية لاصواتهم في الشكوى من المسلمين والقول بتعصبهم ولا من سرور بعض الانكليز به ـ ان كان ماقيل من ذلك حقاً - فانهم مهما أصابوا من تعضيد في مشاقة المسلمين فهو لا يكون خلفاً صالحاً لمودتهم فيما أرى . فأنصح لهم أن يتوبوا مما فعلوا ويعتذروا عنه ويعودوا إلى سابق شأنهم أو إلى خير منه ان استطاعوا والمسلمون تغلب عليهم سلامة القلب فلا يلبثون

ان يغفروا لهم، وينسوا ما كان منهم، ففي حديث أبي هريرة عند أبي داود والترمذي « المؤمن غرٌّ كريم » أي ليس بذي نكر ولا مكر ولا خداع . ولولا انني أحب الوفاق لما نصحت لهم بهذا فانني أعلم ان هذه المشاقة لا تزيد المسلمين الا قوة في رابطتهم الاسلامية التي أدعو اليها ، وحفظا لحقوقهم التي أغار عليها ، ولكنني أفضل أن يكون تنبيههم لذلك بغير هذا ، أحب ان يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا وان يكونوا مع ذلك على وفاق ووئام مع من يعيش معهم . وأنصح للمسلمين ان لا يكتبوا شيئاً في الرد على القبط — ولو لم يكتبوا في الماضي ما كتبوا لكان خيراً لهم وأحسن إطفاء لتلك الفتنة وخذلانا لموقظيها - ولكن لا بأس ببيان عدد الموظفين منهم في كل مديرية وذكر الوقائع في تعصب بعضهم لبعض، وتعاونهم الملي المحض ، من باب بيان الحقيقة والاعتبار بها ، بشرط ان يتحرى الصحيح ، ولا تمزج الرواية بشيء من التأنيب والتجريح ، فضلا عن الهجر والتقبيح ،

ومما يحسن البحث فيه ايضاً بيان ان القبط لا يمتازون بحق رسمي على غيرهم من النصارى المتجنسين بالجنسية المصرية من السوريين والأرمن والروم ومن اليهود أيضاً وانما ميزهم المسلمون في مقالاتهم وخطبهم التي يجعلون فيها المصريين عنصرين فقط ويعدون القبط إخوانهم دون غيرهم من الذين جعلوا مصر وطناً لهم ويعدهم القانون المصري مصريين لولادتهم بمصر او لاقامتهم فيها ١٥ سنة او أكثر فالنسب القديم ليس شرطا للوطنية ولا للجنسية عند أحد من الامم ولا في شيء من قوانينها . فاذا كان من الحق مطالبة القبطي بأن يكون مديرا كان من الحق ان يكون السوري الذي تجنس بالجنسية المصرية مديرا ووزيرا ، فالحق انه لا فرق بين ابن اخنوخ افندي فانوس ، وابن يعقوب افندي صروف ، فالوطنية الحقيقية هي المساواة بين جميع العناصر التي تقيم في البلاد وتحكم بقوانينها . الا أن يكون للطائفة الحاكمة بعض المزايا في القوانين العامة وطبيعة الحكومة

فمما يبحث فيه هنا طبيعة الحكومة المصرية ودينها الرسمي فاذا كانت لا تزال حكومة إسلامية خلافا لما يقول بعض القبط علم ان طلب هذه الطائفة مساواة المسلمين في كل شيء في غير محله . واذا كانت قد خرجت عن كونها إسلامية وعن كون

أميرها وكيلا لخليفة المسلمين فيجب البحث في تعيينه للقضاة الشرعيين ، ولادارته لأوقاف المسلمين ، ولتعيينه للخطباء وأئمة المساجد ونحو ذلك من المسائل الشرعية هل هي مع ذلك حقوق شرعية له ام هو لا يملكها الآن الا بالتغلب والقوة المستمدة من القبط وغيرهم دون ولاية الشرع لان البلاد خرجت عن كونها دار إسلام ؟؟ يهم المسلمين جدا ان يعرفوا ذلك لانه يترتب عليه احكام شرعية كثيرة منها ماهو ديني محض وما هو مدني شرعي

تسمي القبط ماتطلبه الآن مساواة بالمسلمين وهو مساواة من وجه وامتياز عليهم من وجه آخر . فاذا كانت حكومة مصر غير اسلامية وكان المسلمون فيها لا يمتازون بشيء قط فلماذا تكون أمورهم الملية الخاصة كالمحاكم الشرعية والاوقاف والمدارس الدينية تحت سلطة الحكومة المشتركة وتكون امور القبط الملية وأوقافها في أيديها ؟ اليس يكون هذا من امتياز القبط على المسلمين ؟

يغلب على ظني ان زعماء الحركة القبطية اذا فكروا في الأمر من جميع وجوهه فانهم يفضلون السكون والسكوت على التمادي في هذا العدو والصياح الا ان يكون الركن الشديد الذي يأوون اليه قد ضمن لهم ان يكونوا هم الرابحين بمشاقتهم للمسلمين وإثارتهم لسخطهم وتعرضهم لمقاومتهم

لولا أنني اظن صدق الخبر الذي اوردته في الجزء الذي قبل هذا عن السياسة الانكليزية الجديدة بمصر لغلب على ظني ان الركن الذي تأوي اليه القبط في هجتهم هذه هي السر الدن غورست نفسه والوزارة الانكليزية من ورائه أما وانا مصدّق لذلك الخبر فلا يبعد عندي ان يكون ركنهم بعض المحافظين من الانكليز ورئيس اساقفة كنيستهم (كنتربري) والا كانت القبط طائفة حمقاء وما عهدتها الا طائفة كياسة وروية ، وحزم وتدبر ، وستزيّل لنا الايام ، بين الحقائق والأوهام ،

فاذا فازت القبط في سعيها فامتنع الانكليز عن السماح للامير بانشاء المجلس النيابي وتقرر بالفعل انه لافرق بينهم و بين المسلمين في الحكومة — وما ذلك بمحال —

فانني اشهد للقبط بأنها أرقى طوائف الشرق الادنى في السياسة والاجتماع وجميع مقومات الحياة الملية لا أقرن بها تركيا ولا عربيا سوريا ولا غير سوري ولا أرمنيا بل ولا يهوديا . ويتبع هذه الشهادة انها تكون احق في الواقع ونفس الامر بالحكم في البلاد ، وتعذر في التشوّف الى الاستقلال ، وتكون مصيبة في تسمية نفسها « امة » ، وحقيقة بان تكون في المستقبل ذات دولة ، ويقال انها تطمع في ذلك فان صح ماقيل كان برهانا على علو همتها ، وثقتها بنفسها في وحدتها

وخلاصة القول ان طائفة القبط قامت تطلب مطالب لنفسها من حيث هي امة ومن حيث هي صاحبة الحق في حكم البلاد وظهر انها فيه متكافلة متضامنة متحدة فناقشها افراد من المسلمين بصفتهم الشخصية لا باسم حزب من الاحزاب ولا جمعية من الجمعيات ووافقها بعض آخر كما وافقتها الاحزاب وهي مع ذلك تنسب مناقشة الفرد الى الحزب او الى الامة . وقد استعمل بعض الكاتبين من الفريقين الهجر والسباب ، والتنابز بالالقاب ، فكانوا فيه سواء ، الا ماهو من صناعة البلغاء ، ولكن القبط تطلب ان يعتذر لها الجميع عن الافراد ، وهي لا تعتذر للجميع عما تقول بلسان الجميع ، فاذا قلنا ان الفريقين قد تعادلا في الاهانة فتساقطا فليس لاحد حق في ذلك على آخر بقي معنا انه ليس في البلاد وطنية حقيقية ، وأنه لا يزال يغلب على الفريقين نزعة الرابطة الدينية ، (وان تنصل من ذلك كل منهما) وأن هذه الحركة أضعفت ماقام بعض الأحزاب والافراد ، من الدعوة الى المساواة والاتحاد ، وان القبط أعرق في النزعة الملية ، وابعد عن حقيقة الوطنية ، اذ من مقتضى الوطنية أن لايطلبوا لأنفسهم شيئا من حيث هم قبط وان لا يسموا انفسهم أمة وأن لا يتعصب بعضهم لبعض في المصالح والاعمال ، كما يعرف كل احد منهم الآن ، وأن يرضوا بما تختاره الحكومة من التدريج في نقل البلاد من حال الى حال ، أو يكتفوا ببث رغائبهم الى وزيرهم الناصح لهم ، الغيور عليهم ، المتفاني في ترقيتهم ، وهو لايدع فرصة يتمكن فيها من اعطائهم حقا جديدا الا و ينتهزها انتهازا ، ويجعلها سيفا في يده لا عكازا

واذا كان الامر كذلك في الوطنية ، وفي هذه الحركة القبطية ، فما هو تأثيره

في رغبة المسلمين وهي المجلس النيابي وفي رغبة القبط وهي نيل ما بقي من أعمال الحكومة بين الوزارة والقضاء كالمديرية ومأمورية المركز ؟ ؟

اما الأول فمن الجلي الواضح ان ضعف الوطنية ، لا يقتضي ان تبقى حكومة البلاد استبدادية ، لأن حكومة الشورى أبعد من الحكومة الشخصية المطلقة عن الظلم غالباً ، ولذلك فرح مسلمو روسيا بإنشاء مجلس النواب (الدوما) في حكومتهم على قلتهم في جانب الروس المشهورين بالتعصب . على انه إذا فرض ان الحكومة الشخصية المطلقة خير للقبط من جهة التمتع بالوظائف فان ذلك الحظ الذي يصيب افراداً من فئة قليلة في الأمة الكبيرة لا يصلح مرجحاً لعدم ترقية حكومتها لأن ذلك ترجيح للأفراد القلائل على الجمهور الكبير فهو من قبيل ترجيح المصلحة الخاصة على المصلحة العامة

وأما الثاني فإذا فرضنا ان حكومة مصر خرجت عن كونها إسلامية والبلاد عن كونها دار إسلام فمن السياسة والحكمة في الادارة ان لا يكون القبطي الآن مديراً في مديرية فيها مئات الألوف من المسلمين وليس فيها إلا آحاد الألوف أو المئين من القبط وان ينتظر في ذلك تكوّن الوطنية الحقيقية ، التي تمتزج فيها جميع العناصر المصرية ، فلا ينزع احد منها الى الامتياز بجنسه ونسبه ، ولا بدينه ومذهبه ، فان استعجلنا فجعلنا القبط مديرين لامور المسلمين ، والحال على مانعلم منهما ، او مايدعي كل منهما ، فاننا نكون قد أثرنا العدوان ، وأرّثنا الأضغان ، ووضعنا في طريق الوطنية سدًّا لا يدك ولا يُظهَر ، وعقبة لاتزول ولا تقتحم ، او قدمنا النتيجة على المقدمات ، وطلبنا الثمرة ، قبل خروج الشجرة ،

فالمعقول إذاً ان تكون حركة القبط الجديدة مبعدة لهم عن مطلبهم الظاهر ، ولكن ربما لا تكون مبعدة عن غرضهم الباطن ، والله أعلم بالسرائر ، وانما نحن نحكم بالظواهر ، وهذا ماراه الكاتب فيه من الصواب ، فإن تبين له انه مخطئ فيه بادر الى المتاب ، واستغفر ربه وخرّ راكعا وأناب

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا . ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

بحث ما ومن وتفسير سورة الكافرين ١٠٦

(س ٥) من محمد حسيب افندي عامر وكيل تلغراف (بلبيس — شرقية)
حضرة العلامة المفضال صاحب المنار

بعد السلام والتحية نرجوكم ايضاح معنى لفظة « ما » وما تشير اليه في قوله عز وجل ــ لا اعبد ما تعبدون ولا انتم عابدون ما اعبد ــ فإني إن أعطيتها حكم غير العاقل كقاعدتها النحوية استحال ذلك على المولى سبحانه وتعالى وان اعطيتها حكم العاقل فالأصنام وما كانوا يعبدون ليست بذي عقل أفيدوني مأجورين والسلام

(ج) قالوا ان لفظ « ما » هنا أريد به الصفة اي «المعبود» واذا أريد بها الصفة تطلق على العاقل وغيره · وجوز بعضهم ان يكون اطلاقها على الله عز وجل بعد اطلاقها على الاصنام من قبيل المشاكلة لاجل التناسق في التعبير · ولعل السائل يعلم انه نقل عن سيبويه وغيره ان كون « ما » لما لا يعقل أغلبي لا مطرد والشواهد عليه من التنزيل وكلام العرب معروفة • قال الزمخشري في الكشاف : «وما» عامّ في كل شيء فاذا علم فرق بما ومن وكفاك قول العلماء « من لما يعقل »اه اي فاطلقوا «ما» على العاقل في نفس القاعدة التي ذكروا فيها ان « من » خاصة بالعاقل • وفي حاشية الامير على المغني بعد ذكر عبارة الكشاف : قال التفتازاني اي يصح إطلاق ما على ذي العقل وغيره عند الابهام لاستفهام او غيره فاذا علم ان الشيء من ذوي العلم والعقل فرق بمن وما فتختص « من » بالعاقل و « ما » بغيره • وبهذا الاعتبار يقال ان ما لغير العقلاء • واستدل على اطلاق « ما » على ذوي العقول باطباق

أهل العربية على قولهم « من لما يعقل » من غير تجوز في ذلك حتى لو قيل « لمن يعقل » كان لغوا بمنزلة ان يقال : الذي عقل عاقل . فان قيل كان الواجب هنا ان يفرق بما ومن لان مايعقل معلوم انه من ذوي العلم . قلنا نعم لكن بعد اعتبار الصلة أعني « يعقل » . واما الموصول نفسه فيجب ان يعتبر مبهما مرادا به شيء ما ليصح في موقع التفسير بالنسبة الى من لا يعلم مدلول « من » وليقع وصفه يعقل مفيدا غير لغو . ومحصله انك ان لاحظت العاقل من حيث انه عاقل استعملت فيه « من » وان لاحظته من حيث انه شيء مااستعملت فيه « ما » كما تقول : مالانسان ؟ اه وانت تعلم ان (ما) في السورة ليست لبيان ان مدلولها عاقل او عالم بل لبيان انه شيء معبود فاستعمل فيه اللفظ العام الذي تفسره الصلة

هذا وانني رأيت بعض الناس لا يفهمون معنى السورة وقد سألني غير واحد بالمشافهة عن معنى مافيها من صورة التكرار فأحببت ان اورد هنا ما كتبه الاستاذ الامام في تفسيرها تتمة للفائدة وهو :

« الكافر هو المعاند الجاحد الذي إذا رأى ضياء الحق أغمض عينيه ، واذا سمع الحرف من كلمته سد أذنيه ، ذلك الذي لا يبحث في دليل بعد عرضه عليه ، ولا يذعن لحجة إذا اخترقت فؤاده ، بل يدفع جميع ذلك حباً فيما وجد نفسه فيه مع الكثير ممن حوله ، واستند في التمسك به إلى تقليد من سلفه ، فهذا الصنف هو الذي قال الله فيه (٨: ٢٢ ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ٢٣ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) . بعض هذا الصنف بل الغالب من أفراده يقول للداعي إلى الحق أو يحدث نفسه ليلهيها عن فهمه : الام يدعونا ؟ ألى الله فنحن نعتقد به ؟ أإلى توحيده فنحن نوحده ؟ وغاية مافي الأمر نتخذ شفعاء اليه ، نسأله بحقهم عنده أو بمكانتهم لديه ، أإلى عبادته فنحن نركع ونسجد له ؟ وغاية ما عندنا زيادة على ذلك أننا نعظم أولياءه وأهل الشفاعة عنده ونتوسل اليهم ليتوسلوا اليه . هذه وساوسهم وهذه أمانيهم فأراد الله سبحانه أن يقطع العلاقة بينهم وبين ما عليه الداعي الى الحق صلى الله عليه وسلم بأصرح مايمكن أن يصرح به فقال له (١ قل يا أيها الكافرون ٢ لا أعبد ما تعبدون) أي ان الاله الذي تزعمون

أنكم تعبدونه ليس هو الذي أعبده لانكم انما تعبدون ذلك الذي يتخذ الشفعاء أو الولد أو الذي يظهر في شخص أو يتجلى في صورة معينة أو نحو ذلك مما تزعمون وانما أعبد إلهاً منزها عن جميع ما تصفون به إلهكم (٣ ولا أنتم عابدون ما أعبد) أي انكم لستم بعابدين إلهي الذي أدعو اليه كما تزعمون فانكم زعمتم أن الذي تعبدونه يتقرب اليه، بتعظيم الوسائط لديه، فتوسلتم بها اليه، وتعتقدون أنه يقبل توسطها عنده، فهذا الذي تعبدونه ليس الذي أعبد فلهذا لا تعبدون ما أعبد بل تعصونه وتخالفون أمره. ثم لما كانوا يظنون أن عبادتهم التي يؤدونها أمام شفعائهم، أو في المعابد التى أقاموها لهم وبأسمائهم، أو يؤدونها لله في المعابد الخاصة به أو في خلواتهم، وهم على اعتقادهم بالشفعاء — عبادة لله خالصة وأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يفضلهم في شيء نفى أن تكون عبادته مماثلة لعبادتهم وأن تكون عبادتهم مماثلة لعبادته فقال (٤ ولا أنا عابد ما عبدتم) فما هذه مصدرية وليست بالموصولة مثل التى تقدمت أي ولا أنا بعابد عبادتكم (٥ ولا أنتم عابدون ما أعبد) أي ولا أنتم عابدون عبادتي. فمفاد الجملتين الاولين الاختلاف التام في المعبود ومفاد الجملتين الأخريين تمام الاختلاف في العبادة فلا معبودنا واحد ولا عبادتنا واحدة لان معبودي ذلك الاله الواحد المنزه عن الندّ والشفيع، المتعالي عن الظهور في شخص معين، أو المحاباة لشعب أو واحد بعينه، الباسط فضله لكل من أخلص له، الآخذ قهره بناصية كل من نابذ المبلغين الصادقين عنه، والذي تعبدونه على خلاف ذلك. وعبادتي مخلصة لله وحده وعبادتكم مشوبة بالشرك مصحوبة بالغفلة عن الله تعالى فلا تسمى على الحقيقة عبادة فأين هي من عبادتي (٦ لكم دينكم) دينكم مختص بكم لا يتعداكم إليّ فلا تظنوا اني عليه أو على شيء منه (ولي دينِ «*») أي ديني هو دين خاص بي وهو الذي أدعو اليه، ولا مشاركة بينه وبين ما أنتم عليه، ولا يخفى أن هذا المعنى الذي بيناه هو ما يهدي اليه أسلوب السورة الشريفة خصوصا هذه الآية الاخيرة «لكم دينكم ولي دين» فانها صريحة في ان المراد نفي الخلط المزعوم. وما دلت عليه السورة هو ما دلت عليه آية (٦: ١٥٩ ان الذين فرقوا

(*) لفظ «دين» مضاف الى ياء المتكلم المحذوفة لاجل الوقف

دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء) أي لا علاقة بينك و بينهم لا في المعبود ولا في العبادة. وأما ما قيل من غير ذلك فان صح شيء مما ورد فيه فاحمله على معناه مستقلاً عن معنى السورة ولا تغتر بكل ما يقال فأفضل ما تفهم هو أقرب ما يُفهم والله أعلم » اه

النقوط

(س ٦) ومنه :

حضرة العلامة المفضال صاحب المنار الغراء . بعد السلام والتحية — أرشدونا أرشدكم الله : « هل ما يسمى (النقوط) المتعارف والمستعمل بين افراد الأمة المصرية في الأفراح وما شابهها سواء كان ذلك بالنقدية أو ما يقوم مقامها محلل أم محرم وما الدليل أفيدونا مأجورين » :

(ج) كل ما يبذل من المال بالرضا والاختيار تبرعاً فلا حرج على باذله ولا على المبذول له إلا ان يقصد به الاعانة على عمل محرم كالفسق والفساد في الأرض والنقوط لا يقصد به شيء من المحرمات فيما نعلم وانما هو إكرام من قبيل الهدية والاصل في جميع التصرفات المالية الإباحة فالقول بها لا يحتاج الى الدليل وانما يستدل على المحرم لأن التحريم خلاف الاصل

حديث من زار قبر والديه يوم الجمعة

(س ٧) من الشيخ احمد شرف الدين بالازهر

حضرة الاستاذ السيد رشيد رضا المحترم

سلام على حضرتكم ورحمة الله. اما بعد فقد جمعني وجماعة من اكابر علماء الازهر الشريف مجلس فسمعت منهم حديثاً لم اسمعه من قبل وحيث لم ار عليه بلاغة سيد العرب والعجم صلى الله عليه وسلم ولحضرتكم سعة اطلاع على السنة الصحيحة اردت عرضه على مسامع سيادتكم حتى اذا كان صحيحاً أيدتموه ونشرتم ذلك بمناركم المضيء وان كان ضعيفاً او غير حديث اوضحتم سبيله ولكم الفضل والحديث هو (قال صلى

الله عليه وسلم من زار قبر والديه يوم الجمعة فكانما حج ومن زار احدهما فقد أتى بعمرة) واذا صح هـذا فلا لوم اذا على مزاحمة النساء للرجال في زيارة القبور لان كلا يريد ان يحج

(ج) الحديث ظاهر الوضع ولم أر من خرجه بهذا اللفظ وقد علمت ان من علامات الحديث الموضوع بناء الثواب الكبير على العمل القليل . وقال في الفوائد المجموعة حديث « من زار قبر والديه او احدهما يوم الجمعة غفر له » في اسناده وضاع وله شاهد في اسناده ضعف . وروي « من زار قبر ابيه او أمه او عمته او خالته او احد اقاربه كتب له حجة مبرورة » ولا أصل له اه

ولعله يعني بحديث الشاهد « من زار قبر والديه او احدهما في كل يوم جمعة غفر له وكتب برا » لما فيه من الزيارة عزاه في الجامع الصغير الى الحكيم الترمذي عن ابي هريرة وعلم عليه بالضعف وفي اسناده محمد بن النعمان مجهول وشيخه يحيى بن العلاء الرازي البجلي متروك بل قال الامام احمد انه كان يضع الحديث فهو موضوع لا ضعيف ولا شك عندي في ان كل ماروي في هذا المعنى موضوع اختلقه المختلقون بعد اعتياد الناس زيار قبور الاقربين في ايام الجمع ولم يكن ذلك من سنة النبي ولا اصحابه في شيء

زيارة الحرم النبوي واستئذان ملك الموت على النبي (ص)

(س ٨ و ٩) من محمد افندي حلمي الكاتب الاول لمركز المسلمية (السودان)

حضرة سيدي الحسيب النسيب الفاضل الافخم العلامة الكامل السيد محمد رشيد رضا حفظه الله . عليكم منا السلام والرحمة والبركة والا كرام و بعد فأرجو من فضلكم وكرم اخلاقكم المشهورة الاجابة على السؤالين الآتيين وارجو ان كان سبق لسيادتكم التكلم عنهما في مجلدات غابرة ان تجيبوني عليهما واكون ممنونا جداً لو تفضلتم وتكرمتم بدرجها في أول عدد لاهمية لزومها عند الجمهور خصوصاً فى هذه الاصقاع ولا خلاف بأن فضيلتكم أصبحتم مشهورين بالعلم والفضل في جو علوم العربية بل صرتم لنا من اركان الاسلام والله على ما أقول وكيل وهو حسبي ونعم الوكيل

س « ١ » هل زيارة الحرم المدني سنة وهل كل احد مكلف بزيارته بعد الحرم المكي

س « ٢ » هل ملك الموت قد استأذن سيدنا محمداً في قبض روحه الشريفة وكيف كان ذلك وهل صح انه لم يسبق له أن استأذن على أحد قبله كما يزعمون او يذيعون ؟ هذه هي اسئلتي ياسيدي وقد اقنعت المجادلين لي في السؤال الاول نقلا عن اغاثة اللهفان للامام الحجة ابن القيم فلم يقنعوا واما السؤال الثاني فلم اتكلم عنه بشيء لعدم معرفتي حقيقته ولم اعثر في الكتاب المذكور على شيء بخصوصه وجميع المجادلين لي ابوا ان يقتنعوا حتى ينظروا جوابكم بالمنار لاعتقادهم فيه وهم من الاهالي والمستخدمين . ومن المستخدمين مشتركون في مجلتكم الزاهرة ولكن كلفوني أن اكتب انا وعلى اي حال فاننا ممنونين وتجدنا منتظرين بفارغ الصبر افندم

زيارة مسجد الرسول (ص)

أما الجواب عن الاول فهو ان زيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم مندوب اليه لا مفروض على المسلمين كالحج كما يتوهم العوام . وحسبك في الترغيب فيه قوله (ص) « صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه الا المسجد الحرام » رواه احمد البخاري ومسلم وغيرهم من حديث ابي هريرة . واحمد ومسلم والنسائي وابن ماجه من حديث ابن عمر وغيره . وقوله « لا تشدّ الرجال الا الى ثلاثة مساجد مسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الاقصى » ر اه احمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن من حديث ابي هريرة وابي سعيد الخدري . ورواه غيرهم عنهما وعن غيرهما

استئذان ملك الموت على النبي (ص)

وأما الجواب عن الثاني فهو أن الحديث في ذلك لا يصح ولا عبرة بسكوت بعض أهل السير عليه ولا بذكره في بعض الخطب التي قلما تحرى أصحابها الصحاح من السنن والآثار بل أولع أكثرهم بالواهيات والموضوعات

روى حديث استئذان ملك الموت على النبي صلى الله عليه وسلم وتخييره بقبض روحه الشريفة الطبراني في المعجم الكبير عن جابر وابن عباس في حديث طويل قال المحدثون انه منكر في إسناده عبد المنعم بن ادريس اليماني القصاص عن أبيه عن وهب بن منبه . قال الامام أحمد كان يكذب على وهب بن منبه . وأبوه إدريس متروك أيضاً قاله الدار قطني . ورواه أيضاً من حديث الحسين بن علي وهو منكر أيضاً في سنده عبد الله بن ميمون القداح قال البخاري ذاهب الحديث . وقال أبو حاتم متروك

الرد على كتاب اللورد كرومر

صاحب الحق لا يسكت عنه وان طال عليه الامد واننا سننشر في المنار بعض مانكتبه في دفع هجمات اللورد فيما كتبه عن الاسلام ونودع جميع مانكتبه في مصنف خاص . ونعتمد في أقواله على ترجمة المؤيد (مع تنقيح ما في العبارة) فنبدأ بعبارته ثم نقسم القول ونرد على كل قسم منه بالتفصيل

﴿ القسم الثاني ﴾

« كلامه في الاسلام والمسلمين »

قال اللورد في سياق الكلام في المقابلة بين الانكليزي والمصري ما ترجمته :

« قلت فيما تقدم ان التقاليد الدينية هي من جملة الموانع الكائنة بين الانكليزي والمصري فان الانكليزي على كونه أحد أفراد العائلة الاوربية من جهة التمدن العمومي يحاول أكثر من كل أوربي آخر أن يصل الى اسمى درجات الرقي من التمدن المسيحي أي انه يحاول أن يدخل نظام آداب مسيحي صريح (في المعاملة) ويجعله قاعدة للعلاقات بين الرجل والآخر . يحمله على ذلك تلك المبادئ القديمة التي جاءته من أسلافه والدم البيوريتاني الذي لا يزال يجري في عروقه .

« ومن الجهة الاخرى نرى المصري متمسكا كثيراً بدين الاسلام وهو التوحيد الشريف الذي ينوب فيه الايمان الى درجة قصوى عن الوطنية في البلدان الشرقية

وهو وسيلة للاتحاد العام بين جميع المسلمين من دلهي الى فاس ومن الاستانة الى زنجبار اذ يتحولون للصلاة نحو منبع دينهم وهو قبلتهم .

«فما هي القواعد الاساسية لهذا الدين الذي أثر تأثيراً عظيماً في الجنس البشري؟ انها مبينه في القرآن الشريف وقد شرحها العلماء من جميع الامم بلغات كثيرة ولكن عظمتها الاصلية وسهولتها لم يبينا بأكثر بلاغة مما بينها به اتباع النبي الاولين الذين انطرحوا عند قدمي ملك الحبشة المسيحي يطلبون حمايته لهم من اعتداء عرب قريش إذ قالوا « أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الارحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله لنا رسولا كما بعث الرسل الى من قبلنا وذلك الرسول منا نعرف نسبه وصدقه وامانته وعفافه فدعانا الى الله تعالى لنعبده ونوحده ونخلع (أي نترك)ما كان يعبد آباؤنا من دونه من الاحجار والاوثان وأمرنا ان نعبد الله وحده أمرنا بالصلاة والزكاة والصيام وامرنا بصدق الحديث واداء الامانة وصلة الارحام وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به »

« هذه هي قواعد الدين الاسلامي . ان العمل بهذه القواعد قد أفاد مئات الملايين من الذين اعتنقوا الاسلام — وخصوصاً الفقراء بينهم — عزاء روحيا فضلا عن النعم المادية من خيرات هذا العالم وأمل الخلود في العالم الآتي . ولا ريب أن الهيئة الاجتماعية الاصلية تستفيد كثيرا من اعتناق الدين الاسلامي . وقد قال السير جون سيلي عما عرفه بقوله « قوة الدين التي تنشئ الممالك » ما يأتي

« أينما وجدت قبيلة بربرية قد رفعت نفسها يوما ما حتى ارتقت عن حالها الهمجية ونالت بعض التقدم تجد أنها فعلت ذلك عادة بواسطة اعتناقها الدين الاسلامي » اه

« ولسوء الحظ نرى ان المصلح العربي العظيم الذي قام في القرن السابع (يريد به محمداً صلى الله عليه وسلم) قد اضطرته دواعي مركزه يومئذ الى القيام بأكثر من تأسيس دين . انه حاول ان يوجد نظاماً اجتماعياً . فكانت النتائج لهذا النظام هي التي وصفها المستر ستانلي لاين بول — وهو الرجل الذي راقب مراقبة دقيقة ما في الاسلام من

وجوه القوة والضعف - إذ قال « ان الاسلام عظيم من حيث كونه ديناً وقد علم الناس أن يعبدوا الهاً واحداً عبادة طاهرة وقد كانوا من قبل يعبدون آلهة كثيرة عبادة غير طاهرة ولكن الاسلام اخفق اخفاقاً كاملاً بصفته نظاماً اجتماعياً »

قال لورد كرومر : ان الاسباب التي اوجبت فشل الاسلام من حيث هو نظام اجتماعي متعددة (أولها) وأعظمها مكانة ان الاسلام يجعل المرأة في مركز منحط جدا . (ثانيها) ان الاسلام بمراعاته التقاليد المحيطة بالقرآن اكثر من القرآن نفسه جمع بين الدين والشرع فجعلهما جزءا واحدا غير قابل للتفريق او التغيير فنتج عن ذلك ان تلاشى من النظام الاجتماعي مافيه من المرونة . فان المصري حتى الآن اذا لجأ الى الشرع في امور الوصاية فان قضيته يحكم بها بمقتضى المبادئ الضيقة التي وضعت لما يوافق احوال الهيئة الاجتماعية الاولى في شبه جزيرة العرب في القرن السابع

« ومنذ سنوات قليلة أي سنة ١٨٩٠ أوضح مفتي الديار المصرية الاكبر كيف تعاقب عصابات اللصوص التي يثبت ارتكابها لجريمة الاعتداء بالسلاح ليلا على احدى القرى فقال انه يمكن ان يعاقب المجرم على ستة وجوه مختلفة فإما ان تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى ثم يقطع رأسه او يشوه جسمه كما تقدم ثم يصلب بعد ذلك او ان يقطع رأسه فقط او ان يصلب فقط أو أن يقطع رأسه اولا ثم يصلب بعدئذ . وأفاض المفتي في تقريره عن كيفية صلب المجرم وهو ان يربط الرجل الى صليب في شكل معين ثم يوخز بحربة في الجانب الايسر وتبقى الحربة وهي تحز في محل الجرح الى أن يموت

«ثم ان بعض المسلمين قد عمدوا بنية حسنة الى تشويه الشرع المقدس . اذ اقلقوا خواطرهم في اختراع وسائل يريدون فيها ان يبينوا ان مبادئ القرن السابع الشرعية ونظامه الاجتماعي يمكن تطبيقهما على مجربات القرن العشرين المدنية ولكن العادة المبنية على القانون الديني مؤيدة بالمغالاة في اكرام الشارع الاصلى قد قيدت جميع المتعلقين بالاسلام بقيد من حديد لاسبيل الى النجاة منه . ولقد قيل « ان الانسان عاش في القرون الوسطى ملفوفا بقلنسوة الكاهن » فالمسلم الصحيح في الايام الحاضرة ملتف بالشرع اكثر من التفاف الناس بالقلنسوة في القرون الوسطى .

(ثالثها) ان الاسلام لا يشجع على الرق ولكنه يتساهل في الاسترقاق . فقد قال السيد (امير علي) « إن محمدا وجد تلك العادة سارية بين الوثنيين من العرب فخفض من هذا الشر » ولكنه عجز من إلغائه تماما أما أتباعه فقد تناسوا عدم تشجيعه واجمعوا على اباحة الرق وجعله عنوانا لسلوكهم . ويليق بنا ان نقول في هذا المقام ان من الامور التى توجب الخجل على المسيحي انه لم يكتف قبل الآن بان يستعبد العبيد بل ارتكب اقبح من ذلك فكان يتخطفهم على ان الديانة المسيحية لم توافق مطلقا على الرق .

« وقد اشتهر أخيرا ان الاسلام دين خال من التسامح وهي شهرة صحيحة من بعض الوجوه ولكن لابد من تحديد وايضاح لهذه التهمة العامة . نعم ان اتباع النبي شهروا الحرب على الذين اعتبروهم من الكافرين وقد علمهم دينهم انه يجوز استرقاق غير المؤمن متى اخذوه اسيرا في الحرب وزد على ذلك أن الخصام الطائفي كان كثيرا فقام السنيون في وجه الشيعيين واضطهد السنيون الوهابيين بدون شفقة — على أن الخروج عن الاسلام يعاقب عليه بالموت وقد كان هذا العقاب ينفذ فعلا منذ سنوات غير كثيرة . ونرى من الجهة الاخرى أن تواريخ الاسلام لم يشوهها شيء من مثل تاريخ ديوان التفتيش وزد على ذلك ايضا أن المسلم اذا لم تؤثر في نفسه طوارئ خاصة مثيرة لعواطفه فهو لا يتأخر عن أن يعامل اليهودي والمسيحي بتساهل يشو به شيء من الاحتقار . ففي قرى الصعيد لبث الهلال والصليب والجامع والكنيسة جنباً إلى جنب سنوات كثيرة

ومع ذلك نرى الاسلام يميل الى بث روح عدم التساهل وانماء الحقد والاحتقار لا للمشركين فقط بل يشرك معهم جميع المؤمنين الذين لا يقولون إن محمداً هو رسول الله

(ثم أخذ يصف الاسلام فقال) : «ان المسلم منذ قرون كثيرة ما برح يؤمر ان ينتقم لنفسه من أعدائه وأن يضرب من يضربه عينا بعين وسنا بسن وعليه يجد ان الاسلام يختلف عن النصرانية في انه يغرس في العقول ان الانتقام والكره يجب أن يكونا أساساً للعلاقات بين الرجل والآخر بدلا من المحبة والاحسان . ثم ان الاسلام يحدث بغضاً خاصا للذين لا يقبلون الدين الإسلامي . يقول القرآن (٤٧ : ٤ فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق... ٧ يأأيها الذين

آمنوا ان تنصروا الله ينصركم و يثبت أقدامكم ٨ والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ... ١٢ ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار والذين كفروا يتمتعون و يأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم)

وقد علق اللورد على الآيات في ذيل الصحيفة قوله — « ومن الجهة الاخرى نجد في سورة البقرة قوله (٢ : ٢٥٦ لا إكراه في الدين) فالأقوال المتناقضة الكثيرة وغير المتلائمة الموجودة في القرآن لا يمكن التوفيق بينها ولعل السبب في ذلك هو ان تعاليم محمد كانت مبنية في الاكثر على الحوادث الجارية وعلى أحوال شخصية في حياته

« نعم ان محمدا انما أشار في طعنه على الكافرين بوجه خاص الى الوثنيين الذين أقاموا في زمنه في شبه جزيرة العرب ولكن الذين فسروا القرآن بعد ذلك جعلوا تلك المطاعن موجهة الى المسيحيين واليهود وهذا الذي يفهمه الآن جم غفير من المسلمين . أليست كلمة الغازي وهي اسمى لقب يطمع باحرازه أي ضابط في جيش السلطان معناها : من يحارب في سبيل الاسلام والبطل الشجاع الذي يذبح كافراً ؛ ألا نجد ان كل عالم ألقى الخطبة في الجامع يستنزل غضب الله على رءوس غير المومنين بصراحة واضحة في كل زمان و بصراحة تزداد كثيراً عند وجود ظروف تضرم شعلة التعصب ؟ . ألا يجب أن تعتبر كل بلاد غير اسلامية ,, دار حرب ‟ فمتى علمنا ان مثل هذه المبادئ ما برحت تغرس في أذهان المسلمين كل القرون الماضية لا نجد باعثاً على الدهشة من نمو روح عدم التساهل فيهم »

ثم قال بعد الامتنان على المصريين باعطاء الانكليزي لهم ما لاطيانهم وترقيته لعقولهم وآدابهم :

« ومع ذلك فان المسلم المصري — مع انه يكره الباشا التركي ويخافه الى حد أنه يدرك الفوائد التى أجزلها له الانكليزي و يعترف بسمو مداركه وكفاءته — فهو على كل ذلك لا يقد أن ينسى ان الانكليزي يلبس على رأسه برنيطة وهو يلبس طربوشا أوعمامة . ومع انه يقبل المنافع بمزيد الارتياح فهو يذكر دائما ان اليد التي منحتها ليست يد مسلم وهذا الامر يؤثر في نفسه أكثر من كون الانكليزي

أجنبياً عنه . مهما بذل الانكليزي من وسائط التودد والعقل فهو عاجز عن هدم هذا الحاجز الحصين — (وهنا نقل اللورد قول المستر بانري) « الاسلام هو كل شيء للفلاح وهو يعتبر غير المؤمنين فئة قليلة حقيرة ولا يمنعه عن الفتك بهم وإعلان ميزة الاسلام الا حقيقة مكدرة له هي أنه ليس في الامكان الفتك بهم الآن »

« وليس هذا وحده الحائل بين الفريقين . فانظر إلى البدع الرئيسية وحوادث العبادة الإلهية المقارنة للاسلام وما يعارضها في النصرانية . وابحث في النتائج اتي تلي تحقير المرأة وقابل بين الشرقي الاسمر والغربي الابيض في القوى العقلية والادبية والعادات والفنون وعلم البناء واللغة والملبس والاذواق تجد أن الفرق بين الفريقين أبعد مما بين الخافقين . حتى انك لتجد في أقل الامور شأنا في اعمال الحياة باعثا غير محسوس ولا يعرف سببه من شأنه ان يدفع الشرقي إلى جهة مشاقته للغربي مع اتفاق أحوال الفريقين . فالمسيحي يتعلق باهداب أمل ان يلقى فى السماء أولئك الذين رافقهم في الارض وهذا الامل من جمل مظاهر دينه وأكثرها عزاء له وأما اعتقاد المسلم بالخلود فيختلف اختلافا تاما عن اعتقاد المسيحي لان الحوريات اللواتي يرجو المسلم نيلهن في الجنة لم يسبق لهن وجود في هذا العالم . والمسيحي يصلي طالبا الحصول على بعض أمور أو ان يتمكن من اتمام أغراض معينة واما المسلم فهو على العموم يلفظ صلاة مرتبة معينة ويندر أن يطلب في صلواته طلبا معينا

« المسيحي يصلي صلاته اليومية في الخفاء وأما المسلم فانه يصلي جهارا بين الناس وليس لديه شيء من الخجل الكاذب دون اعترافه جهارا انه معتمد على الله في جميع أعماله وأموره . قال المطران ستانلي بعد ان درس الاديان الشرقية « ان الله موجود عند المسلمين وجودا يندر مثله عندنا في وسط العجلة الغربية وما يشوبها من الارتباك »

« ومتى صام المسيحي فهو يعمل باعتدال نهارا وينام ليلا واما المسلم فهو في صيامه ينقطع عن الاكل والشرب والتدخين ولكنه اذا جاء الليل تمتع بكل ذلك بدون ضابط

ثم ان الديانة المسيحية تنشط الفنون وتستفيد منها وأما الديانة الاسلامية فانها تكسر الصور والتماثيل وهي تحرم الصور وصناعة النقش والنحت اذا كانت تمثل شخصا حياً واما الموسيقى فلا يسمع لها صوت في جامع

«قد يكون المسيحي نظيفا بعض الاحيان اعتقادا منه ان النظافة نافعة لصحته وراحته وعنده ان النظافة تلي التقوى ولكنه لا يوجد جامعة بين الامرين وأما المسلم فهو نظيف على شكل معين لان دينه يأمره بذلك

«ثم انظر الآن الى صفات الفريقين العقلية والادبية تجد الفرق بينهما ظاهراً»

ثم بين فروقا آخرى بين المصري والأوربي والغربي والشرقي تحتمل المناقشة ولكنه لم يستنبطها من الدين فتركها له الا قوله في انصاف الاسلام :

« وعلى ذكر الشرقي وصفاته ورقة قلبه أقول ان ما يزعج السائح في مصر من معاملة الحيوانات بقساوة لا يزيد على مايرونه في جنوبي أوروباولعلها كما قال «لاين» في سنة ١٨٣٥ ليست غرسا منتظم النمو ولكنها ناشئة عن معاشرة الطبقات السافلة من الأوربيين فان الدين الاسلامي يوصي بالحيوان خيرا فقد قال بوسورت سميث : لا يوجد دين اهتم بحياة الحيوان أعظم من اهتمام الدين الاسلامي به فقد ورد في القرآن (٦:٣٨ وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم امثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون)

وكما انصف في هذه جار وظلم في أخرى بعدها لكن عن سوء فهم لا سوء قصد فقد ذكر قدرة الاوربي على التنظيم واخضاع الحوادث ومناقشة الرؤساء ثم قال :

« فتابل هذه المزايا بما في الشرق من الضعف في التنظيم واعتقاده بالقضاء والقدر الذي يجعله قابلا لما لابد منه . وكذلك خضوعه لكل سلطة تتولى اموره »

ثم استشهد على ذلك بمثل حادثة « مفتحجي » سكة الحديد التي ذكرناها في اول القسم الاول من الرد عليه . وذكر ايضا انه سأل شيخ الازهر هل يعلمون الطلبة فيه ان الشمس تدور حول الارض ام العكس فاجاب بانه لايدري . قال اللورد « وقد منعه أدبه الطبيعي عن التصريح لي برأيه في الكافرين كيلر وكوبرنكوس وتعاليمهما » الخ

(للكلام بقية)

القرآن والعلم

٣

تفسير من اللغة والتاريخ والجغرافيا والطب

في رد الشبهات التي يوردها الافرنج على بعض آيات الكتاب العزيز (١)

المسألة الثامنة

(موت سليمان)

قال الله تعالى « ٣٤ : ٤ فلما قضَيْنَا عليهِ الموتَ (أي على سليمان) مَادلهم على موتهِ إلا دابةُ الارضِ تأكل مِنْساَتَهُ فلما خرَّ تَبَيَّنَتِ الجنُّ أن لو كانوا يعلمونَ الغيبَ مالبثوا في العذابِ المهينِ » إعلم انه كثيرا ما يحدث ان الانسان إذا لحقه الموت فجأة عقب انفعال عصبي ومجهود جسماني يحصل له تيبس في الحال في جميع اجزاء جسمه بحيث يحفظ بعد وفاته هيئته وشكل جسمه قبل المماتويبقى على هذه الحالة من بضع ساعات الى يومين فأكثر وخصوصا اذا كان الجو باردا وتسمى هذه الحالة في كتب الطب باللغة الانكليزية Cadaveric Spasm اي تيبس الموت

ولذا يشاهد في بعض الحروب ان بعض العساكر يموت ويبقى واقفا مستندا على بندقيته كأنه حي الى ان يبتدأ التعفن في الجثة فتزول يبوستها وتسقط

فالظاهر ان سليمان عليه السلام كان واقفا بعد مجهود جسماني عقلي مستندا على عصاه (منسأته) ففاجأه الموت فحصل له مايحصل لغيره وبقي قائما كأنه لم يمت

(١) للدكتور محمد توفيق افندي صدقي

فشاهدت الجن انه لا يبدي حراكا ولا يظهر عليه أنه يتنفس لعدم تحرك صدره فداخلهم شك في حالته وربما اجتمع على وجهه الذباب فلم يطرده عنه فازداد شكهم ثم دخلت فأرة (وهي من دواب الأرض) وأخذت تلعب حوله وأخيرا بدأت تقرض عصاه والجن الى ذلك ينظرون فيتعجبون ولكنهم خافوا أن يتركوا أعمالهم المكلفين بها أو أن يظهروا شكهم في حياته ولبثوا على هذه الحالة مترددين بضع ساعات او يوما او يومين

فلما حركت الفأرة العصا التي أخذت تقرضها عن موضعها قليلا اختل التوازن فسقط على الارض وبذا أيقنت الجن أنه كان ميتا وان اشتباههم كان في محله · ولو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا لحظة بعد وفاته قائمين باشغالهم الشاقة ولعرفوا الوفاة حين حدوثها بلا تردد · ولفظ لبث يستعمل في الزمن القليل والكثير كقوله تعالى (٢ : ٢٥٩ قال كم لبثت قال لبثت يوما او بعض يوم قال بل لبثت مائة عام)

فهذا هو التفسير الصحيح لهذه الآية الذي ينطبق على العلم ولا يوجد في تاريخ سليمان ماينافيه

﴿ المسألة التاسعة ﴾

(الجسد الذى القي على كرسي سليمان)

قال الله تعالى (٣٨ : ٣٤ ولقد فتنا سليمانَ وألقينا على كُرسِيِّه جَسَدًا ثم أناب ٣٥ قال رب اغفر لي وَهب لي مُلكا لا ينبغي لاحدٍ من بعدِي إنك أنت الوهابُ» معنى هذه الآية ان سليمان لما ورث أباه داود في ملكه سأل الله ان يرزقه ولدا ليرثه من بعد موته وليبقى الملك في نسله فاختبره الله تعالى ولم يجب دعاءه في اول الامر الا باعطائه ولدا ناقص الخلقة (كأن يكون لارأس له ولا مخ أو نحو وذلك مما يحصل أحيانا لبعض المولودين) ولما كان هذا المولود أقرب الى الميت منه الى الحي المدرك سماه الله جسدا كأنه لاروح له فلما وجد سليمان أن من رزقه الله ليخلفه في كرسيه عدمه خير من وجوده ضجر وتألم ولم يشكر الله على كل حال

ولكنه لم يلبث الا قليلا ورجع الى الله يستغفره على مافرط منه ويرجوه العفو عن عدم رضائه بما قضاه تعالى وقال « رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي » اي حيث إنك لم ترزقني بمن يرثني في هذا الملك فوسعه علي وزدني سلطانا ومتعني بما لا يصل اليه أحد من الملوك بعدي حتى تعوضني بذلك ماحرمتني من النسل الصالح فاستجاب الله دعاءه وسخر له الريح وسلطه على الجن والانس والطير وبعد ذلك رزقه الله تعالى أيضا بمن يرثه (وهو ابنه رحبعام) ولكنه كان ضعيف العقل سيء التدبير رديء السياسة حتى خرجت عليه عشرة من اسباط بني اسرائيل ووقع الانقسام بينهم في عهده

فمما تقدم تعلم أن قوله تعالى « وألقينا على كرسيه جسدا » معناه ذلك المولود الناقص وهو أول من رُزقه وقال ألقيناه على كرسيه لأنه بمنزلة ولي عهده كما يقولون الآن وتقول العرب « ألقي الليلة على كرسي الفرس مولود » مثلاً اذا رزق كسرى بالولد الذي يرثه فى ملكه ويجلس على كرسيه من بعده

وهذا التفسير هو الذي كان يفهمه العرب من هذه الآية ولذلك ورد في بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيها ما يقرب منه ولولا حشو مفسرينا الاسرائيليات في تفسير الكتاب العزيز ما فهم أحد منها خلافه فاحذر مما قالوه ولا تعبأ به فانه مثار لشبهات كثيرة

﴿ المسألة العاشرة ﴾

(اللؤلؤ والمرجان)

قال الله تعالى (٥٥ : ١٩ مرَجَ البحرين يَلتقيان ٢٠ بينهما برزَخٌ لا يبغيان ٢١ فبأي آلاء ربكما تكذبان ٢٢ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) فقال كثير من الناس إن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحر الملح ولا يوجد منهما شيء في البحر الحلو

واعلم أن اللؤلؤ يخرج من كثير من الانهار ويوجد في بلاد أوستراليا أنهار مشهورة باستخراج الصدف واللؤلؤ منها وهاك اسماء بعضها :

نهر هنتر Hunter وكلارنس Clarence وكوك Cook's وكليد Clyde

وغيرها وهي موجودة في ولاية ويلز الجنوبية الجديدة New South Wales من أوستراليا

﴿ المسألة الحادية عشرة ﴾

(السماء في القرآن)

السماء من سما أي ارتفع فالسماء في اللغة كل مرتفع فسقف البيت سماء والسحاب سماء والكواكب سماوات والفراغ اللانهائي الذي فوق رءوسنا هو سماء أيضاً وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الشريف بعدة معاني تعرف من السياق وتفسر في كل مقام بحسبه وإن اشتركت كلها في معنى الارتفاع والسمو . وكذلك يوجد في اللغة العربية ألفاظ كثيرة تستعمل في معاني مختلفة لا يعينها إلا السياق . مثلا لفظ نجم يستعمل في الكوكب وفي النبات فمثال الأول (٥٣: ١ والنجم إذا هوى) ومثال الثاني (٥٥: ٦ والنجم والشجر يسجدان) والمقام هو الذي عين كلا من المعنيين ويسمى هذا النوع من الالفاظ بالمشترك

إذا عرفت ذلك فاعلم أن لفظ السماء إذا ورد فى القرآن يجب أن يعرف معناه من المقام ويجب أن لا يحمل في جميع المقامات على معنى واحد مثلا في قوله تعالى (١٦: ١٠ أنزل من السماء ماء) معناه السحاب . ولذلك قال في آية أخرى (٢٤: ٤٣ ألم تر أن الله يُزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق (أي المطر) يخرج من خلاله) الاية وفي قوله (٢٢: ١٥ فليمدد بسبب الى السماء) يعني سقف البيت وفي قوله (٥٥: ٧ والسماء رفعها ووضع الميزان) معناه الكواكب والألف واللام هنا للجنس وكذلك في قوله تعالى (٥٠: ٦ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها) أي جعلنا أجزاء كل منها متماسكة ثم هي في مجموعها متجاذبة بعضها إلى بعض كالبنيان يشد بعضه بعضا (وزيناها) بأن جعلنا أشكالها جميلة مستديرة وان بعضها مع بعض لها منظر بهيج ثم أضأناها بالانوار الذاتية أو المنعكسة عليها من غيرها (ومالها من فروج) أي شقوق فلا ترى كوكباً منها به كسور أو منشقة أجزاؤه أو متفرقة فهو كتأكيد لقوله بنيناها وفي قوله تعالى (٦٧: ٥ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) السماء الدنيا معناها الجو

أو الفراغ المحيط بنا القريب منا وهو المزين بالكواكب وأما ما وراءه من الفراغ اللانهائي فليس به زينة ولا شيء وجعلناها رجوماً للشياطين بانقضاض الشهب منها لاهلاكهم كما في قوله (٣٧: ١٠ إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) وهذه المسألة لا يوجد في العلم الطبيعي الآن ما يصدقها ولا ما ينفيها وغاية الأمر أنها غير معروفة له فنحن نصدقها لإتيان النبي الصادق بها وقد ثبتت نبوته عندنا بالبراهين القاطعة كما أوضحناه في مقالات الدين في نظر العقل الصحيح

وقوله (٦٧ : ٢ خلق سبع سماوات طباقاً) المراد به الأجرام السبعة العلوية المشهورة التي كانت تعرفها العرب وتراها بأعينها وهي القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل . وإنما خص هذه السبعة بالذكر لأنها أكبر ما تعرفه العرب وأكبر ما تشاهده وإلا فالاجرام السماوية العظيمة أكثر من سبعة

وليس في القرآن الشريف ما يدل على الحصر . على أن بعض علماء اللغة قالوا إن العرب إذا أرادت المبالغة في العدد تأتي بلفظ سبعة وما ركب منها كالسبعين والسبعمائة واستشهدوا على ذلك بنحو قوله تعالى في وصف جهنم (١٥ : ٤٤ لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) فان المقام مقام تهويل لا يناسبه إلا ذكر العدد الكبير . وإن لم يكن لجهنم سوى هذه الأبواب السبعة اقتضى المقام عدم ذكر العدد هنا بالمرة لقلته فلو لم يكن لفظ السبعة يستعمل عندهم في مطلق الكثرة لما ذكره هنا ولذلك قال أئمة المفسرين في مثل هذه المواضع ان العدد لا مفهوم له ومثل ذلك قوله تعالى (٣١: ٢٧ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله)

قد يقول قائل ما بالك تذكر هنا في تفسير السموات السبع القمر والشمس مع أن القمر تابع للارض والشمس هي مركز العالم والسيارات تدور حولها ومنها أرضنا هذه . ونقول إن هذه المسائل الفلكية لم يتعرض لها القرآن هنا في مثل هذه الآية وغاية ما ذكره أن الله خلق سبع سموات طباقاً وقلنا إن الاجرام التي خلقها الله هي عالية بالنسبة لنا فهي سموات وهي سبع طباق بعضها فوق بعض بالنسبة لنا أيضاً فلا دخل

لذلك في كون بعضها تابع لغيره (١) فان هذه المسائل لا علاقه لها بتفسير الآية كما لا يخفى على ذي عقل

ويستعمل لفظ السماء في اللغات الافرنجية أيضاً في عدة معاني مختلفة ففي الانكليزية لفظ Heaven قد يراد به السحاب أو الجو أو الذات العلية أو الجنة أو غير ذلك والمقام هو الذي يعين هذه المعاني المختلفة كما هو المعهود في اللغة العربية

(المسألة الثانية عشرة)

(الارض والجبال)

قال الله تعالى (٦٥: ١٢ الله الذي خلق سبع سماوات ومن الارض مثلهن يتنزل الأمر بينهن) وقال (١٦: ١٥ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم) وقال (٧٨: ٧ والجبال أوتادا)

لم يذكر في القرآن أن الأرض سبع الا في الآية المذكورة هنا ولم يذكر فيه مطلقا لفظ الأرض بالجمع ولا في الآية السابقة . بخلاف السماء فانها ذكرت بالجمع في أكثر المواضع فالظاهر أن الأرض شيء واحد ولكنها ذات طبقات سبع فلذا قال هنا « ومن الارض (بالافراد) مثلهن » أي في العدد وهي كونها سبعا وفي كونها طباقا ويجوز أن تكون طبقاتها أكثر من سبع وإنما خص هذه بالذكر لكونها الطبقات الاصلية أو الاساسية فان الآية لاتدل على الحصر فلا مانع من أن يكون بعض هذه الطبقات الاصلية مركبا من طبقات أخرى وقد يكون لفظ سبع لامفهوم له ومستعمل هنا للدلالة على الكثرة فقط كما بيناه سابقا في مسألة السموات

وقوله « وألقى في الارض رواسي أن تميد بكم » تميد من مادت السفينة أي

---

(١) حاشية — من تذكر أن لكثير من السيارات توابع كالقمر بالنسبة للأرض وهذه التوابع أو الاقمار تضيئها فهم معنى قوله تعالى (وجعل القمر فيهن نورا) فان الالف واللام هنا تصح أن تكون للجنس لا للعهد والمعنى أن الله جعل الاقمار أنوارا تضيء بها السموات

مالت واضطربت فمعنى الآية أن الله أثقل الارض بالجبال لمنعها من الميدان والتزلزل الدائم وذلك أن الجبال بوجودها في بعض الجهات جعلت ثقل الارض في جميع الجهات متساويا بالنسبة الى المركز فاذا دارت الارض حول مركزها لا يحصل أدنى اضطراب فيها ولو كان بعض جهاتها أخف من البعض الآخر لشعرنا بالاهتزاز يوميا من حركة الارض حول محورها . وأيضاً فان الجبال بثقلها العظيم على الارض وبما امتد من قواعدها من الشعب الصخرية كونت طبقة حجرية عظيمة تقي ما بين الجبال من الوديان من انفجار باطن الارض الملتهب ونسف قشرتها أو زلزالها الدائم ولا يخفى أن أغلب الاراضي المسكونة انما هي في الحقيقة وديان بين جبال . فلولا الجبال لتوالت الزلازل ، ولما هدأ للبشر جميعا بال ، ولما كان حدوث الزلازل نادرا كما هو الآن وحاصلا لبعض البشر دون بعض

وقوله « والجبال أوتادا » هو كقوله بعده « وجعلنا الليل لباسا » أي كاللباس في الستر . فالمعنى أن الجبال كالاوتاد المغروسة في الارض واذا لاحظنا أن الارض تجذبها من جميع نقطها الى مركزها كما تشد الاوتاد بالحبال المربوطة بها أدركنا ما بينهما من الشبه العظيم وفهمنا نكتة هذا التشبيه . وكما شبه الله تعالى الجبال هنا بالاوتاد كذلك شبه الاهرام المصرية بها في قوله « ٨٩ : ١٠ وفرعون ذي الاوتاد »

﴿ المسألة الثالثة عشرة ﴾

(تفسير آيات عدم صلب المسيح)

قال الله تعالى (٤ : ١٥٧ وقولهم - أي اليهود - انا قتلنا المسيح) قالوا ذلك تهكما والمسيح معناه عندهم الملك لانهم كانوا يمسحون ملوكهم بالزيت عند توليتهم وسمي عيسى مسيحا لانه كملك روحاني استولى على قلوب الناس ونفوسهم وخلصهم من عاداتهم الرديئة ومن أسر التقاليد والاوهام والعقائد السخيفة ورقى نفوسهم وأصلح أمورهم فهو كالملوك العظام الذين كانوا يأتون اليهود فيخلصونهم من الأسر والبلايا ويرقون شؤونهم ككورش ملك فارس الذي تقدم ذكره وكانوا يسمونه هو وغيره من الملوك النافعين لهم بالمسيح وكانوا يتوهمون ان المسيح سيأتي ويرد

لهم مافقدوه من المجد والسلطان (عيسى) تعريب لفظ يشوع ومعناه المخلص وهو علم مشهور عند اليهود وسمي به كثيرون قبل المسيح بينهم كيشوع خليفة موسى عليهما السلام وكانوا يتفاءلون بهذا الاسم ويرجون ان يكون لهم بشرى خير لخلاصهم مما كانوا فيه من الرزايا والمصائب (بن مريم . وماقتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم) أي اشتبه عليهم الامر فأخذوا واحدا يشبهه ظانين أنه هو المسيح وصلبوه وقتلوه . واعلم ان وجود اشخاص متشابهين في الخلقة أمر مشاهد معروف وقد يكون الشبه تامًّا بحيث يخدع به اهله وذووه فما بالك اذا كان القابضون على المسيح ما كانوا يعرفونه ولا الذين حاكموه ولا الذين حضروا تنفيذ الحكم فقد فرَّ تلاميذه من حوله وهربوا وكل ذلك صريح في نصوص العهد الجديد .

ويوجد في كتب الطب الشرعي حوادث كثيرة في باب تحقيق الشخصيات دالة على انه كثيرا مايحدث للناس الخطأ في معرفة بعض الاشخاص ويشتبهون عليهم بغيرهم وقد ذكر «جاي» و«فرير » مؤلفا (كتاب اصول الطب الشرعي) في اللغة الانكليزية حادثة استحضر فيها ١٥٠ شاهد المعرفة شخص يدعى «مارتين جير » فجزم أربعون منهم بأنه هو هو وقال خمسون انه غيره والباقون ترددوا جدًّا ولم يمكنهم ان يبدوا رأيا ثم اتضح من التحقيق أن هذا الشخص كان غير مارتين جير وانخدع به هؤلاء الشهود المثبتون وعاش مع زوجة مارتين محاطا باقاربه وأصحابه ومعارفه لمدة ثلاث سنوات وكلهم مصدقون أنه مارتين ولما حكمت المحكمة عليه لظهور كذبه بالدلائل القاطعة استأنف الحكم في محكمة أخرى فأحضر ثلاثون شاهدا آخرون فأقسم عشرة منهم بأنه هو مارتين وقال سبعة انه غيره وتردد الباقون وقد حدثت هذه الحادثة سنة ١٥٣٩ في فرنسا وأمثالها كثير

وقد بلغ شبه بعض الاشخاص لغيرهم أن وجد فيهم بعض مايوجد في غيرهم ممن شابههم من الكسور او الجروح او آثارها وغير ذلك حتى تعسر تمييز بعضهم عن بعض ولذلك جدَّ الاطباء في وضع مميزات لاشخاص البشر المختلفين

فاذا كان الأمر كذلك فهل في حادثة المسيح ادنى غرابة ؟

ثم قال تعالى (وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم الا اتباع

الظن كما في الحادثة التي سبقت ولذلك اختلفت طوائف النصارى قديماً وحديثاً في هذه المسألة واختلف فيهاما وجدعندهم من الكتب كما بيناه في موضع آخر . ولوكانت حادثة الصلب يقينية لما وقع فيها ما وقع من الاختلاف بينهم

(وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه) أي إنه لم يقتل ولكن توفاه الله ورفع روحه إليه وأسكنها عنده في جنات النعيم كما قال في آية أخرى (٣:٥٥ إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا) وكقوله تعالى حكاية لقول المسيح عن نفسه في الآخرة (٥:١١٧ فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم) فالرفع هنا روحاني معنوي وكذلك ورد الرفع في القرآن في مواضع كثيرة في الامور المعنوية . قال تعالى (٢:٢٥٣ ورفع بعضهم درجات) وقال (٧:١٧٦ ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض) فمعنى الآية انهم لم يقتلوه ولكن الله هو الذي قبضه إليه بدون أن تصل إليه أيدي الاعداء بالسوء ورفع روحه إلى جنته واسكنه بجواره وذلك كله على حد قوله في مواضع أخرى (٣ : ١٦٩ ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) أي تتمتع أرواحهم في الجنة . وقوله (٥٤:٥٤ إن المتقين في جنات ونهر ٥٥ في مقعد صدق عند مليك مقتدر) فكل هذه العبارات « كعند الله » و « رفعه الله اليه » ونحوها مستعملة في معانيها المجازية لا الحقيقية

فالظاهر أن المسيح عليه السلام ذهب الى جهة من الجهات أو جبل من الجبال فتوفاه الله هناك ولما ذهبوا ليقبضوا عليه وجدوا شخصا يشبهه فاغتروا به فأخذوه وقتلوه وصلبوه . ولعل هذا الشخص هو يهوذا الاسخريوطي وكان يقصد خيانة المسيح وان يقبض عليه ويسلمه فوقع فيما كان يدبره لسيده فاشتبهوا فيه وأخذوه أخذا وبيلا وأما المسيح فكان قد توفاه الله وأنجاه من مثل هذا العذاب

وذهاب بعض الانبياء الى بعض الجبال ووفاتهم بها امر معهود كما وقع لموسى عليه السلام (راجع سفر التثنية ٣٤ : ١ — ٦)

ثم قال الله تعالى (٤ : ١٥٨ وان من اهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) اي ان كل شخص من اهل الكتاب لا بد عنده

وفاته ان تتضح له الحقيقة فيؤمن بالمسيح كما جاء به القرآن وليس معناه انهم يؤمنون به عند نزوله يوم القيامة كما هي عقيدة النصارى فان الآية صريحة في أن كل شخص منهم سيؤمن به وأما عند نزوله فلا يؤمن به الا الذين يحضرونه وهو خلاف نص الآية

واعلم أن المسلم لا يجب عليه الايمان بانه سيجيء يوم القيامة والظاهر أن هذه عقيدة سرت من النصارى إلى المسلمين . ولم يأت بها القرآن . والأحاديث لا يؤخذ بها في العقائد الا اذا تواترت وليس في هذه المسألة حديث متواتر

واما قوله تعالى (٤٣ : ٦١ وإنه لَعِلْمٌ للساعة فلا تَمتَرُنَّ بها) فمعناه إنه لدليل على قدرة الله على البعث فان الذي خلقه بلا أب والذي أحيا الموتى على يديه قادر على احياء الموتى يوم القيامة . وهذه الآية كقوله (٢١ : ٩١ وجعلناها وابنها آية للعالمين

ولقائل ان يقول إذا كان المسيح مات وتفرق تلاميذه من حوله بسبب أعمال اليهود وكانوا قليلي العدد فما معنى قوله تعالى (٦١ : ١٤ يا ايها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري الى الله قال الحواريون نحن انصار الله فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة فايدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) . ونقول اما في عصر المسيح عليه السلام فقد كانوا مؤيدين بقوة اليقين والايمان ظاهرين على أعدائهم بالحجة والبرهان وبما يظهره الله تعالى على يده من المعجزات والآيات البينات وأما بعد وفاته فقد سلط الله الرومانيين علي اليهود فشتتوهم في اقطار العالم وخربوا مسجدهم المقدس ولم يصب المسيحيين في أثناء ذلك أدنى أذى ثم صاروا ينتشرون في الارض ويزداد عددهم شيئاً فشيئاً حتى دخل قسطنطين في المسيحية وصارت ديانتهم هي الديانة الرسمية للدولة الرومانية وبذلك تم لهم الظهور على اعدائهم اليهود ولا يزالون كذلك الى الآن كما قال تعالى (٣ : ٥٥ وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة)وانما عبر تعالى بالفاء في قوله (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) مع ان ظهورهم الماضي لم يظهر الا بعد مضي سنين طويلة لان سنيننا هنا هي عند الله كلحظات (وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون) (انهم يرونه بعيدا ونراه

قريبا) وغلو المسيحيين في بعض معتقداتهم وتأليههم لنبيهم لاينافي انهم مؤمنين به فلذا وصفهم الله تعالى بالايمان في هذه الآية كما وصفهم به في آيات أخرى كقوله تعالى (٥٧ : ٢٨ ياايها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته) الآية . فلا منافاة بين الغلو في العقيدة و بين اصل الايمان ؛ (للمسائل بقية)

باب المناظرة والمراسلة

٤

« بحث العمل بالحديث وبحث التواتر »

يقول حضرة الدكتور : أنا لا أنكر ما للأحاديث من الفوائد ثم قال ولكن ذلك لا يوجب العمل بها على المسلمين ولا يلحقها بالقرآن الشريف ــ الدين الذي يكفر منكره شيئان القرآن وما تواتر عن النبي (ص)

ونقول ان الله جل شأنه ارسل رسلا اوجب على عباده تصديقهم واتباعهم في كل ما أرسلوا به وليس من شرط الرسول ان يأتي بكتاب من عند الله ــ و بعبارة اخرى لم يقل احد من العقلاء بعد ثبوت رسالته انه يجب على الله ينزل عليه كتابا يقرأه او كلاما يتلوه بلفظه ــ بل عرفوا الرسول بأنه بشر أوحي اليه بشرع وامر بتبليغه سواء كان التبليغ والبيان بالقول ام بالفعل على ان القول مقدم على الفعل ومعرفة الشرع بالقول اكثر منه بالفعل والله جل شأنه لم يخصص طريقا ولا طرقا معينة لحملة الشرائع في تبليغها الى من نأى و بعد مكانا او زمانا ولم يذكر في موضع ما من اي كتاب من كتبه ان من رد ما بلغه من الدين بغير تواتر معذور ولم يقل ذلك احد من رسله او ممن يعول عليه من أتباعهم بل لم يشترط ذلك احد من البشر في شؤون دنياهم الاجتماعية

وانما مدار ذلك والله اعلم هو حصول التصديق بالنسبة الى خصوص من بلغه خبر ولم يقصر في البحث عن صحته وصدقه فحين تصديقه لا يجوز له رده وهذا هو

الذي دل الشرع والعقل عليه وعليه اتفق اهل الملل قاطبة وهذا مما نجلّ حضرة الدكتور عن مخالفته

بعث الله رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس عليه حجة وهو لا يأمر بالمحال ولا يكلف نفسا الا وسعها فلو أوجب على الامم تبليغ كل مسئلة من شرعه بالتواتر وعلى المبلّغين رد غير التواتر لكان ذلك تكليف ما لا يطاق مستلزماً للاشاة الاديان، ومعطلا لسائر المواصلات ومعاملات بني الانسان، والله منزه عن ارادة ذلك فبطل اشتراط التواتر لنقل مسائل الدين

دل القرآن على ان من جاءته الحجة عن الله بتوسط رسله وردها جحدا أو مكابرة أو بماشا كل ذلك وداناه فقد كفر بالله و برسله واستحق العقاب وشديد العذاب

ومن بلغته الحجة عن رسول من رسله حين وجوب طاعته في خصوص تلك المسئلة من طريق لا يردها في جميع شؤونه ولا ينكر صحتها بعد البحث والتنقيب ثم ردما جاء عن الرسول بتلك الطريق تشهياً فلا شك انه معاند ومكابر ومنابذ لطاعة ذلك الرسول وسواء كانت هذه الطريق متواترة او آحادية

فقول حضرة الدكتور ولكن ذلك لا يوجب العمل بها على المسلمين -يعني الاحاديث الصحاح الآحادي ولو كانت مشهورة ومستفيضة- ثم قوله « الدين الذي يكفر منكره شيئان القرآن وما تواتر عن النبي (ص) » يدل بل هو ظاهر في ان من انكر واجباً من الشرع فهو كافر ولذلك احتاط في انه لا يكون الشيء واجبا الا اذا نقل بالتواتر. والحق ان التواتر ليس شرطاً في وجوب الخبر كما ان من أنكر ما دل عليه التواتر قد لا يكفر في بعض الصور بل قد لا يكفر من انكر بعض الواجبات عند غيره كما قد عرفت ان الحصر الذي ذكره غير مسلم وذلك لأن الشيء قد يكون متواتراً عند شخص دون شخص وقد يختلف معنى التواتر وشرائطه عند أناس دون أناس بل التواتر عند بعض الناس لا يفيد العلم وعند بعضهم في بعض صوره وعلى قول الجمهور يمكن ان يوجد تواتر في أمر مّا ويعسر على بعض الناس معرفته وتحقق وقوعه في ذلك الامر بل يمكن ان يوافيه حمامه، قبل ان يبلغ من ذلك مرامه، والحق ان من انكر ما عرف وجوبه من دين الاسلام وصار ذلك معلوماً له ولو بخبر

الآحاد كفر وكذلك من أنكر ما هومعلوم من الدين بالضرورة ولم يكن قريب عهد الاسلام اونشأ بعيداً عن العلماء كفر وان لم يكن منقولا بالتواتر المعروف عند التواترية

نحن لا ننكر ان بعض أنواع التواتر يفيد العلم ولكن ننكر انحصار العلم الخبري فيه أو فيما باشر الشخص سماعه كما انا لا نسلم ان ماهو متواتر عند اناس يلزم ان يسلم تواتره الآخرون .

ان من رمى التقليد جانبا وتبرأ من التعصب المشوم وجعل الحق مطلبه والانصاف رائده ونظر في أقوال العقلاء من هذا النوع البشري نظر الناقد البصير علم علماً لا يعتريه شك ان كل ما وجد عندهم من الحق فهو مطابق أو مأخوذ مما جاء به المعصومون عليهم الصلاة والسلام ، عن الخلاق فاطر الأنام ، وحيث كان غرضنا في هذا المقام تحقيق الخبر المسند الى رسول الله (ص) ومايجب قبوله ومالا يجب نقول

العلم والطرق المؤدية إليه

الناس تكلموا على العلم وعلى الطرق المؤدية اليه فمنهم من شدد وضيق فلم يجعل إلى العلم سبيلاً غير ما أدركه بأحد حواسه وهذا مع كونه اهمالاً لأفضل ماامتاز به الانسان في اعلامدارج انسانيته هو تعطيل لجميع الارتفاقات والتعاون على تحصيل أنواع العلوم المختلفة المواضيع اذ من المحال ان يقوم الفرد بتحصيل جميع العلوم التي قد حققها وعرفها جميع البشر — فهؤلاء المضيقون غاية معتقدهم تعرية الانسان عن أكثر العلوم والقضاء عليه بالوقوف دون مصاف كثير من الحيوان والبهائم لما عرف من ان إحساس بعضها أقوى من احساس الانسان . ومن نتائج مذهبهم المشئوم ضياع وانحلال عرى التضامن الاجتماعي وارتفاع الوثوق من بين افراد الناس في أشد ضروراتهم — ولذلك ترى هؤلاء المضيقين من أكثر الناس تناقضاً في علومهم وأقوالهم وأفعالهم لأنه من المستحيل عليهم التزام مذهبهم الفاسد ومن تتبع علومهم وأقوالهم وأفعالهم في جميع شؤونهم وجدهم على جانب بعيد وفي غاية لمناقضة لما أصلوه مما ذكرناه عنهم

ومن الناس من وسع بعض التوسعة لكنه أنكر حصول العلم من طريق الوحي

وهؤلاء هم الزنادقة المنكرون لوجود واجب الوجود أو المنكرون للنبوات وهؤلاء يؤول انكارهم الى تنقيصه تعالى شأنه المؤدي إلى نفيه المؤدي الى المحال في الضروريات والقدح في المشاهدات وكون الشيء فاعلا لنفسه أومفعولاً لغيرفاعل

ومن الناس من طلب الحق وتبين له فساد قول هؤلاء وهؤلاء واجتهد في طلب الصواب فسلم بأكثر الطرق المؤدية الى العلوم لكنه أهمل بعضها لاشتراطه لها شروطاً يعسر أو يتعذر وجودها وهذه عدوى سرت اليه من مخالطة من تقدم ذكرهم من الملحدين السابق ذكرهم

فمن اشترط في وجوب قبول الوحي أي الشرع أو اعتبار الاخبار مطلقاً المشافهة والسماع أو بلوغه بالاجماع عملاً أو التواتر فقد نصب في طريقه العقبات ، واقام دونه سد المحالات ، وشرع في الدين مالم يأذن به الله» ونحن نسأل حضرة الدكتور هل تشترط ذلك في جميع العلوم التي يشتغل بها الناس وفي جميع مايتعلق بشؤونهم الاجتماعية أم لا تشترط ذلك إلا بخصوص بلاغ الاحكام والمسائل الدينية ؟ انا لا أظن انه يلتزم ذلك في الأول ولئن التزمه فالواقع والمشاهدة ترده وهي أعدل حكم بل يلزمه من التناقض مالزم المضيقين السابق ذكرهم

إذا بطل في الاول اشتراط ذلك ففي الاديان كذلك لما قدمنا من تلازم القدر بالشرع فلا فرق يعتد به

وعليه فالذي دلت عليه الكتب والشرائع السماوية ـ وهوما عليه عامة البشر « فطرة الله التى فطر الناس عليها » ـ هو أن من ثبت لديه بخصوصه صحة خبر وصدقه وجب عليه قبوله وهو في حقه علم حين تصديقه (١) اللهم الا ان يكون الخبر ينتج ضررا على احد والمخبر معلوم فسقه فيجب التبين والتروي حتى يظهر وينكشف حال ذلك الخبر وكذلك من بلغه الخبر عمن لا يعلم حاله والامر ماذكرناه وجب عليه التنقيب فان صح لديه ذلك الخبر من الطرق الذي يصحح بها مثله وجب عليه قبوله كما انه

(١) هذا ماقررناه في الرد على الدكتور صدقي (ص ٩٢٦ م ٩) وقد ذاكرناه منذ ايام في ذلك فرأيناه مال الى ترك اشتراط التواتر لان النبي كان يرسل الآحاد دعاة وعمالا فيقبل الناس منهم

يقبله في بقية شؤونه الدنيوية ولا يجوز له اتباع هواه والتشهي والترجيح بلا مرجح

لم يوجب الله علينا معشر المسلمين التقيد بما اسس بعض الناس بل نهانا عن التقليد واتباع الآباء وأوجب علينا النظر فما وافق ديننا الذي هو الدين المستحيل مخالفته للعقل الصحيح قبلناه وليس من العدل ان نترك ما لدينا من الحق ونقتصر على مالدى المخالفين وان دل عليه ديننا اما ماخالف ديننا فلا شك انه مخالف للعدل والعقل

وليس في الدين ولا في القرآن ولا في الحديث الصحيح ما يناقض مادل العقل الصحيح عليه (١) ومن زعم ذلك فعليه البيان نعم في الدين اشياء لم تستعد بعض العقول لإدراكها وسببه ماقدمناه من تضييق بعض الناس وسد اكثر ابواب الطرق المؤدية الى العلم فاذا كمل لبعض الناس استعداده العقلي وصار انسانا بالمعنى الذي خلق لاجله فلا شك انه يدرك معلومات لا يكمل العقل الا بادراكها فعلى من لم يأت هذه البيوت من أبوابها ان يسأل اهل العلم (للكلام بقية)

شكر المنار على تأبين ذكاء الملك

رسالة جاءتنا من العالم الاديب بدائع نكار ميرزا فضل الله البيهقي مدرس العلوم الادبية في مدرسة طهران السياسية . ورغب الينا ميرزا محمد علي خان نجل صديقنا (رحمه الله) ذكاء الملك ان ننشرها في المنار فنشرناها شاكرين للاديبين فضلهما وهي

هو

جدير ان يوذّن في المنار   معارف عنونت في المنار (٢)
وكنا في محاق الجهل دهرا   بغرته سلخنا من سرار
سأجعل شكر منشئها دثاري   واجعل مدحه ابدا شعاري

---

(١) المنار : صرح بهذا شيخا الاسلام ابن تيمية وابن القيم وتصديا لبيانه بما كتبه الثاني في أعلام الموقعين من التفصيل البديع (٢) لعل الأصل « معارف عنونت باسم المنار » او « عنونت في ذا المنار » فسقط لفظ « ذا » سهوا

وما أنا في رفع خبري الى حضرة مولاي أدام الله بقاءه ابتداءا ، ونصب وجوه أملي لشمول عواطفه رجاءا ، قبل التعرف اليه ببعض المعارف، والتقرب اليه بطرائف اللطائف ، الا كطالب الإيناس قبل الابساس ، والملح بلا اسباب وامراس ، ولكني اجلّ سيدي من ان يحتاج العبد الى تقربه بالوسائل ، ويمتّ اليه بذرائع القبائل ، لان داعي فضله على المنار جهارا ، يدعونا الى نار قراه ليلاونهارا ، فلا ألام على ذلك الاقدام ان لبيت دعوته ، وصليت قبلته ، وأتيت ناره ، ويممت داره ،

قيلٌ بممبج مأواه ونائله ... في الشرق يسأل عمن نيله سيلا

على اني من آل داود ، ومن عاملي الشكر معدود ، وكيف لا أشكر من مولاي نعمه التي أحيت القلوب ، واماتت العيوب ، وحسّن منا الاخلاق ، وعلق علينا الاعلاق ، فجزاه الله عن المسلمين خير الجزاء ، ورداه عنهم برد الثناء ،

* ولو سكتوا اثنت عليه الحقائب *

قد وقفت على خاتمة الجزء الثاني عشر من المنار في مدرسة السياسة من طهران ، بعد ما وقفت على فاتحة المجلة في خراسان ،

تنورتها من أرض طوس واهلها ... بيثرب أدنى دارها نظر عالي

وقفت على تأبين الفقيد الفريد ذكاء الملك اطاب الله ثراه فأخذني من الأسف ماجر بي إلى التلف

فقدنا ذكاء الملك لابل سماءه ... وما حال ملك زال عنه ذكاؤه

فقدناه لو ان يفتدي لفديته ... ولكن قضاء الله حتم مضاؤه

مضى رحمه الله وأصمى على قلوبنا سهام الهموم، وأحمى على اكبادنا مكاوي الغموم ، فلولا خلفاه الصالحان ، وفرعاه الباسقان ، وثمراه اليانعان، وقمراه الطالعان، لما صبرنا على هذه الرزية، بل هلكنا من سطوات تلك البلية، ولكن بحمد الله ومنه

وفى الحيُّ بالميت الذي غيب الثرى ... فلا الملك مغبون ولا الموت غابن

فها انا مع عقدة لساني ، وعجمة بياني ، وضيق باعي ، وقلة متاعي ، ونقصان بضاعتي ، وكلالة يراعتي ، أشكر من مولاي أدام الله بقاه ، تأبينه على فقيدنا ذكاء الملك طاب ثراه ، واسأل الله ان يديم ظلال عواطف مولاي على رءوس أهل الأدب ،

ويقيمه على تثقيف الاود من العجم والعرب ، وأن يجعل كتابي هذا عنده مقبولاً ، لا مردود علي مبذولاً ، وأنهي الى تلك الحضرة العالية من أديبنا ذكاء الملك بن الذكاء ، أزكى واوفى الثناء ، اختتم كتابي معتذرا بذلك الخطاب

لا تكرن وان اهديت نحوك من　　علومك الغر وأدابك التقا
فقبّم الباغ قد يهدي لمالكه　　برسم خدمته من باغه التحفا

العبد فضل الله بن داود البيهقى المدعو ببدائع نكار

للسدة السنية العلية والعتبة البهية الرضوية على راقدها آلاف الثناء والتحية

البرهان الصريح ، في بشائر النبي والمسيح

(عليهما السلام)

بعونه تعالى سننشر كتاباً فيه بشائر النبي والمسيح عليهما السلام منها للنبي عليه السلام وأمته من نبوة اشعيا ص ٤٠ عدد ٣ وص ٤١ عدد ٢ و ٢٥ وص ٤٢ عدد ١-١٦ ونبوة دانيال ص ٢ و ٧ و ٩ الوارد فيها ختام النبوة والحساب من حرب ادريانوس ملك الرومان لليهود سنة ١٣٢ وانتهاء المدة سنة ٦٢٢ وهي سنة الهجرة والاذن بالفتح والجهاد . ونبين فيه صحة الترجمة في مواضع منها في التكوين بشأن سيدنا اسماعيل ص ١٦ عدد ١٢ «انساناً وحشياً» قال العالم الاسرائيلي الترجمة انسان بري (يسكن البرية) يده في الكل ويد الكل فيه ولفظه العبراني يرى آدام أي آدم بري ويده في الكل المراد به سيدنا محمد عليه السلام لانه من اسماعيل ، وفي مزمور ٨٠ عدد ١٧ وابن آدم الذي اخترته أي نبينا ابن اسماعيل عليهما السلام لانه سمي اسماعيل آدم ، وفي التكوين من قول الرب للخليل ص ٢١ عدد ١٣ وابن الجارية أيضاً اجعله أمة لانه نسلك والاصل العبراني ان نسلك هو ولفظه « كي زرعخاهو » اي انه هو زرعك وفي المسيح عليه السلام «وخلق الرب له من غير اب» من نبوة ارمياص ٣١ عدد ٢٢ خلق الرب شيئاً حديثاً في الارض انثى تحيط برجل وفي الشروح ان هذا في المسيح وتأييد نبوة ارمياهذه في القرآن الشريف من سورة آل عمران وفي نبوة اشعياص ٤٩ المختصة بالمسيح يحكى بالوحي مايكون للمسيح وفيها ان له مجيئين والاصل العبراني لها عدد ٥ قال الرب جابلي من

البطن عبداً له لارجاع يعقوب فيضم اليه اسرائيل ومن ترجع بني اسرائيل كما في عدد ٤ اما انا فقلت عبثاً ولمجيئه الثاني عد٦ قال سهل ان تكون لي عبداً لتقيم اسباط يعقوب ورد محصوري اسرائيل واجعلك نوراً للامم لتكون خلاصي الى أقصى الارض . ثم أكد ذلك في عد٨-١٣ وفي عد٦ «واجعلك» قالوا بدلها فقد جعلتك . وما ذكر في اعمال الرسل ص١٣ عد ٤٧ خلاف الاصل العبراني أيضاً لان رسالته كانت لبني اسرائيل ونبوة ميخاص ٥ عد ٣ و٤ تؤيد ان له مجيئين كنبوة اشعيا هذه ص ٤٩ وتؤيدها أيضاً نبوة اشعيا ص ١١ التي هي لمجيئه الثاني لان فيها يرفع راية الامم ويجمع بني اسرائيل من أربعة أطراف الارض وهذا معنى ماورد في نبوة اشعيا ص٤٩ عدد٦ لتكون خلاصي الى أقصى الارض اي خلاص بني اسرائيل كما في ص ١٢ من نبوة اشعيا أيضاً المتممة لص ١١ وهذا في آخر الايام كما في نبوة هوشع ص ٣ عد ٥ ونبوة اشعياص ٤٩ تؤيد مجيء المسيح لمجيئه الاول قبل انتهاء تسلط اليهود على الشعب في ارض فلسطين كما في عد ٧ والرب يحميه منهم كما في عد٣ «في كنانته اخفاني» وعد٨ «وحفظتك» وقد قلعت اليهود من أرض فلسطين سنة ١٣٢ ثم لما دخل الاسلام صاروا في حماه .

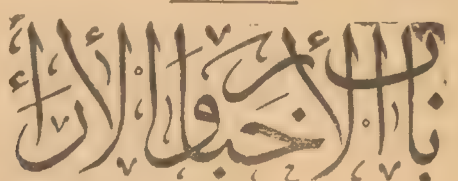
ومنها في نبوة اشعيا ص ٥٣ عد٨ « انه ضرب من أجل ذنب شعبي » والاصل «ضربة لهم» ولفظهم بالعبراني «لاموا» لان الكلام في الشعب الذين اخذوا البابل وحضروا منها والنبي ارميا بين كثيراً منه في مراثيه وفي عد١٠ «فسر» والاصل فارادو في عد١٠ أيضاً «ان جعل نفسه ذبيحة اثم يرى نسلا» ولم يكن في الاصل العبراني لفظ ذبيحة والكلام في الشعب لانه ذكر يرى نسلا وفي مزمور ٢٢ عد١٦ : ثقبوا يديّ والاصل « كأسد يديّ » مع انهم اعترفوا في كتبهم باعتماد الاصل العبراني والمسيح ايد نبوات الانبياء كما في انجيل متى ص٥ عد١٧ ولم يؤيد التواريخ . ونبين في الكتاب بعض الآثار المصرية والاشورية التي تؤيد التواريخ الاسلامية الصحيحة ونذكر نبذة في فضائل الاسلام ونطلب منه تعالى العون في البدء والختام

(تنبيه) في نبوة اشعيا ص٤١ عد٢٥ «أنهضته من الشمال» وقبل وضع الحركات التي وضعت بعد قرون كان ينطق بها « أنهضته من مخبأه» وهو الغار وعلى وضع الحركة قام نبينا « ع م» من الشمال وهي المدينة شمال مكة ودخل مكة شرقاً والكلام في مساكن قيدار كما يأتي وفي ص ٤٢ عد ١١ ذكر مساكن قيدار وفي عد ١٣ « خروج الرب كرجل حروب» اشارة للجهاد وقيدار ابن اسماعيل كما في التكوين ص ٢٥ عد ١٣

« ياأخت هارون » وردانهم كانوا يسمون بالانبياء والصالحين قبلهم حديث صحيح

وفي نبوة حزقيال ص ٣٧ عد ٢٤ سمي المسيح داود ونبوة زكريا ص ١٢ و١٣ تمت في يهوذا المكابي واخيه يوناثان

وموجود بلد اسمها سامره «شمرون بالعبراني» قبل دخول بني اسرائيل الارض كما في سفر يشوع ١٢ : ٢٠ وفي آثار توتمس الثالث وجود يهود بفلسطين قبل دخول بني اسرائيل　　احمد ترجمان



نادي دار العلوم

لا يجهل أحد من المتعلمين في مصر ، ان أهل نادي دار العلوم هم عماد النهضة العلمية العربية في هذا العصر ، وسيكونون بعد اجتماع شملهم بهذا النادي أنفع للبلاد ، واقدر على القيام بأعباء التعليم والارشاد ،

فتحوا باب البحث في التعريب والترجمة فأفادوا ما افادوا . ثم فتحوا باب البحث في مسألة الربا عند ما اشتدت العسرة المالية وزعم كثير من الناس أن المسلمين لا يمكن ان يحفظوا ثروتهم ويجاروا غيرهم في الارتقاء الا اذا تعاملوا بالربا وانشأوا المصارف (البنوك) المالية . وان الدين اذا كان يمنعهم من كل ما يعرف عندهم بالربا فهو لا يوافق مصالحهم الاقتصادية والسياسية في هذا العصر

خطب غير واحد من اعضاء النادي ومن غيرهم في الربا فكانت خطبهم ينابيع للفوائد النقلية والاجتماعية والاقتصادية . وقد سلك كل واحد منهم مسلكاً أنار فيه المسألة من بعض جهاتها كما فعلوا في مسألة التعريب والترجمة ولم يتصد منهم أحد للكلام فيها من جميع الوجوه الا الرئيس في خطبة الختام . وقد ألقى صاحب هذه المجلة (المنار) كلمات وجيزة في ذلك أدمجناها في التفسير من هذا الجزء ولم يكن بحث كل خطيب في الموضوع من بعض الوجوه عجزاً عن سائرها وإنما كان ذلك هو المجلي للمسألة والمقرب للصواب من الافهام

ثم بحثوا في مسألة الزواج والعادات في الخطبة والاحتفال في العرس فأجادوا وافادوا

البدع والخرافات
والتقاليد والعادات

اقتراح بناء مدفن لعظماء الرجال بمصر

نشر في « الجريدة » اقتراح بناء مدفن لعظماء الرجال بمصر تنقل اليه عظام من مات منهم ويدفن فيه من سيموت من بعد

نشر هذا الاقتراح بتوقيع « باحثة بالبادية » وماهو الا خيال باحث في الحاضرة او تمني متفرنج في العاصمة قد استعجل جداً بهدم تقاليد قومه الدينية ونقلهم من مبادي التقاليد الأوربية الى غاياتها

لا أنكر ان بعض العلل التي بني عليها الاقتراح له وجه نظري معروف لمثله وضعت الامم الوثنية من قبل لتماثيل والنصب و بنت القبور وشرفتها، وعظمت هذه الآثار الماثلة حتى عبدتها، ولكن كان إثمها اكبر من نفعها، وشرها اكثر من خيرها، ولذلك هدمها الاسلام وحرم نصب التماثيل وتشييد القبور وتشريفها كما في حديث علي كرم الله وجهه في صحيح مسلم وغيره « لاتدع تمثالا الاطمسته ولاقبراً مشرفاالاسويته »

ربما قالت باحثة البادية او باحث الحاضرة ان الاسلام ما فعل ذلك الاليطمس رسوم الوثنية حتى لا تنازع التوحيد في سلطانه على النفوس وهـذه العلة مأمونة في هذا العصر « عصر المدنية والنور عصر المادّية والعلوم » واذا انتفت العلة انتفى المعلول

لقد قال مثل هذا القول أحد طلاب علم الحقوق من أولاد علماء الدين ونشره في المؤيد ردّاً على من انكر نصب تمثال لمصطفى باشا كامل وسكت له الجمهور على ذلك ولكنهم لم يكونوا بسكوتهم مذعنين

ما أسهل تفنيد هذه الشبهة على الاعتراف بصحة ما قيل من سبب تحريم الاسلام للتماثيل والنصب والقبور المشرفة!! لا كتفي بأن أقول ان هذه شعائر وثنية منع الاسلام صورتها لأنها تذكر بمعناها ولو بعد حين ، ويخشى ان تعيد روح الوثنية الى نفوس

المستعدين ، فلا نعيد هـذه الصورة وان أمنت العلة الآن ، سداً للذريعة ولو في مستقبل الزمان، بل أقول أيضا ان العلة غير مأمونة في هذه الأيام ، لا سيما عند جماهير العوام ، فلو نصبت التماثيل و بنيت الهياكل الخاصة لبعض القبور، فانها لا تلبث ان تصبغ بالصبغة الدينية بمصر و يتبرك بها او يعبدها الجمهور، وأستدل على ذلك بأقوال دعاتها وافعالهم

جاء في مقال « باحثة البادية » ما نصه

«والعامة من أهل مصر بل بعض الخاصة لهم ولع فائق بزيارة الاضرحة واعتقاد راسخ بنفع اصحابها حتى انك لو دفنت حماراً و بنيت له ضريحا وقبة لزاره عدد من الناس يتبركون به وهم يعلمون انه حمار فاذا كان الامر كذلك في الحمار فكيف به في الرجال وكيف به في عظمائهم » اه

ونحن نقول مع الباحثة ان عظماء الرجال يكونون أجدر بهذا التعظيم والتبرك وهذا ما يحرمه الاسلام و يعده معارضاً للتوحيد

ذكر باحثة البادية من الرجال الذين تقترح نقل عظامهم للمدفن الجديد محمد عبده ومصطفى كامل وقاسم أمين فنقول كيف نأمن ان تعظم اضرحتهم تعظيما دينياً بعدان يتخذ لها مكان خاص يقصد بالزيارة والاول منهم إمام من ائمة الدين وداع من دعاة القرآن ومحام عنه وعن السنة ، واقوى خاذل في عصره للبدعة ؟ كيف نأمن ذلك والثاني منهم على كونه ليس من رجال الدين في العلم ولا في الارشاد، وليس له مقالة تؤثر في الكتاب ولا في السنة ،ولا في الدفاع عن أصول الاسلام وعقائده ، ـ قد نحله أشياعه جميع الالفاظ التي يعظمون بها ائمة الدين وأولياءه كقولهم: فقيد الاسلام، رضي الله عنه ، قدس الله سره ، قدس الله روحه. بل قرن بعضهم ذكره بذكر الانبياء وكاد بعضهم يفضله عليهم. وذكر أخوه الصغير في مناجاة ناجاه بها ان روحه مشرفة على العرش يعني انها فوق عرش الرحمن ! ! وذكر اخوه الكبير من أنباء ولادته نحو ماروي في ولادة النبي صلى الله عليه وسلم من أنه ولد طاهراً مختوناً ، وجعله بعضهم ثاني النبي (ص) في عظمته وكلامه كالانجيل والقرآن. وقال فيه شوقي شاعر الامير

لو كان للذكر الحكيم بقية لم تأت بعد، رثيت في القرآن

هذا وهو يعلم ان القرآن الحكيم لم ينزل منه شيء في رثاء الانبياء والصديقين ،

بل كل ما قال في شأن موت من أنزل عليه وهو خاتم النبيين ﴿ (٣٩ : ٣٠ انك ميت وانهم ميتون ٣١ ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) أي انك يا محمد تموت وهؤلاء المشركون الذين قالوا (٥٢ : ٣٠ نتربص به ريب المنون) يموتون أيضاً وتختصمون جميعاً عند الله تعالى . وقال (٣ : ١٤٤ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم ؟) الآية وقد نزلت عند ماقتل بعض المسلمين فانهزموا في وقعة أحد اذ صاح صائح « قتل محمد »

أفرأيت من يغلو فيه الناس ذلك الغلوّ الذي أشرنا الى قليل مما قرأناه فيه ونحن لم نقرأ الا أقل ما كتب — وسكتنا عما سمعنا من بعض غلاة المارقين وما روي لنا عن بعضهم من مثل قولهم انه كان افضل من الانبياء وانه نفعنا اكثر مما نفعنا الاسلام ! — أيستغرب ان يعظم تمثاله وقبره تعظيماً دينيا ؟ ؟

فيا أيها المتفرنجون أربعوا على ظلعكم وخففوا السير واتئدوا بهذه الأمة المسكينة فان مصابها عظيم والخطر الذي يحيط بها أعظم فلا تستعجلوا بهدم ما بقي لها من العقائد والآداب والاحكام الدينية وأنتم لم تبنوا لها ديناً ولا شريعة أخرى أحسن مما جاء به الإسلام ، ولا تستطيعون ان تحفظوا بقية الممالك التي فتحها لكم الاسلام ،

إذا فرضنا ان ما ترمون اليه بالتماثيل ونقل عظام الموتى الى أضرحة عظيمة يزيد في تعظيم أصحابها والتبرك بهم والاقتداء بسيرتهم هو مما يفيد في ترقيتها وفرضنا انه لا يقوي نزعة الوثنية فيها فدعوه الآن تجرد نصوص ائمة المذاهب التي تنتمي اليها الأمة في تحريم نبش الموتى وتحريم نصب التماثيل مطلقاً وخذوا بالأمة إلى أسباب العزة والقوة التي لا خلاف فيها شرعاً ولا عقلاً وهي كثيرة لا يكاد يدعو اليها داع ، وقلما يجمع لها مال أو يؤلف لها اجتماع ،

أليست المدارس العلمية والدينية ، والكتب التاريخية والفنية ، والجمعيات الخيرية والدينية والادبية ، هي انفع من القبور والتماثيل الوثنية ؟ فلماذا لا تبذلون لها المال ، وتدعون الى تعميمها في البلاد ، أليست مدرسة مصطفى كامل افضل مايعزى اليه من الاعمال ، فلماذا لا تبذلون ترقيتها ما جمعتم للتمثال ؟ أليست آثار الاستاذ الامام ، في اصلاح حال المسلمين والاسلام ، هي افضل ما يحيا به ذكره ، ويرغّب في التأسي به ، فلماذا لا تبذلون المال لنشرها ، وتعميم النفع بها ؟ ؟

الفصل السابع (*)

جمال خديجة والجمال عند قومها

الجمال محبوب لذاته عند الطبع ، ومحبوب لفائدته عند العقل ، ومع كثرة ماألفت العيون رؤيته ، والآذان سماع أحاديثه ، لاتزال أسراره موضوع التفكر ، ولا تزال دقائق تأثيراته محل الإعجاب ، كيف لا وهو السر الاعظم في جذب الانسان الى مقاماته العلى من الابداع ، والسبب الاكبر في ابعاده مابينه وبين الحيوان في مراقي الوجدان والادراك . فشرفه مجمع عليه عند بني آدم بغير خلاف بينهم . وايما قوم حرموه فقد باؤا بحرمان عظيم . ولذلك لم نجد بدًّا من ذكر هذه المزية الاخرى لقوم «خديجة» فانها مزية جديرة بالذكر لا سيما بعد ان اشتهر عند من لم يعرف هؤلاء القوم انهم كانوا الاحظّ لهم من الجمال ، ولا ذوق لهم في الحسن ، ولا نصيب من توجه النفس الى الاحسن .

كَبُرت سُبّةً أن يكون قوم «خديجة» على مايظن هؤلاء الذين لا يتآلف في ذهنهم ان يكون القوم سكان اقليم حار وذوي شظف من العيش ثم يكونوا مع ذلك ذوي خلقة جميلة وصورة بديعة

وكَبُر منا تقصيراً ان لانبين في هذا الباب ما هو من جملة مناقب هذه السيدة وقومها فان استغرب قوم لم يعيروا اسرار الخليقة نظرة تخصيصنا فصلاً لهذا الموضوع فانهم سيرونه فيما بعد مكيناً في موضعه على انه سيجد فيه المتفكرون صاحبهم الانيس ، ويجدهو فيهم أهله الكرام

(*) من سيرة السيدة خديجة

ان العرب قد تناسبت أجزاؤهم، وتناسقت أوضاعهم، واعتدلت أشكالهم، بياضهم جميل، ليس فيه بهق بعض الاجيال، وأدمتهم لطيفة، ليس فيه حلكة بعض الاقوام، ولعلّ من فازت من حسانهم بحظ عظيم من الجمال تقل نظائرها في حسان الآخرين، وتكون آية المنتهى في جمال العالمين،

والمشهور ان الجمال يختلف في أذواق الناس ولكل جيل قياس في الحسن لا يأتي عليه قياس جيل آخر ولكن من أمعن بما يتناقله الكل من صفات الحسن يجد ثمة جهة جامعة ومقياساً واحداً تتفق معه المقاييس كلها وذلك ان الحسن الذي لا خلاف فيه ليس هو بلون الاديم وانما هو باعتدال القامة، واستواء الهامة، وتناسب اجزاء الوجه ومقاطعه، وحلاوة المبسم، وملاحة العينين، ولطف الحاجبين، ورقة الشفتين، ولعلّ هذه المذكورات تكثر في العرب حتى ندر ان نجد غير موصوف او موصوفة بالحسن من مشهوريهم ومشهوراتهم. واذا اضيف الى ماذكرناه بياض الاديم وتشربه بحمرة او صفرة كان ذلك فضلاً في الجمال، قد يبلغ به منتهى الكمال، ولم يكن هذا اللون قليلاً في العرب عامة وقوم خديجة خاصة

والعرب لم يكثروا في كلامهم من شيء بمقدار ما أكثروا من وصف الجمال وقد رأيناهم يستحسنون هذين اللونين كثيراً: البياض المشرب بحمرة او البياض الضارب الى صفرة. قال ذو الرمة احد شعرائهم:

بيضاء صفراء قد تنازعها لونان من فضة ومن ذهب

وهذا اللون هو لون اللؤلؤ وقد جاء في القرآن المجيد تشبيه حسان

الجنة باللؤلؤ المكنون ولا يختلف أحد الى عهدنا هذا في أنّ هـذا اللون هو الذي تكون صاحبته أقرب الى الكمال في الجمال اذا أخذت بحظ من تناسب بقية الاوضاع ، فانه عند ما ينطبع فيـه الاحمرار لسبب من الاسباب تكون حمرته ألطف من الحمرة الملازمة لبعض البيض وعن مثل هذا عبّر عديّ بن زيد أحد شعراء العرب بقوله :

حمرةٌ خُلِطَ صفرة في بياض مثلما حاكَ حائـك ديباجا

ولكثرة البياض اللطيف في العرب شبّهوه بالصبح واشـتقوا من الصبح لونا فقالوا للابيض صبيح ، واشتقوا من الزهر لوناً فقالوا للأبيض المشرب بحمرة أزهر. وتشبيهم بورد الخدود دليل على كثرة هذا اللون فان هـذه الحمرة لا تنطبع الا على أديم أبيض ورأيناهم يشبهون الاعناق كثيراً بأباريق الفضة كما قالت قريبة بنت حرب أخت أبي سفيان في أعمامها وأخوالها

وليس بعجيب بعد أن كان الجمال الرائع من جملة خصائص العرب أن نجدهم مغرمي القلوب بمجالي تجلياته ، منصرفي الوجوه الى مشارق أنواره ، ثم لا بدع بعد ذلك اذا وجـدنا حب الجمال قد لطَّف أذواقهم ، وعودهم على الاستحسان ، ونقلهم من حال الى حال ، الى أن تهيأوا لقبول الدعوة التي رقت بهم من هذا الجمال الى أعلى ، ومن هذا الغرام الى ماهو أولى ، نقلتهم الى تصور الجمال الالهي مصدر كل جمال ، ورقت بهم الى عشق الكمال المعنوي الذي هو فوق كل كمال ، فلم يصعب على أولئك

الذين شغفهم الجمال المحسوس ، ان يفهموا الجمال المعقول ، وان يزدادوا نصيباً منه مع نصيبهم من ذاك ولم يعزّ عليهم ان ينتقلوا الى العالم الجديد الذي دعوا اليه لانه تبدّى لهم أجمل مما كانوا عليه

ونحن اذ نرى للعرب الحظ الاوفر من الشغف بالحسن والاستحسان يزيد قدرهم في اعتقادنا ونرى من غير تردد انهم كانوا لذلك العهد من أرقى الاجيال الراقية على بعدهم عن الزخرف ، وعدم تعلقهم بكل أسباب الحضارة ، ولعلنا اذا بحثنا عن المؤثر الاعظم في وفرة جمال هذا الجيل نجد ذلك لانهم خصوا بأخذ المعتدل من المعاش ، والتنقل في المعتدل من الاقاليم ، وحبّب اليهم المعتدل من المهن والاعمال ، وأضافوا الى ذلك أنهم لا يتزوجون من غير رؤية غالباً وللانتخاب دخل كبير في تحسين الجنس وتجويد النسل .

وان بدا لأحدهم أن يتزوج بمن سمع بجمالها سماعاً تجده لا يقصّر في البحث والتدقيق بواسطة من يثق بحسن ذوقهنّ ، وجودة امعانهن ، والحكاية الآتية تدلنا على مقدار حرصهم على اختيار الجميل وعلى مبلغ هذا الشعب من الجمال :

أراد ملك من ملوكهم (هو عمرو بن حجر ملك كندة جد امرىء القيس) أن يتزوج ابنة عوف بن محلم (الذي يقال فيه لا حرّ بوادي عوف لافراط عزّه) وكانت ذات جمال فوجّه اليها امرأة يقال لها عصام لتنظر اليها وتمتحن ما بلغه عنها فلمّا رجعت قال لها الملك « ماوراءك ياعصام »

قالت : رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة يزينها شعر حالك ، ان أرسلته خلته السلاسل ، وان مشطته خلته عناقيد كرم جلاه الوابل ، ومع ذلك حاجبان

كأنهما خطا بقلم ، أوسودا بحمم ، قد تقوسا على مثل عين المبهرة ، التى لم يرعجها قانص ولم يذعرها قسورة ، بينهما أنف كحد السيف المصقول ، لم يخنس به قصر ولم يمض به طول ، حفت به وجنتان كالأرجوان ، في بياض محض كالجمان ، شق فيه فم كالخاتم ، لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غرر ، ذوات أشر ، يتقلب فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، يزين به عقل وافر ، وجواب حاضر ، يلتقي بينهما شفتان حمراوان كالورد ، يحلبان ريقا كالشهد ، تحت ذاك عنق كابريق الفضة ، ركب فى صدرها تمثال دمية ، يتصل به عضدان ممتلئان لحماً ، مكتنزان شحماً ، وذراعان ليس فيهما عظم يمس ، ولا عرق يجس ، ركبت فيهما كفان رقيق قصبهما ، تعقد ان شئت منهما الانامل ، نتأ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها — الى أن قالت حين انتهت الى وصف ساقيها — وشيتا بشعر أسود ، كأنه حلق الزمرد ، يحمل ذلك قدمان ، كحذو اللسان ، — فتبارك الله مع صغرهما ، كيف يطيقان حمل ما فوقهما ، »

ووصفهم الحسن والجمال في الشعر مشهور كقول بعضهم من قصيدة

ويزين فوديها اذا حسرت   ضافي الغدائر فاحم جعد
فالوجه مثل الصبح مبيضٌ   والفرع مثل الليل مسودّ
وجبينها صلت وحاجبها   شخت المخط أزج ممتد
وكأنها وسنى اذا نظرت   أو مدنف لما يفق بعد

فهذا مثال من أمثلة الجمال العربي الذي كان لرهط خديجة حظ منه كبير ولم يكن حظها هي منه قليلاً

الفصل الثامن

ثراؤها والثراء عند قومها

وكان للسيدة «خديجة» مع ما آتاها الله من الجمال وفضائل النفس حظ من الثراء ايضا وثراؤها في حياة أبيها وكانت تاجرة ولعل اباها نحلها رأس المال باديء بدء

لم يكن اشتغال سيدتنا هذه بالتجارة شيئاً يعجب منه في قومها فانهم كادوا يكونون كلهم تجاراً. تقضي بذلك طبيعة مقامهم في ذلك البلد، وشريعة تربيتهم على طلاب المجد واتساع السؤود، ومنافسة الاقرب والأبعد، ولولا شغفهم بهذا لما سمعنا بصدى همتهم في التجارة من بين إخوانهم الآخرين. ولولاه لاستطابوا من العيش ما استطابه ذلك الاعرابي الذي سئل عن طعامهم في البادية فقال لسائله: «بخ بخ عيشنا عيش تعلل جاذبه،[1] وطعامنا أطيب طعام واهنؤه وأمرؤه، القت[2] والهبيد[3] والصليب[4] والعلهز[5] والذآنين[6] والعراجين[7] والضباب[8] واليرابيع[9] والقنافذ[10] وربما أكلنا والله القد[11] واشتوينا الجلد،

(١) تعلل من العلل وهو الشرب بعد الشرب «٢» القت الفصفصة وهي الرطبة من علف الدواب «٣» الهبيد الحنظل يكسر ويستخرج حبه وينقع لتذهب مرارته ويتخذ منه طبيخ يؤكل عند الضرورة «٤» الصليب الودك يستخرجونه من العظام بعد أخذ اللحم منها «٥» العلهز قراد كبير ونبات ينبت في بلاد بني سليم وطعام يتخذ في المجاعة من الوبر والدم (٦) الذآنين جمع ذؤنون نبت طويل ضعيف له رأس مدور (٧) العراجين جمع عرجون العود من النخل (٨ - ٩ - ١٠) الضباب اليرابيع والقنافذ حيوانات معروفة «١١» القد جلد السخلة

فما نعلم أحداً أخصب مناعيشاً، ولا أرخى بالاً ،ولا أعمر حالاً ،أوما سمعت قول شاعر وكان والله بصيراً برقيق العيش ولذيذه :

إذا ما أصبنا كل يوم مُذَيقةً (١)　　وخمس تميرات صغار كوانز
فنحن ملوك الناس خِصباً ونعمة　　ونحن أُسود الناس عند الهزاهز
وكم متمنٍّ عيشنا لا يناله　　ولو ناله أضحى به حق فائز

فالحمد لله على ما بسط من حسن الدعة ، ورزق من السعة ، وإياه نسأل تمام النعمة »

هذا ما استطابه الاعرابي وحمد الله عليه هذا الحمد . وما الاعراب الا بشر قد يستطيب غيرهم من البشر ما يستطيبون اذا خلصوا الى مثل معيشتهم ومارسوها لكن من الناس من لا يطلبون في الحقيقة ما يقيم مادة البدن فقط كما تطلبه سائر الحيوانات بل يتسابقون الى ما به الغبطة من المقتنيات والذخائر، ويتبارون في ما به التمايز من المستحسنات والبدائع ، وبمثل هؤلاء يزيد الله الانسان بسطةً من المعارف ، وقوةً في المدارك

وقريش كما عرف القارىء كانوا ممن أعدّهم الله لعمل عظيم في الارض ولا يتم ذلك بحسب سنته سبحانه مالم يكن في سابق تربيتهم وطرق حياتهم ما يلائم الطريق الذي سيستأنفونه وما أمامهم الا المغامرة في السيادة على شعوب العالم بقدر ما يستطيعون فلم يكن لائقاً بمن هم عتيدون لمثل ذلك ان يقبعوا في بلدهم ولا يعرفوا العالم ، ولا تميل نفوسهم الى خيرات السماء والارض الفائضة في ملك الله الواسع ، بل اللائق

«١» المذيقة تصغير مذقة وهي شربة من اللبن الممزوج بماء كثير

بهؤلاء أن يكون كل واحـد منهم أنطق حاله بقول ذاك الشاعر من أبناء ملوك العرب (امرىء القيس)

فلو أنَّ ما أسعى لأَدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليل من المال
ولكنّما أسعى لمجد مؤثّل وقد يدرك المجد المؤثّل امثالي

وحقا كانت حال القرشيين ناطقةً بمثل هذا الكلام، وكلٌّ منهم له في المجد أرب، فلا بدع اذا انصرفت أنفسهم الى تحصيل المال فانه أعظم أدوات هذا المطلوب وقد نجح فيه منهم كثيرون ونفعوا بالغنى قومهم عند الشدائد منهم عبدالله بن جدعان الشهير بجفنته التي كان يقدمها للفقراء والمساكين من زوار مكة وأهلها وقد أمد قومه بالسلاح في حرب حاربوها وسلّح مئة كميّ من غير قومه ممن حارب معهم وفي هذه الحرب قتل أحد اخوة السيدة « خديجة » العوام ابو الزبير [1] ومنهم أمية بن خلف ابن وهب وابنه صفوان الذي أُثر عن النبي (ص) انه قال فيه « ان صفوان بن أمية قنطر في الجاهلية وقنطر أبوه» أي بلغ ماله القناطير [2] وكثيرون غير هؤلاء.

فيالله ما أشبه قريشا الضاربين في أغوار رمال العرب وأنجادها لنقل المتاع من هذه البرية وإليها على مراكبهم سفن البر ، بالفينيقيين الضاربين

«١» تحاربت في هذه الحرب قريش وهوازن وكان عمر النبي (ص) فيها اربعة عشر عاما وحضرها مع اعمامه يبيء لهم النبل . وعبدالله بن جدعان سري شهير ومثر كبير وهو من نخذ بني جمح

«٢» أمية من نخذ بني جمح أيضاً وقد قتل في وقعة بدر وكان مع أعداء النبي «ص» اما ابنه صفوان فاسلم بعد فتح مكة وكان من المؤلفة قلوبهم

في أكباد تلك المياه وأطرافها لنقل البضائع من هـذا الثغر الى ذاك على مراكبهم قلائص البحر . فلئن كان لأبناء تلك السواحل رحلتا شتاء وصيف بين زئير الامواج ، ومعاركة الامواه، فلأبناءهذه البراري أيضا رحلتا شتاء وصيف بين عُواء السباع ، ومعالجة الرمال

لعمر الحق قد أدرك القوم ان الخير كل الخير لانفسهم ولجيرانهـم انما هو في أن يخفّوا للتجارة لانها في الامم أقوى الاسباب المقربة من البدائع ، المبعدة عن الحياة الوحشية ، فقاموا بهذا المرغوب غير كسالى فكان لذلك ربحهم عظيماً من المال ومن ملكة الاختلاط بالاقوام في ذلك العصر السحيق والمكان البعيد. وكان بلدهم على هذا البعدعن العمران المتصل وسـطاً صالحاً للتجارة في تلك البرية بواسطة الحج الذي كانت تحجه العرب الى البيت المعظم الذي فيها وجـدير ببلدة يحج اليها العرب ذلك الحج ان تكون للامن داراً ،وانما تبسق شجرة التجارة في رياض الامن.

وكانوا يقيمون من حولها أسواقاً موقتةً في العام قبيل أيام الحج ويفدون اليها ليبيعوا ويشروا . أشهرها سوق عكاظ كانت تقوم في أول يوم من ذي القعدة « وعكاظ » بين مكة والطائف ومن أسواقهم هذه « ذو المجاز » وهو عنـد عرفات و « مجَنّة » وهي موضع باسفل مكة و « بدر » وهي بين مكة والمدينة

ولقد كان لسوق عكاظ من خطير الشان ان النعمان بن المنذر ملك الحيرة على اتصاله ببلاد الحضارة وبعده عن مكة كان يبعث كل عام الى سوق عكاظ جمالاً محملة بزّاً وطيوباً لتباع في هـذه السوق ويشرى له

بثمنها من أدم الطائف [١] مايحتاج اليه ولم يكن يرسلها في هذا الطريق البعيد التي تمر فيه على قبائل شتى حتى يجيرها له شريف من شرفاء العرب

وهذا يدلنا على ان تلك البلاد لم تكن تأتي بالحاصلات من غيرها فقط بواسطة التجارة بل كانت تخرج الى غيرها حاصلاتها أيضاً ومع ان الشام مشهورة بأعنابها وفواكهها كان تجار مكة يأخذون اليها من زبيب الطائف ذلك الزبيب الذي أدهش حسنه وكثرته سليمان بن عبد الملك لما رأى بيادره فقال: لله در قيس في أي عش أودع فراخه: يريد بقيس ثقيفاً فكذلك كان اسمه وحسبك ان النعمان بن المنذر كان يرسل يأخذ من أدمها

فتجار مكة لم يكونوا يذهبون فارغي الاحمال الى الشام والى غيرها أحياناً بل كانوا يذهبون ببضاعة حجازيه مما تخرج تلك الارض من نبات ومعدن ويرجعون ببضاعة شامية او غيرها مما تخرج الارض وتصنع الايدي • وآخرون مقيمون غير ظاعنين ليقيموا السوق الدائمة في تلك البلدة «أم القرى»

ولا يستريح القارئ حتى يعلم ماذا كانت تخرج تلك الديار الى غيرها من الاشياء فانه كلما تصورها غير زراعية وغير صناعية يضيق ذهنه عن معرفة ما يصلح ان يخرج منها وله العذر في ذلك اما نحن فنذهب حيرته ببيان وجيز لا يسعنا اكثر منه لئلا ينقطع الحديث فنقول ان تلك البلاد في نفسها رأس مال طبيعي كسائر البلاد. ذلك بما تشتمل عليه من معادن ونباتات برية يصلح بعضها للصبغ وبعضها للدبغ وبعضها للطب وبعضها

«١» الادم بضمتين وبفتحتين الجلود المدبوغة والواحد أديم

للطيوب وبعضها للتنظيف فاذا أضفت الى ذلك ما كانوا يجففونه من ألبان الحيوانات وما يستخرجونه منها من الزبد ومن أصوافها وأوبارها وجلودها وما كانوا يجففون من التمر والزبيب وغيرهما تجد بضاعة غير يسيرة يحمل مثلها الى أطراف بلاد الشام مما هو الى الحجاز أقرب بل ربما راج بعضه في العواصم

نحن اليوم لا نتصور مجتمعاً حضرياً الا بأن يكون فيه أمير مسيطر وجند له حافظون، وزرّاع وصناع وتجار للمعاش ضامنون، وقد رأى القارىء ان مجتمع «خديجة» قام بغير مسيطر وجند له فعسى ان لا يقيس على استغنائه عن سيطرة الامير استغناءه عن الزراعة والصناعة والتجارة كلاً فان هذه الثلاث لا قوام لقوم بدونها . ونحن اذا ذكرنا ما كان من النصيب لقوم «خديجة» منها لا نقصد به عدّ مفاخر لهم الا من جهة انهم تغلبوا بمداركهم وهممهم على كل ما كان يحول بينهم وبين المغامرة في إدراك شأو الأُمم والابتعاد عن البداوة من بعد ان أو شك جوار البادية ان يجذبهم اليها كما جذب إخوانهم الآخرين

فهم تحضروا في ذلك البلد بين أهل البادية وفي منقطع عن العامرة وأعطوا الحضارة حقها على صعوبة الوفاء لها بهذا الحق . وتراهم مع هذا لم يخالفوا سنن العرب فيما يأنفون منه ويترفعون عنه فأقاموا ما احتاجوا إليه من الصناعة في بلدهم ولكن على أيدي عبيدهم لان العرب كانت تأنف من بعض الصناعة وكذلك أقاموا ما احتاجوا اليه من الزراعة على أيدي عبيدهم ولم تكن الزراعة كثيرة في بلدهم ولكن لم يكن خالياً

منها البتة فهناك اودية يجود فيها الزرع والغراس وتجري فيها العيون . وما الطائف عنهم ببعيد وهو أبو الزراعة

اما التجارة فلم تكن العرب تأنف منها فلذلك باشرها القوم بأنفسهم كما باشر بعضهم بعض الصناعات التي ماكانوا يأنفون منها . فمنهم من كان يبيع اللباس، ومنهم من كان يبيع الادهان ، ومنهم من يبيع اللحم ، ومنهم من يبيع الاداة والماعون والسلاح ،ومنهم من يبيع الرقيق خاصة . وبالجملة كان فيهم باعة لكل الاشياء التي تدور عليها حاجة الإنسان المتحضر من صنوف الا كسية المعتادة ، وضروب الاطعمه والاشربة المعهودة ، وصنوف الماعون والاداة اللازمة، والعقاقير المعروفة، والحيوانات المتداولة، والأسلحة الشائعة . ولم تكن سوقهم تلك خالية من السماسرة ويقال ان عمر بن الخطاب الخليفة الثاني الشهير كان بزازاً ويقال انه كان سمساراً كما ان أبا بكر الخليفة الاول كان بزازاً (رضي الله عنهما)

ومهما كان ذلك المجتمع أقل تشبثاً بالزخرف وأبعد عن التسابق الى المتاع الزائد عن الحاجة نرى ان حاجاته التى تحتاج الى عمل التجار لم تكن قليله ونرى أنها وحدها كافية لان يكسب بعضهم بواسطتها كثيراً من المال فالتجارة ولا شك هي السبب الاول في ثراء قريش وكثرة المثرين منهم لا نالم نعهد لهم الى ذلك العهد وجها من وجوه المرابح ونماء المال أعظم منها

وأصناف الاموال التي كان الثراء بها عندهم هي الذهب والفضة ، والابل ، والرقيق ، والاراضي للزرع والغراس ، والاراضي للمعدن ، .

أما الذهب والفضة فهما الواسطة العظمى في تبادل العروض والاعيان

ومن مطالعة أخبار القوم يظهر انه كان لديهم منهما شيء كثير. من شواهد ذلك قول النبي (ص) « ان صفوان بن أميـة قنطر في الجاهلية وقنطر أبوه » ومن شواهد ذلك انه بعد ان ظهر الاسلام وانقسموا قسمين أحدهما مع النبي (ص) في دار هجرته (المدينة) والآخر عدوّ له في وطنه (مكة) أدّت تصاريف العداوة الى اشتعال حرب بين الفريقين في المحل المسمى ببدر بين مكة والمدينة فكان الظفر لاصحاب النبي (ص) ووقع في أيديهم من عشيرتهم سبعون أسيراً افتدوا أنفسهم ووزنوا في فدية الواحد أربعة آلاف درهم فتكون الجملة نحو مائتين وثمانين ألف درهم أي نحو عشرين قنطاراً مصريا من الفضة ولم يحدث في ذلك البلد الصغير أقل ضيق من هذا المقدار الذي وزن أهل كل أسير منه ماعليه . وما هو بالمقدار الكبير ولكنه يدل بالجملة على وفرة هذه الدراهم وتيسرها عند القوم. ومنها ما ورد من انهم انفقوا على حرب النبي في أُحُد ربح العير التي جاء بها ابوسفيان من الشام وقدره خمسون الف دينار

وكانت النقود التي يتداولونها من ضرب الروم غالباً وبعضها كسروي ولكن لم يكونوا يتداولونها الا بالوزن ولعل ذلك لعدم اتقان ضربها على وتيرة واحدة وقد ظلّت النقود الأجنبية الى أيام عبد الملك بن مروان فهو الذي أحدث النقود المكتوب عليها بالعربية

وأما الابل فهي أوفر أصناف أموالهم والابل مال كثير البركة لصاحبه فالقليل منها فيه الغِنى والغَناء، والنعمة والهناء، من درّها الغذاء، ومن أوبارها الكساء، ومن جلودها الماعون والحذاء، ومن بعرها الوقود

للطبخ وكشف الظلماء ، وظهورها مراكب للظعن والحمل والنجاء ، [١]
وبطونها أعظم بها واسطة للنماء ، فبعيشك أيها المطالع ! في أي صنف من أصناف الاموال الحضرية يجد أحد مثل هذه البركة ، التي لا تحتاج الى شيء عظيم من الحركة ؟

وأما الرقيق فقد كان في ذلك العهد يعدُّ مالا في جميع جهات الارض وكان هؤلاء القوم من أغنى الناس في الرقيق واذا صرفنا النظر عن استهجان هذه العادة نرى ان لا شيء أنفع من عمل الآلة المتحركة بنفسها ، النامية بطبيعتها ، المدركة بخلقتها ،

وأما الاراضي للزرع والغرس فكان فيهم أفراد يملكون منها كثيراً ومن متمولي قريش من كان يملك اراضي في الطائف كعتبة وشيبة ابني ربيعة (من فخذ بني عبد شمس) وغيرهما

وكان نظر القوم الى الزرع والضرع أعظم من نظرهم الى الذهب والفضة فقد سئل بعضهم عن الذهب والفضة فقال « حجران يصطكان إن أقبلت عليهما نقدا ، وان تركتهما لم يزيدا ، ان أفضل المال برّة سمراء ، في تربة غبراء ، اوعين خرّارة ، في أرض خوّارة ، » أشار بهذه الكلمات القليلة الى ان الموجب لنماء الثروة هو العمل في استخراج الخيرات الطبيعية من الارض التي هي اول رأس مال اما الذهب والفضة المتداولان فواسطة لوزن حركات دولاب الاعمال فقط . وهذا هو الاُس الصحيح في علم ثروة الامم

واما أراضي المعدن فالظاهر أنّ بعضها كان مشاعا وبعضها كان مملوكا اما كون بعضها مشاعاً فنأخذه من عادة العرب في جاهليتهم من انهم لم

(١) النجاء السرعة

يكونوا خاضعين لمثل سنن البلاد التي فيها ملوك . والمعادن انما يجعل لها حمىً وحرما الملوك الذين يعدونها من جملة الاموال العمومية التى هي حق للخزانة العمومية خزانة المملكة . واما كون بعضها كان مملوكاً فنستفيده مما قرأناه عن ملك بعضهم لبعضها كالحجاج بن علاط السلمي [١] الذي كان يملك معادن بني سليم . وكأنهم لشيوع ملك بعض الناس بعض المعادن كان من الناس من يطلب من النبي بعد الفتوح ان يقطعه شيئاً منها فقد طلب بلال بن الحارث ان يقطعه معادن القَبَلِيّة (منسوبة الى قَبَل بفتحتين) وهي ناحية من ساحل البحر بينها وبين المدينة خمسة ايام فأقطعه أياها وأقطعه جبل قُدْس للزرع

هذه هي أصناف الاموال التى كان بها ثراء هؤلاء القوم يضاف اليها العروض والامتعة التى كانت تتداول في التجارة والى مثلها يؤول اليوم كل ثراء فانّ ملك الارض والمعادن لا يزال ايضا ينبوعاً ثروراً للثروة ، واستخدام الفعلة بأجر بخس نوع من الاستعباد والاسترقاق اعني ان فائدته المادية كفائدته ، والنقود لا تزال كثرتها وقلتها ايضا معيارا

«١» الحجاج بن علاط ليس بقرشي بل هو من بني سليم ولكنه كان متزوجا من قريش « من بني عبد الدار رهط خديجة » وكانت أمواله تستثمر في مكة وكان مكثراً من المال . أسلم يوم فتح خيبر ثم جاء الى النبي « ص » فقال له أن لي ذهباً عند امرأتي « في مكة » وان تعلم هي وأهلها باسلامي فلا مال لي فائذن لي لأسرع السير واخبر أخباراً اذا قدمت أدرأ بها عن مالي ونفسي فأذن له النبي « ص » وقدم مكة وأخذ أمواله بحيلة

«٢» جبل قدس معروف في جوار المدينة

عظيما لثروة الامم، وعلى مقدار ما تقدم كله يكوز محور التداول للعروض والامتعة والاثاث والرياش .

وقد كان من لا يستطيع ان يباشر التجارة بنفسه او السفر من أجلها يعطي من ماله الى آخر على ان يتجر به ويكون الربح بينهما أو يعطيه بالربا وكان معهوداً فيهم او يستأجر آخر ليقوم له بتجارته والامانة هي الغالبة فلم يكن بأس على المال بتسليمه الى من يتجر به بالمؤاجرة او المضاربة فلذلك لم تصعب التجارة على السيدة «خديجة» التى كان لها ما للنساء قومها من الاستقلال في أموالهن ولم يكن لابيها ولا اخوتها سلطان في ذلك المال الذي كانت تبعث به الى التجارة مع ذوي الامانة ذاهبا وآيبا

وفي إيثار هذه السيدة إرسال أموالها في التجارة على الاتجار بالنقود في مكة كما يفعل المرابون دلالة على بعد نظرها ، وعلوّ همتها ، وعظيم عطفها وحنانها على وطنها فان الأوطان تسمو باقدام أرباب اموالها على نشر اسمها في العالم بالبيع والشراء واظهار صنوف الثراء، ولا يكون لها مثل ذلك بشيوع المتاجرة بالنقود

الفصل التاسع

زواجها قبل النبي صلى الله عليه وسلم

تزوجت خديجة قبل النبي (صلى الله عليه وسلم) مرتين تزوجت أبا هالة النبّاش بن زرارة وتزوجت عتيق بن عابد المخزومي. وكان الزواج المرضي في الجاهلية كالزواج في الاسلام أي ان الرجل يخطب الى الرجل بنته او من له عليها ولاية ويقدم صداقها فيزوجه . واما ما يذكر من أنواع أنكحة الجاهلية الاخرى فهو من باب السفاح لا من باب الزواج المرضي ولم يكن السفاح والمخادنة من فعل الشرائف والكرائم، وانما يفعل اغلب ذلك الإماء والحقائر

وولدت هذه السيدة ولداً من ابي هالة وسمته «هنداً» على عادة العرب اذ كانوا يضعون للذكور احياناً اسماء الإناث فهند هذا هو ربيب النبي (ص) أخو فاطمة لامها عليهما السلام وقد عاش وأدرك الاسلام وأسلم. روى عنه ابن اخته الحسن بن علي حديث وصف النبي (ص) المشهور في الشمائل وكان هند وصافاً وحديثه هذا أبلغ ما وصف به النبي صلى الله عليه وسلم وقد قتل هند مع علي يوم الجمل

سيعجب القارىء من زيادة تعريفنا لابنها هذا ونحن لانكتمه السبب وذلك اننا نحب ان لاندع شيئا مما يتعلق بسيرة هذه السيدة مغفلاً ومهملاً ولاسيما بعد اذ رأينا أكثر الذين كتبوا في سيرتها لم يتعرضوا لذكر ولدها هذا فكاد يضيع ويخفى الا على المنقبين في بطون الاسفار الواسعة وعذرهم

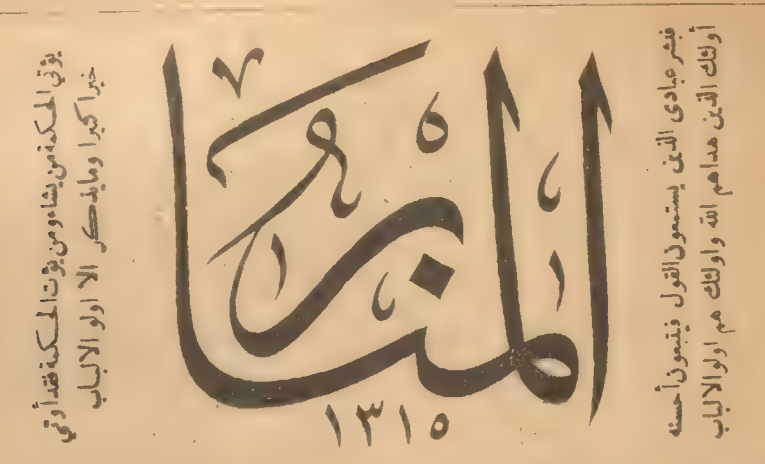
في ذلك انهم انما يتعرضون لسيرة هذه الفاضلة على الغالب منذ تشرفها بزواج النبي (ص)

وان لنا — والحق يقال — حقاً على هؤلاء الناس الذين يريدون أن يعرفونا بشخص ممّن مضى فيمسكون أنفسنا بالشيء من أخباره ثم يقطعونه ويجذبونها الى شيء آخر

على اني لا أنكر انه اذا سطعت الشمس لا يبقى لبصيص السراج مكان. فمن ذا الذي يعلم ان هذه السيدة اتصلت بشمس الهدى « محمد » صلى الله عليه وسلم وولدت منه « فاطمة » الزهراء امّ الحسنين ثم يرجع باحثاً عن ابنها ذاك من زوجها الاول ابي هالة ؟

لعمرك اذا وصلت بسيرتها الى هذا المقام تضاءلت امام نظرك كل ما تسمع عن أيامها الماضية واستشرفت نفسك الى الاطلاع على هذا الشأن الجديد الذي سيكون لهذه السيدة مع هذا الزوج الكريم الذي رنّ الكون كله باسمه الشريف

فمن هنا بدء الحياة العليا لهذه السيدة ، ومن هنا بدء خلود اسمها في لوح الوجود ، وبدء إشراق مواهبها في سماء السعود ، أمامها الآن الشمس بلا حاجز ، فليستمد جوهرها القابل ، وليفض نوراً وسناء ، وليتبارك كمالاً وبهاء



قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿مصر الثلاثاء ٢٩ جمادى الآخرة ١٣٢٦ — ٢٨ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٨﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(١٣٧ : ١٣١) قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٨ : ١٣٢) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٩ : ١٣٣) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٤٠ : ١٤٣) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤١ : ١٣٥) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ *

هذه الآيات وما بعدها في قصة أحد وما فيها من السنن الاجتماعية والحكم والاحكام فهي متصلة بقوله عز وجل « واذ غدوت من أهلك » ألخ الآيات التي تقدمت وذكرنا حكمة النهي عن الربا والأمر بالمسارعة الى المغفرة ووصف المتقين في سياق الكلام على هذه القصة . وقال الامام الرازي في بيان وجه الاتصال : « ان الله تعالى لما وعد على الطاعة والتوبة من المعصية الغفران والجنات أتبعه بذكر ما يحملهم على فعل الطاعة وعلى التوبة من المعصية وهو تأمل احوال القرون الخالية من المطيعين والعاصين » وإنما هذا الذي قاله بيان لاتصال الآية الأولى من هذه الآيات بما قبلها مباشرة مع صرف النظر عن السياق والاتصال بين مجموع الآيات السابقة واللاحقة

ذكر في الآيات السابقة خبر الوقعة وأهم ما وقع فيها مع التذكير بوقعة بدر وما بشروا به في ذلك . وفي هذه الآيات وما بعدها يذكر السنن والحكم في ذلك ويعلم المؤمنين من علم الاجتماع مالم يكونوا يعلمون ولذلك افتتحها بقوله الحكيم ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾

قال الاستاذ الامام ان بعض المفسرين يجعل الآيتين الاوليين من هذه الآيات تمهيدا لما بعدهما من النهي عن الوهن والحزن وما يتبع ذلك وعلى هذا جرى (الجلال) كأنه يقول ان هذا الذي وقع لا يصح ان يضعف عزائمكم فان السنن التي قد خلت من قبلكم تبين لكم كيف كانت مصارعة الحق للباطل وكيف ابتلي اهل الحق احيانا بالخوف والجوع والانكسار في الحرب ثم كانت العاقبة لهم فانظروا كيف كانت عاقبة المكذبين للرسل المقاومين لهم فانهم كانوا هم المخذولين المغلوبين ، وكان جند الله هم المنصورين الغالبين ، واذا كان الأمر كذلك فلا تهنوا ولا تحزنوا لما أصابكم في أحد

ثم قال مامثاله مع ايضاح وزيادة : هذا رأي ضعيف فان ذكر السنن بعد آيات متعددة ، في موضوعات مختلفة ، تفيد معاني كثيرة . فان الله تعالى نهى المؤمنين عن اتخاذ بطانة من الاعداء الذين بدت لهم بغضاؤهم وبين هو لهم مجامع خبثهم وكيدهم — ثم ذكر النبي والمؤمنين بوقعة أحد وما كان فيها بالاجمال وذكرهم

بنصره لهم ببدر — ثم ذكر المتقين واوصافهم وماوعدوا به — ثم ذكر بعد ذلك كله مضي السنن في الامم وانه بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين فذكر السنن بعد ذلك كله يفيد معاني كثيرة تحتاج الى شرح طويل جدا لا معنى واحداً كما قيل · وان في القرآن من افادة المباني القليلة المعاني الكثيرة بمعونة السياق والاسلوب مالا يخطر في بال احد من كتاب البشر وعلمائهم ومثل هذا مما تجب العناية ببيانه · يقول الشيخ عبد القاهر في دلائل الإعجاز ان كون القرآن معجزا ببلاغته يوجب علينا ان نجعل اسلوبه الذي كان معجزا به فنا ليبقى دالا وجه اعجازه · كذلك اقول ان ارشاد الله ايانا الى ان له في خلقه سننا يوجب علينا ان نجعل هذه السنن علما من العلوم المدونة لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على اكمل وجه فيجب على الامة في مجموعها ان يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد اليها القرآن بالإجمال و بينها العلماء بالتفصيل عملا بارشاده كالتوحيد والاصول والفقه · والعلم بسنن الله تعالى من اهم العلوم وانفعها والقرآن يحيل عليه في مواقع كثيرة وقد دلنا على مأخذه من احوال الامم اذ أمرنا ان نسير في الارض لاجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها · ولا يُحتج علينا بعدم تدوين الصحابة لها فان الصحابة لم يدونوا غير هذا العلم من العلوم الشرعية التي وضعت لها الاصول والقواعد ، وفرعت منها الفروع والمسائل (قال) وانني لاشك في كون الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن وعالمين بمراد الله من ذكرها · يعني انهم بما لهم من معرفة احوال القبائل العربية والشعوب القريبة منهم ومن التجارب والاخبار في الحرب وغيرها و بما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط كانوا يفهمون المراد من سنن الله تعالى و يهتدون بها في حروبهم وفتوحاتهم وسياستهم للامم التي استولوا عليها. لذلك قال وما كانوا عليه من العلم بالتجربة والعمل انفع من العلم النظري المحض وكذلك كانت علومهم كلها ولما اختلفت حالة العصر اختلافا احتاجت معه الامة إلى تدوين علم الاحكام وعلم العقائد وغيرها كانت محتاجة ايضا الى تدوين هذا العلم ولك ان تسميه علم السنن الالهية وعلم الاجتماع أو علم السياسة الدينية. سم بماشئت فلا حرج في التسمية

ثم قال: ومعنى الجملة انظروا الى من تقدمكم من الصالحين والمكذبين فاذا

انتم سلكتم سبيل الصالحين فعاقبتكم كعاقبتهم ، وان سلكتم سبل المكذبين فعاقبتكم كعاقبتهم . وفي هذا تذكير لمن خالف امر النبي (ص) في احد . ففي الآية مجاري أمن ومجاري خوف فهو على بشارته لهم فيها بالنصر وهلاك عدوهم ينذرهم عاقبة الميل عن سننه ويبين لهم انهم اذا ساروا في طريق الضالين من قبلهم فانهم ينتهون الى مثل ماانتهوا اليه فالآية خبر وتشريع ، وفي طيها وعد ووعيد

وأقول السنن جمع سنة وهي الطريقة المعبَّدة والسيرة المتبعة او المثال المتبع . قيل إنها من قولهم سن الماء اذا والى صبه فشبهت العرب الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب فانه لتوالي اجزائه على نهج واحد يكون كالشيء الواحد . ومعنى خلت : ومضت وسلفت . أي إن أمر البشر في اجتماعهم ومايعرض فيه من مصارعة الحق للباطل ومايتبع ذلك من الحرب والنزال والملك والسيادة وغير ذلك قد جرى على طرق قويمة وقواعد ثابتة اقتضاها النظام العام وليس الامر أُنُفاً كما يزعم القدرية ، ولا تحكما واستبداداً كما يتوهم الحشوية ،

جاء ذكر السنن الالهية في مواضع من الكتاب العزيز كقوله في سياق أحكام القتال وما كان في وقعة بدر « ٨ : ٣٨ قل للذين كفروا إن ينتهوا يُغفر لهم ماقدسلف وان يعودوا فقد مضت سنة الاولين » وقوله في سياق احوال الامم مع انبيائهم « ١٥ : ١٣ وقد خلت سنة الاولين » وقوله في سياق دعوة الاسلام « ١٨ : ٥٥ وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الاولين او يأتيهم العذاب قُبُلا » وقوله في مثل هذا السياق « ٣٥ : ٤٣ فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » وصرح في سور اخرى كما صرح هنا بان سننه لا تتبدل ولا تتحول كسورة بني اسرائيل وسورة الاحزاب وسورة الفتح

هذا ارشاد الهي ، لم يعهد في كتاب سماوي ، ولعله أرجئ الى ان يبلغ الانسان كمال استعداده الاجتماعي ، فلم يرد الا في القرآن ، الذي ختم الله به الاديان ،

كان المِلّيون من جميع الاجيال يعتقدون ان افعال الله تعالى في خلقه ، تشبه افعال الحاكم المستبد في حكومته ، المطلق في سلطته ، فهو يحابي بعض الناس فيتجاوز لهم عما يعاقب لاجله غيرهم ، ويثيبهم على العمل الذي لا يقبله من سواهم ، لمجرد

دخولهم في عنوان معين ، وانتمائهم الى نبي مرسل ، وينتقم من بعض الناس لانهم لم يطلق عليهم ذلك العنوان ، أولم يتفق لهم الانتماء الى ذلك الانسان ،

هذا ما كانوا يظنون في دينهم و يسندونه الى مشيئة الله المطلقة ؛ من غير تفكر في حكمته البالغة ، وتطبيقها على سننه العادلة ، فان نبههم منبه الى مايصيبهم بل ماأصاب انبياءهم من البلاء ، قالوا انه تعالى يفعل مايشاء ، وذلك رفع درجات ، او تكفير للسيئات ، وأشباه هذا الكلام الذي يشتبه عليهم حقه بباطله ، ويلتبس حاليه بعاطله ، وقد كان وما زال علة غرور اصحابه بدينهم ، واحتقارهم لكل ماعليه غيرهم ،

فجاء القرآن يبين للناس ان مشيئة الله تعالى في خلقه إنما تنفذ على سنن حكيمة ، وطرائق قويمة ، فمن سار على سننه في الحرب (مثلا) ظفر بمشيئة الله وان كان ملحداً أووثنيا ، ومن تنكبها خسر وان كان صدّيقا أونبيا ، وعلى هذا يتخرج انهزام المسلمين في وقعة أحد حتى وصل المشركون إلى النبي « ص » فشجوا رأسه ، وكسروا سنه ، وردّوه في تلك الحفرة ، كما بينا ذلك في تفسير الآيات السابقة ، وسيأتي بسطه في الآيات اللاحقة ، ولكن المؤمنين الصادقين أجدر الناس بمعرفة سنن الله تعالى في الامم ، وأحق الناس بالسير على طريقها الأَمَم ، لذلك لم يلبث أصحاب النبي « ص » أن ثابوا يومئذ الى رشدهم ، وتراجعوا الى الدفاع عن نبيهم ، وثبتوا حتى انجلى عنهم المشركون ، ولم ينالوا منهم ما كانوا يقصدون ،

وكأن بعض المسلمين لم يكونوا قد حفظوا ما ورد في السور المكية من اثبات سنن الله في خلقه وكونها لاتتبدل ولاتتحول كسورة الحجر و بني اسرائيل والكهف والملائكة « أو فاطر » وهي التي ذكرنا بعضها آنفاً وأشرنا إلى بعض — أو حفظوه ولم يفقهوه ولم يظهر لهم انطباقه على ما وقع لهم في أحد كما يعلم من قوله الآتي « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم » لذلك صرح لهم في بدء الآيات التي تبين لهم سننه ان له سننا عامة جرى عليها نظام الامم من قبل وأن ما وقع لهم مما يقص حكمته عليهم هو مطابق لتلك السنن التي لا تتحول ولا تتبدل

ولما كان التعليم بالقول وحده من غير تطبيق على الواقع ممايُنسي أو يقل الاعتبار

به نبههم على هذا التطبيق في أنفسهم وأرشدهم الى تطبيقه على أحوال الامم الاخرى فقال ﴿ فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ قال الاستاذ الامام أي ان المصارعة بين الحق والباطل قد وقعت من الامم الماضية وكان أهل الحق يغلبون أهل الباطل وينصرون عليهم بالصبر والتقوى (أي اتقاء ما يجب اتقاؤه في الحرب بحسب الزمان والمكان ودرجة استعداد الاعداء) وكان ذلك يجري باسباب مطردة ، وعلى طرائق مستقيمة ، يعلم منها ان صاحب الحق اذا حافظ عليه ينصر ويرث الارض ، وأن من ينحرف عنه ويعيث في الارض فسادا يخذل وتكون عاقبته الدمار ، فسيروا في الارض واستقروا ما حل بالامم ليحصل لكم العلم الصحيح التفصيلي بذلك وهو الذي يحصل به اليقين ويترتب عليه العمل . وقال بعض المفسرين اي لم تصدقوا فسيروا . وهذا قول باطل

قال : والسير في الأرض والبحث من احوال الماضين وتعرُّف ما حل بهم هو الذي يوصل الى معرفة تلك السنن والاعتبار بها كما ينبغي . نعم إن النظر في التاريخ الذي يشرح ما عرفه الذين ساروا في الأرض ورأوا آثار الذين خلوا يعطي الانسان من المعرفة ما يهديه الى تلك السنن ويفيده عظة واعتباراً ولكن دون اعتبار الذي يسير في الأرض بنفسه ويرى الآثار بعينه ولذلك أمر بالسير والنظر . ثم اتبع ذلك بقوله

﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ قال الأستاذ الامام ما مثاله مع زيادة تتخلله . كأنه يقول ان كل إنسان له عقل يعتبر به فهو يفهم أن السير في الأرض يدله على تلك السنن ولكن المؤمن المتقي أجدر بفهمها لأن كتابه أرشده اليها وأجدر كذلك بالاهتداء والاتعاظ بها . وقد بينا في تفسير الفاتحة أن لسير الناس في الحياة سنناً يؤدي بعضها الى الخير والسعادة وبعضها الى الهلاك والشقاء وان من يتبع تلك السنن فلا بد ان ينتهي الى غايتها سواء كان مؤمناً أو كافراً كما قال سيدنا علي : ان هؤلاء قد انتصروا باجتماعهم على باطلهم وخذلتم بتفرقكم عن حقكم . ومن هذه السنن أن اجتماع الناس وتواصلهم وتعاونهم على طلب مصلحة من مصالحهم يكون مع الثبات من أسباب نجاحهم ووصولهم الى مقصدهم سواء كان ما اجتمعوا عليه حقا أو باطلاً ، وإنما يصلون الى مقصدهم بشيء من الحق والخير ويكون ما عندهم من

الباطل قد ثبت باستناده الى مامعهم من الحق وهو فضيلة الاجتماع والتعاون والثبات. فالفضائل لها عماد من الحق فاذا قام رجل بدعوى باطلة ولكن رأى جمهور من الناس انه محق يدعو الى شيء نافع وانه يجب نصره فاجتمعوا عليه ونصروه وثبتوا على ذلك فانهم ينجحون معه بهذه الصفات . ولكن الغالب أن الباطل لا يدوم بل لا يستمر زمنا طويلا لانه ليس له في الواقع ما يؤيده بل له مايقاومه فيكون صاحبه دائما متزلزلا فاذا جاء الحق ووجد أنصارا يجرون على سنة الاجتماع في التعاون والتناصر، ويؤيدون الداعي اليه بالثبات والتعاون، فانه لا يلبث ان يدمغ الباطل وتكون العاقبة لاهله، فان شابت حقهم شائبة من الباطل، أو انحرفوا على سنن الله في تأييده ، فان العاقبة تنذرهم بسوء المصير . فالقرآن يهدينا في مسائل الحرب والتنازع مع غيرنا الى ان نعرف أنفسنا وكنه استعدادنا لنكون على بصيرة من حقنا ومن السير على سنن الله في طلبه وفي حفظه وان نعرف كذلك حال خصمنا ونضع الميزان بيننا وبينه والا كنا غير مهتدين ولا متعظين

واقول إيضاح النكتة في جعل البيان للناس كافة والهدى والموعظة للمتقين خاصة هو بيان أن جريان الامور على السنن المطردة حجة على جميع الناس مؤمنهم وكافرهم تقيهم وفاجرهم فهي تدحض ما وقع للمشركين والمنافقين من الشبهة على الاسلام اذ قالوا لو كان محمد (ص) رسولا من عند الله لما نيل منه. فكأنه يقول لهم ان سنن الله حاكمة على رسله وأنبيائه كما هي حاكمة على سائر خلقه. فما من قائد عسكر يكون في الحالة التي كان عليها المسلمون في احد ويعمل ما عملوا الا وينال منه ، أي لا يخالفه جنده، ويتركون حماية الثغر الذي يؤتون من قبله، ويخلون بين عدوهم وبين ظهورهم، وما يعبر عنه بخط الرجعة من مواقعهم، والعدو مشرف عليهم، الا ويكونون عرضة للانكسار اذا هو كر عليهم من ورائهم، لاسيما اذا كان ذلك بعد فشل وتنازع كما يأتي بيانه فما ذكر من ان لله تعالى سننا في الامم هو بيان لجميع الناس لاستعداد كل عاقل لفهمه ، واضطراره الى قبول الحجة المؤلفة منه .

واما كونه هدى وموعظة للمتقين خاصة فهو انهم هم الذين يهتدون بمثل هذه الحقيقة ، ويتعظون بما ينطق عليها من الوقائع فيستقيمون على الطريقة ، هم الذين

تكمل لهم الفائدة والموعظة ، لانهم يتجنبون ويتقون نتائج الاهمال التي يظهر لهم ان عاقبتها ضارة . فليزن مسلمو هذا الزمان إيمانهم واسلامهم بهذه الآيات ولينظروا اين مكانهم من هدايتها ، وما هو حظهم من موعظتها ،

أما انهم لو فعلوا فبدأوا بالسير في الارض لمعرفة احوال الامم البائدة واسباب هلاكها ، ثم اعتبروا بحال الامم القائمة وبحثوا عن اسباب عزها وثباتها ، لعلموا انهم امسوا من اجهل الناس بسنن الله، وأبعدهم عن معرفة أحوال خلق الله ، ولرأوا ان غيرهم اكثر منهم سيرا في الأرض ، واشد منهم استنباطا لسنن الاجتماع، واعرق منهم في الاعتبار بما أصاب الأولين ، والاتعاظ بجهل المعاصرين ، فهل يليق بمن هذا كتابهم، ان يكون من يسمونه بسمة العداوة له أقرب الى هدايته هذه منهم ؟؟

كلا ان المؤمن بهذا الكتاب هو من يهتدي به ويتعظ بمواعظه ولذلك جعل الهداية والموعظة من شؤون المتقين الثابتة لهم . والمتقون هم المؤمنون القائمون بحقوق الايمان كما قال في اول سورة البقرة « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون » الخ وقد مر وصف المتقين وذكر جزائهم في الآيات التي قبل هاتين الآيتين .وهذا التعبير أبلغ من الأمر بالهدى والموعظة وهو يتضمن الامر بالثبات فيه والحث على المحافظة عليه لانه قوام التقوى التي هي قوام الايمان ولذلك قال بعده

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلون ان كنتم مؤمنين ﴾ الوهن الضعف في العمل وفي الامر وكذا في الرأي . والحزن ألم يعرض للنفس اذا فقدت ما تحب أي لا تضعفوا عن القتال وما يلزمه من التدبير بما اصابكم من الجرح والفشل في أحد ولا تحزنوا على من قتل منكم في ذلك اليوم . ويصح ان يكون هذا النهي إنشاء بمعنى الخبر أي إن ما أصابكم من القرح في أحد ليس مما ينبغي ان يكون موهنا لامركم ومضعفا لكم في عملكم ولا موجبا لحزنكم وانكسار قلوبكم فانه لم يكن نصرا تاماً للمشركين عليكم وانما هو تربية لكم على ما وقع منكم من مخالفة قائدكم (ص) في تدبيره الحربي المحكم وفشلكم وتنازعكم في الامر وذلك خروج عن سنة الله في أسباب الظفر وبهذه التربية تكونوا أحقاء بأن لا تعودوا الى مثل

تلك الذنوب فتكون التربية خيرا لكم من عدمها بل يجب ان تزيدكم المصائب قوة وثباتا بما تربيكم على اتباع سنن الله في الحزم والبصيرة وإحكام العزيمة واستيفاء الاسباب في القتال وغيره وان تعلموا ان الذين قتلوا منكم شهداء وذلك ما كنتم تمنونه (كما سيأتي) فتذكره مما يذهب بالحزن من نفس المؤمن . وهاتان العلتان قدذكرتا في الآية التي بعد هذه . وكيف تهنون وتحزنون وانتم الأعلون بمقتضى سنن الله تعالى في جعل العاقبة للمتقين (الذين يتقون الحيدان عن سننه) وفي نصر من ينصره ويتبع سننه بإحقاق الحق وإقامة العدل ، والمؤمنون أجدر بذلك من الكافرين الذين يقاتلون لمحض البغي والانتقام ، اوالطمع فيما في أيدي الناس ، فهمة الكافرين تكون على قدر مايرمون اليه من الغرض الخسيس ، وما يطلبونه من العرض القريب ، فهي لا تكون كهمة المؤمن الذي غرضه إقامة الحق والعدل في الدنيا ، والسعادة الباقية في الآخرة ، أي ان كنتم مؤمنين بصدق وعد الله بنصر من ينصره وجعل العاقبة للمتقين المتبعين لسننه في نظام الاجتماع بحيث صار هذا الايمان وصفا ثابتا لكم حاكما في ضمائركم وأعمالكم فأنتم الاعلون وان أصابكم ما أصابكم ، واذا كان الامر كذلك فلاتهنوا ولاتحزنوا فان ما أصابكم يعدّكم للتقوى فتستحقون تلك العاقبة وهي علوّ السيادة عليهم . وقيل « ان كنتم مؤمنين » متعلق بالنهي وجملة « وأنتم الاعلون » حال معترضة أي فلا تضعفوا ولا تحزنوا ان كنتم مؤمنين لان من مقتضي الايمان الصبر والثبات والرغبة في إحدى الحسنيين — الظفر أو الشهادة — على ان مجموع الامة موعود بالحسنيين جميعا وإنما يطلب إحداهما الافراد

وقال الاستاذ الامام مامعناه : ان الحزن انما يكون على ما فات الانسان وخسره مما يحبه . وسببه أنه يشعر أنه قدفاته بفوته شيء من قوته وفقد بفقده شيئا من عزيمته أو أعضائه . ذلك بأن صلة الانسان بمحبو باته من المال والمتاع والناس كالأصدقاء وذي القربى تكسبه قوة وتعطيه غبطة وسرورا فاذا هو فقد شيئا منها بلا عوض فانه يعرض لنفسه ألم الحزن الذي يشبه الظلمة ويسمونه كدرا كأن النفس كانت صافية رائقة فجاء ذلك الانفعال فكدرها بما ازال من صفوها . وقد يقال هنا لماذا نهاهم عن الوهن

بما عرض لهم والحزن على مافقدوا في «أحد» وكل من الوهن والحزن كان قد وقع وهو أمر طبيعي في مثل الحال التي كانوا عليها؟ والجواب ان المراد بالنهي ما يمكن ان يتعلق به الكسب من معالجة وجدان النفس بلعمل ولو تكلفا · كأنه يقول انظروا في سنن من قبلكم تجدوا انه ما اجتمع قوم على حق واحكموا أمرهم وأخذوا اهبتهم واعدوا لكل أمر عدته، ولم يظلموا انفسهم في العمل لنصرته، الا وظفروا بماطلبوا، وعوضوا مما خسروا، فحولوا وجوهكم عن جهة ماخسرتم، وولوها جهة ما يستقبلكم، وانهضوا به بالعزيمة والحزم، مع التوكل على الله عز وجل، والحزن إنما يكون على فقد مالا عوض منه وان لكم خير عوض مما فقدتم، وانتم الأعلون برجحانكم عليهم في مجموع الوقعتين — بدر وأحد — اذ الذين قتلوا منهم اكثر من الذين قتلوا منكم، على كثرتهم وقلتكم، او جملة وانتم الأعلون معترضة يراد بها التبشير بما يكون في المستقبل من النصر · وهما قولان للمفسرين · وسواء كانت للتسلية او للبشارة فهي مرتبطة بالايمان الصحيح الذي لاشائبة فيه فإن من اخترق هذا الايمان فؤاده وتمكن من سويدائه، يكون على يقين من العاقبة، بعد الثقة من مراعاة السنن العامة، والاسباب المطردة، ولذلك قال «ان كنتم مؤمنين» ومثل هذا الشرط كثير في القرآن وهو ليس للشك وانما يراد به تنبيه المؤمن الى حاله، ومحاسبة نفسه على أعماله،

قال الاستاذ الامام في الدرس : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الخميس الماضية (غرة ذي القعدة سنة ١٣٢٠) في الرؤيا منصرفاً مع أصحابه من أحد وهو يقول «لو خيرت بين النصر والهزيمة لاخترت الهزيمة» أي لما في الهزيمة من التأديب الإلهي للمؤمنين وتعليمهم أن يأخذوا بالاحتياط ولا يغتروا بشيء يشغلهم عن الاستعداد وتسديد النظر وأخذ الأهبة وغير ذلك من الاسباب والسنن

ثم بين تعالى وجه جدارتهم بأن لا يهنوا ولا يحزنوا فقال ﴿ ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عياش عن عاصم «قرح» بضم القاف والباقون بفتحها · قال كثير من المفسرين ان القرح بالفتح والضم واحد فهو «كالضعف» فيه اللغتان ومعناه الجرح وقال بعضهم ان القرح بالفتح هو الجراح و بالضم أثرها وألمها · ورجح ابن جرير قراءة الفتح قال «لإجماع اهل التأويل على ان معناه القتل

والجراح فذلك يدل على ان القراءة هي بالفتح وكان بعض اهل العربية يزعم ان القَرح والقُرح لغتان بمعنى واحد والمعروف عند اهل العلم بكلام العرب ماقلنا » اي من ان القرح بالفتح يشمل الجرح والقتل ويؤيده انه هو الذي حصل. وفي لسان العرب « القَرح والقرح لغتان عض السلاح ونحوه مما يجرح الجسد وقيل القَرح الآثار والقُرح الالم » أقول واذا كان الاصل فيه عض السلاح وتأثيره فلا غرو أن يشمل القتل والجرح وابن جرير ثقة في نقله عن أهل العربية كنقله عن اهل العلم بالتفسير وغيره ولكن ليس له ان يمنع كون القراءتين لغتين في هذا المعنى . ونقل الرازي ان الفتح لغة تهامة والحجاز والضم لغة نجد . و « يمسسكم » من المس قال ابن عباس معناه يصبكم . قال الاستاذ الامام عبر بالمضارع بدل الماضي فلم يقل « ان مسكم قرح » ليحضر صورة المس في اذهان المخاطبين

أقول والمعنى ان يكن السلاح قد عضكم وعمل فيكم عمله يوم أحد فقد أصاب المشركين ايضا مثل ماأصابكم في ذلك اليوم أو في يوم بدر . واعترض على الاول بان قرح المشركين يوم أحد لم يكن مثل قرح المؤمنين . واجاب في الكشاف عن هذا فقال: بلى كان مثله ولقد قتل يومئذ خلق من الكفار ألاترى الى قوله « ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه » الآية وستأتي . أقول وهذا هو الذي اخترناه كما تقدم في ملخص القصة اي ان المشركين قد أصيبوا بمثل ماأصيب به المؤمنون يوم أحد ولم يكونوا غالبين . وقال الاستاذ الامام ان اعتبار المساواة في المثل من التدقيق الفلسفي الذي لم تكن تقصده العرب في مثل هذه العبارة وهذ القول صحيح على كل تقدير.

﴿ وتلك الايام نداولها بين الناس ﴾ الأيام جمع يوم وهو في أصل اللغة بمعنى الزمن والوقت فالمراد بالأيام هنا أزمنة الظفر والفوز . ونداولها بينهم نصرّفها فنديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء فالمداولة بمعنى المعاورة يقال داولت الشيء بينهم فتداولوه تكون الدولة فيه لهؤلاء مرة وهؤلاء مرة، ودالت الايام دارت. والمعنى ان مداولة الايام سنة من سنن الله في الاجتماع البشري فلا غرو ان تكون الدولة مرة للمبطل ومرة للمحق وانما المضمون لصاحب الحق ان تكون العاقبة له وإنما الاعمال بالخواتيم

قال الاستاذ الامام هذه قاعدة كقاعده « قد خلت من قبلكم سنن » اي

هذه سنة من تلك السنن وهي ظاهرة بين الناس بصرف النظر عن المحقين والمبطلين والمداولة في الواقع تكون مبنية على أعمال الناس فلا تكون الدولة لفريق دون آخر جزافا وانما تكون لمن عرف أسبابها ورعاها حق رعايتها . أي اذا علمتم ان ذلك سنة فعليكم ان لا تهنوا وتضعفوا بما اصابكم لانكم تعلمون ان الدولة تدول. والعبارة تومئ الى شيء مطوي كان معلوما لهم وهو ان لكل دولة سبب فكأنه قال اذا كانت المداولة منوطة بالاعمال التي تفضي اليها كالاجتماع والثبات وصحة النظر وقوة العزيمة وأخذ الاهبة واعداد ما يستطاع من القوة فعليكم ان تقوموا بهذه الاعمال وتحكموها أتم الإحكام . وفي الجملة من الايجاز وجمع المعاني الكثيرة في الالفاظ القليلة ما لا يعهد مثله في غير القرآن

ثم قال عز وجل ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ﴾ أي فعل ذلك ليقيم سنته في مداولة الأيام وليعلم الذين آمنوا من الذين نافقوا وقالوا «لو نعلم قتالاً لاتبعناكم» أي يميزهم منهم . وقد تقدم ذكرهم في اجمال القصة وسيأتي ذكر لهم في الآيات فهو معطوف على محذوف تذهب العقول في تعيينه كل مذهب ، وتبحث عن حقيقته في كل فج ، أو تلتمسه في فوائد قاعدة جعل الايام دولا بين الناس، وعدم حصر الظفر والنصر في قوم دون قوم، فكل ما وجدته يصلح حكمة وعلة لهذه القاعدة عدته من المطوي المحذوف. وأعمه ما أشرنا اليه آنفا وهو ان يقال في التقدير: وتلك الايام نداولها بين الناس ليقوم بذلك العدل ويستقر النظام ، ويعلم الناظر في السنن العامة ، والباحث في الحكمة الإلهية البالغة ، انه لا محاباة في هذه المداولة ، وليعلم الذين آمنوا منكم ، لأن الجهاد الاجتماعي الذي يُدال به قوم على قوم مما يظهر ويتميز به الايمان الصحيح من غيره

وقال في الكشاف « فيه وجهان احدهما ان يكون المعلل محذوفاً معناه : وليتميز الثابتون على الايمان من الذين على حرف فعلنا ذلك . وهو من باب التمثيل بمعنى فعلنا ذلك فعل من يريد ان يعلم من الثابت منكم على الايمان من غير الثابت والا فان الله عز وجل لم يزل عالما بالاشياء قبل كونها . وقيل معناه : ليعلمهم علما يتعلق به الجزاء وهو ان يعلمهم موجودا منهم الثبات . والثاني ان تكون العلة محذوفه وهذا عطف عليه معناه وفعلنا ذلك (أي مداولة الايام) ليكون كيت وكيت (أي

من المصالح) وليعلم الله . وإنما حذف للايذان بأن المصلحة فيما فعل ليست بواحدة ليسليهم عما جرى عليهم وليبصرهم ان العبد يسوءه ما يجري عليه من المصائب ولا يشعر أن لله في ذلك من المصالح ما هو غافل عنه » إهـ وجعل ابن جرير التقدير هكذا : وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء نداولها بين الناس . وقد تقدم مثل هذا التعبير (١) في سورة البقرة ووجه الاشكال فيه وقول الاستاذ الامام ان المراد بعلم الله فيه علم عباده وانهم يفسرونه بعلم الظهور أي ليظهر علمه بذلك وقال هنا موضحاً قول الجمهور ، ان المراد بالعلم علم الظهور ، : قالوا ان العلم بالشيء على انه سيقع ثابت في الأزل فاذا وقع ذلك الشيء حصل تغير في ذلك المعلوم فصار حالاً بعد ان كان مستقبلا فهل تعلق العلم به عند الوقوع هو عين تعلقه به من الازل الى قبيل وقوعه ؟ قال الحكماء إن الزمن ليس بشيء بالنسبة الى الله فليس هناك تقدم ولا تأخر ولا متقدم ولا متأخر فتعلق العلم بالعلوم واحد في الأزل والأبد . فعلى هذا القول يكون معنى « ليعلم الله » ليظهر علمه للناس بظهور المعلوم لهم فهو كقوله « ليميز الله الخبيث من الطيب » أي يعلم الناس ذلك ويميزونه .

واما جمهور المتكلمين فيقولون ان الله تعالى يعلم كل شيء ازلا وأبدا ولكن تعلق علمه بالاشياء على انها ستقع غير تعلق علمه بها وهي واقعة فذلك علم غير ظاهر فيه المعلوم في الوجود وهذا علم ظهر متعلقه ووجد . والمراد بقوله « ليعلم » الثاني . أقول وكنت أقرر هذه المسألة من قبل على هذا الوجه واعبر تارة بعلم الغيب وعلم الشهادة مفسراً علم الغيب بما لم يوجد فيه المعلوم وعلم الشهادة بما ظهر فيه المعلوم ووجد . وذكرت ذلك للاستاذ في الدرس فقال انهم يريدون بعلم الغيب والشهادة معنى آخر وكنت عازما على مراجعته في ذلك بعد الدرس فنسيت . ثم قال : ان العبارة ظاهرة الصحة وإيهام تجدّد العلم الالهي مدفوع ولكن ما النكتة في اختيار هذه العبارة وامثالها كقوله في الآية التي بعد هذه الآية « ولما يعلم الله الذين آمنوا » ولم لم يبين المراد بعبارة لا إيهام فيها ؟ قال ما نصه « النكتة بيان ان العلم اذا لم يصدقه العمل لا يعتدّ به » و بيان ذلك ان الانسان كثيرا ما يتصور الشيء ويحكم بصحته فيرى انه يعتقده ولكن اذا عرض العمل كذبه في اعتقاده وتبين أنه لم يكن

(١) راجع ص ٨ ج ٢ من التفسير

متحققا به وانما كان صورة انطبعت في مخه مع الغفلة عما يعارضها من سائر عقائده المتمكنة التي لها سلطان على وجدانه وأثر في عمله واخلاقه وعاداته التي تجري عليها اعماله . مثال ذلك ان بعض الناس تحدثه نفسه بأنه شجاع و يعتقد ذلك لعدم وجود ما يعارضه في نفسه حتى اذا ما عرض له ما تظهر به حقيقة الشجاعة بالفعل من الحاجة الى ركوب الخطر وخوض غمرات الموت دفاعا عن الحق او الحقيقة جبن وجزع وظهر غروره بنفسه وانخداعه لوهمه. ومثله من تحدثه نفسه بأنه لقوة إيمانه عظيم الثقة بالله والتوكل عليه، حتى تظهر الحوادث والوقائع انه هلوع اذا مسه الشر كان جزوعاً، واذا مسه الخير كان منوعاً ، لا يثق بربه ولا بنفسه. فأراد تعالى ان يرشدنا بقوله « ليعلم» الى ان العلم لا يكون علما والايمان لا يكون إيماناً الا اذا صدقهما العمل وظهر أثرهما بالفعل فكأنه قال ليتبين الذين آمنوا على طريق التمثيل. اقول واظهر من هذا في تقرير هذا الوجه ان يقال ان علم الله تعالى لا يكون الا مطابقا للواقع فما لا يعلمه تعالى هو الذي ليس له حقيقة ثابتة وكل ماله حقيقة ثابتة فلابد ان يكون معلوماً له تعالى فيكون معنى «ليعلم الله الذين آمنوا » ليثبت و يتحقق بالفعل إيمان الذين آمنوا أوصدقهم في إيمانهم . فانه متى ثبت وتحقق كان الله عالماً به على انه حقيقة ثابتة . فأطلق احد المتلازمين وأراد به الآخر على طريق المجاز المرسل

واما قوله ﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ ففيه وجهان احدهما انه من الشهادة في القتال وهي ان يقتل المؤمن في سبيل الله اي مدافعاً عن الحق قاصداً إعلاء كلمته .والثاني انه من الشهادة على الناس بالمعنى الذي تقدم في قوله عز وجل (٢: ١٤٣ لتكونوا شهداء على الناس) « ١ » والأول هو الذي يسبق الى الذهن في هذا المقام . وإنما سمي هؤلاء المقتولون شهداء لأنهم يشاهدون بعد الموت من الملكوت ونعيمه مالا يكون لغيرهم(٢) أو لأنهم ببذل أنفسهم في سبيل الله يكونون من الشهداء على الناس يوم القيامة بالمعنى المشار اليه آنفا اولانه مشهود لهم بالجنة او لان الملائكة تشهد موتهم . أقوال

وقوله ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ جملة معترضة مسوقة لبيان أن الشهداء يكونون

---

(١) راجع ص ٣ ج ٢ من التفسير (٢) راجع ص ٣٩ منه آيضا

ممن خلصوا لله واخلصوا في إيمانهم وأعمالهم فلم يظلموا أنفسهم بمخالفة الأمر اوالنهي، ولا بالخروج عن سنن الله في الخلق ، وانه تعالى لا يصطفي للشهادة الظالمين ما داموا على ظلمهم ، وفي ذلك بشارة للمتقين ، وإنذار للمقصرين ، فالناس قبل الابتلاء بالمحن والفتن يكونون سواء فاذا ابتلوا تبين المخلص والصادق ، والظالم والمنافق ، وما أسهل ادعاء الاخلاص والصدق اذا كانت آياتهما مجهولة. فبيان السبب مؤدب للمقصرين ، وقاطع لألسنة المدعين ، إلا ان يكونوا مع الاغبياء الجاهلين ،

أقول وفيه أيضاً أن اعداءهم من المشركين لا يحبهم الله اي لا يعاملهم معاملة المحب للمحبوب لأنهم يظلمون أنفسهم و يسفهونها بعبادة المخلوقات ، واجتراح السيئات ، و يظلمون غيرهم بالفساد في الأرض ، والبغي على الناس ، وهضم حقوقهم ، والظالم لا تدوم له سلطة ، ولا تثبت له دولة ، فاذا اصاب غرة من أهل الحق والعدل ، فكانت له دولة في حرب او حكم ، فانما تكون دولته سريعة الزوال ، قريبة الانحلال والاضمحلال ،

ثم قال تعالى ﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ قال في الاساس محص الشيء محصاً ومحصه تمحيصا خلصه من كل عيب ، ومحص الذهب بالنار خلصه مما يشوبه. ثم قال: ومن المجاز محص الله التائب من الذنوب ومحص قلبه، وتمحصت ذنوبه ، وتمحصت الظلماء تكشفت ، قال

حتى بدت قمراؤه وتمحصت   ظلماؤه ورأى الطريق المبصر

أقول وأصل المحق النقصان كما قال الراغب ومنه المحاق لآخر الشهر وقال في الأساس « محق الشيء محاه وذهب به . . وسمعتهم يقولون في كل شيء لا يحسن الانسان عمله قد محقه ويقولون للهلكة المحقة » .قال بعض المفسرين ان تمحيص المؤمنين عبارة عن تكفير ذنوبهم ومحو سيئاتهم وعبر عنه بعضهم بالتطهير والتزكية. وروي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما من السلف تفسير التمحيص بالابتلاء والاختبار وكأنه بيان لمبدإه دون غايته .وقال بعضهم يمحص الله بالمصائب ذنوب المؤمنين، ويمحق نفوس الكافرين ، ورد الاستاذ قول من قال ان التمحيص تكفير الذنوب بأن المعهود من القرآن التعبير عن هذا المعنى بالتكفير وان للتمحيص هنا معنى آخر يتفق مع ما

قاله بعض المفسرين في جملته لا في تصويره . وصوره هو بنحو ما يأتي

كل انسان يحكم لنفسه في نفسه بأمور كثيرة يصدقه فيها الحق الواقع او يكذبه فالمعتقد حقيَّة الدين قد يتصور وقت الرخاء انه يسهل عليه بذل ماله ونفسه في سبيل الله ليحفظ شرف دينه ويدفع عنه كيد المعتدين فاذا جاء البأس ظهر له من نفسه خلاف ما كان يتصور (وتقدم الكلام في هذه المسألة آنفا) . فالانسان يلتبس عليه امر نفسه فلا يتجلى كمال التجلي الا بالتجارب الكثيرة والامتحان بالشدائد العظيمة فالتجارب والشدائد كتمحيص الذهب يظهر به زيفه ونضاره . ثم انها ايضا تنفي خبثه وزغله . كذلك كان الامر في أحد : تميز المؤمنون الصادقون من المنافقين ، وتطهرت نفوس بعض ضعفاء المؤمنين من كدورتها فصارت تبرا خالصا ،وهؤلاء هم الذين خالفوا أمر النبي (ص) وطمعوا في الغنيمة والذين انهزموا وولوا وهم مدبرون، محص الجميع بتلك الشدة فعلموا ان المسلم ماخلق ليلهو ويلعب،ولا ليكسل ويتواكل ، ولا لينال الظفر والسيادة بخوارق العادات، وتبديل سنن الله في المخلوقات، بل خلق ليكون أكثر الناس جداً في العمل ، وأشدهم محافظة على النواميس والسنن ،(أقول) وقد تجلى أثر هذا التمحيص أكمل التجلي في غزوة حمراء الاسد اذ أمر النبي(ص) ان لا يتبع المشركين فيها الا من شهد القتال بأحد فامتثلوا الأمر بقلوب مطمئنة وعزائم شديدة وهم على ماهم من تبريح الجراح بهم كما تقدم بيانه . فليعتبر بهذا مسلمو هذا الزمان،وليعلموا ماهو مقدار حظهم من الاسلام والايمان ،

واما محق الكافرين بالشدائد فليس معناه فناؤهم وهلاكهم وإنما هو اليأس يسطو عليهم ، وفقد الرجاء يذهب بعزائمهم، (لعدم الايمان الذي يثبت قلوب أصحابه في الشدائد) حتي يذهب ما كان قد بقي من نور الفضيلة في نفوسهم،فلا تبقى لهم شجاعة ولا بأس، ولا شيء من عزة النفس ، فيكون أحدهم كالهلال في المحاق لا نور له، بل يكون وجوده كالعدم لأنه لا أثر له ولا فائدة فيه ، فذلك محقه اذا غُلب على أمره . واذا هو انتصر طغى وتجبر ، و بغى وظلم ، وذلك محق معنوي، تكون عاقبته المحق الصوري ، كذلك لا يثبت للكافرين المبطلين ، وجود مع المؤمنين الصادقين، وإنما يبقون ظاهرين اذا لم يظهر من أهل الحق والعدل من ينازعهم و يقاوم باطلهم

الجمعة

٢٥ جمادى الآخرة ١١ تموز « ٢٤ يوليو »

عيد الامة العثمانية ، بنعمة الدستور والحرية

في هذا اليوم السعيد استعاد العثمانيون قانونهم الاساسي ومجلس الامة الذي يكفله ، استعادوهما بسعي الاحرار ، وتعزيز الجيش الجرار ، فهو عيد الامة العثمانية على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها

في هذا اليوم استنشق العثمانيون نسيم الحياة السياسية والاجتماعية ، وذاقوا حلاوة طعم الحرية ، فكان مثلهم كالمصاب بداء عضال عادت عليه صحته على حين فجأة فكان قدر الحياة عنده عظيما

في هذا اليوم شعر العثمانيون كلهم بأنهم أحرار في بلادهم ، يتمتعون بما وهبهم الله من القوى العقلية والمشاعر والاعضاء ، ويستعملون استعدادهم الفطري فيما خلق له من العلم والعمل ، لا يستبد في عملهم مستبد جائر ، ولا يستعبدهم حاكم قاهر ، فكان رجاؤهم فى الارتقاء كبيرا

فى هذا اليوم أمن العثمانيون على حياتهم وشرفهم وأموالهم من حرث ونسل وتجارة وصناعة ، فتوجهت نفوسهم الى الكسب الذي يرفه معيشتهم ، وبه تنمو ثروتهم وتنتظم مالية دولتهم ،

في هذا اليوم أحسّ العثمانيون بأنهم أمة لهم حقوق على دولتهم ، ومصالح يقوم عليها بناء وحدتهم ، وعليهم فروض وواجبات يؤدونها لحكومتهم ، ولهم قانون يساوي بينهم فى معاملاتهم ، وان لهم بذلك كله جنسية جامعة لهم على اختلاف انسابهم ولغاتهم ، وتباين مذاهبهم ودياناتهم

فى هذا اليوم وجد العثمانيون عاطفة الإخاء والوداد ، وجاذبة الولاء والاتحاد ،

فصافح المسلم النصراني،وصالح الكردي الارمني،وعانق التركي العربي،بل امتزجت العناصر كلها فى بوتقة القانون الاساسي فكانت كسبيكة واحدة من الذهب لازغل فيها ولا صدأ عليها

فى هذا اليوم استراح العثمانيون من ثقل وطأة الجواسيس ، وأمنوا شرورعمال السعاية والتلبيس ، وعلموا انه لا يخشى عليهم إلا من سوء اعمالهم ، ولا يظلمون الا من قبل أنفسهم .

فى هدا اليوم نفض العثمانيون غبار الذل عن رءوسهم ، وألقوا أوزار المسكنة عن كواهلهم، وطردوا غول الفقر الذي نزل فى ربوعهم ، وهزموا جند اليأس الذي حل بين ضلوعهم ، وهبت عليهم نفحات الرجاء ببقاء شوكة دولتهم نافذة قوية ، وارتقاء بلادهم فى معارج العلم والمدنية

فى هذا اليوم انشأ العثمانيون المشتتون فى اطراف البلاد ،والهائمون من الخوف والاضطهاد فى كل واد، يحنون الى بلادهم التي هي خير بقاع الارض تربة وأطيبها هواء،وأعذبها ماء، ويشتاقون الى أهلها الذين هم أطيب الناس عنصراً ، وأكرمهم جوهرا ،وأشدهم مودة وعطفا،وأسخاهم نفسا وكفا،وسيعودون اليها زرافات ووحدانا، رجالا أو ركبانا، وكانوا قد زهدوا فيها كارهين، وهجروا أهلها مكرهين

في هذا اليوم تستعد السجون المظلمة، والصحاري المقفرة، والجزائر المنفردة، لرد ماأودع فيها من الاحرار الاخيار، الذين حاربوا الظلم، وواثبوا الاستبداد ، ونشدوا القانون والحرية ، ودعوا الى العدل والمدنية ،فمزقت الحكومة الشخصية المطلقة شملهم ونكلت بهم تنكيلا

في هذا اليوم يخفق قلب المملكة العثمانية شوقا الى لقاء ابنائها الاحرار الابرار الذين طوحت بهم السياسة فأبعدتهم عن أمتهم ، في أشد اوقاتها حاجة الى خدمتهم ، وترجو ان يشتد بعودتهم اليها أزرها ، ويستقيم امرها ، حتى تفاخر اعظم البلاد مدنية وعمرانا ،

في هـذا اليوم تبتسم ثغور البلاد العثمانية ويتهلل وجه بُرُدها بلقاء كتب العلم النافعة ، وصحف الافكار المنيرة ، والاخبار الصحيحة ، التي كان الاستبداد قد قضى

عليها بان تستقبلها عابسة باسرة ، ثم تجعلها وقوداً للنار ، و بئس القرار ،

في هذا اليوم انشأت أفكار العثمانيين تجول في ميادين الاعمال الادبية ، والمصالح السياسية والمالية ، والآمال ملء قلوبهم ، والرجاء ينير السبل امامهم ،

في هذا اليوم تنحل عُقُل الاقلام ، فتجري على صفحات المهارق ، وتنجلي سحب العقول والافهام ، فتشرق شموسها على عالم الحقائق ، وينكسر قفص الفكر والخيال ، فتغرد طيورهما في فضاء الرقائق ، فيتباري العقلاء المستقلون ، والكتاب المنشئون ، والشعراء المبدعون ، وكلٌّ في فلك الحرية يسبحون ،

في هذا اليوم تقر في البلاد العثمانية عين الاسلام ، بما يسرُّ به جميع اهل الاديان ، من الحرية التي تظهر فيها الحجة وتدحض الشبهة ، ويتميز بها صاحب السنة من صاحب البدعة ، ويكون كله الدين لله ، لا للسلطة ولا للجاه ، فبالحرية تنكشف الحقائق ، ويُزَيَّلُ بين الصادق والمنافق ، ويقذف بالحق على الباطل فاذا هو زاهق ،

الفضل في هذه المزايا الكثيرة التي نلناها في هذا اليوم لجمعياتنا السياسية العاملة ، ولضباطنا ذوي النباهة والغيرة والحمية والبسالة ، الذين اتحدوا مع اخوانهم السياسيين ، وانذروا الاستبداد بالوثبان عليه ، والقضاء على سلطته بقوة السلاح ، اذا لم تنل الامة مطلبها مع حفظ الارواح

فالواجب على هذه الجمعيات المدبرة ، والقوة المنفذة ، ان تكفل الدستور الذي نالته الامة ، حتى تأمن عليه من دسائس اعوان الاستبداد ، الذين قاموا بتنظيم حكومة الجواسيس اعظم قيام ، واول عمل يجب عليها هو السعي لإبعاد أعوان الاستبداد عن دار السلطنة — لا عن دار السلطان فقط — ومحاكمة من يمكن ان يسترد منهم العدل ، ما وهبهم الجور والظلم ، وتشكيل وزارة حرة تقوم باعباء السلطنة ، وتنتقي الولاة والمتصرفين والقضاة ورؤساء العدلية من اخيار الاحرار ، الذين يرجى ان تصلح بهم الادارة و يستقيم القضاء ، و يحفظ الامن و يستقر العدل ، لتندفع الامة الى الاعمال النافعة في ظل الحرية الظليل . ثم العناية بامر انتخاب نوّاب الامة بانتداب عقلاء الاحرار في كل ولاية إلى تنبيه أهلها لخيار رجالهم المعروفين بالاستقامة والاستقلال والحرية

اذا نحن كفينا شر المستبدين الاولين ، ونلنا وزارة من الاحرار المستقلين ،

فالواجب علينا ان نقف عند هذا الحد من المطالب في العاصمة ، وتعود السيوف الى اغمادها ، وتنصرف الضباط الى سابق شأنها ، مع احكام الروابط الخفية ، بينها و بين الجمعيات السياسية ، ويتوجه الاحرار الى إصلاح حال المملكة ، بجميع الوسائل الممكنة ،

والحذر الحذر ، من عواقب نشوة الظفر ، الحذر الحذر من إهانة شخص السلطان ، والتسلق الى عرشه بالبغي والعدوان ، فما دام السلطان مستويا على عرشه فهو رئيس الامة ومرجع سلطتها ، ومنفذ قوانينها وشريعتها ، والوزارة هي الواسطة بينها و بينه ، فاعتداء المرءوس على الرئيس بإدلال القوة ، دون القانون والشريعة ، مجلبة للفوضى ومدعاة للخلل ، ويخشى في مثل الحال التي نحن فيها ان يفضي الى الخطر

أيّ الامرين خير؟ أأن يعتقد السلطان ان ما صار اليه ، خير مما كان عليه ، أم العكس ؟ أأن يرى ان أولئك الذين كانوا يُدَلونه بغرور ، ويمدونه في تلك الوساوس والأمور ، قد اخلصوا النصح له ، وحفظوا شخصه وسلطته ، أم أن براهم قد خدعوه وغشوه ، واستغلوا ما رأوه من الضعف البشريّ فيه ، فبغضوا اليه أمته الكريمة ، وزينوا له محاربة حريتها بما أوتيه من الذكاء والعزيمة ، وحببوا اليه التجسس والاستبداد ، وقبحوا في نظره الهدى والرشاد ، ؟

اذا كان من المعقول ان السلطان يحب السلطة المطلقة ويؤثرها ، فليس من المعقول ان يريد السلطان بالدولة أو الأمة السوء ويكره لها الخير . وكل ما جرى من السوء في تلك السنين النحسات فان أسبابه وعلله ترجع الى أمر واحد وهو خوف السلطان على نفسه وعلى منصبه من أحرار أمته ، وتبع ذلك اعتقاده ان أولئك الاشرار الذين اصطفاهم هم حماته والمخلصون له — وهم غير مخلصين الا لبطونهم ملأها الله نارا — فاذا رأى اليوم نجباء الاحرار محيطين به من كل جانب ، وقابضين على زمام السلطة والقوة ، ولم ير منهم الا الأدب والكمال ، والعمل بالاخلاص ، ألا يقول في نفسه : اذا كانت هذه سيرة هؤلاء معي بعد ان نكلت بهم تنكيلا ، ومزقتهم في الارض كل ممزّق ، فليت شعري كيف كانوا يكونون معي لو سرت معهم من أول الامر على الدستور؟ وكيف كان تقدم المملكة الآن ؟ ؟

ان الحكومة الجديدة لا تستغني عن تجارب هذا السلطان ، وعن ذكائه الذي تضرب به الامثال ، وعن براعته في حل المشاكل السياسية ، لا سيما في السياسة الخارجية ، وليس بينها و بين الاستفادة منه ، الا أن يأمن هو لها وتخلص هي له ،

ان افضل مانفاخر به الآن هو اننا نلنا الدستور من غير اراقة للدماء، ولا إيقاع البلاد في فوضى الثورة، ولا غير ذلك مما يذم و يكره ، فيجب ان نحافظ على هذه الفضيلة، وان لا نرتكب في طلب الفرع ، ماعصمنا الله منه في طلب الاصل ، فعسى ان يكون تاريخنا في هذا الطور من الحياة انظف من تواريخ جيراننا فيه

اذا نحن اقتحمنا عقبة هذا الانقلاب بهدوء وسكينة فان رجاءنا في اقتحام ماوراءها من العقبات يكون أقوى ، وأملنا في مجلس الامة يكون اعظم

نعم ان أمامنا عقبات كثيرة منها مايتوقع من مقاومة بعض الحكام الظالمين للحرية الجميلة التي يرقص لها طلاب الدستور طربا ، و يهيمون بها شغفا ، ومنها ماهو اقرب الى الوقوع كالنزاع بين الاحرار المستقلين ، و بين المتعصبين والمقلدين ، ومنها مسألة تكوّن الجنسية العثمانية، وما يقف في طريقها من جنسيات الشعوب التي يتألف منها جسم الدولة العلية ، فمن المطالب بالنظر في ذلك ؟

وان امامنا من مشكلات المسائل الأدبية مايلي المسائل السياسية في استرعاء همتنا، واستدعاء عنايتنا ، فان الحرية التي فاجأت بلادنا،ستعبث بأخلاقنا وآدابنا ، وتحدث شيئاً من التفرق بين جمعياتنا وافرادنا ، فمن يجني ورد الحرية لابد له من توطين النفس لو خز شوكها، ومن يشتار عسلها ، لامندوحة له عن التعرض لإبر نحلها ، فمن المطالب بتلافي ذلك ليعظم النفع ويقل الضرر ؟

هذا ولا تنس المسائل الاقتصادية فان الحرية ماحات في بلاد كبلادنا خصبة التربة جيدة الانبات،غنية بالمعادن والغابات،قابلة لرواج التجارة وللصناعات ، الا وتدفقت عليها اموال اوربا لاجل استثمارها فيها ، وهناك من أبواب الرجاء للبلاد والخوف عليها مالا يفطن له الآن في الامة الا افراد من الناس. فمن المطالب بتنبيه الامة إلى طرق الثروة الطبيعية مع حفظ رقبة بلادها ، والحذر من قضاء الديون الاجنبية عليها ؟ ؟

أليس المطالبون بكل ماسألنا عنه هم أهل العلم والرأي من الاحرار الذين يعرفون

كيف يسعد البشر بالحرية ويتمتعون بثمارها ، ويستضيئون بانوارها مع الأمن من نارها ، ؟ اليس هم المرجوون لتوحيد الجنسية ، وحفظ الآداب القومية ، والمقومات الملية ، وتأليف الشركات الاهلية ، وانشاء الجرائد الوطنية ، للسير بالامة الى مافيه خيرها بالعلم والعمل ؟ بلى انهم لهم المطالبون بكل شيء ، فلا ينبغي ان تشغلهم المسائل السياسية عن كل شيء

يتساءل بعض الناس بينهم هل الدستور العثماني فى هذه الكرة مكفول مضمون؟ هل السلطان مقتنع بأن تنفيذه خير من تعطيله ؟ هل طالب أولئك الضباط به لمحض المصلحة العامة، أم لهم اغراض شخصية يسعون اليها ، فتبرد نيران حميتهم إذا هم نالوها ، ألا يخشي ان يتفرق شملهم بعد ان يسكن الاضطراب، ثم يحال بينهم و بين إمكان التألب مرة أخرى ، فتأمن السلطة العليا من المعارضة بالقوة إذا هي ألغت الدستور مرة أخرى ؟

نسمع هذا الكلام وامثاله من بعض العثمانيين الناطقين بالعربية بل نسمع من بعضهم ما هو أدل على سوء الظن باستعدادنا الحاضر ومستقبلنا الآتي: نسمع منهم ان السلطان يقدر متى شاء ان يلغي الدستور كما ألغاه أول مرة ، ويمنع الحرية وان كان لم يمنحها الآن مريداً مختاراً راضياً ، ولكننا لا نسمع مثل هذه الاقوال من الناطقين بالتركية وان لم يكونوا تركاً . ذلك بان هؤلاء أعلم بحال مجموع الامة والدولة وبما وصلت اليه من الاستعداد الذي هو في الترك أقوى منه فى سائر الشعوب العثمانية

يظن بعض أهل الدثّ والرجم أن جمعيات الاحرار العثمانية قد عنّ لها في هذه الايام ان تستخدم استياء بعض الضباط المتبرمين من سوء حالهم ، وارتقاء من دونهم عليهم ، ففعلت فنجحت، فما عند الضباط من نزعة الحرية والدستور، عرض ربما يزول ، لست أيها الظانُّ بالضباط ظنّ السوء بالغيدار (الذي يظن السوء فيصيب) فاعلم ان ضباطنا من أركان جمعياتنا السرية منذ وجدت والسلطان يعلم هذا عين اليقين ولهذا كان منهم الجمّ الغفير من المنفيين والمسجونين والاجئين الى بلاد الحرية (أوربا ومصر) وما كان السلطان كارها لمحاربة اليونان ومجتهداً في منعها

إلا خوفا من عاقبة اجتماع كثير من الضباط في كتائبهم وتوابيرهم المستعدة للحرب على مقربة من الاستانة

أبشروا أيها المتطيرون ، فان الأمر على غير ما تظنون ، إن الأمة مستعدة لما نالت وان كان الاستعداد في الاناضول أضعف من الاستعداد في الروملي ، وفي الولايات العربية ، دون الولايات التركية ، والسبب في هذا ظاهر جلي .

الفرق بين الماضي والحاضر كالفرق بين الليل والنهار ، أو الظلمة والنور، أو الظل والحرور، أو الحق والباطل، أو العلم والجهل، أو القوة والضعف

أرأيت مسلمي الاناضول الذين هم أشد من فلاحي روسيا تقديساً للسلطة والسلطان ، الذين حدثني عنهم محمود باشا داماد « رحمه الله » أنهم يعتقدون ان خلق السلطان مخالف لخلق سائر البشر : لحيته خضراء ووجهه يتدفق بالنور . إن هؤلاء الاغرار السذج قد استعدوا للثورة وقد ظهرت في بعض بلادهم بوادرها فكانت حكومة الجواسيس الساقطة تحشد في بعض بلادهم الجند والناس يظنون أنها تحشده استعداداً لمحاربة الروسية ، ولولا الاعتماد على الصباط لأشعل الاحرار نار الثورة الأهلية في الامة ، فكان عملهم عمل اليأس يرجى خيره ، ولا يؤمن شره ، فللضباط الشكر والثناء الحسن ، بما كفوها عاقبة تلك الفتن ،

الحق أقول انه لا يخشى علينا من سلب الحرية ، وإنما يخشى علينا من سوء استعمال الحرية ، ومن الجهل بطرق المحافظة على الحرية ، يخشى ان تدفع الحمية بعض الاحرار الظافرين ، الى مثل أعمال المستبدين ، وأن تهبط العبودية الموروثة بكثير من الجاهلين ، الى ان يكونوا عونا على أنفسهم للحكام الظالمين ، يخشى ان تكون الحرية متاعا للسفهاء ، يتسلقون بها مراتب العقلاء الفضلاء ، إذا جرئ أولئك وجبن هؤلاء ، كما جرى في بعض الأنحاء ، يخشى علينا مما سبقت اليه الاشارة من المشاكل السياسية والاجتماعية ، والفوضى العلمية الأدبية ، والغوائل الاقتصادية ، وإنما الاعتماد في مقاومة كل ما يخشى ، ونيل كل مايرجى ، على توفيق الله لاهل الروية والاعتدال ، الذين يقومون بنشر العلوم وجلائل الاعمال ، كثر الله فينا من أمثالهم ، ونفع الامة بعلومهم وأعمالهم ،

﴿ القانون الاساسي . والخط السلطاني به ﴾

ننشرهنا اهم موادّ هذا القانون في حقوق العثمانيين ليتدبرها القراء منهم فيعرفوا قيمتهم وانهم ليسوا عبيداً لحكامهم . ثم ترجمة الخط السلطاني في الحاجة الى هذا القانون

« المادة ٩ » ان جميع العثمانيين متمتعون بحريتهم الشخصية بشرط ان لا يعتدي أحد على حقوق غيره

«١٠» ان الحرية الشخصية مصونة من جميع انواع التعدي ولا يجوز مجازاة احد بأي وسيلة كانت الا بالاسباب والاوجه التي يعينها القانون

«١١» ان دين الدولة العثمانية هو الاسلام ومع مراعاة هذا الاساس وعدم الاخلال براحة الخلق والآداب العمومية تجري جميع الاديان المعروفة في الممالك العثمانية بحرية تحت حماية الدولة مع بقاء الامتيازات المعطاة للجماعات المختلفة كما كانت عليه

«١٢» ان المطبوعات هي حرة في ضمن دائرة القانون

«١٤» يسوغ لكل فرد من افراد التبعة العثمانية او الجملة منهم الشكوى الى جهة الاختصاص من مخالفة القوانين والنظامات أو من افعال المأمورين

«١٧» ان العثمانيين جميعهم متساوون امام القانون كما انهم متساوون كذلك في حقوق وظائف المملكة ما عدا الأحوال الدينية والمذهبية

«٢١» كل احد امين على ماله وملكه الذي تحت تصرفه ولا يؤخذ من أحد ملكه ما لم يثبت لزومه للنفع العام وحينئذ يدفع ثمنه الحقيقي سلفاً وفقاً للقانون

«٢٣» لا يسوغ اجبار احد على الحضور الى محكمة غير المحكمة المنسوب هو اليها قانونياً وفقاً لقانون اصول المحاكمة الذي تقرر وضعه

«٢٤» المصادرة والتسخير والجريمة من الامور الممنوعة وانما يستثنى من ذلك التكاليف والاحوال التي تعين في اوقات الحرب بحسب الاحوال

«٢٥» لا يجوز ان يؤخذ من أحد بارة واحدة باسم ويركو ورسوم او بصفة أخرى ما لم يكن ذلك موافقاً للقانون

«٢٦» ان التعذيب وكل انواع الاذى ممنوع منعا باتا كليا

ترجمة الخط الشريف السلطاني

﴿ بالقانون الاساسي ﴾

وهو خطاب السلطان لمدحت باشا الصدر الاعظم باعتماد القانون وأمره بتنفيذه

« وزيري سمير المعالي مدحت باشا »

ان التدنيات العارضة منذ ازمان على قوة دولتنا العلية قد نشأت من الانحراف عن الطريق المستقيم في ادارة الامور الداخلية أكثر مما نشأت من الغوائل الخارجية ومن ميل الاسباب الكافلة امنية التبعة من حكومتهم المتبوعة الى الانحطاط فلذا كان والدي الماجد المرحوم عبد المجيد خان اعلن مقدمة للاصلاحات خط التنظيمات الذي منح به جميع الرعية الأمن على نفوسهم واموالهم واعراضهم وناموسهم موافقة لاحكام الشرع الشريف المقدسة وما عشناه الى الآن في ضمن دائرة الامن وما وفقنا به اليوم الى وضع واعلان هذا القانون الاساسي الذي هو ثمرة الآراء والافكار المتداولة بالحرية المستندة على تلك الامنية انما هو من جملة آثار تلك التنظيمات الخيرية فلذلك اردد خاصة في هذا اليوم المسعود اسم المرحوم المشار اليه وموفقيته وأصفه بعنوان محيي الدولة ولا ريب بأنه لو كان الاوان الذي تأسست فيه التنظيمات المذكورة موافقة لاستعداد زماننا هذا وإلجاآته لكان المرحوم المشار اليه وضع يومئذ احكام هذا القانون الاساسي الذي نشرناه الآن وانفذه ولكن جناب الحق علق حصول هذه النتيجة المسعودة الكافلة بالتمام سعادة حال ملتنا وأرجأها الى عهد سلطنتنا فنقدم بناء على هذه الدلالة لجناب الرب الكريم الحمد والشكر العظيم

على ان التغييرات التي وقعت بالطبع في احوال داخلية دولتنا العلية والتوسيعات التي حصلت في مناسباتها الخارجية اوصلت عدم كفاءة شكل إدارة الحكومة لدرجة البداهة ولما كان اقصى مقاصدنا الخيرية ازالة الاسباب المانعة للآن من

الاستفادة الواجبة من الثروة الطبيعية لمملكتنا وأمتنا ومن قابليتها الفطرية وتقدم صنوف الرعية في طرق الترقي بالتعاون والاتحاد اقتضى لاجل الوصول الى هذا المقصد ان يوضع للحكومة أساس مأمون منتظم وهـذا ايضاً يتوقف على تأمين هذه الفوائد وتقريرها بمعنى ان قوة الحكومة تحافظ على حقوقها المقبولة والمشروعة وعلى منع الحركات غير المشروعة اعني بها منع ومحوضروب الخطآت وسوء التصرف المتولدة من الحكم الاستبدادي الفردي او حكم الافراد القلائل ليستفيد جميع الاقوام المركبة هيأتنا منهم نعمة الحرية والعدالة والمساواة بلا استثناء ذلك الحق والمنفعة الحريان بالهيئة الاجتماعية المدنية

ولما كان ربط القوانين والمصالح القائمة بقاعدتي الشورى والحكومة المقيدة المشروعتين والثابت خيرهما مما تحتاج اليه هذه الاصول او عزنا في خطنا الذي أذعنا به جلوسنا الى وجوب تأليف مجلس عمومي وحيث ان القانون الاساسي الذي وجب تنظيمه في هذا المطلب قد وضع بالمذاكرة في الجمعية المخصوصة التي تعينت مركبة من متحيزي الوزراء وصـدور العلماء ومن سائر رجال وعمال دولتنا العلية وجرى عليه التصديق في مجلس وكلائنا بعد امعان نظر التدقيق وكانت المواد المندرجة فيه انما هي متعلقة بحقوق الخلافة الاسلاميـة الكبرى والسلطنة العثمانيـة العظمى وحرية العثمانيـين ومساواتهم وصلاحية الوكلاء والمأمورين ومسئوليتهم وبما للمجلس العمومي من حق الوقوف وباستقلال المحاكم الكامل وبصحة ميزانية المالية وبالمحافظة على مركز الحقوق في ادارة الولايات واتباع اصول المأذونية وكان جميع ما ذكر مطابقاً لاحكام الشرع الشريف ولاحتياج الملك والملة وقابليتهما في يومنا هذا وكانت اخص آمالنا في مطلب سعادة العامة وترقياتها مساعدة لهذا الفكر الخيري وموافقة له — فاستناداً على عون الله ومدد روحانية رسول الله قد قبلنا هذا القانون الاساسي وارسلنا به لطرفكم بعد ان صادقنا عليه فبادروا لاعلانه في جميع انحاء الممالك العثمانية واطرافها ليكون دستوراً للعمل الى ما شاء الله وباشروا باجراء احكامه منذ اليوم متخذين اسرع التدابير لتنظيم ما تقرر فيه وتسطر من النظامات والقوانين كما هو مطلوبنا القطعي ونسأل جناب الحق المتعالي ان يجعل مساعي المجتهدين في سعادة حال ملكنا وملتنا مظهراً للتوفيق في كل الاعمال . اهـ في ٧ ذي الحجة سنة ١٢٩٣

مقدمتنا لكتاب التربية الاستقلالية ـ او ـ اميل القرن التاسع عشر

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

هوَ الذي بَعثَ في الأُمّيين رَسولاً مِنهمْ يَتلو عَليهمْ آياتهِ ويُزَكّيهم ويُعلّمهمْ الـكتابَ والحـكمةَ وإنْ كانوا مِنْ قبلُ لفي ضلالٍ مبينٍ *

فله الحمد والشكر والثناء الحسن ؛ وعلى نبيه ورسوله الصلاة والسلام ، والرحمة والبركات لمن تزكوا بالتربية العالية ، وتعلموا الكتاب والحكمة السامية ، فكان لـكل منهم نصيبه من السعادة في نفسه ، والسيادة في أبناء جنسه ؛ ومنهم من أعدته هذه التزكية للسعادة الآجلة ، كما أعطته السيادة العاجلة ؛ ١٧ : ٢٠ كُلاًّ نُمدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ٢١ انظر كيف فضَلنا بعضهم على بعض وَللآخرةُ أكبرُ درجات وأكبرُ تفضيلاً

فبالتربية والتعليم سعادة الدنيا، وبهما سعادة الحياة الاخرى، والأمور بمقاصدها

للانسان استعداد لا يعرف له حد ولا نهاية ؛ ولا تظهر ثمرات استعداده الا بالتعاون ؛ ولا يكون التعاون الا بالعيشة الاجتماعية ، وشؤون الاجتماع لا ترتقي الا بالنظام، وإنما يقوم النظام بالحكام، والحكام عرضة للبغي والاثرة لا يصدهم عنهما الا سيطرة الأمم عليهم ، والأمة لا تصلح للسيطرة على حكامها الا اذا كان افرادها احراراً في انفسهم ، مستقلين في افكارهم وارادتهم ، فالحرية والاستقلال ، هما القدمان اللذان يسير بهما الانسان الى منازل الـكمال ؛

لا يصل الانسان الى الـكمال في شيء من مقاصد الحياة الا بالسير التدريجي على سنن الفطرة . والسير بطيء وسريع ؛ فمنـه الهدَجان والدليف ؛ والدألان والوجيف،(١) بل منه القهقرى، والرجوع الى الورا، فاذا هو أرشد الى الغاية في البداية، وأمد بما يوافق الفطرة من ضروب الهداية ؛ يكون أبعد عن التخبط في سـيره ؛ والضلال في طريقه ؛ وأقرب وصولاً إلى المقاصد ، بالسفر القاصد ،

(١) الدرجان مشية المثقل والدليف مشية الشيخ رويدا ومقاربة الخطو . والدألان مشية النشيط والوجيف السريع

ولكن مضت سنة الأولين بما أبان لنا أن الانسان لا يرتقي في المقاصد الاجتماعية الا بتوزيع الاعمال ، ونوط كل عمل بطائفة من الناس ، يصرفون همتهم اليه ، ويعوّلون في معايشهم عليه ، ومن هذه الأعمال حفظ الأمن وحماية النظام ، ومنها الارشادوالتعليم ، والتربية والتأديب ، — وأن الصنفين القائمين بهذين العملين — ولها القيامة على سائر الأصناف — قديسيئون التصرف ، ويتبعون الهوى ، فيعبثون بالحرية والاستقلال ، فيحولون دون ما توجه اليه الناس من الكمال ، — وأن الاول منهم (وهوصنف الحكام) كثيرا مايمعن في الاستبداد ، ويغلوفي الاستعباد ، حتى يفسد على الناس ماارتقى به الاجتماع قبله ، ويخرب ما أقامه من معالم العمران من سلفه ، وقد يستعين بصنف المعلمين والمربين ، على إفساد النفوس والافكار من الناشئين ، بتنشئتهم على الخنوع للمستبدين ، وتقليد الميتين ، فيرجع قومه القهقرى ، ويسيرون في اجتماعهم إلى الورا ، حتى تكون البداوة خيراً من مدنيتهم ، لأنها على إقفارها من نتائج العقول في الفنون والصناعات ، تكون عامرة باستقلال الفكر والإرادة وحرية التصرف ، ومايتبع ذلك من عزة النفس والتحلي بكثير من الفضائل التي هي من طبيعة الفطرة ولوازم تلك المعيشة

فالكمال الاجتماعي الذي يُطلب بالمدنية عرضة لنقائص يجلبها للبشر استبداد الوازع من الامراء والسلاطين ، وفساد القوّام على التربية والتعليم ، وسوء اختيار الافراد الذين يعيشون في كنف السلطة والحكم ، وينامون على مهاد الراحة والترف ، فتفسد فطرتهم ، وتهي عزيمتهم ، ويرضون ان يكونوا عالة على غيرهم ، وعبيداً للقوّام عليهم ، بما فقدوا من الحرية والاستقلال ، بل يقول الحكيم ابن خلدون ان التأديب والتعليم الصناعي يذهب بالبأس وعزة النفس لان الوازع فيهما أجنبي ، وأما الادب الشرعي فليس كذلك لان الوازع فيه نفسي ، وهو موافق لقول علماء العصر إن كمال الانسان في ان يكون حراً مستقلاً تصدر أعماله بإرادته واختياره عن اعتقاده ووجدانه ، ولا يحكم عليه إلا الشرع والقانون الذي رضيه لنفسه ، وكان له رأي في اختيار القائمين بتنفيذه

هذا المقصد العالي لا ينال في الحضارة الا بتربية وتعليم تدع فيهما سنة الفطرة وتتقى فيهما اهواء الوازعين الذين يرون من مصلحتهم ان يصبغوا نفوس النابتة بصبغة خاصة يستديمون بها السيادة عليهم ، وقودهم كالانعام الى مايريدون منهم

اسرف الوازعون من رؤساء الدين والدنيا في الجور على الخاضعين لهم في اوربا زمنا طويلا حتى لم يعد للطاقة البشرية قبل باحتمال جورهم ، فأحدث ذلك الضغط انفجارا عظيما اهتزت له الارض ، وزلزل ذلك القهر والجبروت ، بل زال واندك بهمة دعاة الحرية والاستقلال ، ولكن حدث عنه بمقتضى السنة الالهية التي يعبر عنها « برد الفعل » اسراف في مقاومة تينك السلطتين الجائرتين — سلطة الحكومة وسلطة الكنيسة — فحدثت المذاهب المادية والاشتراكية المتطرفة والفوضوية وكانت فرنسا اشد الشعوب والاجيال غلوا في ذلك وانكلترا أشدها اعتدالا فيه لما جرت عليه من المحافظة على التقاليد القديمة، والتثبت في النزوع الى الآراء والاعمال الجديدة ،

انبثت آراء الغالين في مقاومة السلطة والدين في كتب التربيـة والتعليم التي ألفها كبار الحكماء والكتاب من الاوربيين لا سيما الفرنسيين منهم حتى صار حقها مشوباً بباطلها ، ونفعها معارضا بإثمها ، وكان من اشهر كتب التربية (كتاب اميل القرن الثامن عشر) للحكيم الفرنسي الشهير (جان جاك روسو) ثم ارتقت المعارف وزخرت بحار العلم ، فصار الآخرون ، يستدركون على ما مضى عليه الأولون ، كما فعل (ألفونس أسكيروس) في كتابه الذي سماه (اميل القرن التاسع عشر) إشارة الى ماينبغي أن يكون عليه فن التربية فى ذلك القرن وما بعده . وهو الكتاب الذي نشرنا ترجمته في بضعة مجلدات من المنار ، في كل مجلد منها رسائل معدودة، نشرت في اجزاء متصلة او متفرقة ، وقد جمعنا شمل هاتيك الرسائل والشذرات كلها اليوم لننشرها في هذا السفر على قراء العربية عامة ، وأرباب البيوت منهم خاصة ، لما في قراءتها متصلة من تمام الفائدة بما يكون القارئ اوعى للمسائل واضبط، وارغب فى تتبعها وانشط ،

لم أر في المصنفات الحديثة ولا القديمة مصنفاً كهذا الكتاب جمع بين اللذة والفائدة في انفع العلوم التي تتفاضل فيها عقول البشر وهو علم تربية الانسان جسماً وعقلاً ونفساً ليكون سعيداً في نفسه ، نافعاً لأبناء جنسه ، ولهذا رغب في نشره الاستاذ الامام ، قدس الله روحه في دار السلام ، وعهد الى مريده ذي الفطرة السليمة ، والآداب القويمة ، صديقنا عبد العزيز افندي محمد القاضي بالمحاكم الاهلية المصرية ، بأن يترجمه بالعربية ، لينشر في مجلة المنار الاسلامية ، وحسبي من بيان مزية الترجمة عرضها على القراء

العارفين بقواعد العربية وأساليبها، فهم الذين يشهدون لها بأنها في الذروة العليا بين المصنفات المترجمة في هذا العصر، فالكتاب بها عون للنابتة على إحكام ملكة الانشاء والترجمة، كما انه بمعانيه يطبع في النفوس ملكات استقلال الفكر والارادة، وحب الحرية، والرغبة في خدمة الامة، وغير ذلك من الفضائل، ويهدي العقول الى امثل طرق التربية والتعليم

ألا إن غرض المؤلف من كتابه هذا هو هداية قارئيه الى الحياة الزوجية الفضلى، ومحبة الزوجين، ووفاقهما في القرب والبعد، والسراء والضراء، ومكان الأم من قلب الهيئة الاجتماعية، وتربية جسم الطفل على سنة الفطرة ليكون بدنه سليما قويا، وتربية حواسه وخياله وفكره، ووجداناته وعواطفه، كالرحمة والاحسان والعدل والمساواة والايثار وغير ذلك من القوى والصفات الروحية مهتديا في ذلك كله بالعمل والاحتكاك بالحوادث، وإلى تعليم الناشئ العلوم الكونية بعرض المعلومات على مشاعره وارشاده الى كيفية النظر فيها، والحكم الصحيح عليها، واعداده للعلوم النظرية في الدين والفلسفة ليحكم فيها بنفسه، بعد بلوغ رشده، وغاية ذلك كله ان يخرج المربى حرا مستقلا خيرا فاضلا لا يحكم ولا يقول الا عن علم وبصيرة، ولا يعمل الا ما يرى ان فيه الخير والمنفعة

ولما كان قوام التربية العملية القدوة والتأسي اختار المؤلف ان يجعل تربية «اميل» في بلاد الانكليز لأنهم ارقى الشعوب أخلاقا واعرقهم في الحرية والاستقلال

ولما كانت العلوم لا تبلغ كمالها الا حيث يكثر الإخصائيون جعل المؤلف التعليم العالي لإميل في مدارس ألمانيا العالية لان الالمانيين أرقى شعوب العالم في تحرير العلوم

هذا الضرب من التربية والتعليم على سنة الفطرة موافق لهداية القرآن الذي هو دين الفطرة. وما أنكره المؤلف من تلقين الدين للناشئ كما يلقن الفنون وإلزامه بالتقليد فيه، ومن حمله على الآداب وعمل الخير خوفا من العذاب في الآخرة وعدم النجاة فيها له وجه وجيه فان النبي (ص) لم يعلم ولدان أصحابه ولا كبارهم الدين كما تعلم الفنون وإنما أدبهم وزكاهم بتلاوة القرآن عليهم، وبسيرته (سنته) الحميدة فيهم، دعاهم بالدليل وعلمهم بالدليل وأدبهم بالدليل وليس في الاسلام شيء تقليدي لا يستند الى دليل.

فلا غرو اذا كنا نسلم للمولف ما اختاره من جعل قوام التربية الادبية الاعتبار بما في الفضيلة والخير من المنفعة وما في ضدهما من المضرة بالاختبار لا مجرد القول فان ذلك معقول في

نفسه وموافق لهداية الاسلام . ونعذره في نهيه عن دعمها بنصوص الدين لان مايعرفه من هداية الأديان ينافي اتباع طريقته فالجمع بينهما جمع بين الضدين . على أنه على اعتداله لم يسلم من السخط على دين الكنيسة بمقتضى سنة رد الفعل التي اشرنا اليها من قبل

ولكن طريقته تنطبق على هداية القرآن لانها موافقة للفطرة ويزيدها الاسلام قوة وتمكينا ببيان ان الآثار الطبيعية للخير في الدنيا وهي منافعه التي يؤتى لاجلها لاتذكر بالنسبة الى الآثار الطبيعية التي تكون له (اي الخير) في الحياة الآخرة وهذه قضية بيناها بالدلائل والنصوص في مواضع كثيرة من تفسير القرآن الحكيم ومن المنار

فلم يبق بعد هذا الا أن أنصح لقراء العربية بأن يجعلوا هذا الكتاب ركناً للتربية والتعليم مع مراعاة المسلم منهم لهداية القرآن التي أجزم بأن المصنف لو علمها لجعلها ركناً للتربية فوق هدايات الحواس والعقل والوجدان

أنصح للمتعلمات من البنات ومن ربات البيوت بأن يقرأنه المرة بعد المرة . وانصح للرجال أن يقرءوه لنسائهم ويفسروه لهن تفسيرا . وأنصح للنابتة الجديدة من تلاميذ المدارس الدنيوية ، وطلاب المدارس الدينية ، بأن يقدموا العناية بمطالعته على جميع ما يطالعون من الكتب للاستعانة على تأديب النفوس واحكام صناعة الإنشاء وإتقان أسلوب الترجمة . وإني لعلى علم بأن الاقبال على هذا الكتاب وتوخي العمل به سيكون مبدأ العصر جديد بي في نفوس قراء العربية الحرية الذاتية والاستقلال الشخصي والنوعي ومتى كثر الاحرار المستقلون في شعب فانهم يحيون شعبهم حياة استقلالية يستحيل ان يعبث بها مستبد ، او يفسدها عليهم مفسد ، ولهذا سميت الكتاب بالتربية الاستقلالية ، وجعلت تسمية المؤلف له ثانوية ، فالاسم الاول يدل على موضوعه وغايته ، والثاني يشير الى منهجه وطريقته ، وهي تمثيل فن التربية بالعمل في شخص المربى ، وهو المنهج السوي والطريقة المثلى ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ،

محمد رشيد رضا الحسيني

كتبت في غاية جمادى الآخرة سنة ١٣٢٦ منشئ المنار

مقدمة مترجم الكتاب بعد البسملة

الحمد لله الذي علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم ، والصلاة والسلام على ينبوع

الحكمة، ونبي الرحمة ، الذي أدبه ربه فاحسن تأديبه، واتم له من مكارم الاخلاق وجلائل الشيم نصيبه ، فصارت سيرته المحمودة اكمل مثال للمربين ، وأفضل هدي للمرشدين ، وعلى آله واصحابه الهادين المهتدين ،

اما بعد فقد مضت سنة الله سبحانه في الانسان ان يخلق عاجزا جاهلا محتاجا الى الكافل الذي يحوطه برعايته ، ويقيمه على الصراط السويّ في معيشته ، ثم يتدرج في القدرة والعلم حتي يبلغ ماأعد له من الكمال الحسي والمعنوي بحسب استعداده ، وعلى مقدار عناية قيمه بتربيته

من أجل هذا تفاوتت درجات الناس تفاوتا عظيما في القدرة والعجز والعلم والجهل وتنوعت آثار هذه الصفات فيهم تنوعا لا يحده وصف ولا يشمله حصر وتبع ذلك اختلاف الامم بالترقي والتدلي والعزة والذلة .

فمن أمة عنيت بتربية ابنائها وتهذيب اخلاقهم وتثقيف عقولهم وانشائهم احرارا عشاقا للعلم يخدمونها ويخدمونه مختارين كما يخدمون انفسهم فاشرقت في ربوعها شمس العلم وكشفت لها الحجاب عما سخر لها من قوى الكون فاستخدمتها في حاجاتها وحاجات نظرائها واستعانت بها على تحسين احوالها وترقية معايشها .

لان لها الحديد على صلابته وشدة بأسه فاتخذت منه سجنا حصينا لعدوين متعاندين هما الماء والنار فكان من كفاحهما فيه ان تصاعدت زفرات الماء وغلت مراجل غيظه، فالتمس الخلاص فلم يسعه الا ان طار بسجنه، فكان ذلك سببا لاستعمال هذه القوة الفائقة في طي المسافات السحيقة ، وتقريب الامم المتنائية ، وكسر نخوة البحار والتخفيض من غلوائها بامتطاء ظهورها وشق احشائها والاخذ بشكائمها . نعم وفي تحريك دواليب الصناعات المختلفة تحريكا خفف من أوصاب الصناع ومتاعب العمال وغمر أسواق التجارة بضروب المصنوعات البديعة فأصبح الفقير شريكاً للغني في الاستمتاع بها، بعد ان كان محروما منها، واتخذت لها من الحديد أيضاً قذافات للموت، جلابات للدمار والخراب، لاتردها شجاعة الشجعان ، ولا تغني منها مصاولة الفرسان، فملكتها نواصي الاعزاء، و بسطت لها السلطان في جميع الارجاء.

لفتها قصيف الرعد ووميض البرق وغيرهما من آثار القوى الكونية التي طالما مر عليها من غبروا من اجيال البشر وهم عنهامعرضون فحدست ان فيها قوة عظيمة لم تخلق سدى وانها لو ملكت تصريف زمامها لاستفادت منها ما استفادته من البخار فانبرى طلاب الحقائق من أبنائها الذين اثمرت فيهم التربية الصحيحة للبحث عنها في مكامنها وما زالوا يصلون الليل بالنهار في تتبعها حتى اهتدوا الى ينابيعها وجمعوا شتاتها بعد ان كانت شعاعاً همـلاً وحصروها في سبل ضيقه لاقبل لها بتعديها ثم ألقوا مقاليدها الى الأمةفكان من تصريفها في مرافق الانسان ومنافعه ما ترى من الآيات الـكبرى على كمال قدرة الخالق وسعة امكان عقل المخلوق : رعدة تحيل الماء هواء ، وتقلب الليل نهارا ، ونبض اقرب من لمح البصر يصـير تارة مناجاة كتابية بين مطوحين في مطارح الغربة تستنجز بها الامور وتقضى بها المآرب ، وطورا تكون مخاطبة شفهية تميز فيها اجراس أصوات المتخاطبين على مايكون بينهما من بعد الشقة، وكرة تدفع جاريات تطير طيرانا على سـطح الارض مقلة ماشاءت ان تقل من الناس والمتاع

ولو رحت اعدد لك آثار التربية المثلى والعلم النافع في الامم الراقية لاحتجت في تفصيل ذلك الى مجلدات فاجتزيء عنه بما لمحت اليه تلميحا.

وامة أخرى لم تبلغها دعوة العلم ولا رأت آثار التربية في غيرها فلازمت حالتها الفطرية ومعيشتها الوحشية فكان ذلك مدعاة الى وقوف نمو العـقل في ابنائها وانمحاء مافيهم من ضروب الاستعداد وكان مصيرها خسران وجودها الذاتي وفناؤها في غيرها من الامم الحية .

وامة ثالثة خلقت مستعدة للرقي وسارت في سبيله شوطا بعيدا بما نشأت عليه من الحرية وتحققت به من أصول التربية الدينية الصحيحة فنالت في الزمن اليسير من العزة والمجد و بسطة السلطان مالم ينله غيرها من الامم في الزمن الطويل.

ر باها مرشدها الا كبر بسيرته السنية على حب العدل والايفاء بالعهود وانفاق الاموال في وجوه الخير والتآخي في نصرة الحق والترفع عن سفساف الامور

واوجب طلب العلم من المهد الى اللحد على أفرادها نساء ورجالا غير مخصص علما بعينه فنبغ فيها رجال لم تسمح الايام بنظائرهم ولن تلد الوالدات امثالهم — منهم من ساسوا الرعية أفضل سياسية لم يعهدها التاريخ في غيرهم من السواس حرموا أنفسهم فيهامن ملاذ العيش وصبروها على مصلحة الناس وحاسبوها على القيام بها أشد محاسبة — ومنهم من قادوا الجيوش وفتحوا البلاد ودوخوا اكبر دول الارض لعهدهم مع تمام العدل في معاملة المغلوبين و بذل الامان للمستأمنين — ومنهم العلماء والحكماء الذين صدقت عزائمهم في طلب الحقائق فلم يدعوا بابا من ابواب العلم الا دخلوه على ما كانوا يلاقونه في ذلك من صعوبة التحصيل لندرة الكتب وتباعد معاهد التعليم يشهد لهم بذلك ماخلفوه من آثارهم التي تزدان بها دور الكتب في معظم البلدان — ومنهم مهرة الصناع الذين اقاموا من معالم الحضارة ما يحكم لهم بالتبريز على مناسبيهم ويوجب لاخوانهم حق المفاخرة بهم .

وا أسفى على هذه الامة أسفا يبخع النفس أسى ويذيب القلب حسرة! مالبثت ان بطرت معيشتها وكفرت بأنعم ربها ، فوجد عليها الزمان، وانتابتها نوائب الحدثان، طال عليها أمد هداية الدين ، و بعد عنها عهد المرشدين ، فقست القلوب وفسدت الاخلاق ، واستحكمت علة الترف من النفوس ؛ فملكها الطمع ، وتولاها الحسد ، ومنيت بالحكام المستبدين ، والامراء الغاشمين، فمزقوا وحدتها ، وملكوا عليها أمرها، وصرفوها فيما تهوى انفسهم، فاستحالت حريتها رقا ، وانقلب عزها ذلا، وعدلها ظلما وانسها بالعلم وحشة.

لم يغب سوء حالها عمن يجاورونها من الامم القوية بل كانوا يراقبونها مراقبة الصائد الذي يتحين الفرص لصيده وما عتموا ان ناصبوها العداوة وكادوا لها المكايد فوقع معظم بلادها في قبضتهم وتغلغلوا في احشائها واصبحوا لها حكاماً يديرون شؤونها على حسب ما تقتضيه مصالح بلادهم وفتحوا عليها ابواباً من الترف وفساد الاخلاق ألهتها عن الشعور بألم العبودية وصرفتها عن النظر في مصالحها القومية .

لم يصبها كل ذلك الا من عدم محافظتها على حريتها باغفالها التربية الصحيحة وهجرها العلم النافع.

واذا كان هذا شأن التربية في رفع الامم وخفضها كان حقاً على العقلاء من كل أمة ان يعنوا بها ويفكروا في الوصول اليها من اقوم طرقها ويبينوا أصولها ويدونوا فيها الكتب النافعة ويحثوا قومهم على الاخذ بما فيها . وقدخرج من عهدة هذا الحق علماء الامم الحية في اوربا وامريكا فوضعوا من قواعدها ماظهرت آثارها في اقوامهم ، واكسبتهم حسن الذكر في بلادهم ، وغفل عن ذلك غيرهم من خواص الامم التي تتنازعها الحياة والموت لغلبة القنوط عليهم فلم يوجد لديها من الكتب الحديثة في موضوع التربية الا بعض رسائل لاغناء بها فيه .

كان الاستاذ الامام الشيخ محمدعبده طيب الله ثراه برّاً بقومه غيوراً على حياتهم حريصاً على إيقاظهم من سبات الجهل ، وانهاضهم من حضيض الذل ، فكان دائم التصفح لما كتبه الاوربيون والامريكيون في التربية والحكمة وكان من كثرة اهتمامه بالتربية ان ترجم فيها كتاباً مفيداً للحكيم الانكليزي هربرت سبنسر غيرانه لم يتسع وقته لتصحيحه وتهذيب ترجمته ونشره فبقي كما هو وقد وقع له كتاب آخرفيها عظيم النفع لمؤلف فرنسي اسمه ألفونس اسكيروس فاعجب بما فيه من الافكار الصحيحة والمعاني الشائقة فعهد اليّ بترجمته ونشره تدريجا في مجلة المنار الجليلة فوفقت للايفاء بعهده مساعدة له على ما كان بسبيله من خدمة المصلحة العامة وقياما ببعض المفروض عليّ منها . فالكتاب اذن أثر من آثار سعيه في ترقية بلاده ، ويد من أياديه الكثيرة عند قومه ، سيشكرها له منهم الشاكرون ، ويغمطها على ديدنهم فيه الجاحدون ، اجزل الله له المثوبة على حسن مقاصده ، وغمره برحمته واحسانه على مجاهدته في اعلاء شأن أمته .

هذا الكتاب الذي اتقدم بترجمته لقراء العربية يرمي مؤلفه الى غاية واحدة هي إنشاء الطفل حرّاً مستقلاً تصدر أعماله وآراؤه عن اختيار وعلم لا عن اضطرار وتقليد . ومن أصوله في التربية ان لا تحشر اليه قواعد العلم حشراً ويرغم على حفظها بل يجعل له الدرس من وسائل التسلية بأن يخلى بينه وبين ما حوله من الاشياء والحوادث ويلفت ذهنه اليها لينتزع منها بنفسه ما تؤديه مراقبتها اليه من العلوم .

تمكن هذا الاصل من نفس المؤلف تمكنا حمله على أن يبعد في تأليفه عن

اساليب الكتب التعليمية المعهودة : وضعه على أسلوب يقرب من اسلوب القصص ليكون اشهى للنفوس ، وانفى للملل عن القلوب ، تخيل زوجين سمى احدهما الدكتور اراسم والثاني هيلانة ، منيا بالفراق ، لأول عهدهما بالاقتران ، لاتهام الزوج بجريمة سياسية سجن من اجلها . ولم يلبثا بعد افتراقهما ان احست الزوجة بالحمل فجرت بينهما رسائل في مواضيع شتى ادمجت فيها اصول التربية الصحيحة ادماجاً وسنحت للزوج اثناء سجنه سوانح افكار ومرت بذهنه شوارد خواطر كان يقيدها في جريدته اليومية فاجتمع للمؤلف من الرسائل والصحف والشذرات المقتطفة من جريدة الزوج هذا السفر الذي وسمه « باميل القرن التاسع عشر » وقسمه اربعة اقسام سمى كلا منها كتاباً اولها في الأم وثانيها في الطفل وثالثها في اليافع ورابعها في الشاب .

فأما كتاب الأم فمسائله هي : — ماينبغي عليها مراعاته في طور الحمل من العناية بصحتها وتوفير عافيتها وملازمة السكينة والاستقرار والبعد عن كل ما يثير انفعالاتها ويروح نفسها بالمناظر البديعة والمشاهد الرائعة ، وبيان ان التربية الأولى من شؤون الام خاصة — وما يجب عليها من العلم بتدبير صحة المولود بعد الوضع وارضاعه بنفسها وتعويده من نعومة أظفاره على الاستقلال في حركاته وسكناته ، ووصف ما للنساء الانكيزيات من الفضل على الفرنسيات في ذلك ، وانتقاد طريقة التربية الأولى في فرنسا ، وانتقاد اخلاق الانكليز وخضوعهم لتقاليد اسلافهم .

***

واما كتاب الولد فمسائله هي : — تعريف التربية وبيان الصعوبة في تحديد زمني بدايتها ونهايتها ، وبيان عمل الأم في الشهور الأولى من حياة الطفل ، وانتقاد ما يفعله الامهات باطفالهن في هذه السن ، وبيان ان اول علوم الطفل تأتيه من طرق الحواس ، وطريقة تربية الحواس ، وتأثير التمدن في قوى الحواس وعمل الام في تمرينها ، ووجوب تعرف طباع الطفل وبيان اهمال المربين لهذا الواجب ، وما يلزم اتباعه في سياسة الطفل ، ووجوب لفته الى المحسوسات وتدريبه على وقاية نفسه بنفسه ، وبيان خطاء الوالدين في انشاء اولادهما على مثالها في الطباع

والاذواق وكون هذا هو السبب في ندرة الرجال المستقلين استقلالاً حقيقياً ، و بيان ماهية الطبع ، وهل الارادة خلقية او كسبية ،

و بيان ان ما يبديه الطفل في حال غضبه او تألمه من الاصوات والحركات لازمة لشفاء ما به وان الواجب فى حمله على الكف عنها اخذه بالتسلية والتلهية لا بالتسلط والقهر ، ووجوب مقاومة التربية لاهواء الطفل الفاسدة وذلك بطريقتين احداهما إلهاؤه عنها والثانية جعله بمعزل عن البواعث المثيرة لها ، وضرورة استعمال السلطة في سياسة الاطفال ووجوب التعجيل بالكف عن استعمالها متى تيسر ذلك ،

و بيان ضرر قهر الطفل على الامتثال ووجوب اجتناب تخويفه بالعقوبات الالهية والخوض معه في المسائل الدينية ووجوب تركها له لينظر فيها متى كبر بفكر خال من المؤثرات ، و بيان عدم الفائدة فى اصول علم الاخلاق للاطفال وقلة جدوى القدوة ومطالعة قصص الحيوانات لهم وضرورة استقلال طبع الطفل وتعلمه سير الحيوانات بنفسه ،

و بيان الطريق الى تربية المشاعر الباطنة ، و بيان ان فى التبكير بإلقاء النصائح والمواعظ على الاطفال حطاً من كرامتها ، وكيفية تفاهم الام مع ابنها بالاصوات ، وربما كانت الاصوات اصل اللغات ، ووجوب استعداد الام للتربية بالتعلم ، وتفكر الاطفال ، واصل اللغات وتعليمها لهم وسوء طريقة المربين فى ذلك ، وان التفكر مما يتعلمه الطفل ، وخطأ المربين في عنايتهم بالالفاظ دون المعاني ، وتعويد الاطفال النظر والملاحظة ليتمرنوا على التفكر و بيان ان الاعمال الصبيانية ليست باطلة برمتها بل منها ما يكون مفيداً ، وانس الطفل بالحيوانات وانسها به وتعليل انقطاع تانس الحيوانات المتوحشة بزوال سذاجة الانسان الفطرية التي كانت تدعوها الى الثقة به ، وتأثير الجمال في الاطفال ، واحتياجهم الى كثرة التعلم ، وتعليمهم الصدق والمواساة والرحمة بالحيوان والعدل في المعاملة واحترام الدين بالعمل والممارسة دون الحفظ والتلقي ، ووجوب اعتراف المربي للطفل بجهل مايجهله وانتقاد المربين في دعواهم العلم بكل شيء امام الاطفال ،

= وانتقاد التعليم الديني والسياسي ، وان من شروط التربية ان ينسي المربي ماتعلمه

ليستأنف تعلمه مع الطفل ، ووجوب التدرج في تعليم العلوم للاطفال بلفت اذهانهم الى ما حولهم وانتقاد الكتب التعليمية ، وفوائد التصوير والمعارض في التربية ، والتربية والتعليم بالفانوس السحري والتمثيل والمعارض ، وتعليم الاطفال الضرب في الأرض ومعرفه جهاتها بالعمل وتعليمهم الصناعة بما يشتري لهم من اللعب ، .

= وتربية خيال الصغير بالقصص والاساطير ، وتعليم القراءة والخط والرسم والتدرج الفطري في تعليمها ، وان الصحة في تغيير الهواء وتربية الخيال والذاكرة بمحاسن الغبراء ، وتعليم التاريخ الطبيعي بتمثيل الفانوس السحري ، وسرعة تفاهم الاطفال باليسير من الكلم ، وتعليم السباحة وتربية العضلات .

***

وأما كتاب اليافع فمسائله هي : — حب الزوجة والولد والوطن ، وتعليم المسميات قبل الاسماء ، وتربية الذكور مع الأناث وتعليمها معا ، والتعليم بضرب الامثال ، والكلام على الخط الديواني ، وتمرين المتعلمين على الاعمال المادية الشاقة ، وما يجب ان تكون عليه التربية وآثارها إذا كانت كما يجب ، وتجلي العلم في العمل ، وانتقاد تعليم الاطفال اليونانية واللاتينية واقرائهم كتبها ، والكلام على التقليد والذاكرة ، والمؤلفات المفيدة للناشئين واختيارها ، وكون السفر من اركان التربية ، والتربية بركوب البحر ، وما يتعلم فى السفينة ، وشجاعة النساء المحمودة ، والتربية بالمعاينة ، وفوائد الشدائد ، وكون بذل النفس للمحبوب أول الحب ، ووجوب الموازنة بين القوى والاعمال ، والتربية بالتأثيرات الطبيعية .

***

واما كتاب الشاب فمسائله هي : — ، انتقاد حال الطلبة في ألمانيا ، وبيان حال العلم فيها ، ووجوب نقد الطالب ما يقرأه من أفكار غيره . ووجوب القصد في الاشتغال بعلوم المعقولات ، وان نفع الأمة يحصل بالقيام بالواجب على قدر الطاقة ، ووجوب اختيار الطالب للعمل الذي يشتغل به في حياته ، وان لا حرية لأمة يتكالب شبانها على تولي أعمال الحكومة ، وان الرأي العام لا قيمة له الا إذا كانت الحكومة شورى ، ووجوب ان تكون خدمة المرء لا مته لذاتها لا للجزاء ،

والكلام في الحب وابتدائه وغرور الشبان بالمعشوقات ووجوب عدم تداخل الوالدين مع أولادهما في شؤون الحب وترك الفصل في تمحيص صحيحه من فاسده للتجربة، والكلام على المدرسة الجامعة في ألمانيا، والاستقلال في العلم ، وفلسفة الخلق والتكوين والاجتماع والمدنية ، ووجوب الاعتماد على البراهين العقلية دون الخطابة ، وحب الوطن ، ووجوب ان يكون للشاب المتعلم رأي في سياسة بلاده ، وان تربية الرجال الأحرار يجتث بها جراثيم الشرور المحزنة للامة .

هذه هي أقسام الكتاب ومقاصده وأمهات مسائله أجملتها للقارئ اجمالاً حتى إذا قرأها حركه الشوق الى استشفافها في مواضعها منه فحصل الفائدة المقصودة لمؤلفه ومترجمه ان شاء الله .

لم يعن المؤلف بتلقيب مباحث كتابه فاضطررت الى ان أضع لها ألقاباً استنبطتها من سياق كل مبحث وشاركني في وضعها الاستاذ الفاضل السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الاسلامية عند نشر الكتاب في مجلته كما انه حفظه الله كان يصحح ما كان يعثر عليه من الاغلاط وأنا شاكر له هذا الصنيع .

حرصت غاية الحرص على عدم التصرف في الترجمة وقوفا بها عند حد المعاني التي قصد المؤلف ان يعرضها على قومه وتحاشيا من ان يتسرب اليها بالتوسع ماليس مقصودا له وهذا هو سبب ما يجده القارئ في بعض المواضع من عجمة الاسلوب ولم أشذ عن هذا الا فى تغيير لفظ الطبيعة بلفظ الجلالة أو الفطرة على حسب الاحوال مراعاة لعرف التخاطب بين المتكلمين بالعربية .

للمؤلف رأي في التعليم الديني مبني على أحوال خاصة بالمكان الذي عاش فيه والقوم الذين نشأ بينهم لا محل لذكرها هنا فلا أعيبه عليه ولا أوافقه فيه ولا ولا سيما ان في مطاوي كلامه في هذا الموضوع وفي موضوعات أخرى مغامز تبين عن سوء عقيدته وذلك الرأي هو : ان لا يتكلم مع الصبي في شيء من الدين فى صغره وان يتربص به حتى يكبر ويدرس المذاهب الدينية بنفسه فيعتقد منها ما يشاء. ويكفيني هنا ان أقول ان كثيراً من ابناء من يشايعونه في رأيه لا يبلغون سن الشباب حتي تحتوشهم اهواؤهم عن النظر فى الدين وتصرفهم شهواتهم عن اتباع هدي النبيين

فينبذوا الدين وراء ظهورهم ويفشو فيهم الالحاد وما ينجم عنه من الاباحة والفساد كما هو مشاهد معروف

وعندي انه لا شيء أمثل في هذه المسألة من اتباع هدي الدين نفسه ومن الخطل في الرأي ان يؤخذ فيها بقول غير المتدين .

بدأت في ترجمة الكتاب في اليوم الرابع من جمادى الآخرة سنة ١٣١٧ ه الموافق لليوم التاسع من اكتوبر سنة ١٨٩٩ م وفرغت منها في أول جمادى الثانية سنه ١٣٢٤ ه الموافق للثالث والعشرين من يوليه سنه ١٩٠٦ م ومعذرتي في ذلك الابطاء المفرط اني انما اختلست الساعات التي قضيتها في ترجمته اختلاساً من أوقات فراغي من عملي القضائي وقد كانت هذه الاوقات كثيرة تسع اضعاف هذه الترجمة لولا اني كنت كثير الضن بها على صرفها فيما ينفع كغيري من الناس في مصر .

كنت أحسب ان نشر الكتاب في المنار يكفيني في تحقيق الانتفاع به ولكني رأيت كثيرا من الاخوان الذين كانوا يوالون مطالعة ما كان ينشر منه فيها شديدي الميل الى رؤيته مطبوعاً على حدة واتفق لي أن زرت صاحب الدولة الوزير الجليل رياض باشا في شهر رمضان الماضي مع الاستاذ السيد محمد رشيد فألفيته معجباً بالترجمة أشد الاعجاب حاثا على نشرها مجموعة فكان كل هذا باعثا لي على نشره الآن جملة واحدة تعميما لفائدته وموافاة لرغائب الكثيرين ممن طالعوه منجما .

وجل ما أبتغيه ممن أقدمه اليهم من إخواني قراء العربية ان لا يكون حظي عندهم من عنائي في ترجمته اطراحه واغفاله بل أرجو منهم ان يأخذوه بقوة ويقبلوا على مطالعته بتأمل لقارنوا بيننا وبين غيرنا في العناية بتربية الناشئين ويعلموا أين نحن من قوم هذه افكارهم فيها حتى إذا آلمهم النقص الفاضح وأخجلهم التقصير الفاحش هبوا الى مجاراة غيرهم من الامم الراقية وفكروا طويلا في تربية ابنائهم وتخيروا عن بصيرة وعلم لا عن تقليد محض كل الطرق لانشائهم احرارا جامعين بين ملكات العلم وفضائل الدين ولن يتم لهم ذلك الا بالاخلاص والصبر ودوام الاشتغال والله المستعان وبه الحول والقوة

المترجم

تحريراً في ٢٥ المحرم سنة ١٣٢٦ — و٢٧ فبراير سنة ١٩٠٨ عبد العزيز محمد

القرآن والعلم

٤

تفسير من اللغة والتاريخ والجغرافيا والطب

في رد الشبهات التي يوردها الافرنج على بعض آيات الكتاب العزيز

المسألة الرابعة عشرة

﴿ هامان وزير فرعون ﴾

قال الله تعالى حكاية عن فرعون (٢٨ : ٣٨ فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا) وقالوا ان هامان كان وزيراً لأحشويروش ملك فارس وهو متأخر عن فرعون بسنين

وهذه الشبهة من أضعف الشبهات فانه لا يبعد أن يكون لفرعون وزير يسمى هامان ثم سمي بهذا الاسم وزير آخر لملك الفرس ومن عرف علاقة المصريين بالامم المجاورة لهم وتغلبهم على بلادهم تارة وخضوعهم لهم تارة أخرى كما كان يحصل بين ملوكهم وملوك فارس لا يتعجب من دخول بعض أسماء أهل مصر في لغات الأمم الأخرى ولا من دخول بعض أسماء من هؤلاء الامم في لغة مصر القديمة على أننا لا نعرف جميع أصول ما ورد في الكتب المقدسة من الاسماء ولا ندري جميع مصادرها فيجوز أن يكون للفظ هامان أصل في اللغة المصرية القديمة (الهيروغريفية) لا نعرفه . ولا يخفى أن رد الاعلام المنقولة من اللغات بعضها إلى بعض عسير وفي بعض الاحيان يكون متعذراً . وخصوصاً مثل هذه الاسماء القديمة الواردة في كتب الامم المقدسة . فكم في كتب العهدين من أعلام لا يعرف اشتقاقها إلا رجما بالغيب !! وكم فيها من أسماء لاشخاص من امم يسمون عند أممهم بغيرها ولا يعرف سبب لهذا الاختلاف

فاذا كان الأمر كذلك فلا معنى لتلك الشبهة . فان الشبهة لا تدحض حجة إلا إذا بنيت على أساس ثابت مقطوع به . وما دامت الشبهة وهمية أو ظنية فلا يلتفت إليها . ولا يعبأ بها في مقابلة الدلائل اليقينية

المسألة الخامسة عشرة

﴿ أموال قارون ﴾ (*)

قال الله تعالى في قصة قارون (٢٨: ٧٦ وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة) فقال قوم إن ذلك غير معقول لأن وجود مال بهذه الكثرة غير معروف

ونقول أما إن كان ماله من الذهب والفضة فربما كان قولهم صحيحاً . وأما إن كان من غير الذهب والفضة أو كان من جنس العروض لا من جنس النقد كان ذلك جائزاً . فمن المحتمل أنه كان عنده مخازن عديدة تحتوي على غلال ومأكولات وملبوسات ومفروشات ومصنوعات وغيرها مما ادخره لنفسه أو للاتجار به وكان لهذه المخازن عدة أبواب ومفاتيح كثيرة تثقل العصبة أولي القوة وخصوصاً اذا لاحظنا أن مفاتيح الأمم القديمة كانت كبيرة وضخمة . بحيث يصعب على الانسان حمل كثير منها

على أن الارجح ان لفظ (مفاتح) معناه الخزائن وقياس واحده مفتح بفتح الميم . وبذلك قال ابن عباس والحسن . وقد ورد بهذا المعنى أيضاً في قوله تعالى (٦: ٥٩ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) أي خزائن الغيب ومكنونات أسراره . فخزائن أموال قارون كانت ثقيلة . وهذا امر مشاهد مثله الآن ومعروف كما في البلاد الأوربية والأمريكية من النقود الذهبية وغيرها

المسألة السادسة عشرة

﴿ الوضع اللغوي ﴾

استعمال لفظ القلب في القرآن

توضع الالفاظ في اللغات للمعاني والذوات لمناسبات صحيحة أو غير صحيحة

*) المنار : وراجع الكلام عن قارون وهامان في ص ٢٩٤ من المجلد السادس

ثم يفشو استعمالها بين الناس ويتوسع فيها حتى يجهل كثير من الناس أصول معانيها فلا يبالون في استعمالهم لها إن كان السبب الذي وضعت لأجله هذه الالفاظ للمعاني المخصوصة صحيحاً أو غير صحيح . مثال ذلك قولهم «فلان مجنون» أي غير سليم العقل فلفظ (مجنون) من جُنَّ الرجل أي أصابته الجن ولما كان هذا الاعتقاد شائعا بين القدماء فشا بينهم استعمال لفظ مجنون وما كان من مادته فيمن اختل عقله وإن كان هذا الاختلال في الحقيقة ليس ناشئا عن الجن كما يزعمون ولم تبال الناس بالبحث عن صحة هذا السبب المزعوم الذي لأجله استعمل هذا اللفظ في هذا المعنى بل صاروا يستعملونه (بقطع النظر عن البحث في حقيقة أصله) في كل اختلال للعقل حتى كأنه وضع في أول الامر لهذا المعنى . ومثل ذلك لفظ (عبقر) وهو اسم لموضع تزعم العرب أنه من أرض الجن ثم نسبوا إليه كل شيء تعجبوا من جودة صنعه كما في قوله تعالى (وعبقري حسان) مع أن هــذا الموضع لا وجود له الا في مخيلاتهم الواهمة . وكذلك لفظ (القلب) فانه في الأصل موضوع لداخل الشيء ولبه ولذا أطلقوه على الفؤاد ولما كانوا يعتقدون أن الفؤاد هو مكان التعقل والتفكر صاروا يسمون العقل قلبا من باب تسمية الشيء بمحله على سبيل المجاز المرسل ثم شاع بينهم هذا الاستعمال حتى صارت الكلمتان (العقل والقلب)عندهم مترادفتين في بعض المواضع وجرى على ذلك الأولون والآخرون غير مبالين إن كان أصل هــذا الاستعمال مبنياً على فكرة صحيحة أوغير صحيحة . ومن ذلك أيضا قولهم « غربت الشمس .أو طلعت» فانه تعبير يراد به احتجاب الشمس عنا أو ظهورها لناسواء كان ذلك ناشئاً عن حركتها أو عن حركة الأرض فان أمثال هــذه المباحث يجب أن تكون بعيدة عن الأوضاع اللغوية التي عهدتها الناس وعن الاصطلاحات التي جروا عليها في كلامهم وتعبيراتهم . ولذلك تجــد في جميع اللغات ألفاظاً وضعت في الاصل لأفكار غير صحيحة ثم شاعت بين الناس في معان صحيحة فلم تجــد العلماء بدا من الجري عليها في كلامهم واستعمالها في عبارتهم مع علمهم بخطإ الأصل الذي بنيت عليه . وما سمعنا بأن أحــداً منهم عاب غيره لاجل استعمالها بعــد شيوعها بين الناس ومعرفتهم لها ولذلك يقولون « لا مشاحة في الاصطلاح »

فنحن لا ننكر أن في القرآن بعض ألفاظ وضعها العرب في معان مخصوصة لأفكار كانت عندهم وهي غير صحيحة ثم شاعت بينهم في المعاني حتى نزل القرآن فلم يستغن عن استعمالها فيما استعملت فيه بينهم وإن كانوا في وضعها مخطئين فان ذلك مما تقتضيه الضرورة لنزوله بتلك اللغة فلا يجوز أن يتحاشا تعبيراتها المعهودة للعرب وخصوصاً إذا كانت سَلِسَةِ التركيب

وإنما الذي ننكره بما كتبناه سابقاً أمران (١) أن يضع القرآن من تلقاء نفسه لفظاً في معنى لفكرة غير صحيحة (٢) أن ينص على أمر من الأمور بعبارة له صريحة ويكون هذا الأمر في الواقع ونفس الأمر غير صحيح . فلا ينافي ذلك ورود لفظ فيه مثل القلب، وعبقري، ومجنون ، بمعنى العقل والشيء الجميل ومختل العقل. وإن كانت العرب في وضع هذه الالفاظ لهذه المعاني قد راعوا عللا غير صحيحة. فان ذلك معهود في جميع اللغات وفي كلام جميع العلماء مهما أوتوا من العلم والفلسفة إذ لا داعي يدعو لترك أمثال هذه الألفاظ بعد جريانها على ألسنة الناس في معان صحيحة وإن كانت في أصل وضعها خطأ فانهم لو تحاشوها لضاقت عليهم اللغات ولكانت تعابيرهم عاجزة عن تأدية المعنى المراد ركيكة في نظر جماهير الناس . فمن أمثلة ذلك في اللغات الأجنبية تسميتهم بعض جزائر أمريكا باسم West Indies أي جزائر الهند الغربية والسبب في ذلك أن مكتشف أمريكا (كريستوفر كولومبس) لما رأى هذه الجزائر ظن أنها جزائر الهند فسماها بذلك وجرى الناس على هذه التسمية إلى هذا اليوم مع علمهم بانها خطأ . ومن ذلك أيضاً تسمية الأطباء لبعض الديدان الشريطية المعوية باسم Taenia Solivm أي الدودة الشريطية الوحيدة لتوهم الناس في الزمن السابق أنه لا يوجد منها في الامعاء سوى واحدة ومع أنهم الآن قد علموا انه قد يوجد منها اكثر من واحدة ترى جميع العلماء يصرون على هذا الاسم وان كان الوصف فيه خطأ لشيوعه بين الناس . وكذلك تسميتهم بعض الأمراض العصبية (بالهستيريا) من لفظ Hystera اليوناني ومعناه (الرحم) لظن الناس في الزمن الاول أن علة هذا المرض هي في الرحم ومع علم الاطباء بخطإ ذلك لا يزالون متمسكين به .

اذا علمت ذلك فاسمع الآن معنى القلب في قوله تعالى (٢٢ : ٤٦ افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) فمعنى القلوب في اول الآية العقول وانما لم يقل « فتكون لهم عقول يعقلون بها » لركاكة ذلك ولم يقل « فتكون لهم امخاخ يعقلون بها » لعدم معرفة العرب ذلك ولاستنكارهم هذا التعبير والقرآن لم يأت لتعليمهم أمثال هذه المسائل الفسيولوجية فلذا لم يهتم بها ويصح ان يكون معنى القلوب هنا الأنفس العاقلة المفكرة والأرواح المدركة المدبرة لان قلب الشيء هو جوهره ولبه (١) وخلاصته ولا جوهر للانسان سوى روحه فانها هي حقيقته وكل ماسواها قشور لها . واما لفظ القلوب في آخر الآية فمعناه العضو المعروف في صدر الانسان ومعنى الآية انهم لم يعموا عن المواعظ والعبر لعمى أبصارهم بل لعمى قلوبهم التى في صدورهم اي لعدم تأثرها وانفعالها حتى كأنها قلوب اموات فان قلوب الاحياء تتأثر بما يحيط بالانسان من العوامل فتزيد ضرباتها أو تنقص وتقوى أو تضعف وتنتظم أو تختل الى غير ذلك من التغيرات التي تحصل لحركات القلب وهي تدل على مبلغ تأثر صاحبه وعلى درجة الاحساس عنده فمن لم يتأثر قلبه كانت نفسه جامدة لان القلوب هي دلائل النفوس ولذلك قيدها الله هنا بقوله « في الصدور » لمنع التجوز في معنى القلوب فكأنه تعالى يقول ان الذي يدلكم على موت نفوس هؤلاء القوم وجمود ارواحهم أنكم لو أحسستم بقلوبهم الحقيقية التي في صدورهم لما وجدتموها تنفعل أو تضطرب لما تضطرب منه قلوب الاحياء المتقين اذا سمعوا مابه يتعظون أو رأوا مابه يعتبرون، فكأنه تعالى جعل آخر هذه الآية كالدليل على ماقاله في اولها مما معناه ان عقولهم او نفوسهم لا تدرك شيئا ولولا القيد المذكور وهو قوله « التي في الصدور » لأمكن حمل القلوب في آخر الآية علي ماحملت عليه في أولها وكان المراد منها العقول في الموضعين و بذلك تخفى الفائدة من باقي الآية ولا يكون مافي آخرها كالدليل على مانسبه اليهم في أولها

هذا وورود لفظ بمعنيين مختلفين في اول الجملة وفي آخرها كما في هذه الآية له

---

(١) ولذلك سموا العقول ايضا بالالباب لانها أهم شيء في الانسان منه اه

شواهد أخرى كثيرة من القرآن وفي كلام العرب كقوله تعالى (١٨ : ٤٣ يكاد سنا برقه يذهب بالابصار - اي الاعين - ٤٤ ان في ذلك لعبرة لأولي الابصار) اي العقول وكقول الشاعر

لم نلق غيرك إنسانا يلاذ به فلا برحت لعين الدهر إنسانا

المسألة السابعة عشرة

﴿ التناقض في عبارات القرآن في السورة الواحدة ﴾

ذكر بعض المنتقدين من أمثلة ذلك التناقض في السورة الواحدة ما جاء في سورة المزمل من الأمر بالصلاة في الليل في أولها مع ما ينافي ذلك في آخرها ولما كنت ممن لا يقول بجواز النسخ في القرآن وجب عليّ التكلم على هذه الشبهة بما لا يخل بأصولي الآتية في تفسير القرآن الشريف وهي (١) عدم القول بالنسخ في القرآن (٢) عدم توقف فهم القرآن على روايات الآحاد (٣) كون آيات كل سورة يلتئم بعضها مع بعض كأنها نزلت دفعة واحدة. فمع مراعاة هذه الأصول الثلاثة نقول: —

إن النبي صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه كانوا في أول الاسلام يصلون في الليل إلى ثلثه أو نصفه أو ثلثيه ولعلهم كانوا يفعلون ذلك اتباعاً لامر من الله لهم به في غير القرآن كما كانوا يصلون إلى بيت المقدس في أول الاسلام مع أن الامر بذلك لم يرد في القرآن وأمثال هذه الاوامر هي مما نسميه الاوامر الوقتية أو القولية (غير الكتابية او غير الرسمية). وكانت هذه الصلاة الليلية من أكبر ما يقوي الرابطة بين جماعة المؤمنين الاولى حينما كانوا قليلي العدد فقراء ضعفاء فكانت هذه الصلاة أعظم وسيلة لتثبيتهم واتحادهم وتضامنهم وليزدادوا قوة في ايمانهم على قوتهم فيه. فلما جهر بالدعوة إلى الاسلام وبدأ الدين أن يكون أعم مما كان وأخذ يدخل فيه أصناف مختلفة من الناس منهم ضعفاء الاجسام ومنهم ذوو الاعمال الدنيوية التجارية وغيرها ومنهم من لم يكن عنده من الايمان ما يحمله على سهر الليل كما حمل أولئك المؤمنين الاولين — لما صار الامر كذلك أنزل الله سورة المزمل

(٧٣) وفيها أمر الله نبيه بالاستمرار على قيام الليل ويوجبه عليه دون غيره من المؤمنين فناداه بقوله (يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً) الآيات والخطاب فيها للنبي صلى الله عليه وسلم وحده كما يدل عليه باقي السورة . والمراد بقوله (قم الليل) الامر بالدوام والاستمرار

والذي يدل على ذلك قوله (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل) الآية فكأنه تعالى يقول أنا أعلم ما تفعل ومطلع عليه وإنما أمري لك به هو طلب الاستمرار عليه وكذلك أعلم أنه يقومه (طائفة من الذين معك) يعملون ما تعمل ولا يعصون لك أمراً في ذلك .

ثم قال تعالى (علم أن لن تحصوه) أيها المؤمنون (فتاب عليكم) بالترخيص لكم في ترك ما أمرتم به . وفي هذه العبارة التفات من الغيبة إلى الخطاب فان المخاطبين هنا هم الطائفة الذين سبق ذكرهم . ونكتة هذا الالتفات البلاغية هي اظهار عنايته بهم ورعايته تعالى لهم واقباله عليهم إكراماً لهم على ما قاموا به من التهجد بالليل

ولما بدأ أن يكون من المسلمين المرضي والمشتغلون بالتجارة وغيرها خفف الله عنهم وبين أن قيام الليل لم يبق فرضاً عليهم فلهم فيه الخيار لان تكليفهم به على سبيل الوجوب أصبح شاقاً عليهم وخصوصاً لانهم سيضطرون يوماً ما إلى القتال دفاعاً عن أنفسهم في سبيل الله فقال تعالى (علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الارض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرأوا ما تيسر منه) الآيات

والخلاصة أن قيام الليل كان فرضه رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسه وعلى أتباعه ولم ينزل قرآن في ذلك ولعله فعله بالاجتهاد أو بالوحي في غير القرآن ثم رفع الله تعالى ذلك عن المؤمنين بسورة المزمل وألزم به النبي صلى الله عليه وسلم دون سواه فالنسخ ليس للقرآن وإنما هو لما كان يفعله المؤمنون بأمر رسول الله . والذي يدلك على أن قيام الليل صار خاصا برسول الله قوله في موضع آخر (١٧ : ٧٩ ومن الليل فتهجد به نافلة لك) أي فريضة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة خاصة بك دون الامة

فمما تقدم تعلم (١) أن سورة المزمل لا نسخ فيها للقرآن (٢) ولا تناقض فيها بين آياتها (٣) وأن الامر في أولها هو للدوام والاستمرار وهو معهود في اللغة كقولك لمن يأكل «كل» . والذي دلنا على ذلك قوله فيها «إن ربك يعلم أنك تقوم» إلخ (٤) وأن هذه السورة تفهم بدون احتياج لروايات الآحاد ومن كان خالي الذهن لا يفهم منها سوى ما قلناه (٥) وأنه لا حاجة للقول بأن جزءها الاول نزل اولاً وأن جزءها الاخير نزل بعد مدة . بل على تفسيرنا تكون آياتها ملتئمة مع بعضها كأنها نزلت دفعة واحدة . فكل من يدعي أن في عبارات القرآن تناقضاً فإنما هو جاهل غبي بليد الذهن

وكم من عائب قولا صحيحا　　وآفته من الفهم السقيم

المسألة الثامنة عشرة

﴿ البعث الجسماني ﴾ (*

اذا مات الانسان فدفن تفرقت اجزاء جسمه في الثرى فاذا زرع الزارعون في هذه الارض تغذت الاشجار والنبات منها ومن اجزاء الانسان التى دفنت فيها وانحلت . فاذا أكل انسان آخر من هذه الاشجار والنباتات او من الحيوانات التي تأكلها استحالت الى جسمه ودخل في تركيبه بعض مواد مما كانت في جسم الانسان الاول ومن ذلك تعلم ان مادة الانسان تشترك معه ومع غيره فلا يمكن اعادته بها والا لما أمكن إعادة من اشترك معه فيها

ومن جهة اخرى قد ثبت أن جسم الانسان دائما في تبدل وتغير فاذا اعيد بجميع مادته التى كان بها في الدنيا كان جسما عظيما كبيرا جدا وهو خلاف المنتظر والمألوف

هذان الاعتراضان هي اكبر ما يقال للتشكيك في البعث الجسماني ونجيب عنهما بان المسلم لا يجب ان يعتقد أن جميع ما دخل في جسمه من المواد في الدنيا لابد من اعادتها ولا انه لا بد من إعادته بجسمه الدنيوي لا بغيره بل الواجب عليه أن يعتقد بأن البعث روحاني جسماني وان جسمه قد يكون فيه شيء من المادة التي

*) المنار : راجع المسألة في ص ٥٤ و٤١٢ من المجلد السابع

كانت له في الدنيا وقد لا يكون فيه شيء من ذلك فان مادته الدنيوية اذا دخلت في غيره فأعيد بها فلا يمكن اعادته هو أيضا بها وهو امر بديهى لا يحتاج لقيل وقال فان الانسان لا يتوقف تحقق وجوده على هذه المادة التي هي لجوهره وروحه كالثوب للبدن ولذلك ترى انه في الدنيا يتبدل ويتغير مع ان حقيقته هي هي فالمعول على روحه لا على مادته ولذلك قال الله تعالى (٤:٥٦ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب) وهو صريح في ان المعول عليه هو نفوسهم وأرواحهم لا أجسامهم المتبدلة المتغيرة ولا ينافي ذلك قوله تعالى (٧٥:٣ أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه) فان الالف واللام في الانسان هي للجنس والمعنى أيظن الانسان ان لن يجمع الله عظام الجنس البشري يوم القيامة ويخلق منها الاشخاص ؟ فهو ليس نصا في أن كل مادة لاي فرد اذا كانت مما دخل في غيره واعيد بها فلا بد من اعادته هو ايضا بها بل ان الله سيعيد أجسام البشر من المواد التي كانوا بها في الدنيا ولا يمنع ذلك من اضافة جزء من مادة جديدة عليها وكذلك لا يستلزم ان كل مادة دخلت في جسم في هذه الدنيا لابد أن ترجع اليه في الآخرة والا للزم ان يكون للمادة الواحدة عدة محال تقوم بها وهو محال وليس في عبارات القرآن مايؤدي اليه بل غاية مايفهم منه ان الله سيركب اجسام البشر من المواد التي ركبت منها في الدنيا فان لم تكف فلا مانع من اضافة مادة جديدة عليها ثم انه سيعيد المواد إلى أصحابها الذين كانوا بها في الدنيا بقدر الامكان فاذا كانت مما تداخل في عدة أشخاص اكتفى باعادتها إلى شخص واحد منهم. فان الغرض اعادة الاروح الى أي جسم لا إلى جسم معين كما يدل عليه قوله (بدلناهم جلودا غيرها) كما تقدم ولا ينافي ذلك أيضاً قوله تعالى (٣٦:٧٨ قال من يحيي العظام وهي رميم ٧٩ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) فاننا لا ننكر أن الله سيحيي عظام البشر الرميمة ولا ننكر أنه عالم بجميع أنواع الخلق وطرقه وأنه عالم بجميع الاشخاص الذين دخلت في أجسامهم أي مادة معينة فهو تعالى سيحيي الميت ويرد كل مادة

إلى صاحبها الذي يعلمه . ولا يخرج في ذلك عن الممكنات فانه لا يأتي المستحيلات ولم يقل القرآن إنه سيأتي شيئاً مستحيلاً

أما شهادة أعضاء الانسان التي كانت له في الدنيا عليه فى الآخرة كما جاء به القرآن الشريف فهي ليست مستحيلة فان مادة هذه الاعضاء التي اقترف بها الآثام في الدنيا يجوز عقلاً أن تنطق بذلك وتشهد به عليه سواء كانت معادة في جسمه أو في جسم غيره . فكأن مادة هذه الاعضاء ستقوم بالشهادة على جميع الاشخاص الذين اقترفوا بها الآثام في الدنيا وإن كانت هذه المادة قائمة بشخص واحد منهم يوم القيامة(١) . ومن لا يضع عقله في دائرة لامور الضيقة أمكنه التسليم بذلك فانه من المعقول أن تشهد المادة بجميع ما عملته في الاشخاص المختلفة فيعذب الله نفوسهم على ما عملته وهي قائمة في أي مادة كانت

وهناك طريق آخر في الرد على هذه الشبهة . وهذا الطريق هو ماجرى عليه قدماء علماء الكلام . وتقريره أننا نشاهد أن جسم الانسان هو دائماً في تبدل وتغير فتراه أولاً صغيراً ثم يكبر شيئاً فشيئاً وينتقل من سمن إلى نحافة ومن نحافة إلى سمن وفي جميع هذه الأطوار والأحوال ذات الشخص وحقيقته واحدة لا تتبدل ولا تتغير فالشخص الصغير هو هو بعينه الكبير والنحيف هو السمين وبالعكس . إذاً لابد أن يكون في جسم الانسان شيئان : مادة أصلية . ومادة فرعية فالمادة الأصلية هي التي تبقى فيه من أول نشأته إلى آخر حياته لا تتبدل ولا تتغير وهي التي بها تتحقق شخصيته وفيها تنتقل الأمراض الوراثية والاستعدادات والاخلاق والصفات من الآباء إلى الأبناء . ولا ينافي ذلك ما ثبت في علم الفسيولوجيا الآن من التغيرات الكيماوية الحيوية التي تحصل في خلايا الاجسام الحية فاننا لا يمكننا أن نثبت باليقين أن جميع الذرات التي تتركب منها الخلايا الحية تتبدل وتتغير إذ

(١) المنار : لا نص في القرآن على ان هذه المواد التي تتركب منها اعضاء الانسان في الدنيا هي التي تبعث وتشهد عليه بل أسند الشهادة الى اعضائه سواء تركبت منها او من غيرها فهي اعضاؤه على كل حال . وهل الشهادة قولية او حالية على حد « لي في محبتكم شهود اربع » الخ البيتين ؟ الله اعلم

يجوز أن يكون التبدل والتغير حاصلاً لبعض الذرات دون البعض ولما انضم إليها من المواد الغذائية أي إن كل خلية فيها جزء ثابت وجزء متغير . وعليه فالغالب أن بعض مادة الانسان تكون ثابتة من أول حياته إلى آخرها ولا يمنع ذلك من انضمام أجزاء أخرى اليها تصير ثابتة مثلها ولها من الخواص مالها وهذه الاجزاء تأتي اليها من طريق الغذاء ومجموع هذه المادة الثابتة هي ما نسميه (المادة الاصلية) وأما المادة الفرعية فهي التي تتبدل وتتغير ولا عبرة بها في تحقق شخص الانسان

فاذا مات شخص وانحل جسمه فتغذت به النباتات فالحيوانات حفظ الآله القدير العليم المادة الأصلية له من أن تكون مادة أصلية لشخص آخر وإن كان يجوز أن تدخل فى جسم الآخر وتصير مادة فرعية له لا يتوقف عليها تحقق شخصه وأما المادة الفرعية فقد تصير للثاني مادة أصلية بانضمامها إلى أجزائه الثابتة واكتسابها خواص منها إن كان الشخص في طور النمو . وعليه فالمادة الاصلية لكل شخص تبقى له وحده الى يوم القيامة وإن كانت تدخل في غيره على أنها فرعية له . وبذلك يكون البعث الجسماني ممكناً لأن هذا الغرض جائز ولا يوجد في العلم الطبيعي ولا العقل ما يثبت استحالته

والفرق بين هذا الطريق والطريق الاول أننا في الأول نسلم تغير وتبدل جميع مادة الانسان وأما في الثاني فنقول ان التغير والتبدل حاصل لبعض مادة الانسان دون البعض . والطريق الاول أقرب إلى ظاهر نواميس الوجود والثاني أقرب إلى ظاهر الآيات القرآنية الشريفة . وكلا الطريقين معقول ولا يوجد في العلوم الطبيعية شيء مقطوع به ينافيهما . ولا في آيات الكتاب مالا يلتئم معهما والله أعلم

إلى هنا أمسك بالقلم عن الجولان في ميدان الطروس . فقد زالت الشبهات . وتجلت آيات الكتاب بجمالها كالعروس . وحصحص الحق . وظهر الصدق . فقطع ألسنة الكاذبين . وبهر عقول الناظرين . وإن في هذا الكتاب لآيات للمؤمنين . وإنه لتنزيل رب العالمين . وليعلمنّ نبأه بعد حين

الخاتمة

﴿ في ذكر آيات علمية من القرآن ﴾

قلنا إن القرآن الشريف لم يأت لتعليم الناس شيئاً من العلوم الطبيعية ولكن مع ذلك لم تخل آياته من التعبيرات الدقيقة العلمية ولا من الاشارة إلى حقائق كثيرة من المسائل الطبيعية مما يدل على أنه تنزيل العليم الحكيم فان هذه المسائل ما كانت معروفة لأحد في زمنه ولا يمكن لعربي أمي في ذلك الوقت أن يقف عليها لولا وحي الله . ولنذكر هنا شيئاً من هذه الآيات المشتملة على التعبيرات الدقيقة والمسائل العلمية الطبيعية

(١) قال الله تعالى (٧:٥٧ وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) وقال أيضاً (٢٤ : ٤٣ ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ٤٤ يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لاولي الابصار) وفيه إشارة إلى أن البرق يتولد من السحاب وقوله (من جبال فيها) هو تشبيه لقطع الحساب العظيمة بالجبال لما بينهما من التشابه في الشكل وعدم الانتظام وعظم الحجم كما شبه أمواج الماء بالجبال في قوله (وهي تجري بهم في موج كالجبال)

(٢) قال تعالى (٢٧ : ٨٨ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب صنعَ الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون) وهو صريح في حركة الارض . وليس ذلك في شأن القيامة فان قوله (تحسبها جامدة) لا يناسب مقام التهويل والتخويف وقوله (صنع الله الذي أتقن كل شيء) لا يناسب مقام الاهلاك والابادة . وقال أيضاً (٩١ : ١ والشمس وضحاها ٢ والقمر إذا تلاها ٣ والنهار إذا جلاها ٤ والليل إذا يغشاها) وهو أيضاً يشير إلى حركة الأرض

---

(٢) راجع ص ٢٦٠ م ٦ وص ١٠٤ وما بعدها م ٨ وص ٩٢٠ م ٩

(٣) قال تعالى (٢١: ٣٠ أولم يرالذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) وهو صريح في أن الارض والكواكب كانت شيئاً واحداً ثم انفصل بعضها عن بعض وهو كقول العلماء الطبيعيين إنها كلها أجزاء انفصلت عن الشمس وكانت ملتهبة فصارت تبرد شيئاً فشيئاً وإلى ذلك يشير القرآن بقوله أيضاً (٤١: ١١ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) أي وهي ذات دخان لالتهاب أجزائها ولكون أكثرها في الحالة الغازية

(٤) قال الله تعالى (١٣: ٣ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) وهو صريح في أن الثمرات جميعاً فيها الذكر والأنثى وهو أمر لم يعرف إلا من عهد قريب . والقرآن نفسه هو الذي فسر الزوجين بذلك في آية أخرى بقوله (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى)

(٥) قال الله تعالى (١٥ : ٢٢ وأرسلنا الرياح لواقح) أي ملقحات للأشجار

(٦) قال الله تعالى (١٧: ١٢ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب)وهو يشير إلى أن القمر (وهو آية الليل) مظلم لذاته

(٧) قال الله تعالى (٣٦: ٣٧ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون ٣٨ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ٣٩ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ٤٠ لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون)

(٨) قال الله تعالى (٣٩: ٢١ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض) الآية

فقل لي بأبيك أي عربي أمي يعرف هذه المسائل أو تخطر له على بال وخصوصاً في تلك الازمان التي كان فيها أعلم العلماء في أرقى البلاد يجهل بعض هذه الحقائق المذكورة في القرآن كدوران الأرض وكون جميع السيارات منفصلة عن أصل

---

(٣) راجع ص ٣٣٣ م ٦ و ٢٨٩ م ٧ (٨) راجع ص ٢٩٠ م ٧

واحد وأنها كانت دخانا . وأن الثمرات جميعاً فيها الذكر والأنثى وأن الرياح هي التي تلقحها إلى غير ذلك من دقائق المسائل العلمية الطبيعية . وكلها دلائل على أن هذا الكتاب ليس من صنع البشر بل هو تنزيل من الله العليم الحكيم

الدكتور محمد توفيق صدقي

باب المناظرة والمراسلة

٤

﴿ بحث العمل باحاديث الآحاد والحديث المتواتر ﴾

ولنعد فنقول التواتر هو وان كان من الطرق المفيدة للعلم اذا وجد الا انا لا نحصر افادة العلم بالأخبار فيه كما انا لا نلزم به كل أحد قبل ان يعرف انه متواتر اذا لم يقصر في الطلب او كان معذورا لبعده عن أهله

قال حضرة الدكتور لم يتواتر من اقواله (ص) الا القليل الذي لا شيء فيه من احكام الدين

اقول ما ذكره غير مسلم والتواتر هو ما نقله جمع عن جمع يبعد تواطؤهم على الكذب أي عن محسوس وقد اختلفوا اختلافاً كثيراً في تعيين هذا الجمع . و بناء على تعيين الجمع فيما نظن قال بعضهم بندرة وعزة المتواتر في الاحاديث النبوية. وهذا اولى ما يقال في الاعتذار عن ابن الصلاح في قوله بذلك [illegible]

قال السيوطي نقلا عن شيخ الاسلام ان قول ابن الصلاح نشأ عن قلة الاطلاع على كثرة الطرق واحوال الرجال وصفاتهم المقتضية لابعاد العادة ان يتواطؤا على الكذب او يحصل منهم اتفاقاً — قال ومن احسن مايقرر به كون المتواتر موجوداً وجود كثرة في الاحاديث ان الكتب المشهورة (أي المتواترة عن مؤلفيها) بايدي الناس شرقاً وغرباً المقطوع عندهم بصحة نسبتها الى مؤلفيها اذا اجتمعت (اي او اجتمع بعضها كما قال ذلك جمهور اهل الحديث) على حديث وتعددت طرقه تعدداً

تحيل العادة تواطؤهم على الكذب افاد العلم اليقيني بصحته الى قائله. قال ومثل ذلك في الكتب المشهورة كثير. اه

واقول أيضاً ان من تجرد عن التعصب والتقليد لا تخفى عليه الحقيقة المنشودة في هذا الباب. وبما قدمناه وما يأتي يظهر للمنصف مكانة الخبر الذي ينقله آحاد ثقات قد عرفوا بقوة الحفظ والذكاء والعدالة والورع والتقوى وعرفو ان الكذب على رسول الله (ص) ليس ككذب على احد وان من كذب عليه متعمداً يتبوأ مقعده من النار اعتقدوا ذلك وهم بالصفات التي عرفت وتحملوا من الرواية ما اعتقدوا وجوب العمل به ثم وجوب تأديته لغيرهم كالأمانة وقد علموا ما في الخيانه من الوعيد والترهيب عن كتم العلم

فاذا اتصل سند الخبر بمثل من ذكرناه فهو فيما نعتقد مفيد للعلم اي يبعد ا يمنع العقل عن مثل من نعتناه الكذب عادة ورب رجل يعدل رجالا — فان قيل سلمنا ان من كان مثل هذا يبعد منه الكذب عادة الا انه لا يؤمن عليه النسيان قلت قد علم من عادة المحدثين كتابة ماسمعوه وعلى الاقل للمراجعة الى وقت التأدية وهم لا يعتمدون على المكتوبات الا ما كان موثوقا به ومحفوظاً بغاية الاحتياط ولا يقبلون المكتوبات التي لا يدرى حالها وان كان كاتبها ثقة — وهذا اكبر دليل على ان ما عندهم من الاخبار اصح ماوجد من الاخبار في العالم بعد كتاب الله — وانما كان تواتر القرآن مقدماً على كل خبر لأنه نقل بمثل هذه الاسانيد اليقينية متواترة —

على انا نستبعد عادة ان الراوي الذي ذكرنا صفاته يحدث بما نسيه اذ لوفعل ذلك لم يكن بالمرتبة التي ذكرناها لا سيما في احاديث الاحكام والاعمال لشدة حاجته وحاجة معاصريه الى العمل بها. على أنه اذا نسي ذلك لا يحدث به وان حدث فانه يذكر اللفظ بالشك. ويبعد كل البعد ان ينسى نسيانه لذلك وابعد من ذلك ان لا يوجد هذا الحديث عند غيره

على انه لو فرض وقوع ذلك وهو غاية الندور فلا نسلم ان ذلك يضر في الدين اذ قد اغتفر ذلك أي النسيان والخطاء فيما حاجة الناس اليه اكثر وفيما وجب فيه زيادة الاحتياط وهما فيه اشد ضرراً وفيما هو سبب للضرر بلا واسطة وذلك

في القضاء لان أحد الخصمين قد يكون ألحن بحجته من الآخر فلم يضر الحاكم ان يحكم بخلاف الواقع في هذه الحالة اذا لم يقصر فلأن يغتفر ذلك في الرواية اولى لكون الضرر منها ان وجد لا يكون هو السبب المباشر للضرر غالبا . فتبين بذلك ان ماعسى ان يطعن به في الرواية التي وصفناها مع كونه لايضر في الدين هو بناء شاذ على شاذ كل منها يبعد وقوعه عادة — بل هو اولى بالوثوق من خبر الجمع الفسقة غير الموثقين الذين يقال في خبرهم يمنع او يبعد العقل تواطؤهم على الكذب عادة . فبعد الكذب عمن ذكرناه اكثر من بعده عن جمع التواتر الذي ذكروه

وحيث كان الاصل في جميع العلوم سواء كانت تصورية او تصديقية هو ما ادركه الشخص بأحد مشاعره الظاهرة أو الباطنة أو ما دل العقل عليه أو الوحي السماوي وهذا الاخير لا يكون الا علماً حقاً دائماً وما تقدمه يتفاوت الناس فيه تفاوتاً لا يحصره حد فقد صح لدينا عن المتقدمين وشهدنا ورأينا مالا يحصى في زماننا انه قد تصحح الجماعات ما يعدونه علماً لديهم بتطبيقه على معلومات فرد واحد بل قد يتبين فساد معتقدهم في جانب معلومات الفرد الواحد — وذلك دليل واضح على ان الفرد الواحد الممتاز بالكمال في صفاته وعاداته يعادل بل يرجح بالافراد الكثيرين من بني نوعه

ونحن ايضاً نرى الشخص المنصف قد يتهم نفسه فيما سمعه بأذنه اذا خالفه فيه من يعتقد انه احفظ منه فمثل هذا المنصف اذا اتهم نفسه فيما سمعه بأذن نفسه وقدم على ذلك خبر الممتاز الذي ذكرناه قد يبعد كل البعد ان يقدم على خبر سمعه بنفسه خبر الكثيرين غير العدول — وهل يمكن ان يقال ما علمه الانسان وسمعه لايسمى علماً لجواز زواله بالنسيان؟ فتبين بطلان الخبر أو العلم بعد اعتقاد ثبوته هو عندنا يضارع زوال العلم بالنسيان

وايضاً احتمال النسيان في الخبر مع الذهول عنه كما انه لا يضر الخبر وهو علم في حقه مالم يتذكر انه نسيه فكذلك لا يضر المخبر بالفتح اذا كان المخبر بالكسر بالصفات التي ذكرناها

ان خبر الآحاد قد اتفق على اعتباره جميع البشر كما هو مشاهد واعتبرته

الكتب السماوية في شرائعها وانبياء الله ورسله في التبليغ عنه والله ورسوله امر الأمة أن يبلغوا عنهما جمعاً وفرادى و بعبارة أخرى كل فرد فرد من الأمة مأمور بالتبليغ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكليم الله موسى بن عمران عليه السلام ترك بلد من امره الله بانذارهم وخرج من بين اظهرهم الى مدين معتمدا على خبر الواحد . واثنى الله على من احتج بخبر الواحد كمؤمن آل فرعون الى غير ذلك مما لا يكفي لبسطه المجلدات.

كل ذلك معلوم بالضرورة ولا ينكره الا مكابر فكيف يصح قول حضرة الدكتور لا يجب العمل بخبر الآحاد مطلقا ومن ثم قال الامام احمد رحمه الله إن خبر الآحاد الصحيح يفيد العلم و به قال داود الظاهري والكرابيسي والمحاسبي وحكي هذا عن مالك بن أنس

فان قيل ان الجمهور قائلون بأن خبر الآحاد يفيد الظن . قلنا أولاً اذا كان غرض الباحث مقصوراً على طلب الحق وهو ضالته فلا محل لهذا الاعتراض من أصله على انه يحتمل ان يكون قولهم « خبر الآحاد يفيد الظن » قضية مهملة أي وهي في قوة الجزئية (١) وبهذا الاعتبار يكون بعض أخبار الآحاد قد يفيد العلم

وأيضاً المعروف من مذهب الجمهور ان المشهور والمستفيض لا يجري فيه الخلاف وذهبوا أيضاً الى ان خبر الآحاد يفيد العلم اذا تلقته الأمة بالقبول بحيث يكونون بين عامل به ومتأول له لأن التأويل فرع القبول وجعلوا من هذا القسم احاديث الصحيحين — بل أكثر احاديث ما صنف فيما يحتج به من الكتب التي صنفت في الصحاح والحسان لانجبار الحسان بتعدد الطرق — ولا يهولنك ما قد تسمع به من التفرقة بين رجال الصحيح ورجال الحسن فان شرائطهم في رجال الحديث الحسن ربما لا يبلغها من وسم بأعلا سمات الفضل والعدالة في زماننا هذا — يدلك على ذلك ما عرف عنهم من أقوالهم في الجرح حتى انهم قد يعدّون احاديث من

(١) المنار : أي هي بمعنى بعض خبر الآحاد يفيد الظن . وفيه ان المتبادر من الاضافة العموم الذي هو بمعنى الكلية وكلامهم صريح في هذا

سمع في بيته الغناء موضوعة ـ فان قيل ان هذا افراط قد يؤدي الى ضياع كثير من السنن. قلنا لكنه يدل على أن ما في أيديهم مما وسموه بالصحة والحسن منقى ومبرأ من كل احتمال يؤدي الى عدم قبوله ـ على أنا لا نسلم انحصار وجود ذلك عند من تركوه بل يجوز وجود ذلك عند غيره من الثقات ان كان هو من السنة في نفس الأمر وان كان مكذوباً فلا حاجة لهم ولا لنا به

ان أحاديث الكتب المشهورة عن مؤلفيها فيما يحتج به من السنن النبوية قد عرفت الامة باسرها صحتها أو حسنها لتعدد الطرق وصارت مقبولة عند الكل وأ كثرها قد جمعت ودونت في عهد التابعين أو تابعيهم أما مجرد الكتابة بلا ترتيب للعمل أو للحفظ فقد كان في زمن الصحابة (رض) كما ثبت ذلك من طرق عديدة

وعليه فما قرروا صحته فقد اتفقت الامة على قبوله اذ كانوا بين عامل به ومتأول وهو يفيد العلم لان سكوتهم عن الطعن فيما هو كهذا بل قبولهم له يدل على معرفة كل واحد من العاملين به أو المتأولين له بصحته وهم في كل طريق وطبقة عدد كثير لا يجوز العقل تواطأهم على الكذب عادة.

وأيضاً يدل ذلك على ان هناك طرقا معضدة كثيرة ألجأتهم الى عدم الردولهذا نرى من لم يلتزم ذلك بالعمل عدل الى التأويل — وان ما هذه حاله لا يبعد ان نقول انه اعلا من بعض أنواع المتواتر — وما ذكرناه معلوم إن عرف حال المحدثين واحتياطهم في رواية السنة —

الا تراهم قد عمدوا حتى الى جميع ما شاع على ألسنة العوام مما نسب إلى النبي (ص) ثم صرحوا بتزييف الزائف وما له أصل ردوه الى أصله فما بالك ومارأيك فيهم اذا وجدوا مالا يصح مكتوبا في كتب الهداية؟ اتراهم يسكتون عليه وقد عرف من عادتهم ان مافي اسناده ولو مجهول واحد لا يحتج به عندهم؟ ان أهل الحديث لا يعتبرون رواية من انحطت درجته عن مرتبة رجال الحسن لا عتقادهم ان كثرة الكذابين ونحوهم لا يزيدون الخبر الا وهنا —

لو كانوا يأخذون برواية كل من روى حتى الكذابين والفسقة والكفار كما هي عادة التواترية لبلغ رواة كل حديث من أحاديث الاحكام في كل طبقة إلى

حد الكثرة التي يعتبرها التواترية — فان كان أحد يشك في قولنا فليتبع كتب الصحاح والحسان وكتب الأحاديث الضعيفة وكتب موضوعات الحديث وغيرها من كتب السير والمغازي والتواريخ المسندة والتفاسير وغيرها — انا لا أشك انه يجد أسانيد متعددة لكل حديث فاذا لم يتقيد بطريقة أهل الحديث في شرائط الرواية وجرى على طريقة التواترية فهو يجزم بان رجال هذه الأسانيد يبعد تواطؤهم على الكذب — لا سيما اذا لاحظ من عمل بكل حديث من العلماء من عهد النبي (ص) الى حين كتابتها في كتب الحديث —

يقول التواترية ان خبر الآحاد يفيد الظن وقد قدمنا فساده ويرتبون على ذلك كبرى قياس من الشكل الأول وهي فكل ظن أو كل عمل بالظن فهو مذموم بنص القرآن وقد عرفت فساد الصغرى (١) والحق ان بعض الآحاد يفيد العلم

وأيضاً نحن لا نسلم الكبرى كلية لأن القرآن انما ذم الخرص و بعض الظن لقوله تعالى «ان بعض الظن إثم » وأيضاً ما ذكره الله من الظن المذموم انما هو الظن في تأسيس الشرائع بلا اعتماد على بينة من الله في ذلك ومن تتبع آيات القرآن في ذلك وجده انما يذم هذا النوع من الظن أو ما هو في معناه كما قال تعالى قبل ذلك « هل عندكم من سلطان بهذا » وقوله « ما أنزل بها من سلطان» وقد يذمهم الله بمعارضتهم ما أنزل من الحق بهذا الظن الفاسد الذي لا يستند الى أصل صحيح كما يرد عليهم تعالى شأنه في قوله « ان الظن لا يغني من الحق شيئاً » وهذا لا يصدق على الاحاديث الصحاح ولو كانت آحادا ولا على من يعمل بها ولو كان يعتقد ان ذلك من الظن اذ لا يصدق ولا نسلم انها من الظن المذموم إذ هؤلاء لم يعارضوا بها المقطوع اليقيني غاية ما في الباب ان بعض أهل الحديث أو أكثرهم قد جوزوا نسخ القرآن بأحاديث الاحاد الصحاح وقد قدمنا ان جمهورهم يقول ان بعض الآحاد تفيد العلم ومن كان هذا قوله فلا إيراد عليه واما من يقول بان ذلك يفيد

---

(١) المنار : اي قولهم ان خبر الآحاد يفيد الظن . وهي المقدمة الاولى من مقدمتي القياس اي الدليل

الظن فكذلك لا ايراد عليه لانه يقول ان بقاء الحكم ظنياً والحكم المتأخر عنه في الحديث الصحيح أقوى وأرجح فهو انما أجاز نسخ الظن الضعيف بالظن القوي .

ان من قال بأن جميع أخبار الآحاد تفيد الظن وان كل الظن مذموم عند الله وفي كتابه القرآن الكريم — لزمه ان القرآن متناقض متخالف وانه من عند غير الله لان الله أمر وأوجب الحكم بخبر الآحاد وسماه عدلا في قوله واذا « حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل — وكون الشيء هناك مذموما وهنا عدلا تناقض وخلف وهو في القرآن محال وما انتج المحال فهو مثله فلزم ان الذم لا يتناول خبر الآحاد حتى على التسليم بانه ظن فعلى كل تقدير خبر الآحاد الصحيح عدل واجب العمل به على كل من عرف انه صحيح والله أعلم

وايضا اطلاق الظن مقابلا للعلم انما هو اصطلاح حادث مخالف لاصطلاح القرآن وعادته في محاوراته لان الله جل وعلا قد اطلق على العلم اسم الظن في مواضع كثيرة من القرآن كما قال تعالى حكاية عن الجن — وانا ظننا ان لن نعجز الله . وقوله اني ظننت اني ملاق حسابية — وظنوا انهم احيط بهم — وظنوا انهم قد كذبوا — فظنوا انهم مواقعوها — الى غير ذلك مما اطلق فيه لفظ الظن والمراد به العلم فكذلك حملة القرآن من العلماء لا يبعد ان يطلقوا على العلم لفظ الظن كلهم او بعضهم

فمن يقول منهم ان بعض الاحاديث الصحاح تفيد الظن يمكن ان يحمل قوله على ما ذكرنا على انا قد قدمنا انه لا تصدق على ذلك تلك الآيات الواردة في ذم بعض الظن لعدم العلة الجامعة — وفوق ذلك نقول ان عملهم بالاحاديث الصحاح انما هو من باب الاختبار والعمل باحسن الامرين او الامور التي انحصر الحق فيها وما ذلك الا لمرجح علموه لا ظنوه كما قال تعالى « اتبعوا أحسن ما انزل اليكم — نتقبل منهم احسن ما عملوا — فيتبعون احسنه » الى غير ذلك فاذا تعارضت ادلة ولا سبيل للخروج عنها كلها لانحصار الحق فيها — والحالة ان الاتباع فرض لازم كما قال تعالى « قل ان كنتم تحبون الله ورسوله فاتبعوني يحببكم الله » فيجب على العالم ان يجتهد واذا رجح احدها فهو انما يرجح بمرجح علمه لا ظنه فلا يصح ان يقال ان هذا عمل بالظن حتي يقال انه مذموم

ثم نقول للتواترية ان كل ما الزمتم به متبعي حديث الآحاد الصحيح هو لازم لكم في تواتركم بمعناه عندكم وزيادة على ذلك تلزمكم شناعات وفظائع لا يلتزمها الا من نفض يديه من دين الاسلام بل من سائر الاديان ونحن نبرئ حضرة الدكتور عن التزام مايؤدي الى ذلك لما عرفنا من كتابته السابقة التي اعلن الرجوع عنها نعتقد انه انما يحب الحق واظهاره وانه عند تجليه له لا يتوانى عن قبوله بغاية السرور والبشاشة بل يظهر للملأ رجوعه وان ذلك لما يزيده عند كل منصف اجلالا

﴿ بحث التواتر ﴾

ماهو التواتر؟ — هو غير معروف عند السلف من المسلمين وانما يعبرون عما كثرت رواته او ماروته الجموع بالمشهور وهو عندهم كغيره لا بد من رواية الثقات له والا لم يكن مقبولا

اما من عرف عنه التواتر فقد اختلفت عباراتهم في تفسيره اي حده فمنهم من قال هو مانقله جمع يحصل العلم بروايتهم ضرورة — ومنهم من قال خبر جمع عن محسوس يمتنع تواطؤهم على الكذب عادة من حيث كثرتهم — ثم اختلفوا هل يمكن تعيين جمع يكون اقل نصاب جمع التواتر فقال بعضهم اقله اربعة وقيل خمسة وقيل عشرة وقيل اثنا عشر وقيل عشرون وقيل اربعون وقيل سبعون وقيل ثلاثمائة وبضعة عشر وقيل أربع عشرة مائة وقيل جميع الامة وقيل بحيث لايحويهم بلد ولا يحصرهم عدد والمرجح عند التواتريين عدم تعيين عدد مخصوص وانما مداره عندهم على حصول العلم من حيث كثرة العدد تارة ومن حيث القرائن اخرى

اقول من احاط علما بما ذكرناه من اختلافهم في هذا التواتر وفي شرائطه تحقق ان هذا شيء ليس من عند الله اذ لايمكن القطع به ولا يمكن طرده ولا تطبيقه على كل مافي الاعيان من الوقائع طردا على وتيرة واحدة بحيث يتفق عليه كافة الناس ويكون قاعدة يصح المرجع اليه لفصل النزاع —

يوضح ذلك انه يمكن على معتمد التوترية وقول جمهورهم ان يكون خبر اهل البلدة العظيمة متواترا كباريس مثلا واذا كان خبر الثلاثة والاربعة او الخمسة يصح

ان يكون متواترا بمعنى انه يمتنع تواطؤهم على الكذب عادة والامتناع هذا يكون تارة لمجرد الكثرة اي بلا اعتبار قيد من القيود المعتبرة في الرواة عند اهل الرواية كالبلوغ وكمال العقل والاسلام والعدالة الى غير ذلك . واذا كان الامر كذلك فاذا اخبر خمسة من الفجرة بخبر مثلا فنحن نناشد الله كل ذي عقل و بصيرة هل يحصل له العلم الضروري بخبرهم وهل يمتنع عنده تواطؤهم على الكذب لكونهم جمعا حتى لو كانوا كفارا فجرة اخبروا مرة دفعة واحدة ؟ فان كابر وقال نعم قلنا له وهل يجب ان يحصل لكل احد مثل علمك من خبر هؤلاء ؟ وهل تعد من خالفك مكابرا بدلا عن تكون انت المكابر ؟ نحن نستبعدادعاء عاقل مثل هذه الدعاوي الباطلة

وكذلك نقول ان كل جمع يفرضه التواتر مفيدا للعلم من جهة انه جمع فقط لابد ان يردعليه ايراد صحيح ينقضه الا إنه في بعضها ابين واظهر من بعض الا ترى ان اعلى مامثلوا به لذلك هو قولهم كأن يخبر اهل باريس بقتل او موت كبيرهم مثلا قالوا ان هذا يفيد العلم بسبب كثرتهم . ونحن نقول في الجواب عن ذلك هذا مثال واحد ولا يمكن وجود مثله دائما حتى يصح طرده في كل موضع مما يتنازع الناس فيه . ويقال فيه ايضا يمكن ان يكون افادة الخبر العلم في مثل هذا المثال انما كان لقرائن ككونهم اي اهل باريس ونحوهم لافائدة ولا نقصان ولا مضرة عليهم من اظهار مثل هذه الواقعة فصدقهم هنا انما هو للقرائن لا الكثرة لانا نجد الفرق بين مثل هذا المثال و بين خبر اهل باريس أنفسهم فيما اذا كانوا محصورين بعساكر الانكليز مثلا فاخبروا بقدوم عساكر الروس الى بلدهم لامدادهم فهل خبرهم والحالة ماذكرنا يفيد العساكر المحاصرة العلم الضروري بحيث لا يتشوفون الى صحته ؟ وهل يمكن كذبهم والحالة هذه ام لا ؟ نحن لا نستبعد الكذب فضلا عن عدم امكانه حينئذ

فان قيل نحن نرى انفسنا مطمئنة لاينازعها شك في وجود البلدان النائية التي لم نرها ولا نرى سببا لذلك الا ماتواتر الينا من الاخبار بوجودها

قلنا نعم والامر كذلك لكن لايستلزم ان يكون سبب هذا العلم مجرد الكثرة

وان كانوا كفارا او فسقة فجارا بل لعل ذلك من الكثرة مع انضمام القرائن فان القرائن انواع واصناف لايكاد يحصرها حد أوعد بل القرائن قد تقارن خبر الواحد الكاذب المعروف بكذبه وفسقه فيفيد خبره العلم اذا قارنته وايدته وهي تختلف باختلاف اماكن المخبرين وزمانهم ككونهم اخبروا دفعة او متفرقين و باختلاف حالهم من خوف وأمان وعسر ويسر وحب الاوطان والاقدام والفخر وارهاب ورجاء الى غير ذلك مما يعود على الافراد بفائدة او نقص ولو بتوسط فائدة اونقص طوائفهم واممهم واقوامهم واوطانهم

ولما ذكرناه واضعاف اضعافه مما لم نذكره ولتعسر ذلك لو سلم صحته ولان تكليف العباد به تكليف لما لا يستطاع بل التزامه وحصر العلم الخبري فيه تعطيل لا كثر معارف البشر وإلغاء لا كثر الاحكام الديانات ان لم نقل لكلها واحراج للناس في جميع معاملاتهم ومعاشاتهم وموجب لتقاطعهم فردافردا كالبهائم لم يجعل الله ذلك اصلا ولا قاعدة ولا مناطا لتحقيق شيء من الامور الدينية ولا الدنيوية ولا نبه عليه احد من انبيائه عليهم الصلاة والسلام ولم نعرفه عن احد من السلف الصالح لا الصحابة ولا تابعيهم باحسان

فالحق عندنا ان اخبار الجموع لاتفيد العلم الا اذا ايدتها القرائن او شاركهم الثقات — وخبر الثقات المتواتر هو اعلاها كتواتر القرآن الكريم — ثم خبر الآحاد الأثبات الضابطين بشروطهم يفيد من عرف حالهم او حال من وثقهم العلم ويجب على من بلغه خبر عن المعصوم (ض) ان يبحث عن حاله وحال رواته فاذا وجدهم بالشروط المعتبرة فلا يجوز له اهمال ذلك الخبر لاجل كونه لم يتواتر لما عرفت مما قدمناه كما هو اجماع المسلمين والله المستعان (للرسالة بقية)

اهم الاخبار والآراء

(اعادة القانون الاساسي ومجلس المبعوثان في الدولة العلية)

في صبيحة يوم الجمعة المبارك ٢٥ جمادى الآخرة صدرت الإرادة السلطانية بإعادة « مجلس المبعوثان »والأوامر من مقام الصدارة الى الولايات بالانتخاب. فشمل الفرح والسرور جميع العثمانيين في دار السلطنة وجميع الولايات وفي جميع أقطار الأرض وعدوا هذا اليوم العظيم عيداً عاماً للأمة العثمانية على اختلاف مللها ونحلها

أما سبب نيل هذه الامنية التي تشوف اليها العثمانيون من نحو ثلث قرن بعد ما سلبت منهم فهو التدبير العظيم الذي قامت به جمعيات الاحرار العثمانيين في أوربا ومصر بعد اتحادها ودخول كبار ضباط الجيش المستنيرين فيها ورب تبيين ذلك في وقت آخر

وما كاد نبأ البرق يوافي مصر بهذه البشرى حتى انبث فيها بين العثمانيين من الترك والسوريين والأرمن وغيرهم فأنشأ يهنيء بعضهم بعضاً والبشر يتدفق من وجوههم . ثم طاف جمهور منهم في الشوارع الكبيرة بالقرب من الازبكية وهم يهتفون بالأناشيد العثمانية

ثم اجتمع مئات منهم في رحبة قهوة « اسبلندد بار » وطفق يترنم بعضهم بالاناشيد والآخرون يصفقون لهم .وقام غير واحد منهم فخطبوا بالتركية وقام صاحب هذه المجلة فخطب بالعربية خطبة وجيزة صفق لها الجمهور من حملة الطرابيش والبرانيط بهجة واستحساناً

كان موضوع الخطاب ان هذا اليوم عيد لجميع العثمانيين على اختلاف مذاهبهم وأديانهم واجناسهم وان الفضل في نيلنا الدستور عائد لمساعي أحرارنا وجمعياتنا السياسية ، وضباطنا ذوي البسالة والحمية ، وانه يجدر بنا معشر العثمانيين ان نفاخر جميع الأمم بنيل الدستور من غير ثورات داخلية تراق فيها دماء الالوف ويهلك فيها الحرث والنسل : وأنه ينبغي لنا ان ننسى الماضي وان نعمل للمستقبل فنظهر للامم كلها اننا أهل لهذا النوع الراقي من الحكومة فيجب ان يتحد التركي والعربي والرومي والارمني وسائر الاجناس العثمانية ويقوموا بالاعمال التي ترفع شأن البلاد على قواعد المحبة والمساواة ...

ومما قلته ايضاً اننا نشكر للحضرة السلطانية المبادرة الى اجابة طلب الضباط الناطقين بلسان أحرار الامة . فبطل التصفيق او قل عند ذكر السلطان وأشار كثير من الترك والأرمن اشارات الانكار

وفي يوم السبت التالي اجتمع في دار رفيق بك العظم جمهور عظيم من فضلاء العثمانيين المختلفين في الجنس المتحدين في العثمانية لأجل المذاكرة في تنظيم مظاهرة باعلان السرور وإرسال برقيات الشكر الى جمعيات الاحرار في أوربا والى الاستانة وقد كانت جمعية الشورى العثمانية قررت في يوم الاربعاء الماضي جمع اكثر هؤلاء الاحرار للمذاكرة في شؤون الثورة ومطالبة الصدر الاعظم سعيد باشا بأن يختم تاريخه بمساعدة الامة على اعادة الدستور وجمع «مجلس المبعوثان» فلما بشرنا البرق في مساء يوم الجمعة بصدور الارادة السلطانية بذلك تحول مقصد الاجتماع الى ماذكرنا

اقترح الجمهور ان ترسل تهنئة برقية الى الامير صباح الدين داماد(ابن اخت السلطان) رئيس جمعيات الاحرار باريس يشكر له فيها سعيه وسعي الاحرار ويكلفه فيها ان يبلغ نيازي بك رئيس الضباط الذين اظهروا الثورة العسكرية في مكدونية وإخوانه كنوري بك وانور بك شكرهم وسرورهم. ورسالة اخرى الى الصدر الأعظم

فاقترح صاحب هذه المجلة إرسال رسالة خاصة الى السلطان . قلت : ان ضباطنا واحرارنا طلبوا والسلطان أعطى فنشكر له أنه قدر الحال حق قدرها وبادر الى الاجابة ولم يضطر الجند الى سفك الدماء . فوافقني على هذا الاقتراح من حضر من السوريين اكثرهم بالقول وبعضهم بالسكوت. وعارضني اكثر الترك والأرمن وقال واحد من اشهر احرار الترك : انه لم يجب الطلب فضلا واحسانا ولكنه اجابه بعد ان أشرعت في وجهه مئة وخمسون ألف حربة(سنكه) وقال بعض المعتدلين منهم لا بأس بأن يذكر في تلغراف الصدر الاعظم تبليغ السلطان سرور العثمانيين وبعد طول البحث انتخب الجمهور لجنة منهم لتقرير ما يجب وجعلوا رئيسها اسماعيل حقي بك القائمقام العسكري (لان الدستور رجع بقوة الجند) فقررت ان تحتفل في احد دور التمثيل احتفالا يخطب فيه العثمانيون بالتركية والعربية والفرنسية

والارمنية والرومية . وان يعرض على الجمهور المحتفل صورة رسالتين برقيتين إحداهما للامير صباح الدين افندي والثانية للصدر الاعظم وترسلان بعد اقراره عليهما . وقد بذل الحاضرون ما يلزم من النقود لاجل ذلك بغير اكتتاب بل بمجرد الاريحية

وفي مساء ذلك اليوم اجتمع جمهور من المصريين في حديقة الازبكية لاظهار السرور بنيل العثمانيين للدستور ومجلس النواب (المبعوثان) حضرنا هذا الاجتماع في اثنائه واقترح علينا حسين بك تيمور الذي دعا الى الاحتفال و بعض العثمانيين ان نخطب بالحاضرين خطبة تناسب المقام وكان جل اقوالهم إطراء للسلطان بأنه تفضل وتكرم بالدستور راي بغير علة ولا سبب، ولا ثورة ولا طلب ، وان جيوشه منتشرة من منابع النيل الى سيلان ! ! ! ثم رأينا الجرائد كتبت عن هذا الاحتفال فوصفته الجريدة والمقطم كما حصل وذكر اللواء عنه نبذة صغيرة معظمها كذب . وهذا ما جاء في الجريدة

مظاهرة في حديقة الازبكية

اعلن حضرة حسين بك تيمور — انه سيخطب في حديقة الازبكية نحو الساعة السادسة بعد ظهر أمس لاظهار السرور بمنحة الدستور لاخواننا العثمانيين . فبناء على هذا الاعلان توافد الناس من خاصة وعامة الى حديقة الازبكية ولما وافت الساعة السادسة التفوا حول كوشك الموسيقى فافتتح الخطابة حضرة ربيع افندي المدرس بالمدرسة التحضيرية فبسط كلمة عن فوائد الدستور ثم قال اننا نؤمل البلوغ الى غايتنا من نيل المجلس النيابي وان طال علينا الامد . ثم اختتم خطبته بالدعاء لجلالة السلطان والامة العثمانية والجناب العالي . وتلاه شاب يدعى الشيخ حسين الغزي من طلبة العلم في الازهر الشريف فحذا حذو الخطيب الاول في الموضوع ثم تلاه حضرة الشيخ صادق عمران فتلا قصيدة يمدح بها جلالة السلطان والامة العثمانية ثم طلب جماعة من رجال الصحافة والادب إلى حضرة الاستاذ العلامة السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار أن يتكلم في الموضوع كلمات تروي الغليل فأجاب دعوتهم وارتقى مكان الخطابة فقال ما خلاصته

« هذا اليوم هو عيد للعثمانيين عامة وعيد المسلمين خاصة فإنه عيد بحكومة

الشورى التي يتمتع بخيرها العثمانيون كافة من جميع الملل والاجناس . وحكومة الشورى التي قررها الاسلام بقوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » وقوله « واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه الى الرسول والى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم »

مسائل الأمن والخوف من الامور العامة المتعلقة بسياسة الامة وإدارتها ولم يفوّض القرآن الامر فيه الى الرسول (ص) وحده وهو الامام المعصوم وصاحب الشريعة ومبلغها بل جعل الامر فيها اليه والى أولي الامر من الامة يديرونها بالشورى بينهم

من هم أولوا الامر ؟ زعم بعض المحرفين أو المخرفين ان أولي الامر هم الملوك والسلاطين وهو زعم ظاهر البطلان فان الرسول لم يكن معه حين نزلت الآية ملوك وسلاطين وانما كان يستشير أولي الرأي والمكانة من الامة فهم أولو الامر بغير نزاع

أفرأيتم هذه الهداية إلى حكومة الشورى وسلطة الامة . هل يوجد عناية وتأكيد في شريعة ودين أبلغ منها ؟ اذا كان رب العالمين لم يرض ان يكون خاتم رسله مستقلاً بادارة الامور العامة دون أهل الرأي من أمته فكيف يرضى أو يشرع لغيره ممن هو دونه بذلك ؟

مع هذا كله لم تلبث حكومة الاسلام بعد الخلفاء الراشدين ان صارت شخصية استبدادية ولا نخوض في الكلام عن الماضي فانما غرضنا الكلام عن الحاضر

تقلب الزمان ودالت الدول ودخل العالم الانساني في طور جديد فسبق غير المسلمين الى حكومة الشورى وكانت حكومة دولتنا العلية وهي شخصية على خطر بين الحكومات النيابية الشورية المجاورة لها ففكر بعض أصحاب العقول الكبيرة فيها من نحو نصف قرن في جعل الحكم بيد الامة وانفذوا ذلك من نحو ثلث قرن فوضعوا القانون الاساسي وأنشأوا « مجلس المبعوثان » الذي تعبرون عنه بمجلس النواب ولكن لم تلبث السلطة المطلقة ان استردت هذه المنحة أو هذا الحق منهم

لو كانت الامة العثمانية في ذلك الوقت مستعدة للدستور استعدادها اليوم لما أمكن أخذه منها ولكنها لم تنله باستعداد الجمهور بل باستعداد أفراد من نابغي وزرائها أصحاب الادمغة الكبيرة والافكار البعيدة والغيرة الشديدة كمدحت باشا واخوانه

لم يكن العقلاء في الامة العثمانية يعدون على الاصابع فيموت الدستور بموتهم بل كان في الامة كثير من أهل التربية العالية والمعارف السامية ولكنهم لم يكونوا منبثين في الامة كلها ولا مشتغلين باشراب روحها معنى الحكم الذاتي

فلما رأوا أنفسهم قد سلبوا ما فيه سعادة الامة وعزة الدولة وانه لا سبيل الى استرجاعه من الاعلى كما جاء أولاً بتدبير مدحت باشا وحسين عوني باشا وإخوانهما رأوا ان يطلبوه من جانب الامة بتوجيه نفوس المتعلمين اليه فانشأوا الجمعيات السرية التي ظلت تسعى وتدأب وتصارع الصعوبات حتى اتيح لها الظفر الآن ونالت ما تتمناه »

ولما بلغ هذا المقام من البيان التاريخي المفيـد كبر على أناس لم يفقهوا قوله فحدث شيء من الشغب واقتطع الخطيب عن الخطابة اه كلام الجريدة

وأزيد على ماذكرته الجريدة ماجاء في بعض الصحف وهو ان بعض المصريين صاح ليحي السلطان . لتسقط تركيا الفتاة . او حزب تركيا الفتاة . فصاح بصياحه جمهور من الحاضرين فاستاء من كان هناك من فضلاء الترك وغيرهم من العثمانيين وقال قائل منهم : ياشيخ رشيد لا تتكلم على هؤلاء الذين لا يفهمون . فما زادهم ذلك الاصياحا بسقوط تركيا الفتاة اي الامة العثمانية في حياتها الدستورية الجديدة!!! وظنوا لجهلهم ان من لوازم حب السلطان ان يعيش على شيخوخته وضعفه عمرا طويلا بغير امة او بامة ميتة وجودها كالعدم فهكذا يكون الاحتفال بالدستور!!

اما العثمانيون الاخيار فقدجعلوا موعد احتفالهم مساء يوم الثلاثاء غرة رجب وأن لا يذكر الخطباء فيه اسم السلطان بذم ولا مدح ولا تهنئة ولا شكر عملا برأي السواد الاعظم وخلافا لرأي اكثر السوريين وهم العدد الاقل في جمهور المؤتمرين بالاحتفال وسنذكر شيئاً عن الاحتفال في الجزء الآتي

أرسل الينا كثير من المحبين رسائل التهاني بنيل أمتنا للدستور لعلمهم بما أصابنا من الاستبداد منها ماطار به البرق ومنها ماعدا به البريد، منها ماهو بعنواننا الخاص ومنها ماهو بوصف جمعية الشورى العثمانية . فنشكر لجميع المهنئين عاطفتهم الشريفة ونخص بالذكر لجنة الشورى العثمانية في البرازيل وربما ننشر شيئاً مما فيه العبرة والفائدة من تلك الرسائل

الفصل العاشر (*)

محمد (عليه الصلاة والسلام) قبل تزوج خديجة

واذا العناية صاحبت مرءا فلا   تكثر سؤالك فيه كيف ولم وما
ودع التردد إن أتاك حديثه   مهما حوى مهما نما مهما سما

لا تسأل كيف أبدع الإنسان من فتق الكواكب من رتق موادها، وقدر مدارات لحركاتها، ونظامات لتقابلها، وأنشأ منهن المقسمات ليلنا ونهارنا، المدبرات صيفنا وشتاءنا، الناظمات في أحشائهن شملنا، المادّات بنسائمهن نسماتنا، وبأرواحهن كياننا، ولا نسأل لم خلق لنا الأرض جميعا نشرح أحشاءها، ونقطع أوصالها، ونستخرج أفلاذها، قد حصرناها على عظمها في يدنا، وحشرنا كل ما فيها في ذرات صغيرة من دماغنا، ان شئنا نرفع من شأنها بما نركّب من أجزائها، فيأتي منها من البدائع ما يدهش ألبابنا، ويسحر أبصارنا، وان شئنا لم نعبأ بها، واستشرفت نفوسنا الى غيرها، فاطّلعنا الى مصادر الأرواح ومواردها، ومشارق الأسرار ومغاربها، وارتفعنا الى ينابيع الاكوان ومظاهرها، وتلمسنا ثمة حياة لا نحتاج فيها الى ماء الارض وهوائها، وترابها ونارها

ولا تسأل كيف تقاربت صورنا معشر الإنس وتباعدت حقائقنا، ولم طالت آمالنا وأعمالنا، وقصرت آجالنا وأعمارنا، ولم جشعت نفوسنا بتكثير الصور ثم شغفت كل نفس بأنواع منها، وتخالفنا في تمييزها وترجيح

*) من سيرة السيدة خديجة

بعضها على بعض، وتدابرنا في مناهج طلابها ، وتقاطعنا في سبيل اكتسابها ، ولم هذا البون في أنصبائنا ، والفرق في مرامينا ، والبعد في مدارجنا ، والغبن فى معارجنا ،

ولماذا منا أناس مع الكواكب مداركهم سابحة في أفلاك الحقائق ، وبروج الرقائق والدقائق ، ومع الانوار سيرهم منتشرة في سابق الدهور ولاحقها ، وبادي الشعوب وحاضرها ، وآخرون مع الديدان مشاعرهم دابة بين أوراق الآجام وأحطابها ، أو تحت دخان القفار ونقعها ، ومع العصف صورهم منطوية في احشاء الاواكل ، ومندرجة في الاواخر مع اخوانهم الاوائل

لا تسأل عن هذا كله ان كانت نفسك قد وقفت عند مطمأنها من معرفة الاول الآخر ، الظاهر الباطن ، ذي الحياة الازلية الساري سرها في الاكوان والوجودات ، البادي خط جلالها وجمالها على لوح الآيات البينات ، من الاشكال والتنوعات ، وِمن آياته أن خَلَقكم مِن تراب ثم إذا أنتم بشرٌ تنتشرون * ومِن آياته أن خَلَقَ لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعلَ بينكم مودةً ورحمةً ان في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون * ومِن آياتهِ خلقُ السموات والارض واختلافُ ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالِمين * ومن آياتهِ منامُكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان في ذلك لآياتٍ لقومٍ يسمعون * ومن آياته يريكمُ البرق خوفاً وطمعاً وينزِّلُ من السماء ماءً فيحيي به الارضَ بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون * ومِن آياتهِ أن تقومَ السماء والارضُ بأمره ثم اذا دعاكم دعوةً من الارض اذا أنتم تخرجون

اذا وقفت نفسك عند هذا المطمان من المعرفة فلعلها تصل بك الى معرفة ان ذا الحياة الازلية ذوحكمة ليس في وسع استعدادنا ان نحيط باسرارها خبراً مهما حامت حولها آمال مداركنا ، ومهما طافت في سوح قدسها صوافي سرائرنا ، فأخلق بأحدنا أن يتذكر في هذه المسابح الفكرية عجز أجنحة عقولنا عن أن تصل بنا الى مادون هذا السر الاعظم، ووقوعها بنا في كثير من أشراك الاوهام في الوجودات التي هي تحت حسوسنا ، وفي جوار جسومنا ونفوسنا

وعسى أن ترقى بك هذه المعرفة الى الاذعان بأن هذا الحي الازلي الحكيم ذو عناية ربانية لا يحاسب على مايختص بها ممن يشاء فله الامر كله فيما يبدي، ويصور ، وله الحكمة فيما ينوّع ويميز ، منه كل شيء واليه المآب

وان كنت في ريب من الحكمة الازلية، والعناية السرمدية، فدع نفسك واقفة ماشاءت في عتمة النفي ، أو دائرة في سجن الشك ، أو طائرة في جو الوهم لاقرار لها . وانما نحكي هنا للذين هم بربهم يؤمنون

***

سبق في العناية الازلية أن تكون هداية شعوب كثيرة الى أقوم سبل الحياة على يد رجل من العرب يرتفع به اسمهم في العالمين وكان من هذا الشرف الذي أعتده الله للعرب أعظم نصيب لعبد المطلب الذي أخرج الله انسان هذه الهداية من أولاده

كان عبد المطلب [1] من كبار أشراف قريش ورزق عشرة أولاد

«١» اسم عبدالمطلب شيبة ولتسميته بعبد المطلب حكاية وهي ان أباه هاشما =

من الذكور وكان ابنه عبد الله أحبهم اليه فزوجه شريفة من شرائف قريش من بني زهرة تدعى آمنة فحملت منه وقبل أن تضع حملها توفي فلما وضعت كفل وليدها جده وكان هذا الوليد المبارك «محمداً» صاحب القرآن

فما أسعدك ياعبد المطلب أ كنت تدري وأنت في أبواب أبرهة الحبشي تتطلّب منه رد ذلك القليل من الإبل الذي لك مما استاقه من إبل مكة أن سيولد لك في هذا العام حفيد تنثني أعناق الملوك في الاجيال المقبلة خاضعةً لذكره

أ كنت تفكّر اذ قصارى أملك حفظ مقامك بين قومك المنقطعين في تلك البرية ان اسمك سترن به المحافل في الامصار النائية والشعوب المختلفة على مدى عصور كثيرة كلما ذكر نسب حفيدك العظيم الذي أعتده الله لمنصب يتبعه من أجله العالمَ ويبقي ذكره فيهم الى الابد

أخطر على قلبك أن بلدك المقدس الذي لم يكن يحج اليه الا العرب ستحج اليه كل شعوب الارض اتباعاً لما جاءهم به حفيدك من الهداية

أجاء في خلدك ان كنّتك آمنة الزهرية انما ولدت من يشرف الله به قومك ويجمع به كلمتهم ويعلي سلطانهم وينشر لغتهم ويقيم لهم مجداً مع الدهر مذكوراً، وفي كتاب العالم مسطوراً

= كان قد تزوج أمه من بني النجار في « يثرب » (المدينة) فلما ولدته تركه عندها حتى كبر وكان هاشم تاجرا فخرج بتجارة الى الشام فمات في « غزة » فذهب أخوه المطلب بن عبد مناف ليأتي بابن أخيه فأبت والدته أن تعطيه اياه حتى أقنعها بأن اقامته في بلدته وبين قومه وعشيرته خير له ولما جاء به كان مردفه خلفه على بعير فظنت قريش انه عبد ابتاعه فقالوا عبد المطلب وقال لهم المطلب ويحكم انما هو ابن أخي هاشم قدمت به من المدينة ولكن ذاعت كلمة عبد المطلب فاشتهر بها وصارت كانها علم له

هل كنت ملهما اذ سميته محمدا ؟ وكنت على رجاء كبير بأن يقيم له العالمون تحميداً لا ينقطع ، وتمجيداً لا يزول ؟

أعرفت أنك بحفظك هذا اليتيم وكفالتك اياه وعنايتك به انما كنت تحفظ للعالم كله التحفة التي آتاهم الله من كرمه ، والوديعة القدوسية التي اختص الله بيتك لظهورها ، وقومك لانتشار مبدإ نورها

فأنت بما أوتيت من هذه السعادة الخالدة جدير ايها المخصوص بعناية الحي الأزلي ، فليدم ذكرك جملا للمحافل واسمك ساميا مع اسم حفيدك نبيّ الشعوب وبركة العالم

***

كانت ولادة محمد في القرن السادس من ميلاد المسيح عليهما الصلاة والسلام اي حوالي سنة سبعين وخمسمائة منه وحوالي السنة الثامنة والأربعين من ملك كسرى انوشروان . ولم يكن قومه يعرفون سنيّ الامم وتواريخها ولا سني انفسهم وانما كانوا يحفظون الأعمار ويوقتون آجال الأشياء بالوقائع الشهيرة والحوادث العظيمة كما هو شأن الاميين الى عهدنا

ولد عام الفيل وهي سنة اشتهرت بهذا الاسم لوقوع حادثة فيها عندهم تدور صفوة حكايتها على حرن فيل القائد النجاشي وابائه المسير تلقاء مكة فلذلك سميت بهذا الاسم . وحادثة الفيل شديدة الشهرة ويصح ان نقول انها من التاريخ المقدّس عند المسلمين أي انها ذكرت في القرآن ولكن على اسلوبه في القصص التي يذكرها لاجل العبرة فقط لا على أسلوب المؤرخين ونَقَلة الاخبار

وقد أعطي لمرضعة على عادة قريش في اعطائهم الأولاد للمراضع من القبائل النازلة قرب مكة ابتغاء ان تتربى أجسامهم في البادية حيث الارض النظيفة قد كسيت من الازاهر أبدع النمارق الطبيعية ، والنسائم

متحملة من ذلك العبير تهديه الى النفوس رائحة وغادية

* * *

اذا بزغ رأس النهار أرسل الى أفئدة أهل النشاط روحاً مبشراً بطيب عقبى العمل، وسوء منقلب الكسل، وكأنّ بينه وبين سكان البراري وساسة الأنعام عهداً أن لا يقبل بطلعته الباسمة الا وهم مستقبلوه بالتحيات الطيبات من مباسم هممهم، وثغور اجتهادهم، ورافعون اليه آيات الشكر على ماله من الايادي البيضاء في اخضرار عيشهم، وابيضاض وجوه آمالهم

بزغ الفجر يوماً على نسمتين في أباطح تهامة قد أسفر عليهما البشر، ونفذت الغبطة من أعماق جوانحهما الى أسارير وجهيهما، ولم يكن ذلك الانس والبشر لما حولهما من مجالي عرائس الطبيعة لان السماء كانت شحيحة عليهم تلك السنة فلم تترع حياضهم، ولا أونقت رياضهم، ولولم يصن الوادي لهم القليل مما أغيثوا به مرة لقتلهم الظما - ولا لما حولهما من وافر الرزق وسابغ النعم لانهما لم يكونا يملكان الا غنيمات قد جارت عليها السنة، وقتلها الجهد والجدب، ولكن كان ذلك السرور بنعمة جديدة أصاباها فملأتهما فرحا، وأشبعتهما ابتهاجا، ولم يكونا يفتران عن هذا الحديث الذي كانا يتغذيان به صباح مساء، ويجددان به شكراً على هذه النعماء، وهذا ما كانا يتحدثان به :

— حقا ياحليمة انكِ قد جئتنا بتحفة سنية ونسمة مباركة

— أي والله ياحارث وانظر ما أجمله، انظر الى هذه الاشفار الهدب، انظر الى هذه العيون الدعج، انظر الى هذا الجبين الازهر، انظر ما أبهى انعكاس هذا الضياء المقبل من الشرق على مرآة هذا الجبين

كان هذا الحديث يجري بين امرأة وزوجها من قبيلة بني سعد صبيحة يوم كانا قبله في مكة وكانت هذه المرأة هي التي جاءت بحفيد عبد المطلب

لترضعه وقد حدثت هي حديثها كيف جاءت به وكيف رأت من بركته قالت

خرجت مع زوجي وابن لي صغير على أتان لي قمراء [1] معنا شارف [2] لنا والله ماتبض بقطرة وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع مافي ثديي ما يغنيه ، وما في شارفنا مايغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتاني تلك فلقد أذمت [3] بالركب ضعفا وعجفا حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما منا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه اذا قيل لها انه يتيم وذلك انا انما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول يتيم وما عسى أن تصنع أمه وجده فكنا نكرهه لذلك فما بقيت امرأة قدمت معي الا أخذت رضيعا غيري فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي « والله اني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعا والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه» قال لا عليك ان تفعلي عسى الله ان يجعل لنا فيه بركة ، قالت فذهبت اليه فأخذته وما حملني على اخذه الا اني لم أجد غيره . قالت فلما أخذته رجعت به الى رحلي فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن فشرب حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك.وقام زوجي الى شارفنا تلك فاذا انها حافل [4] فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا فبتنا بخير ليلة قالت. يقول صاحبي حين أصبحنا تعلمي والله يا حليمة لقد أخذتِ نسمة مباركة قالت فقلت والله اني لارجو ذلك. قالت ثم خرجنا وركبت أتاني وحملته عليها معي فوالله

(١) القمرة بالضم لون الى الخضرة أو بياض فيه كدرة . حمار أقمر وأتان قمراء «٢» الشارف الناقة المسنة «٣» أذمت بالركب أي حبستهم لانقطاع سيرها من عجفها أي هزالها وضعفها «٤» حافل كثيرة اللبن

لقطمت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمرهم حتي ان صواحبي ليقان لي «يا ابنة ابي ذؤيب ويحك اربعي علينا [1] أليست هـذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن بلى والله انها لهي . فيقلن «والله ان لها لشأناً

قالت ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً فنحلب ونشرب وما يحلب انسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت ابي ذؤيب . فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمي شباعاً لبناً فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان »

فيالك من سعيدة يا حليمة اذ كتب لك ارضاع اليتيم الذي تربيه العناية الخاصة ولم يكشف لك من آثارها الا هذه البركة التي ملأت يديك ويلكن أيتها المراضع الغبيات المعرضات عن اليتيم التماساً لارضاء الذين لهم آباء . لقد فاتكن الحظ وما الحظوظ بالاختيار ، وعزاء لكم أيها اليتامى فقد عاش محمد العظيم يتيما

* * *

بعد ان ربي « محمـد » (ص) في بني سعد عند السعيدة حليمة جيء به الى أمه فذهبت به وهو ممتلئ قوة وهو ابن ست سـنين الى المدينة لتزيره اخواله من بني عدي بن النجار وفي عودتها الى مكة توفيت في مكان يسمى الأبواء . وكان عبد المطلب شـديد العناية بحفيده ويتوسم فيه علو الشأن فلما بلغ الثامنة من عمره ودّعه مفارقاً هذه الدار وأودعه لدى الجناب الالهي الذي من لدنه واردات البر والبركات اليه ، ونوافح الرأفة والحنان عليه ،

«١» اربعي أي ارفقي واقتصري

وقام مقامه ابنه ابو طالب شقيق عبد الله ابي النبي (ص) فأدخله في آل بيته وتعهّد تربيته وتثقيفه

وكان أبو طالب امرءاً نبيهاً شهماصادق المروءة، ماضي العزيمة، نصاراً للعدل والانصاف . عرفنا كل ذلك فيه من تكليفه نفسه اقصى ما يمكن ان تكلف النفس في حماية ابن اخيه لما قام بالدعوة ومن مواقفه أمام قريش في نصره والذود عنه . وقد خلف ابو طالب أباه عبد المطلب في المقام السامي بين قومه فكان ابن عبد الله يتنقّل في بروج العز والسؤدد والسعادة في آفاق الشرف الهاشمي، وتنطبع في جوهره الكريم صور البر والعدل والإحسان على مثال الخلال الشريفة التي كان يتحلّى بها ذلك الرجل السامي التربية (أبو طالب)

نحن قد رأينا من آثار العناية الازلية بذلك اليتيم العزيز ما يصح القول معها انه كان مستغنياً عن تربية أحد ولكن لماذا لا نقول ان إعداد ذلك العم الفاضل لتربيته في الصغر كان من جملة آثار العناية الفائقة به

أما تربيته اياه التربية الجسدية فقد كانت على غاية ما يتصور علماء الصحة ولذلك جاء من آثارها قوة جسدية لهذا المبارك لا نظير لها وصار على صورة من الجمال كانت تجعل الذين يرونه يقولون لم نر مثله . ولا يتم الجمال الا بصحة البدن وهي انما تتم بحسن التربية الجسدية

واما تربيته اياه التربية العقلية فكانت جديرة أن يسجد أمامها فلاسفة النفس وأساطين العقل وهناك من آثارها قبل النبوة ما يجعلنا في حيرة من أمر هذه القبيلة الصغيرة المبتعدة في دارها عن مناشىء الارتقاء العقلي ، ومناجم الإشراق الفكري ، لا كتب يدرسونها ، ولا قوانين للمعارف يرتبونها ، ولا شيء الاغرائز طيبة يتوارثونها، وقواعد عامة يتناقلونها، وحصافة أوتوها

في نقش أصح التجارب في المدارك، والاحتفاظ بأثبت الفوائد في الذواكر، وكذلك يفعلون في التربية الاخلاقية ينشئون الذرية على دروس المشاهدة في مدارج العمل، ودروس القصد والاعتدال في معارج الأمل، فيأتي من تلك السلائل التي لم تحتها عدوى الاجيال الفاسدة نوابغ في العقول والاخلاق، أفذاذ في الهمة والاعمال، بطبع من المربين، ونقش من المثقفين، وذلك كان شأن أبي طالب ودأبه مع ابن أخيه العزيز، وربيبه النجيب،

نشأ «محمد» (صلوات الله عليه) في أمثل التربية بأنواعها كلها على يد ذلك الفاضل العظيم فجاء منه رجل أحسن الناس خَلقاً وخُلقاً، أذكاهم عقلاً، وأزكاهم نفساً، وأصدقهم لساناً، أنداهم في العرف يداً، واثبتهم في الازم قلباً، أرحمهم للضعيف، وأشجعهم على القوي، أبرهم للقريب، وأعدلهم للبعيد، أقربهم الى المعروف سمعا، وأبعدهم في الامور نظراً، أسدهم رأيا، وأشدهم اقداما، ألينهم للصاحب جانبا، وأكرمهم للخير صاحبا، وحسبك انه عرف منذ صباه بالأمين وما زال على هذا المنوال حتى أكرمه الله بذلك المنصب العظيم فزاده جمالا وجلالا وكمالا والله أعلم حيث يجعل رسالته

نشأه ذلك المربي على كل ما يزين الرجال من الاعمال فلما كان ابن اثنتي عشرة سنة سار به الى الشام وكان أبو طالب تاجراً فأوقفه في هذا السفر على ما تكن الارض وتعلن من طبائع الاقاليم المتغيرة، وأحوال العالم المتحولة، ففي طريقهم من مكة الى الشام منازل أمم كانت فبانت. كانوا على وجه الارض جمالاً لها فلما فسقوا عن السنن التي تحيا بها الامم شالت نعامتهم طرا، وطارت نعمتهم جميعاً، وأصبحوا كأن لم يكونوا «فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا» وفي رؤية أمثال هذه المنازل الخاوية

أو المنتقلة الى غير أهلها عبرة عظيمة هي أجل ما في السفر من الفوائد. ولقد كان فيما أوحي الى هذا المنعم عليه بعد ان صار نبيا قوله سبحانه «أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»

وفي طريقهم هذه أوقفه عمه على قرى الشام ودساكرها، ومزارعها ومصانعها، ومتاجرها وحكومتها، وأراه كيف يكدح الناس جميعا ليأكل نفر منهم خبزه بعرق جبينه، وليتمتع نفر آخرون بثمرات تلك الارض الطيبة، ونفائس ماتعمله تلك الايدي الثقفة، وكيف يعمل هذا لهذا في الاجتماع ليتم قوامه، ويحفظ نظامه

ومرّ به على الاديار والصوامع حيث ينقطع نفر آخرون عن المزاحمة في هذا الحطام الزائل، متوجهة نفوسهم الى الوطن الذي يليق بالروح الغريبة في هذا الهيكل الجسماني، غير ممدودة أيديهم الى شيء من هذه الارض الا الى ما يقي البدن من جوع وعري وذلك يتيسر ببعض حبوبها وأعشابها، وبعض أصواف حيوانها وأوبارها

في بعض تلك الأديار في «بُصرى» وقف به على الراهب «بحيرا» وكان على حظ عظيم من علم الفراسة أو الكهانة فأنبأه بما سيكون لابن أخيه من الشأن العظيم وأوصاه بمزيد العناية به

وفي هذه السفرة مرّنه على أساليب التجارة، وأطلعه على ضروب البضاعة، وصنوف الاداة والماعون التي يتعاطى التجار تبادلها وكيف يحمل كل منهم من بلده ما لا يكون في غيره ثم يحمل الى بلده ما ليس فيه وكيف

يكون لهؤلاء الوسطاء في نقل حاج الناس من الفضل العظيم في ترقية البدائع الانسانية ماليس لغيرهم

فناهيك بما ملأ به أبو طالب ذهنه في هذه السياحة التجارية من صنوف المعارف وأنواع التجارب وفي درس كهذا من فوائد التربية العملية ماليس في ألف درس من التربية الكتابية أو النظرية

ولما كان ابن أربع عشرة سنة أحضره معه في حرب الفجار وهي حرب هاجت بين قريش وبين قيس فرأى فى هذه الواقعة كيف تعبأ الصفوف ،وتتقابل الابطال، وكيف يصبر الشجعان وان أودى بهم الصبر الى حتفهم، وكيف تكون نتائج الصبر وحسن التدبير في الحروب، وكيف عاقبة الذين تنقطع قلوبهم جبناً، وتخور عزائمهم جزعاً

ولم يباشر في هذه الحرب قتالاً وانما كان ينبّل على أعمامه أي يناولهم النبل أو يرد عنهم النبل . وكان ذلك كافيا لتمرنه على مواطن النزال، ومواقف النضال، وليس بخاف ان الاخذ بيد الناشيء الى معارك أبطال المبايعات، ثمّ معارك أبطال المقابلات والمقاتلات ، هو أعظم الوسائل التي تجعله أهلاً للمقامات العلى بين الرجال، حتى اذا أتاحه الله للاخذ بقوم الى سوح العز والسؤدد والصلاح والفلاح، كان نعم الدليل الهادي، ونعم السائق والحادي

فلما بلغ خمساً وعشرين سنة عرضت عليه سيدتنا «خديجة» ان يخرج في تجارة لها الى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار وأشار عليه عمه بقبول ذلك وطلب له أضعافاً فرضيت وسار بتجارتها مع الركب الى الشام ومعه عبد لخديجة اسمه « ميسرة» فلما رجع بالبضائع اليها باعتها فربحت أضعافا وكان هذا بدء تاريخ جديد للسيدة «خديجة » معه

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب

﴿ قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق ﴾

﴿ مصر — الخميس ٣٠ رجب ١٣٢٦ — ٢٧ اغسطس (آب) سنة ١٩٠٨ ﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(١٤٢ : ١٣٦) ام حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّٰبِرِينَ (١٤٣ : ١٣٧) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٤ : ١٣٨) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَٰبِكُمْ ؟ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ (١٤٥ : ١٣٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَٰبًا مُؤَجَّلًا ، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا، وَمَنْ

يُرِدْ ثَوابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَسَنَجْزِي الشّٰكِرِينَ (١٤٦ : ١٤٠) وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللهُ يُحِبُّ الصّٰبِرِينَ (١٤٧ : ١٤١) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكٰفِرِينَ (١٤٨ : ١٤٢) فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *

الكلام متصل بما قبله والخطاب فيه لمن شهد وقعة «أحد» من المؤمنين فإنه تعالى ارشدهم في الآيات السابقة الى انه لا ينبغي لهم أن يضعفوا ويحزنوا و بين لهم حكمة ما أصابهم وأنه منطبق على سننه في مداولة الايام بين الناس وفي تمحيص أهل الحق بالشدائد وفي ذلك من الهداية والارشاد والتسلية ما يربي المؤمن على الصفات التي ينال بها الغلب والسيادة بالحق ثم بين لهم بعد هذا ان سعادة الآخرة لا تنال ايضاً الا بالجهاد والصبر فهي كسعادة الدنيا باقامة الحق والسيادة في الارض سنة الله فيهما واحدة فقال ﴿أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ وهذه الآية كالآية (٢١٤ : ٢١٠) من سورة البقرة (* والمعنى على الطريقة التى اختارها الاستاذ الامام هناك من ان «أم» للاستفهام المجرد أو للمعادلة انه تعالى يقول للمؤمنين بعد ذلك التنبيه والارشاد لسننه وحكمه فما حصل المتضمن للوم والعتاب في مثل «ان كنتم مؤمنين» وقوله « ان يمسسكم قرح» الخ: هل جريتم على تلك السنن؟ هل تدبرتم تلك الحكم ؟ ام حسبتم كما يحسب اهل الغرور ان تدخلوا الجنة وانتم الى الآن لم تقوموا بالجهاد في سبيله حق القيام ، ولم تمكن صفة الصبر من نفوسكم تمام التمكن ، والجنة إنما تنال بهما ، ولا سبيل الى دخولها بدونهما ، لو قمتم

*) راجع ص ٣٠٢ — ٣١٢ من ج ٢ من التفسير

بذلك لعلمه تعالى منكم وجازاكم عليه بالنصر والظفر في غزوتكم هذه وكان ذلك آية على انه سيجازيكم بالجنة في الآخرة ٬. وهذا المختار في معنى «أم» هو ماجرى عليه أبو مسلم الاصفهاني فقد قال الامام الرازي « قال أبو مسلم في « أم حسبتم » انه نهي وقع بحرف الاستفهام الذي يأتي للتبكيت وتلخيصه . لا تحسبوا أن تدخلوا الجنة ولم يقع منكم الجهاد وهو كقوله (٢٩ : ١ آلم ٢ أحسب الناس ان يُتركوا ان يقولوا آمنا وهم لايفتنون) وافتتح الكلام بذكر «أم» التي هي أكثر ما تأتي في كلامهم واقعة بين ضربين يشك في أحدهما لا بعينه يقولون : أزيدا ضربت ام عمرا ؟ مع تيقن وقوع الضرب بأحدهما . قال وعادة العرب يأتون بهذا الجنس من الاستفهام توكيدا . فلما قال « ولا تهنوا ولا تحزنوا » فكأنه قال. أفتعلمون ان ذلك كما تؤمرون؟أم تحسبون ان تدخلوا الجنة من غير مجاهدة وصبر ؟ اه المراد منه

وقد جرينا في هذا على ان نفي العلم هنا بمعنى نفي المعلوم، كنفي اللازم وارادة الملزوم ٬ وهو أحد الوجوه التي بيناها من قرب في تفسير « وليعلم الله الذين آمنوا» وهو الذي جرى عليه الكشاف هنا وقال هو « بمعنى لما تجاهدوا لأن العلم متعلق بالمعلوم فنزل نفي العلم منزلة نفي متعلقه لانه منتف بانتفائه . يقول الرجل : ما علم الله في فلان خيرا . يريد ما فيه خير حتى يعلمه . و « لما» بمعني « لم » إلا ان فيها ضربا من التوقع فدل على نفي الجهاد فيما مضى وعلى توقعه فيما يستقبل . تقول : وعدني ان يفعل ولما يفعل . تريد ولم يفعل وانا أتوقع فعله » اه وقد اعترضه من لم يفهمه حق الفهم . وقد تقدم ان النكتة في إيثار ذكر العلم وارادة المعلوم هي الاشعار بأن العلم إنما يكون علما صحيحاً بظهور متعلقه بالفعل . وههنا نكتة أخرى خطرت في البال وهي أن التعبير عن نفي ذلك بنفي علم الله به عبارة عن دعوى مقرونة بالدليل والبرهان كأنه قال إن كلا من الجهاد والصبر اللذين هما وسيلة الى دخول الجنة لما يقع منكم اي لم يقع الى الآن من مجموعكم او اكثركم بحيث صار يعدّ من شأن الامة (فلاينافي ذلك وقوعه من بعض الافراد الذين ثبتوا مع النبي (ص) فلم يخالفوا ولم ينهزموا) اذ لو وقع لعلمه الله تعالى الذي لايخفى عليه شيء ولكنه لم يعلمه فهو لم يتحقق قطعا . و يؤيد تفسير الآية على هذا الوجه قوله تعالى في آية البقرة (٢ : ٢١٤ ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل

الذين خلوا من قبلكم مستهم السراء والضراء) الخ اي والى الآن لم تصلوا الى حالهم ولم يصبكم مثل ما اصابهم وقد كانت حالهم تلك مثلا في الشدة . و وجه التأييد ان المنفي هناك هو العمل والحال التي يستحقون بها الجنة

ثم ان هذا يوافق احد الوجوه التي تقدمت في تفسير قوله « وليعلم الله الذين آمنوا » من حيث ان المراد بالذوات وصفها فالمعنى هناك وليعلم الله إيمان الذين آمنوا — وهنا — ولما يعلم الله جهاد الذين جاهدوا وصبر الصابرين اي واقعين ثابتين . و يصح ايضا ان يكون العلم هنا بمعنى التميز كما تقدم هناك في وجه آخر و يكون المعنى : أم حسبتم ان تدخلوا الجنة جميعا ولما يميز الله المجاهدين منكم والصابرين من غيرهم

والجهاد هنا اعم من الحرب للدفاع عن الدين واهله واعلاء كلمته . قال الاستاذ الامام : ربما يقول قائل ان الآية تفيد ان من لم يجاهد و يصبر لا يدخل الجنة مع ان الجهاد فرض كفاية . ونقول نعم انه لا يدخل الجنة من لم يجاهد في سبيل الحق ولكن الجهاد في الكتاب والسنة يستعملان بمعناهما اللغوي وهو احتمال المشقة في مكافحة الشدائد ومنه جهاد النفس الذي روي عن السلف التعبير عنه بالجهاد الاكبر . وذكر من أمثلة ذلك مجاهدة الانسان لشهواته لاسيما في سن الشباب، وجهاده بماله، وما يبتلى به المؤمن من مدافعة الباطل ونصرة الحق وقال : ان لله في كل نعمة عليك حقا وللناس عليك حقا واداء هذه الحقوق يشق على النفس فلا بد من جهادها ليسهل عليها اداؤها وربما يفضل بعض جهاد النفس جهاد الاعداء في الحرب فان الانسان اذا اراد ان يبث فكرة صالحة في الناس او يدعوهم الى خيرهم من اقامة سنة او مقاومة بدعة او النهوض بمصلحة فانه يجد امامه من الناس من يقاومه و يؤذيه ايذاء قلما يصبر عليه احد . وناهيك بالتصدي لإصلاح عقائد العامة وعاداتهم وما الخاصة في ضلالهم الا اصعب مراسا من العامة

ومن مباحث اللفظ في الآية ما تقدم بيانه من معنى أم ولما . ومنها أن قوله « و يعلم » منصوب بإضمار «أن» على أن الواو للجمع كقولهم : لا تأكل السمك وتشربَ اللبن . أي لا يكن أكل السمك وشرب اللبن معا . فالتقدير في الآية على هذا : أم حسبتم ان تدخلوا الجنة والحال انه لم يتحقق منكم الجمع بين الجهاد والصبر

بعد مابين تعالى للمؤمنين ان الفوز والظفر في الدنيا ودخول الجنة في الآخرة لا يكونان بالاماني والغرور ، ولا ينالان بالمحاباة والكيل الجزاف ، بل بالجهاد ومكافحة الايام ، ومصابرة الشدائد والاهوال ، واتباع سنن الله في هذا العالم — و بعد ما بين لهم ان دعوى الايمان ودعوى الجهاد والصبر لا يترتب عليهما الجزاء بالنصر ودخول الجنة وانما يترتب ذلك على تحققهما بحسب علم الله المطابق للواقع لا بحسب ظن الناس وشعورهم — بعد هذا وذاك أرشدهم الى أمر واقع يظهر لهم به تأويل قوله تعالى « وليعلم الله الذين آمنوا » وقوله « وَلما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » الخ وطريق الجمع بينه و بين شعورهم واعتقادهم قبل ذلك انهم لم يقصروا في الجهاد والصبر فيتعلمون كيف يحاسبون انفسهم ولا يغترون بشعورهم وخواطرهم فقال

﴿ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾ الخطاب لجماعة المسلمين الذين شهدوا وقعة أحد . وقد ذكرنا في تلخيص القصة أن النبي (ص) كان يرى ان لا يخرج للمشركين بل يستعد لمدافعتهم في المدينة وكان على هذا الرأي جماعة من كبراء الصحابة و به صرح عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين وأن أكثر الصحابة أشاروا بالخروج الى احد حيث عسكر المشركون ومناجزتهم هناك وان الشبان ومن لم يشهد بدراً كانوا يلحون في الخروج . لهذا قال مجاهد ان هذه الآية عتاب لرجال غابوا عن بدر فكانوا يتمنون مثل يوم بدر ان يلقوه فيصيبوا من الخير والاجر مثل ما أصاب أهل بدر فلما كان يوم أحد ولى منهم من ولى فعاتبهم الله . وروي نحو ذلك عن غيره منهم الربيع والسدي . وروي عن الحسن انه قال بلغني ان رجالا من أصحاب النبي (ص) كانوا يقولون : لئن لقينا مع النبي (ص) لنفعلن ولنفعلن فابتلوا بذلك فلا والله ما كلهم صدق فأنزل الله عز وجل « ولقد كنتم تمنون الموت » الآية . فأطلق الحسن ولم يخص من لم يشهد بدراً وهو الصواب . فإن الذين كانوا يتمنون القتال كثيرون .

قلنا ان هذه الآية اظهرت للمؤمنين تأويل قوله تعالى في ايمانهم وجهادهم وصبرهم وعلمتهم كيف يحاسبون انفسهم و يمتحنون قلوبهم . و بيان ذلك أنهم تمنوا القتال او الموت في القتال لينالوا مرتبة الشهادة وقد اثبت لهم هذا التمني وا كده بقوله « ولقد »

فلم يكن ذلك منهم دعوى قولية، ولا صورة في الذهن خيالية ، بل كان حقيقة واقعة في النفس، ولكنها زالت عند مجيء دور العمل، وهذه مرتبة من مراتب النفس في شعورها وعرفانها هي دون مرتبة الكمال الذي يصدقه العمل، وفوق مرتبة التصور والتخيل مع الانصراف عن تمني العمل بمقتضاه او مع كراهته والهرب منه ـ كما يتوهم بعض الناس انه يحب ملته او وطنه ولكنه يهرب من كل طريق يخشى ان يطالب فيه بعمل يأتيه لاجلهما، او مال يعاون به العاملين لهما، او يكون خالي الذهن من الفكر في العمل او البذل لاعلاء شأن هذا المحبوب او كف العدوان او الشر عنه، فهاتان مرتبتان دون مرتبة من يتصور انه يحب ملته ووطنه ويفكر في خدمتها ويتمنى لو يتاح له ذلك حتى اذا احتيج الى خدمته التي كان يفكر فيها ويتمناها وجد من نفسه الضعف فاعرض عن العمل قبل الشروع او بعد ان ذاق مرارته، وكابد مشقته، وانما المطلوب في الايمان ماهو أعلى من هذه المرتبة، المطلوب فيه مرتبة اليقين والاذعان النفسي التي من مقتضاها العمل مهما كان شاقا ، والجهاد مهما كان عسراً، والصبر على المكاره، وإيثار الحق على الباطل ، وقد تقدم في تفسير «وليعلم الله » وتفسير «وليمحص الله» من الآيتين السابقتين أمثلة تزيد المبحث وضوحاً

وقد كان فى مجموع المخاطبين بالآية عند نزولها من هم في المرتبة العليا وأولئك هم المجاهدون الصابرون الذين ثبتوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ثبات الجبال لاثبات الابطال وهم نحو ثلاثين رجلا وقد ذكرنا أسماء بعضهم فى تلخيص القصة. وانما جعل الخطاب عاماً ليكون تربية عامة فان أصحاب المراتب العلية يتهمون أنفسهم بالتقصير فيزدادون كمالاً .

فهذه الآية تنبه كل مومن الى اتقاء الغرور بحديث النفس والتمني والتشهي وتهديه الى امتحان نفسه بالعمل الشاق، وعدم الثقة منها بمادون الجهاد والصبر على المكاره فى سبيل الحق ، حتى يأمن الدعوى الخادعة ، بَلهَ الدعوى الباطلة ، وانما الخادعة ان تدعي ما تتوهم انك صادق فيه ، مع الغفلة أو الجهل بعجزك عنه ، والباطلة لا تخفى عليك ، وانما تظن انها تخفى على سواك .

والظاهر من تمني الموت انه تمني الشهادة في سبيل الله وقال بعضهم ان المراد

بالموت الحرب لأنها سببه — وعد بعضهم تمني الشهادة المأثور عن كثير من الصحابة مشكلا لانه يستلزم انتصار الكفار على المشركين . ولا إشكال الا فى مخ من اخترع هذه العبارة فان الذي يتمنى الشهادة فى سبيل الله لا يلقي بنفسه الى التهلكة ولا يقصر فى الدفاع والصدام حتى يقال انه مكن الاعداء منه ومهد لهم سبيل الظفر بالمؤمنين وانما يكون أقوى جهاداً واشد جلاداً وأجدر بأن ينصر قومه ويخذل من يحاربهم . ثم انه لا يقصد لازم الشهادة من نقص عدد المسلمين أو ضعفهم. على أن هذا اللازم انما يتبع استشهاد الكثير أو الأكثر منهم ومن يتمنى الشهادة فانما يتمناها لنفسه دون العدد الكثير من قومه

وقال الاستاذ الامام ان تمني الشهادة الذي وقع ليس تمنيا مطلقا وانما هو تمني من يقاتل لنصرة الحق ان تذهب نفسه دونه فاذا هو وصل الى ماينبغي من نصرة الحق واعزازه بانهزام أهل الباطل وخذلانهم فبها ونعمت وإلا فضل الموت في سبيل اعزاز الحق ورآه خيراً من البقاء مع اذلاله وغلبة الباطل عليه .وقال إن الخطاب لمن سبق لهم تمني الموت بعد ان فاتهم حضور وقعة بدر او الشهادة فيها لبعض من حضرها، ثم جاءت وقعة أحد فكان منهم من انكسرت نفسه في اثناء الواقعة ووهن عزمه ومنهم وهن وضعف بعدها عند ماندبهم النبي(ص) الى اتباع المشركين معه في حمراء الاسد . كأنه يقول : ياسبحان الله لقد كنتم تمنون الموت قبل ان تلاقوا القوم في الحرب فهاانتم اولاء قد رأيتم ما كنتم تمنونه وانتم تنظرون اليه لا تغفلون عنه فما بالكم دهشتم، عند ما وقع الموت فيكم؟ وما بالكم تحزنون وتضعفون، عند لقاء ما كنتم تحبون وتتمنون؟ ومن تمنى الشيء وسعى اليه، لا ينبغي ان يحزنه لقاؤه و يسوءه، فقوله «وانتم تنظرون» للتأكيد لان الانسان يرى الشيء احيانا ولكنه لانشغاله عنه ربما لا يتبينه فاراد ان يقول انكم قد رأيتموه رؤية كان لها الأثر الثابت في نفوسكم لا رؤية من قبيل لمح الشيء مع الغفلة عنه وعدم المبالاة به . (قال) وقال بعض المفسرين ان الجملة مستأنفة اي ابصرتموه وانتم الآن تنظرون وتتأملون فيما رأيتموه وتفكرون في علاقته بشؤونكم والذي يظهر هو صحة التأويل الاول. يعني انها مؤكدة.
اقول وقد جرى صاحب الكشاف والبيضاوي وابو السعود على انها حالية وأن معناه

رأيتم الموت ناظرين الى وقوعه بكم ، واغتياله لاخوانكم ، متوقعين ان يحل بكم ماحل بهم ، قال جماعة وهوتو بيخ لهم على تمنيهم الموت و إلحاحهم على النبي (ص) بالخروج الى الحرب .والصواب انه تذكير لمن انهزم وعصى منهـم بان ما سبق من تمنيهم الموت لم يكن عن رسوخ ويقين وتفضيل للشهادة ولقاء الله على الحياة وانما كان فيه شائبة من الغرور والزهو، وارشادٌ توبيخي لهم ولامثالهم الى أن يحاسبوا انفسهم ويطالبوها بالـكمال الذي تأتي فيه الاعمال مصدقة لخواطر النفس وتمنياتها كما تقدم شرحه .

بعد هذا بين الله تعالى حكمة أخرى من اعظم الحـكم المتعلقة بغزوة أحدوهي إشاعة قتل النبي صلى الله عليه وسلم وما كان من تأثيرها في المسلمين وما كان يجب ان يكون—وقد ذكرنا تفصيل ذلك فى القصة قبل الشروع في تفسير الآيات التي نزلت فيها — فقال : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفئن مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم ؟ ﴾ الخ

تقدم أنه اشيع عند ما فرق خالد جمع المسلمين في أحد أن النبي (ص) قد قتل . وقال بعضهم في سبب ذلك ان عمر بن قمئة الحارثي (١) لما رمى الرسول بالحجر فشج رأسه وكسر سنه اقبل يريد قتله فذبّ عنه مصعب بن عمير صاحب راية المسلمين يومئذ حتى قتل فظن أنه قتل النبي (ص) فقال: قتلت محمدا . فصرخ بها الصارخ حتى سمعها الـكثير من المسلمين وفشت في الناس فوهن أكثر المسلمين وضعفوا واستكانوا من شدة الحزن . وقال بعض الضعفاء ليت عبد الله بن أبيّ يأخذ لنا من أبي سفيان

(١) تقدم في ملخص القصة تسميته عمر بن قمئة ـ وصوابه عمرو بن قميئة ـ وقد صرح بذلك بعضهم ومنهم شارح القاموس عند ذكر اسمه في المتن وفي بعض الـكتب عبد الله بن قميئة و بعضها ابن قمئة وفي سيرة هشام « عن ابي سعيد الخدري ان عتبة بن ابي وقاص رمى رسول الله (ص) يومئذ فـكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى وان عبد الله بن شهاب الزهري شجه فى جبهته وان ابن قمئة جرح وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في جبهته »

أمانا . وقال قوم من المنافقين لو كان نبياً لما قتل ارجعوا الى إخوانكم والى دينكم . وفي رواية ابن جرير عن السدي « وفشا في الناس ان رسول الله (ص) قد قتل فقال بعض اصحاب الصخرة (اي الذين فروا الى الجبل فقاموا على صخرة منه) ليت لنا رسولا الى عبد الله بن أبيّ فيأخذ لنا أمنة من ابي سفيان ، ياقوم ان محمداً قد قتل فارجعوا الى قومكم قبل ان يأتوكم فيقتلوكم » وقال انس بن النضر ما يأتي عن قريب . واما المؤمنون الصادقون الموقنون فمنهم من ثبت معه ومن كان بعيدا فرجع اليه . منهم أبو بكر وعلي وطلحة وأبو دجانة الذي جعل نفسه ترسا دونه فكان يقع عليه النبل وهو لا يتحرّك .

قال ابن القيم في بيان حكم هذه الوقعة هذه الآية كانت مقدمة وارهاصا بين يدي موت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذكر ان توبيخ الذين ارتدوا على اعقابهم بهذه الآية قد ظهر أثره يوم وفاة النبي (ص) فقد ارتد من ارتد على عقبيه وثبت الصادقون على دينه حتى كانت العاقبة لهم . ولا ينافي هذه الحكمة كون الوقعة كانت قبل وفاته (ص) ببضع سنينَ — لأن غزوة أحد كانت في السنة الثالثة من الهجرة — فان توطين نفس الأمة الكبيرة على الشيء واعدادها له لا يكون قبل وقوعه بيوم أو أيام أو شهور بل لا بد فيه من زمن يكفي لتعميمه فيها وصيرورته من الاموز المسلمة المشهورة عندها حتى لا يغيب عن الاذهان

وحاصل المعنى ان محمدا ليس الا بشرا رسولا قد خلت ومضت الرسل من قبله فماتوا وقد قتل بعض النبيين كزكريا ويحيى فلم يكن لاحد منهم الخلد وهو لا بد ان تحكم عليه سنة الله بالموت فيخلو كما خلوا من قبله اذ لا بقاء الا لله وحده ولا ينبغي للمؤمن الموحد ان يعتقده لغيره ، أفئن مات كما مات موسى وعيسى ، او قتل كما قتل زكريا ويحيى ، تنقلبون على اعقابكم ؟ أي تولون الدبر راجعين عما كان عليه ؟ يهديهم الله بهذا الى ان الرسول ليس مقصوداً لذاته فيبقى للناس وإنما المقصود من ارساله ما أرسل به من الهداية فيجب العمل بها من بعده ، كما وجب في عهده ، ولله در انس بن النضر ورضي عنه فانه في تلك الساعة التى زاغت فيها الابصار والبصائر ، واشتد الكرب حتى بلغت القلوب

الحناجر ، وقال بعض الضعفاء والمنافقين ماقالوا ،قد قال « ياقوم ان كان محمد قتل فان رب محمد لم يقتل فقاتلوا على ماقاتل عليه محمد (ص) اللهم إني اعتذر اليك مما يقول هؤلاء وأبرأ اليك مما جاء به هؤلاء » ثم شد بسيفه وقاتل حتى قتل

قال في الكشاف : « والانقلاب على الاعقاب الإدبار عما كان رسول الله (ص) يقوم به من امر الجهاد وغيره وقيل الارتداد وما ارتد احد من المسلمين ذلك اليوم الا ما كان من قول المنافقين . ويجوز ان يكون على وجه التغليظ عليهم فيما كان منهم من الفرار والانكشاف عن رسول الله (ص) وإسلامه » وقال الاستاذ الامام ان كلمة « انقلبتم على اعقابكم » من قبيل المثل تضرب لمن رجع عن الشيء بعد الاقبال عليه والأحسن ان تكون عامة تشمل الارتداد عن الدين الذي جاهر بالدعوة اليه بعض المنافقين ، والارتداد عن العمل كالجهاد ومكافحة الاعداء وتأييد الحق . وهذا هو الصواب

قال تعالى ﴿ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً﴾ لأنه وعد بأن ينصر من ينصره ويعز دينه ويجعل كلمته هي العليا وهو منجز وعده لا يحول دون إنجازه ارتداد بعض الضعفاء والمنافقين على أعقابهم فانه يثبت المؤمنين ويمحصهم حتى يكونوا كالتبر الخالص وبهم يقيم دينه ولذلك قال ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ له نعمه عليهم بالقوى العقلية والجسدية وبالايمان والهداية ، القائمين بحقوقها في حياة رسوله وبعد موته على حد سواء ، يأتون في كل وقت ما يمكن الاتيان به ، لا يألون جهداً ، ولا يقصرون في شيء عمدا ، إذ لم يكن عملهم لوجه الرسول فيبطل اذا غيبه الموت عنهم ، وانما هو لوجه الله ذي الجلال والاكرام وهو لا يموت ولا يزول

الاستاذ الامام : في هذه الآية إرشاد لنا الى ان لا نجعل المصائب الشخصية دليلاً على كون من تصيبه على باطل أو على حق فان من الجائز عقلاً والواقع فعلا ان يبتلى صاحب الحق بالمصائب والرزايا ، وان يبتلى صاحب الباطل بالنعم والعطايا ، كما ان عكس ذلك جائز وواقع . وتعلمنا أيضا ان لا نعتمد في معرفة الحق والخير على وجود المعلم بحيث نتركهما بعد ذهابه أو موته وانما نعتمد على معرفتهما والتحقق بهما والسير على منهاجهما في حال وجود المعلم وبعده . فالله تعالى يقول عليكم ان

تستضيئوا بالنور وتتقلدوا سيف البرهان اللذين جاءكم بهما محمد واما مايصيب جسمه من جرح أو ألم، وما يعرض له من حياة أو موت، فلا مدخل له في صحه دعوته، ولا في إضعاف النور الذي جاء به ، فلا معنى اذاً لتعليق ايمانكم بحياته أو سلامة بدنه مما يعرض له من حيث هو بشر مثلكم ، خاضع لسنن الله كخضوعكم

أقول قد غفل عن هذا من أهمل هداية القرآن من المسلمين (جنسية لا إذعانا ومعرفة) فتراهم اذ ساء اعتقادهم في رجل كأن خالف تقاليدهم او انكر عليهم اهواءهم يتربصون به الدوائر فاذا أصابته مصيبة زعموا ان الله تعالى قد انتقم منه حباً لهم و بغضا فيه ! فان كان مع ذلك متهما بالانكار على من يعتقدون صلاحهم وولايتهم قالوا انهم قد تصرفوا فيه !! ويغفلون عما أصاب النبي في أحد وما أصاب كثيراً من الأنبياء قبله ، بل يعمون عما يصيب معتقديهم وأولياءهم في عهدهم. لما حبس الاستاذ الامام في عاقبة الثورة العرابية قال بعض هؤلاء المغرورين انه حبس كرامة للشيخ عليش لأنه اي الشيخ عليشا كان يكرهه . فبلغه ذلك وكان الشيخ عليش محبوسا أيضاً فقال : لماذا أكون حبست كرامة له ولم يكن هو الذي حبس كرامة لي لانه أساء بي الظن وقال السوء لتصديقه فيَّ الوشاة لنمامين وانا لم أقل فيه شيئا ؟ السبب في حبس كل منا واحد فلماذا كان كرامة لواحد وانتقاما من الآخر ؟

ولا يخفى على المؤمن العارف ان هذا الاعتقاد يعارض التوحيد الخالص ولذلك كان من المقاصد في الآية والحكم في سببها تقرير التوحيد ببيان ان انبياء كسائر البشر في الخضوع لسنن الله ونظام خلقه. قال الاستاذ الامام في بيان مزايا الاسلام من رسالة التوحيد ما نصه :

«ثم أماط (أي الاسلام) اللثام عن حال الانسان في النعم التي يتمتع بها الاشخاص أو الامم، والمصائب التي يرزؤن بها، ففصل بين الامرين فصلا لا مجال معه للخلط بينهما . فاما النعم التي يمتع الله بها بعض الاشخاص في هذه الحياة والرزايا التي يرزأ بها في نفسه فكثير منها كالثروة والجاه والقوة والبنين أو الفقر والضعة والضعف والفقد ربما لا يكون كاسبها أو جالبها ماعليه الشخص في سيرته من استقامة وعوج أو طاعة وعصيان ، وكثيرا ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة أو الفجرة الفسقة وترك لهم متاع

الحياة الدنيا إنظارا لهم حتى يتلقاهم ما أعد لهم من العذاب المقيم في الحياة الاخرى ، وكثيرا ماامتحن الله الصالحين من عباده، واثنى عليهم في الاستسلام لحكمه، وهم الذين اذا اصابتهم مصيبة عبروا عن اخلاصهم في التسليم بقولهم «٢:١٥٦ إنا لله وإنا اليه راجعون » فلاغضب زيدولارضا عمرو ولا اخلاص سريرة ولا فساد عمل مما يكون له دخل في هذه الرزايا ولا في تلك النعم الخاصة، اللهم الافيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جاري العادة كارتباط الفقر بالأسراف، والذل بالجبن، وضياع السلطان بالظلم، وكارتباط الثروة بحسن التدبير في الاغلب، والمكانة عندالناس بالسعي في مصالحهم على الاكثر، ومايشبه ذلك مما هو مبين في علم آخر

« أماشأن الامم فليس على ذلك فان الروح الذي أودعه الله جميع شرائعه الالهية من تصحيح الفكر وتسديد النظر وتأديب الاهواء وتحديد مطامح الشهوات، والدخول الى كل أمر من بابه، وطلب كل رغيبة من اسبابها ، وحفظ الامانة ، واستشعار الاخوة ، والتعاون على البر ، والتناصح في الخير والشر ، وغير من أصول الفضائل ـ ذلك الروح هو مصدر حياة الامم ومشرق سعادتها في هذه الدنيا قبل الآخرة «٣:١٤٥ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها» (١) ولن يسلب الله عنها نعمته مادام هذا الروح فيها، يزيد الله النعم بقوته، وينقصها بضعفه، حتى اذافارقها ذهبت السعادة على أثره، وتبعته الراحة الى مقره، واستبدل الله عزة القوم بالذل، وكثرهم بالقل، ونعيمهم بالشقاء، وراحتهم بالعناء، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين، فأخذهم بهم وهم في غفلة ساهون «١٧:١٦ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » أمرناهم بالحق ففسقوا عنه الى الباطل ثم لاينفعهم الانين ولا يجديهم البكاء، ولا يفيدهم مابقي من صور الاعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ، ولا كاشف لما نزل بهم الا أن يلجؤا الى ذلك الروح الاكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر «١٣ : ١١ ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» «٣٣:٦٢ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » وما أجل ماقاله العباس بن عبد المطلب في استسقائه « اللهم انه لم ينزل بلاء الا بذنب ولم يرفع الا بتوبة » على هذه السنن جرى سلف الامة فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية، ويأخذ نفسه بما

يتبعها من الاعمال الجليلة ، كان غيره يظن انه يزلزل الارض بدعائه ، و يشق الفلك ببكائه ، وهو ولع باهوائه ، ماض في غلوائه ، وما كان يغني عنه ظنه من الحق شيئا » اه

* * *

أقول وفي الآية من الهداية والارشاد أيضا انه لا ينبغي أن يكون استمرار الحرب وعدمه متعلقا بوجود القائد بحيث اذا قتل ينهزم الجيش او يستسلم للاعداء بل يجب ان تكون الاعمال والمصالح العامة جارية على نظام ثابت لا يزلزله فقد الرؤساء . وهذا ما عليه نظام الحروب والحكومات في هذا العصر وقد كان أكثر الناس في العصور القديمة تبعا لرؤسائهم يحيون لحياتهم ويخذلون بموتهم حتى انهم يرون ان وجود الجيش العظيم بعد فقد القائد كالعدم

ان الامة التي تقدر هذه الهداية حق قدرها تعدّ لكل علم تحتاج اليه ولكل عمل تقوم مصالحها به رجالا كثيرين فلا تفقد معلما ولا مرشدا ولا حاكما ولا قائدا ولا رئيسا ولا زعيما الا ويوجد فيها من يقوم مقامه ويؤدي لها من الخدمة ما كان يؤديه ، فهي لا تحصر الاستعداد لشيء من الاشياء في فرد من الافراد ، ولا تقصر القيام بأمر من الامور على نابغ واحد من النابغين ، ولا يتجرأ فيها حاكم ولا زعيم على احتكار علم من العلوم او عمل من الاعمال ، بل تتسابق فيها الهمم الى الاستعداد لكل شيء يمكن ان يصل اليه كسب البشر وينال منه العامل بقدر همته وسعيه وتأييد التوفيق له ، فاين نحن معاشر المسلمين من هذه الهداية اليوم ؟

بعد هذه القاعدة — قاعدة الاعتماد على التحقق بالعلوم والنهوض بالاعمال دون الاتكال على افراد الرجال — هدانا الله جل شأنه الى قاعدتين اخريين

فقال ﴿ وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ﴾ الآية . قال الاستاذ الامام ماملخصه : تلك قضية وهذه قضية أخرى ووجه الاتصال بينهما أن المراد بتلك لوم المؤمنين على ماوقع منهم اذ بلغهم قتل النبي (ص) والمراد بهذه بيان انه لو قتل لما كان قتله الا باذن الله ومشيئته فهو توبيخ لمن اندهش من خبر موته كانهم بسبب زلزالهم وزعزعة عقائدهم قد جعلوا موته جناية منه فاذاقهم تعالى بهذه العبارة مرارة خطأهم وأراهم بها قبح جهلهم ، كانه يقول ان محمدا يدعوكم الى الله — اي لا الى نفسه — فلو كان هذا الموت يقع بدون اذن الله لكان الانقلاب صوابا ولكن اذا كان

هذا الموت لايقع الا باذنه تعالى اذ ليس لاحد في العالم سلطان يقهره ويوقع في ملكه شيئا بالكره منه فلا معنى لزلزلة ثقتكم بالله وضعفكم عن المضي فيما كنتم عليه مع النبي في حياته لأن الله لم يزل حيا باقيا عليما حكيما

(قال) وفي الآية معنى آخر وهو انه ما دام محيانا ومماتنا بيد الله فلا محل للجبن والخوف، ولا عذر في الوهن والضعف، وفيها تأكيد لما تقدم بيانه في الآية التي قبلها وهو أن الموت لا يدل على بطلان ما كان عليه من يموت ولا على حقيته. وذكر ان صاحب الكشاف جعل الجملة تمثيلاً فنذكر عبارته في حلها قال «المعنى ان موت الأنفس محال ان يكون الا بمشيئة الله فأخرجه مخرج فعل لا ينبغي لأحد ان يقدم عليه الا أن يأذن الله له فيه تمثيلاً، ولأن ملك الموت هو الموكل بذلك فليس له ان يقبض نفسا الا بإذن الله. وهو على معنيين (أحدهما) تحريضهم على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدوّ بإعلامهم أن الحذر لا ينفع، وأن أحداً لايموت قبل بلوغ أجله، وان خوّض المهالك، واقتحم المعارك، (والثاني) ذكر ما صنع الله برسوله عند غلبة العدو والتفافهم عليه وإسلام قومه له نهزة المختلس من الحفظ والكلاءة وتأخير الأجل» اه

وقال أبو السعود في الجملة «كلام مستأنف سيق للتنبيه على خطئهم فيما فعلوا حذرا من قتلهم وبناء على الارجاف بقتله عليه الصلاة السلام ببيان ان موت كل نفس منوط بمشيئة الله — الى ان قال في قوله «الا باذن الله — استثناء مفرغ من أعم الاسباب أي وما كان الموت حاصلاً لنفس من النفوس بسبب من الاسباب الا بمشيئته تعالى على ان الاذن مجاز عنها لكونها من لوازمه، أو الا باذنه لملك الموت في قبض روحها، وسوق الكلام مساق التمثيل بتصوير الموت بالنسبة الى النفوس بصورة الافعال الاختيارية التي لا يتسنى للفاعل إيقاعها والاقدام عليها بدون اذنه تعالى، أو بتنزيل اقدامها عليه أو على مباديه وسعيها في ايقاعه منزلة الاقدام على نفسه للمبالغة في تحقيق المرام، فان موتها حيث استحال وقوعه عند إقدامها عليه أو على مباديه وسعيها في إيقاعه فلأن يستحيل عند عدم ذلك أولى وأظهر. وفيه من التحريض على القتال مالا يخفى» اه

أقول وقد بين صاحب الـكشاف في غير هذا الموضع أن النفي في مثل هذا التعبير للشأن لا لمجرد الفعل. وهو يفسر مثل « ما كان الله ليفعل كذا» بنحو قوله: ما صح منه وما استقام له. أي ليس ذلك من شأنه الصحيح المعهود ولا من سنته المستقيمة المطردة ، ولـكنه (أي صاحب الـكشاف) لم يبين ذلك بقاعدة واضحة يجري عليها بتعبير يؤدي المعنى بذاته في كل موضع. وأوضح ما يقل في هذه التعبيرات وأصحه انه بيان لـكون هذا المنفي ليس من شأن الله ولا من سنته في خلقه. فمعنى « وما كان لنفس ان تموت الا بإذن الله » ليس من شأن النفوس ولا من سنة الله فيها ان تموت بغير إذنه ومشيئته التي يجري بها نظام الحياة وارتباط الاسباب فيها بالمسببات . وسيأتي مثل هذا التعبير في آيات أخرى من هذا السياق فتؤكد لك أن هذا هو المعنى العامّ في مثلها

واما قوله « كتابا مؤجلا » فهو مؤكد لمضمون ما قبله اي كتبه الله كتابا مؤجلا اي اثبته مقرونا باجل معين لا يتغير، ومؤقتا بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر، فالمؤجل ذو الاجل ، والاجل المدة المضروبة للشيء قال تعالى «٦: ١٢٨ و بلغنا أجلنا الذي أجّلت لنا » ومنه الدين المؤجل الذي ضرب له أجل اي مدة يؤدى في نهايتها. وقد يتوهم بعض اصحاب العقول المقيدة ، والافهام الضيقة، أن كون الموت مؤجلا بأجل محدود في علم الله، ينافي كونه بأسباب تجري على سنن الله ، وليس لهذا التوهم ادنى شبهة من العقل فيردّ بالدلائل النظرية ، ولا من الوجود فيفسرَ بالسنن الاجتماعية، ألا ان كون الموت لا يكون الا بالاجل ، أظهر من كونه لا يكون الا مقرونا بالسبب ، فان الناس يتعرضون لاسباب المنايا بخوض غمرات الحروب ، والتعرض لعدوى الأمراض ، والتعدي لأفاعيل الطبيعة ، ثم قد يسلم في الحرب الشجاع المقدم، ويقتل الجبان المتخلف ، ويفتك المرض بالشاب القوي ، من حيث تعدو عدواه الغلام القمئ ، وتغتال فواعل الحر والبرد الـكهل المستوي ، وتتجاوز عن الشيخ الضعيف ، وا لكل عمر أجل ، ولـكل أجل قدر ، والاقدار هي السنن التي بها يقوم النظام ، والحـكم فيها مرتبطة بالاحكام ، وان خفي بعضها على بعض الافهام

هذه هي القاعدة الاولى في الآية . واما الثانية فهي قوله تعالى ﴿ ومن يرد

ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها﴾ واننا نذكر في تفسير العبارة صفوة ماقالوه ثم نبين القاعدة . قالوا انها تعريض بالذين شغلتهم الغنائم يوم أحد فتركوا موقعهم الذي أمرهم النبي (ص) بلزومه . وان معناها ان من قصد بعمله حظ الدنيا اعطاه الله شيئاً من ثوابها ومن قصد الآخرة أعطاه الله حظا من ثوابها . وصرح الرازي بانها في معنى حديث « انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ مانوى » الخ الحديث المشهور

وقال الاستاذ الامام هذه قضية أخرى وفيها وجهان (أحدهما) انها رد لاستدلال من استدل بما حل بالمسلمين على أن ما هم عليه غير الحق فهي من هذا الوجه فرع من فروع قوله «قد خلت من قبلكم سنن» فهو يقول ان لنيل ثواب الدنيا سننا ولنيل ثواب الآخرة سنناً فمن سار على سنن واحدة منها وصل اليها . فاذا كان المشركون قد استظهروا على المسلمين في هذه المرة فلأنهم طلبوا بعملهم الدنيا وأخذوا له أهبته من حيث قد قصر المسلمون في اتباع السنن في ذلك بمخالفة الرسول كما تقدم (والوجه الثاني) أنه يقول لأولئك الذين ضعفوا وفشلوا وانقلبوا على أعقابهم : ما الذي تريدون بعملكم هذا ؟ ان كنتم تريدون ثواب الدنيا فالله لا يمنعكم ذلك وما عليكم الا ان تسلكوا طريقه ولكن ليس هذا هو الذي يدعوكم اليه محمد وانما يدعوكم الى خير ترون حظا منه في الدنيا والمعوّل فيه على مافي الآخرة . فالمسألة معكم بين أمرين إرادة الدنيا وإرادة الآخرة ، كل يريد أمرا ولكل أمر سنن تتبع ولكل دار طريق تسلك

أقول وسيأتي في هذا السياق قوله تعالى « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » وهو يؤيد الوجه الثاني مما أورده الاستاذ الإمام وفي معناه قوله تعالى (٤٢: ٢٠ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب) . وقد تقدم لهذا المبحث نظير في تفسير قوله تعالى (٢ : ٢٠٠ فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا) الخ «*» وفيه بيان أن من يطلب الدنيا وحدها ولا يعمل للآخرة عملها فليس له في الآخرة من خلاق، وان من هدي

«*» راجع ص ٢٣٣ ـ ٢٣٦ من ج ٢ من التفسير

الإسلام ان يطلب المرء خير الدنيا وخير الآخرة، ويقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، فالانسان يطلب ويريد بحسب سعة معرفته وعلو همته ودرجة إيمانه، وله مايريد كله أو بعضه بحسب سنن الله وتدبيره لنظام هذه الحياة . وفي سورة الإسراء تفصيل وتقييد في هذه المسألة قال تعالى (١٧ : ١٨ من كان يريد العاجلة عجلنا لها فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ١٩ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ٢٠ كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا ٢١ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) ولا تنسين التقاليد الشائعة قارئ هذه الآيات عن سنن الله التي اثبتها في كتابه فيظنن ان عطاءه تعالى وتفضيله لبعض الناس على بعض يكون جزافا بل الارادة تجري على السنن التي اقتضتها الحكمة (س ١٣ : ٨ وكل شيء عنده بمقدار) ولإرادة الانسان دخل في تلك السنن والمقادير ولذلك قال « من كان يريد ، ومن أراد » فاعرف قيمة ارادتك واعرف قبل ذلك قيمة نفسك فلا تجعلها كنفوس الحشرات التي تعيش زمنا محدودا ، ثم تفنى كأن لم تكن شيئا مذكورا

انك قد خلقت للبقاء ولك في الوجود طوران طور عاجل قصير وهو طور الحياة الدنيا ، وطور آجل أبدي وهو طور الحياة الآخرة ، وسعادتك في كل من الطورين تابعة لارادتك ، وما توجهك اليه من العمل في حياتك ، فأعمال الناس متشابهة ، ومشقتهم فيها متقاربة ، وإنما يتفاضلون بالارادات والمقاصد ، لانها هي تكون تارة علة وتارة معلولا لطهارة الروح وعلو النفس وسمو العقل ورقة الوجدان ، وهي هي المزايا التي يفضل بها انسان على انسان ،

يحارب قوم حبا في الربح والكسب ، او ضراوة بالقتل والفتك ، فاذا غلبوا افسدوا في الارض ، واهلكوا الحرث والنسل ، ويحارب آخرون دفاعا عن الحق ، وإقامة لقوانين العدل ، فاذا غلبوا عمروا الارض ، وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، فهل يستوي الفريقان ، اذا استوى في البداية العملان ، ؟ وهما في القصد والارادة متباينان ،

يكسب الرجل طلبا للذات ، وحبا في الشهوات ، فيغلو في الطمع ، ويوغل في الحيل ، ويأ كل الربا اضعافا مضاعفة ، حتى يجمع القناطير المقنطرة ، فاذا هو يمنع الماعون ويدعّ اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، ولهو اذا سئل البذل في المصالح العامة أشد بخلا ، وأ كز يدا واقبض كفا ، ويكسب الرجل طلبا للتجمل في معيشته ، وحبا للكرامة في قومه وعشيرته ، فيجمل في الطلب ، ويتحرى الحلال من الربح ، ويلتزم الصدق والامانة ، ويتوقى الغش والخيانة ، ثم هو ينفق من سعته فيواسي البائس الفقير ، ويعين العاجز والضعيف ، وتكون له اليد في بناء المدارس والمعابد ، والمستشفيات والملاجئ ، فهل يستوي الرجلان ، وهما في الثروة سيان ، ؟ وفي ظاهر العمل متشابهان ، ام يفضل احدهما الآخر بحسن الارادة ؟

الارادة تصغر الكبير ، وتكبر الصغير ، وترفع الوضيع ، وتضع الرفيع ، وبها تتسع دائرة وجود الشخص ، حتى تحيط بكرة الارض ، بل تكون اكبر من ذلك بما يتبوأ من منازل الكرامة في عالم العقول والاروح ، واذا كان يريد بعمله دار البقاء فان وجوده يكون كبيرا بحسب كبر ارادته وواسعا بسعة مقصده ، وبذلك تعلو نفسه على نفوس من اخلدوا الى الشهوات ، وكان حظهم من عملهم كحظ الحشرات ، وغيرها من الحيوانات : اكل وشرب وسفاد وبغي من القوي على الضعيف

قس على هذا وجود من يريد بعمله القرب من الله والتخلق باخلاقه ، والتحقق بتجليات أسمائه وصفاته ، القرب من الواسع العليم ، الخلاق الحكيم ، الرحمن الرحيم ، بسعة القلب ، وبسطة العلم ، وإقامة النظام الحكمة ، ونصب ميزان العدل وبسط بساط الرحمة ، ألا تراه يكون أشرف وجود بشري وأعلاه ، بحسب ارادته وسنن الله ،

لست بهذا الرمز الى مكانة إرادة البشر من تصريف أعمالهم ، وتوجيهها الى سعادتهم أو شقاوتهم ، بخارج عن موضوع تفسير الآية الكريمة فان رب العزة قد جعل عطاءه للناس معلقا على إرادتهم ، ولا يقدر هذا حق قدره الا قليل منهم ، فهم في حاجة الى مثل هذا التذكير بل الى أكثر منه

اذا فقهت هذا فقد فقهت معنى قوله ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ اي الذين يعرفون نعمة الله عليهم بقوة الارادة ويستعملونها فيما يعرج بهم الى مستوى الكمال فتكون

جميع اعمالهم صالحة رافعة لنفوسهم ونافعة لغيرهم . قال الاستاذ الامام كأنس بن النضر وأمثاله الذين جاهدوا وصبروا مع النبي (ص) بحفظهم قوة إرادتهم فكانوا السبب في انجلاء المشركين عن المسلمين . وقد خصهم بالذكر الذي يعينه الوصف تنويها بهم ووعدا لهم بحسن الجزاء وهو من التفصيل لإجمال من يريد الآخرة

ثم انه بعد هذا البيان المنبه لهم الى استعدادهم ضرب لهم هذا المثل في غيرهم ، كما ضرب لهم المثل قبل ذلك في أنفسهم بتمنيهم الموت فقال ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾

« كأين » بمعنى كم الخبرية ومعناها ان ما دخلت عليه كثير وفيها لغتان فصيحتان مشهورتان « كائن » بوزن فاعل مبنية على السكون وبها قرأ ابن كثير ، « وكأين » بفتح الهمزة وتشديد الياء المكسورة وسكون النون (التي قالوا ان اصلها التنوين اثبت له صورة في الخط كما ينطق به في هذه الكلمة خاصة) وبها قرأ الباقون . وقالوا ان أصلها « ايّ » الاستفهامية دخلت عليها كاف التشبيه فصارت كلمة مستقلة لا معنى فيها للتشبيه ولا للاستفهام فيها . والربيون قال في الكشاف هم الربانيون « وتقرئ بالحركات الثلاث فالفتح على القياس والضم والكسر من تغييرات النسب » وقد تقدم ذكر الربانيين في آية ٧٩ من هذه السورة وهو جمع رباني نسبة الى الرب وزيادة الالف والنون فيها كزيادتها في جسماني . وقيل غير ذلك . وقول الكشاف « من تغييرات النسب » معناه ان العرب قد تغير الاسم المنسوب كما قالوا في النسبة الى البصرة بصري بكسر الباء والى الدهر دهري بضم الدال . وقال الفراء الربيون الاولون وقال الزجاج هم الجماعات الكثيرة واحدها ربي قال ابن قتيبة اصله من الربة وهي الجماعة ويروى مثله عن ابن عباس . وقال ابن زيد الربانيون الائمة والولاة والربيون الرعية وهم المنتسبون الى الرب والاول هو الظاهر المختار . وتقدم معنى الوهن والضعف . والاستكانة ضرب من الخضوع هو عبارة عن سكون الانسان لخصمه ليفعل به ما يريد

والمعنى ان كثيراً من النبيين الذين خلوا قد قاتل معهم كثير من المؤمنين بهم

المنتسبين الى الرب تعالى في وجهة قلوبهم وفي أعمالهم، المعتقدين ان النبيين والمرسلين هداة ومعلمون، لا أرباب معبودون، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله أي ما ضعف مجموعهم بما أصاب بعضهم من الجرح و بعضهم من القتل وان كان المقتول هو النبي نفسه لأنهم يقاتلون في سبيل الله وهو ربهم لا في سبيل شخص نبيهم و إنما حظهم من نبيهم تبليغه عن ربهم و بيانه لهدايته وأحكامه (١٨ : ٥٦ وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين) وما ضعفوا عن جهادهم ولا استكانوا ولا ولوا بالانقلاب على أعقابهم بل ثبتوا بعد قتل نبيهم كما ثبتوا معه في حياته لأن علة الثبات في الحالين واحدة وهي كون الجهاد في سبيل الله أي في الطريق التي يرضاها الله من حفظ الحق وحمايته، وتقرير العدل و إقامته، وما يتبع ذلك و يلزمه . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو و يعقوب « قُتِلَ معه » ولذلك رسمت الكلمة في المصحف الامام بغير ألف لتوافق القراءتين أي استشهدوا في القتال معه أو قتلوا كما قتل هو وزعم بعضهم انه لم يقتل نبي في الحرب، وهو نفي غير مسلم لاسيما في النبيين غير المرسلين ومن ذا الذي يتجرأ على الاحاطة بالرسل علماً والله يقول لنبيه (٤ : ١٦٤ ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) ومن التفسير المأثور قول قتادة : فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما عجزوا وما تضعضعوا لقتل نبيهم وما استكانوا أي ما ارتدوا عن نصرتهم ولا عن دينهم . وقال ابن اسحق فما وهنوا لقتل النبي وما ضعفوا عن عدوهم وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله وعن دينهم وذلك هو الصبر « والله يحب الصابرين » اهو قد تقدم معنى حب الله للناس في اوائل هذه السورة

أي واذا كان يحب الصابرين أمثالهم، فعليكم أن تعتبروا بحالهم، فان دين الله واحد، وسنته في خلقه واحدة، ولذلك هديتم الى السنن، وأمرتم بمعرفة عاقبة من سبقكم من الأمم، فاقتدوا بعمل الصادقين الصابرين، وقولوا مثل قول أولئك الربيين،

﴿ وما كان قولهم إلا ان قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا ﴾ أي ما كان لهم من قول في تلك الحال التي اعتصموا فيها بالصبر والثبات، وعزة النفس، وشدة البأس، الا ذلك القول المنبئ عن قوة إيمانهم، وصدق إرادتهم، وهو الدعاء بأن يغفر الله لهم بجهادهم ما كانوا ألموا به من الذنوب والتقصير في إقامة السنن، أو الوقوف

عند ما حددته الشرائع ، ﴿ واسرافنا في أمرنا ﴾ بالغلو فيه ، وتجاوز الحدود التي حددتها السنن له ، ﴿ وثبت اقدامنا ﴾ على الصراط المستقيم الذي هديتنا إليه حتى لا تزحزحنا عنه الفتن ، وفي موقف القتال حتى لا يعرونا الفشل ، ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ بك ، الجاحدين لآياتك ، المعتدين على أهل دينك ، فلا يشكرون لك نعمك بالتوحيد والتنزيه ، ولا بفعل المعروف وترك المنكر ، ولا يمكنون أهل الحق ، من إقامة ميزان القسط ، فان النصر بيدك ، تؤتيه من تشاء بمقتضى سننك ، ومنها ان الذنوب ، والاسراف في الأمور ، من أسباب البلاء والخذلان ، وأن الطاعة والثبات والاستقامة من أسباب النصر والفلاح ، ولذلك سألوا الله ان يمحو من نفوسهم أثر كل ذنب وإسراف ، وان يوفقهم الى دوام الثبات ، ولا شك أن الدعاء والتوجه الى الله تعالى في مثل هذه الحال مما يزيد المؤمن المجاهد قوة وعزيمة ومصابرة للشدائد. ولذلك يعترف علماء النفس والاخلاق بأن المؤمنين أشد صبرا وثباتا في القتال من الجاحدين كما تقدم في تفسير (٢: ٢٥٠ ولما برزوا لجالوت) الآية (*)

﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا ﴾ بالنصر والظفر بالعدو ، والسيادة في الارض ، وما يتبع ذلك من الكرامة والعزة ، وحسن الاحدوثة وشرف الذكر ، ﴿ وحسن ثواب الآخرة ﴾ بنيل رضوان الله وقربه ، والنعيم بدار كرامته ، وهو مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، كما ورد في الخبر ، اخذا من قوله تعالى (٣٢: ١٧ فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة أعين) وما آتاهم ذلك الا بحسن ارادتهم ، وما كان لها من حسن الاثر في نفوسهم واعمالهم ، اذ اتوا البيوت من ابوابها ، وطلبوا المقاصد باسبابها ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ لانهم خلفاؤه في الارض يقيمون سنته ، ويظهرون بانفسهم واعمالهم حكمته ، فيكون عملهم لله بالله ، كما ورد في صفة العبد الذي يحبه الله « فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ،

(*) راجع ص ٤٨١ و ٤٨٦ من ج ٢ من التفسير

ويده التي يبطش بها ، » أي ان مشاعره وأعماله لاتكون مشغولة الا بما يرضي الله ويقيم سننه ويظهر حكمه في خلقه ،

وانما جمع لهم بين ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة لانهم أرادوا بعملهم سعادة الدنيا والآخرة وانما الجزاء على حسب الارادة وهذا هو شأن المؤمن كما تقدم آنفاً (ص٤٩٦و٤٩٧) وهو حجة على الغالين في الزهد . وخص ثواب الآخرة بالحسن للإيذان بفضله ومزيته وانه المعتد به عنه الله تعالى . كذا قالوا وقال الاستاذ الامام : ثواب هؤلاء حسن على كل حال ولكن ذكر الحسن فى ثواب الآخرة مزيد فى تعظيم أمره وتنبيه على انه ثواب لا يشوبه أذى فليس مثل ثواب الدنيا عرضة للشوائب والمنغصات . ولا يعترض على ما أثبتته الآية بمثل واقعة الرجيع وبئر معونة(* من حيث ان من قتلوا هنالك لم يؤتوا ثواب الدنيا فان ايثار ثواب الدنيا

*) الرجيع ماء لهذيل بين مكة وعسفان والواقعة تعد من السرايا او البعوث وذلك ان الرسول (ص) بعث نفرا من اصحابه ٦ أو ١٠ الى قبيلتي العضل والقارة ليقرءوهم و يفقهوهم لانهم ادعوا الاسلام وطلبوا منه ذلك فلما أتوا الرجيع غدروا بهم : احاط بهم مئتا رجل من هذيل وقالوا لهم لكم الذمة ان سرتم معنا ان لا نقتل منكم احدا فقال بعضهم لا ننزل على ذمة كافر فقاتلهم المشركون حتى قتلوهم وأوثقوا الذين نزلوا على عهدهم وساقوهم الى مكة ليبيعوهم من قريش التي تريد تعذيب كل من تظفر به من المسلمين . فامتنع عبدالله بن طارق أحد الموثوقين ان يسير معهم وقال ان لي بهؤلاء (القتلى) أسوة فجرروه وعالجوه فلم يسر فقتلوه وذهبوا بالآخرين وهم خبيب بن عدي و زيد بن الدثنة الى مكة فباعوهما بأسيرين لهم فقتلتهما قريش بمكة . وكان من خبر خبيب ان حبسوه وأهانوه فقال « ما يصنع القوم الكرام هكذا بأسيرهم » فأحسنوا اليه وجعلوه عند امرأة تحرسه وهي ماويّة مولاة هجير بن ابي إهاب احد الثلاثة الذين اشتروه والآخران عقبة وأبو اسروعة اخواه لامه . وكانت ماوية هي و زوجها موهب مولى آل نوفل يحفظانه . قالت كان خبيب يتهجد بالقرآن فاذا سمعه النساء بكين ورققن عليه فقلت له هل لك من حاجة ، قال لا الا ان تسقيني العذب ولا تطعميني ماذبح على النُّصب (وهي الحجارة التي يذبحون عليها الاصنام) وتخبريني اذا أرادوا قتلي . فلما ارادوا =

مشروط باتباع السنن والاخذ بالاسباب وفي واقعة الرجيع قد اختلفوا في النزول على حكم المشركين فكان ذلك تقصيرا منهم وفي واقعة بئر معونة قد قصروا في الاحتياط اذ أمنوا لمن لا يصح يوءمن لهم فكان ذلك جزاء التقصير وموعظة للمؤمنين ليكونوا دائما حذرين محتاطين غير مقصرين ولا مسرفين

وقد صرح بما اتفق عليه المفسرون من كون الآيات تأديبا للمؤمنين وتوبيخا لمن فرط منهم مافرط والامر ظاهر كالشمس في الضحى او أشد ظهورا

= قتله اخبرته فوالله ما اكثرت بذلك . وقد خرجوا به من الحرم ليقتلوه خارجه واستأذن منهم بان يصلي ركعتين فصلاهما وقال : لولا أن تروا ان مابي جزع من الموت لزدت . وانشأ يقول

ولست أبالي حين اقتل مسلما على أي شق كان لله مضجعي
وذلك في ذات الاله وان يشأ يبارك على اوصال شلو ممزع

واما وقعة بئر معونة فملخص خبرها ان ابا براء عامر بن مالك الملقب بملاعب الأسنة قدم على النبي (ص) المدينة فدعاه الى الاسلام فشهد بحسنه ولم يسلم ولكنه قال يا رسول الله لو بعثت اصحابك الى اهل نجد يدعونهم الى ما جئت به لرجوت ان يستجيبوا . قال النبي (ص) « إني اخاف عليهم أهل نجد » فقال اني لهم جار أي انهم في ذمتي وجواري وعهدي فانا احميهم . فبعث سبعين رجلاً من القراء الذين انقطعوا لحفظ القرآن ومدارسته آناء الليل فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهي بين ارض بني عامر وحرة بني سليم . و بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله (ص) الى عامر بن الطفيل فلم ينظر فيه وامر رجلا فطعن الرسول بالحربة واستنفر بني عامر الى قتال الباقين فلم يجيبوه حفظا لجوار ملاعب الأسنة فاستنفر بني سليم فاجابته عصية ورعل وذكوان فأحاطوا باصحاب الرسول حتى استأصلوهم بعد قتال شديد فلم ينج منهم الا كعب بن زيد بن النجار فانه ارتث بين القتلى (أي حمل من المعركة جريحا وفيه رمق) وقد عظم امر هذا الواقعة على النبي (ص) والمؤمنين لمكان هؤلاء المقتولين غدرا وكيدا من العلم وحفظ القرآن

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متاخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا . ولمن ءمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ الرابطة عند النقشبندية وطاعة المريد لشيخه ﴾

(س ١٠) من ع • س • ط • في سنغافورة

حضرة العالم الفاضل السيد محمد رشيد رضا صاحب « المنار » المنير بمصر

قد كثرت الضوضاء والأخذ والرد في هذه الايام بين مجلة « الامام » بسنغافورة ومن يثق بها وبين من يسمون أنفسهم أهل الطريقة وأرباب السلوك وذلك بسبب السؤال الآتي والجواب عنه والمجادلات فيه ولأن المنار هنا له اعتبار عند أولي الابصار أحببنا ان يكون الحكم في هذه القضية لكي تقطع جهيزة صوت كل خطيب حيث قد امتلأت الاسماع نقيقا وأعمدة الجرائد سوادا والقلوب شبها فنؤمل بسط الجواب وبيان الحق بأدلته ودحض الشبه الباطلة ولا بد ان تكونوا قد كتبتم سابقاً في هذا الصدد فنرجوكم ان لا تحيلونا على ما ليس بأيدينا أثابكم الله .

أما السؤال المثير للجدال فهو : ما قولكم في الرابطة التي يلزم بها مشايخ الطريقة النقشبندية المريدين ومعناها انه لا يصح منهم ذكر الله إلا بعد احضار صورة الشيخ في قلب المريد ثم يشرع في الذكر مع حضورها ويتركه اذا غفل عنها لانه حينئذ اطل لتمكن الشيطان من المريد لخلو قلبه من صورة الشيخ وان قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا) دليل لهم وقوله تعالى (وابتغوا اليه الوسيلة) أمر بها أي مع التفسير المذكور الى نحو ذلك وجاء في سؤال آخر الى مجلة الامام ن من حق الشيخ ان يمنع المريد عن اجابة أبيه وأمه المسلمين إذا

ناداياه ولو كان في النزع وكذا منع الزوجة عن زوجها والعكس وقد وقع ذلك هنا ومات المريض حزينا . ويقولون ان الشيخ يربي التلميذ بذلك

ومن السؤال أيضاً قولهم يجب على التلميذ متابعة شيخه بدون سؤال أو تردد ولا يجوز له ان يعترض على شيخه ولو رآه على فاحشة لانه كالنبي المرسل بالسبة اليه ولا ينكر عليه ولا بقلبه وان عقوبة الانكار حينئذ الحرمان واوجبوا على المريد ان يعتقد انه لا يمكن ان يصل اليه مدد ولا خير من ربه الا بواسطة الشيخ لانه الوسيلة له . وللشيخ محلات للسلوك والتلقين يحشر اليها جملة من الرجال الشبان والنساء الشواب يجتمعون بها من غير محرمية بل جُلهم جهال بالواجبات العينية وان الذكر وحده كاف للوصول والقرب من الله ولو ترك اكثر الفروض العينية . وقد اجابتهم مجلة الامام بالمنع في الجميع وان تلك المبادي مما تبع ضلال الامة فيها من قبلهم من الامم وان بعضها فيه ميل الى جانب الشرك وقد نقل الامام ماقاله المفسرون في الرباط الشرعي والوسيلة الشرعية وجزم بان عبادة الله لا تجوز بغير ماشرعه الله وان من زاد فيها كمن نقص منها مبتدع مردود عليه قوله وان الرابطة بالمعنى المذكور في السؤال لم يعلمها النبي احدا من اصحابه ولا علمها الصحابة احدا من التابعين وان تطهير القلوب من الصور والتماثيل ليس باولى من تطهير محلات العبادة منها . وانه يحرم متابعة الشيخ فيما نهى الله عنه ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ومن شرع للعباد مالم يأذن به الله فهو ضال مضل وان اعظم مرشد واعلم طبيب ديني هو نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وقد اكمل الله به الدين فلا دواء ديني نافع الا وقد بينه لنا ومن لم تشف أمراض قلبه ادوية القرآن لاشفى الله مرضه ، وان النبي ارشدنا الى دواء الوسواس وهو ذكر الله ليخنس الشيطان فمن لم يخنس شيطان وساوسه بذكر الله فهو الكاذب ومستحيل ان يخنس لحضور صورة شيطان مثله في قلب موسوس متهوس ومافي السؤال من الآداب هو ضد الادب في الاسلام ولم يؤدبنا به النبي ولم يعمل به الصحابة فعلى طالب الحق أن يلزم هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ويجتنب البدع الى نحو ذلك .

واعترض اهل الطريقة بزعمهم ان الجنيد والجيلاني واضرابهما اوجدوا الرابطة بمعناها المشروح اعلاه والزام المريد بما ذكر من الشروط وان لا يمنع المريد الشيخ اي شيء اراده من نفسه او ماله سواء كان ذكرا ام انثى وان الامام واصحابه خرجوا عن الدين ومرقوا منه بإنكارهم الى نحو ذلك

وانا نسأل من المنار المنير ابداء مايراه الصواب في هذا الموضوع مع البيان الشافي فانا الى ذلك محتاجون نعد الايام والساعات والله المسؤل ان يديمكم نفعا للعباد وشجى في حلوق اهل البدع والإلحاد آمين ع · س · ط

(س ١١) من س · س · في (كوالا لمغور) في جنوب ميلاي ·

سيدي · تصدر في سنغافوره مجلة علمية ملية بلغة الملايو اسمها (الامام) يكتب فيها بعض رجال الاصلاح ومحررها رجل وطني اسمه عباس بن محمد طه وهو من خيرة شبان هذه البلاد علما وعملا اشتهر اخيرا بمحاربة البدع والخرافات التي ألصقت بالدين ·

وفي المجلة باب للفتوي وقد سئل منذ اشهر عن الرابطة المعروفة عند اهل الطريقة النقشبندية وهي احضار المريد صورة الشيخ في القلب عند الذكر وربطه من جملة الارادة التامة واستفادة علم الواقعات حتى يفني تصرفه في تصرف الشيخ أخذا من قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة » · وقوله « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » · وقوله « يا أيها الذين اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » · فأفتى الامام بان الآمرين بفعل هذه الرابطة والعاملين بها ليس لهم مستند من الكتاب او السنة · وان الآيات التي جعلوها سندا لهم لا تدل على مرادهم البتة · ثم اورد اقوال المفسرين كالخازن والجلالين في الآيات المذكورة · الخ ما جاء في الجواب ـ ثم قال ـ اذاً فاحضار المريد صورة الشيخ في قلبه عند الذكر هو إشراك بالله · وهذ ماجاء الاسلام لمحوه · اوما معناه · ثم انحى على اهل الطرق الآن ونسب كثيرا منهم للدجل والتضليل · واورد لنفي الرابطة آيتين آية · «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً» · وآية «وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين» · اه بالمعنى

فلما نشرت هذه الفتوى وهاته التصريحات التي لم يعهد لأحد من قبل هذا الشاب التصريح بها قامت قيامة شيوخ الطرق في هذه المستعمرة ونسبوا للامام ومحرره تضليل عباد الله الصالحين واوهموا العامة ان الأمام يسعى في هدم المعتقدات وهم الى الآن يحرضون العامة بهجر الامام وعدم الاطلاع فيه . اما الحقير وكثير من متخرجي المدارس الأميرية فبقينا متوقفين حتى يأتينا من عند الاستاذ بيان شاف في هذه المسئلة التي نعلم و يعلم الكثير ان لكم القدح المعلى في حلها والله يبقيكم لنا .

***

(ج) لو قلت إني من أجدر الناس وأحقهم ببيان الحق فى هذه المسألة لرجوت ان اكون صادقاً ، واذا بينت السبب في ذلك رجوت أن يذعن له كل عاقل منصف ذلك بأنني قد سلكت الطريقة النقشبندية وعرفت الخفي والاخفى من لطائفها وأسرارها، وخضت بحر التصوف ورأيت ما استقر في باطنه من الدرر، وما تقذف أمواجه من الجيف، ثم انتهيت في الدين، الى مذهب السلف الصالحين ، وعلمت ان كل ما خالفه فهو ضلال مبين ، وأمهد للفصل في المسألة تمهيدا يقرب المراد من طالب الحق فأقول

قد عرفنا من طباع البشر واخلاقهم ان يألفوا ما أخذوه بالرضا والتسليم و يأنسوا به فاذا وجدوا لهم مخالفا فيه تعصبوا له ووجهوا قواهم الى استنباط ما يؤيده و يثبته ويدفع عنه هجمات المخالفين لهم فيه لا يلتفتون في ذلك الى تحري الحق واستبانة الصواب فيما تنازعوا فيه . ولو لا فشوّ هذا الخلق في الناس لما بقيت الاديان والمذاهب والأحزاب والشيع والحق في كل منها واحد لا تعدد فيه

ثم إن من اخلاق البشر أيضا ان لا يجتمعوا على شيء الا اذا اعتقدوا ان فيه خيرا لهم وقد يكون هذا الاعتقاد لبعضهم عن نظر واستدلال او تجربة واختبار وللبعض الآخر عن اتباع وتقليد لمن اعتقدوا فيهم الفضل والكمال

على هاتين القاعدتين بني التعصب للمذاهب والطرق في جميع الملل وعليه يتخرج أخذ كثير من اهل الصلاح والتقوى والعلم والعمل بالرابطة في الطريقة النقشبندية و بغيرها من البدع التي لم تكن على عهد السلف في غيرها من الطرق و بكثير من القواعد والمسائل في مذاهب الفقهاء والمتكلمين الذين جاؤا بما لم يكن عليه السلف الصالح

يذهب الرجل المشهور بالصلاح او العلم الى شيء يظهر له بحسب اجتهاده انه حق او خير فيتبعه آخرون عن استحسان لما استحسنه ومعرفة بدليله او عن محض التقليد فاذا خالفهم غيرهم فيه عدوهم منتقصين لهم تعصبا لما هم عليه فيقوى الخلاف ولايزالون مختلفين الا من رحم ربك وهم الذين يحكمون الدليل ويتحرون به استبانة الحق فاذا ظهر لهم ولو على يد الخصم ولسانه أتوا اليه مذعنين، وقبلوه راضين مطمئنين اذا تدبرت هذا فاعلم أن أئمة الصوفية وكبراءهم ماوضعوا هذه القواعد من الرابطة وطاعة الشيخ المسلك طاعة عمياء مطلقة حتى من قيود العقل والشرع عند الغالين وغير ذلك من الاصول والقواعد الاعن علم وتجربة واختبار وصلوا بها الى مرتبة اليقين بان ذلك مفيد لهم وموصل الى الغاية التي يقصدونها بطريقتهم . واعني بالعلم هنا علم النفس من حيث ادرا كها وشعورها ووجدانها وصفاتها واخلاقها . وقد كان مثلهم في ذلك كمثل علماء الكلام الذين بحثوا في الموجودات وبنوا علمهم الالهي عليها وكل منهما اذا وجد فى علمه مايخالف ظواهر الشرع لجأ الى التطبيق بالتأويل والتماس مايؤيده من القرآن العزيز والحديث الشريف وقد يتمحل لذلك ويتكلف اذا اعترض عليه . كذلك فعل المتكلمون الذين زعموا ان الافلاك التسعة فى الهيئة اليونانية هي السموات والكرسي والعرش وكذلك فعل بعض اهل الطريق فيما ذكر في السؤال وما لم يذكر فيه من تأويل الآيات التى زعموا أنها تدل على مشروعية مايسمونه الرابطة والتوجه ولادليل في شيء منها على ذلك .

لو كان في الشرع دليل على ان ذلك مطلوب في الدين لما خفي عن الصحابة والتابعين بل لأمر به النبي صلى الله عليه وسلم وعمل به وتواتر عنه لانه مما يتعلق بجوهر الدين وهو عبادة الله ومعرفته فلا يقاس على مايمكن ان يستنبط من القرآن من اسرار الكون التي لم تؤثر عن الصدر الأول

قال السيد الآلوسي النقشبندي في باب الاشارة من تفسير سورة الجمعة : « وذكر بعضهم ان قوله تعالى « ويزكيهم » بعد قوله سبحانه « يتلو عليهم آياته » اشارة الى الافاضة القلبية ، بعد الاشارة الى الافاضة القالبية اللسانية ، وقال بحصولها للاولياء المرشدين فيزكون مريدهم بإفاضة الانوار على قلوبهم، حتى تخلص قلوبهم

وتزكو نفوسهم ، وهو سر ما يقال له التوحيد عند السادة النقشبندية ، وقالوا بالرابطة ليتهيأ ببركتها القلب لما يفاض عليه ، ولا اعلم لثبوت ذلك دليلا يعوّل عليه عن الشارع الاعظم ، صلى الله عليه وسلم ، ولا عن خلفائه رضي الله عنهم ، وكل ما يذكرونه في هذه المسألة و يعدونه دليلا لا يخلو من قادح بل أكثر تمسكاتهم فيها تشبه التمسك بحبال القمر ، ولولا خوف الإطناب لذكرتها مع ما فيها . ومع هذا لا أنكر بركة كل من الأمرين — التوجه والرابطة — وقد شاهدت ذلك من فضل الله عز وجل . وأيضا لا أدعي الجزم بعدم دليل في نفس الامر وفوق كل ذي علم عليم ، ولعل أول من أرشد اليهما من السادة وجد فيهما ما يعوّل عليه أو يقال يكفي للعمل بمثل ذلك نحو ما تمسك به بعض أجلة متأخريهم ، وان كان للبحث فيه مجال ، ولأرباب القال في أمره مقال ، » اه

فأنت ترى هذا العالم الجليل الواسع الاطلاع الواقف على ما قال أنصار هذه الطريقة في الاستدلال على الرابطة والتوجه لم يعثر لهما على دليل ، ولم يرضه شيء مما قيل ، ولكنه قد راعته مكانة من جرى على ذلك من الصالحين ، وأرضاه ما وجد لهما من الاثر في قلبه وكذلك كان هذا العاجز عدة سنين ، فانني قد وجدت أثر الرابطة والتوجه في نفسي : رأيت ما لم يراه معي الناظرون ، وسمعت ما لم يسمعه مثلي المصغون ، وشممت ما لم يكن يشم الحاضرون ، ولا أحب شرح ذلك في المنار ولا الخوض في علله وأسبابه ، وما ذكرت هذه الاشارة الا ليعلم السالكون لهذه الطريقة بالفعل انني لست منها كما يقال في المثل « من جهل شيئا عاداه » وانما اتكلم فيها عن عرفان ، وأحكم فيها بسلطان ،

أقول إن التوجه والرابطة ليسا من الدين في شيء ، ولا يجوز ان يعدا من العبادة المشروعة في الاسلام ، ولكن لا أقول بكفر كل من عمل أو يعمل بهما ، وانما أخشى ان يكون بعض المتقلدين لهذه الطريقة تقلداً من غير علم بالشرع ، وعرفان بحقيقة النفس ، أقرب الى الوثنية منهم الى التوحيد ، فيما يكون بين الشيخ والمريد ، بل أجزم بأن من ذلك ما هو شرك جلي أو خفي ، وأن كنت لا أجيز رمي شخص معين به ، يمكن للمريد العارف بعقيدة الاسلام ان يجمع بين التوحيد و بين تخيل شيخه

عند ذكر الله عز وجل بأن يتخيل أنه جالس في حضرته يراقب أدبه وحضور قلبه في ذكره، كما نذكر الله أو يقرأ القرآن أو العلم بحضرته، وهو يعتقد انه لا ينفع ولا يضر، ولا يقصد بقبول العمل، وانما يصمد في ذلك الى الله تعالى وحده . فمثل هذا لا يعد مشركا لشيخه مع ربه، وهو لا يشغله تخيله لشيخه عن ذكره، إذ لا يستصحب الصورة المتخيلة عند تصور معنى كلمة التوحيد، وذلك سهل على مريده كما يقرأ القرآن أو غيره من كتب الفنون أمام شيخه ولا يشغله وجوده عن فهم ما يقرأ . ومع هذا لا يجوز له ان يحكم بأن هذا الامر مطلوب في الشرع بل يكتفي بأن ينتفع بما جربه من غير مخالفة لنص من نصوص الشرع

واما استمداد الهمة من أرواح الشيوخ فقد ضل فيه كثيرون كضلال الذين يعتقدون ان لشيوخهم سلطة غيبية يتصرفون بها في النفوس والآفاق وانهم بذلك وسطاء بين الله وخلقه يقربونهم اليه زلفى اذا أرادوا كما كانت تقول الجاهلية في آلهتها . على أن للمسألة أصلا يعد من مباحث علم النفس لا من الدين هو منشأ ضلال المفتونين عن تجربة ووجدان يظن الجاهل منهم أنه من الحقيقة المخالفة للشريعة، ويعلم العارف المحقق انه لا خلاف في الفعل، ولا منشأ للضلال الا الجهل

قد جرب أهل الطريقة ان يتوجهوا بهمتهم وارادتهم الى بعض شيوخهم الصالحين أو الى بعض الصحابة أو النبيين قاصدين ان تتصل أرواحهم بأرواحهم وتستمد منها قوة ما فيجدوا لذلك في نفوسهم أثرا حقيقيا لا يمكن لاحد ان يكابرهم فيه كما لا يكابَر أحد ولا يشكك في شعوره بالفرح والسرور أو الغم والحزن . فاذا قيل لمن جرب ذلك من الجاهلين بالشريعة انه مخالف لها فانه يشك في حقية الشريعة ولا يشك فيما هو فيه الا أن يجمع له بينهما . ولمثل ذلك قالوا ان سالك الطريق عرضة للزيغ والكفر اذا لم يكن له شيخ من العارفين الجامعين بين علم النفس وعلم الشرع فيبين له في مثل هذه المسألة ان هذا الاثر الذي يراه في نفسه من التوجه هو أثر طبيعي له ليس من الخوارق ولا من السلطة الغيبية التي لا تكون الا لله وحده واذا رآه مرتقيا في سلوكه يبين له ان براهمة الهند يعرفون التوجه والرابطة ويؤثر عنهم كثير من الخوارق الصورية والمادية، التي لا تخرج عن السنن النفسية وخواص

الروحانية ، ولكنهم في توجههم ورابطتهم دون السادة الصوفية ، لأن الرابطة والتوجه عندهم من المقاصد التي يقفون عندها ، ويرضون من رياضتهم بثمرتها وأثرها ، وهما عند الصوفية من الوسائل التي يعرفون بها نفوسهم ، ويعرجون منها الى ان يصلوا الى معرفة ربهم ، فالاشتغال بهما كاشتغال العالم الطبيعي بمعرفة خواص الماء والبخار والكهرباء والضوء فان كان يقصد بذلك معرفة هذه الاشياء لذاتها مما ينتفع به في هذه الحياة المادية كان مثله كمثل البرهمي فى التوجه والرابطة لا يزيد عن كونه عالما ماديا ، وان كان يقصد بها مع ذلك معرفة الله بمعرفة حكمه وأسراره في خلقه كان مثله كمثل الصوفي في التوجه والرابطة وصار عالما ربانيا ، فالامور بالمقاصد والارادات ، كما بيناذلك في تفسير مافي صدرهذا الجزء من الآيات ،

اذا عرفت هذا وهو ما عليه محققو العارفين من الصوفية تبين لك ان مسألة التوجه والرابطة من المسائل التي تعد من وسائل علم النفس وليست بحد ذاتها من الدين فيستدل عليها بالآيات والاحاديث ، وان علم النفس كعلم الآفاق قد يكون بالارادة طريقا لمعرفة الله تعالى و بالقصد والنية عبادة له كما تكون جميع العلوم الدنيوية كذلك . والاصل في ذلك عند الصوفية قوله عز وجل (٤١ : ٥٣ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ، اولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد ٥٤ الا انهم فى مرية من لقاء ربهم الا إنه بكل شيء محيط) ولما كان محيطا بكل شيء كانت معرفة غاية كل شيء موصلة اليه اذا قصد بها ذلك . ولذلك قالوا ان لله طرائق ، بعد انفاس الخلائق ،

وههنا ثلاث مسائل لا بد من التصريح بها وايضاحها ايضاحا لا لبس فيه . (احداها) أن كل علم حقيقي يمكن ان يكون عبادة محمودة في الاسلام اذا حسنت فيه النية وأريد به معرفة الله ومعرفة سننه وحكمه فى خلقه وكذلك كل عمل نافع يراد به دفع الاذى عن عباد الله وايصال الخير اليهم . ولكن العبادة في ذلك قلبية لا صورية فلا يقال إن علم الضوء والكهرباء وعمل الادوية وصنع الآلات مما يكون مع حسن النية من العبادات المشروعة في ذاتها التي تلتمس لها الدلائل من الكتاب والسنة . ومثلها في ذلك التوجه والرابطة في الطريقة

(المسألة الثانية) إن العبادة المشروعة لذاتها التي يطالب المسلمون بهـا هي مانطق به القرآن الـكريم أومضت به السنة النبوية وجرى عليه جمهور السلف وماعدا ذلك فهو بدعة والبدعة في الدين لا تكون الا ضلالة كما ورد في الحديث واما البدعة التي تعتريها الاحكام، ويقال ان منها ما هو حلال وما هو حرام، فهي البدعة في أمور الدنيا علومها وأعمالها كما يدل عليه حديث مسلم « من سن سنة حسنة فله أجرها » الخ

(المسألة الثالثة) ان جميع ما يبتدعه الناس من وسائل النفع والخـير في العلم والتربية والاعمال يشترط في جوازه ان لا يكون مخالفا لما هو مقطوع به من أمور الدين. فاذا فرضنا ان التوجه والرابطة ينافيان ماهو مقطوع به في الاسـلام فانه لا يحل للمسلم العمل بهما. وقد علمت انهما يختلفان باختلاف العالم العارف والجاهل المقلد

ومن هـذه المسألة أنتقل بك الى القسم الثاني من الاستفتاء وهو ما يفرضون من طاعة المريد لشيخه ولو في المعصية، وعدم انكاره عليه وان فعل المنكر، واعتقاد انه لا يقبل له عمل ولا يصل اليه خير الا بواسطته، ومثل هذا ممـا لا يحتاج فيه الى سؤال ولا جواب فان وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صريح في القرآن والأحاديث ومضت به السنة فهو معلوم من الدين بالضرورة يحكم الفقهاء بردة منكره ولم يستثن الله ولا رسوله مشايخ الطريق من هذا الحـكم بل كان الصحابة يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن أمور ينكرونها في أعمال الدين كالسهو في الصلاة أو أعمال الدنيا كالحرب وتدبيرها حتى يفسرها لهم ويفرق بين ماهو عن وحي وما هو عن سهو أو اجتهاد غيره أفضل منه. والصوفية المحققون لا يشترطون على المريد الا حسن الظن بشيخه والادب في سؤاله وما عدا ذلك فهو من غلو المقلدين، أو من دسائس الشياطين، ولا يقولون ان عبادته لا تقبل ولا يصل اليه خير من ربه الا بواسطة شيخه بل يقولون انه لا يصل الى المقصد من سلوكه الا بتربية شيخه. وهذا صحيح في الغالب

واما ما احتجوا به على مجلة « الامام » من « ان الجنيد والجيلاني وأضرابهما أوجبوا الرابطة » فهو بديهي البطلان عند كل أحد يعرف ما هو الاسـلام اذ من المقرر انه ليس لأحد من خلق الله ان يوجب على عباد الله أمراً دينياً الا رسل

الله بإذن الله وهذا الغلو في إجلال المشهورين هو سبب التقليد منشأ فساد كل دين

واذا كانت المسألة بديهية عند كل من يعرف الاسلام ، فهي من أعظم المشكلات عند جهلة العوام ، لأن الكثيرين منهم لا يعرفون من الاسلام شيئا له سلطان على نفوسهم الا ما يسمعون عن الرجال الصالحين ولا علاج لهؤلاء الا تعليمهم ماهو الاسلام مع الحكمة التي يجمع فيها بين بيان الحق وبين الادب عند ذكر أهل العلم والتقوى وبيان انهم غير معصومين من الخطا وأن كثيرا مما ينقل عنهم لا تصح نسبته اليهم ، وأن افضل ما يكرمون به هو عدم الثقة بما ينقل عنهم اذا كان مخالفا للشرع « لا لمخالفة الشرع اذا ادعى بعض الناس انهم خالفوه »فان ذلك تقديم لهم على الله ورسوله ، ثم تحسين الظن بنيتهم وقصدهم فيما اخطأ اجتهادهم فيه وان المجتهد المخطئ منهم يؤجر على اجتهاده ولكن لا يتابع عليه ،

واني اذكر شاهدا واحدا من خطإ أئمة الصوفية والعلماء في اجتهادهم المتعلق بالتصوف وهو خطأ الإمام الغزالي — الذي صرحت غير مرة بأن كتابه الاحياء كان استاذي الاول الذي حبب الي العلم والتصوف — ليقاس عليه خطأ من لا يشق له غبارا من الشيوخ الصالحين المشهورين ومنه يعلم ان كل اجتهاد خالف الكتاب والسنة فليس من الدين

كان الغزالي في سياحاته ايام تصوفه يزور المشاهد وقال ان قبور الانبياء والصالحين تزار للاعتبار بتذكر الموت والآخرة وللتبرك ، فزاد على ما ورد في حديث الإذن بزيارة القبور ما سماه التبرك . ويعني به ما يجده الزائر السالك لطريق الآخرة عند زيارة المشاهد من الخشوع والحال التي تزيده رغبة في الآخرة واعراضا عن الدنيا . واستدل على مشروعية هذا ونحوه مما لم يرد في الشرع كالرابطة التي نحن بصدد البحث فيها بحديث « من بورك له في شيء فليلزمه » كأنه يقول اننا وجدنا لذلك فائدة في نفوسنا زادت في خشوعنا ووجد ان الدين في قلوبنا وذلك هو البركة لان معناها الزيادة وقد امرنا الشارع بلزوم كل شيء نرى فيه بركة لنا فنحن عاملون بأمره في ذلك

الخطأ في هذا من وجهين (أحدهما) ان الكلية ممنوعة فاننا لو جعلنا للانبياء والصالحين صورا وتماثيل تمثل لناظرها هيآتهم في الخشوع والوقار لكان لها في نفوس الناظرين اليها من التأثير ما ليس لرؤية قبورهم المشيدة المشرفة كما نرى ذلك عند غيرنا من الملل وهذا التأثير هو السبب في اتخاذ النصارى للصور والتماثيل في كنائسهم والغزالي لا يجيز هذا في الاسلام ومثله بناء المشاهد للصالحين وتشريف قبورهم واتخاذ المساجد عليها نهي عنه كما نهي عن الصور والتماثيل فثبت انه لايجوز لنا ان نحدث في الدين ما ليس منه وان كان إحداثه لغرض صحيح وقصد حسن بل نتبع فيه ما جاء به الكتاب والسنة وجرى عليه سلف الامة ونجعل اجتهادنا في اختيار النافع لنا محصورا فيما فوض الينا من الاستقلال بأمور دنيانا .

(والوجه الثاني) ان الحديث الذي أورده يدل على ما ذكرناه من التخصيص بأمر الدنيا دون ما استدل به عليه من جعله في أمر الدين. إنه أورد الحديث باللفظ الذي اشتهر به على الالسنة ولم يروه به أحد . وما ذكره السيوطي في الدرر المنتثرة من عزوه الى ابن ماجه بعد ايراده بهذا اللفظ غير مراد ظاهره وانما مراده ان ابن ماجه رواه بالمعنى وقد ذكر نص رواية ابن ماجه في الجامع الصغير وهو « من أصاب من شيء فليلزمه » وقال انه رواه عن أنس وعائشة. أقول وقد أخرجه ابن ماجه في أبواب التجارة والكسب من حديث أنس بهذا اللفظ الذي ذكره في الجامع الصغير ومن حديث عائشة بلفظ آخر وهو « عن نافع قال كنت أجهز الى الشام والى مصر فجهزت الى العراق فأتيت عائشة أم المؤمنين فقلت لها يا أم المؤمنين كنت أجهز الى الشام فجهزت الى العراق فقالت لاتفعل مالك ولمتجرك فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اذا سبب الله لاحدكم رزقاً من وجه فلا يدعه حتى يتغير له أو يتنكر له» تقول له مالك ولمتجرك القديم الذي تعودت الربح منه حتى تتركه وتقدم على ما تجهله ؟ الزم ما رأيت الربح فيه. ومعلوم ان الاوامر والنواهي المتعلقة بأمر الدنيا كهذا الامر لا يعد من التكليف الديني الذي يجب امتثاله شرعا وانما يسميه علماء الاصول أمر إرشاد يعتبر به ويعرض على المصلحة

ولا يقال إن حديث أنس عام لان عمومه في بابه على انه روي بلفظ «من

أصاب مالا من شيء» كما هو ظاهر حاشية ابن ماجه، ولان هناك دليلا يمنع جريانه في أمر الدين وهو ماذكرناه في الوجه الاول. على ان في سنده فروة أبا يونس عن هلال. قال الذهبي في الميزان مختلف فيه ليس بقوي وقد ضعفه الازدي. ولم يكن الغزالي في أيام تصوفه وزمن تأليفه الإحياء يبحث عن علل الحديث وإنما كان يستدل ويستنبط مايتعلق بالفضائل من كل ما يراه فى الكتب حتى كتب الصوفية ولذلك وقع فى الاحياء كثير من الاحاديث المنكرة والضعيفة والموضوعة. وقد عكف على الحديث واعتصم بمذهب السلف في آخر عمره وان اهتدى الى حقية مذهب السلف قبل الانقطاع الى الحديث

واذا كنا معشر المسلمين نعتقد ان الاولياء والصوفية غير معصومين من الخطإ وكنا نشاهد الخطأ الصريح فى كتبهم ونراهم يخالف بعضهم بعضا ويرد بعضهم على بعض فهل يصح ان نجعل أقوالهم واعمالهم اصلا من اصول الدين

وخلاصة القول ان التوجه والرابطة ليسا من عبادات الاسلام ولا دليل فيه على كونهما مشروعين ومن جعلهما عبادة مشروعة في ذاتها فقد دخل فى عداد الذين قال الله فيهم (٤٢: ٢١ ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) وقوله فى بيان أصول المحرمات (٧: ٣٣ وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله مالا تعلمون) وان ائمة الصوفية المحققين لا يجعلونهما من الدين وانما يجعلها بعضهم من وسائل معرفة النفس فهما عندهم من قبيل الوسائل التي تتخذ الآن لما يسمونه استحضار الارواح وفي كل منهما لابد من الواسطة، وان المقلدين في الطريقة النقشبندية وغيرها عرضة للضلال والشرك الجلي أو الخفي اذا تمسكوا بهذه الظواهر التي لا يعرفون مراد العارفين بها فيجب عليهم اتقاء ذلك وإحكام عقيدة التوحيد التي منها ان الشيوخ الاولياء بل والانبياء لا يملكون لانفسهم ولا للناس ضرا ولا نفعا ولا هداية ولا غيرها كما صرح به الكتاب العزيز فى آيات كثيرة وأن يحسنوا الظن بمن قال بالرابطة من الصالحين وقد بينا مرادهم عن علم وعرفان وهو سر من اسرار التصوف أفشيناه للضرورة والارشاد وان يعتقد مع تحسين الظن بهم انهم ليسوا حجة في الدين وانهم لا يطاعون في معصية الله. ومن أراد ان يزداد نورا في هذه المباحث فلينظر جزء الترجمة من تاريخ الاستاذ الامام فان فيه بيانا لا يجده في كتاب

﴿ وجه المرأة الحرة ﴾

(س ١٢) من محمد رحيم افندي الشفي في « زويله باشي» بسمبر (روسيا)

الفاضل الجليل والعالم النبيل السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الأغر دمت بالعز والكرامة. اما بعد فقد كثر المباحثة والمناظرة في حق وجه الحرة في طرفنا فبعض العلماء قالوا ليس بفرض ستر وجه الحرة لحديث عائشة رضي الله عنها أخرجه أبو داود وابن مردوية والبيهقي ان اسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال « يا أسماء ان المرأة اذا بلغت المحيض لم يصلح ان يرى منها الا هذا وهذا » وأشار الى وجهه وكفه وبعضهم قالوا ان ستر وجه الحرة فرض وان لم تستره تكون آثمة عند الله لقول عائشة رضي الله عنها احدى عينيها فحسبت لاندفاع الضرورة (كذا) أخذه القهستاني والزاهدي فالمأمول من سيادتكم ان يبين الحق من الاقوال لرفع النزاع من بين الناس

(ج) حديث عائشة لا تنهض به الحجة فانه مرسل وفي اسناده من تكلم فيه والاصل في المسألة قوله تعالى (٢٤ : ٣١ ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها) فقد روي عن ابن عباس انه قال : الظاهر منها الكحل والخدان وفي رواية عنه : الزينة الظاهرة والوجه وكحل العين وخضاب الكف والخاتم . وعن سعيد ابن جبير والضحاك : الوجه والكف . وعن عطاء : الكفان والوجه. وسئل الأوزاعي عن قوله تعالى « الا ما ظهر منها » فقال : الكفين والوجه ذكر ذلك كله ابن جرير في تفسيره وذكر أقوال من قالوا انها الثياب والحلي أو الوجه والثياب ثم قال : وأولى الاقوال في ذلك بالصواب قول من قال عني بذلك الوجه والكفان يدخل في ذلك اذا كان كذلك الكحل والخاتم والسوار والخضاب . وانما قلنا ذلك أولى الاقوال في ذلك بالتأويل لاجماع الجميع على ان على كل مصلّ ان يستر عورته في صلاته وان للمرأة ان تكشف وجهها وكفيها في صلاتها وأن عليها ان تستر ما عدا ذلك من بدنها الا ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه اباح لها ان تبديه من

ذراعها الى قدر النصف • فاذا كان ذلك من جميعهم إجماعاً كان معلوما بذلك ان لها ان تبدي من بدنها مالم يكن عورة كما ذلك للرجال لان مالم يكن عورة فغير حرام إظهاره ، واذا كان لها إظهار ذلك كان معلوما انه مما استثناه الله تعالى ذكره بقوله « الا ما ظهر منها » لان كل ذلك ظاهر منها . وقوله « وليضربن بخُمُرهنّ على جيوبهن » يقول تعالى ذكره وليلقين خمرهن وهو جمع خمار على جيوبهن ليسترن بذلك شعورهن وأعناقهن وقرطهن . اهـ كلام ابن جرير

والجيوب جمع جيب وهو فتحة القميص على الصدر وكانت المرأة تضع الخمار على رأسها وتسدله الى الوراء فيظهر عنقها وصدرها فأمرن بأن يجعلن طرفه على الجيب ليستر العنق والصدر . ولم يؤمرن بوضعه على الوجه فلو لم يقل الا ما ظهر منها لكان يصح ان يقال ان كشف الوجه باق على أصل الإباحة فكيف وقد امر بستر الجيب ولم يأمر بستر الوجه! . وناهيك بحكاية ابن جرير الإجماع على ذلك وهو ما كان عليه النساء في عهد السلف فقد كنّ يأتين المساجد ويغشين الاسواق ويسعفن الجرحى في مواقع القتال ويخطبن على الرجال ويناقشن الامراء والحكام . يفعلن ذلك وأمثاله مكشوفات الوجوه . ومن جال في أرض المسلمين في الاقطار المختلفة يرى ان أكثرهن يخرجن مكشوفات الوجوه ولا يستره منهن الا بعض نساء المدن وهي عادة حكمت بها غيرة الرجال عند ما دخل المسلمون في الحضارة وانغمسوا في الترف الذي يستلزم الفسق والفجور ولذلك ترى أكثر الفقهاء عللوا وجوب ستر المرأة وجهها عن الرجال بخوف الفتنة وابتدأ هذا البحث والخلاف في القرن الثاني

هل يمكن لمكابر ان يقول ان النساء كن يصلين مكشوفات الوجوه في مسجد الرسول (ص) في حياته ولا يراهن أحد ؟ اذا كابر أحد نفسه وقال يحتمل ان الرجال لم يكونوا يرون النساء في المسجد لانهن يصلين وراءهم ولم يخش ان يقال له انهم كانوا يرونهم قبل الصلاة اذ كن ينتظرن الجماعة معهم وبعدها عند الانصراف كما هو مأثور مشهور — فهل يسفه نفسه ويقول ان الرجال لم يكونوا يرون وجوه النساء وأيديهن في أثناء أعمال الحج من طواف وسعي ووقوف بعرفة وجولان في أرض الحرم ومعلوم لكل من يعرف احكام الحج في الاسلام أن كشف المرأة

وجهها في الإحرام واجب ومن النساء من تحرم بالحج من أول أشهره فتكون أكثر من شهرين محرمة مكشوفة الوجه واليدين أينما كانت وحيثما حلت وهي مع الرجال في جميع الاعمال

ومن نظر الى كلام فقهاء القرون الوسطى الذين رجحوا تحريم النظر الى الوجه والكفين يجد انهم لم يأتوا عليه بدليل من الكتاب ولا من السنة ولا من عمل أهل الصدر الاول وانما عللوه بخوف الفتنة وسد الذريعة وقد قالوا بحرمة النظر الى وجه الأمرد وعللوه بتلك العلة ومن العجب ان امام الحرمين من الشافعية اغتر بمنع الحكام النساء من الخروج في زمنه وظن ان عليه جميع المسلمين

قال الرملي في شرح المنهاج عند تصحيح المتن لحرمة النظر الى وجه المرأة وكفيها حتى عند الامن من الفتنة : « والثاني لا يحرم ونسبه الامام للجمهور والشيخان للاكثرين وقال في المهمات انه الصواب . وقال البلقيني الترجيح بقوة المدرك والفتوى على ما في المنهاج وما نقله الامام من الاتفاق على منع النساء أي منع الولاة لهن معارض لما حكاه القاضي عياض عن العلماء انه لا يجب على المرأة ستر وجهها في طريقها وانما ذلك سنة وعلى الرجال غض البصر عنهن للآية وحكاه المصنف عنه في شرح مسلم وأقره عليه » الخ ما ذكره ومنه انه يحرم النظر الى المرأة المتنقبة التي لا يرى منها غير عينيها ومحاجرها والى العجوز والمشوهة

وفي حاشية المقنع من كتب الحنابلة « لا يجوز له النظر الى الاجنبية قصداً وهو المذهب . وقال القاضي يحرم النظر الى ما عدا الوجه والكفين لأنه عورة ويباح له النظر اليهما مع الكراهة اذا أمن الفتنة ونظر بغير شهوة وهذا مذهب الشافعي . قال في الانصاف : وهذا الذي لا يسع الناس غيره خصوصاً للجيران والأقارب غير المحارم الذين نشأ بينهم » ثم نظر في هذا بأن فيه تجريئاً للفساق وهو مخالف لمقاصد الشرع في إصلاح أمر الدنيا والآخرة . وبمثل هذا صرح الحنفية مع أن الجميع يروون عن أئمتهم ان الوجه والكفين غير عورة وعن ابن عباس تفسير الآية بذلك

أقول مسألة الخوف من الفتنة العارضة أو سد ذريعتها لا يصح ان تجعل دليلا لتغيير حكم من احكام الدين التي كان عليها السلف بحظر أو إباحة تغييرا مطلقا كأن

يقال مثلا ان صلاة النساء مع الرجال في المساجد حرام في الاسلام، بناء على ما يقولون به من فساد الزمان، ومثله كشف المرأة وجهها . وانما يصرح بان حكم الاسلام هو كان الذي عليه السلف اتباعا للكتاب والسنة ولكن اذا عرض ما يمنع من العمل به بناء على قاعدة درء المفاسد فاننا نمتنع عنه ما دامت المفسدة متوقعة

فحاصل الجواب ان كشف المرأة لوجهها هو الاصل الذي كان عليه الناس واقره الاسلام بل أوجبه في الإحرام وادعاء حرمته في أصل الدين جناية على الدين وتحكم فيه بالرأي أو الهوى وإثبات للحرج والعسر فيه وقد نفاهما الله عنه لأن أكثر المسلمات يشق عليهن ذلك مع الحاجة الى العمل والسفر وان نحمله من نساء الامصار من تعودنه أو من كفتهن الثروة مزاولة الاعمال . ودعوى خوف الفتنة من كشفهن لوجوهن لا تسلم على اطلاقها فاننا نعرف من نساء الفلاحين والبدو السافرات من نقطع بأنهن أبعد عن الريبة من نساء المدن المتنقبات، ولكن المرأة التي تعلم ان في كشف وجهها مفسدة يحرم عليها كشفه بلا شك

﴿ احترام المسلم لشعائر غيره الوطنية والدينية ﴾

(س ١٣ و ١٤) من ج ٠ ١ ٠ بمصر

جناب الاستاذ العالم الشيخ رشيد رضا المحترم

حبذا لو تكرمتم بإبداء معلوماتكم السديدة وآرائكم المفيدة عن السؤالين الآتين وما ذلك الا حباً في الافادة والاستفادة .

— ١ — هل يجوز لأحد المسلمين ان يراعي شعائر الدولة التابع لها أم لا ؟ مثلا اذا فرض وجود بعض المسلمين التابعين لدولة مسيحية كاروسيا وغيرها هل يتحتم على الرعايا المسلمين في مثل هذه الاحوال ان يجاروا الشعب في شعائرهم مع وجود المغايرة في الاحتفالات الدينية بمعنى هل يليق بهم أن يقوموا بالاحترام اللازم للقيصر أو للحاكم اذا مر في الشوارع أو قابلوه في محله كما تفعل الرعية التي على دين ملكها أو حاكمها . وهل يتشارك المسلمون فى اقامة الاحتفالات التي تقوم

بها الدولة التابعين لها كاحتفالها بعيد ملكها أو بعيد وطني أو يجب تجنب مثل هذا الاحترام وهذه الاحتفالات بغير الملوك المسلمين .

— ٢ — هل يجوز للمسلم احترام شعائر غيرة الدينية أم لا ؟

مثلا إذا أراد أحد المسلمين دخول كنيسة مسيحية أو ما شاكلها وطلب منه رفع عمامة أو مجاراة الشعب في عوائده الدينية هل له ان يفعل هذا أم يمتنع .

هذا ما أردنا الاستفهام عنه من عالم خبير مثلكم فنرجو الإجابة اما عموميا في مجلتكم الزاهرة او خصوصيا باسمي والسلام

(ج) اما الاحتفالات والشعائر الوطنية فيباح للمسلم أن يشترك فيها مع أهل وطنه ما لم تشتمل على محرم في الاسلام كشرب الخمر على اسم الملك الذي يسمونه النخب وأما الشعائر الدينية فلا يجوز للمسلم ان يشارك غير المسلمين فيها كأن يصلي معهم كصلاتهم الخاصة بهم كالتي تكون منهم في الكنيسة وهم مكشوفو الرءوس متوجهون الى قبلتهم وان لم يقل قولا يحظره الاسلام . فالمحظور في هذا المقام يرجع الى أمرين ـ أحدهما الاتيان بما هو ممنوع في الاسلام كتعظيم صور الانبياء والصالحين أو طلب الخير او دفع الشر منهم . وثانيهما العمل الديني الخاص بغير المسلمين بحيث لو عمله المسلم لعده رائيه منهم هذا ما اتفق عليه الفقهاء فيما نعلم ولعلنا نفصل القول في ذلك بعد

﴿ حديث علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل ﴾

(س ١٥) من احمد افندي محمد عطيوه بالقناطر الخيرية

المرجو من حضرة الاستاذ الحكيم السيد رشيد رضا افادتي عن هذا الحديث « علماء أمتي كأنبياء بني أسرائيل » في أي كتاب من الكتب الحديثية المعتبرة هو — وفي أي باب هو صحيح هو أم ضعيف . ولكم من الله الاجر ومني عاطر الثناء والشكر

(ج) هو حديث موضوع تجدونه في كتب الموضوعات وذكره الحافظ السيوطي في الدرر المنتثرة وقال لا أصل له، والشيخ عبد الرحمن الديبع في تمييز الطيب من الخبيث وقال « قال الدميري والزركشي وابن حجر إنه لا أصل له »

باب المناظرة والمراسلة

٥

﴿ بحث العمل بالاحاديث القولية والاحاديث الفعلية ﴾

يقول حضرة الدكتور اما السنة القولية (الاحاديث) فبعضها نسخ بالقرآن وبعضها الآخر نسخ بالاحاديث الأخرى . ونحن نقول ما الدليل الذي قام لدى حضرة الدكتور فى التفرقة بين السنة القولية والسنة الفعليــة ؟ولم لايكون النسخ فى الفعلية ؟ وما الدليل على ذلك ؟ اليس من المقرر والمسلم ان اصل كل تشريع انما هو القول؟ وهل يعرف الواجب والحرام والسنة والمكروه الى غير ذلك الا بالقول؟ الم يكن من المعلوم ان الافعال تتطرقها احتمالات كثيرة اذا لم يقارنها البيان بالقول وقد تبقى مجملة لا يتعين المراد منها الا به ؟

يقول حضرة الدكتور « فبعضها نسخ بالقرآن » ويقال عليه ان نسخ «السنة بالقرآن » قد قال الامام الشافعي انه لايكون حتي حكى بعض الشافعية عنه انه قال حيث وقع نسخ السنة بالقرآن فمعه سنة عاضدة له

وحضرة الدكتور لم يذكر ذلك عنه بل نقل بعض قوله وترك البعض ودونك قول الامام في الرسالة «لاينسخ كتاب الله الا كتابه ــ ثم قال ــ وهكذا سنة رسول الله (ص) لا ينسخها الا سنته » فان جاز الاستدلال بقول الامام هناك جاز هنا والا فلا في الموضعين

وقوله « و بعضها الآخر نسخ بالاحاديث الاخرى » يقال عليه فهذه الاخرى الناسخة هل هي معلومة ام لا وهل هــذه هي المدونة عند اهل الحديث ام هي احاديث غيرها ؟ واين هي؟ ومن ادراك بها فانك قد قررت انك لا تقبل النسخ الا ان تجد الله او رسوله قال هذا ناسخ وهذا منسوخ وينقل الينا ذلك بالتواتر فهلا انصفت مناظريك ؟ ـــ

وقوله « وعندنا انه لم يبق منها شيء يجب العمل به غير موجود في القرآن »
الجواب عليه هنا ان يقال ان هذه مجرد دعوى لا يستطيع حضرته ان يقيم البينة عليها هو ولا غيره فان في السنن من الاحكام والآداب أضعاف مافي القرآن وهي بفضل الله تعالى لا تخالف مقاصد القرآن وهي مطابقة للعقل ولا يمكن ان يستغني عنها البشر ولولا خوف الاطالة لاتينا بجمل منها و بينا مالها وما عليها ومقدار الحاجة اليها فليتتبع ذلك حضرته

بل نقول ولا يبعد ان القرآن محتاج الى السنه اكثر من احتياج السنة اليه. يوضحه ان القرآن الكريم ذو اوجه والسنة مبينة للمراد منه تارة وشارحة ومفسرة أخرى. او تأتي بأحكام زائدة على مافيه يشرعها الله على لسان رسوله (ص) لشدة حاجة البشر اليها اظهارا لكرامة رسوله (ص) عليه وليتعودوا طاعته واتباعه كما أمر بذلك في كتابه ولئلا تجرهم الشبهات الى رد بيانه للكتاب الكريم. ولبسط ذلك محل آخر

• يقول حضرته « لانها لم تكن الا شريعة وقتية تمهيدية لشريعة القرآن الثابتة الباقية » واقول هذه دعوى وتعليل لما شاء بما شاء وكل احد يمكنه ان يدعي فاين الدليل ؟ اما قوله تعليلا لذلك نهيت الصحابة عن كتابتها فيقال عليه ان مسئلة النهي عن الكتابة والترخيص فيها هي مسئلة لاتدل على نسخ السنن النبوية باحد الدلالات مطلقاً والقاريء يرى ان حضرة الدكتور قد ملأ الكون صياحاً بالانكار على العمل بالظن فمالنا نراه قد انسلّ هنا الى هدم ما كان اسسه ثم يعمد الى هدم القصور اليقينية فيرد جميع السنن ويلغي طاعة الرسول (ص) التي أمر الله بها في غير موضع من كتابه والاحاديث المتواترة لفظا ومعنى في وجوب اتباعه واتباع سنته. ويرد اجماع الصحابة بل جميع الامة ؟ ماله يرد ذلك كله بالخرص والتخمين الذي لا يبلغ الى اضعف مراتب الظن بل لا يصح ان يعتبره معتبر ؟ فليعتبر حضرته بمناقضته لنفسه بنفسه

إن أمر النهي عن الكتابة لم ينقل الينا متواترا بل قد اختلف فى رفعه الى المعصوم (ص) وفى نسخه وقد عارضه ماهو اقوى منه ولم ينص فيه على أن المراد منه ان السنن موقت

شرعها او انها منسوخة بعد مدة كذا من الزمن ولا انه نهى عنها لأجل ان تندثر السنن بطول الزمن . ان احدهذه الامور التي ذكرناها تمنع الاستدلال على ما قصده حضرة الدكتور فكيف يصح ان يكون ما هذا حاله معارضا لجميع الآيات القرآنية والاحاديث النبوية واجماع الصحابة بل وسائر المسلمين ! فطاعة الرسول ووجوب اتباع سنته معلوم بالضرورة من دين الاسلام — لا سيما اذا كان حديث النهي عن الكتابة معللا بعلة منصوصة عن روايه وهو خوف الالتباس بالمصحف . وكل من روي عنه من الصحابة النهي او الامتناع عن كتابة الحديث فهو دائر على هذه العلة كما صرحوا بذلك. ومنهم من خاف ان يقع فى الوعيد على الكذابين ومنهم من نهى عن كتابة رأيه فاشتبه ذلك على الناظرين فظنوا انه نهى عن كتابة السنة النبوية وليس الأمر كذلك — فالقول بان نهيهم عن كتابة العلم او الحديث نص فى النهي عن كتابة السنن النبوية هو قول بالخرص

ثم هل يجوز لمن لا يجوز العمل بالظن ان يأخذ اقوالهم في امر قد صرحوا بسببه ان يتركه ويهمله ثم يحمل قولهم على غير ما ارادوه بل على ما نهوا عنه وهو ترك اتباع السنة واعتقاد وجوب اتباعها. ثم نقول الحق ان الامور المعللة يدور حكمها مع عللها وحيث زالت العلة زال الحكم وهو هنا خوف الالتباس بالمصحف فقد وقع الاجماع على جواز بل استحباب كتابة الحديث وقال بعضهم بالوجوب وهو الحق. هذا كله اذا سلمنا ان حديث النهي مرفوع وانه غير منسوخ .ومن اطلع على القاعدة الاصولية من انه اذا وقع التعارض بين دليلين احدهما مانع والآخر مرخص مثلا عرف ان الاجماع على كتابة السنن غير معارض لنص — لأنه بعد تساقط الدليلين المتعارضين اعنى حديث النهي عن الكتابة واحاديث الامر والترخيص فيها تبقى البراءة الاصلية والاجماع ان لم نقل هو حجة فهو مؤيد لها

ونحن نسأل حضرة الدكتور هل حكم حديث النهي عام وباق ام لا ؟ فان قلت بالاخير فقد وافقتنا وحينئذ لا يصح لك الإلزام به . وان قلت بالاول لزمك ان تمنع عن كتابة جميع العلوم المستنبطة من القرآن بل اولى من ذلك كله ان تمنع عن كتابة سائر العلوم

ان كان الاختلاف في كتابة السنة قادحا في العمل بهامسوغا لاقتراح ان علة ذلك وسببه كونها شريعة موقتة — فان الاختلاف قد وقع في جمع القرآن وكتابته واول من خالف في ذلك الخليفة الاول ثم رجع الى قول عمر (رض) فهل يسوغ ان يقال ان الصدّيق رضي الله عنه لم يخالف في ذلك الا لان شريعة القرآن موقتة ؛ لا — لا — في الامرين فان قيل ان الصديق قد رجع ووقع الاجماع على ذلك . قلنا وكذلك جمع السنة وكتابتها قد وقع الاجماع عليه . والفاروق لما سأل الصحابة رأيهم في جمع السنن اشاروا عليه بجمعها ولكنه خالفهم للسبب الذي ذكرناه كما صرح بذلك هو اذ لم يحن له الوقت المناسب الذي يزول فيه خوف الالتباس ولما كان هو اذ ذاك صاحب الامر لم يستطع من أشار عليه منهم ان يفعل غير ماامضاه الخليفة

ومن تفكر في اهل زماننا بل منذ ازمان قديمة رأى صحة هذا التعليل المنصوص دراية كما هو صحيح رواية فانك تجد مصداق ذلك فيما نراه من اكباب الناس وانهماكهم على كتب شحنت بآراء مشايخهم واسلافهم حتى جعلوها كالمصاحف بل قدموها على المصحف وعلى السنة النبوية على صاحبها الف صلاة وتحية

أما قوله « ولم يعاملها النبي (ص) ولا أصحابه بالعناية التي عومل بها القرآن لتزول من بين المسلمين وتندثر » فأقول أي المعاملات يريد حضرة الدكتور، فان كان يريد ان القرآن يمتاز بانه كلام الله لفظاً ومعنى وانه معجز متحدى به وانه متعبد بتلاوته وانه كلام الخالق غير مخلوق ونحو ذلك فهذا صحيح وسنن الرسول (ص) لا يمكن ان تعامل بهذه المعاملة كلها — فكما ان الله جلا وعلا هو الرب والاله المعبود ومحمد (ص) عبده ورسوله وداع اليه بإذنه فلا يعامل بما يعامل به الإله مما يخص الالوهية والربوبية فكذلك كلامه (ص) لا يعامل بما يعامل به القرآن من كل الوجوه كما تقدم وان اراد ان النبي (ص) لم يعامل سنته بما يعامل به القرآن من حيثية التشريع كأن يأمر الامة بما لا يجب الائتمار به وينهاهم عما لا يجب ان ينتهوا عنه أو أنه يعتقد ذلك او ان اصحابه يرون عدم وجوب اتباعه فى جميع اقواله وافعاله وفيما شرع الله من الدين على لسانه فإرادة هذا منه (ص) أو منهم هو أمحل

المحال وحضرة الدكتور نجله ان يعني ذلك فمن زعم ان محمد (ص) اوجب ما ليس بواجب وحرم ما ليس بحرام على الامة وانه يعلم ذلك ويعتقده او ان اصحابه يعتقدون ذلك او انهم لم يأتمروا به الخ فخطوه فوق كل خطأ واقتراؤه فوق كل اقتراء ومع ذلك كله هو غير مستند الى شيء يصح الاعتماد عليه حتى ولا شبهة

فقول القائل ان ما اوجبه او حرمه النبي (ص) انما هو مقيد بوقت حياته — هل يصح ويثبت بدعوى عدم الكتابة او دعوى النهي عنها أو انها لم تكتب مدونة مرتبة ؟ قد قد منا ان عدم الكتابة مطلقا لم يرد فيها الا حديث واحد قد اختلف في رفعه وسبب النهي منصوص كما قد مناه مع معارضته لما هو اصح منه

فهل يصح ان يكون ذلك الحديث المذكور ناسخا للآيات الكثيرة القرآنية المصرحة بوجوب ولزوم طاعة الرسول (ص) واتباعه — ان طاعة الله لا ينازع احد في وجوبها في وقته (ص) و بعد وفاته وانها أي طاعة الله واجبة علينا كما هي واجبة على اول الامة

لكنا نرى القرآن مصرحا بان طاعة الله مشروطة بطاعة الرسول (ص) وهل طاعة الرسول (ص) الا الائتمار بامره والانتهاء لنهيه والا لم تكن له طاعة وقد عرفت ثبوتها ودل القرآن عليها نصا كما يأتي وهي لاتكون الا في سننه القولية كما قال تعالى « وارسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا * من يطع الرسول فقد اطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا » اما الاتباع والتأسي فيكون في الفعلية العملية والقولية

مهما يمكن لاحد ان يعبر عن وجوب اتباع احد وطاعته لا يمكنه ان يعبر عن ذلك با كثر واوضح مما عبر الله به في وجوب اتباع رسوله محمد (ص) فان كان ذلك قابلا للتشكيك لزم ان لايوجد في العالم خبر يوثق به و بدلالته

ان الله جل شأنه لم يأمر بطاعته في القرآن الا وأمر بطاعة رسوله (ص) معه بل قد يفرد الامر بطاعة الرسول (ص) و يجعلها شرطا لطاعته ولم يفرد طاعته عن طاعة الرسول (ص) ثم هو تارة يأمر باتباعه وتارة يأمر بالتحا كم اليه ويجعل ذلك من شرائط الايمان وكذلك تسليم ذلك له وعدم وجدان الحرج — وتارة يأمر بالتأسي به وتارة يقول « وما آتا كم الرسول فخذوه ومانها كم عنه فانتهوا » وتارة

يعلمنا بانه المبلغ عنه المؤتمن وتارة ينسب التحليل والتحريم اليه (ص) ثم نراه ينبه في محل آخر بانه لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى — وتارة يأمره أن يحكم وان لا يحكم الا بما اراه الله — وتارة يقول له « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » فجعل اتباع الرسول (ص) مقدما على طلبتهم محبة الله، و بابا لمحبة الله لهم وهذا لا يمكن ان يخص بقوم دون قوم وزمان دون زمان — وتارة ينهى عن التقدم بين يديه بقول أو فعل وتارة ينهى عن التولي عنه وعن امره — وتارة ينهى عن مخالفة امره وتارة ينهي عن التسوية بين دعائه ودعاء غيره وقد قرر انه الداعي الى الله حتى انهم كانوا يرون اجابة غير مبطلة للصلاة وتارة وتارة يحذر عن مخالفتهم أمره «فليحذر الذين يخالفون عن أمره» الآية — وتارة ينهى ان يجعلوا لانفسهم الخيرة من أمرهم مع أمره — وتارة ينهي عن مشاقته و إن من شاقه فقد شاق الله وتارة يجعل من صفات الايمان بالله المبادرة الى طاعة الرسول (ص) الى غير ذلك من اساليب التعبير والتفنن فيه لايضاح وجوب اتباع الرسول (ص) فان القرآن ملآن من أوله الى آخره بذلك حتى القصص فانها انما سيقت للاعتبار وليطاع الله ويطاع رسوله (ص) ويتبع وليؤمن الناس بالله ورسوله (ص)

فهل يصح ان يهدم هذا كله بشبهة حديث ابي سعيد (رض) على ما فيه مما قدمناه؟ ام هل يسوغ ان يقال ان الصحابة (رض) خالفوا ذلك كله وانهم لم يعتنوا بسنته اذا رأينا احدهم احتاط في الرواية او حكم بخلاف السنة بعذر انها لم تبلغه ولو بلغته لرجع اليها كما قد شوهد عنهم الرجوع اليها في جميع أحوالهم وهل يصح اعتبار قول من خالف ما ذكرناه كائنا من كان مالم يكن عن الله أو عن رسوله وقد عرفت حكمها في ذلك .

فكيف يصح قول الدكتور ان النبي (ص) وأصحابه لم يعاملوا السنن النبوية بغير ما عاملوا به القرآن الا لتندثر وتزول من بين المسلمين مع ما عرفت مما قدمناه عن القرآن . ولم لم يصرح الله ولا رسوله (ص) ولا أصحابه (رض) بما صرح به حضرة الدكتور ؟

ان من تتبع أقوال النبي (ص) ووصاياه ومواعظه وخطبه يجدها موافقة لما

دل القرآن عليه ومناقضة لما زعمه حضرة الدكتور « اني تارك ما ان تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي » والأحاديث متواترة في أمره (ص) ان يبلغ عنه وفي وجوب اتباع سننه أيضاً تواترا معنويا . أما أقوال الصحابة (رض) في اتباع الكتاب والسنة فأكثر من ان تستقصى بل ذلك اجماع عنهم وعن سائر المسلمين — وكل ما خالف الكتاب والسنة فانما هو عند الصحابة (رض) من الرأي المذموم وهو الظن المشئوم الذي حذر الله عنه في كتابه فحمله حضرة الدكتور على الرواية والمروي بلا بينة بل بناء على اصطلاح المصطلحين . على ان كل من سوى الرسول (ص) غير معصوم من الخطأ والسهو

هذا ولا يحيط بسنته (ص) الا مجموع الأمة وما عند الأمة من ذلك قد دون وها هو بين أيدينا فهلموا بنا الى اقتفائه واتباعه (ص) الذي لا حياة ولا نجاة لنا الا به « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » فليحذر الذين يخالفون عن أمره » الآية « ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون » نسأل الله لنا ولاخينا الدكتور الهداية والتوفيق لصراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والصالحين وان يوفق من أراد له الهداية انه سميع مجيب وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على رسوله الامين وآله وأصحابه الطيبين ومتبعيهم بإحسان الى يوم الدين آمين

كتبه بيده وقاله بفمه

الحقير صالح بن علي اليافعي عفا الله عنه

(المنار) اذا اراد الدكتور محمد توفيق افندي صدقي ان يرد على هذه الرسالة فالمرجو منه ان يبين مايراه منتقدا منها بالاختصار ولا يطيل في اصل الموضوع وان يسلم بغيره المنتقد عنده تسليما صريحا

آثار علمية أدبية

﴿ ارشاد الاريب، الى معرفة الاديب ﴾

المعروف بمعجم الادباء – أو – طبقات الادباء

مؤلف هذا الكتاب هو أبو عبد الله ياقوت الحموي المولد البغدادي الدار الرومي الجنس صاحب كتاب معجم البلدان المشهور. كان غلاماً لتاجر حموي علمه ليكون عوناله في تجارته ثم أعتقه وتركه مدة ثم استعمله في تجارة سفره بها فلما عاد كان مولاه قد توفي فاعطى أولاده وزوجته شيئاً مما كان بيده فأرضاهم واتجر بالباقي وجعل بعض تجارته كتباً فكانت عونا له على ما تصبو اليه نفسه من العلم لا سيما التاريخ والادب . فألف مؤلفات كثيرة في ذلك أشهرها معجم البلدان ومعجم الادباء الذي ذكر ابن خلكان ان اسمه (إرشاد الالباء ، الى معرفة الادباء) ولكننا أهدينا منذ أشهر المجلد الاول منه مطبوعا طبعا متقنا على ورق جيد واذا باسمه الذي كتب عليه (إرشاد الاريب . الى معرفة الاديب) وكان بعض النسخ كتب عليها هذا الاسم و بعضها كتب عليها ذاك

موضوع هذا المعجم تراجم من كانوا يعرفون بالادباء في تلك العصور قال المؤلف في فاتحته (ص ٥) « وجمعت في هذا الكتاب ما وقع إليَّ من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والاخباريين ، والمؤرخين والوراقين المعروفين ، والكتاب المشهورين، وأصحاب الرسائل المدونة ، وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة ، وكل من صنف في الادب تصنيفا ، أو جمع في فنه تأليفا ، مع إيثار الاختصار والإعجاز ، في نهاية الإيجاز ، ولم آل جهدا في اثبات الوفيات ، وتبين المواليد والاوقات ، وذكر تصانيفهم ومستحسن أخبارهم ، والاخبار بأنسابهم وشيء من اشعارهم ، » الخ فالكتاب من احسن دواوين التاريخ والادب وقد كان كنزا مخفيا فاظهرته همة اوربية . ذلك ان رجلا من الناشئين

في البلاد الانكليزية اسمه الياس جب كان مغرما بدرس العلوم والتواريخ العربية والتركية والفارسية ثم مات في الخامسة والاربعين من سنه فوقفت أمه مالا عظيما على احياء الكتب الشرقية التي كان مشتغلا بها يصرف ريعه في ذلك وعهدت بالعمل الى لجنة من الرجال القادرين عليه وقد شرعت اللجنة بطبع هذا الكتاب بعدما عني الدكتور مرجليوث العالم المستشرق الشهير بتصحيحه وقد هدتنا الجزء الاول منه فاذا فيه بعد الفاتحة فصلان في علم الادب وعلم الاخبار يتلوهما باب الهمزة وهو يبتدئ باسم آدم بن احمد الهرمي وينتهي باسم احمد بن علي بن المعمر وصفحاته تزيد على أربع مئة منها ترجمة ابي العلاء المعري في ٤٣ صفحة فنشكر لجميع العاملين في احياء هذا الكتاب وأمثاله فضلهم ونخص بالذكر المصحح ونرجو ان يعنى طابعو الكتب في مصر ولو ببعض هذه العناية في التصحيح والاتقان

﴿ الرد على من اخلد الى الارض ، وجهل ان الاجتهاد في كل عصر فرض ﴾

بنيت قواعد الاسلام وأقيمت أركانه على أساس العلم حتى كان من المجمع عليه عند علمائه ان جهل المكلف بما يجب عليه من أصوله وفروعه ليس بعذر في الدنيا ولا في الآخرة فالقاضي الشرعي لا يترك عقوبته اذا ارتكب موجبها جاهلا كما ان الله تعالى لا يعذره في الآخرة اذا اقترف الفواحش والمنكرات جاهلا بتحريمها . قالوا الا اذا نشأ في شاهق جبل أو كان قريب عهد بالاسلام . والعلم ما كان بالدليل فالعالم لا يكون الا مجتهدا ولذلك اجمعوا على ان المقلد لا يسمى عالما كما صرح به ابن القيم في أعلام الموقعين وقد بقي الفقهاء الى القرون الوسطى يطلقون لفظ العالم ويريدون به المجتهد كما ترى في كلامهم عن القاضي والمفتي ولكن وجد في هذه القرون من المؤلفين الجاهلين من ادعى ان الاجتهاد طوي زمنه وأن العلم بالاسلام أي بالكتاب والسنة صار متعذرا وان الواجب على جميع المسلمين هو الأخذ بما كتب في المصنفات الفقهية التي ألفها المنتسبون الى أحد المذاهب المشهورة فقام المدافعون عن العلم يردون هذه الدعوى ويبينون وجوه بطلانها حتى افردوا ذلك بالتأليف

من هؤلاء الحافظ الشهير جلال الدين عبد الرحمن السيوطي فقد وضع فيها كتابا سماه « الرد على من أخلد الى الارض ، وجهل ان الاجتهاد في كل عصر فرض » وقد اورد فيه النقول الكثيرة عن اكابر علماء المذاهب الاربعة لأن كلامهم يقنع المقلدين المنكرين مالا يقنعهم الدليل المؤيد بنصوص الكتاب العزيز وما جرت به السنة السنية . وقد طبع هذا الكتاب طبعا حسنا في المطبعة الثعالبية بالجزائر وهو يطلب من صاحبها احمدافندي بن مراد التركي وأخيه فنشكرهما احياء هذا الكتاب النافع ونحث القراء على الاقبال عليه

﴿ ليالي سطيح ﴾

طبع الجزء الاول من هذا الكتاب الذى شرع في تأليفه حافظ افندي ابراهيم وجعله في انتقاد الاخلاق والعادات، و وصف حال الاجتماع في مصر ، وجعله حوارا مع سطيح الكاهن الجاهلي ، ذلك الكتاب الصغير الكبير ، الذي تبارى في تقريظه عالم الكتابة والتحرير ،فسالت انهار الجرائد بمدادآياته،وجرت اقلام الكتاب في فلك حسناته ، ولهجت ألسنة الفصحاء بوصف مافي مبانيه من المتانة والإحكام ، وما أودعه اسلوبه من الرقة والانسجام ، وتغلغلت افكار الحكماء في التأمل بما انطوى عليه من الحكم والعظات ، وما بينه من الامثال والمثلات ،وتلطف الناقدون في الايماء الى مافيه مما لم يخل من مثله كلام الناس ، كالتفاوت بين بعض الجمل او عصيان قوانين القياس ، فلو جمع ما كتب في تقريظ كتاب ليالي سطيح ، من الثناء والمديح ، لكان معه كليالي هجر الملال ، مع ليالي الوصال ، على ان ليالي التقريض ، هي من ليالي الوصال البيض ، جمع فيها الأدب بين جمهور من الادباء المنشئين ، و بين محبوبهم حافظ افندي ابراهيم ،

اخذ اولئك الكاتبون مسالك القول على من يحاول بعدهم وصف الكتاب او نقده فما على المنار الا ان يجعل الوفاء بذمة حافظ عرض شيء من حكم كتابه على قارئيه ، لعلهم يهتدون الى فضله بكواكب لياليه ، فمن ذلك قول سطيح في الحث

على العناية باللغة العربيـة ونصر دولتها وذكر إمامي المصلحين : حكيم الاسـلام ، والاستاذ الامام (ص ٦٢)

«فما ضركم لو تساندتم جميعاوانتم لا تتجاوزون زمن القمر عدا ، فرفعتم من شأن هذه الدولة ، وحركتم من الخامدين ، وهززتم من الجامدين ، فاني أراكم بين متفصح على اخيه ، ومتنبل على قرينة ، وليس هذا صنع من يريد ماتريدون ، تحاولون رد هذه الدولة الى شبابها ، بعد ان خلا من سنها ، ولو لم يتداركها الله بذلك الافغاني لقضت نحبها ولقيت ربها ، قبل ان يمتعها بكم ويمتعكم بها ، أدركها الافغاني ولم يبق فيها الا الذماء ، فنفخ فيها نفخة حركت من نفسها ، وشدت من عزمها ، ادركها وهي شمطاء قدنهض منها بياض المشيب في سواد الشباب ، فشاب قرناها قبل ان تشيب ناصية القرن الخامس ، فسودت يده البيضاء مابيضت من شعرها سود الليالي ، وتعهدتها همته بصنوف العلاج حتى استقامت قناتها ، و بدا اصلاحها ، وقد كان الناس في ذلك العهد يدينون باللفظ و يكفرون بالمعنى ، فما زال بهم حتى ابصروا نور الهدى ، وخرجوا بفضله من ظلمات القرون الوسطى ، وقام بعده نفر ممن تأدبوا عنه فكانوا كالسيوف فرجت للرماح ضيق المسالك فانفسح للمتأدبين المجال وجال كل جولته ، وتنبه الوجدان وتيقظ الشعور وتحرك الفكر حتى أفضى الى حركة النفس ، وظهر أثر جمال الدين في النفوس العالية ، وأصبحت تبتدر كلامه الاسماع الواعية ، فكان من ذلك ان انطوى أجل التقليد ، وأن بعث الله على يديه ميت اللغة واحيا رفات الانشاء ، وغادر رحمة الله عليه مصر ولم يضع لنا كتابا نأخذ عنه ، أو مؤلفاً نغترف منه ، ولكنه ترك لنا رءوسا تؤلف ، وأفكارا تصنف ، وكأنه أحس بذلك حين أحس بالموت فكان يقول وهو يجود بنفسه : خرجنا منها ولم ندع لنا أثرا ظاهرا بين السطور ، ولكننا لم نغادرها حتى نقشنا ذلك الاثر على صفحات الصدور ، فان لم ترثوا عنا في بطون الكتب فقدورثتم عنا في صدور الرجال ، فاذا حثوتم التراب على رجل الافغان فعليكم برجل مصر

خرج من الدنيا كما خرج سقراط لم يغادر كلاهما مؤلفا ، ولم يدع مصنفا ، فلولا محمد عبده ما عرف رجل الافغان ، ولولا أفلاطون ما ذكر رأس فلاسفة اليونان

ولما سكنت أنفاس الافغاني بعد أن تجددت بذكره الانفاس ، خلفه حكيم الشرق

في دولته، ووطن نفسه على المضي في طريقه ، فأسمع الناس في الحق واسمعوه، واخافوه في ذات الاله وخافوه، ولم يزل بهم حتى غلب حقه على باطلهم ثم مضى لسبيله رحمه الله فتفتقت الاذهان، وتطلعت العقول الى البحث، وبرزت اللغة من خبائها ، تجر مطارف آدابها ، وأطل علم الادب Litterature من مناره مشرفا على النفوس فأرسل نوره الى الضمائر ، ونفذت أشعته الى السرائر ، فنمى تحت نظره الشعور كما ينمي النبات جادته الشمس بالنظر ، أو كسته أشعة القمر ، فلطف من كثافة النفوس، وهذب من مرارة الارواح ، حتى شفّت الاولى وعذبت الثانية وبدأ دور هذه الحياة الجديدة بفضل الأدب وعلمه » اه المراد منه هنا

ثم ذكر سطيح ومحاوره الاستاذ الامام وتلاميذه في مقام ما يرجى من الاصلاح فقال (ص ١٤٤)

« قال (اي سطيح) واين مكانك من العلم ، واين منك منزلة الحلم ، ؟ قال حسبي اني من تلاميذ حكيم الاسلام ، الاستاذ الامام ، طيب الله ثراه ، وجعل النعيم مثواه . قال اني لأرى رأيا حصيفا ، واسمع قولا شريفا ، فمن أي تلاميذه تكون ؟ فقد سمعنا انهم فريقان فريق قد اختصه بسياسته ، وفريق قد اختصه بعلمه ، وقد أثنى عليهما العميد ، وتنبأ لهما بالطالع السعيد ، قال — لا علم لي بما تقول. ولقد كنت ألصق الناس بالامام أغشى داره ، وأرد أنهاره، وألتقط ثماره، فما سمعته يخوض في ذكر السياسة قبحها الله، ولكنه كان يملأ علينا المجلس سحراً من آياته وينتقل بنا بين مناطق الافهام ، ومنازل الاحلام ، ويسمو بأنفسنا الى مراتب العارفين بأسرار الخلائق ، وحكمة الخالق ، وكان ربما ساقه الحديث الى ذكر أحوال هذا المجتمع البشري فأفاض في شؤون الاجتماع وحاج العمران ، ووقف بنا على أسرار الحياة ولم يزل ذاك همه رحمه الله يلقي في الازهر دروس التفسير وفي داره دروس الحكمة حتى مضى لسبيله، فان كانوا يسمون تلاميذه أحزابا، ويقسمون تعاليمه أبوابا، فتلاميذه حزب العلم والعرفان ، وتعاليمه سياسة لتقدم والعمران، على انه كان من اشد الناس تبرما بالسياسة واهلها، حتى اعلن براءته من الالتصاق بها ، فقال عنها في كتاب الاسلام والنصرانية ماقال

لكنه كان يحتك بها مادعت الى ذلك الحاجة ويرصد حركاتها رصدا ، ويصد غاراتها صدا ، خشية أن تقطع على العلم سبيله ، أو ان تقف عثرة في طريق الفضيلة ، ولولا ذلك لقطعت عليه سلك أمانيه، وحالت بينه وبين ما كان يبتغيه ،فكم تلطف في ابتزاز قواها ، وتحامى جهده طريق أذاها ، حتى اذاظفر بطلبته ، وفاز برغبته ، واستمد منها ما شاء ، تحت حماية الافتاء ، عطف على العلم بذلك الامداد، وردعليه ماسلبت يد الاستبداد ، ولعله اوهم العميد، بيقظة حزب جديد، ليردعاديته، ويفسد عليه سياسته ،في مصادرة العلم، ومصارعة الحلم ، أما ترى بربك أثر ذلك في المدارس، وما عبثت به يد ذلك السائس ، ولولا ان الامام مادَّهم حبل الوداد ، وجاذبهم فضل النصح والارشاد ، لاصابه ما أصاب حكيم الافغان ، وقضي على هذه الامة بالحرمان ، فلقد كان يغدو على الوكالة ويروح عنها ليدفع عنا شرة القوم ، ويصلح ماتفسده اهل الدسائس ، فكم زحزح عنا حادثا، ودفع كارثا ، ولو كان حيا يوم دار الفلك لنا بالنحوس في دنشواي، لرأيت غير الذي رأيت من ذلك القصاص ، ولما ارتفع صوت العميد ، بذلك التهديد والوعيد ، ولما نزع الى كتابة ذلك التقرير، الذي جاء ابلغ ماتملي الضغينةعلى الموتور ، فكان فيه كثير جموح اليراع ، ضعيف ضعيف جانب الاقناع، كأنه يكتب مقالة خيالية ، الى مجلة سياسية ، وقف فيها وقفة المدافع عن نفسه

لحق النبي عليه الصلاة والسلام بالرفيق الاعلى فارتدت طائفة من جفاة العرب وكادوا يفتنون الناس لولا حكمة الصديق وعزمة الفاروق فما غضت الردة من شرف النبوة، ولانالت من عصمة الرسالة، ولبث الاسلام اسلاما — ومات الاستاذ الامام فصبأ بعض حزبه كما يدعون ، واستغفر الله لهم مما يقولون ، فما غض ذلك من كرامة حكيم الاسلام، ولامس من سيرة ذلك الامام ،

أراد بعض مريديه أن يغني غناءه وان يفعل شرواه في التوفيق بين صواخ القوم وصواخنا، فرمى بنفسه في احضانهم، وليست له مكانة الامام من نفوسهم ، ولا منزلته في قلوبهم ،فقصر ولابدع ،وأخفق ولا عجب، فان الفراغ الذي تركه الامام لا يشغله الالوف من اولئك الذين يرفعون العقيرة بالصياح ، وينعون عليه مذهبه

في الاصلاح ، ولما ظهر ذلك المريد بمظهر الاتصال بالقوم أنكر الناس منه ذلك فطارت حوله الشبهات ، وانبسطت فيه الالسن وأخذته سهام الاقلام، على انه وان اخطأه التوفيق في عمله فما اخطأه حسن القصد ولا جازته سلامة الطوية، فوجد بعض المرائين السبيل الى تشويه سمعة الامام بعد موته ، و بالغوا في ذم حزبه ، وزادهم ضغثا ان قرأوا فى تقرير العميد ماقرأوا وظنوا ان هناك حزبا يعمل، ولو اراد الله خيرا لهذه الامة لسخر لها من تلاميذ الامام من يقوم بالدعوة الى التآم ذلك الحزب الذي أودع فيه الامام من أسرار حكمته ما كشف لهم عن حقيقة المصير الذي أصبحنا نساق اليه سوقاً أعجلنا عن النظر فى أمورنا فأمسينا أتباعا لكل ناعق

قال صاحبي وقد هاله ماسمعه أكان يكون بين ظهرانيكم أمثال أولئك الامناء على تعاليم ذلك الحكيم ولا تتعلقون باذيالهم ، على اني لا أرى فيكم الا ناعيا عليهم مشهرا بهم ، فان كنت لم تكذبني القول، فتلاميذ الامام حقيقون باللوم، لانهم يعلمون الحق ولا يدعون اليه . علموا ان لاحياة لهذه الامة بغير الجامعة فما لهم لا يواصلون قرع انوف الاغنياء بالمواعظ ويوالون الصياح بطلب تأسيسها فتلتقي اصواتهم بالنداء فى أنحاء القطر ؟ ولكنهم سكتوا اللهم الا شاعرا منهم قد قرض قصيدة وقاضيا قد حبر مقالة في سبيل الجامعة درج كلاهما فى اثناء النسيان لجمد الاغنياء عن البذل لجمود اولئك الوعاظ عن الكلام وتدفقوا فى انشاء الكتاتيب حين ساقتهم الحكومة الى ذلك ولو علموا ان انتشار التعليم الناقص شر على الناس من بقاء الجهل لما بذلوا فى سبيله مابذلوا فكان مثلهم فى ذلك كمن يحاول النجاة من أنياب النمر ليقع تحت براثن الليث لانهم انما يستبدلون بانتشار الكتاتيب داء الجهل ولكن بداء الغرور فسبيل الاصلاح ان تنشأ الكتاب وتبنى الجامعة فى وقت معا حتى اذا أخرج الاول نصف انسان أطلعت الثانية انسانا كاملا فتكفل هذا الكامل بصلاح ذلك الناقص فتماسك الامة ويكثر فيها الدعاة الى الخير فليس بينها و بين الحياة الا ان يخرج لها العلم الصحيح رجالا يقودون الافكار و يسلكون بها سبيل الرقي . ومن رأى ان هذه الامة لا تنهض الا بتعليم مجموعها وتهذيب افرادها فقد أخطأ مواقع الرأي فكم نهضت امة بفرد واسست دعائم دولة على عزائم آحاد وفوا

قسطهم من العلم الصحيح واخذوا نصيبهم من الاقدام

وقد انصرف الناس الى الصياح بطلب انتشار العلم ونسوا ان ذلك لا يغني عنهم شيئا اذا أعوزتهم تربية القادة وعزهم بناء الزعماء فاعلم ان بناة الرجال لا تكون الا في بناء الجامعة

قال الاديب وهل يكفي العلم وحده لصلاحنا ونحن على ما ترى من الخلق والدين : فسوق عن امر الكتاب ، وطاعة للهوى ، فلا وازع من الدين ، ولا زاجر من الخلق ، فاذا تزعزعت العقيدة ولم يطمئن الطبع قل ان ينجع في الناس علاج العلماء، او تأخذهم صيحة الخطباء

قال صاحبي صدقت ولكن ما تراه انت خطبا كبيرا ، لم يكن في نظر الحكمة الا أمرا يسيرا ، واني اذكر لك دواء هذا الداء وهو أيسر مما في نفسك ، فلا تنزل أمري معك على المزاح ، ولا يصغرن في عينيك مأتى ماألقي عليك، فرب مؤرَّب من العقد ضلت حله الحكماء واهتدت اليه خطرة من الفكر يرمي بها أحد العامة ، وتغفل عنها عقول الخاصة ، ولعلك اذا سمعت ان الدواء الناجع، والعلاج النافع، لا يحتاج الى مقدمات طويلة، او فلسفة جليلة ، أصغرت ما كنت تكبر ، واستنزرت ما كنت تستغزر ، فاعلم انه اذا اقفلت أبواب المنتديات، واطفئت أنوار الحانات، قبل منصف من الليل ، انحرف عنكم جارف هذا السيل

هذه لندرة لا تكاد ترى في حوانيتها ساهرا ، ولا تجد في طرقاتها عابرا ، اذا انقضى الثلث الاول من دولة الظلام ، وتلك (فينا) يجمع فيها الليل بين الجفون والكرى، ويحول الظلام بين الارجل والسرى ، فاذا شب الليل أو كاد، سكنت حركة العباد ، فما لكم لا تأخذون نفسكم بتقليد تلك الخلائق، وقد ائتمروا باوامر الخالق ، وما لكم لا ترجعون الى الفطرة البشرية ، او تخضعون لنواميس السنة الكونية ، فتجمعوا في ذلك بين الدنيا والدين ، ولا تعقوا اوامر الكتاب المبين ، ياويلكم أحييتم ليالي العمر بالآثام ، وأمتم أيامه بالمنام ، فعكستم الفطرة ولا بدع اذا عكست آمالكم ، وخابت أعمالكم ، خذوا مضاجعكم اذا طر شارب الظلام، واهجروها اذا تنفس الصباح ، ففي ذلك صحة لابدانكم ، وسلامة لأديانكم

اذا شئت ان تعرف ماوراء ذلك من المنافع فاني أعد لك منها ولا أعددها منها الرجوع الى المعيشة المنزلية التي انحلت بزوالها روابط الاهل والاقارب ، ويبس مابين البيوتات ، فتناكر الاخوان ، وتدابر الجاران ، واقفرت المنازل من انس السمر والف الناس الجلوس في المنتديات حتى انهم ليوحشون في ديارهم ، لقلة زوارهم ، واصبح المرء في داره حاضرا كالغائب ، مقيما كالنازح ، يعلم من حال البعيد عنه ، مالا يعلم من حال القريب منه

ومنها اجتياز العقبات ، التي أقامتها المنتديات والحانات ، في سبيل الاجتماعات — كان المصريون في العهد القديم الذي نسميه اليوم عهد الظلام يجتمعون في الدور والقصور وكانت سراتهم وذووا اليسار منهم يجلسون في بيوتهم للسمر فيغشاها العالم ويؤمها الكاتب ويقصدها التاجر وينتجعها الاديب فتجري بينهم الاحاديث وتقوم سوق المناقشات — يحدث الحادث فيخوضون في ذكره ، وتنزل النازلة فيجمعهم الالم على العمل على ازالتها ، ونطل رؤوس المشروعات فلا يفتئون يتبينون معارفها ، حتى يقتلوا شؤونها بحثا ، ويقفوا على وقائعها جدالا ، وينزل باحدهم المكروه فلا يزالون يتلطفون بالسعي له حتى يأخذوا بيده ، وينهضوا به من عثرته — عقدت بينهم الزيارات ، عرى المودات ، فتراهم وهم كانهم أهل بيت واحد : يألم الجار للجار ، ويأخذ الناهض بيد ذي العثار ، بربك هل نهضت أمة بغير ادمان المجتمعات ، وهل اخصبت مودة اذا هي لم يتعهدها أهلها بالزيارات ، لقد جار في حكمه من قضى على المصريين باستحالة الاتفاق ، وجعل تلك الكلمة التي رمى بها حكيم الافغان أساسا لحكمه ، فصرفه التقليد عن النظر اليها بعين عقله ، فمن اين للمصريين ان يتفقوا اذا هم لم يجتمعوا

ومنها اقتصاد المال وأنت ترى ان هذه الستة الافدنة (اي بقعة الازبكية) تكاد تبلع ما تخرجه ارض وادي النيل من الخيرات ولا يغرنك ماترى في عاصمة الفرنسيس فان اهلها من الاكياس الذين يصلون سهر الليل بالنهار لاصطياد الذهب ولكن من جيب الغريب ونحن انما نفعل ذلك ليذهب الغريب باموالنا ويسخر من جهالنا » اهـ . وهو خاتمة الجزء الاول من الكتاب

﴿ رسائل البلغاء ﴾

من مزايا مجلة المقتبس التي يطابق بها اسمها مسماها نشر رسائل بلغاء الكتاب المتقدمين وقد استحسن صاحبها ان يجمع أحاسن هذه الرسائل من مجلته و يطبعها مجموعة على حدتها ليسهل تناولها على غير قراء المجلة ففعل وقد احسن فيما فعل

صدرت المجموعة الاولى من هذه الرسائل في مئة صفحة كلها من كلام عبد الله بن المقفع وعبد الحميد بن يحيى وهما ممن تضرب ببلاغتهما الامثال وتشد الى كلامهما الرحال ومن اطرف هذه الرسائل رسالة ابن المقفع في سياسة الدولة وصحابة السلطان ورجاله ورسالة عبد الحميد في نصيحة ولي العهد وتعبئة الجيش. وقد عني الناشر بتصحيح هذه الرسائل معارضة على أصلها ولم يتبع سنة اكثر طابعي الكتب بمصر من اهمال التصحيح فما يوجد فيها من الغلط فالذنب فيه ذنب النساخ المحرفين مع فقر بلادنا من النسخ التى يعارض عليها الاصل . وثمن هذه المجموعة اربعة قروش واجرة البريد قرش واحد فنحث محبي الآداب والحكم وطلاب الانشاء العربي البليغ على قراءتها

﴿ سر تقدم الإنكليز السكسونيين ﴾

قد اصبح هذا الكتاب اشهر من نار على علم ، وترجم باشهر لغات الامم ، ولا غرو فان تقدم الانكليز السكسونيين وسبقهم لغيرهم من الامم العزيزة التي تساويهم او تفوقهم في العلم والمدنية مما لا يماري فيه احد الا من يجهل ان الشمس لا تغيب عن سلطتهم ، وان مئات من الملايين خاضعة لسيادتهم ، فمن جهل هذا التقدم لأميته ، او تجاهله لغروره وغباوته ، فان الامم الحية التي تسابق الانكليز فى ميدان الاستعمار ، وتجاريها في تلك الجواري المنشآت في البحار ، هي الجديرة بأن تعرف سر تقدمهم ، وسبب فوزهم وسبقهم ، فانه لا يعرف قيمة الشيء من كان بعيدا عنه ، كما يعرفه من هو على مقربة منه ، لذلك كان علماء فرنسا اسبق الناس الى معرفة قيمة ما امتاز به الانكليز على غيرهم من الامم فى تربيتهم وتعليمهم ، وأخلاقهم وآدابهم ، وقد ألفوا

في ذلك الاسفار الكثيرة التي يعد كتاب سر تقدم الانكليز من أشهرها . وكان من حسنات أحمد فتحي باشا زغلول في قومه وخدمته للغة امته ان ترجم هذا الكتاب بالعربية . ويسرنا ان طبعته الأولى قد نفدت وان خليل بك صادق صاحب مطبعة الشعب عني بإعادة طبعه بإذن المترجم ويزيدنا سروراً أن طبعته هذه أبهج من الأولى وأشد اتقانا . وقد أبقى ثمنه كما كان وهو عشرون قرشا بل هو يهديه الى الذين يؤدون قيمة الاشتراك في مجلته (مسامرات الشعب) . ولا ينسين القارئ في هذا المقام رفيق هذا الكتاب في غايته ومقصده واعني به كتاب (التربية الاستقلالية — أو — اميل القرن التاسع عشر) فان مؤلفه العالم الفرنسي قد اختار فيه ان تكون تربية الاخلاق واستقلال النفس تربية انكليزية ، وتعليم العلوم العالية على الطريقة الألمانية ، وانني أرى ان المصريين وجميع العثمانيين أحوج الناس الآن الى مثل هذين الكتابين لأنهم في طور انتقال من حال اجتماعية الى حال ، وهو طور محفوف بالأخطار ، التي يستعان على تلافيها بالتأسي والاعتبار ، ولا ينفعنا التأسي بأمة كما ينفعنا التأسي بالأمة الانكليزية التي هي أقوم أمم المدنية اخلاقا وأشدها محافظة على ما كان عليه سلفها من الخير والدين وتثبتاً في التشبث بالجديد

﴿ مجلة مسامرات الشعب ﴾

قد اتقنت هذه المجلة وصارت أحسن اختيارا للقصص مما كانت عليه من قبل . ومن آخر ما نشرته قصة لصوص باريس وهي قصة تفيد المتفرنجين من أهل هذه البلاد ان اعتبروا بها مالا تفيدهم كتب الاخلاق والوعظ بما تمثل لهم من حيل الأوربيين المقامرين على سلب أموال الاغنياء الأغبياء ، لا سيما الغرباء ، وفيها حرب عوان بين الفضيلة والرذيلة ينتهي بانتصار الفضيلة . ومثلها في هذا قصة سلطان الغرام وهي آخر قصة نشرت في هذه المجلة

﴿ مجلات جديدة ﴾

﴿ مجلة التذكرة ﴾ يصدرها بمصر السيد احمد خليل في كل اسبوعين مرة وهي مجلة دينية اجتماعية ونزعتها صوفية اجتهادية ممزوجة بشيء من الاصطلاحات العلمية

عند الحاجة وسننقل منها نموذجا للقراء في جزء آخر ليكون خير معرف لها · وقيمة الاشتراك فيها أر بعون قرشا فى السنة لاهل مصر ونصف ليرة انكليزية لغيرهم فنتمنى لها التوفيق والنجاح

﴿ شورا ﴾ مجلة علمية اصلاحية تصدر في اورنبورغ من بلاد روسيا محررها صديقنا في الغيب الشيخ رضا الدين افندي بن فخر الدين وهو من علماء الاسلام المصلحين · وقد عرف قراء المنار شيئا من افكاره العالية وفقهه في الاصلاح مما نشرناه من ترجمة رسالة له في مطالب مسلمي روسيا من حكومتهم ولنا الرجاء في ان تكون هذه المجلة هدى ونوراً للمسلمين في تلك البلاد

﴿ النصيحة ﴾ مجلة علمية أدبية تصويرية تصدر بتونس في نصف كل شهر عربي مرة لمنشئها « الصادق بن ابراهيم » صاحب جريدة النصيحة ·وقيمة الاشتراك فيها لاهل القطر التونسي خمسة فرنكات ولغيرهم ستة فرنكات فنتمنى لها التوفيق والثبات

باب الاخبار والآراء

﴿ الامة العثمانية والدستور ﴾

إذا كان المنار لا يسع عشر معشار ما نعلم من أسباب هذا الانقلاب الذي حدث في بلادنا ومقدماته ونتائجه وما نراه في أمر استفادة الشعوب العثمانيه من الحرية والدستور — فذلك لا يصدف بنا عن نشر بعض الآراء والاخبار التي تذكر الـكاتبين في الصحف اليومية والأسبوعية ببعض ما ربما يذهلون عنه، وتنبه القارئين الى ما ينفع التنبه له، واني أشير الآن الى ثلاث مسائل هي أركان العبرة في هذا الباب

(١) أول شيء يجب على المنار التنبيه اليه والتنويه به هو ما يؤيد خطته في قناع المسلمين بوجوب حسن المعاملة بينهم و بين من يعيش معهم من غير أهل دينهم وتعاون الجميع على ما يرقي البلاد و يرفع شأن الدولة — وفي رد طعن الطاعنين في الاسلام ، بأنه دين تعصب وعدوان، وفي المسلمين بأنهم لا يلتئمون مع أحد ممن لا يدين بدينهم، لاسيما الذين يزعمون ان العلماء المعممين، هم الذين يبثون الشقاق بين العالمين ،

أؤيد هذه الخطة من الجهة الايجابية والجهة السلبية بما ظهر للعالم أجمع من أن عقلاء المسلمين هم الذين قاموا بهـذا العمل الجليل للاتحاد والمساواة بينهم و بين غيرهم وان شيخ الاسلام قد كان وما زال ركنهم الذين يلجؤن اليـه ، وقطبهم الذي يدورون حواليه ،

ان احرار المسلمين هم الذين بدءوا بدعوة الاحرار العثمانيين من النصارى واليهود في مصر وأور با وفي الولايات العثمانية الى مشاركتهم في جهادهم ، وهم الذين اعلنوا هذا الجهاد ووطنوا أنفسهم على قتال اخوانهم من الجند اذا هم حاولوا تأييد السلطة المستبدة ثم انهم بعد الظفر بالدستور قد كانوا هم السابقين الى مصافحة الأرمن والروم وغيرهم من الشعوب الموافقين لهم في العثمانيـة المخالفين في الاعتقاد وهم الذين رفعوا أصواتهم في كل مكان بأننا لا نجعل الدين مفرقا بيننا و بين اخواننا العثمانيين بل نكون معهم كما أمرنا الاسلام بالقول المشهور فيه « لهم مالنا وعليهـم ما علينا » بل منهم من بالغ في قوله وغـلا في رأيه فاستحسنوا التنازل عن بعض حقوقنا ، إرضاء لعاطفة بعض شعوبنا ، كالذين يرون أن يجعل جامع أياصوفيا مجلسا للمبعوثين ، ويخرج عن كونه مسجدا للمسلمين ، وهم من الترك الذين يذكرهم هذا الجامع بذلك الفتح المبين ،

هذا ما فعله مسلمو العثمانيين من البدء في الدعوة الى الاتفاق والعمل بهـا في كثير من البلاد وهذا ما ينبغي ان يفعله الباقون فان المسلمين هم العنصر الأ كبر والأقوى فاذا هو علم أن الخير في الوفاق وعمل بذلك تبعه غيره بالضرورة ولو قام أحـد الشعوب القليلة الضعيفة يدعو الشعب الكثير القوي الى المساواة وهو غير مقتنع بها لما كانت دعوته مجابة ولا مقبولة

فأدعو المسلمين في جميع البلاد العثمانية الى ان يكونوا هم البادئين ببرّ غيرهم والاتفاق معهم واشتراك الجميع في الأعمال التي توثق الرابطة العثمانية وتعمر بهـا البلاد التي يمتع بعمرانها الجميع ، بهذا تتكون الامـة العثمانية ، وتعتز الدولة العلية ، وبهذا يقطع المسلمون ألسنة القادحين فيهـم من الاور بيين ، ويكونون مهتدين في ذلك بهدي الدين المبين ،

أدعو إلى هذا مذكرا بالاعتدال فيه ، لئلا يفضي الغلو فيه الى ضد ما يراد به ، بأن يعتقد الجمهور أن كرتهم بالدستور خاسرة ، أو انهم يعمرون الدنيا بخراب الآخرة ، فيحملهم ذلك على الشنآن ، أو يدفعهم الى العدوان ، فعلى المرشد ان يكون حكيما في نصحه ، مراعيا لاستعداد الا كثرين في هديه ،

وأذكر الجميع بأن الطفرة محال ، وان ما يحصل بالتدريج يكون أولى بالبقاء والثبات ، فإذا ترك أحد الفريقين للآخر ما كان يراه حقا له ، فلا يستعجل عليه بطلب سائر ما يراه من الحقوق لنفسه ، حتي التقاليد القديمة ، والعادات الراسخة ، فان المصلح في القوم ليدعو أبناء جنسه ودينه ووطنه الى ترك بدعة من البدع أو ضلالة من الضلالات ، ويقيم على دعوته الحجج القيمة والآيات البينات ، ثم لا يستجيب له قومه الا بالتدريج ، وأرى ان من الحكمة في تلافي الشذوذ والتقصير ، ان يبادر العقلاء والصحافيون من كل أهل دين الى انتقاد أهل دينهم ولو بالعنف ، والسكوت عن غيرهم أو الاعتذار عنهم ولو بالتأويل ، هذا اذا كان الشذوذ صريحا في مناوأة أحد الفريقين الآخر ، والا اتفق الجميع على انتقاد المسيء من حيث انه مسيء ، من غير ذكر لدينه ومذهبه ، ولا اتهام قومه بمشايعتهم له ،

(٢) انتقل بالقارئ من المسألة الدينية ، الى المسألة الجنسية ، فقد كان التعصب للجنس اشد خطرا على الدولة من التعصب للدين ، فان الشقاق الديني اذا كان يقد جسم الأمة فيجعله نصفين ، فان الشقاق الجنسي يمزقه فيجعله أجزاء كثيرة ويصيب شره الجميع ، فالمسلم التركي ، يعادي المسلم العربي ، والنصراني اليوناني ، يعادي النصراني البلغاري ، وعلى ذلك فقس

لو بدأ بالدعوة الى ترك العصبية الجنسية العربي او الكردي او الألباني او الأرمني أو الرومي او البلغاري لما سمعت للبادئ من هؤلاء دعوة ولما كان لها من الوقع والتأثير عشر معشار ما كان لمجاهرة التركي بها ، لان الترك هم اصحاب السلطة في الدولة فهم من هذه الجهة كالمسلمين من سائر الملل فلما قال أحرارهم هلموا ايها ايها العثمانيون نترك التعصب للجنس ونشترك بلقب واحد لا يقصد به امتياز جنس على آخر لباهم الجميع حامدين شاكرين . فوجب ان نخص الجنس التركي

بالثناء الحسن قبل ان نتناسى او ننسى اننا أجناس مختلفة . ولا بدع فى جهر الترك بذلك فانهم كما صرحنا منذ بضع سنين أرقى العثمانيين تربية وتعليما، واعلاهم أدبا وتهذيبا

(٣) بعد ذكر مسألتي الدين والجنس اذكر شيئا من عمل الجمعية التي تلافت ضررهما وسعت مع غيرها لخير العثمانيين كافة . ينضم العثمانيون الاحرار الى هذه الجمعية - جمعية الاتحاد والترقي - ويعمل الجميع لحفظ الدستور الذي نالوه بعد السعي الحثيث اليه حتي اندمجت الجمعيات فيها او كادت ، وتدامجت معها كما أرادت ، وان هؤلاء الاحرار المتحدين في هذه الجمعية هم الذين يديرون نظام المملكه الآن ، وقد ظهر من كفاءتهم واعتدالهم ماجعلهم موضع إعجاب الامم والدول الاوربية كما تنطق جرائدها بلغاتها المختلفة. وقد مرَّ على اعلان الدستور شهر أوا كثر ولم يبلغنا ان احدا انتقد على الجمعية عملا من الاعمال أوأدبا من الآداب على ان اوربا تراقبها مراقبة الناقد البصير الذي لا يحابي ولا يداهن حتي قلنا ان « مجلس المبعوثين » لا يرجى ان يكون خيرا منها في الادارة والاصلاح ، ولا أقرب الى العدل والانصاف ،

• ينحصر عمل الجمعية الآن في ثلاثة مقاصد (١) تطهير الدولة ملكيتها وعسكريتها من المفسدين الذين ناط بهم الاستبداد السابق أمورها (٢) تقوية استعداد الامة للحكم الدستوري (٣) تحسين الصلات بين الدولة العلية ، و بين جميع الدول الاوربية ، لا سيما ذوات السبق الى الحرية كانكلترا وفرنسا

اما تطهير الحكومة من رجس اعمال الاستبداد السابق فالمبادرة اليه من اهم الضروريات قبل ان يجتمع مجلس المبعوثين وتلقي اليه الجمعية مقاليد السيطرة والمراقبة فانه ليعجز ان يعمل في عدة سنين ماتعمله هي في هذه الاشهر التي تتقدم اجتماعه كما يظهر لنا من الطريق السويّ الذي سارت عليه في ذلك . فقد بدأت بتطهير المابين والباب العالي ونظارة الحربية واكثر الولايات في وقت واحد . فأخرجت من المابين رؤساء الفتنة والفساد وعزلت السرعسكر رضا باشا وناظر الداخلية ممدوح باشا وسجنتهما مع تحسين باشا رئيس كتاب السلطان والشيخ أبي الهدى احد مستشاريه وفر من رؤساء المابين عزت باشا ونجيب باشا ملحمه وسليم باشا ملحمه الى اوربا . واخرجت من المابين اكثر الحجاب والكتاب والخدم

وممثلي الروايات وأجواق الموسيقات من النساء وحددت نفقات السلطان وراتبه الشهري ونفقات قصره وجعلت جميع بطانتـه من الأحرار أعضاء جمعيـة الاتحاد والترقي فآل الامر الى أن وضع هو على صدره شارة الجمعية وقال انه رئيسها

وكثر العزل والنقل في المعسكرات وهـذا ضروري جدا لتكون الجمعية واثقة من القوة التي هي سياج الدستور وعماد الأمن . وكذا في الدوائر الملكية . ولما رأى كثير من الخائنين ان إخوانهم في الفساد والتخريب يعزلون بادروا الى الاستقالة فكثرت بذلك الاعمال التي ليس لها الآن عمال ، واختيار الابدال عسر جدا مع تحري الاكفاء أصحاب النزاهة ، فلذلك نرى انه يجب على الجمعية ان تقبـل من عمال الاستبداد من لم يعرف بالتجسس ولا بالرشوة ، وان كان ممن جروا على مصانعة القوة ، وان تجري في ذلك على سنة التدريج فان في العجلة مفاسد كثيرة ،

واما تقوية استعداد الامة للحكم الدستوري ومقت الاستبداد فقد سارت الجمعية فيها على الطريقة المثلى بتأسيس شعب لها في كل مدينة يرتبطون باللجان العليا في الاستانة وسلانيك وأوربا ، وبحمل الشعب على المظاهرات وبجريئه على الخطب الحماسية في تقبيح الحكومة السابقة حتى افرط بعض الناس في ذلك افراطا لاتحمد عاقبته

ثم اننا نرى بعين البصيرة ونسمع من اخبار البلاد ان كثيرا من المنافقين اعوان الاستبداد السابق ومحبيه يتهافتون على الدخول في شعب الجمعية تعززا بالقوة واكتسابا من السلطة ، لاحبا في الدستور وحرصا على الحرية ، ولـكن قلما يرتقي هؤلاء بانفسهم الى ان يكونوا اعضاء عاملين في الجمعية ، كما صار يدعي كل من كان يطعن في الدولة انه من الاحرار طلاب الدستور . ونرجو ان يوفق الاعضاء الصادقون الى تمحيص شوائب هؤلاء الاوشاب أو الى محقهم وتزكية الجمعية من نفاقهم

هذا — وان في البلاد نوعا من جراثيم الفساد لم يبلغنا ان الجمعية قررت إزالته على شدة خطره على الحرية . الا وهو عصابات الفساد من أشقياء الاهالي الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ويأوون الى بعض الوجهاء فينقذونهم من الحكام بالرشوة حتي بلغ من استهانتهم بالحكومة في بعض البلاد ان زالت هيبتها من قلوبهم وصاروا يأتون المنكرات على مرأى من شرطتها وهم آمنون مطمئنون

فيجب على الجمعية ان ترشد الحكام الاحرار الذين تقيمهم الآن الى تعقب هؤلاء الاشقياء وتربيتهم بالشدة التي لا يطمعون معها في عودتهم الى مثل ماكانوا عليه في أيام الحكومه السابقة والا كانت فائدة الحرية للاشرار وغائلتها على الابرار

وأما المقصد الثالث من مقاصد الجمعية وهو موادة الدول الاوربية ، فقد كانت فيه احزم واحكم منها في سائر أعمالها الحسنة ، ولا نرى فيه شائبة نذكر بها الا الاحتراس من جفوة المانيا والنمسا والله الموفق فنسأله حسن الختام

﴿ المجلس النيابي لمصر ﴾

ذكرنا في الجزء الرابع من منارهذه السنة أن انكلترا عازمة على انشاء مجلس نيابي في مصر وقد تلقى جمهور المصريين هذا الخبر بالدهشة والاستغراب وعدوه مناقضا لما يستنتج من سيرة المحتلين في مصر وتصريحات لورد كرومر في تقاريره وناظر خارجيتهم في مجلس النواب بلندره . وكنا نظن ان حركة القبط التي شرحناها في الجزء الخامس مما يحتمل ان يحمل الانكليز على إرجاء السماح بانشاء هذا المجلس الى أجل حتى جاءنا نبأ جديد من أنباء أوربا السرية العالية بأن القوم لايزالون على عزمهم وان مجلس النواب المصري يوشك ان ينعقد في السنة القابلة

لا أقول ان كتابات القبط التي تتابعت على لندره لم يكن لها أثرفيها وانما أقول انه قد عارضها اعلان الدستور في الدولة العلية واضطرار حكومة بريطانيا لإظهار الرضا والابتهاج به وما اضطرها الى ذلك الا اخلاق شعبها وتقاليدها القديمة الراسخة في حب الحرية ونصر الاحرار أينما كانوا وحيثما وجدوا. فرأت وزارة الاحرار الانكليزية انه لا يليق بها ان تظهر الميل الى الدستور في مكان والميل عنه في مكان آخر على ان الانكليز قوم يجارون الطبيعة ولا يقاومونها ويعملون في كل حال مايرونه يليق بها

ويوشك ان يكون للوفد المصري الذي سافر الى لندره بزعامة اسماعيل باشا أباظه تأثير حسن في المسألة فان انكلترا يصعب عليها ان تؤدي هذه الخدمة لمصر بطريقة يسهل فيها غمط حقها وانكار فضلها وإسناد عملها الى غيرها مع انه لا يمكن ان يتم في مصر أمر عظيم بدون رضاها ما دامت جيوشها محتلة فيها

كيف نستعمل الحرية (*

ايها السادة الاحرار

وقفت غير مرة مثل هذا الموقف بعد اعلان الحرية ، وكنت في مواقفي الأول أرسل القول إرسالا ، لأن المواضيع متوفرة ، والشعور بالحال اطلق اللسان من عقاله، وفكّ الافكار من أصفادها ، بعد أن لبثت مدة ترسف فيها ، حتى كدنا نيأس من انتهائها ، مع علمنا بأن لكل بداية نهاية .

ولكنني الآن اتلو عليكم خطبتي تلاوة ، لأنني سُئلت ان اتكلم في موضوع لا اتعداه ، ومرتجل الكلام لا يستطيع حصره في موضوع واحد ، لأن الخطب الارتجالية حرّة مثلكم ايها السادة فهي تأبى التقييد، وقد جعلت موضوع خطابي هذا « كيف نستعمل الحرية » لأننا احوج الى هذا الموضوع الآن من سائر المواضيع

خاض الخطباء في تعريف الحرية وحدودها ، حتى كادوا يضعون لها قيودا ، ويخرجونها عما وُجدت له، ولو كانت ذات شعور لعجبت كيف يحاول تقييدها طلقاؤها

وكاد قوم بهذه النواحي يشوهون وجهها الجميل ، ويشوشون مفهومها المستبين، فظنوا ان الحرية تبيح للناس امتهان حكامهم ، والنعي على صالحهم وطالحهم

سادتي : ان من يدفع عن مركزه بقوة ، انما يرجع اليه مثل القوّة التي دفع بها ، فإذا كانت المظالم زحزحتنا بقوتها الوحشية عن مكاننا ، فنحن لا نرتكز في نقطة الا اذا دفعنا تلك المظالم في صدرها ، وانحينا باللائمة على القائمين بها

الشعب الذي يغلو الحكام في ظلمه ، يجب ان يتطرف في الحرية متى نالها

الحاكم المسترسل بالظلم ، الملوث بالرشوة ، لا يفيقه من سكرة الاستبداد الا التقريع الفظيع ، والتنديد الشديد، فهو كالعضو المخدّر ، لا يحسّ الا بالوخز المؤلم وربما لا يحسّ به

(* خطبة من الخطب التي القاها في احدى احتفالات الحرية ببيروت السيد حسين وصفي رضا شقيق صاحب هذه المجلة (المنار)

كل هذا ايها الأخوان لازم بل واجب ، ولكن لا يسوغ ان نجعله ديناً لنا حتى كأنه هو المقصود بكلمة الحرية ، إذاً نكون صرفنا الحرية عن معناها، ولم نعرف كيف نستعملها ، وحاشا ثم حاشا ، وكلا ثم كلا

أيها الشعب السوري العظيم ، يا سلالة الفينيقيين الذين ادهشوا العالم ، الذين لم تهب سفنهم هجماتِ امواج المحيط الاعظم، الذين ملأ ذكرهم بطون التواريخ ، انني أحييك واهش لك ، احييك باسم الحرية ، واناديك بملء ماضغيَّ : انت أسمى من أن تضع الحرية في غير موضعها ، وانت احق بها واهلها ، بل إنما وجدت لتكون لك قبل كل البشر

الحرية هي تمتع الشخص بما لا يضير به سواه ، وصيانة الافراد من عبث الحاكمين، وسهولة سلوك السُبُل التي من شأنها إعلاء شأن الأمة ،وتبسط ابنائها في الحضارة والعمران ، وعدم استكانتهم للظلم والهوان

ابيح لنا القول ايها الاخوان ، فاسترسلنا في القول ، والقول مقدمة للعمل فيجب ان نعمل أيضا

وضح لنا نهج المعين الذي ارتوى منه الافرنج قبلنا ، فلا يحسن بنا ان نرتشف منه ارتشافا، بل يجب ان نبتلعه ابتلاعا اذا قدرنا

أتيح لنا ان نعمل ما نشاء ، فلا يليق بنا ان نعمل ما من شأنه إضعاف قوانا وإنهاك جسومنا ، بل يجب ان نعمل على ما يرفع شأننا ، ويجعلنا في مصافّ الأمم الحية الراقية ، وبذلك نحسن استعمال الحرية

الجمعيات هي اساس النجاح ، ودعائم الرقيّ ، فيجب ان نؤسس جميات ، لا يسوغ ان تكون جمعياتنا لطائفة من الناس ، لا يجوز ان تكون اسلامية أومسيحية أو يهودية مهما كانت وجهتها ، وأنى كان قصدها ، بل يجب أن تكون عثمانية بحتة، انتم عثمانيون ايها الاخوان ، فيجب ان تكون جمعياتكم عثمانية ، الجامعة التي تنضمون تحت لوائها هي العثمانية ، فاجعلوها جمعياتكم كذلك تحسنوا استعمال الحرية

عاشرت اثنين ايها الناس منذ بضع سنين اسمها مشترك بين المسلمين والنصارى وانا للآن لا اعرف ان كانا مسلمين او نصرانيين ويجب ان تكونوا انتم كذلك

ايضا ، يجب أن تتعارفوا بعثمانيتكم لا بمذهبكم ونحلتكم ، أليس كذلك ؟ بَلَى بَلى

المدارس الوطنية هي كل مانحتاجه الا ن ، لننهض من كبوتنا ، ونُقال من عثرتنا، وليس عندنا الآن مدارس وطنية بالمعنى الذي أريده ، أريد بالوطنية التي تضم الفرق والنحل ، وتنشئ طلابها تنشئة واحدة ، غايتها اعلاء شأن الوطن ، ووقاية الحرية بالمهج والأرواح ، والمدارس هي نبت الجمعيات و بنتها فمتى انشئت الجمعيات فقد أسست المدارس ،فانشئوا الجمعيات انشئوا الجمعيات تحسنوا استعمال الحرية

الجرائد هي القوة الكبرى والمدرسة التهذيبية،وهي ميزان اعمال الامة،وعنوان حالها،وهي المسيطر الرقيب على الحكومة بل ان رقابتها تتناول كل شيء،وهي قائد الامة الى مواطن السعادة والهناء،والصادفة بها عن معاطن البوار والشقاء،فيجب ان ان تكثر الجرائد بيننا و يعم انتشارها و بذلك نحسن استعمال الحرية

الخطابة هي مدرسة الشعوب الثانية بعد الجرائد ، ولها من العوامل فى التأثير الكبير،ومن البواعث على العمل المفيد،مايرفع و يعلي ، وينتاش الأمم من الحضيض الاسفل ، و ينيف بها على يفاع المجد والسؤدد ، واذا كانت الجرائد للقراء فقط فان الخطب يتناولها سمع القارئ والأمي ، و يستفيد منها العامل والجاهل ،والنشيط والخامل ، والصانع ، والزارع ، بل هي لكل احد ، والخطابة الحرة وكانت ولاتزال من الدعائم التي يشاد عليها بناء التمدن الباهر، ويرتفع بها صرح المجد الحقيقي ، فالمنابر المنابر ! ! لا تهملوا شأنها ، ارفعوا اعوادها ، ليرن صوت خطبائها ، ليهتفوا فلتدم الحرية ، فبذلك نحسن استعمال الحرية

التآلف بين الفرق والنحل هو الضامن الوحيد لبقاء وحدتنا ، واجتماع قوانا ، والمحافظة على حريتنا ، و به نرد عادية المظالم ، وندفع غائلة الظالم ، وهو الذي يجعل مجموع أفراد الأمة كالجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، أو كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، كما ورد في الحديث الشريف ، فيجب ان نتآلف،يجب ان نتآلف ، يجب ان نتآلف ، لنحسن استعمال الحرية ، فليدم التآلف

ان استعمال الحرية يكون بالسير على النهج الذي أشرعته لكم أيها السادة ،

وثمة شؤون أخر ، يضيق مثل هذا الموقف عن استيعابها ، ولنا من حزم رجالناخير كفيل للسير على النهج السوي ، والطريق المعبّد ، والأمل معقود على ان يبينوها بالعمل لا بالقول

بقيت لي كلمة أراني ملجأ الى الجهر بها ، قبل نزولي عن هذا المنبر ، تلك الكلمة هي إعلان استيائي واستياء العقلاء ، ممن يذهبون إلى أن الحرية منحة أو هبة من شخص معلوم ، ان هذا القول لا يليق صدوره من الأحرار ، إنه كذب وخيانة ونفاق ، وليست هذه الخصال من الحرية في شيء ، ان الحرية هي حق للشعب يسلبه منه بعض الظالمين سلباً ، فنيلُ الشعب له انما هو استرداد لحقه المغتصب منه ، وليس من الهبات والمنح ، الحرية ليست ملكاً للحاكم ولا للسلطان فكيف يهب الانسان ما ليس يملك له

هذا وانني أشكر لجيشنا الباسل سعيه الكبير ، وعمله العظيم ، الذي خالف به كل جيوش العالم ، منذ وجد الجيش وأسست الجندية ، فان الجيوش في كل الأدوار والأجيال ، كانت يد الظالم القوية ، يستعين بها على قتل روح الحرية ، ولا أذهب بالاستشهاد بكم بعيدا أيها السادة ، بل ألفت انظاركم الى فظائع جيش العجم ، ومنكرات جيش روسيا ، وكيف يمثلون بطلاّب الحرية أقبح تمثيل عملاً بإرادة المستبدين ، وتنفيذاً لمقاصد الظالمين ، فليمت المستبدون ، وليسحق الظالمون

واشكر أيضا لرجال جمعية الاتحاد والترقي العثماني ، ولكل رجال الاصلاح الذين وقفوا حياتهم ، وخاطروا بأرواحهم ، في سبيل استرجاع الحرية ، وأصرح بأن جمعيتهم قامت بما لم تقم به جمعية في العالم منذ أسست الجمعيات ، فانها كانت سببا في إحياء شعب بأسره ، لأن الشعب المستبد هو والميت شرَع ، هذا مع اعترافي بما للجمعيات من الأثر المحمود في خدمة النوع الانساني

واسأل الله أن يوفقنا للسير على ما يعلي شأن أمتنا ، و يرفع مقام دولتنا ، و يحفظ علينا نعمة الحرية ما دامت السموات والأرض ، اه

(المنار) جاءنا من بيروت ان الجمع المحتفل قد صفق للخطيب صفيقا شديدا ، وهتف بالدعاء له وللمنار هتافا كثيرا ،

الفصل الحادى عشر (*

(الحب الشريف)

إن أشرف السير سير أهل الفضيلة وما الفضيلة الا من خصائص النفوس فمن كان من عشاق الفضائل حسن به أن لاتفتر نظرات بصيرته الى النفس فهي مستقر الخوارق ، ومستودع العجائب

النفس مجلى الآيات الكبر ، ومهبط الفيوضات العلى،والمرآة العظمى التى ينكشف بها الازل والأبد،والمطبعة العظمى التي ترتسم بها الاشياء وتتكثر الصور ،

هي السلك الممدود بين مبدع الطبائع ، ومقيم الشرائع ، وبين الجواهر المتآلفة الصامتة ، والظواهر المسخرة المطيعة ، فهي خليفة عليها، واقفة على خطواتها ، مشرفة على حركاتها ، وهي مجذوبة من طرف اليها بجاذبية الانس والعادة ، ومجذوبة من طرف آخر الى مصدر بوارقها بجاذبية الحب والشوق ، فبانجذاب النفس الى الظواهر تأخذ الظواهر حظها من الانكشاف ، وبانجذاب النفس الى مانح الظهور تأخذ النفس حظها من الشهود والاشراف،فيحق لها في الحالتين أن تتمجد بما ميزها به فاطرها تباركت عظمته ، وتعالى شأنه ،

أعظم خصائص النفس الحب والبغض بل ان هاتين الطبيعتين المتضادتين أعظم نواميس الا واكوان لوجودات كلها، لكن اختلفت

*) من سيرة السيدة خديجة

المحبات ، وتباينات الاشواق ، وأوتيت النفس الانسانيـة أعظم نصيب من هاتين الطبيعتين لاتساع المحيط الذى تدور فيه، ولاتصالها بعالم الحس وعالم الغيب، وترددها بالانجذاب بينهما فهي ان وقفت يوماً مع الظواهر أنست بها فعشقتها لما رش عليها مبدعها من الحسن الذي هو وصفه ، وان ارتفعت الى المبدع دهشت فتولهت فتدلهت لما هنالك من المجالي الازلية التي تطير السرائر شوقاً الى التمتع بها

الفضائل والرذائل ، الخيرات والشرور ، الحزن والسرور ، الرغبة والرهبة ، الاقدام والاحجام ، الكسل والنشاط ، الارتفاع والهبوط ، كل ذلك من مبتدعات الحب والبغض وآثارهما. وكل درجة من هـذه الاشياء فانما هي على مقاييسهما ، هما بالاختصار ركنا السعادة والشـقاء، فمن هدي الى تصريفهما والجري بهما على سنة مثلى فقد أهديت اليـه السعادة وأوتي بالحب الشريف والبغض الشريف حظا من الخـير عظيما

***

كانت السيدة « خديجة » ذات قلب طاهر والقلب الطاهر مركز الحب الشريف فماذا أحبت سيدتنا هذه؟ كان قلبها تواقاً الى معالي الامور، عظيم الشغف بمحاسن الاخـلاق ، وقد أمد الله فطرتها امـداداً عظيما فقويت معرفتها بالمكارم ، وعظم علمها بأن الفضائل هي التي تليق بالانسان سواء وقفت نفسه مع هذه المحسوسات أم أرادت أن تندرج في زمرة عشاق المجالي الازلية

عرفت هذه السيدة صلة النفس الانسانية بمن منه انشقت أسرارها،

وانفتقت أنوارها، فكان لها تشوّف الى جود عظيم يفيض عليها من العناية الربانية ، كما هو شأن ذوي السرائر الصافية، وحصل لها من هذه الحالة الطيبة قوة فراسة والفراسة نور فكانت تهتدي بها فيما هي حائمة الروح عليه من الفضائل، ومن أحب شيئاً أحب أهله من أجله، فلما عرفت ابن عبد الله ووجدت فيه مايعشق من المزايا العلية، انتثرت حبَّة من تلك المحبة الشريفة التي كانت بها تنشد المكارم فوقعت في محل من قلبها لتنبت شوقاً الى هذا الرجل الصالح الذي ألفت المكارم كلها لديه، وأيقنت ان معرفتها هذا السعيد بمزاياه العظيمة هو أعظم الآثار التي كانت تتشوف اليها من لدن العناية المرجوة .

الآن وجدت محبة الفضائل والمحامد أعظم من تجلى الفضائل والمحامد فيه فكيف ينفر منه قلبها؟ بل كيف لايميل اليه فؤادها؟ فالامانة هو ذلك الشهير فيها وقد سبرته في متجرها فربحت بواسطته أضعافاً ، والشجاعة هو المنشأ فيها على يد عظيم الهمة أبي طالب، والنباهة هو الذي تسطع في محياه طوالعها، والحكمة هو الذي تقرأ في سيماه آياتها، والعفة هو ربها ، والمروءة هو مجمع شواردها، ومحاسن الخلقة هو النسخة الصحيحة منها، فأي الفضل تنشد بعد هذا مُحبة الفضل، وأي المحامد تريد بعد هذه مريدة المحامد؟ كمال خَلق وكمال خُلق ، جمال شخص وجمال نفس ، حنكة لم يظفر بمثلها أقرانه من الشبان. ووقار لم يحظ بأقله الكبار، وهمة لا تقف أمامها الصعاب، وعزيمة لا تني أمام الثقال ، قوي شديد، حليم رشيد، كما يقول فيه عمه أبو طالب وهو به جدير :

فمن مثله في الناس أي مؤمل   اذا قاسه الحكام عند التفاضل ؟

حليم رشيد عادل غير طائش يوالي إلها عنه ليس بغافل
لقد علموا ان ابننا لامكذب لدينا ولا يعنى بقول الاباطل
فأصبح فينا أحمد في أرومة تقصر عنه سورة المتطاول

فما أكثر غبطة السيدة «خديجة» اذ عرفت هذا السيد الجليل، وما كان أجدرها بأن يتعلق قلبها الطاهر به، وما أقوى نور فراستها اذ علمت انه لا نظير له، وان سعادتها لا تتم الا به، وما أحقها ان تغتنم الفرصة وتسبق الى تزوج هذا الشريف الذي جمع الى شرف النسب شرف الخلال

الفصل الثاني عشر

تفاؤل هذا وقته

كانت الكهانة شائعة في ذلك الزمان كما هو شأنها في كل الازمنة الى زماننا هذا وكان علماء التوراة ينبئون دائما بظهور نبي منتظر وبعضهم كان يقول انه سيظهر من العرب . والراهب بحيرا تفرس بابن أخي أبي طالب اذ كان معه صغيراً وقال له: سيكون لابن أخيك هذا شأن : ولم يكن بعيداً عن المألوف أن يخبر بعض الناس بالمغيبات ولكن لم يكونوا يصدقون كل شيء من هذا القبيل ولا يكذبون كل شيء كما هو الشأن في أهل زماننا أيضاً

وقد كثر التكهن قبيل ظهور النبي (ص) ولكن أكثر الناس لم يكونوا يبالون بتلك الاخبار لانهم تعودوا أن يروا شيئا من كذب الكهانة مع مصادفة صدقها أحيانا فلم تكن الثقة بها في الحقيقة تامة ولا سيما في الامور العظيمة

وبينما نساء من قريش مجتمعات في عيد لهن في الجاهلية اذ تمثل لهن رجل فلما قرب نادى باعلا صوته: يانساء أهل مكة سيكون في بلدكن نبي يقال له أحمد فمن استطاع منكن أن تكون زوجا له فلتفعل . فكذبنه ورمينه بالحصى وكانت فيهن « خديجة » فلم ترمه كما رمينه

لم يكن هذا المنبيء كاهنا معروفا فلذلك احتقره النساء لانهن لا يعبأن في الغالب الا باهل الشهرة . ولكن كان قومهن يعتقدون بالهاتف وهو على اعتقادهم روح ينطق بالشيء من حيث لا يرى أو يتمثل بصورة بشرية فيقول قولا من هذا القبيل ثم يغيب فكأن السيدة « خديجة » اعتقدت ان هذا المنادي هاتف فلم ترمه كما رماه ترائبها ولعلها صدقت اذ ذاك وتفاءلت خيراً ورجت أن تكون صاحبة هذ الحظ

وان صح ظننا هذا بالسيدة كان لنا دليل جديد على عظيم تطلعها الى بركات الجناب القدسي فان الرغبة في تزوج المنعم عليهم بالنبوة لا تعظم الا من العارفة بذلك الجناب الاعلى الذي يتفضل بخلعة النبوة على من يشاء

كانت النبوة معروفة عند قومها بما سمعوه من أخبار أنبياء جيرانهم بني اسرائيل ومعروف ان النبي رجل كالرجال ولكن يصطفيه الله ويرفع درجة نفسه على درجات سائر نفوس البشر حتى يطلعه على مالم يطلع عليه أحدا من أسرار عالم الغيب ، وليست النبوة ملكا أو حظوظا زائدة من نعيم الدنيا بل جل الانبياء الذين سلفوا كانوا مقلين ولم يكن حظهم الا مقاومة الناس اياهم وتعذيبهم . والنساء انما يرغبن بالنعيم والرفاهية ورغد العيش وكثرة الحلل والحلي وكل هذا لا يرجى لدي الانبياء الذين تنصرف

أنظارهم عن متاع الغرور ويلتفتون الى مافيه غبطة الروح فلا تتصور السعادة من النساء عند الانبياء الا اللاتي أنعم الله عليهن بسلامة الفطرة وقوة الاستعداد كالسيدة « خديجة »

ولما رجع عبدها « ميسرة » من الشام في تلك السفرة التي ذهب بها مع الهاشمي « محمد » أخبرها بأحوال غريبة رآها منه لا يكون أمثالها الا لمن سمعت أخبارهم من الصالحين المباركين فما لبث أن رنّ في قلبها صدى ذلك الصوت الذي سمعته بأذنها ، صوت ذلك المنادي في النساء المجتمعات اللاتي كانت معهن في العيد . وكان هذا الصدى الذي رن في قلبها تتألف منه هذه الكلمات :

« تفاؤل هذا وقته »

الفصل الثالث عشر

الخواطر في قلب « خديجة »

كانت «خديجة» تعرف أن ليست النبوة بالكسب والاجتهاد وانما هي محض عطاء واختصاص من الحي الازلي الدائم ولكن كانت تعيد على خواطرها ماحكاه لها عبدها «ميسرة» ويرن على أثره ذلك الصدى في قلبها فتقول في نفسها أي مانع يمنع رجائي بفضل الله بأن أكون صاحبة الحظ من الرجل المبارك الذي أنبأ به الهاتف ؟ أي مانع يمنع فضل الله عن قومي اذا أراد أن يخرج منهم ذلك الانسان الذي يقول عنه علماء التوراة وكان لها ابن عم من جملة علماء هذا الكتاب

ثم اذا مرّ بقلبها خاطر آخر يقطع عليها هذه الآمال وينهاها عن هذه الاحلام - التي كانت تراها في اليقظة - ترجع الى الشيء المحقق الذي لا ينازع فيه خاطر ولا يماري فيه حجبي وهو ما تحلى به ابن عبد الله من صفات الكمال، فتتمثل في فكرها تلك الطامة السنية ويلمع أمامها برق من تلك العينين الدعجاوين، وتنسى الشمس وسائر الدراري حين تذكر دائرة ذلك الوجه المتألق، ويقوى ايمانها بالملائكة اذ ترى في هذا الشخص البشري آيات القدس والطهارة، فتقول في نفسها أفليس حسبي أن أكون ربة النصيب من فتى قريش الوحيد الذي كمله الله ان لم أكن صاحبة الحظ من الصالح الذي أنبأ به الهاتف

ثم تتراجع اليها الخواطر ويقلبها ذلك الحب الشريف الذي نمت حبته في قلبها على ضروب من الحيرة فتقول في نفسها مرة أخرى: من لي بهذا المكمل الذي مال اليه قلبي، وحامت حوله خواطري، وعكفت في دائرة محاسنه نفسي، أليست تمنع العادات بأن أكون أنا الخاطبة؟ أف للعادات ما أثقل أحكامها، وما أظلم قضاءها، وما أشد عتمة مسالكها، وما أسوأ عواقب الجمود عليها، وما أبخس صفقة الذين لا يتزحزحون عنها،

نعم نعم أف للعادات فكم أوقفت بعض الاجيال في سجون ضيقة مظلمة من التقليد الضارّ، وحجبت عنهم أنوار التبصر والتدبر والتفكر، فانطمست عليهم سبل الارتقاء في معارج الاستحسان والتحسين، وغمت عليهم مطالع السعادة الحقيقية للنفوس

أفٍّ ثم أفٍّ للعادات فهي قاطعة الطريق على نتائج العقول تزج بها في مهاوي العدم، أو تذرها في سجن أقفر ممنوعاً عنها كل ما يربها، ويا عجبا

لبني آدم الذين يضعون العادة في هذا المكان من الحكم على نفوسهم والقضاء على عقولهم وقلوبهم أليس لهم مايذكرهم بان العادة من صنعة أيديهم وتصوير أحلامهم أليس لهم مايبصرهم بأن العادة يجب ان تكون تابعة لامتبوعة ، ومنقادة لاقائدة ، حتى اذا فتحت أمام بصائرهم أبواب أخر لما هو خير ودعوا عادتهم تلك محمودة على قدر مانفعت ،ومذمومة على مبلغ ماضرت،واستقبلوا أخري مصاحبيها على مقدار مايدوم من أسبابها،وينفع من أبوابها

تبرمت « خديجة» بالعادة كثيراً ،وتأففت من تقلبها طويلاً ،وسردت كل سيئات الجمود عليها في نفسها التي هي أعلى من نفوس الغافلين عن المقدمات والنتائج،لما خصها الله من سلامة الفطرة ،وفضل الفطنة،وقوة آلة المعرفة ،ومزيد حرارة الهمة،

ثم عادت تعذر الضعفاء الذين لايستطيعون التغلب على الثابت الراسخ وهم الا كثرون وتذكرت أسباب رسوخ بعض العادات ومنها وفرة فوائدها في أوقات سلفت ،وأحوال مضت ،ورأت ان الناس يرثون من السالفين كل شيء ولا يميلون الى التغيير حتى يميل بهم الدهر ميلة شديدة على يد عاصف من الحوادث، أوهبة شديدة من إرادة بعض الاشخاص، وكم دكت الارادات القوية أطوداً من العادات

ربما كانت هذه السيدة تستطيع التغلب على العادة فلا تجد بأساً بأن تخطبه بنفسها لانها كانت قوية الارادة . ولكن من لها بأنه لا يرد خطبتها وهي أرملة في الاربعين من العمر ، وهو في الخامسة والعشرين يشف محياه عن ماء الفتوة ، وينشر شذى الشباب ، والمرأة مهما قويت ارادتها تذكر

الخيبة فيغلب احجامها اقدامها وهذا بعض أسباب العادة في أن تكون هي المخطوبة

ما أصعب الخواطر على المرأة التي تجد ضالتها من السعادة ولا تستطيع الاقدام على تحصيلها!! هي صعبة على الرجل أيضا ولكنها على المرأة أصعب لانها أضعف على كل حال . بيد ان ضعفها الذي زينها الله به في عين الرجل به تمت نعمتها وعلت كرامتها لديه . فقوة الخفر والحياء من ضعفها، وذلك أعظم حلية طبيعية تزدان بها،ومن عطل من هذه الحلية منهن رغب عنها الكرام من الرجال . وشدة الرحمة من ضعفها وما أعلى وأجمل وأزين هذا الضعف الذي بدونه تمقت المرأة . والجبن من ضعفها ولولاه لما حصل الاعتدال في اقتسام الاعمال بينها وبين الرجل

فماذا تصنع قوة ارادة السيدة « خديجة » أمام شدة خفرها وحيائها، وماذا تنفع شجاعتها أمام خشيتها من الخيبة ، وماذا تجدي قوة عزيمتها وصبرها عند المزعجات من خواطر الحب الشريف الذي ملأ قلبها الطاهر بعد ان كان حبة صغيرة ألقيت فيه

اللهم رحماك فليست القلوب من حديد،ولم تقد من صخر،ان نسيم الخواطر فيها يصدع ان جاءها برائحة اليأس،ويرأب ان أتاها برائحة الرجاء، وكذلك كانت خواطر السيدة « خديجة » صادعة ورائبة،بيد ان رجاءها كان أغلب ، ولو كشف لها الغطاء عما يحف بها من السعادة المغيبة عنها اذ ذاك لانقلب رجاؤها يقينا . ولكن لتستكمل الغرائز حظها من النفوس كتب على الانسان ان يغيب عنه آتيه من السعادة والشقاء فترى منحوسا يضحك ويلعب والشقاء يساوره عما قريب يأخذه بياتاً أو يصبحه وساه

صباحاً . وترى مسعودا يتململ ويمسي ويصبح على مضاجع الحيرة والارق واجماً سادماً والسعادة من حوله مرفرفة بأجنحتها ستقف عما قريب على رأسه وتشمله ويتبارك بها بيته

فما أشد حاجة هـذه السيدة السعيدة في مواقف حيرتها تلك الى هاتف يبشرها بقرب اتصال السعادة التامة بها ،ما أشد حاجتها الى من ينبئها بأنها هي الجوهرة النفيسة التي أعتدت لذلك الذي ميزته العناية الازلية أكمل تميز .ولكن ليظهر مزيد فضلها في الميل الى رب الفضائل والمكارم التي لاتباري حجب عنها كل هاتف وحبست عنها البشري حتى أخذت الخواطر حظها من قلبها الكريم وتمكن منه كل التمكن ذلك الحب الشريف لذاك الذي أجمعت فيما بعد قلوب الملايين التي لاتحصى على حبه

الفصل الرابع عشر

الزواج

لابدع اذا قلب الشوق نفوس المحبين في يد الخواطر كالكرة بيد اللاعب فان قوام الكائنات بشوق ذراتها بعضها الى بعض وكان جديرا أن يتجلى هذا المعنى بزيادة في غريزة خليفة الله في الارض نعني الانسان . كيلا يكون بنو آدم وحواء أنقص من الجمادات حظا في هذا الناموس الكبير الفائدة .

فبعد أن تمكن من «خديجة» الشوق الشريف هذا التمكن أصبحت جديرة ان تتناول هدية سعادتها ، وتنكشف لها الحجب عن الرحمة التى

ترعاها ، فهبط على قلبها خاطر جديد كان به الوصول الى النعمة الجديدة

خطر لها ان تبعث الى الذي سكنت مكارمه ومعاليه فؤادها رسولاً تسبر به رغبته وتستنبيء به سعدها مما ينزل على قلبه من الالهام بهذا الشأن وساقها الى هذا الخاطر قوة رجائها بالله سبحانه وحسن ظنها بأن هـذا المكمَّل لا يرد رغبـة مثلها وهي الجامعة لصنوف من المعالي يقل اجتماعها في سواها

كانت لها صديقة اسمها «نفيسة» (وهي أخت يعلى بن أمية) فقصت عليها حديثها وائتمنتها على هذه الرسالة ولم يكن بالصعب أن تؤدي الصديقة هذه الامانة لانها ستتكلم كأنها صاحبة رأي تشير به حتي اذا وجـدت مجالا كانت وكيلة بابداء القبول

لم تكن النسوة اذ ذاك محتجبات ولم يكنَّ ممنوعات من مكالمة الرجال فلم تكن رسول «خديجة» محتاجة الا لشيء من قوة الجنان أمام ذلك المهيب العظيم وقد أمدت من سعد مرسلتها بحظ منه

ومن يكن راعيه السعد فقل ماشئت في تيسير مايرجوه

جاءت «نفيسة» هذه ابن عبدالله وفي القبيلة الواحدة يعرف الناس بعضهم بعضاً فقالت له مايمنعك أن تتزوج فاعتذر لها بقلة المال اللازم للقيام بشؤون العائلة قالت له فان كفيت ودعيت الى المال والجمال والكفاءة قال لها «ومن؟» قالت له «خديجة»

قالت هذه الكلمة وصمتت تنتظر ماسيبدو منه وأحدث هذا الكلام حركة في فؤاده وبأي شيء يتحدث ذلك الفؤاد الطاهر حينئذ الا بقوله : خديجة الشريفة المعروفة بالطاهرة ، هي المناسبة، هي الموافقة، هي الصالحة

اذهبي يانفيسة فاني سأخطبها

فرجعت تحمل هذه البشرى وكانت ميمونة النقيبة في هذه الرسالة فالله يعلم كيف أجزلت السيدة خديجة كرامتها ولم تنتظر كثيراً حتى أتى خاطباً ومعه عمه حمزة فقال عمها عمرو بن أسد بن عبدالعزي « هو الفحل لايقدع أنفه » وهو مثل عربي يقال للكفؤ الذي لا يرد ان خطب

ما كان هذا الخاطب الكفؤ غنياً اذ ذاك ولكنه لم يكن أيضاً معدماً فهو من آل عبد المطلب العامرة بيوتهم بقرى الضيفان واغاثة اللهفان في هذا السبيل تذهب أموالهم ثم يخلف الله عليهم من وجوه المكاسب وأبواب المرابح بما أوتوا من الهمم والشمم ولم يكن اعتذاره ذلك اعتذار المعدمين وانما هو اعتذار المتربص أن يتوفر له مقدار أكبر . فمع قلة ماله في ذلك الحين أصدقها عشرين بكرة لان اعطاء الرجل للمرأة صداقاً سنة عربية لم يكن ليحسن تركها

والزواج العربي ليس محتاجاً الى رؤساء ديانات، ولا تلاوة الرؤساء صلوات، بل هو عقد كسائر العقود المدنية يتوثق برضا المرأة وأوليائها ورضا الرجل، فبخطبة من الرجل وتقديمه الصداق واجابة من المرأة وأوليائها تصبح المرأة زوجة شرعية للخاطب . وهكذا أصبحت « خديجة » الطاهرة زوجة « محمد » الامين بكلمة أعلنها عمها عمرو بن أسد فما أعظمها من كلمة جمعت بين القمرين !

المنار ١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم اولو الالباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر — الجمعة ٢٩ شعبان ١٣٢٦ — ٢٥ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٠٨

باب تفسير القرآن الحكيم

مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(١٤٩ : ١٤٢) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٥٠ : ١٤٣) بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ
وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥١ : ١٤٤) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا
الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ
مَثْوَى الظَّالِمِينَ *

قال بعض المفسرين ان هذه الآيات التفات عن خطاب المنافقين الذين وبخهم في الآيات السابقة أن انهزموا وقالوا ما قالوا الى خطاب المؤمنين الصادقين وقال الاستاذ الامام الخطاب لمن سمع قول أولئك القائلين من المنافقين: ارجعوا الى إخوانكم ودينكم . وهو أخص مما قبله . والمختار على الطريقة التي جرينا عليها في

تفسير الآيات السابقة ان الخطاب فيها عام وجه الى كل من شهد أحدا لتكافلهم وكل يعتبر بها بحسب حاله . ويدل عليه الآيات الآتية بعدها فانها من تتمة الخطاب وفيها تفصيل لاعمالهم ونياتهم وعناية الله بهم مع تقسيمهم الى مريد للدنيا ومريد للآخرة كما يأتي قريبا

قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا ﴾ معناه ان تطيعوا الذين جحدوا نبوة محمد ولم يقبلوا دعوته الى التوحيد والخير كأبي سفيان ومن معه من مشركي مكة الذين دعاكم مرضى القلوب الى الرجوع اليهم وتوسيط رئيس المنافقين عبد الله بن أبي بينكم وبين رئيسهم (أبي سفيان) ليطلب لكم منه الأمان او الذين كفروا بقلوبهم وآمنوا بأفواههم كعبد الله بن ابي واصحابه الذين خذلوكم قبل الشروع في الحرب ثم دعوكم بعدها الى الرجوع الى دين آبائكم وقالوا لو كان محمد نبيا لما أصابه ما اصابه ﴿ يردوكم على أعقابكم ﴾ ابتداء أو استدراجا اي الى ما كنتم عليه ورجعتم عنه من الكفر . قال الاستاذ الامام : أي ان طلبتم الامان منهم وكانت حالكم معهم حال المغلوب مع الغالب يتولوا عليكم وتكونوا معهم أذلاء مقهورين حتى يردوكم عن دينكم ﴿ فتنقلبوا خاسرين ﴾ للدنيا والآخرة أما الاول فبخضوعكم لسلطانهم وامتهانكم بينهم وحرمانكم مما وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات من استخلافهم في الارض بالسيادة والملك ومن تمكين دينهم وتبديلهم من بعد خوفهم امناء وأما الآخر فبما يمسكم في الآخرة من عذاب المرتدين مع الحرمان مما وعد الله المتقين

وذكر بعضهم لليهود والنصارى في تفسير هذه الآية لامناسبة له وقد تبعوا فيه ماروي عن الحسن وابن جريج . والمروي عن السدي ان المراد بالذين كفروا ابو سفيان ومن معه من المشركين وعن علي كرم الله وجهه انهم عبدالله بن ابي وحزبه وهم الذين دعوا الى الارتداد كما تقدم واشرنا اليه آنفا

﴿ بل الله مولاكم ﴾ فلا ينبغي ان تفكروا في ولاية ابي سفيان وحزبه ولا عبد الله بن أبيّ وشيعته ولا ان تصغوا لإغواء من يدعوكم الى موالاتهم فإنهم لا يستطيعون لكم نصرا ولا انفسهم ينصرون ، وانما الله هو المولى القادر على نصركم اذا هو

تولي شؤونكم بعنايته الخاصة التي وعدكم بها في قوله (٨: ٣٩ فاعلموا ان الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير) ويبين لكم ان سنته قد مضت بانه يتولى الصالحين ويخذل من يناوئهم من الكافرين (٤٧ : ١٠ افلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمَّرَ الله عليهم وللكافرين أمثالها ١١ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم) ومن هنا أخذ النبي (ص) جوابه لابي سفيان حين قال بعد وقعة أحد التي نزلت هذه الآيات فيها « لنا العزَّى ولا عزى لكم » إذ أمر عليه الصلاة والسلام بأن يجاب « الله مولانا ولا مولى لكم » كأنه تعالى يذكر المؤمنين بقوله هذا المنبيء عن سنته و بتذكير الرسول لهم به . واذا كان هو مولاكم وناصركم اذا قمتم بما شرطه عليكم في ذلك من الايمان والصلاح ونصر الحق فهل تحتاجون الى أحد من بعده ﴿ وهو خير الناصرين ﴾ فان من يطلق عليهم لفظ الناصر من الناس انما ينصر بعضهم بعضا بما أوتوا من القوى وما تيسر لهم من الاسباب وإنما الله هو الذي آتاهم القوى وسخر لهم الاسباب وهو القادر بذاته على نصر من شاء من عباده بإيتائهم أفضل ما يؤتي غيرهم من الصبر والثبات والعزيمة وإحكام الرأي واقامة السنن والتوفيق للاسباب . هذا ما ظهر لنا ويقول المفسرون في مثل هذه العبارة اسم التفضيل « خير » فيها على غير بابه لانه لا خير في أولئك الناصرين الذين يعرض بهم. قال الاستاذ الامام لاوجه للاعتراض بأن الكافرين لا خير فيهم فان التفضيل انما هو بالنسبة الى النصر يعني ان نصر الله لعباده المؤمنين خير من نصر الكافرين لمن ينصرونه من أوليائهم

﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ﴾

المتبادر لنا ان الآية تعليل او تصوير لكونه تعالى خير الناصرين للمؤمنين الموحدين مبينة لبعض وجوهه تبييناً يقبح لهم الشرك ويزيدهم حباً في الايمان و بيانه انه سيحكم في اعدائهم المشركين سنة العادلة وهي انه يلقي في قلوبهم الرعب وهو — بضم العين و به قرأ ابن عامر والكسائي و يعقوب وسكونها و به قرأ الباقون — شدة الخوف التي تملأ القلب بسبب اشراكهم بالله أصناما ومعبودات لم ينزل بها سلطانا

أي لم يقم برهانا من العقل ولا من الوحي على مما زعموا من ألوهيتها وكونها واسطة بين الله و بين خلقه وانما قلدوا في اتخاذها واعتقادها آباءهم الذين اتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل، ومن كان كذلك غير مطمئن في دينه، ولا متبع للدليل في اعتقاده، فهو دائما عرضة لاضطراب القلب، واتباع خطرات الوهم، يعد الوساوس أسبابا، ويرى الهواجس مؤثرات وعللا، قياسا على اتخاذه بعض المخلوقات أولياء، وجعلهم سائط عند الله وشفعاء، واعتياده بذلك ان يرجو مالا يرجى منه خير، ويخاف مالا يخاف منه ضير، فالاشراك قد يكون سببا طبيعيا لوقوع الرعب في القلب، وما كان كذلك فان الله يسنده الى نفسه وان لم يذكر السبب، لانه هو واضع الاسباب والسنن، ولكنه قد صرح به هنا ليكون برهانا على بطلان الشرك وسوء أثره، وهذا الوجه المختار في تفسير الآية يوافق قول من جعل الوعيد فيها عاما وليس كل الكفر يثير الرعب بطبيعته وإنما تلك طبيعة الشرك وهو اعتقاد ان لبعض المخلوقات تأثيرا غيبيا وراء السنن الالهية والاسباب

وصرح كثير من المفسرين بان قوله تعالى « سنلقي » وعد للمؤمنين أنجزه الله يوم أخذ في أول الحرب. ولا يظهر هذا بغير تأويل ولا تقدير الا اذا كانت الآية قد نزلت قبل القتال والظاهر انها نزلت مع ماقبلها وما بعدها عقب القتال وانصراف المشركين. وقال بعضهم ان الوعد انجز في غزوة حمراء الاسد اذ اراد ابو سفيان ومن معه بعد الانصراف من احد ان يرجعوا لاستئصال المسلمين فأوقع الله الرعب في قلوبهم لما قال لهم معبد ماقال (راجع ص ٢٥٣)

قال الاستاذ الامام: في الآية وجهان (احدهما) ان إلقاء الرعب خاص بتلك الواقعة ولو كان عاما لشمل غزوة حنين ولم يكن الكفار فيها مرعوبين بل كانوا مستميتين وكذلك نرى ان كثيرا من الكافرين قد حاربوا ولم يصبهم الرعب وهذا الوجه هو الذي عليه مفسرنا (الجلال) وكثير من المفسرين

(والوجه الثانى) ان الآية بيان لسنة الهية عامة وهو الحق وبيانه يتوقف على فهم المعنى المراد من لفظ المؤمنين ولفظ الكافرين وهو ماكان عليه المؤمنون والكافرون فى الوقت الذي نزلت فيه هذه الآيات. فأما أولئك المؤمنون فهم

الذين كانوا في مرتبة من اليقين والاذعان ، قد صدقها العمل الذي كان منه بذل الانفس والاموال في سبيل الايمان ، الذين عاتبهم الله ووبخهم على تلك الهفوة التي وقعت من بعضهم بما تقدم وما يأتي في هذا السياق من الآيات . واما أولئك الكافرون فهم الذين دعوا الى الايمان ، واقيم لهم على الدعوة الدليل والبرهان ، فجاحدوا وعاندوا وكابروا الحق ، وآثروا مقارعة الداعي ومن استجاب له بالسيف ، وقعدوا له ولهم كل مرصد ، فاذا نظرنا في شرك هؤلاء الكافرين ، وفي حالهم مع اولئك المؤمنين ، نجد أن شأنهم معهم كشأن من يرى نور الحق مع خصمه فيحمله البغي والعدوان ، على مجاحدته من غير حجة ولا دليل : يرتاب فيما هو فيه ويتزلزل فاذا شاهد الذين دعوه ثابتين مطمئنين يعظم ارتيابه ويهاب خصمه حتى يمتلأ قلبه رعبا منهم . هذا هذا هو شأن الكافرين المعاندين مع المؤمنين الصادقين ، كأنه تعالى يقول هذه هي الطبيعة في المشركين ، اذا قاوموا المؤمنين ، فلا تخافوهم ولا تبالوا بقول من يدعوكم الى موالاتهم والالتجاء اليهم

(قال) وبهذا يندفع قول من يقول : ما بالنا نجد الرعب كثيراً ما يقع فى قلوب المسلمين ، ولا يقع في قلوب الكافرين ، فان الذين يسمون أنفسهم مسلمين قد يكونون على غير ما كان عليه أولئك الذين خوطبوا بهذا الوعد من قوة اليقين والإذعان والثبات والصبر وبذل النفس والمال في سبيل الله وتمني الموت في الدفاع عن الحق فمعنى المؤمنين غير متحقق فيهم وانما رعب المشركين مرتبط بايمان المؤمنين وما يكون له من الآثار فحال المسلمين اليوم لا يقوم حجة على القرآن لأن أكثرهم قد انصرفوا عن الاجتماع على ماجاء به الاسلام من الحق وما كان عليه سلفهم من الايمان والصفات والاعمال فالقرآن باق على وعده ولكن هات لنا المؤمنين الذين ينطبق إيمانهم على آياته ولك من انجاز وعده في هذه الآية وغيرها ماتشاء . وتلا قوله تعالى (٢٤ : ٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم) الآية

(قال) وعلى هذا يكون الإشراك سببا للرعب كسائر الاسباب العادية التي ربط الله بها المسببات كالشرب للري والاكل للشبع فمن وصل اليه الحق تزلزل الباطل في

نفسه لامحالة . أقول ومن تمام التشبيه ان تكون بعض الوقائع التي لايقع فيها الرعب في قلوب المشركين كالوقائع التي يشرب فيها المرء ولا يروى لعارض مرضي . فسنن الاجتماع كسنن الاجسام الطبيعية لها عوارض وشروط وموانع

﴿ ومأواهم النار ﴾ اي هي مكانهم الذي يأوون اليه في الآخرة بعد ما يصيبهم من الخذلان في الدنيا ﴿ و بئس مثوى الظالمين ﴾ اي والنار التي يأوون اليها بئس المثوى والمقام لهم بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر والجحود ومعاندة الحق ومقاومة اهله وظلم الناس بسوء المعاملة

(١٥٢ : ١٤٥) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ، مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٣ : ١٤٦) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٤ : ١٤٧) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ ، وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ، يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ، يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ، يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ، قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ، وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٥ : ١٤٨) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ

أَلْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا، وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ *

روى الواحدي عن محمد بن كعب قال لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وقد اصيبوا بما اصيبوا يوم أحد قال ناس من أصحابه من اين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر فأنزل الله هذه الآية « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم باذنه » الآية. ونقول نعم ان الناس قالوا ذلك كما يعلم من قوله تعالى « اولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا » وسيأتي. ولكن هذا القول ليس سبب النزول هذه الآية وحدها وانما نزلت مع هذه الآيات الكثيرة بعد تلك الواقعة وما قيل فيها

الوعد المشار اليه في الآية يحتمل ان يكون المراد به ماتكرر كثيرا في القرآن من نصر الله المؤمنين ونصر من ينصره « ١ » وذهب بعض المفسرين الى ان المراد به مادل عليه قوله تعالى « بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم » الآية « ٢ » وقال بعضهم ان المراد به وعد النبي لهم عند تعبئتهم واختاره ابن جرير وروى فيه عن السدي انه قال « لما برز رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المشركين باحد أمر الرماة فقاموا بأصل الجبل في وجوه خيل المشركين وقال ولا تبرحوا مكانكم ان رأيتمونا قد هزمناهم فانا لن نزال غالبين ماثبتم مكانكم، وأمر عليهم عبد الله بن جبير اخا خوات بن جبير. ثم ان طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين قام فقال يامعشر اصحاب محمد انكم تزعمون ان الله يعجلنا بسيوفكم الى النار ويعجلكم بسيوفنا الى الجنة فهل منكم أحد يعجله الله بسيفي الى الجنة أو يعجلني بسيفه الى النار؟ فقام اليه عليّ بن ابي طالب فقال والذي نفسي بيده لا افارقك حتى يعجلك بسيفي الى النار او يعجلني بسيفك الى الجنة، فضربه علي فقطع رجله فسقط فانكشفت عورته فقال: انشدك الله والرحم يا ابن عم. فتركه. فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لعلي أصحابه: مامنعك ان تجهز عليه؟ قال ان ابن عمي

(١) راجع ص ٨٢ و ١٢٤ و ٣٢١ من ج ٢ وص ١٥١ و ٢٣٥ من ج ٣

(٢) راجع ص ٢٥٧ من المنار

ناشدني حين انكشفت عورته فاستحييت منه . ثم شدّ الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود على المشركين فهزماهم وحمل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فهزموا أبا سفيان . فلما رأى ذلك خالد بن الوليد وهو على خيل المشركين حمل فرمته الرماة فانقمع . فلما نظر الرماة الى رسول الله (ص) وأصحابه في جوف عسكر المشركين ينتهبونه بادروا الغنيمة فقال بعضهم لا نترك أمر رسول الله (ص) فانطلق عامتهم فلحقوا بالعسكر . فلما رأى خالد قلة الرماة صاح في خيله ثم حمل على اصحاب النبي (ص) فلما رأى المشركون ان خيلهم تقاتل تنادوا فشدوا على المسلمين فهزموهم وقتلوهم » اه اي قتلوا منهم سبعين كما هو معلوم من الروايات المفصلة . وانما ذكرنا هنا رواية السدي بطولها لما فيها من التصريح بان النبي (ص) قال للرماة « فانا لا نزال غالبين ماثبتم مكانكم » والتفصيل الذي يعين على فهم الآية وغيرها ومنها ان الرماة لم يعصوا كلهم وانما أولئك بعض عامتهم وأما الخاصة الراسخون في الايمان العارفون بالواجب فقد ثبتوا والمختار عندنا ان المراد بوعد الله هنا ماتكرر في القرآن وانما قال النبي ماقال للرماة عملا بالقرآن وتأولا له فانه تعالى قرن الوعد فيه بشروط لا تتم الا بالطاعة والثبات

فملخص تفسير الآية هكذا ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ اياكم بالنصر حتى في هذه الواقعة ﴿اذ تحسونهم﴾ اي المشركين اي تقتلونهم قتلا ذريعا ﴿باذنه﴾ تعالى اي بعنايته وتأييده لكم ﴿حتى اذا فشلتم﴾ ضعفتم في الرأي والعمل فلم تقووا على حبس انفسكم عن الغنيمة ﴿وتنازعتم في الامر﴾ فقال بعضكم ما بقاؤنا هنا وقد انهزم المشركون وقال الآخرون لا نخالف أمر الرسول ﴿وعصيتم﴾ رسولكم وقائدكم بترك اكثر الرماة للمكان الذي أقامهم فيه يحمون ظهوركم بنضح المشركين بالنبل ﴿من بعد ما اراكم ماتحبون﴾ من النصر والظفر فصبرتم على الضراء ولم تصبروا في السراء ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ كالذين تركوا مكانهم وذهبوا وراء الغنيمة ليصيبوا منها ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾ كالذين ثبتوا من الرماة مع اميرهم عبد الله بن جبير وهم نحو عشرة وكان الرماة خمسين رجلا . والذين ثبتوا مع النبي (ص) وهم

النصر الى ان فشلتم وتنازعتم وعصيتم، فعندما وصلتم الى هذه الغاية، لم تعودوا مستحقين لهذه العناية، لمخالفتكم لسننه في استحقاق النصر، الذى وعد به اهل الثبات والصبر، فعلى هذا تكون « حتى » للغاية و« اذا » في قوله « حتى اذا فشلتم » ليست للشرط وانما هي بمعنى الحين والوقت وهذا هو المختار . والوجه الثاني انها للشرط وجوابها محذوف تقديره عند البصريين « منعكم نصره » أو نحوه وقال الاستاذ الامام ان الحكمة في حذف الجواب هنا على القول به هي ان تذهب النفس في تقديره كل مذهب ومثل هذا الحذف لا يأتي فى الكلام البليغ الاحيث ينتظر المخاطب الجواب بكل شغف ولهف ولك ان تجعل تقديره : امتحنكم بالإدالة منكم ليمحصكم ويميز المخلصين والصادقين منكم . أقول وهذا هو صريح قوله ﴿ ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ وابو مسلم قد قال ان هذه الجملة هي جواب « اذا » ولكن اقتران جواب الشرط بثم غير معروف لنا في كلام العرب .

وحاصل المعنى انه بعد ان صدقكم وعده فكنتم تقتلونهم بإذنه ومعونته قتل حس واستئصال صرفكم عنهم بفشلكم وتنازعكم وعصيانكم وحال بينكم وبين تمام النصر ليمتحنكم بذلك اي ليعاملكم معاملة من يمتحن ويختبر او لأجل ان يكون ذلك ابتلاء واختبارا لكم يمحصكم به ويميز بين الصادقين والمنافقين ويزيل بين الاقوياء والضعفاء كما علم من الآيات السابقة . وقد اسند الله تعالى صرف المؤمنين عن المشركين الى نفسه هنا باعتبار غايته الحميدة في تربيتهم وتمحيصهم الذي يعدّهم للنصر الكامل والظفر الشامل في المستقبل، وأضاف ما أصابهم اليهم في قوله الذي سيأتي في السياق « قل هو من عند أنفسكم » باعتبار سببه وهو ما كان منهم من الفشل والتنازع والعصيان . وقد عد بعضهم إسناد الصرف اليه هنا مشكلا لاسيما على مذهب المعتزلة الذين تكلف علماؤهم في تخريجه تكلفا لا حاجة اليه، إذ لا إشكال فيه، ولكن المذاهب والاصطلاحات، هي التي تولد لاصحابها المشكلات،

قال تعالى ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ بذلك التمحيص الذي محا أثر الذنب من نفوسكم

فصرتم كأنكم لم تفشلوا ولم تتنازعوا ولم تعصوا وقد ظهر أثر هذا العفو في حمراء الأسد كما علم مما مر وما يأتي ﴿ والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ فلا يذرهم على ماهم عليه من ضعف يلمّ ببعضهم، أو تقصير يهبط بنفوس غير الراسخين منهم، حتى يبتلي ما في قلوبهم، ويمحص ما في صدورهم، فيكونوا من المخلَصين

﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ﴾ أي صرفكم عنهم في ذلك الوقت الذي أصعدتم فيه أي ذهبتم وأبعدتم في الارض منهزمين - وهو غير الصعود الذي هو الذهاب في المرتفعات كالجبال - لا تلوون أي لا تعطفون على أحد بنجدة ولا مدافعة ولا تلتفتون الى من وراءكم لشدة الدهشة التي عرتكم والذعر الذي فاجأكم

﴿ والرسول يدعوكم في أخراكم ﴾ أي تفعلون ذلك والرسول من ورائكم يدعوكم اليه فيمن تأخر معه منكم فكانوا ساقة الجيش - روي انه كان يقول في دعوته «اليَّ عبادَ الله إليَّ عباد الله، انا رسول الله، من يكرّ فله الجنة» — وأنتم لا تسمعون ولا تنظرون وكان يجب ان يكون لكم أسوة حسنة بالرسول فتقتدوا به في صبره وثباته ولكن أكثركم لم يفعل ﴿ فأثابكم غما بغم ﴾ أي فجازاكم الله غما بسبب الغم الذي أصاب الرسول من فشلكم وهزيمتكم أو غما متصلا بغم فنال العدو منكم ونلتم من أنفسكم اذ صرتم من الدهشة يضرب بعضكم بعضا وفاتتكم الغنيمة التي طمعتم فيها . قال الاستاذ الامام: الغم هو الألم الذي يفاجئ الانسان عند نزول المصيبة واما الحزن فهو الألم الذي يكون بعد ذلك ويستمر زمنا . أقول والمتبادر ان الغم ألم أو ضيق في الصدر يكون من الامر الذي يسوءك وانت لم تتبين حقيقته أو سببه أو لا تدري كيف يكون المخرج منه فان المادة تدل على معنى الخفاء يقولون: غم الشيء اذا أخفاه . و: غم عليهم الهلال . لم يظهر ولم ير. ورجل اغم الوجه · كثير شعره . ومنه قوله تعالى (١٠ : ١٧ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة)وفي الأساس « وإنه لفي غمة من أمره. اذا لم يهتد للخروج منه »

﴿ لكي لا تأسوا على ما فاتكم ﴾ أي لاجل ان لا تحزنوا بعد هذا التأديب والتمرين على مافاتكم من غنيمة ومنفعة ﴿ ولا على ما أصابكم ﴾ من قرح ومصيبة فان التربية إنما تكون

بالعمل والتمرن الذي به يكمل الايمان وترسخ الاخلاق . قال في الكشاف: ويجوز ان يكون الضمير في « فأثابكم » للرسول أي فآساكم في الاغتمام وكما غمكم ما نزل به من كسر الرباعية والشجة وغيرهما غمه ما نزل بكم فأثابكم غما اغتمه لاجلكم بسبب غم اغتممتموه لاجله ولم يثرب عليكم على عصيانكم ومخالفتكم لأمره وإنما فعل ذلك ليسليكم وينفس عنكم لئلا تحزنوا على مافاتكم من نصر الله ولا على ما أصابكم من غلبة العدو . اهـ

﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ لا يخفى عليه شيء من دقائقه وأسبابه ولا من نيتكم فيه وعاقبته فيكم . ومن بلاغة هذه الجملة في هذا الموضع ان كل واحد من المخاطبين يتذكر عند سماعها أو تلاوتها ان الله تعالى مطلع على عمله عالم بنيته وخواطره فيحاسب نفسه فان كان مقصرا تاب من ذنبه وإن كان مشمرا ازداد نشاطا خوف الوقوع في التقصير وان يراه الله حيث لا يرضى . قال الاستاذ الامام يقول فلا تعتذروا عن انفسكم ولا تخادعوها فان الخبير باعمالكم المحيط بنفوسكم لا يخفى عليه من أمركم خافية وانما المعول على علمه وخبره لا على اعذاركم وتأويلكم لانفسكم .

﴿ ثم انزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم ﴾ الامنة الأمن وهو ضد الخوف والنعاس معروف وهو فتور يتقدم النوم ويظهر أثره في العينين قرأ حمزة والكسائي « تغشى » بالفوقية اي الامنة والباقون « يغشى » بالتحتية اي النعاس . يقال غشيه النعاس او النوم كما يقال ران عليه اي عرض له فاستولى عليه وغطاه كما يلقى الستر على الشيء . وقد تقدم في ملخص القصة ذكر هذا النعاس وانه كان في اثناء القتال و نما كان مانعا من الخوف فهو ضرب من الذهول والغفلة عن الخطر ولكن روي ان السيوف كانت تسقط من أيديهم . واختار الاستاذ الامام انه كان بعد القتال قال ما مثاله: اختلف المفسرون في وقت هذا النعاس فقال بعضهم ان ذلك كان في اثناء الواقعة وان الرجل كان ينام تحت ترسه كأنه آمن من كل خوف وفزع الا المنافقين فانهم اهمتهم انفسهم فاشتد جزعهم . وحمل بعضهم هذه الآية على آية الانفال (٨ : ١١ اذ يغشيكم النعاس أمنة منه) وانما هذه في غزوة بدر . وقد مضت السنة في الخلق بأن من يتوقع في صبيحة ليلته هولا كبيرا ومصابا عظيما فانه يتجافى جنبه عن

مضجعه و يبيت بليلة الملسوع فيصبح خاملا ضعيفا وقد كان المؤمنون يوم بدر يتوقعون مثل ذلك اذ بلغهم ان جيشا يزيد على عددهم ثلاثة أضعاف سيحاربهم غدا وهو أشد منهم قوة وأعظم عدة فكان من مقتضى العادة ان يناموا على بساط الارق والسهاد يضربون اخماسا لاسداس ، ويفكرون بما سيلاقون في غدهم من الشدة والباس ، ولكن الله رحمهم بما انزل عليهم من النعاس ، غشيهم فناموا واثقين بالله تعالى مطمئنين لوعده ، واصبحوا على همة ونشاط فى لقاء عدوهم وعدوه، فالنعاس لم يكن يوم بدر في وقت الحرب بل قبلها ومثله المطر الذي انزل عليهم عند شدة حاجتهم اليه وقد قرن ذكره به في الآية التي ذكرتهم بعناية الله بهم في ذلك

واما النعاس يوم أحد فقد قيل انه كان في اثناء الحرب وقيل انه كان بعدها وقد اتفق المفسرون واهل السير على ان المؤمنين قد أصابهم يوم أحد شيء من الضعف والوهن لما أصابهم من الفشل والعصيان وقتل طائفة من كبارهم وشجعانهم فكانوا بعد انتهاء الواقعة قسمين فقسم منهم ذكروا ماأصابهم فعرفوا انه كان بتقصير من بعضهم وذكروا الله ووعده بنصرهم فاستغفروا لذنوبهم ووثقوا بوعد ربهم (راجع آية ١٣٥ والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله) وعلموا انه ان كانوا قد غلبوا في هذه المرة فان الله سينصرهم في غيرها حيث لا يعودون الى مثل ما وقع منهم فيها من الفشل والتنازع وعصيان قائدهم ورسولهم ، فأنزل الله عليهم النعاس أمنة أو الأمنة نعاسا حتى يستردوا ما فقدوا من القوة بما أصابهم من القرح ، وما عرض لهم من الضعف، والنوم للمصاب بمثل تلك المصائب نعمة كبيرة، وعناية من الله عظيمة ، وقد كان من أثر هذا الاطمئنان في القلوب ، والراحة للاجسام، والتسليم للقضاء ، ان سهل على هؤلاء المؤمنين اقتفاء أثر المشركين بعد انصرافهم وعزموا على قتالهم في حمراء الاسد عند ما دعاهم الرسول الى ذلك فاستجابوا له مذعنين

(قال) واتفق الرواة أيضا على ان كثيرا منهم كانوا مثقلين بالجراح فلم يقدروا على اقتفاء أثر المشركين فذلك قوله تعالى ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ فهذه الطائفة من المؤمنين الضعفاء ولا حاجة الى

جعلها في المنافقين كما قيل فإن هؤلاء سيأتي الكلام فيهم وما من أمة الا وفيها الضعفاء والأقوياء في الايمان وغيره . وقد بين ظنهم بقوله ﴿ يقولون هل لنا من الامر من شيء ﴾ فلام أن ولينا وغُلبنا ؟ يعنون انه ليس لهم من أمر النصر وعدمه شيء فانهم فهموا مما وقع يوم بدر أن النصر وحقية الدين متلازمان وعجبوا مما وقع في أحد كأنه مناف لحقية الدين وهذا خطأ عظيم أي فان نصر الله لرسله لا يمنع ان تكون الحرب سجالا والعاقبة للمتقين . أقول وسيأتي بيان ما جرى عليه جمهور المفسرين مخالفا لهذا

﴿ قل إن الامر كله لله ﴾ لا أمر النصر وحده أي إن كل أمر يجري بحسب سنته تعالى في خلقه ونظامه الذي ربطه فيه الاسباب بالمسببات ومنه نصر من ينصره من المؤمنين ﴿ يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾ أي لو كان أمر النصر والظفر في أيدينا لما وقع فينا القتل ههنا ، يقررون رأيهم ويستدلون عليه بما وقع لهم غافلين عن تحديد الآجال ولذلك أمر الله نبيه ان يجيبهم بقوله ﴿ قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ﴾ اي لو كنتم وادعين في بيوتكم في سلم وأمان لخرج من بينكم من انتهت آجالهم وثبت في علم الله انهم يقتلون كما يثبت المكتوب في الالواح والأوراق الى حيث يقتلون ويسقطون من البراز (الارض المستوية) فتكون مصارعهم ومضاجع الموت لهم فقتل من قتل لم يكن لان الامر ليس كله بيد الله بل لان آجالهم قد جاءت كما سبق في علم الله

﴿ وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم ﴾ اي يقع ذلك لأجل ان يكون القتل عاقبة من جاء أجلهم منكم ولاجل أن يمتحن الله نفوسكم فيظهر لكم ما انطوت عليه من ضعف وقوة في الايمان ، ويطهرها حتى تصل الى الدرجات العلى من الايقان ، وقد تقدم تفسير الابتلاء والتمحيص في هذا السياق ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ أي بالسرائر والوجدانات الملازمة للصدور حيث القلوب المنفعلة بها ، والمنبسطة أو المنقبضة بتأثيرها ، وقد يخفي ذلك على أصحابها فينخدعون للشعور العارض لها الذي

لم يرسخ بالتجارب والابتلاء كما انخدع الذين تمنوا الموت من قبل ان يلقوه

هذا وان جمهور المفسرين قد جروا على خلاف ما اختاره الاستاذ الامام في هذه الطائفة فقالوا ان المراد بها المنافقون فهم الذين كانت تهمهم أنفسهم اذ كان همُّ المؤمنين محصورا فيما أصاب الرسول (ص) وما وقع لبعضهم من التقصير، وكان في غشيان النعاس ونزول الأمنة على المؤمنين من دونهم معجزة ظاهرة لأنه جاء على غير العادة، وهم الذين يظنون في الله ظن مشركي الجاهلية كظنهم ان ظهور المشركين دليل على بطلان دعوة النبي والمؤمنين، وهم الذين يخفون ما في أنفسهم مالا يبدونه للنبي (ص) من الكفر به ويحتجون عليه بألسنتهم بما يعتذرون به عن أنفسهم . ولكن يعارض فهمهم هذا كون الخطاب قبله وبعده للمؤمنين والكلام عن المنافقين سيأتي بعده، وكذا قوله تعالى« وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم » فان المصائب انما تكون بعد الابتلاء والاختبار تمحيصاً للمؤمنين كما قال « وليمحص الله الذين آمنوا » ويأسا وضعفا للكافرين كما قال « ويمحق الكافرين » وتقدم بيانه، الا ان يجعلوا الخطاب بقوله « وليبتلي » لمن خوطبوا بقوله«ولقد صدقكم الله وعده » دون من خوطبوا بقوله « قل لو كنتم في بيوتكم » وان كان هذا هو الأقرب في الذكر ولكن هذا تفكيك وتشويش لا ترضاه بلاغة القرآن

ثم انه قد يقال ان ظاهر الآية فيما تحكيه عن الذين قد أهمتهم أنفسهم يوهم المحل على الوجه المختار عند الاستاذ الامام من انهم ضعفاء الايمان من المؤمنين اذ يكون مغزى قولهم انه ليس لهم من الأمر من شيء عين مغزى قوله تعالى في جوابهم « ان الامر كله لله » اعتذروا عن تقصيرهم بأنه ليس لهم من الامر شيء وانه لو كان لهم منه شيء لما قتلوا هنا يعني ان الامر كله بيد الله وتصرف مشيئته وحده وهذا عين الايمان الذي يثبته القرآن فكيف جعله من ظن الجاهلية ؟ ونقول انه تعالى قد بين لنا ظن الجاهلية في قوله (٦ : ١٤٨ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم

الا يخرصون) وقد قال قبل هذه الآية (٦ : ١٠٧ ولو شاء ما أشركوا) وهو يشبه قوله لهذه الطائفة التي ظنت مثل ظنهم « ان الامر كله لله » فالظاهر ان الذي أثبته في الموضعين هو مثل الذى أنكره عليهم وسماه ظنا لا يوثق به في هذا المقام الذي لا يقبل فيه إلا العلم اليقين . وقال في سورة يس (٣٦: ٤٧ واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟ ان انتم الا في ضلال مبين) فقد جعل تبرؤ الناس من الكسب والعمل واعتذارهم بمشيئة الله وتفويض الامر اليه من شأن المشركين والكفار الذين يتخبطون في دياجي الظن ويهيمون في أودية الضلال مع اثباته لكون الامر كله لله وحصول كل شيء بمشيئته . وقد نظر في كل طرف من الطرفين من رآه يوافق مذهبه حتى جعل الفخر الرازي الآية التى نحن بصدد تفسيرها هي عين ما عليه الخلاف بين الاشاعرة والمعتزلة في مسألة أفعال العباد وجعل الحجة فيها للأشاعرة

وتحرير الكلام في هذه المسألة أنه تعالى بين لنا في كتابه ثلاث حقائق و بين لنا ضلال الذين ضلوا فيها أو احتجوا بواحدة على بطلان أخرى

(الحقيقة الاولى) انه تعالى هو خالق كل شيء الذي بيده ملكوت كل شيء و بمشيئته يجري كل شيء فلا قاهر له على شيء وهو القاهر فوق كل شيء

(الحقيقة الثانية) ان خلقه وتدبيره انما يجري بحسب مشيئته وحكمته على سنن مطردة ومقادير معلومة كما اشرنا الى ذلك في تفسير « ١٣٧ قد خلت من قبلكم سنن » وفي تفسير كثير من الآيات التي تذكر فيها المشيئة والسنن الالهية (*

(الحقيقة الثالثة) ان من جملة سننه في خلقه وقدره في تدبير عباده أن الانسان خلق ذا علم ومشيئة وارادة وقدرة فيعمل بقدرته وارادته مايرى بحسب ماوصل اليه علمه وشعوره أنه خير له . والآيات الناطقة بان الانسان يعمل و بعمله تناط سعادته وشقاوته في الدنيا والآخرة كثيرة جدا . وهو ليس في ذلك معارضا لمشيئة الله ولا مزيلا لها بل مشيئته تابعة لمشيئة الله ومظهر من مظاهرها كما قال (٧٦: ٣٠ و ٨١: ٢٩ وما تشاؤن الا ان يشاء الله) وقد جرت سنته بان يشاء لنا ان نعمل عند ما يترجح في

*) راجع ص ٤٧١ و ٤٨٥ من ج ٢ وص ٨ و ٧١ ج ٣ من التفسير

علمنا ان العمل خير من تركه وان نترك عندما يترجح فى علمنا ن الترك خيرمن الفعل كما هو معلوم لـكل من يعرف ما هو الانسان

وانا نرى الكتاب العزيز يذ كر بعض هذه الحقائق الثلاث في بعض الآيات ويسكت عن الاخرى لان المقام يقتضي ذلك ولـكل مقام مقال ولكنه ينكر على من يجحد شيئا منها جحوده ويبين للناس خطأه وضلاله كما بين خطأ الذين قالوا « لو شاء الله ما أشركنا » في موضع و بين خطأ من ينكر مشيئته تعالى في موضع آخر . فهو ينكر على من ينكر ما آتاه الله من المواهب والقوى و يكفر له نعمة العلم والارادة والقدرة لاسيما في مقام الاعتذار عن تقصيره في شكر هذه القوى باستعمالها في الخير والحق كما ينكر من يغفل عن كونه تعالى هو المنعم بهذه القوى التي يجلب بها الخير عند ما تبطره النعمة فينسبها لنفسه وحده وينسى ذ كر ربه وشكره . وقد جمع تعالى بين الامرين في بعض المواضع كقوله في سورة النساء (٤ : ٧٨ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ٧٩ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا)وقد صرحوا بان هذه الآيات نزلت في قوم من المسلمين آمنوا ثم لما علموا بانه كتب عليهم القتال ضعفوا وأنكروا وقالوا ما قالوا احتجاجا لانفسهم واعتذارا عنها فأجابهم تعالى مبينا لهم الحقيقة الاولى وهي ان كل شي من الله من حيث انه الخالق للقوى والواضع للسنن والمقادير ثم بين لهم الفرع الذي اقتضى المقام بيانه من فروع الحقيقة الثانية وهو ان الحسنة التي تصيب الانسان هي من عند الله بمعنى انه خالقها وواضع السنن الطبيعية والاجتماعية التي يوصل بها اليها، والخالق للقوى الـكاسبة لأسبابها، فينبغي ان يذ كر عندها ليشكر عليها ، وان السيئة التى تصيبه من عند نفسه بمعنى انه الـكاسب لها ، والمنحرف عن سنن الله وشريعته في طريق تحصيلها ، فيجب ان يرجع على نفسه باللائمة، ويردها الى التوبة، كذلك الآية التي نحن بصدد تفسيرها قد جمعت بين الحقيقتين الاولى قوله تعالى « إن الامر كله لله » والثانية قوله «لو كنتم في بيوتـكم لبرز الذين كتب عليهم القتل

الى مضاجعهم » اي لما حصل القتل الثابت في علم الله تعالى الا ببروزهم من بيوتهم الى مواضع القتال التي يصرعون فيها . و بروزهم هذا من اعمالهم الاختيارية . فليس في الآية محال ولا نصر لمذهب على مذهب وانما هي جامعة للحقائق مستعلية على جميع المذاهب مبطلة لكل من دعوى الجبر المحض والتعطيل المحض ودعوى الذبذبة بينهما. ويؤيد اثباتها لحقيقة عمل الانسان واختياره الآية الكريمة التالية لها وهي

﴿ ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ﴾

أي إن الذين تولوا وفروا من أماكنهم يوم التقى جمعكم بجمع المشركين في أحد لم يكن ذلك التولي منهم الا بإيقاع الشيطان لهم في الزلل أي زلوا وانحرفوا عما يجب ان يكونوا ثابتين عليه باستجرار الشيطان لهم بالوسوسة . قال الراغب : استجرهم حتى زلوا فان الخطيئة الصغيرة اذا ترخص الانسان فيها تصير مسهلة لسبيل الشيطان على نفسه .اه ولعله يشير بذلك ان المراد بالذين تولوا الرماة الذين أمرهم الرسول (ص) ان يثبتوا في أماكنهم ليدفعوا المشركين عن ظهور المؤمنين فانهم مازلوا وانحرفوا عن مكانهم الا مترخصين في ذلك اذظنوا انه ليس للمشركين رجعة من هزيمتهم فلا يترتب على ذهابهم وراء الغنيمة ضرر فكان هذا الترخص والتأويل للنهي الصريح عن التحول وترك المكان سببا لكل ماجرى من المصائب وأعظمها ما أصاب الرسول عليه الصلاة والسلام . وهناك وجه آخر وهو ان الذين تولواهم جميع الذين تخلوا عن القتال من الرماة وغيرهم كالذين انهزموا عندما جاءهم العدوّ من خلفهم . واستدل القائلون بهذا الوجه بما روي من أن عثمان بن عفان عوتب في هزيمته يوم أحد فقال ان ذلك خطأ عفا الله عنه

أما كون الاستزلال قد كان ببعض ما كسبوا فقد قيل ان الباء في قوله « ببعض » على أصلها وان الزلل الذي وقع هو عين ما كسبوا من التولي عن القتال وقيل انها للسببية أي ان بعض ما كسبوا قد كان سببا لزلتهم ولما كان السبب متقدماً دائماً على المسبب وجب ان يكون ذلك البعض من كسبهم متقدما على زللهم هذا ومفضيا اليه . فان كان المراد بالذين تولوا الرماة جاز ان يكون المراد

بالزلل الذي أوقعهم الشيطان فيه ما كان من الهزيمة والفشل بعد توليهم عن مكانهم طمعاً في الغنيمه ويكون هذا التولي هو المراد ببعض ما كسبوا · ولا يصح هذا التأويل على الوجه الآخر القائل بأن الذين تولواهم جميع الذين أدبروا عن القتال الا اذا أريد ببعض ما كسبوا ما كسب الرماة منهم وهم بعضهم فيكون المعنى ان الذين تولوا منكم مدبرين عن القتال إنما استزلهم الشيطان بسبب بعض ما كسبت طائفة منهم وهم بعض الرماة فانه لولا ذلك لما كر المشركون بعد هزيمتهم وجاؤا المؤمنين من وزائهم حتى أدهشوهم وهزموهم

وللسببية وجه آخر ينطبق على كل من القولين في الذين تولوا وهو ان توليهم عن القتال لم يكن الا ناشئاً عن بعض ما كسبوا من السيئات من قبل فانها هي التي احدثت الضعف في نفوسهم حتى أعدتها الى ما وقع منها · ويؤيد هذا الوجه قوله تعالى (٤٢: ٣٠ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير) فهو بمعنى ماهنا الا انه هنالك عام وهنا خاص بالذين تولوا يوم أحد فالآيتان واردتان في بيان سنة من سنن الله تعالى في أخلاق البشر وأعمالهم وهي ان المصائب التي تعرض لهم في ابدانهم وشؤونهم الاجتماعية إنما هي آثار طبيعية لبعض أعمالهم وأن من أعمالهم مالا يترتب عليه عقوبة تعد مصيبة وهو المعفو عنه أي الذي مضت سنة الله تعالى بأن يعفى ويمحى أثره من النفس فلا تترتب عليه الاعمال وهو بعض اللمم والهفو الذي لا يتكرر ولا يصير ملكة وعادة · وقد عبر عنه في الآية التي هي الاصل والقاعدة في بيان هذه السنة بقوله « و يعفو عن كثير » ويؤيد ذلك قوله تعالى (٦ : ٧١ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) أي بجميع ما كسبوا فان « ما » من الكلمات التي تفيد العموم · وقد بينا هذه السنة الالهية في مواضع كثيرة من التفسير وجرينا على انها عامة في عقوبات الدنيا والآخرة فجميعها آثار طبيعية للاعمال السيئة ، وقد اهتدى الى هذه السنة بعض حكماء الغرب في هذا العصر

اما قوله تعالى ﴿ ولقد عفا الله عنكم ﴾ فالعفو فيه غير العفو في آية الشورى · ذلك عفو عام وهذا عفو خاص ، ذلك عفو يراد به أن من سنة الله في فطرة البشر أن تكون بعض هفواتهم وذنوبهم غير مفضية الى العقوبة بالمصائب في الدنيا والعذاب في

الآخرة وهذا العفو خاص بالمؤمنين يراد به ان ذنبهم يوم أحد الذي كان من شأنه ان يعاقب عليه في الدنيا والآخرة قد كانت عقوبته الدنيوية تربية وتمحيصا وعفا الله عن العقوبة عليه في الآخرة ولذلك قال ﴿ والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ اي فضل خاص لا يشاركهم فيه غيرهم وهو عناية بهم وتوفيقهم للاستفادة مما وقع منهم وإثابتهم الغم الذي دفعهم الى التوبة حتى تمحص ما في قلوبهم واستحقوا العفو عن ذنوبهم

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متاخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ أسئلة من روسيا ﴾

(س ١٢ — ١٦) من الشيخ محمد نجيب التونتاري المدرس

سيدي الفاضل اعرض على حضرتكم ما يأتي بيانه لمحض الاستفسار والاستنباء وان كان في صورة الانتقاد وهو : اني قرأت في الجزء الثالث من المجلد العاشر من مجلة المنار الغراء في قسم التفسير عند قوله تعالى « ويطعمون الطعام » الآية حديثا طويلا مرويا عن ابن عباس رضى الله عنهما وقد رأيت في (نوادر الاصول في معرفة أخبار الرسول) للحكيم أبي عبدالله محمد بن علي الترمذي رحمه الله انه عد هذا الحديث من المنكرات حيث قال في الاصل الرابع والاربعين فيما يعدونه صدق الحديث بعد ما ساق الحديث الى آخره : هذا حديث مزوق قد تطرف فيه صاحبه حتى يشبه على المستمعين والجاهل يعض على شفتيه تلهفا الا يكون بهذه الصفة ولا يدري ان صاحب هذا الفعل مذموم قال الله عز وجل في تنزيله الكريم « ويسألونك

ماذا ينفقون قل العفو» وهو الذي يفضل عن نفسك وعيالك قال صلى الله عليه وسلم «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول » واقترض الله على الازواج النفقة لاهاليهم وأولادهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كفى بالمرء إثما ان يضيع بما يقوت» أفيحسب عاقل أن عليا رضي الله عنه جهل هذا لامر حتى اجهد صبيانا صغارا من ابناء خمس او ست على جوع ثلاثة أيام ولياليها حتى تضوروا من الجوع وغارت العيون بخلاء أجوافهم حتى أبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم مابه من الجهد ؟ هب انه أثر في نفسه هذا السائل فهل كان يجوز له ان يحمل على اطفاله جوع ثلاثة أيام بلياليهن ؟ هذا ما ذكره الحكيم الترمذي في وجه التنكير الا ان المتدبر لو تدبر في احوال هؤلاء الكرام لا يستبعد وقوع هذا الحال منهم ولذا لم يتبين لي وجهه والمأمول من الاستاذ ايضاح ذلك حتى ترتفع الشبهة .

٢ الفونغراف — وقد رأيت أيضا في هذا الجزء في قسم الفتاوي سؤالا يتعلق بالفونوغراف فخطرت لي عند ذلك مسائل اخرى تتعلق به وهي هل يجب السجدة على من سمع آية السجدة منه ؟ وان شخصا لو شهد بواسطة الفونغراف أو أودع الوصية فيه هل تقبل شهادته وتنفذ وصيته ام لا ؟ واني أظن ان السجدة تجب على السامع اذ هو كالاستماع عن انسان وانما الفونغراف آلة للاستماع فقط وكذا الشهادة والوصية ينبغي ان تكون صحيحة نافذة مهما ميز صوتها فان الاصوات متمايزة في التليفون والفونغراف حتى اننا لو سمعنا صوتا معروفا لنا من قبل نقول انه صوت فلان ولا نشتبه فيه فيكون ذلك في حكم الاستماع عن نفس القائل والله اعلم .

٣ التجارة بالجلود — ان اخواننا المسلمين في سبريا الروسية غالبهم يتجرون بالجلود وفيها جلود ميتة غير مدبوغة وجلود غير مذكاة وانهم يسألون عنها ويستفتون ماحكمها الشرعي ور بما تكون المعاملة بين المسلمين بالطائفة القرغزية فما حكم ذلك شرعا؟ هل تكون فيها توسعة ان قلنا ان دارنا دار حرب ومذهبنا يوسع فيها في عدة مسائل كمسئلة الربا مثلا؟ هذه المعاملة مما تعم به البلوى في تلك الاقطار والمرجو من الاستاذ حل هذه المسئلة بحيث يخرجها عن الشبهة ولا يوقع حرجا ان شاء الله تعالى

٤ الامامة — ان رجلا قطعت احدى رجليه من فوق الكعب وله قدم صناعية

وكان امامافي بلدةمنذ سنين والآن وقع خلاف بين علمائنا في صحة امامته فمن قائل انها لاتجوز والاكثر على الجواز ونحن لم نر فى الكتب التي بأيدينا أن صحة القدم من شرط الامامة ولذا لا أرى بأسا في إمامته متى وجد سائر الشروط المهمة وأرجو من الاستاذ بيان ذلك أيضا حتى يندفع الاختلاف بيننا

٥ النسخ — هل هو من اصول الدين بحيث لا يجوز الخلاف فيه ام هو مسئلة خلافية بين المسلمين كما ذكره الفاضل محمد توفيق في مقالة الناسخ والمنسوخ وهو يقول ان ابي بن كعب رضي الله عنه قال بعدمه اي بعدم نسخ القرآن بالقرآن واستشهدوا عليه بما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما معزوا الى البخاري الا اننا لم نر نقلا آخر سوى ماذكره عن أبيّ مايؤيد هذا القول وليس في هذا القول أيضا تصريح بعدم النسخ وانما يحتمله كما يحتمل غيره ولايقطع بالاحتمال مراد القائل ولم يذكر خلاف بين الصحابة رضي الله عنهم في هذه المسئلة ثم ان أبا مسلم رحمه الله الذي نسب صاحب المقالة هذا القول اليه هل يعتبر قوله بحيث نعده خلافا في المذهب فبعضنا يقول ان النسخ لاخلاف فيه بين اهل السنة وانما هو خلاف نشأ من الاعتزال ولكن لم يظهرلي وجه هذا القول أيضا فان النسخ ليس من مواد الخلاف بين السني والمعتزلي فيما اعلم والله اعلم. وذكر ابن امير الحاج في شرح التحرير خلافا في نسبة هذا القول الى ابي مسلم حيث قال حكى الرازي والآمدي وابن الحاجب انكاره وقوع النسخ مطلقا وقيل لم ينكر وقوعه وانما سماه تخصيصا فعلى هذا يصير النزاع لفظيا والله أعلم. والمأمول من الاستاذ تفصيل هذه المسألة وتحقيقها كما وعد في ذيل تلك المقالة وكما تفضل بالاجوبة الشافية في المسائل السابقة

العبد المستفيد من علمكم الوافى

محمد نجيب ابن الاستاذ شمس الدين محمد الحاج المرصع التوتاري

الجواب عن أثر علي وآله عليهم السلام

إننا قد ذكرنا ذلك الأثر في الإيثار لاجل العبرة به وقد أشرنا الى ضعف الرواية بقولنا « ويروى » ولم نثبته في تفسير الآية بل وعدنا بذكره في تفسير

سورة الانسان ان أنسأ الله لنا في العمر وعند ذلك نذكر مكان الرواية والمسألة. وما قاله الحكيم الترمذي بعضه وجيه مقبول، و بعضه منتقد مردود، والإيثار مرتبة وراء مرتبة تقديم الانسان نفسه على من تجب نفقتهم عليه من أهل و ولد، وتقديم هؤلاء على غيرهم وقد ورد في الصحاح ان كبار الصحابة آثروا على أنفسهم وأولادهم مع الفقر وشدة الحاجة فكان ذلك سبب ثناء الله عليهم بقوله (٩:٥٩ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)وقد حررنا هذا المبحث في المجلد الثاني من المنار (راجع ص ١١ و ١٧ منه) ولا يبعد ان يقصد علي وفاطمة تربيـة ولدهما على الإيثار ان صح الاثر من طريق الرواية بنصها او مبالغة فيها ولا حاجة الى التطويل في ذلك فالخطب فيه سهل

الجواب عن مسائل الفونغراف

انما شرع السجود عند تلاوة أو سماع الآيات المخصوصة الآمرة بالسجود او المرغبة فيه لإظهار الخضوع والامتثال ومن سمع القرآن من الفونغراف صدق عليه انه سمع القرآن فالظاهر انه يشرع له السجود عند سماع آية السجدة منه. وإنما عبرنا بيشرع دون يجب لانا نرى أن السجود مستحب لا واجب كما تدل على ذلك الاحاديث الصحيحة وعليه الشافعية

واما الشهادة والإقرار والوصية وسائر المعاملات الدنيوية فالعبرة في ثبوتها أن تكون بحيث يوثق بصدورها ممن صدرت عنه ويؤمن من التزوير فيها لأنها ليست من المسائل التعبدية التي يوقف فيها عند نص الكتاب وما مضت به السنة بلا زيادة ولا نقصان فاذا وثق القاضي بشهادة الفونغراف مثلا كانت بينة شرعية صحيحة لان البينة كل ما تبين به الحق كما حققه ابن القيم وذكرناه في المنار من قبل

الجواب عن مسألة جلود الميتة

روى أحمد والشيخان واصحاب السنن الثلاثة من حديث ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال في الشاة الميتة « هلا انتفعتم بجلدها » وهذا اللفظ للبخاري وفي رواية أخرى له «هلاّ استمتعتم باهابها » والاهاب ككتاب الجلد او مالم يدبغ منه كما في القاموس . ولفظ احمد ومسلم وغيرهما « هلا أخذتم اهابها فدبغتموه فانتفعتم

به » فقالوا انها ميتة فقال « انما حرم اكلها » وذكر الدباغ بيان لطريق الانتفاع وليس فيه حصر وفي لفظ لاحمد : ان داجنا لميمونة ماتت فقال رسول الله (ص) « ألا انتفعتم باهابها ألا دبغتموه فانه ذكاته » اي ان الدباغ مطهر كالذكاة. ولا ينافي هذا جواز الانتفاع بالإهاب غير المدبوغ كما تدل عليه الرواية المطلقة . وروى مالك وابو داود والنسائي وابن حبان من حديث ميمونة ان رسول الله (ص) مر به رجال يجزون شاة لهم مثل الحمار فقال « لو أخذتم اهابها » فقالوا انها ميتة فقال « يطهرها الماء والقرظ » صححه ابن السكن والحافظ . ولعل هؤلاء لوا كتفوا بأمره اياهم باخذ اهاب الميتة والانتفاع به لكفاهم ولم يذكر لهم غيره وحسبك بعبارة الحصر في قوله « انما حرم اكلها » اي لا الانتفاع بها . وحديث « لا تنتفعوا من الميتة باهاب ولا عصب » قد أعلّ بالاضطراب والارسال فلا يعارض هذه الاحاديث الصحيحة ولا ينسخها. ولا يعارضها ماورد في النهي عن شحوم الميتة فانها مما يؤ كل فسدت الذريعة اليه . وامثل ماقيل في النهي عن استعمال جلود السباع انها مدعاة القسوة والكبر

هذا وان المراد بالتنزه عن النجاسة هو ان يكون المؤمن طاهرا نظيفا بعيدا عن الاقذار وما فيها من المهانة والمضار ولذلك كان الدباغ مطهرا لانه يزيل العفونة والرطوبة التي ينتن بها الجلد فكل مايزيل ذلك فهو دباغ مطهر والذين يشترون جلود الميتة لا يتركونها بغير دباغ ولا معالجة حتى تفسد عليهم بل يعالجونها حتي ينتفعوا بها فالذي أراه وأعتقده ان التجارة بهذه الجلود جائز شرعا لا إثم فيه ولا حرج. واذا باعها المسلم من غير المسلمين كان لجواز البيع وجه آخر عند الذين يقولون ان المخالفين لا يكلفون العمل بفروع الشريعة وعليه الحنفية. ووراء هذا كله ما أشار اليه السائل من ان التزام العقود الصحيحة في المعاملات انما يجب في دار الاسلام الا ان يقال ان في النهي عن بيع النجس معنى غير كونه عقدا فاسدا . والعمدة في المسألة ماذكرناه أولا والله أعلم بالصواب

الجواب عن مسئلة الامامة

الظاهر من السؤال ان الامام المسئول عن امامته يأتي باعمال الصلاة كلها تامة

وحينئذ يكون موضع الوقفة في صحة إمامته كون احدى رجليه من الخشب وهذا لا يصلح مانعا من صحة الامامة وقد ثبت في صحاح الاخبار والآثار اقتداء الناس بالامام يصلي جالسا للمرض واختلف العلماء فيمن يقتدون به فقال بعضهم يصلون قاعدين مثله وادعى ابن حزم إجماع الصحابة والتابعين على هذا وقال بعضهم يصلون قائمين وفصل بعضهم في ذلك . والاصل ان كل من صحت صلاته صحت امامته . ومن استثنى من هذه القاعدة بعض من تصح صلاته للضرورة ولا تصح إمامته كالذي لا يحسن الفاتحة لم يستثنى من ذهب احد اعضائه فاتخذ له بدلا من معدن او خشب لهذا لا أرى وجها للخلاف في صحة إمامة الامام المسئول عنه

الجواب عن مسألة النسخ بالاجمال

لا أتذكر انني رأيت في الحديث ذكر النسخ والاصل عندهم في هذه المسألة قوله تعالى (٢ : ١٠٠ ماننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها أومثلها) والآية في اللغة العلامة والعبرة . وقالوا قد سميت الطائفة المخصوصة من القرآن آية لانها علامة يفضى منها الى غيرها : او لانها علامة دالة على الحق ، والنسخ في اصل اللغة نقل كتاب عن كتاب وجعل الزمخشري في الاساس قولهم : نسخت الشمس الظل من المجاز والمعنى في كل منهما التحويل الا ان الاول تحويل لمثل الشيء والثاني تحويل لعينه . وورد اللفظ بمعنى الازالة والتغيير كقولهم نسخ الشيب الشباب ونسخت الريح آثار الديار

وقد ورد ذكر النسخ في كلام السلف وائمة الفقه واصطلح علماء الاصول على تعريفه المشهور وهذا في كلام السلف اعم من ذلك فالنسخ في الجملة متفق عليه ولكن وقع الخلاف في تفسيره وفي جزئياته والآية ليست نصا في قول أحد من المختلفين ولا حديث يحتج به في تفسيرها ولا في نسخ شيء من القرآن وانما مدار البحث والاجتهاد فيها على تعارض النصوص و المروي من الآثار وفيه جرت المناظرة بين الدكتور محمد توفيق افندي صدقي والشيخ صالح اليافعي فعند ماتنتهي المناظرة يكون لنا كلمة أخيرة في المسألة وقد كنا بدأنا بكتابة مفصلة ثم جاءنا الرد الآتي من الدكتور صدقي فأمسكنا عن اتمام ما شرعنا فيه

﴿ التعبير عن الملائكة والجن بالقوى ومعرفة حقيقتهم ﴾

(س ١٧) ورد هذا السؤال على الاستاذ الامام من صاحب الامضاء في ٦ يونيه سنة ١٩٠٥ فبعث به الاستاذ الى صاحب هذه المجلة ليجيب عنه في المنار كما كان يفعل أحيانا في امثال هــذه المسائل ،قد كان ضاع بين الاوراق ثم عثرت عليه في هذه الأيام وهذا نصه :

فضيلتلو سيدي الاستاذ الحكيم

بكل أدب واحترام لائقين لهذا المقام أتقدم لابلغكم أوفر التحيات وأزكى السلامات والشكر على خدماتكم الدينية وقيامكم بتأدية الحقوق العلمية وتقوية السلطة الدينية الاسلامية أدامكم الله ركنا منيعا للوراثة المحمدية . و بعد فياحضرة الاستاذ لما بيني و بينكم من المودة الايمانية أحب مطالعة أقوالكم لأستعين بها على نزع ما اعتراني من البدع والخرافات الباطلة ولله الحمد فقد رأيت الفائدة فلله الشكرولكم والله أسأل ان يطيل حياتكم ويكثر من أمثالكم

استاذي بينما كنت انظر في نفيس تفسيركم لسورة قل اعوذ برب الناس اذ وجدت ما يأتي . حضرتكم قلتم « قد وصف الله الوسواس الخناس بقوله : الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس» وقلتم «من الجنة والناس بيان للذي يوسوس او بيان للوسواس الخناس فالموسوسون قسمان قسم الجنة وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم ولكن نجد في أنفسنا أثرا ينسب اليهم ولكل واحد من الناس شيطان وهي قوة نازعة الى الشر » الخ

فبينتم حضرتكم بان الجن خلق مستترون لانعرفهم فهل المراد لانعرف كافة احوالهم من ابتداء نشأتهم مع كون القرآن مصرحا بانهم خلقوا من مارج من نار في آيات كثيرة والحديث مصرحا بان الشيطان يسري في جسم الانسان مسرى الدم كما كان يسري في الآلهة لمعبوديهم ونعرف ايضا ان النبي بعث لهم وكلفهم بالرسالة فنهم من آمن ومنهم من كفر فهذا كله يثبت لنا ان الجن موجودون بحقائق غير

حقائقنا وانهم يقدرون على التشكل بشكل ما . ثم حضرتكم قلتم « وانما نجد في أنفسنا أثرا ينسب اليهم » فهل ينسب اليهم حقيقة او مجازا مع كونكم جعلتم هذا الأثر للشيطان الذي قلتم عنه بانه « قوة من جملة القوى الانسانية » فكأنه لا شيطان ولا ابليس وكأن هذه القوة هي التي أمرها الله بالسجود فتكبرت فلعنها الله وقالت « انظرني الى يوم يبعثون * فلأغوينهم اجمعين » وكأنها هي التي قال لها الله « وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الاموال والاولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان — اي القوة — الا غرورا » وكأنها هي التي بعث لها المصطفى يبلغها الرسالة وكأنها هي المذكورة في قوله (واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن) الخ قل (أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن) أي القوى وكأنها كانت تتلقى السمع لتبلغه لرئيسها فلما بعث النبي أرادت ان تتلقي السمع فأصيبت بشهاب قبس . وبكل احترام لمقامكم وعدم الاعتراض لاقوالكم اطلب الايضاح عن ذلك لان فكرتي متشتتة الآن مع بيان كيف حقيقة الجان وكيف كان خطاب المصطفى لهم لتأدية الرسالة وبيان ما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم من أنه اشفى المصروع وأخرج من جسده الجان مع ان الحكماء تنكر ذلك والظاهر للعقل هذا مع بيان التوسل بالنبي والصالحين في الدعاء ولكم الشكر

كاتبه ولدكم
محمود فهمي
باشمهندس ري مديرية الدقهلية

(ج) قول الاستاذ الامام رحمه الله في الجن « هم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم » هو الاصل عند المسلمين وكذا اهل الكتاب في هذا الباب . والمراد لا نعرف حقيقتهم لانهم من الخلق المغيب عنا . وما جاء في القرآن من خبر خلقهم وغير ذلك لا ينافي كوننا لا نعرف حقيقتهم وكذلك أخباره عن جميع عالم الغيب لا يقتضي اننا نعرف حقيقة ذلك العالم . والعلم بأن الجان خلق من المارج لا يفيدنا معرفة حقيقته بل ولا ظواهر صفاته ومميزاته كما ان خلق الانسان من طين لا يبين حقيقته ولا مميزاته . ومثل ذلك يقال في تكليفهم . وظاهر قوله تعالى في سورة الجن (٧٢ : ١ قل أوحي الي انه استمع نفر من الجن) الخ ان النبي صلى الله عليه وسلم لم

يرهم حين سمعوا منه القرآن فآمن بعضهم وكفر بعض . وقد روى البخاري ومسلم عن ابن عباس التصريح بذلك قال في تفسير الآية « ما قرأ رسول الله (ص) على الجن ولا رآهم » الخ ولكن روي عن ابن مسعود انه رآهم وقرأ عليهم وقال ابن تيمية ان ابن عباس علم ما دل عليه القرآن ولم يعلم ما علمه ابن مسعود وابو هريرة من إتيان الجن له الخ فحسبك من أمر تكليفهم ان حبر الامة ابن عباس كان يعتقد بحسب فهمه للقرآن ان النبي(ص) لم ير الجن وانما اوحى الله اليه انهم سمعوا منه القرآن ونزل عليه فيهم (٤٦ : ٢٩ واذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن) واذا صح حديث ابن مسعود وابي هريرة في رؤيته إياهم ومكالمتهم فذلك لا يدل على انهم صاروا من عالم الشهادة واننا صرنا نعرف حقيقتهم فان الله قد يطلع رسله على بعض غيبه وذلك خصوصية لهم كما قال في سورة الجن (٧٢ : ٢٦ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا ٢٧ الا من ارتضى من رسول) الخ

وكذلك حديث صفية عند الشيخين وغيرهما « ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » لا يدل على حقيقة الشيطان ولا يجعلها معروفة لنا والحديث تمثيلي لا حقيقة كقول الشاعر * جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي * وليس فيه « كما كان يسري في أعضاء الآلهة » كما قال السائل . وقد قال تعالى في الشيطان (٧ : ٢٧ انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) . وقوله انه صح ان النبي شفا المصروع واخرج من جسده الجان لا أدري من أين جاء به السائل على انه لا يدل على اننا نعرف حقيقة الجان

واما تعبيره عنهم بالقوى فقد كنا نقلناه عن الاستاذ الامام في تفسير سورة البقرة فانكره بعض الناس وان ورد مورد التأويل لمحاجة المنكرين لعالم الغيب فطلبنا منه ان يوضحه فأوضحه بكتابة بليغة زادها على تفسير آيات خلق آدم الذي نشرناه في المنار واننا نورد هنا ما كنا كتبناه هناك وما زاده عليه رحمه الله واحسن مثواه ونميز ما كتبه بوضعه بين أقواس هكذا ﴿ ﴾ وهاك ما هنالك

تقدم ان الملائكة خلق غيبي لا نعرف حقيقته وانما نؤمن به باخبار الله تعالى الذي نقف عنده ولا نزيد عليه وتقدم ان القرآن ناطق بأن الملائكة أصناف

لـكل صنف وظيفة وعمل ونقول الآن ان الهام الخير والوسوسة بالشر مما جاء في لسان صاحب الوحي (ص) وقد أسندا الى هذه العوالم الغيبية وخواطر الخير التي تسمى إلهاماً وخواطر الشر التي تسمى وسوسـة كل منها محله الروح فالملائكة والشياطين اذن أرواح تتصل بأرواح الناس فلا يصح ان نمثل الملائكة بالتماثيل الجثمانية المعروفة لنا « لأن هذه لو اتصلت بأرواحنا فانما تتصل بها من طرق اجسامنا ونحن لا نحس بشيء يتصل بأبداننا لا عند الوسوسة ولا عنـد الشعور بداعي الخير من النفس فاذن هي من عالم غير عالم الابدان قطعا » والواجب على المسلم في مثل الآية الايمان بمضمونها مع التفويض أو الحمل على انها حكاية تمثيل ثم الاعتبار بها بالنظر في الحكم التي سيقت لها القصة

وأقول : إسناد الوسوسة إلى الشياطين معروف في الـكتاب والسنة واما إسناد إلهام الحق والخير الى الملائكة فيؤخذ من خطاب الملائكة لمريم عليها السلام ومن حديث الشيخين في المحدَّثين وكون عمر منهم . والمحدثون الملهمون وحديث الترمذي والنسائي وابن حبان وهو « للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشياطين فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق واما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم انه من الله فليحمد الله على ذلك ومن وجد الاخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) قال الترمذي حسن غريب لا نعلمـه مرفوعا الا من حديث أبي الاحوص . والرواية ايعاد في الموضعين كما ان الآية من الثلاثي في الموضعين فما قالوه في التفرقة بين الوعد والايعاد اغلبي فيما يظهر والا فهو غير صحيح واللمة بالفتح الالمام والاصابة

(قال الاستاذ) وذهب بعض المفسرين مذهبا آخر في فهم معنى الملائكة وهو ان مجموع ماورد في الملائكة من كونهم موكلين بالاعمال من إنماء نبات وخلقة حيوان وحفظ انسان وغير ذلك فيه ايماء الى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة وهو ان هذا النمو في النبات لم يكن الا بروح خاص نفحه الله في البـذرة فـكانت به هـذه الحياة النباتية المخصوصة وكذلك يقال في الحيوان والانسان فـكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في ايجاده فانما قوامه

بروح إلهي سمي في لسان الشرع ملكاً ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسمي هذه المعاني القوى الطبيعية ﴿ اذا كان لا يعرف من عالم الامكان الا ماهو طبيعة أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة ﴾ والامر الثابت الذي لا نزاع فيه هو أن في باطن الخلقة أمرا هو مناطها و به قوامها ونظامها لا يمكن لعاقل أن ينكره وان أنكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكا وزعم انه لا دليل على وجود الملائكة أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعية أو ناموسا طبيعيا لان هذه الاسماء لم ترد في الشرع فالحقيقة واحدة والعاقل من لا تحجبه الاسماء عن المسميات ﴿ وان كان المؤمن بالغيب يرى للارواح وجودا لا يدرك كنهه ، والذي لا يؤمن بالغيب يقول لا أعرف الروح ولكن أعرف قوة لا أفهم حقيقتها ، ولا يعلم الا الله على م يختلف الناس وكل يقر بوجود شيء غير ما يرى ويحس و يعترف بأنه لا يفهمه حق الفهم ولا يصل بعقله الى إدراك كنهه وماذا على هذا الذي يزعم انه لا يؤمن بالغيب وقد اعترف بما غيّب عنه لو قال أصدق بغيب أعرف أثره ، وان كنت لا أقدره قدره ، فيتفق مع المؤمنين بالغيب ويفهم بذلك ما يرد على لسان صاحب الوحي ويحظى بما يحظى به المؤمنون ﴾

يشعر كل من فكر في نفسه ، ووازن بين خواطره عند ما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو للشر ، بأن في نفسه تنازعا كأن الامر قد عرض فيها على مجلس شورى فهذا يورد وذاك يدفع ، وواحد يقول افعل وآخر يقول لا تفعل حتى ينتصر أحد الطرفين ، ويترجح أحد الخاطرين ، فهذا الشيء الذي أودع في أنفسنا ونسميه قوة وفكرا وهو في الحقيقة معنى لا يدرك كنهه وروح لا تكتنه حقيقتها — لا يبعد ان يسميه الله تعالى ملكا ويسمي أسبابه ملائكة أو ما شاء من الاسماء فان التسمية لا حجر فيها على الناس فكيف يحجر فيها على صاحب الارادة المطلقة والسلطان النافذ والعلم الواسع ! ؟

وأقول ان الامام الغزالي سبق الى بيان هذا المعنى وعبر عنه بالسبب وقال انه سمي ملكا فانه بعد ما قسم الخواطر الى محمود ومذموم قال « ثم انك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ثم ان كل حادث فلا بد له من محدث ومهما اختلفت

الحوادث دل ذلك على اختلاف الاسباب . هذا ماعرف من سنة الله تعالى في ترتيب المسببات على الاسباب فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار وأظلم سقفه بالدخان علمت ان سبب السواد غير سبب الاستنارة . وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان فسبب الخاطر الداعي الى الخير يسمى ملكا وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطانا واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول الهام الخير يسمى توفيقا والذي يتهيأ به لقبول الشر يسمى اغواء وخذلانا فإن المعاني المختلفة تحتاج الى اسامي مختلفة » اه المراد منه فليراجع في كتاب شرح عجائب القلب من الاحياء

ثم قال الاستاذ الامام مامعناه: فاذا صح الجري على هذا التفسير فلا يستبعد ان تكون الاشارة في الآية الى ان الله تعالى لما خلق الارض دبرها بما شاء من القوى الروحانية التي بها قوامها ونظامها وجعل كل صنف من القوى مخصوصا بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه ﴿ ولا يتعدى ماحدد له من الاثر الذي خص به ﴾ خلق بعد ذلك الانسان وأعطاه قوة يكون بها مستعدا للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها في عمارة الأرض وعبر عن تسخير هذه القوى له بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع والتسخير وجعله بهذا الاستعداد الذي لاحدَّ له والتصرف الذي لم يعط لغيره خليفة الله في أرضه لانه أكمل الموجودات في هذه الأرض واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبر عنها بإبليس وهي القوة التي ﴿ لزَّها الله بهذا العالم لزًا وهي التي تميل بالمستعد للكمال أو الكامل الى النقص وتعارض مدّ الوجود لترده الى العدم أو تقطع سبيل البقاء ، وتعود بالموجود الى الفناء ، أو التي ﴾ تعارض في اتباع الحق وتصدّ عن عمل الخير وتنازع الانسان في صرف قواه الى المنافع والمصالح التي تتم بها خلافته فيصل الى مراتب الكمال الوجودي التي خلق مستعدا للوصول اليها ﴿ تلك القوة التي ضلت آثارها قوما فزعموا ان في العالم إلها يسمى إله الشر وما هي بإله ولكنها محنة إله لا يعلم اسرار حكمته الاَّ هو ﴾

(قال الاستاذ الامام) ولو ان نفسا مالت الى قبول هذا التأويل لم تجد في الدين ما يمنعها من ذلك والعمدة على اطمئنان القلب وركون النفس الى ماأبصرت من الحق ﴿ ولست أحيط علما بما فعلت العادة والتقاليد في أنفس بعض من

يظنون انهم من المتشددين في الدين اذ ينفرون من هذه المعاني كما ينفر المرضى أو المخدَجون من جيد الاطعمة التي لا تضرّهم وقد يتوقف عليها قوام بنيتهم ويتشبثون بأوهام مألوفة لهم تشبث أولئك المرضى أو المخدَجون بأضر طعام يفسد الاجسام ويزيد السقام . لا أعرف ما الذي فهموه من لفظ روح أو ملك وما الذي يتخيلونه من مفهوم لفظ قوة ! أليس الروح في الآدمي مثلا هو الذي تظهر آثاره في أفراد هذا النوع بالعقل والحس والوجدان والارادة والعمل واذا سلبوه سلبوا ما يسمى بالحياة ؟ أو ليست القوة هي ما تصدر عنه الآثار فيمن وهبت له ؟ فاذا سمي الروح لظهور أثره قوة أو سميت القوة لخفاء حقيقتها روحا فهل يضر ذلك الدين ، أو ينقص معتقده شيئا من اليقين ؟

ألا لا يسمى الايمان ايمانا ، حتى يكون اذعانا ، ولا يكون كذلك حتى يستسلم الوجدان ، وتخشع الاركان ، لذلك السلطان الذي تعلق به الايمان ، ولا يكون كذلك حتى يلقي الوهم سلاحه ، ويبلغ العقل فلاحه ، وهل يستكمل ذلك لمن لا يفهم ما يمكن فهمه ، ولا يعلم ما يتيسر علمه ؟ كلا انما يعرف الحق أهله ، ولا يضل سبله ، ولا يعرف أهل الغفلة . لو ان مسكينا من عبدة الالفاظ من أشدهم ذكاء واذربهم لسانا أخذ بما قيل له ان الملائكة اجسام نورانية قابلة للتشكل . ثم تطلع عقله الى ان يفهم معنى نورانية الاجسام وهل النور وحده له قوام يكون به شخصا ممتازا بدون ان يقوم بجرم آخر كثيف ثم ينعكس عنه كذبالة المصباح أو سلك الكهرباء ومعنى قابلية التشكل وهل يمكن للشيء الواحد ان يتقلب في اشكال من الصور مختلفة حسبما يريد وكيف يكون ذلك ألا يقع في حيرة ؟ ولو سئل عما يعتقده من ذلك ألا يحدث في لسانه من العقد ما لا يستطيع حله ؟ أليس مثل هذه الحيرة يعد شكا ؟ نعم ليست هذه الحيرة حيرة من وقف دون ابواب الغيب يطرف لما يستطيع النظر اليه لكنها حيرة من أخذ بقول لا يفهمه ، وكلف نفسه علم ما لا يعلمه ، فلا يعد مثله ممن آمن بالملائكة ايمانا صحيحا واطمأنت بايمانه نفسه ، وأذعن له قلبه ، ولم يبق لوهمه سلاح ينازع به عقله كما هو شأن صاحب الايمان الصحيح . فليرجع هؤلاء الى انفسهم ليعلموا ان الذي وقر فيها تقاليد حفت بالمخاوف ، لا علوم حفت بالسكينة والطمأنينة . هؤلاء لم يشرق في نفوسهم ذلك

السر الذي يعبر عنه بالنور الآلهي والضياء الملكوتي واللألاء القدسي أو ما يماثل ذلك من العبارات . لم يسبق لنفسهم عهد بملاحظة جانب الحق، ولم تكتحل أعين بصائرهم بنظرة الى مطلع الجود على الخلق ، ولو علموا ان العالم بأسره فان في نفسه ، وان ليس في الكون باقٍ كان او يكون الا وجهه الكريم ، وان ما كثف من الكون وما لطف ، وما ظهر منه وما بطن ، إنما هو فيض من جوده ، ونسبة الى وجوده ، وليس الشريف منه الاما أعلى بذكره منزلته ، ولا الخسيس الا ما بيّن لنا بالنظر الى الاول نسبته ، فان كل مظهر من مظاهر الوجود في نفسه واقع موقعه ، ليس شيء أعلى ولا أحط منه ، فانه كان كذلك ولا بد ان يكون كما قدره ، لو عرفوا ذلك كله لأطلقوا لانفسهم ان تجول في تلك الشؤون حتى تصل الى مستقر الطمأنينة حيث لا ينازع العقل شيء من وساوس الوهم ، ولا تجد طائفا من الخوف ، ثم لا يتحرجون من إطلاق لفظ مكان لفظ

﴿ هذه القوى التي نرى اثارها في كل شيء يقع تحت حواسنا ، وقد خفيت حقائقها عنا ، ولم يصل أدق الباحثين في بحثه عنها الا الى آثار تجل اذا كشفت ، وتقل بل تضمحل اذا حجبت ، وهي التي يدور عليها كمال الوجود ، بها ينشأ الناشئ ، وبها ينتهي الى غايته الكامل ، كما لا يخفى على نبيه ولا خامل ، أليست أشعة من ضياء الحق ؟ أليست أجل مظهر من مظاهر سلطانه ؟ ألا تعد بنفسها من عالم الغيب ، وان كانت آثارها من عالم الشهادة ؟ الا يجوز ان يشعر الشاعر منها بضرب من الحياة والاختيار خاص بها ، لا يدرك كنهه لاحتجابه بما نتصوره من حياتنا واختيارنا ! ألا ترى ما توافي بأسرارها ، من ينظر في آثارها ، ويوفيها حق النظر في نظامها ، ليستكثر من الخير بما يقف عليه من شؤونها، ومعرفة الطريق الى استدرار منافعها ، أليس الوجود الإلهي الأعلى من عالم الغيب وآثاره في خلقه من عالم الشهادة ؟ أليس هو الذي وهب تلك القوى خواصها ، وقدر لها آثارها ؟ لِمَ لا تقول أيها الغافل انه بذلك وهبها حياتها الخاصة بها ؟ ولِمَ قصرت معنى الحياة على ماتراه فيك وفي حيوان مثلك ؟ مع انك لو سئلت عن هذا الذي تزعم انك فهمته وسميته حياة لم تستطع له تعريفا ، ولا لفعله تصريفا ، الاتقول كما قال الله و به نقول

(١٧ : ٤٤ تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن ، وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم)

﴿ أفلا تزعم ان لله ملائكة في الارض وملائكة في السماء! هل عرفت أين تسكن ملائكة الارض ؟ وهل حددت أمكنتها ورسمت مساكنها ؟ وهل عرفت أين يجلس من يكون منهم عن يمينك ومن يكون عن يسارك ؟ هل ترى اجسامهم النورانية تضيء لك في الظلام، أو تؤنسك اذا هجمت عليك الاوهام؟ فلو ركنت الى انها قوى أو أرواح منبثة فيما حولك وما بين يديك وما خلفك وان الله ذكرها لك بما كان يعرفها سلفك ، و بالعبارة التي تلقفتها عنهم كيلا يوحشك بما يدهشك ، وترك لك النظر فيما تطمئن اليه نفسك من وجوه تعرفها ، أفلا يكون ذلك أروح لنفسك ، وأدعى الى طمأنينة عقلك ؟ أفلا تكون قد أبصرت شيئا من وراء حجاب، ووقفت على سر من أسرار الكتاب، فان لم تجد في نفسك استعدادا لقبول أشعة هذه الحقائق وكنت ممن يؤمن بالغيب ويفوض في ادراك الحقيقة ويقول (آمنا به كل من عند ربنا) فلم ترمي طلاب العرفان بالريب ماداموا يصدقون بالكتاب الذي آمنت به ، ويؤمنون بالرسول الذي صدقت برسالته ، وهم في ايمانهم أعلى منك كعبا ، وارضى منك بربهم نفسا ؟ !

ألا ان مؤمنا لومالت نفسه الى فهم ما أنزل اليه من ربه على النحو الذي يطمئن اليه قلبه كما قلنا كان من دينه في ثقة ، ومن فضل ربه في سعة ، ﴾

ثم نقول في الآية ان ترتيب النظم يلتئم مع هذا التأويل الذي أورده الاستاذ الامام فان هذه المعاني التي وردت بصيغة الحكاية و برزت في صورة التمثيل جاءت عقيب قوله تعالى « هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا » و بقي شيء واحد لم يصرح به فيما مضى ولكنه يفهم منه وهو ان كل قوة من قوى هذه الأرض وكل ناموس من نواميس الطبيعة فيها خلق خاضعا للانسان وخلق الانسان مستعدا لتسخيره لمنفعته الا قوة الإغراء بالشر وناموس الوسوسة بالإغواء الذي يجذب الانسان دائما الى شر طباع الحيون ويعوقه عن بلوغ كماله الانساني فالظاهر من الآيات ان الانسان لا يغلب هذه القوة ويخضعها مهما ارتقى وكمل وقصارى

ما يصل اليه الكاملون هو الحذر من دسائس الوسوسة والسلامة من سوء عاقبتها بأن لا يكون لها سلطان على نفس الكامل تجعله مسخرا لها وتستعمله بالشرور كما قال تعالى (١٥: ٤٢ ان عبادي ليس لك عليهم سلطان) وقال عز وجل (٧: ٢٠١ ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) ﴿اما سلطان تلك القوة في الغناء وقطع حركة الوجود الى الصعود فلا يستطيع اخضاعه لقدرته من البشر كامل، ولا يقاوم نفوذه عامل، وانما ذلك لله وحده. وهذا حكمها في الكائنات، الى ان تبدل الارض غير الارض والسموات﴾ فنسأل الله ان يجعلنا من أهل التقوى والبصيرة وان يعيذنا من الشيطان الرجيم. اه ما كتبناه في تفسير سورة البقرة مع ما زاده عليه الاستاذ الامام بعد ذلك

باب المناظرة والمراسلة

﴿ كلمات في النسخ والتواتر وأخبار الآحاد والسنة ﴾

رد على الاستاذ الفاضل الشيخ صالح اليافعي (*)

أنا لا أريد أن أناقش أخانا الفاضل والعالم العامل الاستاذ الشيخ صالحا اليافعي في جميع ما كتبه رداً عليّ فان ذلك يؤدي إلى التطويل والتشويش وملل القارئين وسآمتهم وضياع أوقاتهم وربما خرجنا بالتطويل عن الغرض، وتركنا الجوهر وأكثرنا الكلام فى العرض، فلذا آثرت أن أذكره بكلمات قليلة فى الموضوع هي تبصرة للمفكرين. وعبرة للناقدين (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) وقبل البدء في هذه الكلمات أقدم له جزيل الشكر على غيرته على دينه وعلى ما أبداه من الادب العالي في جميع ما خطه قلمه وأسأل الله تعالى أن يكثر بين المسلمين من أمثاله. وهذه هي الكلمات — :

(الكلمة الاولى) — في تقرير بعض شبهات غير المسلمين على مسألة

(*) للدكتور محمد توفيق افندي صدقي

النسخ في القرآن — قالوا إن محمداً قد بلغ من الدهاء مبلغا بحيث صار يلعب بعقول أصحابه ويجعلهم يقبلون منه مالا يقبل من غيره فكان يأتيهم بالآية من قرآنه فاذا اتضح له فيها عيب أو سمع عليها انتقادا في مغزاها أو معناها أمر أصحابه بإسقاطها من القرآن بدعوى أنها نسخت · وبلغ به الامر انه إذا كان ما في الآية من الاحكام متفقا مع هوى الامة أو مصلحتها ولكن كان في انشائها شيء لم يرق له بعد إذاعتها أسرع بنسخ لفظها دون معناها خوفا من أن يوجد في العرب من يمكنه أن يعارضها في بلاغتها · وإذا أتاهم بحكم واتضح له بعد تجربته أنه لم يرض الناس أو انه لا ينفعهم أو قد يضر بمصلحتهم التجأ إلى حيلته المشهورة وهي دعوى النسخ في الاحكام وبذلك كثرت بين المسلمين الآيات المنسوخة لفظا وحكما أو لفظا فقط أو حكما فقط

(قالوا) ولا يدري أحد ما الحكمة في كل هذا التقلب والتلون سوى التخلص مما كان يقع فيه من الورطات والغلطات ولولا ذلك لما أمكنه التخلص منها · وقد ضاع بسبب ذلك مما أتى به من القرآن آيات كثيرة جاء ذكرها في أحاديث المسلمين وهي وان كان أكثرها مما فقد بسبب إهماله في المحافظة على قرآنه إلا أن المسلمين اعتذروا عن ذلك بدعوى النسخ وقالوا تحكما إنها جميعا مما نسخ لفظه وإن كان لا يمكنهم التعليل عن ذلك بعلة معقولة ، ولا يمكنهم الاتيان بحكمة لذلك مقبولة ، على أن أكثر الروايات التي ذكرت فيها هذه الآيات صريحة في أنها ضاعت من القرآن ولم يرد فيها ذكر للنسخ لا تصريحا ولا تلميحا · وما بقي من القرآن الآن بعد كل هذا التصحيح والتنقيح تجد شططا في كثير من أحكامه فضلا عما في عباراته من المتناقضات والاختلافات والمسائل الخاصة بمحمد وأهل بيته ولا فائدة منها لاحد سواه كالآيات الكثيرة من سورة الاحزاب والتحريم وكبعض آيات سورة الحجرات والمجادلة فاذا صح عند المسلمين نسخ ألفاظ الآيات التي أدت وظيفتها وانقضى زمنها فلماذا لم تنسخ ألفاظ أمثال هذه الآيات الواردة في حالات خاصة وفي وقائع خاصة وقد أدت وظيفتها وانقضى زمنها ؟ وما حكمة نسخ ألفاظ آية الرجم مثلا مع بقاء حكمها في شريعة المسلمين ؟

هذا شيء من شبهات القوم على مسألة النسخ في القرآن ، وقد قررناه هنا كما يقررونه في كتبهم الطاعنة في الاسلام، ومنه ترى أن اعتمادهم فيها إنما هو على روايات الآحاد التي يتمسك بها المسلمون وعلى ما اتفق عليه جمهورهم من تسليم مسألة النسخ والقول بها، وكان الاولى بعلمائهم الذين يقولون بالنسخ أن ينظروا في أمثال هذه الشبهات نظرة تحقيق وتدقيق، ويردوها بالبرهان إن كانوا قادرين، بدل أن يقوموا في وجهنا ويردوا مذهبنا في هذه المسائل بما هو في الحقيقة طعن في أصول الدين، وبمثابة تسليم سكاكين للخصم ليقطع بها منهم الوتين، فحسبنا الله ونعم الوكيل

أنا لا أقول ذلك ليأخذ المسلمون برأيي بلا برهان بل قدقدمت من البراهين مايقنع المنصفين، ويهدي المستهدين، وسأزيد الامر قوة فى الكلمات الاتية بما سيكون إن شاء الله نافعا للمومنين، هادما لجميع شبهات أعدائهم المخالفين

(الكلمة الثانية) — في بيان أسباب نشوء مذهب النسخ بين جمهور المسلمين وتواتره في جميع الازمنة ـ اعلم أن من أسباب ذكره في عصر الصحابة امور منها (١) كلامهم في نسخ الاحاديث والسنة فقد كانت الاحاديث والسنن تنسخ بأحاديث وسنن مثلها وتنسخ أيضاً بالقرآن الشريف فالكلام في النسخ قديم بين المسلمين ونشأ منذ نشوء الشريعة الاسلامية (٢) ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يستعملون لفظ النسخ في القرآن بمعنى أوسع مما جرى عليه المتأخرون فكانوا يريدون به تخصيص العام وتقييد المطلق وتبيين المجمل لان من معاني النسخ الرفع وفي كل ما تقدم رفع لدلالة العام والمطلق والمجمل فلذا تواتر بين المسلمين الكلام في نسخ القرآن كما تواتر بينهم الكلام في نسخ السنة والاحاديث. أما رفع حكم الآية مطلقا فقد دل الاستقراء على عدم وجود شيء منه في القرآن كما بيناه في المقالات السابقة ولم يرد نص قاطع عن الرسول بشيء من ذلك ولم يصرح به الكتاب العزيز وإن سلم ان بعض الصحابة قال به في بعض الآيات فهو مذهب له في فهمها ولسنا ملزمين بتقليد أي صحابي فيما فهم ولذلك خالف جميع المفسرين ابن عباس وهو أعلم الصحابة بالتفسير في كثير مما ذهب إليه فيه على أن أكثر الروايات المأثورة عن الصحابة في التفسير

موضوعة كما قال الامام احمد بن حنبل ونقله عنه السيوطي في الاتقان فلا يمكننا أن نعلم باليقين رأي الصحابة في أكثر الآيات التي يحصل فيها هذا الخلاف . على أنه قد نقل فيما صح عندهم من الروايات أن بعض الصحابة كان ينكر النسخ في الآيات بمعنى أن يبطل حكمها مطلقا أو أن تلغى فلا تتلى ولا يعمل بها كأبيّ بن كعب فانه رضي الله عنه كان يقول : إني لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يريد بذلك أنه لا يترك آية ما بدعوى أنها منسوخة كما رواه البخاري في صحيحه فالنسخ وإن انكرناه بمعناه عند الخلف فنحن لا ننكره ببعض معانيه كما عند السلف ولا نرى عيبا في تسميتهم التخصيص والتقييد والتبيين نسخا . فان كان هناك اختلاف مّا بين مثل أبي مسلم الاصفهاني أحد منكري النسخ وبين الصحابة فهو خلاف لفظي لا حقيقي كما لا يخفى

فمسألة النسخ هذه اختلف فيها المسلمون من عدة وجوه (١) في معانيها (٢) في الآيات المنسوخة وقد أنكر الامام الشوكاني وغيره النسخ إلا في بضع آيات وانكره غيرهم في جميعها بمعناه عند المتأخرين كما هو مذهبنا (٣) في جواز نسخ القرآن بالسنة وأنكره الامام الشافعي رضي الله عنه . فأنا بما قلته في هذه المسألة لم أكن بدعا من المسلمين في شيء فان المسألة فيها خلاف من عدة وجوه من العصر الاول الى اليوم وأكثر مافيها من الخلاف هو في الحقيقة لفظي وان كان لتقريرها على الوجه الذي ذهبنا اليه فيما كتبناه سابقا تندك دعائم شبهات المخالفين لنا في الدين وتسقط حجتهم

أما الروايات التي تفيد نسخ لفظ القرآن أو ضياع شيء منه فقد أنكرها كثير من محققي أئمة المسلمين سلفا وخلفا وأظهر بعضهم ان أكثرها من وضع الملاحدة لتشكيك المؤمنين . وهي تنافي النصوص المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الصادق الأمين (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون — واتل ماأوحى اليك من كتاب ربك لامبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا) وهي لاتتفق مع ما علم بالتواتر من عناية المسلمين بكتابهم حفظا وكتابة من عهد الرسول الى اليوم فهي ان لم تكن موضوعة من أعداء الاسلام المنافقين لغش المسلمين وتشكيكهم في دينهم فلا يبعد أن يكون الواضع لها من بعض الفرق الاسلامية لتأييد مذهب لهم في مسألة

ما أو إثبات دعوى باطلة لايجدون لها سندا من الكتاب المتواتر فيختلقون الروايات ويدعون أنها كانت قرآنا ونسخ وقد انطلت حيلتهم هذه على بسطاء المحدثين كما انطلت عليهم في مسائل أخرى كثيرة يقف عليها من مارس علم الحديث فاخترعوا من الاحاديث مايؤيد مذاهبهم ومزاعمهم. وقد يكون منشأ بعضها خطأ الراوي وعدم فهمه حقيقة بعض المسائل فيظن ان كل ماأوحي إلى النبي ولا يجده الآن في القرآن كان قرآنا ونسخ كحديث (بلغوا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضيناعنه) فوقع بسبب ذلك في الغلط رواية ودراية ولو علم ان من الوحي ماليس بقرآن مطلقا لماسماه قرآنا

واني لاعجب من قبول بعض المسلمين ذلك منهم واستشهادهم على نسخ اللفظ بآية (سنقرئك فلا تنسى الا ماشاء الله) مع ان مثل هذا الاستثناء قد ورد — كما قرره الاستاذ الامام — في القرآن لتأييد النفي ولبيان أن لاشيء في هذا الوجود يستعصي على مشيئة الله فكأنه يقول انك لاتنسى أبدا الا ان قضى الله بذلك فلا راد لقضائه ولكنه تعالى لايقضي به كما وعد بذلك في مثل الآيتين السابقتين. وقد ورد مثل هذه المعنى في آيات كثيرة في القرآن الشريف كقوله تعالى (خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك) مع قوله (خالدين فيها أبدا) (وما هم منها بمخرجين) وغيره كثير (لها بقية)

كلمات للمنار

جاءتنا هذه الرسالة من صاحب التوقيع، وهو أحد الاشراف المخلصين في جاوى، وقد سألنا نشرها، فأجبنا سؤله مع الشكر له، لانها بمثابة رد على الصادفين عن الحق بلا برهان ولا دليل، بل بمحض التمحل والتأويل، قال:

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها المنار حياك الله وبياك، لقد أوضحت السبيل، و بينت الدليل، وشفيت الغليل، ونحن اليك بالاشواق، السلام عليك ورحمة الله و بركاته، من قوم نظروا اليك بعين الانصاف، فشاهدوا بها ماحزت من محامد الأوصاف، فأبصارهم الى

طلعتك مشتاقة، و بصائرهم لماعودتهامن لذائذ الحكمة مفتاقه(كذا) ، ثبت الله دعائمك أيها المنهج القويم ، والقسطاس المستقيم ، لقد كشفت قناع الحقائق ، و بينت تباين الطرائق ، وشددت ازر الحق ، وشيدت مباني السنة ، وخربت مصانع البدع ، وجددت لهذه الامة دينها ، ودعوتها لتدرك يقينها ، فمنها من اتبعك ، ومنها من ضللك و بدّعك، هكذا سنة الله في المصلحين، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

أيها المنار أنت والله الحق الثابت في الكتاب وروده، والواضحة في سني السنة حدوده ، والمرفوعة عليها قواعده ، والموطدة على طوديها شواهده ، فلا يحزنك (وحاشاك) ما هذى به بعض حاسديك ، وما فاه به الاغبياء من راديك ، فقد وردت الينا ردودهم التي هي أوهن من بيت العنكبوت، واطلع عليها المستبصرون عندنا من طلاب الحق فأنشدوا بلسان واحد

ان العرانين تلقاها محسدة　　ولا ترى للئام الناس حسادا

وانقلبوا يتضاحكون من تلك الردود التي هي ليست بشيء ولا بعض شيء فلا تهدم حقا ، ولا تبني باطلا ، فما عليك ولا على الحق بأس من تلك الكلمات المزورة ، وهاتيك السطور المصورة ، فهي غاية ما قصر رأيهم عليه ، ومنتهى ما بلغوا من العلم اليه ، واننا لا ننكره اطلاع الناس عليها إذ ليست هي بمعقول ولا منقول، والحمد لله الذي لم يجعل بيان الحق بزخارف اللسان ، ولكن بالدليل والبرهان ، والاخذ بما في القرآن ، وأحاديث سيد ولد عدنان ،

أيها المنار لا تروعنك (وحاشاك) ثرثرة الجهلة والحسدة ، ولا تهمنك وانت الليث هماهم السفلة والقردة ، فتالله ما أوضح منار الحق لرائديه ، وما أرفع اعلامه لوارديه ، وما أحلى الرجوع اليه لدى طالبيه ، وما أدحضه لحجة محاربيه، هو الحق والله أجل من ان تخفض اعلامه ، أو تخفى احكامه ، أو تحلولك أيامه ، مافتئت والله مناهجه مسلوكه، وما انفكت نواقضه متروكة ، لدى حماة ذمار الشريعة ، وحراس حصونها المنيعة ، معاذ الله أن يستر شمس الحق ضباب الهذيان ، أو يخفي سنا مناره عنا حجاب البهتان ، بنفسي أفديك أيها المنار من ان يدنس طاهر ساحتك المدنسون ، أو يدلس في واضح أحكامك المدلسون ،

أيها المنار لك أسوة بالانبياء والمرسلين ، وفي جميع المصلحين ، فادأب فللحق طلاّب ، ولا تعبأ بفرقتين احداهما عمشت بصائرها عن رؤية الحق ، مذ عميت عليها انباء العلم ، فصارت اذا حدثتها بما صح سنده عن النبي صلى الله عليه وسلم شاغبت ، واذا حدثتك هي بما لاسند له عن بعض من تعظمهم طلبت منك الايمان بالمحالات ، فهذه جاهلة ملبّس عليها ، ثبت التقليد في قلبها

والثانية ثقلت عليها وطأة الحق اذ جاءها ، وطفقت تضلل من رام اهداءها ، وتذمرت من ورود حق المقال ، خوفا من انثلام اعتقاد أولئك الانذال ، وهـذه غير ملومة لانك جذذت عليها أصول الـكدية ، وسددت دونها سـبل الفرية ، وكسدت بضاعتها الرائجة التي طالما استنزفت بها الأموال ، وأضلت بها عقول الجهال ، وأنت بالرغم منها حولت لهزل جدا ، ومددت لها من الضيم بظهور الحق مدا ،

أيها المنار انني أعتقد كما يعتقد كل منصف ، وأدين الله تعالى بأنك أنت الحق الصراح الذي لا يتردد فيه عاقل ، ولا يرده الا متهور جاهل ، أو أحمق متجاهل ، فويلك آمن أيها الحائد عن السنن القويم ، والناظر الى المنار بعين السخط الذميم ، ولا تبار قوماً لا يشق لهم في المعارف غبار ، ولا يدرك لعباب علومهم قرار ، طالما ازاحو دياجير الجهل بشموس المعارف ، وازالو بقواطع الادلة هام المجادل المجازف ، فارجع البصر ، وانعم النظر ، في أجزاء المنار الماضية والقادمة ، تدرك هناك وصفك ووصفهم ، وجراءتك وخوفهم ، وانا ابتهل الى الله ان يميتني على ماضمه وشمله منار الحق ويبعثني عليه انه بالاجابة جدير والسلام

السيد محمد بن هاشم بن طاهر

بجاوا — المالاغ

ابو حامد الغزالي (*

٥

رأيه في حكمة التكليف ورد شبهات الباطنية عليه (١)

﴿ جواب المسائل الاربع التي سألها الباطنية بهمدان ﴾

(من الشيخ الاجل أبي حامد محمد بن محمد الغزالي رضي الله عنه)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلوات الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . سئل ما قول سيدنا الشيخ الامام الاجل ، حجة الاسلام ، شرف الشريعة ، مقتدى الفرق ، امام الائمة ، في هذه المسائل الاربع التي لبّس (بها) هؤلاء القوم الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، وموهوا بها استجلابا لقلوب الخلق ، وهي هذه

﴿ المسئلة الاولى ﴾ أليس أهل الاسلام متفقين على ان الباري جلّ ذكره غني عن كل شيء غير محتاج الى شيء مّا . ثم مع ذلك كلهم معترفون بانه كلف العباد العبادة وأقربها فكيف تراك نسيت بحجة العقل ان غنياً عن كل شيء يكلف من لا يحتاج اليه ان يعمل عملاً هو غني عنه ؟ بين لي كيف ذلك لعلي ان أكون من العالمين

﴿ المسئلة الثانية ﴾ ان الله تعالى كلف العباد الطاعة ونهاهم عن المعصية ليثيب من أطاع و يعاقب من عصى وهذا مستحيل جدا في العقول فأيّ حاجة به الى معاقبة خلقه حتى يدعوه ذلك الى ان يكلفهم أمرا اذا لم يأتوه عاقبهم عليه وان

*) تابع لما في الجزء ١٢ م ١٠ (١) عثر على هذه الرسالة في بعض المجموعات القديمة ببغداد عالم العراق السيد محمود شكري افندي الآلوسي فأرسلها الينا لننشرها في المنار فحمدنا سعيه ، وشكرنا فضله ، ونشرناها بنصها ، الا كلمات قليلة علمنا باليقين انها محرفة فرددناها الى أصلها ، و بقيت فيها وقفات تركناها على حالها

كان لا حاجة به الى ذلك فالقول مستحيل جدا لا توجبه حكمة وإن كان تعالى به الى ذلك حاجة فما يصنع بالتكليف وهو قادر على ان يثيب من يريد ويعاقب من يريد ؟ فالتكليف أيضا حشو لا توجبه حكمة والحاجة نقص وانه سبحانه وتعالى لا ينسب الى نقص وهو غني غير محتاج ،

﴿ المسئلة الثالثة ﴾ ان الله تعالى كلف العباد الطاعة لينفعهم بها أتراه جل ذكره عجز عن ان ينفعهم بغير التكليف حتى احتاج ان يكلفهم ثم ينفعهم ؟ ان كان غرضه نفعهم فالتكليف ساقط وهو حشو وان كان يعجز عن ذلك الا بالتكليف فالقدرة ساقطة والعجز ثابت وهو محال

﴿ المسئلة الرابعة ﴾ ان الله تعالى لايسئل عما يفعل وهم يسئلون ، وهذا باب تحير فيه العقول،هل يجوز ان يأمر حكيم بأمر يخرج عن الحكمة وينبو عنه العقل ثم يحظر على العاقل البحث عنه؟ أليس ذلك ضربا من الجور والظلم لانه جعل الحجة على هذا الخلق العقل وأمر أهله ونهاهم وخصّ غيرهم من البهائم على ما خلقوا عليه بالآلات التي خلقت لها وألهم العقل استعمالها بمثل اللجام الذي تروض الدابة به وغير ذلك من حبالات الصيد والحيل المعروفة التي يطول شرحها ؟ واذا كانت حجة العقل على المكلفين والمأمورين والمنهيين بأمره ثم يكلفون أمرا ويمنعون من الفحص عنه والتماس سبب يتصور به ما يكلفونه عندهم ويصح في معقولهم ، معلومهم الذي هو حجة عليهم أليس يكون ذلك ظلما صريحا ؟ ووجدنا المتحلين بالعلم من جميع الاصناف يقولون ان الله جلّ جلاله لا يقبل عملا الا على بصيرة فاذا منع العاقل من البحث والنظر أين يكون بصيرا وهل يرجى ان يوحى اليه ؟ هذا منكر من القول لا يعقل وما لا يعقل فليس بشيء . ووجدنا هذا الكتاب الناطق بين الخلق من الحق يخبر في موضع بآية « لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون » ويخبر في موضع آخر بانه يسئل ويقتضي الجواب في قوله تعالى « ونحشره يوم القيمة أعمى * قال ربِّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تُنسى » فأي سؤال أتم من هذا السؤال الذي اقتضى هذا الجواب ، وفي القول مثل هذا كثير والتناقض في مثل هذه الآيات ظاهر موجود اذا لم يعبر عنه

ببيان يقبله العقل . فهذه اعزك الله المسائل الاربع قد شرحت لك بعضها فلا بد من نول خامس تصح به التكليفات لان سقوطها أيضا لا يصح . أبن لي ذلك فاني أراك من المحسنين . الى هنا كلامهم فان رأى سيدنا ان يجيب عن هذا ويوضح هذه الاشكالات ويكشف عن هذه التلبيسات حاز به الاجر الجزيل والثواب الكثير ان شاء الله تعالى

* * *

أجاب وقال أما السؤال الاول وهو استبعاد التكليف مع الاستغناء وتوهم التناقض بينهما فمصدره الجهل بحقيقة التكليف فكأن السائل لم يسمع قوله تعالى « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها » وقوله « فلأنفسهم يمهدون » وقوله « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها » كأنه ظن ان تكليف الله تعالى عباده يضاهي تكليف الانسان عبده فان السيد يكلف عبده الاعمال التي يرتبط بها غرضه وما لاحظّ له فيه ولا يحتاج اليه فلا يكلفه به فكأن هذا السائل ثبت في وهمه قياس فاسد وهو تشبيه تكليف الله تعالى بتكليف عباده فجعل نفسه مثالا لله، تعالى الله وتقدس عن خياله ومثاله، والكشف عن حقيقة التكليف مما يطول ومن اقتبس حقائق العلوم عن رأيه السخيف، وعقله الضعيف، وقياسه الفاسد، كثر تعثره بالضلالات، بل ينبغي أن يطلب حقائق العلوم من أهله وهم العلماء الاقوياء القائمون بحقيقة المعقولات المطلعون على اسرار الشرع العارفون بشروط الادلة والبراهين المستبصرون بمداخل الغرور والتلبيس فيها . واذا كان شرح ذلك مما لا يسمح به عداوة؟ على مثل هذه الاسئلة الضعيفة الصادرة عن ضعف البصيرة فلا علاج للافهام الضعيفة انفع من ضرب الامثلة فلنقتصر على ضرب مثلين .

﴿ المثال الاول ﴾ تكليف الله عباده يجري مجرى (معالجة) الطبيب للمريض فانه اذا غلبت عليه الحرارة مرة يشرب المبردات والطبيب غني عن شربه لا يستضر بمخالفته ولا ينتفع بموافقته ولكن الضرر والنفع يرجع الى المريض وانما الطبيب هاد ومرشد فقط فان وفق المريض حتى وافق الطبيب شفي وتخلص وان لم يوفق تمادى به المرض وهلاك و بقاؤه وهلاكه عند الطبيب سيان فانه مستغن عن بقائه فكذلك خلق للعبادة الاخروية أسباباً تفضي اليها إفضاء الدواء الى الشفاء وهي الطاعات ونهي

النفس عن الهوى بالمجاهدة المزكية لها عن رذائل الاخلاق مشقيات في الآخرة ومهلكات كما ان رذائل الاخلاط ممرضات في الدنيا ومهلكات . والمعاصي بالاضافة الى حياة الآخرة كالسموم بالاضافة الى حياة الدنيا وللنفوس طب كما أن للاجساد طبا فالانبياء أطباء النفوس يرشدون الخلق الى طريق الفلاح لتمهيد طرق التزكية للقلوب كما قال تعالى « قد افلح من زكاها * وقد خاب من دساها » ثم كما يقال ان الطبيب أمر المريض بكذا ونهاه عن كذا وانه زاد مرضه لانه خالف الطبيب وانه صح لانه راعى قانون الطبيب ولم يقصر في الاحتماء و بالحقيقة لم يتمادمرض المريض بمخالفة الطبيب لعين المخالفة بل لانه سلك غير طريق الصحة التي أمره الطبيب بها فكذلك (مداواة) النفوس هي الاحتماء الذي ينفي عن القلوب أمراضها . وأمراض القلوب تفوت حياة الآخرة كما تفوت أمراض الاجساد حياة الدنيا

﴿ المثال الثاني ﴾ ان الملك من الآدميين قد يخص بعض خدمه وعبيده الغائب عن مجلسه بمال ومركوب ليتوجه الى مجلسه تارة لحظ الملك في استخدامه والاستعانة على نظام مملكته ومصالحه به وهذا القسم ونظيره في حق الله تعالى محال وتارة ليتوجه العبد الى مجلسه وينال رتبة القرب منه و يسعد بسببه مع استغناء الملك عن الاستعانة به وتصميمه العزم على ان لا يستخدمه أصلا ولكن ليقربه من نفسه لمجرد حظ العبد والزيادة في قربه . ثم العبد ان ضيع المركوب وانفق المال لا في الطريق الى السيد عد كافراً للنعمة وان ركب المركوب وانفق المال في الطريق متزودا به عد شاكرا للنعمة لا بمعنى أنه نال الملك حظا لنفسه ولكن اراد سعادة العبد فاذا وافق مراد السيد فيه كان شاكرا وان خالف عدت مخالفته كفرانا والله يستوي عنده كفر العباد وايمانهم بالاضافة الى جلاله واستغنائه ولكن لا يرضى لعباده الكفر فانه لا يصلح لعباده فانه يشقيهم كما لا يرضى الملك المستغني لعبده الغائب الشقاوة بالذل والفقر و يريد له السعادة بالقرب منه وهو غني عنه قرب منه أو بعد . فهكذا ينبغي أن يفهم أمر التكليف فان الطاعات أدوية والمعاصي سموم وتأثيرها في القلوب ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم كما لا يسعد بالصحة إلا من أتى بمزاج معتدل وكما يصح قول الطبيب المريض قد عرفتك ما يضرك وما ينفعك فان وافقتني فلنفسك

وإن خالفت فعليها فكذلك قول الله تعالى «من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها»

(وأما السؤال الثاني) فهو فرع من هذا السؤال فان قوله ان الله مستغن في اثابة عبده عن الطاعة وهو لم يتضرر بها يضاهي قول القائل ان الله مستغن في في انشاء الانسان عن الامر بالوقاع وفي انماء الطفل عن الرضاع وفي اشباعه عن الطعام وفي اروائه عن الشراب وفي تصحيحه عن الادوية فما باله عاقب بعقوبة الجوع من ترك الاكل وعاقب بالمرض من ترك الادوية وعاقب بموت الطفل من ترك رضاع ولده وهذا خيال من يظن ان الله تعالى يفعل ذلك غضبا وانتقاما ولم يدر ان لفظ الغضب والانتقام مستعار ومأوّل وانما غضب الله عبارة عن إرادته الايلام فكما ان الاسباب والمسببات يتأدى بعضها الى بعض في الدنيا بترتيب مسبب الاسباب فبعضها يفضي الى الايلام و بعضها الى اللذات ولا يعرف عواقبها الا الاطباء فكذلك نسبة الطاعات والمعاصي الى آلام الآخرة ولذاتها من غير فرق

وكذلك (السؤال الثالث) ينحل به فان الله تعالى لا يوصف بالعجز عن الاشباع من غير أكل والإرواء من غير شرب والانشاء من غير وقاع والإنماء من غير رضاع ولكنه قد رتب الاسباب والمسببات كذلك لسر وحكمة لا يعلمها الا الله عز وجل والراسخون في العلم وليس ذلك بعجب انما العجب في التعجب من هذا التدبير المحكم والنظام المتقن ولعمري من لا يهتدي الى سر الحكمة فيه يتعجب منه لقصور هدايته ومثاله في التعجب مثال الاعمى الذي دخل دارا فتعثر بالاواني الموضوعة في صحن الدار فقال لأهل الدار ما ارك عقولكم لماذا لا تردون هذه الاواني الى مواضعها ولم تركتموها على الطريق ؟ فقيل انها موضوعة في مواضعها وانما الخلل في فقد البصيرة (١) و بالجملة فمن لم يدرك الفرق بين التعجب و بين البرهان كثر خبطه وضلاله وليس في هذا الا تعجب محض وان الله تعالى لم رتب الاسباب ؟ ولو رتبها على وجه آخر لتصور أن يتعجب منه جاهل و يقول لم لم يفعل ضده وهذه التعجبات

(١) كذا في الاصل و يظهر ان ههنا سقطا وتصحيحه بحسب المعنى ان يقال وانما الخلل في فقد البصر وكذلك الخلل فيما ضرب له المثل في فقد البصيرة . والمثل مذكور في الاحياء ولا أجد سعة في الوقت لمراجعته

منبعها اوهام العوام ولا يلتفت المحصل اليها بل الى مقتضى البراهين

﴿ واما السؤال الرابع ﴾ ففي ايراده خبط وكأن السائل لم يقدر على ان يفصح عما في ضميره والذي يتحصل منه تعجبات اربع

(التعجب الاول) قوله كيف أمر بالشيء ومنع عن البحث عنه والبصيرة لا تحصل الا بالبحث ? وهذا تعجب فاسد فإن العمل يستدعي اعتقادا جازماً أو معرفة حقيقية والاعتقاد الجازم يحصل بالتقليد المجرد عن سبيل التصديق والايمان والمعرفة تحصل بالبرهان والوصول اليه بالبحث ولم يمنع عن البحث كل الخلق بل الضعفاء القاصرون عن الاطلاع على عويصات البراهين ومعاصات البحث وانما مثال ذلك امر الطبيب المريض (بالدواء) وامتناعه عن ذكر لعلة في كون الدواء نافعا ومنعه المريض عن الاشتغال بالبحث عنه لعلمه بانه يقصر عنه فهمه ولو اشتغل بالبحث عن علل الطب لشق عليه وعجز عنه وزاد المرض واستضر به فان وجد على الندرة مريضا ذكيا آنساً بمنهاج الطب وعلل الامراض لم يمنعه من البحث ولم يمتنع عن ذكر المناسبة بين الدواء و بين علته بل اذا علم انه ليس يكتفي بمجرد قوله وليس يصدق بمحض التقليد وتفرس فيه من الذكاء مايفهم به العلة وعلم انه اذافهم العلة والمناسبة اشتغل بالعلاج وان لم يفهم اعرض عن التقليد وجب عليه ذكر المناسبة والعلة ان كان يريد صلاحه ولم يمنعه عن البحث اذا علم اشتغاله له الا ان ذلك نادر في المرضى جدا والاكثرون يضعفون عن ذلك وكذلك معرفة العلل والاسرار والبحث عنها في الشرعيات من هذا القبيل ،

﴿ التعجب الثاني ﴾ وهو تسخير البهائم للانسان يضاهي تعجب الانسان ممن يمشي خطوات لينظر الى متنزهات و وجوه حسان فيقال كيف أتعب رجله وسخرها لاجل عينه والعين آلته كما أن الرجل آلته فما بال إحداهما جعلها خادمة واتعبها وجعل الاخرى مخدومة وطلب راحتها وهذا جهل بالاقدار والمراتب بل البصير يعلم ان الكامل يفدى بالناقص وان الناقص يتسخر لاجل الكامل وهو عين الحكمة واما قوله ان ذلك ظلم فهو جهل بحد الظلم ان الظلم هو التصرف في ملك الغير والله تعالى لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما فلا يتصور منه الظلم بل له

ان يفعل ما يشاء في ملكه ويكون عادلا (١)

﴿التعجب الثالث﴾ أن الشرع كيف يرد بما ينبو عنه العقل ؟ وهو فاسد لان قوله «ينبو عنه العقل» لفظ مشترك فان اراد به أن برهان العقل يدل على استحالته كخلق الله مثل نفسه والجمع بين المتضادين فهذا مما لا يرد به الشرع ولم يرد. وان اراد به ما يقصر العقل عن دركه ولا يستقل بالاحاطة بكنهه فهذا ليس بمحال بل مقصود بعثة الانبياء ارشاد الخلق الى ماتقصر عقولهم عنه فليس بمحال أن يكون في علم الاطباء مثلا جذب المغناطيس للحديد والمرأة الحامل لو مشت فوق حبة مخصوصة ألقت الجنين وغير ذلك من الخواص وهذا مما ينبو عنه العقل بمعنى انه لا يقف على حقيقته ولا يستقل بالاطلاع عليه ولا ينبو عنه بمعنى الحكم باستحالته وليس كل ما لا يدركه العقل محالا في نفسه بل لو لم نشاهد النار قط واحراقها فاخبرنا مخبر وقال اني احك حبة بحبة واستخرج من بينهما سناً احمر بمقدار عدسة تأكل هذه البلد وغيرها حتى لا يبقى فيها شيء من غير أن ينتقل ذلك الى جوفها ومن غير أن يزيد في حجمها بل تأكل البلد ثم تأكل نفسها فلا تبقى لا هي ولا البلد لكنا نقول هذا شيء ينبو عنه العقل ولا يقبله، وهذه صورة النار والحس قد صدق ذلك، فكذلك يستعمل الشرع على مثل هذه العجائب التي ليست مستحيلة وانما هي مستبعدة وفرق بين البعيد والمحال فان البعيد هو الذي ليس بمألوف والمحال مالا يتصور كونه ،

واما ﴿التعجب الرابع﴾ وهو انه لا يُسئل عما يفعل وهم يسئلون ثم سئل وقيل « لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » فمصدر هذا السؤال الجهل بكون « لفظ » السؤال مشتركا فان السؤل قد يطلق ويراد به الإلزام كما يقال ناظر فلان فلانا فتوجه عليه سؤاله (٢) وقد يطلق

---

(١) المنار: فسر الظلم هنا بما جرى عليه الاشعرية وفيه نظر ظاهر وقد بينا حقيقة الظلم وكونه محالا على الله تعالى في مواضع من التفسير والمنار (٢) هذا مايعبر عنه الآن بالمسوئلية وهي بمعنى التبعة والمؤاخذة فمعني كونه تعالى لا يسئل عما يفعل انه ليس لاحد سلطة فوق سلطته فيسأله عن فعله سؤال من يلقي عليه التبعة ويؤاخذه على ماعمل

ويراد به الاستخبار كما يقال سئل التلميذ والله تعالى لا يتوجه عليه السؤال بمعنى الإلزام وهو المعنى بقوله « لا يسئل عما يفعل » إذ لا يقال له: لم؟ قول إلزام فأما انه لا يستخبر ولا يستفهم فليس كذلك وهو المراد بقوله « لم حشرتني أعمى » وهذا القدر كاف في جواب هذه الاسئلة اه والذي أوصي به هذا السائل ان ينظر لنفسه ودينه ويتقي ربه ويطلب عالما مليا بعلم العقل والشرع ليهديه الى الطريق فان من ترقى عن مجرد التقليد بأدنى كياسة ولم ينته الى رتبة الاستعلاء كان من الهالكين فنعوذ بالله من فطانة نزالة وكياسة ضعيفة فان البلاء منه أولى إلى النجاة منها آمين

استحالة المادة

١

« للدكتور خليل سعادة »

كتبها عند إذاعة خبر هذا الاكتشاف

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزود

او مض من كعبة العلم نبأ خطير ، دوت له أرجاء العالم المتمدن اي دوي ، وعندي أنه اعظم اكتشافات البشر ، وأسمى مابلغت اليه مداركهم ، فلا يحسب بجانبه كشف العالم الجديد شيئا مذكورا ، وما بلوغ القطب الشمالي اليه سوى ألعوبة من ألاعيب الصبيان ، كيف لا وهو الامنية الكبرى التي طمحت اليها أبصار فلاسفة العصور ، والغاية القصوى التي اشرأبت اليها أعناق الحكماء في جميع الدهور ، : حلم رآه أسلافنا في ليل مدلهم بظلمات الاوهام ، فتجلى لنا نورا باهرا يبدد دياجي الجهل وينير بصائر الافهام ، بل قل هو الحق انزل على عيون مبصرة ، وآذان مصغية ، وقلوب واعية ، فزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا

نريد بهذه التوطئة الاكتشاف الحديث الخطير وهو استحالة المادة الواحدة البسيطة من عضو الى آخر كما تبين الآن في استحالة بخار الراديوم الى عنصر

الهليوم : اجل أماطت الطبيعة اخيرا نقاب الخفاء عن وجهها الوضاح ، ورفعت الحجاب بعد دلال ونفار ، طال اجله الوفا من السنين ، غادة وضاءة لا كالغادات تعشقها العالم فهام لاجلها في البيد والقفار ، وجرى وراءها الى قنن الجبال ولجج الابحار ، تقفى أثرها في الرمضاء اللاذعة تحرقه أشعة شمسها ، وفي الثلوج المترا كمة يلذعه قارس بردها ، سهدته قرونا طوالا وهو يرقبها طول ليله في السيارات والدراري وليل العاشقين طويل ، وتطلبها فى قطرات الماء ورشاشه يحدق فيها بمجهره وهي غزال نفور كالزئبق الفرار ، اذا دنت نأت ، وان قربت بعدت ، هي اشبه برهرهات الآل وسراب الظمآن ، لم تكشف القناع عن ثغرها البسام لحظة من الزمن ، تطلبها في الحرارة والنور ، وامتطى في أثرها الـكهر بائية والبخار ، وكالها بين الزهور والرياحين ، وشرح لها وجده بين الرياض والبساتين ، فكانت اذا أدنته منها ابتسامة ، اوقفته عن الدنو منها مهابة ، جمال تكلل بالجلال ، وانفة الا أنها دلال ، منها نحل العاشق سقما ، وضاق ذرعا ، فلما أيقنت منه التفاني في سبيل غرامها ، والاستقتال في هيامها ، أماطت الآن اللثام ، بعد آلاف سنين في التحجب والدلال ، والتلاعب والمطال ،

طمحت أبحاث اسلافنا منذ الاعصر المترامية في القدم الى ا كتشاف امرين خطيرين اولهما ا كسير الحياة الذي يتذرع به المرء الى درء كأس الحمام ونيل الخلود على وجه البسيطة ، وثانيهما حجر الفلاسفة الذي يباح له به تحويل المعادن الى ذهب ، فيصبح المرء بهذين الاكتشافين خالدا مثريا ، ولبث القـدماء يخطون في دياجير الاوهام ، ويتلمسون الحقيقة في ظلمات بعضها فوق بعض ، حتى نبغ نحو أواخر القرن الثامن رجل هو لغز من ألغاز التاريخ غريب الاطوار كثير المطامح بعيد المرامي يسمى جابرا تفرغ الى البحث في المعادن وانقطع الى إجراء الامتحانات المتعددة بشأنها تذرعا لتحويلها ذهبا وكان مذهبه ان المعادن خليط من عناصر متعددة يمكن ترقية الدنيا منها الى الاشكال العليا وما فتئ يكثر من التجارب و يعيد في الامتحانات وهو في كل ذلك يتراوح بين الحقيقة والضلال حتى أصبح له في عصره شأن خطير ومنزلة راقية في عيون اهله وهو احق رجل بان يسمى شيخ الـكيميين ولكنه منطق

الحقيقة بالجهالة واكتنف الحق بالباطل ولم يدر خطورة قوله ولم يحلم حينئذ ان سيقوم في فجر القرن العشرين رجل من اشهر الكيماويين ويكتشف أعظم اكتشاف قدر للمرء حتى الآن ويجيء به مصداقا لاقواله

بيد ان العلوم الراقية لبثت قروناطوالا خليط فن واحد فكان الباحث متكهناً في الطب وعالما في التنجيم وطوالع السعد وصهارا للمعادن وطال أمره دهورا يتلمس الحق على غير صراط الهدى حتى بزغت عليه بعض اشعة العرفان فانبثق الطب من الكهانة والفلك من التنجيم وكيمياء الحق من كيمياء الباطل

ولما انتظمت الكيمياء فنا قائما بنفسه نبذ طلابها آراء الاقدمين نبذ النواة فتبين لهم ان العناصر الأربعة التي قال بها السلف وهي النار والهواء والماء والتراب ليست بعناصر بل هي مواد مركبة تنحل الى موادّ أخرى بسيطة اطلقوا عليها لفظ العناصر الصحيحةوكان من أوائل اكتشافاتهم بهذا الصدد الاكسوجين . ولما تم لهم هذا الفتح المبين نشطت الهمم من عقالها واستولى على المنقطعين الى هذه الابحاث هوس شديد . نضرب لك مثلا واحدا لتفقه الى أي حد بلغ بهم ذلك الهوس وهو الكيماوي الطائر الصيت « لافوازيه» فانه كان في صدر جلة الكيماويين الذين تحروا البحث والامتحان بشأن الاكسوجين فبعث الى الاكاديمي في أواخر القرن الثامن عشر رسالة ضافية الذيول بخصوص تأكسد المعادن (١) وكانت له أثرا خالدا وما زال يوالي التجارب حتي انفجر بركان الثورة الفرنساوية واندلع لهيبها في باريس وسائر ارجاء فرنسا وكان « لافوازيه» لنكد الطالع رجلا عريقا في نسبه ، كبيرا في حسبه ، وافرا في ثروته ، فأصبح هدفا للثائرين، وغرضا لسهام الحاسدين ، فصوَّب اعداؤه نحوه شكايات باطلة أصابت منه مقتلا فحكم عليه بالاعدام وكان اذ ذاك منهمكا في تجارب كيماوية خطيرة فطلب من لجنة الثورة ان تمهله بضعة أيام ريثما يتم ابحاثه واكتشافاته فعاملته بغلظة يندى منها جبين التمدن واجابته بفظاظة يحمر لها وجه الحرية قائلة ان لا حاجة بالجمهورية للعلماء !

(١) المنار : التأكسد عندهم عبارة عن اتحاد المعدن بالاكسجين بحيث يتولد عنهما جسم ثالث غيرهما كالصدأ في الحديد وهو أكسيد الحديد

فقيد من كعبة العلم الى باحة « الغليوتين » (١) وهو الذي قال بشأنه ساعتئذ « لاغرانج » أحد مشاهير مواطنيه: بعددقيقة يسقط رأس تمر بكم أجيال وقرون قبل الحصول على مثله

فانقشعت اذ ذاك غياهب الجهل عن بصائر أولي النهى ففقهوا ان جل المواد المعروفة انما هو مركبات وخليط مواد بسيطة متعددة فحسروا عن ساعد الجد وقذفوا بالاوهام القديمة من حالق وتواردت عندئذ اكتشافات العناصر تترى على نوادي العلم ومجامع العرفان فبنيت صروح المعارف على اطلال الخرافات ووطد بنيان الكيمياء على عمد راسخة الاركان واكتشف الباحثون في العناصر نواميس كيماوية عجيبة لم تكن لتخطر في بال اسلافنا ولا في الاحلام

العروة الوثقى التي وقفت عندها الالباب حيرى هي الذريرات الاصلية لهذه العناصر فقالوا انها جواهر مادية تتألف من جواهر فردة اذا تجزأت بطل العنصر أن يكون عنصرا بالخصائص والمقومات التي يتميز بها عن سواه غير انه لما كان الجوهر الفرد لا يقبل التجزؤ فعلا اذ لم يكشف البشر ذريعة أو وسيلة تؤدي الى ذلك لبث العنصر ثابتا على ممر الأدهار

بيد ان القول بوجود هذه العناصر المتعددة الاشكال المتباينة الخواص ثابتة على هذا المنوال منذ الازل مناف لمطمح الفلسفة السامية القائلة بوحدة المادة وخصوصا اذا اعتبرت أرضنا نفسها ذريرة من مجاميع ونظامات هذا الكون العجيب الذي يملأ القلب مهابة ورهبا متى تجلى لك خلال استار الدجى كواكب ودراري سابحة أو معلقة في فضاء يتطاول الطرف الى الاحاطة بعظمته وفقه رموز اسراره فيرتد عنه وهو كليل

ذلك ما حدا جلة المتضلعين من العلوم الطبيعية الى القول بان سائر العناصر المعروفة مشتقة من عنصر واحد متناه في بساطة التركيب ولطافة القوام وخفة المادة غازي الشكل ولما لم يكن معروفا عندهم حينئذ من العناصر التي يمكن الحصول عليها ما يصح ان يكون أصلا لجميع المواد سوى الهدروجين حسبوه ذلك الاصل

(١) المنار: هي الآلة التي اخترعوها لقط الرقاب بسرعة

حتى انبأ بعضهم من هذه الاستدلالات بوجود عناصر أخرى كانت لم تزل مجهولة لكي تملأ فراغا في حلقات العناصر المعروفة فجاءت الا كتشافات التالية مصداقا لنبوتهم ثم انه تبين من الابحاث الحديثة ان الجوهر الفرد للهدروجين على ما فيه من التناهي في الصغر هو كبير جدا في حجمه بالنسبة الى ما كشف مؤخرا من الذريات الكهربائية التي اطلقوا عليها اسم الألكترون بحيث ان جرم الجوهر الفرد الواحد من الهدروجين يوازي ألف جرم من الألكترون وثبت لهم ان هذه الذريات الكهربائية تستقل عن الجواهر الفردة وتقوم بنفسها ويكون لها جميع الخواص المقومة للجوهر الفرد حتى ترجح عند كبار الطبيعيين الآن ان الجواهر الفردة لجميع العناصر تتألف من هذه الذريات الكهربائية فقط التي بعضها إيجابي و بعضها سلبي بمقادير متساوية وان اختلاف العناصر متوقف على اختلاف مقادير هذه الذريات في تأليف جواهرها الفردة فما العناصر اذاً سوى مجاميع هذه الذريات التي يثبت قواها بقوتي الجذب والدفع

• فمتى فقهت ذلك علمت كيف تتأتى استحالة المادة من عنصر الى عنصر على ما صدرنا به هذه المقالة بيد انه لم تتح لبشر مشاهدة هذه الاستحالة عيانا الا منذ نحو أسبوعين من الزمن وتفصيل ذلك انه قدم الى مدينة باريس منذ بضع سنوات في أواخر القرن المنصرم فتاة بولونية المحتد في غضاضة الشباب وريعان الصبا لمتابعة بعض دروس فلسفية ولو علم أهل تلك المدينة ما سيكون لهذه الفتاة في العالم من خطورة الشأن والصيت الذائع لاحتفوا بها احتفاءهم بالاميرات والملكات من زوّارهم فينقضي ذكر الملوك والملكات الذين زاروا باريس اما اسم مدام كري فيبقى خالدا وهي الفتاة التي نعنيها فانها ما لبثت حينا من الدهر حتى تزوجت الاستاذ كري فأقاما في بيت بعيد عن ضوضاء المدينة وجلبة القوم يواليان الامتحانات الكيماوية حتى ظفرا أخيرا بأمنية ما وراءها أمنية الا وهي اكتشاف الراديوم

اما وجه أهمية هذا الاكتشاف فهو ان العلماء وجدوا ان معدن الراديوم يختلف عن جميع المواد والعناصر المعروفة على وجه البسيطة في أمر هو إشعاع الحرارة والنور على الدوام دون ان يخسر شيئا منهما فسواء وضعته في الماء والثلج أو

الهواء بقيت حرارته مرتفعة عما يحيط به وهو أمر لوسمعه العلماء في حلم لما صدقوه. ولما وجد الباحثون عنصرا يختلف في خصائصه عن سائر العناصر ذعروا منه بيدأنهم توسموا به أخيرا خيرا اذ علموا انه سيلقي بين أيديهم مقاليد الكون وينشر امام أبصارهم رموز الطبيعة واسرارها فتهافتوا عليه تهافت العطاش على الماء حتى بلغت اثمانه في الاشهر الاخيرة مبلغا فاحشا لم يسمع بمثله من قبل فان المقدار الذي لا يتعدى جزءا من خمسة عشر جزءا من القمحة منه يساوي خمسين ألف جنيه

وكان في عداد الذين اشتغلوا بالبحث في الراديوم واسراره الكيماوي الشهير السير وليم رمزي فوجد نظير غيره من المشتغلين به ان في جملة ماينبعث من هذا المعدن مادة غازية كثيفة بقيت لديهم حينا من الدهر لغزا من الالغاز لانها كانت تلبث ردحا من الزمان ثم تخفى دون ان يتمكن أحد من الوصول الى كنهها فوضع السير رمزي اخيرا هذا الغاز في زجاجة دقيقة جدا سدها سدا محكما وما فتئ يراقبها حتى تبدت له معجزة من المعجزات وهو ان تبدى من هذا الغاز بعد يومين من الزمن بواسطة السبكترسكوب خط ضارب الى الاصفرار وهو الخط الذي يشير الى وجود عنصر الهليوم وهو مادة توجد في الشمس ولم يعثر عليها في أرضنا الا حديثا ثم بعد نحو اسبوع من الزمن زاد الخط اشراقا دلالة على ان مادة الراديوم الغازية استحالت الى عنصر الهليوم ولم يبق لها من اثر

وهذا الاكتشاف الذي نحن بصدده هو باكورة الاكتشافات العظيمة في فجر القرن العشرين وسيكون له من الخطورة ماهو اهل له وسيقيض لنا على يده كشف كثير مما غمض على أفهامنا من أسرار الطبيعة وغرائب الكون فان الباحثين جارون الى هذه الغاية سباقا يبذلون النفس والنفيس ويجودون بالمال والارواح لغرض ترقية شأن العقل البشري والنهوض به من حضيض الجهل الى قنن العلم ولعله لا تغيب شمس هذا القرن حتى تبزغ شموس من سماء الحقيقة والعرفان تتجلى نورا باهرا على الافهام وتميط الطبيعة عن محياها الصبوح حجاب الابهام ومن يعش يره

الدكتور سعاده

﴿ رسالة التوحيد ﴾

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * (سورة الروم ٣٠ : ٣٠ — ٣٢)

إن الله جلت قدرته ، و بلغت حكمته ، قد برأ هذا الانسان ، بفطرة أعلى من فطرة سائر أنواع الحيوان ، أودع فيه شعوراً بلذات وآلام غير جسدية ، فكان له بذلك حياة غير الحياة الحيوانية ، انشأه مستعداً لإدراك معلومات غير محصورة ، اذ خلقه ليحيا حياة غير محدودة ، جعل مدار حياته على التعاون والاجتماع ، ليستعين بذلك على استجلاء ما في الكون من النظام والابداع ، أنشأ افراده متفاوتين في الاستعداد للعلوم والأعمال ، ليتيسر لمجموع النوع القيام بجميع العلوم والاعمال ، فأدناهم الخدم والبناؤن والزارعون ، وأعلاهم الساسة والحكماء فالانبياء والمرسلون ، فهؤلاء كالعقول والقلوب والارواح ، وأولئك كالأرجل والايدي والمعد والامعاء ، فنهم من يقوم للنوع بأدنى مايحتاج اليه ، ومنهم من يهديه الى أعلى ما يتشوف استعداده إليه ، مع احسانه التصرف فيما هو قائم عليه ، وهذه الهداية هي هداية الدين الذي هو قوام الفطرة للانسان ، الناهض بها الى طلب الكمال في العلوم والاعمال ،

سار الدين بتكميل الفطرة البشرية على منهاج التدريج فى الارتقاء ، كما هي السنة العامة في جميع شؤون الاحياء ، حتى جاء خاتم النبيين والمرسلين بالاسلام ، الذي بلغ بالانسان مرتبة الاستقلال التام ، و بين كتابه انه دين الفطرة للناس ، من جميع الشعوب والاجناس ، الموافق لهم في كل مكان ، المنطبق على مصالحهم في كل زمان ، فهو للقبائل الساذجة كالمربي الرحيم ، وللشعوب الراقية كالامام الحكيم ، كلما ساروا في العلوم والمدنية شوطا رأوه المجلي في ميدان السبق ، ٤١:٥٣ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ،

لكن المسلمين قد خذلوا هذا الدين ، وصاروا حجة عليه عند اكثر العالمين ، اذ زينت لهم التقاليد والعادات ، ان يجعلوه حجابا دون العلوم والفنون والصناعات ، وان يتفرقوا فيه مذاهب وشيعا ، وينقصوا منه سننا ويزيدوا عليه بدعا ، وان يجعلوا كتب العقائد ملأى بالجدل والمراء ، بين اهل المذاهب من الاموات والاحياء ، وقد مرت القرون وليس عندنا مصنف يصلح للدعوة الى الاسلام ، على الوجه الذي اشترطه علماء الكلام ، وهو ان يكون على وجه يحرك الى النظر ، ويدعو الى البحث والتفكر ، حتى قام الاستاذ الامام ، الذي كان في هذا العصر حجة الاسلام ، الشيخ محمد عبده قدس الله روحه في دار السلام ، فكتب (رسالة التوحيد) في بيان حقيقة هذا الدين ، فجاء مع التزام الشرط بما لم يأت بمثله أحد من أئمة المسلمين ،

لا اذكر في بيان فضل هذه الرسالة ان مجلس ادارة الازهر قرر تدريسها في الجامع الازهر رسميا ، ولا ان علماء الهند ترجموها بلغة الأوردو ليدرسوها في مدرسة عليكده الكلية وغيرها ، ولا ان علماء الاقطار الذين اطلعوا عليها قد كتبوا لمؤلفها من منثور الثناء ومنظومه ما يزيد على حجمها اضعافا مضاعفة ، ولا ان بعض علماء النصارى قالوا عند ماقرءوها : لو كان مافي هذه الرسالة هو الاسلام لكنا اول من يدخل فيه ، ولكنها حكمة الشيخ محمد عبده الذي نؤمن بفضله ، وعلو كعبه ، لا أشرح هنا شيئا من مثل هذا وانما أقول انه لا يقدر هذه الرسالة حق قدرها الا من كان عالما بمنتهى ما وصل اليه علم الكلام من الارتقاء في الاسلام ، وواقفا على

ما كتبه فلاسفة أوربا في الانتقاد على الاديان، مع ما كتبوه في بيان مزاياها وفي علم النفس وعلم الاخلاق وعلم الاجتماع البشري

لم تدع الرسالة شبهة على الدين الا وكشفتها، ولا عقدة من عقد المشكلات الا وحلتها، ولكن الشبه تذكر فيها غالبا بطريق الايماء والتلويح، دون الابانة والتصريح، وذلك أدنى ان لا يشك الضعيف، ولا يشتغل القوي عن المقصد الشريف، وقد أشار الى ذلك المصنف في قوله «راميا الى الخلاف من مكان بعيد، حتى ربما لا يدركه الا الرجل الرشيد»

كتب الاستاذ الامام هذه الرسالة في مدة قليلة وبادر إلى طبعها فلما قرأها في الجامع الازهر على الالوف من العلماء ونجباء الطلاب ظهر له فيها أغلاط لغوية ومسائل تحتاج الى إيضاح وكلم جدير بالحذف فكان يكتب ما يراه من التنقيح في النسخة التي يقرأ بها الدرس ويزيد ما يزيد في هامشها، وقد انتقد عليه الشيخ محمد محمود الشنقيطي (رحمهما الله) ذكره لمسألة خلق القرآن لانها مخالفة لشرطه في التزام مذهب السلف فأمر بحذف ذلك منها (راجع ص ٣٧ منها) وانتقد عليه حروفاً أخرى فأقنعه في بعضها واقتنع منه في بعض. وقد جمع جميع ما صححه في جدول فكان ذلك في سبعين موضعا أو أكثر. وبقي فيها كلمات نادرة قد سها المؤلف عنها مع تصحيحه لمثلها، فأبقيتها على أصلها (* الا كلمة واحدة في ص ١٣١ ولم أزد فيها من عندي الا الرقم الدال على عدد السور والآيات عند ذكرها

ولما كتب اليّ صديقي حموده بك عبده يأذن لي بإعادة طبع الرسالة اعطاني الجدول فصححت هذه الطبعة معارضة عليه وعلى نسخة المؤلف. وعلقت عليها هوامش قليلة سمعت بعضها منه في الدرس، ولولا انه نهى عن شرحها، ووضع الحواشي لها، لجاز لي أن اكثر من هذه الهوامش، ولكن ماراه رحمه الله هو الصواب، وما جاء به هو الحكمة وفصل الخطاب، فهذه الطبعة هي المعتمدة وعليها المعول ولا يستغني عنها من طالع الطبعة الأولى فرحم الله الاستاذ الامام، ونفع برسالته الأنام، آمين

محمد رشيد رضا الحسيني
منشئ المنار

---

*) مثل تعدية التكليف بالباء واتباعها للاصوليين وغيرهم ومثل لفظ الصدقة

آثار علمية أدبية

مبادئ الاقتصاد السياسي

قد اشتهر بيننا ان الغنى والفقر إنما يكونان بالحظوظ والاقدار ، لامدخل فيهما لعلم المرء وعقله ، ولا لذكائه وسعيه ، بل اشتهر بين الأدباء ان العلم والحجى ، ضدان للثروة والغنى ، وقدنظم أدباؤنا في القديم والحديث كثيرا من الشعر في هذا المعنى تداوله الناس وحفظوه فصارت به المسألة عندهم من القضايا المسلمات ، التي يتوهمون انها من البديهيات ، وكيف لاتكون كذلك عند الجمهور وهي مدعمة بظواهر ماجاء في الدين من اسناد كل شيء الى مشيئة الله عز وجل ، وللعلماء والصوفية فيها من الكلام ما هو أشد تأثيرا في النفوس من كلام الشعراء والادباء . ومما يؤثر فيها عن الامام الشافعي رضي الله عنه من أبيات

لكن من رزق الحجى حرم الغنى ضدان مفترقان أيّ تفرق

ثم انهم يرون ظواهر الحوادث الجزئية تؤيد هذا الرأي وتثبته اذ يرون مثل فلان باشا وفلان بك يعبثون بالالوف من الدنانير وهم على مايعرفون منهم من الجهل والغباوة

فاذا قيل لمن يعتقدون هـذا الاعتقاد ان لتدبير الثروة علما يبحث فيه عن ينابيعها ومواردها ومصادرها فيعلم الواقف عليـه طرق تحصيل الثروة وحفظها وتوزيعها ولماذا كانت تلك الامة غنية وهذه الامة فقيرة ولماذا يتزاحم في البلد الواحد شعبان أو شعوب متعددة فيسبق قوم ويتخلف آخرون — إذا قيل لهم هذا قالوا إن العلم لا شأن له في هـذا وإنما هي الحظوظ والاقدار ، ويسردون ما يحفظون من الآثار والاشعار ،

الاقدار هي المقادير والموازين التي أقام البارى بها نظام الكون فهي تقتضي

الاسباب لا تنافيها ، وان اشتهر استعمالها بيننا فيما جهل سببه غالبا، والحظ في الاصل هو النصيب الذي تناله من الشيء بسعي أو بغير سعي وان غلب استعماله فيما يناله المرء بغير سعي منه اليه ، ولا ننكر ان بعض الافراد ينالون الغنى والثروة بأسباب لا يعرفونها ، ولا يسعون اليها سعيها ، ولا ننازع في تسمية ذلك حظا جاد به القدر ، على ما بيننا و بين أولئك الناس من الخلاف في فهم معنى القدر . وانما نقول في إقناع المنكرين لفائدة علم تدبير الثروة الذي وضع له اسم « الاقتصاد السياسي » : إن الواضعين لهذا العلم والمصنفين فيه والدارسين له والعاملين به يعرفون من أحوال أهل الحظوظ ما تعرفون ، ومنهم من يؤمن بالقدر كما تؤمنون ، ولكنهم مع ذلك يعلمون من أحوال العالم مالا تعلمون، فضموا علمهم إلى علمكم، ثم لكم بعد ذلك حكمكم، إذا كنتم تعذرون فيما تحكمون به على ثروة الافراد في كل أمة فلا عذر لكم إذا قستم عليها ثروة الشعوب والامم ، فسيروا في الارض فانظروا كيف صارت الامم التي عنيت بهذا العلم اغنى الامم وأعزها ، وكيف يدخل أفراد منها في بلاد أمة أخرى فلا يلبثون ان يكونوا هم المستقر والمستودع لثروتها ، بل القابضين على روح الحياة المالية والاجتماعية فيها ،

ألا إن أمتنا أحوج الى هذا العلم منها الى جميع العلوم الدنيوية لانه روح جميع العلوم و لاعمال ولكننا لانزال مقصرين فيه، بقدر حاجتنا اليه ، حتى انني لم أر في لغتنا غير كتابين وجيزين فيه طال العهد على وضعهما ، وارتقى العلم بعدهما ، فصرنا محتاجين الى خير منهما ، وقد أحس بهذه الحاجة محمد فهمي افندي حسين المحامي (المتخرج من عهد قريب في مدرسة الحقوق الخديوية) فحملته الغيرة على أمته و بلاده على وضع كتاب جديد في هذا العلم يستمد مسائله من الكتب الافرنجية الحديثة وقد فعل وسماه (مبادي علم الاقتصاد السياسي) وقد طبع الجزء الاول من عهد قريب فبلغت صفحاته ١٨٤ صفحة وجعل ثمنه عشرة قروش صحيحة فعسى ان يرى من الإقبال عليه ما ينهض بهمته إلى إتمام الكتاب تأليفا وطبعا . وهو يطلب من مؤلفه ومن المكاتب المشهورة . وسننقل شيئا منه تنويها به وإفادة لقراء المنار

الاسلام روح المدنية

﴿ رد على لورد كرومر ﴾

لم يكد ينتشر كتاب لورد كرومر الذي سماه « مصر الحديثة » حتى كان أول ما ترجمته الجرائد المصرية منه كلامه في الاسلام والمسلمين . ووعد بعض الافراد و بعض الاحزاب بتأليف كتب في الرد عليه ولكن قد سبق الجميع الى ذلك صديقنا الشيخ مصطفى الغلاييني البيروتي فبادر الى وضع كتاب في ذلك وطبعه في بيروت في أيام الاستبداد الشديد إذ كان يخشى المرء ان يحاسب و يعاقب على مثل هذا التأليف وعلى طبعه بدون رخصة من نظارة المعارف في الاستانة ولو طلبت الرخصة فيه لما أجيب الطالب الا الى العقاب . وقد بلغ من شجاعة مؤلف هذا الكتاب ان ذكر فيه الاستاذ الإمام (رحمه الله تعالى) ونقل بعض كلامه وشيئا مما يؤثر عنه ونقل عن المنار أيضا وكان يومئ الى ذلك بقوله : قال السيد في المجلة . وقد كان ذكر الاستاذ الامام أو المنار قبل إعلان الدستور في المملكة العثمانية جريمة من أكبر الجرائم وخطرا على من يذكر هذا اللقب « الاستاذ الامام » أو اسم صاحبه « الشيخ محمد عبده » أو المنار او صاحبه ولو تلويحا من أشد الاخطار فشكرا للشيخ مصطفى على شجاعته وعمله . هذا ولم تتسن لنا مطالعة الكتاب ولكننا نرجو أن يكون خيرا مما كتب أكثر أصحاب الجرائد في الرد على لورد كرومر وناهيك بمن يستمد من كلام الاستاذ الامام في الدفاع عن الاسلام ، ومن يصدف عن ذلك ظاهرا ، وان لم يستغن عن الاقتباس منه باطنا ، وثمن الكتاب في مصر خمسة قروش صحيحة عدا أجرة البريد و يطلب من مكتبة المنار فنحث القراء على مطالعته

﴿ تاريخ العرب قبل الاسلام ﴾

كتاب جديد يؤلفه جرجي افندي زيدان المؤرخ العربي الشهير وقد أنجز الجزء الاول منه فاذا هو قد استمد مسائله من الكتب العربية والكتب الافرنجية في اللغات المختلفة . ولبعض الكتب الافرنجية مزية على العربية في هذا الموضوع

بما اكتشفوه من الآثار القديمة في بلاد العرب . وقد اقتبس المؤلف شيئا منها لا يستغني عن الاطلاع عليه قراء العربية وهو على قلته يصح ان يتمثل فيه بقول الشاعر

قليل ما أمرت به ولكن   قليلك لا يقال له قليل

وقد نظرنا في الكتاب نظرة إجمالية فألفيناه حسن الترتيب جامعا لكثير من المباحث النافعة ولكن لم يتح لنا مطالعته لنحكم فيه على علم بما نرجو ان يكون قد جاء به من التحقيق فعسى ان ينتدب بعض من قرأه من أهل العلم والرأي الى موافاتنا بمقال حافل في تقريظه ونقده إظهاراً لقيمته وشكرا لفضل مؤلفه ، أما ثمن هذا الجزء الذي صدر من الكتاب فعشرون قرشا مصريا و يطلب من مكتبة الهلال بالفجالة

﴿ عروس فرغانة ﴾

هي إحدى القصص التي جعلها جرجي افندي زيدان منشئ الهلال ملحقة لسني مجلته « تتضمن وصف الدولة العباسية في عهد المعتصم بالله (سنة ٢١٨ — ٢٢٧ﻫ) وقيام الفرس لإرجاع دولتهم بالسيف ونهوض الروم لاكتساح المملكة الاسلامية ويتخلل ذلك وصف آداب الاتراك وعاداتهم في أقصى بلادهم ووصف سامرا عاصمة المعتصم وواقعة البذ في حرب بابك وواقعة عمورية في حرب الروم وغير ذلك » وهي تقع في ٢٠٤ صفحات حسنة الطبع وان شهرة هذه القصص في إيداع الفكاهة القصصية المسلية شيئا من الفوائد التاريخية ورغبة القراء فيها مما يجعلها غنية عن التقريظ والثناء وثمن النسخة منها عشرة قروش وأجرة البريد قرشان وتطلب من مكتبة الهلال

﴿ مجلة صراط مستقيم ﴾

صدرت في الاستانة مجلة إسلامية يحررها باللغة التركية طائفة من العلماء وقد كتب الينا مديرها ما يأتي

الى إدارة المنار

« تعاونوا على البر والتقوى »

شرعنا في نشر مجلة بإسم الصراط المستقيم والله الموفق

غرضنا خدمة الدين المبين ولكن حال بلادنا من حيث الكتب والجرائد

حال محزنة . ولم نكن نرى من قبل تلك الآثار المصرية الثمينة وهل كانت رؤيتها من الممكنات ؟ والآثار التي كنا نملكها جعلتها الحكومة السابقة طعاما لمواقد الحمامات . وقد دخلنا منذ الآن في حياة جديدة . أما مجلتكم العلية فهي مشهورة في جميع الكون فنرغب ان يكون لإخواننا مساكين الترك نصيب من مائدتكم العلمية ونحن مفتقرون في هذا الموضوع لمعاونتكم العلية فنرجوكم ان ترسلوا لنا مجموعة من مجلتكم وان ترسلوا كل مايصدر منها بعد في وقته . وان أنبأتمونا عن الآثار الجديدة المطبوعة بمصر نكن لكم من الشاكرين . واقبلوا فائق احترامنا

(المنار) قد سررنا سرورا عظيما بهذه المجلة ونشكر لمديرها الفاضل حسن ظنه بنا وسنبدي رأينا في منهجها ومقالاتها بعد ان يتيسر لنا ترجمة بعض مقالاتها ثم نكتب لمديرها ان شاء الله تعالى

القسطاس المستقيم

جريدة عربية جديدة أنشئت في دار السلطنة العثمانية (الاستانة) بعد إعلان الدستور . أنشأها الحاج محيي الدين افندي كريمة والحاج حسن افندي المجدوب من خيار أبناء بلدتنا (طرابلس الشام) المقيمين في الاستانة وقيمة الاشتراك فيها نصف ليرة عثمانية في بلاد الدولة العلية و ٦٠ قرشا في مصر و ١٥ فرنكا في البلاد الأجنبية

فنتمنى لها من الرواج والانتشار في هذه الديار وغيرها ما يبعث أصحابها الى تكبير حجمها وتكثير فوائدها

البدع والخرافات والتقاليد والعادات

﴿ كتاب ابي معشر ﴾

كتب الينا من سنغافوره وجاوه ان هذا الكتاب منتشر في تلك البلاد يجلبونه اليها من مصر وان بضاعة المتحلين للتنجيم والعرافة رائجة به وسألنا الكاتبون عن رأينا فيه وأرسلوا الينا نسخة منه لننظر فيها ان لم يكن سبق لنا الاطلاع عليه فنقول بعد الاطلاع على عدة ابراج منه

اننا لم نر في لغتنا كتابا أجمع للمفاسد والمضار منه، فهو مفسد للعقل والدين والآداب، محرض على الفسق والفجور، مقطع للروابط بين الازواج والاهل والجيران، وهو على ذلك كله خال من الفائدة واللذة

أما كونه مفسدا للعقل فنعني به انه يمد الضعيف في غيه فيزيده فسادا بقبوله لما وضع له من بيان مايعرض للمرء في مستقبل حياته الدنيا .

لو فكر من له مسكة من العقل أقل التفكير في الطريقة التي يبين بها هذا الكتاب حوادث المستقبل لجميع البشر في ٢٤ فصلا منها ١٢ برجا للرجال و١٢ برجا للنساء — لرأى ان ذلك باطل بالبداهة فان من مقتضى ذلك ان كل من اتفقت اسماؤهم وأسماء أمهاتهم وكل من اتفق العدد الحاصل من جمع اسمائهم وأمهاتهم بعد طرح عدد الاثني عشر منها حتى تبقى اثني عشر اوأقل يكونون متفقين فيما يعرض لهم من الامور والاحوال في اجسامهم من مرض وصحة وحياة وموت وفي ازواجهم وأولادهم وكسبهم وغناهم وفقرهم واخلاقهم وآدابهم ومكانتهم في الناس وفي غير ذلك لا فرق بين أحد منهم الا من ثلاثة وجوه فان لكل برج عنده ثلاثة وجوه يعبر عنها بقوله الوجه الاول من نظر اليه كوكب كذا يكون كيت وكيت

فللعاقل أن يجمع أسماء كثير من الملوك والامراء والعلماء والاغنياء والفقراء والصناع والزراع والعمال والخدام — أسماءهم وأسماء أمهاتهم بحساب الجمل على طريقة ابي معشر ويعرضها بعد الاسقاط على ابراجه وينظر بعد ذلك فيما يشرحه من شؤونهم فبهذه الطريقة يظهر له بطلان مافي ذلك الكتاب ان كان ممن يشتبه في بطلانه. ولاحاجة الى شرح ذلك وتفصيله فانه يكاد يكون من البديهيات الأولية وإنما يروج مافيه على ضعفاء العقول من العوام والنساء لأنهم لاينظرون في طريقته نظرة عامة للبحث فيها هل هي معقولة أم لا وإنما يفكرون فيما يلقى اليهم من كلامه المجمل العام الذي ينطبق على بعض أحوالهم مع الايمان والاذعان التقليدي بأن في أمثال هذه الكتب أنباء عن الغيب يتوارثها الخلف عن السلف و يسلمون بها تسليما

أمثال هؤلاء الاغرار تسهل مخادعتهم فلو قرأت لاحدهم البرج الذي يؤخذ من اسمه واسم أمه بطريقة ابي معشر أو غيره من البروج لأخذ من كل مايقرأله شيئا ينطبق على بعض أحواله ووجد فيه شيئا لاينطبق عليها ولكنه لانتظاره مايمكن ان يصدق عليه يتشبث و يفطن له و يغبى عن غيره و يظن انه غير مقصود به

واما إفساده للدين فهو مشترك بين إفساده للعقل باعتقاد الباطل الذي ورد النهي عنه في الاحاديث الصحيحة التي تسمي تصديق المنجمين والعرافين كفرا و بين إفساد الآداب التي يأمر الشرع بالمحافظة عليها والتحريض على الفسق وتقطيع الروابط بين الازواج وغيرهم

المعروف من أمر النساء أنهن أحرص على البحث عن مستقبل حياتهن من الدجالين والعرافين والمنجمين وانك لتجد في بروجهن من هذه المفسدات اكثر مما تجده في بروج الرجال

مثال ذلك انه يقول للمرأة انها تتصل بكثير من الرجال بالحرام وانها تتزوج عدة أزواج وانها تكون سعيدة مع الاخير منهم وانها تكون شديدة الحظوة والقبول عند الكتاب أو الحكام . . . فقل لي بعيشك كيف تكون حال المرأة التي تعتقد صدق هذا الكتاب اذا سمعت من قارئه عليها أمثال هذه الانباء ؟ ألا يكون ذلك مجرئا لها على العشق وعلى بغض زوجها . . . ؟

يظهر لي ان واضع هذا الكتاب كان حريصاعلى هذه المفاسد متعمدا لها وانه كان من كتاب الدواوين أو صديقا لهم لانه يرغب النساء فيهن · ومن خبثه الدال على تعمده انه يقول عن بعض النساء اللواتي يحرضهن على الفسق انهن يتبن بعد ذلك ويوفقن للحج الى بيت الله الحرام فانه بذلك ينال من افساد العفيفة المتدينة ما كان يعز عليه أن يناله لو لم يخبرها بأنها ستوفق بعدذلك الى مايكون كفارةلذنوبها

وقس على هذه المفسدة ما يصفه الكتاب من أحوال أعداء المرأة ومن يكيد لها ويتربص بها الدوائر فان ذلك يذهب بخيالها مذاهب في التطبيق على من تعرف من أهلها وجيرانها ومتى اعتقد الانسان ان احد الناس عدو له فانه يحمل اكثر ما يراه منه على ما يقوي اعتقاده فيه حتى انه اذا سمعه يثني عليه اعتقد انه يتهكم او يعرض بذمه

وجملة القول أن هذا الكتاب من أقبح الكتب وأشدها ضررا ولا شك في حرمة طبعه وبيعه فما قولك بالاكتساب به ألا يكون من كبائر الاثم والفواحش ؟ بلى وان من قدر على منع طبع هذا الكتاب أو بيعه أو انتحال التنجيم به ولم يفعل فهو آثم ويغلب على ظني ان اهل سنغافوره واهل جاوه لو بينوا لحكومتيهم ما في هذا الكتاب من الدجل والإفساد للآداب العامة ومخالفة الدين وطلبوا منع الدجالين من التنجيم به لأجابتهم الحكومة الى ذلك

ولو نبهت الحكومة المصرية مثل هذا التنبيه لرجي أن تحاكم الذين يطبعون هذا الكتاب وتمنعهم من بيعه فعسي أن ينتدب لذلك بعض أهل الغيرة وأن تحمل الجرائد اليومية على المتجرين بهذا الكتاب وأمثاله وتطالب الحكومة بمجازاتهم على ما يمنعهم منه القانون المانع لكل ما يخالف الآداب العامة

باب الأخبار والآراء

﴿ سفر صاحب المجلة ﴾

سافر صاحب هذه المجلة من القاهرة قاصدا سوريا لزيارة الاهل والاقربين ، والاصدقاء والمحبين ، الذين حال بيننا و بينهم الاستبداد إحدى عشرة سنة ، كان ذكر اسمه فيها خطرا عليهم ، يهددهم به من يستاء من أحد منهم ، قائلا : إما أن تفعلوا كذا أو تتركوا كذا و إما أن أبلغ الحكومة بأنكم تكتبون إلى صاحب المنار أو يكتب هو اليكم أو انكم على رأيه واعتقاده في حاجة الدولة والامة الى الاصلاح ونحو ذلك

سافرنا قبل صدور هذا الجزء واننا نكتب هذا في القطار بين القاهرة و بورسعيد . وسنقيم في تلك الديار الى ما بعد عيد الفطر ثم نعود منها وندخل مصر إن شاء الله آمنين

وقد جعلنا أخا لنا وكيلا عنا في إدارة المجلة ومطبعتها وعهدنا الى إدارة البريد المصري أن تعده وكيلا عنا وتدفع له كل ما يرد بإسمنا من الرسائل والدراهم . فعسى ان تكون غيرة قراء المنار الاخيار على إدارة المجلة في غيبتنا أعظم مما كانت عليه أيام كنا فيها وأن يرسلوا اليها ما وجب عليهم من قيمة الاشتراك فان العمل فيها وفي المطبعة لايزال مستمرا و إنا لنعدُّ من يرسل قيمة الاشتراك الى المجلة في غيبتنا ، من أفضل أهل الذوق والوفاء لنا ، بل نعدله ذلك جميلا يذكر ، وفضلا يشكر ،

﴿ مكاشفة في أول ولاية السلطان عبد الحميد ومدتها ﴾

كان كثير من أهل الاستانة وغيرهم من خواص العثمانيين يتحدثون بأن بعض المنجمين أو الصالحين بشر السلطان عبد الحميد بانه يكون ملكا مدة ثلاث

وثلاثين سنة . وقد حدثني بعض كبار رجال الدولة في سياق الكلام على اعتقاد السلطان بالمشايخ الذين يدعون الكشف أو الجفر والزايرجه كأبي الهدى وعنايته بالشيخ ظافر - حديثا غريبا يرويه عن السلطان نفسه وملخصه انه كان في المدينة المنورة رجل يعرف بأمين افندي الطرابزوني يشتغل بالجفر ويخبر بأمور المستقبل فأرسل اليه السلطان يتعرف منه هل يكون سلطانا فقال انه يكون سلطانا في سنة ١٢٩٣ قال هذا للشيخ ظافر وكان هو الواسطة بينهما فلما انبأ الشيخ ظافر عبد الحميد (افندي) بذلك كبر عليه ان يصدقه لأن عمه السلطان عبد العزيز كان في صحته وعافيته وكذلك أخوه مراد افندي الذي هو ولي العهد وكان ذلك في أول تلك السنة ولكن لم يلبث ان صدق كلامه كما هو معلوم . قال الراوي هذا معنى ما سمعته بأذني من السلطان عبد الحميد وسمعت بعض الكبراء في الاستانة يزيدون في الرواية قائلين ان أمين افندي حدد مدة ملكه بثلاث وثلاثين سنة فقال يملك أو يحكم ٣٣ سنة

• ومن يتذكر أن السلطان ولي في شعبان سنة ١٢٩٣ يعلم ان المدة قد تمت بحسب السنين الهجرية ويحتمل ان يقال في تأويل الشق الثاني من الخبر ان السنة الثالثة والثلاثين قد كانت خاتمة لحكم السلطان بنفسه وقبضه على زمام السلطة بيده فان إعلان الدستور قد حول الحكم الى الوزارة ومجلس الامة . ولعل السلطان نفسه يفكر في هذا التأويل فينشرح له صدره إذ كان ممن يصدق أمثال هؤلاء القائلين لا سيما بعد ان صدق الخبر فيما يتعلق بأول الولاية . وأما من لا يباليهم صدقوا أم كذبوا فلا يحتاج الى تأويل . وقد ذكرت هذا الخبر قبل إعلان الدستور لكثيرين وبعده لكثيرين منهم أصحاب المقطم .

﴿ الاحتفالات بالدستور العثماني ﴾

احتفل العثمانيون عامة بالدستور في بلادهم وفي كل بلد يضم طائفة منهم في مشارق الارض ومغاربها وقد كان السرور بالدستور مدرسة للتربية والتعليم تعلم فيها ألوف من العثمانيين الخطابة وتربوا على الوفاق والمحبة ولكنها كانت مدرسة لا كالمدارس :

كان تعليمها يشبه الوحي وتربيتها تشبه الآيات والمعجزات فانها قد علمت الخلق الكثير في يوم واحد وربت الشعوب المختلفة في الاجناس واللغات والاديان والمذاهب والتقاليد والعادات في ساعة واحدة

لوصافح المسلمون النصارى في سلانيك والاستانة ومصر فقط لكان لقائل أن يقول ان ذلك أمر طبيعي حصل بالسعي فى الزمن الطويل فان إحرار العثمانين الذين على هذا الرأي كثيرون جدا في هذه البلاد وهم يسعون له من قبل . ولو وافقهم مثل أهل بيروت والشام لقال ذلك القائل ان أهل هذين البلدين على مقربة من أهل هاتيك البلاد فيما ذكر من وجود الاحرار العقلاء المحبين للاصلاح فيهم ومن وقوفهم في أقرب وقت على ما كان من اخوانهم في هاتيك الامصار التي سبقتهم عملا وسعيا الى ذلك فلم يلبثوا ان جاوروهم او اتبعوهم

ولكن ماذا يقول ذلك القائل في موافقة عمل أهل جدة (ثغر الحجاز) وأهل البرازيل وأهل الارجنتين لعمل أهل الاستانة وسلانيك ومصر والشام والعراق في وقت واحد وهم لايعلمون من أمرهم في ذلك شيئا ؟

كتب الي وجيه من مسلمي جدة كتابا يشرح فيه ما كان من أمر أهلها في الاحتفال بالدستور على الرغم من والي الحجاز راتب باشا الظالم الملحد في الحرم الذي كان يومئذ فيها كاتما لنبأ الدستور ثم مثبطا للهمم عن الاحتفال به بعد ان أعلنته للناس جمعية الاتحاد والترقي . فقد قال الكاتب ان المسلمين والنصارى قد تزاوروا وتعانقوا في ذلك الاحتفال وطفق كل فريق يهنيء الآخر . وذكر أمورا أخرى منها حسن تأثيره في نفوس الاعراب ومنها بعض مفاسد الوالي واتفاقه مع الامير الشريف . وقد أوقفنا على هذا الكتاب بعض محرري الاهرام والمقطم فلخصوه في الجريدتين

وكتب الينا جورج افندي حداد مؤسس شعبة جمعية الشورى العثمانية في البرازيل كتابا في الاحتفال الذي قام به العثمانيون في سان باولو قال فيه : إن الأرمن الذين هنا لم يكونوا يكلمون السوريين ولا يعاشرونهم فلما جاء نبأ الدستور أقبل بعضهم على بعض متعارفين متوادين وانتظم موكب الاحتفال من المسلمين والدروز والنصارى من الارمن والسوريين وغيرهم . فهل يمكن ان يكون هذا

وذاك بتواطؤ أو تقليد؟ وذكر انه اجتمع للقيام بالاحتفال نحو ألفي سوري ومئة أرمني في أعظم مرسح في سان باولو وكانت الموسيقى العسكرية تشب من نار حماسهم وتضاعف سرورهم وجذلهم ثم انبرى للخطابة فريق منهم وخطب هو أيضا بالاصالة عن نفسه و بالنيابة عن إخوانه الاحرار مؤسسي جمعية الشورى العثمانية في مصر قال: « ثم سار الموكب تتقدمه الموسيقى وهو رافع راية عثمانية كبيرة جدا صنعت لهذا الاحتفال خاصة الى دار القنصلية العثمانية ومذ ابصرهم القنصل رفع الراية العثمانية وجعل يحييهم بها وقد صعد اعضاء لجنة الاحتفال الى مكان القنصل وهنأه بعضهم وقدم اليه عريضة طولها ٨٠ سنتمترا وعرضها ٥٠ فحواها الشكر للسلطان على رضاه باعادة نشر القانون الأساسي ونيل شعبه للحرية و بينا كان القنصل يخاطب الاعضاء طلب الجماهير منه ان يشرف عليهم من إحدى النوافذ و يظهر ان الرجل من أرباب الحزب المحافظ وممن تأصلت في نفوسهم الكبرياء لانه لم يحفل بالطلب ولم يلب النداء فهاج الناس واضطربوا وصاحوا ان مولانا السلطان خاطب الشعب من النافذة مظهراً الرضى والسرور فكيف تأبى ذلك وانت من صغار مستخدمي دولتنا العلية؟ فاضطر القنصل لمخاطبتهم والاعتذار اليهم ثم تركوا دار القنصلية وطفقوا يطوفون بالشوارع العظيمة والحاصل ان هذا الموكب المؤلف من هذه الفرق التي كانت تحتدم في نفوسها نار العداوة والبغضاء وكره الواحدة منهن للاخرى كان من أجمل المناظر التي تسر بها النفوس وتغتبط لها القلوب »

وجاء في جريدة أبو الهول البرازيلية في ختام كلامها عن هذا الاحتفال ما نصه:

« اهتمت الصحافة البرازيلية والطليانية بالمظاهرة وذكرتها بالثناء والتكريم وجرائدنا العربية لم يهتم منها بالحفلة الا الميزان . فالافكار ذكرتها بأقل مما تذكر عن حفلة اكليل وطلبت من الله في الختام ان يجعل الحرية طويلة المكث في ديارنا ! والدستور ثابت القرار في وطننا ! ؟ وصاحب الافكار لم يحضر الحفلة وهكذا محرر المنارة الذي اهتم بالمظاهرة الخرجية أكثر من المظاهرة الداخلية اعتقاداً منه ان الاخيرة غير لازمة !

وقد اهتم جناب الاديب الياس افندي مسرة بالامر وطير الخبر تلغرافيا الى

جريدته في باريس فاستحق الشكر . وتكرم جناب الشيخ سابا الخوري نزيل الريو فأفاد اللجنة ان شركة هافاس نقلت الخبر إلى لندن ثم الى بقية العواصم الكبيرة

وقد شارك إخواننا الارمن نزلاء سان باولو بهذا الاحتفال الذي كان فريدا في عظمته ويتيما في محاسنه

وفي الختام نثني بلسان الحرية على اللجنة التي رتبت هذه المظاهرة ونشكر الخطباء الذين حركوا في صدور الجمهور الحماس ونهنئ الشعب السوري في هذا العيد الكبير عيد الحرية والمساواة »

ولا تزال جرائد أمريكا الشمالية والجنوبية تأتينا وهي ملأى بذكر الاحتفال بالدستور في معظم الولايات والارجاء الامريكية واشتراك جميع الطوائف والملل في ذلك وهذا يؤيد ما ذهبنا اليه في صدر هذا المقال

وكتب الينا من المفازة في بلاد السودان محمد افندي كمال الدين عدره سر تجار البندر يقول انه طاف بالناس بعد علمه بنبأ الدستور ودعاهم إلى منزله للاحتفال ببعثة الدستور من قبره فلبى دعوته خلق كثير من السودانيين وأشخاص من السوريين الموظفين في الحكومة فتلا عليهم خطابا ألمّ فيه بماضي الدولة المظلم وما يرجى لها من النجاح والفلاح في المستقبل وشكر لرجال الاحرار الذين كانوا مبثوثين في البلاد الحرة ومشتتين في اصقاع المعمور يسعون فيما اختطوه لانفسهم وجعلوه نصب أعينهم حتى رجعوا إلى بلادهم والوية النصر تخفق فوق رؤوسهم وجنود الظفر تحيط بهم

ثم قام بعده طاهر أفندي الخانجي باشكاتب المركز وشكر للحاضرين تلبيتهم الدعوة للاحتفال بالدستور وطلب من صاحب الدعوة بلسانه ولسان الحاضرين ان يكتب لرئيس الاحرار مهنئا بهذا الفوز العظيم فأجاب الجمهور بأنه يعرف من رجال الاحرار صاحب المنار وانه سيكتب اليه بما رغبوا فهتفوا جميعهم للمنار و بعد ذلك انفرط عقدهم وهم مسرورون بهذه الحال شاكرون للداعي إلى الاحتفال

احتفال الارمن بذكرى شهداء الحرية العثمانيين

في اليوم الثالث من هذا الشهر احتفلت طائفة الارمن في كنيستها بالقاهرة باحياء ذكر شهداء الحرية من جميع العثمانيين . فحضر الاحتفال خلق كثير من العثمانيين المقيمين بمصر ومن المصريين حتي اكتظت بهم الكنيسة على سعتها و بقي جمهور عظيم في رحبتها . وقد أقيم أمام محراب الكنيسة (المذبح) دكة كبيرة على جانبيها رايتان سوداوان بينهما راية بيضاء كتب عليها « اكرام شهداء الحرية العثمانيين » ووضع عليها مقاعد للقسيسين والخطباء ، ووقف من دونها جوقة من بنات المدرسة الارمنية كنّ يلقين بين كل خطبة وأخرى نشيدا مؤثرا وضع لهذا الغرض

افتتح الحفلة عظيم القوم وأسقفهم وتلته فتاة أرمنية بخطبة أحسنت القاءها فحسن وقعها وخطب بعض فضلاء الارمن بالارمنية و بعضهم بالتركية فأحسنوا وأجادوا وصفق لهم القوم تصفيقا . وخطب الدكتور شرف الدين بك أحد مسلمي الترك الاحرار وهو من أفضل من عرفنا أخلاقا وآدابا فذكر ما كان بين المسلمين والارمن من المودة قبل حوادث الارمن المشؤمة المعروفة حتى كان مما قاله ان المسلم كان يدعى الى الخدمة العسكرية فيذهب اليها تاركا امرأته وأولاده وأملاكه الى جاره الارمني يتعهدها في غيبته بما يجب كما كان الارمني يفعل مثل ذلك اذا احتاج الى مغادرة مكانه لامر ما . ثم ألمّ بذكر ما جرّ اليه الاستبداد من تلك الحوادث المشؤمة واستطرد منها الى ذكر الاصلاح الذي نشده الاحرار فأصابوه وقال ان المسلمين من الترك وسائر العثمانيين ليسوا متعصبين كما يصورهم بعض الناس فان أول حركة أتوا بها بعد أن نالوا الحرية في عاصمتهم هي زيارتهم لاضرحة الذين قضوا ضحية للظالمين .

و بعد أن أتم خطابه التفت الى أسقف الارمن ومن بجانبه من القسيسين فعانقهم واحدا بعد واحد فصفقت الجماهير لهذا المنظر أضعاف تصفيقهم الكثير للخطيب ثم خطب الدكتور برتوكاليس بك الرومي العثماني باللغة الفرنسية فالدكتور

فارس افندي نمر بالعربية فأحسنا واجادا وكان كل اولئك الخطباء قد عهد اليهم بالخطابة وكتبت اسماؤهم في البرنامج المطبوع في بيان ترتيب الاحتفال

كادوا يختمون الاحتفال بعد خطاب فارس افندي نمر لولا ان اقترح بعض المصريين الحاضرين على صاحب هذه المجلة الصعود الى الدكة والقاء شيء مما يفتح عليه به . وقد تمنعت معتذرا بان الاحتفالات المنتظمة التي يعين فيها عدد الخطباء وموعد الالقاء لا يحسن ان يتطفل عليها ففطن لذلك بعض العثمانيين من الأرمن وغيرهم فاختطفوني من مجلسي وأصعدوني الى دكة الخطابة فتلقاني الاسقف والقسوس بالحفاوة وبعد العناق التفت الى الجمهور إجابة لما اقترحه المقترحون وقلت والتصفيق والهتاف يكاد يبلغ عنان السماء ماخلاصته :

قد رأيتم أيها السادة انني اختطفت من مكاني الى هذا الموقف الذي أثر في وجداني تأثيرا لم يدع لتصور الكلام وتدبيره مجالا فمهما سمعتم مني فأنا معذور بالتقصير فيه

قد رأيتم انني عانقت هؤلاء الاحبار والقسيسين وأنا رجل من رجال الدين الاسلامي ولا بدع في ذلك فان شيخنا الا كبر شيخ الاسلام قد سبقني الى ذلك فعانق البطرك في دار السلطنة وان القانون الاساسي الذي نلنا به هذه المساواة التي نحتفل بها لم ننله الا بمساعدة شيخ الاسلام الحال فقد روي لنا ان السلطان كان يريد قمع الحركة العسكرية الطالبة للدستور بالقوة فاستفتى شيخ الاسلام في ذلك فلم يفته بل قال ان قتالهم غير جائز شرعا لانهم يطلبون طلبا شرعيا . وقد كان أحد مشايخ الاسلام من واضعي هذا القانون مع مدحت باشا واخوانه فهذا القانون قد وضع بفتوى من أحد شيوخ الاسلام وأعيد الآن بمساعدة شيخ الاسلام فهو موافق للاسلام

لا أقول هذا تقليدا للشيخين فانني أقول ماأقول في الاسلام عن علم وبصيرة ويعلم كثير من الارمن الحاضرين انني من مؤسسي إحدى جمعيات الاحرار التي سبقت غيرها الى التأليف بين جميع العثمانيين بالفعل قبل أن تفكر في ذلك جمعياتنا في أوروبا بل ان هذا الفقير هو رئيس اللجنة المؤسسة لهذه الجمعية التي من بعض أعضاء ادارتها أحد خطباء الارمن النجباء في هذا الاحتفال

وانما احتججت بشيخ الاسلام السابق وشيخ الاسلام الحال تنويها بفضلها

وإقامة الحجة على من يزعمون ان المسلمين متعصبون أو ان دينهم ينافي الحرية والمساواة — وعلى بعض الجاهلين من المسلمين الذين يظنون انهم بالتعصب الذميم يخدمون الدين وإنما هم يجنون عليه بذلك

ثم انتقلت الى الكلام عن المساواة التي ابتهج بها العثمانيون كافة و بينت انها مما جاء به الاسلام ثم قلت :

يقولون ان فرنسا هي أم الحرية والمساواة . نعم ولا ينكر فضل فرنسا أحد ولكن العثمانيين أجدر من الفرنسيين بالفخر بالمساواة . ان فرنسا أمة واحدة ، جنسها واحد ، دينها واحد ، مذهبها واحد ، لغتها واحدة ، تربيتها واحدة ، فأي غرابة في طلب عقلائها وفضلائها المساواة بين أفرادها بعد ان عرفوا ما لهم على حكومتهم وما عليهم لها بل ما ينبغي ان تكون عليه وهم متفقون في هذه الوحدات كلها ؟ لا غرابة ولا عجب

اما نحن العثمانيين فاننا قد جمعنا من اشتات الاجناس المتفرقين في كل شيء مالم يجتمع في مملكة اخرى . نحن متفرقون في الاجناس والانساب ، متفرقون في اللغات ، متفرقون في الدين ، متفرقون في المذاهب ، متفرقون في طرق التربية والتعليم — أو نقول في الجملة اننا متفرقون في كل شيء يتفرق فيه الناس . فان كنا على هذا كله نطلب المساواة ونحتفل بنيلها في المعاهد العامة والمعابد الدينية فلا شك ان في هذا مجالا للفخر وموضعا للعجب

وقد يتساءل عن سبب ذلك ويظن انه مخالف لقوانين الاجتماع الانساني لاسيما بعد أن برَّح الاستبداد بنا تبريحا زاد في مسافات الخلف بين الطوائف والملل اتساعا وملأ القلوب إحنة و بغضاء .

ولكن المتأمل فى ذلك يرى له سببا طبيعيا ظاهرا وهو ذلك الاستبداد الذي زاد فى التفريق والتمزيق ، ذلك الاستبداد نفسه هو الذي مزقنا أولا ثم جمعنا ثانيا ، كيف كان هذا ؟ إنما كان بالمساواة فى الظلم وتعميم الاستبداد فلولا ان الاستبداد كان عاما واقعا على جميع العثمانيين بالمساواة في الجملة لما كان الاندفاع إلى طلب المساواة بالدستور عاما

كان ظلم الاستبداد واقعا على رأس المسلم والنصراني وغيرهما ، كان عاما شاملا للتركي والعربي ، والارمني والكردي ، والالباني والرومي ، فهذه المساواة هي التي جمعت كلمة الاحرار العقلاء من جميع هذه الطوائف على تمني المساواة في العدل الذي قرره الدستور ، وهو الذي نهض بهمة العاملين من هؤلاء الاحرار الى طلب ذلك بكل وسيلة ممكنة ، وهو الذي هز أريحية جميع العثمانيين للاحتفال بالدستور بعد الظفر به بسعي جمعياتهم وقوة ضباطهم وجيشهم — فاذا كانت المساواة في الشر قد أدت الى هذا الخير فما أعظم فائدة المساواة وما أعم بركتها : فحيا الله المساواة

فنحن العثمانيين جديرون بالفخر بالدستور اذ غلبنا الاهواء والموانع الناشئة من اختلافنا حتى نلناه ، جديرون بالاتفاق على الاحتفال به واقامة الاعياد العامة له ، جديرون بالمحافظة عليه ، جديرون بالتنويه بالاحرار الذين نجحوا في نيله ، و بالدعاء والذكر الحسن لمن مات منهم شهيدا في سبيله

ثم اعتذرت عن الاطالة بذهاب الوقت المعين وبما ألمّ بالحاضرين من الجوع والسآمة . وقد كان لكلام هذا العاجز من حسن الوقع والتأثير فوق ما يستحقه . دل على ذلك ما ظهر على وجوه الحاضرين ولما كان من شدة التصفيق وتكرره ، ثم التهاني التي سمعتها في الكنيسة و بعد الخروج منها ، في ذلك اليوم و بعده بأيام ، وكان أكثر المهنئين تلطفا في التهنئة واطراء في الثناء أولئك الخطباء البلغاء الذين سبقوني بخطبهم المفيدة كالدكاترة شرف الدين بك و برتو كاليس بك وفارس افندي نمر حتى قال هذا الاخير ان تأثير هذه الوقفة أعظم من تأثير المنار في عشر سنين أي فيما يتعلق بمشرب المنار في التساهل والدعوة الى الوفاق والوداد بين المسلمين وغيرهم . وممن كرر لنا التهنئة بذلك الدكتور نجم الدين بك عارف من فضلاء الترك المقيمين بمصر والعارفين بالعربية وجمهور أحرار الارمن بل كان ابتهاج هؤلاء عاما فنسأل الله تعالى أن يديم علينا معشر العثمانيين نعمة الوفاق والتوفيق لحفظ الدستور والاستفادة التامة منه

الصحف في البلاد العثمانية

لم تكد الاحتفالات تنتهي في عاصمة السلطنة وسائر بلادها، حتى طفق أهل العلم والفضل يدون الجرائد بآرائهم وأفكارهم، وانبرى الأديبات في الاستانة خاصة للكتابة، بعدان وقفن ذلك الموقف المشهود في الخطابة، فأكد لنا الخبر الخبَرَ وهو ما كنا نسمعه عن الارتقاء الأدبي العظيم في الاستانة وغيرها من ولايات الدولة ولا مراء في ان هذا الانقلاب الاخير، نتيجة ذلك الارتقاء الكبير

تسابق الناس الى طلب إنشاء الجرائد والمجلات ولا سيما في الاستانة حتى بلغ عدد ما أنشئ فيها وحدها حتى الآن مئتين وعشرين ما بين جريدة ومجلة وقد صدر في بقية البلاد مايقارب ذلك ومن ذلك ثماني جرائد هزلية مصورة رأيناها معتصمة بحبوة النزاهة والادب بعيدة عن المجون وسخيف الهزل ولاريب في ان اعمال المرء هي مرآة لاخلاقه ينطبع فيها مايحمد وما يذم وعسى ان تكون هذه الجرائد الهزلية في مسلكها الادبي قدوة لكثير من جرائدنا الكبرى التي أصبحت مجموعة للشتائم والتفنن في أساليبها حتى صار كثير من الادباء يصدفون عن قراءة الجرائد العربية

رأيت في جريدة « قلم » إحدى الجرائد التي نوهت بها في صدر هذا المقال رسماً أثر فيَّ تأثيراً لم أعرفه منذ وجدت، أحدث في فؤادي اضطرابا، وفي جسمي رعدة عظيمة، وقشعريرة قوية الشكيمة، حتى كدت لا أملك نفسي على دفع البكاء ثم تلا ذلك انكماش وسكون، وفتور وذهول

ذلك الرسم يمثل هيكلا منتصبا من العظام يحكي رسوم علماء التشريح (Physiologie) التي توضع للدلالة على اعضاء الانسان، لا لما وضعه صاحب الجريدة وهو تلاوة العفو على هذا الهيكل من السلطان ! ! ! يرى الرائي ذلك الهيكل والأداهم والقيود مطوقة يديه ورجليه كأنه من بقايا المغضوب عليهم من نيرون العاتي الروماني وأمامه رجل يتلو عليه نبأ العفو عن السياسيين ! فكأن الرسم يقول له : اعزب عني فقد جئت بعد وقتك بزمان طويل وما أكثر الذين ذاقوا من وبال حكومة الظلم السابقة ما يجعل هذا الرسم ينطبق عليهم تمام الانطباق

ورأيت رسما آخر يمثل سجينا اخنت عليه السنون ، واذاقه الظلاّم عذاب الهون، فتبدلت خلقته، وتغيرت سحنته، وانسدل شعره على كتفيه، وملأت لحيته صدره، وطالت اظفاره ، حتى صدق عليه قول عنترة في الاسد : « له لبد اظفاره لم تقلّم » وما كانت حياة أبي الاحرار مدحت باشا في منفاه (قبر الاحياء) الا كحياة هذا السجين

ظهرت الجرائد في حياتها الجديدة فرأينا فيها المباحث المستفيضة في السياسة والعمران والاجتماع وكلها تدل على اختبار منشئيها، وسعة علم كاتبيها، و بعد غورهم في السياسة، وحسن أسلوبهم في استمالة الدول، ولاسيما صديقتي دولتنا القديمتين انكلترا وفرنسا، حتى مالتا الينا وقرظتا احرارنا أحسن تقريظ، وحتى أصبح أحد وزراء فرنسا من قبل يقول في خطبة له : « ان احرار تركيا أعظم من رجال الثورة في فرنسا » وناهيك صدور هذا القول من فرنسي دع انه من مشهوري رجال السياسة لان الفرنسي يملأ ماضغيه فخراً برجال الثورة، ويعترف بأنهم فوق كل البشر، بل أصبح ساسة الانكليز يكتبون عنا مثل الفقرة الآتية من مقالة لجريدة الدايلي تلغراف الكبرى : « وأكبر واجب على انكلترا في الحال الحاضرة ان تساعد بكل قواها رجال الاصلاح في السلطنة العثمانية وتراقب مراقبة حبية عمل أية دولة تحاول بذر بذور الشقاق في البلقان أو أي عمل يراد به مناوأة رجال تركيا الفتاة في شؤونهم » واذا لم نجن من صداقتنا لهاتين الدولتين الكبريين فائدة الا صدهما لباقي الدول عن عرقلة مساعينا وايقاف سير أعمالنا لكانت خير فائدة

كانت الجرائد قبل هذا الانقلاب تكتب بغير اقلام أصحابها ، وأريد بذلك انها كانت تكتب ما يراد منها من اطراء أعمال الحاكمين، وتقديس البغاة الظالمين، لا ما تريد من المباحث التي تعود بالنفع والخير على البلاد والعباد ، على ان كثيراً من أصحاب الجرائد كانوا مغبوطين بتلك الحال التي جعلتهم في مصاف الاغنياء والعظماء — عظماء ذلك العصر المظلم الذي كانت العظمة فيه عبارة عن الخيانة والجاسوسية والوساطة بين الحاكمين والمحكومين لهم بالرشى وأكل أموال الناس بالباطل

ولكن جرائد الاستانة كانت على شدة المراقبة والسيطرة عليها تكتب في شؤون الزراعة والصناعة والادب وما في معنى ذلك مما لا علاقة له بالسياسة كل

مفيد ، اما جرائد سوريا و باقي الولايات فكانت دون اخواتها في الاستانة في المباحث ، وأوغل منهن في تقديس السلطة الجائرة ، والفئة الباغية الخاسرة ، ثم لا تزال بعد التمتع بالحرية متخلفة عنها بمراحل ، فعسى ان تغذ في سيرها ، وتجتهد في إدراك شأوها ، فلا تضع نفسها منها موضع الظالع من الضليع ، ورجاؤنا كبير في الذين عقدوا النية على إنشاء جرائد جديدة في تحقيق الأمل كصديقنا الشيخ أحمد حسن طبارة الذي أصدر جريدته (الاتحاد العثماني) وصديقنا عبد الغني افندي العريسي فانه عزم هو وحسن افندي بيهم الشهير على إصدار جريدة يومية سماها (المفيد) واذاع صديقانا جرجي افندي يني وأخوه صموئيل افندي نشرة ذكرا فيها انهما سينشآن مجلة علمية أدبية سياسية دعواها المباحث فسرنا هذا النبأ لأن الكاتبين ضليعان بما انتدبا له

***

استغرقت المباحث السياسية اقلام الكتاب حتى يكاد من ينظر في جرائد الاستانة في هذه الآونة لايرى فيها مقالة أدبية أو بحثا اجتماعيا أواخلاقيا الا فيما ندر وهم لم يتناولوا المرأة في بحثهم البتة لذلك انبرت عاطفة جلال احدى فضليات بنات الاستانة وكتبت مقالة تستنكر فيها ذلك وقد بحثت في شأن المرأة بحثا مفيدا ودعت الكتاب الى مشاركتها في موضوعها ، نشرت المقالة في جريدة « ثروت فنون » بعنوان « اليس لنا نصيب في الرقي » وترجمتها « الجريدة » بالعربية وانا ننقلها عنها بنصها مع تصحيح قليل قالت :

« نقرأ الجرائد فلا نراها تكتب في المرأة الا شذرات قليلة و بعض مقالات يكتبها بعض السيدات ، فنستغرب من كتابنا تركهم للمباحث الجليلة في رقي المرأة على أنهم يكثرون من كتابة المقالات الضافية الذيول الكبيرة الحواشي في اصلاح الحيوانات الاهلية ونراهم حلقوا باقلامهم في جو الصين واليابان وما فكروا قط في اصلاح أحوال المرأة ، كأن المرأة في نظرهم لاتعد من الانسان ، أو هي في درجة أقل من درجة الحيوان ، أوكأن المرأة لاتزال في اعتبارهم معدودة من الزينة غير المفيدة ، أو من متاع البيت .

نرى حضرة المحرر الشهير والكاتب البارع مشتاق بك يملأ أعمدة الجرائد بالكتابة عن شركة البواخر ولم نره يكتب عن اصلاح المرأة كأن اصلاح المرأة في نظره ليس له من الاهمية في الهيئة الاجتماعية مالشركة السفن

ينصح لي بعض الاعيان بأن أقرأ ثلاثا واكتب واحدة ! حبا وكرامة فاني أقرأ خمسا واكتب واحدة واذا أرادوا الزيادة فلا أكتب شيئا واقرأ عشرا ولكن هل لهم ان يتفضلوا هم ويكتبوا فيغنوني عن الكتابة

نحن نعد أنفسنا من بني الانسان ونطلب أن يكون لنا نصيب في الهيئة الاجتماعية ولقد سكت الكتاب العثمانيون عن البحث عن حقوقنا مع ان الانسانية تقضي عليهم أن لا يسكتوا وان يطلبوا اصلاحنا قبل أن نطلبه نحن

نحن نرى مباحث الصحف منحصرة الى الآن في كيف تكون زينة المرأة كأن المرأة اذا ذكرت لا يتبادر من ذكرها الا انها (ألعوبة مزينة) ولا يخطر على بال الباحث في هاته الصحف ان المرأة كالرجل لها ماله وعليها ماعليه. فيجب أن لا يقتصر الباحثون على زينة المرأة كلما أرادوا البحث في شأنها ومن يقتصر على ذلك يهين المرأة ويجرح عواطفها . ونحن نريد أن نزين عقولنا قبل أن نزين أجسادنا وهذا لايكون الا بالتربية والتعليم وفتح أبواب المدارس في وجوه الفتيات

اقترحت حضرة فاطمة هانم افندي في مقالتها التي نشرتها «ثروت فنون» أن تؤخذ سراي رضوان باشا وتجعل مدرسة للبنات، واما انا فأرى أن تفتح مدرسة للبنات حيثما كانت وكيفما وجدت. وقد استحسنت الكاتبة أن يتضمن بروجرام المدرسة تعليم التطريز والامور المنزلية باللغتين التركية والانكليزية ورأيي انه متى كان التدريس جيدا مفيدا فليكن باية لغة كانت . واذا وفقت فاطمة هانم افندي الى انشاء هذه المدرسة فلتعدني خادمة فيها فان لم استطع ان أقوم بوظيفة التعليم والتدريس فاني أكون من جملة المتعلمات لأن في التعلم والتعليم خدمة للوطن، وأؤكد أن بيننا من النساء من هي واسعة الاطلاع عارفة بحاجات الامة

المرأة تمثل في الهيئة الاجتماعية نصف أدوار قصة الحياة فلو عرف الكتاب الكرام هذه الحقيقة واعطوها حقها من البحث لقاموا بخدمة وطنية عظيمة، واظن انهم اذا فعلوا

ذلك بقيت عظمتهم الكتابية في المنزلة التي لاتمس بسوء فهل يرضى أولئك الكتاب ان يشتغلوا في كثير مما لافائدة منه واناوامثالي من الفتيات نادي بانشاء المدارس ونحن لا نزال في دور التحصيل ؟ » اه

فعسى ان نرى في فتياتنا من ينهجن نهج الكاتبة القويم ويذهبن مذهبها في وجوب التربية والتعليم

وقد ورد في الانباء الاخيرة ان مشيخة الاسلام اعلنت بأنها ستصدر جريدة شبيهة بالرسمية، تنشر فيها مزايا الدين الاسلامي، ودحض التأويلات و بيان فسادها، ورد الشبهات التي يرمى بها ، هديا للناس، ودفعا للخرافات والاوهام، فسرناهذا النبأ كثيرا لان مثل هذه الجريدة ستقطع السنة كثير من الحشويين والممخرقين، وتقضي على التقليد والمقلدين ، فتكون عونا للمنار على تأييد مبادئه التي جاهر بها منذ سنين

حسين وصفي رضا

البرنامج السياسي

« لجمعية الاتحاد والترقي »

نشرت جرائد الاستانة هذا البرنامج ليكون محورا تدور عليه سياسة الدولة فأحببنا نقله عنها لقراء المنار وهذه ترجمته بالحرف :

١ — جعل الوزارة مسئولة بصورة مطلقة أمام مجلس المبعوثان وعلى ذلك تعد الوزارة مستقيلة اذا لم تحز اكثر الاصوات في المجلس

٢ — لا يكون مجلس الاعيان (الشيوخ) مقيداً بالمادة ٦٢ ولا يزيد عدد اعضائه عن ثلث اعضاء مجلس المبعوثان ويعين السلطان ثلث اعضائه وتنتخب الامة ثلثيه لمدة معينة

٣ — سيطلب ان يكون لكل من بلغ سن العشرين من الذكور حق الانتخاب للدرجة الاولى سواء أ كان من أصحاب الاملاك أو لم يكن بشرط ان يكون من رعايا الدولة ماعدا الذين سقطوا من الحقوق المدنية فليس لهم هذا الحق

٤ — سيطلب اضافة مادة صريحة صراحة تامة للقانون الاساسي تبيح الحرية في انشاء جمعيات سياسية بشرط ان تراعي في ذلك المادة الاولى من القانون الاساسي

٥ — سيطلب وضع قوانين خاصة لوجوب تنفيذ قانون توسيع السلطة الادارية في الولايات الوارد ذكرها في المادة ١٠٨ من القانون الاساسي بشرط ان لاتحل الرابطة الموجودة الآن في ادارة الولايات

٦ — يتوقف تعديل وتبديل التقسيمات الادارية في الولايات الآن على رأي مجلس المبعوثان وإنما يجب الاسراع في بعض التعديلات من حيث قرب القرى والنواحي أو بعدها باعتبار مواقعها مما يسهل ادارة الامور

٧ — ان لغة الدولة هي التركية وستكون جميع مخابرات الحكومة بهذه اللغة

٨ — أن يكون لمجلس المبعوثان حق وضع القوانين من غير قيد بشرط أن يطلب ذلك عشرة من اعضاء المجلس على الاقل

٩ — كل شخص له أن يتمتع بالحرية التامة والمساواة مع كل الرعايا بصرف النظر عن جنسه ومذهبه وهو مكلف بما يكلف به كل عثماني بصرف النظر عن جنسه ومذهبه . وبما ان كل الرعايا العثمانيين متساوون أمام القانون ولهم الحق في وظائف الحكومة فكل فرد تتوفر فيه شروط الكفاءة يوظف في الحكومة بحسب مقدرته وكفاءته كما ان الرعايا غير المسلمين ينتظمون في سلك الجندية

١٠ — الاديان حرة وستبقى الامتيازات الدينية المعطاة للطوائف المختلفة على ما كانت عليه

١١ — سيطلب تنظيم القوى الحربية والبحرية حسب ما يقتضيه الزمان والمكان ومركز الدولة السياسي بين الدول وسيطلب تقليل مدة الخدمة العسكرية بشرط ان لا تضر بتمرين الجيش واستكماله لاسباب القوة

١٢ — إلغاء الفقرة الاخيرة من المادة ١١٣ الواردة في القانون الأساسي المنافية للحرية الشخصية

١٣ — اقتراح وضع قوانين تعين حقوق العمال وأصحاب الاعمال المتقابلة

١٤ — سيطلب التذرع بالوسائل الموصلة الى توزيع الاراضي على الفلاحين

بشرط ان لا يخل ذلك بحقوق تصرف ملاَّك الأراضي المعترف بها قانونا وان تسهل السبيل لاقتراض الفلاحين النقود بأرباح قليلة

١٥ — سيطلب قبول أصول (التخميس) في أمور الاعشار بصفة موقتة بشرط ان تبنى على أساس صحيح وتجرب في الحال وفي الجهات القابلة لمثل هذه التجربة وتطبق فيما بعد أصول (قاداسزو) بالتدريج

١٦ — التعليم حر البتة فكل عثماني له ان ينشيء المدارس حسب القانون الخاص بذلك كما ورد في القانون الاساسي

١٧ — كل المدارس تكون تحت اشراف الدولة والامل صيرورة تربية الرعايا العثمانيين كلهم على نسق واحد ونظام تام فتنشأ مدارس مختلطة حرة عمومية تفتح ابوابها لكل العناصر ويكون فيها التدريس حرا وتعليم اللغة التركية في القسم الابتدائي اجباريا والتعليم الابتدائي مجانا في المدارس الرسمية وأما التدريس الثانوي (الاعدادي) والعالي فانه سيكون في المدارس العمومية الرسمية المار ذكرها بشرط ان يكون التعليم باللغة التركية ويتسرع بالوسائل الجدية لوضع بروغرامات تتكفل بالمصلحة وايجاد معلمات ومعلمين اكفاء . وتنشأ مدارس للتجارة والصناعة والزراعة لترقية أحوال الدولة الاقتصادية. أما المدارس المنوط بها تعليم الدين بصورة خاصة فانها مستثناة مما ذكر

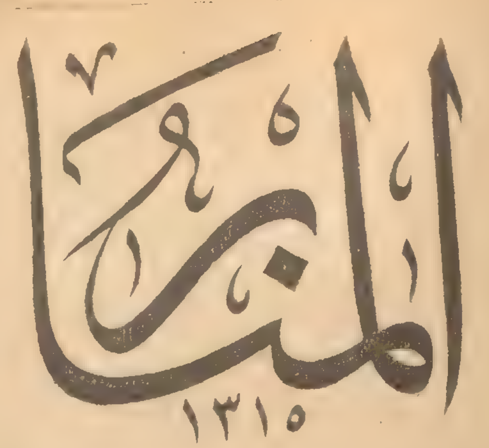
١٨ — توجه العناية الى ترقية احوال الامة والمملكة الزراعية والاقتصادية والعمرانية ويتوسل الى ذلك بالاسباب المؤدية الى المطلوب

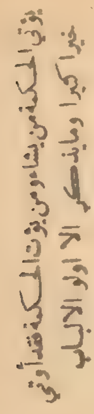
١٩ — سيقترح تعديل انتخاب المبعوثان وجعله موافقا لهذا البرنامج بحيث لا يبقى أقل ملاحظة من قبل الحكومة تعرقل سير الانتخابات عن السير بكل حرية

٢٠ — سيقترح أن يكون لكل عثماني حائز الاوصاف المطلوبة الحق في ترشيح نفسه لعضوية مجلس المبعوثان في أي بلد من البلاد العثمانية

٢١ — يمكن تعديل مواد هذا البرنامج حسب ما تقتضيه احوال الزمان وبقرار اجتماع عمومي ويمكن أيضا إلغاء بعض المواد أواضافة مواد أخرى عليه

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب





قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿ مصر — الأحد ٣٠ رمضان ١٣٢٦ — ٢٥ اكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٩٠٨ ﴾

الخطبة الأولى

﴿ من خطبنا الاسلامية في الديار السورية ﴾

ألقيناها على منبر جامع المجيدية في بيروت بعد صلاة العصر وصلاة جنازة الغائب على المصلحين الكرام السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده المصري وعبدالرحمن افندي الكواكبي السوري وذلك في يوم الخميس ٢٨ من شهر شعبان. وقد لخص هذه الخطبة بعض من حضرها من الادباء بما يأتي مع تصحيح وتوضيح:

السلام عليكم ورحمة الله

الحمد لله ، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وصحبه ومن والاه ، و بعد فان الاسلام دين سهل سائغ موافق للفطرة البشرية ، قام به أهله عند ظهوره خير قيام ، وليس لهم كتاب غير القرآن ، ولم يكن القرآن في أول الامر مصحفا مجموعا كما هو الآن ، وانما كتبت

آياته على الجلود والعظام وسعف النخل ، ثم جمعت في مصحف واحد باجماع الصحابة ، فالاسلام هو هذا الكتاب الحكيم ، وما بيّنه من سنة النبي الكريم ، صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانُزّلَ اليهم)

إني سائلكم : أهذا هو الاسلام الذي غير وجه الارض ، ونقل البشر من طور إلى طور ، ؟ نعم إنه لهو ، ولو أخذته اليوم طائفة من المسلمين بقوة كما أخذه الأولون لغيرت وجه البسيطة مرة ثانية كما غيره سلفها من قبل ، ولست أعلم لماذا رغب المسلمون عن القرآن وذهبوا يؤلفون الكتب الكثيرة في الدين وقد رأينا ان الاشتغال بهذه الكتب مع الاعراض عن القرآن ما زاد الاسلام إلا ضعفا ، والمسلمين إلا خسفا .

أنزل الله دينه على نبيه (ص) فعمل به أولئك الأميون من عرب الجاهلية وهم على ما تعلمون من التفرق والتعادي والفساد ، فعلمهم الاسلام وهذبهم وأخرجهم من الظلمات إلى النور كما قال تعالى (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين)

من المعلوم في طبائع البشر انه لا يتربى ويتزكى بعد الكبر الا أفراد قلائل من أصحاب الاستعداد العالي ، لان الاخلاق متى رسخت في النفس قلما تتغير ولكن أولئك الصحابة الذين غيروا وجه الارض قد تربوا بعد الكبر تلك التربية التي كانوا بها أئمة وكانوا هم الوارثين .

نشأوا يعبدون الاصنام ، ويئدون البنات ، ويستحلون السلب والنهب ، الا انه كان فيهم استعداد لهذا الاصلاح الذي ساقه الله اليهم : كان فيهم ذكاء عقل واستقلال فكر وقوة إرادة ، فلما فهموا الاسلام قبلوه وأيدوه ونصروه ، وحملوه الى غيرهم ونشروه .

إن الاسلام دين عام لجميع البشر ، ليس خاصا بمن ظهر فيهم أولا من العرب ، ولكن لماذا ظهر هذا الدين الحكيم في تلك الامة الجاهلية ، ولم يكن بدء ظهوره في أمة من أمم المدنية كالمصريين والروم ، واليونانيين والفرس ! ؟ السبب في ذلك

عظيم جدا يتعلق بالاستعداد وهو ما كانت عليه العرب من سذاجة الفطرة واستقلال الفكر والإرادة

كانت الاديان والحكومات بما طرأ عليها من الفساد قبل الاسلام قد أضعفت استعداد تلك الامم بما طبعتهم على التقليد والخضوع والخنوع لرؤسائهم، والجمود على تقاليدهم وعاداتهم، فاذا دعي أحدهم الى إصلاح جديد قال من فوره : ان هذا يخالف ما وجدنا عليه آباءنا فان لم يمنعه من الاستجابة التقليد لسلفه في الدين، منعه ماطبع عليه من العبودية لحكامه الظالمين ، واما العرب فلم يكن لهم من العلوم والمعارف الدينية وغير الدينية مايحقر في أنفسهم ما يلقى اليهم من دين أوعلم جديد ، ولم يكن لهم من الحكام المستبدين من يفسد عليهم بأسهم ، ويذهب بعزيمتهم ، بل أعدهم لذلك بطبيعة البدواة وسذاجة الفطرة، فجعلهم من أهل الشجاعة التي هي مظهر استقلال الإرادة ، والحرية التي هي مظهر استقلال الفكر ، فكان فيهم كثيرون إذا دعوا إلى الحق والخير فقهوا الدعوة، واذا اعتقدوا الشيء قاموا ودافعوا عنه بالقوة ، لذلك أنزل الله عليهم كتابه ، و بعث فيهم رسوله ، فاستجاب له من سمع ووعى وقالوا إنا نمنعك (أي نحميك) مما نمنع منه أنفسنا وأهلنا، وقام الاسلام بهم خير قيام ، حتى كان من أمره وأمرهم ما كان ،

هذه مقدمة يمكنني أن أبين بعدها ماهي حقيقة الاسلام ليعلم غير العالم من الحاضرين ويتذكر أولو العلم منهم أن المسلمين يسهل عليهم اليوم ان يعرفوا دينهم ويهتدوا به من غير حاجة إلى مدارس تدرس فيها الكتب الكثيرة

الاسلام أمر سهل جدا وهو عبارة عن الرجوع إلى الفطرة البشرية ، وماهي الفطرة البشرية ؟ هو ما انطوت عليه نفسك من الإذعان للسلطة الغيبية واختيار ما تعتقد انه الخير والمصلحة قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) إلا ان الفطرة يعرض لها الفساد بالجهل وسوء القدوة فاذا ذكر صاحبها بآيات الله فاهتدى بها رجعت الى أصلها (لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم) فحصل مقصد الاسلام وحينئذ يجد المسلمون سعة في الوقت لتحصيل

ما يحتاجون إليه من العلوم والفنون وما يترتب عليها من الاعمال والصناعات التي تقوى بها أمتهم وتعتز دولتهم

قلنا ان الاهتداء بالاسلام لايتوقف على درس الكتب الكثيرة ، والاعمال التي تستغرق الاوقات، وذلك ان الاسلام مبني على ثلاثة أسس: (الاول) إصلاح العقل بالعقيدة المطهرة للجنان، المبنية على البرهان (الثاني) إصلاح النفس بتزكيتها وتطهيرها من الرذائل ، وتحليتها بالفضائل (الثالث) إصلاح الاعمال من العبادات والحقوق التي يستقيم بها أمر الافراد وترتقي الهيئة الاجتماعية

الاساس الاول ينى عليه الإيمان بوجود الله تعالى ووحدانيته ومعناها انه سبحانه وتعالى هو المتفرد بالسلطة الغيبية العليا التي تلجأ اليها النفوس عند العجز عن الاسباب والسنن ، فلا ينفع غيره ولا يضر سواه الا ما يتعامل به الناس بالاسباب التي سخرها الله لهم بحكمته ، وأقدرهم عليها بمشيئته ،وانه منزه عما لايليق به من صفات الحوادث وما يلم بالبشر وغيرهم من النقص، وانه هو المتفرد بشرع الدين والتحليل والتحريم. ويتلو ذلك تصديق الانبياء فيما جاؤا به من الوحي والايمان بعالم الغيب من الملائكة والجزاء على الاعمال التي تزكي النفس فترفعها الى عليين ، أو تدسيها فتلقيها في أسفل سافلين ، فهذه العقيدة تصلح العقل باطلاقه من العبودية لبعض البشر او المظاهر الطبيعية وهي الوثنية التي أفسدت عقول الاولين، والخضوع الاعمى للرؤساء المسيطرين، وكل ذلك مبين في القرآن أكمل تبيين ، مؤيد بالدلائل والبراهين

الاساس الثاني ينى عليه تزكية النفس من الاخلاق الذميمة، وتحليتها بالاخلاق الحسنة ، واذا تهذبت اخلاق الناس صلح أمرهم ، واستقام نظامهم ، وقد فصل لنا القرآن ما نحتاج اليه من ذلك تفصيلا

الاساس الثالث تبنى عليه العبادت والآداب العملية ، وقد بين القرآن ذلك بالاجمال ووكل بيانه بالتفصيل الى النبي (ص) فكان يعلمه الناس بالعمل وعبر عن ذلك بقوله « صلوا كما رأيتموني أصلي » وكذلك كان الصحابة يعلمون من دخلوا في الاسلام على أيديهم فلم يقل احد انه كان لهم في الشام ومصر وفارس كتب يعلمون بها الناس دينهم عند ما كانوا يدخلون في الاسلام .ولكن المسلمين دوّنوا عبادتهم

في الكتب وا كثروا فيها من الاقسام والفروع والاصطلاحات حتى وصلنا الى أزمنة صارت فيه هذه الكتب صعبة لا يتيسر للا كثرين درسها وتعلمها، فتركها السواد الاعظم وصارت دراستها محصورة في فئة تستفيد منها في دنياها كمريدي القضاء والفتيا والتدريس. على انهم على طول مزاولتها لا يستغنون عن اخذها بالعمل فقد حدثني أحد كبار العلماء انه قرأ كتاب الحج مرارا كثيرة ولما أراد ان يحج لم يستغن عن المطوفين الذين يعلمون العوام مناسكهم بالعمل. وتعلم العبادات بالعمل سهل جدا وما لا بد فيه من القول يمكن ان يقال في مجلس واحد، وقد كان النبي (ص) يعلم الاعرابي دينه في مجلس واحد، فاذا عاهده على العمل به رضي منه وقال «افلح الاعرابي ان صدق»

التاريخ يخبرنا بان الاسلام انتشر في مدة قليلة في ممالك كثيرة لسهولته، وأية سهولة على المرء اسهل عليه من مجاراة فطرته وتقويم مايعرض لها من العوج. فالاسلام يدعوكم الى مافي فطرتكم من الميل الى اختيار مافيه الخير والمصلحة، ولذلك يرشدنا الى التذكر في مواطن كثيرة من مواطن هدايته فيقول (لعلكم تذكرون — لقوم يتذكرون — وما يتذكر الا من ينيب) وانما يتذكر الانسان ما كان يعلمه ثم نسيه او غفل عنه، فكأنه يرشدنا بذلك الى ان مايدعونا اليه من الخير هو مما أودع في فطرتنا ثم غفلنا عنه بسوء القدوة وفساد التربية — فدين الاسلام اسهل الاديان لا حرج فيه ولا مشقة (مايريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون * يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) فاذا كان على سهولته و يسره كافلا لسعادة الدنيا والآخرة فأي عذر لنا اذا أهملناه وتركنا هدايته !؟ (ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه) يرضى بأن يكون كالدواب لا يهمها الا علفها أو كالكلاب العاقرة ينهش بعضها بعضا

ربما يعترض بعض الناس على ما أقول من أن تلقين الدين لا يشغلنا عن تعلم العلوم والفنون الدنيوية التي هي مبادئ الصناعات التي تعتز بها الامة وتقوى الدولة حتى تكون في مصاف الدول الكبرى، لانهم يزعمون ان الدين ينهانا عن ذلك ولو لم يوجد فينا أمثال هؤلاء لما وصلنا الى ما نحن عليه الآن من الضعف والانحطاط في الثروة والقوة

نحن اليوم في حالة لا تخفى على أمثالكم · صرنا وراء جميع الامم والذنب في ذلك علينا لا على الاسلام · فالاسلام لم يجن علينا وانما نحن جنينا عليه وعلى أنفسنا اذ جعلنا بيننا وبين القرآن حجبا كثيفة فأعرضنا عنه وعن العلوم التي نحفظ بها بيضتنا

كانت العلوم الرياضية والطبيعية عند ظهور الاسلام مندرسة ليس لها سوق نافقة عند أمة من الامم فأحياها المسلمون عند ماظهر الاسلام ونفذت شوكته · ومن العجب أن الجامدين الذين يحرمونها اليوم يعترفون بأن أولئك الاساطين الذين درسوها من علمائنا هم خيرة علمائنا !

الانقلاب العثماني (*)

﴿ وتركيا الفتاة ﴾

الفرق بين الانقلاب والثورة

الانقلاب في اصطلاح المؤرخين تغيير مهم في حكومة الدولة وقلب في قوانينها، وهو غير الثورة التي بمعنى العصيان والخروج عن الطاعة والقيام على الحكومة المشروعة، والفرق بين الانقلاب والثورة كبير، فان الثورة كثيرا ما تضر بمنافع الامة ومصالحها وتصدها عن السير في طريق النجاح ، بخلاف الانقلاب فانه مهما آلم الامة ورضرضها فهو يخطو بها خطوة في التقدم ، ويصعد بها درجة في سلم

(*) رسالة حفيلة جليلة ألفها صديقنا محمد روحي افندي الخالدي المقدسي من أرباب الاقلام المشهورين باستقلال الفكر واصالة الرأي وهو مؤلف كتاب « تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب » وكان وقت كتابتها في « بردو » إحدى المواني الفرنسية وقد رأينا ان أحسن تقريظ لها نشرها في المنار لانها أصدق تاريخ لاعظم انقلاب

النجاح ، وأكثر كتاب العربية لا يفرقون بين الكلمتين ، ويطلقون اسم الثورة على الانقلاب ، فيقولون الثورة الفرنساوية مثلا ، بدل الانقلاب الفرنساوي ، ولم يلتفتوا الى ما روي عن لويس السادس عشر ملك فرنسا لما أخبر بهدم قلعة الباستيل (la Bastille) واطلاق المسجونين فيها فقال: إذاً هذه ثورة (Révolte) فأجابه المخبر : عفوا يامولاي بل هذا انقلاب (Révolution)

فمراد ملك فرنسا ان فعل الثائرين غير مشروع ، ولا حق لخروجهم عن الطاعة ، وجواب المخبر ينافيه ، ويبين ان الانقلاب غير الثورة والعصيان ، فنحن اليوم أحوج الى تعيين معاني الكلمات والى سكب قوالب الالفاظ على قدر المعاني ، لان الانقلاب السياسي من شأنه ان يحدث انقلابا في اللغة والادب ، فضلا عن انقلاب الاخلاق والعادات والافكار ، الا ترى الجرائد العثمانية على اختلاف لغاتها من تركية وعربية وروميـة وأرمنية ويهودية (أسبانية وعبرانية) وبلغارية وفرنساوية والجرائد الالبانية والكردية على وشك الظهور — كيف بدلت لهجاتها بعد حدوث الانقلاب ، وهجرت تلك الالفاظ الفخمة والتعبيرات السقيمة ، التي تغطي المعاني بستار المهابة حتى تستبهم على القارئ ، وتقيد فكره بسلاسل التذليل والاستعباد

الاستبداد يولد الانقلاب

فالذي يولد الانقلاب هو الاستبداد ، ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية، لان قواعد الدين الاسلامي كما يتوهم البعض منا، واكثر الاوربيين الذين يصفون الحكومات الاسلامية بكونها ثيوقراطية أي انها جامعة بين الديانة والسياسة، واحكام المستبد أو المستبدين في الغالب جائرة عن الحق ، مجحفة بمن تحت يدهم من الخلق ، لحملهم اياهم على ماليس في طوقهم من اغراض المستبد او المستبدين وشهواتهم ، ولذا ورد في الخط الشريف السلطاني الذي منح به القانون الاساسي « ان قوة الحكومة تحافظ على حقوقها المقبولة والمشروعة ، وعلى منع الحركات غير

المشروعة اعني بها منع ومحو الخطيئات وسوء الاستعمالات المتولدة من الحكم

الاستبدادي الفردي أو الافراد القلائل ليستفيد جميع الاقوام المركبة هيئتنا منهم نعمة الحرية والعدالة والمساواة بلا استثناء ،وذلك حق ومنفعة حريان بالهيئة الاجتماعية المدنية ...الخ »

الاستبداد والاسلام

فالاستبداد هو منبع الشرور ، وسبب التأخر والانحطاط وقد ورث ملوك الاسلام هذا الاستبداد عن ا كاسرة الفرس وقياصرة الرومان، عن نماردة بابل وفراعنة مصر ، عن جنكيز خان وتيمور لنك .والاسلام أول شريعة اعترضت على الاستبداد وقاومته أشد المقاومة ، وساوت بين أفراد الامة ، وحافظت عن الحقوق والحرية الشخصية، وامنت الاجانب المعاهدين فضلا عن افراد الامة ـ على أموالهم ودمائهم واعراضهم ،ومهدت السبيل للحكومة الديموقراطية ،ووضعت حق الحاكمية في الامة، ولم تكتف باعطائها الحرية في القول والعمل والكتابة والاجتماع ،بل فرضت على كل فرد من افرادها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر،فجعلت الامة مسيطرة على الحقوق العامة، ولم تفرق في الحقوق الخاصة بين المسلمين وخليفتهم والا اولي الامر منهم . ورد في الدرر وهو من أهم الكتب الشرعية « ان الخليفة يقتص منه ويؤخذ بالمال لانهما من حقوق العبد ،ويستوفيه ولي الحق أما بتمكينه أو بالاستعانة بمنعة المسلمين» ولذا حكمت القضاة على اكثر من واحد من الخلفاء وسلاطين الاسلام بردالمال وضمانه ، وانزلتهم عن المنصة ، وأقعدتهم مع الخصم في مجلس الحكم

الاستبداد آسيوي لااسلامي

كان الحال على ماذكر مدة الخلفاء الراشدين ،ومن اقتفى أثرهم كعمر بن عبد العزيز من بني أمية،ثم تغلب الاستبداد الآسيوي على احكام الدين الاسلامي ،وانقلبت الخلافة الى سلطنة واصبح خليفة الاسلام (مقدسا وغير مسؤل) كملوك الافرنج ليومنا هذا، لايقتص منهم ولا يؤخذون بالاموال ولا تستطيع المحاكم إحضارهم ولا إصدار الحكم عليهم، ويرثون الملك كما يرث أحدنا مال أبيه.فاستبدوا بالامر استبداد لويس الرابع عشر الذي كان يقول « الدولة هي انا » و« أموال الرعية انما هي ملك لملكها فاذا

أخذ شيئا منها فقد أخذ حقه!!» واستباحوا التصرف في نفوس الرعية وأموالهم واعراضهم وفي خزائن الدولة و بيت المال وأوقاف المساجد والمؤسسات الخيرية. وصار الوزراء والمصاحبون يقولون «خسرو بكند شيرينست» أي ماأعجب كسرى فهو حسن، فالحسن هو ما استحسنه السلطان والقبيح ما استقبحه السلطان، ولا دخل في ذلك للعقل والذوق، ولا للحكمة والشرع، لانهم أولوا الشرع على حسب غاياتهم واغراضهم

فاذا تصفحت تواريخ الامم الاسلامية في الشرق والغرب تراها مؤسسة على هذا الاستبداد الآسيوي، وعلى جانب من الاستعباد الافريقي، وليس فيها شيء من الحرية الاسلامية ولا المشورة المأمور بها في الآيات القرآنية والاحاديث النبوية، كما قال الله لنبيه: (٣:١٥٣ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر، فاذا عزمت فتوكل على الله، ان الله يحب المتوكلين) وقوله تعالى (٤٢:٢٦ وأمرهم شورى بينهم) وحديث «أنتم أعلم بأمور دنياكم» وأمثاله كثيرة كحديث حلف الفضول المشهورة في التواريخ: وذلك أن قبائل من قريش تداعت الى حلف الفضول الذي عقدته قديما قبائل العرب واشتهر باسم رؤسائهم الفضيل والمفضل، فاجتمعت وجوه قريش في دار عبدالله بن جدعان لشرفه ونسبه، فتحالفوا وتعاقدوا ان لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس الا قاموا معه، وكانوا على ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، وكان ذلك قبل الاسلام، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لقد شهدت مع عمومتي حلفا في دار عبد الله بن جدعان، ما احب ان لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الاسلام لاجبت» فأي شيء اشبه بهذا الاجتماع والتعاقد من البرلمان والمبعوثان؟ لا بل من جمعية الاتحاد والترقي؟ ولقد احسن جدا العلامة المقري في جوابه المذكور في نفح الطيب حيث قال:

« سألني بعض الفقهاء عن السبب في سوء بخت المسلمين في ملوكهم، اذ لم يل أمرهم من يسلك بهم الجادة، و يحملهم على الواضحة، بل من يغتر في مصلحة دنياه، غافلا عن عاقبة أخراه، فلا يرقب في مؤمن إلاًّ ولا ذمة، ولا يراعي عهدا ولا حرمة!

« فأجبته: بأن ذلك لان الملك ليس في شريعتنا، وذلك انه كان فيمن قبلنا شرعا،

قال الله تعالى ممتنا على بني اسرائيل (وجعلكم ملوكا) ولم يكن ذلك في هذه الامة ، بل جعل لهم خلافة ، قال الله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض) الآية وقال تعالى (وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا)وقال سليمان (رب اغفرلي وهب لي ملكا)فجعلهم الله تعالى ملوكا ولم يجعل في شرعنا الا الخلفاء . فكان أبو بكر خليفة رسول الله (ص) وان لم يستخلفه نصا لكن فهم الناس ذلك فهما ، وأجمعوا على تسميته بذلك ، ثم استخلف أبو بكر ع ر فخرج بها عن سبيل الملك الذي يرثه الولد عن الوالد الى سبيل الخلافة الذي هو النظر والاختيار ، ونص في عهده على ذلك ، ثم اتفق أهل الشورى على عثمان . فاخراج عمر لها عن بنيه الى الشورى دليل على انها ليست ملكا ، ثم تعين علي بعد ذلك اذ لم يبق مثله ، فبايعه من آثر الحق على الهوى ، واصطفى الآخرة على الدنيا ، ثم الحسن كذلك ، ثم كان معاوية أول من حوّل الخلافة ملكا ، والخشونة لينا ، ثم ان ربك من بعدها لغفور رحيم ، فجعلها ميراثا ، فلما خرج بها عن وضعها لم يستقم ملك فيها . ألا ترى ان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان خليفة لا ملكا ، لان سليمان رحمه الله رغب عن بني أبيه ايثارا لحق المسلمين ، ولئلا يتقلدها حيا وميتا ، وكان يعلم اجتماع الناس عليه ، فلم يسلك طريق الاستقامة بالناس قط الا خليفة ، وأما الملوك فعلى ما ذكرت الا من قلّ ، وغالب أفعاله غير مرضية» اه

فيظهر لنا من هذا الكلام الفرق بين الخلافة والملك ، والسبب الذي جعل ملوك الافرنج مقدسين وغير مسؤلين

منبع الاستبداد قصر الملك والخلافة

ومنبع استبداد الدول الاسلامية في قديم الزمان وحديثه هو قصر الخلافة ، ودار الملك والامارة ، حيث تكثر دسائس المقربين و يشتد حرصهم على الجاه وطمعهم في جمع الاموال وادخارها وفى انفاذ الكلمة ، ولذا ابتعد عنهم أهل التقوى والورع في جميع البلدان والازمان . فالمقرب منهم لايكاد يتم له الامر الا و يظهر له رقباء يشون به ، وينصبون له اشراك المكيدة ، و يتهمونه بانواع التهم ، و ينسبون اليه كل خلل في الدولة ، حتي يبعدوه عن مركز الدولة ، وربما تسببوا في مصادرته وقتله مع

أولاده وعياله كما جرى للبرامكة مع هارون الرشيد. فتاريخ الدول والامارات الاسلامية كلها وقائع برمكية . وقد ينصر الوزير على الخليفة او الامير ويحجر عليه ويصير هو المستبد بالامر ، ونتيجة القضيتين واحدة وهي الاستبداد ، وتغلب القوة على الحق. والامة في جميع هذه الاحوال شاخصة ببصرها لا تطلع على خفايا السياسية وتدبير الملك ، ولا على دسائس المقربين وحيلهم لإخفائهم جميع ذلك عنها ، واستبدادهم بالامر عليها . ولقد أجاد لسان الدين بن الخطيب وزير بني الأحمر في الرسالة التي خاطب بها الوزير ابن مرزوق ووصف بها أحوال خدمة الدولة ومصايرهم ، وعبر فيها عن ذوق ووجدان وهي أبلغ ماحرر في هذا الصدد ، وقد ذكرها المقري في الجزء الثالث من نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب . فالمصلحون لم يتخلصوا من هذه الغوائل ولا وجدوا وقتا لاصلاح داخل الممالك وتحكيم سياستها الخارجية، ولذا انصرفت هممهم لجمع الاموال وادخارها ، واغتنام فرصة التقرب ونيل التوجه واكتساب السعادة، لان الواحد منهم لا يدري الى متى يدوم له التوجه والاقبال، فيسارع الى الاستفادة من الحال التي اسعدها الحظ بنيلها

قصر السلطنة العثمانية وتربية ولي العهد والكامريلا

كان قصر السلطنة في الممالك العثمانية مرتبا على الاصول والتقاليد الموروثة عن المغول ، حيث كانت الدولة عبارة عن خيمة كبيرة حكومتها بابها العالي . وأول وظيفة على هذه الحكومة انزال الخان المعظم على الرحب والسعة ، واسكان من معه من الحريم والاسرة والاقارب والحاشية ، واستكمال أسباب راحتهم وسعادتهم ، واستحضار النفقات اللازمة لهم ولرؤساء (العرضي) . فالعمود الأوسط القائمة عليه هذه الخيمة هو « الصدر الاعظم » القائم مقام الخان المعظم أي السلطان والحامل لختمه الذاتي والوكيل المطلق عنه في جميع مسائل الدولة الداخلية والخارجية، وبجانبه « قاضي عسكر » لفصل الدعاوي وتقسيم مواريث الجند والمحافظة على حقوق السلطنة ، وشيخ الاسلام انما هو « قاضي عسكر » وظيفته أحدث عهدا . فقضاء العسكر قديم في الدولة ومتقدم فيها على قضاء المدن مما يدل على حياتها العسكرية المتنقلة ، ثم « الدفتردار » الذي يقيد الاموال ويحرر الحساب ، وهو اليوم ناظر

المالية ، ثم « النيشانجي » الذي يكتب الإِرادات والفرمانات وغيرها ، فهؤلاء أعمدة ثانوية حوالي العمود الاعظم الذي في وسط الخيمة ، واما حبال الخيمة فهي الاغوات ،

ويقسم الاغوات بحسب خدمتهم في الداخل أو في الخارج إلى قسمين : فالقسم الاول هم خدمة الداخل المسمى « اندرون » من مماليك البيضان وطواشية السودان المحافظين على الحريم ، وكبيرهم آغة دار السعادة ويسمى أيضا آغة البنات « قيزلر آغاسي » ، ثم آغة البستانيين « بستانجي باشي » المكلفين بزرع البساتين والجنان وآغة الرسل الموصلين للاخبار وآغة المحافظين على الاثواب والالبسة « اثوابجي باشي » و « القهوه جي باشي » و « الابريقدار » و « السجاده جي باشي » . . . الخ والقسم الثاني هم خدمة الخارج واغوات (العرضي) مثل آغة الانكشارية « يكيجري آغاسي » وآغة الصباهية « سباهي » وآغة الطوبجية وهو « الطوبجي باشي » . . . الخ فهؤلاء الاغوات من خدمة الداخل وخدمة الخارج كلهم في درجة واحدة بمثابة حبال الخيمة ، ولا فرق بينهم في التشريفات الرسمية والمعاشات والتعيينات ، ولا في الاعتبار والمكانة عند الدولة ، فالجاهل والعالم ، والعبد المملوك والحر ، ووضيع النسب وشريفه ، ومجهول الاصل ومعروفه ، والابتر الخصي وكامل الاعضاء — كلهم متساوون لا تميز بين « القهوه جي باشي » الذي لا تحتاج صناعته الا لمعرفة طبخ القهوة وتقديمها ، وبين « الطوبجي باشي » المتوقفة صناعته على معرفة الفنون العسكرية والمعارف الكثيرة ، وهذا الذي حمل الشاعر المفلق الامير شكيب على ان يقول أبياته المشهورة ومنها :

وألفيت فيها أمة عربية   يرى الترك منهم أمة الزنج اكرما

ولذا امتزجت الحياة البيتية بالحياة الدولية ، والمسائل النسائية بالمسائل السياسية ، واشغال السراي السلطانية بأشغال الباب العالي ، وبين السراي والباب العالي وسط يقال له المابين لانه بين « الاندرون » أي الداخل وبين « البيرون » أي الخارج . ويشتمل المابين على الكتاب والقرناء والمصاحبين وهم « المابينجية » ويعدون كلهم من أهل السراي وخدمتها

فامتلأت السراي السلطانيـة بالاسرى من السراري الجركسيات والمماليك والطواشية ، مع أن الشرع الاسلامي لا يبيح هـذه العادة المستكرهة ، قال شارح الدر : « وفي قطع الذكر من الاصل عمدا قصاص » ويندر فيهم وفي جميع خدمة الداخل من يتعلم القراءة فضلا عن الـكتابة ؛ لان فضيلة الواحد منهـم ان يكون على الفطرة الاصلية فارغا من العلوم والمعارف ، لئلا يسول له الشيطان أمرا أو دسيسة سياسية توجب انقلاب الملك ؛ ولذا اختاروا الخـدمة من قرى الاناضول البعيدة ومن ذوي السذاجة والغرارة ، فاذا ولد لاحد السلاطين العظام مولود تربى في حجر والدته الجركسية على دلال السراري والاغوات إلى تمام السنة الثانية عشرة من عمره ثم تبدل تلك السراري بالحظايا فيتخذ منهن حرما ينزوي بهن في أحد القصور ، وتبقى الاغوات والمماليك على ما كانت عليه أيام صباه ؛ وربما جاؤه بحافظ يحفظه القرآن ، ومعلم يعلمه مبادي العلوم ، ولـكن أكبر معلم للانسان هو البيئة التي يكون فيها ، وكيف يتعلم المرء بدون ان يخرج من بيته ويحتك بالعلماء ورجال الدولة · فيبقى ولي العهد على هـذه الحال ينتظر دوره في الملك ؛ وهو محبوس في قصره ، وعليه العيون والجواسيس لا يمكنون أحدا من الدنو اليه ولا المرور بجانب قصره ، فضلا عن محادثته في المسائل العلمية والسياسية ؛

ومتى جاء دوره وجلس على سرير الملك سـعى طواشية السودان ومماليـك البيضان في وضعه تحت نفوذهم ، وحرصوا على ان لا يفلت من أيديهم ؛ وفتشوا على أضعف نقطة في قلبه وأخلاقه ؛ فلا يمضي عليهم كثير حتى يكتشفوها ، فيستميلون قلبه اليهم من تلك النقطة ؛ و يستفيدون منها لانفاذ كلمتهم وجر المنافع اليهم و إلى أصحابهم ومن كان من حزبهم وشيعتهم · فيتألف من خدمة القصر الملوكي حزب قوي يسمى كامريلا « Camarilla » وهي كلمة أسـبانية معناها جماعة المنفـذين في قصر الملك ، فيتداخلون في المسائل ويعارضون في السياسـة ويستولون على الامور ، واذا رأوا السلطان مال لصدر أعظم أو وزير انقضوا عليـه وسلقوه بألسنتهم وافتروا عليه بإفكهم ؛ ونسبوه للعجز والتقصير ؛ وسعوا في تنزيل قدره وترذيله ؛ لاجل وضعه تحت سيطرتهم ، ولذا كان في الغالب للقهوة جي باشي

والاثوابجي باشي والابريقدار والسجاده جي باشي والبستانجي باشي حتى البلطه جي باشي وهو الحطاب — نفوذ كلمة ومكانة أكثر من الصدر و بقية الوزراء ورجال الدولة ، ولا سيما في المسائل المالية وجر المنافع وتوظيف المنتسبين اليهم ، ولم تزل رتبة آغا دار السعادة معادلة لرتبة الصدر الاعظم والخديوي المعظم ، ولهم بالفرنساوية لقب سون التس « Son Altesse » كأمراء الافرنج وابناء ملوكها العظام ، ولم يزل أكثرنا متذكرا نفوذ بهرام آغا وأمثاله

شروع الدولة العلية بالاصلاح

لو استمرت أوربا نائمة في ظلام القرون الوسطى لبقيت الدولة العلية سائرة في هذه الطريق العوجاء سير مملكة الصين ، أوسلطنة المغرب الاقصى التي انحطت إلى درجة البداوة ، بعد ان كان لها في العمران قدم راسخة ، بسبب مهاجرة الاندلسيين اليها ومتاجرتهم في أفريقيا الغربية ، ولكن أوربا استيقظت من غفلتها في القرون الجديدة ، وأوجدت هذه المدنية العجيبة التى بهرت العالم ، وغيرت وجه الارض باكتشافاتها واختراعاتها وعلومها وفنونها وآدابها ، وتجاوزت دول أوستريا (النمسا) وروسيا والبندقية إلى ممتلكات الدولة العلية ، فأحست بالضعف والانحطاط والتقهقر ، و بدأت في الاصلاحات الجديدة من عهد السلطان مصطفى خان الثالث ، فأحدثت الطوبخانة ، وأنشأت معملاً لسكب المدافع ، واقبل السلطان سليم الثالث بهمة عالية واقدام على القيام بالاصلاح ، ورتب إدارة الطوبجية والبحرية ، وجلب المعلمين والمهندسين من أوربا ، وأحدث النظام الجديد ، فاغتالته أيدي المنون بسبب هيجان الانكشارية الذين فسدت أخلاقهم ، وأصبحوا بلاء مبرما على الامة والدولة ، بعد ان كان لهم في الفتوحات العثمانية شأن عظيم ، ومفاخر كثيرة مسطورة في تاريخ أوربا العسكري .

ثم جاس السلطان محمود الثاني وازال غائلة الانكشاريه ، ونظم العساكر الجديدة ، واجرى من الاصلاحات ماهو مفصل في التاريخ العثماني . واصاب الدولة العلية من الحوادث المهمة ماحملها على الاحتكاك بالدول الاوربية والدخول فى ميدان سياستها مثل حروبها مع روسيا ، واحتلال نابليون بونابارت لمصر وسوريا ، وخروج محمد علي

باشا ، وتبه دلنلي علي باشا ،وحرب الموره ،واستقلال اليونان ،وحوادث جبل لبنان. وتداخلت أوربا في شؤون الدولة العلية بداعي المحاماة عن المسيحيين: فروسيا تحامي عن الامم السلافية وجميع المتدينين بالمذهب الارثوذكسي ،وفرنسا على الكاثوليك، وانكلترا عن مبشري البروتستانت ،وجميعهن يحرضن المسيحيين من رعية الدولة على مقاومة الاستبداد ، ويطالبن الباب العالي بإجراء الاصلاحات، ووضع القوانين والنظامات لمنع التعدي على النصارى ،ولمساواتهم في الحقوق مع المسلمين . والباب العالي يجد الاستفادة من العداوة القديمة التي غرستها الحروب الصليبية بين المسلمين والنصارى اهون عليه من سوق العساكر وتكبد المصاريف الحربية لتسكين الفتن واخماد الثوارث .وهكذا جرت المذابح وارتكبت الفظائع التي تقشعر الجلود من سماع وصفها ، وعادت على الوطن بالويل والخراب كمذابح الروم في حرب المورة ، ومذابح لبنان في حادثة الشام ، ومذابح البلغار في حرب روسيا الاخيرة ، وهي التي قام لها غلادستون وقعد ، وارغى وازبد ، على منبر الخطابة في مجلس العموم الانكليزي، وآخرها الفظائع الارمنية المعروفة، وهي نقطة سوداء في صحيفة التاريخ .

صدارة مصطفى رشيد باشا

فالحوادث التي جرت قبل معاهدة باريس ساقت بعض رجال الدولة الى تعلم اللغات الاوربية ولاسيما الفرنساوية للوقوف على سياسة أوربا ولتنظيم العساكر البرية والبحرية ، وكان لا كثر المتعلمين نسبة وتردد على مصر التي شرعت بالاصلاحات على عهد محمد علي باشا . ونبغ من رجال الدولة مصطفى رشيد باشا السياسي الشهير ابن مصطفى افندي متولي وقف السلطان بايزيد ، وكان مولده في الاستانة (١٢١٤ هـ) فقرأ القرآن ومبادئ العلوم الاسلامية وأجاد الخط وتعلم شيئا من مبادئ اللغة الفرنساوية، ودخل في معية نسيبه الصدر الاسبق اسبارطه لي علي باشا ، وذهب الى مصر مرارا وخالط رجالها وتقلب في مناصب الدولة العلية وفي سفارة باريس ولوندره ، فاكمل تحصيل اللغة الفرنساوية واطلع على دقائق السياسة وخوافيها ، وكانت المسألة الشرقية شاغلة وزارات اوربا بسبب اجتهاد روسيا في جمع كلمة الامم السلافية وطمعها في الاستيلاء على القسطنطينية . وروسيا اكبر الدول الاوربية واكثرها

نفوسا وأشدها خطرا على الموازنة السياسية . فكانت الدول الاوربية وفي مقدمتهن انكلترا التي هي أحرص الدول على مقاومة السياسة الروسية ، تشوق الدولة العلية الى القيام بالاصلاحات الجديدة لتستعيد قوتها السابقة فتحمي نفسها وتكون لبقية الدول سدا منيعا امام هجوم روسيا

فلما جلس السلطان عبدالمجيد خان (تموز «يوليو» سنة ١٨٣٩) كان مصطفي رشيد باشا سفيرا في لوندره فتعين ناظرا للخارجية وحضر للاستانة وكان له رأي ودخل كبير في التنظيمات، وفي تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة المذكورة قرأ بحضور رجال الدولة وأعيانها والسفراء الاجنبية الخط الشريف السلطاني المعروف بالتنظيمات وكانت قراءته في كلخانة (أي دار الورد) وهي من دوائر السراي القديمة (طوب قبو) التي بجانب جامع ايا صوفيا . ولذا اشتهر بخط شريف كلخانة واشتمل على تأمين الرعية على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم، وعلى قاعدة مطردة في استيفاء الاموال الاميرية ،وعلى أخذ العسكر بالقرعة وتعيين مدة الخدمة، والغاء الامتيازات، وطرح التكاليف بنسبة ما لكل واحد من الثروة، ومساواة الرعية أمام القانون ، والغاء المصادرة والانغارية وهي الاجبار على العمل بلا أجرة وتعرف بالسخرة، ونحو ذلك مما هو مدرج في هذا الفرمان المعروف بالتنظيمات جمع كلمة تنظيم العربية

فالدولة العلية انما أصدرت هذه التنظيمات إرضاء لاوربا ولا سيا انكلترا . والامة الاسلامية لم تفهم معنى هذه التنظيمات ولا معنى تأمين الناس على الارواح والاموال والاعراض ، كأن الشريعة التي كانت دستور العمل تبيح التجاوز والتعدي على الارواح والاموال والاعراض، وحاشاها من ذلك . فالبلاء لم يكن سببه فقدان القانون والشريعة حتى يزول باصدار هذه التنظيمات وانما سببه الاستبداد المتسلط على كل قانون وشريعة . فالحرية التي منحتها التنظيمات لم تكن شيئا مذكورا بجانب الحرية التي منحها القرآن لو زال عنه الاستبداد والجهل المستوليان على المسلمين ، فيجتهدون في فهمه وتأويله على مقتضي نواميس المدنية الحاضرة كما فعل احرار العلماء كالشيخ محمد عبده وغيره

فشرعت الدولة العلية في اجراء الاحكام المشار اليها في التنظيمات وسنت

قانونا لاخذ العسكر جرى تطبيقه في بعض الأيالات وأحدث في بعضها ثورة وعصيانا كعصيان الارناؤط (١٨٤٤) الذي سكنه رشيد باشا نفسه . ثم باشرت في تنظيم المعارف وفتح المكاتب في الاستانة ونظمت محاكم التجارة المختلطة (١٨٤٦) كما نظمت بعض دوائر الدولة واقلامها . فكان مصطفى رشيد باشا الذي تولى مسند الصدارة العظمى ست مرات وتوفي سنة ١٢٧٤هـ - ١٨٥٨م — مصدر هذه الاصلاحات، بسبب وقوفه على الافكار الجديدة ومعرفته اللغة الفرنساوية والادبيات العثمانية . فسعى في افراغ الكتابة التركية في قالب سهل سلس ، بعد ان كادت تكون غير مفهومة عند العموم، لكثرة مافيها من التعقيد والتشابيه الغامضة والالفاظ والتراكيب اللغوية من فارسية وعربية . ونشأ في عهده وتحت ظله الشاعر الشهير ابراهيم شناسي افندي موجد الادب الجديد العثماني . حصل العلوم العربية واللغة الفرنساوية ، وذهب لباريس فاطلع فيها على آداب الطريقة المدرسية ونسج على منوال راسين ولا فونتين وأدخل في الادب التركي التعقل المشروط في الطريقة المدرسية كما فصلنا ذلك في كتابنا « تاريخ علم الأدب »

وكان الادب التركي كله خيالات ومبالغات أعجمية قلما يجد الانسان فيه حكمة وتعقلا ، وديوان شناسي صغير الحجم، لكنه نموذج للادب الجديد، وأكثر قصائده في مدح مصطفى رشيد باشا . وأنشأ شناسي جريدة تركية سماها (تصوير افكار) وحرر فيها المقالات السياسية والتاريخية والادبية بقلم سهل سلس مفهوم . وطبع ديوانه مع منتخبات (تصوير افكار) ثانية في مطبعة ابو الضيا توفيق بك ، وكانت وفاة شناسي في سنة ١٢٨٨هـ قبل بلوغه سن الشيخوخة والوظائف العالية

عالي باشا وفؤاد باشا

ظهرت فئة قليلة من المتعلمين على النسق الجديد واقتفوا اثر مصطفى رشيد باشا ، ونبغ منهم اثنان شهيران خلد التاريخ ذكرهما وهما السيد امين عالي باشا وفؤاد باشا ، ومولدهما في سنة ١٢٣٠ هـ الاول ابن مصر جارشيلي علي رضا افندي اي المنسوب

لسوق مصر وهو سوق العطارين . والثاني ابن الشاعر الشهير كجه جي زاده عزت ملا الذي نفي للاناطول في زمن السلطان محمود خان ومات في منفاه . فتعلم امين مبادىء العلم واجادة الخط وقرأ الفرنساوية على معلم مخصوص ودخل قلم الديوان الهمايوني في الخامسة عشرة من عمره

ومن عادة رؤساء القلم تسمية كل داخل باسم يتميز به عن سميه، ولم يصطلحوا كالعرب والافرنج بتسمية الولد باسم ابيه أو أسرته . وكان امين قصير القامة فسمي (عالي) تسمية بالضد تفاؤلا بعلو همته . فذهب الى أوربا في كتابة السفارات واتقن الفرنساوية وانتسب لرشيد باشا وامتاز في فنون السياسة والمعارف العصرية وعين عضوا في (انجمن دانش) اي مجلس المعارف المؤسس على نسق اكادميات اوربا . وكان عالي باشا يحسن الفرنساوية والتركية كتابة وانشاء ، وتقلب في وظائف كثيرة مهمة مثل السفارات والوزارات ومسند الصدارة العظمى . وأما فؤاد فدخل المكتب الطبي العسكري وخرج جراحا في العسكرية ، ثم دخل قلم الترجمة في الباب العالي وتقلب في الوظائف السياسية والخارجية ، وترأس مجلس التنظيمات ومجلس الاحكام العدلية وحضر الى سوريا أيام الحادثة وكان اذ ذاك ناظراً للخارجية ، ثم ذهب بمعية السلطان عبد العزيز الى معرض باريس سنة ١٨٦٧ ومرض فيها وتوفي في نيس من فرنسا وله من العمر ٥٥ سنة فقط ، وكان في اللغة التركية أديبا شاعرا وضع مع جودت باشا « القواعد العثمانية » التي لم يؤلف للآن احسن منها ، وخلف الفريق كجه جي زاده عزت فواد باشا الكاتب الشهير

فرشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا هم نوابغ السياسة العثمانية وواضعو الاصلاحات الجديدة بدلالة السفراء الاجانب ارضاء لدول اوربا ولا سيما انكلتره ، ومماشاة لها لحرصها على تقوية الممالك العثمانية لتتقي بها شر روسيا . فأمر هؤلاء النوابغ بترجمة القوانين والنظامات والتعليمات والاوامر المدرجة في الدستور ترجمة حرفية ، ولم يجدوا لهم وقتا لدرس احتياجات البلاد الداخلية والمدنية الاسلامية حق درسها ، ولا لنشر الافكار الجديدة بين المسلمين المفاخرين بسابق مجدهم ومتانة شرعهم ، ولذا لاموا هؤلاء المصلحين ولم يرضوا عن اعمالهم زاعمين انها تؤول إلى قلب البلاد وجعلها

افرنجية محضة . ولذا كانت الاكثرية لحزب تركيا القديمة ، ولم يكن من حزب تركيا الفتاة الافئة قليلة ، درسوا العلوم الجديدة درسا سطحيا و بعضهم زار اوربا مرة أو مرتين. ومع هذا وفق حزب تركيا الفتاة لاستمالة اوربا اليه ، وافلح في الحصول على اتفاق انكلتره وفرنسا وسارديني اي ايطاليا ، فحاربن روسيا وانتصرن عليها في حرب القرم وعقدن معاهدة باريس (٣٠ مارس سنة ١٨٥٦) واعترفت اوربا بمقتضاها بتمام ملكية الدولة العثمانية واستقلالها ، ومنع اية دولة من المداخلة في أمورها الداخلية ، وصدر خط شريف ثان في ذلك التاريخ أيضا مؤيد لخط كلخانه ، و يشتمل على حرية الاهالي ومساواتهم في الحقوق والمعاملات . ثم جلس السلطان عبد العزيز خان سنة ١٨٦١ واصدر فرمان الاصلاحات ولكن هذه الفرمانات والخطوط الشريفة السلطانية لم تمنع تماما سوء الاستعمال والاستبداد الذي في ادارة الدولة ، و بقي الارتكاب والظلم والاستبداد على ما كان عليه سابقا ، لعدم اصلاحهم السراي السلطانية كما أصلحوا وجاق الانكشارية والصباهية وقلبوهما الى النظام الجديد

حزب تركيا الفتاة

أول مؤسس لحزب تركيا الفتاة هو مصطفى فاضل باشا ابن ابراهيم باشا المصري ثم صهره خليل شريف باشا . ولد مصطفى فاضل في القاهرة سنة ١٨٣٠ م وحصل العلوم الجديدة حتى صار على جانب من العرفان والاضطلاع والوقوف على دقائق الامور ، فخدم في مصر و بعد جلوس السلطان عبد العزيز بسنة تعين ناظرا للمعارف في الاستانة ، ثم ناظرا للمالية وأجرى فيها عدة اصلاحات ، وكان ميكروب الاقتراض قد تفشى في هذه النظارة ، وأحدث بلاء القوائم النقدية ، حتى بلغت الديون ما بلغته فأثقلت كاهل الامة ، وكان الصدر الاعظم اذ ذاك يوسف كامل باشا صهر والي مصر محمد علي باشا ، ومترجم تليماك للتركية الترجمة الاولى العويصة ، وكان عالي باشا في نظارة الخارجية ، وفؤاد باشا في رياسة مجلس الاحكام العدلية ، ثم في نظارة الحربية ، وأدخل فيها حسين عوني باشا العدو الالد لعمر باشا المجري . وكان فؤاد باشا تعين حكما لفصل الخلاف الحادث بين مصطفى فاضل باشا واخوته على تقسيم ميراث أبيهم فحصل بينهما رقابة وعداوة ، فلما تولى

فؤاد باشا الصدارة تسبب في عزل مصطفى فاضل من نظارة المالية مع ماله من الخدم والاصلاحات المفيدة ، فشق ذلك على مصطفى فاضل وقدم للسلطان عبد العزيز خان لائحته الشهيرة التي شدد فيها النكير على الاستبداد ، وكشف الغطاء عن عورات الدولة ، وبين اسباب الضعف والانحطاط وسوء الاستعمال بحرية لم يعتدها رجال المابين ولا سمعوا بمثلها قبل ذلك ، ثم هاجر الى باريس سنة ١٨٦٥ ولحقت به فئة من الشبان فأكرم مثواهم وأنفق على تعليمهم ، ونبغ منهم كثيرون في الادب والكتابة والسياسة . حدثني أحدهم قال كنا في باريس في عيشة راضية لايهتم الواحد منا بأمر معايشه ، فاذا فرغ من الدرس والتحقيق والمشاهدة عاد الى منزله فوجد ما يحتاج اليه من الطعام والمنام ، بخلاف أحرار هذا الزمان الذين قاسوا أشد العذاب في أمر معايشهم

فاشتغلت النابتة الجديدة بفنون الادب وعلوم التاريخ والسياسة والصناعات النفيسة ، فنظموا الشعر وألفوا القصص ونشروا المقالات في الجرائد ، ونبغ منهم نامق كمال بك شاعر النشأة الجديدة وأديبها وموجد الادب الجديد العثماني ، ولد في الاستانة سنة ١٢٥٠ هـ وقرأ في المكاتب وتعلم الفرنساوية وصارت له مهارة زائدة في الانشاء الذي نشر به مقالاته السياسية في الجرائد بأسلوب مستحدث طريف هو من السهل الممتنع ، واشعاره على نسق اشعار فيكتور هوجو في طلب الحرية وتدبير المملكة واصلاح شؤون الحكومة ، وله مؤلفات كثيرة منها التاريخ العثماني الذي لم يطبع ، وقصة وطن أو سليستره التي تمثل اليوم في الاستانه وسلانيك بعد حدوث الانقلاب ، وتوفي نامق كمال بك وهو متصرف في جزيرة ساقز سنة ١٣٠٥ هـ . ومنهم ضيا باشا الاديب الشاعر ، وسعد الله باشا سفير فينا الأسبق مترجم قصيدة لامارتين التي عنوانها (البحيرة) ، وله اشعار عصرية رائقة . ومنهم أبو الضيا توفيق بك الذي أصلح حروف الطبع وكتب الخط الكوفي ، وطبع الكتب والرسائل والمجموعات بصنعة بديعة عجيبة لم تبلغها إلى الآن مطابع الشرق ولا مطابع أوربا الشرقية . وعبد الحق حامد بك سفير بروكسل وصاحب قصة طارق بن زياد ، وكثير غيرهم من الكتاب والأدباء انصار حزب تركيا الفتاة

الذي أسسه مصطفى فاضل باشا ، ثم صهره خليـــل شريف باشا الذي جاء من مصر إلى الاستانة وتوظف في نظارة الخارجية بسبب معرفته الفرنساوية، وصار سفيرا لباريس وغيرها وناظرا للخارجية ، وتزوج بأكبر بنات مصطفى فاضل باشا وهي الاميرة الشهيرة نازلي خانم التي اقتفت أثر والدها وزوجها الاول في تعضيد حزب تركيا الفتاة ، وساعدته بالمال والجاه هي وشقيقها الامير محمد علي باشا

لائحة فاضل باشا للسلطان عبد العزيز

لخص مصطفى فاضل باشا سياسة تركيا الفتاة في اللائحة المذكورة التي قدمها إلى السلطان عبد العزيز خان وقال فيها :

« تتصور أوربا ان المسيحيين وحدهم في تركيا خاضعون للمعاملات الاستبدادية، ولاحتمال أنواع الاذى والتحقير المتولد من الظلم ، وليس الامر كذلك ، فان المسلمين وبما كان الظلم والعسف أشد وطأة عليهم، وهم أكثر انحناء تحت نير العبودية من المسيحيين ، لان المسلمين ليس وراءهم دولة أجنبية تتحيز لهم وتحامي عنهم ، فرعايا جلالتكم من جميع المذاهب مقسومون إلى صنفين : الظالمين ظلم لاحدَّ له ، والمظلومين بلا شفقة ولا مرحمة ، والاولون يجدون في الحكومة المطلقة غير المقيدة التي تستعملها جلالتكم والتي اغتصبوها - إغراء وتشويقا إلى جميع الرذائل . وأما الآخرون فتفسد اخلاقهم أيضا بعلاقاتهم الضارة مع سادتهم ، وبما انهم مجبرون على الخضوع دائما للشهوات الرذيلة ، ولا يستطيعون إيصال شكاياتهم الصحيحة إلى أعتاب سدتكم الملوكية ، لان ظلامهم يرون هذه الاستغاثة - مع الاحترام - بحكومة جلالتكم من أكبر المفاسد ، فاعتادوا على دناءة الاخلاق التي لا يمكن تصورها ، »

وانما الامم الاخـلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فهذه الاصول الاستبدادية التي كان اعداء الاصلاح من حزب تركيا القديمة يريدون المحافظة عليها ، ويعدون التمسك بها من الغيرة الدينية والحمية الوطنية ، والاسلام والوطنية بريئان منها للأسباب المشروحة فيما مر . فحزب تركيا الفتاة يمكننا ان نعتبر وجوده منذ تولى مصطفى فاضل باشا نظارة المعارف (١٨٦٢ م) ، وهاجر الى باريس (١٨٦٥ — ١٨٦٧ م) وانصار هـذا الحزب هم جميع المطلعين على

الكتب الفرنساوية وأدب الطريقة المدرسية أو على ما ترجم منها بالتركية ، والذي طلق عليه هذا الاسم هم الفرنساويون الذين قالوا (جون تركي) كما يقولون (جون فرانس — جون ألمانيا — جون ايتالي) فترجم بتركيا الفتاة وقيل بالتركية (كنج تركلر) ، ولذا قال هانوتو: إن تركيا الفتاة من اللغة الفرنساوية . وقد جوزي مصطفى فاضل باشا على جرأته بمصادرة أمواله ، ثم أعيدت اليه بوساطة بعض الاجانب ، ثم حرم من ميراث الخديوية هو وحليم باشا بسبب صدور الفرمان السلطاني بانتقالها إلى أكبر أولاد المالك وهو إذ ذاك اسماعيل باشا ، وصار مسند الخديوية ينتقل من الوالد إلى ولده ، بعد ان كان ينتقل إلى الاكبر فالاكبر من الاسرة ، كما هي القاعدة في جميع الممالك الاسلامية، لما علمت من ان الاسلام ليس فيه ملك موروث ،

وفي سنة ١٢٧٨ ﻫ و١٨٧١ م أصيبت المملكة العثمانية بوفاة اشهر قوادها عمر باشا ، وأشهر سواسها الصدر الاعظم عالي باشا صاحب الاعمال الكثيرة في تنظيم ادارة الحكومة ، ووضع ميزانية للمالية ، وتأسيس نظارة الداخلية والاوقاف، ومجالس الدعاوي والتمييز وتنظيم أصول المحاكات واستعمال الاصول الاعشارية ، وغير ذلك من الاصلاحات الداخلية والسياسية الخارجية ، وترجمت القوانين والنظامات عن الفرنساوية بلا نظر ولا معرفة بصالح البلاد واحتياجاتها فترجموا مثلا قانون التجارة الفرنساوي القديم وأبقوا فيه مسائل النكاح و (الدوتة) واشتراك الزوجين بالاموال وعدمه ، كما هو مختص بالاوربيين ولا وجود له في الشرق، لا عند المسلمين ولا عند المسيحيين . و بعد وفاة عالي باشا تولى مسند الصدارة محمود نديم باشا ومال إلى روسيا حتى سمي « نديموف » و بذر اموال الخزينة وأصبح آلة في يد الجنرال اغناتيف سفير روسيا في الاستانة

صدارة نديم باشا الاولى

محمود نديم باشا كان أبوه واليا ، فتربى في داره على الاستبداد والارتكاب ، وتعين واليا كأبيه ثم ناظرا للبحرية ، وكان شديد التعصب للإدارة القديمة المستبدة ، كثير البغض للاصلاحات الجديدة والحرية . تقرب الى السلطان عبد العزيز خان بالتملق ، واستولى عليه من أضعف نقطة فيه وهي العظمة ، فدس له بانه تحت وصاية

فؤاد باشا وعالي باشا، مع انه خليفة الله في الارض ، والقابض على رقاب خمسين مليونا من الرعية الذين هم عبيد جلالته !!! ، وان بيت المال هو حق من حقوقه له ان يتصرف فيه حسبما شاء وأراد !! ، وكانت الميزانية المالية وضعت في أيام عالي باشا وفؤاد باشا، وحدد فيها مصارف المابين، فانقلبت أحوال السلطان عبد العزيز خان في صدارة محمود نديم ، واستبد بالامر ، وأبعد عن الوظائف الملكية والعسكرية الرجال الذين تخيرهم عالي باشا ودربهم وعلمهم حتى كانوا من خيرة الموظفين، فاستبدل بهم المرتكبون وكثر تحويل الوظائف والعزل والنصب والترقي في جميع الوظائف الملكية العسكرية، حتى كان الضابط يرتقي إلى المراتب العلى في أقرب وقت، ويصبح مشيرا، بعد ان كان من قبل أشهر ضابطا صغيرا . وزاد الاسراف والتبذير ببناء السرايات التي لا لزوم لها وإنشاء الاسطول الذي صار أثرا بعد عين كما زاد الانهماك في الملذات والشهوات، وكانت أوربا وصيارفة الاستانة تقرض الاموال بالربا الفاحش والديون تتراكم على خزينة الدولة ، والمكلفون بها هم فقراء الرعية من أصحاب الاعشار والاغنام يؤدونها من كدّ اليمين وعرق الجبين .

ومن الغلطات السياسية في صدارة محمود نديم باشا اصدار الفرمان بفصل الكنيسة البلغارية عن الكنيسة الرومية ، وتعيين اكسارخوس للبلغار مستقل عن بطريك الروم في القسطنطينية ، وكان ذلك بمساعي الجنرال اغناتيف حبيب محمود نديم باشا للتوصل إلى احداث دولة للبلغار ، مع ان الباب العالي كان يعتبر جميع هؤلاء الامم الصغيرة كالبلغار والصرب والافلاخ والبغدان والجبل الاسود والهرسك روما تابعين لبطريركية القسطنطينية لاشتراكهم جميعا في الدين الارثوذكسي . ومن الغلطات المالية أيضا إعطاء المثري النمساوي اليهودي الشهير وهو البارون هرش امتياز سكة حديد الروم ايلي المعروفة بسكك الحديد الشرقية ، واضرار الخزينة والامة من وراء ذلك ضررا كبيرا ، وفي اثناء ذلك ظهر مدحت باشا في مسند الصدارة ،

صدارة مدحت باشا الاولى

ولد مدحت باشا في القسطنطينية سنة ١٨٢٢ م ، ووالده حاج علي افندي أصله من روسجق التي كانت مركز ولاية الطونة (بلغارستان) على ضفة نهر الطونة (الدانوب)

اليمني، ولما كان من صغار الموظفين لم يستطع تعليم ابنه غير مبادي العلوم وحسن الخط المعدود في ذاك الدور من أكبر العلوم وأهمها للدخول في الوظائف والترقي فيها، وأدخله على حداثة سنه قلم الصدارة فتخرج في اقلام الباب العالي، وتعلم بالمشاهدة والتجربة والاختبار، وتعين مأمورا في الولايات ومكث سنتين في دمشق الشام، وترقى الى أن صار باشكاتب في مجلس (والا) وهو شورى الدولة، وذهب مرة ثانية الى دمشق وحلب للتحقيق عن القبرصلي محمد باشا، والفت باستعداده واجتهاده نظر رشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا ورفعت باشا ناظر الخارجية اليه، فاجلسه معه رفعت باشا ليسمع المحاورة التي دارت بينه و بين البرنس منجيكوف مندوب دولة روسيا وذلك قبل حرب القرم، فاطلع مدحت باشا حينئذ على السياسة الخارجية، و بعد وفاة رشيد باشا سنة ١٨٥٨ م تولى الصدارة عالي باشا فأذن لمدحت بالذهاب الى اوربا مدة ستة اشهر، فذهب الى باريس ولوندره و بروكسل وفينا، وشاهد انتظام الادارة ومحاسن المدنية والترقيات العصرية. ومازال يرتقي في الوظائف حتى صار والي ولاية الطونة (بلغارستان الحالية) فأجرى فيها اصلاحات كثيرة، وفتح مجلس الايالة وهو المجلس العمومي الذي فتحه راشد باشا في سوريا، ثم عين واليا لولاية بغداد ومشيرا لعساكرها فسكن عصيان نجد، واهداه السلطان عبد العزيز خان سيفا مكافأة له على خدمه، واذ كان الصدر الاعظم محمود نديم باشا كثير العزل والنصب والتبديل نقل مدحت باشا من ولاية بغداد الى ولاية ادرنه، فمر بكرسي السلطنة وطلب مقابلة الحضرة السلطانية واراها طرق الخلل وسوء الادارة وعاقبة الامر، فعزل محمود نديم من الصدارة وتولاها مدحت باشا لكنه لم يبق فيها الا ثلاثة أشهر، وكان سبب عزله على ماروي: ان احدى سراري القصر بعثت اليه مع الطواشي طالبة تعيين احد خدامها قائمقام في أحد الاقضية فأجابه مدحت « سلم على الخانم وقل لها ان تلتمس هي بنفسها من أفندينا ذلك » واشتد غضبه من مداخلة السراري وتتابع رجائهم

صدارة نديم باشا الثانية

كثر تبديل الصدور بعد عزل مدحت حتى بلغوا نحو العشرة في خلال سنة أو خمسة عشر شهرا، ثم عاد الى الصدارة محمود نديم باشا وكان العود غير احمد،

فزاد الارتكاب ، وبيعت الرتب والنياشين ، كما بيعت الوظائف بالمزاودة ، بحيث اصبح يحتجنها الذي يزيد في الثمن ، واختلت الموازنة المالية ، حتى قضت باعلان الافلاس في ٥ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨٧٥ ، وطمع العدو في البلاد ، فأوجب ذلك هيجان تركيا الفتاة وعقلاء الامة ، وكان التجسس غير معروف في ذلك الوقت ، وكان للجرائد حرية في الكتابة والانتقاد ، فشرعت جريدة «وقت» التركية في نشر الحكايات والاساطير عن ملوك الصين ، واستنتاج الامثال والمواعظ من انقراض ملكهم ، والتعريض بذلك لوزارة محمود نديم باشا ، واخذ فريق من الناس يطوفون على المجالس والدواوين والاندية العامة ، ويقصون أنواع المظالم والارتكاب وسوء الادارة ، فهاجت الافكار العمومية ولا سيما الصوفتاوات وهم طلاب العلوم الدينية البالغ عددهم في جوامع الاستانة نحو خمسة عشر الى عشرين الف طالب .

هياج الصوفتاوات وصدارة رشدي باشا

اجتمع من هؤلاء الطلاب زهاء خمسة أو ستة آلاف طالب ، وهجموا على الباب العالي في ٢٢ مايس (مايو) سنة ١٨٧٦ وذهب آلاف منهم إلى سراي طولمه باغجه مقر السلطان عبد العزيز فشكوا اليه طالبين عزل محمود نديم وتولية محمد رشدي باشا ، فأجيبوا إلى ذلك ، وصدرت الارادة السنية بتشكيل الوزارة وتولية محمد رشدي باشا الصدارة ، وحسين عوني السر عسكرية ، وقيصر لي أحمد باشا نظارة البحرية ، وراشد باشا الذي كان واليا على سوريا نظارة الخارجية ، وخير الله افندي مشيخة الاسلام

خلع السلطان عبد العزيز

كان حزب مدحت باشا من الاحرار مؤلفا من نامق كمال بك وضيا بك ورؤف بك واسماعيل بك ، وهؤلاء لم يرتقوا إلى رتبة الباشاوية ، وأما الذين ارتقوا منهم إلى هذه الرتبة بعد ذلك فهم حسن فهمي باشا وشاكر باشا وسعد الله باشا ورائف باشا ورفعت باشا وكانوا من الوزراء ، فلما تولى حزب تركيا الفتاة زمام الامر

واستولى على المالية ، والقوة البرية والبحرية والشرعية ، خلعوا السلطان عبدالعزيز في ١٧ جمادى الاولى سنة ١٢٩٣ و ٣٠ مايس (مايو) سنة ١٨٧٦ بفتوى من شيخ الاسلام ، واجلسوا ابن أخيه السلطان مراد خان ، ففرح به الناس واستبشروا وكان السير هنري اليوت سفير انكلتره أشد السفراء سرورا ، والجنرال اغناتيف سفير روسيا أكثرهم غما ، وهو حبيب محمود نديم باشا والمشير عليه بتلك السياسة العوجاء ، ونقل السلطان عبد العزيز من سراي طولمه باغجه إلي سراي طوب قبو المقابلة لها على ساحل البحر . ثم نقل بناء على طلبه إلى سراي جراغان المجاورة لطولمه باغجه على ساحل المضيق (البوغاز) و بعد خمسة أيام وقع الاغتيال واختلف فيه هل كان بطريق الانتحار أو القتل عمدا ، فان الذين كشفوا على الجثة وجدوها في الطبقة السفلى من السراي على سجادة بقرب الباب ، ففي انزالها من الطبقة العليا المعدة للسكنى الى الطبقة السفلى شبهة ، وعلى فرض ثبوت الجناية فمن عساه يكون المتهم بها ! هل حريم السراي وطواشيتها الذين تكثر بينهم الدسائس و يصعب التحقيق ؟ أو مدحت باشا وحزبه الذين لا مأرب لهم بذلك ؟ وقد توصلوا الى مأربهم بدون إراقة دم ، واستحقوا إجلال العالم لهم من عثمانيين وأوربيين ، وهم أعقل وأدهى من ان يلوثوا عملهم العظيم بدم جناية ودسيسة مثل هذه

حادثة الجركس حسن بك وخلع السلطان مراد

ثم حدثت مسألة الجركس حسن بك ياور السلطان عبد العزيز ، فانه دخل دار مدحت باشا والوزراء مجتمعون فيها ، وقتل السر عسكر وراشد باشا ناظر الخارجية ووالي سوريا قبلا وأحمد آغا الخادم وجرح ناظر البحرية وبعض الياورية الحاضرين ، فأثرت هذه الحوادث في السلطان مراد وادت الى اختلال شعوره فخلع بعد ثلاثة أشهر وثلاثة أيام من جلوسه

جلوس السلطان عبدالحميد

جلس على سرير الملك جلالة مولانا السلطان عبد الحميد خان الثاني بعد ان اشترط مدحت باشا وحزبه ثلاثة شروط : (١) إعلان القانون الاساسي (٢) استشارة الوزراء وجعلهم مسؤلين وحدهم في أمور الدولة (٣) تعيين ضيا بك وكمال بك

كاتبين خاصين للمابين وسعد الله بك باشكاتب لانهم من الاحرار الحريصين على تنفيذ احكام القانون الاساسي ، والاولون ممن قاموا بتسويده وتميقه . فلم يعمل بهذه الشروط وتعين الداماد محمود جلال الدين باشا مشيرا للمابين ، وانكليز سعيد باشا رئيسا للياورية ، وكجوك سعيد باشا الصدر الاسبق في هذه الآونة وكان سعيد بك باشكاتب للمابين

مؤتمر الاستانة واعلان القانون الاساسي وصدارة مدحت باشا الثانية

كانت بلاد البلقان في اختلال وهيجان بسبب قيام الهرسك والصرب والجبل الاسود والبلغار وتأففهم من الظلم والاستعباد، ومطالبتهم بالاستقلال، وتمسك كل منهم بقوميته وأدب لغته، بعد ان كان الدين المسيحي الارثوذكسي يجمعهم تحت سلطة بطريرك القسطنطينية . وكانت أوربا تطالب الدولة العلية باجراء الاصلاحات، والعناية بالمسيحيين التابعين لها ووقايتهم من الظلم والاعتساف ، فتقرر عقد مؤتمر (قونفرانس) في الاستانة العلية لاتخاذ التدابير اللازمة لتسكين البلاد واصلاحها ،وكان المؤتمر مؤلفا من احد عشر مندوبا ،اثنين من انكلتره وهما سفيرها السير هنري اليوت واللورد سالسبوري ، واثنين من فرنسا ، واثنين من اوستريا (النمسا) ، وواحد من روسيا وهو الجنرال اغناتيف ، وواحد من ايطاليا ، وواحد من المانيا ، واثنين من قبل الدولة العلية وهما صفوت باشا وأدهم باشا ، فعقدوا جلستهم الاولى في ٢٣ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٨٧٦ في دائرة الترسانة التى على خليج دار السعادة من جهة غلطه . ولم يكد يتم افتتاح المؤتمر الا وقد سمعوا اصوات المدافع ، فوقف صفوت باشا قائلا: أيها السادة ان اصوات المدافع التي تسمعونها هي دلالة على اعلان القانون الاساسي من قبل جلالة سلطاننا الاعظم ، وهذا القانون متكفل الحقوق والحرية لجميع رعايا المملكة العثمانية بلا استثناء ؛ وقد حصل بذلك المقصود من عقد المؤتمر ، فأصبح انعقاده وعمله من قبيل العبثيات

فبهت القوم وانفضت الجلسة . وقد اعلن القانون الاساسي حقيقة في ذلك اليوم ، واطلق لدى اعلانه مئة مدفع ومدفع في جميع المدن والممالك العثمانية ذات القلاع . وكان مدحت باشا هو روح هذا الانقلاب العظيم وهو القابض على زمام الامر في الحقيقة منذ

خلع السلطان عبد العزيز وان لم يكن (صدر اعظم)، وكان الصدر الاعظم اذ ذاك محمد رشدي باشا شيخا مسنا منقاداً له ولحزب تركيا الفتاة، و بعد جلوس السلطان عبدالحميدخان الثاني استعفى محمد رشدي باشاالشيخوخته، وتولى الصدارة العظمى مدحت باشا وهي صدارته الثانية ،

لم يرض الجنرال اغناتيف بهذه الاصلاحات بل أصر على بقاء انعقاد المؤتمر، فداوم اعماله وقدم لائحة الى الباب العالي في ١٥ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٧٧ وطلب الجواب عنها في خلال ثمانية أيام، فكانت من قبيل (الأولتيماتوم)

عقد المجلس العالي ورفضه لائحة مؤتمر الاستانة

عقد الصدر الاعظم مدحت باشا مجلسا عاليا مؤلفا من الوزراء والمشيرين ورجال الدولة والرؤساء الروحيين واعيان المسلمين والمسيحيين واليهود، وعرض عليهم لائحة المؤتمر، وافهمهم مطالب الدول الأوربية، وانّ ردّها يؤدي إلى الحرب، فتشاوروا بكمال الحرية وابدى كل منهم رأيه ، فقال رؤف بك ابن رفعت باشا ناظر الخارجية الاسبق إذ ذاك : الحرب كداء الحمى يمكن ان ننجو منه، ولكن لائحة المؤتمر كداء السل الرئوي عاقبته القبر لا محالة. وقال صاوا باشا من خطبة طويلة : اننا نختار الموت على إهانة شرفنا، وألقى وكيل بطريرك الارمن الكاثوليك مقالة طويلة في رد اقتراحات المؤتمر، فرفض المجلس قبولها بالاتفاق وظهر من هذا الاجتماع ائتلاف المسلمين والمسيحيين واليهود، واتفاقهم واتحادهم على محبة الوطن وترقيه والغيرة على منافعه، وكان الروم والارمن الكاثوليك أشدهم حماسة، حتى ان الروم عزموا على تشكيل فرقة متطوعة لمحاربة الصرب مع العساكر العثمانية، لان استقلال الامم البلقانية من الصرب والجبل الاسود والبلغار مضر بصالح الروم لانفصالهم عن الكنيسة الارثوذكسية، التي هي تحت رياسة بطريرك الروم في القسطنطينية، ورفضهم استعمال اللغة والادبيات اليونانية، فبناء على جميع ذلك أجاب الباب العالي في ٢٠ كانون الثاني (يناير) برفض مطالب الدول المذكورة في لائحتهن، فانفض مؤتمر الاستانة وغادرها المندوبون والسفراء دلالة على قطع العلاقات بين أوربا والباب العالي

تغلب حزب التقهقر وكتاب مدحت للسلطان

كان الحزب المخالف للقانون الاساسي يسعى في التخلص من هذا القانون ، فبعد تعيين مدحت باشا في الصدارة انعقد مجلس الوكلاء برياسته في دار الداماد محمود جلال الدين باشا ، وتذاكروا في القانون الاساسي ، فارتأى أحمد جودت باشا ناظر العدلية (الحقانية) تأجيل هذا القانون لعدم الحاجة اليه (؟) بسبب جلوس السلطان الحالي!!، وكان أحمدجودت باشا من المنتسبين الى الداماد محمود جلال الدين ، ومن كبار العلماء والمؤرخين ، ولكن ارتشاءه مشهورفي الاستانة والولايات، واعلان القانون الاساسي يسد على المرتكبين أمثاله باب الارتكاب ، فبإصرار مدحت باشا وحزبه مثل ضيا بك وكمال بك وغيرهم من الاحرار الذين مر ذكرهم وبجريدتي (وقت) و (استقبال) والمقالات الشائقة المحررة فيهما — صدر الخط الشريف السلطاني إلى مدحت باشا باعلان القانون الاساسي ، وحمله الباشكاتب سعيد بك الى الباب العالي ، وتلي في الميدان الواسع الذي امام الباب بحضور جماهير الناس ، و بعد تلاوته خطب مدحت باشا في الموضوع ، وتلا الدعاء فوزي افندي مفتي أورفه وأمن الناس ، وما زال مدحت باشا يلحّ في طلب اجتماع المبعوثان ، ويجتهد في تأليفه من الاحرار ، والمابين يؤخرذلك ويفرق جميع الاحرار ، حتى انه أراد تعيين ضيا بك مسود القانون الاساسي سفيرا في برلين لئلا ينتخب مبعوثا عن أهل الاستانة . فضاق صدر مدحت باشا من التأخير والمحاولة وكتب إلى الذات الشاهانية مباشرة : « لم يكن غرضنا من اعلان القانون الاساسي الا محو الاستبداد ، وتعيين ما لجلالتكم من الحقوق وما عليها من الواجبات ، وتعيين وظائف الوكلاء ومسئوليتهم ، وتأمين جميع الناس على حريتهم ، حتى ترتقي البلاد في معارج الارتقاء — الى أن قال — واني لكثير الاحترام لشخص جلالتكم ، ولكن الشرع الشريف

يوجب عليّ أن لا أطيع اموركم (أوامركم) اذا لم تكن موافقة لمنافع الامة »

ونحو ذلك مما لم يسمع بمثله الا من مصطفى فاضل باشا كما تقدم. و بالحقيقة ان احكام الشريعة الاسلامية وفتاوى الفقهاء في هذا الصدد لا تترك ادنى شك ولا ريب ؛ لان السلطان بحكم الشرع ليس مطلق الحرية ، ولا مطلق التصرف في أموال الناس ومنافعهم ، وانما هو في جميع ذلك مقيد بالاحكام الشرعية ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . فالحكومة المطلقة التي درجت عليها الدول والامارات الاسلامية وتوارثتها من عهد معاوية لا وجود لها على التحقيق في الدين الاسلامي .

عزل مدحت باشا ونفيه وصدارة ادهم باشا

فعزل مدحت باشا ونفي على الباخرة (عز الدين) الى ايطاليا، ووجهت الصدارة العظمى الى أدهم باشا والد حمود بك وخليل بك مديري دار العاديات (الموزه خانه)، وعين جودت باشا للداخلية ، واحمد وفيق افندي لرياسة مجلس المبعوثان موقتا ؛ لان انتخاب الرئيس مبين في المادة السابعة والسبعين من القانون الاساسي .

بعد خروج السفراء ومندوبي الدول من الاستانة العلية بعث البرنس غورجقوف ناظر خارجية روسيا الى الدول بمنشور مؤرخ في ٣١ كانون الثاني (يناير) يطلب فيه مداخلتهم بالاشتراك لاجراء الاصلاح في الممالك العثمانية (!)، والا اضطر القيصر وحده الى اتخاذ التدابير اللازمة في هذه المسألة وأرسل الجنرال اغناتيف الى اوربا يقول: بما ان الباب العالي بدأ يخل بمعاهدة باريس ، فتمام استقلال تركيا المشروط في تلك المعاهدة اصبح واهيا لاغيا، فترددت دول اوربا ولا سيما انكلتره في قبول هذا الكلام

انتخاب اعضاء مجلس المبعوثان

رأت الدولة العلية اصرار اوربا على اصلاح الروم ايلي فسارعت الى انتخاب المبعوثين وتطبيق احكام القانون الاساسي الذي نالت به الامة العثمانية الحرية وحق الحكم ، فلم يفقه الناس اذ ذاك معنى هذه الحرية ولا قدروها حق قدرها ، فظنوا أن المبعوثين كبقية الموظفين يشتغلون بمصالح الامة تحت سيطرة الوزراء والنظار، ليستفيدوا من الرواتب التي ينقدونها ، فلم يهتموا بأمر الانتخاب كما يجب . حدثني بعض احرار الاستانة قال كنا نحرض الناس على الانتخاب ونسوقهم اليه سوقا ، وهم يقولون: ألم يكفنا ما لدينا من المجالس والدوائر المشحونة بالموظفين حتى نزيد عليها مجلسا جديدا

وتتكبد القياء برواتب موظفيه ؟ فان لم يصلح حالنا وتنتظم ادارتنا بجميع مانراه امام أعيننا من النظارات والدوائر العظيمة المشتملة على الالوف من الموظفين اتراه يصلح بمجلس المبعوثان ؟؟

هذاما كان يقال في قاعدة السلطنة ومقر الخلافة ؛ فما بالك في مرا كزالولايات والالوية ، اذكان المنتخبون لا يوصون مبعوثيهم الا بطلب الرتب والاوسمة والالقاب والمناصب والمخصصات والرواتب لهم ولاقاربهم وذويهم ! ! ولمن لاذبهم وحام حول حماهم ، أو بإعفائهم من التكاليف الاميرية والخدمة العسكرية وتخفيف الضرائب والمكوس عنهم ونحو ذلك !، مما يعود على الوطن بالخراب لا بالعمران، كأن خزينة الدولة كنز لايفنى، تمطر عليه الاموال من رحمة الله بغير عد ولا حساب

افتتاح مجلس المبعوثان وخطاب السلطان

افتتح المجلس العمومي المؤلف من الاعيان والمبعوثان في ٤ ربيع الاول سنة ١٢٩٤ و١٩ مارت (مارس) سنة ١٨٧٧ في بهو الاستقبال الكبير في سراي طولمه باغجه بمحلة بشكطاش ،وتلي النطق السلطاني امام الحضرة السلطانية وهو : «

« أيها الاعيان والمبعوثان

« انني أبدي الامتنان بافتتاح المجلس العمومي الذي اجتمع للمرة الاولى في دولتنا العلية ،وجميعكم تعلمون ان ترقي عظمة واقتدار الدول والملل انما هو قائم بالعدل، حتى ان ماانتشر في العالم من قوة دولتنا العلية وقدرتها في أوائل ظهورها كان من مراعاة العدل في سير الحكومة ،ومراعاة حق ومنفعة كل صنف من صنوف الرعية . وقد عرف العالم أجمع تلك المساعدات التي قام بها أحد اجدادنا العظام المرحوم السلطان محمد خان الفاتح في مطلب حرية الدين والمذهب ، وجميع اسلافنا العظام ايضا قد سلكوا على هذا الاثر ،فلم يقع في هذا المطلب خلل في وقت من الاوقات، ولاينكر ان المحافظة على السنة صنوف رعيتنا ومليتهم ومذاهبهم منذ ست مئة عام كانت النتيجة الطبيعية لهذه القضية العادلة . والحاصل بينما كانت ثروة الدولة والملة (الامة) وسعادتها صاعدتين في مدارج الترقي في تلك الاعصار والازمان بفضل حماية العدالة ووقاية القوانين — أخذنا بالانحطاط تدريجا بسبب قلة الانقياد للشرع الشريف

وللقوانين الموضوعة» وتبدلت تلك القوة بالضعف . . . . . » الخ

ثم ذكر إزالة السلطان محمود غائلة الانكشارية ، وسبقه لفتح باب إدخال مدنية أوربا الحاضرة الى الممالك العثمانية ، واقتفاء السلطان عبد المجيد خان أثره ، واعلانه أساس التنظيمات الخيرية . . . الخ النطق السلطاني المعروف

قابل الجميع هذا النطق بالخضوع والركوع (!!!) وخصص لاجتماع المبعوثين بهو كبير في سراي العدلية بالقرب من ايا صوفيا تحت رياسة أحمد وفيق افندي الذي صار بعد ذلك باشا ، وعين للرياسة بإرادة سنية لا بالانتخاب! ولذا كان رقيبا على مدحت باشا ، وقد اتهمه حزب تركيا الفتاة بالاستبداد لأن رياسة مجلس المبعوثان شبيهة بوظيفة رئيس الموسيقى المركبة من آلات كثيرة مختلفة ، لكل آلة توقيع خاص ، فعلى الرئيس أن يلاحظ موازنة الانغام وائتلاف بعضها ببعض ، لتخرج جميعها بصورة مفيدة مطربة ، وليس له ان يأخذ آلة من الآلات الموسيقية ويضرب عليها ليوازن ما بينها

مذاكرات مجلس المبعوثان

• كانت الجلسة الاولى مخصصة للمذاكرة في العريضة التي ينبغي تقديمها من مجلس المبعوثان جوابا عن النطق السلطاني ، فحررت مسودة الجواب واسقط الكاتب منه كلمة « السنة » في الجواب عن فقرة « المحافظة منذ ست مئة عام على السنة . . . » المذكورة في النطق السلطاني ، فقام أحد مبعوثي الروم من الاستانة وقال ما محصله : « لا يمكننا ان نقبل إسقاط كلمة تدل على أثمن امتياز نلناه ، لان لساننا — نحن معشر الروم — هو ثروتنا ، فمن سوء الفهم وقلة الادب نحو جلالة سلطاننا الاعظم ان نمحو كلمة أثبتها جلالته بنفسها وكررت منحنا ذلك من جديد » فقال الرئيس : ليس بحثنا في ذلك لانا لا نعرف في هذا المجلس لسانا غير اللسان العثماني الرسمي . فقال جمهور العثمانيين : « بك أعلى ! بك أعلى ! ! » أي حسن كثيرا حسن كثيرا ، فقام مبعوث أرمني وايد كلام المبعوث الرومي ، فقال الرئيس ثانية : ليس بحثنا في ذلك ، ومع هذا فاني أسأل اعضاء المجلس عما اذا كانت آراؤهم موافقة لرأيي ؟ فقال جمهور المبعوثين : « أوت أفندم ! اوت افندم! » أي نعم ياسيدي ! نعم ياسيدي ! (لها بقية)

العمل (*

لئن كان للطبيعة حق الأولوية في احداث الثروة سواء في أرضها الخصبة، أو في احراشها الكثيفة، أو في مناجمها الكثيرة المعادن، أو في مراعيها الغزيرة الكلأ، أو في أنهارها المتدفقة بالخيرات، فان المدار في استثمار كل ذلك على العمل ولو قليلا . فلا بد من فلح الارض و بذر الحبوب قبل أن تجود الطبيعة بنعمائها، وتبذل الارض غلتها، ولا بد من احتفار المناجم قبل استخراج كنوزها، ولا بد من جني الثمار قبل التمتع بلذيذ طعمها . فالعمل ضروري للعمران، ولازم لكل موجود، وهو للموارد الطبيعية التي هي ينابيع الثروة بمثابة الدلو من البئر ، إذ لولاه ما قدر أحد على الاغتراف منها .

وقد وفى الدين العمل قسطه من المدح حيث حث على التمسك به ، فقال عز وجل في سورة مريم (وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا * فكلي واشربي وقري عينا) وهو أمر به ، لانه إذا كان جل شأنه يأمر السيدة مريم وهي في وقت المخاض بهز جذع النخلة قبل أن يتساقط عليها الثمر ، مع انه قادر على أن يكفيها مؤونة ذلك التعب، فمن البديهي انه يأمر كل فرد من أفراد الهيئة الاجتماعية بالسعي في تحصيل رزقه، ولا سيما إذا كان صحيح الجسم . وقال تعالى في آية أخرى (وجعلنا الليل لباسا والنهار معاشا) أي وقتا يلزم فيه السعي لتحصيل العيش وترقب الرزق بالعمل، وقال (فاذا قُضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) وهو أمر بوجوب جوب البلاد والضرب في طولها وعرضها ، رغبة في العمل والانتفاع بما خلق جلت عظمته من الخيرات ، وقال (فابتغوا عند الله الرزق) أي

*) وعدنا قراء المنار في الجزء الماضي بأنا ننقل لهم طائفة من كتاب الاقتصاد السياسي المفيد ، وهذا ما اخترنا نشره وفاء بالوعد ، وتحريا للنفع

اعملوا حتى تحصلوا على ما يقوم بضروراتكم ، وقال (فامشوا في منا كبها وكلوا من رزقه واليه النشور) وقال (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) وكان النبي صلى الله عليه وسلم جالسا مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة وقد بكر يسعى ، فقالوا ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله، فقال النبي « لا تقولوا هذا فانه ان كان يسعى على نفسه ليكفيها المسألة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله، وان كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله » وقال « احرث لدنياك كأنك تعيش أبدا » وقال « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب ، خير من أن يأتي رجلا اعطاه الله من فضله فيسأله اعطاه أو منعه » وقال « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وان نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » رواه البخاري وهكذا فضل النبي العمل في اية حرفة على الاستنامة الى الكسل، واراقة ماء الوجه في الطلب . وجاء في الانجيل ما معناه « تأكل خبزك بعرق جبينك » وهو حث على العمل طلبا للارتزاق. وروي إن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام رأى رجلا فقال ما تصنع؟ قال أتعبّد، قال ومن يعولك؟ قال أخي، قال: أخوك أعبد منك . وقال عمر بن الخطاب « ما من موطن يأتيني الموت فيه أحب إليَّ من موطن اتسوق فيه لاهلي أبيع وأشتري » وقال « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني، فقد علمتم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » وقيل للامام أحمد : ما تقول فيمن جلس في بيته أو مسجده وقال لا أعمل شيئا حتى يأتيني رزقي ، فقال أحمد « هذا رجل جهل العلم ، أما سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم : ان الله جعل رزقي تحت ظل رمحي . وقوله عليه السلام حين ذكر الطير فقال: تغدو خماصا وتروح بطانا، فذكر انها تغدو في طلب الرزق »

هكذا يحث الدين على العمل ويرغب فيه مراعاة لتقدم العمران ، ومحافظة على النوع الانساني من الفناء ، ومن ذلك تظهر حطة أولئك الذين يرون التوسل وسيلة للارتزاق، والتسول حرفة للتعيش ، أولئك الذين لم يعرفوا مزية العمل وعلاقته بالسعادة ، ففضلوا مد أيديهم للسؤال على مدها للعمل ، واستسهلوا أن يكونوا كالكلاب تأكل كل ما يلقى اليها ، أولئك هم الذين يحل الشقاء بالبلد الذي يحلون

فيه، فهم يستنفدون ثروته، ويستنزفون خيراته، بدون أن يسعوا في احداثها.

العمل هو أساس الثروة فكيف ينتظر النجاح بدونه، وهو دعامة كل ما نراه في العالم من التقدم في المدنية. ما رأينا بلدا تمسك أهله باهداب العمل إلا وتحولت فيه الصحارى القفراء الى حدائق غناء، وجادت الارض بكنوزها، وانساب الذهب إلى جيوب أهلها. لولاه لم يصر الترب تبرا، وتتبدل المفاوز بمعاهد للعلوم، ومعابد للنسك، ومعامل للصناعة. لولاه ما ضحكت الارض من بكاء السماء، ولا ابتسمت الازهار في الا كمام، ولا حملت الاشجار لذيذ الثمار من كل زوجين اثنين، إذ أنه لا بد من غرسها قبل أن تصير دانية ظلالها، مذللة قطوفها، ولا غنى عن تعهدها قبل ان تترعرع أغصانها، وتصير دوحة تناطح السحاب. لولاه ما استنبط الانسان الوسائل التي يسخر بها القوى الطبيعية، ويتغلب على الصعاب، ويقرب المسافات بالبخار والكهرباء، ويجعل كليهما رهين إشارته. لولاه ما أخذت الارض زخرفها، وبلغت من المدنية غايتها، وبدت آثار العمران في انحائها، وصارت معمورة يتزايد سكانها في كل عام، وتتضاعف ثروتها آناً فآناً.

من ينكر فضل العمل في إحداث الثروة، فليرجع ببصره الكرة الى «استراليا» في الماضي يجدها في آخر درجة من الانحطاط، لخمول سكانها الاصليين، وكثرة اتكالهم على الموارد الطبيعية، ويشاهدها الآن وقد نالت من العمران حظا وافرا، وجرت في المدنية شوطا بعيدا. ذلك لان قوما عرفوا مزية العمل استوطنوها، فنهلوا من تلك الموارد، وعملوا في برها وبحرها، واحتفروا المناجم واستخرجوا كنوزا دفنتها الارض في بطنها اجيالا، وحافظت عليها لمن يقدر العمل حق قدره. فطبيعة تلك البلاد لم تتغير وانما تغير سكانها. بل مالنا وللتمثيل باستراليا، وأمامنا شبه جزيرة العرب التي كانت محط رحال المدنية، ومهبط العلوم والعرفان، ومصدر العمران، مالها قد عفت آثار مدنيتها، ودالت دولة ملوكها، واندرست معالم علومها، واندثرت معارفها، وصار ذلك المجد القديم، والسؤدد الماضي، أشبه بحلم حالم!!؟ أليس السبب هو ان ذلك السلف الصالح خلف من بعدهم خلف

أضاعوا الجد الموروث، وأهملوا العمل، وتمسكوا باذيال الكسل، حتى صاروا قديما في عالم جديد (وتحسبهم أيقاظا وهم رقود)

كان « كسناي » وأضرابه يعتبرون الأرض الوسيلة الوحيدة لاحداث الثروة، ويبخسون العمل حقه في الاحداث، وذلك زعم صحيح من جهة ان الارض ينبوع المواد التي تقوم بها الصناعة، فلا يقدر الصانع على نسج ثوب بدون قطن، ويستحيل عليه صناعة آلة حديدية بدون حديد، ولكن « كسناي » بخس العامل حقه، وأنكر عليه تحويله الحديد من شكله الطبيعي حيث لاينتفع به، الى شكل يصير بواسطته آلة بخارية يتهافت الناس على ابتياعها ·أنكر على العالم الكيماوي تركيبه لدواء فيه شفاء للناس من موادطبيعية لاتفيد كثيرا، وهذا مالا ترضاه العدالة، على انه بعد « كسناي » كما قدمنا أتيح للعمل ان يأخذ «آدم سميث» بناصره، ويظهر فضله، و يطنب في مدحه، ومن ثم أخذ مقامه في الصعود، ونجمه في السعود، حتى لقد قال فيه العلامة «جيد » انه هو الجدير دون غيره أن يكون الوسيلة في إحداث الثروة حقيقة، إذ الانسان هو المنتج الحقيقي لها، وما الطبيعة إلا طوع ارادته ، يحركها كيف شاءت تلك الارادة

﴿ ١ – أدوار العمل ﴾

عصر الصيد

في ذلك العصر كان الانسان قليل العمل ، كثير الاعتماد على الطبيعة، يعيش من صيد البر أو البحر، وكان رحالا كالانعام السائمة، يسكن البقاع الكثيرة القنص، كما تأوي هذه الى المروج الغزيرة الكلأ، ويلقي عصا الترحال اذا قل الصيد، كما تفعل هي اذا غيض الماء أوجفت المراعي ·وقد كان في ذلك الدور مهددا بخطرين : الوحوش الكاسرة، والمجاعات المهلكة، لقلة ادخاره، لما يقتات به في اعساره، فالويل له اذا أصابه مرض أقعده عن الصيد، أو انتابه حر أو برد منعه عن مطاردة فريسته، والويل له اذا كان ضعيف النكاية أعداءه (كذا في الاصل) الذين يداهمونه لسلب ما اقتنصه · وكان عدم ادخاره راجعا الى أسباب كثيرة، منها عدم احترام الحقوق، فكان حقه مزعزعا لا يقدر هو على حمايته ،وليس هناك حكومة تدافع عنه، ومنها عدم وجود مسكن له او ذرية في

أغلب الاحيان، ولذا لم يوجد عنده مايدعوه الى الاحتفاظ بالقوت تحرزا للمستقبل ·

عصر الرعاية

ولما رأى نفسه معرضا للمجاعات القتالة التي كانت تجتاحه من وقت الى آخر ؛ ورأى أنه ملزم بالنفقة على زوجته وأولاده ، توجهت همته الى تدجين الحيوانات النافرة كالابل والخيل والغنم وغيرها ، مما كان لاينتفع به كثيرا · ووجد من أهله وذويه من يساعده على رعي تلك الابل والغنم في الوديان والمروج الفسيحة التي تحيط به ؛ والانتقال بها من مكان الى آخر. وفي ذلك العصر ازداد عدد الناس عما كانوا عليه ، وتألفت منهم قبائل كثيرة كانت ثروة كل واحدة منهن تقدر بعدد رؤوس الابل أو الغنم التي تملكها ، كما كانت الحال عند العرب والتركمان؛ وكما هي الآن عند العرب الرحالة والزط · ويمكننا ان نعزو كثرة عدد الناس الى سببين (الاول) كثرة نتاج الحيوانات التي كانوا يربونها حتى صاروا في سعة من العيش ، فكانوا ينتفعون بألبانها وأوبارها ولحومها وجلودها حتى قلت المجاعات بينهم (الثاني) ازدياد العصبية في كل واحدة من تلك القبائل ؛ مما جعل حق الملكية مضمونا نوع ضمان ؛ وحبب الى كل فرد اقتناء الحيوانات فزادت الثروة وزاد العدد ·

عصر الزراعة

وكانت النتيجة الطبيعية لزيادة عدد السكان هي الازدحام على المراعي بالحيوانات مما جعل حشائشها التي غرستها يد الطبيعة غير كافية لسد الحاجة ، فعمد الناس الى معالجة الزراعة من اثارة الارض؛ و بذر الحبوب فيها وتعهدها بالسقي؛ حتى نبت مايكفي لمؤنتهم ولا نعامهم. واستخدموا في الزراعة كثيرا من تلك الحيوانات؛ ومن ذلك العصر ظهر العمل بمظهر أجلى؛ إذلم يعد الانسان مفوضا كل أموره للطبيعة؛ يأوي حيث نبتت حشائشها، و يرحل اذا جفت خيراتها؛ بل أخذ يعول على معوله؛ فيحول به الارض المجدبة الى مزارع كثيرة الخيرات؛ وانبنى على رغد عيشه تقدم عظيم في أحواله الادبية ،فنظم معيشته وظهرت الحكومات لاول مرة بالمعنى الذي نراها به الآن ؛ ولا حاجة بنا الى القول ان معظم الامم المتمدينة في الزمن الماضي كانت تعالج الزراعة في أول أمرها قبل ان ترسخ قدمها في المدنية .والسبب في ذلك بساطة المزراعة؛ وعدم

احتياجها الى كثير تفكير أو كبير عناء ، على ان تلك الامم نفسها وجهت همتها بعد ان تم لها الامر الى استجادة الصنائع على اختلاف انواعها .

عصر الصناعة

الصناعة أثر من آثار المدنية تتوجه الهمم اليها عند بزوغ شمسها ، وتستجاد اذا زخر بحر العمران ، والسبب في ذلك راجع الى أمرين (الاول) ان الانسان لا تتوق نفسه الى الكماليات كالصناعات المختلفة الا بعد تحصيل الضروري من مأكل وملبس ، (الثاني) هو ان معظم الصناعات تحتاج الى الممارسة والتعليم ، وهما لا يوجدان في وسط الامم المتوحشة ، ومن الصنائع ماهو مقدم كصناعة النجارة والحدادة والبناء والخياطة ، لان منفعتها ظاهرة لبناء المسكن وعمل الملبس ، ولذا توجد احيانا بحالة ساذجة ، ومنها مالا يوجد في الامة إلا اذا تفننت وتنوعت أساليب مدنيتها ، كصناعة الرسم وصناعة الطباعة وتجليد الكتب (١) وكلما علا كعب الامة في العمران ابتدعت الصنائع المختلفة ، واستنبطت الاختراعات المفيدة ، وارتقت فيها الاعمال العقلية الضرورية للصنائع كالتعليم والتأليف .

عصر استخدام البخار

على انه مهما يكن من تقدم الصناعة عند بعض الامم في الاحقاب الغابرة فان اختراع البخار في القرن الماضي جعل صناعة الزمن الحاضر متقنة ، وصار العامل بدل ان يستغرق وقتا طويلا في الصناعة ، يدير الآلة البخارية فتكفيه مؤونة التعب .

﴿ ب — الاعمال العقلية ﴾

ولا مشاحة في ان عمل الانسان في الادوار التي تقدمت لم يكن يدويا محضا ، بل لا بد له من أعمال عقلية ولو قليلة ، لانه لا ينتظر أن يصنع الانسان عدة للصيد أو آلة لفلح الارض أو يبذر الحبوب إلا بعد التفكير الذي هو المميز للانسان من الحيوان ، ولا يتصور أن يستوعب الصنائع إلاَّ بعد أن يعرف دقائقها من المعلم ، ويتعلم العلوم المرتبطة بها ، ثم هو لا يقدر على تعهد الارض مالم يوجد هناك حاكم يمنع عنه تعدي الغير ، ومهندس يسهل له الري ، ولم ينتفع بالآلات البخارية في

(١) أنظر مقدمة ابن خلدون

الزراعة والصناعة إلا بعد ان أجهد المخترعون « كجيمس وات » وغيره قرائحهم حتى وصلوا الى استخدام البخار. فالاعمال العقلية ضرورية للاعمال اليدوية كالزراعة والصناعة ، وهي مقدمة عليها حتى في أحقر الصنائع .

﴿ ج - الاعمال المنتجة للثروة ﴾

اختلفت الآراء من عصر الى آخر في تحديد الاعمال البشرية التي تكون نتيجتها زيادة ثروة الامم ، أما العرب فكانوا يرون - كما يؤخذ من كلام الحريري وغيره من الحكماء - ان المعاش امارة وتجارة وفلاحة وصناعة ، وقد قال الخليفة المأمون « الناس أربعة : ذو سيادة أو صناعة ، أو تجارة أو زراعة ، فمن لم يكن منهم كان عيالا عليهم » ويفهم من ذلك ان تلك الاعمال الاربعة هي التي كانت معتبرة محدثة للثروة ، بمعنى ان عمل الحاكم الذي يقي البلاد شر العدو ، ويرد المظالم ، وينظم الري ، هو عمل يزيد في الثروة ، وكذلك عمل الصانع الذي يوجد منافع للمواد الاولية ، والتاجر الذي يتوسط في جلب تلك المصنوعات وتسليمها لطالبيها ، والزارع الذي يقوم باثارة الارض وبذر الحب فيها حتى تنبت ما يسد الحاجة ، وأما اعمال غيرهم فلم تكن محدثة للثروة ،

وأما الطبيعيون وهم (كسناي) ومن كان على مذهبه فقد تقدم انهم كانوا يعتبرون ان المحدث للثروة من الاعمال ما كانت متعلقة بالارض من إثارتها وحرثها وبذر الحبوب فيها ، وبناء على ذلك قسموا الناس الى ثلاث طبقات : طبقة ملاك الاراضي وهم المحدثون للثروة حقيقة ، وطبقة الفلاحين وهم الذين يساعدون على هذا الاحداث ، وغيرهم من السكان كذوي الامارة وذوي التجارة وذوي الصناعة ، وكانوا يرون هؤلاء عيالا على الطبقتين الاولين . ولكن « آدم سميث » لم ينح نحو أولئك الاقتصاديين ، فقد اعتبر الصناعة والتجارة والإمارة من الاعمال المنتجة للثروة ، وتبعه من أتى بعده من الاقتصاديين .

ويمكننا أن نقسم الاعمال (أولا) الى ماهي مباشرة لإعداد سلعة من السلع للقيام بسد حاجة من حاجات الانسان ، وهذه محدثة للثروة بلا خلاف ، مثال ذلك العمل الذي يتكبده كلٌّ من حارث الارض و باذر القمح وحاصده ودارسه وطاحنه

وعاجنه وخابزه ، لان كلامنها موجه إلى إعداد الخبز مباشرة، وان تنوعت حالات القمح المراد جعله خبزا (ثانيا) الى غير مباشرة لإعداد الصنف ، وهذه إما يدوية أو عقلية ، أما الاولى فلا يخلو حالها من أحد أمور خمسة (ا) الاعمال التي يتكبدها الناس في استخراج المواد الاولية اللازمة للصناعة كاحتفار المناجم وتشذيب الاشجار وغير ذلك، وهذه بالطبع منتجة مادامت نتيجتها تستخدم في الصناعة (ب) الاعمال التي تصرف في إعداد الآلات اللازمة لصناعة الصنف ؛ مثال ذلك شغل الحداد في تجهيز المحراث أو آلة الغزل (ج) الاعمال التي يكون من شأنها بناء المحلات المعدة للصناعة كالمعامل والاحواض ، وهكذا لانه لولا تلك المحل لما توفر إعداد البضائع القطنية مثلا أو المراكب (د) ما يوجه من الاعمال الى الحصول على طعام وكساء ولوازم للصناع مادامت تلك الحاجات غير خارجة عن حد الكفاية، أو للحصول على الفحم اللازم لتسيير الآلات البخارية في حالة ما اذا كان الصانع لا يشتغل بيده (ه) الاعمال التي بواسطتها يمكن نقل الصنف الى حيث يطلبه الناس، ويدخل فيها عمل الحمالين في البر وصناعة المراكب والآلات البخارية و بناء الاحواض والارصفة وأعمال أمناء النقل والمراكبية وجميع التجار والمتسببين والسماسرة و الاعمال التي تحسنت بواسطتها الطرقات وغير ذلك . أما العقلية فمنها ما هو متعلق بالصناعة أو الزراعة أو التجارة، كالاختراع والتأليف وتعليم الصناعات و التفنن في ابتداعها وترويجها ، ولاشك في ان هذه منتجة ، ولافرق بين أن تكون هذه موجهة الى الزراعة أو الصناعة أو التجارة ، ويدخل تحت هذه أعمال الري على اختلاف أنواعها، وجميع ما تعمله الحكومة أو الاهالي لترقية الصناعة أو أو التجارة أو الزراعة ، ولا جناح علينا اذا نحن عددنا ضمن تلك الاعمال ما يبذله الفلاسفة والحكماء من الافكار لتعضيد الحالة الاقتصادية والاجتماعية ، وما تبذله الحكومة من بث العدل في الربوع، والمحافظة علي الامن، سواء بسن القوانين أو الاعمال الحربية برية كانت أو بحرية

(المنار) : ان بعض ما أورده المؤلف من الاحاديث لاصحة لاصله أوسنده وان كان صحيحا في معناه ووضعه

باب المناظرة والمراسلة

الملامة

بكتاب تاريخ العرب قبل الاسلام (*)

﴿ لحضرة الفاضل جرجي افندي زيدان ﴾

عرف الناس في مصر من حضرة الفاضل جرجي افندي زيدان معلما فمترجما فصحافيا ففيلسوفا لغويا فنسابة فروائيا مبتدعا فمتفرسا فمؤرخا خياليا قصاصا . ثم هم يستقبلون منه الآن مؤرخا اسلاميا محققا . ولا ندري ما يعرف منه اهل سورية قبل هجرته الى مصر . كل هذه صفات فاضلة ومواهب جليلة قلما يخلص بعضها لافذاذ العلماء ونوابغ الرجال . وهي بخلوصها لحضرته أفادت من لا يحصى عددهم من قراء العربية ولا سيما المسيحيين منهم وعلماء الشرقيات من الاوربيين وغيرهم ممن لا يحبون مطالعة الكتب العربية أو لا يستفيدون منها لو لم تشكل بالاشكال التي رسمها جرجي افندي زيدان لمؤلفاته العديدة

كان هذا الفاضل يؤلف الكتب الروائية ويأتي فيها بالممكن والمستحيل والمستملح والمستنكر فكنا لا نتعرض لها بمسخ أو نسخ لعلمنا ان الذي قاده الى هذه المواقف هو استرسال الخيال وهو قد يفضي بصاحبه في النثر الى مثل ما يفضي به في الشعر فيكون أعذبه أكذبه ، ولاعتقادنا ان نفعها اكبر من اثمها ، وان الكتب العربية الصحيحة لا تزال بعد منتشرة في جميع أرجاء العالم ناطقة ببيان الغث من السمين والصحيح من الباطل ، على انه ما من كتاب وضعه بشر الا وكان فيه لهوى النفس والسخائم الدينية والعصبية الجنسية بله الخطأ والغفلة أثر أي أثر ، الا ما شذ

(*) بقلم الشيخ احمد الاسكندري

وندر، فلما قرأت تقريظ حضرة الفاضل (المغربي) أحد محرري المؤيد لكتاب (تاريخ العرب قبل الاسلام) وهو آخر ما أخرج للناس بعد من كتب مؤلفنا المذكور وجدته قد ملأ ما يقرب من صفحة من صفحات المؤيد بعبارات الاطراء والتهويل والاعجاب والاغراب مما لو قبله القارىء لم يشك ان العرب خلقت خلقا جديدا أو ان تاريخ جاهليتها الاولى المقبور في بطون القدم قد نبشه المؤلف من ناووسه، فرابني قوله - والمبالغة تريب - ولم أر الامر يخرج عن إحدى خصال ثلاث، إما أن يكون قرظه ولم يقرأه كعادة اكثر محرري الصحف لضيق وقتهم، وإما أن يكون قرأه وصانع المؤلف لصداقة بينهما - وللصداقة حقوق - وإما أن يكون المؤلف قد وفق حقيقة للعثور على الضالة المنشودة والحلقة المفقودة من تاريخ جاهلية العرب، وما ذلك بعزيز على نشاط الرجل واجتهاده

ولما كنت ممن عني بهذا الموضوع عناية شديدة قرأت الكتاب بالهاف أخذ تناقص بتناقص أوراق الكتاب فاذا به والحق أقول خير مؤلفات الرجل ولا انكر انه أفادني بعض فوائد ثمينة هاجت في نفسي ميلا الى نقده ولا ينقد الا كل ذي قيمة

يقع كتاب (تاريخ العرب قبل الاسلام) في ٢٥٠ صفحة كتب في ٣٠ صفحة منها مقدمة طويلة ليست من موضوع الكتاب في شيء وانما ذكر فيها كعادته في كتبه غموض تاريخ العرب وصعوبة التأليف فيه أو تعذره الا على من كان من أهل الجسارة أو الاطلاع الواسع والمعرفة بكثير من اللغات الحية والميتة والبحث والتنقيب في آثار الامم الخالية ثم ذكر شبه فهرس مطول ثم تمهيدا في مصادر تاريخ العرب وهي الكتب العربية وغير العربية من اليونانية والرومانية والنقوش الاثرية وقد تحامل على العرب فيها ما شاء ان يتحامل مما يظن معه قارئه ابتداء ان أكثر مصادر الكتاب أثرية أو يونانية قديمة أو أوربية حديثة لكثرة أسماء الكتب والرحلات التي ذكرها وهي نحو السبعين كتابا غير الموسوعات والمعاجم الكبرى التاريخية والاثرية وغيرها (كما يقول) فاذا هو قرأ الكتاب وجد ان نحو أربعة اخماسه عربي المصدر وان لا ذكر لهذه الكتب والمعاجم إلا نزرا يسيرا في ذيل

الـكتاب يعرف ذلك من اطلع على الـكتاب بامعان ومن رأيي ان هـذه المقدمة تجارية أكثر منها علمية

فائدة المؤرخ من الـكتاب

إن الذي لايعرف اللغات الاوربية يستفيد من الكتاب

أولا — ما ترجمه المؤلف من آراء بعض قدماء اليونان في الجغرافية العربية غثة كانت أو سمينة

ثانيا — ما ترجمه من آراء بعض سياح الاوربيين في شمال جزيرة العرب وجنوبها على قلة في ذلك

ثالثا — بعض الصور والرسوم والخطوط والنقود التي نقلها من رحلات هؤلاء السياح مثل رسم سد مأرب و بعض قصور اليمن وهيكل تدمر و بطرا

رابعا — معرفة كيف كان يختلف اللسان النبطي والتـدمري عن العربي الفصيح وهي فوائد تشكر للمؤلف اذاعتها في كتاب مستقل

الامور التي تؤخذ على المؤلف

الامر الاول — تردده أو إنكاره بعض الحقائق التاريخية البديهية في موضع وتشبثه بتحقيق بعض الظنون والتخرصات في موضع آخر اعتمادا على أوهام وتخيلات قامت بذهنه فقط

فمثال الاول — انه عند ما أراد التكلم على تقسيم عرب أواسط الجزيرة وشماليها الى قحطانيين (يمانين)وعدنانيين مال الى انكار هذا التقسيم ورأى رأيا عجيبا لايخطر على بال مؤرخ ولا قارئ وهو ان هؤلاء العرب كلهم عدنانيون فعنده ان مثل طي وكندة ولخم وجذام ومذحج وهمدان ومازن والأوس والخزرج عدنانيون · ونورد هنا ماقاله في ذلك (صفحة ١٨٢و١٨٣) قال :

«وكل هذه البطون أوالقبائل قدرأيت انها ترجع بانسابها الى كهلان بن سبا أي انهم قحطانية — ذلك ماأجمع عليه العرب ولكن لنا رأيا في هذا الأجماع لايخلو ذكره من فائدة

« قد رأيت في ما ذكرناه عن الفروق بين القحطانية والعدنانية ان لكل منهما خصائص في اللغة والاجتماع والعادات والدين واسماء الاعلام . واذا تدبرت أحوال هذه الدول من غسان ولخم وكندة رأيتها تنطبق على العدنانية أكثر مما (كذا) على القحطانية من حيث اللغة فاننا لم نر في كلامهم وأقوالهم ما يدل على انهم كانوا يتكلمون لغة حمير بل لغة العدنانية أو عرب الشمال في الطور الثاني . وقد يقال انهم اقتبسوا لغة الوسط الذي انتقلوا اليه ولكنا نستبعد ذلك لان الغالب في اقتباس لغة الآخرين ان يقع من الضعيف نحو القوي — فلو كان أولئك القوم قادمين من بلاد اليمن لحافظوا على لسانهم وسائر عاداتهم لانهم كانوا يومئذ ارفع منزلة من بدو الشمال وكان هؤلاء ينظرون الى اليمنية نظرهم الى أهل الدولة ويعدونهم الملوك كما ينظر البدوي الامي الى المتمدنين أصحاب الصولة والعلم . وزد على ذلك ان اليمنية كانوا يكتبون بالحرف المسند ولا نرى لهذا الحرف ذكرا في اخبارهم ولا أثرا في اطلالهم

« وقد علمت ان الكهلانيين أهل حضارة كما رأيت في ما ذكرناه من حديث سيل العرم وكيف ان الكهلانيين كانوا أهل حدائق وقصور باعوها وانتقلوا . فلو صح ذلك لاختاروا الاقامة في بلد آخر من اليمن غير مأرب وما جاورها لان السيل لم يخرب الا جزءا صغيرا من اليمن . فلم يكونوا يعدمون مكانا يقيمون فيه كما كان يقيم سواهم من قبائل الحضر واخوانهم الحميريون ما زالوا أهل دولة وعمران وظلوا في رغد ورخاء وسعة من العيش الى ظهور الاسلام

« فما كان أغنى الكهلانيين عن الرحلة الى بادية الشام أو العراق والرجوع الى البداوة وهي شاقة على من تعود الحضارة والرخاء

« واعتبر ذلك في معبوداتهم فانها من معبودات عرب الشمال أو العدنانية ولم نجد عندهم ما يميزهم عن هؤلاء من هذا القبيل . ولو كانوا من عرب اليمن لوجدنا بين معبوداتهم اسم عشتار أو ايل أو نحوها

« وهكذا يقال في اسمائهم وليس فيها رائحة الاعلام السبأية أو المعينية بل هي مثل اسماء سائر عرب الشمال ولا سيما الذين سكنوا مشارف الشام قبلهم كالانباط

ونحوهم ومنها الحارث وثعلبة وجبلة والنعمان وغيرها . ولا يعترض بما ذكره العرب بين اسماء ملوك حمير من أمثال هذه فان أكثرها مبدل بأسماء شمالية وانما عمدتنا في ما ذكرناه على الاسماء التي وقفوا عليها في الآثار المنقوشة

«فلا دليل على قحطانية هذه الامم إلا أقوال النسابين وهي أضعف من ان يعول عليها في هذا الشأن لاحتمال ان تكون تلك الامم قد انتحلت الانتساب الى عرب اليمن التماسا للفخر بين قوم لا يعرفونهم ولا سيما بعد ان تقربوا من الروم أو الفرس وصاروا من عمالهم » اه

ونقول في دحض هذه الاقوال :

(١) أما عدم الاختلاف في اللغــة فان الاختلاف فيها إما أن يكون في الاصول وإما في الفروع أما الاصول فلم يكن بينها خلاف جوهري لأن لغات العرب كلها من اصل واحد كما اعترفت به حضرته وأما الفروع فلم ينكر احد سواه وقوع الاختلاف فيها حتى في لغات القبائل التي لم تخرج من اليمن فالاختلاف في الاعراب والتصريف والقلب والاعلال والابدال مملوء به كتب النحو والصرف والاختلافات في معاني الكلمات المفردة لم تهملها كتب اللغة والادب ولذلك وقائع وحكايات جر الخطأ في التفاهم بسببها الى ازهاق الارواح كما في حكاية قتل مالك بن نويرة وقومه وكذا يعرف ماهي العجعجة والشنشنة والاستنطاء في لغات اليمانية

ولو كان بعض الاتفاق في اللغات بين القبائل المختلفة يجعلها من اصل واحد لقد كان المحتم على حضرة المؤرخ أن تقول ان قبائل حمير التي لم تخرج من اليمن عدنانية أيضا لاتحادها مع العدنانيين في الاصول واختلافها عنها في بعض الفروع إبان ظهور الاسلام وقد حفظ لنا التاريخ الصحيح وكتب السنة الصحيحة كثيرا من مقالات وفود الحميريين على النبي صلى الله عليه وسلم وهي لا تختلف عن العدنانية الا في معاني بعض المفردات . وانما حدث هذا التقارب في اللهجة واللغة لتقاربهم في البيئة (الوسط) والمجامع والاسواق التي كانوا يقيمونها . وأما أن الضعيف يقتبس لغة القوي وزعمه ان اليمانين كانوا هم الاقوياء الغالبين فذلك على فرض تسليمه

لا ينهض حجة على اثبات دعواه لمـا كانت عليه العرب في القرون القريبة من ظهور الاسلام من التقارب في جميع الاحوال حتي قبائل حمير نفسها بعد غلبة الحبشة والفرس عليها

(٢) واما انه لم يوجـد أثر للحرف المسند من جهات الشمال فذلك قد كذبه بنفسه في موضع آخر عند تكلمه على عرب الصفا حيث أتى بهذا العنوان لامم سبئية في الشمال وذكر تحت هذا العنوان كلاما كثيراً عن ان أمم حمـير انتقلت إلى الشمال ووجد لها أنواع من الخط المسند كالقلم الصفوي والثمودي واللحياني وقال ان الباحثين لا يزالون في أول البحث

(٣) أما أنه لا حامل للقحطانيين على الهجرة من بلادهم وجناتهم وقصورهم الى الصحارى المجدبة بلا سبب عظيم وان سيل العرم لا يكفي لتفرقهم ايادي سبا فان الاسباب الحقيقية لهذه الهجرة لا تزال مجهولة كأسباب هجرة أكثر الامم القديمة وانما كان من أهمها حادثة سـيل العرم مضافة الى منازعات وحروب أهلية أو مجاعات أو ان الارض قد ضاقت عليهم فالتمسوا غيرها من بلاد الله ولم تكن وجهتهم في رحلتهم هـذه القفار بل كانت ريف العراق ومشارف الشام ولا تنكر حضرة المؤرخ عظم دولتهم في الحيرة والانبار وفي سورية وفلسطين فلقد احتلوا في الاولى جميع الاراضي التي بين دجلة والفرات حتي سميت العراق العربي وفي الثانية أكثر بلاد فلسطين وسورية وحلب ولا شك ان هذه كانت اخصب من بلادهم وبقية اليمانيين الذين سكنوا البدو منهم فانما تراجعوا اليه بعـد منافسات مع بني عمهم في الشمال مع بعد عهدهم باليمن وخصبه واما اكتفاء المؤرخين بذكر حادثة سيل العرم فذلك وهم سرى اليهم من تعقيب ذكر قصة السيل في القرآن الـكريم بقوله تعـالى (وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) فان الظاهر من الآية ان التمزيق سببه ظلم أنفسهم والظلم يأتي بأسباب كثيرة أعتدائية لا بسبب خارجي فجائي لا دخل لهم فيه مثل انفجار السد

(٤) واما دعوى اتحادهم في المعبودات فلا نسلم انها كلها كانت عدنانية بل كانت خليطا من كل الاديان فقد عبد كثير من العدنانيين الشمس والقمر والـكواكب

وهي من معبودات أهل الجنوب كما تهوّد وتنصر أهل الجنوب واليهودية والنصرانية من أديان أهل الشمال

(٥) واما توافق اسمائهم فذلك إرث من طبيعة الجوار والبيئة وتمازجهم في كل شيء كما يسمي الاقباط الآن انفسهم باسماء عربية وتركية بعد ما زالت سيطرة العرب والترك وكما يسمي الترك أنفسهم باسماء عربية مع انهم هم الغالبون للعرب وكما يسمي السوريون أنفسهم بأسماء انجليزية وفرنسية على ان هذا المؤرخ الذي أنكر في غير موضع من كتابه وجود اسماء عدنانية بين اسماء الحميريين نقض كلامه في صفحة (١٥٩) حيث نقل عن غلازر الالماني احد الاثريين للذين وجدهما في اطلال السد وهذا كتبه ابرهة قبيل ظهور الاسلام وفيه يذكر الاقيال الذين قهرهم أو ولاهم عنه مثل يزيد بن كبش ومرة وثمامة وحنش ومرثد وكل هذه اسماء عدنانية كما ان معديكرب الزبيدي إسمه حميري وهو من القبائل التي ينكر المؤرخ حميريتها

وأما الادلة الوجودية على ان القبائل المذكورة قحطانية فأكثر من ان نأتي بها جميعها في هذه المقالة وهي بالغة بصراحتها الى أفق البديهيات

فمنها اعتراف جميع هذه القبائل بأنها يمانية حتى بعد ان ظهرت مضر عليهم في وقائع عديدة وبعد ان خضعوا للمضريين بعد الاسلام وتعصب المضرية واليمانية في الفتن التي وقعت في الصدر الاول غصت به كتب التاريخ والادب

ومنها اجماع النسابين والمؤرخين باعتراف حضرته على ان القبائل المذكورة قحطانية

ومنها ما ثبت في الاحاديث الصحيحة مما يشير الى هذه التفرقة. ولو أردنا ذكر الشواهد التاريخية من الوقائع والمفاخرات وقصائد الشعر من الحماسة والمدح والهجاء وجميع الاحاديث النبوية لاثبات ان هذه القبائل قحطانية لوضعنا في ذلك كتابا يزيد عن كتاب جرجي افندي زيدان اضعافا   (لها بقية)

﴿ كلمات في النسخ والتواتر وأخبار الآحاد والسنة ﴾

ردّ على الاستاذ الفاضل الشيخ صالح اليافعي (*

(الكلمة الثالثة) — في بيان مااستشكله الاستاذ الشيخ اليافعي في تفسيرنا للآيات التي يستدلون بها على النسخ في القرآن — ان استدلالهم على النسخ بقوله تعالى (ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها)قد فنده الاستاذ الامام رحمه الله تعالى في تفسيره كما نقلنا ملخصه عنه في مقالة الناسخ والمنسوخ وقلنا ان المراد بالآية هنا هي العلامة والدليل على النبوة كالمعجزة ونحوها ومعنى نسخها ترك العمل بها في التأييد وعدم إظهارها مرة أخرى لتصديق النبي وذلك على حد قوله تعالى في آية أخرى في هذا المعنى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وما كان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله لكل أجل كتاب)أي لكل زمن حال مكتوب عليهم ومقدر لهم لايناسبهم غيره (يمحو الله مايشاء) من الآيات السابقة وغيرها فلا يعيدها مرة أخرى للامم اللاحقة لعدم مناسبتها لحالهم فهو كقوله هناك (ماننسخ)فالمجرد النسخ في الآيتين بمعنى واحد (ويثبت)مايشاء مما يرى الحكمة في إبقائه أو إعادته(وعنده أم الكتاب) أي العلم التام بكل حال ومايناسبه : فالسياق في هاتين الآيتين يدل على ماقلناه فيهما وهما مفسرتان بعضهما لبعض

يقول الاستاذ الفاضل : لوكان تفسيرنا لهذه الآية صحيحا لكان التقدير فيها : ما ننسخ من مثل آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها . ونقول نعم فليكن كذلك فهو كقوله تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون) فان تقديره : وما منعنا أن نرسل بالآيات التي تقترحونها إلا أن كذب بمثلها الاولون وقوله تعالى (نأت بخير منها أومثلها) فانما المثلية في قوة الحجة والاقناع لا في كنهها وماهيتها فأي عيب يراه الاستاذ في هذا المعنى وكيف يفسر هذه الآيات وآية (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك) الخ الآية التي سبق ذكرها ؟؟

---

*) للدكتور محمد توفيق افندي صدقي

فكل آية من آيات الانبياء السابقين التي نسيها الناس أو لم يظهرها الله تعالى مرة ثانية على يد النبي صلى الله عليه وسلم قد أتى بمثلها في الاقناع والهداية أو بخير منها في ذلك فأظهر تعالى على يده معجزات كثيرة وأنزل عليه آيات الكتاب العزيز فهو المعجزة العظمى الباقية وآية الآيات الكبرى الخالدة التي رآها الناس في كل زمان ومكان ويقدرها العقلاء قدرها فانها لا تشتبه بسحر ولا بشعوذة أو غش أو تدليس فهي خير من جميع المعجزات التي سبقتها وأعم فائدة وأتم دليلا وأكثر مناسبة لحال البشر وقد ظهر ذلك الآن أتم الظهور فترى العلماء اليوم في أوربا وكثير من البلاد المتمدنة صاروا ينفرون من ذكر المعجزات الحسية ويودون لو أوتي أنبياؤهم معجزات غيرها علمية عقلية أدبية أي كمعجزة القرآن الشريف . فلو لم يؤت صلى الله عليه وسلم سواه لكفى ولذلك قال تعالى (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) فما بالك وقد أعطي معجزات كثيرات غيره كما تواترت به الاخبار

واعلم أن نظم الآية التي نحن بصدد تفسيرها لا يقبل أي معنى آخر سوى ما اخترناه فيها ولذلك ختمت بقوله تعالى (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) فلو كان المراد آيات الاحكام كما يقولون لقال : ألم تعلم أن الله عليم حكيم ؛ فانه أتم مناسبة وأشد ملاءمة لما يقولون ولما قال بعدها (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير * أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ، ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل) فقد سأل بنو اسرائيل موسى من قبل مقترحين آيات غير ما اراهم عنادا وكفرا (فقالوا أرنا الله جهرة) . فاذا كان تفسيرهم صحيحا فما مناسبة هذا الكلام هنا وما معناه ؟ ! وإذا كان المراد آيات الاحكام لا المعجزات فهل الله تعالى أتى بدل الآيات المنسوخة بآيات خير منها ؟ إن كان ذلك صحيحا فكيف نسخ كثير من أحكام القرآن بالسنة على قول بعضهم ؟ مثلا قالوا إن آية الوصية للوالدين والاقربين قد نسخت بحديث « ألا لا وصية لوارث » فلم لم يأت بدلها فى القرآن ؟ وأين البدل

للآيات التي نسخ لفظها وحكمها معا كقوله : عشر رضعات معلومات يحرمن ، الذي نسخ على زعمهم بقوله (خمس رضعات معلومات) ثم نسخ لفظ هذا الاخير ولم يأت بدله ولا يزال حكمه باقيا كما في مذهب الشافعي وكذلك لم يأت بدل للفظ: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة وغير ذلك كثير !!

أما آية مناجاة الرسول التي فسرناها في مقالاتنا السابقة فنزيد على تفسيرنا لها أن قوله تعالى فيها (فان لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة) الخ معناه إن لم تفعلوا ماندبتم إليه من تقديم الصدقات قبل مناجاة الرسول والحال أن الله قد رجع إليكم بالتخفيف والتسهيل فيما شرعه لكم فلم يعاملكم كما كان يعامل الامم السابقة ولم يعنتكم بشيء مما اوجبه عليكم فلذا ندبكم إلى هذا الامر ولم يجعله عليكم فرضا كما هي سنته في معاملتكم بالرأفة والرحمة فأقيموا الصلاة إلخ فقوله (وتاب الله عليكم) قد ورد هنا بمعنى الرجوع الى التخفيف والتسهيل على هذه الامة والعدول عن معاملتها كسابقيها لا بمعنى التجاوز عن السيئات وغفران الذنوب ·وقد ورد بذلك المعنى أيضا في آية أخرى في سورة المزمل وهي قوله تعالى (علم أن لن تحصوه فتاب عليكم) أي رجع إليكم بالتخفيف ورفع عنكم مايشق عليكم وليس معناه في هاتين الآيتين العفو عن الذنوب إذ لا ذنب هنا صدر منهم

قال الاستاذ الفاضل الشيخ اليافعي منتقدا على تفسيرنا لآية (واذا بدلنا آية مكان آية) أن السياق لايدل على أن هذا القول صدر من أهل الكتاب كما قلنا فانه لم يتقدم لهم ذكر فى السورة · ونقول ان صدور هذا الكلام من أهل الكتاب لاينافي أن غيرهم من العرب شاركهم في ترديده والموافقة عليه عنادا للنبي صلى الله عليه وسلم وتكذيبا له فلذلك وردت هذه الآية في سياق الكلام عن مشركي العرب فانهم وافقوا أهل الكتاب منهم في دعاويهم الباطلة وتعاونوا بهم على تكذيب النبي عليه السلام ولذلك كانوا يقولون تقليدا لهم في تكذيب القرآن (أضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الاولون) فانهم لايؤمنون برسل الاولين ولا يعرفونهم ولا يصدقون بآياتهم ولكنهم يرددون ما يلقيه لهم أهل الكتاب وإن خالف معتقداتهم مادام فيه تكذيب للنبي وإغاظة له ولذلك ترى في القرآن آيات

كثيرة أمثال هذه التكذيبات اليهودية أو النصرانية واردة في سياق الكلام مع مشركي العرب فانهم جميعا كانوا متضامنين ومتحدين بعضهم مع بعض على بغض النبي وتكذيبه وعرقلة مساعيه فهم - وان اختلفت أديانهم - أمة واحدة ويد واحدة على رسول الله . فمن أمثلة هذا التضامن والاتحاد في التكذيب قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) ولما كان اليهود هم الموعزين الى المشركين بذلك عنادا لرسول الله وحقدا عليه ومكابرة له قال تعالى له (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس) الآية وهي واردة في سياق الكلام مع مشركي العرب للسبب الذي ذكرناه وهو أنهم أمة واحدة ومتحدون على بغض الرسول وتكذيبه وتلقين بعضهم بعضا صنوفا من الشبهات والتشكيكات غير مبالين بمخالفتها لمعتقداتهم فلذا صح أن ينسب ما يقوله بعضهم لهم جميعا لاتباعهم له وتعويلهم عليه في تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك في جميع اللغات المعروفة ينسب عمل بعض أفراد الأمة إلى الامة جميعها خصوصا إذا رضيت به وأقرته وان اختلفوا عقيدة فما بالك إذا كانوا جميعا يأتون الشيء و يعملونه .

ومن أمثلة ذلك أيضا قول المشركين (لولا أوتي مثل ما أوتي موسى) مع أنهم لا يؤمنون بموسى ولا بما جاء به وهو يدل على أنهم كانوا يقلدون اليهود تقليدا أعمى و يطيعونهم في جميع ما يوعزون به إليهم وإن نافى معتقداتهم كما قلنا إرضاءلهم واستجلابا لودهم ومعاونتهم لهم على الرسول . فكثير من مثل هذه الاقوال كان صادرا عن اليهود ثم تبعهم فيه المشركون وصاروا يرددونه عنهم فلذا اتبعوا اليهود في تكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم في قوله إن القرآن نسخ بعض شرائع التوراة كالسبت وتحريم بعض اللحوم . ولذلك جاءت آية (وإذا بدلنا آية مكان آية) في سياق الكلام مع المشركين مع أن القول صدر أولا من أهل الكتاب وقلدهم فيه المشركون تقليدا أعمى كما قلدوهم في غيره مما سبق بيانه وجاءت به الآيات في سياق الكلام معهم

هذا وإن الاستاذ الفاضل قد استنكر جعل قوله تعالى (إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم) وصفا لليهود وفاته أن الله تعالى قد وصفهم

بمثله في آيات أخرى كثيرة كقوله (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة — إلى قوله — وما أولئك بالمؤمنين) وقوله (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدي القوم الظالمين)

(الكلمة الرابعة) — بيان أسباب أن أحاديث الآحاد لا تفيد اليقين

أولا — قد يكون الراوي كذوبا لكنه منافق ومتظاهر بالصلاح والتقوى لسبب ما من الاسباب التي تحمل الناس على الكذب وهي كثيرة معروفة فيغتر به بعض الناس لعدم معرفتهم عنه شيئا يجرحه لشدة احتراسه وتستره . وقد يكون بعض المحدثين مؤمنا صادقا مخلصا صالحا لكنه ينخدع لظاهر هؤلاء المنافقين فيأخذ الحديث عنهم ويصدقهم وهم كاذبون اذ كلما اشتد صلاح المرء وخوفه من الله ظن أن أمثاله كثيرون وكثر انخداعه بأعمال المنافقين وظواهرهم وتجنب إساءة الظن والتجسس لشدة ورعه وتقواه أو بساطته وسذاجته في بعض الاحوال . وكثرة الكذابين وكثرة ما يضعونه من الاحاديث يشوش على الناقدين الباحثين عملهم ويوقعهم في الارتباك والخطأ كثيرا فيقبلون أحيانا ماليس صحيحا ويرفضون ما هو صحيح . ولا يلزم من كون المرء غير صالح أو عرف عنه بعض الكذب أن جميع ما يقوله كذب وقد يكون منفردا بحديث فلا يقبل منه لذلك مع أنه قد يكون صادقا فيه . وقد يكون المرء صالحا صادقا ولكنه يضطر في بعض الاحيان الى أن يكذب ولو واحدة فلا يسلم ما يؤخذ عنه من ان يكون فيه بعض الكذب او المبالغة

ثانيا — قد يكون بعض الرواة من الصالحين الصادقين المخلصين ولكنه يخطىء المراد ولا يفهم الحقيقة فيحدث كما فهم معتقدا انه صحيح . والتحديث بالمعنى كان عندهم جائزا . وقد ينسى شيئا مما سمعه ويقع في الغلط بسبب ذلك بدون أن يشعر به . ولذلك قال عمران بن حصين رضي الله عنه « والله إن كنت لأرى أني لو شئت لحدثت عن رسول الله يومين متتابعين ولكن بطأني عن ذلك أن رجالا من اصحاب رسول الله سمعوا كما سمعت وشهدوا كما شهدت ويحدثون أحاديث ما هي كما يقولون وأخاف أن يشبه لي كما شبه لهم » كما رواه ابن قتيبة في كتابه تأويل مختلف الحديث

ثالثا — إثبات عدالة رجال الاسانيد كثيرا ما تكون مبنية على شهادة شاهد أو رواية أحد فكأنهم يثبتون صحة الروايات بعدالة الرجال ثم يثبتون عدالة الرجال بالروايات ولا يخفى على أحد فساد ذلك فان ما يقال في رجال الأسانيد يقال مثله جرحا وتعديلا فيمن يشهد لهم ويوثقهم وربما أدانا ذلك إلى التسلسل أو الدور في البرهان

رابعا — أكثر الاحاديث والروايات مقتضبة فلا يعرف المقام الذي قيلت فيه ولا مناسباتها ومن المعلوم أن الاقوال إذا لم تعرف الظروف التي قيلت فيها قد تخرج عن المراد منها خروجا كليا أو جزئيا

خامسا — من المشاهد في جميع الاجيال وفي جميع الامم أن حفظ الاحاديث إذا كانت طويلة أو كثيرة بدون تحريف في ألفاظها أو معانيها ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان عسير جدا على الناس إلا من شذ وقليل هو وخصوصا إذا ألقيت مرة واحدة ولذلك جزم بعضهم بأن من ادعى نقل الشيء كما هو بحروفه في مثل هذه الاحوال فهو مغتر كذاب فالنقل في أغلب هذه الاحوال هو تقريبي ولا يخفى ما ينشأ من مثل هذا النقل من الافتراآت والاختلافات والاكاذيب فاذا امتاز بعض الناس بهذه المقدرة فليس جميع الرواة ممن امتازوا بهذه المزية الشاذة

سادسا — قبل زمن تدوين الاحاديث كان جل رواتها إن لم نقل كلهم لا يكتبون الحديث ولا يعتمدون فيها الا على ذاكرتهم وقد سبق لنا كتابات طويلة في هذا الموضوع في المنار ومجلة الحياة وجريدة الدستور وقد أيدنا فيها الاستاذ الكبير والعلامة المحقق صاحب المنار الاغر . ومن اعتمد على ذاكرته فقط لا نبرئه من الخطأ والنسيان في جميع الاحوال مهما كان

هذا شيء مما يقال في روايات الآحاد فهي عندنا لا تفيد اليقين لطرق مثل هذه الاحتمالات عليها وبذلك قال أيضا الجمهور وان أراد أن ينكر ذلك الاستاذ اليافعي زاعما أنها تفيد اليقين

واذا كانت هذه الاحتمالات مما يرد على أحاديث المسلمين ورواياتهم فما يرد

على أحاديث غيرهم أشد وأقوى وأكثر فانه لم يعرف عن أي أمة مثل ما عرف عن الامة الاسلامية من العناية والتمحيص في الروايات والنقد والبحث في رجال الحديث ولم يكن يخطر على بال غيرهم شيء من مثل ذلك

ولا خوف على الدين الاسلامي المتين من هذه المطاعن التي أوردناها على روايات الآحاد فان حجته ناهضة بالمتواتر فيه والمجمع عليه فليهدأ المسلمون بالا

(الكلمة الخامسة) — في ذكر شيء مما خالفوا فيه القرآن لاجل الحديث

قال الله تعالى (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون) . في هذه الآية - وأمثالها في القرآن كثير - يذم الله تعالى اتباع الظن والقول في دين الله بغير علم أي بغير ما يفيد اليقين وهي واردة في سياق الكلام مع من حرموا أشياء ليس عندهم دليل على أن الله حرمها عليهم . وقال أيضا قبل ذلك بقليل (وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون — الى قوله — وان كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين) ومنه ترى أن العمل بالظن في شريعة الله غير جائز اللهم إلا اذا اضطررنا إليه كما في بعض الاحكام القضائية بناء على قاعدة : الضرورات تبيح المحظورات المؤيدة بالكتاب والسنة وإلاَّ فانه يحرم على الانسان أن يحل شيئا أو يحرمه لدليل ظني فما بالك بمن يعارض القطعي بالظني ؟ لا شك أنه يكون مرتكبا لاثم كبير . وقد أقر الاستاذ الفاضل الشيخ اليافعي بأن الظن إنما يذم إذا عارضنا به الامر القطعي . يقول ذلك وقد غاب عنه أنه هو ومن على مذهبه كثيرا ما عارضوا نصوص القرآن الشريف الصريحة وخالفوها لأجل أحاديث الآحاد وهي لاشك ظنية كما عليه الجمهور . وإليك بعض الامثلة على ذلك :—

(١) خالفوا قوله تعالى (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقا على المتقين) الآيات لحديث « ألا لا وصية لوارث »

(٢) حرموا أكل الحمر الاهلية التي كانت تأكلها العرب كثيرا لما رووه من أن النبي صلى الله عليه وسلم حرمها مع أن القرآن الشريف يقول (قل لا أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة) الآية . ويقول (إنما حرم عليكم الميتة والدم) الآية ونحوها كثير

(٣) قالوا بحرمة استعمال الذهب والفضة والحرير للاحاديث التي رووها والقرآن يقول (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) فهي للمؤمنين يتمتعون بها في الدنيا وستخلص لهم وحدهم يوم القيامة فيحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير

(٤) حرموا أن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها للحديث وخالفوا قوله تعالى (وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين) بعد أن ذكر سائر المحرمات وليس من بينهن المرأة على عمتها أو خالتها

(٥) أوجبوا القتل مطلقا على من ارتد عن الاسلام للحديث ، والقرآن يقول (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ـ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)

فهذه بعض أمثلة مما عارضوا فيه القطعي بالظني وهو مما نكرهه وندمه وقد ذمه الله تعالى فى كتابه العزيز كما أقر به الاستاذ المناظر وإذا تتبعنا مذاهبهم وجدنا أمثلة غير ذلك كثيرة فهل يعقل أن الله يبيح للمسلمين ما كان يذم لاجله غيرهم في كتابه ؟ !!

أنا لا أقول إن جميع هذه الاحاديث يجب ان تكون موضوعة ولكن لا يبعد أن بعضها كان كذلك والبعض الآخر يغلب الظن أن له أصلا صحيحا وأنه كان شريعة خاصة بأحوال خاصة وظروف مخصوصة في مبدأ الاسلام ولا تخفى حكمة ذلك على الناقد البصير إذا تأملها . وما جاء به القرآن هو الشرع العام لكل زمان ومكان ولذلك لم تأت أمثال هذه المسائل الخاصة فيه ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن تدوينها كي لا تكون خالدة بينهم كالقرآن الشريف ولتزول من بينهم بزوال عللها وأسبابها كما سنبينه ان شاء الله تعالى في رسالة لنا في هذه المسائل سنطبعها على

حدة لطولها . فالمسلمون اتبعوا كثيرا من مثل هذه الاحاديث مع عترافهم بأنها ظنية وخالفوا لاجلها القرآن الشريف مع أن ذلك مذموم فيه . وقد نسوا على ما كان صحيحا منها ولم يراعوا أسبابها ولا الظروف التي قيلت فيها مع أن معرفة أسباب الاحاديث النبوية يحتاج إليها أكثر من الاحتياج إلى معرفة أسباب نزول القرآن الشريف ولذا لم يحسن المسلمون الجمع بين هذه الاحاديث و بين نصوص الكتاب العزيز . وهذه الاشياء هي مما ننكره عليهم وخصوصا لأن من الاحاديث التي يسلمونها ما يوجب الطعن في الكتاب، المتواتر نفسه كما أشرنا إليه في الكلمة الاولى . فلولا تغالبهم في اعتبار الاحاديث ما وقعوا في كثير مما وقعوا فيه من الاختلافات والاشكالات والشبهات وغيرها حتى جعلوا اليسر عسرا والسهل لغزا

و إني لاعجب من أهل الحديث هل إذا سمعوا أي قول منسوب إلى رسول الله يلزمون أنفسهم بالبحث في رجال سنده وتواتره ثم أم عليهم العمل به لمجرد نسبته إلى الرسول بدون بحث ولا تنقيب . أما الامر الثاني فهم لايجوزونه لظهور فساده وأما الامر الاول فكأنه يجب على كل مسلم بمجرد ماسمع أقوالا منسوبة إلى رسول الله أن يفني حياته في معرفة أحوال رجالها والوقوف على أمورهم و إذا لاحظنا ان التقليد في الاسلام منهي عنه وجب على كل فرد أن يبحث في أحوال الرجال و ينقدهم ويمحص كل ما وصله في الاحاديث وما يصله بنفسه والا بقي دينه ناقصا. فأي حرج في الدين أكبر من هذا وخصوصا كلما طال العهد على رجال الاسانيد و بعد مكانهم وزمنهم عنا .والله يقول (ما جعل عليكم في الدين من حرج) (لها بقية)

مناظرة عالمين(*)

﴿ في مجلس المأمون ﴾

إذا أردنا من القرآن كلام الله كان قديما لانه يكون اذ ذاك عبارة عن صفة من صفاته تعالى وهي قديمة ، وان أريد بالقرآن ما عدا الصفة القديمة من صوت مسموع أو مصحف مصنوع كان حادثا

هذه المسئلة على بساطتها ووضوحها كان لها فى تاريخ الاسلام الديني اسوأ الاثر وآل الامر فيها الى أن يسجن مثل الامام أحمد بن حنبل ويقيد ويعذب . وكان سواد الامة ومعظم علمائها من الفريق القائل بان القرآن قديم . اما الفريق القائل بالحدوث — ويسمى (المعتزلة) — فاتفق له من بعض خلفاء بني العباس من يأخذ بقوله ويحمل الناس عليه ، ومن ثمه كانت صولته أشد ، وعامل جبروته انفذ ، وكان من هؤلاء الخلفاء الذين أيدوا القول بالحدوث المأمون بن الرشيد ، فكان هذا الخليفة على ما فيه من علم صحيح وعقل رجيح يشدد على الناس وينكل بهم إن قالوا بما يخالف رأيه ، فكان الناس لعهده يستترون في بيوتهم ، وينقطعون عن شهود الجمعة والجماعة ، ويتسللون من بلد الى بلاد خشية الفتنة والارهاق ، وقد منع الفقهاء والمحدثون من القعود للناس في المسجد الجامع الواقع في الجانب الشرقي من الرصافة وفي غيره من المواضع ، الا بشراً المريسي ومحمد بن الجهم ومن رأى رأيهما من علماء المعتزلة القائلين بحدوث القرآن ، وكل من اظهر مخالفتهم قيد اليهم ، وعرض قوله عليهم ، فان أصر قتل سرا أو جهرا أو نفي من الارض . وكان كثيرون من العلماء يوافقونهم في الظاهر خوفا على أنفسهم وفي الباطن يبرأون الى الله مما أعلنوه .

شاع أمر هذه المحنة في بغداد وجعل أهل الامصار الاسلامية يتداولون خبرها

(*) لصديقنا عبد القادر افندي المغربي الطرابلسي نزيل مصر

ويتعوذون بالله من شرها : قال عبد العزيز بن يحيى الكناني (الذي نلخص هذه المقالة من رسالة له ألفها فيما حدث له) اتصل بي وأنا بمكة ما ابتلي به الناس في بغداد وكيف استطال عليهم بشر المريسي ولبّس على أمير المؤمنين وعامة أوليائه، فأطال همي هذا الخبر، وأطار نومي، فخرجت من بلدي متوجها إلى ربي واسأله سلامتي حتى قدمت بغداد فشاهدت من غلظ الامر وامتداده أضعاف ما كان يصل إليّ.

ثم إن عبد العزيز جعل بعد وصوله الى بغداد يبتهل الى الله أن يسدده، ويثبت عزيمته، ويرشده الى طريقة يتوصل بها الى قهر تلك الفئة الجائرة وكف عاديتها، فبدا له ان يخفي أمره عن الناس جميعا خشية أن يقتل قبل ان يسمع كلامه، ثم ارتأى أخيرا أن يقف بعد صلاة الجمعة في جامع الرصافة ويرفع صوته بمخالفة أهل البدعة وتسفيه آرائهم وطلب محاجتهم، فإن إشهاره نفسه على هذه الصورة يحول دون اغتياله قبل مناظرته، واستماع قوله، ولم يكد ينتهي الامام من صلاة الجمعة في ذلك الجامع حتى سمع الناس من الصف الاول حيال القبلة والمنبر صوت رجل مكيّ الزي واقف على قدميه ينادي بأعلى صوته ابنه الصغير الذي اقامه قبالته عند الاسطوانة الأخرى:

الاب — ماتقول في القرآن يابني ؟

الابن — كلام الله منزل غير مخلوق ياأبتي

فارتاع الناس لهذه المحاورة وهر بوا على وجوههم خارجين من المسجد، وأسرعت الشرطة فاحتملوا عبد العزيز وابنه الى رئيسهم « رئيس البوليس اذ ذاك عمرو بن مسعدة » وكان جاء ليصلي الجمعة في جامع الرصافة

الرئيس — أمجنون أنت ؟

عبد العزيز — لا

الرئيس — موسوس ؟

عبدالعزيز — لا

الرئيس — معتوه؟

عبد العزيز — لا والحمد لله ، وإني لصحيح العقل جيد الفهم ثابت المعرفة

الرئيس — فمظلوم انت ؟

عبد العزيز — لا

الرئيس لاصحابه — مروا بهما سحبا الى منزلي .

فاحتملهما الشرطة، وجعلوا يعدون بهما سحبا شديدا، وايديهما في أيديهم يمنة ويسرة، حتى صاروا بهما الى منزل الرئيس على هذه الحالة الغايظة، فادخلا عليه وهو جالس في صحن داره على كرسي من حديد وشواره عليه (١)

الرئيس — من أين أنت ؟

عبد العزيز — من أهل مكة

الرئيس — ماحملك على ماصنعت بنفسك ؟

عبد العزيز — طلبت القربة الى الله ورجاء الزلفى لديه

الرئيس — هلا فعلت ذلك سرا من غير نداء ولا اظهار المخالفة لامير المؤمنين!! ولكن أردت الشهرة والرياء والسؤدد لتأخذ أموال الناس

عبد العزيز — ماأردت الا الوصول الى أمير المؤمنين والمناظرة بين يديه لاغير ذلك .

الرئيس — أو تفعل ذلك ؟

عبد العزيز — نعم ولذلك قصدت، و بلغت بنفسي ماترى، وتغريري بنفسي وسلوكي البراري أنا وولدي رجاء تأدية حق الله فيما استودعني من العلم والفهم في كتابه، وما أخذه علي وعلى العلماء من البيان (٢)

الرئيس — إن كنت انما جعلت هذا سببا لغيره من المطالب اذا وصلت الى امير المؤمنين فقد حل دمك .

عبد العزيز — إن تكلمت في شيء غير هذا، وجعلت هذا ذريعة اليه، فدمي حلال

فوثب الرئيس وقال لاعوانه أخرجوه بين يدي، فاخرجوني أنا وابني بين يديه وهو راكب على فرسه، وجعلوا يعدون بنا على وجوهنا، وأيدينا في أيديهم، حتى وصلنا

(١) الشوار : اللباس والزينة وكأنه يريد به هنا الملابس ذات الطراز الخاصة برؤساء الشرطة والجند في ذلك العصر (٢) فليعتبر علماء هذا الزمان

الى دار الخلافة في الجانب الشرقي من بغداد. فدخل الرئيس على المأمون، و بقيت أناوابني في الدهليز واقفين على أرجلنا، فأطال ثم خرج الى حجرة له وأمر بي:

الرئيس — اخبرت أمير المؤمنين بخبرك وما فعلت وما سألته من الجمع بينك و بين مخالفيك للمناظرة بين يديه، وقد أمر أطال الله بقاءه وأعلى أمره باجابتك الى ما سألت، وأمر بجمع المناظرين على هذه المقالة الى مجلسه أعلاه الله في يوم الاثنين الادنى، ويحضر هو بنفسه معهم ليناظروا بين يديه، و يكون هو الحكم بينكم

عبد العزيز — أطال الله بقاء مولانا أمير المؤمنين وأيد دولته

الرئيس — أعطنا كفيلا بنفسك حتى تحضر معهم يوم الاثنين وليس بنا حاجة الى حبسك

عبد العزيز — أدام الله عزك، انا رجل غريب، ولست أعرف في هذا البلد أحدا، ولا يعرفني من أهلها أحد، فمن أين لي من يكفل بي، خاصة مع اظهاري مقالتي، لو كان الخلق يعرفونني حق معرفتي لتبرأوا مني وهربوا من قربي وأنكروني.

الرئيس — نوكل بك من يكون معك حتى يحضرك في ذلك اليوم، وتنصرف فتصلح من شأنك، وتتفكر في أمرك، فلعلك ترجع عن غيك، وتتوب من فعلك، فيصفح أمير المؤمنين عنك

عبد العزيز — ذلك اليك أعزك الله فافعل ما رأيت. ولما جاءت غداة يوم الاثنين حمل عبد العزيز مكرما الى دار الخلافة، وأدخل الى حجرة رئيس الشرطة فسأله هذا عما اذا كان لم يزل مقيما على رأيه ثم نصحه وحذره وخامة عاقبة مخالفة أمير المؤمنين فيما اذا ظهر عليه مناظروه، وانه ليس حينئذ إلا السيف، وانه إن ندم ورجع عن مقالته سأل أمير المؤمنين الصفح عنه، وضمن له جائزة وقضاء ماله من حاجة، فأجابه عبد العزيز بأنه ما خرج من بلده الا رجاء إقامة الحق.

الرئيس — وقد وقف على رجليه — قد حرصت على خلاصك جهدي وانت حريص على سفك دمك جهدك

عبد العزيز — معونة الله أعظم وألطف من أن ينساني، وعدل أمير المؤمنين أوسع من أن يضيق عني

وكان قد صدر الامر إلى بني هاشم أن يركبوا ، والى القضاة والفقهاء الموافقين لهم على مذهبهم وسائر المتكلمين والمناظرين أن يحضروا ، والقواد والاولياء (١) فركب القوم بالسلاح لإحداث الهيبة في نفس عبد العزيز وسائر الناس الذين يوشك ان يفسدهم ، قال عبد العزيز ثم أذن لي فلم أزل أنقل من دهليز الى دهليز حتى صرت الى الحاجب صاحب الستر الذي على باب الصحن (٢)

الحاجب — إن كنت تحتاج إلى تجديد الوضوء ؟

عبد العزيز — مالي إلى ذلك حاجة

الحاجب — إركع ركعتين

عبد العزيز — ركع أربع ركعات ودعا الله

الحاجب — استخر الله وقم فادخل

فأزاح الستر وأخذ الرجال (التشريفاتية) بيدي وعضدي وجعل اقوام أيديهم في ظهري وعلى رقبتي وطفقوا يعدون بي . ونظرني المأمون وأنا أسمع صوتا « خلوا عنه » وكثر الضجيج من الحجاب والقواد بمثل ذلك ، فخلوا عني ، وقد كاد يتغير عقلي من شدة الجزع ، وعظيم ما رأيت في ذلك الصحن من السلاح ، وهو ملء الصحن وكنت قليل الخبرة بدار أمير المؤمنين ، ما رأيتها قبل ذلك ولا دخلتها

قال عبد العزيز : فلما أوصلني الحجاب الى باب الديوان وقفت فسمعت المأمون يقول ادخلوه قربوه ، فلما دخلت من باب الديوان وقعت عيني عليه ، وقبل ذلك لم أنتبه اليه لما كان على باب الديوان من الحجاب والقواد ، فقلت السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم قال أدن مني ، فدنوت منه ، ثم جعل يقول أدن مني ، فدنوت منه ، ثم جعل يقول أدن ، وأدنو ، ويكرر ذلك وأنا أدنو خطوة خطوة ، حتى صرت إلى الموضع الذي يجلس فيه المتناظرون ويسمع كلامهم ، والحاجب معي يقدمني ، فلما انتهيت إلى الموضع قال لي المأمون اجلس فجلست

---

(١) يريد بهم الموالين للخلافة لا أهل الباطن كما هو اصطلاح أهل العصور المتأخرة (٢) أي صحن دار الخلافة وهذا الحاجب بمثابة سر تشريفاتي اليوم

وسمعت رجلا من جلسائه يقول — وقد دخلت الديوان — يا أمير المؤمنين يكفيك من كلام هذا قبح وجهه، فو الله ما رأيت خلقا الله أقبح وجهامنه، فسمعت قوله هذا وفهمته، وما رأيت شخصه، على ما كنت فيه من الجزع والرعدة ·

قل عبد العزيز :وتبين لامير المؤمنين ماأنا فيه من الجزع ، وما قد نزل بي من الخوف ، فجعل ينظرني وانا ارتعد خوفا وانتفض، واحب ان يؤنسني ، ويسكن روعتي فطفق يكثر كلام جلسائه ، ويكلم عمرو بن مسعدة (رئيس الشرطة) ويتكلم باشياء كثيرة ممالايحتاج اليها ، يريد بذلك كله إيناسي ، وجعل يطيل النظر الى الايوان ويدير نظره فيه ، فوقعت عيناه على موضع من نقش الجص قد انتفخ · فقال ياعمرو ماترى هذا النقش في الجص قد انتفخ وسيقع فبادر في قلعه وعمله ·فقال عمرو قطع الله يد صانعه فانه قد استحق العقوبة على عمله هذا ·

ثم أقبل المأمون على عبد العزيز يسائله :

المأمون —ماالاسم ؟

عبد العزيز —عبدالعزيز

المأمون —ابن من ؟

عبد العزيز— ابن يحيى بن مسلم

المأمون —ابن من ؟(يسأله عن جده)

عبد العزيز —ابن ميمون الكناني

المأمون — أوأنت من كنانة ؟

عبد العزيز— نعم ياأمير المؤمنين

ثم سكت المأمون هنيهة لايتكلم

المأمون — من أين الرجل ؟

عبد العزيز — من الحجاز

المأمون — ومن أي الحجاز؟

عبد العزيز — من مكة

المأمون— ومن تعرف من أهل مكة ؟

عبد العزيز — ياأمير المؤمنين قلَّ من بها من أهلها الا وأنا أعرفه . الا رجل ضوى (لجأ) ، اليها أو من جاور بها ، فاني لا أعرفه .

المأمون — اتعرف فلانا وفلانا (وجعل يعدد جماعة من بني هاشم)

عبد العزيز — نعم ياأمير المؤمنين أعرفهم

المأمون — وأولادهم وانسابهم . (وذكر شيئا من ذلك)

عبد العزيز — نعم . (وأجابه عما سأل)

قال عبد العزيز : وانما يريد أمير المؤمنين ايناسي ، و بسطي للكلام وتسكين روعي وجزعي، فذهب عني ما كنت فيه، وما لحقني من الجزع ، وجاءت المعونة من الله عز وجل ، فقوي بها ظهري ، واشتد قلبي ، واجتمع فهمي ، ثم اقبل المأمون عليَّ وقال ياعبد العزيز انه قد اتصل بي ما كان منك ، وقيامك في المسجد الجامع ، وقولك ان القرآن كلام الله الخ . بحضرة الخلق وعلى رؤوس الخلائق ، وما كان من مسئلتك بذلك من الجمع بينك و بين مخالفيك على القول لتناظرهم في مجلسي ، والاستماع منك ومنهم ، وقد جمعت المخالفين لك لتناظرهم بين يدي ، وأكون أنا الحاكم بينكم فان تبين الحجة لك عليهم والحق معك اتبعناك ، وان تكن الحجة لهم عليك والحق معهم عاقبناك ، وان استقلت اقلناك .

ثم اقبل على بشر المريسي وقال : يابشر قم الى عبد العزيز فناظره وانصفه ، فوثب بشر من موضعه كالاسد يثب الى الفريسة فرحاً ، فانحط عليَّ فوضع ركبتيه وفخذه الايسر على فخذي الايمن فكاد أن يحطمه ، وغمز عليَّ بقوته كلها ، فقلت مهلاً فان أمير المؤمنين لم يأمرك بقتلي ولا بظلمي ، وانما أمرك بمناظرتي وانصافي ، فصاح به المأمون وقال تنح عنه ، وكرر ذلك عليه حتى باعده مني .

ثم اقبل عليَّ المأمون وقال : ياعبد العزيز ناظره على ماتريد ، واحتج عليه ، ويحتج عليك ، وتسأله ويسألك ، وتناصفا في كلامكما ، وتحفظا الفاظكما ، فاني مستمع عليكما فتحفظ الفاظكما . فقلت السمع والطاعة لامير المؤمنين ، ولكن عبد العزيز لم يرد ان يشرع في مناظرة خصمه مالم ينتقم من ذلك البغيض الذي عابه لامير المؤمنين بقبح وجهه ، وتشويه خلقه ، وملخص ماقال في هذا الصدد : ان يوسف صلوات الله عليه الذي هو احسن البشر وجها ، كان حسنه و بالا عليه ، فظلم وسجن رجاء تغير حلية وجهه

وان يذهب السجن بحسنه ، ولما وقف الملك على سعة علمه ، وحسن عبارته في تعبير الرؤيا، صيره على خزائن الارض، واعتزل الامور وصار كأنه من تحت يده ، وليست هذه المنزلة إلا بعلمه وكلامه ، لا بجماله وحسن وجهه ، وقال اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم، ولم يقل إني حسن جميل ، فوالله ما أبالي يا أمير المؤمنين لو كان وجهي أقبح مما هو معي ، فقد أعطاني الله وله الحمد من فهم كتابه ، والعلم بتنزيله. فقال المأمون وأي شيء أردت بهذا القول ؟ وما الذي دعاك اليه ؟ فقلت اني سمعت بعض من هنا يقول يا أمير المؤمنين « يكفيك من كلام هذا قبح وجهه » فأي عيب يلحقني في صنعة ربي عز وجل ؟ فتبسم المأمون حتى وضع يده على فيه ، فقلت يا أمير المؤمنين : قد رأيتك تنظر هذا النقش في الحائط ، وتنكر انتفاخ الجص ، وسمعت عمرا (رئيس الشرطة) يعيب الصانع ، ولا يعيب الجص ، فقال المأمون العيب لا على الشيء المصنوع ، انما العيب على صانعه . فقلت صدقت يا أمير المؤمنين وقلت الحق . فهذا (يعني جليس السوء) يعيب ربي لم خلقني قبيحا . فازداد المأمون تبسما حتى ظهر ذلك عليه ، ثم قال يا عبد العزيز : ناظر صاحبك فقد طال المجلس بغير مناظرة . ثم أخذا في المناظرة . ولا يمكن ان نتقصى مسائل المناظرة او نلخصها لما ان المقام لا يحتمل ذلك ، وانما نشير الى بعض ما كان يجري بين المتناظرين مما فيه دلالة على أخلاق العلماء إذ ذاك ، وعلى كرم أخلاق المأمون : من ذلك ان بشرا سأل عبد العزيز سوالا ، وكلفه جوابه، ووافقه المأمون قائلا هذا يلزمك يا عبد العزيز فعند ذلك جعل ابن الجهم وغيره من شيعة بشر يضجون و يقولون ظهر أمر الله وهم كارهون ، جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً ، وطمعوا في قتل عبد العزيز ، وجثا بشر على ركبتيه ، وجعل يقول اقر والله يا أمير المؤمنين بخلق القرآن وأمسك عبد العزيز فلم يتكلم ، فقال له المأمون مالك لا تتكلم يا عبد العزيز ؟ فقال سألني بشر وهو المناظر لي ، فضجيج هؤلاء ايش هو ؟ وأنا لم أنقطع ، ولم أعجز عن الجواب ، ولست أتكلم ما لم يسكتوا ، فصاح المأمون لمحمد بن الجهم وغيره امسكوا ، فامسكوا ، واقبل علي وقال تكلم يا عبد العزيز واحتج لنفسك ، فتكلم وأخذا في المناظرة

قال عبد العزيز : وجعل بشر يصيح ويقول لو تركته يا أمير المؤمنين يتكلم لجاء بألف شيء فقلت يا أمير المؤمنين قد ذهبت بالحجج ورضي بشر وأصحابه بالضجيج والترويج بالباطل وقطع المجلس وطلب الخلاص ولا خلاص من الله حتى يظهر دينه ويقمع الباطل بالحق فيزهقه، فصاح المأمون ببشر أقبل على صاحبك ودع هذا الضجيج وكان المأمون قد قعد منا مقعد الحا كم من الخصوم .

قال عبد العزيز : وكثر تبسم المأمون من قولي حتى غطي بيده على فيه واطرق يكتب في الارض بيده على السرير

ومما استدل به بشر على مذهبه قوله تعالى خالق كل شيء والقرآن شيء من تلك الاشياء المخلوقة .

فأجاب عبد العزيز بما خلاصته : قال تعالى « ويحذركم الله نفسه » فلله نفس وقال تعالى « كل نفس ذائقة الموت » فتقول يا بشر ان نفس الله داخلة في هذه النفوس؟ فصاح المأمون باعلا صوته وكان جهوري الصوت معاذ الله معاذ الله .

هذا مثال مما كان يجري بين المتناظرين في حضرة المأمون ولم يزل عبد العزيز يدحض حجج خصمه ويكسر أقواله بالكتاب والسنة والقياس حتى قال المأمون له أحسنت يا عبد العزيز ثم أمر بعشرة آلاف درهم فحملت بين يديه وانصرف من مجلسه على أحسن حال وأجملها

قال عبد العزيز فسر المسلمون جميعا بما وهبه الله لهم من اظهار الحق وقمع الباطل وانكشف عن قلوبهم ما كان اكتنفها من الغم والحزن وجعل الناس يجيئون الي أفواجا حتى أغلقت بابي واحتجبت عنهم خوفا على نفسي وعليهم من مكروه يلحقنا ، فقالوا لا بد أن تملي علينا ما جرى لنعرفه ونتعلمه فهبت ذلك وتخوفت سوء عاقبته ، فلما ألحوا عليّ قلت أنا أذكر لكم بعض ماجرى مما لا يجوز عليّ فيه شيء ولا حجر في ذكره فرضوا فأمليت عليهم أوراقا مختصرة لاقطعهم بها عن نفسي وعن ملازمة بابي

باب الأخبار والآراء

سياحة صاحب المجلة

﴿ في سوريا ﴾

بيروت

وافيت بيروت في السادس والعشرين من شهر شعبان وقد صحا الجمهور من نشوة الفرح بالدستور ، وثابوا الى التفكر والتأمل بعد تلك الرياضة في روض الوجدان والشعور ، وكان مما يحمد عليه أهل بيروت ويذكرون به أنهم قد انتقلوا من خمول الاستبداد الى نشوة السرور بالحرية ومن هذه النشوة الى السكون والروية، ولم يكن منهم غلوّ مذموم كما يحصل عادة في مثل هذا الانتقال بمقتضى قاعدة «ردّ الفعل» وقد اشتهر ما كان من تحوّل الضغائن والاحقاد بين المسلمين والنصارى منهم الى المسالمة والوداد وكان المسلمون هم البادئين بهذا الخير ، كما كانوا في الغالب يبدءون وكما يقال بالشر ،

وقد رأيت فضلاء المسلمين في هذه الايام مهتمين بأمرين عظيمين أحدهما مشترك بين جميع العثمانيين وهو ماتفكر فيه جمعية « الجامعة العثمانية » من انشاء مدارس لتعليم جميع الطوائف وتربيتهم على الوحدة الوطنية اونحو ذلك من الاعمال . ولا بد ان يكون فضلاء النصارى متفقين معهم على ذلك وانما اسندت الاهتمام به الى المسلمين عن علم وجعلت مشاركة النصارى لهم من قبيل الاستنباط العقلي لانني لم أجتمع بأحد من علماء هؤلاء وفضلائهم فأعرف بالاختبار مايهتمون به من الاعمال في عصر الدستور إذ كان أهل العلم والفضل من المسلمين هم الذين استقبلوني في البحر وأكرموا

مثواي في البر . وما كانت إقامتي بينهم الا ثلاثة ايام ضاقت عن ردّ الزيارة لجميع الزائرين منهم ، ولو طالت لتصديت للقاء أهل الرأي من غيرهم ،

والامر الثاني مما يهتم به المسلمون خاص بهم وهو ماتوجهت اليه همة « الجمعية العلمية » من إحياء المدارس التي اسستها من قبل جمعية المقاصد الخيرية وكانت تدير نظامها شعبة المعارف التي قضى عليها الاستبداد فجعل هذه المدارس أثراً بعد عين . ولا أذكر ماسمعته من الآراء في إيجاد المال لهذه المدارس واختيار كتب التعليم لها بعد النظر فيما بين الأيدي منها وجلب مثله من مصر وانما أرجو أن أكتب بعد قليل من الزمن من أخبار اعمال هذه الجمعية ما يحقق أفضل الآراء وأنفعها

رأيت مسلمي بيروت مستعدين لقبول كل إصلاح ديني ومدني ورأيت فيهم نفرا من أهل الغيرة الملية والميل للاعمال التي تنهض بالامة وترقي شأن البلاد وقد أحببت ان يكون لي حظ من معرفتهم وسعي في جمع صفوة أهل الاخلاص منهم ومكاشفتهم بما أراه من أصول الاصلاح وقد سرني من حديث من اجتمعت به منهم أنني رأيت التفاوت بينهم غير بعيد ، والخلاف بين طبقاتهم غير شديد ، والتنافس بين أهل الظهور لم يهبط الى دركة الحسد ، ومقاومة الجامدين للاصلاح لم ترتق الى درجة المقاومة ،

والسبب في ذلك على ماظهر لي أن أذكياء النابتة الذين يحبون الاصلاح لم يتربوا تربية أوربية تبعدهم من الدين وتشوه مدنية سلفهم في أعينهم وتحبب اليهم الانسلاخ من كل قديم ، وتزين لهم الافتتان بكل جديد ، كما فتن كثير من المتفرنجين في الاستانة ومصر وتونس ، ولم يتوسعوا في علم الكلام والفقه فيجعلوهما مع فنون العربية كل المطلوب لارتقاء المسلمين ، ولم يحرموا منهما حرمان من يعادي الشيء لجهله به ، — وان المشتغلين بالعلوم الدينية والفنون العربية لايوجد كثير من المتقنين لها والبارعين فيها الذين يخشى ان يكونوا زعماء قادرين على تأليف العصبيات لمقاومة الاصلاح كما هو شأن رجال الدين الجامدين في كثير من بلاد المسلمين

ونتيجة هذا ان قلة اشتغال مسلمي بيروت بالكتب الاسلامية المتداولة وعدم افتتانهم بالتفرنج قد جعل نفوسهم مستعدة للاصلاح الذي لايرتقي المسلمون بدونه وهو الجمع بين هداية الكتاب والسنة وبين العلوم والمعارف العصرية بغير معارضة قوية

رأيت من النابتة العصرية من يقول يجب علينا ان نعمل بمعزل عن الشيوخ الجامدين ولا نبالي بهم رضوا أم سخطوا ، ومن يقول لا بد من مقاومتهم والقضاء على نفوذهم ، ومن يتوسط فيقول بوجوب مسالمتهم ومداراتهم والاستعانة بمن لان جانبه منهم ، والمرجح عندي ان العاملين في بيروت لا يجدون مقاومة يعتدّ بها ، وأحوج ما يحتاجون اليه المال والزعيم الذي تجتمع عليه القلوب ومتى وجد أصحاب الهمم من الرجال ، سهل عليهم إيجاد المال ، والزعيم انما يشترط لإتقان العمل وكماله فلا يتعذر على أهل الغيرة الابتداء بالعمل مع فقده . ومتى تكونت الاعضاء تكونا طبيعيا ثبت لها رأس طبيعي ،

أما حكومة بيروت فهي سائرة في طريق النظام بهمة واليها ناظم باشا وحزمه ودرايته ولكن هذا الوالي لم يأت بعمل ما في ملحقات الولاية كما يعلم من الكلام الآتي عن طرابلس ولولا قرب عهده بالمجيء الى الولاية لقلنا ان حسن حال الاهالي هو الذي حسَّن حال الحكومة في مدينة بيروت فهو لا يدل على فضله ولا يقوي الرجاء في إصلاح حال الولاية بحسن إدارته ولكنه لقرب عهده لما يتمكن من تنظيم إدارة داره فلا مجال للومه

طرابلس الشام

وافيت هذه البلدة وقد أهوت شمس يوم الجمعة (وهو التاسع والعشرون من شعبان) الى الغروب والناس يرقبون غروبها ورؤية هلال رمضان بعده فأقبلوا يستهلون فبدا الهلال لعين واحد منهم فحكم القاضي بشهادته وأصبح الناس من ليلتهم صائمين

مكثت في دار صديقي الصدّيق الشيخ محمد كامل الرافعي أسبوعا كاملا استقبل وفود الزائرين المهنئين من العلماء وعمال الحكومة والوجهاء ورجال الجمعيات الثلاث : جمعية الاتحاد والترقي وجمعية الجامعة العثمانية والجمعية العلمية . وقد ظهر لي مما دار بيني وبين صفوة الناس من الطبقات العليا والوسطى أن استعداد مسلمي طرابلس للاصلاح الديني والمدني دون استعداد مسلمي بيروت

ذلك بأن مسلمي طرابلس أكثر من أهل بيروت اشتغالا بدوس كتب

الفنون العربية والعلوم الاسلامية التي وضعت منذ القرون الوسطى بعد انحطاط مدنية المسلمين وضعفهم في العلوم وهي مما يضعف الاستعداد لانه يشغل الفطرة ولا يكملها فيكون عائقا لها عما سواه كما أشرنا اليه في الكلام عن استعداد أهل بيروت وربما نوضحه في فرصة أخرى ، على أن أهل طرابلس قد قل اشتغالهم في السنين الاخيرة لحكم الاستبداد ، التي اضطهد بها العلم وكتبه أشد الاضطهاد ،

هذا سبب معنوي من أسباب ضعف استعداد أهل طرابلس وسيعده أكثرهم غريبا أو باطلا بالبداهة محتجين بأن من كان أوسع علما في فن أو علم ما كان أقوى استعدادا لغيره ، ولا محل هنا لدحض هذه الحجة أو إبطال هذه الشبهة . وثم سبب آخر وهو الفراغ والبطالة في طائفة كبيرة منهم وعدم المنافسة والارتقاء في العمل عند أكثر العاملين

ومن الاسباب في ذلك قلة احتكاك أهل طرابلس بمن هم أرقى منهم في العلوم والاعمال من الأجانب والعثمانيين فان طرابلس أصبحت كأنها بمعزل عن العالم المدني ، لايهاجر اليها المرتقون في العلوم إذ لا مدارس ولاتعليم فيها ولا المرتقون في الاعمال التجارية أو الصناعية أو الزراعية إذ لارجاء لأحد في الكسب منها

ومنها ماهو أثر طبيعي لما قبله من عدم وجود الجرائد اليومية فيها وعدم وصولها الجرائد اليها من بيروت لانها غير متصلة بها بسكة حديدية فالمقيم فيها لا يعرف شيئا يعتد به من أحوال العالم

من أجل هذا وذاك كانت حكومة طرابلس شرا من حكومة بيروت في وقت الاستبداد ، ولم تنل نصيبا من الاصلاح في زمن الدستور وقد كان فسادها الماضي وضعفها الحاضر علة لكثرة الاشقياء فيها المستعينين بها على السلب والنهب والنيل من اعراض الناس ودمائهم ، فان لهؤلاء الاشقياء زعماء يشترون ذمة كبراء الحكام ويشاركونهم بما يتمتعون به من أموال الناس وأعراضهم ويرضخون لافراد الشرطة والزبانية بدريهمات يستعبدونهم بها فاذا رفعت على أحدهم قضية كفاه أمرها رجال المحاكم فاذا جاء البلد حاكم جديد وحاول ان يقرر فيها الامن ويقيم ميزان العدل وانفذ الشرطة الى بعض هؤلاء الاشقياء المتهمين بالقتل والضرب أو

السلب والنهب عادت اليه الشرطة قائلة انهم قد فروا هاربين فلا يعلم مكانهم وانما يكونون هم الذين لقنوها ما تقول

حادثة الاعتداء علي وسببها

ما كنت لاذكر هذه الحادثة في المنار، لو لم تشتهر في الاقطار، ويظلم بها أهل طرابلس على الاطلاق، حتى وجب علي ان أبرئ المظلومين، وأبين سبب تقصير المقصرين،

حقيقة الحادثة انني دخلت طرابلس باحتفال عظيم لم يسبق له نظير فيها فقد استقبلني عند الباخرة في البحر جمهور من أهل العلم والوجاهة ووفود من الجمعيات الثلاث : جمعية الاتحاد والترقي والجمعية العلمية وجمعية الجامعة العثمانية، وكان في الانتظار على رصيف الجمرك في الميناء جماهير من جميع الطبقات وجوقة موسيقي أرسلتها جمعية الاتحاد والترقي فلما اقبل عليهم الزورق الذي يحملنا مرفوعا عليه العلم العثماني (أعزه الله تعالى) صدحت الموسيقي وبعد السلام على كثير من المستقبلين ذهبنا إلى موقف الترام الذي بين الميناء والبلد فاذا بمركبة كبيرة من مركبات الترام معدة لنا من قبل جمعية الاتحاد فتبوأناها مع خواص اعضاء الجمعيات وجوقة الموسيقى في مقدمتها والناس من حولها يطلقون البارود . فوقفت في نافذة من نوافذ المركبة وشكرت للقوم أريحيتهم وسارت المركبة حتى إذا ما بلغت الموقف من البلد استقبلنا فيه جمهور آخر وسرنا حتى إذا كنا بالقرب من الدار التي نؤمها في أشهر شوارع البلد وأسواقها فاجأنا شقي من أولئك الاشقياء الذين أشرنا اليهم إسمه كامل المقدم فقال أين هذا الذي تسلمون عليه ؟ فعرفني بالقرينة فضربني بعصا في يده وقعت على جانب رأسي ثم رفعها ثانية وأهوى بها فتلقاها الشيخ محمد كامل الرافعي وكان عن يساري في مقدمة الناس . فأخرج الشقي مسدسا وأطلق منه رصاصة واحدة اعتقدت انه يريد بها قتلي واعتقد الجمهور ذلك فيما يظهر فانهم ارجعوني واحدقوا بي وأرادوا إدخالي لاحد البيوت المجاورة لذلك المكان . وتقدم اليه اكثر من واحد منهم فطردوه ثم استأنفنا السير إلى دار الرافعي وكانت قريبة منا وهنالك اخبرني القوم بالمعتدي وانه ابن عبد الرحمن افندي المقدم الذي كان يجلني وأنا طالب علم أشد

الاجلال على ما كان عليه رحمه الله من كبرياء حتى انه كان يستقبلني ويشيعني عند الباب

ذلك انه كان قد اعتدى على اخوتي من قبل بإيعاز عصبة من تلك العصب التي أشرنا اليها «والشر داعية الشر» فالظاهر ان تلك العصبة ثقل عليها ان يعتز من اعتدت عليهم بأخ لهم لانها تحب ان يكون شرها دائما لا ينقطع . وقد رأيت جميع الناس من جميع الطبقات يعتقدون ذلك ولولا هذا الاعتقاد لاظهروا استياءهم ولقامت قيامتهم على هذا الشبح البالي من حكومتهم على عدم ثقتهم بها بل لاستنهضوا همة حكومة الولاية الى معاقبة ذلك المعتدي الذي عدوا جريمته إهانة لهم كلهم أي إهانة لاهل البلد لانه أساء الى المئات من فضلائهم بالتعدي على الضيف الذي يحدقون به تعظيما له وتكريما ، وقد سمعت من الناس وعنهم ماجزمت به وأيقنت بأن الاستياء العام كان شديدا وأن بعض أهل الجرأة جهروا لزعماء عصبة ذلك الشقي وله بسوء هذا العمل وبمقت الناس لهم لاجله وحدثني بعض الكبراء والمتوسطين ان أولئك الزعماء أقسموا جهد أيمانهم بأن هذا الامر لم يكن بايعاز منهم وانهم وبخوا الشقي الفاعل وكادوا يطلقون عليه الرصاص !! ولكنهم مع هذا يهددون من دعتهم الحكومة للشهادة ليكتموها او يحرفوها ويخفون الشقي عن عين الحكومة ويطلبون المصالحة قبل القبض عليه ! ! !

هذا هو السبب في سكوت جمهور اهل طرابلس وإغضائهم على القذى ولو وثقوا بحكومتهم وأمنوا بقوتها شر تلك العصبة لاظهروا سخطهم لهما وللناس قولا وكتابة فهم معذورون في سكوتهم . على ان فيهم من تحمس ليذهب بوفد الى الولاية ليخاطبوا الوالي في الامر فلم أرض بذلك ، ومن شجعانهم من تمنى لو كان حاضرا لينتقم من المعتدي عند الاعتداء

أقول هذا جوابا لأولئك الفضلاء الاخيار الذين كتبوا الينا من بيروت ولبنان والشام ومصر يقولون اترك « فيحاء الاشقياء » تنعي من بني اول حجر فيها وارحل الينا حيث تلقى من الكرامة كيت وكيت ، ويقولون لوكنا معك لعلمنا أهل طرابلس كيف يوجد من عارفي قدرك من يفديك بدمه ،

وكتب اليّ صديقي رفيق بك العظم ينصح لي بأن أقضي بقية إجازتي في بيروت ودمشق وحمص وحماه . وقد تحمس أهل النجدة من بيروت وائتمروا بينهم ليرسلوا وفدا منهم يحضرني من طرابلس وعصبة من الشجعان لينتقموا لي من المعتدين بالقوة اذا كانت الحكومة عاجزة عن ذلك أو متهاونة فيه وكتب اليّ أكثر من واحد يستشيرني أو يستأمرني بذلك وقد تطوع نحو خمسين رجلا من فدائية بيروت (الابضايات) بذلك فكتبت الى بعضهم إنه لا حاجة الى ذلك وانني في طرابلس عزيز كريم

أراد ذلك الشقي أن يحط من قدري غلوا في الانتقام من إخوتي ، فكان عدوانه مزيدا في كرامتي ، وإهانة له ولعصبة الاشرار ، في القرى والامصار والاقطار ، بل إهانة لاهل بلده الاخيار منهم والفجار ، فقد طار البرق بالحادثة منذ تلك الليلة إلى بيروت ونشر الخبر في جرائدها فعلم به الناس في سوريا ولبنان ومصر فطفقوا يذمون طرابلس وأهلها قولا وكتابة وقد نقل ذلك اليها كثير ممن كان من أهلها في بيروت . وتلك سنة الله : رجل يهين أمة ورجل يشرف أمة ، كما اطروني برسائل البرق والبريد وتحدثوا بخدمتي الصغيرة للاسلام وللدولة والملة فكبروها تكبيرا بمثل البرقية التي وردت الي من شيخين من أشهر أهل العلم والادب في مصر ونصها «نهنيء العلم والدين بنجاة ركنهما الركين » ومثل البرقية التي وردت من فاضلين من أشهر أهل بيروت علما وأدبا ونصها « الهناء لكم ولنا وللمسلمين بسلامتكم التي تهمنا جميعا » وهنالك برقيات كثيرة بهذا المعنى من بلاد كثيرة منها برقية بامضاء بضعة عشر رجلا وهم خيرة أهل بيروت ولا تسل عن رسائل البريد ، وما فيها من الاطراء والتنديد

وليست الرسائل الواردة بما ذكر كلها من المسلمين بل منها ما جاء من فضلاء النصارى فكانت الحماسة فيها أشد ، ولسان الاطراء والقدح أحد ، كرسالة صديقنا نقولا افندي شحاده من زحله التي يتمثل فيها بقول السيد المسيح عليه السلام الذي معناه انه لا يهان نبي الا في قومه و بلده ، ورسالة صديقنا رئيف افندي شدودي من جونيه الذي تمنى فيها كما تمنى كثير من اهل بيروت لو كان معي وقت الحادثة فيري أهل طرابلس

كيف يفديني بدمه (حماه الله) فأشكر لجميع أولئك المهنئين أريحيتهم وفضلهم وأ كرر لهم الاعتذار عن أهل طرابلس في المنار كما اعتذرت عنهم فيما كتبته الى الكثير من المهنئين ، وأصرح لهم بأنهم لم يقصروا في الحفاوة بي بل بالغوا وأغرقوا حتى كنت أخجل مما أسمعه من شيوخ العلم وكبار الوجهاء ، من جمل الثناء والاطراء ، مثل : بيضت وجوهنا بيض الله وجهك ، شرفت بعملك سوريا والعرب ، أحييت بخدمتك العلم والدين ، عملت للدولة كيت وكيت . حتى قال لي أحد العلماء ان هذا المجد الذي نلته لم ينله أحد من أهل طرابلس فيها . وقال لي أحد أدباء النصارى إن الناس يستقبلونكم أيها الاحرار كما يستقبلون الفاتحين ، لا كما يستقبلون الاعزاء الغائبين . وانني أشهد قراء المنار على نفسي بأنني لا أستحق هذا الثناء والاطراء ولا بعضه ، وانني ذكرت منه ما ذكرت وأنا في خجل شديد ولولا قصد تبرئة أهل وطني الذي ربيت فيه مما جناه عليهم ذلك الشقي المسكين لما ذكرت ما ذكرت من الاشارة اليه . وسأذكر في رسالة أخرى ما كان من اهتمام دولة الوالي بالحادثة وما كان من أثر ذلك

ومن آيات رضي أهل طرابلس عن هذا العاجز دعوة الكثيرين من أهل الرأي والمكانة منهم إياه لترشيح نفسه لمجلس المبعوثين وتصريحهم في الملأ بأنه أجدرهم بذلك . ولكنني لم اترك ما عندي من اليقين بعجزي لحسن ظنهم بي ولذلك كنت اعتذر لكل داع بما أرى أنه يقبله مني

طلاب العلم الاستقلالي بطرابلس

وقد سرني في طرابلس سرورا عظيما أن رأيت فيها فئة من طلاب العلوم الدينية يرغبون عن التقليد ويذمونه ، ويميلون الى الاستقلال في العلم وينتحلونه ، ويعترفون بأن حياة الدين انما تكون بالرجوع الى الكتاب العزيز والسنة الصحيحة ، وترك ما عداهما من الآراء الكثيرة ، رأيت هؤلاء وذاكرتهم بعد أن كتبت ما تقدم من المقابلة بين أهل طرابلس وأهل بيروت ولم أر مثلهم من الطلاب في

بيروت ولكنني أظن أنه يوجد فيهم من هم على هذه الشاكلة وربما كان عددهم أقل لان الطلاب في طرابلس أكثر،

وقد رغبت من لقيت من هؤلاء الطلاب في العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفة العصرية، فألفيت آذانا واعية وقلوبا راغبة وأذهانا مستعدة، ولكن وسائل العلم غير متيسرة لهم الآن وربما لا يتيسر السعي له الا بعد حين من الزمن. ولهذا لم أرجع بعد لقيّ هؤلاء النجباء عن رأيي في ترجيح استعداد مسلمي بيروت للعمل على استعداد مسلمي طرابلس وان كان في الكلام عن هؤلاء الطلاب نوع من الاستدراك على ما تقدم

الجمعيات في طرابلس

الف اهل طرابلس ثلاث جمعيات غير فرع جمعية الاتحاد والترقي كما فعل أهل بيروت. الاولى جمعية الجامعة العثمانية ولها ناد يجتمع فيه أعضاؤها وهم الآن يفكرون في عمل مالي يكون لهم منه ريع يمكنهم من الخدمة النافعة للبلاد التي توثق بها عرى الجامعة العثمانية وما أظن أن ذلك ميسور لها الآن ففائدتها محصورة في اجتماع أعضائها في ناديها فنقترح عليهم أن يطالعوا فيها الكتب النافعة التي تغذي العقول وترقي الافكار والآداب ككتب التربية والاخلاق والمجلات العلمية، وان يتمرنوا فيه على الخطابة في السياسة والآداب وشؤون الاجتماع والعمران، وان يكون لهم في كل شهر مناظرة في مسألة علمية أو سياسية أو اجتماعية، فبذلك تكون جمعيتهم نافعة مذ اليوم، فان تيسر لهم بعد ذلك جلب المال وانفاقه على عمل من الاعمال، كانوا به أبصر، وعليه أقدر،

والثانية الجمعية العلمية ورأيت بعض أعضائها يتحدثون بجعل تعليم الفنون العربية والعلوم الشرعية بطريقة منتظمة في مدرسة كبيرة يتخرج فيها المستعدون للتدريس والقضاء الشرعي والمحاماة. ويقول آخرون منهم ان إنشاء هذه المدرسة لا يكون الا بمال كثير، وهو عسير علينا غير يسير، على انهم لو وجهوا همتهم الى جمع المال لتيسر لهم جمع مقدار يكفيهم لاستئجار دار يعلمون فيها، وأكثر الشيوخ لا يسألون على التعليم أجراء، والطلاب هم الذين يشترون الكتب لانفسهم، وليس

من مقاصد الجمعية تعليم العلوم الطبيعية التي يتوقف تعليمها على الآلات والمعلمين بالأجور فتحتاج إلى المال الكثير ، ولكن اعضاء الجمعية مختلفون في الامر وهو غير عظيم ، فبعضهم يشعر بهمة في نفسه تصغر له الكبير ، فيرميه الآخرون بالغرور والتغرير ، ولعلهم يشرعون في التعليم بالطرق المستحدثة والكتب المختارة ولو في المساجد الى ان يتيسر لهم ولغيرهم من المسلمين تحويل معظم الاوقاف الخيرية للتربية والتعليم ، وعسى ان لا يكون ذلك بعيدا

واما الجمعية الثالثة فقد أطلق عليها اسم الجمعية الخيرية ، والذي يفهمه القراء من هذا الاسم انها جمعية تجمع الاموال لإعانة الفقراء والعجزة ، ولكن الذي وصل الينا من خبرها انها شركة مالية أسسها بعض الاغنياء لاجل استغلال أموالهم بالاعمال الكبيرة التي يرجى ربحها ، وسمعت كثيرين من أعضاء الجمعيات الاخرى يطلقون على مؤسسي هذه الجمعية أو الشركة لفظ « حزب التقهقر » ويقولون ان أكثرهم من الذين عزلوا بعد إعلان الدستور لخياناتهم وفسادهم في الحكومة الماضية أو استقالوا لعلمهم بأنهم لابد ان يعزلوا ان لم يبادروا بالاستقالة . ويقولون انهم أعداء الدستور ويطعنون دائما بجمعية الاتحاد والترقي ويكابرون أنفسهم فيدعون انها لم تعمل عملا . وقد ذكر ليَ اسم ثلاثة منهم لم أسمع من أحد منهم شيئا مما يحكونه عنهم ، ولكنني سمعت من شابين من حملة الاقلام كلاما صريحا وتهكما شديدا في ذلك ، وقيل لي ان هذين الشابين من اعضاء هذه الجمعية أو انصارها وربما كانا لسان الجمعية الناطق وقلمها الكاتب

وفي هذا المقام اشكو مما سمعت في طرابلس من طعن الناس بعضهم ببعض حتى في المحافل والاندية العامة ، وأرجوا ان يفتح الله لهم في أيام الدستور من الاعمال ، ما يشغلهم عما يضر ولا ينفع من الاقوال ،

العمران في طرابلس

رأيت داخل طرابلس على ما تركتها عليه منذ إحدى عشرة سنة كأنه لم يتبدل ولم يتحول فيها شيء ، حتى خيل لي ان ما رأيته في الدكاكين ومخازن التجار هو الذي تركته فيها بعينه ، وقلما رأيت أحدا ممن أعرفهم انتقل من دكانه سواء كان

مالكا أم مستأجرا . واما ضواحي البلد فقد تجدد فيها دور وقصور كثيرة على عدم نمو الثروة الطبيعية . فالزراعة لا تزال على حالها وعليها مدار معيشة السواد الاعظم . والصناعة كذلك على حالها وليس في طرابلس منها ما يعد مصدرا لارتقاء ثروتها ولم تتصل بها سكك حديدية ترتقي بها تجارتها فأكثر الذين أثروا فيها هم من عمال الحكومة أكلة أموال الناس بالباطل

شعائر الدين

لعل أهل طرابلس أشد أهل سوريا محافظة على شعائر الدين من صلاة وصيام، وأبعدهم عن الجهر بالمعاصي، وحسبك من هذا أن صاحب قهوة احضر في هذه الايام بعض النساء الراقصات ليروج بها قهوته فقامت قيامة أهل العلم من المسلمين عليه، وتعصب لهم الجمهور حتى ألزموا الحكومة بمنعه من ذلك

تسامح الدين الاسلامي

جاء في جريدة اللواء تحت هذا العنوان ما يأتي مع تصحيح قليل :

« نشرت جريدة (ريج) الروسية أن مخبرها الخصوصي في الاستانة العلية قابل سماحتلو شيخ الاسلام وطرح عليه أربعة أسئلة طالبا الجواب عن كل منها وهي :

١ — ما رأي شيخ الاسلام في تعليم المرأة المسلمة

٢ — ما رأي شيخ الاسلام فيما نشرته الجرائد التركية من وجوب ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية

٣ — بأي نظر ينظر شيخ الاسلام إلى المدارس الفنية العثمانية

٤ — ماذا يفهم شيخ الاسلام من الاقوال القائلة بالحرية في الدين ؟

أجاب سماحته عن السؤال الاول بقوله « ان القرآن الكريم يأمر الرجال والنساء جميعا (بالعلم) فيلزم كل فرد من أفرادهما أن يتعلم القراءة والكتابة ولهذا السبب تقابل — بانشراح صدر — انتشار التعليم بكل أنواعه بين النساء زيادة

على تحصيلهن العلوم الابتدائية لاني أرى من الاوفق والاصوب أن تتولى الطبيبة أمر معالجة المريضة المسلمة، لذلك يجب أن تؤخذ الفتيات الى المدارس الطبية، وأما مسئلة قيام النساء بوظيفة المحاماة والقضاء فأمرها لم يتم بعد في البلاد الاخرى ولا أدري بأي نظر ينظر الاهالي هذه المسألة في بلادنا »

وقال سماحته مجيبا عن السؤال الثاني :

« فهم القرآن واجب على المسلمين مطلقا ، لذلك لا نعارض فكرة ترجمة القرآن الى اللغة التركية بل نعد بذل كل مجهود في ابراز هذه الفكرة الشريفة الى حيز الوجود دينا عظيما علينا ولكن حيث إن في القرآن كثيرا من المواضع يصعب فهمها على العامة واشترطت لحلها كثرة العلم والتعلم لذلك نرى من الواجب أن تعهد وظيفة ترجمة القرآن الى أفاضل الفلاسفة المسلمين الذين لهم المام تام بلغة القرآن وروح الاسلام وأدبيات العرب حتى لا يخشى من تغيير معانيه الجليلة »

وأجاب عن السؤال الثالث بما ترجمته :

« إنا معشر رجال الدين وظيفتنا النظر في شؤون المدارس الدينية وأما الفن فأمره ليس بأيدينا بل هو راجع الى الحكومة والأهالي لذلك نحن لا نتداخل في أمره وعلى الحكومة أن تنتخب لمدارسها من الفنون ما ينجم عنه رقي الاهالي وقوة الدولة وحضارة البلاد ولا نطلب من الحكومة تسليمها لنا ولا أن تكون مدارسها الابتدائية تحت نفوذنا

ولا يوجد في المدارس الفنية من الدروس الدينية غير حصة واحدة وأكرر القول بأن الفن والصناعة ليسا من عمل رجال الدين بل من عمل الحكومة ولكنهما ليسا بمخالفين للدين ولهذا السبب نسلم أمر هذه المسألة تماما الى الحكومة »

وقال مجيبا عن السؤال الرابع :

« نحن على جانب عظيم من الحرية الدينية ولكن لا نتداخل في أمور ديانة الامم وخصائصها ووجدانها في أي حال واذا تداخلنا فانما يكون ذلك باللسان فقط. ويأمر الدين الحنيف كل مسلم متزوج بزوجة مسيحية ان يرسل زوجته مرتين في الاسبوع لزيارة أقربائها ولم يأمر نبينا الكريم الناس بما لا طاقة لهم به حتى أن

تركيا لم تضغط ولا في الازمنة التي كانت لها فيها قوة كبرى على رعاياها المسيحيين في أمورهم الدينية فينبغي أن ينفذ حكم الحرية التامة في أمور الديانات ليأمن كل على معتقده وديانته »

شأن المرتدين عن الاسلام

وهنا قطع المخبر كلام سماحته سائلا رأيه في المنتقلين من الاسلام إلى المسيحية فأجاب قائلا « افرضوا أن فرقة عسكرية فرت من بين صفوف المقاتلين لاشك انكم تعتبرونها خائنة شر خيانة وحينئذ تحكمون عليها بأشد العقاب ونحن كذلك أمة واحدة نذوب أسفا على كل خارج من صفنا ونستاء منه استياء شديدا وليس أمرنا هذا مخالفا للحرية الدينيـة المبنية على أساس أن كل الناس مختارون فى أمر الدين ولا نطلب بأي حال من الحكومة أن تعاقب الخارجين من الدين أو تضغط عليهـم بالقوانين والتضييق كما لانحكم على الخارجين عن الدين الا بالحكم المعنوي ولا يمكن اجبار الناس لقبول الاسلام أو المسيحية واذا كان لشخص اختيار في الارتداد فلا يمنعنا مانع عن اظهار كراهتنا له ونفورنا منه

زواج المسلم بالمسيحية (١)

وسأل المخبر سماحته أيضا قائلا « ان الاسلام يصرح لمتحليه بزواج الفتاة المسيحية

(١) المنار: كتبنا منذ ست سنين تعليقا على كلام للاستاذ الامام بشأن زواج المسلم بالمسيحية في كتاب الاسلام والنصرانية هذا نصه :

« يقول بعض النصارى :اذا كان الاسلام أباح للمسلم أن يتزوج بالكتابية ليعلم البشر التآلف والتعاطف ، مع التباين في العقيدة والتخالف ، فلماذا لم يسمح للكتابي أن يتزوج بالمسلمة لهذا الغرض ؟ والجواب أن الرجال قوامون على النساء لانهم أقوى منهن فليس من العدل ولا من الرحمة أن يسمح لقوي يفرق دينه بينه و بين زوجته الضعيفة و يأمره يبغضها و ببغض أولاده ووالديه اذا خالفوا عقيدته أن يتزوج بامرأة مخالفة ، أباح الاسلام ذلك لمن يعمل بما أمر من العدل والرحمة وهو المسلم »

فرأي شيخ الاسلام موافق لرأينا في روح المعنى وان خالفه في الاسلوب

ولماذا يمنع الفتاة المسلمة من الزواج بالمسيحي ! فأجاب بقوله « تعرفون أن نفوذ الزوج فوق نفوذ الزوجة في المنزل وهي تابعة له ونحن معشر المسلمين نعد كلا من اليهود والنصارى من أهل الكتاب ونؤمن بكتبهم ونصدق برسلهم ولهذا السبب الصراح تقدر على الاقامة مع اليهودية أو النصرانية بلا أدنى تعد على عقيدتها ولا تعرض لامورها الدينية وأما اليهود والنصارى فليسوا بمؤمنين بالقرآن ولا بمصدقين بنبينا الكريم بل يعدونهما كذبا محضا لذلك حرم على المسلمين إن يضعوا فتياتهم تحت نفوذ قوم هذه حالهم مما يحرمه ديننا الحنيف »

مسلمو روسيا

ثم عرج سماحته بالكلام نحو مسلمي روسيا فقال « اني ما زلت أنصح لمسلمي روسيا بأن يكونوا مطيعين ومخلصين لوطنهم بيد أنه يجب عليهم أن يعضوا بالنواجذ على حقوقهم الدينية وعلاقاتهم الجنسية »

العلماء الروحيون والحرية الدينية

ثم فتح باب الكلام أيضا بشأن الحرية الدينية اذ قال « اني في جانب من يقول بالحرية التامة نحو الدين وأعتقد أن جميع العلماء الروحيين إذا اعتقدوا أن جميع البشر اخوان وانهم عبيد مستوون عندالله الواحد القهار زالت من بينهم المجادلات الدينية وطمست آثار المظالم والفتن »

ثم قال المخبر تعليقا على ما تقدم « فليفهم القراء علو منزلة رئيس علماء المسلمين وليحكموا على بقية رؤساء الاديان الاخرى » اه

(المنار) : إن قراء المنار يعرفون رأينا في هذه المواضيع و ربما عدنا اليها في جزء قادم

﴿ جريدة النظام ﴾

جاءنا من ادارة جريدة النظام ما يأتي :

« يسرني ان انهي الى علمكم انني قد عولت بعون الله وحسن توفيقه على اصدار جريدة يومية سياسية اسمها (النظام) بالحجم المعتاد للجرائد الكبرى ، سيكون شعارها

الدفاع عن مصالح مصر بالاخلاص والصدق اللذين اعتادهما القراء منا في الخمسة عشر عاما التي مضت من خدمتنا الصحافية . فاذا تفضلتم بالاشارة لذلك في صحيفتكم الغراء بشكل يجذب الانظار فانكم تعجزونني عن النهوض بواجب الشكر لكم . واذا اردفتم تلك الاشارة برجاء ممن يريدون مراسلة الجريدة أو التوكيل عنها في الجهات أن يخاطبونا منذ الآن في ذلك بحيث لا تتعدى طلباتهم منتصف شهر نوفمبر فانكم تجعلون الفضل فضلين والشكر لكم عليه شكرين والسلام » محمد مسعود

صاحب جريدة النظام بمصر

و (المنار) يرحب بالنظام ويرجو له نجاحا وفلاحا ، وتوفيقا للسير على النهج القويم ، والصراط المستقيم ، وان في خبر صاحبه لمزاولته الكتابة بضع عشرة سنة ، وتفننه الصحافي ، وذوقه الادبي ، مايرجى معه رواج النظام ، ورغبة محبيه فيه

(الجزائر) - وجاءنا من عمرافندي راسم الجزائري انه عزم على إنشاء مجلة « علمية أدبية تهذيبية » سماها الجزائر ولقد ضاق هذا الجزء عن التنويه بها بأكثر من هذا فندعو له بالتوفيق والنجاح

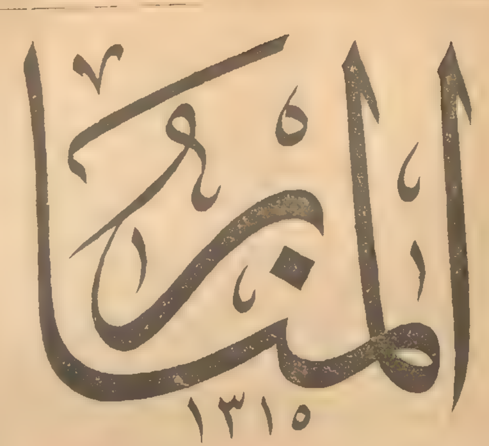
﴿ تصحيح ﴾

سقط السطر الاخير من (ص٥٦٨ ج ٨ - ١١) وهو: « ثلاثون رجلا . اي صدقكم الله وعده ونصركم على قلتكم وكثرة المشركين واستمر هذا » فيكتب بالقلم

﴿ بيان ﴾

اصدرنا هذا الجزء من المنار غير مصدر بالتفسير والفتاوى لان صاحب المجلة لايزال في سياحته

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب



يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كنار الطريق

﴿ مصر — الاثنين ٢٩ شوال ١٣٢٦ — ٢٣ نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩٠٨ ﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(١٥٦ : ١٤٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى : لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا . لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٧: ١٥٠) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٨ : ١٥١) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ *

لما بين سبحانه وتعالى للمؤمنين ان هزيمة من تولى منهم يوم أحُد كانت بوسواس من الشيطان استزلهم به فزلوا أراد أن يحذرهم من مثل تلك الوسوسة التي

أفسد الشيطان بها قلوب الكافرين فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الارض أو كانوا غزى : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ﴾ أي لا تكونوا مثل هذا الفريق من الناس وهم الذين كفروا وقالوا لاجل إخوانهم أو في شأن إخوانهم في النسب ، أو المودة والمذهب ، إذا هم ضربوا في الارض — أي سافروا فيها للتجارة والكسب — فماتوا ، وكانوا غزى أي غزاة (وهو جمع لغاز من الجموع النادرة ومثله عفًّى جمع عاف) سواء كان غزوهم في وطنهم أو في بلاد أخرى فقتلوا : لو كانوا مقيمين عندنا ما ماتوا وما قتلوا . أي ما مات أولئك المسافرون ، وما قتل أولئك الغازون ، وقرن هذا القول بالكفر مشعر بأن مثله لا ينبغي ان يصدر عن مؤمن لأنه انما يصدر من الكافرين . و بيان ذلك من وجهين (أحدهما) ان هذا القول مخالف للمعقول مصادم للوجود فان من مات أو قتل فقد انتهى أمره وصار قول « لو كان كذا » عبثا لان الواقع لا يرتفع ، والحسرة على الفائت لا تفيد ، ومن شأن المؤمن ان يكون صحيح العقل سليم الفطرة ولذلك جعل سبحانه الخطاب في كتابه موجها إلى العقلاء و بيّن ان أولي الالباب هم يعقلونه ويتذكرون به و يقبلون هدايته وقال فيمن لا إيمان لهم (٧: ١٧٩ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجنّ والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالانعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون)

(ثانيهما) ان هذا القول يدل على جهل قائله بالدين أو جحوده فإن الدين يرشد الى تحديد الآجال وكونها باذن الله كما تقدم قريبا في تفسير قوله تعالى « وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا » فارجع اليه

والمشهور في كتب التفسير المتداولة ان المراد بالذين كفروا المنافقون الذين تقدم ذكرهم في الآيات . وقال الاستاذ الامام : يقول بعض المفسرين ان هذا القول وقع من بعض الكفار فعلا فنهى الله المؤمنين أن يقولوا مثله ، والمختار ان هذا قول لا يصدر الا عن كافر فلا يليق مثله بالمؤمنين . وقد سئل في هذا المقام عن

مسألة القضاء والقدر فقال اني أجيب السائل بمثل ما أجبت به من سألني عن ذلك من غير المسلمين اذ قال ان هذه العقيدة هي السبب في تأخر المسلمين عن غيرهم من الامم فانهم ينكرون الاسباب ولا يحفلون بها فقلت له ان ما ينتقد على المسلمين من ذلك لا يرجع منه شيء الى الاسلام الخالص فما قرره فهو الحق الواقع في نفسه الذي لا يمكن لمؤمن ولا ملحد إنكاره . وبين ذلك بذكر ان القضاء عبارة عن تعلق العلم الالهي بالشيء والعلم انكشاف لا يفيد الالزام، والقدر وقوع الشيء على حسب العلم، والعلم لا يكون الا مطابقا للواقع والا كان جهلا، أو الواقع غير واقع وهو محال، وهنا أمران كل منهما ثابت في نفسه : أحدهما ان الله خالق كل شيء، وثانيهما ان هذا النوع من المخلوقات الذي يسمى «الانسان» يعمل اعماله بقصد واختيار ولكنه غير تام القدرة ولا الارادة ولا العلم، فقد يعزم على العمل ثم تنفسخ عزيمته لتغير علمه بالمصلحة أو لعجزه عن تنفيذ ما عزم عليه مع بقاء علمه بأنه هو الموافق للمصلحة وذلك لمرض يلمّ به، أو مانع يحول دون ما أراده، وهذا يقع مع الناس كل يوم ولكنهم قد يغفلون عنه و يغترون بما ينفذ من عزائمهم فيظنون ان الانسان يفعل ما يشاء

(قال) جاء مصر رجلان من الاوربيين «١» الذين جرت عادة أمثالهم بأن يحددوا مدة سفرهم ومقامهم في كل بلد يزورونه قبل الشروع في السفر وكان مما كتباه في برنامج سفرهما انهما يقيمان بمصر ستة أيام، فمرض أحدهما فاضطر الى ان يمد في مدة السفر بغير حساب . وهكذا شأن الانسان يعزم فيعمل، أو يعجز أو يموت قبل التمكن من العمل، فاختياره في أعماله وقدرته عليها ومعرفته الاسباب وقيامها به كل ذلك له حدود لا يتجاوزها ، فهو لا يحيط علما بأسباب الموت ولا يقدر على اجتناب كل ما يعمل من أسبابه، وما كل سبب يتعرض له يقع، فجميع الذين يصطلون بنار الحرب يعرضون أنفسهم للقتل، وقد يسلم أكثرهم ويقتل أقلهم . أقول و يؤخذ من هذا كله أمران أحدهما ان الشيء متى وقع يعلم بعد وقوعه انه لم يكن منه بد . وثانيهما ان الانسان اذا كان يؤمن بأن لله تعالى عناية به وقد يلهمه اذا هو توجه اليه علم ما يجهل من أسباب سعادته و يوفقه الى ما يعجز عنه من الاسباب بمحض حوله وقوته فانه بهذا

(١) هما ولي عهد ألمانيا وأخوه

الايمان يكون مع أخذه بالاسباب انشط في العمل، عندعجزه عنها بعداليأس والكسل،

﴿ ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ﴾ أي لاتكونوا يامعشر المؤمنين مثل أولئك الكافرين في اعتقادهم ولا تقولوا مثل قولهم الناشيء عن ذلك الاعتقاد ليكون ذلك منكم سببا لتحسرهم وغمهم بحسب سنة الله تعالى فانهم اذا رأوكم اشداء أقوياء لا يضعفكم فقد من فقدمنكم، ولا يقعدبكم عن القتال خوف ان يصيبكم ماأصاب أولئك الذين قتلوا، فانهم يحزنون ويتحسرون، هذا وجه في التعليل متعلق بالنهي نفسه وملخص المعنى عليه : لاتكونوامثلهم لاجل أن يتحسروا بامتيازكم عليهم اذ يضعفون بفقد من يفقد منهم وأنتم لاتضعفون. وفيه وجه آخر متعلق بقول الذين كفروا باعتبار الاعتقاد الفاسد الذي نشأ عنه، والمعنى: لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا فيمن ماتوا أو قتلوا ماقالوا، ليكون أثر ذلك القول مع الاعتقاد وعاقبته حسرة في قلوبكم على من فقد من اخوانكم، يزيدكم ضعفا ويورثكم ندما على تمكينكم إياهم من التعرض لماظننتموه سببا ضروريا للموت، فانكم اذا كنتم مثلهم في ذلك يصيبكم من الحسرة مثل مايصيبهم، وتضعفون عن القتال كما يضعفون، فلايكون لكم امتياز عليهم بالبصيرة النيرة التي يرى صاحبها ان الذي وقع هو مالا بد منه فلا يتحسر عليه، ولا بالايمان الذي لايزيد ذلك صاحبه الا إيمانا وتسليما،

﴿ والله يحيي ويميت ﴾ أي والحقيقة أن الله تعالى يحيي من يشاء بمقتضى سننه في بقاء أسباب الحياة وان طوى بالاسفار بساط كل بر، ونشر شراع كل بحر، وخاض معامع الحروب، وصارع الاهوال والخطوب، ويميت من يشاء بمقتضى سننه في أسباب الموت وإن اعتصم في الحصون المشيدة، وحُرس بالجنود المجندة،

﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ فلا يخفى عليه ما تكنون في أنفسكم من الاعتقاد، وما يؤثر في قلوبكم من الاقوال والاحوال، فاحرصوا على ان يكون ترككم لأقوال الكفار ناشئا عن طهارة نفوسكم من وساوسهم

وقال الاستاذ الإمام: أي ان الحياة والممات بيد الله تعالى وهو ممد الموجودات كلها بما يحفظ وجودها والعالمين بحياتهم وموتهم فلا يليق بالعاقل أن يقول لمن أماته لو

كان في مكان كذا لما مات بل كانت حياته أطول (قال) وهناك علة أخرى من علل النهي عن مثل ذلك القول وهي ماأفاده قوله تعالى ﴿ ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ﴾ وبيان ذلك أن حظ الحي من هذه الحياة هو مايجمعه من المال والمتاع الذي تتحقق به شهواته وحظوظه ، وما يلاقيه من يقتل أو يموت في سبيل الله من مغفرته تعالى ورحمته فهو خير له من جميع ما يتمتع به في هذه الدار الفانية ·والموت في سبيل الله هو الموت في أي عمل من الاعمال التي يعملها الانسان لله أي سبيل البر والخير التي هدى الله الانسان اليها ويرضاها منه ·وقد يموت الانسان في اثناء الحرب من التعب أو غير ذلك من الاسباب التي يأتيها المحارب في اثنائها فيكون ذلك من الموت في سبيل الله عز وجل· أقول وهذا هو المقصود هنا أولا و بالذات لان السياق في الحرب ولذلك قدم ذكر القتل على الموت فان القتل هو الذي يقع كثيراً في الحرب والموت يكون فيها أقل فذكره تبعا بخلاف الآية الآتية· وحاصل معنى الآية أن رب العزة يخبرنا مؤكداً خبره بالقسم بأن من يقتل في سبيله أو يموت فان ماينتظره من مغفرة تمحو ما كان من ذنوبه وسيئاته ورحمة ترفع درجاته خير له مما يجمع الذين يحرصون على الحياة ليتمتعوا بالشهوات واللذات · اذ لا يليق بالمؤمنين الذين يؤثرون مغفرة الله ورحمته الدائمة على الحظوظ الفانية ان يتحسروا على من يقتل منهم أو يموت في سبيل الله ويودوا لولم يكونوا خرجوا من دورهم الى حيث لقوا حتفهم فان مايلقونه بعد هذا الحتف خير مما كانوا فيه قبله ·وبهذا الذي بينته تظهر نكتة الخطاب في أول الآية والغيبة في آخرها وكذا تنكير مغفرة ورحمة · ثم قال تعالى

﴿ ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴾ قالوا ان الموت والقتل هنا أعم مما في في الآية السابقة لان كل من يموت ومن يقتل في سبيل الله وهي طريق الحق والخير أو في سبيل الشيطان وهي طريق الباطل والشر فلا بد ان يحشر الى الله تعالى دون غيره فهو الذي يحشرهم بعد الموت في نشأة أخرى وهو الذي يحاسبهم أو يجازيهم وهنا قدم ذكر الموت لانه أعم من القتل وأكثر·

قال الاستاذ الامام في معنى الحشر الى الله تعالى : انه ليس لله تعالى مكان يحصره فيحشر الناس و يساقون اليه ولكن الانسان يغفل في هذه الدار عن الله فينسى هيبته وجلاله و ينصرف عن استشعار عظمته وسلطانه لاشتغاله بدفع المكاره عن نفسه وجلب اللذات والرغائب لها . وأما ذلك اليوم الذي يحشر له الناس فلا اشتغال فيه بتقويم بنية ، ولا التمتع بلذة ، ولا مدافعة عدو ، ولا مقاومة مكروه ، ولا بتربية نفس ، ولا تنزيه حس ، وانما يستقبل فيه كل أحد مايلاقيه من الله تعالى جزاء على عمله لا يشغله عنه شيء فيكون بذلك راجعا عن كل شيء كان فيه الى الله تعالى محشورا مع سائر الناس اليه لايشغلهم عنه شيء (قال) واذا كان هذا مصير كل من يموت أو يقتل الى الله تعالى مهما كان سبب موته أو قتله ومهما طالت حياته فالاشتغال بذكر سبب هذا المصير ومبدإه لايفيد وانما الذي يفيد هو الاهتمام بذلك المستقبل والاشتغال بالاستعداد له وذلك دأب العقلاء من المؤمنين

(١٥٩ : ١٥٣) فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٦٠ : ١٥٤) إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *

الكلام التفات عن خطاب المؤمنين الى خطاب النبي (ص) فيما يتعلق بمعاملتهم يقول تعالى لنبيه ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ قال الاستاذ الامام ما مثاله مع زيادة و إيضاح: الفاء للتعقيب لان الكلام في واقعة خالف النبي فيها بعض أصحابه فكان لذلك من الفشل وظهور المشركين ما كان حتى أصيب النبي (ص) مع من أصيب فكان من لينه في معاملتهم ومخاطبتهم ومن رحمته بهم أن صبر وتجلد فلم يتشدد

في عتب ولا توبيخ اهتداء بكتاب الله تعالى فقد انزل الله عليه آيات كثيرة في الواقعة بيّن فيها ما كان من ضعف في المسلمين وعصيان وتقصير حتى ماكان متعلقا بالظنون الفكرية والهموم النفسية ولكن مع العتب اللطيف المقرون بذكر العفو والوعد بالنصر و إعلاء الكلمة وفوائد المصائب وقد كان خُلقه (ص) القرآن كما ورد في الصحيح من حديث عائشة (رض)

أقول كأنه يقول انه قد كان من اصحابك يامحمد ما كان كما دلت عليه الآيات وهو مما يؤاخذون عليه فلنت لهم وعاملتهم بالحسنى و إنما لنت لهم بسبب رحمة عظيمة أنزلها الله على قلبك وخصك بها فعمت الناس فوائدها وجعل القرآن ممدا لها بما هداك اليه من الآداب العالية والحكم السامية التي هونت عليك المصائب وعلمتك منافعها وحكمها وحسن عواقبها للمعتبر بها ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ لان الفظاظة وهي الشراسة والخشونة في المعاشرة وهي القسوة من الاخلاق المنفرة للناس لا يصبرون على معاشرة صاحبها وان كثرت فضائله ، ورجيت فواضله ، بل يتفرقون و يذهبون من حوله ، و يتركونه وشأنه ، لا يبالون مايفوتهم من منافع الاقبال عليه ، والتحلق حواليه ، واذاً لفاتتهم هدايتك ، ولم تبلغ قلوبهم دعوتك ، ﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم ﴾ فلا تؤاخذهم على مافرطوا وأسأل الله تعالى ان يغفرلهم ولا يؤاخذهم أيضا فبذلك تكون محافظا على تلك الرحمة التي خصك الله بها ، ومداوما لتلك السيرة الحسنة التي هداك الله اليها ، ﴿ وشاورهم في الامر ﴾ العام الذي هو سياسة الامة في الحرب والسلم ، والخوف والامن ، وغير ذلك من مصالحهم الدنيوية ، أي دم على المشاورة وواظب عليها كما فعلت قبل الحرب في هذه الواقعة (غزوة احد) و إن أخطأوا الرأي فيها فان الخير كل الخير في تربيتهم على المشاورة بالعمل دون العمل برأي الرئيس وان كان صوابا لما في ذلك من النفع لهم في مستقبل حكومتهم ان أقاموا هذا الركن المعظم (المشاورة) فان الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد في الاكثر ، والخطر على الامة في تفويض أمرها الى الرجل الواحد أشد وأكبر ، قال الاستاذ الامام : ليس من السهل ان يشاور الانسان ولا ان يشير ، واذا كان المستشارون كثارا كثر النزاع

وتشعب الرأي ، ولهذه الصعوبة والوعورة أمر الله تعالى نبيه ان يقرر سنة المشاورة في هذه الامة بالعمل فكان (ص) يستشير أصحابه بغاية اللطف ويصغي الى كل قول ويرجع عن رأيه الى رأيهم . وليس عندي عن الاستاذ في هذه المسألة غير هذا

وأقول : الامر المعرّف هنا هو أمر المسلمين المضاف اليهم في القاعدة الاولى التي وضعت للحكومة الاسلامية في سورة الشورى المكية وهي قوله تعالى في بيان ما يجب ان يكون عليه أهل هذا الدين (٤٢ : ٣٨ وأمرهم شورى بينهم) فالمراد بالامر أمر الامة الدنيوي الذي يقوم به الحكام عادة لا أمر الدين المحض الذي مداره على الوحي دون الرأي إذ لو كانت المسائل الدينية كالعقائد والعبادات والحلال والحرام مما يقرر بالمشاورة لكان الدين من وضع البشر وإنما هو وضع إلهي ليس لاحد فيه رأي لا في عهد النبي (ص) ولا بعده وقد روي ان الصحابة عليهم الرضوان كانوا لا يعرضون رأيهم مع قول النبي صلى الله عليه وسلم في مسائل الدنيا الا بعد العلم بأنه قاله عن رأي لا عن وحي كما فعلوا يوم بدر إذ جاء النبي (ص) أدنى ماء من بدر فنزل عنده فقال الحباب بن المنذر بن الجموح يارسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا ان نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال « بل هو الرأي والحرب والمكيدة » فقال يارسول الله ليس هذا بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغوّر ما وراءه الخ ما قال فقال له النبي (ص) : لقد أشرت بالرأي ، وعمل برأيه

أقام النبي (ص) هذا الركن (الشورى) في زمنه بحسب مقتضى الحال من حيث قلة المسلمين واجتماعهم معه في مسجد واحد في زمن وجوب الهجرة التي انتهت بفتح مكة فكان يستشير السواد الاعظم منهم وهم الذين يكونون معه ويخص أهل الرأي والمكانة من الراسخين بالامور التي يضر إفشاؤها فاستشارهم يوم بدر لما علم بخروج قريش من مكة للحرب فلم يبرم الامر حتى صرح المهاجرون ثم الانصار بالموافقة . واستشارهم جميعا يوم أحد أيضا كما تقدم . وهكذا كان يستشيرهم في كل أمر من أمور الامة الا ما ينزل عليه الوحي ببيانه فينفذه حتما ، ولما كثر المسلمون وامتد حكم الاسلام بعد الفتح الى الاماكن البعيدة عن المدينة وكان في

كل قبيلة أو قرية من أولئك المسلمين رجال من أهل المكانة والرأي احتيج الى وضع قاعدة للشورى كما يظهر بادي الرأي تشترك فيها القبائل البعيدة ولكن النبي (ص) لم يضع هذه القاعدة لحكم وأسباب

(منها) ان هذا الامر يختلف باختلاف أحوال الامة الاجتماعية في الزمان والمكان وكانت تلك المدة القليلة التي عاشها صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة مبدأ دخول الناس في دين الله أفواجا وكان (ص) يعلم ان هذا الامر سينمو ويزيد وان الله سيفتح لامته الممالك ويخضع لها الامم وقد بشرها بذلك. فكل هذا كان مانعا من وضع قاعدة للشورى تصلح للامة الاسلامية في عام الفتح وما بعده من حياة النبي (ص) وفي العصر الذي يتلو عصره إذ تفتح الممالك الواسعة وتدخل الشعوب التي سبقت لها المدنية في الاسلام أو في سلطان الاسلام ، إذ لا يمكن ان تكون القواعد الموافقة لذلك الزمن صالحة لكل زمن والمنطبقة على حال العرب في سذاجتهم منطبقة على حالهم بعد ذلك وعلى حال غيرهم ، فكان الاحكم ان يترك وضع قواعد الشورى للامة تضع منها في كل حال ما يليق بها بالشورى

(ومنها) أن النبي (ص) لو وضع قواعد موقتة للشورى بحسب حاجة ذلك الزمن لاتخذها المسلمون دينا وحاولوا العمل بها في كل زمان ومكان ، وما هي من أمر الدين ولذلك قال الصحابة في اختيار أبي بكر حاكما : رضيه رسول الله (ص) لديننا أفلا نرضاه لدنيانا ؟ فان قيل كان يمكن ان يذكر فيها انه يجوز للامة ان تتصرف فيها عند الحاجة بالنسخ والتغيير والتبديل. نقول ان الناس قد اتخذوا كلامه في كثير من أمور الدنيا دينا مع قوله «انتم أعلم بأمور دنياكم» وقوله «ما كان من أمر دينكم فإلي وما كان من أمر دنياكم فأنتم أعلم به» واذا تأمل المنصف المسألة حق التأمل وكان ممن يعرف حقيقة شعور طبقات المؤمنين من العامة والخاصة في مثل ذلك يتجلى له انه يصعب على أكثر الناس ان يرضوا بتغيير شيء وضعه النبي (ص) للامة وإن أجاز لها تغييره بل يقولون إنه أجاز ذلك تواضعا منه وتهذيبا لنا حتى لا يصعب علينا الرجوع عن آرائنا ورأيه هو الرأي الاعلى في كل حال. وقريب مما

نحن فيه تقديم الامام احمد رحمه الله تعالى العمل بالحديث الضعيف والمرسل على القياس وتعليله بما علله به

(ومنها) انه لو وضع تلك القواعد من عند نفسه عليه الصلاة والسلام لكان غير عامل بالشورى وذلك محال لانه معصوم من مخالفة أمر الله ولو وضعها بمشاورة من معه من المسلمين لقرر فيها رأي الاكثرين منهم كما فعل في الخروج الى أُحُد وقد تقدم أن رأي الاكثرين كان خطأ ومخالفا لرأيه صلى الله عليه وسلم فهل يرضى (ص) ان يحكم أمثال أولئك القوم ومن دونهم كأكثر من دخل في الاسلام بعد الفتح في أصول وقواعد الحكومة ؟ أليس تركها للامة تقرر في كل زمان ما يؤهلها له باستعدادها هو الاحكم ؟

بلى وقد تبين كنه ذلك الاستعداد بعد ذلك وانه غير كاف لوضع قانون كافل لقيام المصلحة ولذلك بادر عمر الى مبايعة أبي بكر (رضي الله عنهما) خوف الخلاف المهلك للامة وصرح بعد ذلك بأن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها لا يجوز العود إلى مثلها ، وكذلك استشار أبو بكر كبراء الصحابة في العهد الى عمر فلما علم رضاهم عهد اليه حتى لا يكون للتفرق والخلاف مجال كما يأتي قريبا· ولو كان الصديق (رض) يعتقد أن الامة مستعدة لإقامة الشورى على وجهها مع الامن من التفرق والخلاف لترك لها الامر ولم يحاول جمع كلمة أولي الامر منها في حياته على من يراه هو الاصلح حتى يموت آمنا عليها من تفرق الكلمة ·

يقول قوم : إن بيعة عمر كانت بالعهد لا بالشورى التى هي الاساس للحكومة الاسلامية بنص الكتاب العزيز وهذا العهد رأي صحابي لا يصح أن يكون ناسخا للقرآن ولا مخصصا ولا مقيدا له فكيف عمل به جمهور الصحابة واتخذه الفقهاء قاعدة شرعية ؟ اذا أورد هذا السؤال شيعي أو غير شيعي من الباحثين المستقلين على أحد المشتغلين بالفقه يجيبه بناء على قواعده انه رأي قبِلَه الصحابة وأجمعوا عليه والاجماع حجة مستقلة يجب العمل بها · ونحن نعلم ان الشيعة والمستقلين بالعلم من غيرهم لا يقنعهم هذا الجواب فهم ينازعون في حصول هذا الاجماع وفي جواز مثله مع النص وكونه في مسألة قطعية لا تقوم المصلحة بدونها و يقولون على فرض التسليم

كيف أقدم أبو بكر على هذا الامر المخالف للنص ولم يكن مجمعا عليه حينئذ لانكم تدعون انه إنما أجمع عليه بعد ذلك : والصواب ان بيعة عمر كانت بالشورى ولكن هذه الشورى حصلت في عهد أبي بكر وهو الذي تولاها بنفسه كما قلنا آنفا وإنما تعجل ذلك لخوفه على الامة فتنة التفرق والخلاف من بعده فشاور أهل الرأي والمكانة من الصحابة فيمن يلي الامر بعده فرأى الاكثرين منهم يوافقونه على ان أمثلهم عمر ورأى بعضهم يخاف من شدته فكان يجتهد في إزالة ذلك من قلوبهم بمثل قوله إنه يراني كثير اللين فيشتد أي لاجل ان يكون من مجموع سيرتهما الاعتدال أو ما هذا مغزاه . حتى انه تكلف صعود المنبر قبل وفاته وتكلم في المسألة بما أقنع القوم فعهد اليه في الامر في حياته فكان ذلك كتوكيل له في مرضه وترشيح له من بعده وإنما العمدة في جعله أميرا على مبايعة الامة والمبايعة لاتتوقف صحتها على الشورى ولكن قد يحتاج الى الشورى لاجل جمع الكلمة على واحد ترضاه الامة فاذا أمكن ذلك بغير تشاور بين أهل الحل والعقد كأن جعلوا ذلك بالانتخاب المعروف الآن في الحكومة الجمهورية وما هو في معناها حصل المقصود . ومأسبق لابي بكر من المشاورة والاقناع في تولية عمر أغنى عن المشاورة بعد وفاته فاتفق الجميع على مبايعته وصدق عليه انه اتفاق بعد شورى أو بسبب الشورى

واما جعل عمر الشورى في نفر معينين فهو اجتهاد منه في إقامة هذا الركن مع اتقاء فتنة الخلاف التي تخشى من تكثير عدد المتشاورين فأولئك النفر الذين جعلها فيهم هم أهل الرأي والمكانة في الامة الذين تخضع لرأيهم اذا اتفقوا وتتعصب لهم اذا اختلفوا لان لكل واحد منهم عصبة يرونه أهلا للامارة على المسلمين . وكان هؤلاء الذين اختارهم عمر (رض) هم أولي الامر أو خواص أولي الامر وزعماءهم وهم الاحق بالشورى كما يؤخذ من الامر في الكتاب العزيز بطاعة أولي الامر مع قوله عز وجل (٤ : ٨٣ واذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) ومن المشهور ان للمفسرين في أولي الامر قولين أحدهما أنهم الامراء الحاكمون وثانيهما أنهم العلماء ومن الناس من يعبر بكلمة الفقهاء ومن المعلوم انه لم يكن مع النبي (ص)

أمراء حاكمون ولا صنف يسمى الفقهاء وانما المراد بأولي الامر الذين ترد اليهم مسائل الأمن والخوف وما في معناها من الامور العامة ، هؤلاء هم أهل الرأي والمكانة في الامة وهم العلماء بمصالحها وطرق حفظها والمقبولة آراؤهم عند عامتها — فما فعله أبو بكر وعمر هو منتهى ما يمكن ان يعمل في إقامة الشورى بحسب حال الامة واستعدادها في زمنها . ثم ان المسلمين بادروا بعد قتل عثمان الى مبايعة علي من غير اهتمام بالتشاور لان الكفاءة التي يرونها فيه لم تكن تقبل شركة تدعو إلى اجالة الرأي . فمبايعة الخلفاء الراشدين كانت من الامة برضاها وكانوا يستشيرون أهل العلم والرأي في كل شيء الا أن بني امية قد أحاطوا بعثمان وغلبوا الامة على رأيها عنده فكان من عاقبة ذلك ما كان من الفتن حتى استقر الامر فيهم بقوة العصبية والدهاء، لا باستشارة الدهماء، فهم الذين هدموا قاعدة الحكم بالشورى في الاسلام بدلا من اقامتها ، ووضع القوانين التي تحفظها ، وتجعل استفادة الامة منها تابعة لتقدم العلوم والمعارف وأعمال العمران فيها، ولولا هذا لكان ذلك الملك الذي وسعوا دائرته بالفتوحات أثبت في نفسه ولهم، ولكان شأن الاسلام أعظم، وانتشاره أكثر وأعم، على أن هذا الاستبداد منهم قد كان معظمه مصروفا الى المحافظة على سلطتهم، و بقاء الملك في أسرتهم ، قلما يتسرب منه شيء الى الإدارة والقضاء . وكانت حرية انتقاد الحكام على كمالها حتى تبرم منها عبد الملك بن مروان فقال على المنبر : من قال لي اتق الله ضربت عنقه!! . كما روي عن بعض المؤرخين . ولكنهم كانوا يتصرفون في بيت المال بأهوائهم في الغالب . ولما أفضى الامر الى وارث الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى أراد ان يخرجه منهم فلم يتيسر له ذلك

ثم رسخت السلطة الشخصية في زمن العباسيين لما كان للاعاجم من السلطان في ملكهم وجرى سائر ملوك المسلمين على ذلك وجاراهم عليه علماء الدين بعدما كان لعلماء السلف الصالح من الانكار الشديد على الملوك والامراء في زمن بني أمية واوائل زمن العباسيين فظن البعيد عن المسلمين والقريب منهم ان السلطة في الاسلام استبدادية شخصية ، وان الشورى محمدة اختيارية ، فيالله العجب : أيصرح كتاب الله بأن الامر شورى فيجعل ذلك أمرا ثابتا مقررا ويأمر نبيه المعصوم من اتباع الهوى

في سياسته وحكمه بأن يستشير حتى بعد ان كان ما كان من خطأ من غلب رأيهم في الشورى يوم أحد ، ثم يترك المسلمون الشورى لا يطالبون بها وهم المخاطبون في القرآن بالامور العامة كما تقدم بيانه مرارا كثيرة ؟؟ هذا وقد بلغ ملوكهم من الظلم والاستبداد مبلغا صاروا فيه عارا على الاسلام بل على البشر كلهم الا من يتبرأ منهم، ويبذل جهده في اراحة العالم من شرهم وسنعود إلى موضوع الحكومة الاسلامية عند الكلام على أولي الامر في سورة النساء ان شاء الله تعالى

قال تعالى بعد أمر نبيه بالمشاورة ﴿فاذا عزمت فتوكل على الله﴾ أي فاذا عزمت بعد المشاورة في الامر على إمضاء ما ترجحه الشورى فتوكل على الله في إمضائه وكن واثقا بمعونته وتأييده لك فيه ولا تتكل على حولك وقوتك بل اعلم ان وراء ما أتيته وما أوتيته قوة أعلى وا كمل، يجب ان تكون بها الثقة وعليها المعوّل، واليها الملجأ اذا تقطعت الاسباب، وأغلقت الابواب

قال الاستاذ الامام ما معناه: ان العزم على الفعل وان كان يكون بعد الفكر وإحكام الرأي والمشاورة وأخذ الاهبة فذلك كله لا يكفي للنجاح إلا بمعونة الله وتوفيقه لان الموانع الخارجية له والعوائق دونه لا يحيط بها الا الله تعالى فلا بد للمؤمن من الاتكال عليه والاعتماد على حوله وقوته ﴿ ان الله يحب المتوكلين ﴾ عليه . أقول ومن أحبه الله عصمه من الغرور باستعداده ، والركون الى عدته وعتاده ، والبطر الذي يصرفه عن النظر فيما يعرض له بعد ذلك حتي لا يقدره قدره ، ولا يحكم فيه أمره ، فبدلا من ان يكون نظره فى الامور بعين العجب والغرور واستماعه لا نبائها بأذن الغفلة والازدراء ومباشرته لها بيد التهاون يلقي السمع وهو شهيد ، وينظر بعين العبرة فبصره حينئذ حديد ، و يبطش بيد الحزم فبطشه قوي شديد، ذلك بأنه يسمع و يبصر و يعمل للحق لا للباطل الذي يز ينه الهوى ويدلي به الغرور فيكون مصداقا للحديث القدسي «فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به و بصره الذي يبصر به و يده التي يبطش بها»

الآية صريحة فى وجوب إمضاء العزيمة الحاصلة بشروطها واهمها فى الامور العامة حربية كانت أو سياسية أو ادارية المشاورة وذلك ان نقض العزيمة ضعف

في النفس وزلزال في الاخلاق لا يوثق بمن اعتاده في قول ولا عمل فاذا كان ناقض العزيمة رئيس حكومة أو قائد جيش كان ظهور نقض العزيمة منه ناقضا للثقة بحكومته و بجيشه ولاسيما اذا كان بعد الشروع في العمل ولذلك لم يصغ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم الى قول الذين أشاروا عليه بالخروج الى أحد حين أرادوا الرجوع عن رأيهم خشية أن يكونوا قد استكرهوه على الخروج وكان قد لبس لامته وخرج وذلك شروع في العمل بعد أن أخذت الشورى حقها كما تقدم تفصيله فعلمهم بذلك أن لكل عمـــل وقتا وأن وقت المشاورة متى انتهى جاء دور العمل وأن الرئيس اذا شرع في العمل تنفيذا للشورى لا يجوز له أن ينقض عزيمته ويبطل عمله وان كان يرى أن أهل الشورى أخطأوا الرأي كما كان يرى (ص) في مسألة الخروج الى أحد كما تقدم · ويمكن إرجاع ذلك إلى قاعدة ارتكاب أخف الضررين. وأي ضرر أشد من فسخ العزيمة وما فيه من إبطال الثقة ؟

و إننا نرى أهل السياسة والحرب يجرون على هذه القاعدة في هذا العصر ومن الوقائع التي توجب العبرة في ذلك ان الاستاذ الامام لمـــا كان في لندره عاصمة انكلترا سنة ١٣٠١ ذاكر وزراء الانكليز في أمور مصر والسودان التماس خدمته لبلاده وقد سأله رئيس الوزراء يومئذ أو غيره منهم (الشك مني) عن رأيه في حملة هكس باشا التي أرسلوها لمحاربة مهدي السودان الذي ظهر في ذلك الوقت فبين له بعد مراجعة طويلة ان هذه الحملة لا تنجح بل يقضي عليها السودانيون · ثم عاد الاستاذ من أوربا الى بيروت و بعد عودته جاءت الاخبار بقتل هكس باشا وتنكيل السودانيين بحملته فأرسل الاستاذ الامام رسالة برقية للوزير الانكليزي يذكره فيها برأيه وكيف صدق · فجاءه الجواب في ذلك اليوم من الوزير ومعناه قد علمنا ان ما قلته لنا معقول وجيه ولكن السياسة متى قررت شيئا وشرعت فيه وجب إمضاؤه وامتنع نقضه والرجوع عنه وإن كان خطأ

﴿ ان ينصركم الله فلاغالب لكم ﴾ الكلام استئناف مسوق لبيان وجه وجوب التوكل على الله تعالى بعد المشاورة والعزيمة المبنية على أخذ الاهبة ، والاستعداد

بما يستطاع من حول وقوة » أي ان ينصركم الله بالعمل بسننه ، وما يكون لكم من القوة والثبات بالاتكال على توفيقه ومعونته ، فـلا غالب لكم من الناس ، الذين نصبهم حرمانهم من التوكل عليه تعالى غرضا للقنوط واليأس ، ﴿ وإن يخذلكم ﴾ بما كسبت أيديكم من الفشل ، وعصيان القائد فيما حتمه من عمل » كما جرى لكم في أحد » أو بالاعجاب بالكثرة ، والاعتماد على الاستعداد والقوة ، وهومخل بالتوكل كما جرى يوم حنين ، ﴿ فمن ذا الذي ينصركم من بعده ﴾ أي من بعد خذلانه أي لا أحد يملك لكم حينئذ نصرا » ولا أن يدفع عنكم ضرا » ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ ولا يتوكلوا على غيره لان النصر بيده ، وهو الموفق لاسبابه وأهبه ، وقد بينا اكثر من مرة اسباب النصر الحسية والمعنوية (راجع لفظ نصر في فهارس الاجزاء السابقة)

اعجاز القرآن

« قطعة للجاحظ »

سلك أئمة البلاغة في الكلام عن اعجاز القرآن الحكيم سبلا عديدة وذهبوا مذاهب مختلفة في تبيين وجوه الاعجاز وبيان أساليب التحدي وكان الباقلاني أكثرهم إيفاء للكلام في كتابه (اعجاز القرآن) الذي جعله خاصا بهذا الموضوع . بيد ان الجاحظ وهو إمام الكتاب ورئيس المنشئين سلك سبيلاً أخرى في كلامه عن اعجاز القرآن فانه لم يتعرض الى دقائق الفصاحة وفلسفة البلاغة وبيان مناحي الكلام ومسالك النظم والنثر بل تكلم عن الاعجاز باعتبار كونه ثابتا واقعا واليك كلامه :

بعث الله محمدا عليه الصلاة والسلام في زمن أكثر ماكانت العرب فيه شاعرا وخطيبا، وأحكم ما كانت لغة، واشد ما كانت عدة، فدعا اقصاها وادناها الى توحيد الله وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجة فلما قطع العذر وأزال الشبهة، وصار الذي يمنعهم من الاقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة، نصب لهم الحرب ونصبوا له، وقتل من عِليتهم واعمامهم وبني اعمامهم، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباح مساء الى معارضته — ان كان كاذبا — بسورة واحدة أو بآيات يسيرة، فكلما أراد تحدّيا لهم بها وتقريعا لهم بعجزهم عنها قالوا له انت تعرف من أخبار الأمم مالا نعرف فلذلك يمكنك مالا يمكننا.

قال فهاتوا ولو مفتريات، فلم يرم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر، ولو طمع فيه لتكلفه ولو تكلفه لظهر ذلك ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عليه ويكابر فيه ويزعم أنه قد عارض وناقض، فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم، وعارض الشعراء من أصحابه والخطباء من أمته، لأن سورة واحدة وآية يسيرة كانت انقص لقوله، وابلغ في تكذيبه، واسرع في تفريق اتباعه عن بذل النفوس والخروج عن الأوطان وإنفاق الاموال،

وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأي والنبل بطبقات، ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر، والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة، ولهم الاسجاع واللفظ المنثور، ثم يتحدى به اقصاهم، بعد ان ظهر به عجز أدناهم، فمحال — أرشدك الله — ان يجتمع هؤلاء كلهم في الامر الظاهر، والخطاب المكشوف البين، مع التقريع بالتقصير، والتوقيف على العجز، وهم أشد الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيد أعمالهم، وقد احتاجوا اليه والحاجة تبعث على الحيلة في الامر الغامض، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة، كما انه محال ان يطيقوه ثلاثا وعشرين سنة على الغلط في الامر الجليل المنفعة، فكذلك محال ان يتركوه وهم يعرفونه، ويجدون السبيل وهم يبذلون أكثر منه،

تتمة الخطبة الاولى

« من خطبنا الاسلامية في الديار السورية »

تابع لما نشر في (ص ٦٤١ ج ٩ م ١١)

الاسلام هو الذي هدى المسلمين الى العلم ، وكانت عنايتهم بالعلوم تنمو بنمو سلطانهم وقوة شوكتهم ، ثم دالت دولة العلم ، ودولة السيادة والحكم ، وضعف الدين مع ضعف العلوم العقلية ، وقام الاستبداد يحارب العلم ويضطهده ، فان الحاكم المستبد يرى من مصلحته ان تكون الامة جاهلة ذليلة ، اذ الاستبداد في الامة العالمة بحقوقها أمر عسير غير يسير . قال حكيمنا السيد جمال الدين : العاقل لا يظلم ولاسيما إذا كان امة . فهذا سبب ما كنتم تقاسون من محاربة الحكومة التي سقطت منذ عهد قريب للعلم ، واضطهادها للمتهمين به وهو عندها أشد الجرائم !!!

أتى على المسلمين حين من الدهر وهم لا يجارون أحدا من الامم في العلوم والفنون ، وقد ذاقوا مرارة ذلك ورأوا سوء عاقبته في أنفسهم ودولتهم ، فصاروا يفتنون من كل عام مرة أو مرتين ثم لايتوبون ولاهم يذكرون، كما قال الله تعالى في المنافقين : تنقص بلادهم من اطرافها وتسقط في أيدي الاجانب ولاية بعد ولاية بل مملكة بعد مملكة وهم لا يهتدون الى سبب ذلك ولا الى طريق تلافيه، بل يعتمدون ويتكلون على مالا يتكل عليه من كرامات الاولياء ومدد الاموات! ولم يجعل الله ذلك سببا للنصر بل أمر باعداد ما يستطاع من القوة ، حتى في زمن النبي المؤيد بالآيات الإلهية ،

اذكر لكم من الشواهد على ذلك ما يؤثر عن أهل بخارى : فانهم أنذروا هجمة روسيا عليهم فلم يعدوا لها ما يستطيعون من قوة ، بل هزئوا بذلك وسخروا ، وقالوا ان بلادنا في حماية شاه نقشبند ! (هو الولي الذي تعزى اليه الطريقة النقشبندية) فلما

زحف عليهم جيش الروس لم يملكوا من نجدة هـذا الولي لهم شيئا ، بل انقلبوا على أعقابهم خاسرين ، وخسروا استقلالهم وما كانوا معتبرين

فيا أيها الناس تأملوا وتدبروا : إذا تركت الامة أن تعدّ لاعدائها ما تستطيع من قوة كما أمر الله تعـالى وكما تقتضي طبيعة الاجتماع ، واتـكلت في حياتها السياسية والاجتماعية على الاموات ألا تـكون جديرة بالموت دون الحياة ؟ بلى وهـذه هي حالنا في هذه القرون الاخيرة ، ولـكن الله تعالى وعد بأن يظهر هذا الدين ، وان لا يذر المؤمنين على ماهم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، ولذلك سخر لنا من المجددين من يعلمنا كيف نحفظ شرف الاسلام ، ونكون أعزاء بين الانام ، :

ظهر بين المسلمين أقوام تعلموا العلوم الاوربية وعرفوا أحوال العالم فرأوا ان جميع الامم تقوى والمسلمين يضعفون ، ودول النصرانية والوثنية ترتقى وتعز ، ودول الاسلام تتدلى وتذل ، وبحثوا في سبب ذلك فرأوا ان المسلمين مؤلفون من كل جنس ، ومتبوّئون لـكل أرض ، فـلا يمكن ان يكون سبب ضعفهم في كل قطر عدم استعداد جنسهم ، ولا شيء يرجع إلى طبيعة أرضهم ، ولم يروا سـببا مشتركا بينهم لايشاركهم فيه غيرهم ، الا تقاليد دينهم ، فقالوا — كما قال بعض أساتذتهم من الافرنج — ان دين المسلمين هو سبب انحطاطهم ولامطمع لهم في الارتقاء الا بتركه والاخذ بما عليه أوربا !! ، وعلى هذا الرأي الفاسد كثير من نابتة الترك والهنود والمصريين والتونسيين

فهذا صنف واقف على طرف مقابل للطرف الذي عليه السواد الاعظم الذي يمقت العـلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية التي عليها مدار العمران ، والصنفان يتجاذبان سائر المسلمين ، ذاك يدعوهم الى دنيا بغير دين ، وذاك يمسكهم ليبقوا على ماهم عليه وما هم بباقين ،

بين هذين قامت طائفة معتدلة وقفت موقف الوسط بين الفريقين فالتفتت الى هؤلاء الذين يريدون ان يبقى المسلمون على ماهم عليه حرصا على دينهم وقالت لهم ان نيتكم صالحة ولكنكم تنكبتم الطريق لتعليم الدين وحفظه حتى صار بين أمتكم وبين هذه الكتب الـكلامية والفقهية مراحل كثيرة ، فلا هم يطلبونها ولا أنتم

قادرون على حملهم على تعلمها والاخذ بما فيها ، فيجب أن تبحثوا معنا عن طريق آخر لتعليم الدين بسهولة تليق بفطرة الناس في أفرادهم وجمعياتهم ؛ كما أخطأتم في ظنكم ان العلوم التي تبنى عليها الاعمال تنافي الدين فنفرتم المسلمين عما به قوام أمتهم ودولتهم

والتفتت الى أولئك الذين يريدون الدنيا بترك الدين فقالت لهم ان قصدكم الى تقوية الامة والدولة حسن ولكنكم تبنون من جهة وتهدمون من جهة فيقل نفعكم فيما تبنون لعدم الثقة بكم ؛ ويعظم ضرركم بما تهدمون من أساس التقوى والفضيلة ، مع التقاليد والبدع القبيحة

هذه الطائفة هي التي تدعو الى حقيقة الاسلام الذي يجمع لاهله بين مصالح الدنيا والآخرة ومطالب الروح والجسد . وأول من دعا الى ذلك في بلادنا العربية السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله تعالى . طرق سمع كثير منكم اسم هذا الرجل الذي هز الآفاق هزا ؛ ولكن يوجد فيكم من لا يعرف شيئا من أنبائه الصحيحة لكثرة خوض أهل الاهواء فيها ؛ وقد كان مخاطبكم ممن استقرأ أخباره ، وتتبع آثاره ؛ وجمع كثيرا مما كتبه ، وقد علمت من ذلك انه دعا الى حقيقة الاسلام وإحياء القرآن في قلوب الناس ؛ ودعوتهم به الى ما يحييهم ، ويجعلهم أمة عزيزة ؛ ذات دولة أو دول قوية ، ولكنه قد انفق أكثر أيام عمره في السياسة ، لما رأى ان الملوك يقاومون هذه الدعوة ، لأن البلاد التي تحكم بالاستبداد ، لا مقام فيها للاصلاح والاستقلال

بالله عليكم كيف يرضى الحاكم المستبد بالدعوة الى هداية القرآن الذي يجعل أمر المسلمين شورى بينهم ، وإنما استبداده عبارة عن جعل أمرهم بيده وحده ، وجعلهم عبيدا خاضعين له ؟ كيف يرضى بأن يكون شأنه في سياستهم كشأن النبي صلى الله عليه وسلم اذ كان لا يبرم أمرا من الامور العامة الا بعد الشورى حتى انه كان يعمل برأي الجمهور وان خالف رأيه ورأي بعض كبراء أصحابه كما فعل يوم أحد؟!! (وذكرنا ملخص الخبر فيها في الخطبة) ألا ان أولئك المستبدين يحاولون ان تكون رتبتهم فوق رتبة النبي عليه الصلاة والسلام وهم لا يصلحون ان يكونوا خدمة له ، بل يحاولون ان يكونوا آلهة تعبد ، يستخفون الامة و يستعبدونها بالفعل ، وان وجدوا مجال القول

ذاسعة صرحوا بما يودعه الاستبداد في نفوسهم كما فعل الذي قال«أنا ربكم الاعلى»

لذلك أقول لكم عن خبرة و بصيرة ان الذي دعا السيد جمال الدين الى الاشتغال بالسياسة هو اعتقاده ان الدعوة لا تكون الا حيث تكون الحرية وحكومة الشورى، ولهذا قام في مصر بتأسيس حزب له نفخ فيه روح حب الحكم الذاتي أو النيابي، وكان من أعضاء حزبه توفيق باشا ولي العهد للامارة المصرية يومئذ، وقد عاهده على ان يجعل لمصر — اذ يصير الامر اليه — مجلسا نيابيا ويحول الحكومة بذلك من النوع الاستبدادي المطلق الى النوع الشوري المقيد، ولكنه لم يكد يستقر على كرسي الامر حتى نفى السيد جمال الدين من مصر حبا في الاستبداد، وتلذذاً بالاستعباد. ولكن السيد لم يملّ ولم ييأس، بل صبر ينتهز الفرص، فجذبته الايام الى بلاد الفرس فاستأنف فيها العمل لإنشاء حكومة الشورى فنفاه الشاه من البلاد، ولقي من البلاء في ذلك مالم يلقه الا قليل من العباد، ثم قذفت به المقادير الى الاستانة فأحسن السلطان اليه، حتى طمع فيه، ولكنه ماعتّم ان يئس منه، حتى مات هناك غير راض ولا مرضي عنه، هكذا قضى حياته في التطويف في البلاد ولم يتخذ له زوجة ولا جنح الى شيء من حظوظ الدنيا

كان للسيد مريدون كثيرون يردون ينبوع معارفه، ولكن لم يصدر أحد منهم ريّان من مشربه، و يثبت على مذهبه، الا الشيخ محمد عبده، فقد كان هذا الامام الجليل تربى تربية دينية صحيحة الا ما كان من غلوه في العبادة، فقد مكث زمنا طويلا لا يكلم أحدا، وزمنا أطول من ذلك الزمن لا ينظر الا الى الارض ولا يهتم بغير إصلاح نفسه، الا ما كان من درس يقرؤه لاخوانه المجاورين في الازهر، ثم رجع الى الاعتدال ولكن لم يفارقه الخشوع ورقة القلب. ولقد دخلت عليه مرة بيته فرأيته يطالع في السيرة النبوية ودموعه تجري على لحيته، خشوعا واعتبارا بما لقيه(ص) من الاذى في سبيل ربه، وكان في كل سنة أو أكثر يعتريه تنبه عصبي من إطالة الفكر في سوء حال المسلمين حتى همّ في ليلة من ليالي رمضان أن يطيع هذا الوجدان فينزل الى جوار الازبكية حيث مجامع اللهو و ينادي: أيها المسلمون ماذا رأيتم في دينكم من العيب حتى تركتموه ؟ اخبروني لعلي أبين لكم خطأكم. وأرسل اليّ مرة يخبرني بأن

مرضا ألمّ به فمنعه النزول من عين شمس الى القاهرة ، فجئته فاذا هو في حجرة النوم واذا بين يديه ثلاثة كتب مفتوحة ينظر فيها ، فقلت له ما هذه الكتب وما هذا المرض ؟ فقال هذه كتب من أصول الفقه أشغل نفسي بمباحثها وعباراتها المعقدة عن القرآن فقد اطلت الفكر فيه وفي أحوال المسلمين فحصل لي التنبه العصبي الذي تعرف حتى أثر في ظاهر جلدي فاذا أنا وضعت أصبعي على جبهتي أتألم

اشتغل الاستاذ الامام بالسياسة زمنا مع السيد ثم وجد في أواخر عمره حرية في مصر فترك السياسة واشتغل بالاصلاح الديني والاجتماعي ، واشتهر أمره بذلك حتى عرفه الاقارب والاجانب . أليس من العجب ان يوجد في كتاب فرنسا من يشهد بأن طريقة الاستاذ الامام هي الطريقة المثلى لإصلاح حال المسلمين ؟ ويوجد في المسلمين انفسهم من يقول بضرر تعاليمه عن جهل وغباوة ، أو تقليد للمرجفين عن بغي وحسد ؟

نشرت جريدة الاهرام منذ شهرين مقالة مترجمة عن جريدة الطان الفرنسية الشهيرة جاء فيها : ان المسلمين في تونس ثلاث طبقات (الاولى الجامدة) وهي التي تحرص على بقاء المسلمين على ما هم عليه وتنفر من العلوم العصرية والمدنية الغربية وأهلها هم الاكثرون (الثانية المارقة) وهي التي تنكر الدين ولا ترى ان تقف عند حدوده في شيء وأهلها هم الاقلون وهم يخفون مذهبهم هذا لضعفهم ولا يرجى منهم خير لامتهم (الثالثة المعتدلة) وهي التي تعمل لترقية المسلمين في العلوم والمدنية مع المحافظة على دين الاسلام وهي التي يرجى منها الخير للبلاد التونسية وأهلها يتبعون التعاليم التي كان يلقيها في مصر الشيخ محمد عبده والتي تنشرها بينهم مجلة المنار . وقد كتب اكثر من واحد من الافرنج مثل هذا عن مسلمي مصر وهو ما كتبه لورد كرومر في تقاريره وتاريخه لمصر

فهذه طريقتنا أيها الاخوان في الاصلاح . نريد ان نجمع لأمتنا بين مصالح الدنيا والآخرة ، وقد عرف هذا كتاب الافرنج واعترفوا بفائدته فلا ينبغي للمسلمين انفسهم ان يجهلوه !

نحن في حاجة عظيمة إلى العلوم والفنون والصناعات العصرية التي تقوى بها

أمتنا ونعتز بها دولتنا . ولا يكون الخير في ذلك تاما لنا إلا اذا أقمنا معه أصول ديننا وهي القرآن الحكيم والسنة السنية التي جرى عليها سلفنا الصالح ، ولا تنافي بين الامرين ، فنحن اذا لم نجمع بين مصالح الدنيا وهداية الدين لا تقوم لنا قائمة . فهذه الطريقة الإصلاحية التي دعانا اليها حكيما الاسلام السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده هي التي يدعو اليها المنار ويناضل عنها ، وهو مستعد بمعونة الله تعالى للتوفيق بين العلوم الحقيقية وأصول المدنية الصحيحة وبين الكتاب والسنة ، ومن اشتبه عليه شيء في ذلك فليكتب اليه به يفصله له تفصيلاً

قد انتشرت دعوتنا هذه في جميع الاقطار حتى ان جماعة من علماء الترك أنشأوا مجلة إسلامية في الاستانة سموها « صراط مستقيم » فكتبوا إليّ يطلبون مجلدات المنار كلها ليستعينوا بها على خدمتهم هذه . فهم على علم بطريقتنا في الاصلاح على كون المنار كان ممنوعا عنهم وقلما يصل الى الاستانة جزء منه ، فندعو جميع علماء المسلمين هنا وفي كل مكان الى هذه الطريقة بل ندعو اليها كل مسلم « وتعاونوا على البر والتقوى » وينبغي لكل مسلم أن يكون له حظ من اصلاح حال أمته في دينها ودنياها ، فمنهم من يدعو ومنهم من يستجيب للداعي ومنهم من يساعده بجاهه ، ومنهم من يساعده بماله ، والسلام على من اتبع الهدى ورجح العقل على الهوى ، اه ما كتبه ذلك الاديب من الخطبة مع تصحيح وتوضيح وزيادة فاتته

(استدراك) بعد النزول عن المنبر تذكرت ما كنت عازما عليه من التنويه بصديقنا عبد الرحمن افندي الكواكبي فذكرت فضله بمساعدة الاصلاح الديني والاجتماعي بكتابه (سجل جمعية أم القرى) والاصلاح السياسي بكتابه (طبائع الاستبداد) رحمه الله تعالى وأحسن جزاءه

الانقلاب العثماني (*)

﴿ وتركيا الفتاة ﴾

٢

بروتوكل لوندره ورفضه

سمي جمهور المبعوثين بعد ذلك (اوت افندم) لتصديقهم على كلام الرئيس بدون مناقشة ولا مباحثة ، ولكن كان فيهم — والحق يقال — فئة عارفين بمصالح الدولة وطرق الاصلاح ، جسورين على التكلم والدفاع عن حقوق الامة والمناضلة في سبيل منافعها ، غير ان الحال كانت ذات خطر شديد لأن العدو كان يتأهب للحرب على الحدود ، فأراد رئيس المجلس تحويل المذاكرات الى المسائل الخارجية لان مندوبي الدول الست الذين عقدوا مؤتمر الاستانة اجتمعوا في لوندره وليس للدولة العليــة مندوب معهم ، ووقعوا بتاريخ ٣١ مارث (مارس) سنة ١٨٧٧ على (بروتوكل) أي مضبطة طلبوا فيها من الباب العالي عقد الصلح مع الجبل الاسود ، والتفرغ له عن نحو عشرين ناحية من املاك الدولة العلية لكون لسانهم سلافيا ودينهم مسيحيا !!! كما طلبوا اجراء الاصلاحات الموعود بهــا تحت مراقبة الدول وإشرافها وغير ذلك ، وأبلغوا هذه المضبطة الى الباب العالي في ٣ نيسان (ابريل) سنة ١٨٧٧

جاء ناظر الخارجيــة الى مجلس المبعوثان وقرأ على أعضائه ترجمة البروتوكل وشرح لهم أحوال السياسة الخارجية وأفهمهم ان رد البروتوكل تكون نتيجتــه اعلان روسيا للحرب علينا ، وليس للدولة العلية عضد من بقية الدول كما كان لها في حرب القرم ، ولا نقود في خزينتها . وكرر عليهــم ما قاله مدحت باشا في المجلس

*) تابع لما نشر في (ص ٦٤٦ ج ٩ م ١١) من رسالة محمد روحي افندي الخالدي العضو في مجلس المبعوثان عن القدس الشريف

العالي لدى مذاكراته في لائحة مؤتمر الاستانة ، وكانت اكبر الصعوبات من العسرة المالية ؛ وشدة الاحتياج الى التجهيزات العسكرية . فاعترض اكثر المبعوثين على قبول البروتوكل ، وأظهروا من الحماسة والغيرة الوطنية ما لا مزيد عليه ، وكان مبعوثو الارناؤط المجاورة بلادهم للجبل الاسود أشدهم اعتراضا ، وقام مبعوث الاكراد فقال ما ملخصه : تزعمون أن المالية في ضيق شديد فكيف يمكننا تصديق ذلك وأنتم في هذه البهرجة والالبسة الغالية والدور المفروشة بأحسن الاثاث والرياش والعربات والخيل المطهمة ؟ تعالوا الى عندنا في كردستان وانظروا بؤس العيش ومرارة الحياة التي نحن فيها !! لما كنت في بلادي لم يكن علي إلاّ ألبسة مرقعة بالية كبقية اخواني من أهالي كردستان ، ولما رأيتكم ترتدون أحسن الالبسة وتتألق على صدوركم النياشين المجوهرة خجلت من نفسي فاشتريت الثوب الذي ترونه عليّ من سوق الدلالين !! وأنا مرهق ، لا من المخازن الكبيرة وانا موسر ، واذا كانت سلامة الوطن والمحافظة عليه تقضي عليّ ببيعه فأنا أبيعه وأنا مغبوط وأعود الى ثوبي المرقع .

ثم قال الرئيس في ختام المذاكرة : هل يقبل المجلس ما جاء في البروتوكل لملاحظات ناظر الخارجية ؟ فرفض المجلس قبوله بالاكثرية ، وكانت الاقلية ثمانية عشر صوتا من الروم المبعوثين عن الروم ايلي ومن الارمن . فنظم الباب العالي نشرة مؤرخة في ٩ نيسان (ابريل) سنة ١٨٧٧ احتج فيها على بروتوكل لوندره المنظم بدون اطلاعه وانضمام رأيه ، وقال : ان تكليف الباب العالي اجراء الاحكام على مايقضي به هذا البروتوكل مخالف لاستقلال المملكة العثمانية الذي اقرته الدول في معاهدة باريس ، فقرئت هذه النشرة على مجلس المبعوثان فاستحسنها وأقرها وشكر الباب العالي على تنظيمها . فأجاب عنها البرنس غورجاقوف في بطرسبرج بنشرة رفعها إلى الدول في ١٩ نيسان (ابريل) مضمونها : ان الباب العالي رفض اجراء الاصلاح الموعود به فصارت الحرب ضرورية لان روسيا مضطرة الى إيفاء واجباتها نحو الاهالي المسيحيين !!!

فأجاب الباب العالي بنشرة أخرى للدولة قال فيها : ان تركيا لاترفض اجراء

الاصلاحات وانما ترفض الاشراف والمراقبة على اعمالها ، لان في ذلك غمطا لحقها وإزراء بشرفها وعبثا باستقلالها الذي اقرت عليه الدول الموقعة على معاهدة باريس. وصارت النشرات (سيركولير) والمحررات السياسية تتطاير من عواصم أور باوالانذارات (ميموراندوم) والمذاكرات تتساقط على السفراء ونظار الخارجية فلم يجد ذلك نفعا بل اعلنت الحرب في ٢٤ نيسان (ابريل) سنة ١٨٧٧

مناقشات مجلس المبعوثان وانفضاضه

بحث المجلس بعد ذلك في لائحة نظام الولايات وتشكيل مجالس الادارة وذكر في اللائحة ان مجلس ادارة الولاية يتألف من ستة أعضاء ينتخب نصفهم من المسلمين والنصف الآخر من المسيحيين ،فاعترض بعض المبعوثين على هذا التخصيص الذي هو داعية للتفريق ،وقالوا : إن القانون الاساسي أطلق على جميع الرعية اسم (عثمانيين) بدون تفريق بينهم في الدين والمذاهب ،وان الاكثرية في مجالس الادارة تكون من حق المسلمين ، لان الموظفين كالوالي والدفتردار (رئيس المحاسبة) والمكتوبجي ونحوهم أعضاء دائمون في مجلس ادارة الولاية ،وطلبوا إخراج المفتين من بين الاعضاء الدائمين لكونهم بمثابة الرؤساء الروحيين.

فقال الرئيس : ليس للمفتين صفة دينية كصفة الرؤساء الروحيين ، ورغم انتشار هذا الزعم الفاسد فالمفتي ماهو الا مأمور القانون أي المحامي عن القانون والشريعة، وليس له سيطرة على المسلمين كسيطرة الرئيس الروحي على ابناء ملته ،وانما هو من علماء الحقوق المعروفين عند الافرنج باسم (Jurisconsulte)واعترضوا أيضا على تسمية (متصرف) فقالوا ان هذا الاسم مشتق من التصرف الدال على الاستبداد والاذلال والاستعباد ،فهو لا يوافق روح الحرية والمساواة. واستعلم بعض المبعوثين عن احوال معسكر الاناضول ونقصان التجهيزات العسكرية ،وعلى تعيين احد الخدمة قائمقام وقد كان (شو بقجي) اي حامل قصبة التدخين عند بعض الكبراء ، الى غير ذلك.

ثم اشتغل مجلس المبعوثان بتدقيق ميزانية المالية ، وطلبت الحكومة خمسة ملايين ليرة عثمانية للدخول في الحرب فتألف قوميسيون من احد عشر مبعوثا للتذرع بالوسائل المؤدية الى الحصول على المبلغ المطلوب . فحاولوا اقتراضه من إنكلترا على ان يكون لها في مقابل ذلك واردات مصر كما فعلوا قبلا فرفضت إقراضهم لان التأمينات غير كافية ، فقرروا عقد قرض داخلي بفائدة عشرة في المئة من واردات اصحاب الاملاك والتجار ، واخذ راتب شهرين من اصحاب الرواتب ، فصدق مجلس المبعوثان على هذا القرض وعلى كل ماطلبته الحكومة منه وختم جلساته في تموز (يوليو) سنة ١٨٧٧ فقال الرئيس: ارجعوا الى ولاياتكم وأعيدوا الانتخابات واجتهدوا بأن ترسلوا الينا مبعوثين او فر عقلا وأكثر وقوفا على ما تحتاج اليه البلاد !!!

فيرى من ذلك ان مجلس المبعوثان — على ضعفه وعجزه وجهل اعضائه في السياسة والادارة — لم يكن منه قصور أو تقصير في وظائفه ، ولم يحصل فيه اختلاف شديد بين المسلمين والمسيحيين ، وانما كانوا جميعا متفقين على مقاومة الاستبداد ومنع التعدي وتبذير الاموال ، وكل منهم عارف بمصالح بلاده الخاصة ، لأن معرفة ذلك لا تحتاج الى علم كبير أو رأي ثاقب لبداهتها ووضوحها كالشمس في رابعة النهار ، غير أن الواقفين منهم على مصالح الدولة العامة وسياستها الخارجية كانوا أقل من القليل ، والحكومة ابت ان تعترف لهم بحق ، بل نظرت اليهم نظر الوصي إلى الصبي !!!

الحرب الروسية العثمانية

استمرت الحرب الروسية العثمانية ثمانية أشهر (نيسان — كانون الاول سنة ١٨٧٧) وابرزت الجنود العثمانية فيها من الشجاعة والصبر والثبات والقوة ما دلّ على حياة الامة وفتوتها وسلامة جسمها من اعراض الهرم أو المرض الذي يصفها به العدو ، ولكن نقصان التجهيزات العسكرية وسوء الإدارة كانا سببا في انتصار الروس في أوربا وآسيا ، وتجاوزهم نهر الطونة (الدانوب) وجبال البلقان ، وأخذ القرص ومحاصرة ارضروم من جهة الاناضول ، وفتح بلفنا في الروم ايلي . ولقد أظهر عثمان

باشا وعسكره من الشجاعة والمقاومة ما حير الروس وأوربا كلها فاعترفوا بفضلهم وقدروهم قدرهم « والفضل ما شهدت به الاعـداء » ١٠ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٨٧٧

طلب مدحت باشا وانتخاب المبعوثان ثانية

استنزفت هذه الحرب ثروة البلاد واضعفت قوتها وافرغت صناديق الحكومة من الاموال ، لـكثرة الإنفاق وانقطاع الوارد اليهـا من التكاليف والرسوم ، فتقرر إعادة التئام مجلس المبعوثان وطلب مدحت باشا من أوربا ، وعقـد قرض لوندره ، وعقد الصلح مع روسسيا ، فجرى انتخاب ثان بأمور (أوامر) مؤقتة لا كما يقضي نظام انتخاب مجلس المبعوثان

افتتاح مجلس المبعوثان مرة ثانية وخطاب السلطان فيه

افتتح مجلس المبعوثان مرة ثانية في يوم الخميس الواقع في ٧ ذي الحجة سنة ١٢٩٤ و١٣ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٨٧٧ فذهب الوكلاء الفخام والوزراء الكرام والعلماء الاعلام واعضاء مجلس الاعيان والمبعوثان وسفراء الدول الاجنبية الى سراي بشكطاش واصطفوا على الصورة الآتيـة : فـكان عن يمين الحضرة العلية السلطانيه أدهم باشا الصـدر الاعظم ووكلاء الباب العالي ثم موظفو المجالس العالية ثم رؤساء المذاهب المختلفة ثم اعضاء شورى الدولة ومستشارو النظارات المختلفة وكثيرون من اعيان رجال العسكرية والملـكية بحسب رتبهم ومقاماتهم ، وكان عن شمالها حضرات شيخ الاسلام والشريف عبد المطلب أمير مكة المكرمة قبلا ثم العلماء من رتبة قاضي عسكر الروم ايلي والاناضولي ثم (الفريقان) الكرام وفريق من العلماء الاعيان . وكان اعضاء مجلس الاعيان أمام الحضرة العلية السلطانية من ناحية اليمين على صفين ، واعضاء مجلس المبعوثان امامها من ناحية الشمال على تسعة صفوف ، وفي الساعة السادسة على الحساب العربي دخل السلطان الاعظم وسـلم الرقيم المشتمل على نطقه لسعيد باشا باشكاتب المابين فتلاه على الحاضرين وهو :

« يا أيها الاعيان والمبعوثان

« انني أكتسبت الممنونيه بفتح المجلس العمومي وبمشاهدة مبعوثي المـلة (الامة) — ثم ذكر الحرب مع روسيا والمحافظة على الملية أي القومية واللغات وحق المساواة وادخال غير المسلمين من الرعية في الجندية والمحافظة على القانون الاساسي واصلاح المالية والعدل في جباية الاموال الاميرية وتنظيم القوانين — وختمه بقوله:

« يا أيها المبعوثان

« ان ابراز الحقائق في المسائل القانونية والسياسية وضمان منافع البلاد يتوقفان على مجاهرة أرباب الشورى بأفكارهم بالحرية التامة ، وبمـا ان القانون الاساسي يقضي بذلك فانني لا أرى احتياجا إلى أمر أو ترغيب آخر »

مذاكرات مجلس المبعوثان

ثم انعقد مجلس المبعوثان في الدائرة الخاصة به تحت رياسة حسن فهمي افندي (وهو اليوم باشا من النظار) وشرع المبعوثون في المذاكرات والمباحثات بقية شهر كانون الاول (دسمبر) وكانون الثاني (يناير) وأوائل شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨ وكثر الجدال بين المبعوثين وبين الحكومـة — لا بين الاعضاء المختلفين بالدين واللسان — وطلب بعضهـم التدقيق في حسابات المالية ، وحضور ناظرها لمناقشته الحساب ، ومحاكمة المرتكبين ، وسؤال المتهمين باختلاس الاموال الامـيرية ، وسوء الاعمال المختلفة المتعددة ، وقام أحد المبعوثين وقال : إن الجاندرمة (فرسان الشرطة) في الولاية التي بعثت منهـا تنهب الاهالي ، والمحاكم ترتشي على إبطال الحق وإحقاق الباطل ، والضابطة تعذب المحبوسين بالضرب وأنواع العـذاب . واعترض مبعوث آخر على المذابح التي جرت في بلغارستان وطلب التحقيق والبحث عنها . وطلب جماعة من المبعوثين عزل خمسة من الوكلاء : منهم محمود جـلال الدين باشا وسعيد باشا وكجوك سعيد باشا ، والتحقيق عن كثيرين من رجال الدولة وقواد العساكر ، ولا سيما عن الاختـلاس والاسراف في نظارة البحرية وغير ذلك .

الغاء الصدارة واستبدال مجلس الوكلاء بها

بعد ذلك تولى الصدارة أحمد حمدي باشا المعروف في ولاية سوريا ، وذكر في فرمان التولية « إن اعتزال أدهم باشا مدة للاعمال كان مراعاة لصحته هذامع التسليم بنزاهته ودرايته ، ونحن راضون عنه من كل الوجوه أتم الرضى ..» الخ. وبقي حمدي في الصدارة بضعة وعشرين يوما ، وفي غرة صفر سنة ١٢٩٥ و ٤ شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨ صدر الفرمان القاضي بإلغاء لقب (صدر أعظم) واستبدال رئيس الوكلاء به ، وتوجيه هذه الرياسة إلى أحمد وفيق باشا رئيس مجلس المبعوثان مع رتبة الوزارة ، وتعيين مسئولية (تبعة) الوكلاء أي النظار كما هي الحال في وزارات أوربا ، فحضر (الباش وكيل) الافخم الى مجلس المبعوثان وقال لهم ما ملخصه :

« إن جلالة السلطان الاعظم تريد في الحقيقة باطنا وظاهرا إدارة الملك كما تقضي احكام القانون الاساسي ، ولذا استبدلت رياسة الوكلاء بمسند الصدارة. فالوزارة الجديدة المؤسسة على قاعدة المسئولية لا ترغب الا في سلامة الدولة وترقيها ، والوكلاء مستعدون للحضور دائما إلى المجلس عند الطلب ، ولكنهم يرجونه ان يقبل في بعض الاحيان وكلاء عن اعضائه لكثرة شواغلهم وحرصا على أوقاتهم !!!»

فقام أحد المبعوثين وقال ما خلاصته :

« ان مجلس المبعوثان له الحق وحده ومن شأنه خاصة إحداث تغيير عظيم مثل هذا التغيير ، تقولون دائما انكم تريدون المحافظة على القانون الاساسي ، إذا فاحترموا حريتنا لأننا نحن الذين نمثل القانون الاساسي ونحافظ على احكامه ، وأنتم الذين تحاولون نقضه وإبطاله ...» فأحيلت المسألة على قوميسيون مخصوص ليدقق فيها في ٥ شباط (فبراير) وكانت الحرب أوشكت أن تضع أوزارها ، وعساكر روسيا استوات على أدرنه وتجاوزتها ، وطلبت اوستريا (النمسا) أن تجمع في فينا مؤتمرا من مندوبي الدول الموقعة على معاهدة باريس لتنقيح المعاهدة الجديدة بين تركيا وروسيا ، والتوفيق بين أحكامها وأحكام المعاهدات القديمة ، وبعثت

انكلترا بأسطولها الى بحر مرمره في ١٤ شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨

المجلس العالي

تداخلت دول اوربا في المسألة الشرقية بعد ان تركن روسيا تفعل ما تريد في الحرب ، وعدن الى المناقشات والمحاورات — على عادتهن — في هذه المسألة واعتمد المابين على ما بينهن من الاختلاف واستغنى عن مجلس المبعوثان فألف في ١١ شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨ مجلسا عاليا من وكلاء الدولة ورجالها وأعيانها والرؤساء الروحيين ، وطلب من مجلس المبعوثان خمسة أشخاص : الرئيس ووكيله وأحد مبعوثي الاستانة وهو الحاج احمد افندي كتخدا الاسترجية (الـكدش) ومبعوث آخر يهودي ، فقال لهم الحاج احمد افندي ان طلبكم الآن رأينا في غير محله ، فقد كان يجب عليكم أن تسألونا قبل الخراب ، فمجلس المبعوثان يتنصل من كل تبعة تلقى عليه لامر وقع بغير علمه ، ولم يكن برأي من آرائه ، وكرر القول بأن المجلس يرفض كل تبعة في الحال الحاضرة .

تعطيل مجلس المبعوثان الى اجل غير مسمى

صمم السلطان الاعظم حينئذ على العدول عن سياسة والده الماجد السلطان عبد المجيد خان في عمل الاصلاح باطلاق الحرية والعمل بمقتضى أحكام القانون الاساسي ، وجنح لسياسة جده السلطان محمود خان في إعمال القهر والاستبداد ، مفضلا هذه السياسة اعتقادا منه أن الشعوب التي وضعها الله تحت يده لا يمكن تسييرها الا بالقوة !! · وكان حضر المندوب الروسي الى الاستانة فلم يسر بوجود مجالس المبعوثان لخلو بطرسبرج من مثله ، واستبداد القيصر برعيته ، ففي ١٤ شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨ قرأ الرئيس حسن فهمي افندي على المبعوثين منطوق الارادة السنية القاضية بتعطيل مجلسهم الى أجل غير مسمى !!!

استخذاء المبعوثين والامة لتعطيل مجلس المبعوثان واسبابه

خرج المبعوثون يتعثرون بأذيالهم ، وأنذرت الضابطة المتطرفين منهم والجسورين على الكلم وإيقاظ افكار الامة بوجوب المهاجرة من الاستانة !

فذهب بعضهم الى الولايات العثمانية وبعضهم الى مصر والبلاد الاجنبية . ولم تقلق الامة أو تتأثر من هذا الاحتقار والامتهان، ولاحصل منها هيجان أو اعتراضات! كأنها جمل المحامل

يصرفه الصبي بكل وجه ويحبسه على الخسف الجرير
وتضرب به الوليدة بالهراوى فــلا غِيَر لديه ولا نكير

ولم يبق من المبعوثين من أصر على مبعوثيته الى آخر نفس من حياته الا أفراداً قلائل كمبعوث القدس الذي كان — بجراءته — يثبت على بطاقة الزيارة (كارت فيزيت) انه مبعوث القدس، ويقدمها الى وزراء الدولة ورجالها لدى زيارته لهم في الاستانة، والى سفراء الدول الاجنبية وموظفي نظارات الخارجية في أوربا . ولما اجتمع بصديقه خليل غانم مبعوث بيروت في الاجتماع الثاني للمجلس ومنشئ المقالات الرنانة في جريدة الدبيا وغيرها من جرائد باريس وذلك قبيل وفاتها — آخذه لكتابته في بطاقة الزيارة كلمة المبعوث السابق (Ex - Député) فمحا كلمة « سابق » لان صفة المبعوثية انما هي بارادة الامة وانتخابها ، فهي لا تزول عن صاحبها إلا بانتخاب آخر ، ومجلس المبعوثان لم يُلغ إلغاء وانما عطل الى اجل غير محدود ، فكان اجتماعه في كل سنة من قبيل الممكنات الجائزة عقلا ونظاما . ولكن اكثر المبعوثين تناسوا وظيفتهم كأنها وظيفة حقيرة لايؤبه لها وقد عزلوا منها ، ولم يجسر احد على ذكرها في ترجمة حاله الرسمية ، ولم يذكرهم بها مذكر ولا وعظهم واعظ !! ولا حررت في هذا الموضوع جريدة من جرائد المملكة العثمانية

ان لهذا السكوت والاستخذاء اسبابا كثيرة . منها ان الحرية امر تستحوذ عليه الامة بالغلبة والاستيلاء ، وليست مما ينعم به انعاما أو تعطى جزافا ، ولقد كانت الامة حينئذ منهوكة القوى مكسورة الجناح بسبب الحرب ، لادار الا وفيها مأتم ، ولا اسرة الا وقد أصابتها مصيبة . وزاد البلاء بسبب البحران المالي ، ونزول قيمة المسكوكات (النقود) فكانت الاسرة تبعث خادمها الى السوق ليشتري القوت الضروري فيعود اليها خاوي الوفاض لعدم رواج النقود ، فتطوي على الجوع وتتفتت اكباد الوالدين

لبكاء اطفالهم . ثم ان الامة هي عبارة عن أهل العاصمة منبع الاستبداد وأهالي الولايات والقرى ، والعساكر المنظمة ، المدربة على الحرب ، المسلحة بالاسلحة الجديدة والمدافع ، فأما أهل الاستانة ولا سيما المسلمون فانه لايتصور قيامهم لطلب الحرية لان جلهم — ان لم نقل كلهم — موظفون أو عائشون في ظل الموظفين ، والعساكر المسلحون واقفون لهم ولاهل الولايات بالمرصاد ، وقادرون على إخماد نار اية ثورة أو مظاهرة ، وان قيام طائفة مسيحية وحدها لطلب الحرية مما لا يرضى به المسلمون ولا بقية الطوائف المسيحية واليهودية ، كما شاهدنا ذلك في أرمينيا ومقدونيا التي اشتدت فيها المناقشة بين الروم والبلغار والصرب والرومان ، كما أن العساكر وحزب الاحرار العقلاء لايرضون به ، لان قيام كل ملة على انفراد يقضي بتقسيم الممالك وتفريقها وضعفها ، وإثارة اضغان العداوة الموروثة من الحروب الصليبية والقرون المتوسطة المظلمة ، على ان هذا القيام كان مصدره الكنائس والاديار بإيعاز الرهبان والقسيسين والمبشرين والمرسلين ، فكان سببا لايجاد المذابح والفظائع ومداخلة الاجانب

أما حزب تركيا الفتاة الذي أسسه مصطفى فاضل باشا وخليل شريف باشا فانه لم يكن في عهد مدحت باشا الافئة قليلة من صغار الموظفين وضباط العساكر والمتعلمين في المدارس الجديدة ، والذين درسوا شيئا من اللسان الفرنساوي أو الانكليزي ، واشتهروا باسم « انكلز » لتعلمهم الانكليزية فقط ، مثل : انكلز سعيد باشا ، انكلز كريم افندي ، انكلز علي بك والد أحمد رضا بك روح هذا الانقلاب ، أو الذين أصلهم من الاوربيين فأسلموا ودخلوا في الوظائف ، مثل عمر باشا المجري ، ونوري بك ابن المركي دوشاتونيف الفرنساوي ، وكثير غيرهما ، أو الذين تزوجوا بنسوة أوربيات وربوا أولادهم تربية أفرنجية أو غير ذلك ، فكانت هذه الفئة متحدة بالفكر في إعجابها بالمدنية الاوربية وميلها اليها ، ولم تكن لهم جمعية ولا رابطة غير الرابطة المعنوية الفكرية ، لانهم من موظفي الحكومة والوظائف تضطرهم إلى إخفاء الرأي ، وإطاعتهم لآمريهم إطاعة يفرضها العقل والسياسة والا كانت الامور فوضى ، ولكن الجامدين من المسلمين لم

يفرقوا بين الدين المسيحي والمدنية الاوربية ، واعتبروا كل إصلاح صدر من أوربا المسيحية مخالفا للدين والآداب الاسلامية ، وشتان مابين المدنية الاوربية والدين المسيحي ٠

سعاوي افندي وحادثة جراغان

على ان بعض المتطرفين من حزب تركيا الفتاة ثاروا بزعامة علي سعاوي أفندي ، وكان من طلاب العلم المعروفين بالصوفتاوات ، مطلعا على العلوم العربية والفنون الرياضية ، وواقفا على الافكار الجديدة . نفي في أيام السلطان عبد العزيز وصدارة عالي باشا ، وفرالى باريس ولوندره ونشر ثمة الرسائل والمقالات ، وكان ينفق على نفسه فيهما مما ينفحه به بعض رجال الاستانة ، ثم عاد اليها وصار من حزب مدحت باشا انصار القانون الاساسي ، وعين مديرا للمكتب السلطاني ثم عزل ، فاتفق مع صالح بك الارناؤط احد الضباط وجماعة من المهاجرين فكانوا زهاء مئة رجل ، وهجموا على سراي جراغان لاخراج السلطان مراد منها ومبايعته ، واسترداد الحرية والقانون الاساسي ، ففاجأتهم العساكر بالسلاح فشتت شملهم . وكانت هذه الحادثة في ١٣ مايس (مايو) سنة ١٨٨٧ زمن رياسة صادق باشا لمجلس الوكلاء

صدارة رشدي وصفوت وخير الدين التونسي

لبث احمد وفيق باشا (باش وكيل) لمجلس الوكلاء مدة قليلة ، ثم وجهت الى صادق باشا فبقي فيها تسعين يوما ، ثم استبدلت الصدارة (بالباش وكالة) وعين فيها رشدي باشا ودام فيها ثمانية أيام ، ثم عين لها صفوت باشا ناظر الخارجية فاكتسب فيها ثقة الحضرة السلطانية ولم تطل فيها مدته ، وعين لها خير الدين باشا الجركسي الاصل والتونسي النشأة ، وهو مؤلف التاريخ العربي «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » وله وقوف على العلوم العربية وعلى الفرنساوية ، وتجول في ممالك أوربا ، وقد طلب منها في سنة ١٢٩٤ هـ كما طلب السيد جمال الدين الافغاني وغيره ، وعين رئيس الشورى الدولة ثم (صدر اعظم)سنة ١٢٩٥ و بقي في الصدارة ثمانية أشهر ، ثم استقال و بقي

حلس بيته الى أن توفي سنة ١٣٠٧ في الاستانة. فكان في طلبه وتوظيفه شبه ميل الى سياسة (بانسلاميزم) ولكن هذه السياسة لها معنيان: المعنى القديم الاستبدادي الذي مشى عليه خلفاء بني أمة والعباسيين ، وهو مخالف لحقيقة الاسلام، ومناف لروح العصر الجديد والمدنية الحاضرة — والمعنى الحديث وهو يوافق أصل الاسلام والمدنية ، ولكنه يخالف مسلك المستبدين بالامر ، ويحول بينهم و بين مآربهم، وهو اشد وطأة عليهم من القانون الاساسي وحزب تركيا الفتاة .

صدارة كجوك سعيد باشا واعماله

ثم عين لمسند الصدارة سعيد باشا المشهور بسعيد باشا الصغير (كجوك سعيد) تميزا له عن سميه ناظر الداخلية الكردي الاصل والمتوفى قبل بضع سنين . وكان سعيد باشا الصغير محررا في جريدة «حوادث» فاتصل بالداماد محمود جلال الدين باشا ودخل بوساطته المابين وصار باشكاتب له ، وهو المتسبب في إبعاد مدحت باشا وتعطيل احكام القانون الاساسي ، و إعلان الحرب، وعزل القائد (السردار) عبد الكريم باشا و إخلائه موقع (بَيله) امام بلفنا ، ومداخلة المابين في إدارة جميع الشؤون العسكرية ، واصدار الامور من السراي السلطانية اثناء الحرب ، وتقسيم المملكة العثمانية في معاهدة سان ستفانو التي نقحتها معاهدة برلين..الخ فان الارادات السنية في جميع ذلك كانت تصدر برأي سعيد بك باشكاتب المابين وتوقيعه، ولهذا كان مبغوضا من حزب تركيا الفتاة لانه كان آلة وعونا على الاستبداد ، وعلى ادارة المصالح بدون رأي الباب العالي .مع أن باشكاتب المابين كان لذلك العهد ينتخب من قبل الصدارة العظمى ، وكان الصدور لا ينتخبون لهذه الوظيفة الا الذي يعتمدون عليه لغرض المضابط والمقررات والانهاآت واستصدار الارادات السنية بها ، ولم يكن للباشكتّاب نفوذ معارض لنفوذ الباب العالي صاحب التقاليد والاصول المرعية في ادارة المملكة ، ولا سيما في أيام رشيد باشا وفؤاد باشا وعالي باشا، فلما توفي عالي باشا وتولاها محمود نديم تدنت اهميتها بسبب نفاقه وتملقه للمابين وتقديمه اموال الخزينة اليه بغير عد ولا حساب. ولما ولي سعيد باشا الباشكتابة زالت اهمية الصدارة بتة ، وانحصرت

الاعمال والادارة في المابين ، وصار للباشكاتب نفوذ يمكنه ان يطلب مدحت باشا الصدر الاعظم الى المابين ويبلغه الارادة القاضية بنفيه على الباخرة عز الدين !!

تولى سعيد باشا الصدارة بعد مدحت واشتهر بالنزاهة والاستقامة ، فلم يسمع عنه ارتكاب ولا انهماك في جمع الاموال وادخارها ، ولهذا كان أقل الصدور ثروة ، وكان شديد السطوة على المرتكبين ، كثير البطش بهم والاستبداد فيهم ، ولكنه عادل في احكامه وعقابه . وفي زمن صدارته وضع نظام المعارف ، وأسست المدارس على النسق الجديد ، وصار للمعارف إيرادوافٍ من واردات الحصة التي أضيفت الى الاعشار ، ونظمت نظارة العدلية وأصول المالية ، وأسست إدارة الديون العمومية ، وبوشر في مد بعض الخطوط الحديدية واصلاح الطرق والمعابر ، من دون ان يؤدي اعطاء امتيازاتها الى ارتكاب فاحش . فكان أصلح الصدور في الدور الاخير ، ولم ينتقد عليه حزب تركيا الفتاة الا استبداده ومقاومته مشروع مدحت باشا وتوقيف أحكام القانون الاساسي وجميع ما صنعه وهو رئيس كتاب المابين ،

لم يصد سعيد باشا كونه من رجال الكامريلاَّ - لانه نشأ وتربى في المابين - ان يحاول الاستقلال في وظيفته واعلاء شأنها ورفع مكانتها ، وتمشية المصالح بالعدل على قاعدة مطردة وأصول منظمة ، كما كانت عليه في زمن عالي باشا . فأصبحت بذلك أعمال سعيد باشا موضعا للريبة ، وكثرت الوشايات به فصار مبغوضا منفوراً منه ، ووضعت عليه العيون والجواسيس ، وصارت أعماله تراقب مراقبة دقيقة فأحدث قلم للترجمة في المابين وانجمن التفتيش (مجلس التفتيش) والمعاينة في نظارة المعارف لمراقبة الكتب المطبوعة والتدريس ومصادرة المضر منها (!) على زعمهم وبحسب اصطلاحهم ، وقلم مراقبة المطبوعات الداخلية والاجنبية في الباب العالي . هذا ماعدا دوائر وشعب الخفية (الجواسيس) المتعددة المحدثة التي مركزها في المابين تحت نظارة السرخفية (رئيس الجواسيس) فهذا الذي قضى بسقوط سعيد باشا في الحقيقة والواقع فذهب بإصلاحاته ادراج الرياح ، وان كان عزله في الظاهر بسبب احتلال البلغار للروم ايلي الشرقية ، واصراره على ارسال العساكر كما تصرح بذلك معاهدة برلين ،

صدارة كامل باشا الصدر الحالي

تولى الصدارة كامل باشا الصدر الحالي بعد سعيد باشا ، ومولده في جزيرة قبرص ومرباه في مصر ولهذا نسب اليها ؛ وله معرفة باللغات الاجنبية وبإدارة الدولة ؛ لانه تقلب في جميع وظائفها ؛ فمن قائمقام الى متصرف الى والٍ الى ناظر، ولكنه في نظر تركيا الفتاة كان أقلّ شهرة من كثيرين من الوزراء والرجال الموجودين إذ ذاك . واستمرت صدارته ست سنوات وهو آلة في يد المابين ؛ مطيع لما يلقي عليه من الامور ؛ ثم ظهرت شجاعته فعارض وعاند ، فأصابه ماأصاب سلفه سعيد باشا من سوء الظن به ؛ والريبة في أعماله وشؤونه مماقضى بفصله

صدارة جواد باشا وضعف الدولة

لماولي الصدارة جواد باشاقو بل ذلك بالاستغراب العام ؛ ولم يكن يخطر تعيينه ببال ؛ لانه من أمراء العسكريةوهوصغيرالسن غيرمتمكن من اختبارالادارة الملكية، على انهُ كان من النابتة الجديدة ، وتخرج في المدارس العسكرية ؛ وربما كان الغرض من تعيينه هو الإيهام بالعود الى الاصلاح واطلاق الحرية ؛ ولكنه في الحقيقة لم يكن قائما بوظيفة الصدارة بل كان ياورا للحضرة السلطانية مكلفا بتنفيذ الامور التي تلقى اليه ! ! ؛ كما كان رئيس الوزارة الالمانية ياورا للحضرة الامبراطورية ولكنه غير مسؤول امام الريشستاغ ! فلم يبق بعد ذلك شأن للصدارة ، واستولى رجال المابين على الشؤون كافة ، وصار في يدهم العزل والتوظيف والحل والربط وإعطاء الامتيازات بمد الخطوط الحديدية واستخراج المعادن وسائر الامور النافعة؛ وكانوا يتناولون الرُّشى من وراء ذلك بصورة فاحشة . واستولوا على الاوقاف، ووسعوا نطاق الخزينة الخاصة بانتزاع المتلكات من أيدي أصحابها بالثمن البخس، وإقامة الموظفين فيها يعارضون بنفوذهم موظفي الحكومة ونفوذها ، حتى أصبح المابين حكومة صغيرة قوية ! ! داخل حكومة كبيرة ضعيفة ! لان مركز الحكومة نقل من الباب العالي الى سراي يلديز السلطانية ! !

الجاسوسية في الدولة العلية

ضعفت إدارة الدولة وجعلت تتدهور بسرعة الى دركات التأخر والانحطاط، بعد ان خطت خطوات محمودة في سبيل التقدم أيام صدارة سعيد باشا ، وانقطع أمل الاحرار العثمانيين وخاب رجاؤهم بعد ان كانوا يؤملون تخليص الدولة والمملكة من المرض الذي منيتا به قديما . فاضطهد هؤلاء الاحرار واهينوا وعوملوا اسوأ معاملة ، حتى ذاقوا أشد العذاب الوجداني والأدبي، وصار أرباب الدناءة والفساد يتقربون الى المابين بالتملق والوشاية والتجسس على إخوانهم وأعمامهم وآبائهم ! ومنهم من تجسس على أمه وأخيه فنفيا من الاستانة ، فكانوا — بمفترياتهم — يصورون الرعية الصادقة للسلطان الاعظم كالوحوش الضارية تريد افتراسه ونزع تاجه ، ويزينون في عينيه الاستبداد ، ويبعدون عنه الخبيرين بأمور الدولة العارفين بطرق الاصلاح ، زاعمين انهم من ذوي الافكار المتطرفة وحزب تركيا الفتاة، حتى اختل نظام المملكة ، وبطلت مراعاة الاحكام القانونية ، والسير في إدارة الدولة على الاصول والتقاليد المعروفة من القديم ، وفسد التعليم في المدارس ، وانحرفت ادارة الامور الداخلية والخارجية عن محورها ، ومالت الى التدلي والانحطاط ، رغم الابهة الظاهرة ، والعظمة الكاذبة ، ولا سيما في موكب صلاة الجمعة اذ تصطف العساكر في ساحة المسجد الحميدي امام باب السراي صفوفا مضاعفة بعضها وراء بعض رجالا وفرسانا ، وتتسابق مركبات الكبراء والسفراء الاجانب ، ثم تشرق المركبة السلطانية من مطلع السراي و « المشيرون وكبار رجال المابين حافّون من حول المركبة مشاة خشّع الابصار ، ترهقهم ذلة من جلال تلك العظمة الإمامية ، وهم في غير هذه الساعة أكاسرة الفرس وقياصرة الرومان كبرا وجبروتا ، وكلهم في أمواج الملابس الذهبية يسبحون وعلى صدورهم نياشين الجوهر تخطف الابصار » . وكان في كل نظارة من نظارات الداخلية والعدلية (الحقانية) والمالية والمشيخة الاسلامية وغيرها رجال معروفون يبيعون الوظائف والرتب بأسعار معلومة ، ويقتسمونها هم وكبار الموظفين ، فمن اشترى وظيفة بمئة

ليرة فأكثر فانه يجتهد في استغلاله منها اضعاف ما بذله بإرهاق الاهالي وظلمهم أو اختلاس الاموال الاميرية أو بكليهما !!

الميل عن انكلترا الى المانيا والحوادث الارمنية

انحرفت سياسة المابين عن انكلترا الملحة في طلب القيام بالاصلاحات وتغيير الادارة المستبدة الظالمة ، واتجهت نحو المانيا التي لاترى بأساً في ادارة الدولة بالقسر الاستبدادي ، فجنح بعض ساسة الانكليز للارمن ومالوا اليهم ، وساعدوا جمعيتهم السرية التي في لونده ، واشار عليهم بعض رجال السياسة كغلادستون بالقيام والهيجان حتى اذا حدثت في البلاد مذابح كمذابح البلغار هاجت الافكار العمومية في أورباء وتسنى لحكوماتها المداخلة في طلب الامتيازات لارمينيا ، كما حدث في البلغار والجبل الاسود والصرب . ويساعد على ذلك نص المادة الحادية والستين من معاهدة برلين فقد جاء فيها مامعناه « يتعهد الباب العالي بأنه يسرع في القيام بالاصلاحات والتحسينات التي تقتضيها حال البلاد الداخلية في الولايات الآهلة بالارمن ، وبحمايتهم من الجراكسة والاكراد ، ويعطي الباب العالي في معظم الاوقات معلومات عن التدابير المتخذة في هذا السبيل للدول المشرفة على القيام بالاصلاحات »

وفي سنة ١٨٩٠ تشكلت جمعية انقلابية ارمنية (١) لتحرير الارمن التابعين للدولة العلية وروسيا والعجم ، وكان رأس مالها مئة وثلاثين الف فرنك ، وميزانيتها اليوم مليون فرنك ، منها ثلاثون في المئة للقيام بالحركات الانقلابية والسياسية ، وخمسة وعشرون في المئة لتسليح الامة ، وعشرون في المئة للنشرات والتبشير . فأحس احرار العثمانيين بذلك وتأثروا جدا ، فاجتمعوا سرا وتشاوروا ، وخابر بعضهم كبراء الارمن وعقلاءهم وقالوا لهم ما حاصله :

لا محل لاصلاح ولايات ارمينيا وحدها دون باقي الولايات العثمانية ، فالواجب طلب الاصلاح للمملكة العثمانية كلها . نعم ان الارمن يتألمون من الادارة الحاضرة ولكن الظلم والاستبداد ليساموجهين اليهم خاصة ، بل هما شاملان للارمن

(١) في سنة ١٨٨٧ تألفت جمعية هنجاق الارمنية ومعنى اسمها الجرس

والاتراك وعموم المسلمين والمسيحيين ، فانهم جميعهم يئنون تحت اثقال التكاليف وارتكاب الموظفين ومعاملاتهم القسرية والاستبدادية ، ويتحملون انواع الظلم والاعتساف وهضم الحقوق . وحظ المسلمين من ذلك اكبر ، لقيامهم وحدهم باعباء الخدمة العسكرية التي تقعدهم عن زرع الارض واكتساب الثروة والرفاه والنمو والازدياد في العدد ، وان اتفاق الارمن والاتراك على القيام بطلب الاصلاحات اللازمة وتأسيس حكومة مقيدة حرة يعد من الحمية والغيرة الوطنية ، ولكن قيام الارمن أو طائفة أخرى على انفراد بمساعدة الاجنبي وترغيبه لا تعده تركيا الفتاة إلا خيانة وجناية وضررا بمنافع الوطن المشتركة . على أن الارمن كانوا لدى تجنسهم بالجنسية العثمانية لا يزيدون عن بضعة عشر الفا وقد أصبحوا اليوم يعدون بالملايين . وان القاطنين منهم في العاصمة والمدن الكبيرة على جانب عظيم من الغنى والثروة والرفاه ، وبيدهم الشؤون المالية والوظائف العالية والرتب السامية وهم على وفاق وائتلاف تام مع الاتراك حتى اذا أطلقت كلمة «ملت(١) صادقة» لاتنصرف إلا الى الارمن . فبناء على هذا الامتزاج التام بين الترك والارمن وما فيه من الفوائد والمنافع للفريقين طلب بعض احرار الترك من معتبري الارمن وعقلائهم إفهام الجمعيات السرية الارمنية التي في أوربا هذه المقاصد ، واستعمال نفوذهم لتعديل المطالب الارمنية ونبذ التهور في سياستهم

وفي سنة ١٨٩٤ اشتعلت نيران الحادثة الارمنية وحصلت مذابح ساسون وخربت ثلاثون قرية من قراهم . كل هذا وجواد باشا الصدر الاعظم لاه عن اتخاذ الوسائل لحسم هذه المسائل ، والقيام بالاصلاحات في جميع ارجاء المملكة ، ولقد كانت سياسته محصورة بالتدابير المؤقتة لايقاف الاعتداء وسلوك سبيل المماطلة والإرجاء ، واوربا — ولا سيما انكلترا — واقفة للدلة بالمرصاد ، تخلق لها المسائل والمشاكل واحدة بعد أخرى . فمن الحادثة الارمنية

(١) المنار : يراد بكلمة « ملت » عند الترك الامة ، والملية هي القومية فكل مايرد في هذه الرسالة من هذه الكلمات ينصرف الى ما ذكر ، على اننا وضعنا عند معظم الكلمات التركية التعبير كلمة عربية بين قوسين تفسيرا لها

الى المشكلة الكريدية الى المسألة المقدونية وهلم جرا . . . ورجال المابين أكثرهم جهلاء أغبياء ، لاخبرة لهم بالسياسة ، ولامعرفة لهم بالشؤون الحاضرة . وقليل منهم شياطين ابالسة لا يدأبون الا على جمع الاموال وادخارها . ولو ادى ذلك الى خراب الوطن وسقوط المملكة . فكانوا يخوفون السلطان من حزب تركيا الفتاة ومن القيام بالاصلاحات . ويشيرون باتخاذ التدابير السيئة حتى حدث ماحدث من المذابح والفظائع التي نسبت الى الاسلام ، والاسلام يبرأ الى الله منها :

والدين انصافك الاقوام كلهم   وأي دين لآبي الحق ان وجبا
والمرء يعييه قود النفس مصحبة   للخير وهو يقود العسكر اللجبا

تأسيس جمعية الاتحاد والترقي

كان من نتيجة هذا الخلل في الادارة والاستبداد والعسف بالامة أن تأسست في الاستانة جمعية الاتحاد والترقي لاخماد نار الفتن المشتعلة في البلاد، وطلب الحرية والعدل لجميع العثمانيين وتأييد روابط الحب والامان بين الامة — المؤلفة من السنة وأديان مختلفة — وبين الدولة . وقد بعثت الجمعية في تلك السنة (١٨٩٤) فريقا من الشبان الاحرار — أكثرهم من طلاب المدرسة الطبية — الى باريس ليؤسسوا فرعا للجمعية فيها ويقوموا بنشر الجرائد والرسائل . وكان في باريس اذ ذاك عدد ليس بالقليل من الشبان العثمانيين ، بعضهم يدرس على نفقة الحكومة العثمانية او نفقته الخاصة ، و بعضهم يدرس و يشتغل بالمسائل السياسية وأشهرهم احمد رضا بك صاحب اللائحة المشهورة .

احمد رضا بك ومبادىء جمعية الاتحاد والترقي

ولد أحمد رضا بك في الاستانة منذ خمسين سنة تقريبا ووالده انكلز علي بك وأمه مجرية ، وسمي انكلز لتعلمه الانكليزية ووقوفه على المدنية الاوربية كما مر بيانه ، والا فهو من الاتراك المسلمين وكان من معتبري الموظفين الذين نشأوا في عهد مصطفى رشيد باشا وعالي باشا . فتخرج أحمد رضا بك في مدارس الاستانة

وعين مديرا للمدرسة الاعدادية في مدينة بروسه فأحس من نفسه بلزوم السفر الى أوربا للاطلاع على علومها ومدنيتها فذهب الى باريس سنة ١٨٩٠ واختلف الى مدرسة الزراعة لشدة احتياج المملكة الى العلوم الزراعية، وتعرف الى علي شفقتي بك الذي كان يصدر جريدة « استقبال » في ايطاليا ثم في فرانسا، وهو من رجال السلطان مراد . وكان رضا بك كثير التردد على المكتبة الاهلية في باريس؛ فاطلع فيها على أهم الكتب والفنون، واشتغل بالمسائل السياسية، وحرر لائحة مفصلة مشتملة على رسائل في إصلاح الادارة والمالية والزراعة والتجارة وغير ذلك بعد ان درس لائحة مصطفى فاضل باشا ووصية فؤاد باشا وما حرره ملكوم خان وشارل ميزمر وغيرهما من أكابر الرجال المشتغلين بالسياسة الشرقية والواقفين على أسباب الانحطاط وعلله الفلسفية .

سلك احمد رضا بك في الفلسفة الحقيقية مسلك أوكوست كونت وخليفته بيير لافيت، وصار إماما في هذه الطريقة المؤسسة على « النظام والترقي » وهذه الكلمة هي شعارهم وعليها بناء أعمالهم، ومن مبادئهم التفاني في حب الوطن وخدمة الجماعة، أي وقف حياة الفرد على خدمة المجموع، وهم ينفرون من الانغماس في الشهوات وتبذير الاغنياء لان المبذرين إخوان الشياطين، ويشددون النكير على الذين يبتزون الاموال الاميرية ويأكلون أموال الناس بالباطل ويعبثون بالحقوق العمومية، فالمرتكب الملوث بالرشوة يعدونه ساقطا مهما بلغ علمه وقدره . فأحمد رضا بك متصف بكل هذه الخلال الجليلة، وقد ضحى نفسه وشبابه في سبيل المحافظة على مبدأه، ورفض قبول الالوف من الدنانير وهزىء بالمناصب العالية التي كانت تعرض عليه، مع شدة حاجته واضطراره، وتحمل الاذى والمكاره، وجاهد في سبيل استرداد الحرية حق الجهاد قائلا : لو وضعتم الشمس في يميني والقمر في شمالي لما تحولت عما قصدت اليه . فكان بالحقيقة من اولي العزم الصادق ونشر تعاليمه وأفكاره وله رسالة مطبوعة بالفرنساوية عنوانها « التساهل الديني » رد فيها على الذين يتهمون المسلمين بالتعصب، واستدل بكثير من الآيات القرآنية

والاحاديث النبوية مما دل على غزارة علمه . واما اللائحة التي مر ذكرها فهي رسالة باللغة التركية مشتملة على تحقيق وعلم وسياسة في اصلاح إدارة الدولة ولما تنشر . وكانت جريدته « مشورت » تصدر بالتركية والفرنساوية في كل أسبوع أو أسبوعين مرة ، ثم اقتصر على القسم الفرنساوي وهي صغيرة الحجم مضى على إنشائها أربع عشرة سنة ، ويتألف منها مجلدان أو أكثر ، وربما كان له غير ذلك من المؤلفات . فانه كثير الدرس والتحقيق ، يقضي الساعات الطويلة في المكتبة الاهلية ، وفي مكتبته الخاصة مؤلفات كثيرة في التاريخ والسياسة العثمانية والمسألة الشرقية

ولما وصل وفد جمعية الاتحاد والترقي الى باريس سنة ١٨٩٤ كان رضا بك ساكنا في شارع مونج في بيت صغير (Appartement) في الطبقة السادسة فقصد اليه الوفد وذاكروه في انضمامه اليهم، فتردد في بادئ الامر وقال اذا عزمت على شيء فانني لا أرجع عنه مطلقا . وكان أقدر الموجودين وأعرفهم بطرق الاصلاح ومواضع الخلل . لأن إصلاح مملكة عظيمة مشتملة على أمم مختلفة في الجنس والدين واللسان ، ووارثة للخلافة الاسلامية والدولة البيزنطية — ليس بالامر السهل ، ولا يشبه اصلاح مدرسة أوادارة تلاميذ وانما يحتاج الى علوم ومعارف شتى ونظر واختبار ونفاذ بصيرة ، وليس ذلك في مقدور من درس سنتين أو أكثر في مدرسة طبية لاتدرس فيها العلوم السياسية والحقوقية ولا العلوم الشرقية التي هي موضوع بحث العلماء المستشرقين . فقبل أحمد رضا بك الانضمام الى الجمعية وصار رئيساً لفرع باريس ، ونشر جريدة « مشورت » بالتركية والفرنساوية ناطقة بمقاصد الجمعية

معاكسة المابين للاحرار في اوربا

أمَّ باريس من ذلك الحين كثيرون من شبان العثمانيين وكهولهم حتى الشيوخ ذوي العمائم والفراء ، ونشروا الجرائد والرسائل والوريقات ، وادبوا مآدب وعقدوا اجتماعات سياسية . فانصرفت همم رجال المابين والسفارات العثمانية الى إبطال هذه النشرات واسترضاء اصحابها بالمال والرتب والنياشين والمناصب ، حتى قيل لبعضهم « اطلب تُعط » كما ينقل عن الخلفاء في حكايات الف ليلة وليلة . وكان العطاء حاتميا

بل اكثر ، كان سلطانيا شاهانيا !! وصار طلاب الوظائف أو المعزولون يقصدون باريس فيكون ذلك سببا لعودتهم الى وظائفهم . ودخل في حزب تركيا الفتاة الصبيان الذين لم يبلغوا الخامسة عشرة ، والتونسيون حتى الاجانب من الطليان واليونان ، وأصبحت سفارة باريس مرجعا للجميع كأنها أعظم دائرة من دوائر الباب العالي !! . واقدم الجرائد التي ابطلت جريدة المرصد العربية التي تعين صاحبها عضوا في شورى الدولة ، فحسده عزت باشا العابد حتى صرف قوة عقله وذكائه في سبيل الوصول الى ماوصل اليه . وظهرت عدة جرائد ورسائل ومحررين بالتركية والعربية والكردية والفرنساوية والالبانية وغيرها ، منهم أصحاب صدق وقناعة ، ومنهم ذوو طمع وشعوذة . ورجال الدولة يتقربون باسترضائهم واحضارهم كما كانوا في الازمان الماضية يتقربون بجلب أهل الظنة من الشيوخ وأصحاب الكرامات كالمرحومين الشيخ ابي السعود من القدس الذي استقدموه للسلطان محمود خان ، والشيخ السن من صيداء والشيخ العمري من طرابلس الشام ، وكذا المشايخ الذين كانوا في المابين وخاتمهم استاذنا الشيخ حسين الجسر مؤلف الرسالة الحميدية . فلو اطلعت على تراجم هؤلاء الشيوخ ومقدار معارفهم وكيفية طلبهم والاسترشاد بهم لعرفت ارتقاء الفكر التدريجي الذي حدث من عهد السلطان محمود ، ولرأيت للانقلاب الحاضر معنى في الرسالة الحميدية التي دلت على كثير من العلوم الطبيعية والعصرية

لم يقصد من نشرات تركيا الفتاة في أوربا الا ايصال الشكية من سوء الادارة الى مسامع الحضرة السلطانية ، وافهام الدول الاوربية الموقعة على معاهدة برلين بأن لحزبهم السياسي كيانا ووجودا وان غايتهم اعادة القانون الاساسي ، فكادت أوربا تعتد بوجودهم كما ظهر من انتصار الجرائد الباريسية لصاحب جريدة «مشورت» يوم محاكمته في باريس والحكم عليه بفرنك واحد مع تطبيق قانون يبرأنجه القاضي بالسماح عنه . وبينا كان المابين يقدم رجلا ويؤخر أخرى في اجابة حزب تركيا الفتاة الى مطالبهم الاصلاحية واعادة القانون الاساسي واذا بالمشكلة الكريدية ولدت الحرب بين الدولة العلية واليونان (نيسان — مارس ١٨٩٧) وتم النصر فيها للعساكر العثمانية فأخذته العزة ودام على سياسته الاستبدادية وقعدت همة الاكثرين

من حزب تركيا الفتاة خضعوا لاحكام الاستبداد جبرا وقهرا، وان كانوا غير راضين عنها ، وذاقوا عذابا شديدا بسبب غلاء أوربا وكثرة الانفاق فيها مع قلة ذات يدهم وفراغهم من نحو صناعة أو تجارة بأيديهم كما هي حال الارمن والبلغار ، الا ما كان من علمهم باللغة التركية أو العربية ومعاونة الاطباء في المستشفيات بأجرة قليلة والسهر في الليل على المرضى . والاغنياء من أهل البلاد وكبار الموظفين لم يساعدوهم بشيء ، الا بعض الامراء المصريين الذين نهجوا نهج مصطفى فاضل باشا مؤسس حزب تركيا الفتاة ، فانهم أمدوا بعضهم بالاموال وكانوا عونا لهم . اما الجمعيات الارمنية والمقدونية الانقلابية فان أصحابهم وأغنياء أمتهم أعانوهم بالمال وأيدوهم بكل مافي طوقهم ، وقد علمت مما تقدم ان ميزانية الجمعية الارمنية بلغت مليون فرنك فأين هذا من جمعية الاتحاد والترقي ؟ ألا ان سبب خذلان العثمانيين لجمعياتهم هو موت النعرة الوطنية في نفوسهم وفقد الحماسة القومية وكونهم لم يفقهوا معنى الاجتماع والتعاون .

غرور المابين واستفحال الاستبداد

اظهرت الحرب اليونانية العثمانية فتوة الامة العثمانية وحميتها وسلامتها من عوارض المرض أو الهرم كما يصفها أعداؤها ، وظهر فيها من شجاعة الضباط العثمانيين ومعارفهم ومحافظتهم على قواعد النظام الحربي ومقدرتهم على ضبط أفراد العساكر وكفهم عن النهب والعبث بالآداب وغير ذلك من الافعال الهمجية ما يخلد لهم هذه المآثر في بطون التواريخ ، وابرز الجيش العثماني من الشجاعة العظيمة والصبر والقناعة المعجب والمعجز، وامتاز بالسلامة من الابتلاء بالمسكرات كما هي عليه عساكر الروس وغيرهم من عساكر أوربا

زاد غرور المابين واستبداده بعد خروج الدولة من ميدان الحرب فائزة منصورة ، وانتقل مركز ادارة الحكومة من الباب العالي الى سراي يلديز، وأصبح مجلس الوكلاء لاعمل له ، والنظار لا وظيفة لهم الا تنفيذ ما يقرر في السراي . على ان الالتفات والاقبال والتقريب والنفوذ كان ينتقل من الباشكاتب الى الكاتب

الثاني الى كاتب الشفرة (١) الى (الشيخ) الى (العابد) الى (الملاحمة) الى غني آغا الى لطفي آغا الى فهيم باشا الجبار العاتي — أولئك الذين ألقوا الرعب في قلوب المسلمين والمسيحيين وغيرهم مما دل على استبداد متقلب مذبذب حيران ، حتى لم يعد لاحد ثقة بالحكومة ، وكاد الانقلاب يحدث في نفس السراي . وأكثر رجال السراي أميون ويندر في كتاب المابين من يعرف اللغة الفرنساوية بلهَ غيرها من لغات أوربا ، وهم في جهل مطبق بالسياسة . ولذلك كثر الخطأ السياسي وسوء الادارة واختلاس الاموال الاميرية وظلم الرعية بما لم يسبق له مثيل .

(لها بقية)

البلاد العربية والسكة الحجازية (*)

بلاد العرب أوشبه جزيرة العرب مساحتها مليون ومئة ألف ميل مربع ، وعدد سكانها على أقل تقدير سبعة ملايين وعلى أكثره عشرة ملايين ، وهي من أخصب البلاد أرضا وأجودها تربة وأعظمها خيرا اذا اعتني بهـا وتوفرت وسائل الامن والراحة والعمران فيها . واليمن أجود بلاد العرب بقاعا وأكثرها سكانا واعظمها ثروة وخصبا، ولهذا كانت تسمى قديما (العربية السعيدة) الا انها محاطة بصحارى رملية منخفضة شديدة الحر قليلة المياه ، يظن السامع بها ان اليمن كلها على هـذا النمط : صحارى ورمال مع ان هذه الصحارى لا تمتد الى الداخل من السواحل الشرقية والغربية أكثر من خمسين إلى ستين ميـلا يجتازها المسافر في ثلاثة أو أربعة أيام حيث يرى سلسلة جبال الثراة و بلاد شحر وحضرموت وجبـل صعدة وصنعاء

---

(١) المنار : الشفرة في اللغة التركية هي المخاطبة بالارقام بطريقة لا يعرفها الا المتخاطبان وهي مأخوذة من كلمة (جفر) العربية

(*) بقلم رفيق بك العظم المؤرخ المشهور

حيث الوديان الفسيحة المخصبة والسهول المكسوة بالخضرة والجبال ذات الينابيع الغزيرة والاشجار الباسقة

وسكان اليمن أهل نشاط وعمل متوفرون على الزرع والتجارة بقدر ما يتسع لهم المجال وتساعدهم الحال ومع هذا فان بلادهم مفتقرة الى إصلاح كثير وعناية من الحكومة كبيرة، لفقد الوسائل الحديثة في تعميم الري واستنبات أنواع الزرع وفقد الراحة والامن في أيام الحكومة الماضية التي كانت كلها أيام خصام ونزاع بين الحاكم والمحكوم له كادت تفضي الى خراب البلاد

ولو صرفت الحكومة الآن وجهتها الى اصلاح اليمن مع توفر أسباب العمران الطبيعية ثمة لكان لها منها مورد رزق عظيم يقدره بعضهم ببضعة عشر مليونا من الليرات، وأهم أصول الاصلاح التي يحتاجها رقي البلاد وعمرانها وإثراء الخزينة والاهلين هي :

(أولا) إن مياه الامطار الغزيرة التي تنهمر في اليمن تكوّن مجاري وسيولا لا تصل الى البحر بل تغور في الرمال، وأكثرها يتجمع في مخازن في باطن الارض على عمق أربعة أو ثلاثة أمتار، فاذا تتبعت مظانّ هذه المخازن وحفرت فيها الآبار ثم استكثر من عمل الحياض والخزانات الكبيرة في الجبال وسفوحها جعلت السقيا عامة في أكثر اطراف اليمن وتحولت تلك الصحارى القاحلة الى جنات ناضرة حافلة بالزرع والضرع، و يساعدها على ذلك ما منحتها إياه الطبيعة من قوة الانبات والخصب، وهي تصلح لكل أنواع النبات الذي ينبت في البلاد الحارة كالبن والقطن والنيلة وأنواع البهارات وغيرها، ويمكن ان تزدرع في السنة ثلاث مرات ويؤخذ منها ثلاث غلات، والبلاد الجبلية صالحة لاستنبات جميع أنواع النبات الذي ينبت في البلاد المعتدلة، ناهيك بقطر عظيم كاليمن اذا بلغ نظام الري والزرع فيه مبلغه في الهند ومصر فانه يكون بلا ريب من اغنى البلاد العثمانية وأوسعها مزدرعا ومصدراً لثروة الحكومة والاهلين اذا أضيف الى ذلك بقية الاصلاح المطلوب

(ثانيا) ان تقسم ولاية اليمن الى ثلاث ولايات احداها صنعاء والثانية عسير

والثالثة تعز، لكي يتسنى بهذا التقسيم ادارة شؤون اليمن ادارة منتظمة تشرف بها الحكومة على أمور الرعية والبلاد اشرافا حقيقيا يضم اليه اطراف البلاد المتنائية و ينشر راية العدل والراحة والامن على كل البلاد ، وهذا العمل مهما استلزم من النفقات التي ستقوم بها خزانة الدولة فانه يعوض على الحكومة تلك النفقات اضعافا مضاعفة في بضع سنين . ولقد أجمع على لزوم تقسيم اليمن الى أربع أو ثلاث ولايات كل العارفين بأحوال اليمن والذين اختبروا حالها من اخواننا الاتراك ، فلا مندوحة للحكومة عن هذا التقسيم اذا عزمت عزما ! كيداً على اصلاح البلاد اليمانية وهي عازمة على ذلك ان شاء الله

(ثالثا) إصلاح مرفأ الحديدة وجعله مرسى امينا للسفن ، ومد خط حديدي من الحديدة الى صنعاء ، ثم تعميم السكة الحديدية في البلاد بالتدريج بقدر مايمكن مالية الحكومة لان سهولة المواصلات ضروري لبلاد متباعدة الارجاء يراد اصلاحها وتكثير موارد الثروة الزراعية والتجارية فيها ، ولا سيما وان بلاد اليمن فيها كثير من المعادن والكنوز الارضية التي لا يتيسر استخراجها والعمل فيها الا بسهولة المواصلات ، ولقد عرفت اليمن قديما بغناها بمعدن الذهب و يظن بعضهم ان هذا المعدن النفيس فقد منها مع انه لم يزل موجودا بكثرة فيها ، ولقد رأيت بعيني رأسي قطعا منه ممتزجة اجزاء ذهبها برمل متحجر كان استحضرها صديق لي من بعض اطراف اليمن لاجل تحليلها وتقدير النسبة بين الرمل والذهب فيها ليسعى بعد ذلك بتأليف شركة لاستخراجه فعاجلته المنون واصبح مطويا في التراب

ومما لا ريب فيه ان السكة الحديدية الحجازية اذا امكن ايصالها الى القطر اليماني كانت من خير المشروعات النافعة لبلاد العرب عامة وللدولة خاصة ، فانها متى بلغت مكة ومد منها ناشط الى جدة سهل مدها الى الحديدة عن طريق القنفذة أو طريق آخر أقرب منها وهناك تتصل بخط الحديدة الذي يتصل بصنعاء ، و بذلك تكون الدولة قد وصلت بين أقصى بلادها في الجنوب واقصاها في الشمال والغرب إذ تصل بين خط الاستانة والحجاز بخط برجيك المنوي مده من حلب . وفي هذا العمل الجليل من الفوائد الاقتصادية والسياسية مالا ينكر قدره ومنفعته ولا سيما بعد

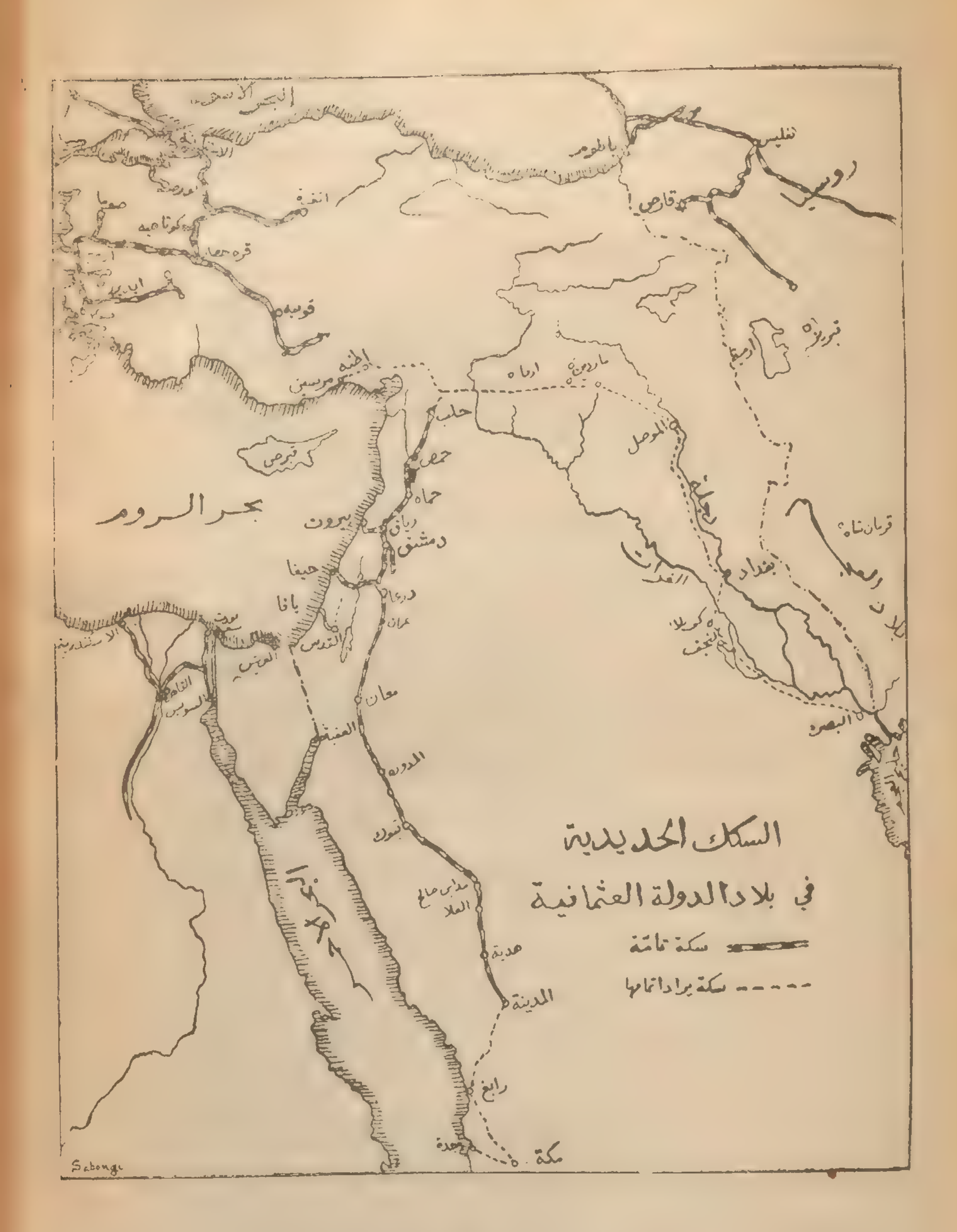
ان صار البحر الاحمر مزدحما لعدة دول اجنبية وكان من قبل بحيرة عثمانية

ويجدر بنا أن نطلب من رجال حكومتنا النظر فيما تقدم من الامور، وفي اصلاح شؤون بلاد العرب والتوفر على عمرانها . وقد يرون ان الدول الاجنبية تبذل مزيد الجهد في عمران مستعمراتها في أفريقيا على قلة سكانها وقلة الايدي التي تعمل فيها وضعف الامل في أن تكون تلك المستعمرات بكثرة سكانها وعمرانها والانتفاع من ثمراتها كمستعمراتها في آسيا وأمريكا وجزائر المحيط، فما أحرى الدولة العثمانية بأن تنافس الدول بقطر عظيم فسيح كثير السكان متوفرة فيه مصادر الثروة ووسائل العمران اذا أعطي كل العناية والالتفات ونال حظا من الاصلاح عظيما، ولاسيما في عصر الحكومة الدستورية التي نرجو أن تكون حكومة خير وسعادة على المملكة العثمانية جمعاء ان شاء الله

أما السكة الحديدية الحجازية التي نتمنى أن تكون خير واسطة لعمران شبه جزيرة العرب في مستقبل الايام اذا اتصلت باليمن فقد انتهي منها الآن قسم عظيم وبلغت المدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام . وقد افتتح هذا الخط باحتفال عظيم في شهر اغسطس الماضي ، والادوات التي تلزم لاتمام الخط الى مكة البالغ ثمنها نحو ثلاث مئة وخمسون الف ليرة كلها معدّة على ما نعلم، وطول الخط من دمشق الشام الى المدينة الف كيلومتر وثلاث مئة وكيلومتران يضاف اليه الخط من حيفا الى درعا وطوله مئة وواحد وستون كيلومترا، فيكون مجموع ما تم من الخط الى الآن الف كيلومتر وأربع مئة وثلاثة وستون كيلومترا بلغت نفقاته نحو ثلاثة ملايين ليرة عثمانيـة، وكانت نفقة الكيلومتر الواحد ما عدا آلات السكة نحو الف ليرة وثلاث مئة ليرة

وطول الخط من دمشق الى مكة ١٧٥١ كيلومترا وطوله الى جدة ١٨٣٠ كيلومترا

والخط يمر من الشام الى معان في سهول منبسطة وأراضي خصبة مبثوثة فيهـا القرى الآهلة بالسكان، الا ان حوران أكثر سكانا وعمرانا من معان وربما كانت أراضي معان أخصب من أراضي حوران



﴿ مستعارة من مجلة المقتطف الغراء ﴾

وأحسن البلاد التي يمر فيها الخط وأجودها هواء وأعلاها عن سطح البحر هي عمان فانها تعلو عن سطح البحر نحو ١٠٧٤ مترا وفيها من الآثار القديمة والخرائب العظيمة شيء كثير ومنها الملعب (Amphithéatre) الذي وجدوه في تلك الخرائب وخارطة سورية المرسومة على قطعة كبيرة من الحجر (بلاطة) وهي أعجب وأبدع ماروئي في اطلال عمان وخرائبها

وسكان معان وعمان أكثرهم من عرب البادية ويشتغل قليل منهم بالزراعة وفي معان بعض قرى لمهاجري القفقاس . ولو نشط العربان الذين في تلك الديار الى الاعمال في الارض ونشر الاصلاح جناحه على تلك الديار لكانت من أغنى البلاد السورية وأكثرها غلة وأجملها بقاعا . ولقد همّ كثير من الناس بابتياع الاراضي التي على جانبي الخط من الحكومة في معان وعمان لاحياء مواتها واستغلالها فأبت عليهم ذلك لصدور إرادة سلطانية تقضي بالمنع ، على أمل ان تضم تلك الاراضي الفسيحة الى الجفالك (المزارع) السلطانية أو يستأثر بها أفراد من المقربين ولم يكن شيء من ذلك الى الآن . فنرجو ان توفق الحكومة الحاضرة لإطلاق يد الناس في استعمار تلك البلاد بحيث لا تباع أرض إلا على شرط إصلاحها واستثمارها في برهة سنتين أو ثلاث سنين واذا مضت المدة ولم تصلح الارض وتستثمر ساغ للحكومة استردادها. وفي يقيننا ان كثيرا من أغنياء البلاد السورية يتقدمون الى إصلاح تلك الاراضي وإحيائها متى انتظمت أمور السكة الحديدية وانصرفت همة الحكومة الى عمران تلك الجهات ورفع راية الراحة والعدل والأمان على ربوعها

ومحطة عمان الآن هي من المحطات العظيمة في هذه الطريق وفيها معمل (ورشة) لاصلاح القواطر ومخازن للسكة الحديدية ، ويليها في العظم محطة تبوك والاراضي التي بعد عمان ومعان الى المدينة ليست خصبة بل هي صحارى وقفار الا العلا فانها قرية عامرة ذات ينابيع وأشجار وحدائق تزرع فيها أنواع البقول والفاكهة والنخيل وتجود في أرضها فواكه البلاد الحارة كالنخيل والموز والليمون ، وأهلها بارعون في فن الزراعة لان أكثرهم يذهبون الى دمشق ويزاولون فن

الزراعة عملا في غوطتها ولا سيما في قرية جوبر المشهور أهلها بالبراعة في فن الزراعة. ثم يعودون الى بلدهم لاجل الاعمال في الارض · ولقد كان بعد المسافة بينهم وبين الشام يمنعهم من التوسع في إنشاء الحدائق والاكثار من زرع أنواع الفواكه والبقول والاتجار بها واما الآن فالأمر ليس كذلك ، ولو اعتنى أهل هذه القرية بزرع النخيل والموز واستكثروا من الجيد منهما لانتفعوا بذلك كثيرا لان دمشق محرومة من هذين الصنفين من الفاكهة لان جوَّها لا يناسبهما في الشتاء لشدة البرد والصقيع

هذا ومن الضروري ان يمدَّ ناشط من هذه السكة الحديدية من معان الى العقبة وطول هذا الخط نحو ٩٠ كيلو مترا أو من المدور وهو أقصر مسافة من ذاك لان هذا الفرع يفيد الدولة من الوجهة العسكرية جدا ريثما يصل الخط الى اليمن

وكل من رأى خط السكة الحجازية لا يسعه الا شكر القائمين بالعمل فيه كمسير باشا ومختار بك و باقي المهندسين والعمال ولا سيما المشير كاظم باشا رئيس إنشاء الخط الذي بذل من الهمة في انجازه والعناية في شأنه مالا يستكثر على رجل عظيم مثله وأنا لنرجو بعد توليه منصب الولاية في الحجاز ان يساعد على اتمام هذا الخط ووصوله إلى مكة ثم اليمن بما في إمكانه ليكون شكر الامة له مضاعفا جزاه الله وكل العاملين لانجاز هذا الخط خير الجزاء

باب المراسلة والمناظرة

﴿ كلمات في النسخ والتواتر واخبار الاحاديث والسنة ﴾

رد على الاستاذ الفاضل الشيخ صالح اليافعي (*

(الكلمة السادسة) — في التواتر

أهم مايطعن به في وجوب التواتر فيما يعمل به في الدين مسألة إرسال النبي صلى الله عليه وسلم الآحاد للتعليم وللحكم بين المسلمين وللملوك . فاعلم أن خبر الواحد — كما قلنا — لا يوجب اليقين ولا يجب العمل به إلا إذا أيدته قرائن أخرى قطعية، فهؤلاء الآحاد الذين كان يبعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الجهات للتعليم ما كان يجب على الناس فيها ان يوقنوا بما يخبرونهم به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يجوز عليهم الخطأ والنسيان كما أنه يجوز عليهم الكذب أو الارتداد. وإنما هؤلاء الناس الذين كانوا في تلك الجهات تحققوا أن رسول الله أرسل إليهم هؤلاء الرسل وأوجب عليهم إطاعتهم والاخذ عنهم، وقبل أن يحققوا ذلك لا تجب عليهم طاعتهم ولا الاخذ عنهم فهم في طاعتهم لهم وأخذهم عنهم بعد تيقنهم من أنهم مرسلون إليهم من قبل النبي صلى الله عليه وسلم إياهم مطيعون لله ولرسوله ولأولي الامر، فاذا قالوا لهم ان الرسول قال كذا فاعملوا به وجب عليهم أخذ هذا القول عنهم كما أمرهم الرسول ووجب عليهم العمل به لا لانهم أيقنوا أن الرسول حقيقة قاله ولكن لانهم أمروا بطاعة أولياء أمورهم فلا يجوز مخالفتهم أو رفض كلامهم إلا اذا علموا بكذبهم وحينئذ يرفعون الامر إلى رسول الله فيحكم بعزلهم عن تولي أمورهم وتسقط عنهم طاعتهم فيما يروونه عن رسول الله . وعليه فهؤلاء القوم ما كانوا عاملين بالظن و إنما هم مطيعون لامر يسمعونه من أولياء أمورهم

*) تابع لما نشر في (ص٨٦٦ ج٩ م١١) من مقالة الدكتور محمد توفيق افندي صدقي

بآذانهم فيأخذون به و يعملون به كما أمروا وسواء في ذلك أيقنوا أن الرسول قاله أولم يقله فالعهدة فيه على رواته

فان قيل إن لم يكن هؤلاء عاملين بالظن فالرسول نفسه عامل بالظن و إلا فكيف يوفق بأن هؤلاء القوم لا يبلغون عنه إلا مايريدون؟ — قلت ان الرسول إن لم يعلم ذلك بطريق الوحي كما كان يخبره الوحي بحالات كثيرة مثل هذه عن اصحابه البعيدين عنه كما هو مشهور في سيرته فقد كان صلى الله عليه وسلم يعلم من هؤلاء المبعوثين الصدق والايمان وقوة العقل والعلم بالدين وقد اختبرهم بنفسه زمنا طويلا حتى علم اخلاقهم وأميالهم وأحوالهم وسبر غورهم فهو يكاد يجزم بصدقهم واخلاصهم كما يجزم أحدنا — وإن كان نظره أضعف من نظر الرسول — بصدق صاحبه واخلاصه بعد معاشرته له زمنا طويلا في أحوال مختلفة . وان بقي في النفس أدنى شك في ذلك أو تجويز للخطأ أو النسيان عليهم فهؤلاء المبعوثون ما كانوا يذهبون الى جهات منقطعة عن المسلمين بل كان بينهم و بين المسلمين صلة وثيقة وعلاقة كبيرة فكان يأتي منهم الكثيرون الى المسلمين مرات عديدة في السنة للزيارة والتعارف والحج والتجارة وغير ذلك و يذهب إليهم المسلمون لمثل هذه الاغراض فاذا حاد المبعوثون عن شيء مما تلقوه عن رسول الله أو أخطأوا فيه وصل ذلك الى علم رسول الله في أقرب وقت فيصحح هذا الخطأ أو يعزلهم او يعاقبهم . فبالوحي و بثقته الاكيدة بمن أرسله بعد التحقق منه زمنا طويلا و باخبار الذاهبين اليهم والآتين من عندهم يكون الرسول واقفا على مايبلغ عنه في تلك الجهات ومهيمنا عليه فان حصل خطأ أو كذب في شيء منه فالعاملون به مطيعون لاولياء أمورهم وليسوا عاملين بالظن ولا يلبث هذا الخطأ أو الكذب الا قليلا فيمنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أقرب وقت . وهذه الحالة ضرورية في مبدأ الدعوة حتى يعم الدين تلك الجهات و يكون فيها وفي غيرها مشهورا مستفيضا متواترا فلا يتطرق لشيء منه بعد ذلك ريب أو شك وهي تشبه حالة التلاميذ مع معلمي المدارس وتلقيهم العلم عنهم وعملهم به فان الامة رقيبة عليهم فان أخطأوا في شيء أو دسوا عليهم أمرا فسرعان مايصل الى علم الامة وأولياء أمورها فيتلافونه في أقرب وقت

أما أحاديث الآحاد عنه صلى الله عليه وسلم بعد وفاته فهي تختلف عن ذلك اختلافا كبيرا لان رواتها ليسوا أولياء أمر المؤمنين حتى تجب طاعتهم من هذه الوجهة ولم يثق بهم الرسول ولم يعرفهم ولم يعينهم لهذا الامر ولم يقم رقيبا عليهم لا بالوحي ولا بأخبار الناس عنهم فالفرق بين الحالتين عظيم

أما رسله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك فالغرض من ذلك إلفات نظرهم إليه وتنبيههم للبحث في دعوته وتشويقهم للنظر في أمره وحالته وإلا فلا يمكن الايمان لاجلها إلا بعد التثبت منها والتحقق من أمر الدعوة والداعي فهي كالتمهيد للدعوة الحقيقية بوصول الدين اليهم متواترا على أيدي الناس كما حصل بعد وفاته

والخلاصة أن القرآن الشريف يذم العمل بالظن كثيرا فلا يمكن ان الله سبحانه وتعالى يلزم عباده المؤمنين بالعمل بما لا يوجب عندهم اليقين وإلا كان أمرا لهم بما يذم به غيرهم ويلومهم على اتباعه

وحيث أن أحاديث الآحاد من حيث هي لا تفيد اليقين كما بيناه في الكلمة الرابعة فلذا اشترطنا التواتر فيما يجب علينا الاخذ به في الدين فدليلنا على ذلك مبني على حكم العقل وما جاء به الكتاب العزيز

(الكلمة السابعة) — معنى السنة وبيان وجوب العمل بها

السنة في اللغة وفي اصطلاح السلف هي الخطة والطريقة المتبعة فسنته صلى الله عليه وسلم هي طريقته التي جرى عليها في أعماله واقتدى به أصحابه فيها وهي واجبة الاتباع حتما على كل من آمن به وصدقه صلى الله عليه وسلم وهذا هو المراد بما جاء في الحث عن اتباع السنة في أقوال الصحابة والسلف رضوان الله عليهم جميعا كما لا يخفى على متأمل في أقوالهم ومن ذلك حديث «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي» أي عليكم بطريقتي وطريقة خلفائي الراشدين من بعدي فلا نزاع في أن اتباع طريقة النبي صلى الله عليه وسلم في الدين هي واجبة على جميع أتباعه المؤمنين أما أقواله صلى الله عليه وسلم التي لم تكن طريقة متبعة له ولا لاصحابه فهي موضوع بحثنا وهي المقصودة في مقالاتنا الاخيرة تلك التي رواها الآحاد وانفردوا بها ولو كانت واجبة الاتباع لعلمها الناس جميعا في عصره عليه السلام وجروا عليها في أعمالهم

وهذا هو أدل دليل على أنها لم تكن دينا عاما لجميع البشر بل هي خاصة لمن وجهت اليهم لاحوال خاصة وظروف مخصوصة أو انها كانت للارشاد والندب لاللوجوب ولذلك لم يكن اتباعها عاما بينهم . فهناك فرق عظيم بين لفظ (السنة) ولفظ (الاحاديث) ويجب على كل باحث في هذا الموضوع أن يدرك هذا الفرق جيدا حتي لايقع في الخلط والخبط . وقد أدرك الامام مالك هذا الفرق فكان — رضي الله عنه — يقدم عمل اهل المدينة على الاحاديث ويرد منها ما خالف سنتهم التي ورثوها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو صحت أسانيدها وقد رد من ذلك مئات كثيرة

أما تسمية الاحاديث مطلقا بالسنة فهي من اصطلاح المتأخرين ولولا هذا الاصطلاح لما احتجنا في مقالاتنا الى تقييد لفظ السنة بقولنا (العملية) فان السنة لا تكون الا عملية وأما القول الذي يقال ولا يكون مبدأ يجري عليه العمل دائما فلا يسمى سنة عند المتقدمين

فاتباع سنة أي شخص هي الجري على منهجه والتزام طريقته ومبادئه وأصوله وليس معنى ذلك أن يتقيد المتبع بكل جزئية من جزئيات كلام المتبوع ، مثلا قد أكون متبعا لسنة الاستاذ الامام رضي الله عنه في تفسير القرآن الحكيم ومع ذلك أرى في بعض الآيات خلاف ما يرى ولا يخرجني ذلك عن كوني متبعا سنته فان سنته هي في ترك التقليد واستعمال العقل وعدم القول بالنسخ وتحري الحق والصواب لا في التزام كل قول من أقواله التزاما أعمى فكذلك ترك بعض أقواله صلى الله عليه وسلم في الامور الدنيوية المحضة وما حكم فيه بالرأي والاجتهاد وما خالف المصلحة في زمننا لا يخرج المسلم عن كونه متبعا سنته صلى الله عليه وسلم فان سنته هي في اتباع الحق والصواب وتجنب الضار ومراعاة المصالح كما دل عليه الكتاب العزيز وترادفت فيه الاخبار المتعددة المصادر المختلفة المبنى المتحدة المغزى وكما جرى عليه عمل كبار المسلمين وعقلاؤهم في كل زمان ومكان . فسنته صلى الله عليه وسلم هي في اتباع مبادئه الشريفة والجري على خطته ومنهجه و إطاعته فيما أوحي به إليه أو ما وافق الصواب والمصلحة من آرائه واجتهاداته وليست سنته في الجمود والتقليد

والبعد عن العقل والتفكير كما عليه أكثر المسلمين اليوم ولذلك كان أصحابه يخالفونه في كثير من المسائل في حياته وكان عليه السلام يرجع عن رأيه لآرائهم ولذلك أمر بمشاورتهم وما قال أحد بأن من خالفه منهم خرج عن سنته فان سنته هي الشورى والتفكير ورعاية مصالح العباد وتحري العدل والانصاف وعدم الاستبداد بالرأي . وقد خالف أصحابه رضوان الله عليهم في حياته و بعد مماته بعض أقواله و بعض ما حكم به مراعاة للمصلحة ولولا خوف الاطالة لذكرت شيئا من ذلك كثيرا وقد وفيت هذا البحث في رسالة لي طويلة وفقنا الله لطبعها عن قريب

وسنته صلى الله عليه وسلم في الامور تعلم من نصوص الكتاب العزيز ومما تواتر بين المسلمين عنه قولا وعملا ومن مجموع ما روي عنه من المصادر المختلفة في المسائل المتعددة . فسنته معلومة للمسلمين باليقين وواجب اتباعها على جميع المؤمنين . وهذا هو المراد بما جاء في الكتاب الكريم من الامر باتباعه والاقتداء به والجري على منهجه والاهتداء بهديه صلى الله عليه وسلم وهو أيضا المراد مما ورد عن أصحابه وعن سلف المسلمين من القول بوجوب اتباع السنة النبوية

وأما أخبار الآحاد التي لم يجر عليها العمل بلا انقطاع بين المسلمين فهي موضوع النزاع في كل عصر وجيل كما يتضح لك من الكلمة الآتية :

(الكلمة الثامنة) — آراء أئمة المسلمين في أخبار الآحاد وما قالوه فيها وكيفية معاملة الصحابة لها

(١) قال الامام أحمد بن حنبل ما معناه : إن الأحاديث الواردة في تفسير عبارات القرآن الشريف لا أصل لها . كما نقله عنه الحافظ السيوطي في الاتقان

(٢) وقال الامام الشافعي « إن نسخ القرآن بالحديث لا يجوز »

(٣) وقالت الظاهرية : إن تخصيص عموم القرآن بها غير جائز وأن العمل بها غير واجب

(٤) وقال جمهور الاصوليين « إنها ظنية »

(٥) وقال جمهور المسلمين « إنه لا يجوز الاخذ بها في العقائد »

(٦) وقال كثير من الأئمة كالقاضي عياض « إنه لا يجب الاخذ بها في المسائل الدنيوية المحضة ولو كانت موثوقا بها »

(٧) وقال جميع المحدثين « إن الموضوع منها كثير وتمييزه عسير وفي بعض الاحوال مستحيل » راجع ما ذكرناه في الكلمة الرابعة

(٨) وقال أبو حنيفة وأضرابه من أهل الرأي والقياس « ان الصحيح منها قليل جدا » حتى أنه لم يأخذ إلا ببضعة عشر حديثا

(٩) وقال مالك رضي الله عنه « إن عمل أهل المدينة مقدم عليها » وكذلك أهل الرأي والقياس يقدمون القياس الجلي عليها

(١٠) أجمع جمهور المسلمين على عدم تكفير من أنكر أي حديث منها

(١١) إن تناقضها كثير ومعرفة ناسخها من منسوخها عسير أو مستحيل وكذلك ا كثر اسباب قولها

(١٢) قام الدليل الحسي على ان الله لم يتكفل بحفظها من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان

(١٣) لم يجمعها الصحابة ولم يتفقوا عليها

(١٤) لم يبلغوها إلى الامم بالتواتر مع علمهم بأن اتباع الظن غير جائز في الاسلام إلا لضرورة

(١٥) انهم نهوا عن كتابتها وأمروا باحراق ما كتبوه منها كما في الروايات التي صحت عندكم

(١٦) قد نهى بعضهم عن التحديث وكرهه وكذلك علماء التابعين

(١٧) كان أفاضلهم أقل الناس حديثا ويصدفون عنه ولو كان واجبا لما كان هذا حالهم

(١٨) من كان من الصحابة كثير الحديث ملوا منه ونهوه وزجروه كما فعل عمر بأبي هريرة وشكوا فيه وقالوا إنه يضع الشيء في غير موضعه ونسبوه للجنون كما في كتبكم

(١٩) إن أئمة المسلمين لم يتفقوا على الصحيح منها وما منهم من أحد إلا خالف في مذهبه كثيرا منها

(٢٠) لم يعتن المسلمون بحفظها في صدورهم كما اعتنوا بحفظ القرآن الشريف فاذا كان هذا حال الاحاديث وما قاله المسلمون فيها وما عملوه بها فأي فائدة منها ترجون ؟ وأي ثقة بها تثقون ؟ وأي شيء خالفت فيه الاجماع أو ابتدعته حتى أرمى بالكفر أو المروق ؟ مع أن هذه المطاعن وأمثالها كثير لم يخل منها عصر من عصور المسلمين ولم تصدر إلا منهم . فيجب علينا أن نقدر أخبار الآحاد قدرها ولا يعمينا الجهل والتعصب عن حقيقة أمرها

أما قول حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ اليافعي في الجواب عن بعض هذه المطاعن إن الصحابة اختلفوا في جمع القرآن وكتابته فهو لا يرد شبهة ولا يدحض حجة . فان القرآن الشريف من عهد رسول الله الى اليوم قد حفظ حفظا جيدا في الصدور لم يسبق له مثيل ولم يعرف عند أمة أخرى في كتبها . وكتب في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبأمر منه عليه السلام وباملائه على ما عرفوه إذ ذاك من أنواع القرطاس (كل ما يكتب عليه) ولم يختلف أحد منهم في وجوب كتابته ولم يمت عليه السلام الا بعد أن كانت جميع سوره مرتبة الآيات محفوظة في صدور الجماهير مكتوبة في سطورهم المحفوظة عندهم وانما كان اختلافهم بعد وفاته عليه السلام في كيفية جمعه على طريقة لم يكونوا يعرفونها من قبل وما كانوا عهدوها وهي كتابته على صحف من الكاغد (كالورق الآن) مع ضم هذه الصحف بعضها الى بعض بالطريقة المعروفة اليوم فى عمل الكتب فان الكاغد وعمل ما نسميه الآن كتبا ما كان معروفا لهم فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم وانما هو رقي فى الصناعة التابع لرقيهم في المدنية بعد وفاته عليه السلام ولو كانوا علموه من قبل لعملوا المصاحف في زمنه ولما اختلف في ذلك منهم اثنان (راجع مقالة تاريخ المصاحف المنشورة سابقا في المنار) . ولما لم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعليم الناس شيئا من الصناعات وغيرها من أمورهم الدنيوية التي يمكنهم أن يصلوا اليها بعقولهم وتدرجهم فى سلم المدنية واقتباسهم أشياء من الامم الاخرى الراقية فلذا لم يوح اليه عليه الصلاة والسلام بتعليمهم صناعة ما نسميه الآن ورقا وكتبا كما أنه لم يوح اليه بتعليمهم أي

صناعة أخرى بل تركوا وشأنهم حتى يصلوا الى ذلك بمرور الزمان

والخلاصة أن القرآن محفوظ في الصدور مكتوب في السطور من عهد الرسول وبأمره لم يختلف فى ذلك أحد وإنما الاختلاف كان في مجاراة الترقي في الصناعة . وقد ترقت صناعة عمل المصاحف شيئا فشيئا كما ترقى كل شيء آخر حتى وصلت الى ما وصلت اليه في عصرنا الحالي

وأما كتابة الاحاديث فقد كتبت فيها مرات وأفاض القول فيها بعلمه الواسع استاذ المنار فلا حاجة للتكرار

(الكلمة التاسعة)— أسباب استشهادي بأحاديث الآحاد فى مقالاتي —

إعلم بأن من الحجج مايسمى (بالاقناعي) وذلك ان تحتج على الخصم بما هو مسلم عنده كأن تحتج على النصراني ببعض مافي الأنجيل الحالي وان كنت غير معتقدله . فأنا أورد الاحاديث غالبا لا لاثبت معتقدي لنفسي بل لاقنع من لا يقنع الا بها ولست أعول في براهيني القطعية إلا على مايفيد اليقين فما اذ كره من الاحاديث إما لاقناع المسلمين و إلزامهم بها اوالتكثير من الادلة بضم ضعيفها الى قويها ليقوى بها مع استعمال مبدأ الاستنتاج والنقد فيها . وقد اتبعت في ذلك خطة علماء التاريخ العصريين فانهم يؤيدون آراءهم في التاريخ القديم ببعض مايعثرون عليه من الروايات ولو كانت من الاساطير و يستنبطون منها مالا يستنبطه الجهلاء من الحقائق بعد ان يستنيروا في دياجير ظلماتها بمصابيح من نور العقل والعلم فانه قد جرت عادة الناس بتضمين حكاياتهم شيئا من حقائق التاريخ فيأتي أهل النظر والبحث فيعرفونها و يلتقطونها من وسط الخرافات و يتثبتون من صحة ماالتقطوه بالاقيسة المنطقية والقضايا العقلية فاذا أراد بعضهم ان يعرف مثلا أصل الحجر الاسود عندنا عمد الى رواياتنا فيه وحكها بمحك النقد والعقل فاذا سمع رواية « ان الله استودع الحجر أبا قبيس حين اغرق الله الارض زمن نوح عليه السلام وقال له اذا رأيت خليلي يبني بيتي فأخرجه له فلما انتهى ابراهيم لمحل الحجر نادي ابوقبيس ابراهيم فجاء فحفر عنه فجعله في البيت » استنتج منها بعد ان يزيل قشورها واوهامها حقيقة هذا الحجر وهو ان اصله قطعة اخذها ابراهيم عليه السلام من احجار جبل ابي قبيس السوداء القريبة من الكعبة ووضعها في احد

اركان الكعبة علامة على الركن الذي يبتدأ منه بالطواف ليعرف الطائف كم مرة طاف بالبيت وليبتدئ الناس بالطواف من نقطة واحدة حفظا للنظام وتسهيلا للطائفين (١) وكذلك يأخذ علماء التاريخ كثيرا من حقائق تاريخ اليونان مثلا مما يجدونه عندهم من الاشعار والحكايات القديمة كالياذة (هو مير) فاذا كان هذا مايفعله العلماء في الاساطير فهل يستنكر مني أن استشهد لقوم بأحاديثهم الصحيحة المسلمة عندهم وهي التي يعولون عليها في مذاهبهم ؟ وماذا يكون قولهم إذا لم أؤيد مقالي بشيء من ذلك ؟ أما كانوا يقولون إنها محض رأي له غير مؤيد بشيء من النقول ولو كان صحيحا ما خلت أحاديثنا منه فانها تكاد لا تغادر شيئا (إني والله لفي حيرة من أمرهم ! !) على ان كثيرا مما أذكره في مقالاتي مروي عن كثير من الصحابة بالاسانيد المسماة عندهم صحيحة والروايات فيه مترادفة تكاد توجب اليقين والقول بأنها جميعا موضوعة لايكفي عند الباحثين في نشوء الروايات لارواء غلتهم وإشباع نهمتهم في العلم فلا بد إذاً من البحث والتنقيب . ولو رفض المسلمون الآن ما ألزمهم به من الآحاديث بعد تدوينهم لها في كتبهم واعتبارهم لها صحيحة أفما

---

(١) حاشية للكاتب — تقبيل الحجر الاسود هو كتقبيل آثار رجال التاريخ العظام احتراما لهم واجلالا لشأنهم وحبا فيهم كمن يقبل سيف نابليون أودواة شكسبير وقلمه ان وجدت ولكل أمة آثار موروثة عن رجالهم العظام ويقبلونها وهذا الحجر هو من آثار إبراهيم في بنائه الكعبة ومحفوظ بالتواتر في الامة العربية فلذا قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قبل غيره من أركان الكعبة واتبعه المسلمون في ذلك إلى اليوم وإن لم يقل أحد منهم بوجوب ذلك ولم يذكر هذا الحجر في القرآن الشريف . ومن اعتقد أن شيئا من هذه الآثار يضر أو ينفع فقد خرج عن عقله وكفر بالله ورسله . ومن العجيب أن الافرنج يسمون تقبيلنا لهذا الحجر عبادة — مع أن التقبيل لا يسميه أحد في الدنيا عبادة — ولا يسمون سجودهم لصورهم وصلبانهم وقديسيهم وقديساتهم والخبز في قربانهم — لا يسمون ذلك عبادة لهذه الاشياء مع أنه شتان ما بين السجود والتقبيل فانظر وتعجب ! ! !

يكونون متعسفين ؟ وكيف إذا يكون التميز عندهم بين الصحيح والضعيف والموضوع ؟ فاللهم اجعل العقل رائدنا . وأنر بصائرنا . واجعل كتابك هادينا ومرشدنا . ونبيك إمامنا وقدوتنا ولا تخزنا يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم

المامة

﴿ بكتاب تاريخ العرب قبل الاسلام ﴾ (*)

لحضرة جرجي افندي زيدان

ذكرنا في مقالنا الآنف الامر الأول من الامور التي تؤخذ على المؤلف وهو « تردده أو انكاره بعض الحقائق التاريخية البديهية في موضع . وتشبثه بتحقيق بعض الظنون والتخرصات في موضع آخر اعتماداً على أوهام وتخيلات قامت بذهنه فقط » ومثلنا للشق الاول من هذا الامر وأدحضناه بما عرفه القراء . والآن نمثل للثاني ونأتي على بقية الامور التي تؤخذ على المؤلف فنقول :

مثال الثاني — انه عند ما تكلم على دولة النبط في بطرا نقل عن التوراة وعن كاترمير الفرنسي وعن كوسين دي برسفال وعن آخرين ما يفيد أن الانباط ليسوا عربا وانهم آراميون اتوامن الشرق فأجلوا الادوميين عن بطرا واحتلوها ثم رفض كل هذه النصوص والآراء وغيرها من النصوص التي لم يذكرها مما جاء في السفر الاول من اسفار المكابيين وفي تاريخ يوسفيوس من غير ان يذكر برهانا واحدا على نقضها واستنبط هو بنفسه انهم عرب وذكر لذلك دليلين : الاول ان اليونان حيثما ذكروهم سموهم عربا (ولعله يعني تقسيمهم جزيرة العرب إلى عرب بترية في الشمال وسعيدة في الجنوب) والثاني ان أسماء ملوكهم عربية . وهما دليلان

*) تابع لما نشر في ص ٦٨١ م ١١ من مقالة الشيخ أحمد الاسكندري

يتضاءلان امام النصوص التاريخية ولا سيما اذا كان ثمة مايجعل هذين الدليلين ينعكسان على غير مراد المؤلف فيكونان حجة عليه لا له . ونحن ننفي أولا هذين الدليلين ثم نأتي بأدلتنا الوجودية على آرامية النبط أما الدليل الاول فان تسمية اليونان لسكان الشمال العربي من جزيرة العرب بالعرب التربة هي تسمية جغرافية كما اننا نسمي ما وراء اسوان بالسودان مع ان أكثرهم عرب لا زنوج وكما نسمي الصحراء الشرقية من مصر الصحراء العربية مع ان سكانها من البشارية والبجاة لا يعرفون العربية. على ان جميع ما عرف من حروب القائد اليوناني انتيفونوس وابنه ديمتريوس أنه وجد حولهم قبائل يظاهرونهم ويستجيبون لصراخهم ويؤيد ذلك ما نقله حضرة العلامة المفضال جبر ضومط عن يوسفيوس (جزء ثالث . مجلد ٣٣ مقتطف) على ان سفر المكابيين من التوراة سماهم نبطا وجعل العرب احلافا لهم حينما استعان بهم يهوذا المكابي وهو كان معاصرا لهم أيضا

وأما الدليل الثاني — فان ماعثر عليه من اسماء الملوك العربية لا يثبت ان الشعب عربي فقد ثبت ان النبط في آخر أمرهم خضعوا للعرب وخصوصا قضاعة وان الملوك الذين عاصروا منهم ملوك اليونان هم عرب حكموا أمة النبط كما يستفاد من تاريخ يوسفيوس . وكما اننا لا نسمي الامم الهندية انجليزا لان امبراطور الهند انجليزي كذلك لا نسمي النبط عربا لان ملوكها في بعض الاحيان كانوا عربا على ان هذه الاسماء لم تكن خالية من التحريف والصبغة الآرامية والعبرية مع اننا عثرنا على كثير منها مكتوب بالخط النبطي نفسه لا اليوناني الذي هو مظنة التحريف واما كون لغة الكتابة عند النبط غير لغة التخاطب فهو مما لم يقم عليه دليل وما كان أحوج المؤلف الى ذكره لو وجده

أما أدلتنا على ان النبط ليسوا عربا وانهم خليط من الادوميين القدماء ومن الآراميين الذين جاءوا مع بختنصر ومن اليهود ومن العرب فهي :

(١) ماهو مشاع مستفيض عن العرب قبل الاسلام وبعده ان النبط غير العرب وانهم كانوا يعيرون العربي بأنه نبطي واعتبر كثير من الفقهاء ان نداء

العربي يا نبطي قذف وسب ناهيك بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لاتكونوا كنبط السواد إذا سئل عن نسبه قال أنا من بلد كذا

(٢) إن لغتهم لغة خاصة بهم تخالف العربية وتنال حظا من الآرامية وحظا من العبرية وحظا من العربية . بل فيها كثير من اليونانية

(٣) إن جميع النصوص التاريخية من التوراة في إشارة أرميا وحزقيال وفي أسفار المكابيين مايفيد ان النبط غير العرب وان الإله انتقم من الادوميين وضربهم بغارة بختنصر فدمر عليهم وأورث الارض من بعدهم الكلدانيين الذين جاءوا معه من بابل وان النبط كانوا في بعض أدوارهم احلافاً ليهوذا المكابي وانهم استأجروا جيوشا من العرب يظاهرونهم وهذا يدل على ان المستأجر غير الاجير

(٤) ما جاء في تاريخ يوسفيوس من ان النبط بقوا مستقلين عن العرب الى أيام الاسكندر مانيوس بن ارستو بولوس بن يوحنا هركانوس بن سمعان أخي يوناتان ويهوذا المكابي اليهودي فانه بعد وفاة هذا الملك اخضعهم العرب وقام منهم عليهم عدة ملوك كانوا يسمون تارة ملوك النبط وتارة ملوك العرب وان كانت الجنسية متميزة بينهما و بقوا كذلك الى ان استولى عليهم الرومان سنة ١٠٥ م

(٥) حقق كل من كاترمير الفرنسي وكوسين دي برسفال وغيرهما من علماء الآثار ان سكان بطرا بعد الادوميين هم أمم نازحة من العراق و بابل ولا ينطبق ذلك إلا على زمن بختنصر اذ سكان بطرا قبل بختنصر لم يعرفوا إلا باسم الادوميين و بعده لم يعرفوا إلا باسم النبط مع انه من الثابت ان بختنصر أباد الادوميين تحقيقا لوعيد حزقيال وأرميا النبيين من ان الله ينزل عليهم بلاءه ويجعل جبال عيصو خرابا وميراثا لذئاب البرية وانه حارب العرب حتى كاد يفنيهم فلو كان النبط عربا لما استبقاهم فيها فظهر من ذلك أن الانباط بقايا القبائل الآرامية التي أسكنها بختنصر في بطرا ليكونوا حراسا ونقلة لتجارة بابل لان فتوحاته كانت كلها تجارية ثم امتزجوا بغيرهم من اليهود والعرب وما يرى في لغاتهم من الالفاظ العربية لايربو على ما يوجد في العربية المضرية من الالفاظ العبرية

على ان المؤلف لما أحس بضعف دليله عن تبريره تلك الجلبة التي هاجها في

اكثر من خمس صفحات من كتابه مع تيقنه ان المكتوب من آثارهم ليس عربيا زعم بلا دليل ان لغة تخاطبهم غير لغة كتابهم ثم رجع وقال:

«على اننا لا نظن اللغة العربية التي كان يتفاهم بها النبطيون هي نفس اللغة العربية التي عرفناها في صدر الاسلام ولا بد من فرق بينهما اقتضاه ناموس الارتقاء» هذا مع علمنا ان النبط دخلوا في حوزة الرومان في أوائل القرن الثاني بعد الميلاد واننا نروي كثيرا من شعر العرب وامثالهم منذ القرن الرابع من الميلاد مما يظهر لنا تمام الاظهار ان هذه اللغة العربية الفصيحة باعرابها واشتقاقها وكثرة اساليبها التي لا تتناهى قد تكونت بهذه الصورة قبل ذلك بكثير أي وقت ما كان النبط نبطا بل قبل هذا الوقت ولاسيما اذا علمنا ان اللغة العربية هي لغة أهل بادية وهم أبعد الناس عن الانقلابات اللغوية كما يصرح بذلك حضرة المؤلف في أكثر من موضع من كتابه

(٦) ان النبط الذين كانوا في الشرق في صحراء الكوفة وعلى ضفاف الفرات و بقوا متميزين عن العرب الى ما بعد الاسلام بنحو مئة وخمسين سنة هم يشبهون نبط الشام من أكثر الوجوه بدليل أن ماوجد من آثارهم ومعبوداتهم وخطوطهم يدل على انهم من عنصر واحد واطلال تدمر والخط التدمري صنو النبطي تشهد بذلك فان كان نبط الشام خالطوا قضاعة فنبط العراق خالطوا لخما وجذاما او بكرا وتغلب وعبادا

ومن أمثلة الشق الثاني وهو تشبثه بتحقيق بعض الظنون الخ انه عندما تكلم على دول اليمن ذكر من بينها دولة زعم ان العرب لم تعرفها وهي أهل (معين) وقفى على أثر ذلك بأن استظهر انها أمة قديمة جدا تبتديء أخبارها منذ أربعين قرنا قبل الميلاد لعثورهم على أثر قديم من آثار بابل ذكر فيه بالخط المسماري «ان زام سين حمل على مغان وقهر ملكها معنيوم» واستنتج ان مغان هذه هي مغان طورسينا وأن الميم في «معنيوم» للتنوين و بالطبع يعتقد ان اللفظ حرف واختزل حتى صار (معينا) وكذلك نقل عن سفر الاخبار «أن الله أعان عزريا على الفلسطينيين وعلى العرب المقيمين بجوار بعل وعلى المعونيين» أي المجاورين طبعا للفلسطينيين وكل هذه الحوادث حدثت في برية الشام والامة يمانية

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية اذا ماستقلت وسهيل اذا استقل يماني

ولو كان الشبه بين لفظين يكفي ان يبنى عليه تاريخ أمتين لقدحق لنا ان تقول على التاريخ العفاء

ثم اقتضب الكلام ورأى رأيا أخيرا انهم من جالية الآراميين أتوا من العراق في هذه العصور السحيقة واستعمروا اليمن ثم اشكل عليه الامر بأن المعينين لوكانوا من العراق لكتبوا بالخط المسماري مع ان آثارهم مكتوبة بالخط المسند المشتق من الفينيقي فلم يرحلا لهذا المشكل سوى ادعائه بانهم استبدلوا بالخط المسماري الخط الفينيقي لسهولة هذا الاخير في نظره !!! ولكن كل هذه العراقة في القدم لم تمنعه من وصفهم في موضع آخر انهم كانوا معاصرين للسبئيين الذين لم تبتديء دولتهم على رأيه الا في القرن الثامن قبل الميلاد ونقل عن اليونان في صفحة (١١٦) ان هذه الامم وغيرها كانت متعاصرة وان عاصمتهم (مأرب) ثم يتشبث في موضع آخر بأن القحطانيين السبئيين كانوا بعد المعينين أو انهم ورثتهم أو انهم حبشان أوانهم عمالقة جاءوا من مصر هذا الى اضطرابات وتناقضات توقع طالب التاريخ في حيرة وارتباك يهون عليه معهما نبذ كل هذه التخرصات والاعتقاد بأن كل هذه الامم كانت قبائل متجاورة في مخاليف متقاربة أعظمها مأرب

الامر الثاني من الامور التي تؤخذ على المؤلف — تناقض عبارات كتابه في عدة مواضع

منها ادعاؤه ان اسماء ملوك حمير لم يكن بينها اسماء عدنانية حتى قال في صفحة (١٦٦) لم نجد لذلك أثرا في الآثار المنقوشة ثم نقل في صفحة (١٥٩) اثرا عظيما لابرهة الحبشي وفيه يسمي ولاته من حمير واقيالهم يزيد وكبشة ومرة وثمامة وحنشا ومرثد كما تقدم

ومنها تناقضه في ان الجبائيين لم يعرفهم العرب بل عرفهم اليونان وحدهم ثم ذكر في صفحة (١٣٤) ان الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب قال «جبأ مدينة المفاخر وهي لآل الكرندي من بين ثمامة آل حمير الاصغر» مع ان اليونان لم يذكروهم بأكثر من انها قبيلة تجارية

ومنها تناقضه في استظهار أن السبئيين حبشان ثم ذكر في صفحة (١٣٦) ان المعينيين القادمين من العراق نقلوا معهم حضارة العراق ونظام حكومته وقسموا اليمن الى محافد وقصور وطمعوا في جيرانهم واخضعوهم وانشئوا الدولة المعينية والسبئية والحميرية

ومنها تناقضه في ان المعينيين لم تعرفهم العرب مع انه نقل في صفحة (١١١) عن الهمداني في كتاب الا كليل ان « محافد اليمن براقش ومعين وهما بأسفل جوف الرحب مقتبلتان فمعين بين مدينة نشان و بين درب شراقة » وروى ان مالك بن حريم الدلاني يقول فيها

ونحمى الجوف مادامت معين … بأسفله مقابلة عرادا

وفيها وفي براقش يقول فروة بين مسيك

أحل يحابر جدي عطيفا … معين الملك من بين البنينا

وملكنا براقش دون أعلى … وانعم اخوتي و بني ابينا

ومنها تناقضه في أن العرب لم يعرفوا دولة النبط في الشام ثم ذكر في عدة حوادث انهم عرفوها خصوصا في صفحة (٧٩) حيث نقل عن ابن خلدون وحمزة الأصفهاني معرفتها لنبط الشام وان بطرا كانت تسمى بعد الاسلام الرقيم ولهم فيها شعر هذا الى مناقضات كثيرة لا تسع سردها ولا تفصيلها هذه العجالة

الامر الثالث من الامور التي تؤخذ على المؤلف جسارته على وضع الاسماء والتقسيمات التاريخية مع ضعف الاستظهار كتقسيماته أدوار تاريخ العرب وكتسميته الامة التي سماها استرابون اليوناني جرهيين بالقريبين نسبة الى قرية وهي إسم اليمامة قديما وهم الذين قال فيهم استرابون « انهم أغنى أهل الارض ويكثرون من آنية الذهب والفضة ويزينون جدران منازلهم بالعاج والذهب والفضة والاحجار الكريمة » فمتى كان أهل اليمامة أغنى أهل الارض ومتى كان لهم جدران تزين بالذهب والفضة والاحجار الكريمة!!؟ أليس كلام استرابون أشبه بالخرافات التي تقال عن مدينة شداد بن عاد (إرم ذات العماد) التي يبكت حضرة جرجي افندي زيدان جهلة مؤرخينا على ذكرهم

لها! ولكنه لا يكت استرابون بل لم يكتف بقوله حتى حرف لفظه (جرها) بلفظ (قرية) وجعل اهلها دولة لم تعرفها العرب وفتح بابا لها خاصا في كتابه ورسمها على المصور الجغرافي !!

الامر الرابع من الامور التي تؤخذ على المؤلف ارتياب القارئ في تهجينه أخبار العرب في حوادث الفخر والغلبة كفتوحات شمر يرعش وأسعد ذي كرب في آسيا وأفريقس في أفريقيا وحسان بن تبع . وتصديقه خرافات استرابون وهيرىدوت مع انهما لم يدخلا بلاد العرب ولم يرياها . واقرأ ما نقله عن استرابون في صفحة (١٣٨) تتحقق صدق ماتقول وهذا نصه :

« وذكر استرابون ضربا من الاشتراكية عند أولئك العرب غريبا في بابه فبعد ان أورد اشتراك كل عائلة بالاموال والمتاع بين أفرادها وان رئيسها أكبر رجالها سنا قال : والزواج مشترك عندهم يتزوج الاخوة امرأة واحدة فمن دخل منهم اليها أولا ترك عصاه بالباب والليل خاص بأكبرهم وهو شيخهم وقد يأتون أمهاتهم ومن تزوج من غير عائلته عوقب بالموت . كان لاحد ملوك العرب ابنة بارعة في الجمال لها ١٥ أخا كل واحد منهم يهواها حتى ملتهم واحتالت على منعهم بعصي اصطنعتها تشبه عصيهم وكان لكل منهم عصا عليها علامته . فكانت إذا خرج أحدهم من عندها حمل عصاه ومضى فتضع هي مكانها العصا التي اصطنعتها على مثالها فيتوهم سائر الاخوة أنه لا يزال عندها وقد يجيء أحد يتفقد الباب ولما يرى العصا بجانبه يرجع فتبدل العصا الاولى بعصا مثل عصاه وهكذا . فاتفق مرة ان الاخوة كانوا جميعا في ساحة ورأى أحدهم بباب أخته عصا وليس من إخوته أحد غائبا فظن فيها السوء فشكاها إلى أبيها ولما اطلع على عذرها برأها . هذه حكاية استرابون ولم نذكرها إلا لغرابتها ولا نعلم مقدار ما فيها من الصحة » اه

يذكر هذه الحكاية هنا بالتفصيل و يعتذر بهذا العذر مع انه عند ما يقتضي المقام شيئا صحيحا تاريخيا عن العرب يدمجه ويجمل فيه ويحيل القارئ على الكتب الاخرى !!

الامر الخامس سوء التعبير من الوجهة الدينية في عبارات الكتاب كقوله في صفحة (١٠) أقدم المصادر العربية المدونة عن تاريخ العرب وأقربها إلى الصحة القرآن (؟)

الامر السادس من الامور التي تؤخذ على المؤلف انه أغفل مدة حكم الفرس على اليمن بعد ذي يزن فلم يذكر أحدا من عمالهم مع ان عمال كسرى استمروا يحكمون اليمن الى الاسلام فكان آخرهم باذان الذي كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم ثم صارت اليمن الى الاسلام

الامر السابع من الامور التي تؤخذ على المؤلف كثرة شكه وتردده وتناقضه في اكثر الحوادث حتى انه لا يرى المطلع على كتابه خبرا مبرهنا على صحته بدليل مقنع ويظهر ذلك ظهورا بينا في آرائه الخاصة واجتهاداته التاريخية

الامر الثامن من الامور التي تؤخذ على المؤلف تخريجه الاعلام تخريجا جاغرافيا، قال ان اسم امرئ القيس يظنه محرفا عن مرقس ! ! وان اسم الحارث ربما كان ترجمة جيورجيوس واسم صخر ترجمة بطرس ! ! الخ ما ذكر من التخريج

الامر التاسع اختصاره التاريخ جدا وهو أحد العيوب التي عابها على مؤرخي العرب فلم يسلم هو منها والكمال لله وحده

آثار علمية ادبية

ترجمة الخنساء (*

هي السيدة تُماضِر الصحابية الشهيرة الجليلة بنت عمرو بن الحرث بن الشريد من سراة سُليم ، كانت رضي الله عنها من شواعر العرب المشهود لهن بالتقدم ، وإنما لقبت الخنساء تشبيها لها بالظبية لان الخنس من صفات الظباء وهو تأخر

---

*) خلاصة درس ألقاه على طلاب مدرسة القضاء الشرعي الشيخ محمد المهدي الاستاذ المشهور المدرس بمدرسة القضاء

الانف عن الوجه مع ارتفاع في الارنبة ، ويقال لها خناس على سبيل التمليح ، وقد كانت من أجمل نساء العرب وأفصحهن ، نشأت عزيزة حرة لاتفتات عشيرتها عليها بأمر

مر بها دريد بن الصِمة فارس هوَازن وسيد بني جُشَم وهي تهنأ بعيرا لها فانخلع لبه على كبر سنه وانصرف الى رحله وهو يقول :

حَيوا تُماضِرَ واربعوا صحبي وقفوا فان وقوفكم حسبي
أخناس قد هام الفؤاد بكم وأصابه تبل من الحب
ما إن رأيت ولا سمعت به كاليوم طالي أينق جرب
متبذلا تبدو محاسنه يضع الِهناء مواضع النقب (١)
متحسرا نضخ الهناء به نضخ العبير بريطة العصب(٢)
فسليهم عني خناس إذا غض الجميع هناك ما خطبي

ثم غدا إلى أبيها فخطبها اليه فردته أحسن رد ثم طلب إلى أخيها معاوية ان يشفع له عندها فأبت بعد امتحانه وقالت : أأترك أولاد عمي كعوالي الرماح وأتزوج شيخا من بني جشم هامة (٣) اليوم أوالغد !! فألح عليها فقالت القصيدة التي مطلعها

أتكرهني هبلت على دريد وقد أصفحت سيد آل بدر
معاذ الله يرضعني حِبركي قصير الشبر من جشَم بن بكر(٤)

فهجاها دريد فقيل لها الا تجيبينه ؟ فقالت والله لا أجمع عليه أن أرده واهجوه ومن هنا تعلم مقدار أدبها وحريتها وعزتها عند قومها

وقد كانت في أوائل أمرها تقول البيتين والثلاثة فلما قتل شقيقها معاوية يوم حورة الاول سنة ٦١٢م وقتل أخوها لابيها صخر يوم كلاب سنة ٦١٥م في خبر ين طويلين ، اكثرت من الشعر واجادت وأنسيت بهما من كان قبلهما وا كثرت المرائي ، وأجود مرائيها ماخلط فيه مدح بتفجيع فانه يكاد يكون الغاية من كلام المخلوقين ، كقولها في معاوية :

(١) الهناء : القطران ، والنقب : القطع المتفرقة من الجرب في جلد البعير

(٢) النضخ كسفح : الرش . والعبير اخلاط من الطيب والريطة هي الملاءة أو الثوب اللين الرقيق ، والعصب : ضرب من البرود (٣) الهامة طائر صغير يألف القبور (٤) الحبركي : القصير الرجلين الطويل الظهر . والشبر : الخير والعطاء

سأحمل نفسي على حالة　فإما عليها واما لها
تهين النفوس وهون النفو　س يوم الكريهة أبقى لها
فان تك مرة أودت به　فقد كان يكثر تقتالها
فيوما تراه على هيكل　أخا الحرب يلبس سربالها
ويوما تراه على لذة　وعيش رضي فقد نالها
فخر الشوامخ من فقده　وزلزلت الارض زلزالها

وكقولها في صخر

الا ياصخر ان أبكيت عيني　فقد أضحكتني زمنا طويلا
دفعت بك الخطوب وأنت حي　فمن ذا يدفع الخطب الجليلا
اذا قبح البكاء على قتيل　رأيت بكاءك الحسن الجميلا

وقولها فيه

أعينيَّ جودا ولا تجمدا　ألا تبكيان لصخر ندى
ألا تبكيان الجريء الجميل　ألا تبكيان الفتى السيدا
طويل النجاد رفيع العما　د ساد عشيرته امردا
اذا القوم مدوا بأيديهم　الى المجد مد اليهم يدا
فنال الذي فوق أيديهم　من المجد ثم مضى مصعدا
يحمله القوم ما عالهم　وان كان أصغرهم مولدا
وان ذكر المجد الفيته　تأزر بالمجد ثم ارتدى

وقولها :

يا أم عمرو ألا تبكين معولة　على أخيك وقد أعلى به الناعي
فابكي ولا تسأمي نوحا(١) مسلبة　على أخيك رفيع الهم والباع
فقد فجعت بميمون نقيبته　جم المخارج ضرار ونفاع
فمس لنا ان رزئناه وفارقنا　بسيد من وراء القوم دفاع
قد كان سيدنا الداعي عشيرته　لا تبعدن فنعم السيد الداعي

(١) النوح جمع نائحة على غير قياس

وزائيتها المشهورة التي تقول فيها

كأن لم يكونوا حمى يتقى … اذ الناس اذ ذاك من عز بزا
هم منعوا جارهم والنسا … ء يحفز أحشاءها الموت حفزا
ببيض الصفاح وسمر الرماح … فبالبيض ضرباً وبالسمر وخزا
وخيل تكدس بالدارعين … وتحت العجاجة يجمزن جمزا
جززنا نواصي فرسانها … وكانوا يظنون ان لن تجزا
فمن ظن ممن يلاقي الحروب … بأن لن يصاب فقد ظن عجزا
نعف ونعرف حق القرى … ونتخذ الحمد مجداً وكنزا
ونلبس في الحرب نسج الحديد … ونلبس في الامن خزا وقزا

ورائيتها السائرة مسير الامثال

اغر ابلج تأتم الهداة به … كأنه علم في رأسه نار
جلد جميل المحيا كامل ورع … وللحروب غداة الروع مسعار
حمال الوية هباط أودية … شهاد اندية للجيش جرار
لايمنع القوم ان سالوه خلعته … ولا يجاوزه بالليل مرار

وقد فاخرتها سلمى الكنانية وكذلك هند بنت عتبة في عكاظ ففخرتهما في حديث مشهور

رتبة الخنساء بين الشعراء

اجمع علماء الشعر على أنه لم تكن امرأة قط قبل الخنساء ولا بعدها اشعر منها ولقد كان النابغة الذبياني تضرب له قبة حمراء فيجلس لشعراء العرب بعكاظ على كرسي فينشدونه «فيفضل من يرى تفضيله «فأنشدته الخنساء فأعجب بشعرها وقال لولا أن أبا بصير انشدني آنفا لفضلتك على شعراء الموسم . فاغتاظ حسان بن ثابت (رض) من تفضيل الاعشى على شعراء الموسم وقال للنابغة انا أشعر منك ومن أبيك « فقال له النابغة يا ابن أخي أنت لا تحسن ان تقول

فانك كالليل الذي هو مدركي … وان خلت ان المنتأى عنك واسع

ثم قال للخنساء انشديه فانشدته فقال مارأيت امرأة أشعر منك قالت ولا فحلا،

فقال حسان أنا والله أشعر منك ومن أبيك حيث اقول

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى　　وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرّق　　فاكرم بنا خالا واكرم بنا ابنما

فقالت الخنساء ضعفت افتخارك وانزرته في ثمانية مواضع، قال وكيف!! قالت قلت لنا الجفنات والجفنات ما دون العشر فقللت العدد ، ولو قلت الجفان لكان اكثر، وقلت الغر والغرة البياض في الجبهة، ولو قلت البيض لكان اكثر، وقلت يلمعن واللمع شيء يأتي بعد الشيء ، ولو قلت يشرقن لكان اكثر لان الاشراق اكثر من اللمعان ، وقلت بالضحى ولو قلت بالدجى لكان اكثر في المديح، لان الضيف بالليل اكثر طروقا ، وقلت اسيافنا والاسياف دون العشرة ، ولو قلت سيوفنا لكان اكثر، وقلت يقطرن فدللت على قلة القتل ولو قلت يسلن لكان اكثر لانصباب الدم ، وقلت دَما والدماء اكثر من الدم ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك!! فسكت حسان ولم يحر جوابا وقام منكسرا منقطعا ، وقد سئل جرير من اشعر الناس ؟ فقال انا لولا الخنساء ، قيل بم فضلتك ؟ قال بقولها

ان الزمان وما يفنى له عجب　　ابقى لنا ذنبا واستؤصل الراس

ان الجديدين في طول اختلافهما　　لا يفسدان ولكن يفسد الناس

وكان بشار يقول : لم تقل امرأة شعرا الا ظهر الضعف فيه فقيل له او كذلك الخنساء ؟ قال تلك غلبت الفحول

الخنساء في صدر الاسلام

اتفقت كلمة الرواة على ان السيدة تماضر الخنساء رضي الله عنها كانت صحابية ، قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هي وقومها بنو سليم واسلمت معهم ، بيد انها لم تدع ما كانت عليه في الجاهلية من تسلبها (١) على ابيها واخويها ، وقد بلغ من وجدها على صخر انها عميت من البكاء ، فلما كانت خلافة عمر رضي الله عنه اقبل بها بنو عمها عليه وقالوا يا أمير المؤمنين لو نهيتها ، فدخل عليها فوجدها على ما وصفت من تقريح مآقيها ، فقال لها ما اقرح مآقي عينيك ياخنساء ؟ فقالت بكائي على السادات

(١) تسلبت المرأة لبست السلاب وهو الحداد والتسلب هو الإحداد على الميت

من مضر، فقال حتى متى ؟ اتق الله ان الذي تصنعين ليس من صنع الاسلام ، وانه لو خلد احد لخلد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان الذين تبكين هلكوا في الجاهلية وهم اعضاء اللهب وحشو جهنم ، فقالت ذلك أطول بعويلي عليهم ، ثم استنشدها فأنشدته ارتجالا :

سقى جدثا اكناف غمرة (١) دونه   من الغيث ديمات الربيع ووابله
وكنت اعير الدمع قبلك من بكي   فأنت على من مات بعدك شاغله

فرق لها عمر وقال خلوا سبيل عجوزكم فكل امرئ يبكي شجوه

وقد رآها مرة تطوف بالبيت محلوقة تبكي وتلطم خدها وقد علقت نعل صخر في خمارها فوعظها وقال انه لا يحل لك لطم وجهك ، ولا كشف رأسك ، فكفت عن ذلك وقالت

هريقي من دموعك واستفيقي   وصبرا ان اطقت ولن تطيقي
بعاقبة فان الصبر خير   من النعلين والرأس الحليق

ولما لامتها السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وقالت لها ان الاسلام قد هدم كل الذي تصنعين انشأت تقول :

الا يا صخر لا انساك حتى   أفارق مهجتي ويشق رمسي
يذكرني طلوع الشمس صخرا   واذكره بكل مغيب شمس
فلولا كثرة الباكين حولي   على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أخي ولكن   أسلي النفس عنه بالتأسي
فقد ودعت يوم فراق صخر   ابي حسان لذاتي وأنسي

فقالت عائشة ما دعاك الى هذا الا صنائع منه جميلة ، فقالت نعم ان لشعاري سببا ، وذلك ان زوجي كان رجلا متلافا للاموال ، يقامر بالقداح ، فاتلف فيها ماله حتى بقينا على غير شيء ، فأراد أن يسافر فقلت له أقم وأنا آتي أخي صخرا ، فأتيته وشكوت اليه حالنا وقلة ذات اليد بنا فشاطرني ماله ، فانطلق زوجي فقامر به فقمر حتى لم يبق لنا شيء ، فعدت اليه في العام المقبل أشكو اليه حالنا فعاد لي بمثل ذلك

(١) غمرة مكان والاكناف النواحي

فأتلفه زوجي ، فلما كان في الثالثة خلت بصخر امرأته فعذلتـه ، ثم قالت ان زوجها مقامر وهذا ما لا يقوم له شيء ، فان كان لا بد من صلتها فأعطها أخس مالك فانما هو متلف ، والخيار فيه والشرار سيان ، فانشأ يقول :

والله لا أمنعها خيـارها   وهي حَصان قد كفتني عارها
ولو هلكت قددت خمـارها   واتخذت من شعر صِدارها(١)

ثم شطر ماله فأعطاني أفضل شطريه ، فلما هلك تخذت هذا الصـدار ، والله لا أخلف ظنه ولا أكذب قوله ما حييت . وقد مكثت أكثر من أربعين سـنة وهي أحزن نساء العرب على فقيد ، غير أن الاسلام اجتث جاهليتها ووجهها الى رضوان الله وابتغاء مثوبته ، يشهد لذلك ما كان من خطبتها في بنيها الاربعة يوم القادسية سنة ١٦ هـ وذلك انه لما ضرب البعث على المسلمين لفتح فارس سارت مع بنيها الاربعة وحضرت الوقعة وأوصت أولادها من أول النهار فقالت : يا بني انكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين ، والله الذي لا إله إلا هو انكم لبنو رجل واحد كما انكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم ، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الـكافرين ، واعلموا ان الدار الباقية خير من الدار الفانية ، يقول الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا) الآية فاذا أصبحتم غدا ان شاء الله سالمين فاغدوا الى قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين ، فاذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها ، واضطرمت لظى سياقها ، وجللت ناراً على أرواقها ، فتيمموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها ، عند احتدام خميسها ، تظفروا بالمغنم والكرامة ، في دار الخلود والمقامة . فقاتلوا حتى قتلوا رضي الله عنهم ورحمهم أجمعين فبلغها الخبر فقالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته . ولما بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك أجرى عليها أرزاق

(١) الصدار ثوب بلا كمين غير مشقوق تلبسه نساء العرب في الحزن ويصح أن يطلق على ما يسميه المصريون الصديري والشاميون الصدرية

أولادها الاربعة وكان لكل واحد مائتا درهم حتى قبض رضي الله عنه ، وكانت وفاة الخنساء زمن معاوية بالبادية سنه ٥٠ هجرية ٦٧٠ ميلادية

باب الأخبار والآراء

حادثة صاحب المجلة بطرابلس الشام

(أقوال الصحف فيها)

لم تكن الرسائل البريدية والبرقية التي وردت على منشئ هذه المجلة وهو في سياحته معلنة الاسف العظيم لوقوع حادثة الاعتداء بطرابلس — بأكثر مما ورد على إدارة المجلة من سائر أنحاء القطر المصري ومن الشرق والغرب وسوريا أيضا والاستانة وكلها تبدي الاستياء الشديد والتعريض والتنديد وتهنئ صاحب هذه المجلة بسلامته مما كِيد له وتعدّ نجاته عناية من الله بالعلم والاسلام واننا كما بدأنا الشكر للكاتبين الأولين نعيد الثناء عليهم وعلى الآخرين

وقد تناولت هذا الموضوع جرائد سوريا ومصر الكبرى باهتمام زائد وإلى القراء ما كتبته بهذا الشأن :

شاع أمس في الثغر انه بوصول الاستاذ السيد محمد رشيد رضا منشئ المنار الأغر إلى طرابلس تصدى له بعضهم وضرب به بعصا فجرحه في رأسه ثم ابتدره باطلاق الرصاص فاخطأه فكان لهذا الخبر رنة أسف لدى الجميع ، وانا نبشر الكل بان الاستاذ في سلامة وعافية والحمد لله وهذا نص تلغراف تلقيناه في هذا الصباح من طرابلس بتفصيل الحادثة :

« وصل الاستاذ الرشيد مساء الجمعة فكان له استقبال حافل وعدد المستقبلين يربو على الخمسمائة شخص ، أرسلت شعبة جمعية الاتحاد والترقي العثماني عربة

خصوصية لركوبه والموسيقى الوطنية فوصل البلدة بكل احتفاء تحفه الاهل والاحباب إلى ان اقترب الجميع من سوق العطارين فتصدى كامل المقدم الذي كان ضرب صالح وأدهم رضا سابقاً ووقف امام الاستاذ وابتدره بضربة على رأسه بعصا فلم تصبه تماما فأراد أن يضرب به ثانية فتلقاها الشيخ محمد الرافعي بيده وتمسك بالعصا حتى أخذها من كامل فما كان منه إلاّ ان أشهر مسدسين واخطر كلّ من يقترب منه بالموت العاجل فاقترب منه رجل لم تؤثر به تلك التهديدات وأراد ردعه فاطلق عليه عيارا ناريا فلم يصبه و بعد ذلك فرّ

وقد كان الاستاذ أدخل إحدى الدور القريبة فأخذ بعد ذلك لدار الشيخ محمد الرافعي ولم يزل هناك

لم يهتم كما يجب من بيدهم أمر الضبط، الكدر عمومي من جراء ذلك، الاستاذ لم يبد عليه أثر كدر بل تحمل ذلك بصبر كما هي عادته . لم يبق أحد من الوجوه إلا وقد هرع للسلام عليه . أمور الحكومة ليست هي على ما يرام وقد استعفى أكثر أفراد الضبطية، التفصيل بالبوسطة »

فنهنئ صديقنا الاستاذ بسلامته ونطلب من الحكومة بكل إلحاح التحري على المعتدي ومجازاته أشد المجازاة تنكيلا له وارهابا لغيره (الاتحاد العثماني)

***

كتب إلينا من طرابلس أن حضرة العلامة السيد رشيد افندي رضا صاحب مجلة المنار وافى الفيحاء مساء الجمعة الماضي على انه قبل وصوله إلى الدار المعدة لنزوله هجم عليه أحد الاهالي وضربه بعصا على رأسه رغما عن شدة ازدحام الناس الملاقين حوله . ثم اطلق عياره الناري في الهواء وأخذ يطوف في الاسواق كأنه لم يأت شيئا مذكورا

نقول وهذه الحادثة السيئة غريبة في بابها ولا نظن الذي أقدم على هذا العمل الفظيع إلا مغرى مدفوعا بيد أعلى فعسى أولياء الامور ان يبحثوا ليقفوا على الحقيقة لكي يقطعوا تلك اليد أو يقيدوها على الاقل (لسان الحال)

***

صرف حضرة العلاّمة السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الاسلامية ١٢ سنة في القطر المصري بعيدا عن أهله ووطنه وأصاب أهله وذويه ما أصابهم من اضطهاد المعتدين كما يذكر اكثر قراء هذه الجريدة التي وقفت وقتئذ في وجه الظالمين وقفة طويلة. ولما أعلن الدستور سافر السيد رشيد الى طرابلس فمر ببيروت حيث قوبل مقابلة شائقة جديرة به و بعد الاقامة في بيروت اياما سافر الى طرابلس فوصل مساء الجمعة ٢٩ الماضي . فنزل لمقابلته على ظهر الباخرة جمهور من مشايخ طرابلس واعضاء جمعياتها وجمهور من أهالي القلمون .وكان في انتظاره على الرصيف خلق كثير ومعهم الموسيقى فاستقبلوه بكل اجلال وأعدت له في الترام عربة خاصة ركب معه خواص المحبين وهكذا سار موكب المقابلة بين عزف الموسيقى واطلاق البارود الى منزل فضيلة مضيفه الاستاذ الشيخ محمد الرافعي حيث توافد العلماء والوجهاء للسلام عليه . وحدث في في اثناء الطريق ان شقيا من أشقياء طرابلس المشهورين هجم على السيد رشيد بعصا وضربه بها فأصابت شطر رأسه ولم تؤلمه

فهجم الجمهور على ذلك الشقي كامل المقدم فأخذ باطلاق النار على الجمهور وفر هاربا وكان هذا العمل مدعاة للمغامرة بالسيد رشيد ووردت عليه تلغرافات التهنئة من والي بيروت وجمعية الاتحاد والترقي والوجهاء والاعيان والعلماء . وزاره القومندان واعرب عن اسفه وظهر ان الشقي مدفوع بأيدي اناس من الحساد ثم زار القومندان والضباط واعضاء نادي جمعية الاتحاد والترقي السيد رشيدا وطلبوا منه ان يحضر الاجتماع الذي عقد في النادي ففعل وألقى خطابا جميلاً كان له احسن وقع

وقد اهتم والي بيرت بالاعتداء على السيد رشيد اهتماما عظيما فأرسل وكيلا لمتصرفية طرابلس وأمره بالقبض على الجاني فنحن اذا شكرنا أعيان طرابلس للحفاوة بعالم منهم هو فخر بلدهم بلا نزاع ولا جدال فانا نأسف لوجود انذال في تلك المدينة يحرضون السفاحين على ارتكاب مثل هذه الجنايات وأملنا ان يعاقب والي بيروت ذلك الشقي والذي أغروه عقابا صارما شديدا يكون عبرة لسواهم (الاهرام)

***

اعتداء ذميم — ورد كتاب من طرابلس ينبيء بأن أحد الاشقياء المدعو كامل

المقدم هجم على حضرة العالم الفاضل السيد رشيد رضا صاحب المنار بينما كان جمهور عظيم يحتفل بقدومه وضر به بعصا على رأسه ولكن فضيلة الشيخ محمد كامل الرافعي تلقى العصا قبل ان تصيب السيد رشيداً بسوء . فكان للحادث وقع كبير وازداد على أثره ميل الجمهور الى السيد رشيد وكتبت لجنة الاتحاد والترقي في بيروت الى لجنة سلانيك تستشيرها في إعلان الاحكام العرفية في طرابلس بعد حادثة السجن وهذا الحادث الموجب للاسف . أما الجاني فالهمة مبذولة للقبض عليه وعلى من يظهر التحقيق اشترا كهم معه ولقد طلب والي بيروت قوة عسكرية من دمشق لاستخدامها عند الضرورة في توطيد الامن (الجريدة)

* * *

اتانا من غير مكاتبنا في طرابلس الشام ان حضرة العالم الفاضل السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار وصل اليها يوم الجمعة الماضي فاستقبله جمهور كبير من العلماء والاعيان ورجال جمعية الاتحاد والترقي على ظهر الباخرة ووقفت الناس على المرفإ لرؤيته واعدت له الجمعية عربة خصوصية ركب فيها والموسيقى تصدح امامه حتى قرب من دار الشيخ محمد كامل الرافعي ففجأه هناك شقي اسمه كامل بن عبد الرحمن المقدم بضربة عصا على رأسه ولكنها لم تكد تصيبه حتى تلقاها عنه العلامة الرافعي ونزعها من يد ذلك الشقي . فشهر هذا مسدسين وجعل يطلقهما على الجماهير التي حاولت صده ثم فر هاربا ولم يصب أحد بسوء والحمد لله . وظل حضرة الاستاذ مع ذلك ساكنا رابط الجأش كما ينتظر من امثاله من ذوي النفوس الكبيرة . وقد وردت الرسائل من انحاء سورية بتهنئته واستنكار فعلة ذلك الشقي . وقد طير البرق خبر ماجرى الى دولة والي بيرت وجمعية الاتحاد والترقي فيها فأرسل دولة الوالي وكيلا لمتصرفية طرابلس وطلب قوة عسكرية من دمشق بعدما ظهر احتياج طرابلس الى زيادة عساكرها وأوصى دولته بالقبض على الجاني الذي يقال انه فعل مافعل باغراء واحد من اقاربه . ولا يزال العلماء والوجهاء وكبار رجال الحكومة يؤمون منزل الشيخ الرافعي لتهنئة ضيفه الكريم بالقدوم والسلامة (المقطم)

* * *

كان حضرة الفاضل الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار في مصر قد

سافر في الاسبوع الفائت إلى بيروت ومنها إلى وطنه طرابلس الشام بعد أن حالت الاحوال الماضية دون ذهابه إلى وطنه زمنا طويلا. وقرأنا اليوم في جريدتي الاتحاد العثماني والاحوال ما خلاصته ان حضرة الشيخ رشيد رضا وصل إلى طرابلس مساء الجمعة في ٢٥ الماضي فاحتفل باستقباله حتى إذا اقترب من سوق العطارين تصدى له كامل المقدم (وفي رواية الاحوال انه عبد القادر مؤذن) وابتدره بضربة على رأسه وضربة ثانية فتلقاها الشيخ محمد الرافعي ونزع العصا من يده فما كان من الرجل الا أن أشهر مسدسين ثم أطلق عيارا ناريا فلم يصب أحدا وأركن إلى الفرار وقد كان الاستاذ أدخل إحدى الدور القريبة فأخذ بعد ذلك إلى دار الشيخ محمد الرافعي ولم يزل هناك وقد اتفقت الاحوال والاتحاد العثماني على تواني من بيدهم أمر الضبط في هذه الحادثة . والمؤيد يأسف لهذا الحادث و يستنكر هذا الاعتداء ويرجو أن يكون ناشئا عن تهوس فرد واحد فقط وأن يتمتع حضرة صاحب المنار بكل هناء وسرور في زيارته لوطنه (المؤيد)

الدولة العلية و بلغاريا والنمسا

ما أكثر العبر في أعمال البشر وما أقل المعتبرين ! إن الخطيئة التي يأتيها الفرد في بيئة عسى لا يشعر بها أحد أو الذنب الذي يصدر من بدوي في العراء لا يحس به سوى خليطه أو رهطه قد يصدر من أمة برمتها ، وتأتيه حكومة بعد تقريره في دار ندوتها ! ! وان ما يمر على الذاكرة من اشباه هذا ونظائره كثير جدا ولكن قل من يتدبر و يعي ، ذلك ان أعمال الافراد لا يلاحظها إلا علماء الاخلاق والاجتماع وهم أطباء النفوس والامم ، ولكن أعمال شعب بأسره مما لا سبيل إلى كتمانه واخفائه، بل هو مما يصل إلى كل حس و يقع تحت كل نظر

يقول الفلاسفة الاجتماعيون ان اقرار مجموع عاقل على الخطأ مستحيل ولكن هذا القول لا يصح على إطلاقه إلا اذا كان النهب والاختلاس في عرف الفلاسفة

أمرا حلالا طيبا ، والحق الذي لامراء فيه ان الانسان مهما استكنه أحوال البشر فانه لا يحيط علما إلا بجزء يسير من كلٍّ كبير ، وعليه فلا تثريب على من قال وهو يظن نفسه مصيبا ، بل على من فعل وهو يوقن انه مخطئ ،

أعلنت النمسا في السابع من اكتوبر الماضي انها ألحقت مقاطعتي بوسنه وهرسك بمملكتها وانهما صارتا بهذا الالحاق جزءا منها ! ! فقلب هذا الحادث كيان السياسة الأوربية وحول انظار الدولة الدستورية الجديدة إلى مايراد بها فصرفها عن القيام بالاصلاح الداخلي ، وكانت بلغاريا سبقتها فأعلنت استقلالها قبيل ذلك بيومين ، فكان هذا وما سبقه صادفا بالدولة العلية عن الاهتمام بما تقتضيه أحوال البلاد الداخلية بَله الخارجية

توقع الناس من وراء هذا الانقلاب المفاجىء في عالم السياسة حربا ضروسا تشتعل جذوتها في (ترنوفو) ثم تمتد الى سائر أنحاء شبه جزيرة البلقان ، وتنبأ فريق بأن ذلك قد يحمل بعض دول أوربا الكبرى على خوض غمراتها ، فيكنَّ اذ ذاك من جناتها وكماتها ، وفي ذلك من الويلات والمصائب مافيه . على ان هذا الفكر والذهاب اليه ليس من باب الحدس والتخمين ، ولولا حلم الدولة الدستورية الجديدة وأناة الامارة النزقة لحمَّ الامر وجف القلم ، ولكننا الآن نكتب بدل هذه الكلمات اخبار الفلج والخذلان

عظم على العثمانيين صنع بلغاريا والنمسا واستغرب صدوره آخرون ، على أنه لامحل للغرابة فان بلغاريا تتحفز لهذا الامر منذ أمد بعيد ، و إنما دعاها الى التسرع ماتتوقعه من سيدتها (الدولة العلية) إذا هي استجمعت قواها ومضي عليها نصف عقد من الاعوام وهي دستورية حرة ، فانها اذ ذاك تخشى أن تعبث بحقوقها وتستهين بسيادتها فأسرعت الى اعلان استقلالها وهي تكاد لاتتوقع من وراء ذلك الا احتجاجا يتلوه سكوت ورضى ، لانها مستيقنة بأن رجال الدولة العقلاء لايرون من الصواب الدخول في حرب اقل مايخشي فيها من الخسار ان تنقلب الحال الى ما كانت عليه — لاقدر الله — وفي ذلك البلاء الجم والمصاب العمم

إن استقلال بلغاريا يتألم له العثماني الصادق ولكنه ليس مما يؤبه له في الحقيقة

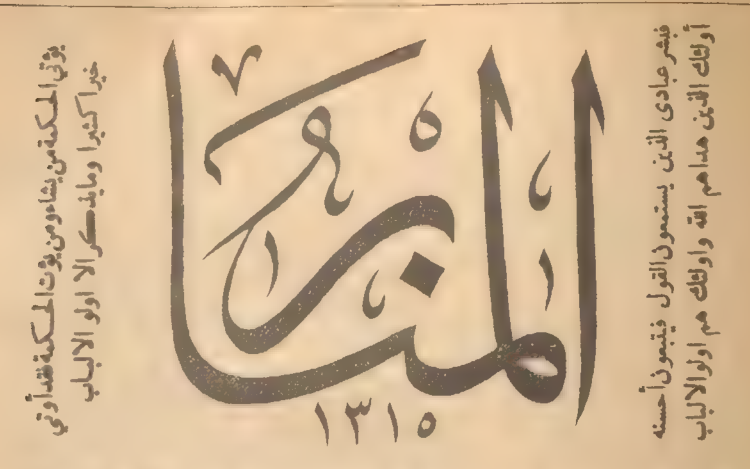
فان بلغاريا قد استقلت فعلا في أيام حكومة الجواسيس الخائنين ، فليس من الكياسة ان يجعل استقلالها قولا من المصائب التى نزلت بالعثمانيين ، على اننا ربما ننال شيئا من حقوقنا التي اغتصبتها من قبل بسبب هذا الاستقلال

الا أن صنع النمسا لهو شر صنع يقع أو يتصور ، وشر منه أقوالها بعد وقوعه ، ومن العجيب أن يكون القول انكى من العمل !

لم تكد هذه الدولة النهمة تعلن الحاق هاتين المقاطعتين بمملكتها حتى قام العثمانيون من سائر النحل والملل في كل أرض يتبوأونها يعلنون استياءهم واستهجانهم عمل النمسا ، وعز عليهم أن تؤذيهم بالفعل وأن يؤذوها هم بالقول فصمموا على الاعراض عن مشترى سلعها ، وهذه الحرب الاقتصادية — كما يسمونها — من أجمل ما تحارب به أمة عدوا لها ولا سيما إذا كان هذا العدو كالنمسا : أمة تجارية بحتة . ومن دلائل الحياة في الامة العثمانية اجماعها على ذلك في جميع بلاد الدولة ، فقد كانت البواخر النمسية تغادر الاستانة كما تغادر بيروت ويافا واللاذقية وغيرها من دون ان تأخذ شيئا أو تعطي شيئا حتى أضبارات البريد ، وغلا كثيرون في ذلك فطفقوا يمزقون ما لديهم من الملابس النمسية على كونها — حال تمزيقها — ملكا لهم !!! وكان لمصر وغيرها من مدن القطر حظ من هذا العمل ، فكان لمجموع هذا الاعراض أو المقاطعة — كما يقولون — تأثير شديد في معامل النمسا ومصانعها حدا بالا كثرين من اصحابها الى مخاطبة حكومتهم ناعين عليها ذلك الالحاق ، الذي يخشي ان يؤدي الى إملاق أي إملاق ، فما كان من هذه الحكومة المنصفة (؟) الا أن أوعزت الى معتمدها في الاستانة بأن يحتج على حكومتها ! !! طالبا منها حمل رعيتها على نبذ المقاطعة! ! !

هذا هو القول الذي قلنا عنه فيما تقدم انه انكى من العمل ! أليس من الاعاجيب ان تقرر النمسا في دارندوتها الحاق بوسنه وهرسك بمملكتها نهبا وسلبا من الدولة العلية جهارا وتحظر على الامة العثمانية أن تسير وراء ميولها ورغائبها ؟ ان من المتعذر على دولة مستبدة ان تحمل رعيتها على مشترى سلعة دون أخرى قسرا فكيف يكون ذلك ميسورا لحكومة دستورية ؟!! ان في هذا لمواطن للعبر ومواضع للتذكير فهل من معتبر أو مدكر !!

حسين وصفي رضا



قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿ مصر — الخميس ٣٠ ذي القعدة ١٣٢٦ — ٢٤ دسمبر (كانون الاول) سنة ١٩٠٨ ﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

قد علم مما تقدم أن التوكل إنما يكون مع الاخذ بالاسباب وان ترك الاسباب بدعوى التوكل لا يكون إلا عن جهل بالشرع ، أو فساد في العقل ، فالتوكل محله القلب ، والعمل بالاسباب محله الاعضاء والجوارح ، والانسان مسوق اليه بمقتضى فطرة الله التي فطر الناس عليها « لا تبديل لخلق الله » ومأمور به في الشرع قال تعالى (٦٧ : ١٥ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) وقال (٤ : ٧١ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم) وقال (٨ : ٦٠ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل) وقال (٢ : ١٩٧ وتزوّدوا فان خير الزاد التقوى) — راجع تفسيرها — وقال لنبيه لوط عليه السلام (١١ : ٨١ فأسر بأهلك بقطع من الليل) وقال لنبيه موسى عليه السلام (٤٤ : ٢٣ فأسر بعبادي ليلا) وقال في الحكاية عن نبيه يعقوب لنبيه يوسف عليهما السلام (١٢ : ٥ قال يا بني لا تقصص رؤياك

على إخوتك فيكيدوا لك كيدا) وقال حكاية عنه أيضا (١٢ : ٥ يابنيَّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغني عنكم من الله من شيء ، ان الحكم إلا لله ، عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) فأمرهم بالحذر مع التنبيه على انه متوكل على الله، والتذكير بوجوب التوكل عليه فجمع بين الواجبين و بيّن انه لاتنافي بينهما ، ولا غناء للمؤمن عنهما ،

ذلك بأن الانسان إذا توكل ولم يستعد للامر ويأخذ له أهبته بحسب سنة الله في الاسباب والمسببات يقع في الحسرة والندم عند مايخيب ويفوته غرضه فيكون ملوما شرعا وعقلا كما قال تعالى في مسألة الاسراف في المال (١٧ : ٢٩ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) واذا هو استعد وأخذ بالاسباب واعتمد عليها غافلا قلبه عن الله تعالى فانه يكون عرضة للجزع والهلع اذا خاب سعيه ولم ينل مراده فيفوته الصبر والثبات اللذان يهوّنان عليه الامرحتى لايدري كيف يستفيد من الخيبة ويتدارك أمره فيها ، وربما وقع في اليأس الذي لامطمع معه في فلاح ولا نجاح ، ولذلك قرن الله الصبر بالتوكل في عدة آيات من كتابه --- قال تعالى حكاية عن الرسل عليهم السلام في محاجّة أقوامهم (١٤ : ١٢ وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) ذكروا ان الله هداهم سبله وهي سننه في الاسباب وانهم موطنون أنفسهم على الصبر لانهم متوكلون عليه تعالى . ووصف الذين هاجروا من بعدماظلموا بقوله (١٦:٤٢ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) وقال(٢٩: ٥٨ نعم أجر العاملين ٥٩ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) لوصفهم بالعمل واسند اليهم الصبر والتوكل وقال لخاتم أنبيائه ورسله (٧٣:٩ فاتخذه وكيلا ١٠ واصبر على مايقولون) كما قال له (٣٣:٤٨ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله، وكفى بالله وكيلا)فهنا قرن أمره بالتوكل بنهيه عن العمل بقول من لايوثق بقوله لأنه يغش ولا ينصح كما انه قرنه بالامر بالمشاورة في الآية السابقة من الآيات التي نحن بصدد تفسيرها أعني قوله « وشاورهم في الامر » وكل ذلك من اتخاذ الاسباب سلبا وإيجابا .

وجاء ذكر التوكل في مقام ذكر الحرمان من الرزق أو من سعته كما جاء في مقام الصبر على إيذاء المعتدلين كقوله تعالى (٦٥ : ٣ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وقوله في مقام وجوب نبذ الاغترار بسعة الرزق خشية الغفلة عن الآخرة (٤٢ : ٣١ فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وابقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون)

وحسبنا هذه الآيات في هداية القرآن وتحقيقه في مقام الجمع بين الاسباب والتوكل

وأما الاحاديث الشريفة فأصح ماورد في التوكل منها حديث الذين يدخلون الجنة بغير حساب وقد رواه احمد والشيخان وغيرهم من حديث ابن عباس مرفوعا وقد روي بعده ألفاظ منها « يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب ، هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون » رواه الشيخان معا عن عمران بن حصين والبخاري عن ابن عباس ومسلم عن ابي هريرة والطبراني عن خباب وكذا الدارقطني في الافراد وزاد بعد قوله: ولا يتطيرون . « ولا يعتافون » ذكره في كنز العمال . وانت ترى انه قرن التوكل بترك الاعمال الوهمية دون غيرها فهو لم ينف من الاعمال الا الاستشفاء بالرقية وهي ليست من الاسباب الحقيقية للشفاء وإنما يطلبها طلابها عند الجهل بالاسباب والعجز عنها على انها من المؤثرات الغيبية وإنما المطلوب شرعا وطبعا ونقلا وعقلا أن يطلب الشيء من سببه الحقيقي الذي يستوي فيه كل من تعاطاه — وإلا التطير وهو التيمن والتشاؤم بحركات الطير ونحوه الاعتياف وهو التفاؤل والتشاؤم بالالفاظ كقول الشاعر

ألا قدها جني فازددت وجدا　　بكاء حمامتين تجاوبان
تجاوبتا بلحن أعجمي　　على غصنين من غرب وبان

الى أن قال

فكان البان أن بانت سليمى　　وفي الغرب اغتراب غير دان

والطيرة والعيافة من سنة الجاهلية التي نسختها السنة النبويه ، لانها من مفسدات الفطرة البشريه ، وكذلك الرقية كانت معروفة في الجاهلية فكان اناس معروفون برقون اللديغ — والا الكي بالنار وهو مما كانوا يتداوون به في الجاهليه وكان النبي صلى

الله عليه وسلم يكرهه لأمته و يعده من الاسباب الضعيفة المؤلمة المستبشعة التي تنافي التوكل ولذلك قال « لم يتوكل من استرقى أو اكتوى » رواه احمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والطبراني من حديث المغيرة ابن شعبة

ويلي هذا الحديث حديث «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير: تغدو خماصا وتروح بطانا » رواه احمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم وقال الترمذي حسن صحيح وصححه الحاكم أيضا وأقره الذهبي وقد استدل به على ان التوكل يكون مع السعي لانه ذكر أن الطير تذهب صباحا في طلب الرزق وهي خماص البطون لفراغها وترجع ممتلئة البطون ولم يقل انها تمكث في أعشاشها وأوكارها فيهبط عليها الرزق من غير ان تسعى اليه

وفي الباب حديث الرجل الذي جاء النبي صلى الله عليه وسلم وأراد ان يترك ناقته وفي روايه انه قال أ أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ فقال النبي (ص) « اعقلها وتوكل » رواه الترمذي من حديث أنس وانكره ابن القطان من هذا الطريق. وروي من حديث عمرو بن أمية الضمري باسناد جيد أخرجه ابن حبان في صحيحه وفيه ان الرجل قال ارسل ناقتي وأتوكل؟ فذكره . ورواه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب وجعلا القائل عمرا نفسه . ورواه ابن خزيمة والطبراني بلفظ «قيدها وتوكل»

وكلام السلف الصالح في ذلك كثير مستفيض . روي ان رجلا قال للامام أحمد (رح) أريد الحج على التوكل ، فقال له . فاخرج في غير القافلة ، قال لا ، قال : على جُرب (*) الناس توكلت. وقد تقدم ان قوله تعالى (٢ : ١٩٨ ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم) نزل في تخطئة من قالوا مثل هذا القول . وقال عبد الله ابن الامام أحمد قلت لأبي هؤلاء المتوكلون يقولون نقعد وأرزاقنا على الله عز وجل . فقال : ذا قول رديء خبيث ، يقول الله عز وجل « إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع » . وقال أيضا سألت أبي عن قوم يقولون نتكل على الله ولا نكتسب ، فقال ينبغي للناس كلهم ان يتوكلوا على الله ولكن يعودون على أنفسهم بالكسب ، هذا قول انسان أحمق . وروي عن

*) الجرب جمع جراب ككتب وكتاب والمراد ما فيها من الزاد

ولده صالح انه سأله عن التوكل فقال التوكل حسن ولكن ينبغي للرجل ان لا يكون عيالا على الناس ، ينبغي ان يعمل حتى يغني أهله وعياله ولا يترك العمل . قال وسئل أبي وأنا شاهد عن قوم لا يعملون ، ويقولون نحن متوكلون ، فقال هؤلاء مبتدعة . قال الخلّال راوي ما ذكر وأخبرني المروزي انه قال لابي عبد الله ان ابن عيينة كان يقول هم مبتدعة فقال أبو عبد الله هؤلاء قوم سوء يريدون تعطيل الدنيا . وروي عنه غير ذلك ولا سيما في الحث على الكسب وعدم توقع الصلة والنوال .

وقال أبو حفص عمر بن مسلم الحداد شيخ الجنيد في التصوف : أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق ، كنت اكتسب في كل يوم دينارا ولا أبيت منه دانقا ، ولا أستريح منه الى قيراط أدخل به الحمام . وقال الغزالي : الخروج عن سنة الله ليس شرطا في التوكل . واحفظ هذه العبارة عنه أو عن غيره بلفظ « ليس من التوكل الخروج عن سنة الله تعالى أصلا » وهذه أحسن وأصح . وقال في بيان أعمال المتوكلين عند الكلام عن الاسباب المقطوع بها « وذلك مثل الاسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لا يختلف كما ان الطعام اذا كان موضوعا بين يديك وانت جائع محتاج ولكنك لست تمد اليد اليه وتقول أنا متوكل وشرط التوكل ترك السعي ، ومد اليد اليه سعي وحركة ، وكذلك مضغه بالاسنان وابتلاعه بإطباق أعالي الحنك على أسافله . فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء — ثم قال — وكذلك لو لم نزرع الارض وطمعت في ان يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام فكل ذلك جنون ، وامثال هذا مما يكثر ولا يمكن إحصاؤه » ثم ذكر ان الاسباب التي لا تعد قطعية مطردة كالتزود للسفر لا يشترط تركها في التوكل ولكنه يجوز ويعد من أعلى التوكل . وكلامه في هذا الباب وأمثاله كالزهد والفقر لا يسلم من نقد وخطإ لمبالغته في الميل الى الانقطاع عن الدنيا والاقبال على الآخرة و « لن يشادّ هذا الدين أحد الا غلبه » وقد تقدم ذكر انكار القرآن على من أرادوا أن يحجوا من غير زاد . وسنوفي هذا المقام حقه في تفسير « لا تغلوا في دينكم » . ولغلبة هذا الميل على أبي حامد رحمه الله تعالى راج عنده كثير من الاخبار والآثار

الواهية والموضوعة، بل راج عنده ما دونها من كلام جهلة المتصوفة وتخيلات الشعراء كقول الشاعر

جرى قلم القضاء بما يكون فسيّان التحرك والسكون

جنون منك ان تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

فانظر كيف ينسي الانسان ميله وحبه للشيء علمه وفقهه حتى يستحسن مايخالفهما والا فان جهالة هذا الشاعر لاتخفى على من دون ابي حامد علما وفقها، فان جريان قلم القضاء بما يكون لايقتضي كون الحركة والسكون سيين لان الواقع في كل زمان ومكان هو ماجرى به القضاء، ومنه نعلم ان سنة الله في الحركة غير سنته في السكون وسنن الله لاتتغير ولاتنقض، وكونهما كذلك يناقض كونهما سيين ، ولو كان قضاء الله تعالى كما زعم الشاعر الجاهل لما قال (٦٧: ١٥ فامشوا في منا كبها وكلوا من رزقه) ولما قال (٦٢: ١٠ فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله) والمشي والانتشار في الارض من الحركة لامن السكون . وما جاء به من الجهل في البيت الثاني أبعد عن الصواب مما في البيت الاول، فانه قاس حياة الرجل العاقل القادر على حياة الجنين وسنة الله فيهما مختلفة كما هو معلوم بالضرورة، ولو صح هذا القياس لصح أيضا قياس الانسان على النبات من نجم وشجر فان غذاء الجنين اشبه بغذاء النبات منه بغذاء الحيوان. فاي الفريقين احق باسم الجنون ؟ أمن يقول ان سنة الله في الجنين يتكون في بطن أمه كسنته في الرجل الذي بلغ أشدّه وجعل له الله رجلين يمشي بهما ويدين يبطش بهما وسمعا و بصرا يسمع بهما و يبصر ، وعقلا به يفكر ويدبر؟ أم من يقول ان سنته تعالى فيهما مختلفة ؟

هذا وان كل ماورد في الكسب حجة على كون التوكل لا ينافي العمل والسعي للدنيا، وقد تقدم ذكر بعض الآيات في ذلك ومنها قوله تعالى (١١: ٦٠ هو انشأ كم من الارض واستعمركم فيها) وقوله (١٥: ٢٠ وجعلنا لكم فيهامعايش ومن لستم له برازقين) وقوله (٧٨: ١١ وجعلنا النهار معاشا) ومن الاحاديث الشريفة قوله (ص) « خير الكسب كسب العامل اذا نصح » رواه احمد بسند حسن والبيهقي والديلمي وابن خزيمة بلفظ « كسب يد العامل » وقال الهيثمي رجاله ثقات وقوله (ص) « التاجر الصدوق

يحشر يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء » رواه الترمذي من حديث ابي سعيد وحسنه . ولابن ماجه والحاكم من حديث ابن عمر مرفوعا « التاجر الامين الصدوق المسلم مع الشهداء » قال الحاكم حديث صحيح .ويروى عن عمر (رض) أنه قال « لايقعد احدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني فقد علمتم ان السماء لاتمطر ذهبا ولا فضة » وقال أيضا «مامن موضع يأتيني الموت فيه أحب الي من موطن أتشوق فيه لاهلي ابيع وأشتري » ذكرهما في القوت والاحياء. وكان ابو بكر وعثمان وعبد الرحمن وطلحة (رض) تجارا حتى ان ابابكر لما استخلف أصبح غاديا الى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر بها فلقيه عمر وابو عبيدة فقالا أين تريد، قال السوق، قال؟ تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال فمن أين أطعم عيالي ؟فهل كان غير متوكل ؟ثم إن الصحابة فرضوا له مايكفيه ليستغني عن الكسب ولم يقولوا له توكل على الله وهو يرزقك بغير عمل

وقد بلغ من توكل الصدّيق (رض) ان كان يسلي النبي (ص) يوم بدر ويخفف عنه، ففي السيرة الهشامية عن ابن اسحق ان النبي (ص) عدَّل الصفوف يوم بدر ثم رجع إلى العريش الذي بنوه له فدخله ومعه فيه أبو بكر الصديق ليس معه فيه غيره ورسول الله (ص) يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول فيما يقول « اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » وأبو بكر يقول يانبي الله بعضَ مناشدتك ربك فان الله منجز لك ما وعدك . والحديث مروي في كتب الحديث وفي بعض الروايات ما ينبئ بان النبي صلى الله عليه وسلم كان يومئذ في مقام الخوف وان الصديق كان وادعا مطمئنا ولعله تكلف ذلك لتسليته (ص) وقد يتوهم ضعيف العلم انه ينبغي رفض هذه الرواية لعدم صحة معناها من حيث يدل على أن أبا بكر كان أشد توكلا وثقة بوعد الله من رسوله الاكرم صلى الله عليه وسلم والصواب ان هذه الدلالة غير صحيحة وانما يعلم بعد ما درجة النبي العليا في التوكل ودرجة صاحبه العالية فيه مما ورد في الهجرة الشريفة (٩ : ٤٠ ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم)

فهذا مقام التوكل وهذا أثره ؛ وما كان (ص) يوم بدر الا أعلى إيمانا وتوكلا لأنه كان يزداد كل يوم إيمانا وعلما بر به و بسننه في خلقه كما كان يدعوه بأمره (٢٠:١١٤ وقل رب زدني علما) وإنما ظهر (ص) في كل حال بما يليق بها ففي يوم الهجرة كان خارجا من قوم بالغوا في إيذائه وليس له من الاسباب ما يكفي لمقاومتهم ومدافعتهم والعرب كلها إلب واحد مع قومه عليه فكان المقام مقام التوكل الكامل لأنه مقام العجز عن الاسباب بالمرة ولذلك كان (ص) وادعا ساكنا وكان الصديق على رجائه وتوكله مضطربا ، وفي يوم بدر كان قادرا على اتخاذ الاسباب لمقاومة أولئك القوم الذين زحفوا عليه من مكة فكان التوكل فيه لا يصح الا بعد اتخاذ كل ما يمكن من الاسباب ولذلك لم يلجأ النبي (ص) الى الدعاء ومناشدة ربه المعونة والنصر الا بعد ان فعل كل ما أمكن من الاسباب مع المشاورة واتباع رأي أهل الخبرة ولعله كان يظن انه يجوز ان يكون بعض أصحابه مقصرا فيما يجب من الاسباب فيفوت النصر لذلك فلجأ الى الدعاء ويؤيد هذا انهم لما قصروا في الاسباب يوم أحد حل بهم و به (ص) ما هو معلوم وقد ذكر مفصلا في تفسير آيات هذا السياق · والصديق (رض) عنه لم يصل علمه الى ما وصل اليه علم النبي (ص) في ذلك

(١٦١ : ١٥٥) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ بِهِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ ، ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٢:١٥٦) أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٣:١٥٧) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ واللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٤ : ١٥٨) لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتٰبَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ *

نزلت هذه الآيات في شأن النبي صلى الله عليه وسلم من سياق الحكم والاحكام المتعلقة بغزوة أُحُد . ولكن اخرج ابو داود والترمذي وابن جرير عن ابن عباس (رض) ان قوله تعالى ﴿ وما كان لنبي ان يغل ﴾ قد نزل في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض الناس لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها . وقد ضعّف هذه الرواية بعض المفسرين وان حسنها الترمذي لان السياق كله في واقعة أحد ورجحوا عليها ماروي عن الكلبي ومقاتل من ان الرماة قالوا حين تركوا المركز الذي وضعهم النبي (ص) فيه : نخشى ان يقول النبي (ص) « من أخذ شيئا فهو له » وان لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر فقال النبي (ص) « أظننتم انا نغل ولا نقسم لكم » ولهذا نزلت الآية . وروى ابن ابي شيبة في المصنف وابن جرير مرسلا عن الضحاك قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم طلائع فغنم (ص) غنيمة فقسم بين الناس ولم يقسم للطلائع فلما قدمت الطلائع قالوا قسم النبي (ص) ولم يقسم لنا فأنزل الله تعالى الآية . وقال الاستاذ الامام الصواب أن هذه الآية من متعلقات هذه الواقعة كالآيات التي قبلها وكثير مما يأتي بعدها

وأصل الغل الاخذ بخفية كالسرقة وغلب في السرقة من الغنيمة قبل القسمة وتسمى غلولا . قال الرماني وغيره : أصل الغلول من الغلل وهو دخول الماء في خلل الشجر وسميت الخيانة غلولا لانها تجري في الملك على خفاء من غير الوجه الذي يحل . ومن ذلك الغل للحقد والغليل لحرارة العطش والغلالة للشعار . أقول وتغلغل في الشيء دخل فيه واختفى في باطنه . والمعنى : ما كان من شأن نبي من الانبياء ولا من سيرته ان يغل لأن الله قد عصم أنبياءه من الغل والغلول فهو لا يقع منهم . وهذا التعبير أحسن من قولهم : ما صح ولا استقام لنبي أن يغل أي يخون في المغنم . وقد تقدم بيان ما يفيده هذا التعبير من نفي الشأن الذي هو أبلغ من نفي الفعل لانه عبارة عن دعوى بدليل كأنه يقول هنا ان النبي لا يمكن ان يقع منه ذلك لانه ليس من شأن الانبياء ولا مما يقع منهم أو يجوز عليهم . وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب « أن يُغَلّ » بالبناء للمفعول وهو من أغللته بمعنى وجدته

غالاً أي ما كان من شأن النبي ان يوجد غالاً أو بمعنى نسبته إلى الغلول أي ماكان لنبي ان يكون متهما بالغلول . أو من غلّ أي ما كان لنبي ان يكون بحيث يسرق من غنيمته السارقون ويخونه العاملون وهذا أضعف مما قبله .

وذهب بعض المفسرين الى أن الغـل اوالغلول المنفي هنا هو إخفاء شيء من الوحي وكتمانه عن الناس لا الخيانة في المغنم وان كان ما بعـده عاما في كل غلول أو خاصا بالغنيمة فانه جيء به للمناسبة كما عهد في مناسبات القرآن وانتقاله من حكم إلى حكم أو خبر له حكمة . وذكروا انه نزل ردا على من رغب إلى النبي (ص) أن يترك النعي على المشركين قال الاستاذ الإمام : ومن مناسبة كون الغلّ بمعنى الكتمان وإخفاء بعض التنزيل ما تقدم من أمر الله تعـالى نبيه (ص) في الآيات السابقة بمعاتبة من كان معه في أحُد وتو بيخهم على ما قصروا وذلك مما يصعب تبليغه عادة لأنه يشق على المبلّغ والمبلغ ، ومن أمره (ص) بالعفو عنهم والاستغفار لهم ومشاورتهم في الامر على ما كان منهم وفي هذا إعلاء لشأنهم ومعاملة لهم بالمساواة في مثل هذه الشؤون ، وذلك مما عهد في طباع البشر ان يشق على الرئيس منهـم ابلاغه للمرءوسين ، ويزاد على ما ذكره الاستاذ الامام ماتقدم في هـذا السياق من قوله تعالى له « ليس لك من الامر شيء » عنـد ما لعن أبا سفيان ومن كان معه من رءوس المشركين . كأنه تعالى يقول اعلاما للناس بما يجب للانبياء عليهم السلام في أمر التبليغ ما كان من شأن نبي من الانبياء ان يكتم شيئا مما أمر بتبليغه وان كان ممـا يشق على الناس في حكم العادة ذكره وتبليغه

ثم قال ﴿ ومن يغلل يأت بما غل به يوم القيامة ﴾ أي وكل من يقع منه غل أو غلول فإنه يأتي بما غل به يوم القيامة . وقد ذهب الجمهور الى أن المراد بالاتيان بما يغل به الغال انه يجيء يوم القيامة حاملا له ليفتضح به ويكون مزيدا في عذابه هنا لك وقد جاء في ذلك روايات مختلفة منها انه يكلف الاتيان به من النار لانه يجيء به ومن هذه الروايات مالا يصح ، ولكن أخرج الشيخان عن أبي هريرة قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال « ألا لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء فيقول يا رسول الله

أغثني فأقول له لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس لها حمحمة فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول يارسول الله أغثني فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك » قال بعض العلماء لا مانع من إمضاء هذا الاتيان على ظاهره وان غلَّ الانسان بالعددالكثير من الابل والغنم والبقر والخيل والبغال والحمير والاشياء الصامتة فانها تكون يوم القيامة على رقبته مهما كثرت . وروى ابن أبي حاتم ان رجلا استشكل على أبي هريرة حديثه ذاك فقال أرأيت من يغلُّ مئة بعير أو مئتي بعير كيف يصنع بها ؟ فأجابه أبو هريرة فذكر له مامعناه ان من كان ضرسه مثل جبل أحُد فانه يحمل مثل هذا . وهذا الحديث لا يصح وجعل بعض العلماء حديث حمل ما يغل به الغال على رقبته من باب التمثيل شبهت حال الغال بما يرهقه من أثقال ذنبه وفضيحته به مع فقد المعين والمغيث بمن يحمل ذلك عينه على عاتقه ويقصد أرجى الناس لإغاثته فيخذله ويتنصل من إغاثته . وما زال الناس يشبهون الاثقال المعنوية بالاثقال الحسية ويعبرون عنها بالحمل يقولون فلان حامل اثقال أهله أو اثقال البلد وفي التنزيل (٢٩ : ١٢ اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وماهم بحاملين من خطاياهم من شيء انهم لكاذبون ١٣ وليحملن اثقالهم واثقالا مع اثقالهم وليسئلنَّ يوم القيامة عما كانوا يفترون) ومثله قوله تعالى (٣٥ : ١٨ ولا تزر وازرة وزر أخرى وان تُدعَ مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى) على ان حديث الشيخين لم يذكر فيه انه تفسير للآية

وقال الاستاذ الامام : فسروا الاتيان بما غل به الغال بأنه يحمله وكأنهم جعلوا الباء للمصاحبة وليس بمتعين وقد عدل عنه بعض المفسرين كأبي مسلم الاصفهاني وقال إنه على حد قوله تعالى حكاية عن لقمان (٣١ : ١١ يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الارض يأت بها الله ان الله لطيف خبير) فليس معنى « يأت بها الله » انه يحملها ولكن معناه انه يعلم بها

أثم العلم لا تخفى عليه مهما كانت مستترة لان من يأتي بالشيء لابد ان يكون عالما به . والمعنى ان الاتيان بالشيء الذي يغله الغال هو عبارة — أو قال كناية — عن انكشافه وظهوره أي ان كل غلول وخيانة خفية يعلمه الله تعالى مهما خفي ويظهره يوم القيامة للغال حتى يعرفه كمعرفة من أتى بالشيء لذلك الشيء على حد قوله تعالى (٩٩ : ٧ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ٨ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) .

أقول ولما كان الجزاء يترتب على علم الله بالاعمال واعلامه العاملين بها يوم الحساب قال بعد مامر ﴿ ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ أي ثم انه بعد أن يأتي الغال بما غل ، كما يأتي كل عامل بما عمل ، فيتمثل لديه ، كأنه حاضر بين يديه ، ينظر اليه بعينيه ، (٣ : ٣٠ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا) ومثقال الذرة من الخير والشر مرئيا مبصرا ، بعد هذا تنال جزاء ما كسبت مستوفى تاما لا تنقص منه شيئا ، (١٨ : ٤٩ وَوُضِع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها !! ووجدوا ماعملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا)

ثم رتب على ذكر الجزاء العام في آخر الآية قوله ﴿ أفمن اتبع رضوان الله ﴾ أي جعل ما يرضيه من فعل وترك اماما له فجد واجتهد في الخيرات والاعمال الصالحات . واتقى الغلول وغيره من الفواحش والمنكرات ، حتى زكت نفسه ، وارتقت روحه ، فوفي جزاءه الحسن ، وكان عند ربه في جنات عدن ، ﴿ كمن باء بسخط من الله ﴾ أي انتهى الى مباءته في الآخرة مصاحبا ومقترنا بغضب عظيم من الله عز وجل لتدسية نفسه بما خفي من الخطايا كالسرقة والغلول ، وتدنيسها بما ظهر منها كالسلب والنهب ، واهمال تطهيرها بالعبادات ، وعمل الخيرات ، ﴿ ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ ذلك المأوى الذي يأوي اليه ، وساء ذلك المنتهى الذي ينتهي اليه ، كلا انهما لا يستويان كما لا يستوي الظلمة والنور ، ولا الظل والحرور ، وقد جعل الخير تبعا للرضوان لان أسبابه اعلام هداية تتبع ولم يقل ذلك في الشرير لانه في ظلمة يبتدع ولا يتبع

﴿ هم درجات عند الله ﴾ أي ان كلا من الذين يتبعون رضوان الله والذين يبوءون بسخطه درجات اوذوو درجات ومنازل عند الله أي في يوم الجزاء الذي ينسب اليه وحده لاينسب الى غيره فيه شيء لاحقيقة ولا مجازا كما قال (٤٠: ١٥ رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ١٦ يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شيء، لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار)

والذي في كتب التفسير المشهورة ان العندية هنا عندية علم وحكم أي هم أصحاب درجات في حكم الله و بحسب علمه بشؤونهم و بما يستحقون وكلا المعنيين صحيح ولا تنافي بينهما . وقالوا ان ذكر الدرجات من باب التغليب فتشمل الدركات فالدرجات مايرتقى عليه وهي للمرتقين من أهل الرضوان، والدركات مايتدلى فيه وهي للمتدلين من أهل السخط والخذلان ، كما قال في الاول (٢: ٢٥٣ ورفع بعضهم درجات) وفي الثاني (٤: ٤٥ ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار) قال الراغب : الدرك كالدرج لكن الدرج يقال اعتباراً بالصعود والدرك اعتبارا بالحدور ولهذا قيل درجات الجنة ودركات النار ولتصور الحدور في النار سميت هاوية . (قال) والدرك (بسكون الراء)أقصى قعر البحر . والمعنى ان الناس يتفاوتون في الجزاء عند الله كما يتفاوتون هنا في العرفان والفضائل ، وفي الجهل والرذائل ، وما يترتب على ذلك أو يترتب عليه ذلك من الاعمال الحسنة والقبيحة . وهذا التفاوت على مراتب ودرجات يعلو بعضها بعضا من الرفيق الاعلى في الدرجات العلى الذي كان يطلبه النبي صلى الله عليه وسلم من ربه في مرض موته الى الدرك الاسفل الذي ورد في سورة النساء وذكر آنفا . وهذه الدرجات لاتكون في الآخرة عطاء مؤتنفا وكيلا جزافا و إنما تكون أثرا طبيعيا لارتقاء الارواح وتدليها هنا بالاعمال ولذلك قال بعد ذكرها ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ فهو لايغيب عنه شيء من اعمالهم ، وما لها من التأثير في تزكية نفوسهم ، التي يترتب عليها الفلاح في ارتقاء الدرجات ، وفي تدسيتها التي تترتب عليها الخيبة في هبوط الدركات ، (٩١: ٩ قد أفلح من زكاها ١٠ وقد خاب من دساها) فتحصيل الدرجات إنما يكون في هذه الدار، والتمتع بها يكون في دار القرار، أما الدرجات في الدنيا فقد

وردفيها قوله تعالى (٣٢:٤٣ أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون) وقوله تعالى (١٦٥:٦ وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم) وليست هذه الدرجات بوسيلة ولا مقصد مما نحن فيه وإنما هي درجات ابتلاء

وأما درجات الآخرة فهي المرادة بقوله تعالى بعد ذكر توسيع الرزق على بعض الناس وتضيقه على بعض (١٧ : ٢١ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) وأما وسائلها التي قلنا إن هذه آثارها وهي المعارف والاعمال فمنها قوله عز وجل (١١:٥٨ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات) وقوله (١٢ : ٧٦ نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم) وقوله سبحانه (٦ : ٨٣ وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) فهذه كلها درجات العلم والحجة · ومنها قوله في ربط درجات العمل بدرجات الجزاء (٩٥:٤ وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما ٩٦ درجات منه ومغفرة ورحمة) ومنها بعد ذكر الجزاء (٦ : ١٣٢ ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون) وقوله (٧٥:٢٠ ومن يأته مؤمنا قدعمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى)

فحسبنا هذه الآيات مبينة لما قلناه من كون درجات الجزاء في الآخرة على حسب درجات الارتقاء بالعلم والعمل في الدنيا · وان هذه الدرجات لايمكن ان يعلمها الا من أحاط بكل شيء علما · فلا يخفى عليه أثرما من آثار الاعمال في النفس ، ولا عاطفة من عواطف الايمان في القلب ، ولا حقيقة من حقائق العلم في العقل ، ولا يعزب عنه شيء من تفاوت الناس في ذلك ، فدرجات ارتقاء الارواح لها في علمه تعالى نظام دقيق أدق من نظام ميزان الحرارة والبرودة ومن ميزان الرطوبة ومن ميزان ثقل السائلات في درجاتها العليا والسفلى وما أشبه هذه الموازين الطبيعية التي تعرف بها سنن الله تعالى في الكون ، وإن سننه في نفوس الناس لاتقل عن سننه في غيرها نظاما واطرادا · وان بين عليا الدرجات وسفلاها درجة أدنى أهل النار عقوبة ، وأدنى أهل الجنة مثوبة ، ولهذا كله قال بعد ذكر الدرجات إنه بصير بما يعملون · وليس عندي

في الآية شيء عن الاستاذ الامام رحمه الله تعالى الا ماتراه قريبا في تفسير الآية التالية وهي

﴿ لقد منّ الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم ﴾ منّ عليهم غمرهم بالمنة وأثقلهم بالنعمة . قال الاستاذ الامام انتقل من نفي الغلول عن النبي عليه الصلاة والسلام ومن وصفه قبل ذلك بالرحمة واللين وأمره بالمشاورة الى التفرقة بين اصحابه الذين عاملهم هذه المعاملة الذين اتبعوا رضوان الله و بين من باء بسخط من الله وتفاوت درجاتهم في ذلك وقالوا ماقالوا مما دل على جهلهم وكفرهم بحرمانهم من هدايته — ولعله يعني من كان مع أبي سفيان في احد من الكافرين — ثم عاد الى ذكر منته تعالى على المؤمنين ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم فيهم . وقد كان ماتقدم من وصفه (ص) بالرحمة واللين وأمره بتلك المعاملة الحسنى وتنزيهه عن الغلول ثم وصفه بأوصاف أخرى أكد بها المنة أولها انه من أنفسهم أي من جنسهم أي العرب . ووجهة هذه المنة الخاصة ، التي لاتنافي في كونه «ص» رحمة عامة ، ان كونه منهم يزيد في شرفهم و يجعلهم أول المهتدين به ، لانهم أسرع الناس فهما لدعوته ، والنعمة العامة قد ذكرت في آيات أخرى كقوله تعالى (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) و يمكن أن يستدل على هذا التخصيص بالعرب دعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام التي تقدمت في سورة البقرة (٢ : ١٧٩ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك) الخ الاوصاف المذكورة هنا . وذهب بعض المفسرين الى ان المراد بأنفسهم ههنا البشر لاالعرب . أقول وهذا القول ضعيف وان وجب الايمان بكون جميع الانبياء من البشر أما ضعفه فمن وجوه (احدها) ان المراد بالمؤمنين في الآية من كانوا متصفين بالايمان عند نزولها في عقب غزوة احد وهم من العرب (ثانيها) موافقة دعوة ابويه ابراهيم واسماعيل ، عليهم الصلاة والتسليم ، وإنما دعوا ان يكون النبي من ذريتهما وذرية اسماعيل هم العرب المستعربة كما هومشهور (ثالثها) موافقة آية سورة الجمعة التي في معنى هذه الآية (٦٢ : ٢ هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم و يعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) والاميون هم العرب (رابعها وخامسها) مايأتي قريبا في تفسير «و يعلمهم الكتاب» ومايأتي في تفسير وصفهم

بالضلال المبين . (سادسها) ان العرب هم الذين تلا عليهم النبي (ص) بلسانه آيات الله و باشر بنفسه تزكيتهم وتعليمهم وهم الذين حملوا دعوته الى غيرهم من الناس وقد نص العلماء على ان الايمان بكون النبي صلى الله عليه وسلم من العرب شرط في صحة الاسلام والايمان لا بد من تلقينه لكل من يدخل في هذا الدين ومن جحده بعد العلم به يكون مرتدا عن الاسلام . ثم صار ينشر الدعوة كل قوم قبلوها واهتدوا بها فصح قوله تعالى (٣٤ : ٢٨ وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا وقوله (٢١ : ١٠٧ وما ارسلناك الا رحمة للعالمين)

قال الاستاذ الامام : الآيات في قوله ﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ هي الآيات الكونية الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته وتلاوتها عبارة عن تلاوة مافيه بيانها وتوجيه النفوس الى الاستفادة منها والاعتبار بها وهو القرآن كقوله عز وجل في أواخر هذه السورة (٣ : ١٩٠ ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب) وقوله في سورة البقرة (٢ : ١٦٤ ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها و بث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون) ومنها ما لم يذكر فيه كلمة « الآيات » كقوله تعالى (٩١ : ١ والشمس وضحاها ٢ والقمر اذا تلاها) الخ

الوصف الثالث والرابع قوله تعالى ﴿ ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ قال الاستاذ تزكيته اياهم هي تطهيرهم من العقائد الزائغة ووساوس الوثنية وادرانها والعقائد هي أساس الملكات ولذلك نقول ان العرب وغيرهم كانوا قبل بعثة محمد (ص) ملوثين في عقولهم ونفوسهم . أقول قد سبق عنه في تفسير آية البقرة (٢ : ١٢٩) ان المراد بالتزكية تربية النفوس وانه (ص) كان مربيا ومعلما وأراد بقوله ان العقائد أساس الملكات ان من لم يتزك عقله و يتطهر من خرافات الوثنية وجميع العقائد الباطلة لا تتزكى نفسه بالتخلي عن الاخلاق الذميمة ، والتحلي

بالملكات الفاضلة ، فان من يعتقد ان وراء الاسباب الطبيعية التي ارتبطت بها المسببات منافع ترجى ومضار تخشى من بعض المخلوقات فيجب تعظيم هذه المخلوقات والالتجاء اليها ليؤمن ضرها وينال خيرها ويتقرب بها الى خالقها — من يعتقد هذا يكون دائما أسير الاوهام، وأخيذ الخرافات، يخاف في موضع الامن، ويرجو حيث يجب الحذر والخوف، وتتعدى قذارة عقله الى نفسه فتفسد اخلاقها، وتدنس آدابها، فتزكية النفس لا تتم إلا بتزكية العقل ، ولا تتم تزكية العقل إلا بالتوحيد الخالص

قال الاستاذ أما تعليمهم الكتاب فمعناه ان هذا الدين الذي جاء به قد اضطرهم الى تعلم الكتابة بالقلم وأخرجهم من الامية لانه دين حث على المدنية وسياسة الامم. أقول كان أول حاجتهم الى تعلم الكتابة وجوب كتابة القرآن وقد اتخذ عليه الصلاة والسلام كتبة للوحي وكتبوا له كتبا دعا بها الملوك والرؤساء الى الاسلام . وكان يأمرهم بتعلم الكتابة . ثم كان ذلك يكثر فيهم على قد نمو مدنيتهم وامتداد سلطتهم (قال) وأما الحكمة فهي أسرار الامور وفقه الاحكام وبيان المصلحة فيها والطريق الى العمل بها ذلك الفقه الذي يبعث على العمل أو المراد العمل الذي يوصل الى هذا الفقه في الاحكام . أو طرق الاستدلال ومعرفة الحقائق ببراهينها لان هذه الطريقة هي طريقة القرآن وسنته في العقائد وكذا في الآداب والعبادات وقدمت الشواهد الكثيرة على ذلك وسيأتي ما هو أكثر

﴿ وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ أي وانهم كانوا قبل بعثة النبي (ص) في ضلال بيّن واضح . وأي ضلال أبين من ضلال قوم مشركين يعبدون الاصنام ويتبعون الاوهام أميين لا يقرءون ولا يكتبون فيعرفوا كنه ضلالتهم ، وحقيقة جهالتهم، فضلالهم أبين من ضلال أهل الكتاب، كما هو ظاهر لأولي الالباب

في س ٦ ص ٨٠٧ من هذا الجزء كلمة « انشوق » وصوابها « أتسوق » فتصحح

الاسلام والمدنية الحديثة (*

﴿ هل يتفقان ؟ ﴾

اني اخترت موضوع البحث في الاسلام لاول مرة في مؤتمر أفريقية الشمالية لسببين : الاول ان المسألة الاسلامية هي مركز دائرة جميع المسائل في أفريقية الشمالية وذلك لان هذه المسألة مهمة في أفريقية أكثر منها في البلاد الاسلامية الاخرى اذ كان بين الاسلام والنصرانية على شواطيء البحر الابيض المتوسط نضال قديم وما زال أثره باقيا في القلوب . والثاني لأننا نحن الفرنسيين نعيش مع المسلمين في تونس والجزائر ونحن مضطرون الى الاختلاط بأهلهما لارتباطنا معهم بمصالح دائمة

ان الهند الانكليزية فيها زهاء أربعين مليونا من المسلمين ولكن الانكليز لايختلطون بهم اختلاطا دائما وفي مصر وهي أكثر بلاد الاسلام مدنية لايختلط الانكليز كذلك بأهلها اختلاطا يفضي الى الاستعمار الحقيقي والاوربيون لايقطنون سوى المدن الكبيرة وليس لهم من العلاقات مع سكان القرى ما للمستعمرين منا مع العنصر الوطني في مستعمراتنا الافريقية على ان المسألة الاسلامية يجب أن تتقدم على غيرها من المسائل الاخرى التي يبحث فيها المؤتمر بقطع النظر عما تقدم

لايكون الاستعمار موطد الاركان قائم البنيان الا اذا أمكننا الوصول الى طريقة تجعلنا على صفاء ووداد مع أهل الدين الاسلامي الذي يربط الامم المختلفة الاجناس والمشارب المنتشرة بين المحيط الاطلانطيقي وخليج قابس

---

*) خطبة لموسيو رينيه ميليه القاها في مؤتمر أفريقية الشمالية المنعقد في باريس من عهد قريب ونشرت في المجلة الاستعمارية الفرنسية وترجمتها بعض الجرائد المصرية بالعربية فآثرنا تلخيصها لقراء المنار لما فيها من الحقائق والانصاف

ويجب ان نضيف الى هذا الاعتبار اعتبارا آخر أ كبر منه شأنا وأعم فائدة وهو أن ظنون الغربيين بالامم الاخرى قد بدأت تتغير تماما وأذ كر انني كنت أسمع وانا يافع ان الامم الآسيوية لاتقوم لها قائمة وانها ستبقى رازحة تحت اعباء الانحطاط والجمود ، وفي الغالب كانوا يلصقون التهمتين معا بها على مافيهما من التناقض اذ حينما توجد حركة تأخر لابد وأن تتبعها حركة تقدم . وقد كان من الامور التي لانزاع فيها ان الصين أمة جامدة وان اليابان أمة ليس لها الا مدنية سطحية وان الهند لايمكن أن تصلح شؤونها وكانوا يتهمون الاسلام بهذه التهم نفسها وان الذين هم في سن موافقة يذ كرون ان الغربيين كانوا يرددون نظرية مؤداها ان المسلمين في جمود تام بسبب اعتقادهم في التوكل والقضاء والقدر ولست في حاجة الى القول بأن هذه التهم التي كانت تجسمها كبرياء الغربيين قدتبين فسادها فان المدافع التي أطلقت في موكدن دوت في أقاصي آسيا وأصبحت الامم التي كنا حكمنا عليها بالموت والجمود يقظة نامية سواء كانت في الصين أو الهند الصينية أو الهند الانكليزية أو في ايران التي أخذ أهلها يطلبون دستورا وها هي الاستانة ظهرت فيها حركة أهلية أدهشت العالم بأجمعه وما كان يخطر ببال طلبة مدرسة العلوم السياسية انه سيطرأ تغيير على برنامج دراستهم وهو الامر الذي أصبح لابد منه الآن بعد ان تغيرت المسألة الشرقية ودخلت في طور جديد

واننا ازاء هذا الانقلاب الذي حصل لانجد بدًّا من التساؤل عن الجمود الذي وصفوا به الاسلام اذ قد يكون شبيها بتهمة الخمول التي ألصقوها باليابان ومالبثت أن اضمحلت وظهر بطلانها !!

واني لا أريد ان أذ كر انتشار الاسلام لانه هو الدين الوحيد الذي ينتشر ويزداد أهله بسرعة في آسيا وافريقية على حين ان الاديان الاخرى بقيت واقفة عند حد محدود لاتتجاوزه البتة وقد أصبحت هذه المسألة لانزاع فيها ولكن ماذا تقولون اذا أثبت لكم ان الاسلام شرع يطبق العلوم الحديثة و يستفيد منها؟ ومن ذلك انه أنشأ بقوته الذاتية و بالمهندسين المسلمين ذلك الخط الحديدي العظيم الممتد بين دمشق

والمدينة المنورة الذي يبلغ طوله ١٣٠٠ كيلومتر!! وماذا يقول اليوم فطاحل الفلاسفة الذين قالوا ان أهل الاسلام مصابون بنوع مخصوص من أنواع مرض النوم ؟ ماذا يقولون الآن اذا علموا أن المسلمين تبرعوا بمقدار ثمانين مليوناً من الفرنكات مما أنفق عليه ؟

وان لفرنسا فائدة كبرى بالاشتراك في هذا البحث العظيم

فاذا كانت مدنية الاسلام هي تلك المدنية الجامدة المزعومة فيجب علينا اذ ذاك أن نعامل هؤلاء المسلمين الذين نحن مرتبطون بهم بسياسة الضغط والشدة خلافا لما جبلنا عليه من انعطافنا لجميع الناس ازاء مايبدو من حركاتهم أو يظهر فيهم من روح الحروب الصليبية التي بقيت بكيفية غريبة كامنه في صدور المسلمين حتى البعدين عن الدين منهم (؟) ومن الامور المدهشة أن الانسان قد يلاقي في فرنسا أناسا مازالوا محافظين على بقية من أوهام الحروب الصليبية ضد المسلمين

وأما إذا اعتقدنا في الحركات التي تجلت في كل مكان عكس ذلك فمن الواجب أن نمد أيدينا بحرية الى شعوبنا الاسلامية ونقودها معنا في طريق المدنية وهذه النقطة هي التي أريد أن أبحث فيها اليوم أمامكم

ان امامنا طرقا لحل هذه المسألة الكبرى

فمنها الطريقة التي يمكنني أن أسميها الطريقة المباشرة وهي أن نفتح القرآن وكتب السنة ونستخلص منهما النصوص التي تثبت أن المؤمنين الصادقين في كل عصر يهشون للعلوم ويقبلون عليها . منذ عهد غير بعيد جاءني كتاب من أحد المسلمين الجزائريين وهو السيد عبد السلام بن شعيب فرأيت فيه بعض تلك النصوص مثل « الحكمة ضالة المؤمن ينشدها انى وجدها » و « اطلبوا العلم ولو بالصين » وغير ذلك من الآيات والاحاديث والآثار

هذه الطريقة تصلح لاقناع قومنا بان الاسلام يحث على العلم ولكن هناك عقبتين تقفان في سبيل نجاحها (الاولى) انني وزملائي الذين يدافعون عن الاسلام لسنا بحجة في تفسير الآيات والاحاديث واستخلاص المبادئ الاسلامية الصحيحة

منها (والثانية) ان المتدينين لا يتبعون دائما ما ترمي اليه نصوص دينهم بل كثيرا ما يحيدون عنها ويأخذون بأقوال الفقهاء والشراح الذين يذهبون في أقوالهم كل مذهب فلا يكفي أن ينص الدين على شرف العلم ليكون أبناء ذلك الدين راغبين فيه مقبلين على تحصيله

وهناك طريقة أخرى وهي الطريقة التاريخية :

في اعتقادي أن خطأ المشتغلين منا بالاسلام هو في درس هذا الدين مستقلا عن الظروف التي كانت محيطة بظهوره فلو عرفنا كيف كانت حال العالم حين ظهر لوقفنا على أسباب انتشاره المدهش

ان الذي ساعد الاسلام على الانتشار هو ماقرره الامبراطور بيزانطين في القرن الثالث للمسيح من جعل المسيحية دين الحكومة وقد جر هذا القرار على الدولة البزنطية من المشاكل أعقدها ·

ولقد كان الدين الروماني القديم دين حكومة أيضا ولكنه كان دينا يبتلع الديانات الاخرى بمعنى ان روما كانت كلما تغلبت على أمة جعلت آلهتها آلهةً لروما · وبخلاف ذلك كانت الحال في بزنطية ومنذ اليوم الذي استخدم فيه الامبراطور السيف لنشر الدين انفتح في وجه الدولة البزنطية باب الآلام والهموم ولو أعدتم النظر في تاريخ القرن الرابع والخامس والسادس للمسيح لوجدتم الامبراطرة متوفرين على توحيد الدين وموجهين اليه كل قوى الدولة وفي ذلك كان تضعضع ملكهم وانقراضه · فكم أهرقت دماء في سبيل كل عقيدة من عقائد المسيحية وكم من مقاطعة ضيعها الامبراطور على أثر كل قرار كان يصدر من مجمع « نيقة » ! !

وان مسألة طبيعة المسيح أو مسألة الاقانيم التي نعتقدها الآن بكل سكينة واطمئنان قد سالت من أجلها دماء غزيرة ونشأت من الجدال فيها حروب هائلة — هذا وإنه قد بلغ من عناية الحكومة بنشر الدين انها غفلت عن احتياجاتها الاولية فاحترمت الصوامع ورفعت عن أهلها الخدمة العسكرية وعافتهم من دفع الضرائب

فلم يكد يدخل القرن السادس حتى كانت الدولة في غاية الضعف وملئت جوانبها بالخلافات الدينية

إذاً فما هو الاسلام ؛ الاسلام دين جاء بخلاف كل ذلك فقد اعتاض عن تعدد درجات الادارة بسلطة واحدة يرجع اليها الحل والعقد في كل الامور ولم يقرر شيئا من وساطة القسيسين بين الآلهة والشعب ولم يسن نظام الصوامع وقضى على عادة العزوبة التي كانت متبعة مستفيضة بين المسيحيين في ذلك العصر وقضى أيضا على عادة التنسك والخروج من الدنيا فقرر الاشتغال بالدنيا والآخرة معا و بالجملة فقد أتى الاسلام بنظام مضاد للنظام المسيحي في ذلك العهد ملائم لحاجات الناس وهذا هو سر غلبته على الدين المسيحي

ثم ان الاسلام ارجع الدين الى حاله الطبيعية ولم يأت بشيء من تلك العقائد المسيحية الفلسفية بل قال بكل وضوح « لا إله إلا الله » و بذلك خلا الاسلام من ذلك الاعتقاد الذي قسم الدول الاوربية والذي جعل أهل مصر وآسيا الصغرى في حالة استياء من تسلط الدولة البزنطية

وكيف لا تميل هذه الشعوب الساخطة الى أهل الاسلام وهم يعلنون أنهم أهل التسامح مع مخالفيهم في الدين لا يطلبون منهم الا ضريبة يستعينون بها على اصلاح شؤونهم وشؤون الدولة الاسلامية ولقد بلغ الامر بأحد الولاة الى تثبيط دخول الذميين في الاسلام بدلا من أن يرغبهم فيه أو يكرههم عليه لان اسلامهم يقلل من دخل بيت المال

ومن هذا الوصف التاريخي الموجز يمكنكم ان تتصوروا كيف نضبت ينابيع الحياة في الدولة البزنطية وانتم تعرفون كيف انتشرت عادة التنسك والتقشف مع انها لم تقلل من فساد الاخلاق — ويمكنكم ان تدركوا كيف ان التبعة الآسيوية اعتبرت ظهور الاسلام ايذانا بنجاتهم وسعادتهم .

وأذكر أني أيام كنت أدرس تاريخ الاسلام كان الاساتذة يقررون سرعة انتشاره من دون ايقافنا على أسبابه، وغاية ما كانوا يذكرونه هو ان طبيعة العرب طبيعة

حربية وان خيولهم جيدة تكاد تسبق ظلالها !! مع ان الحقيقة ان الفتوحات العربية كانت على البغل الا ان العرب أتوا بعقيدة سهلة التناول لا تثقل الجندي المجاهد ثم انهم فوق ذلك أتوا متشبعين بروح التسامح وذلك هو سر الانقلاب العظيم الذي أعطاهم ملك آسيا وأفريقية ونصف أسبانيا :

واذا كان ذلك كذلك أدركتم ما تبع هذه النهضة من الاعمال الجليلة .

أتى العرب بعقائد سهلة ملائمة للفطرة وأعطوا الحياة الدنيا قسطها من الاعتبار فترقت العلوم والفنون والآداب باجتهادهم الذي عجز عنه المسيحيون الذين عاصروهم واني ليخيل إليّ انه كانت على أبصار مسيحيي القرون الوسطى غشاوة من تنسك منعتهم من إدراك الاشياء على حقائقها

وقد جاء العرب في الوقت نفسه بمبدأ في البحث جديد مبدأ يتفرع عن الدين نفسه وهو مبدأ التأمل والبحث .

ثم هل تعرفون بأي كتاب من كتب العهد العتيق كان يتعلق المسلمون ؟

كان اهتمامهم بكتاب ارسطو أكثر منه بخيالات أفلاطون، نعم كان كل اهتمامهم بكتاب ذلك الحكيم المدقق وواضع أساس العلم في الحقيقة ثم انهم مالوا الى الاشتغال بعلوم الطبيعة و برعوا فيها وهم الذين وضعوا أساس علم الكيمياء وقد وجد فيهم كبار الاطباء — ولفرط تقديرهم للحياة الدنيا نبغ فيهم الشعراء المجيدون الذين قالوا شعرا اذا وصفناه بانه أرضي فذلك لانه قريب من العقول يغذيها وينعمها وانه أفضل من خيالات شعراء القرون الوسطى بألف مرة فأين هذه الحياة من تخبط الغرب المسيحي في تماثيله وأوهامه وانزوائه !!

هذا واني لا أطيل القول في الشيء المشهور من أن الحضارة العربية بلغت شأوا عظيما في بغداد وقرطبة وانما يسرني ان أبحث في أسباب هذه المدنية الراقية وحدودها

واليكم أول ما يتبادر الى ذهن الباحث النزيه وهو ان الاسلام أعطى أشهى ثمرة لما سرت اليه روح المدنية القديمة خالصة من الشوائب .

ففي بغداد استفاد الاسلام قوته السياسية من تلك المدنية الفارسية التي قاومت عوادي الزمان والتي نشأ فيها من الفلاسفة والعلماء عدد عظيم وكذلك في أسبانيا حصل تمازج بين الروح الاسلامية والروح اللاتينية وسأبين لكم الآن ان افتراق هاتين الروحين كان و بالا عليهما معا

كان الباحثون في الاسلام يعتقدون ان الدين نظام كامل لايتبدل ولايتغير فيكفي ان يدرس مستقلا عن كل عامل أجنبي عنه للوقوف على قيمته ولكن الحقيقة ان كل دين يستمد جل قوته من العوامل الاجنبية التي كان له معها شأن ومن مقدار قبول الدين نفسه لتأثير هذه العوامل. وان لي كلمة على دولة الاسلام في الاندلس التي فتحها مسلمو افريقية الشمالية : انظروا الى قرطبة تلك المدينة التي سقطت الآن الى حضيض الهوان والفقر وانظروا اليها لما كانت في عهد الدولة العربية عامرة آهلة يبلغ عدد سكانها زهاء خمس مئة ألف نسمة وعدد مساجدها ثلاثة آلاف وعدد منازلها مئة وثلاثة عشر ألفا عدا ثلاث مئة من الحمامات العامة ثم اذا أردتم أن تقفوا على اخلاق أمراء المسلمين في تلك الدولة ودرجة آدابهم ورقيهم فاليكم صورة الوصية التي تركها عبد الرحمن الاول أحد خلفاء قرطبة لابنه وقد اخترتها عفواً من بين المستندات الكثيرة التي تتعلق بتاريخ الاسلام في اسبانيا:

«اعلم يابني ان الملك بيد الله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء فاحمد الله على ان وهبنا ملك الاندلس ، فعليك بتقوى الله وطاعته ، واعمل خيراً مع الناس كافة وخصوصا أولئك الذين وكل الله شؤونهم اليك ، وساوِ في حكمك وقضائك بين الفقراء والاغنياء ولا تولِّ أمور الناس الا من عرفت فيهم الحكمة والخبرة ، وعامل جندك بالشدة واللين معا ليكونوا حماة الدولة لا عونا للظلمة من الحكام. وواجب عليك أن تظل الزراع بحمايتك ، وأن تودهم بمعونتك ، لانهم مورد حياتنا واحرص على محبة الرعية لك وتعلقهم بك . . » الخ

اني أود أيها السادة أن أسمع مثل هذه الوصية من رئيس وزارتنا في زمننا هذا ولا أفكر في وصف ما كان يجري في بلادنا في القرن العاشر أي العصر الذي

قال فيه الخليفة عبد الرحمن هذا القول لاني أخشى أن تتهموني بعمل مقارنة تشوه سمعة العالم المسيحي وتظهره بمظهر مخجل

لبثت هذه المدنية التي أتت بالمدهشات والتي لا يزال الناس في حيرة من أمرها زاهية زاهرة ثمان مئة سنة · فتح العرب الاندلس في سنة أو سنتين ثم لم تنتزع من أيديهم الا بعد ثمانية قرون من حكمهم . أليس ذلك مما يدعو الى العجب؟ واذا أضفنا الى هذه المدة المئتين أو الثلاث مئة سنة التي اتسعت فيها دولة الاتراك وبلغت شأواً بعيداً من العظمة الحربية علمنا ان الدول الاسلامية ظلت صاحبة السيادة على العالم مدة ألف سنة تقريباً وهي مدة تناهز عمر الدولتين اليونانية والرومانية

ولكن ثمة أمرا يرتبط بالموضوع الذي نبحث فيه الآن (موضوع التوفيق بين المسلمين) وهو نتائج ماجرى في القسطنطينية وما جاورها من شواطيء البحر الابيض وفي الاندلس من تعارف الاسلام والمسيحية وتآلفهما

ابتدأ هذا التعارف في الاندلس بعد فترة قصيرة من الفتح الاسلامي ولا يفوتنكم أن مايرويه القصاصون من الجهاد بين النصارى والمسلمين في اسبانيا لا يطابق الحقيقة في جملته لانهم يمثلون «السيد» في قصة الفها (كورنيل) بطلا مقداما أعده قومه لمجاهدة الكفار (يريد المسلمين) في حين ان الحقيقة هي ان هذا البطل انما قدم نفسه لخدمة المسلمين وحارب في صفوفهم ومات وهو بين المسلمين يحارب اعداءهم · إن المستقرئ لاطوار العلاقات بين النصارى وأمراء الاسلام في الاندلس يعلم ان الامراء المسيحيين كانوا يستشيرون اطباء المسلمين اذا أصابهم أو أصاب أبناءهم مرض وكثيرا ماكانوا يفدون الى قصور الخلفاء ويقيمون بها حتى يتم شفاؤهم فترون أيها السادة ان هذه العادات تناقض بتة مايرجف به القصاصون من خرافة الحرب الصليبية الخالدة بين النصارى والمسلمين

لقد لزم مسلمو الاندلس التسامح مع النصارى ومودتهم حتى في الدور الذي

اضمحلت فيه دولتهم وأخذ أمراء المسيحيين ينقصونها من أطرافها فاذا اتيح لاحدكم أن يتجول في انحاء اسبانيا الآن يمكنه أن يقف على آثار العرب هناك وعلى بقايا ماشيدوه في دور اضمحلالهم ليستخلص من دراسة تلك الآثار ان الاندلس كانت بلاد غنى و رفاهة حتى في دور تضعضع سلطان المسلمين ويدهش من أنها كانت في ذلك العهد أيضا بلاد تسامح وتساهل .

في هذا العهد كانت دولة غرناطة زهرة أوربا وكان كل من يريدون أن يستنشقوا نسيم الحرية المدنية يذهبون الى تلك البلاد فارين من البلاد التي كان يحكمها الامراء المسيحيون وهي مهد القسوة والظلم هنالك يعاقب الامراء من يأسرونهم في ساحة الحرب بالقائهم الى كلاب مفترسة تمزق أجسامهم إرْباً إرْباً

لم يكن ذلك مقصورا على الاندلس بل كان بين المسلمين والمسيحيين علاقات متينة محكمة لبثت من انتهاء الحروب الصليبية الى فتح القسطنطينية . فانكم تعلمون أيها السادة ان عظمة البندقية وجنوه في العصور الوسطى راجعة الى تجارتهما مع الشرق وتعلمون مااستفدناه من احتكاكنا بالمسلمين اذ ذاك فقد كان لنا كثير من البيوت التجارية في فلسطين وسوريا واليونان ولا يخفا كم ان من أسعدهم الحظ من الغربيين بازدياد احتكاكهم بالمسلمين كان يسري اليهم كثير من عاداتهم وأخلاقهم الشريفة حتى قلقت الكنيسة الكاثولكية على أبنائها من سريان روح الاسلام اليهم ونظرت بعين الخوف الى تنازع المبادىء الاسلامية والمسيحية وخصوصا الى مبدأ التسامح الذي كان آفتهم وعدوهم اللدود ! !

هذا وان هناك حقيقة يجب أن نبينها وهو انه في هذه الفترة التي تعارف فيها المسلمون والمسيحيون أي من انتهاء الحرب الصليبية الى فتح القسطنطينية، في هذه الفترة التي تعارفت فيها المدنيتان المسيحية والاسلامية - كان الاسلام هو العنصر المؤثر والعالم الاوربي هو العنصر المتأثر ، فكانت أوربا تجلب من المشرق كل ما كانت تحتاج اليه من المصنوعات والمنسوجات وضروب الرفاهة حتى لم يعد في امكانها ان تدفع ثمن كل ماتشتريه، ومن ذلك تعلمون ان سبب اندفاع امراء أوربا في

سبيل اقتناء الذهب بأية وسيلة راجع في الاكثر الى فقر أوربا واعوازها من الحاصلات التي تتبادلها مع تجار المشرق

هذا من جهة الماديات وأما من جهة العلوم والآداب فان أوربا لبثت ثلاث مئة سنة تقتبسهما من الاسلام وكانت المدنية الغربية تجني ثمارهما اليانعة

ولكن حادثين عظيمين أوقفا سير ذلك التيار الكهربائي الذي كان يحيط بالبحر الابيض المتوسط وهما: استيلاء الاتراك على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ واستيلاء الاسبانيين على غرناطة سنة ١٤٩٢

فمن ذلك اليوم قامت حرب الاحقاد الدينية حتى انك ترى آثار التعصب الاسباني في تاريخ عرب الاندلس كالنقطة السوداء في الصحيفة البيضاء الناصعة ولاسيما في ذلك الوقت الذي حالف فيه الامير يوسف جماعة القسيسين . وفي رأيي ان تعصب الاسبانيين كان أفظع وأقل عذراً لانه جاء في زمن كانت القوة والعدد لهم . وان الاستيلاء على غرناطة الذي يفتخر به الاسبانيون والذي يحسبونه يجمل عصر فرديناند وايزابلا لم يكن في الحقيقة الا عملا وحشيا بربريا لم أعهد في التاريخ أقبح منه ، خصوصا وان امارة غرناطة لم تكن لتهدد أسبانيا في شيء لاستيلائها على ماحوالبها من الاراضي والمدن ، وانما كانت غرناطة عروس أسبانيا وزينتها — ولا بد ان يكون الاكليروس الاسباني أو الطُليطلي رأى ان يمحق هذا الجمال ويزيل هذه المدنية البديعة خدمة للمسيحية والمسيحية بريئة منه .

والأدهى من ذلك ان المسيحيين كانوا أعطوا وعودا قبل الدخول ولكنهم أخلفوها وجمعوا الكتب الجليلة وأحرقوها فتلذذوا بمنظرها وظنوا أنهم بعملهم هذا قد قضوا على دين المسلمين وآدابهم. ثم إنهم أمروا المسلمين أن يدخلوا في المسيحية كافة ولما لم يجابوا إلى طلبهم جمعوهم زمرا زمرا وحبسوهم في غرف واسعة ورشوهم بالماء اشارة إلى تعميدهم وتنصيرهم ! — ثم لما رأوا أن هؤلاء المسلمين المتنصرين لا يزالون يفتنون طمعوا في أموالهم وصاروا يظلمونهم من آن لآخر . ومن ذلك ما وصل الينا من أوامر فيليب الثاني التي يحرم عليهم فيها لبس الثياب العربية واستعمال

اللغة العربيـة والاستحمام في الحمامات العامة والسبب في هــذا الامر الاخير ان الكنيسة الاسبانية كانت ترى الاستحمام جرما لا يغفر !!!

ولقد زرت غرناطة ورأيت آثار تلك الحمامات المحكمة البناء البديعة النقوش التي أمر فيليب الثاني بتهديمها حقدا منـه على المسلمين ومطاوعة لاعتقاد الكنيسة الاسبانية انها مأوى الشياطين !! · في هذه الحمامات كان العرب يتنظفون وبهـا يتطيبون مع اننا نلاقي مصاعب عظيمة في تعويد بني وطننا على عادة الاستحمام النافع وانكم تعلمون كيف طرد المسلمون المجبرون على التنصر من وطنهم سـنة ١٦١٠ ثم كيف خانهم أصحاب السفن فألقوا متاعهم في البحر وأنزلوهم في أرض لا أنيس بها ·

وبذلك انقلب الاسـلام المتمدن بربريا نعم لما انفرد الاسـلام بنفسه بينما كانت أوربا تخطو خطوات واسعة وترقى درجات عالية أصبح كشجرات الزيتون المشوهة التي نراها في جبال تونس فهي غليظة الجزع ولكنها تثمر ثمارا غير جيّدة

هذا ولا تظنوا ان أوربا لم تتأثر من مفارقة المدنية الاسلامية فانها بدأت تشعر اليوم بالنقص — ثم هل نحن في حاجة إلى بيان ما وصلت اليه أوربا من الرقي وما انعكس من تقدمها على البلاد الاجنبية ؟

الا أنها في علاقاتها مع الاجانب عنها كانت فظة غليظة القلب ويكفي أن أذكركم بفظائع دخول الاسبانيين أمريكا لتتبينوا بأنفسكم قيمة المسيحي أيام طرد العرب من أسبانيا ولقد ضاع رشـد الاسباني حتى لم يعد يدرك معنى الحياة فيقود الامم الاجنبية ·

ولو أنكم تطالعون تاريخ الاستعمار في القرنين الاخيرين لتمثلت لكم روح الظلم والعدوان ولرأيتم ان اتساع سلطة أوربا وانتشار نفوذها انما كان باسترقاق السود وتعذيبهم ولرأيتم ان غرضها إنما كان جمع المال لاتتحرج من اتيان الشر والاعتساف كل ذلك جاءها من مغادرة الاسلام لها وافتراقه عنها — ولقـد بلغ من غلوها فى الظلم والاعتساف أنها رأت في بعض الاحايين أنه لا يستقيم لها بلد الا اذا استأصلت أهله وأهلكتهم وهكذا فعلت انكلترا في أمريكا

نعم ان براعة الاوربيين قد ظهرت في المسائل المادية فترقت العلوم والفنون والصناعات بين أيديهم · ثم انهم تحملوا المشاق وقاموا بالاعمال الجسام ولكنهم عجزوا في كل وقت عن أن يفقهوا مدنية أجنبية عن مدنيتهم وأن يقفوا على كنه عقول ليست من عقول اخوانهم في الجنس وقد أدركوا اليوم ضلالهم في خطتهم الاولى وشرعوا يتلمسون خطة جديدة غايتها تقدير نفوس الاهلين الاصليين ومعرفتها معرفة صادقة

فهذا التفسير التاريخي كاف لايقافكم على أسباب ارتقاء الاسلام تارة وأسباب أفول نجمه تارة ·

اني أيها السادة أتبع في بحثي هذا الطريقة التاريخية فلا أقصره على الوجهتين الدينية والفلسفية لاننا اذا قصرنا ابحاثنا على ذلك انسد أمامنا مجال البحث وعجزنا عن الوصول إلى حقائق الاشياء فجدير بنا اذن أن نتتبع الادوار التاريخية التي مر بها الدين لنعرف طبيعته واستعداده للارتقاء

ان لنا أن نحكم على بعض الاجناس من البشر بانها لا تقبل الارتقاء والمدنية ولكن اذا رأينا أمة كان لها في خلال العصور مدنية زاهية زاهرة فمن الظلم أن نحكم على تلك الامة بالسقوط الابدي وباستحالة يقظتها وارتقائها لان الامة التي أمكنها أن تنهض في وقت ما يمكنها أن تعيد عهد نهضتها في المستقبل

يقولون ان عقيدة القضاء والقدر هي السبب في استحالة ارتقاء المسلمين ويهمني أن أتناول في بحثي هذه المسألة التي طال عليها القدم والتي قال العلماء وكتبوا فيها كثيرا · أليس فيما يقولونه عن هذه العقيدة شيء صحيح ؟ وما هو تأثير تلك العقيدة التي يفهم الناس منها انها تحمل صاحبها على الاستسلام للحوادث من غير ان يبدي مقاومة ما ؟

الا ان مبدأ القضاء والقدر لم يختص به الاسلام بل قررته المسيحية بصفة اوضح وأجلى فاذا قلنا ان سبب انحطاط المسلمين تقرير دينهم لهذا المبدأ فماذا نقول عنه في المسيحية ؟

ان لكم ان تسألوني لماذا لم يؤثر هذا المبدأ في أبناء المسيحية واني أبدأ الجواب بقولي ان هذا المبدأ مبدأ الاستسلام للحوادث قد كان له أثر فعال في حياة المسيحيين فترة من الزمن ولكني أجيب عن هذا السؤال متبعا الطريقة التاريخية التي توخيتها في هذا البحث وهي ان كل دين لا يثمر ولا تبدو نتائجه من نفسه بل لا تظهر قيمته الا بعد ان ينتحله شعب من الشعوب

فالمسيحية ظهرت في ربوع الشام تلك البلاد الغنية الجميلة ولكن انتحلها اقوام أشداء بعيدون عن طور الحضارة في بلاد ذات هواء قاس تحدو بأهلها الى اجهاد أنفسهم فلم يأخذوا من المسيحية الا ما يلائم طبائعهم ويتفق مع اخلاقهم الشديدة، وكذلك كان الامر في الاسلام إذ لم يعرف المسلمون الاولون الاستسلام للحوادث، بل كانوا لا يتركون من يعتدي عليهم من غير أن يثأروا منه لانفسهم وتلك كانت حالهم في زمن الفتوحات فلما سرى اليهم الضعف والانحلال أصبحوا قوما جبريين يتركون المصائب تنزل بهم وتعمل فيهم ولا يقدرون على الخلاص منها مكتفين بالتسلي وقولهم « كل ذلك كان في الكتاب مسطورا » فالمبادئ الدينية تفسرها الامم بحسب ماتوحيه اليها طبائعها وأخلاقها فتأخذ اشكالا متباينة ولذلك تكون في عصر ما سببا في ارتفاع الامة وفي عصر آخر عاملا من عوامل انحطاطها

أفل نجم المدنية الاسلامية بعد ما أثمرت واينعت فترة طويلة من الزمن ولكن هذه المدنيـة تكفيها نفحة من نسيم الحياة الجـديدة لتسترجع جمالها وعظمتها وجدتها

أيها السادة : اذا كان الاسلام قد أخطأ تخطوه في تلك السذاجة التي اختص بها من دون الاديان والتي لم تأت على ما كان يقصد منها . لست ادري ان كان لنا أن نقول عن تلك الميزة انها خطأ فقـد كانت في العصور الوسطى نعمة على المسلمين الا انها انقلبت ضررا فيما بعد

ان الاسلام لم يتوسع في مبادئه وقواعده ولم يحللها تحليلا يتناول أصول الاشياء وفروعها سواء كان ذلك في دائرة الفكر أو في دائرة العمل . انظروا مثلا الى نظام

الخلافة في صدر الاسلام : كان الخلفاء يقومون باعباء الخلافة كلها أو يسندونها كلها الى عمالهم في الولايات فلم يكونوا متبعين قاعدة تقسيم العمل في ادارة شوؤن الدولة كما هي الحال في الممالك الحديثة بل كان الامير أو القائد البعيد عن رئيسه ينوب عنه في جميع مظاهر سلطنه وهو نظام كامل في عهد الفتوحات والحروب ولكنه مستحيل اذا جاء طور الحضارة وتشعبت الاعمال فلا يعود في امكان فرد واحد ان يمثل السلطة العليا التي أنابته في فروعها كافة

واذا أردتم ان تقفوا على اضرار هذا النظام فانظروا الى الطريقة المتبعة الآن في مراكش لجباية الاموال والضرائب تجدوا ان وظيفة الجباية أشق الوظائف وأصعبها فان قائد الجند هو الموكل بالجباية ولا يمثل السلطان الا بقيادته للجيش ولذلك لا يمكنه ان يجبي الاموال الا اذا سار بجيشه نحو القبائل فيصادف كثيرا من المشاق والمتاعب في سبيل القيام بوظيفة نقوم بها نحن على أسهل الطرق لما لدينا من مصالح منتظمة تقيد فيها الحسابات فلا يحدث في الجباية ارتباك وتعقيد البتة

إني أذكر ان سلطان مراكش السابق قضى حياته في الحروب الداخلية، قضاها على ظهر جواده متنقلا من قبيلة الى أخرى كل ذلك ليصل الى جباية الضرائب في حين ان الذين يقومون بهذه الوظيفة في بلادنا مثلا هم جباة من آحاد الناس يؤدونها وهم بمنجاة من التعب والنصب

فبالطرق النظامية التي نتبعها لانحتاج في جباية الضرائب الى ازهاق الارواح بل يكفينا ان نتبع الوسائل النظامية التي تتكفل القوة العامة بحمايتها وتحقيق غايتها

هذا هو خطأ الاسلام في دائرة العمل على أن هذا الخطأ — ان صح ان نسميه كذلك - ليس مما لايمكن تداركه فان تلك الصبغة العامة اللينة التي اتصفت بها مبادىء الاسلام هي التي جعلته يقبل ضروب المدنية ولا ينافيها بل يقابلها بصدر رحيب ولذلك ترون المسلمين المستنيرين لاينفرون من النظامات التى أنبتتها مدنيتنا بل ترونهم يقبلون عليها ولا يجدون من دينهم حرجا في اتباعها

أما في دائرة الفكر فينقص الاسلام أمر واحد لم يحرم منه في عهد عزه بل في

العصور الاخيرة وهي طريقة التحليل العلمي طريقة توزيع العلوم حتى يسهل على كل فريق ان ينبغ فيما انتدب له وانه يحضرني الآن مثال على ذلك:

كنت منذ عهد بعيد مشتغلا بالبحث عن حال المسلمين الفكرية وأدى بي البحث مرة الى محادثة بعض علماء المسجد الاكبر في تونس . اجتمعت معهم خفية لان المسلمين والفرنسيين كانوا لاينظرون بعين الارتياح الى التقرب بين زعماء كل من المدنيتين فقلت لاحد اولئك العلماء:

« كيف تفسرون ان كلياتكم كانت زاهية زاهرة في العصور الوسطى وانها أمدت أهل أوربا اذ ذاك بالعلوم والمعارف ثم اصبحنا الآن أعلى منكم كعبا في العلوم كافة — حاشا الدين — وسبقناكم في هذا الميدان بمراحل ؟

ان السبب الذي أراه هو أنكم متبعون الآن نفس الطريقة التي كنا نتبعها في القرون الوسطى ، انكم لاتتبعون نظام التقسيم في العلوم وتخصيص كل فريق بفرع منها بل يعمل كل منكم معتقدا أن في امكانه تحصيل العلوم كلها ، أما نحن فقد وصلنا الى درجة راقية في العلوم باتباعنا طريقة تحليل العلوم وتوزيعها وكما اننا أمكننا أن نخرج من حالنا السابقة فيمكنكم أنتم أيضا أن تخرجوا من حالكم الحاضرة الى حال أرقى منها باتباعكم هذه الطريقة نفسها »

لقد شاهدت بنفسي أيها السادة أهل تونس يقبلون على العلوم الحديثة وآنست فيهم صفات ومواهب ساعدتهم على الارتقاء في هـذا المضمار . وكأن محادثتي مع علماء تونس وترغيبي إياهم في اتباع الطرق الحديثة لتحصيل العلوم دينية كانت أو غير دينية قد أثمرت وأتت بالنتيجة المبتغاة لانها حركة اصلاحية ابتدأت في تونس وسيكون لها مستقبل كبير

أسست في حاضرة تلك البلاد جمعية بمساعي بعض التونسيين النيرين دعوها الجمعية الخلدونية نسبة الى المؤرخ المغربي الشهير عبد الرحمن بن خلدون وقد وجهت اهتمامي الى تأسيسها وأخذت أساعدها ورغبت رؤساءها في أن يقصروها على الاعضاء المسلمين وكان غرضي من ذلك ان أثبت درجة استعداد الاسـلام لتلقي العلوم الحديثة وكفاءة المسلمين لتلقين اخوانهم ثمار هذه العلوم

ولقد سبقني الى هذا الموضوع الذي أخطب فيه الآن أحد علماء المسجد الاكبر وأحد أعضاء هذه الجمعية فطفق يسرد الادلة على اتفاق الاسلام مع المدنية الحديثة وعلى مقتضى آرائه في هذا الموضوع رسمت الجمعية خطتها ولا تزال تسير بمقتضاها الى الآن

ولا يفوتني أن أذكر لكم الصعوبات التي يلاقيها القائمون بالحركة الاصلاحية من أنصار القديم فانه وان كان أهل الرأي والبصيرة من المسلمين يرون اتفاق الاسلام مع فضائل التمدن الغربي سهلا فان هناك فريقا كبيرا يطعن على هذه الحركة ويحاربها . فكر أعضاء هذه الجمعية في تجنب الاندفاع في قلب نظام التعليم القديم فلم ينشئوا دار الجمعية في مسجد الزيتونة بل تركوا المسجد على نظامه وأقاموا بجواره هذه الدار . و إنما تركوا المسجد حتى لا يثيروا عليهم سخط الجمهور

حييت الجمعية وانتشر مبدؤها بالرغم عن المعاكسات التي اعترضتها فى مبدأ أمرها لان كل اصلاح لا بد وأن يلاقي في طوره الاول معارضة ولقد كثر أعضاء هذه الجمعية وصار طلبة مسجد الزيتونة بعد أن يتلقنوا العلوم فيه على الطرق التقليدية يفدون إلى دار هذه الجمعية فيستنيرون بما يلقى فيها من العلوم الحديثة وان هذه الجمعية لا تزال في مهدها ولكن من المحقق أن سيكون لها في نهضة الاسلام يد طولى فيتحقق مبدأ القائلين : ان الاسلام لا ينافي المدنية .

بقيت مسألة جديرة بان نبحث فيها وهي ما يتخوفه بعضنا من قرب احداق خطر تيقظ المسلمين بنا . واني معبر لكم عن آرائي في هذه المسألة بالصراحة التي سمعتموها في جميع النقط التي تناولها بحثي اليوم

ان هناك أمرا يجب أن نقف على حقيقته وهو هل نقدر على ايقاف تيار هذه النهضة الاسلامية وهل في وسعنا أن نقضي عليها ؟

اعلموا أيها السادة ان هذه النهضة اذا قويت وكملت بعد أن كنا محاربين لها فلا بد أن تنقلب علينا وتتجه ضدنا وتتم على مالا نرضاه ومالا يتفق مع صالحنا البتة

ليست نهضة الاسلام بالامر الهين وليست الجزائر وتونس هما البلدين اللذين ينهض فيهما الاسلام بل هناك مصر التي حدثتكم عنها والتي خطت خطوة كبرى في نهضتها وهناك كثير من البلاد الاخرى التي حي فيها الاسلام حياة جديدة

على ان هناك اعتبارا أشرف من هذا الذي ذكرته لكم يدعونا الى أن لاننظر بعين الكره والسخط الى يقظة المسلمين وهو ان هذه الحياة الجديدة التي ابتدأ يسري روحها في العالم الاسلامي من شأنها أن تقرب بين العالمين المسيحي والاسلامي وتوفق بين المدنيتين الغربية والشرقية

يقول بعضهم : اذا كنا نفرض أن المسلمين يسيرون في طريق المدنية الغربية سيرا حثيثا فلماذا نعتبر أن ستكون هناك مدنيتان ولماذا لا تفنى المدنية الاسلامية في جسم المدنية الغربية مادام المسلمون يأخذون العلوم عنا ولان العلوم هي أساس كل مدنية ؟ على اني لا أشارك أصحاب هذا الرأي في رأيهم لان العلم له دائرة محدودة لا يتعداها وما وراء هذه الدائرة توجد أفكار ومعتقدات لها تأثير كبير في أحوال الشعوب وهذه المعتقدات هي دائرة الدين

ان الذين يقفون على الحركة العلمية في بلادنا يعتقدون أن العلم يعترف بوجود دائرة مجهولة لا تزال بعيدة عن مداركه فقد ابتدأ الفلاسفة والعلماء يوضحون تلك الحقيقة الثابتة وهي أن العلم مهما اتسعت دائرته فلا يزال أمامه عالم غامض ومهما استجلى العلم من حقائق ذلك العالم فستظل دائرة المجهول أوسع بكثير من دائرة المعلوم .

انه لا يمكن للعلم أن يمحو سلطان الاديان على النفوس مادام عالم ماوراء المادة مكتنفا بالمدهشات وعلى ذلك فلا أرى حدا لبقاء الدين الاسلامي ذلك الدين الذي أتى بأحسن العقائد وأكثرها ملائمة للفطرة والذي سعد حظه بان امتد ظله على ضفاف البحر الابيض تحت سماء صافية الاديم لم تتلبد بالغيوم كما تلبدت سماء بلادنا في الزمن السالف فظل نوره متلألئا في تلك البلاد المتنائية الاطراف ولم تقدر الحوادث على اطفاء ذلك النور الرباني الساطع

أيها السادة : ان مبــدأ التفريق بين عالم المادة وعالم ما وراء المادة قد تبيّنه المسلمون فجعلهم يقبلون على علومنا ولا يرون فيها مايناقض دينهم المشهور بالتسامح ولا أريد أن أتخذ من التونسيين برهانا على ذلك خشية أن يقال فيهم انهم انمــا يتبعون الخطة التي نوحيها اليهم والتي نقصد منها إفراغهم في قالب فرنسي يتفق مع أغراضنا الاستعمارية · بل أقول لكم انظروا إلى الاتراك وكيف وفقوا بين الدين وجنسيتهم العثمانية فأظهروا بذلك ان الحكومة الاسلامية قابلة لمبــدأ الجنسية وان مبدأ الدين فيها لا يمنعها من ان تصطحب مبادى حكوماتنا الحديثة

ان الحكومات الاسلامية لسعة مبادئها قابلة للتشكل باشكال مختلفة وهذا التشكل هو الكفيل بارتقائها · اتذكرون أيها السادة ماقاله الاقدمون في المسيحية ؟ قالوا انها اذا ارتبطت بشكل الحكومة الملكية ولم تتحول عنه كان في ذلك القضاء عليها وكذلك الحال في كل دين من الاديان فلو ان الاسلام اتخذ شكلا من اشكال الحكومات وظل باقيا عليــه لا يعدل فيه ولا يغــيره لمات موتة أبدية وافضى ذلك الى ضرره وضررنا ·

واسمحوا لي ايها السادة ان أختم كلامي بتذكيركم بتلك الكلمة التي قالها مسيو جونار حاكم الجزائر العام تلك الكلمة التي املتها الحكمة والدربة وهي : « ليس المقصود من الفتوحات مجرد الاحتفاظ بالبلاد بل هناك ماهو اسمى غرضا من ذلك وهو الاحتفاظ بالقلوب والارواح » ·

الخطبة الثانية (*

﴿ من خطبنا في الديار السورية ﴾

وهي من الخطب السياسية

أيها الاخوان الكرام

اقترحتم علي ان أقول شيئا في الدستور والاجتماع وماذا عسى ان أقول في موضوع قد تبارى فيه الخطباء الكثيرون من قبل فلم يدعوا لمن بعدهم مقالا ، ولم يغادروا لمن تأخرعنهم متردَّما ، فرب فكر فيه أريد ان ألقيه عليكم ، فيخطر في بالي انه قد وردعلى مسامعكم ،وجال في مجامعكم ، فيقف الفكر ،ويتلعثم اللسان ، ولكنني لم أحضر تلك المجامع ، ولم أسمع شيئا من تلك الاقوال ،فاذا قلت شيئاًمماقيل من قبل ،فلي فيه شيء من العذر ، ورب مكرر يحلو ،ورب إعادة ، فيها افادة ،

المراد من الدستور ان يكون حكم الامة كأن تديره بيد من تختارمن أفرادها، لا بيد رئيس يستبد فيه برأيه ،ويتصرف فيها بهواه وارادته ،وان استبداد شخص واحد بأمة كبيرة لمن أعجب أمور البشر في طور الجهل والانحطاط

أتدرون ما هي القاعدة النظرية التي يبني عليها المستبدون هيا كل سلطتهم الجائرة؟ هي ان الامة كالمجنون أو السفيه أو الولد القاصر الذي لايحسن التصرف في ملكه فلا بد له من وصي يقوم بمصالحه ، وولي يتولى تدبير أموره!!!

---

*) بعد وصولنا الى طرابلس جاء أمير الالاي عبد الحميد بك وكيل قومندان موقع طرابلس العسكري مع وفد من اعضاء جمعية الاتحاد والترقي ودعونا لزيارة نادي الجمعية فذهبنا معهم وهناك اقترحوا ان نلقي عليهم خطابا في الدستور والاجتماع فارتجلنا خطابا نثبت هنا ماتتذكر من مسائله ولعله معظم كلياتها ولا نزيد شيئا الا ان يكون في العبارة كزيادة السجع دون جوهر المعنى

هذه النظرية باطلة من عدة وجوه ولكنهم يحقونها بالقوة : هل يمكن ان تكون الامة كلها جاهلة أو سفيهة كالطفل أو المجنون فلا يوجد في سوادها الكثير أفراد يصلحون لتدبير أمرها ، وإقامة العدل والنظام فيها بالشورى دون هوى الرئيس ، و يكون ذلك الرئيس الذي يدعي حق الوصاية عليها ، والولاية على جميع مصالحها ، هو الحكم العدل ، والعاقل الرشيد ، يأخذه عن آبائه بحق الارث ، كما يرث عنهم الولاية والملك ، ؟

كلا إن ذلك أمر غير معقول ، وحكم استبدادي غير مقبول ، المشاهدة تنقضه ، والتاريخ يفنده ، فقد قرأنا في سير الغابرين ، ورأينا في حال الحاضرين ، ان اكثر الملوك والامراء المستبدين .هم أعرق أفراد أممهم في الجهل ، وأوغلهم في أفن الرأي ، وأشدهم فسادا في الارض ،

أي قاض من قضاة العدل حكم بجنون الامة أو سفهها ، ووجوب نصب فرد من الافراد وصيا عليها ؟ أي شرع يبيح للوصي ان يتصرف في حال السفيه أو القاصر تصرف المالك في ملكه ، ولمن كان في وصايته كثيرون ان يتبع في معاملتهم هواه ، فيمنع بعضهم من حقه ، و يعطي الآخر ما لا يستحقه ، كما هو شأن الملوك والامراء المستبدين !!

ألا ان هؤلاء الادعياء في وصايتهم ، المعتدين في ولايتهم ، ليسيئون التصرف في ملك الامة وفي سياستها ، فهم قد جعلوا انفسهم أوصياء عليها بالقوة القاهرة ، و بالقوة القاهرة يمنعونها من التصرف معهم ومشاركتهم بالرأي ، بل يحولون بينها و بين معرفة ما تملك ، وما لها من حق لرأي والتصرف ، لتبقى عالة عليهم ، راضية ببقاء الامر فيهم ، ولهذا يمقت المستبدون العلم و يقاومونه اشد المقاومة ، وقد رأيتم ذلك في انفسكم فقد كنتم منذ اشهر تحرقون كتب العلم ، أو تدفنونها في حنادس الليل تحت الارض ، خوفا من زبانية الاستبداد أن تدمر على بيوتكم فتراها ، فتنزل العقاب الشديد بمن اقتناها ، على انهم كانوا يعاونون الذين يهر بون السلاح ، و يساعدون الاشقياء على إفساد الامن وهضم الحقوق ، فقد كان كل ذنب مباحا أو متساهلا فيه عند حكومتنا الماضية الا ذنب العلم واقتناء الكتب والصحف الحرة ، التي كانوا يعبرون فيها بالاوزاق المضرة ،

لماذا ؟ لانهم يعلمون ان الامة اذا عرفت حقوقها ، يوشك ان تجتمع فتطلبها من طريقها ، واذاً يحرمون من التمتع بذلك السلطان المطلق ، والتصرف بتلك القناطير المقنطرة ، فقد قال حكيمنا السيد جمال الدين الافغاني : العاقل لا يظلم ولاسيما اذا كان امة

ما هو الطريق الذي تسلكه الامم لاسترجاع حقوقها المغصوبة من الملوك المستبدين ؟ ألا إنه لهو الاجتماع والتعاون : الاجتماع الذي تسوق اليه المعرفة ، والتعاون الذي يدعو اليه الشعور بالحاجة ، ومن هنا ننتقل الى الكلام على الاجتماع والجمعيات

الاجتماع على الحق قوة لا تعلوها قوة ، بهذا قد جرت سنة الله في خلقه وقد ورد في الحديث الشريف « يد الله على الجماعة » وهذا أبلغ تمثيل لعظمة هذه القوة ، وأي شيء أعظم قوة ممن كانت كلاءة الله ظلا ممدودا فوقهم ، وسنته في النجاح صراطا مستقيما أمامهم ، ألا ترون أن الحكام المستبدين يطاردون الجمعيات ، ويخافون منها ما لا يخافون من الجيوش المنظمة ، والاساطيل المدرعة ، لعلمهم ان الحق لا يغالب اذا وجد نصيرا · قال الاستاذ الامام « إنما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه »

ماذا أقول في بيان قوة الجمعيات ؟ هي التي قوضت حصون الظلم ، ودمرت هيا كل الاستبداد ، وحررت الامم والشعوب من العبودية ، وشيدت فيها صروح العلم والمدنية ، وليس الشاهد والدليل على هذا ببعيد عنكم وانتم الآن في نادي شعبة للجمعية التي أسقطت سلطة الاستبداد في المملكة العثمانية ، وأدالت منها سلطة دستورية شورية ،

أرأيتم لو أن أحدا همس في آذانكم قبل ثلاثة أشهر وأنتم تئنون من ذلك الظلم الفاحش قائلا : ان نفرا من اخوانكم العثمانيين لا يتجاوزون عدد الانامل يجتمعون في حجرة لهم نوافذها مغلقة ، وستورها مسبلة ، يتخافتون بينهم في تدبير الحيل ، واتخاذ الوسائل ، لتقويض هيكل تلك السلطة الاستبدادية ، التي أوشكت ان تقضي

على الدولة العلية ، وإعادة الدستور العثماني ، وإحياء القانون الاساسي ، فما هو رأيكم في هؤلاء المجتمعين ؟ ألا يقول اكثركم انهم مجانين (مجانين مجانين) بلى ولكن قد علمتم الآن علم اليقين ان هؤلا النفر هم الذين قوضوا تلك السلطة الظالمة ، وقضوا عليها قبل أن تقضي هي القضاء الاخير على الدولة العلية ، فما الذي أقدر ذلك العدد القليل ، على إسقاط حكومة مؤيدة بجيش عظيم ، ومال كثير ، وألوف كثيرة من الاعوان والانصار ، القابضين على زمام الاحكام ، كانت ترتعد من ظلمهم الفرائص ، وتضطرب لتصور استبدادهم القلوب ؟ إليس هو الاجتماع للمطالبة ، والتعاون على استبدال العدل بالظلم ، ؟ بلى ولو كان أولئك الانصار الاخيار من اليائسين ، كما كان اكثر العثمانيين ، لما نالت الامة العثمانية هذا النصر المبين ، الذي كان موضع إعجاب الناس أجمعين ، حتى قال كثير من ساسة أوربا وكتابها انه لم يسبق له نظير في تاريخ البشر ، لان المعهود في التاريخ أن هذه الغاية لا تنال الا بعد ثورات داخلية ،وحروب أهلية ، بين أنصار الاستبداد والظلم ، وطلاب الدستور والعدل ،

الآن قد خطر في بال كثير منكم اننا قد نلنا هذا النصر بسيوف جيوشنا ، لا بتدبير أفراد من جمعياتنا ، نعم اننا لولا جيشنا الباسل لما عملنا الآن شيئا، ولكن لا ننسى أن جيشنا قد كان منذ كان حامي السلطة الاستبدادية ونصيرها ، وعونها على قهر الامة وظهيرها ، فما عدا مما بدا ؟ أليس قد اتحد بعض ضباطه اهل العرفان والحمية ، بأولئك المجاهدين في سبيل العدل والحرية ، فكان العلم والرأي ، هما القائدين للجيش ؟ بلى

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

نلنا الحرية والدستور وأصدر قاضي محكمة الاجتماع العليا حكمه ببطلان تلك الوصاية الاستبدادية ،والولاية القهرية ، واثبات رشد الامة وأهليتها للقيام بشؤونها ، والتصرف في ملكها ، ولكن هل رشدت الامة حقيقة وصارت أهلا للتصرف النافع ، الذي تحفظ به المصالح ؟ إن الحكم الصحيح في شأن الامة العثمانية عسير جدا. فانها على اختلاف شعوبها في الاجناس واللغات والاديان والمذاهب متفاوتة تفاوتا عظيما

في التربية والتعليم اللذين يؤهلان الامم للحرية والحكم الدستوري فتكون دستورية بطبيعتها لا مقودة الى الدستور بالسلاسل

إن مجموع الترك أرقى في هذه التربية من مجموع العرب، والارمن أرقى من الاكراد، والاستانة والولايات الاوربية، أرقى من الولايات الآسيوية، وولايات سورية وسط بين ولايات أوربا و بين العراق والحجاز واليمن، وانا نرى الاستعداد في سورية ضعيفا فماذا نقول فيما دونها، فكرنا كثيرا ونحن في مصر لنختار من كل مدينة في سورية أفرادا من الاحرار الشجعان ليؤلفوا لناشعبا لجمعية الشورى العثمانية فلم نعثر في أكثر المدن على من نثق بقبوله لدعوتنا، ودخوله في جمعيتنا، دخل في الجمعية رجلان من أهل بيروت كل منهما صديق للآخر ولم يكاشف احدهما الآخر بذلك الا بعد إعلان الدستور، وناهيكم بجرأة أهل بيروت

ان العاقل الراشد اذا منع التصرف في ماله بالقوة القاهرة وطال عليه الزمن وهو لا يعمل ثم أبيح له العمل وهو غير متمرن عليه يحار في كيفية التصرف ولا يسهل عليه ان يجري فيه على طريق السداد . وقد اهتدى الى هذا المعنى أحد أغنياء بلادنا العقلاء (المرحوم محمد باشا المحمد) فقسم ثروته الواسعة في حال حياته بينه و بين أولاده ليتمرنوا تحت مراقبته على إدارة تلك المزارع والضياع لئلا تفاجئهم الثروة فيعوزهم حسن إدارتها وحفظها، وغفل عن ذلك كثير من الاغنياء فلم يأذنوا لاولادهم بالتصرف في ادارة ثروتهم ولا بالتمتع بما تستشرف له نفوسهم منها، فلم يلبث أولئك الاولاد بعد موت والديهم إلا قليلا، حتى أضاعوا جميع ما تركوه لهم إسرافا وتبذيرا، كما رأينا وشاهدنا في مصر كثيرا، واذا كانت ادارة الثروة الشخصية لا تصلح الا بالعلم والتمرن معا فكيف تكون ادارة الممالك وسياسة الامم ؟

لا يعجلن أحد بالاعتراض على هذا الكلام فيقول انه مؤيد للحكومة المطلقة التي اراحنا الله من شرها، ومعارض للحكومة الدستورية التي امتلأت القلوب رجاء في خيرها، معاذ الله أن أحتج لتلك الحكومة الظالمة بكلمة وأنا أعلم انها لو بقيت سنة أو سنتين ولم ينجح الاحرار بالوسيلة التي أخذوا بها في هذا العام لوقعت الامة

والدولة في خطر لا تؤمن عاقبته ، وإنما قلت ما قلت آنفا لانبه الافكار الى حقيقة حالنا وما يجب علينا في هذا الطور الجديد

الامة العثمانية في مجموعها مستعدة للحكم الدستوري فان فيها من الاحرار المرتقين في المعارف والاخلاق من جميع الشعوب من يرجى ان يقوم بهم هذا الحكم خير قيام ، ويؤمن عليه من عدوان الاستبداد ، ولكن ضعف استعداد الامة في كثير من البلاد يحملهم مشاق كثيرة في إقامة العدل، واصلاح حال الملك ،ومقاومة كيد المتقهقرين ، أعوان المستبدين الظالمين ،

لا تظنوا ان الاحرار الكرام الذين نلنا الدستور بسعيهم كانوا غافلين عن هذا ، كلا إنهم قد أعدوا له عدته فأخذت جمعية الاتحاد والترقي على نفسها ان تكفل الدستور الذي كانت قابلة ولادته وأمه ومرضعه الى أن يبلغ أشده ويستوي ، فانشأت لها شعبا ولجانا في كل مركز من مراكز الولايات والألوية والاقضية في المملكة ، وجعلت لها أندية سياسية اجتماعية ولها في ذلك مقصدان :

المقصد الأول مراقبة الحكومة في سيرها لاجل ان تنفذ الشريعة والقوانين في دائرة الدستور، ويحفظ الامن ويقام العدل بقدر الاستطاعة والإمكان. والمقصد الثاني نفخ روح الحياة الدستورية في الامة وتحبيب الحرية اليها بيث الآراء والافكار النافعة فيها بالخطب والمحاورات ، وحثها على التربية المليـة والتعليم العصري الذي يجعلها أمة دستورية بالطبع ، تأبى الاستبداد وتنفر منه كما تنفر من الاسقام والادواء. فحيا الله جمعية الاتحاد والترقي ، وانه يجب على الامة كلها ان تساعدها في سعيها فانه لا حياة لنا الا بالتربية الملية وتعلم الفنون العصرية ...

الانقلاب العثماني (*)

﴿ وتركيا الفتاة ﴾

٣

تفنن المابين في أكل الرشى ومنح الرتب والاوسمة

كان لرجال المابين في الارتكاب وسوء الاستعمال ظرف ورقة وتورية بديعة ، فلما أنشيء قضاء (بئر السبع) في تيه بني اسرائيل وعين له قائمقام في الاستانة قال له دولة الناظر حسبما افاد : « بالطه كيرمامش اورمانه كوندر يورم » أي اني أرسلك الى غابة لم تدخلها بلطة الحطاب . فذهب وحطب في الناس حتى عزل وأخذ تحت المحاكمة ، ثم عين في محل آخر . وهذا مثال من الف بل آلاف أمثلة للارتكاب الذي أفسد اخلاق الامة وأخرها عن اللحاق بالامم المتمدنة ، ويروي عنه الناس نوادر عجيبة واساطير غريبة تحتاج الى الجمع في كتاب او الافراغ في قالب قصصي ، وبعد ان كان تعيين الموظفين يكون بطلب الباب العالي والنظارات صار التعيين وتوجيه الرتب من المابين مباشرة !

تهافت الناس على احتجان الرتب مع لقب بك الذي لا وجود له في الحقيقة بين الالقاب الرسمية كوجود لقب باشا مثلاً ، وإنما اشتهر فريق باسم بك وفريق باسم أفندي فكانوا عند توجيه الرتبة ينظرون اذا كان الاسم مقرونا بلقب بك صدرت الارادة السنية بموجبه ونشرت في التوجيهات الرسمية ، فصار بائعو الرتب يتعمدون وضع لقب في الطلب لتصدر بموجبه الارادة السنية وتنشر في القسم الرسمي من الجرائد ، فتتناقلها الجرائد العربية وتقول وجهت الرتبة الفلانية مع لقب بك لتوهم

(*) تابع لما نشر في (ص ٧٤٣ ج ١٠ م ١١) من رسالة محمد روحي بك الخالدي العضو في مجلس المبعوثان عن القدس الشريف

القارىء ان لقب بك توجيه جديد كلقب كونت أو مركيز عند الافرنج، وامتلأت دوائر الاستانة بالموظفين بلا تمييز في جدارتهم واستحقاقهم واضطلاعهم بالعمل الذي هم فيه، ولم يكن الغرض من التعيين التحري على موظف قادر على ايفاء الوظيفة حقها من العمل، بل ايجاد وظيفة وعمل للمقربين والملتمس لهم أو للذين يخشى بأسهم !!. فزاد عدد الاعضاء في شورى الدولة عن المئتين، ونظامهم ان يكونوا سبعة وثلاثين عضوا، وكذلك مجلس المعارف ومجلس التفتيش والمعاينة الضاغط على حرية نشر الكتب وادخالها وهو الذي محا من كتب اللغة كلمات كثيرة مثل: حرية، وطن، اختلال، انقلاب، جمعية، رشاد.... كما غيرت اسماء الموظفين من عبدالحميد وسلطاني ونحو ذلك الى اسماء اخر و بعضها حرفت وكتبت سلتاني، وامتلأت نظارة المعارف بالموظفين حتى قال ناظرها الاخير لما عرضوا عليه الميزانية: لولا وجود معاشات المعلمين لامكنني وضع الموازنة !!. فكانت معاشات المعلمين تضايقهم وهم يريدون حصر المعاشات بالموظفين من الرؤساء والاعضاء والكتاب والمفتشين، وزاد عدد اعضاء الجمعية الرسوميه عن ثمانين عضوا، وكذلك مجلس الماليه والاوقاف والعسكريه والبحريه وغير ذلك من أنواع المجالس ودوائر الحكومه والمعية الشاهانية، حتى ضاقت المجالس والاقلام بالموظفين وصار أكثرهم لا يجد له كرسيا للجلوس عليه !!. وكانوا يأخذون رواتبهم وهم نائمون في بيوتهم.

اختلال المالية وارهاق الفلاح

اختلت الموازنة المالية اختلالا عظيما ادى بها الى حجز نحو نصف رواتب الموظفين والعساكر ومخصصاتهم في كل سنة، واستفحل الظلم في جباية الاموال الاميرية وطرح الاعشار وتحصيل رسوم الاغنام، وتسابق الموظفون الى المزاودة بأعشار الاقضية والالوية، وعدوا ذلك فضيلة وسببا مشروعا للمكافأة والترقي، والمكلفون من الزراع والفلاحين يئنون تحت اثقال هذه التكاليف والمظالم ولا ناصر لهم ولا مفكر في شؤونهم، وقلما كان يمر على القرية شهر من دون ان يأتيها المعشرون وجباة الاموال الاميرية ونصيب المعارف ومصرف (بنك) الزراعة وادارة

الرسوم الستة أي الديون العمومية والاعانات المختلفة، وكان الظلم اشد على المسلمين منه على المسيحيين الذين كانوا يحتمون بأديارهم وبرؤسائهم الروحيين ، ولقدسمعت كثيرا من الفلاحين انهم اضطروا الى بيع أراضيهم وتزويج بناتهم ليأخذوا صداقهن و يعطوا للجباة مايطالبونهم به من الاموال الاميرية ! ! فصار الفلاح يتجنب زراعة الارض الا بقدر حاجته الضرورية . ومن القواعد التي قررها الفيلسوف الشهير مونتسكيو مؤلف روح القوانين: «ان الاراضي يقل ايرادها بالنسبة لحرية سكانها لا بالنسبة لخصبها» فاذا كان الفلاح حرا عمر الارض الموات وجعلها خصبة بعمله وحراثته ، واذا فقد الحرية أصبحت أرضه الخصبة مواتا بسبب الظلم والاستبداد . وعليه فان مانشاهده اليوم في اوربا من العمران إنما هو نتيجة الحرية ،فحيثما توجهت فيها لاترى الامروجا نضرة واشجارا وكروما مخضرة وانهارا جارية كأنها بستان عظيم ليس فيه قطعة أرض خراب

وصار رجال المابين يحرضون الولاة والمتصرفين على الاسراع بتحصيل الاموال والبعث بها الى الاستانة ، وكان القائمون بادائها لا يدرون اين تنفق وكيف تصرف لعدم نشر الموازنة المالية (Budget) بخلاف ادارة الديون العمومية التي هي تحت مراقبة الاجانب فانها في غاية الانتظام والترقي ، تزيد وارداتها في كل سنة فتدفع رواتب موظفيها ومرتبات الديون بأوقاتها المعينة ، وقد حدا ذلك الدولة الى العود الى الثقة المالية بهـا ، وأصبح أصحاب الديون في أوربا آمنين على أموالهم ، ولو حدثت قلاقل في المملكة العثمانية فان قيمة أسهم الديون لا تتنزل إلا قليلاً ، واذا أردت المقايسة بين ادارة الديون العمومية و بين نظارة الماليـة فانظر إلى قرية من قرى الالمان أو اليهود المستعمرين في سوريا وفلسطين وما فيها من الانتظام والعمران والترقي ، والى قرى الاهالي المجاورة لها وما فيها من الفقر المدقع والخراب — يتضح لك الفرق بين الادارتين

اختلال الادارة العسكرية بادارة الجواسيس لها

اختلت ادارة العساكر البرية والبحرية ، وأصبحت لا تمرن على التعليم الناري

واصابة الهدف ، ولا تساق سوق الجيش خوفا من الهيجان وحدوث الانقلاب !! مع ان دول أوربا ولا سيما المانيا وروسيا والنمسا وفرنسا تقوم جيوشهن في كل سنة بمناورات حربيـة ، يحضرها الامبراطور نفسه مع أولاده وأسرته وجميع ضباط السفارات الاجنبية ، فيستطلعون أحوال الجند و يشوقونهم. وصار الاسطول العثماني الذي انفق على شرائه الملايين كالمقعد الذي يروم النهوض ولا يقدر عليـه لطول مكثه ، فصدأت آلاته بسبب عدم الاستعمال والجري في البحار ، واختلست أموال كثيرة من التجهيزات العسكرية ولا سيما في تجهيز الاسطول وشراء البواخر والمدرعات ، وصار الترقي في المراتب لا يبنى على القدم والاضطلاع والاستحقاق ، بل على الالتماس والانتساب والرشوة ، فكان الضابط يرتقي الى المراتب الكثيرة في أوجز مدة وقد يكون لا يعرف للجندية معنى حتى ولا احترام من فوقه في الرتبة ، وكان الضباط يبيعون رواتبهم التي تبقى دينا عند الحكومة للسماسرة بأثمان بخسة ، حتى بيعت المئة قرش بأربعة قروش ! و بيع حُلّة (بدلة) العسكري التي تشتريها الدولة بمئات من القروش بعشرين قرشا .. أي ان المستحق للراتب والحلة كان يوقع على الورقة المؤذنة بالوصول اليه على القاعدة والاصول ، كأنه استلم الحلة من مخزن الالبسة أو قبض الراتب من صندوق الخزانة ! ثم يسلمها للسمسار فيعطيه هذا في مقابلها ما يتفقان عليه ، ثم يتفق السمسار مع المحاسبه جي ومن فوقه و يربحون الفرق ، ويقيدون ذلك في الدفاتر (ايراد ومصرف) كأنها جرت على القاعدة والاصول . و بهذا أصبح الضباط في حالة يرثى لهـا . وكنت ترى ضباط البحرية البالغ عددهم نحو ستة آلاف في قهوات الاستانة خلوا من العمل يتجولون في شوارعها وحاراتها ! !

اشتبهت الادارة المستبدة في أمراء العسكرية الذين تعلموا في أوربا وخدموا الامة والوطن وصارت لهم ملكة ومعرفة تامة بأحوال الزمان ، فابعدتهم عن الاستانة وأشغلتهم بالوظائف الثانوية بداعي ميلهم الى الافكار الحرة واعادة القانون الاساسي ، ولقد بلغ عدد الراجعين منهم الى الاستانة بعد حدوث الانقلاب ستين شخصا من الباشوات وأمراء العسكرية وخمس مئة ضابط ، ومنهم رجب باشا وفؤاد

باشا الشهير وناظم باشا وهو صهر عالي باشا. وأصبحت قيادة العساكر وادارة المدارس العسكرية بأيدي اناس لا كفاءة لهم وليس لهم عمل الا التجسس على أصحاب الافكار النيرة وابعادهم عن مركز الادارة، وكانوا يعدون ذلك خدمة لمنافع السلطنة والمحافظة على الخلافة الاسلامية !!! فأصبح للتجسس والمراقبة دائرة من أعظم دوائر الدولة ، لها مراكز وشعب كثيرة ومعاشات وافرة غير الاحسانات والانعامات!!. فكان الجواسيس ينظمون التقارير في كل حادثة ومسألة صغيرة كانت أو كبيرة، ويختلقون المسائل ويفترونها ويصورونها في قوالب مستحيلة ينبذها العقل ويأباها أولو النظر الصحيح والوجدان السليم ، وما ذلك الا لاظهار خدمهم واثبات تيقظهم ومغالبتهم لنيل المكافأة ، والمابين لا يكلّ من تحقيق مضمون هذه التقارير لعله يجد في مئة كاذبة واحدا صحيحا، فاذا قالوا : « فلان له قصد سيء بالخليفة » أو « له مخابرة مع حزب تركيا الفتاة » أو « عنده أوراق ضارة » كانت كل واحدة من هذه التهم كافية للدمور على منزله وتفتيش أوراقه وهتك حرمته ثم نفيه أو حبسه أو عزله وابعاده ، فكانت شبههم هذه تدور على حدوث المؤامرة ضد الذات الملوكية والمس بحقوق الخلافة الاسلامية ، على انهم لم يتخذوا في الحقيقة سياسة اسلامية وهي المعبر عنها عند الافرنج بقولهم « بان اسلاميزم Panislamisme » كما توجد سياسة سلافية « بان سلافيزم Panslavisme » وسياسة جرمانية « بان جرمانيزم Pangermanisme » ولا تجد في دوائر الدولة كلها قلم مخصوص للمصالح الاسلامية كما يوجد في باريس وبرلين وبطرسبرج أقلام ودوائر خاصة بدرس المسائل الاسلامية درسا تاريخيا علميا للوقوف على افكار المسلمين وهيئتهم الاجتماعية ، وعلى أحوال العالم الاسلامي في مشارق الارض ومغاربها ، ليكون الوزراء والموظفون على بصيرة ويقين من حقائق هذه المسائل الحيوية الاجتماعية . فقصدهم من السياسة الاسلامية انما هو أكل الحيات والتظاهر بالكرامات والتكبر على الناس والتشبه ببني العباس لم تباشر الحكومة أمرا جديا لعمران البلاد واستخراج ثروتها الطبيعية والسير بها في معارج التمدن والرفاه، وتعليم رعاياها أصول الزراعة والتجارة وعقد الشركات والتعاون على ما فيه نفع البلاد ، بل عاكست جميع المشروعات الوطنية فكانت لا تمكن من فتح المدارس

الخصوصية أو تعليم الاولاد ولا سيما المسلمين في المدارس والبلاد الاجنبية، وحظرت تأسيس الجمعيات واطفأت حمية أرباب الهمم تذرعا بأنها تؤدي الى الثورة والانقلاب ! فكم نظر الولاة والمتصرفون شزرا الى مدرسة وطنية أسسها الفرد أو الى مدرسة سلطانية اسستها الجماعة أو الى شركة صناعية أو مالية عقدها الاهالي، وسرعان ما كانت تعطل ويمحى أثرها، وكم منعوا الآباء من ارسال أولادهم الى المدارس الاجنبية أو الى مدارس أوربا، وكم اضطهدوهم من أجل ذلك !!

ليس ما أجرته الحكومة من مد بعض الخطوط الحديدية واصلاح المرافيء التجارية وتطهير المستنقعات الا اجابة لطلب الشركات الاوربية وتوسط بعض المتنفذين للاستحصال على امتيازاتها والاستفادة بما يعود عليهم بسببها من المنافع الشخصية، فمنح الامتياز كان من قبيل الانعام والاحسان لا يكاد يتم لصاحبه ويأخذ به الفرمان السلطاني حتى يبيعه لشركة أجنبية ويربح منه الملايين فيوزع نصفها على الذين كانوا عونا له في الحصول على الامتياز، ويبقى النصف الآخر ربحا صافيا له في مقابل اتعابه بالذهاب من المابين الى نظارة النافعة (الاشغال) والصدارة، وملاحظة الخدم والكتاب والتقرب بهم الى كبير القلم أو الدائرة، وكل زيارة تحتاج الى اكرام و(شوفة خاطر) !!. روى لي احدهم عن بعض النظار انه أوقف ختم مضبطة امتياز في مد سكة حديدية كبيرة على أخذ أربعين ألف ليرة عثمانية، وانه لم يقبل أخذ حوالة على المصرف (البنك) أو قوائم نقدية خوفا من ظهور الارتكاب، واشترط ان يكون ذهباً عيناً! قال الراوي فجاؤا بالمال وصفوه على منضدة كبيرة مرخمة عمدا عمدا وكان عدد كل عمود خمسين ليرة فكان ذلك ثمان مئة عمود مصفوفة صفوفاً متوازية ملزوزة، وللاصفر الرنان فوق الرخام منظر عجيب، فلما تم العد والحساب قال دولة الناظر وكان مستلقيا على فراش الموت (تمامي ؟) يريد هل العدد تام فقيل له نعم ياسيدي تام، فاخرج الختم من كيسه المعلق في عنقه وختم المضبطة ثم توفي بعد ثلاثة أيام فكانت آخر ملذاته من نعيم الدنيا ! ! . ولذلك كان فريق من الكبراء والموظفين يتمتع بالقناطير المقنطرة من الذهب ويقبض رواتبه سلفا، وويل لعمال الخزانة ان لم يدفعوها — وفريق يتضور جوعا وهو ينتظر رواتبه المتراكمة دينا عند

الحكومة من سبعة وثمانية أشهر في السنة ، وهي التي يعوّل عليها في الانفاق على نفسه وعياله النفقة الضرورية ، وكان ضباط العساكر مظلومين أكثر من سواهم فكانت رواتبهم وتعييناتهم ــ على قلتها ــ لا تعطى لهم ، وليس تحت أيديهم أموال ينهبونها أو رعية يرتشون منها ، ولقد كان ذلك من أعظم أسباب الانقلاب ، قال فيكتور هوكو : « ان الجوع يثقب في قلب الانسان ثقبا ويملؤه حقدا »

سقوط هيبة الحكومة في بلادها وفي الخارج

ان اختلال الادارة وتذبذ بها لم يبق للحكومة قاعدة مطردة ولا أصولا مرعية لا في سياستها الداخلية ولا الخارجية ، وانما اصبحت ذات قواعد مختلفة وسياسات شتى بعضها يناقض بعضها ، فكانت تمحو في الغد ما أثبتته في الامس ، وربما غيرت سياستها مرتين في اليوم بحسب الاشخاص والوقائع ، ولهذا سقط اعتبارها عند الدول الاجنبية فتجرأن على تهديدها حتى في المسائل الحقيرة كمسألة توبني دلوراندو التي أوجبت خروج الاسطول الفرنسي الى جزيرة مدللي (متلاين) ، فصرخ إذ ذاك مارسل سامبا زعيم الاشتراكيين في مجلس النواب الفرنسي قائلا : ماهذه السياسة الخرقاء ؟ انكم لم تحركوا ساكنا في المذابح الارمنية ولم تتداخلوا فيما توجب معاهدة برلين المداخلة فيه من طلب الاصلاح واجراء العدالة الانسانية ، والآن تتكبدون النفقات باحراق فحم الامة وارسال الاسطول لحماية نفرين من المرابين اقرضوا أموالهم على ان يكون ربحهم عشرين وثلاثين في المئة حتى أصبح مايطلب لهم عين السحت !.
وسقط اعتبارها أيضا في نظر رعاياها وصار اكثر الموجودين منهم في الديار الاجنبية يأنفون ان يكونوا من رعيتها ، فكانوا يبتعدون بقدر الامكان عن سفارات الدولة وقنصلياتها ، و بعضهم استبدل التابعية الاجنبية بالتابعية العثمانية

كان أرباب الحمية والغيرة الوطنية من العثمانيين ينظرون الى هذه الاحوال بعيون الاسف والاستياء و يعتقدون ان مصدرها الوحيد هو الاستبداد ولا تخلص منه الا بتعليم الامة وتنوير ذهنها ، والرجوع في الاحكام الى الدستور المنسوب لمدحت باشا وان لم يكن كله من بنات افكاره . فكان الاستبداد ضاغطا على جميع افراد

الامة اذا لم يقتصر بضغطه على ضعفائها واحرارها وحزب تركيا الفتاة فقط ، بل شمل جميع افراد خاندان آل عثمان وجميع المقربين من رجال الدولة الذين افنوا اعمارهم في تأييد دور الاستبداد وجمع الاموال والوزراء والموظفين كافة وجميع الاهالي ولا سيما في الاستانة ، حيث بطلت الافراح والجمعيات المشروعة لعقد النكاح أو للختان، وحرم على الناس الاجتماع للسمر والحديث ، كل ذلك خوفا من الانقلاب ، وصار لايؤذن لاحد بالذهاب الى أوربا ولو كان مريضا ،كما انه لايؤذن للضباط بالتوجه الى الاستانة أو المرور بها ، وصار كبار الموظفين لابد لهم من إذن مخصوص وارادة سنية لحركاتهم الشخصية وافعالهم البيتية حتى زواج بناتهم وأولادهم !!!

دخلت يوما على السيد جمال الدين الافغاني وهو في قصر لطيف على بابه الخدم وكانت تأتيه مائدة من (المطبخ العامر) فقال: اية فائدة من هذا القصر والخدم والمائدة وانا اذا اشتهيت أكلة بفتك (شواء)أو نشر فكري في جريدة أو التنزه في ناحية من المدينة لااستطيع . أيهنأ عيش الانسان بغير الحريه !ولهذا فر الى باريس الداماد محمود جلال الدين باشا وابناه الامير صباح الدين بك والامير لطف الله بك ، وفر الى مصر احمد جلال الدين باشا رئيس الجواسيس وكثيرون غيرهم

اتحاد الارمن والاتراك فى طلب الحرية

شكلت جمعية الانقلاب الارمنية بعد مذابح ساسون المتقدم ذكرها فرقة من الثائرين هجموا على البنك العثماني في الاستانة والقوافيه القنابل سنة ١٨٩٦ ليلفتوا بذلك نظر الحكومة العثمانية والدول الاوربية الى وجوب القيام بالاصلاحات واعطاء الحرية وتعميم المساواة بين جميع الاهالي بلافرق في الدين والجنس، ثم ألفوا لجانا(Comités) كثيرة أهمها لجنة سيروب التي قاومت ست سنوات في جبال ساسون ، ثم حوّلت الجمعية نظرها الى جهة قافقاسيا(القوقاز)الروسية بسبب اضطهاد أميرها البرنس غاليتزين للارمن التابعين لروسيا وتسليط التتر المسلمين عليهم، مما أدى الى حدوث مذابح باكو وفظائعها وعدة وقائع ومقاتلات، وتصدى الثوار لقتل الرؤساء والقواد والامراء والضباط

الذين سببوا المذابح ، وكان قتل كل واحد منهم يكلف الجمعية الاموال والنفوس، فقتل بليف مثلاً سبب هلاك أربعة من اعضاء الجمعية وصرف مئتي ألف فرنك ، وكذلك القاء القنبلة في موكب صلاة الجمعة امام سراي يلديز فانه كلفهم خسائر جسيمة ، فعدلت الجمعية الارمنية بعد ذلك عن هذه الحركات ومالت الى الاتفاق مع تركيا الفتاة فعقدت مؤتمراً في ويانة حضره جماعة من الترك والارمن والمقدونيين والروم والكرد والعرب واليهود والارناؤط ، وكان الشارع في عقد هذا المؤتمر معلوميان افندي الارمني الشهير وقدتم اتفاقهم فيه على المسائل الآتية : (١) قلب الحكومة الحاضرة والسعي في تحقيق ذلك بجميع الوسائل (٢) تأسيس حكومة مقيدة دستورية لجميع رعايا المملكة العثمانية (٣) استعمال جميع الوسائل الانقلابية لتحقيق هذا المقصد . وذلك لان الحكومة المستبدة استعملت جميع الوسائل لخراب المملكة واطفاء نور العلم والحرية ، فأقفلت المدارس وحبست المعلمين ونفت التلاميذ، وان الاماكن التي بقي فيها شيء من المدارس أنقصت التعليم فيها بايجاد مراقبة لم يسبق لها مثيل . وصارت الجرائد لا تنشر من الاخبار الا ما يؤذن لها بنشره بعد التحريف والتغيير أو الاختراع من جانب المراقب . وصارت التكاليف المستوفاة بلاعدالة لا تصرف على التعليم أو التبسط في الحضارة والعمران ، بل على الجواسيس والجرائد المؤيدة للظلمة المحبذة لاعمالهم ولاسيما في البلاد الاجنبية ، وذلك لإيهام الناس ومخادعة أوربا عن أحوال الممالك العثمانية .

فمنع العثمانيين من التجول والسفر ومنعهم من اخذ تذاكر الجواز (Passes-port) أوجبا تعطيل التجارة ، كما ان استيفاء التكاليف الاميرية بطريقة غير عادلة وفقدان الامن في البلاد وتراكم المحصولات وكثرة المراباة وفقدان وسائل الاختلاط كل ذلك كان سببا قويا في خراب الزراعة . فأصبحت البلاد التي كانت مزرعة الدنيا في عهد المدنيات السابقة خرابا ، وأراضيها قفرا بلقعا ، حتى هاجر منها أهلها الذين ولدوا فيها الى أمريكا وأوربا ومستعمرات أفريقيا ، ليفتشوا لهم عن قليل من الحرية والامن وأسباب المعيشة ، فالمهاجرة والقحط أكملا العمل الذي بدئ بالمذابح وانتج الخراب للبلاد وخلوها من السكان . فلجميع ما ذكر من الاسباب أصبح الانقلاب

السياسي ضروريا لمنع انقراض المملكة العثمانية ولتوقيف انحطاطها — تلك خلاصة المذاكرات والمناقشات التي جرت في المؤتمر

نهضة جمعية الاتحاد والترقي وانتشارها

وأما فرع جمعية الاتحاد والترقي العثمانية في أوربا فانه حدث الاختلاف فيه على الرياسة ، فانقسم إلى أحزاب وفارقه الكثيرون من اعضائه ، ولكن صاحب جريدة مشورت بقي ثابتا يتوفر على اصدار جريدته في أوقاتها وغيرها من المنشورات وكان الدكتور نظمي بك السلانيكي الاصل وغيره من ذوي الغيرة الوطنية من خير الاعوان له ، وقبل حدوث الانقلاب بأربع سنين كانت جمعية الاتحاد والترقي العثمانية ضعيفة عاجزة في حكم العدم ، ولذلك لم يعبأ بها أرباب السياسة ولم يعتدّوا بأن لتركيا الفتاة حزبا موجوداً ، بل كانوا يرون ان هناك بعض المتشردين ينشرون أوراقا قليلة الجدوى لتخويف المابين ونيل الوظائف والاحسان ، وكانوا يعدون أحمد رضا بك معاندا مصرا على طلبه لتخليد اسمه بين الفلاسفة الحقيقيين ، مفضلا ذلك على حطام هذه الدنيا الفانية

تداخلت الدول الاوربية منذ أربع سنين في المسألة المكدونية أي في ولايات سلانيك وقوصوه ومناستر وطلبوا إصلاحها ، فزال منها بعض الظلم وتحسنت ادارتها تحقيقا لرغبة أوربا وخوفا من مداخلتها ، وسمحوا لاهالي تلك الولايات بقليل من الحرية ، فنفسوا بها عن صدورهم ونظروا في شؤونهم . وكانت البلغار والروم تشكل الجمعيات السرية السياسية المعروفة باسم كوميته (Comité) فسموا الداخل فيها (كوميته جي) باضافة اداة النسبة التركية إلى كلمة كوميته الافرنجية للمحافظة على قوميتهم وحقوقهم واوضاعهم ، وكانوا يبذلون أرواحهم وأموالهم في سبيلها ويظهرون من الحماسة والغيرة الوطنية مالا يقدر ولا يوصف . وكانت الحكومة المحلية تهابهم وتلاطفهم وتستميح رضاهم ، فعز ذلك على المسلمين من الترك والارناؤط سكان تلك الولايات ، واعتبروا باخوانهم في الممالك البلقانية المستقلة استقلالا كليا أو جزئيا كرومانيا والصرب والجبل الاسود واليونان والبلغار

والبوسنه والهرسك ، فاستيقظوا من نومهم وأفاقوا من غفلتهم ، وقالوا إلى متى نبقى في هذا الظلم والاعتساف والجور والاستبداد والذل والتحقير ؟

ولا يقيم على ضيم يراد به الا الاذلأن عير الحي والوتد

مالنا لا نفعل كالروم والبلغار والرومان والصرب في محبة الوطن والدفاع عنه؟ ولما سألوا مشايخهم عن ذلك أجابوهم بان الاسلام يساعد ويحض على ذلك ، ووجدوا امامهم تعليمات جمعية الاتحاد والترقي فدخلوا فيها باختيار وشوق وحمية ، عارفين بما ينتجه فملهم من الفوائد الماديه والمعنويه ، فتشكل لهذه الجمعيه مركز في سلانيك وفروع عديدة في جميع جهات الولايات الثلاث المقدونيه ، ولقد بلغ عدد اعضاء الجمعيه في سلانيك وحدها سبعة آلاف شخص ، والجواسيس غافلون لا يدرون من أمرهم شيئا ، وكان جمهور الاهالي في الولايات الثلاث المذكورة يعتقدون بانه سيصيب بلادهم ماأصاب كريد وولاية الروملي الشرقية والبوسنه والهرسك ... الخ ، ولذلك كانوا في الباطن يتمنون نجاح الجمعية وان لم يقدروا على التظاهر بذلك .

الامير صباح الدين وسياسته

اكب الامير صباح الدين على تحصيل العلم ولا سيما بعد وفاة والده فاستنار فكره، وجنح للحرية والاخذ بوسائل المدنية الحديثة ، فأسس حزبا سياسيا يعرف بحزب (المشروطية وعدم المركزية مع التشبث الشخصي) ولسان حال الحزب جريدة (ترقي) التركية وقد تأسست سنة ١٩٠٦ ومحررها هو أحمد فضلي بك كاتب الجمعية . فعدم المركزية (Décentralisation) يقسم إلى قسمين عدم مركزية سياسية مثل مستعمرة كندا الامريكية مع انكلترا . وعدم مركزية إدارية وهو عبارة عن توسيع اختصاص الولايات وتزييد حريتها وانتخاب المجالس العمومية فيها كما أشير اليه في المادة (١٠٨) من القانون الاساسي ، وجرى تطبيقه قبلا فتشكل لولايات الشام مع فلسطين مجلس عمومي اجتمع مرة واحدة في بيروت ، وكان ذلك في أيام ولاية راشد باشا الذي صار بعد ذلك ناظرا للخارجية وقتل في واقعة جركس

حسن بك . فمراد البرنس صباح الدين بك بعدم المركزية هوعدم المركزية الادارية كما صرح به لا عدم المركزية السياسية الذي هو عبارة عن مختارية الادارة مثل حكومة كندا

ومرادهم بالتشبث الشخصي ان لا تكون الاهالي عالة على حكومتهم بل ان يسلكوا سبل التجارة والصناعة والزراعة في أمر معايشهم حتى لا يكونوا منتظرين سيب الرزق من حكومتهم والانكباب على طلب الوظائف للتعيش منها ، لان السنة في الحكومات المستبدة ان ينتظر الأولاد دائما الاعانة من أسرهم والأسر من أرباب مجالسهم وأرباب المجالس من حكومتهم . ولكن الامم الانكلوسكسونية بعكس ذلك فان أولادهم يعتمدون في تحصيل الثروة على أنفسهم ويختارون الصناعة اللائقة بهم . فهذه خلاصة افكار هذا الحزب السياسي

نهاية الفساد والخراب في احوال الدولة

زاد البلاء في السنين الاخيرة وتعسر تدوير دولاب الحكومة مع اجهاد المأمورين أنفسهم في جره، فحدث في الاذهان كدر من الامس وخوف من الغد، واحتراس من كل انسان ويأس من كل شيء ونفرة زائدة و بغض وحقد كامنان في النفوس، وعلم المقربون انهم على وشك الانقراض، فضاق عليهم الوقت ولزمهم الاستعجال، فتهالكوا على ادخار الاموال واقتناء العقار، وأودع الدهاة منهم ثروتهم في مصارف أوروبا وأمريكا، وتطلبوا أعلى الرتب والمناصب فنالوها واستفادوا من الحال الحاضرة بقدر ماأمكنهم . ولم يفكر الواحد منهم الا بنفسه وأولاده ثم بالاقرب فالاقرب من أسرته ، واستماتوا في سبيل الوصول الى السعادة ونفوذ الكلمة بالتقرب ، واستحوذوا على مناصب الدولة ورتبها ونياشينها والقابها ، ووجهت رتبة امراء العسكرية ورتبة بالا العلمية على المشايخ ذوي التيجان والعمائم، ومنحوا الراحة من الخدمة العسكرية هم ومن انتسب اليهم من الرفاعية في جميع المملكة فاصبحوا لا ينتظمون في سلكها ، فكانت هذه المنحة من غريب التناقض، وكان اذا انصب الانعام على فرد أو أسرة انهمل كالغيث المتواصل وانصب

كله في زرع ذاك الفرد اوالاسرة دون ان يفيض منه شيء على المزارع المجاورة ، ولهذا قال احد الفضلاء:

أمير المؤمنين فدتك نفسي ونفس (ابي الضلال) لها فداء
اتحييه وتقتلنا جميعاً لعمرك ان ذا لهو البلاء
فلا والله ماهذا بعدل ولكن انت تفعل ماتشاء

واحتكروا أوقاف الجوامع ومزارعها بل ضبطوها ضبطاً بلا حكر ، و باعوا امتيازات الامور النافعة للاجانب فاضروا الدولة بذلك اضرارا جمة ، وشرهت نفوسهم للعجب وتتلّعت أعناقهم عظمة وكبرياء . وزاد بهم الحرص والطمع حتى فقدوا جميع المزايا الانسانية ، فصار الواحد منهم كأنه وحش مفترس ، ينقلب يوم سقوطه وابعاده عن منصب الدولة شيطانا رجيما ، كما ظهر من افعال فهيم باشا وهو منفي الى بروسه الذي أهلكه الاهالي فيها ضرباً بعد إعلان الحرية

كنا أشرنا الى هذه الحالات المنكرة المكدرة ، والى قرب حدوث الانقلاب في مقالة عنوانها «حكمة التاريخ» نشرتها جريدة طرابلس الشام في عددها (٥١٧) الصادر في ١٥ تموز (يوليو) سنة ١٩٠٣ بعد ان بدّل المراقب فيها وحرف كما أراد ، ظنا منه أنها تخفى وربما خفيت على فطنته ودقت على فهمه ، ولكنها عندما بلغت الاستانة واطلع عليها الملدوغون صدر الامر بتعطيل الجريدة ، فكاد بركان الاستياء تنفجر منه فوهات في عدة جهات ، لأن بقاء الحال على ماذكر غير ممكن في القرن العشرين ، خصوصا وان البلاد العثمانية متوسطة بين أوربا والشرق الاوسط والاقصى . ومما زاد اختلاطنا بالعالم المتمدن تجديد السكك الحديدية وتوارد بواخر الشركات الاجنبية على ثغورنا ، ومشاهدتنا صور السينماتوغراف وسماعنا اصوات الفونوغراف ، وركوبنا الترام الكهربائي والحوافل والدراجات كل ذلك كان من دواعي اختلاط الامم وامتزاجها ، واصبحت المسافة بين الاستانة وباريس اقل من ستين ساعة بعد ان كانت تقطع في شهور وأعوام

نمت النابتة الجديدة من الشبان المتعلمين في مدارس الدولة الملكية والعسكرية ، أو في المدارس الاجنبية التي افتتحها الاوربيون والامريكيون في الشرق رغم منع الحكومة

المسلمين من دخولها والتضييق عليهم وعلى أوليائهم في ذلك ، أو في المدارس الخصوصية التي اسستها طوائف الروم والارمن واليهود والبلغار ، فتعلمت النابتة الجديدة من الشبان والبنات اللغات الاجنبية ، وطالعوا الجرائد والكتب ووقفوا على مواضع الضعف في الدولة ، وادركوا محل الخلل ، وصار يتخرج في كل سنة في هذه المدارس عدد عظيم متشبعون بفكر الحرية ومتخلقون بالاخلاق الاوربية والحماسة الوطنية . فكانوا كلهم موضع شبهة أولئك الجهال المستبدين بالامر ، فضيقوا عليهم واضطهدوا هؤلاء الشبان اضطهادات كثيرة شتى كالنفي والحبس والمراقبة ودهم المنازل وتفتيش الاوراق فكانوا كلهم عرضة لاستبداد المستبدين ،

فلما حدث الانقلاب في ٢٤ تموز (يوليو) وانفجر في سلانيك وما جاورها من الولايات بركان الاستياء كان هؤلاء الشبان وجميع العثمانيين مساعدين ومعضدين لحزب تركيا الفتاة وجمعية الاتحاد والترقي ، ولذلك لم تحصل معارضة ولا مقاومة من احد لان الجميع مستاؤن حتى المستبدين انفسهم والمستفيدين من الحال الماضية والوزراء الذين اودعوا السجن واسترد منهم ما أغتصبوه من الاموال لان كلا منهم كان يتطلب اكثر مما ناله ، ولو لم يحدث الانقلاب بالصورة التي ظهر فيها لحدث بصورة اخرى بعد تبدل السلطنة ولكان اذ ذاك مدهشا دمويا

انفجار بركان الحرية وحدوث الانقلاب فى ٢٤ تموز

تسنى لجمعية الاتحاد والترقي العثمانية في سلانيك اخفاء أمرها مدة ولكن رائحتها فاحت بعد ذلك لكثرة الداخلين وصعوبة الكتم والاخفاء ، فاحسَّ بها جواسيس سلانيك و بعثوا بتقاريرهم إلى المابين ، فأُرسلت الجواسيس من الاستانة ، فقررت الجمعية اعدام الذين ثبت لديها تجسسهم وخيانتهم للوطن ، وعينت فدائيين من اعضائها بالقرعة أو بالتراضي .

وكان القائمقام ناظم بك قومندان مركز سلانيك يبذل مجهوده في كشف اسرار الجمعية فذهب اذ ذاك الى الاستانة لعرض معلوماته ، ورجع منها نائلا الفي قرش ضما على راتبه فزاد اجتهاده وتحريه ، وطلب ثانية الى الاستانة و بينما كان على

أهبة السفر اذ فوجيء بضربة من احد الضباط فذهب الى الاستانة مجروحا وحضر بعد ذلك الى سلانيك صادق باشا وماهر باشا وأميراللواء يوسف باشا و بعض الياوريه وعدة من موظفي الملكية، ونظموا دفترا باسماء كثيرين من المتهمين بعضوية الجمعية، وحبسوا ونفوا والقوا الرعب في قلوب الناس حتى كاد اليأس يستولي عليهم ، فقام في مناستر صلاح الدين بك قائمقام اركان حرب والبيكباشي نيازي بك الارناؤطي بتشكيل فرقة من العساكر الوطنية وذهبوا لناحية (رسنه) وهي في الغرب الشمالي من مدينة مناستر على مسافة ثلاثين كيلو مترا ولحق بهما كثيرون من الوطنين وانور بك البكباشي صهر ناظم بك قومندان سلانيك وكان طلب الى الاستانة ووعد بمكافأة كبيرة ولكنه اختار نفع وطنه على منفعته الذاتية

ثم قتل في سلانيك أحد الجواسيس فقلقت حكومة الاستانة قلقا عظيما وطلبت مفتي الالاي مصطفى افندي لتستفهم منه عن هذه الاحوال ، وضمت إلى معاشه خمس مئة قرش ! ! وبينما كان خارجا من الفندق للسفر الى الاستانة جرحه أحد الضباط بحضور جم غفير ، وهرب الجارح من دون ان يعارضه أحد من الحاضرين ولا أخبروا عن أشكاله وصفاته ، فندبت حكومة الاستانة للسفر الى (رسنه) الفريق الاول شمسي باشا قومندان (متروبجه) فاختار من يعتمد عليهم من الضباط وتابورا من العساكر وحضر على القطار الى سلانيك ومنها الى مناستر وذهب تو إلى إدارة التلغراف لمخابرة المابين ، فخرج عليه أحد الضباط وقتله ، وامتنع من معه من الضباط والعساكر عن الزحف على (رسنه) ومقاتلة اخوانهم

ثم قتل على هذا الوجه كثير من الجواسيس الملكيين والعسكريين فقرر مجلس الوكلاء ارسال ثلاثين ألفا من عساكر الاناضول . ولما وصل منهم إلى سلانيك الثلاثة توابير الأول امتنعوا عن مقاتلة اخوانهم وانضموا اليهم أيضا ، فأحس المابين بأن سوق عسكر الاناضول الى الروملي إنماء لقوة الجمعية فأوقف ارسال بقية عساكر الاناضول الى سلانيك . ثم اجتمع في (فيرزو بك) عشرون ألفا من الارناؤط وذهب سبع مئة من رؤسائهم الى اسكوب لاعلان القانون الاساسي والحكومة المقيدة وفي يوم الخميس ٢٣ تموز (يوليو) سنة ١٩٠٨ خرج الناس في سلانيك

صباحا ووجدوا اعلانات مختومة بختم الجمعية أي جمعية الاتحاد والترقي العثمانية تدعوهم الى الاجتماع في يوم الجمعة لاعلان القانون الاساسي والحرية ، فلم يتمهلوا للغد بل اجتمعوا في ذلك النهار في ميدان أوليمبوس على الطوار (الرصيف) في مدينة سلانيك وضج الجمهور قائلا إما الحرية واما الموت !!. وأول من خطب على طَنَف (بلكون) فندق (أوليمبوس بلاس) غالب افندي بالتركية ثم مانويل قره صو باليهودية (الاسبانية) ثم روصو افندي بالفرنسية وسليمان افندي بالتركية وفضلي بك نجيب محرر جريدة (عصر) بالتركية وفيلوطاش بابا جورج بالرومية والتركية وترجمان المحكمة المخصوصة (فوق العادة) بالبلغارية وفي ختامهم عادل بك رئيس البلدية بالتركية ثم هتف الجميع « فليحي الوطن ، فلتحي الامة ، فلتحي الجمعية ، فليحي الجيش ، الحرية أو الموت » وأعدوا في تلك الليلة مأدبة ضربت فيها الموسيقى العسكرية على الانغام المرسيلية :

Allons enfants de la patrie le jour de gloire est arrivé (1)

وكانت ترجمت بالتركية هكذا : «قالقك أي أهل وطن شان كونلري كلدي »

وفي ليلة الجمعة وردت رسالة برقية إلى حلمي باشا المفتش العام لولايات مكدونية بصدور الارادة السنية باعادة القانون الاساسي، فاجتمع الناس في سراي الحكومة ، واعلنت الحرية والقانون الاساسي رسمياً بحضور المفتش العام ومشير الفيلق الثاني ابراهيم باشا، وموظفي الحكومة والبلدية واعضاء الجمعية وابتدأ موسم الافراح والسرور .

الخلاصة واسباب الانقلاب بلاسفك دماء

حدث الانقلاب العثماني بلا سفك دماء ولا حصول اضطراب أو قلاقل في

---

(١) المنار : هذا البيت من أبيات لحن الثورة الفرنسية وترجمته بالعربية ترجمة حرفية نظما هكذا :

هلموا يا بني الوطن   فيوم المجد قد وافى

المملكة كما حصل عند باقي الامم من الانكليز والفرنسيين والامريكان والمجر والروس وغيرهم ، وفي ذلك قال بعض رجال السياسة : « لا تنبت الحرية مالم تسق بالدم » ولذلك أسباب كثيرة منها :

(١) ان الحكومة ليست حكومة مطلقة كما يظنها الناس و يسميها الافرنج (Théocratique) وانما هي مقيدة باحكام الشرع الشريف الذي يأمر بالشورى ويحض عليها كما ذكر في صدر هذه الرسالة . فالانقلاب لم يضيع حقوق السلطنة والخلافة كما ضيع انقلاب الفرنسيين وغيرهم حقوق ملوكهم المطلقة المقدسة الآلهية ! ! ! حتى انتصر لها فريق من الناس وقاتلوا في سبيل استرجاعها ولم يزالوا يطالبون بها في هذا القرن العشرين عصر التمدن والعلم والنور .

(٢) عدم وجود امتيازات لصنف من أصناف الامة العثمانية كما يوجد عند الفرنسيين للاشراف وللرهبان امتيازات وحقوق مشروعة على الاراضي بحسب عرفهم وشرعهم القديم، ولذلك قاتلوا عليها لما حدث الانقلاب الفرنسي وحرمهم من حقهم المشروع على زعمهم واعتقادهم ، أما الانقلاب العثماني فلم يضيع لاحد حقا فان الحقوق التي كانت على الاراضي للدره بكوات (دره بكلر «*») المعروفين عند الافرنج باسم (Féodalité) وهي في المملكة العثمانية حقوق الزعامة ألغيت بعد التنكيل بالانكشارية في عهد السلطان محمود خان ، وأعطي لاصحاب هذه الحقوق ضمانة ورواتب استوفوها مدة حياتهم ومنهم من لا يزال في قيد الحياة ليومنا هذا يستوفي حقه من الخزانة في كل سنة ، ووضع أخيرا قانون الاراضي الموافق لاحكام الشرع وهو من أحسن قوانين الدولة وضعا وترتيبا كما هو معلوم عند طلبة مدارس الحقوق . فالمسلمون لا فرق في الحقوق بين الشريف منهم والوضيع، وغير المسلمين « لهم مالنا وعليهم ما علينا » اما الامتيازات التي وهبها السلطان محمد

(*) المنار : يراد بكلمة (دره بكلر) في التركية أصحاب الزعامة والنفوذ الفعلي في المقاطعات وقد كانت بلاد الدولة معظمها على هذا النمط ولا سيما في الاناطول فان السلطة والنفوذ كانا في أيدي هذا الصنف من الناس

الفاتح للروم وأقرّهم عليها والامتيازات الاجنبية التي أنعم بها سلاطين آل عثمان على الاجانب تفضلاً منهم واحسانا لا بحرب وغلبة فسيجري الاتفاق عليها بصورة حبية يرضى بها الجميع .

(٣) ان الافراد الذين عزلوا من وظائفهم وصودر ما استحوذوا عليه من الاموال المنقولة وغير المنقولة بسبب ارتكابهم واستبدادهم يعترفون بانهم ادخروا هذه الاموال الكثيرة من غير الوجوه المشروعة بل بأكل أموال الامة والدولة بالباطل ، كما يعترف الاذكياء منهم بمشروعية هذا الانقلاب ولزومه وفائدته ، وقد صرحوا بذلك وأقروا به فلا يتصور قيامهم للمطالبة بشيء أو لاعادة الادارة السابقة المستبدة ، وليس لهم عصبية تساعدهم على ذلك ان هم أرادوا أو حاولوا . وإن الامة بأجمعها عرفت الحق من الباطل والنافع لها من الضار ، نعم ان الموظفين الذين خدموا مدة ثم ألغيت وظائفهم أو عزلوا منها لهم حق في طلب راتب التقاعد أو التوظيف في وظائف أخرى ، إذ لا يليق بشرف الامة ان تلقي على قارعة الطريق جماغفيرا قضوا حياتهم في خدمة الادارة السابقة ولا معاش لهم ولعيالهم غير ما كانوا يُنقدونه من الرواتب ، فان هذا الانقلاب الذي بدأ بالشفقة على الاهالي المظلومين من شأنه ان يستعمل الشفقة والحنان أيضا في حق الظالمين لتتم سعادة الامة ولا يلحق بأحد ضرر ولا خسران .

والحاصل ان الفضل في حدوث الانقلاب العثماني من دون سفك دم ولا حصول اضطراب وقلاقل في المملكة انما هو للشريعة الاسلامية وما في احكامها من العدل والمساواة في الحقوق . ولهذا كان رد الفعل أو الرجعة (Réaction) في هذا الانقلاب غير محتمل بل هو مستحيل لعدم وجود اسباب معقولة أو مشروعة تحفز اليه ، بخلاف ما حدث في فرنسا وأمثالها إذ كان للقائمين برد الفعل أسباب كثيرة تحملهم على القيام لاعادة الادارة السابقة . اه

افتتاح مجلس المبعوثان

﴿ ثلاث خطب ارتجالية في الاحتفال به ﴾

بطرابلس الشام (*

خلاصة الخطبة الاولى في ميدان التل

أيتها الامة العثمانية الكريمة

أهنئك بهذا اليوم السعيد الذي تحتفلين فيه بافتتاح مجلس المبعوثين وانني لاهنئك بأمر عظيم ، أهنئك بأنك صرت بهذا اليوم أمة ، وما أحلى هذا القول في فمي ، وأحبه الى قلبي ، نعم في هذا اليوم صار يصح إطلاق لفظ الامة عليك ولم تكوني من قبله الا عبارة عن افراد متفرقين لا يصدق عليهم هذا اللفظ على وجه الحقيقة.

يطلق لفظ الامة في عرف علماء الاجتماع والسياسة على الجمع العظيم الذي يتألف من شعوب متعددة ويرتبط بعض افراده ببعض بقوانين ومصالح مشتركة . فالاجتماع هو الاصل الذي يتحقق به معنى الامة المؤلفة من جمعيات بعضها أكبر من بعض أدناها الاسرة وهي أول اجتماع بشري وأقدمه ، وأعلاها الامة التي هي منتهى ما يصل اليه الاجتماع

هل يسوغ لنا ان ندعي أننا كنا أمة في طور الاستبداد الماضي الذي قضينا عليه القضاء المبرم في هذا اليوم ؟ كيف وقد كنا ممنوعين من كل معنى من معاني

*) احتفل بطرابلس كسائر البلاد العثمانية بافتتاح مجلس المبعوثان يوم الخميس ٢٤ ذي القعدة فخطب صاحب هذه المجلة في الاحتفال العام بميدان التل امام هيئتي الحكومة الملكية والعسكرية وجمهور الاهالي ثم خطب في نادي الجامعة العثمانية امام الهيئتين ثم في نادي جمعية الاتحاد والترقي وهذه خلاصة ما قال

الاجتماع حتى في الاسرة فقد صار الاب يهرب من ابنه والابن ينفر من أبيه والاخ يفر من أخيه خوفا من تجسس بعضهم على بعض ، وحتى صار الاجتماع في الاعراس والمآتم مخوفا ومهددا في دار السلطنة !! منع الاستبداد الماضي ان يجتمع الناس للشكوى من الظلم بأنفسهم أو بكتابة « المحاضر » وفرض عليهم ان يشكوا منفردين وان كان ما يشكون منه مشتركا بل منع شهادة التواتر الشرعية لانها لا تحصل إلا من جمع كثير . فالافراد الذين يمنعون من أصغر أنواع الاجتماع ويهددون بالعقاب عليه كيف يسوغ لهم ان يدعوا أرقى أنواعه وأعلاها ؟

اليوم قد تحقق زوال ذلك الاستبداد المفرق فاجتمع المبعوثان الذين اختارتهم الشعوب العثمانية لينوبوا عنها في القيام بمصالحها العامة كوضع القوانين والمراقبة على الحكام العاملين فبهذا الاجتماع تحقق تكوّن الامة

فهذا اليوم هو العيد الوطني الاكبر العام لجميع العثمانيين فان ما عداه من الاعياد الدينية وغير الدينية خاص ببعض الشعوب والاجناس أو بعض الاديان والمذاهب، وفي هذا اليوم يحتفل بهذا العيد المسلم والنصراني واليهودي وغيرهم ، يحتفل به التركي والعربي والالباني والرومي والكردي والارمني ، يحتفل به العثمانيون في البلاد العثمانية ، وحيثما كانوا من البلاد الاجنبية ، يحتفلون به مجتمعين ممتزجا بعضهم ببعض لانه عيد الجميع

هذا الجمع الذي نحن فيه يمثل لنا احتفالا من تلك الاحتفالات الكثيرة . أما ترون فيه الحاكم السياسي والاداري والقاضي الشرعي وأمراء العسكرية وغيرهم من رجال الحكومة ممتزجين بعلماء الدين الاسلامي وقسوس النصرانية وسائر أصناف الامة من الزرّاع والصناع والتجار والعمال وتلاميذ المدارس (١) والبِشر يتدفق من وجوه الجميع لان العيد هو عيد الجميع

ثم انني أهنئ الامة في هذا العيد السعيد بمعنى آخر وهو انها قد صارت في هذا اليوم حاكمة لنفسها بنفسها فان المبعوثين الذين اجتمعوا في هذا الوقت المبارك في دار السلطنة لينظروا في قوانين البلاد وكيفية تنفيذها فيقروا ما يشاؤن ويغيروا

(١) ذكرت هذه الاصناف مع الاشارة الى كل صنف من المتصرف الخ

ما يشاؤن لم يكن السلطان هو الذي اختارهم وولاهم هذا العمل ولا غيره من رجال الحكومة ، وليس له ولا للحكومة ان يختاروا غيرهم عند انتهاء مدتهم أو يعيدوا انتخابهم، وانما كان هذا من الامة فهي التي أنابتهم عنها للنظر في شؤونها لأن هذا الحق هو لها دون غيرها فهي إذن الحاكم الاعلى وجميع الحكام من أعلاهم الى أدناهم مستأجرون لها بمالها لاجل ان يقوموا بما لابد لها منه ولا غَناء عنه من المصالح العمومية ملتزمين في ذلك شريعتها وقوانينها التي ارتضتها لنفسها

في هذا اليوم نالت الامة هذا الشرف العظيم بالفعل ، وكانت من قبل مستعبدة للحاكم المستبد يتصرف في أموالها وأرواحها وحقوقها كما يشاء، ولا يسمح لها ان تقول ولا ان تفعل الا ما يدل على السمع والطاعة والخضوع للعبودية

بقي ان تعلموا أيها الاخوان أن حكم الامة لنفسها محصور فيما ذكرنا من اختيارها وانتخابها لمن ترى فيهم الكفاءة والاستعداد لوضع القوانين العادلة لها والمراقبة لتنفيذها والنظر في مصالحها العامة كعلاقة الدولة مع الدول الاجنبية وليس منه ما رأيناه من تجمهر بعض الافراد واجتماعهم في دار الحكومة لإلزام بعض الحكام بما يرونه ويرغبون فيه فان هذا هو عين الفوضى والخلل لا تصلح معه حال، ولا يستقر نظام ، ونسأل الله ان يتم علينا هذه النعمة ويوفق نوابنا إلى ما فيه خير الملة والامة .

* * *

خلاصة الخطبة الثانية في نادي الجامعة العثمانية

أحب أن أقول كلمة وجيزة في معنى الثقة بنجاح مجلس الامة ودوام الدستور: سمعت كثيرا من الناس يدعون الله تعالى بمثل قولهم « الله يتم بالخير » فكان يسرني هذا الدعاء من جهة ويسوئني من جهة أخرى . يسرني لانه صادر عن غيرة وحرص على نعمة الدستور وخوف على مجلس المبعوثين الذي يكفله ان يفشل أو يصيبه كيد الكائدين ، ويظفر بمراده حزب المستبدين المتقهقرين، ويسوئني بما يظهر من فحوى القول ولحن الدعاء ، من ضعف الثقة وتغليب الخوف على الرجاء ، فان هذا الخوف يكاد يقرأ على الوجوه ، ويسيل من الالسنة متدفقا عن القلوب ،

انني أدعو مع الداعين بأن يتم الله عملنا بالخير ويجعل النهاية خيرا من البداية فاننا لا نستغني عن الدعاء ، في السراء ولا في الضراء ، ولكنني أدعو وأنا ممتلئ القلب بالأمل والرجاء ، ولست أرى للخوف محلاً بفضل الله وكرمه فان حالنا اليوم لا تقاس على حالنا من مدة ثلث قرن كامل أيام عقد مجلس الامة الاول ثم حله الاستبداد فلم يلق في حله مقاومة ولا ملاما ، بل كان برداً وسلاما ،

الفرق بين مجلسنا اليوم ومجلسنا في ذلك الوقت بعيد جدا ، ان ذلك المجلس لم يكن بسعي الامة ولا برأيها ولم تكن عالمة به ولا مستعدة له ، وإنما هو من صنع مدحت باشا ابي الحرية وبعض اخوانه الوزراء والكبراء فهم الذين وضعوا القانون الاساسي ، وبسعيهم ألزموا السلطان بقبوله فأظهر القبول وأمرت الوزارة بانتخاب المبعوثين فانتخبوا واجتمعوا ولما تفرق شمل هذه الوزارة حل السلطان ما كان منعقدا ، وفرق ما كان مجتمعا ، فكان ابطال « مجلس المبعوثان » أسهل عليه من إبطال نابليون لمجلس النواب ، إذ لم يكن له من الامة عضد يؤيده ، ولا من الجيش نصير يحفظه ويعضده ، أطلقوا على ذلك المجلس لقب « أوت أفندم » (١) إذ قالوا ان الاعضاء كانوا يصادقون على كل شيء تلقيه اليهم الحكومة بكلمة « أوت أفندم » فلما أراد السلطان فض المجلس قال لهم مندوبه: اخرجوا واذهبوا إلى بلادكم ، فوضعوا أيديهم على جباههم « إشارة الطاعة » قائلين « أوت أفندم » وولوا منصرفين ، فما كان لهم من فئة ينصرونهم وما كانوا منتصرين ،

ماذا كان من أمر القوة العسكرية كالشرطة وغيرها ؟ انها هددت المبعوثين ذوي الجرءة وأنذرتهم البطش بهم اذا لم يسرعوا بالسفر من الاستانة ، فذهبوا مسرعين ذلك بأن الاستبداد خاف من بقائهم ان يحدثوا هنالك تأليبا للناس ويحملوهم على المطالبة ببقاء مجلس الامة والمحافظة على القانون الاساسي ، على أن الامة نفسها لم تكن تحفل بذلك ولا تعرف قيمته ولذلك لم يظهر منها أدنى اهتمام في مكان ما

أما الآن فقد تغيرت الحال ، واستبدل الله أقواما بأقوام ، فقد نلنا الدستور وأعدنا القانون الاساسي بسعي احرار الامة النابغين ، ومساعدة الجند وضباطه المستنيرين ،

(١) كلمة تركية معناها : نعم ياسيدي

لا بسعي أفراد من الوزراء يمكن أن يصيبهم ما أصاب مدحت اشا واخوانه من نفي واغتيال فيذهب الدستور ومجلس الامة ويموتان بموتهم. كلا إن من ورائهما ذلك الجند الباسل الذي ساعد احرار الامة على نيل هذه الرغيبة ولولاه لم نصل الى هذه النعمة ، من غير خطر على الدولة والامة ، ومن ورائهما احرارنا المنبثون في جميع الولايات العثمانية ينفخون روح الدستور فيها

تشهد أم أوربا كلها بأن الجيش العثماني أشجع جيوش العالم وأشدها بأسا وثباتا في ميادين الجلاد حتى قال الجنرال مولتك القائد الالماني الشهير الذي نكل ذلك التنكيل بالفرنسيس : اعطوني مئة الف جندي عثماني افتح بهم اوربا كلها. ولكنهم كانوا يقولون ان هذا الجيش الباسل ينقصه الضباط والقواد العارفون الصادقون . والآن يوجد عندنا عدد عظيم من هؤلاء الضباط الذين تعلموا أحسن التعليم وتربوا أعلى التربية وهم الذين كانت تطاردهم السلطة المستبدة الماضية خوف أن يقضوا على استبدادها حتى شتتت شمل الكثير منهم فكان منهم المسجونون ومنهم المنفيون ومنهم الهاربون وقد بقي في الجيش العامل منهم من قلب تلك السلطة وأراح الله البلاد العثمانية من شرها فهل نخاف اليوم على مجلس الامة وقد عاد أولئك الضباط الكثيرون من سجونهم ومنفاهم وانضموا الى اخوانهم العاملين في الجيش وكل منهم يفدي الدستور ومجلس الامة بروحه و يبذل دونها آخر نقطة من دمه ؟

كلا ان العارف بحال الدولة والجيش و بما أتته جمعية الاتحاد والترقي من الاحتياط والتدبير للمحافظة على الدستور وحماية مجلس الامة لايخالج صدره أدنى خوف على المجلس في هذا اليوم و إنما كنا نخاف على الدولة في دور الانقلاب من الخارج ، كنا نخاف ان تقوم في وجهنا أوربا فتفسد علينا عملنا وتضطرنا الى الدخول في حرب لاتؤمن عاقبتها ،أما وقد لقينا من الدول الاجنبية ميلا وانعطافا عظيمين الا ما كان من ضم النمسا ولايتي البوسنه والهرسك الى أملاكها ومن إعلان البلغار الاستقلال ولم يكن في ذلك أدنى خطر على حكومتنا الجديدة ولله الحمد والمنة ، بل رأت النمسا الحرب الاقتصادية التي ناجزتها بها الامة العثمانية ماجعلها تندم على مافعلت وتود إرضاء الدولة العلية

أما المشاغب الداخلية التي يحركها في بعض الولايات انصار الاستبداد من حزب التقهقر كالعراق والشام والحجاز فلا خوف منها ولا خطر فاذا قام مثل طالب الرفاعي، يثير حزبه من أكلة الافاعي ، ليفسدوا في الارض ويؤلبوا الاشقياء في ولاية البصرة على الدولة فان قيامه هذا لا تأثير له، ولا يعجز الحكومة الحرة استئصاله ، فان لديها من الرجال من يأكلون أكلة الافاعي ، فلا يعجزهم التنكيل بهذا الرفاعي ، كما نكلوا قبله بذلك الشقي الكردي ، فسيحبط عمل المفسدين ويستقر الامن في جميع الولايات العثمانية عن قريب ان شاء الله تعالى

ومن الناس من يخاف ان يفشل مجلس الامة ويعجز المبعوثون عن القيام بما نيط بهم وعهد اليهم من مصالح الدولة والامة ، وانني أصيح بأعلا صوتي ان هذا الخوف في غير محله أيضا . ان المجلس السابق على ما كان عليه من الضعف وماقيل من ان جميع أعضائه أرادوا ان يكونوا من حزب الحكومة حتى لقبوا بكلمة «أوت أفندم» لخضوعهم لما يراد منهم — على هذا كله قد ظهر من بعضهم أفكار وآراء حسنة واستقلال يرجى خيره لو دام فكيف يكون مجلسنا اليوم وقد ارتقت الامة بالنسبة الى زمن المجلس الاول في الاستعداد والمعارف والافكار بالرغم من اضطهاد الحكومة الاستبدادية للعلم والحرية حتى انها بنبوغ الكثيرين من رجالها قد انتصرت على الاستبداد وهو — كما قال الاستاذ الامام — في عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد ، والناس عبيد له أيّ عبيد

نعم ان مجلسنا الذي نحتفل بافتتاحه اليوم مؤلف من طائفة من الاحرار المتطرفين وطائفة من المحافظين الجامدين ، وفيه عدد قليل من المعتدلين ، وكثير من رجال العلم والدين ، وانني أرجو — كما يرجو كثير من محبي الاعتدال — ان يكون تأليفه من هذه الطبقات المختلفة التي تمثل الامة كلها أقرب الى النفع وأبعد عن الخطر فانني أعرف كثيرا من احرارنا المتطرفين يميلون الى العجلة في الاصلاح ، وقد يكون من المستعجل الزلل ، ومن تأنى نال ماتمني ، والعجلة في طور الانتقال من حال الى حال لاتخلو من خطر أو ضرر فان خاب الامل (لاسمح الله) وضعف المجلس عن الاصلاح المطلوب

الآن فان جمعية الاتحاد والترقي المباركة التي أخذت على نفسها كفالة الدستور تسعى عند الانتخاب الثاني وتجتهد في جعل جميع الاعضاء أو اكثرهم من نابغي الامة ونحمد الله ان في أمتنا من النابغين ، من يشهد لهم بالفضل والعرفان ساسة الاوربيين ، ناهيكم بأولئك الكرام الذين احدثوا هذا الانقلاب العظيم الذي ادهش عالم المدنية بما دل عليه من الحكمة والاعتدال

من الخطإ العظيم ان نطالب المجلس بأن يصلح حال الدولة ويرقي الامة في زمن قريب فان التدريج سنة الهية في الارتقاء ، والطفرة محال لا يطلبها العقلاء ، وإننا واثقون — مع الاتكال على معونة الله وتوفيقه — بأن يكون لمجلسنا من الخدمة النافعة ، ما تقتضيه مصلحة الامة في حالها الحاضرة ، آمين

* * *

خلاصة الخطبة الثالثة في نادي جمعية الاتحاد

اننا منذ أعلن الدستور ، في فرح وسرور ، الى أن أتم الله سرورنا في هذا اليوم السعيد ، الذي هو للامة العثمانية اكبر عيد ،

كانت أسباب سرورنا في الاشهر الماضية سلبية وسبب سرورنا اليوم ايجابي وجودي ، سررنا منذ اعلن الدستور بأننا صرنا آمنين على أنفسنا أي لا نخاف ان نؤخذ بتهمة جاسوس ولا وشاية واش ، آمنين على بيوتنا أي لا تستطيع الحكومة أن تدمر علينا فيها ليلا أو نهارا للبحث عن كتب العلم وصحف السياسة التي كانت تسمى في عرفها بالاوراق الضارة أو « المظرة » ، سررنا بأننا صرنا أحرارا لا يمنعنا أحد مما نريد من التعليم والتربية ولا من اظهار استعدادنا في أي عمل من الاعمال ، سررنا بأننا صرنا آمنين على أموالنا لا يستطيع أحد أن يضرب علينا ضرائب ولا أن يأخذ منا أموالا لا يفرضها علينا الشرع الذي نعتقده أو القوانين التي يضعها لنا نوابنا الذين انتخبناهم للنظر في مصالحنا — كل هذه الفوائد التي استفدناها من الدستور مذ أعلن الى اليوم معناها سلبي تفسر بلا لا لا

في هذا اليوم تبتدىء المنافع الايجابية فقد اجتمع وكلاء الامة الذين أنابتهم

عنها للقيام بما يعزز دولتها ويرقي شؤونها ، واننا ننتظر من وراء ذلك من الفوائد ما ينمي ويزيد مع الايام والسنين الى آخر الدهر ، اننا نهنيء أنفسنا بأن الامة قد صارت مذ اليوم حاكمة لنفسها وأمرها في يدها ، فما الذي يجب عليها لتكون محسنة في هذه السلطة وقادرة على استدامتها وحفظها ؟ يجب أن تُعنى بأن تكون أمة دستورية بالطبع مستقلة بالذات متحلية بالمعارف والاخلاق التي تعتز بها الامم بأن تحاول أن يصير كل فرد من أفرادها اهلا لان يَختار نواب الامة عن بصيرة أو يُختار هو بالاستحقاق

أول ما يجب علينا أن نفكر فيه ونتوجه اليه هو أن نتولى نحن بأنفسنا إصلاح أمورنا ولا نتكل على الحكومة في عمل من الاعمال التي يفرضها القانون على رجال الحكومة . فحسبنا من هؤلاء أن يقوموا بما عهد اليهم بالصدق والاستقامة ، ويجب أن يكون لهم منا عون ومساعد على ذلك ، وأن نتولى نحن سائر الامور التي تحتاج اليها الامة كتربية الاولاد ، وما يتعلق بالثروة والاقتصاد

قد تعودنا أن ننتظر كل اصلاح من الحكومة ولذلك اصابنا ذلك الفساد الكبير بفسادها ، ولا يزال كثير منا ينتظرون أن تصلح لهم الحكومة ماء البلد ، وتمهد لهم الطرق ، وتمد لهم خطوط الحديد ، وان اتكال الامة على الحكومة في كل الامور العامة صار مذ اليوم من التناقض أو مما يستلزم التناقض ، فبينا هي تفتخر بأنها صارت حاكمة لنفسها متولية لامورها اذا هي تتبرأ من كل عمل لها وتلزّه بالحكومة لزا ، وتلصقه بها الصاقا ، وان لم يكن مما يعمل مثله الحكام . فالحكومة على المعنى الاول افراد من الامة — في الغالب — تستأجرهم بمالها للقيام بأعمال مخصوصة لا تستغني الهيأة الاجتماعية عنها على الوجه الذي تحدده شريعتها (أي الامة) وقوانينها التي يضعها نوابها الذين اختارتهم لذلك ، وهي على المعنى الثاني عبارة عن رعاة والامة رعية لهم ليس لها من أمرها شيء فهم يسوسونها كما يسوس الراعي غنمه ، أو سادة يتصرفون في ملكهم وعبيدهم فما هذا البون العظيم بين الامرين !!!

انما فشل مجلس المبعوثين السابق لانه لم يكن من جانب الامة ولا كانت الامة كافلة له ولا عارفة قيمته ، ولم يكن المرحوم مدحت باشا واخوانه الذين وضعوا

القانون الاساسي وأسسوا مجلس المبعوثين يجهلون ان الاصلاح الحقيقي الذي يثبت ويدوم إنما يكون بتربية الامة وتعليمها حتى تصير أمة دستورية بالطبع لا تقبل الحكم الشخصي بحال من الاحوال ، ولكنهم رأوا هذا الطريق طويلا يحتاج الى عشرات من السنين ، ورأوا الاخطار مهطعة الى الدولة ، وأعناق الدول الطامعة ممتدة اليها ، وبراثنها ناشبة باطراف جسمها ، فعزموا على سلوك الطريق القريب وهو جعل الاصلاح من جانب الحكومة ، فعملوا ماعملوا وألزموا السلطان بإعلان القانون الاساسي · ولا يشك عاقل في كون الإصلاح اذا جاء من جانب الحكومة ، يكون أسرع من مجيئه من جانب الامة ، إذا هو ثبت ودام ، ولكن ثباته ودوامه عزيز المنال ، بل هو مع جهل الامة من قبيل المحال ،

ان الإصلاح في الأمم لا يأتي الا بالتدريج وهو انما يكون أولا بنبوغ بعض الرجال فيها ثم لا يزال يزيد النابغون حتى تكون بهم الامة من الامم الحية العزيزة القوية ، فيكون مثلهم فيها كمثل الشجرة المثمرة التي يبدو صلاح ثمراتها طائفة بعد طائفة ، وان من الشجر ما تكون بواكر ثمره غير جيدة ويجيء الجيد بعد ذلك كشجرة التين فان أول ثمرها الذي نسميه (الدافور) لا يجدي ولا يفيد ، ولكنه يكون مبشرا بماوراءه · ولقد كان شهيد الحرية والدستور مدحت باشا وإخوانه من قبيل (الدافور) من شجرة التين من حيث انهم كانوا مقدمة لصيرورة الامة العثمانية دستورية اذ تحقق ذلك من بعدهم ، ولم يتم في عهدهم ،

إن أول شيء يجب أن نوجه همتنا وعنايتنا اليه ، ونعول في حفظ شجرة الامة عليه ، هو التربية والتعليم ، اللذان يكثران فينا عدد النابغين ، فان الاحرار الذين قلبوا لنا الحال ، ونلنا بسعيهم هذه النعمة ، كلهم من ذوي التربية العالية ، الواقفين على العلوم العصرية التي عليها مدار العمران وارتقاء الممالك · وان جمعية الاتحاد والترقي التي نشيد بذكر فضلها قد تأسست أولا في المدرسة الطبية العسكرية في الاستانة ثم كان لها تأسيس آخر منذ عهد قريب

اخبرني بعض من تخرج في هذه المدرسة أن الشعور بسوء حال الدولة وبما ينذرها من الخطر قد بلغ من نفوس التلاميذ فيها مبلغا عظيما حتى ان الصائح بكلمة الدعاء

للسلطان في الوقت المعتاد صاح مرة « بادشاهم جوق يشا » ففتح التلاميذ أفواههم ولكن لم يخرج منها ذلك الصوت المعتاد الذي كان يملأ جوّها ، وما ذلك الا ان العلم بسوء الادارة وما كان يجب ان تكون عليه قد حرك في نفوسهم ذلك الشعور المحزن فعقد ألسنتهم ان تنطق بذلك الدعاء التقليدي المعتاد . فاذا لم نجتهد في تعميم التعليم الذي يمنح صاحبه هذا الشعور بحيث ينمي ويكثر فينا أمثال هؤلاء الرجال فاننا نخاف ان لايكون لهم خلف وما الموجودون منهم بخالدين ، فاذا لم ينتجوا ويجيء بعدهم من هم مثلهم وخير منهم فلا حياة في الأمة فان النتاج والنماء هما ثمرة الحياة والمقصد منها

يوجد في أكثر الولايات بل البلاد العثمانية افراد من الاحرار الذين استنارت عقولهم بالافكار العصرية ، ومعرفة طرق ترقي الامم والغيرة على المصلحة العامة ، فيجب على الامة ان تقدرهم قدرهم وأن تستعين بهم على ماينبغي لها في هذا الطور الجديد

لست أعني باعتماد الامة على نفسها دون الحكومة في التربية والتعليم ان لاتبالي بمدارس الحكومة . كلا ان الغرض الاول للحكومات من مدارسها هو تعليم طائفة من الامة مايقدرون به على القيام بأعمالها على وجه السداد ، وليس في وسع الحكومة ان تعلم جميع افراد الامة جميع مايحتاجون اليه وانما تقدم بذلك الامة نفسها ،

كيف تقوم الامة بذلك ؟ هل يعلم كل واحد نفسه ؟ هل يقول كل متعلم لمن يراه غير متعلم هلمَّ اعلمك ؟ لالا ، وانما تقوم بذلك الجمعيات الخيرية فهذا الزمن زمن الجمعيات ، ولم ترتق أمة فيه بغير الجمعيات ، وحسبكم ان بعض الجمعيات عندنا قد اسقطت الحكومة الاستبدادية ، وأدالت منها حكومة دستورية ، فأي برهان أقيمه لكم على قوة الجمعيات أوضح من هذا الذي أنتم فيه ترون أثره بأعينكم ، وتلهجون بذكره بألسنتكم

لاينتشر العلم في هذا العصر الا بالجمعيات ، ولا يرتقي نوع من أنواع العلوم الا بالجمعيات ، ولا يقوم أمر من الامور العامة الا بالجمعيات فعلينا ان نبدأ قبل كل شيء بتأسيس الجمعيات الخيرية التي تنشئ لنا المدارس والكتاتيب ، وان نعضدها بأموالنا على قدر استطاعتنا فبذلك نكون اهلا لترقية أنفسنا وترقية زراعتنا وترقية تجارتنا وسائر موارد الثروة التي تعتز بها الامة

ان في بلادنا خيرات كثيرة منعنا من الاستفادة منها الجهل والاستبداد الذي

كان يضطهد العلم ويؤيد الجهل ، فبالعلم صارت جزيرة زيلنده اكثر فائدة وانمى زراعة من مصر المشهورة بالخصب والزكاء وإن في بلادنا ماهو أخصب من أرض مصر تربة كأراضي الجزيرة بين النهرين (دجلة والفرات) التي قال هيرودس ابو التاريخ انها كانت تؤتي غلتها من مئة ضعف الى مئتي ضعف أي ان الشنبل (كالاردب) من القمح كان يغل لصاحبه مئتي شنبل . أيجوز ان تبقى هذه الارض التي لانظير لها خرابا لاينتفع منها بشيء (*

حسبنا من نعمة الدستور انا صرنا احرارا لايمنعنا مانع من الاستعداد ، ولا من العمل الذي نستغل به أرضنا ونستفيد من مواهبها الطبيعية ، وقد سمعتم من بعض الخطباء كلاما في الحرية فعنّ لي في هذا المقام أن ازيد شيئا وجيزا على ماقالوا فان المجال ذو سعة

الحرية تقابل الرق والعبودية فمعنى كوننا صرنا احرارا انا كنا من قبل مستعبدين للحاكم المستبد أو اننا الآن قد خرجنا من هذا الرق والعبودية ، كان الحاكم قادرا على ان يمنعنا من التصرف في انفسنا وأموالنا كما نشاء فأصبح عاجزا عن ذلك . كان يمنعنا بالفعل ان نظهر استعدادنا الفطري للارتقاء من العلوم والاعمال فزال هذا المنع وصار يمكننا ان نخرج من المضيق الحيوي الذي حبسنا فيه ليسهل عليه ان يجعلنا رعية ويكون لنا كالراعي للبهائم ، صار يمكننا ان نكون اناسيّ وبشرا يتمتعون بمزايا البشر .
يقول العارفون بعلم النفس وعلم الاجتماع البشري ان استعداد الانسان لايعرف له حد يقف عنده فاذا عاش البشر ملايين من السنين فانه يمكن ان يكون ارتقاؤهم فيها متصلا ومستمرا ، ويعرف هذا من قارن وقابل بين أولئك الذين يعيشون حفاة عراة في صحاري أفريقية وجبالها وفي بعض جزائر المحيط و بين هؤلاء الذين

*) ذكرت لهم بعد الخطبة حكاية الملك المستبد الذي سمع صوت بومتين تتجاوبان فسأل وزيره عن ذلك وكان الوزير قد ضاق ذرعا باستبداده فقال له انه ذكر يخطب أنثى فسألته ان يمهرها بضيعة خربة فقال لها انني أعطيك في عهد هذا الملك مئة ضيعة أو بلدة من الخراب . قلت وهكذا كان الخراب عندنا بحيث تصير أرض الجزيرة مهرا للبوم وجبال مالطه تزرع بالتراب الذي ينقل من الخارج

يخاطب بعضهم بعضا بالقول والكتابة بواسطة الاسلاك الكهربائية وبغير واسطتها مع بعد المسافات بينهم ، ويتمتعون بغير ذلك من ثمرات العلوم ونتائج المدنية الغربية

ما وصل أهل المدنية العالية في هذا العصر إلى ماوصلوا اليه من العزة والكرامة الا باطلاق العنان لجياد العقول ، في ميادين العلوم والفنون ، ومساعدة الاستعداد البشري على الرقي في معارج الكمال الاجتماعي اللائق به في ظل الحرية الظليل وحماية الدستور العادل

ولسنا نحن الشرقيين دون الغربيين استعدادا للعلوم والاعمال ولكن عبودية الاستبداد هي التي كانت تطفئ نور فطرتنا وتحجر على استعدادنا فلا تسمح لنا ان نظهر اسرار صنع الله وحكمه في خلقه ، ولا ان نتمتع بما سمح لنا الخالق الرحيم بأن نتمتع به ، كما قال في كتابه الحكيم : (هو الذي خلق لكم مافي الارض جميعا) وقال تعالى (وسخر لكم مافي السموات وما في الارض جميعاً)

كان العالم منا إذا أراد ان يؤلف كتاباً نافعا قال نذير الاستبداد إياك ان تفعل فان مولانا لا يريد ذلك ، واذا حدثت محب الفلسفة نفسه بأن يحل إشكالا ناجاه منه الاستبداد في سره إياك ان تفعل فان مولانا لا يحب ذلك ، واذا خطر في بال أحد ان يبحث في اسرار الخليقة ليخترع شيئا ينفع الامة اسرّ له رسول الاستبداد : إياك ان تفعل فان مولانا لا يروق له ذلك ، كان لا يتجرأ أحد على إظهار أثر علمي أو عملي يرقي الامة في عقولها ونفوسها ، في دينها أو دنياها ، الاوجد الاستبداد له بالمرصاد ، وناله منه ماتعلمون من الاضطهاد ،

فالحرية ! هي تحرير البشر من هذه العبودية ، الحرية هي التي يكون بها البشر بشرا ، لاغنما ولا بقرا ، فالانتفاع من الحرية يجب ان يكون بتوجيه الاستعداد الانساني إلى العلوم والاعمال التي ترتقي بها الامة والأخذ بها بلا شرط ولا قيد ، لا باتباع الشهوات ، واتيان الفواحش والمنكرات ، ولهذا كان الحكماء ومحبو الانسانية ينشدون الحرية ، ويبذلون في الجهاد في سبيلها أموالهم وأنفسهم ، ولا غروَ فهم العالمون بالاسرار الالهية ، المودعة في الغرائز البشرية ، وبكونها لا تظهر الا في دائرة الحرية ،

ومن فوائد الدستور المساواة وقد خاض في بيانها الخطباء فأحب ان أزيد عليهم كلمة في إزالة شبهة للناس فيها : يظن بعض الناس ان الدستور جعل الناس كلهم في مرتبة واحدة من كل وجه . وهذا من المحال الذي لا ينال بالدستور ولا بغيره وانما جعل الدستور الناس سواء في الحقوق — كما قال الخطيب السابق — فالغني والفقير ، والصعلوك والامير ، والعالم والجاهل ، والنبيه والخامل ، كلهم سواء في الحقوق ليس لأحد ان يعتدي على أحد في نفسه ، ولا ماله ولا يراعيَ الحاكم أحدا منهم ويهضم الآخر

أما المساواة في المواهب والغرائز وآثارها فليس للدستور فيها شأن فقد فضّل الله بعض الناس على بعض في الرزق والعلم والعقل كما نطق به كتابه ، ودلت عليه سنته في خلقه ، وله في ذلك الحكمة البالغة ، ولو جعل أفراد البشر سواء من كل وجه لما كان الانسان هو هذا النوع من الخلق الذي يظهر اسرار الطبيعة ، ويتمتع بما فيها من الحكم البديعة ، ولما تيسر للبشر ان يوجدوا الخبز الذي يأكلونه والثياب التي يلبسونها

ان تفاوت الناس في العقول والاخلاق ، هو الذي مكنهم من القيام بما ترون من الآثار والاعمال ، فان اختراع السفن البرية والبحرية واستعمالها مثلا لابد فيه من العلماء الطبيعيين الذين اكتشفوا فوائد البخار والكهرباء والمهندسين والميكانيكيين كما انه لا بد له من الفعلة لاستخراج الفحم من المناجم ومن الوقادين لوضعه في النار وهذان العملان من أشق الاعمال وأصعبها . أفرأيتم من كان مستعدا للاكتشاف والاختراع في العلوم وللسياسة والامارة هل تتوجه نفسه وهل يرضى بأن يستخرج الفحم من مناجمه في الارض أو بأن يقذفه في النار ؟ أو تتوجه نفسه لنحو ذلك من الاعمال الحقيرة التي لا بد منها في الاجتماع البشري كالكناسة وما في معناها ؟ كلا إن هذا النوع من المساواة ما كان ولن يكون وانما يتقارب الناس ويتعاطفون بتعميم التربية والتعليم ، فنسأل الله أن يهدي الامة العثمانية في ذلك إلى الصراط المستقيم

باب التربية والتعليم

﴿ اصلاح التعليم الديني في الاستانة ﴾

هذا ملخص مطالب طلاب دار الفنون في الاستانة من نظارة المعارف وقد ذكرت جرائد الاستانة ان طلبهم قد أجيب :

١ — تدريس التفسير الشريف بتقرير معاني القرآن الحكيم الظاهرة وأسباب نزوله و بيان الناسخ والمنسوخ وتطبيق ذلك على القوانين الفلسفية

٢ — تدريس الحديث الشريف وان تكون مدة تدريس البخاري أربع سنين

٣ — تدريس أصول الحديث مع تراجم رواته وطرق أسانيده

٤ — تدريس أصول الفقه و بيان قواعده الكلية وتقرير تعاليمه وتفرعاته وتدريس الفروق في القواعد والاصول بين المذاهب الأربعة

٥ — تدريس الفقه مع بيان القواعد الفقهية والفروع ، ومأخذ ذلك من الادلة الشرعية الاربعة مع إيضاح الحكمة الشرعية في ذلك وفلسفة الاحكام

٦ — تدريس التاريخ الاسلامي

٧ — تدريس تواريخ الاديان المشهورة

٨ — تدريس السيرة النبوية بالتفصيل

٩ — تدريس التوحيد وذلك بان تنبذ طرق تدريس التوحيد القديمة ويلقى علم التوحيد إلقاءً عمليا يوافق الزمان والبيئة ، و يترك من علم الكلام الالوف من خرافات الفلسفة القديمة التي امتزجت به

١٠ — تدريس الدين الاسلامي وبقية الاديان : وذلك بتدريس المقايسات بين أصول الدين الاسلامي وقواعده وأصول باقي الاديان وقواعدها

١١ ـ تعليم طرق الدفاع عن الدين الاسلامي قولاً وكتابة وأصول المباحثة فيه
١٢ ـ تعليم أصول التدريس والتعليم وعلم تربية الاطفال بطريقة نظرية وعملية
١٣ ـ تدريس الحكمة والفلسفة على الطريقة الجديدة
١٤ ـ تدريس علم الاخلاق نظريا وعمليا
١٥ ـ تدريس علم الروح
١٦ ـ تدريس التاريخ العام
١٧ ـ تدريس أصول الانشاء بالتركي والعربي
١٨ ـ ايضاح تشبث المسيحيين ولاسيما البروتستانت بنشر دينهم وأساليبه
١٩ ـ تعليم القاء المواعظ والنصائح وأصول الخطابة على الطراز الجديد

باب الأخبار والآراء

رحلة صاحب المنار في سوريا

﴿٢﴾

القلمون

مكثت في طرابلس أسبوعا زارني في أثنائه أكثر أهل القلمون وأخذوا يستعجلونني بالخروج إليها فلما كان يوم الموعد الذي ضربته لهم انقسم أهلها شطرين أحدهما جاء طرابلس لأجل أن يكون معي وأكثر افراده من الشبان والكهول ، والآخر خرج لاستقبالنا مسافة ربع الطريق وثلثه ونصفه بين القلمون وطرابلس، وأكثره من الشيوخ والنساء والاطفال والمسافة كلها ساعة ونصف

كان عدد كثير من الشبان يحملون السلاح فطفقوا منذ خرجنا من طرابلس يطلقون بنادقهم ومسدساتهم في الهواء فرغبت اليهم ان يكفوا عن ذلك فامتثلوا حتى اذا ما وصلنا الى الموضع المعروف بأبي حلقة الفينا فيه نفرا من شبان طرابلس

فحيونا بإطلاق البارود والرصاص في الهواء فأجابهم من معنا بمثل تحيتهم بل بأحسن منها فلم أنكر عليهم ذلك لعلمي بأن العرف يقضي بتسجيل العار عليهم إذا لم يفعلوا. وكذلك فعلوا عند ما اشرفوا من رابية «ظهر الرويسات» على القلمون لإيذان من بقي فيها بقدومنا وعند ما وصلنا الى دارنا ايضا لانه من قبيل سلام المفارقة. وقد ذكرت هذا لانه من العادات التي لم أكن أعرفها من قبل وسيأتي ذكر شيء آخر في معناه

وكان من حفاوة أهل القلمون بي أن حمل بعض نسائها مجامر العود الهندي وغيره من البخور أمامي من طرابلس الى القلمون وكان فيمن خرج للقاء ممن بقي فيها من يحمل المجامر أيضا . وقد راعني وأثر في نفسي رؤية الأولاد الصغار من بنين و بنات في الخامسة والسادسة فما فوق يتعسفون الطريق ويتسلقون الروابي بين الاشواك والحجارة ، تبعوا في ذلك آباءهم وأمهاتهم واخوتهم واخواتهم وكان النساء يغنين ويزغردن ولهن في ذلك أغاني مناسبة للمقام ، وهذه العادة قديمة عند نساء البادية والقرى والبلاد التي لم يتسع نطاق الحضارة فيها : وقد ورد في هذا الباب ان النساء استقبلن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قدومه إلى المدينة وهن يضربن بالدفوف وينشدن الاناشيد ومنها قولهن

طلع البدر علينا　　من ثنيّات الوداع
وجب الشكر علينا　　ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا　　جئت بالأمر المطاع

وكان فيمن خرج للقائنا مسافة نصف ساعة شيوخ وعجائز في عشر التسعين وعشر المئة من السن وهم صائمون وصحتهم جيدة بل مشى الى طرابلس اكثر من واحد من هؤلاء المعمرين . وأهل القلمون يعمرون لاعتدالهم في معيشتهم ورياضتهم الدائمة بالعمل في الارض مع جودة الهواء والماء فالخمر لا تدخل القلمون ولا يشربها أحد من أهلها والفاحشة غير معروفة فيها ولله الحمد والمنة ، وهاتان الكبيرتان هما افتك بصحة الناس من كل ما يأتيه الناس

سألت رجلا من هؤلاء الشيوخ (هو الحاج علي طوط) عن سنه فقال : أربع وسبعون سنة . وهو يواظب على صلاة الفجر في المسجد غلسا وربما يجيئه قبل

طلوع الفجر حتى في أوقات المطر والبرد كهذه الايام . ويمشي عدة ساعات في النهار وهو صائم . وسألت رجلا آخر (هو السيد عبد القادر علي) عن سنه فقال لا أدري ولكنه ذكر لي حكايات منها انه كان ملاحا في البحر فجاءه مرة علي طوط ليعمل معه عمل البحر فلم يقبله لانه صغير لا يستطيع ان يحرك المجذاف . فالظاهر من هذا انه يكبره بزهاء خمس عشرة سنة فهو قد ناهز العشرة الاولى بعد المئة أو جاوزها ولا يزال يصوم ويعمل في أرضه بالعزق وشيبه غير تام . فليعتبر بهذا بعض الشبان والكهول المتفرنجين في مصر وغيرها الذين يزين لهم الترف والتهاون بالدين ترك الصيام محافظة على الصحة !! ولو عقلوا لعلموا ان البطنة هي التي تفسد عليهم صحتهم حتى ان أكثرهم ليتناول الادوية والعقاقير والمياه المعدنية لاجل إصلاح المعدة والمعى وتسهيل الهضم وهم في سن الشباب فماذا تراهم يفعلون إن شاخوا ؟ على انه قلما يشيخ منهم أحد !

ومما يفيد ذكره في هذا الباب : باب الاعتبار بحال الناس في الدين ان أهل القلمون كانوا بهدي بيتنا أبعد مسلمي بلادنا عن البدع كما انهم أبعدهم عن المعاصي . ولما انتهى دور الارشاد فيهم إليّ رأيت عندهم من البدع انهم يوقدون السرج والشموع عند قبرين أحدهما قبر السيد محمد القصيباتي الحسني المشهور في المقبرة القديمة وهو أحد أجدادهم وأجدادنا من جهة الامهات وثانيهما قبر بني حديثا عند عُليقة على شاطئ البحر وكانوا يربطون بهذه العُليقة خرقا صغيرة يقتطعونها من ثيابهم الخلِقة يسمونها آثارا لأجل شفاء المرضى ، وكل من هذا وذاك معروف في جميع البلاد . فما زلت أنهاهم وأعظهم حتى تركوا البدعتين نساء ورجالا وصار من يزور القبور منهم يكتفي بالسلام على الموتى والدعاء لهم والتفكر في الموت والآخرة كما هو المأثور

وكان أكثر النساء من غير أسرتنا تاركات للصلاة وجاهلات بأحكامها وأحكام الطهارة وآداب الزوجية فجعلت لهن مكانا أعظهن وأعلمهن به كما أعلم الرجال في المسجد فصلحت حالهن في زمن قريب وكنّ أسرع امتثالا من الرجال . وكذلك كان يوجد رجال يتركون الصلاة ولا يحضرون الدرس في المسجد فكنت اختلف اليهم في بيوتهم وأذكر انه استعصي واحد من البلداء الخاملين فأمرت الشبان فسحبوه

سحبا ولكنه لم يواظب وأعيانا أمره فاكتفيت منه بوعد مكذوب . وكان فيها رجال يسرقون الثمرات كثيرا وغيرها من المتاع قليلا ، فندر ذلك ندورا ، كأن لم يكن شيئا مذكورا ، وكان عمدتي في وعظهم وتعليمهم كتاب إحياء العلوم وكتاب الزواجر وشرح المنهاج فصار فيهم متفقهون في دينهم يستحضرون مالا يستحضره كثير من العلماء المدرسين وكلهم من الفعلة والفلاحين والصيادين

على هذا تركت القلمون عند ما سافرت الى مصر ولذلك قال أزهد الزاهدين ، وبقية السلف الصالحين ، العالم الأصولي السائح المعتبر الشيخ عبد الباقي الافغاني رحمه الله تعالى : لو بقي رشيد في بلده يعلم الناس ويرشدهم لكان خيرا له من الذهاب إلى مصر حيث لا يستطيع ان ينفع كما ينفع هنا . قال هذا عندماذ كرسفري له وهو لا يعلم ان قصدي بالسفر التصدي لإرشاد أعظم ، وتعليم أعم وأشمل ،

ولما عدت اليها في هذه الايام علمت انه قد فتن كثير من أهلها فتركوا الصلاة واتصل بعضهم بالذين اعتدوا على بيتنا من أشقياء طرابلس فأغراهم هؤلاء بقطع الاشجار وشهادة الزور وإضاعة الحقوق وكادوا يجذبونهم الى الخمر والفحشاء والقيادة . أغروهم بالمال وغروهم بأنهم يحمونهم من الحكومة وإن سلبوا ونهبوا وضربوا وقتلوا ، فسلسوا لهم وساعدوهم على نهب بيتنا ، وتقطيع الاشجار من بعض بساتيننا وكرومنا ، ونحمد الله ان كان هؤلاء المغرورون قليلين ، وأن كان أكثر الأهالي لهم ولمضليهم من الكارهين ، ونحمده أن جعل الشر أضعف من الخير

عدت الى هؤلاء الناس وهم قومي الذين أغار عليهم مالا أغار على سواهم وكنت أظن أن مالي من مثال الهداية والدين في نفوسهم قد صغر وتضاءل في هذه الفترة فاذا هو قد كبر وعظم حتى صار خياليا مقرونا بشيء من الخرافات فقد كان الرجال والنساء والاطفال يفدون على دارنا ليلا ونهارا ومعهم الضعفاء والمرضى والمُخدجون يلتمسون الشفاء مني باللمس والرُّقى وكتابة النشرات ومايعبرون عنه بالحرز والحجاب على ان في رجالهم من يعرف رأيي في ذلك فكنت اتلطف في بيان الحق لهم بقدر مايسمح به المقام ويليق بحال المخاطب وأحثهم على المداراة الصحية والتداوي ومراجعة الاطباء عند الحاجة وقد سبق للمنار البحث في هذه المسائل والجمع بين الاحاديث

الواردة في الرقى كحديث إقرار الذين رقوا الملدوغ بسورة الفاتحة وحديث وصف الذين يدخلون الجنة بغير حساب بأنهم لايسترقون على أن إقناع النساء بلباب الحق في هذه المسائل عسير، ولا يتم ولو مع الارشاد في زمن قصير، ونسأل الله تعالى ان لايجعلنا فتنة لانفسنا، ولا لمن يحسن الظن بنا،

قلت مرة لعبد الرحمن افندي الكواكبي (رحمه الله) لوتيسر لنا ان نجعل بعض محبي الاصلاح المعتصمين بالكتاب والسنة شيوخا للطريق لامكن لنا بذلك هداية العامة بسهولة ولكن هؤلاء المصلحين قليلون ولا يكاد أحد منهم يرضى بأن يكون شيخا لطريقة من الطرق. فقال إننا قد جربنا ما ذكرت فأقنعنا رجلا من الصالحين المستنيرين في حلب بأن يكون من شيوخ الطريق فيرجع العامة عن بدعهم وخرافاتهم ويهديهم الى طريق الدين السويّ فقبل بعد إباء ونفور فلما رأى إقبال العامة عليه واعتقادهم صلاحه وبركته فتن بذلك وجاراهم في اعتقادهم فكانوا سببا لضلاله بدلا من ان يكون سببا لهدايتهم وخسرناه خسارة لامطمع في رجوعها (راجع تفسير قوله تعالى «ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا» الآيات في الجزء الثاني من تفسير القرآن الحكيم أوفي المنار)

عقدت في القلمون عدة مجالس للوعظ والتذكير قل من تخلف عنها من حاضري القرية فتاب الناس توبة يغلب على ظني ان اكثرهم صادق فيها ولا أخشى من الاصرار على الفساد الا على نفر قليل من الموالين لبعض الاشقياء الغرباء الذين أشرت اليهم فيما سبق من القول. وقد الفت لهم جمعية عنوانها قوله تعالى «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان» وجعلت لها صلة بجمعية التعاون التي سعيت بتأسيسها في طرابلس

دده وسائر الكورة

بدأت الوفود تفد من الكورة على القلمون للسلام علينا منذ اليوم الثاني من وصولنا اليها كرئيس دير البلمند ووجهاء البلاد من المسلمين والنصارى وقد نزل معظم أهل «دده» – وهي على قمة الجبل بازاء القلمون على الساحل — بعد العشاء وهم يطلقون البارود من بنادقهم والرصاص من مسدساتهم ويهزجون بالاغاني فتلقاهم

شبان القلمون في خارجها وأدخلوهم باحتفال يناسب ماهم فيه وقد قيل لي ان من الرسوم المعتادة في ذلك أنه لولم يخرج شبان القلمون للقائهم لما دخلوها لان ذلك يعدّ من الاهانة في عرفهم · وعند وصولهم الى دارنا تحلقوا أمامها وطفقوا يهزجرن و يطلقون العيارات النارية الى قريب من نصف الليل ثم انصرفوا مشيعين مشكورين وكان زعيمهم في هذا الاحتفال الامير علي عبد الرحمن الايوبي

وجميع الاناشيد التي هزجوا بها مناسبة لمقتضى الحال ولعل اكثرها ارتجالي فانه في الترحيب بالقادم (صاحب هذه المجلة)وفيها إطراء له بالاعمال السياسية والعلمية وقد ذكر بعض القوّالين المسلمين فيما أنشده عبارة معناها : لولاك يافلان لما ارتفع شأن الاسلام فأجابه رفيق له من النصارى بعبارة معناها انه ليس لكم وحدكم وانه قد طبع لنا الانجيل يعني بذلك انجيل برنابا !!وقد أضحكتني هذه العبارة وأضحكت كل من سمع بها من العارفين بانجيل برنابا ·فحبذا هذه السذاجة مع هذا الاتفاق بين المسلمين والنصارى الذي حمدت عليه أهل دده حمدا جميلا (للرحلة بقية)

خطاب السلطان

« في افتتاح مجلس المبعوثان »

أيها الأعيان والنواب

« بسبب الصعاب التي قامت في وجه انفاذ الدستور الذي وضعته موضع الاجراء عند ارتقائي العرش أوقف هذا القانون يومئذ الاضطرار الذي أشار اليه كبار الحكومة ، وأجل انفاذ القانون وارجيء عقد المجلس الى وقت يصل فيه الشعب الى الدرجة المرومة من التقدم بواسطة نشر التعليم العام ، وقفت عنايتي على ايجاد الرقي في جميع انحاء بلادي ، و بفضل نشر التعليم العام ارتقت درجة افهام جميع طبقات شعبنا و بناء على الرغبة التي أعلنت ولان هذه الرغبة تضمن في الحاضر والمستقبل خير بلادنا لم نتردد — رغم الذين كانوا على رأي مخالف — في اعلان الدستور

ثانية وأمرنا باجراء انتخابات جديدة . ودعونا مجلس المبعوثان للاجتماع . وعلى أثر تغيير طريقة الحكم الاداري اسندنا منصب الصدارة العظمى الى كامل باشا.

وبينا كان مجلس النظار المؤلف تحت رياسته عاكفا على تنظيم الحكومة الدستورية خرج أمير بلغاريا ووالي الروملي الشرقية عن حدود الامانة لسلطنتنا لسبب ما وأعلن استقلال بلغاريا وعلى أثر هذا العمل أخذت النمسا وهنغاريا أيضا بضم البوسنه والهرسك اللتين سلم اليها احتلالهما وقتيا بمعاهدة برلين. فابلغت اقرارها الى الباب العالي والى الدول . فهذان الحادثان العظيمان اللذان يخترقان حرمة المعاهدات ويمسان الصلات . سببا لنا اسفاً عظيماً

وعلى أثر اختراق حرمة المعاهدات سلمنا مجلس نظارنا مهمة عمل الواجب للدفاع عن حقوق حكومتنا . وانا نود في كل حال معاونة مجلس المبعوثان . وبما ان صلاتنا مع جميع الدول حسنة ووثيقة . فلنا الامل انه مع معاونة الدول صديقاتنا تحل المسائل السياسية

وانا نود من صميم الفؤاد تنظيم المالية، وتسوية موازنة الميزانية، ومواصلة تحسين حالة سلطنتنا وزيادة عدد المدارس لزيادة نشر التعليم العام، وابلاغ جيشنا وبحريتنا درجة الكمال . وكذلك تنظيم الدوائر المختلفة التي وضعت مشروعات قوانين شتى ستعرض على مجلس المبعوثان ومجلس الاعيان لإقرارها

وعلى أمل ان مبعوثانا سيبذلون كل جهدهم في هذه السبيل نعلن اليوم اذاً فتح مجلس المبعوثان

ومنتهى متمنانا سعادة الامة ونجاحها وأقصى رغبتنا وآكدها وعزيمتنا الثابتة التي لا تتغير ان تكون ادارة البلاد مطابقة للدستور

نسأل الله أن يحصر مجلس المبعوثان كل قواه في خدمة البلاد وخيرها

(المنار) : بعد ان تلا رئيس كتاب المابين هذا الخطاب نطق السلطان بهذه الجملة بصوت خافت «اني كثير السرور برؤيتكم مجتمعين امامي هنا واسأل الله ان يكلل أعمالنا بالنجاح والتوفيق» ولقد كان للخطبة وقع سيء في الاستانة وانتقدتها الصحف ثمة انتقادا شديدا

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب



يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿ مصر — الجمعة ٢٩ ذي الحجة ١٣٢٦ — ٢٢ يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٠٩ ﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(١٦٥ : ١٥٩) أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا ؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٦ : ١٦٠) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٧ : ١٦١) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٨ : ١٦٢) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ

وَقَعَدُوا — : لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ؛ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ *

بعد تبرئة الرسول صلى الله عليه وسلم من الغلول و بيان ما بعث لأجله عاد الكلام الى كشف الشبهات التي عرضت للغزاة في واقعة أحُد والرد على المنافقين و بيان ضلالهم في أقوالهم وأفعالهم قال تعالى ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنّى هذا ؟ ﴾ قال المفسرون ان الاستفهام الأول للتقريع و « لما » بمعنى « حين » والمصيبة ما أصابهم يوم أحُد من ظهور المشركين عليهم وقد تقدم بيانه . والمشهور ان معنى إصابتهم مثليها هو كونهم قتلوا في بدر سبعين من المشركين وأسروا سبعين ، والمشركون لم يقتلوا منهم يوم أحُد غير سبعين رجلا . فجعل الاسرى في حكم القتلى للتمكن من قتلهم . وقال بعضهم ان المراد بالمصيبة الهزيمة و بالمثلين هزيمة المؤمنين للمشركين يوم بدر وهزيمتهم إياهم يوم أحد . ويحتمل ان يكون ما نالوه يوم أحد من المشركين في أول الامر هو مثلي ما ناله المشركون منهم في ذلك اليوم بعد ترك الرُّماة مركزهم واخلائهم ظهور المسلمين لخيل المشركين (راجع: ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه) . واما قولهم : أنى هذا ؟ فهو تعجب منهم أي من أين جاءنا هذا المصاب . قال الاستاذ الامام : الكلام إنكار لتعجبهم و بيان لمنة الله تعالى عليهم حتى في واقعة أحد فان خذلانهم فيها لم يبلغ مبلغ ظفرهم في بدر بل كان نصرهم هناك ضعفي انتصار المشركين هنا . كأنه يقول لماذا نسيتم فضل الله عليكم في بدر فلم تذكروه ؟! وأخذتم تعجبون مما أصابكم في أحُد وتسألون عن سببه ومصدره ! وقال المفسرون ان سبب تعجبهم مما أصابهم هو اعتقادهم انهم لابد ان ينتصروا وهم مسلمون يقاتلون في سبيل الله وفيهم رسوله . وتقدم كشف هذه الشبهة في تفسير الآيات السابقة وقد ذكر هنا تعجبهم ليبني عليه هذا الجواب وما فيه من الحكم لأولي الالباب ، وهو :

﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ فانكم أخطأتم الرأي بخروجكم من المدينة الى

أحد وكان الرأي ما رآه النبي (ص) من البقاء فيها حتى اذا مادخلها المشركون عليهم قاتلوهم على افواه الأزقة والشوارع ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من سطوح المنازل وروي هذا عن الربيع ، ثم إنكم فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم الرسول طمعا في الغنيمة ففارق الرُّماة منكم موقعهم الذي اقامهم فيه لحماية ظهوركم بنضح عدوكم بالنبل اذا أراد ان يكر عليكم من ورائكم .هذا المتبادر المشهور والمعقول المعنى الموافق لقاعدة كون العقوبات آثارا لازمة للأعمال وروي عن عكرمة . ويروى عن الحسن ان ماحصل يوم أحد من المصيبة كان عقابا على أخذ الفداء عن اسرى بدر الذي عاتب الله عليه نبيه بقوله (٨ : ٦٧ ما كان لنبي ان يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة) الخ وقووه بما رواه ابن أبي شيبة والترمذي وحسنه والنسائي عن علي كرم الله وجهه قال: جاء جبريل إلى النبي (ص) فقال يا محمد ان الله تعالى قد كره ما فعل قومك في أخذهم الاسارى وقد أمرك ان تخيرهم بين أمرين إما أن يقدموا فتضرب أعناقهم واما ان يأخذوا منهم الفداء على ان يقتل منهم عدتهم . فدعا رسول الله (ص) الناس فذكر لهم ذلك فقالوا يارسول عشائرنا وإخواننا نأخذ فداءهم ، تتقوى به على قتال عدونا ويستشهد منا عدتهم فليس ذلك ما نكره . فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلا عدة أسارى أهل بدر . وأقول ما أرى أن هذا يصح عن علي رضي الله عنه فانه بعيد عن المعقول وكيف يصح والمأثور أن أخذ الفداء كان من رأي النبي صلى الله عليه وسلم ورأي أبي بكر رضي الله عنه وحاشا لهما ان يرضيا بأخذ مال يعاقبون عليه بقتل سبعين مؤمنا ! ! وقد تقدم لنا بحث كون العقوبات آثاراً طبيعية للأعمال فليرجع اليه من شاء

﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ لا يعجزه تنفيذ سننه بعقاب المسيء وإثابة المحسن وإقامة النظام العام في الكائنات ، بربط الاسباب بالمسببات ، فلا يشذ عن ذلك مؤمن ولا كافر ، ولا بر ولا فاجر ، قال الأستاذ الامام بناء على كون وجه تعجبهم هو وجود الرسول (ص) فيهم : أي ان الرسول (ص) لا ينفع

أمة قد خالفت السنن والطبائع فلا تغتروا بوجودكم معه ، مع المخالفة لله وله ، فهو لايحميكم ، مما تقتضيه سنن الله فيكم ،

ومن مباحث اللفظ في الآية ان قوله تعالى « أولما » فيه وجهان أحدهما أن همزة الاستفهام قدمت على الواو لأن لها الصدارة والواو عاطفة للجملة الاستفهامية .. وثانيهما ان الواو عاطفة لما بعدها على محذوف قبلها هو الجملة الاستفهامية والتقدير : أأخطأتم الرأي في الخروج الى أحد وفعلتم ما فعلتم من الفشل والعصيان ولم تبالوا بذلك وتفكروا في عاقبته ولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم انى هذا تعجبا منه واستغرابا ؟ . وقدر بعضهم غير ذلك

﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبأذن الله ﴾ قال الاستاذ الامام : أي لاعجزاً في القدرة ولا قهرا للارادة وهذا صريح في أن قدرته لايمنعها وجود الرسول فيهم . أقول أي وكل ما اصابكم أيها المؤمنون يوم التقى جمعكم بجمع المشركين في احد فهو بإذن الله أي ارادته الازلية وقضائه السابق بأن تكون السنن العامة في الاسباب والمسببات مطردة فكل عسكر يخطيء الرأي و يعصي القائد ويخلي بين العدو و بين ظهره يصاب بمثل ما اصبتم أو بما هو أشد منه .هذا هو معنى مايروى عن ابن عباس (رض) من تفسير الاذن هنا بقضاء الله وحكمه وفيه تسلية للمؤمنين كما قيل وعبرة وعلم عال يجلي لهم قوله السابق في هذا السياق «قد دخلت من قبلكم سنن» وذهب بعض المفسرين الى ان الاذن هنا عبارة عن التخلية وعدم المعارضة والمنع على سبيل المجاز أي انه تعالى لم يمنع المشركين من الايقاع بالمؤمنين بعناية خاصة منه لانهم لم يستحقوا تلك العناية منه سبحانه وقد فشلوا في الامر وعصوا الرسول فقد وقع ذلك لانه تعالى اذن به واراده ﴿ وليعلم المؤمنين ﴾ أي حالهم من قوة الايمان وضعفه والاستفادة من المصائب حتى لايعودوا الى اسبابها والعلم بسنن الله عند مايظهر فيهم حكمها في الشدة والبأس أي ليظهر علمه بذلك و يترتب عليه مقتضاه . وقد تقدم الكلام على التعليل بالعلم فارجع الى تفسير قوله تعالى «وليعلم الذين آمنوا » من هذا السياق فما هو ببعيد. فالتعليل الأول المأخوذ من قوله « فبإذن الله » لبيان السبب والتعليل الثاني لبيان الحكمة والفائدة في ذلك وعطف عليه قوله عز وجل

﴿وليعلم الذين نافقوا﴾ ليبين في هذه الآية وما بعدها حال المنافقين مع المؤمنين كما بيّن من قبل حال الكافرين معهم، والذين نافقوا هم الذين أظهروا الايمان وتبطنوا الكفر، قال ابن الانباري انه مأخوذ من النفق وهو السرب فهم يتسترون بالاسلام كما يتستر الرجل في السرب ، وقال غيره انه مشتق من النافقاء وهو جحر اليربوع أو احد بابيه، قال ابو عبيدة انه يجعل بجحره بابين احدهما القاصعاء والآخر النافقاء فاذا طلب من أحدهما خرج من الآخر، وهكذا شأن المنافق يظهر للمؤمنين من باب الايمان وللكافرين من باب الكفر فاذا اصابته مشقة من أحدهما لجأ الى الآخر . وقال غيره ان النافقاء جحر اليربوع يحفره في الارض ويرققه من اعلاه فاذا رابه شيء فخاف على نفسه دفع التراب برأسه وخرج، فقيل للمنافق منافق لانه يضمر الكفر في باطنه فاذا فتشته رمى عنه ذلك الكفر وتمسك بالاسلام . كذا وجهه الرازي ولك ان تقول لانه يلجأ للاسلام ويحتمي به فاذا رابه منه شيء خرج منه الى الكفر . وقول ابي عبيدة أظهر هذه الاقوال . وسيأتي من أوصافهم ما يظهر به وجه التسمية كقوله تعالى (٤ : ١٤١ الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم ؟ وان كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين !!) .

والمعنى وليعلم حال الذين نافقوا أي وقع منهم النفاق في هذه الواقعة ولم يقل المنافقين كما قال المؤمنين لان النفاق لم يكن صفة ثابتة لهم كثبوت إيمان المؤمنين فان منهم من تاب بعد ذلك وصدق في إيمانه . أي ليظهر علمه بذلك فيترتب عليه مقتضاه من العبرة بسوء عاقبة المنافقين حتى فيما ظنوه حزما وتوقيا للمكروه واحتياطا في الامر كالعبرة بحسن عاقبة الصادقين حتى فيما ظنوه شرا وسوءا وكرهوا حصوله . أما قوله تعالى ﴿وقيل لهم تعالوا وقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا﴾ فمعناه ان هؤلاء الذين نافقوا قد دُعوا الى القتال على انه في سبيل الله اي دفاع عن الحق والدين وأهله ابتغاء مرضاة الله وإقامة دينه لا للحمية والهوى ولا ابتغاء الكسب والغنيمة أو على أنه دفاع عن انفسهم وأهلهم ووطنهم فراوغوا وحاولوا، وقعدوا وتكاسلوا ﴿وقالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم﴾ أي لو نعلم انكم تلقون قتالا في خروجكم لاتبعناكم ولكننا نرى ان الامر ينتهي بغير

قتال، نزل ذلك في عبدالله بن أُبيّ بن سلول واصحابه الذين خرجوا من المدينة في جملة الألف الذين خرج بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رجعوا من الطريق وهم ثلاث مئة ليخذلوا المسلمين ويوقعوا فيهم الفشل وقد تقدم ذكر ذلك في مجمل القصة عند الشروع في تفسير الآيات الواردة فيها (راجع ص٢٤٤م١١) قال تعالى ﴿ هم للكفر يومئذ اقرب منهم للايمان ﴾ أي أقرب الى الكفر منهم الى الايمان يوم قالوا ذلك القول لظهور صفته فيهم وانطباق آيته عليهم. فان القعود عن الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الوطن والامة عند هجوم الاعداء من الفرائض التي لا يتعمد المؤمن تركها كما يعلم من الآيات الكثيرة في هذا السياق وغيره ومنها ما هو صريح في جعله من الصفات التي حصر الايمان في المتصفين بها كقوله عزوجل (٤٩: ١٥ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) قال الاستاذ الامام: ليس قوله «يومئذ» للاحتراس بل لرفع شأن هذا اليوم الذي حصل فيه التمييز بين الفريقين وقال انهم أقرب الى الكفر ولم يقل إنهم كفار مع علمه بحالهم تأديبا لهم ومنعا للتهجم على التكفير بالعلامات والقرائن. أقول يعني ان هذا الذي صدر منهم وان كان من شأنه ان لا يصدر الا من الكافرين لا يعد بحد ذاته كفرا صريحا في حكم الظاهر لاحتمال العذر والتأويل ولو سجل عليهم به ظاهر الواجب ان يعاملوا معاملة الكفار مع انه صلى الله عليه وسلم كان يعاملهم بعد ذلك معاملة المؤمنين حتى انه صلى على جنازة رئيسهم عبدالله بن أُبيّ بعد بضع سنين من واقعة أحد وحينئذ فضحهم الله تعالى في سورة التوبة بعد ما كان من ظهور كفرهم ونفاقهم في غزوة تبوك وانزل عليه (٩: ٨٤ ولا تصلّ على احد منهم مات ابدا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله) فحاصل معنى عبارة الاستاذ الامام انه تعالى كان يعلم انهم يبطنون الكفر وان امتناعهم عن الجهاد عمل من أعمال الكفر ولكنه لم يصرح به في الآية بل صرح بما يومىء اليه تأديبا لهم عسى ان يتوب منهم من لم يتمكن الكفر في قلبه ومنعا للناس من الهجوم على التكفير. فليعتبر بهذا متفقهة زماننا الذين يسارعون في تكفير من يخالف شيئا من تقاليدهم وعاداتهم وإن كان من أهل

البصيرة في دينه وإيمانه والتقوى في عمله ولم يكونوا على شيء من ذلك

وقوله تعالى ﴿يقولون بأفواههم ماليس في قلوبهم﴾ جملة مستأنفة مبينة لحالهم في مثل قولهم هذا أي ان الكذب دأبهم وعادتهم يصدر عنهم على الدوام والاستمرار ليستروا بذلك مايضمرون، ويؤيدوا به مايظهرون، وهل يكون نفاق بغير كذب ؟ وفي تقييد القول بالافواه توضيح لنفاقهم بمخالفة ظاهرهم لباطنهم وفي التنزيه آيات أخرى في بيان حالهم هذه. قال ﴿ والله أعلم بما يكتمون ﴾ من الكفر والكيد للمسلمين وتربص الدوائر بهم فهو يبين في كل حين من مخبآت سرائرهم ما تقتضيه الحال وتقوم به المصلحة ثم هو الذي يعاقبهم به في الدنيا والآخرة

ومن مباحث اللفظ في الآية ان قوله تعالى «وقيل لهم قاتلوا» فيه وجهان احدهما انه عطف على «نافقوا» وهو الظاهر المتبادر والثاني انه استئناف وقوله قبله «وليعلم الذين نافقوا» قدتم به الكلام السابق. قالوا وفي قوله «وقيل لهم» هي التي يسمونها واو الاستئناف على هذا القول وقد قال الاستاذ الامام في هذه الواو ماحاصله : وقد خلط بعضهم في الكلام عن هذه الواو لعدم فهم المراد منها وليس هو بمعنى الاستئناف المشهور وانما تأتي لوصل كلام بكلام آخر مباين للاول تمام المباينة من جهة ذاته ، ومرتبط به من جهة السياق والغرض ، ففي مثل هذه الحال اذا فصل الثاني من الاول يكون في الفصل البحت وحشة على السمع وإيهام للذهن ان الغرض الذي سيق له الكلام قد انتهى فيجيء المتكلم بالواو ليستمر الانس بالكلام في الغرض الواحد ويظل الذهن منتظرا لغاية الفائدة والغرض منه، فكأن المتكلم عند نطقه بالجملة المستأنفة بالواو للانتقال من جزء من كلامه قد تم الى جزء آخر يراد به مثل ما يراد مما قبله يقول : هذا جزء من الكلام يثبت غرضي ويبين مرادي وثم جزء آخر منه وهو كذا . وهذا الشرح مبني على كون الجملة المستأنفة لا اشتراك بينها وبين ما قبلها بوجه ما وانما يقرنها بها السياق والغرض . وفيها رأي آخر وهو انها عطف على معنى خفيّ فيما قبلها غير مذكور ولا معين وإنما ينتزع من الكلام

انتزاعا ، فلما كان كذلك لم يقولوا ان الواو فيها عاطفة إذ لا معطوف عليه في الكلام وقالوا للاستئناف مراعاة لصورة اللفظ

ومنها ان اللام في قوله « للكفر » و « للإيمان » متعلقة « بأقرب » على انها بمعنى « الى » فان المستعمل في صلة القرب حرفا « إلى » و « من » يقال قرب منه وقرب اليه · وقال بعضهم انه يتعدى باللام أيضا

ثم ذكر عن المنافقين قولا آخر قالوه بعد القتال — وإنما كان القول السابق قبل القتال اعتذارا عن القعود والتخلف — فقال ﴿ الذين قالوا لإخوانهم — وقعدوا — لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ أي هم الذين قالوا لإخوانهم أوهو بدل من قوله « الذين نافقوا » أو نعت له . أي قالوا لأجل إخوانهم الذين قتلوا في أحد وفي شأنهم والحال انهم هم قدقعدوا عن القتال : لوأطاعونا في القعود عن القتال فلم يخرجوا كما اننا لم نخرج لما قتلوا كما اننا نحن لم نقتل إذ لم نخرج · قال الاستاذ الامام : هذا وصف آخر من أوصاف المنافقين جاء في سياق التقريع المتقدم · وقدم القول فيه على القعود عن القتال لانه أقبح منه فان القعود ربما كان لعذر أو التمس الناس له عذرا واللوم فيه على فاعله وحده لان اثمه لا يتعداه الى غيره واما هذا القول الخبيث فانه أدلّ على فساد السريرة وضعف العقل والدين ، وضرره يتعدى لما فيه من تثبيط همم المجاهدين ، · أقول ويدل على اصرارهم على ما اجترموه من التثبيط والنهي حين انفصل ابن أبيّ بأصحابه من العسكر مؤيدين ذلك بالاحتجاج على انهم فعلوا الصواب وقد دحض الله تعالى حجتهم بقوله لنبيه ﴿ قل فادرءوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين ﴾ قال الأستاذ الامام أي ان هذا القول في حكمه الجازم يتضمن ان علمهم قد أحاط بأسباب الموت في هذه الواقعة واذا جاز هذا فيها جاز في غيرها وحينئذ يمكنهم درء الموت أي دفعه عن أنفسهم ولذلك طالبهم به وجعله حجة عليهم · وقد يقال ان فرقا بين التوقي من القتل بالبعد عن أسبابه و بين دفع الموت بالمرة فالموت حتم عند انتهاء الاجل المحدود وان طال والقتل ليس كذلك فكيف احتج عليهم بطلب درء الموت عن أنفسهم ؟ (قال) وهذا اعتراض يجيء

من وقوف النظر فكل يعلم ولا سيما من حارب انه ما كل من حارب يقتل فقد عرف بالتجربة ان كثيرين يصابون بالرصاص في اثناء القتال ولا يموتون وان كثيرين يخرجون من المعمعة سالمين ولا يلبثون بعدها ان يموتوا حتف أنوفهم كما يموت كثير من القاعدين عن القتال . فما كل مقاتل يموت ، ولا كل قاعد يسلم ، واذا لم يكن أحد الامرين حتما سقط قولهم وظهر بطلانه . وأقول انه ذكر في المسألة كلاما آخر لم أكتبه في وقته ولم أفرغ له بعده حتى نسيته وكل من سمع كلام من لاقوا الحروب يعجب من كثرة الوقائع التي يسلم فيها المخاطرون ويهلك الحذرون

(١٦٩ : ١٦٣) وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٧٠ : ١٦٤) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧١ : ١٦٥) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧٢ : ١٦٦) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٣ : ١٦٧) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٤ : ١٦٨) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ ، وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٦٥:١٦٩) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *

بيّن سبحانه وتعالى حال المنافقين في قعودهم عن القتال في سبيل الله والدفاع عن الحقيقة وتثبيطهم لاخوانهم قبل القتال و بعده وقولهم فيمن قتلوا أنهم لوأطاعوهم لما قتلوا و بيّن أفنهم وفساد رأيهم في التوقي من الموت بعدم القتال والدفاع وهو في الحقيقة من أسباب الهلاك لا من أسباب السلامة — و بعد هذا كله أراد ان يبين حال من يقتل في سبيل الله وانه لا يكون بحيث يظن أولئك السفهاء في موتهم فقال عز وجل

﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ﴾ اخرج الامام احمد وغيره من حديث ابن عباس (رض) قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما أصيب اخوانكم بأحُد جعل الله أرواحهم في اجواف طير خضر ترد انهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي الى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا ياليت اخواننا يعلمون ماصنع الله لنا ــ وفي لفظ ــ قالوا من يبلغ إخواننا انا احياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب. فقال الله تعالى انا ابلغهم عنكم . فأنزل الله هؤلاء الآيات » وأخرج الترمذي وحسنه والحاكم وصححه وغيرهما من حديث جابر بن عبد الله (رض) قال لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ياجابر مالي اراك منكسرا ؟ » فقلت يارسول الله استشهد ابي وترك عيالا ودينا . فقال « ألا أبشرك بما لقي الله به أباك » ؟ قلت بلى ، قال « ماكلم الله احدا قط الا من وراء حجاب وأحيا أباك فكلمه كفاحا وقال : ياعبدي تمنّ علي أعطك . قال يارب تحييني فاقتل فيك ثانية . قال الرب تعالى : قد سبق مني انهم لا يرجعون . قال أي رب فأبلغ من ورائي ، فأنزل الله هذه الآية » قالوا ولا تنافي بين الروايتين لجواز وقوع الامرين ونزول الآية فيهما معا . وأقول ان الآية متصلة بما قبلها متممة له فاذا صح الخبران فهما من جملة وقائع غزوة أحد التي نزل فيها هذا السياق كله والمعنى : لاتحسبن يامحمد أو أيها السامع لقول المنافقين الذين ينكرون البعث أو يرتابون فيه فيؤثرون الدنيا على الآخرة « لو اطاعونا ماقتلوا » أن من قتلوا في سبيل الله أموات قد فقدوا الحياة وصاروا عدما . وقرأ بن عامر قتلوا بضم القاف وتشديد

التاء للمبالغة ﴿ بل ﴾ هم ﴿ أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ في عالم غير هذا العالم هو خير منه للشهداء وغيرهم من الصالحين، ولكرامته وشرفه أضافه الرب تعالى اليه فهذه العندية عندية شرف وكرامة لا مكان ومسافة . وقيل عندية علم وحكم واذا كان الامر كذلك فليس يضير أولئك الذين قتلوا في سبيل الله قتلهم وليس ماصاروا اليه دون ماكانوا فيه فلو فرضنا ان الخروج الى القتال سبب مطرد للقتل لايتخلف كما يوهم كلام المنافقين لما صح ان يكون مثبطا للمؤمن عن الجهاد عند وجوبه بمثل مهاجمة المشركين للمؤمنين في أحد أو بفتنة المسلمين عن دينهم ومنعهم من الدعوة اليه وإقامة شعائره وهو ما كان عليه جميع مشركي العرب في زمن البعثة فكيف والخروج الى القتال هو سبب للسلامة في الغالب لان الامة التي لاتدافع عن نفسها يطمع غيرها فيها فاذا هاجمها الاعداء ظفروا بها ونالوا مايريدون منها

وقد ذكرنا الخلاف في هذه الحياة في تفسير قوله تعالى (٢: ١٥٤ ولاتقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لاتشعرون) وان المختار فيها أنها حياة غيبية لانبحث عن حقيقتها ولا نزيد فيها على ماجاء به خبر الوحي شيئا فلا نقول كما قال بعض متكلمي المعتزلة ان المراد بقوله « بل أحياء » انهم سيكونون أحياء في الآخرة فان ظاهر الآية انهم أحياء مذ قتلوا ؛ ولا تخصيص في قولهم للشهداء ولا يتفق مع مايأتي ولا بقول من قال انهم أحياء بحسن الذكر وطيب الثناء كما يقال « من خلف مثلك ما مات » وقال الشاعر

يقولون ان المرء يحيا بنسله وليس له ذكر اذا لم يكن نسل
فقلت لهم نسلي بدائع حكمتي فان لم يكن نسل فانا بها نسلو

ولا بقول من قال انهم احياء بأجسادهم كحياتنا الدنيا يأكلون ويشربون وينكحون في قبورهم كسائر اهل الدنيا ولا قول من يقول ان اجسادهم ترفع الى السماء . قال الامام الرازي في القائلين بأنها حياة جسدية مانصه « والقائلون بهذا القول اختلفوا فقال بعضهم انه تعالى يصعد أجساد هؤلاء الشهداء الى السموات والى قناديل تحت العرش ويوصل انواع السعادة والكرامات اليها ومنهم من قال يتركها في الارض ويحييها ويوصل هذه السعادات اليها ومن الناس من طعن فيه وقال انا نرى أجساد

هؤلاء الشهداء قد تأكلها السباع فاما أن يقال ان الله يحييها حال كونها في بطون هذه السباع و يوصل الثواب اليها، أو يقال ان تلك الاجزاء بعد انفصالها من بطون السباع يركبها الله و يؤلفها و يرد الحياة اليها و يوصل الثواب اليها ، وكل ذلك مستبعد ولانا قد نرى الميت المقتول باقيا أياما الى ان تنفسخ اعضاؤه و ينفصل منه القيح والصديد فان جوزنا كونها حية متنعمة عاقلة عارفة لزم القول بالسفسطة » اه قال الاستاذ الامام وتطرف جماعة فزعموا ان حياة الشهداء كحياتنا هذه في الدنيا يأكلون كما نأكل و يشربون كما نشرب و يتمتعون تمتعنا وهو قول لا يصدر عن عاقل لأن من الشهداء من يحرق بالنار ومن تأكله السباع أو الاسماك .وقال بعضهم المراد ان اجسادهم لاتبلى ولم يزد على ذلك ولكن هذا لم يثبت على ان الجسد لاثمرة له اذا خرجت منه الروح

وجملة القول ان بعضهم يقول ان هذه الحياة مجازية وبعضهم يقول انها حقيقية ومن هؤلاء من يقول انها دنيوية ومنهم من يقول انها أخروية ولكن لها ميزة خاصة ومنهم من يقول انها واسطة بين الحياتين وقد تقدم أن المختار عندنا عدم البحث في كيفية هذه الحياة وذكرنا في آية البقرة بحث ماورد من كون ارواحهم تكون في حواصل طير خضر فراجعه (ج ٢ ص ٣٩)

﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ أي مسرورين بما أعطاهم الله من فضله أي زيادة على ذلك الرزق الذي استحقوه بعملهم فالفضل ما كان في غير مقابلة عمل كما قال (٣٥: ٣٠ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله انه غفور شكور) ﴿و يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ الاستبشار السرور الحاصل بالبشارة واصل الاستفعال طلب الفعل فالمستبشرون بمنزلة من طلب السرور فوجده بالبشارة كذا قالوا والعبارة للرازي . ويصح ان يكون معنى الطلب فيه على حاله ، والذين لم يلحقوا بهم هم الذين بقوا في الدنيا . قال الاستاذ الامام : انما قال «من خلفهم» للدلالة على انهم وراءهم يقتفون أثرهم ويحذون حذوهم قدما بقدم فهو قيد فيه الخبر والحث والترغيب والمدح والبشارة وهو من البلاغة بالمكان الذي لا يطاول . والمعنى و يطلبون البشرى أو بالذين لم يلحقوا بهم من اخوانهم أي يتوقعون ان يبشروا في وقت قريب بقدومهم

عليهم مقتولين في سبيل الله كما قتلوا ، مستحقين من الرزق والفضل الإلهي مثل ما أوتوا ، والمعنى على الاول انهم يسرون بذلك عند حصوله .

هذا ما روي في وجه الاستبشار عن ابن جريج وقتادة وروي عن السدي ان الشهيد يؤتى بكتاب فيه ذكر من يقدم عليه من إخوانه يبشر بذلك فيسر و يستبشر كما يستبشر أهل الغائب بقدومه عليهم في الدنيا . واختار أبو مسلم والزجاج أن الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم هم إخوانهم الذين لا يحصلون فضيلة الشهادة فلا ينالون مثل درجتهم وان استبشارهم بهم يكون عند دخولهم الجنة بعد القيامة قبلهم فيرون منازلهم فيها و يعلمون أنهم من أهلها وان فاتتهم درجة الشهادة لاسيما اذا كان المراد بالذين من خلفهم من جاهد مثلهم ولم يقتل (٤ : ٩٥ فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى ، وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ٩٦ درجاتٍ منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيما) والآية الآتية تؤيد كون المراد بمن خلفهم بقية المجاهدين الذين لم يقتلوا

وقوله ﴿ ان لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ بدل اشتمال من الذين لم يلحقوا بهم أي يستبشرون بهم من حيث انه لا خوف عليهم فالخوف والحزن على هذا منفيان عن الذين لم يلحقوا بهم . أو الباء للسببية والمعنى بسبب انه لا خوف عليهم الخ وحينئذ يحتمل ان يكونا منفيين عنهم أنفسهم أي إن الفرح والاستبشار يكونان شاملين لهم بحالهم وبحال من خلفهم من إخوانهم بسبب انتفاء الخوف والحزن عنهم هم حيث هم . كما يحتمل ان يكون المراد نفيهما عن الذين لم يلحقوا بهم أيضاً . والمختار عندي ان المراد بنفي الخوف والحزن نفيهما عن الذين لم يلحقوا بهم ممن قاتل معهم ولم يقتل وان الآية الآتية مفسرة لذلك . والخوف تألم من مكروه يتوقع والحزن تألم من مكروه وقع وتقدم تفسير هذا التركيب في الجزء الاول (راجع تفسير ٢ : ٦٢ ان الذين آمنوا والذين هادوا) وقد قيل ان المراد بالخوف والحزن ما يكون في الدنيا وقيل بل المراد ما يكون في الآخرة . ويجوز ان يكون المعنى انه لا خوف عليهم في الدنيا من استئصال المشركين لهم أو ظفرهم بهم ثانية ولا هم يحزنون في المستقبل البعيد عند ما يقدمون على ربهم في الآخرة فاعرض هذا على

الآيات الآتية إلى قوله « فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين »

﴿ يستبشرون بنعمة من الله ﴾ ضمير يستبشرون إما للشهداء و إما للذين لم يلحقوا بهم فان كان للشهداء فهو عبارة عما يتجدد لهم من نعمة وفضل أو المراد بقوله بنعمة ما ذكره في الآية السابقة من كونهم احياء عنده يرزقون ﴿ وفضل ﴾ هو عين ما ذكره في الآية السابقة من كونهم « فرحين بما آتاهم الله من فضله » وان كان للذين لم يلحقوا بهم فالمعنى أنهم يستبشرون بمثل ما فرح به الشهداء ﴿ وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ وقرأ الكسائي « وإن » بكسر الهمزة على انه تذييل أو معترض لتأييد معنى ما قبله . والمؤمنون هنا عام أريد به خصوص الذين وصفهم بقوله ﴿ الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح ﴾ وهم إخوان أولئك الشهداء الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم فدعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم الى اتباع أبي سفيان في حمراء الاسد فاستجابوا لله وله من بعد ما أصابهم القرح في أحد حتى أنهك قواهم وتقدم بيان ذلك مفصلا في أول السياق (راجع غزوة حمراء الاسد ص٢٥٣ م١١) وقيل هو على عمومه وقيل ان المراد به الشهداء والجملة على هذين القولين ابتدائية ومدحية ،

وقال الاستاذ الإمام : ذكر في الآية السابقة استبشارهم بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم وأنهم فرحون بما آتاهم الله من فضله ثم ذكر هنا انهم يستبشرون بنعمة من الله وفضل . فالذي آتاهم من فضله مجمل تفصيله ما بعده وهو قسمان فضل عليهم في اخوانهم الذين وراءهم وفضل عليهم في أنفسهم وهو نعمة الله عليهم وفضله الخاص بهم في دار الكرامة ، وقد أبهمه فلم يعينه للدلالة على عظمه وعلى كونه غيبا لا يكتنه كنهه في هذه الدار . ثم اختتم الكلام بفضله على إخوانهم كما افتتحه به وترك العطف لتنزيل الاستبشار الثاني منزلة الاستبشار الأول حتى كأنه هو . ليس عندي في ذلك عنه غير هذا

وقوله ﴿ للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴾ جملة ابتدائية على الوجه الأول وخبرية على الوجهين الآخرين مما تقدم . وقد يقال إن أولئك الذين

استجابوا لله ولرسوله في تلك الحالة هم خيار المؤمنين وكلهم من المحسنين المتقين فما معنى قولهم « منهم » ؟ وأجابوا عن ذلك بأن « من » هنا للتبيين لا للتبعيض وان الوصف بالاحسان والتقوى للمدح والتعليل لا للتقييد ، واختار الاستاذ الامام قول من قال ان « من » للتبعيض وقال هي في محلها لأن من المؤمنين الصادقين من لم يخرج معه صلى الله عليه وسلم إلى « حمراء الاسد » أي وهم من الذين لا يضيع الله أجرهم ولكنهم لا يستحقون الأجر العظيم الذي استحقه الذين خرجوا معه وهم مثقلون بالجراح ومرهقون من الاعياء إلى استئناف قتال أضعافهم من الاقوياء . أقول فالضمير في قوله « منهم » راجع على هذا القول للمؤمنين لا للذين استجابوا وهو لا يظهر الا إذا جعلنا قوله « الذين استجابوا » منصوبا على المدح والجملة المدحية معترضة . — قال الاستاذ — وثم وجه آخر وهو انه وجد في نفوس بعض المؤمنين بعد أحد شيء من الضعف فهذه الآيات كلها تأديب لهم . ولما دعاهم صلى الله عليه وسلم للخروج لبوا واستجابوا له ظاهراً وباطناً ولكن عرض لبعضهم عند الخروج بالفعل موانع في أنفسهم أو أهليهم فلم يخرجوا فأراد من الذين أحسنوا واتقوا الذين خرجوا بالفعل وهم بعض الذين استجابوا . والاحسان ان يعمل الانسان العمل على أكمل وجوهه الممكنة والتقوى ان يتقي الاساءة والتقصير فيه . أقول وهذا الوجه أظهر الوجوه وأحسنها ،

ومما أشار اليه الاستاذ ما رواه ابن اسحق انه لما أذن مؤذن رسول الله (ص) بطلب العدو « وان لا يخرج معنا إلا من حضر يومنا بالأمس » كلمه جابر بن عبد الله بن حزام فقال يا رسول الله ان أبي كان خلفني على اخوات لي سبع وقال يا بني لا ينبغي لي ولا لك ان نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله (ص) على نفسي فتخلف على اخواتك . فتخلفت عليهن فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم . فليعتبر المسلمون بهذه الآيات التي وردت في أولئك الابرار الاخيار الذين بذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله وكيف جاء وعدهم بالاجر مقرونا بوصف الاحسان والتقوى وأنى يعتبر المغرورون المسيئون ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، والذين هم للزكاة مانعون ، والذين يبخلون بأنفسهم فلا يبذلونها في سبيل

الحق ولا يُتعبون ، والذين يقولون الـكذب وهم يعلمون ، والذين يتولون المبطلين وينصرون، و يشاقُّون أهل الحق ويخذلون ، ويحسبون انهم على شيء ألا انهم هم الـكاذبون ، والله يعلم ما يسرون وما يعلنون ،

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لـكم فاخشوهم ﴾ الذين قال لهم الناس هم الذين استجابوا لله وللرسول فخرجوا الى حمراء الاسد للقاء المشركين إذ عاد بهم أبو سفيان لاستئصالهم وكانوا سبعين رجلا كما تقدم ولـكن روي عن ابن عباس ومجاهـد وقتادة وعكرمة ان الآية نزلت في غزوة بدر الصغرى وذلك ان أبا سفيان قال حـين أراد ان ينصرف من أحد : يا محمـــد موعد ما بيننا و بينك موسم بدر القابل انـ شئت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذلك بيننا و بينك إن شاء الله » (كما تقدم) فلما كان العام القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل « مجنة » من ناحيـة « مرّ الظهران » وقيل بلغ « عسفان » فألقى الله تعالى الرعب في قلبه فبدا له الرجوع فلقي نعيم بن مسعود الاشجعي وقد قدم معتمرا فقال له أبو سفيان اني واعدت محمـــدا وأصحابه ان نلتقي بموسم بدر وان هذا عام جدب ولا يصلحنا الا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيـه اللبن وقد بدا لي أن أرجع وأكره ان يخرج محمـــد ولا أخرج انا فيزيدهم ذلك جرأة فألحق بالمدينة فثبطهم ولك عنـدي عشرة من الإبل أضعها في يدي سهيل بن عمرو . فأتى نعيم المدينة فوجد المسلمين يتجهزون لميعاد أبي سفيان فقال لهم : ما هذا بالرأي، أتوكم في دياركم وقراركم فلم يفلت منكم إلا شريد فتريدون ان تخرجوا اليهم وقد جمعوا لكم عند الموسم فوالله لا يفلت منكم أحد . فوقع هـذا الـكلام في قلوب قوم منهم فقال رسول الله (ص) « والذي نفسي بيده لأخرجن ولو وحدي » فخرج ومعه سبعون راكبا يقولون « حسبنا الله ونعم الوكيل» حتى وافى بدرا فأقام بها ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان فلم يلقوا أحدا لأن أبا سفيان رجع بجيشه إلى مكة (وكان معه — كما قال ابن القيم — ألفا رجل) فسماه أهل مكة جيش السَّوِيق وقالوا لهم إنما خرجتم لتشربوا السويق . قال بعضهم ووافى المسلمون سوق بدر وكانت معهـم

نفقات، وتجارات فباعوا واشتروا ادما وزبيبا وربحوا وأصابوا بالدرهم درهمين وانصرفوا الى المدينة سالمين غانمين • وقال في ذلك عبد الله بن رواحة أو كعب بن مالك :

وعدنا ابا سفيان وعدا فلم نجد ... لميعاده صدقا وما كان وافيا
فأقسم لووافيتنا فلقيتنا ... لأبت ذميما وافتقدت المواليا
تركنا به اوصال عتبة وابنه ... وعمراً ابا جهل تركناه ثاويا
عصيتم رسول الله أفٍّ لدينكم ... وأمركم الشيء الذي كان غاويا
واني وإن عنفتموني لقائل ... فدًى لرسول الله اهلي وماليا
أطعناه لم نعدله فينا بغيره ... شهاباً لنا في ظلمة الليل هاديا

فعلى هذه الرواية يكون المراد بالناس الذين قالوا للمؤمنين ان الناس قد جمعوا لكم نعيم بن مسعود ومن وافقه فأذاع قوله .وروي ان ركبا من عبد القيس مروا بأبي سفيان فدسهم الى المسلمين ليجبنوهم وضمن لهم عليه جُعلا . وعزاه الرازي الى ابن عباس ومحمد بن اسحق ، وذكر قولا ثالثا عن السدي ان الناس الذين قالوا هم المنافقون. وأما الناس الذين جمعوا الجموع لقتال المسلمين فهم أبو سفيان وأعوانه قولا واحدا . قال الاستاذ الامام يجوز ان يكون نعيم بن مسعود قال ذلك وان يكون قاله ركب عبدالقيس وتحدث به المنافقون فان الامر الكبير من شأنه ان يتحدث به الناس ويذهبون فيه مع اهوائهم .وقال أيضا ان السبعين الذين خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم الى بدر الصغرى (او بدر الموعد) هم الذين خرجوا معه الى حمراء الاسد. فتصدق الآية على القصتين وتكون الآيات متأخرة النزول عما قبلها. وذكر ابن القيم في زاد المعاد ان النبي صلى الله عليه وسلم خرج الى بدر الموعد في ألف وخمس مئة ويجمع بأن يكون خرج أولا بالسبعين ثم تبعه الباقون

﴿ فزادهم ايمانا ﴾ أي فزادهم قول الناس لهم إيمانا بالله وثقة به من حيث خشوه ولم يخشوا الناس الذين خوّفوا منهم بأنهم جمعوا لهم الجموع واعتمدوا على نصره

ومعونته وان قل عددهم وضعف جلدهم فانه هو العزيز القوي وذلك من شأن المؤمنين كما جاء في الآية الثانية من الآيتين التاليتين . وكان من قوة إيمانهم وزيادته أن اقدموا وهم عدد قليل قد أثخنوا بالجراح على محاربة الجيش الكبير . فالزيادة كانت في الاذعان النفسي ، والشعور القلبي ، وتبعتها الزيادة في العمل ، بعد ذلك القول الدال على ما انطوت عليه النفس من اليقين بوعد الله ووعيده ، والشعور بعزته وسلطانه ، ولولا ذلك لم يكن لهم حول ولا قوة على تلك الاستجابة والإقدام ، على ما كاد يكون وراء حدود الإمكان ، فمن يقول ان الايمان النفسي لايزيد ولا ينقص فقد نظر الى الاصطلاحات اللفظية لا الى نفسه في ادراكها وشعورها وقوتها في الاذعان وضعفها .

قالوا ان التصديق لايعتد به ويكون إيمانا صحيحا الا اذا وصل الى درجة اليقين فاذا نزل عن مرتبة اليقين كان ظنا أو شكا وليس الظن إيمانا يعتدُّ به والشك كفر صريح . ونقول ان الظن الذي لايغني من الحق شيئا ولا يعد إيمانا صحيحا هو مالوحظ فيه جواز وقوع الطرف المخالف أي مالوحظ فيه طرفان متقابلان أحدهما ان هذا الامر ثابت وثانيهما انه يحتمل احتمالا ضعيفا أن لايكون ثابتا فان جزم الذهن بانه ثابت فلم يتصور الطرف المخالف وهو عدم الثبوت كان جزمه هذا إيمانا وإن لم يكن ناشئا عن برهان مؤلف من المقدمات اليقينية في عرف علماء المنطق على طريقتهم أو غير طريقتهم ولا ملاحظا فيه استحالة الطرف المخالف . وأكثر المؤمنين بالله ورسله والمؤمنين بالجبت والطاغوت في هذه المرتبة من الايمان ويصح ان يطلق على أهلها لفظ «الموقنين »

ولو كان الايمان لايصح الا ببرهان منطقي على اثبات قضاياه واستحالة ضدها لما تصور ان يرتد احد عن الاسلام بعد دخوله فيه لان اليقين بهذا المعنى لايمكن الرجوع عنه وان أمكن مكابرته ومجاحدته باللسان ولذلك قال الاستاذ الامام « الرجوع عن الحق بعد اليقين فيه كاليقين في العلم كلاهما قليل في الناس » يعني بذلك اليقين المنطقي الذي تنتهي مقدماته الى البديهيات . ولكن الردة ثابتة نقلا ووقوعا . قال تعالى (١٦ : ١٠٦ من كفر بالله من بعد إيمانه) وقال تعالى (٤ : ١٣٨ إن

الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا)

هذا وان لليقين مراتب ودرجات يعلو بعضها بعضا وحصرها بعضهم في ثلاث: علم اليقين وحق اليقين وعين اليقين . فالارتقاء من درجة الى أخرى زيادة في نفس اليقين . ويروى عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه انه قال « لو كشف الغطاء ماازددت يقينا » وهذا القول مبني على ان اليقين يقبل الزيادة في نفسه ومن أيقن بأن فلانا طبيب ماهر لانه رآه نجح في معالجة بعض المرضى يضعف يقينه اذا رآه خاب في معالجة آخرين ويزداد اذا رآه ينجح آونة بعد أخرى ولاسيما في معالجة الامراض الباطنية التي يعسر تشخيصها

ثم ان فائدة الايمان إنما تكون بإذعان النفس الذي يحرك فيها الخوف والرجاء وغيرهما من وجدانات الدين التي يترتب عليها ترك المنكر المنهي عنه وفعل المعروف المأمور به ولولا ذلك لم يكن للدين فائدة في إصلاح حال البشر . وهل يقول عاقل ان الاذعان والخوف والرجاء من الامور التي لاتقبل الزيادة والنقصان؟ أما انه لو كان اذعان جميع المؤمنين في درجة واحدة لتساووا في الاعمال ولكنهم متفاوتون فيها تفاوتا عظيما كما هو ثابت بالمشاهدة فثبت انهم متفاوتون في منشإها من النفس وهو الاذعان ، الذي يقوى و يضعف بالتبع للايمان ، وهذا عين قبول الزيادة والنقصان ،

ومن هنا تفهم معنى إدخال السلف الصالح الاعمال في مفهوم الإيمان فان كل اعتقاد له أثر في النفس يتبعه عمل من الاعمال فهي سلسلة مؤلفة من ثلاث حلقات يحرك بعضها بعضا والامام الغزالي يعبر عنها بالعلم والحال والعمل فيقول ان العلم بأن كذا يرضي الله تعالى أو كذا يسخطه مثلا يحدث في النفس حالا يترتب عليها فعل مايرضيه و يقتضي مثوبته ، وترك مايسخطه ويقتضي عقوبته ، ويقول ان ترتب بعضها على بعض واجب وعبارته ان العلم يوجب الحال والحال يوجب العمل فارجع اليه في كتاب التوبة وغيره من كتب المجلد الرابع من الاحياء

وأما زيادة الايمان بزيادة متعلقاته وهي المسائل التي يؤمن بها المؤمن التي يعبر عنها بشعب الايمان فهي ظاهرة لاتحتاج في بيانها إلى شرح طويل فان هذه المسائل

لا يمكن أن تتلقى إلا بالتدريج فكلما تلقى المؤمن مسألة منها ازداد ايمانا. وليس هذا خاصا بالكافر الذي يدخل في الاسلام فان الناشيء بين المؤمنين مثله في ذلك. وليست المسائل التي تزيد الانسان معرفتها ايمانا محصورة في النصوص التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم فان القرآن هدانا الى التفكر والنظر في ملكوت السموات والارض لنزداد ايمانا ونعتبر بها ونستفيد منها وذلك يفتح لنا أبوابا من العلم بالله وسننه لانهاية لها فكل ما نهتدي اليه في بحثنا ونظرنا من اسرار الكائنات ، وسنن الله تعالى في المخلوقات، فانا نزداد به علما بالله و إيمانا بقدرته وحكمته البالغة، وقد قال سبحانه لأقوى الناس إيمانا وأوسعهم علما به و بسننه (٢٠:١١٤ وقل ربي زدني علما)

وكذلك آيات القرآن تزيد من يتلقاها إيمانا كلما تلقى شيئا منها وقد يتدبرها المؤمن بعد العلم بها بأيام أو سنين فيفهم منها مالم يكن يفهم فيزداد إيمانا . قال تعالى (٩ : ١٢٤ واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ١٢٥ واما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) وقال علي (رض) حين سئل هل خصهم النبي (ص) بشيء : لا الآ أن يؤتي الله عبدا فهما في القرآن

وليس هذا النوع من زيادة الايمان هو المراد من الآية التي نحن بصدد تفسيرها وانما المراد به النوع الاول وهو الزيادة في اصل اليقين والاذعان ، المؤثر في الوجدان ، فهي من قبيل قوله تعالى (٣٣ : ٢١ ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما)

﴿ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ اي وقالوا معبرين عن إيمانهم حسبنا الله اي هو كافينا ما يهمنا من امر الذين جمعوا لنا وحسبنا بمعنى محسبنا من أحسبه اذا كفاه كما قالوا ونعم الوكيل الذي توكل اليه الامور هو فانه لا يعجزه أن ينصرنا عليهم ، على قلتنا وكثرتهم ، أو يلقي الرعب في قلوبهم ، ويكفينا شر بغيهم وكيدهم ، وقد كان الامر كذلك فان الله تعالى ألقى الرعب في قلب أبي سفيان وجيشه على كثرتهم فولوا مدبرين ، وأعز الله بذلك رسوله والمؤمنين .

﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ أي فعادوا بعد خروجهم إلى لقاء الذين جمعوا لهم ومناجزتهم القتال متمتعين أو مصحوبين بنعمة من الله وهي السلامة كما روي عن ابن عباس أو العافية كما روي عن مجاهد والسدي أو ما هو اعم من ذلك . واما الفضل فقد فسروه بالربح في التجارة . روى البيهقي عن ابن عباس ان عيرا مرت في أيام الموسم فاشتراها رسول الله صلى الله عليه وسلم فربح مالا فقسمه بين أصحابه فذلك الفضل . والظاهر ان هذا الموسم هو موسم بدر الصغرى وقد تقدم آنفا خبر الخروج اليها وانهم اتجروا فيها وربحوا . وليس في ألفاظ الآية ما يدل على انها نزلت في غزوة بدر الصغرى أو بدر الموعد إلا هذه الكلمة بهذا التفسير لأن غزوة حمراء الاسد المتصلة بغزوة أحد قد قيل لهم فيها ان الناس قد جمعوا لكم فزادهم ذلك إيماناً فخرجوا الى لقائهم فانقلبوا بنعمة من الله وفضل معنوي لم يمسسهم سوء ولا أذى وفسر السوء بالقتل والجراح ﴿ واتبعوا رضوان الله ﴾ أي أعظم ما يرضيه وتستحق به كرامته (وارجع إلى تفسير «١٦٢ أفمن اتبع رضوان الله » ان كنت نسيته فما هو ببعيد) ﴿ والله ذو فضل عظيم ﴾ فان كان أكرمهم بذلك في الدنيا ، فقد يعطيهم ما هو أعظم وأكرم في العقبى ،

ومن مباحث البلاغة في الآية الايجاز في قوله « فانقلبوا » فانه يدل على انهم خرجوا للقاء العدو وانهم لم يلقوا كيدا فلم يلبثوا ان انقلبوا إلى أهليهم . ومثل هذا الحذف الذي يدل عليه المذكور بمجرد ذكره كثير في القرآن كقوله تعالى (٢٦ : ٦٣ فأوحينا إلى موسى ان أضرب بعصاك البحر فانفلق) أي فضربه فانفلق . وقوله تعالى بعد ذكر مناجاة موسى عليه السلام له في أرض مدين وارساله تعالى إياه الى فرعون وجعل أخيه وزيراً له وأمرهما بأن يبلغا فرعون رسالته (٢٠: ٥٠ قال فمن ربكما يا موسى) أي قال فرعون لما بلغاه الرسالة اذا كان الأمر كما تقولان فمن ربكما يا موسى . فقد فهم من هذا الجواب ان موسى وهرون عليهما السلام صدعا بأمر ربهما وذهبا الى فرعون فبلغاه ما أمرهما الله تعالى بتبليغه إياه

﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه ﴾ قيل ان المراد بالشيطان هنا شيطان

الإنس الذي غش المسلمين وخوفهم ليخذلهم واختلف في تعيينه فقيل هو أبو سفيان فانه أراد بعد أحُد ان يكر ليستأصل المسلمين وأرسل اليهم يخوفهم في بدر الثانية أو الصغرى . وقيل هو نعيم بن مسعود الذي أرسله أبو سفيان يثبط المسلمين عن الخروج الى بدر الموعد (وقد أسلم نعيم يوم الاحزاب) وقيل هو وفد عبدالقيس على الخلاف الذي تقدم ذكره في سبب النزول . وقيل بل المراد به شيطان الجن الذي يوسوس في صدور الناس على حد (٢ : ٢٦٨ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) والمعنى على الأول: ليس ذلك الذي قال لكم ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم أو من أوعز اليه بأن يقول ذلك أو من وسوس به الا الشيطان يخوفكم أولياءه وهم مشركو مكة ويوهمكم أنهم جمع كثير أولو بأس شديد وان من مصلحتكم ان تقعدوا عن لقائهم وتجبنوا عن مدافعتهم . والمعنى على الثاني: ان الشيطان يخوف أولياءه ولا سلطان له على أولياء الله المؤمنين فهو عاجز عن تخويفهم. وفي التفسير الكبير للرازي انه يخوف أولياءه المنافقين فيسوّل لهم القعود عن قتال المشركين ويزيّن لهم خذلان المسلمين. وإذا صح هذا من جهة المعنى فان الاشارة فيه ليست جلية كجلائها في الوجه الأول ولا الثاني أيضا ولا يظهر عليه قوله

﴿ فلا تخافوهم وخافوني ان كنتم مؤمنين ﴾ لأن المنافقين لم يكونوا بحيث يخاف المؤمنون منهم فينهون عن ذلك . أي لا تحفلوا بقوله « فاخشوهم » فتخافوهم بل خافوني انا لأنكم أوليائي وانا وليكم وناصركم ان كنتم راسخين في الايمان قائمين بحقوقه

قال الاستاذ الامام: في الآية التنبيه الى الموازنة بين أولياء الشيطان من مشركي مكة وغيرهم و بين ولي المؤمنين القادر على كل شيء كأنه يقول: عليكم ان توازنوا بين قوتي وقوتهم ونصرتي ونصرتهم فانا الذي وعدتكم النصر وانا وليكم ونصيركم ما أطعتموني وأطعتم رسولي . وفي هذا المقام شبهة تعرض لبعضهم : يقولون ان تكليف عدم الخوف من تكليف مالا يستطاع ولا يدخل في الوسع فان الانسان اذا علم ان العدد الكثير ذا العُدد العظيمة يريد ان يواثبه وينزل به العذاب بأن رآه أوسمع باستعداده من الثقات فانه لا يستطيع أن لا يخافه ، فكان الظاهر ان يؤمروا باكراه النفس على المقاومة والمدافعة مع الخوف لا ان ينهوا عن الخوف . والجواب ان هذه الشبهة حجة

الجبناء فهي لا تطوف الا في خيال الجبان فإن أعمال النفس من الخوف والحزن والفرح يتراءى للانسان أنها اضطرارية وأن آثارها كائنة لا محالة مهما حدث سببها والحقيقة ان ذلك اختياري من وجهين (أحدهما) أن هذه الامور تأتي بالعادة والمزاولة ولذلك تختلف باختلاف الشعوب والاجيال فمن اعتاد الاحجام عند الحاجة الى الدفاع يصير جبانا والعادات خاضعة للاختيار بالتربية والتمرين ففي استطاعة الانسان ان يقاوم اسباب الخوف و يعود نفسه الاستهانة بها (وثانيهما) ان هذه الامور اذا حدثت بأسبابها فالانسان مختار في الاسلاس لها والاسترسال معها حتى يتمكن أثرها في النفس وتتجسم صورتها في الخيال وفي ضد ذلك وهو مغالبتها والتعمل في صرفها وشغل النفس بما يضادها و يذهب بأثرها أو يتبدل به أثراً آخر مناقضاله. فهذا الامر الاختياري هو مناط التكليف كأنه يقول إذا عرضت لكم أسباب الخوف فاستحضروا في نفوسكم قدرة الله على كل شيء وكونه بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه وتذكروا وعده بنصركم و إظهار دينكم على الدين كله وأن الحق يدمغ الباطل فاذا هو زاهق، وتذكروا قوله (٢: ٢٤٩ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) ثم خذوا أهبتكم وتوكلوا على ربكم فانه لايدع لخوف غيره مكانا في قلوبكم اه بتصرف منه وان مقول « كأنه يقول » من عندي لأنني لم أكتب ماقاله رحمه الله فيه وانما تركت له بياضا لا كتبه في وقت الفراغ ثم نسيته ومراده ان الوجه الاول انما يتعلق به الاختيار في التربية التدريجية والثاني يتعلق به الاختيار فورا في كل وقت .وقد قلت في هذا المعنى شعرا في الحزن من مرثية نظمتها في أيام التحصيل وهو :

أطبيعة ذا الحزن ليس يشذ عن ... ناموسه فرد من الافراد
أم ذاك مما أوجبته شرائع الا (م) ... ديان من هدي لنا ورشاد
أم ذلك العقل السليم قضى على ... كل الشعوب بهذه الاصفاد
كلا فليس الامر ضربة لازب ... لكنه ضرب من المعتاد
فاخلع سرابيل العوائد ان تكن ... ليست بنهج العقل ذات سداد
وتقلد الحزم الشريف كصارم ... كيما تنافح جيشها بجهاد

قال الاستاذ الامام : ان قوله تعالى « ان كنتم مؤمنين » يفيد وجوب توثيق الايمان بالله في القلب قبل كل شيء لان تلك الخواطر والهواجس التي تحدث الخوف من أولياء الشيطان لايمحوها من لوح القلب الا الايمان الصحيح الثابت . وفي قوله «ان كنتم» اشارة الى ان ايمان من يرجح الخوف من أولياء الشيطان على الخوف من الله تعالى مشكوك فيه. أقول فليزن كل مؤمن نفسه بهذه الآية ويقارن بين عمله وعمل الصحابة الكرام و بين إيمانهم لكي لايكون من المغرورين

في س ١٧ ص٨٠٨ ج ١١ كلمة غل به والصواب غل من دون (به) فترمج كلمة (به) وفي س ١٩ ص٨١٠ ج ١١ كلمة غل به أيضا فترمج كلمة (به)

وفي س ١٦ ص ٨٨٤ من هذا الجزء كلمة قد دخلت والصواب قد خلت فترمج الدال التي بعد قد وفي س ٢٣ ص ٨٨٥ من هذا الجزء أيضا كلمة وقالوا صوابها قالوا فترمج الواو

خطب ودروس

﴿ صاحب المنار ﴾

في هذه الديار (*)

إن لي في هذه الدنيا وطنين : وطن المنشأ والتربية وهو سورية فانني نشأت في قرية القلمون المجاورة لطرابلس الشام في ساحل الكورة من لبنان وتعلمت في طرابلس . ووطن العمل وهو مصر التي أقمت فيها إحدى عشرة سنة أدعو الى الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي واقرأ الدروس واعمل في بعض الجمعيات .

ولما أقر الله عيوننا معشر العثمانيين بالحكومة الدستورية اشتقت الى زيارة وطني الأول لرؤية الاهل والاصدقاء ولاختبار حال البلاد بعد ان اشتدت عليها

(*) نشرت في العدد ٥٣ من جريدة الاتحاد العثماني البيروتية الصادر في ٢ ذي القعدة سنة ١٣٢٦

وطأة الاستبداد ومساعدة محبي الاصلاح والترقي في التنبيه لما يجب ان تتوجه اليه الهمم .

زرت بيروت وطرابلس والقلمون ثم عدت الى بيروت ومنها ذهبت إلى دمشق الشام فبعلبك فحمص فطرابلس . وقد ألقيت في أكثر هذه البلاد خطباً ودروسا وجرى لي مع أهل الفهم والظهور فيها محاورات كثيرة فوقفت على ماأحببت الوقوف عليه . أما المقاصد التي كان يدور عليها كلامي فهي محصورة فيما يأتي :

(١) وجوب الجمع بين هداية الدين والعلوم العصرية التي عليها مدار ثروة الامة وعزة الدولة ، مع بيان عدم التنافي والتعارض بين دين الاسلام وهذه العلوم من رياضية وطبيعية واقتصادية

(٢) الاعتماد في هداية الدين على اتباع سيرة السلف الصالح من الصحابة الكرام والتابعين لهم ومن سار على طريقهم وما طريقهم إلا الاهتداء بالكتاب العزيز والسنة السنية وقد فصلت ذلك في الخطب والدروس بمطالبة العلماء بأن يعلموا الناس دينهم كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم المؤمنين به فهديه أفضل الهدي وطريقه أقصد الطرق . و بينت ذلك في أسس الدين الثلاثة العقائد والآداب والاعمال

(٣) أما العقائد فبينت ان الاعتماد على كتب الكلام في تلقينها للعوام لا يأتي بالفائدة المطلوبة وربما يضرهم و يوقعهم في شكوك وشبهات لا يجدون منها مخرجا . ذلك بأنها لم تؤلف الا لحماية العقيدة من شبهات الفلاسفة والمبتدعة كما بينه حجة الاسلام الغزَّالي في كتاب (الجام العوام عن علم الكلام) وفي غيره من كتبه . وإنما يجب اتباع طريقة القرآن في تلقين المسلمين عقائدهم بالاستدلال عليها ببديع صنع الله في خلق السموات والأرض وما فيها من البحار والانهار والجبال والحيوان والنبات .

(٤) وأما الآداب والأخلاق فيعتمد في تعليمها على الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الناهية عن الفواحش والمنكرات، الآمرة بالمعروف والباقيات

الصالحات ، المنبهة على ما فيها من فوائد الخير ومنافعه في الدنيا والآخرة، وغوائل الشر ومضاره في الدنيا والآخرة — وعلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن اهتدى بهديهم من الصالحين رضوان الله عليهم أجمعين

(٥) وأما الاعمال كالوضوء والتيمم والصلاة والحج فقد بينت انه ينبغي ان تعلم بالعمل كما ورد في الاحاديث الصحيحة ومنها حديث « صلوا كما رأيتموني أصلي » واذا قرأ الانسان جميع الكتب ولم يتلق الامور العملية بالقدوة فانه لا يحسنها على ان الاقوال لا يستغنى عنها في كثير من المسائل

ذكرت في عدة دروس وخطب ان هذه الطريقة هي التي يمكن تعميمها في مدة قليلة ترجى فائدتها ويظهر أثرها وانه من استطاع ان يعلم الناس كلهم أو بعضهم ما زاد على ذلك من كتب الكلام والفقه وغيرها فليفعل فالطريقة التي نقترحها لا تكون مانعة له بل تكون مسهلة عليه ولكني أرى ان من المتعذر تعميم تعليم هذه الكتب فلنبدأ بالممكن الاسهل طريقا الذي لا بد منه لكل مسلم

(٦) الحث على تأسيس الجمعيات الخيرية لانشاء المدارس ونشر التعليم الذي يتحقق به المقصد الاول من هذه المقاصد وهو الجمع بين الدين والعلوم ولاعانة المنكوبين والمعوزين عند الحاجة لتكون طبقات الامة متعاطفة متراحمة يحترم فقيرها غنيها ويرحم كبيرها صغيرها

(٧) الحث على شكر نعمة الدستور بمساعدة جمعية الاتحاد والترقي على اتمام عملها العظيم في داخل البلاد من مراقبة الحكومة لأجل الثقة بالعدل وحسن الادارة ، ومن بث الآراء والافكار التي تنفخ روح محبة الدستور والمحافظة عليه في قلوب طبقات الامة العثمانية . وقد خطبت وتكلمت في الاستبداد والدستور والمساواة أكثر من مرة

(٨) تنبيه الامة إلى ما يجب عليها من محبة الدولة العلية و بذل المستطاع في تأييدها وتعزيز جانبها . وموالاة الدول التي تواليها ومعاداة الدول التي تعاديها ومجازاة هذه الدول بالاقبال على بضائعها أو بالاعراض عنها حتى تصير الدول تخشى عداوتنا وترجو مودتنا فانه لا شيء يهم أوربا من بلادنا مثل رواج تجارتها فيها . ولما جاءنا

نبأ ضم النمسا ولاية البوسنه والهرسك الى أملاكها واعلان البلغار الاستقلال التام دون الدولة العلية وتحدث الناس باحتمال محاربة الدولة للبلغار وأظهر كثير من الشبان التطوع في الحرب بينت في خطاب أقيته في نادي جمعية الاتحاد والترقي بطرابلس وفي خطبة ألقيتها امام الثكنة العسكرية في بيروت ان الدولة انما تحتاج الى مساعدة الامة بالمال دون تطوع الرجال لان ما عندها من العسكر كاف لمحاربة اية دولة عظيمة إذا وجد المال الكافي لتجهيزه . ثم رأيت بعد أسابيع من آخر خطبة ألقيتها في ذلك بعض الجرائد المصرية تقول مثل هذا القول الواضح لكل عارف بالحقيقة

(٩) بيان التفاوت بين الشعوب والملل في البلاد العثمانية في العلوم والمعارف والاستعداد للقيام بأعمال الحكومة والكسب والاستطراد من ذلك الى أن العرب أشد تقصيرا في ذلك من الترك والارمن والارناؤط كما ان المسلمين من العرب أشد تقصيرا من النصارى ، ولفت الاذهان الى مضرة هذا التفاوت اذا طال أمره لان الوحدة العثمانية لا تتحقق الا باتفاق جميع الشعوب والفرق التي تتكون منها الامة العثمانية واشتراكها في الاعمال التي تصلح بها الدولة وتعمر بلادها، وهذا الاتفاق والالتئام من نتائج التقارب في التربية والتعليم ، فلا بد من عناية العرب عامة والمسلمين منهم خاصة بالتربية والتعليم بقصد مجاراة غيرهم من إخوانهم العثمانيين وتمكين رابطة الاتحاد بهم ومساواتهم في أعمال الحكومة ومجاراتهم في الاعمال الحرة والا ساءت العاقبة وخيف ان تساعد أوربا في المستقبل كل جنس على الاستقلال وتجعل العرب تحت سيطرتها لعدم استعدادهم لتكوين حكومة مدنية

(١٠) تكريم الشعب وتنبيهه الى انه أهل لكل مكرمة وكل خير ، وان العامي اذا اتقى الله فاجتنب الشرور والمعاصي ولزم الطاعة ورغب في الخير والبر فانه يكون خيرا وأفضل من كثير من المتعلمين الذين لا يستعملون علمهم الا لجر المنافع الى أنفسهم ولو بالباطل، وان الفقير القانع الصالح أفضل من الغني الذي لا ينفع الامة بغناه ، ولا يقف في الكسب عند حدود الله ، وان كثيرا من الفقراء

يمكنهم ان يبذلوا شيئا قليلا من الصدقة على قدر حالهم للجمعيات الخيرية وبذلك يعدون من خدمة الأمة ونحو ذلك

هذه هي المقاصد التي كان يدور عليها كلامي وكان يفهمها المتعلم والعامي: هذا يفهم فهما اجماليا، وذلك يفهم فهما تفصيليا، وقد رضيها وأثنى عليها جميع من لقيت من العلماء والأدباء وظهر لها أثر حسن في الدهماء، لما عليه أهل بلادنا من الذكاء، وقد سألت أكثر من واحد من أهل العلم الذين سمعوا الخطب والدروس الدينية التي كنت ألقيها في المساجد: هل انتقدتم عليَّ شيئا فاتقي العود إلى مثله؟ فيقولون ما يقول أهل الفضل في هذا المقام اذا كان ماسمعوا مستحسنا عندهم غير منتقد. ذكرت هذه الكلمة تمهيدا لما يأتي

حادثة الشام

ذكرت جريدة الاتحاد العثماني خبر تلك الحادثة ولم تخطيء إلا في قولها انني سافرت من الشام ليلاً والصواب أنني صليت الفجر فيها وسافرت في القطار الذي يخرج منها بعد مطلع الشمس. وقد علم القراء ان ذلك الرجل الذي قطع عليَّ الدرس قبل اتمامه لم يدَّع في مجلس الدرس انني قلت شيئا وأخطأت فيه وانما تكلم كلاما مستقلاً في مسألتين لم أتعرض لهما في ذلك الدرس ولا في غيره من دروسي في بر الشام باثبات ولا نفي وهما مسألة تقليد الأئمة الأربعة واعتقاد فضلهم وهدايتهم ومسألة زيارة القبور واحترام الصالحين والتوسل بهم. وقد كان صاحب الفضيلة مفتي الشام حاضرا ذلك المجلس فإيَّاه اسأل دون أولئك الالوف التي كانت حاضرة الدرس: هل سمع مني كلمة مخالفة للشرع؟ ان كان سمع شيئا مخالفا فاذكِّره بالميثاق الذي أخذه الله على الذين أوتوا الكتاب «ليبيننَّه للناس ولا يكتمونه» ان يبين لي ذلك في كتاب خاص يبعث به إليَّ وأنا أنشره في المنار وغيره مع بيان ما عندي فيه، أو في رسالة ينشرها في بعض الصحف ليظهر الحق لطالبه ولا يخوض الناس في الباطل بغير علم. وسأ كتب اليه كتابا خاصا أسأله فيه هذا البيان وهو أعلم بما ورد في الكتاب العزيز والاحاديث الشريفة في وعيد كاتمي العلم

كشف شبهتين او ثلاث

إذا كنت لم أتعرض لذكر زيارة القبور والتوسل بالاموات الصالحين في شيء من كلامي في بلاد الشام فقد اشتهر عني انني كتبت كثيرا في انكار البدع المتعلقة بذلك . واذا لم أكن قد تعرضت هنا لذكر الاجتهاد والتقليد فقد علم الكثيرون انني كتبت بذلك كثيرا . وكنت أعرض كل ما أكتبه ولا أزال أعرضه لنقد العلماء وأنشر كل ما يرد عليَّ منهم في ذلك ولا تتسع هذه الجريدة لذكر شيء من ذلك وانما أريد هنا كشف شبهتين خاض فيهما بعض الناس بسوء نية وبعضهم باخلاص وحسن قصد ولكن مع سوء فهم أو تصديق للكاذبين الذين يشيعون عنا الاباطيل حتى زعموا اننا ننكر وجود الملائكة وجودا مستقلا

الأولى : أشيع عني انني أطالب كل مسلم بان يكون مجتهدا مثل الأئمة رضوان الله عليهم ! وربما تطرف من يستبيح الكذب لارضاء هواه فزعم انني أطعن في الأئمة المجتهدين ! . وأقول في الجواب عن هذه الشبهة انه لا يطالب الناس بمثل ما ذكر إلا من كان لا يعقل ان هذا من طلب المحال لقصور استعداد أكثر الناس عن ذلك أو عدم تفرغهم له . ومن فهم انني أعني هذا بالترغيب في الاهتداء بالكتاب والسنة فهو مخطئ فانما أعني به ان وعظ الناس وتذكيرهم بالكتاب والسنة هو الذي يؤثر في قلوبهم ويبعث روح الدين في نفوسهم، وأطالب المشتغلين بالعلم ان يعنوا بفهمهما ويذكروا العامة بهما ، سواء منهم من تفرغ لدرس كتب المذاهب كبعض طلاب العلم ومن لم يتفرغ له كأكثر العامة . ومسألة النهي عن التقليد مسألة أخرى يراد بها فهم كل قول بدليله لا ان يكون كل مشتغل بالعلم قادرا على تدوين مذهب!!. وهذا ما أعنيه بالاصلاح الديني وملخصه ان يعنى المشتغلون بعلم الدين بفهم الكتاب والسنة بقدر الاستطاعة وفهم كلام الأئمة بدليله وان يبذلوا جهدهم بارشاد العامة بهما كما تقدم . وهذا هو عين اتباع الأئمة وقد ورد عنهم نصوص كثيرة مصرحة به وهو غير التقليد الذي نهوا عنه

الثانية : أنني لم أنكر زيارة القبور وانما أنكر دائما ما يكون عند زيارتها من

البدع التي لم تكن على عهد السلف الصالحين ، ولم يقل بمشروعيتها أحد من الائمة المجتهدين ، وأقول ان حب الصالحين والاولياء المقرّبين من الاحياء والميتين انما ينفع ويكون وسيلة الى الله عز وجل إذا أفاد صاحبه التشبه بهم في خشية الله وتقواه بترك المعاصي والعمل الصالح مع الايمان الصحيح والا كان غرورا . ومن الغرور الذي يمنعه الاسلام دعاء أصحاب القبور بما لا يطلب إلا من الله واعتقاد انهم يستجيبون لمن دعاهم ! وان لهم سلطة غيبيه وراء الاسباب والسنن الالهية ينفعون بها ويضرون ، و يعطون ويمنعون ، فهذا الاعتقاد عبادة باطلة وان سميت توسلا فان الاسماء لا تغير الحقائق

ومما يتعلق بهذه المسألة بحث الكرامات واني لم أنكر جواز الكرامات ولا وقوعها ولكن بينت انها لا تكون مخالفة لسنن الله تعالى في خلقه بتغيير او تبديل أو تحويل لان الله تعالى أخبر بان سننه لا تتبدل ولا تتحول . وانها لا تكون معتادة كأنها صنعة بيد الولي ! بل قال في الفتوحات انها لا تتكرر فان المكرر يكون معتادا لا خارقا للعادة وغير ذلك من الاغلاط التي لا دليل عليها في الشرع ولا العقل . وحذرت عوام الأمة من الدجالين المحتالين الذين يدخلون عليها التلبيس من هذا الباب . فمن أراد أن يقف على التفصيل في ذلك فليراجع المجلد الثاني والمجلد السادس من المنار ففيهما بضع عشرة مقالة مطولة في الكرامات . ومن يدعي ان شيئا من كلامنا المجمل هنا والمفصل هناك مخالف للشرع فعليه أن يكتب الينا دعواه مؤيدة بالدليل لننشرها له والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

محمد رشيد رضا

باب المراسلة والمناظرة

﴿ من بحث الكرامات ﴾

الى حضرة البارع الغيور ابي عبدالله الشيخ محمد رشيد رضا صاحب المنار ايده الله وسدد مسعاه

السلام عليكم و بعد فقد طالما تشوقنا الى مناسبة المراسلة وارتباط المواصلة حتى حان وقتها بمناسبة ما كتبتموه في جريدة الاتحاد العثماني من اجمال رحلتكم إلى سورية فهنئتكم بتعاهدكم للوطن الاول وا كتسابكم علما باحوال ما كان غائبا عنكم واطلعنا على مقاصد دروسكم وخطبكم الدالة على غزارة علم وجودة براعة وحسن احساس وشعور من تنبيهكم للتعاون على البر والتقوى والتعاضد ماديا وادبيا والسعي في عمارة الدارين وحضكم العلماء والمفيدين أن يكون وعظهم وتعليمهم مؤسسا على الكتاب وما صح من السنة فقهاً وعقائد وآدابا فلقد وفيتم ماعليكم من مسؤلية قوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف) الآية وقدأبلغتم تلك النصائح بالحكمة والموعظة الحسنة فصنعكم هذا لا ينكره عالم يتحرى السنة والجماعة ولا يستثقله الا جاهل أوحاسد فنشكركم على تلك الهمة والحزم السديد

بقي بحث الكرامات ذكرتم انكم لم تتعرضوا له في الشام وقد تعرضتم له الآن اماما أحلتم عليه في مجلدات المنار فمع الاسف انني الى الآن ما رأيت من المنار عددا للسبب الذي كان حائلا في الاستانة كما لا يخفى ولكن النقطة المقصودة هنا من بحث الكرامات جلية من الاجمال المسطور في الاتحاد العثماني وقد أكدتم على أهل العلم ان يكتبوا لكم ما ظهر لهم فإنكم طوقتم أعناقهم امانة شديدة المسؤلية فيكون السكوت منهم وفاقا في جميع ما هو مسطور هناك فاخترت مكاتبتكم بما عنّ لي والمأمول من كمالكم الانصاف والرجوع الى الحق الذي يتبيّن لكم فنقول: قولكم في الكرامة « انها لا تكون مخالفة لسنن الله تعالى في خلقه بتغيير أوتبديل أوتحويل لان الله تعالى أخبر بأن سننه لا تتبدل ولا تتحول» هذا لفظكم تعنون

قوله تعالى (فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) تفسير هذه الآية ونحوها بعدم خرق العادة وعدم انحراف سبيل الطبيعة في الكون موجب للاسف وقد سمعت الاحتجاج بها مرارا على لسان من يدعي انحصار حوادث الكون في الاسباب انحصارا كليا ورأيته في كتب جديدة عربية وتركية ولا أدري أول من دس هذا البلاء تحت هذه الآية الكريمة فهو دفع للمعجزات النبوية بالصدر لانها محض خرق العادة وما هو الا تبديل وتحويل لما هو معتاد في النظام الكوني وليس لاحد ان يفرق بين المعجزة والكرامة في أصل التبديل والتحويل لانه لادليل على تخصيص عدم التبديل والتحويل بزمان دون زمان فالمراد بسنة الله في الآية نصره لانبيائه ومن قفاهم، وخذلانه لاعدائه ومن والاهم ، ونحو ذلك من احقاق الحق وابطال الباطل . قال المحقق مجدد القرن الثاني عشر الامام الشوكاني في تفسير فتح القدير تحت هذه الآية مانصه «فهل ينظرون أي فهل ينتظرون الاسنة الاولين أي سنة الله فيهم بأن ينزل بهؤلاء العذاب كما نزل باؤلئك فلن تجد لسنة الله تبديلا أي لايقدر احد ان يبدل سة الله التي سنها بالامم المكذبة من انزال عذابه بهم بأن يضع موضعه غيره بدلا منه ولن تجد لسنة الله تحويلا بأن يحول ماجرت به سنة الله من العذاب فيدفعه عنهم و يضعه على غيرهم ونفي وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفي وجودهما ثم قال أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم هذه الجملة مسوقة لتقرير معنى ما قبلها وتأكيده »

ومثل الشوكاني سائر المفسرين من أئمة الدين ولا يقال هنا العبرة بعموم اللفظ لأن المعنى الذي زعموا تناول اللفظ اياه مناقض لاكثر آيات القرآن التي قصت وقائع الانبياء وغيرها من عجائب قدرة الله كنار ابراهيم وعصا موسى وخلق الله عيسى بلا اب وواقعة اصحاب الفيل وغير ذلك ولنا ان نقول نزوعا بالآية اعتباراً بعموم اللفظ عموما لاينقض آية اخرى من سنة الله ان يخلق اشياء باسباب لحكمة واشياء بلا اسباب لحكمة ولن تجد لسنة الله تبديلا. واعجبني ما كتبه صاحب الحمية الاسلامية مفتي الديار المصرية في كتابه المسمى « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» بعد اشارته الى حديث« لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا

بذراع » قال في صحيفة ١٣٨ : ومن اتبع سنن قوم استحق الوقوع تحت احكام سنن الله فيهم فهل ينتظر المتبعون سننهم السائرون على أثرهم ان يصنع الله بهم غير الذي صنع بسابقيهم وقد قضى بان تلك سنته ولن تجد لسنة الله تبديلا. اه فان كان مرادكم سد الذريعة خوف توسيع الخرق على الراقع من جهة العامة فسد الذريعة من أصول الشريعة لكن مع السلامة من مفسدة أكبر من تلك وخوفكم على العامة بهذه المثابة إفراط فانه لاتلازم بين جواز وقوع الكرامة خرقا للعادة باذن الله وجواز مايعمل من البدع في زيارة الاولياء والغلو في الاعتقاد. وانتم تعلمون ان الكرامة ثابتة عند أهل السنة قاطبة حتى الاسفرايني والقشيري المروي عنهما البحث في شأن الكرامة ما انكراها وانما قالا لا تبلغ مبلغ المعجزة و بعضهم شرط ان لاتتوالى وتترادف ترادفا يجعلها عادة وفيه نظر. وكلامنا الآن في جواز اصل وقوعها امكانا وسنة، لا في عوارضها وارشاداتكم على طريقة السلف الصالحين في الاعتقاد، وهل نطق بذلك احد من اهل القرون الثلاثة؟ فتأملوا المسألة فان خطرها كبير والماديون والطبيعيون بالمرصاد فاذا سمعوا علماء الملة يقولون بعدم خرق العادة فيابشراهم يبنون على هذا الاساس الموهوم ماشاءوا لان مذاهبهم انعزال الخالق جل جلاله عن التصرف في العالم استغناء بالطبيعة أعاذنا الله وايا كم من الضلال و بالله تعالي التوفيق

محمد المكي بن عزوز بالاستانة

(المنار) إننا لا نقول بأن ما يعبر عنه بخوارق العادات غير جائز ولا غير واقع بل نقول الآن كما قلنا من قبل انه جائز وواقع وان كانت الآيات التي أيد الله بها الانبياء ليست محصورة في الخوارق الكونية وقد كانت عبارة الكرامات التي ذكرناها في المقالة التي نشرناها في جريدة الاتحاد العثماني مجملة لأننا كتبناها بعد كتابة تلك المقالة فأودعناها بين سطورها في المكان اللائق بها فكان إيجازها هو السبب في إجمالها ولم نر بذلك بأسا لاننا أحلنا على ماسبق لنا من التفصيل الذي يبين مرادنا. وفي تلك المقالات التي نشرت في المجلد الثاني والمجلد السادس بيان مستفيض لكل ما ألم به صاحب هذه الرسالة ومنه البحث في تأييد الدين بالخوارق

وفي عد كثير من علماء الدنيا إياها شبهات على الدين ومنفرات عنه فعسى أن يطلع عليها كلها ثم يبين لنا رأيه فيها . واننا ننقل الآن له شيئا منها يتعلق بمرادنا من قولنا ان الكرامات لا تكون مغيرة لسنن الله تعالى

كتبنا في المقالة الثامنة من مقالات « الكرامات والخوارق » التي نشرناها في الجزء الأول من المجلد السادس الذي صدر في غرة المحرم سنة ١٣٢١ ما نصه (ص١٧)

« أما البحث في آيات الأنبياء كيف وجدت وهل كانت كلها بمحض قدرة الله تعالى التي قامت بها السموات والارض أم كانت لها سنن روحانية خفية عن الجمهور خصهم الله تعالى بها كما خصهم بالوحي الذي هو علم خفي عن الجمهور ؟ فكل ذلك مما لا يفيد البحث فيه بل ربما كان ضارا . ومبلغ العلم فيها انها كما قال ابن رشد قد وجدت ونقلت نقلا متواترا اعترف به المؤمنون بهم والكافرون الذين سموها سحرا لجهلهم بالتفرقة بينها و بين تلك الشعوذات والحيل الباطلة . وفي شرح المواقف ان المعجزة كل ما يراد به إثبات النبوة وان لم يكن من الخوارق

« فعلم بهذا ان آيات الأنبياء عليهم السلام مصونة من انكار المنكرين ، واعتراض الواهمين ، وانها قد انتهت فلا يخشى ان يضر الاعتقاد بها في الزمن الحاضر وما بعده كما انه لم يضر في الماضي وإنما كان نافعا » اه من سياق الكلام في مبحث تنفير الخوارق عن الدين

وذكرنا في المقالة التاسعة التي نشرت في الجزء الثاني من ذلك المجلد (ص ٥٥ م ٦) عدة مسائل فى الموضوع الأولى منها فى سنن الكون وكونها عامة فى ارتباط الاسباب والمسببات والثانية فى كون الظن لا يعارض اليقين والثالثة فى كون روايات الآحاد تفيد الظن . والرابعة فى كون العجائب والخوارق قد نقلت عن جميع الامم ووجوب تمحيص النقول وتحريرها . والخامسة فى تمحيص المروي « ليعلم انه واقع حقيقة ولم يكن تخييلا للانظار ، أو خداعا للأبصار أو الافكار ، » وهذا نص السادسة :

« قد كشف العلم أسبابا لامور كثيرة كانت تسمى خوارق وكرامات فاذا علم بعد تمحيص الرواية والمروي أن شيئا من هذه الغرائب وقع لا محالة فينبغي الرجوع

لالتماس الاسباب من مظانها في العلم الطبيعي وعلم النفس فان لم يظهر له سبب يحمل عليه، ولا وجه يمكن ان يؤول اليه ، فهو الذي يصح ان يسمى خارقة أو أعجوبة ، والنظر فيه من وجهين: حال من ظهر على يده وامكان قياسه على غيره ، ثم بينا ذلك والغرض منه — كما لا يخفى — تنبيه الناس لحيل الدجالين ، وجذب مبغضي الخوارق الى الدين ، ولذلك قلنا في المسألة العاشرة (ص ٥٩ م ٦) مانصه:

«اذا فرضنا ان العلم أظهر لما يؤثر من المعجزات عللا روحانية ،وأسبابا خفية ، (أي كما يعتقد منكرو الخوارق الآن) فلا يهمن واهم ان ذلك قدح في النبوة أو ظهور لبطلانها ، كلا إن تحقق (تأمل) فلا يبعد ان يكون تحققه مظهرا لحقيقة النبوة كأن يتبين ان الارواح العالية التي تتصل بالعالم الاعلى وتستمد من عالمه الذي يسمى الملائكة قوة العلم والهداية وقوة الاعمال الغريبة كإحياء الموتى وقلب العصا حية . فان لم يتبين به صدقها فلا وجه لظهور عدمه لان الانبياء عليهم الصلاة والسلام ما كانوا يدعون أن الآيات التي يؤيدهم الله تعالى بها خارجة من سننه الظاهرة والخفية ، وماكانوا يدعون ان لهم سلطانا في ملك الله تعالى يتصرفون فيه بمشيئتهم وارادتهم كما شاؤا وكيفما شاؤا، وإنما كانوا يتبرؤن من حولهم وقوتهم و يسندون مايؤيدهم الله سبحانه به اليه و يقولون انه واقع بإذنه، وقدكان اعتمادهم في دعوتهم الى الله على البرهان ، وكانوا لا يعطون الآيات الا بعد معاندة ومجاحدة من قومهم والحاح في طلب آية لا يعرف مثلها عن البشر في افعالهم السببية ، وكان الله تعالى يقيم عليهم الحجة التي يطلبونها ولم تكن هي العمدة في إثبات الدعوة الى الله و بيان وحدانيته وقدرته وعلمه ووحيه (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم : جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به و إنا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب * قالت رسلهم افي الله شك فاطر السموات والارض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم و يؤخركم الى أجل مسمى ؟ قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا تريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين * قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده وما كان لنا ان نأتيكم بسلطان الا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فهذه سنة الله في الانبياء والامم : يدعو النبي قومه

الى الله بالبينة وهي كل مايتبين به الحق من برهان عقلي ودليل إقناعي فيطلبون منه آية كونية فيتبرأ من حوله وقوته الى حول الله وقوته فيعطيه آية يخوفهم بها فيخضع المستعد لقبول ذلك، ويعاند الآخرون فتحق عليهم كلمة العذاب، قل تعالى (وما نرسل بالآيات الا تخويفا)

« فاذا فرضنا ان العلم أظهر سببا معقولا لآيات موسى عليه السلام فهل ينافي ذلك أنها كانت تخويفا لفرعون وقومه وجاذبة لبني إسرائيل الى طاعة موسى بالارهاب اللائق بأمثالهم في بلادتهم وجفوتهم ؟

« نعم ان مايتوقع كشفه بالعلم سيكون القاضي على بقايا دين لايحتج على صحته الا بالعجائب وليس لاصحابه برهان على عقائدهم، ولاسند متواتر على صحة كتابهم، أولئك الذين ينعقون في كل بلاد اسلامية : ان القرآن لم يثبت لمحمد (عليه افضل الصلاة والسلام) العجائب والخوارق فهو ليس بنبي ودعوته ليست صحيحة !!. فالعلم الإلهي والشرائع الدينية والمدنية والحربية والسياسية وتكوين الامم وتربيتها من رجل أمي تربى يتيما في جاهلية جهلاء وأمة أمية لايرونه تأييداً الهيا ، وبرهانا على صدقه قطعيا، وإنما البرهان عندهم هو تلك الحكايات التي ينقلونها في عجائب مقدسيهم وينقل الوثنيون عن كهنتهم أعظم منها » اه ومنه يعلم اخونا صاحب الرسالة مرمانا في هذه المباحث وانها تأييد دعوة الانبياء ومحاجّة منكري آياتهم ومعجزاتهم ، فهل يخاف بعد هذا ان يكون كلامنا حجة لهم ؟؟ ولا يحسبن اننا نصور شبها لم ترد علينا كما فعل كثير من علمائنا كالرازي وغيره . كلا اننا نرد على قوم موجودين وشبهات كثر الحديث فيها. وهاك نص المسألة الثانية عشرة (ص ٦١ م ٦) :

« سبق في المقالات الاولى ان اصحابنا فرقوا بين معجزة النبي وكرامة الولي بأن الاولى لابد ان تكون مقرونة بدعوى النبوة وطلب المعارضة الذي يسمونه التحدي، والثانية لاتكون كذلك. وبأن الاولى يجب إظهارها لاقامة الحجة، والثانية يجب إخفاؤها خوف الفتنة ، وزاد بعضهم كالقشيري من أئمة الصوفية والسبكي في الطبقات الكبرى ان الكرامة لا تبلغ مبلغ المعجزة كإحياء الموتى وانما تكون فيما دون ذلك كشفاء مريض ومكاشفة خلافا للقول المشهور: ما جاز أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون

كرامة لولي . ولقائل ان يقول جمعا بين القولين : اذا جاز ذلك في تصور العقل فانه ماوقع ولا يقع بالفعل » اه

هذا وقد بحثنا في مسألة الخوارق والسنن الالهية في غير هذه المقالات كدروس الامالي الدينية في العقائد وبينا ان السنن منها مايتعلق بالعالم المادي ومنها مايتعلق بالعالم الروحاني وان من يقول ان آيات الانبياء والكرامات لاتخالف سنن الله تعالى فمراده سننه العامة لان مخالفتها للسنن المادية قد شوهد في زمن ظهورها ونطق به الكتاب المعصوم وهذا الذي أوردناه هنا يكفي لتفصيل ماراّه اخونا الكريم صاحب الرسالة في مقالتنا التي نشرناها في جريدة الاتحاد العثماني

وانا نشكر له فضله وعنايته بما كتبنا ومراجعتنا فيما انكره منه فعسى ان يكون الشكر مدعاة المزيد من مثل هذه المراجعة المفيدة ومثله أهل لذلك . فحيا الله العلماء المنصفين، وجعل سيرتهم عبرة يستفيد منها الناس التفرقة بين علماء الآخرة وعلماء السوء الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا فاذا رأوا عبارة يمكن انتقادها لاجمال فيها وغموض ، أو لكونها خطأ لصدورها عن غير معصوم ، اخذوا يشنعون ويغتابون ، ولكنهم لاينبهون صاحبها ولا ينصحون ، وان لم يجدوا ذلك استنبطوا واخترعوا ، وتقولوا وكذبوا ،

ان يسمعوا الخير أخفوه وان سمعوا شرا اذاعوا وان لم يسمعوا كذبوا

صدى حادثة الشام

﴿ في تونس ﴾

جاءنا هذا الرقيم من أحد علماء تونس المصلحين وقد سألنا نشره في المنار واننا ننشره اجابة لسؤله مع الشكر له ولاولئك الذين يحسنون بنا الظن قال :

أيها السيد الكريم

من ذا الذي يعلم خدمتك الملة ، وجهادك في سبيل ترقية الامة ، ثم لا يسجد

لله شكرا على ما نجاك ممن أراد بك كيدا ؟فهنيئا للعلم والحكمة ، بما اسبغ الله عليهما من النعمة ،

ولقد رأيت المصطفين الاخيار ،من نابتة هذه الديار ،فرحين بما آتاهم الله من فضله ، وافاض عليهم من طوله ،اذ حفظ زعيم هذه الامة ، الداعي الى سبيل ر به بالموعظة الحسنة والحكمة ،

واني لأذكر بهذه الحادثة ما كان للنبي صلى الله عليه وسلم في غزوة أحُد من عمر بن قميئة ،وأحب ان يذكر ذلك اسرى الاوهام «حيثما كانوا » ممن يرون هذه الحادثة اثراً من آثار تحرج الدين عليك ،وانتظاره الفرص للانتقام منك ! كلا والله ، انك لمن أحب الناس اليه ،واكرمهم عليه ،ولو تمثل لهم بشرا لرأوه يحمد الله حمداً كثيرا ، ويشكره بكرة واصيلا ، على ان الحادثة — بفضل الله — لم تزد درجتك الا ارتفاعا ، وصيتك الا اشتهارا ،ولكنهم يفهمون الشرف مقلوبا ،والمجد معكوسا .

فيالله والدين والانسانية، وطلاب الاصلاح من نبغاء الجمعية البشرية ،من هؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون ، ويلقبون انفسهم بالفهماء وهم لا يفهمون ، ويحسبون انهم على شيء ألا انهم هم الكاذبون .

وانا نشكر للمنار الزاهر فضله في تبديد حزبهم ، وتمزيق شملهم ،والاجهاز على مذهبهم حتى أصبحت كلمة الحق هي العليا ،وكلمة الباطل هي السفلى ،وازددا ايمانا بما قال الله في كتابه (انزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية او متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض، كذلك يضرب الله الامثال)

والله يحفظك لحماية دينه والدعوة الى سبيله ، والسلام .

آثار علمية ادبية

الانقلاب العثماني

طبعت رسالة الانقلاب العثماني بمطبعة المنار في كتاب مستقل[1] وهذا نص المقدمة التي كتبها له شقيقنا السيد حسين وصفي رضا :



(وشاورهم في الامر)
(وامرهم شورى بينهم)
« القرآن الحكيم »

كانت الدولة العثمانية منذ أسسها السلطان عثمان ذلك الرجل المدبر العصامي ، الى نهاية أيام السلطان عبد المجيد العاقل الابي ، — دولة حربية بحتة ، شادت بناء عظمتها على أسس الاقدام والشجاعة والغلب ، فلم يمض زمن كبير حتى اصبحت من الدول ذوات البأس اللائي يتقى غضبهن ، وتخطب مودتهن ، فأمعنت في الفتوحات ، واسترسلت في الغزوات ، وقلما كانت ترجع من غزوة إلا و بنود الفلج تخفق فوق رأسها ، ورايات الظفر تمايل في أيدي رجالها الكماة صلفا وفخرا ، فعز مكانها ، وتطاول بنيانها ، واتسع ملكها ، حتى تغلغلت في أحشاء أوربا ، بعد أن استحوذت على آسيا الصغرى وجزء كبير من إفريقيا .

---

(١) بلغت صفحاته ١٨٢ بالقطع الصغير وهو يباع بثلاثة قروش صحيحة في مكتبتي المنار بمصر وطرابلس

كانت سريعة الخطى في هـذه السبيل فسادت وشادت ، و بنت على أطلال الدولة السلجوقية دولة عظيمة قوية ، وما كان العظم في تلك العصور التي يسمونها العصور المظلمة الا بقوة المراس ، وثبات الجاش ، والنشوء بين صليل السيوف ، ومزاحف الصفوف ·

أخذ بعضدها فاتح القسطنطينية وكان تقيا صالحا فأناف بها على اليفاع ، وتوقل بها سنيّ المراتب ، ناهيك بمالك القسطنطينية اذا كان خيّرا عادلا ، وما زالت تتدرج في منازل العظمة ، ومواطن السؤدد ، حتى كانت أيام السلطان سليمان القانوني ، وفيها بلغت آخر مدى ووقفت عند منتهى الغاي ، وهو صاحب الفضل في جعلها حكومة نظامية قانونية ، بعد ان كانت تجري على تقاليد محفوظة ، لا غناء بها ، ولا نظام لها ، ومن ذلك الحين دب الضعف في جسمها وكان اهمال أولي الامر وجهلهم وسومهم الرعية سوء العذاب مساعدا على نماء الضعف ، وسريانه في جسم الدولة ، الى أن تولى السلطان محمود الثاني ذلك المحب للاصلاح ، والدولة على شفا جرف هار ينذرها بالاضمحلال والفناء ، الفاها وقد فقدت تلك القوة التي كانت تباهي بها ، ولم تضرب بسهم في العلم الذي أصبح السلاح القاطع والقوة الكبرى في ذلك الحين وهذا الحين ، فقوّم منآدها بما في وسعه ، واصلح فاسدها بما في طوقه ، ومما يذكر له بالثناء عليه تنكيله بالانكشارية الذين كان زمام الملك في يدهم لذلك العهد ، وكانوا من أشد العوامل في افساد الدولة وإضعافها

ثم تولى الملك السلطان عبد المجيد والدولة في قلاقل داخلية ، ومشكلات خارجية ، تضعف الرجاء في إقالتها من عثرتها ، وانهاضها من كبوتها ، بله ارجاعها الى سابق عزها ، وسالف مجدها ، فأخذ بضبعها ، وحدد للحكومة وظائفها ، و بين للرعية حقوقها ، و يكفيه فخرا انه هو الواضع لخط « كلخانه » المعروف

لم يكد عبد المجيد يوارى في رمسه حتى قام السلطان عبد العزيز وهو الذي زُين له حب الشهوات، وأولع بحب السيطرة ، واشرب قلبه القسوة ، ينكث فتل سلفه ، و يصدع رأب سابقه ، وكان عونا له على هذا التخريب وزيره محمود نديم باشا ، حبيب (اغناتيف) السفير الروسي في ذلك العهد ، ومنفذ غايه ومقاصده

ثم جلس على سرير الملك السلطان عبد الحميد الثاني ، بعد ان تولى الملك السلطان مراد مدة لم تتجاوز ثلاثة وتسعين يوما ، ولم يكد يستقر على السرير حتى أحاط به جمهور من الاحرار ، وزينوا له ان يسير على سَنن أوربا ، فتكون حكومته دستورية حرة ، وكان مدحت باشا هو الرأس المدبر لهذه الحركة ، واليد العاملة فيها ، ولم تكد تقر عيونهم بتحقيق الرغبة ، حتى فوجئوا بالنفي والابعاد ، وإلقائهم في غيابة السجون ، وإغراقهم في لجج البوسفور !!!

ابتدأت المظالم منذ ذلك الحين تحارب الامة في جميع مقومات الحياة ، والتف حول السلطان فريق من الجواسيس « يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » فطفقوا يرضون المخلوق بما يسخط الخالق ، واقترعوا ضروبا من الظلم ، وأفانين من الارهاق والتضييق ، كانوا يصولون بها على الأمة صيال الوحوش الضارية ، والطيور الكاسرة ذوات المخالب ، وامتد بهم الافساد الى أن سلطوا بعض رجال الامة على بعض ، ففتوا في عضدها ، وأفسدوا أخلاقها ، حتى بات الابن يخشى ان يأتيه الضر من قِبَل أبيه ، والأخ يتوقع ان يحيق به البلاء من ناحية أخيه ، وكان العلم أخوف ما يخافونه ، فنكلوا برجاله شر تنكيل ، ففر منهم من أفلت من ظلمهم الى أوربا وأمريكا ومصر .

كان الاحرار في غضون هذه الملمات والكوارث النازلة بأمتهم قد اجمعوا أمرهم سراً وانشأوا الجمعيات السياسية في بلاد الحرية التي تبوأوها ، ونشروا الجرائد والكتب والرسائل ، وكلها تنديد بالحال الحاضرة ، وغلا في ذلك قوم واستخذى آخرون ، حتى قام فريق من الشبان في الاستانة — ومعظمهم من طلاب المدرسة الطبية والمتخرجين فيها — فأسسوا جمعية الاتحاد والترقي منذ ثماني عشرة سنة ، ثم نمت وعظمت بعد ذلك ، وانتظم في سلكها كثيرون من كبار الاحرار وخيار العقلاء . وقد كان لرجالها تكتم غريب ، وتحفظ شديد ، وحزم عظيم ، كانت بدايته السلامة من صولة الجواسيس ، ونهايته ذلك الفوز الكبير والنصر المبين ، إذ قاموا بقلب أعرق حكومة في الاستبداد الى حكومة دستورية حرة ، من دون ان

راق في سبيل ذلك نقطة دم ، مع أن المسطور في التواريخ ان مثل هذا الانقلاب لم تصل أمة إلى ساحله الا بعد خوضها في بحر لجي من الدم ،

لم تكن دهشة الامة العثمانية واعجابها بهذا الانقلاب بأكثر من دهشة سائر الامم الاخرى ، فقد تجاوزت صيحات (نيازي) و (أنور) بلاد الدولة العلية الى مدن أوربا وغيرها ، فالتفتت مذعورة حائرة من هذا المصير العجيب الذي ما كان يخطر لها ببال ، ولا يزال الناس فيها وفي غيرها من بلاد الدنيا معجبين بهذا الانقلاب الذي لم يع التاريخ في صدره له ضريعا ، حائرين في أسبابه ومقدماته ، حتى قام اليوم الكاتب السياسي ، والاديب الألمعي ، صديقنا محمد روحي بك الخالدي ، عضو القدس الشريف في مجلس النواب العثماني — بتأليف رسالة جليلة في هذا الموضوع ، أماط فيها اللثام عن الاسباب المجهولة ، والحقائق المخدرة ، وقد بحث فيها بحثا فلسفيا في أصل الاستبداد ونشوءه ، وشكل الحكومة العثمانية في بدء تأسيسها ، وبيان تقاليدها الموروثة ونظاماتها المكتسبة ، وشيوع الخلل في إدارة الدولة واستبداد أولي الامر فيها ، مما أدى بها الى شر حالة ، وكان سببا في قيام الاحرار ومطالبتهم بالاصلاح ، وأفاض القول في شؤون الاحرار وتاريخ ظهورهم ، وبيان الطرق التي سلكوها ليصلوا الى مقاصدهم ، مع تراجم لمشهوريهم .

جال المؤلف في ذلك جولة المؤرخ الواقف على الحقائق ، واستنتج من الحوادث التي سردها أن الانقلاب هو النتيجة التي لا بد منها لتلك المقدمات التي سبقته ، فكان ما كتبه جديراً بأن يكون رائدا لمن يأنس في نفسه شغفا الى استكناه تلك الغوامض التي ادهشت العالم ، وقلبت كيان السياسة ، وأي قارىء ليس شغوفا بذلك ؟

نشرت الرسالة في مجلة (المنار) فكانت موضع استحسان العلماء العقلاء ، والكتاب الابيناء ، وكان بدا لي ان استأذن مؤلفها في طبعها على حدة لتكون كتابا مستقلا تلذ مطالعته ، وتسهل مراجعته ، فكتبت اليه راغبا في ذلك ، فرجع القول مليا الطلب ، سامحا بتنقيح ما لا تسلم منه كتابة المتسرع ، ولا سيما اذا كان كمؤلفنا لم يُتح له ان يعيد النظر على ما كتب ،

واني أزفها اليوم الى الناطقين بالضاد مطبوعة طبعا صحيحا ، رجاء ان يستفيدوا من تحقيق مؤلفها ، ويقفوا على أسباب ذلك الانقلاب العجيب . وخليق بأهل هذا

القطر الذين شغفوا بالدستور وقد ضلوا طريقه، ولم يهتدوا إلى بابه ، أن يمعنوا في معانيها، ويتبينوا مراميها ، عسى ان يتأسوا بأولئك الاحرار ، ويكونوا من خير المحتذين لهم في هذه الديار

القاهرة في سلخ ذي القعدة سنة ١٣٢٦

حسين وصفي رضا

التقريظ والانتقاد

حالت كثرة المواد في أجزاء المجلة الأخيرة دون التنويه بالكتب التي أهديت الينا، وذكر المجلات والجرائد التي صدرت في هذه الفترة ، ولما كان هذا الجزء هو آخر أجزاء السنة التي أهديت الينا فيها تلك المطبوعات رأينا ان ننوه بها على سبيل الاختصار ، وربما نعود إلى الكلام على مايستدعي منها الكلام في السنة الثانية عشرة :

« الكتب »

تاريخ مشروع السكة الحجازية

ألفه صديقنا الشيخ محمد انشاء الله صاحب جريدة « وطن » الهندية الشهيرة في ثلاث لغات : الاوردية والعربية والانكليزية وهو تاريخ مفصل لهذا المشروع الجليل

اتمام الوفاء

مؤلفه الشيخ محمد الخضري المدرس في مدرسة القضاء الشرعي وهو يحتوي على سيرة الخلفاء الراشدين وقد جعله مؤلفه قسمين : قسماً سماه عصر اتحاد الكلمة وقد ذكر فيه الفتوحات ونبذة من نظامات الأمة الاسلامية في ذلك الحين ، وقسما سماه عصر الفتن وهو ما كان في أيام الخليفتين عثمان وعلي (رض)

والكتاب يقع في ٣٣٩ صفحة بالقطع الصغير ويباع بخمسة قروش في جميع المكتبات

تاريخ اسلاميت

مؤلفه الدكتور . ر . دوزي الهولاندي أحد علماء المشرقيات الاعلام ومن اعضاء المجامع العلمية في أوربا ، وهو كتاب جليل ترجمه باللغة التركية الدكتور عبد الله بك جودت منشيء مجلة « اجتهاد » وصفحاته ٣٣٤

المنهج المسلوك

ألفه الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله من علماء القرن السادس للملك الناصر صلاح الدين يوسف وقد طبع على نفقة أحمد زكي افندي أبو شادي ومحمد رشدي افندي الخبير بالمحاكم الاهلية وهو يطلب منهما وصفحاته ١٤٠ بقطع المنار

تأويل مختلف الحديث

هذا الكتاب من نفائس الكتب وضعه الإمام ابن قتيبة الدينوري من أهل القرن الثالث « في الرد على أعداء أهل الحديث والجمع بين الأخبار التي ادعوا عليها والاختلاف والجواب عما أوردوه من الشبه على بعض الاخبار المتشابهة أو المشكلة بادي الرأي » وقد طبعه الشيخ زكي فرج الله الكردي بعد ان صححه على نسخة مصححة بقلم السيد محمود شكري الآلوسي عالم العراق ونسخة مصححة بقلم الشيخ جمال الدين القاسمي الشهير وحسب الكتاب ثقة ان يكون مصححا بقلم هذين العالمين ، و يطلب من طابعه بمصر

ثمار القلوب

مؤلفه الامام ابو منصور الثعالبي صاحب يتيمة الدهر وفقه اللغة وهو من كتب الادب التي يرغب فيها ، ومن ذا الذي لا يرغب في كتب الثعالبي من الادباء؟ والكتاب يقع في ٥٦٠ صفحة مطبوع طبعا نظيفا على ورق جيد و يطلب من طابعه احمد زكي افندي ابو شادي بمصر

الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده

تأليف صديقنا سليمان افندي البستاني العضو في مجلس المبعوثان عن ولاية بيروت والكتاب يحتوي على فصول كثيرة من آراء المؤلف ومروياته ومرئياته ، وهو مطبوع

طبعا نظيفا على اجود ورق وصفحاته ٢٠٣ وثمنه ١٢ قرشا صاغا وهو يباع في جميع المكتبات ويطلب من اسعد افندي البستاني بشارع صندوق الدين بمصر

تركيا الجديدة

موءلفه جميل افندي معلوف من مشهوري كتاب السوريين في أمريكا وقد قسمه الى ستة كتب: (١) اسباب الانحطاط في الشرق ،(٢) تفريج الشرقين ، (٣) التعليم ،(٤) القانون الاساسي ،(٥) الديانة السياسية،(٦) ابقاء أم فناء. وختمه بفصل في حقوق الانسان وملاحظات متفرقة ·

عفة الاولاد

كتاب صغير يحتوي على نصائح وعظات يجدر بالنابتة أن تعني بتلاوتها وتدبرها ترجمه بالعربية سليم افندي خوري « بقلم سكرتير مالي السودان » وهو يطلب منه

جواهر الحكماء

هو مجموع رسالتين إحداهما لابن المقفع والاخرى للحافظ ابن عبد البر الاندلسي جمعهما في كتاب واحد عوض افندي واصف صاحب مجلة المحيط ويطلب منه وثمنه ثمانية قروش·

﴿ الدواوين الشعرية والرسائل والقصص ﴾

ديوان احمد نسيم

احمد افندي نسيم من شعراء مصر المشهورين وقد جمع شعره في كتاب بلغت صفحاته ١٣٩ مطبوع طبعا نظيفا على ورق صقيل

ديوان الحمويات

نظم هذا الديوان السيد محمد الحسن الحموي وهو يحتوي على موضوعات شتى وكثير من المقاطيع وقد طبع بالقطع الصغير وصفحاته ٢٠٨ ويطلب من ناظمه بحلوان

رسالة العطور

ترتيب محمد توفيق افندي عطار الدمشقي نزيل الاستانة وهي رسالة في علم الفرائض سهلة العبارة حسنة الترتيب

تاريخ الحرمين وبيت المقدس

كراسة لأحمد حافظ افندي هدايه وتطلب منه بطنطا

المبادىء النحوية

رسالة في النحو مختصرة سهلة للشيخ مصطفى بكري الاسيوطي « مدرس اللغة العربية بالمدارس الحرة »

فتح القيوم

وهي ختمة مقدمة ابن آجروم للسيد محمد بن سودة من علماء فاس

في سبيل الدستور الفارسي

كراسة تحتوي على خطب وكلمات جمعها حسين افندي ابراهيم الايراني نزيل مصر

يوم الحساب

هو الجزء الاول من مجلة حدائق الظاهر لصاحبها أحمد زكي افندي أبو شادي ومحمود افندي عباسي وثمنه ٣ قروش

ربة الجمال

قصة ترجمها باللغة العربية اسكندر افندي خوري وتباع بستة قروش في المكتبة الشرقية

﴿ المجلات والجرائد ﴾

الشرق الادنى .The Near East

مجلة انكليزية مصورة تبحث في شؤون الشرق الادنى خاصة ، وتطبع على أجود ورق ، وتنشر صورا للبلاد الشرقية ورجالها ومجالسها وغير ذلك في غاية الاتقان ، وموضوعها سياسي مالي أدبي ، وهي تصدر في لندرة وثمن الجزء منها نصف شلن ، ولم يكتب عليها اسم صاحبها أو أصحابها

الجنس اللطيف

مجلة « أدبية اجتماعية لصاحبتها ومحررتها ملكه سعد » تصدر في مصر مرة في الشهر

باثنتين وثلاثين صفحة وطبعها في غاية الجودة، وورقها صقيل وموضوعها جليل، فخليق بالشبان والشواب التوفر على مطالعتها، وقيمة اشتراكها أربعون قرشا صاغا في السنة

بيان الحق

مجلة تركية تصدر في عاصمة السلطنة العثمانية، وتنشر أفكار الجمعية العلمية الاسلامية ثمة، وهي دينية علمية سياسية أدبية تصدر مرة في الاسبوع، وقيمة اشتراكها في السنة ٩٥ قرشا صاغا عثمانيا وثمن النسخة قرش ونصف

المباحث

صدرت هذه المجلة التي أشير اليها في (ص ٦٣٦ م ١١) وهي كما كان ينتظر من منشئيها صديقينا جرجي افندي يني وأخيه صموئيل افندي، فهي تدل على علم وبحث واضطلاع، ويقع الجزء منها في ٤٨ صفحة وقيمة اشتراكها في طرابلس الشام ١٥ فرنكا و ١٧ في الخارج

روضة المعارف

« مجلة علمية أدبية تاريخية فكاهية اخبارية تصدر في كل خمسة عشر يوما مرة » في بيروت لمديرها محمد علي بك القباني ورئيس تحريرها الاستاذ عبد الرحمن افندي سلام من علماء بيروت. جاءنا الجزء الاول منها منذ شهرين وهو مصدر بصورة السلطان !! وقيمة اشتراكها ريالان في بيروت و ١٢ فرنكا في خارجها

المنتقد

« مجلة عمرانية اجتماعية انتقادية فكاهية » تصدر في بيروت مرتين في الشهر بالقطع الصغير، لمنشئها محمد افندي باقر ومديرها كمال افندي بكداش، وقيمة اشتراكها ٣٥ قرشا في بيروت و ١٠ فرنكات في خارجها

الاعمال اليدوية للسيدات

مجلة ذات رسوم لصاحبتيها فاسيلا وأختها وقيمة اشتراكها ستون قرشا صاغا في مصر

القرطاس

« مجلة علمية أدبية مدرسية تصويرية » تصدر في آخر كل شهر افرنكي في الاسكندرية لمديرها أحمد افندي فائق وقيمة اشتراكها ٢٠ قرشا صاغا

الجامعة المصرية

مجلة نصف شهرية مصورة تنشر محاضرات أساتذة الجامعة المصرية لاصحابها محمود افندي شاهين ومحمد كامل افندي فيضي وعبدالله افندي أمين وقيمة اشتراكها مئة قرش في مصر لغير طلبة الجامعة

المدرسة

« مجلة علمية أدبية تاريخية يقوم بتحريرها نخبة من كبار الأدباء والكتاب» تصدر في الشهر مرة باثنتين وثلاثين صفحة وقيمة اشتراكها ٤٠ قرشا في مصر

فرعون

مجلة تبحث في شؤون القبط الملية وتصدر في الشهر مرتين لمديرها توفيق افندي حبيب واشتراكها ٢٠ قرشا في مصر

صحيفة

مجلة أوردية تصدر في حيدر أباد الدكن (الهند) لمنشئها مولوي محمد أكبر علي معتمد مجلس المعارف ثمة

ابوقشه

جريدة اصلاحية اسبوعية تنشر الجد في قالب الهزل، يصدرها في تونس السيد الهاشمي احد الكتاب المشهورين ، وقيمة اشتراكها في السنة عشرة فرنكات

الحكيم

جريدة اسبوعية « حرة تبحث في كل شيء » يصدرها في كوردوبا (الارجنتين) عزيز افندي حكيم ولها عناية خاصة بالابحاث الفلسفية

شمس العدالة

جريدة اسبوعية « سياسية فنية ادبية » أنشأها فريق من الكتاب باللغة العربية في الاستانة، وقد سموها في هذه الايام « شمس الحقائق » وقيمة اشتراكها ليرة عثمانية في السنة

الاتحاد العثماني

« جريدة يومية سياسية ادبية اجتماعية عمرانية » يصدرها في مدينة بيروت صديقنا الشيخ احمد حسن طباره من مشهوري أرباب صناعة القلم، وهي من مثليات الجرائد الراقية في سورية، وقيمة اشتراكها اربعة ريالات في بيروت وليرة عثمانية في سائر الجهات

كلمة الحق

جريدة عربية تصدر في الاستانة ثلاث مرات في كل اسبوع، انشأها فريق من الكتاب وعهدوا في رياسة تحريرها الى ج. حرفوش، وقيمة اشتراكها ٢٥ فرنكا في مصر والبلاد الخارجية وأربعة ريالات في الاستانة

اوقيانوس

جريدة فارسية تصدر في طهران تحت مراقبة ميرزا عبد الرحيم الهي وقيمة اشتراكها ١٥ فرنكا

الحجاز

هي جريدة الحكومة الرسمية، تصدر باللغتين التركية والعربية، ولقد سررنا بانشائها سرورا عظيما لانها أول جريدة أنشئت في أم القرى مكة المكرمة، وقيمة اشتراكها ١٥ فرنكا في الخارج

الطلبة

« جريدة عمومية تصدر مرة في كل اسبوع » مديرها عبد الحميد افندي حمدي وقيمة اشتراكها ٥٠ قرشا في مصر

الرغائب

« جريدة عثمانية علمية ادبية سياسية تجارية أسبوعية » لمديرها ومحررها حكمت بك شريف من مشهوري الكتاب في طرابلس الشام، وقيمة اشتراكها ريالان في طرابلس و١٥ فرنكا في الخارج

المقتبس

« جريدة يومية سياسية اقتصادية اجتماعية » لمنشئها ومديرها صديقنا محمد افندي كرد علي

الكاتب المشهور ، والمقتبس من الجرائد الممتازة بتحري الصدق والتزام النصح والبعد عن سخيف القول ورذيلة التملق ، وهي تصدر في دمشق الشام وقيمة اشتراكها اربعة ريالات ثمة و٢٥ فرنكا في الخارج

المحروسة

« جريدة يومية سياسية علمية ادبية تجارية » والمحروسة من الجرائد القديمة التي ابطلت منذ زمن فأعاد اصدارها في مصر الياس افندي زيادة ، وعهد في رياسة تحريرها الى الاستاذ ابراهيم افندي الحوراني من مشهوري علماء سورية ، وقيمة اشتراكها مئة وخمسون قرشا صاغا في السنة

باب الأخبار والآراء

جواب مجلس المبعوثان (*

﴿ عن خطاب السلطان ﴾

في افتتاح مجلس المبعوثان

ياصاحب الشوكة :

ان ادوار الفتور التي حدثت على أثر أدوار الفتوحات العثمانية وتوالي ظهور الغوائل الخارجية من جهة وسوء الاستعمالات الداخلية التي هي أشد تأثيراً في التخريب من جهة أخرى ـ كانت نتيجتها استياء جميع العناصر العثمانية ، وكان من ذلك ان والدكم المعظم قد وضع خط (كلخانه الهمايوني) الضامن للحقوق الشخصية ، والقاضي بالمساواة بين جميع العناصر العثمانية المختلفة ، وبهذه الوسيلة قد اكتسبت الدولة العثمانية حياة جديدة ملائمة للحال العصرية

*) نشرنا في (ص ٨٧٩) من الجزء الماضي خطاب السلطان في افتتاح مجلس المبعوثان ، واننا ننشر الآن جواب مجلس المبعوثان وجواب مجلس الاعيان عنه

بيد انه لما كان من اللازم تأمين الحقوق البشرية وضماتها بصورة راسخة ثابتة وكان من الضروري - صيانة لهذه الضمانة - تبديل شكل الحكومة القديم وقبول الاصول الدستورية المستندة على حكم الامة الاصلي - صدرت في زمن جلوسكم السعيد ارادتكم السنية بوضع القانون الاساسي ونشره وفتح مجلس النواب إجابة لآمال خواص الامة التي هي خلاصة آمال الامة كافة

على ان طريقة الشورى هي أصل في ادارة الحكومات وان صور الحكومات التي تغاير هذا الشكل المشروع ناتجة عن تغلب البطل على الحق والاستبداد على العدل بصورة موقتة

ثم انه مع تصريح جلالتكم في الخط السلطاني بان استعداد الامة وأهليتها في ذلك الحين مسلم بهما ومع اعترافكم بان القانون الاساسي وضع موافقا لذلك الاستعداد قام بعض رجال حكومتكم وأحدثوا مشا كل وهمية متناقضة جعلوا بها مستقبل قوة هذه الامة العظيمة عرضة للخطر مدعين انها غير أهل لصورة ولا شكل من الاشكال التي عينها (القانون الاساسي) وعليه تفرق مجلس الامة أيدي سبا !!!

ان أولئك المخادعين الذين خدعوا جلالتكم بالمشكلات الوهمية التي أحدثوها لم يكتفوا بالتعدي على احكام القانون الاساسي الذي هو مناط سعادة الامة وحريتها بل قد تجرأوا على بهتان آخر وهو زعمهم عدم استعداد ادمغة الامة لهذا القانون فحسنوا لجلالتكم إرجاء تنفيذه مستخفين بقوة ادراك الامة !

ولكن نشكر الله فان الامة رغما عن المساعي التي بذلها من نيط بهم نشر العلم والمعارف في سبيل تعطيل الادمغة وتغطية العيون قد ادركت بحسب استعدادها الفطري وقابليتها الطبيعية ان هذه الحال ستؤول الى الانقراض وانها إن لم تنل حقوقها السياسية فلا تستطيع ان تحفظ مركزها في عالم السياسة والمدنية وعليه عرضت لجلالتكم الآمال العامة

ونحمد الله على ان جلالتكم قد أدركت كل الادراك الخطر المحدق بالدولة الذي لم يستتر الا عن ابصار الرؤساء ورجال الحكومة ، فعرفتم ما ينتج للدولة والمملكة بسبب اطمئنان الافكار العامة من السعادة في الحال والاستقبال ، فأصدرتم

الأمر السلطاني القاضي بالدعوة الى افتتاح مجلس الأمة واعادة الانتخاب موافقة لاحكام القانون الاساسي بالرغم عن آراء المخالفين لفتحه ، ولذلك فان الامة تشكر لجلالتكم هذا الشعور الذي كان سببا لانقاذ الدولة العثمانية من انقراض محقق وسوقها إلى طريق الترقي والسعادة

ولو انكم تغلبتم قبلاً على خداع أرباب الغايات لكانت الاراضي الغامرة الموجودة في اطراف المملكة قد أصبحت في خلال الثلاثين سنة الماضية أراضي عامرة ، ولكنا في ارتقاء وعلاء بدل التدني والانحطاط ، ولما كانت الشرذمة القليلة التي استفادت من الاستبداد فتحت في قلب الامة جرحا كاد يصير قرحا ، ولكان الوطن نال الرفاهة والسعادة من كل الوجوه ، ولكانت الدولة العثمانية استقرت في مركزها السياسي اللائق بها امام الدول منذ زمن مديد

ان الامة العثمانية تشارك جلالتكم في الاسف الذي أظهرتموه بسبب اعلان امارة بلغاريا استقلالها ، وضم النمسا ولايتي البوسنه والهرسك الى املاكها ، وهما الولايتان اللتان كلفت تديرهما موقتا بموجب ميثاق دولي ، لان الامة العثمانية كانت في دور انقلابها السعيد تقطع الطرق السياسية بصورة سلمية ، وتربي صميم الآمال لتكون مظهرا لموازرة الدول المتمدنة وأهلا لانعطافها في حياتها الدستورية الجديدة

ان هذه الحوادث السياسية التي هي إرث مشوءم من سيئات الماضي المديد سيبذل مجلسنا النيابي كل الوسائل التي يحفظ بها شرف حقوق الدولة حلها ، وسيقوم بجميع المساعدات اللازمة لمجلس الوكلاء المحرز ثقة الامة والمسئول امام مجلسها النيابي

ان خطة مجلسنا ستكون دائرة على ادامة حسن العلاقات بين الدولة العثمانية وجميع الدول ، وان الامة التي أحدثت في الدولة هذا الانقلاب السلمي الداخلي ستري العالم أجمع بان سياستها الخارجية موءيدة للسلم

وان آمالنا معقودة بان دولتنا سترتقي بفضل خطتها السلمية الى الدرجة التي تليق بدولة عظيمة الشأن امام الهيئة الدولية ، وانها ستكون جديرة بالاستفادة من الحقوق الدولية على وجهها ، كما انها ستكون رعية الجانب أهلا لمحبة الدول كافة ،

وانا نتوقع أن تنتهي المسائل السياسية الحاضرة على وجه حسن بموآزرة الدول المعظمة التي ثبتت لها خطتنا السلمية ونيتنا السليمة

ان مجلسنا سيبذل الجهد بتنظيم الامور المالية التي هي من أهم المسائل الداخلية، وسيكون رقيبا صادقا على الواردات، ومسيطرا غيورا على الصادرات، وسيمنع بتة إعطاء درهم واحد من الخزانة على غير وجهه، كما انه سيمنع أيضا اخذ بارة واحدة من افراد الامة بغير وجه مشروع، مقتحما فى هذه السبيل كل المصاعب التي سيلاقيها في امر ضبط الواردات والصادرات، وذلك بسبب النتيجة الاليمة التي انتجها الاسراف والتبذير في الماضي بصورة لم يعهد لها نظير في تاريخ الامة، حتى يتسنى لدولتنا ان تكتسب لقب دولة مقتصدة تدير امورها على القواعد المالية، وترفع عنها لقب دولة سفيهة مبذرة !!

واننا نرى من الامور الهامة الواجبة بذل الجهد بتوطيد الامن وتأييد رفاهة العناصر المختلفة المؤلفة منها دولتنا، وصيانة الحقوق العامة باجراء العدالة مجراها والمحافظة على جريان القضاء بكل استقلال، وفتح المدارس فى جميع انحاء المملكة واصلاح حال الموجود منها، وتربية ابناء الوطن تربية وطنية دستورية، وتزييد الوسائل النقلية وفتح الطرق والمعابر لتسهيل نقل الصادرات والواردات، وترقية حال الصناعة والزراعة وتوسيع نطاق التجارة

ومن الضروريات تعزيز القوتين البرية والبحرية لتكونا بدرجة مناسبة لموقعنا الجغرافي، وليتسنى لنا بهما المحافظة على حقوقنا المشروعة وحكومتنا المقيدة، لا للتعدي على حقوق الغير

ولهذه الامور الحيوية المذكورة سنبذل الجهد تدقيق التقارير التي قدمت من الحكومة لمجلسنا ونضع القوانين الموافقة لبلادنا وأمتنا

وانا مع الشكر لجلالتكم على عزمكم القطعي الثابت على ادارة المملكة بموجب احكام القانون الاساسي الكافل الحقيقي لسعادة الامة نؤكد لجلالتكم بان عزم الامة الحقيقي على صيانة القانون الاساسي ثابت راسخ لا تزعزعه اية قوة مهما عظمت، كما اننا نعرض لجلالتكم ما خالج افئدتنا من الابتهاج والسرور برؤية شخصكم الكريم ماثلاً امام نواب الامة مما جاء دليلا على رفع الحواجز والحوائل بينكم و بين الامة

ان قلبنا لا يشعر بغير محبة الأمة والوطن ، وكل آمالنا الاشتغال لخير المُلك والامة، ورائدنا في ذلك مصباح المساواة والاتحاد، وغايتنا الحق والعدل، وقد عاهدنا ثلاثين مليونا من العالم على المحافظة على حقوقهم ولا نخاف في القيام بعهد وكالتنا غير توبيخ الوجدان وخوف الرحمن ومن جعل الحق وجهته فالله يعينه ويؤيده

***

جواب مجلس الاعيان

يا سلطاننا

كانت اعضاء الاعيان كلها آذانا مصغية وقلوبا واعية لذلك الخطاب الذي فهتم به يوم افتتاح مجلس الأمة المؤلف من الاعيان والمبعوثين

انقضى ذلك الزمن الذي أصيبت فيه الحكومة بادواء الخلل فزالت بزواله تلك البرازخ التي كانت حائلة دون اختلاط السلطان بالشعب وتوثيق الروابط بينهما ، وكانت تلك الحوائل لاغراض شخصية ، فالشعب اليوم يرى نفسه مغبوطا بروءية سلطانه وسماع خطابه بواسطة المبعوثين والاعيان ، ذلك الخطاب الذي ضمن فيه الدستور فلنا الشرف ان نرفع لجلالتكم واجب الشكر الصادر عن هذا الامر السارّ

والحكومة الشورية تقوم على هذا الاُس المتين الكافل لجميع الحقوق وليس هناك ضامن لتثبيت السلطة العليا وتنزيهها عن التبعة الا حفظ ذلك الاساس المتين

لذلك تحقق ذلك العزم الوارد في الخطاب والموجه الى الشعب والعالم بأسره وهو الاشارة الى حفظ القانون الاساسي بالميثاق البات ، وانا نقابل ذلك بالحمد والثناء الجميل

ان ما ورد في الخطاب السلطاني من الامل في بذل الهمة والمساعي لانجاح المداولات بين الدول الموقعة على عهدة برلين بشأن البوسنه والهرسك والبلغار — ذلك كله — من مهمات السلطة التنفيذية ، ولنا الامل الوطيد بقيام الوزارة خير قيام بمهماتها ، وانا نضيف الى ذلك الامل النظر في مسألة كريد

نحن في حاجة عظيمة الى الثقة بنا ولا يتم لنا ذلك إلا بنجاح حقيقي في النظام الاداري والعسكري، و يعوزنا بذل المساعي العظيمة لنحفظ موآزرة الحكومات ولتكون لنا مدنية صحيحة ثابتة

إن المساواة بين الافراد والعدل بين أفراد الامة وجماعاتها وتعليم الشعب وتهذيبه حسب حاجات الزمان على نمط الشعوب المتمدنة والاعتماد المالي الصحيح وضمانة حال البلاد من حيث الاقتصاد وتعزيز القوة العسكرية — كل ذلك من الامور الضرورية التي لا تقبل التسويف والتأجيل

وان ثقتنا كلها موضوعة في مجلس الامة (المبعوثان) وآمالنا بمساعيهم الحكيمة محققة ، وسنرى منهم مشروعات وقوانين تضمن لنا وتسهل بلوغ الاماني المشار اليها ، و بذلك يكون للأمة والبلاد مستقبل زاهر سليم من كل شائبة

ومن الضروري ألاّ تقصر السلطة التشريعية التي هي مؤلفة من الاعيان والمبعوثين في العناية بالمسائل الحقيقية لوضع قوانين تسير البلاد بسببها في سبيل التقدم والنجاح ، ولا ريب عندنا بان مساعي الوزارة التي يناط بها التنفيذ ستنضم إلى هذه المساعي ، وحينئذ ننال السعادة التامة التي نطلبها ، وهي ذلك الغرض الذي يرمي اليه المصلحون من ابناء الوطن

وانا نختم عريضتنا هذه بتكرار الشكر لجلالتكم لتعهدكم وعزمكم الأكيد على حفظ شكل الحكومة الشورية ، ونؤكد لجلالتكم أن مجلس الاعيان يبذل جهده في قيامه بواجب حفظ الدستور الذي يرى حفظه من أقدس الواجبات

وانا نعرض لجلالتكم بان مجلس الاعيان يقوم نحوكم ونحو الأمة بكل ما يجب عليه من الإخلاص التام

رحلة صاحب المنار

﴿ في سوريا ﴾

٣

دمشق الشام

عدت في ٢٣ رمضان الى بيروت وفاء بوعدي لأصدقائي وللوالي فأقمت فيها أربعة أيام كنت ألقي في كل يوم منها درساً دينياً بعد العصر في أحد المساجد ، وفي اليوم الاخير استبدلت بالدرس خطبة سياسية في حظيرة الموقع العسكري إجابة لطلب الكثيرين

وفي صبيحة الخميس ٢٧ منه ركبت القطار الحديدي الى دمشق الشام وهو قطار ردي، الدرجة الأولى منه دون الدرجة الثانية من القطار الذي بين رياق وحمص؛ فبلغ بنا محطة دمشق قبيل المغرب فاذا بانتظارنا صديقنا الكريم عثمان بك العظم وجمهور ممن نعرف ومن لم نعرف من المحبين العلماء والوجهاء ، نخص منهم بالذكر أعلم علماء الشام الاستاذ الا كبر بركة الوقت بقية السلف الصالح الشيخ عبد الرزاق البيطار والاستاذ العامل المجد الذي يقتل وقته كله في التدريس والتصنيف وتصحيح الكتب النافعة الشيخ جمال الدين القاسمي أدام الله النفع بعلمهما وعملهما

نزلنا في دار عثمان بك فأقبل للسلام علينا فيها كثير من الوجهاء، فرأينا من أدبهم وحسن محاضرتهم ما ينطبق على ماهو مشهور عنهم ، وسمعنا منهم مذ الليلة الأولى أخباراً سيئة عن جمعية الإخاء العربي التي أسست في الاستانة فقال بعضهم انها اسست بإيعاز من السلطان لتكون عضدا له وعونا على جمعية الاتحاد والترقي، وقال آخرون انها « ضد الترك » وقالوا ان ندره بك المطران جاء الشام ليدعو الى هذه الجمعية ،وهو يذم الترك ويدعو الناس الى العصبية الجنسية العربية وينفر من جمعية الاتحاد والترقي . وذكروا ان سيرة بعض أعضاء هذه الجمعية غير محمودة وان بعض

افرادها يحتقرون وجهاء البلد ويفطرون في رمضان جهرا وان هذا مما يمهد السبيل لندره المطران ويجعل دسائسه مقبولة عند كثيرين

هذا مخلص ماسمعته من أكثر من واحد وكنت أبين لهم ولغيرهم ان تنفير العرب من الترك مفسدة من أضر المفاسد واننا في أشد الحاجة الى الاتحاد بالترك والاخلاص لهم لان مصلحتنا ومصلحتهم في ذلك ، على اننا أحوج إليهم منهم الينا فمن يسعى الى التفرقة بيننا وبينهم فهو عدو لنا ولهم فان كان سعيه لهواه فهو شر الشياطين وان كان سعيه لغيره فهو شر الاجراء الخائنين ولا عجب فى صدور ذلك من بني المطران المفسدين

نعم يجب على العرب ان لاينسوا فى اتحادهم بالترك انفسهم ويتكلوا على غيرهم بل يجب عليهم مباراة اخوانهم في التربية التي تقتضيها حال العصر وتحصيل العلوم والفنون التي عليها مدار العمران ليكونوا يدا واحدة فى إحياء الدولة وليقدروا على ترقية شأن بلادهم واستخراج خيراتها العظيمة ثم ليكونوا أهلا لادارتها بأنفسهم اذا غلب فى المستقبل حزب صباح الدين افندي ابن أخت السلطان على غيره من الاحزاب التي ينتظر ان تكون فى الدولة وهو أي رأي صباح الدين ان تكون كل ولاية من ولايات الدولة مستقلة في ادارتها الداخلية ويعبر عن ذلك بعدم المركزية (Décentralisation) ويرى بعض علماء السياسة انه لابد في المستقبل من استقلال كل جنس بنفسه ويروى هذا الرأي عن نابليون واذا صح هذا في المستقبل البعيد وكان الجنس العربي غير أهل للادارة التي تقتضيها حال مدنية ذلك العصر الذى سيكون أرقى من عصرنا هذا — وان قرب — وغير أهل لمشاركة سائر الامم في السياسة العامة والحقوق المتبادلة بين الاجناس على أصول المساواة فكيف تكون حاله يومئذ ؟ ألا نكون (لاقدر الله) تحت وصاية غيرنا من الاجناس المرتقية في العلوم والاعمال ؟ ومن هو الجنس الذى يتولى هذه الوصاية ؟ وكيف تكون سيرته فيها ؟ يجب علينا ان نفكر في حالنا الحاضرة وفي مستقبلنا القريب ومستقبلنا البعيد وان نعلم ان حسن المستقبل متوقف على ماقبله والنهاية أثر البداية ويجب ان يكون الاساس

الذي نبني عليه في حاضرنا ومستقبلنا الاخلاص لدولتنا والاتحاد بالترك وسائر العناصر العثمانية مادامت هذه العناصر متحدة بالدولة مخلصة لها وان نكون الآن من أشد الاعوان لجمعية الاتحاد والترقي على بث روح الدستور في جميع الطبقات، ورقباء على الحكومة في سيرها وأعمالها حتى ترسخ فيها الديموقراطية وتسير بعد اجتماع المبعوثان على الاصول الدستورية

هذا ما كنت أبثه من الافكار في مثل هذا المقام واستطرد منه الى بيان وجوب العناية بتأسيس المدارس لنشر التعليم الاهلي في جميع طبقات الاهالي وان ذلك يتوقف على تأسيس الجمعيات الخيرية في كل لواء من ألوية كل ولاية لاجل تعليم أولاد الفقراء بغير أجرة وتعليم أولاد الاغنياء بالاجرة . ثم انوه بالتعليم العالي والرحلة الى حيث توجد الى أن يوجد في كل ولاية مدارس عالية يستغنى بها عن الرحلة . وهذا ما كنت أقوله في كل بلد

ومما سرني بدمشق وأهلها سرورا عظيما حياة كثير من الصناعات فيها . وكيف لاينشرح صدري لذلك وقد رأيت ذلك الجامع الفخم الذى كان هو الأثر العظيم في هذه العاصمة لأول دولة عربية تأسست فيها فدمره عصر الظلم والاستبداد بالنار فاعاده أهل دمشق الى ما كان عليه لاينقصه الا ما كان فيه أولاً من زينة الفسيفساء التي يعجزعنها حتى الافرنج من أهل هذا العصر، ثم انني رأيت معظم أثاث البيوت ورياشها من صنع أهل البلد حتى في بيوت الكبراء كبيت عبدالرحمن باشا اليوسف أمير الحج الذي هو أوسع أهل دمشق ثروة وأعلاهم جاها ومنزلة فقد تأملت أثاث بعض الحجرات ورياشها في داره فلم يقع نظري على شيء فيها من غير صنع الشام الا السجاجيد العجمية حتى إن القناديل الكهربائية النحاسية التي فيها هي من صنع الشام فلنا ان نفتخر بصناعات الشام في النسج والحفر والبناء والنجارة وغير ذلك وان نجتهد في توسيع دائرتها بالطرق الحديثة

رغب إليّ بعض الفضلاء أن أقرأ درسا في الجامع الأموي كما فعلت في بيروت وطرابلس فأجبتهم الى ذلك لرميهم فيه عن قوس عقيدتي وموافقتهم لرغبتي واستحسنت ان يكون ذلك بعد صلاة الجمعة فقيل ان هذا هو الوقت الذي يختم

فيه المدرسون الرسميون دروسهم فيرونك فيه مزاحما لهم فيثقل عليهم فالأولى ان يكون درسك بعد العصر ، فوافقتهم على ذلك . وقد صلينا الجمعة في الجامع الأموي ورجونا ان نسمع فيه خطبة تناسب في حسنها المعنوي ما في ذلك الجامع من الحسن الحسي ولكن خاب رجاؤنا فسمعنا ما ملته اسماعنا من عهد الحداثة وهو مدح رمضان وتغرير العامة بحديث العتق فيه الذي بينا في المنار من قبل ما قيل في وضعه. وشهدنا بعد الصلاة دروس المدرسين فجلسنا زهاء ثلث ساعة في درس الكزبري الذي حضره الوالي والمشير حسب العادة المتبعة وخلق كثير . ووقفنا هنيهة على درس رجل يقال له الشيخ صالح التونسي يحضره زهاء ١٥ أو ٢٠ رجلا ثم على درس الشيخ بدر الدين فاذا هو رجل يسرد الأحاديث الشريفة بأسانيدها بالضبط الصحيح ويورد في معناها كل ما قاله بعض العلماء في شرحها أوجله وينتقل من المسألة الى ما يناسبها من غير تلعثم ولا مكث

درسنا الاول في الاموي

ثم خرجنا من المسجد وعدنا اليه في وقت العصر وبعد صلاة الفريضة تلا بعض القراء آيات من الكتاب العزيز فجعلتها موضوع الدرس واستطردت منها إلى غيرها من الآيات الواردة في صفات المؤمنين وما وعدهم الله تعالى به في الدنيا والآخرة مع تنبيه الأذهان إلى عرض أنفسنا في هذا العصر على هذه الآيات لنعلم هل هي منطبقة علينا أم لا . . . وذكرت ما يطلب من المسلمين في هذا العصر ليحافظوا على دينهم الذي يرشدهم الى ما فيه سعادة الدارين ويعدهم بذلك جزاء على نصره والقيام بحقوقه وكون ذلك يتوقف في هذا العصر على العلوم والفنون التي يرتقي بها الاجتماع البشري وتعتز بها الأمة ويرفع شأن الدولة الا وهي العلوم والفنون الرياضية والطبيعية والاقتصادية . ومما قلته وكررته : انني أرفع صوتي قائلا أننا لا تقوم لنا قائمة إلا بالاخذ بهذه العلوم والفنون التي يتوقف عليها امتثال قوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فاننا نستطيع ان ننشئ المدرعات البحرية ونعمل المدافع والبنادق وقذائف الديناميت لأجل حماية حقيقتنا وتعزيز دولتنا، وأن نعمل السكك الحديدية وغيرها من الامور التي ترقي مدنيتنا وتحفظ ثروتنا،

وكل ذلك يتوقف على العلوم الرياضية والطبيعية التي لا حياة لأمة في هذا العصر بدونها ، إن علماءنا السابقين الذين كانوا يذمون العلوم الطبيعية وينهون عنها لم يكونوا يُعنون بها إلا تلك النظريات اليونانية التي تبحث في الالهيات بحثا يخالف أصول الدين وقواعده، والعلوم الطبيعية في هذا العصر مباينة لتلك النظريات وناقضة لها لأن أساسها التجربة والاختبار والعمل فمن فروعها علم الكهرباء الذي ترون من آثاره النور الذي يتألق في مسجدكم هذا ليلا ، والمركبات التي تجري في شوارعكم وأسواقكم ، ومنه علم البخار الذي تسير به قطارات السكة الحجازية من بلدكم الى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . فهل يمكن ان يكون هذا العلم معارضا للدين ؟ كلا انه لا يضر الدين وأهله ولكن يمكن أن يستخدم لحفظ الدين ورفعة شأن أهله فكل من يصدّ المسلمين عنه فهو إما صديق جاهل بحقيقة هذا العلم وفائدته وإما عدو غاشّ للمسلمين

ثم بينت لهم ان الاسلام على جمعه بين مصالح الدنيا والآخرة دين يسر لا عسر ولا حرج فيه وانه يمكن للمسلمين ان يجمعوا بينه و بين جميع العلوم والفنون العصرية التي نوهت بفائدتها اذا احسنوا التربية الدينية وأصلحوا طرق التعليم وان ذلك انما يكون بانشاء المدارس الاهلية ، وهذه المدارس لا يقوم بها حق القيام إلا الجمعيات فالذي يجب ان يبدأ به أهل بلادنا في هذا العصر هو تأسيس الجمعيات التي تنشر التعليم في جميع طبقات الامة وذكرت لهم موقع دمشق ومكانها من جزيرة العرب وما ينبغي من السعي في جعلها ينبوعا للمعارف والمدنية فيها ثم قلت في آخر الدرس انه يمكنني ان أبين لكم في مجلس آخر كيف يمكن الجمع بين الاسلام تربية وتعليما و بين تحصيل العلوم العصرية الكثيرة التي تقوى بها الامة وتعتز الدولة ان شئتم فأظهر الرغبة في ذلك الجمهور . وقد حضر الدرس عدد كثير من الناس يبلغ المئات على ما قدره بعض الحاضرين . ومنهم العلماء الرسميون الذين اقبلوا عليّ بعد الدرس بالتحية والثناء واظهار الاعجاب بالدرس والدعاء بان ينفع الله بي و به، والوجهاء كأحمد باشا ومحمد باشا العظم وعلي باشا الامير وعبد الرحمن باشا اليوسف وشكروني على ما أبديته وألحوا علي بأن أعيده في اليوم الثاني

درسنا الثاني فى الاموي والحادثة المشهورة

تحدث الناس في الدرس الاول في ليلتهم تلك وانه على غير ما يعهدون في الموضوع وهو الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة والاستناد على آي القرآن — وفي الأداء وهو أسلوب الخطابة ، فرغّب الناس بعضهم بعضا في حضور الدرس الثاني فلم نكد نصلي العصر في اليوم الثاني وننفتل الا وقد تحلق الناس في مكان الدرس الأول (تحت القبة) وصار يلزّ ويزحم بعضهم بعضا فلما اتسعت مساحة القاعدين طفق الناس يتحلقون حولهم وقوفاً ثم ازدحموا فصاروا كالقاعدين على غير نظام حتى صاروا يقدرون بالألوف فرأى بعض المهتمين بأمر الدرس أنه لا يمكن إسماعهم إلا بالقعود على شيء مرتفع فأحضروا الكرسيّ الذي يقرأ عليه خطباء المسجد قصة المولد ونحوها في المواسم المحدثة في الاسلام فصعدت اليه وشرعت في الدرس بعد ذكر الله والثناء عليه والصلاة والسلام على البشير النذير جزاه الله عنا أفضل ما جازى نبيا عن أمته

كان موضوع الدرس تعريف الدين وكونه هادياً الى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة وكون الاسلام عاما لجميع البشر موافقا لمصالحهم فى كل زمان ومكان وبيان إمكان الجمع بين هدايته وبين جميع العلوم والفنون التي عليها مدار العمران في هذا العصر اذا صلحت طريقة التربية والتعليم

قلت ان القاعدة التي ينبغي لنا ان نبني عليها أساس اهتدائنا بالاسلام هي قول الامام مالك بن أنس رضي الله عنه « لا يصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح به أولها » فيجب علينا ان نرجع الى سيرة الصدر الأول فننظر كيف تلقى الصحابة عليهم الرضوان دينهم عن النبي عليه الصلاة والسلام وكيف كانت سيرتهم في العمل به وكيف تلقى عنهم التابعون فنهتدي بهديهم في ذلك

ثم بينت ان ما جاء به الاسلام ينقسم الى ثلاثة اقسام : قسم العقائد وقسم الأخلاق والآداب وقسم الأعمال من العبادات والمعاملات ، وشرعت في بيان طريقة التعليم التي ينبغي سلوكها لاحياء الاسلام في زمن قليل لا نحتاج فيه الى مدارسة هذه الكتب الكثيرة في الكلام والفقه وغيرها التي لا يتفق تحصيلها في عشرات من السنين الا للعدد القليل من المنقطعين لتحصيلها وهؤلاء المنقطعون عشر

معشار الامة . فاذا كان الدين لا يؤخذ الا من هذه الكتب التي اختارها علماؤنا للتعليم العام في هذه القرون الأخيرة فكيف السبيل إلى تعليم الدين لجميع المسلمين؟ وههنا قلت كم عدد مسلمي هذا البلد ؟ فقال بعضهم مئتا ألف أو يزيدون فقلت هل يوجد فيهم ألفا عالم فهم كتب الكلام وكتب الفقه المتداولة ؟ قيل ولا ألف . فقلت اذا كان هذا مبلغ تعلم الدين في مدينة تعد من أعظم أمصار الاسلام في الارض فكيف يكون حال مسلمي القرى وأهل البوادي ومثل مسلمي الصين ؟

ثم شرعت في بيان الطريقة السهلة لتعميم تعليم العقائد فقلت ما معناه : ان كتب الكلام المشهورة لم توضع لأجل تلقين المسلمين ما يجب عليهم اعتقاده وإنما وضعت لرد شبهات الفلاسفة والمبتدعة عن العقائد الاسلامية والاحتجاج على حقيتها وقد انقرض أولئك الفلاسفة والمبتدعة الذين عُني المتكلمون باقامة الحجة عليهم وظهر بطلان مذاهبهم الا قليلا من مسائلها وحدثت لفلاسفة هذا العصر ومقلدتهم شبهات جديدة تولدت من الفلسفة الجديدة يجب أن يُعنى متكلمو هذا العصر بكشفها ولا ينبغي ان يذكر شيء منها لعامة المسلمين ولا لتلاميذ المدارس الابتدائية عند تلقينهم الدين وإنما يخص بذلك طلاب العلوم العالية الذين يدرسون الفلسفة وعلم الكلام

المسلم لا يحتاج الى الاستدلال على وجود الله تعالى بالطريقة الكلامية وان الدلائل التي تبنى على فرض خلاف المطلوب قد يكون إثمها أكبر من نفعها لأنها تثير الشبهات وتوقع كثيرا من السامعين في الشك وانما الطريقة المثلى لذلك طريقة القرآن الحكيم وهي عرض محاسن الخليقة واسرارها على العقل وتذكيره بحكمة مبدعها البالغة وقدرته العظيمة وعلمه الواسع وتفرده بالخلق والتكوين والرحمة والاحسان (وذكرنا بعض الآيات في ذلك)

لماذا نقول للمسلم الخالي الذهن من الشبهات والشكوك لو لم يكن للعالم إلـه للزم الدور أو التسلسل وكل منهما باطل فما أدى اليه وهو عدم وجود الإلـه باطل — فثبت نقيضه وهو ان للعالم إلـها — ثم نحاول ان نفهمه معنى الدور والتسلسل والبرهان على بطلانهما وما أصعبه مركبا وأبعده مطلبا ! وقد رأينا كثيرين من المتصدرين لتدريس علم الكلام يذكرون ما كتب من الاستدلال على بطلان الدور والتسلسل وهم لا يفهمون ما يقولون

ان الايمان بوجود واجب جل شأنه عام في البشر باديهم وحاضرهم حتى قال كثير من العلماء انه فطري مودع في النفوس بأصل الخلقة فأ كثر علماء أوربا وفلاسفتها يؤمنون بذلك وكذا المؤمنون الذين ارتقت وثنيتهم كالبراهمة والبوذية حتى اليوم ومشركي العرب في زمن البعثة ·ومن شذ من البشر فأنكروجودالبارىء تعالى لشبهة أثارتها في نفسه تقاليد دينه أو نظريات فكره الضعيفةفهولايمنع ان يكون لهذا الاعتقاد أصل في الفطرة البشرية فقد قال الاستاذ الامام رحمه الله تعالى : ان الذين ينكرون وجود الله تعالى قليلون في مجموع البشر فهم مرضى الارواح—أوقال العقول — من هذه الجهة وان صحت أفكارهم من جهة أو جهات أخرى، ومرض الروح والعقل عرض يطرأ على بعض الناس كمرض البدن، فمرض الجسدمهما كثرلا يعد هوالاصل في المزاج وكذلك مرض العقل والروح لايعدفي الاصل وأن كثر المرضى به

قلنا ان أ كثر البشر يؤمنون بوجودالله تعالى ونقول ان الذين يؤمنون بالله تعالى يؤمنون بعلمه وقدرته وارادته و يعظمونه و يقدسونه وقلما أخطأ الكفار في غير وحدانية الالوهية والربوبية من مسائل الإلهيات ·فأما وحدانية الالوهية أي العبادة فهي عبادة غير الله تعالى بالدعاء ونحوه، وأما وحدانية الربوبية فهي اتخاذ بعض البشر شارعين يشرعون للناس من الدين مالم يأذن به الله ·وقدبين الله لنا ذلك في كتابه الحكيم فقال في بيان عقائد مشركي العرب (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم)وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون *سيقولون لله قل أفلا تذكرون *قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم *سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولايجار عليه ان كنتم تعلمون* سيقولون الله قل فأنى تسحرون* مااتخذ الله من ولد وما كان معه من إله اذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون)فقد اثبت لهم الايمان بوجود الله وانه هوالخالق الذي بيده ملكوت كل شيء وقال فيهم مع ذلك (وما يؤمن أ كثرهم بالله الا وهم مشركون) فما هو شركهم؟هو مابيّنه في آيات اخرى كقوله عز وجل (والذين اتخذوا من دونه أولياء: مانعبدهم الا ليقربونا اليه زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون، ان الله

لايهدي من هو كاذب كفار)وقوله سبحانه (و يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ؛قل اتنبؤن الله بما لايعلم في السموات ولا في الارض؛ سبحانه وتعالى عما يشركون)وقال في أهل الكتاب(اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) وقد روي في الصحيح ان عدي بن حاتم اسلم وكان نصرانيا فلما سمع هذه الآيات قال للنبي صلى الله عليه وسلم انهم لايعبدونهم فقال مامعناه: اليس يحلون لهم و يحرمون عليهم فيتبعونهم؟ قال نعم قال فذاك . فهذا وماقبله هو الذي فتن به الوثنيون والذي طرأ على أهل الكتاب وقد بينه القرآن الكريم تبيينا

قلت كل هذا تمهيدا لبيان ما يجب اتباعه من تلقين المسلمين عقائد دينهم على طريقه القرآن المثلى وأردت ان أشرع في المقصدفاذاأنابرجل مغربي قداخترق جمهور الواقفين حتى انتهى الى دائرة القاعدين وصاح ياالخواننا المسلمين اسمعوالي كلمتين وشرع في الكلام فاضطرب الناس وكثراللغط وقام كثيرمن القاعدين فرغبت اليهم في السكوت والاستماع له .فأما احدى كلمتيه فكانت في مشروعية زيارة القبور والتوسل بالصالحين الميتين الى الله تعالى ليقربوهم اليه ! ويقضوا حوائجهم عنده!واعتقاد كرامات الاولياء ،والتحذير ممن ينكرون ذلك و يضلون به الناس كما فعلت الوهابية ؛ ثم ذكرماهو شائع بين الناس من فتنة الوهابية ومحاربة السلطان وأمير مصر لهم . وأما الكلمة الثانية ففي وجوب تقليد الائمةالمجتهدين في الدين والثناء عليهم وكون العمل بما في كتب الفقه هو عين العمل بالكتاب والسنة !. وكان يقول مامثاله : ياإخواننا هل الذي يتوسل الى الله تعالى بالاولياء يكون مشركا بالله ؟ هل الذي يحب الصالحين و يعظمهم يكون مشركا بالله ؟هل الذي يؤمن بكراماتهم يكون مشركا بالله ؟هل الذي يعظم الأئمة و يعمل بمذاهبهم يكون مشركا بالله ؟!!!

فلما أتم كلامه قلت أيها الاخوان: ان من يسمع كلام هذا الشيخ ممن حضر في اثناء كلامه يظن ان ما قاله في درسي ليس الا ردا عليّ وانني كنت أتكلم في هذه المسائل بخلاف ما قاله ومن حضر المجلس من أوله يعلم انني لم أتعرض لهذه المسائل بنفي ولا بإثبات وليست هي من موضوع كلامي فان الذي قصدت اليه في هذا الدرس ووعدت به أمس هو بيان طريقة تعميم تعليم الدين لجميع المسلمين

بأسلوب سهل وزمن قليل يبعث فيهم روح الدين ولا يشغلهم عما هم في اشد الحاجة اليه من أمر الدنيا وقد أشرت فيما قلت الى أن هذه الطريقة هي طريقة القرآن الحكيم وسنة النبي عليه الصلاة والسلام في تلقين الدين لا طريقة المتكلمين وقد سبقني الى ذلك حجة الاسلام الغزالي فقال بمثل ما قلته في كتابه (الجام العوام عن علم الكلام) وغيره ، فصرح بأن كتب الكلام وضعت لحماية العقيدة من هجمات المخالفين ، لا لإفادتها وتقريرها لعامة المسلمين ، وان طريقة القرآن هي التي يجب الاعتماد عليها في التعليم ، وكل ما قلته تمهيد لبيان ذلك بعبارة ممحصة قريبة من الأذهان . وما خطر في بالى أن أحشر في درسي شيئا من هذه المسائل التي قطع بها الرجل علي كلامي قبل ان أصل الى المقصد منه . وكأني بأناس يقولون الكذب ويتجرمون عليَّ ويأخذون من كلامه تهما يلصقونها بي فحسبي ان يعلم هذا الجمهور العظيم الذي سمع كلامي عني ويسمعوا مني بأنني ما أنكرت ولا أنكر زيارة القبور لاجل الاعتبار وتذكر الآخرة والموت كما ورد في حديث الإذن بها بعد النهي عنها وانني أزورها بالفعل ، وأحب الصالحين ولا أنكر مالهم من الكرامة عند الله تعالى فان من لايحب الصالحين يكون أشقى الاشقياء ، وأعظّم الائمة المجتهدين واعتقد انهم كانوا على هدى واخلاص في خدمة الدين وان من التوفيق والسعادة اتباعهم في الاهتداء بالكتاب والسنة . ثم صعد الكرسي الشيخ عبد القادر الخطيب وأراد ان يتكلم فأنزله عثمان بك العظم عن الكرسي وصده عن التكلم ووقف عليه وقال ما معناه : أيها الاخوان انه لا ينبغي للعوام الخوض فيما يختلف فيه العلماء فانصرفوا الى شأنكم ومن كان من العلماء يريد مناظرة الاستاذ في هذه المسائل أو غيرها فليتفضل بعد العشاء الى منزلي . ثم نزل وقال لي تفضل فنزلت ومشينا معا فمشي معنا جمهور عظيم من الحاضرين وسمعت بعض من بجانبي يقولون ما معناه لاتخف ولا تحزن فلا قيمة لهذا الرجل ولا تأثير لكلامه و بعضهم يقول هلمَّ واسرع . وكان اللغط والضوضاء على أشدهما حتى خرجنا من باب صحن المسجد وحينئذ رغب اليَّ الشيخ أديب تقي الدين ان أدخل داره وهي بقرب المسجد

للاستراحة وردّ الزيارة (فقد كان زارني في دار عثمان بك) فأجبته الى ذلك فلما دخلت داره طفق يقبل رأسي ويثني علي ويطري درسي ويهون عليَّ ما جرى ويحلف الايمان بانني ما قلت الا الحق وان ما عورضت به ليس بشيء . فعجبت من ذلك كله لأنني لم أكن أعد ما جرى في الجامع من قطع الدرس عليَّ أمراً عظيما ولا مصابا يعزَّى عنه . وظننت ان السبب في كل ما رأيت من لهف الناس وعنايتهم بتسليتي هو عدم تعودهم في تلك المدينة مثل ما رأوا من ذلك الافتيات. وخطر في بالي ان الباعث لذلك الرجل على ما فعل هو حب الظهور والشهرة أو سوء الظن والبِطنّة فانه هو الرجل الذي ذكرت انني رأيته يقرأ درسا لا يحضره الا قليل من الناس وقد علمت بعد ذلك ان اسمه الشيخ صالح وأنه داعية لأبي الهدي الصيادي أرسله الى دمشق ليبث دسائسه فيها

قبيل المغرب من ذلك اليوم ذهبت مع عثمان بك الى دار عبد الرحمن باشا اليوسف لاننا كنا مدعوين للفطر عنده فلما كنا على المائدة جاء أسعد بك بيكباشي أركان حرب وهو وكيل الشرطة في دمشق وأحد اعضاء جمعية الاتحاد والترقي الذين يشكو منهم أكثر وجهاء دمشق فجلس معنا وأخبرنا انه قبض على الشيخ صالح وأودعه في السجن . فقال له عثمان بك أخطأت في هذا العمل فيجب ان نذهب بعد الفطور لأجل إخراجه لأن ماحصل يجب ان يقف عند الحد الذي وصل اليه . وكان الامر كذلك فقد ذهب أسعد بك بين المغرب والعشاء لاجل اطلاق الشيخ صالح على ما فهمنا و بعد صلاة العشاء في بيت عبد الرحمن باشا خرجت أنا وعثمان بك فركب هو مركبته وتبع أسعد بك لينظر ماذا فعل وركبت أنا مركبة أخرى الى دار عثمان بك

ولما عاد عثمان بك أخبرني بأنهم أخرجوا الشيخ صالحا من الحبس وان فتنة عظيمة أثيرت في الشام فحمل ألوف من الناس السلاح واحتشدوا في الاسواق والشوارع وذهب جمهور عظيم منهم الى مجلس البلدية وجمهور الى دار الحكومة . قال وهذا الذي كنت أخشي بادرته في الجامع فأحببت ان تختم الدرس وتخرج ولا تطيل في الرد على الشيخ صالح . قلت له ماهو سبب ذلك فان ماحصل في الجامع لا يصح ان يكون سببا لحمل السلاح ولا للفتن لانه لا يزيد على اساءة رجل

بقطعه الدرس عليَّ وأنا لا أحب الانتقام وليس لي عصبة تنتقم لي ان أحببت ولا هذا الذنب مما يعاقب عليه بالسلاح وان أدري ألذلك الرجل عصبة قوية عظم عليها أمر حبسه فأرادت ان تنتصر له ؟ وهل يكون الانتصار في الشام دائما مثل هذا ؟ اعني اذا حبس رجل له انصار يطلب انصاره من الحكومة اطلاقه بقوة السلاح !!!؟ قال انني علمت من حال بعض الحاضرين في الدرس ان هناك فتنة مدبرة يراد إيقاعها في الجامع بأدنى مناسبة أو بخلق مناسبة ولست انت المقصود بها . وانه ليس للشيخ صالح عصبة ولا محبون والذين هيجوا الناس ودفعوهم الى المطالبة باطلاقه لهم بذلك اغراض يتوسلون اليها بكل وسيلة تتيسر لهم لا يهمهم فيها أن يعظم من لا يستحق التعظيم ويؤذى من لا يستحق الايذاء ولا حاجة الى شرحها ولكن أقول بالاجمال إنها تتعلق بانتخاب المبعوثين . ولا أكتم عنك انه لا يكاد يوجد أحد في الشام يخرج من بيته بغير سلاح . قلت اذاً ليس في الشام حرية شخصية تحميها الحكومة فأنا مسافر في الصباح حتما ، ولا أقيم في هذا البلد يوما ، فرضي مني بذلك على كره منه وحرص على ان أقيم عنده أياما أرى فيها معاهد البلد وأعرف أحواله. فهذا ما دار بيني وبينه في الليل ثم نمت طائفة من الليل واستيقظت وقت السحور ولما طلع النهار سافرت من الشام قاصدا رياق

اجتمعت في قطار سكة الحديد ببعض أدباء دمشق وتجارها فسمعت منهم شيئا كثيرا من أخبار الفتنة الظاهرة والفتن الباطنة ، منهم شابان ذكيان من محبي الاصلاح والعلوم العصرية كاشفاني بما في صدورهما وذكرا لي أسماء شبان آخرين على مشربهما وقالا انهم يكتمون ميلهم ورأيهم ولا يحبون ان يعرف شيء عنهم . ثم اجتمعت ببعض باشوات الشام في بعلبك فحدثني بما يعلم من أمر الحادثة ومن أحوال الشام وهو ممن حضر الاجتماع عند الوالي ليلا . واجتمعت أيضا هناك ببعض أعضاء جمعية الاتحاد والترقي فسمعت منهم انباء وآراء فعلمت من ذلك ومما سمعته في حمص وقرأته من المكتوبات التي بعث بها من الشام الى حمص وغيرها جميع ما كان من المكايد والفتن وهذا مجمل ما وصل اليَّ :

اسباب فتنة دمشق

الاصل في ذلك كله امتعاض بعض الوجهاء أصحاب النفوذ من أسعد بك وسليم بك الجزائري كلاهما قائد ألف « بكباشي » من أركان الحرب والدكتور حيدر وكلهم من اعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، وكراهتهم لهذه الجمعية لانها جعلت لهؤلاء منزلة ونفوذا في الشام يعلو نفوذ أولئك الوجهاء المتعضين الذين يرون أنهم سادات الشام وانه يجب أن يكون النفوذ فيها مقصورا عليهم ومحصورا فيهم وخاصا بهم!!.

قهرتهم جمعية الاتحاد بظهورها مؤيدة بالقوة العسكرية ولكنهم لم يتجرءوا على الوقوف في وجهها ومناجزتها جهرا فتربصوا بها الدوائر حتى اذا ما جاء زمن انتخاب المبعوثين ورأوا من ذكرنا من اعضائها يشتغلون بأمره عيل صبرهم ولجأوا الى الكيد وجرأهم عليه ندره بك المطران الذي جاء الشام ليرشح نفسه للانتخاب ويستعين عليه بمن يستميلهم الى جمعية الاخاء العربي فانه كان يهون على الناس أمر جمعية الاتحاد والترقي ، ويكبر في نفوسهم شأن جمعية الافتراق والتدلي' أي التي تفرق بين الترك والعرب وتنصر الاستبداد وتخذل الدستور . فاندفع أولئك الوجهاء الى الفتنة بقوة وهمة وبثوا دسائسهم في العامة الذين هم اتباع كل ناعق كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه حتى دخلت طائفة منهم الجامع الأموي مدججة بالسلاح للتنكيل ببعض المشايخ المدرسين لانه ختم من بعض العوام ورقة يطلب فيها ترشيح مبعوث ولكنه كان يقول لمن يطلب منه الختم اننا نطلب بهذه العريضة ابطال رقص النساء في بعض الملاهي ! ! . ووقعت فتن ومشاغب أخرى اطلق فيها الرصاص وأصيب بعض الناس كما قيل لنا ولا نحب ان نخوض في ذلك

ولكن موقظي الفتن ومثيري الشغب لم يكن لهم سبيل للنيل من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي فيما جرى الا بالكلام كقولهم انهم علة اختلال الأمن وحدوث الاضطراب في البلد « رمتني بدائها وانسلت » وانهم يريدون إبطال الدين بتجريئهم الناس على الفطر في نهار رمضان علنا و باحتقارهم لوجهاء البلد وعلمائه ! ! !

هذا ما كانت عليه دمشق عند قدومي اليها كانت تتمخض بالفتن التي يدبر أمرها رجال لا يزيد عددهم على عدد الذين دبروا أمر الصحيفة من قريش وكان

أشدهم افسادا أحد الباشوات الذي يرى انه بعظمة بيته يجب أن يكون صاحب الأمر المطاع في البلد والقول المتبع في حكومتها وأهلها . واستعانوا على كيدهم ببعض أصحاب العمائم الجاهلين الذين جعل لهم الحكم الاستبدادي رياسة دينية علموا انها لا تلبث ان تمحى وتزول في عهد حكومة العدل والشورى

رآني هؤلاء الكائدون تحت قبة الجامع الأموي أبين للناس انهم دخلوا في طور جديد من الحكومة يمكنهم ان يحيوا فيه دينهم علما وعملا واخلاقا وآدابا ، وان يرقوا فيه دنياهم حتى يكونوا فيه من أوفر الامم ثروة وأعلاها جنابا ، ورأوا أن الناس قد قبلوا هذا الارشاد ولهجوا بالثناء عليه ، فقالوا ان هذا السيل الأتي يأتي على ما بنينا من صروح الآمال ، ويجرف ما نضع في طريق الدستور وجمعية الاتحاد والترقي من العقبات ، ولكن الشعب يراه عذبا فراتا ، يطفيء غليلا ويحيي مواتا ، فيجب ان نبادر الى تحويله عن هذه الديار ، قبل ان تروى منه القلوب والافكار ، فأجمعوا أمرهم وهم يمكرون ، وعهدوا الى افراد من الجمعية العلمية ان يقطعوا عليّ الدرس الثاني فولوا وهم يعتذرون ، فقالوا ان هؤلاء لا يملكون لنا نصرا ولا انفسهم ينصرون ، فما لهذا الامر الا رجل يشتري ما يراد منه بالمال ، وقد مرد على أمثال هذه الدسائس والاعمال ، وما ذاك الا داعية ابن صياد الدجال ، المعروف في جميع البلاد بأبي الضلال ، فذلك المغربي يطيعكم فيما يترفع عنه أهل الشام ، اذا وعدتموه بالتعويض عن مرتبه الذي قطع في هذه الايام ،

فلما لبى الشيخ صالح داعية أبي الهدى دعوتهم ، وقبل صلتهم ، أوعزوا الى بعض أفراد حزبهم بأن يحضروا الدرس مستعدين للكفاح والصيال ، اذا جر الى ذلك ما ينتظرون من القيل والقال ، وقد علم هذا كثير ممن كانوا معنا في مجلس الدرس من الاهالي الواقفين على حال البلد وكان هو السبب في رغبة عثمان بك في عدم إطالة المراجعة والمدافعة وان لم يصرح لي به وفي تحويم الفضلاء عليّ وتسليتهم اياي كما تقدم

لطف الله تعالى ولم يقع في المسجد ما كانوا يرومون من العدوان ، وعلم أسعد بك — وهو أخبر من هناك بكيدهم — أنهم لا يقفون عند ذلك الحد ، وان الخيبة في هذه تدفعهم الى ما هو شر منها وان الشيخ صالحا هو الذي رضي ان يكون مثيراً لفتنتهم ورأى اعوانهم قد أدلوا اليه يوسوسون له ويمدونه في الغي ثم لا يقصرون ، فظن ان

حبسه يسد باب الفتنة لحبسه فطاروا بذلك فرحا، وفتح لهم به باب جديد أقرب الى مقصدهم لانهم يصلون منه الى الإيقاع بعدوهم اسعد بك نفسه وجمعيته بلا وسيلة ولا واسطة ، فأنفذوا أناسا الى المساجد يستغيثون المسلمين و يستنفرونهم لاعانة الدين وحماية علمائه من ظلم جمعية الاتحاد والترقي والحكومة الجديدة! فصاح اولئك المنفذون صيحتهم بعد صلاة التراويح، فأقبل الناس يتساءلون : أي خطب دهى الاسلام وأي بلاء نزل بالعلماء؟ و يجيبهم خطباء الفتنة إن فلانا العالم الفاضل دافع عن الدين فقبض عليه أسعد بك وزجه في السجن فاذا لم نبادر الى انقاذه بقوة الشعب فان هذه الحكومة تقضي على جميع العلماء وتمحو دين الاسلام من الشام!!. ويقال انهم أنفذوا اناسا آخرين يقولون مثل ذلك في الاسواق وأعطوا كل واحد منهم «بشلكا» (١) فاجتمع الناس من كل فج حتى صاروا يعدون بالألوف وصاروا ينادون : ليسقط أسعد بك لتسقط جمعية الاتحاد والترقي . و بلغني انهم قالوا أيضا ليسقط القانون الاساسي وليعش الوالي ! (ولكن الله أسقط الوالي و رفع الجمعية والقانون الاساسي فكان دعاؤهم في ضلال) ولولا ان توارى أسعد بك لقضوا عليه كما قيل

وقد ظهر من ضعف الوالي (شكري باشا) وافن رأيه ، ما لا ينتظر اكثر منه من مدمني السكر وأسرى الشهوات مثله، فانه لما رأى الجموع قد حشرت، وزمرة الوجهاء قد حضرت ، وعظمت عليه الامر وأرجفت ، رجفت في قلبه الراجفة ، وتلتها الرادفة، فخنع لمكرهم ، وخضع لامرهم ، وأمر بأن يؤتى بالشيخ صالح فجيء به، وطاف بالناس في مركبته (مركبة الوالي) من بعد ما آذنه المشير بأن لديه من الجند ما يكفي لقمع الفتنة الاهلية بل لاعلان الاحكام العرفية ، ولو أخذ الوالي يومئذ بالحزم ، لاستقرت هيبة الحكومة في النفوس مذ ذلك اليوم ، لا أقول في دمشق وحدها ، بل في الولايات السورية كلها ،

فعلم من هذا الشرح الذي اخذته من مصادر كثيرة انني لم أكن مقصودا بالإيذاء الذاتي ، ولا مؤاخذا على قول زل به في الدرس الثاني لساني ، (لانني لم أذكر فيه نعمة الدستور ولا نوهت بجمعية الاتحاد!) وإنما كثر في القيل والقال لكثرة من كان يسأل بماذا دافع فلان عن الدين حتى حبس ؟ فكان كل مسئول يجيب بجواب حتى كان مما سمعته في بعلبك وحمص انه قام رجل في الجامع الأموي فأنكر

(١) البشلك ضرب من نقود الدولة العثمانية يزيد عن نصف فرنك قليلا

القرآن وقال آخرون انه سب الانبياء!. ولكن الذي لقنه دعاة الفتنة للأكثرين هو انه دعا الناس الى مذهب الوهابية وأنكر زيارة القبور والتوسل بها. وهذا هو الذي كتبوا به الى جرائد بيروت وطرابلس ومصر والاستانة وقد علمت انه كذب وبهتان

نال محركو الفتنة من أسعد بك ما أرادوا وانتهت هذه الحادثة بخروجه من الشام وضعف جمعية الاتحاد والترقي وعجزها عما كانت تحاول من أمر الانتخاب وذلك جل ما كانوا يبغون في نفس الشام فكان من المعقول مع هذا أن يسكتوا عني لأني لم أكن الغرض الذي يرمون سهامهم اليه، وانما عرضت بينهم و بينه فرموني لا تنحي فتصل سهامهم اليه وحده، فما هو السبب يا ترى في استمرار عداوتهم لي ومكاتبة الجرائد بسبي وثلبي؟ يظهر لي ان لذلك أسبابا: منها أن الشر داعية الشر وان الرجل الخبيث اذا حاول شرا فتم له لم يجب تضرى نفسه بالشر فاذا ظلم انسانا بالاهانة والتسخير مثلا فذل له المظلوم ولم يجد له نصيرا فانه يستمر على إهانته وتسخيره له استلذاذا بذلك وتبجحا، ومنها انه اغتنم هذه الفرصة رجل من أدعياء العلم حاقد علي فزج نفسه في حمأة هذه الفتنة وطفق يكتب و يستكتب غيره مقالات في الطعن علي ولكن الجرائد ترفعت عن نشر ما بعثوا به اليها من السخف فلم تقبله الا مثل جريدة بيروت التي هي جريدة المتقهقرين أعداء حكومة العدل والدستور وأعداء الاصلاح. ذلك الرجل الذي كان استأجر أحد أرباب العمائم فكتب له رسالة في الرد على المنار في مسألة طهارة الكحول زاد هو فيها مازاد فرد عليه المنار يومئذ ردا صريحا صرح فيه باسمه ففضح جهله وجهل من كتب له (١) ولعل هذا الرجل هو الذي تصدى للكتابة بيده وماله، واعانه عليها نفر من أقتاله، ولي ههنا استدراك وهو ان أكثر الجرائد التي انتصرت للحق فى هذه الحادثة قد اسندت البغي والعدوان فيها الى أهل دمشق الشام على الاطلاق لاستخفاء المعتدين منهم وذلك تساهل فى التعبير أدى الى خلاف ما يريده الكاتبون فبني عليه حكم فاسد خفي عن الاكثرين فساده لخفاء المراد من العبارة التي اخذ منها. أعني انه صار يقال ان أهل الشام ناصبوا صاحب المنار العداء وآذوه بالكلام و إن أهل بيروت انتصروا له وأهانوا

(١) راجع مقالات طهارة الاعطار ذات الكحول (ص ٨٢١ و ٨٦٦ م ٤)

أهل الشام بما كتب في جرائدهم ودار في محافلهم ... والصواب ان صاحب المنار لم يسمع من أحد من اهل الشام كلمة شاذة عن النزاهة والادب بل سمع من كل من لقيه منهم أرق الكلام واعذبه، وألطف عبارات الترحيب والثناء، وإنما تصدى لقطع درسه وإيهام العامة أنه اخطأ فيه رجل غريب عنهم لم يكن محبوبا عندهم لانهم يعدونه من جواسيس الشيخ أبي الهدى والدعاة له، وشاب آخر من طلاب العلم اراد أن يسأل عن شيء سوءال متبرم مستاء فكفاه ذلك الرجل الغريب ما كان يريده من ذلك . واما زعماء الحركة الذين اشرنا الي كيدهم آنفا فهم لا يتجاوزون جمع القلة على انني لم اكن غرضهم وانما عرضت أمام غرضهم كما تقدم. على اني لو بقيت في دمشق لتصدوا لايذائي بتحريض العامة على ذلك ولكن لا يوءخذ من هذا ان اهل الشام فعلوا ذلك . وقد زارني في ليلة الحادثة بعض الوجهاء المحبين للمنار الذين كانوا يقرؤنه في زمن الاستبداد ونصح لي بأن اسافر ثم كتب اليَّ بعد ان عدت الى طرابلس كتابا قال فيه « واني لمخجول وايم الله من فضيلتكم ومقابلتي اياكم بدار عثمان بك تلك المقابلة لكن ربنا عليم بأني لم أحضر تلك الليلة لمقابلتكم وتكليفكم السفر الا خوفا عليكم وحفظاً لكرامتكم من سفهاء العمائم المتزيين بزين العلم والعلم بعيد عنهم بعد السماء عن الارض فترى ان الواحد منهم يظن أنه اذا كبر العمامة وطول الذقن ووسع أكمام الجبة وركب البغلة وغش البسطاء بهيكله — وان لم يكن تحت القبة ولاحبة — انه صار عالما » ومع هذا كله اقول انني لست على يقين من طعن رجل معين من أهل الشام فيَّ الا ذلك الحاقد الذي اشرت اليه آنفا، فاهل الشام ليسوا خصما لي ولا لاهل بيروت وليس أهل بيروت خصما لهم

وجملة القول ان الذين ابتغوا الفتنة من أهل الشام نفر لا يخرجون من مضيق جمع القلة ومن صدقهم من العامة يندر في الجملة وانه لم يتصد أحد من علمائهم للرد عليَّ في شيء سمعه مني أو قرأه من كلامي مظهرا نفسه مبينا اسمه وقد حضر كثير منهم درسي فان كانوا يعلمون اني أخطأت فلماذا سكتوا لي على الخطأ وقد سألت مفتيهم وكان من حاضري درسي ان يكتب اليَّ مبينا خطأي ان كنت أخطأت . سألته ذلك في مقالة نشرتها في جريدة الاتحاد العثماني واسأله هو وسائر علماء الشام ذلك

بلسان المنار وأنا أنشر لهم ما يكتبون في المنار واذعن له إن كان حقا وأبين ماعندي فيه ان كان خطأ . وهذه هي حجتي عليهم فاذا هم سكتوا عن هذا البيان فهم لا يخرجون عن أحد أمرين : إما انه لم يثبت عندهم أنني قلت شيئا مخالفا للشريعة وهذا كافٍ لتكذيب أولئك المذاعين الذين خاضوا في الاثم ، وإما انهم يكتمون الحق وهم يعلمون ولا يخفى عليهم ما ورد في القرآن والاحاديث من وعيد الكاتمين

(تنبيه) — سقط اسم السيد (حسين وصفي رضا) من ذيل مقالة التقاريظ سهوا إذ انه هو الكاتب لها

﴿ تصحيح ﴾ وقعت اغلاط في الجزئين ١١و١٢ وهذا بيانها فتصحح بالقلم :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨٠٢	١٩	لوصفهم	فوصفهم
٨٠٣	٢	المعتدلين	المعتدين
٨٠٥	١٧	نزرع	تزرع
٨٠٨	٢٤	في وعيد	من وعيد
٨١٠	٧	له	إلى
٨١٢	٢٢	يستوي	تستوي
٨١٥	٦	الذين	وهم الذين
٨٣٦	١١	كأن	لها
٨٣٧	١٢	حال	مال
٨٦٤	١٦	دونها	دونهما
٨٦٤	٢٤	الحرب	من الحرب
٨٦٥	١٩	عدد قليل	عدد غير قليل
٨٦٧	٩	التي يفرضها	التي لا يفرضها
٨٦٩	١٤	تقدم	تقوم
٨٧٠	١٢	أو اننا	واننا
٨٧٠	١٤	من	في
٨٧١	١٤	منه	مناجي
٨٧١	١٢	قال	قال له
٨٧٢	٦	ولا يراعي	.ولا يجوزان يراعي
٨٧٥	٢٥	وسبعون	وتسعون
٨٨٣	٥	هذا المتبادر	هذا هو المتبادر
٨٨٣	١٤	تتقوى	نتقوي
٨٨٤	١٥	دخلت	خلت
٨٨٥	٢٠	وقاتلوا	قاتلوا
٨٨٦	١٥	ظاهر	ظاهراً
٨٨٦	١٦	الواجب	لوجب
٨٨٧	٥	التنزيه	التنزيل
٨٨٧	١١	قالوا وفي	قالوا الواو في
٨٨٨	١٦	ويدل على	ويدل أيضا على
٨٩٢	٢٢	البشرى أو	البشرى
٨٩٦	١٥	فألحق	فالحق
٨٩٧	٢١	يكتب بعد كلمة: ويجمع هذه الفقرة (بينه وبين القول الاول)	
٩١٣	٢١	بها فكان	بها ثم جعلناها ذيلا لها ، فكان
٩١٥	٨	لحقيقة	لحقية
٩١٥	٩	العالية التي تتصل	العالية تتصل

خاتمة السنة الحادية عشرة

بحمد الله وشكره نختم السنة الحادية عشرة من سنيّ المنار ، فهي وله الشكر الاسنى ، والثناء الاوفى ، خيرسنة مرت بنا ، نعدها فاتحة حياة جديدة لنا ولأمتنا ، فكأن تلك السنين العشر ، غير معدودة من العمر ، وكأن هذه السنة الاولى من العقد الثاني للمجلة ، هي اللوءلوءة الاولى من العقد الاول لها وللملة ، كيف لاوهي سنة حكومة الشورى والدستور ، ومحو آية ليل الظلم بآية العدل والنور ، فيرى القارىء هذا المجلد من المنار طافحا باخبار الدستور العثماني ، ومجلس المبعوثان والقانون الاساسي ، وأسباب ماحدث في الدولة العثمانية من الانقلاب ، وما كان من ضروب الاحتفال ، وذكر سياحة صاحب المنار في البلاد السورية ، و بعض ماألقاه فيهامن الدروس والخطب الدينية والسياسية ، بعد ان كان ذكر اسم المنار أو صاحب المنار ، يعد من اكبر الأخطار ، حتى كان بعض محبيه يشيرون اليه بلفظ النار . وسنلم في فاتحة السنة القابلة ، بتاريخ المنار في تلك السنين الخالية ، بما يفسر بعض الاشارات ، التي تقدمت في فواتح بعض السنوات ، ونشير فيها الى مستقبله في البلاد العثمانية ، ولا سيما في الولايات العربية ، حيث كان لا يقرأه الا بعض المستعذبين لمشربه ، اذ كانت الاخطار تواثب من يطلع عليه او يتصل بصاحبه ، فصار شرَعا بين المصلحين والجامدين ، والمنصفين والحاسدين ،

ما انتقد على المنار في هذه السنة

لا اذكر وانا اكتب هذه الخاتمة في مدينة بيروت — انه انتقد على المنار شيء لم ينشر فيه الا ما كتبه الي بعض طلاب مدرسة الحقوق الخديوية ينكر فيه عليّ ما كتبته في الرد على من اقترحت بناء مدفن خاص بعظماء الرجال بمصر من انكار نصب التماثيل للموتى ، وما زعمته جريدة طرابلس الشام من أني طعنت في اهل طرابلس فيما كتبته عن سياحتي

نصب التماثيل للموتى

احتج علي طالب الحقوق بما كتبه الاستاذ الامام في رحلته الى صقلية من حكمة تحريم التصوير واتخاذ الصور والتماثيل، وانها قلع جذور الوثنية وسد الذريعة المفضية اليها . ويرى المنتقد ان هذا هو رأيي في المسألة وانني ما تشددت فيها أخيراً الا تثبيطا للذين دعوا المصريين الى الاكتتاب لنصب تمثال لمصطفى كامل لما كان بيني وبينه من الخلاف السياسي . ويرى هو ان اقامة تمثال لمصطفى كامل ولغيره مما يبيحه الاسلام اذ ليس فيه شبهة دينية . هذا مجمل ما كتبه المنتقد كما أتذكر .
فاما ما ذكر من حكمة تحريم الصور والتماثيل فقد صرحنا به في المنار قبل نشر رحلة الاستاذ الامام (بلرم صقلية) بسنين . ولو تأمل المنتقد ذلك الرد الذي بنى عليه انتقاده حق التأمل لما كتب الينا حرفا مما كتبه فان ما ذكر من حكمة التحريم اوعلته لا ينقض شيئا مما كتبناه وكذلك ما كتبه الاستاذ الامام فى رحلته لاينقض قولنا بل يؤيده ؛ فقد صرح بأن المفتي لايفتي بجواز التصوير ونصب التماثيل مطلقا

وههنا نبين للمنتقد وامثاله مسألة مهمة يغفل عنها اكثر الناس وهي ان ما كان يقوله الاستاذ الامام من الآراء الاجتهادية وما ننشره من ذلك في المنار إنما نقصد به بيان حكم الاسلام وموافقته لمصالح الناس وافضاءه الى سعادتهم ما تمسكوا به ودفع الشبهات التي ترد على أحكامه دون جعله مذهبا يقلدنا الناس فيه، الا من ظهر له الدليل على شيء فأخذ به لاعتقاده أنه هو الحق، فأولئك لايكونون مقلدين لنا وإنما يكونون متبعين للدليل الذي قام عندهم لا يخرجهم عن ذلك كوننا سبقناهم الى ذلك الدليل وهديناهم اليه . فاذا فرضنا ان ما ذكرناه من حكمة تحريم التصوير ونصب التماثيل يقتضي إباحة نصب تمثال لمصطفى كامل — وهو لايقتضي ذلك — وكان المنتقد معتقداً ذلك فهل يقول ان مسلمي مصر الذين دُعوا الى هذه البدعة قد اعتقدوا مثله إباحتها شرعا ؟ كلا . إنه ليعلم انهم يعتقدون حرمة ذلك الانفرار بما كان اعتقادهم كاعتقاده ؛ ومن دونهم آخرون قد مرقوا من الدين كما يمرق السهم من الرمية فهم لا يبالون اكان ما وافق هواهم حلالاً ام حراما !

المسلمون قسمان: الاول المقلدون للفقهاء وهم السواد الاعظم وفقهاء المذاهب الاربعة وهؤلاء يحرمون نصب التماثيل، أفليس من امتهانهم ان يدعوا دعوة عامة لعمل محرم عندهم ؟ والثاني المتبعون للدليل وإنما يعمل الواحد منهم بما يقوم عنده من الدليل فيما يتعلق بخاصة نفسه، وليس له ان يفتات على الجمهور بالعمل كأن يهدم المساجد التي على القبور لحظرها في الاحاديث الصحيحة، ولا ان ينصب لهم تماثيل فان ما يتعلق بالجمهور من شأن الحكام، ولكن له أن يبين رأيه بالدليل وان يدعو اليه ويناظر المنكر عليه فان اقنعت دعوته الجمهور عمل بها وانا نحتج على المنتقد بنفس ما احتج علينا به وهو حكمة تحريم التصوير ونحت التماثيل فنقول :

ان نصب تمثال لمصطفى كامل لا يخلو من المعنى الوثني الذي يعترف المنتقد بأنه علة حظر نصب التماثيل فان أخاه و بعض محرري اللواء غلوا في تعظيمه بالوطنية كما كان (رحمه الله وعفا عنه) يطري نفسه بذلك، فلما لم يلق غلوهم نقدا ولا اعتراضا جعلوه بعد موته قطبا من أقطاب الدين وغلوا في وصف صلاحه ومزاياه وتبعهم على ذلك بعض الشعراء الذين لا يزنون الكلام بميزان عقل ولا شرع اكتفاء بموازين العروض، وتبع هؤلاء من يتبعهم عادة فلم يمض على موت الرجل أيام معدودات إلا وصار له مثال ديني خيالي غريب، وصار بعض المارقين والجاهلين يقرنونه بالانبياء أو يفضلونه عليهم، وذكر أخوه في ترجمته انه ولد على غير الصفة التي يولد عليها البشر عادة! وانه ظهر له في طفوليته شيء من خوارق العادات كما ذكرنا ذلك في الرد على « باحثة بالبادية » التي اقترحت بناء مدفن لعظماء الرجال بمصر . أفرأيت من غلا حزبه فيه هذا الغلو، وجعلوه في هذا الأفق الخيالي من العلو، أيستغرب افتتان العامة بتمثاله في بلاد تلتمس فيها البركات، ودفع المضار وقضاء الحاجات، من نعل الكلشني و باب المتولي وشجرة الحنفي وعمود الرخام الذي في المسجد الحسيني وغير ذلك من الجمادات وكذا المائعات كزيت مسجد السيدة نفيسة و بعض الآبار العتيقة!!؟

لا أرى وجهاً في ذلك التعليل لنصب تمثال لرجل خلق له أخوه صورة دينية كصور أصحاب الآيات والخوارق، وأنشأ بعض الشعراء يخلع على هذه الصورة من

حلل الخيالات الوهمية والخرافية ما تجود به أقلامهم وناهيك بجود الشعراء في الكلام!

ان كثيرا من الأصنام التي عبدت كانت تماثيل لأناس عظمهم قومهم تعظيما دنيويا ولما طال عليها العهد عبدت وصار يتوسل بها إلى الله أو تطاب منها الحاجات ، فسدَّ الدين هذا الباب سدًّا محكما فهو لا يأذن لأحد بأن يتخذ صورة ولا تمثالا لاجل تعظيم صاحبه . ولا يقاس نصب مثل هذا التمثال على الصور والرسوم التي يستعان بها على العلوم كالطب والتشريح وعلم وظائف الاعضاء (Physiologie) أو على اللغة ليعرف الحيوانات التي وضعت لها الالفاظ من لم يكن رآها معرفة صحيحة لا شبهة فيها ، فان احالة الكثير من كتب اللغة العربية في تفسيرها على المعرفة لا يفيد فاذا قيل: النسر طائر معروف والعقاب طائر معروف ولم يكونا معروفين عندك وان هذا هو النسر وهذا هو العقاب لا يفيدك قول اللغوي شيئا ، ولا يقاس أيضا على الصور التي يستعين بها الحكام على حفظ الأمن وتربية المجرمين . فأمثال هذه الأغراض الصحيحة من التصوير هي التي كان يقول الاستاذ الامام ان الاسلام يجل عن تحريمها وأذكر انني ناظرت بعض علماء طرابلس فيها قبل هجرتي الى مصر وذكرت له خمسة مقاصد صحيحة للتصوير فوافقني على ما ذكرت من كون علة تحريم التصوير دينية وكون هذه المقاصد صحيحة لا يحرمها الشرع

انتقاد جريدة طرابلس

قرأ كثير من المنصفين ما كتبناه عن طرابلس فقالوا انه بيان صحيح لحالها واعتذار عما رمي به أهلها من اللوم والذم لذنب اتاه شقي يوجد مثله في كل بلد. ولكن تلك الكتابة ساءت نفرا من الطرابلسية فهموا انهم هم المقصودون بمن أثروا من الرشوة وأكل أموال الناس بالباطل ، فأرادوا ان ينتقموا من الكاتب بتهييج أهل طرابلس عليه وإيهامهم انه أهانهم أجمعين! وبلغني انهم كانوا يطوفون على الأدباء ويطلبون منهم ان يكتبوا في الرد على المنار ووعدت جريدة طرابلس بأن تنشر ما يرد عليها من الرد!

واتفق ان رأيت مدير جريدة طرابلس بالقرب من المحكمةالشرعيةفأخبرني بما ينكره المنكرون من عبارة المنار عن طرابلس وبأنه رد عليهم واعتذر عن المنار بقدر استطاعته مع انه موافق لهم في بعض ما انتقدوه لعدم اعتياد أهل هذه البلاد أن يسمعوا في الجرائد نقدا الا بقصد الذم والإيقاع . وعلمت منه ان أنكر ما نكروه هو حكاية قول من كتب الينا « أترك فيحاء الاشقياء » الخ وقال ما كان يجوزأن يكتب مثل هذا وان كان حكاية . فقلت لكننا نقلناه لنرده ونقول انه في غير محله . قال انهم يقولون انه طعن على كل حال لا يصح ان يذكر . فقلت وماذا تقولون في حكاية القرآن الحكيم للطعن فيه وفي النبي صلى الله عليه وسلم بمثل قوله عزوجل « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً » وقوله تعالى « وقالوا إن هذا الا إفك افتراه » الخ ؟ فسكت .

قلت ثم ماذا ؟ فذكر ما كتبته عن الجمعية الخيرية العثمانية . قلت وهذا حكاية أيضا لم أقله من عند نفسي بل لم أكن حين كتبته أعرف من أعضاء هذه الجمعية غير من أشرت اليهم . وإن ما كتبته عنها هو أقل ماسمعته وبلغني ان جمعية الاتحادوالترقي ترى أن هذه الجمعية مقاومة لها وللحكومة الدستورية فكتابتي هذه وأنا من أنصار جمعية الاتحاد تصلح ان تكون دفاعا عن جمعيتكم أو تلطيفا لما يقال عنها عند اللجنة العليا لجمعية الاتحادوالترقي في الاستانة.

قلت ثم ماذا ؟فذكر ان ما كتبناه عن الذين أقاموا المباني الجديدة في جهة التل يشعر بأنهم ماقدروا على ذلك الا بما أكلوه من الرشوة . فقلت ان هذا غير مقصود فأنا أعلم ان ثروة اكثر اصحاب هذه المباني قديمة وليست من جهة الحكومة . فاذا كانت عبارة المنار تدل على ان الذين بنوا القصور في جهة التل هم الذين أثروا من الرشوة في الحكومة فأنا أعترف بأنها لم تؤد مرادي اذ لم أرد ربط مسألة عدم وجود موارد جديدة للثروة في طرابلس غير الرشوة لبعض رجال الحكومة بمسألة العمارات في جهة التل والقبة على هذا الوجه وانما ذكرت ذلك بالمناسبة وسأراجع المنار

ثم ذكر مسألة عدم تقدم طرابلس في العلوم والتجارة وانه كتب في المنار بأسلوب فيه مبالغة وشدة في النقد لم تتعوده سوريا كما تعودته مصر . قلت أنه نقد صحيح

والغرض منه صحيح وهو ان يتنبه أهل بلدنا الى مايجب عليهم لتدارك ماأصابهم في في الايام الماضية . وان ما كتبته الآن غير كاف لأنه إشارة جاءت بطريق العرض ولا بد ان نعوّد قومنا على الانتقاد الشديد في المصالح العامة ولا خير في الجرائد التي لايكتب فيها الا المدح والاطراء ، لأجل الاستمالة والاسترضاء ، أو الذم والهجاء ، لأجل التشفي أو الايذاء ، واذا كان الناس هنا يشكون من مقال كتب لأجل الدفاع عنهم ، والرد على من أساء الظن فيهم ، فماذا يقولون اذا قرأوا مقالات طويلة في الانتقاد عليهم ، وبيان تقصيرهم في خدمة أمتهم وبلادهم ؟ ؟ وهل تكون الصحف مفيدة الا بمثل هذا الانتقاد ؟

هذا ماأتذكره مما دار بيننا وقال هو في خاتمة الكلام ماذا تأمر ان أكتب في العدد الآتي من طرابلس للتنصل من نشر مايريد نشره المنتقدون ؟ فاتفقنا على ان يكتب انني بينت له ان ما كتب في المنار لم يكن طعنا في أهل طرابلس بل دفاعا عنهم خلافا لما فهم بعض الناس وانني سأبين هذا في بعض أجزاء المنار . وقد كتب هو ذلك ونحن بينا ههنا المراد كما بيناه له وفاء بالوعد وجريا على سنتنا من نشر ماينتقد علينا

اختصار جملة الصلاة على النبي

و بلغني ان بعض الناس انتقد في المنار اختصار كلمة « صلى الله عليه وسلم » بحرف (ص) وزعم بعضهم عن غير بصيرة ولا استقراء ان هذا مطرد في المنار كلما ذكر النبي عليه الصلاة والسلام كما يطرد التصريح بكلمة «رضي الله عنه» كلما ذكر الاستاذ الامام ، والصواب الذي يراه القارئون للمنار اننا لا نذكر كلمة «رضي الله عنه» عند ذكر الاستاذ الامام مطلقا وانما تذكر في عنوان التفسير وهو سطر ثابت في المنار لا يتغير ، وأما جملة الصلاة فلا تكاد تذكر مختصرة بحرف (ص) إلا حيث تتكرر وكثيرا ماتذكر غير مختصرة . والاختصار يوفر شيئا من وقت الكاتب ومن الورق فيسع من الفوائد أكثر مما يسعه مع تكرار الجملة بنصها . وهي عادة طال عليها العهد فى كتب المسلمين ولا سيما المطبوعة فى الهند والاستانة. وكانوا يختصرون الجملة هكذا « صلعم »

فصار بعض الناس ينطق بهذه اللفظة لا بالجملة المختصرة حروفها منها فاستحسنت ان استبدل بها حرف (ص). ورأيت فى كثير من الكتب بدل (صلعم) حرفي «ع م» بمعنى عليه السلام كما يختصرون جملة «رحمه الله» بحرفي (رح) وجملة «رضي الله عنه» بحرفي (رض) والمقصود من الكتابة فهم المراد فلو أمكن اختصار كل الجمل بحروف يفهم منها المراد لما اختلف العقلاء فى العمل بهذ الاختصار ولكن هذا لايتأتى الا في بعض الجمل التي يكثر استعمالها . وقد اخترع الناس طريقة لاختزال الخط لأجل نقل الخطب وما يدور فى مجالس الحكم والعلم من الفوائد وهي خاصة بمن يتصدون لذلك كمحرري الجرائد .

دعوة المنار الى الانتقاد عليه

انا ندعو في هذه الخاتمة الى مثل مادعونا اليه في فاتحة هذا المجلد من الانتقاد على المنار ولكننا لانقبل نقدا مبنيا على مايتقوله بعض الناس على المنار، ولا نقداً يخرج فيه المنتقد عن موضوع ما ينتقده من فقره ، وإنما يقبل الانتقاد على فقرة تنقل بنصها من المنار مع بيان صفحة المجلد التي نقلت منها والاستدلال على خطإها

طلب الاشتراك وقيمته

لا تزال قيمة الاشتراك على اصلها فاننا لم نزدها وان كانت جميع الاشياء ازدادت غلاء في هذا القطر . ولكن أمرا طالما نبهنا اليه ولا يزال الناس يذهلون عنه ذلك اننا صرحنا مراراً بأن المنار لا يبعث به الا لمن يبعث بالقيمة سلفا ، واننا لا ننقص من قيمة اشتراكه شيئا لأحدما» ومع ذلك فان الناس لايزالون يسألوننا ذلك! فنحن نكرر القول هنا كما كررناه مرارا بأن الادارة لا تجيب من يسألها ذلك مطلقا

هذا واننا نختم هذا المجلد بمثل ماافتتحناه به من ذكر الله والثناء عليه عز وجل ونسأل الله ان يلهمنا الصواب ويديم علينا نعمة الاخلاص، وسلام على المرسلين ومن تبعهم بالهداية والاصلاح في الدنيا والدين ، والحمد لله رب العالمين .

منشئ المنار ومحرره

محمد رشيد رضا الحسيني

